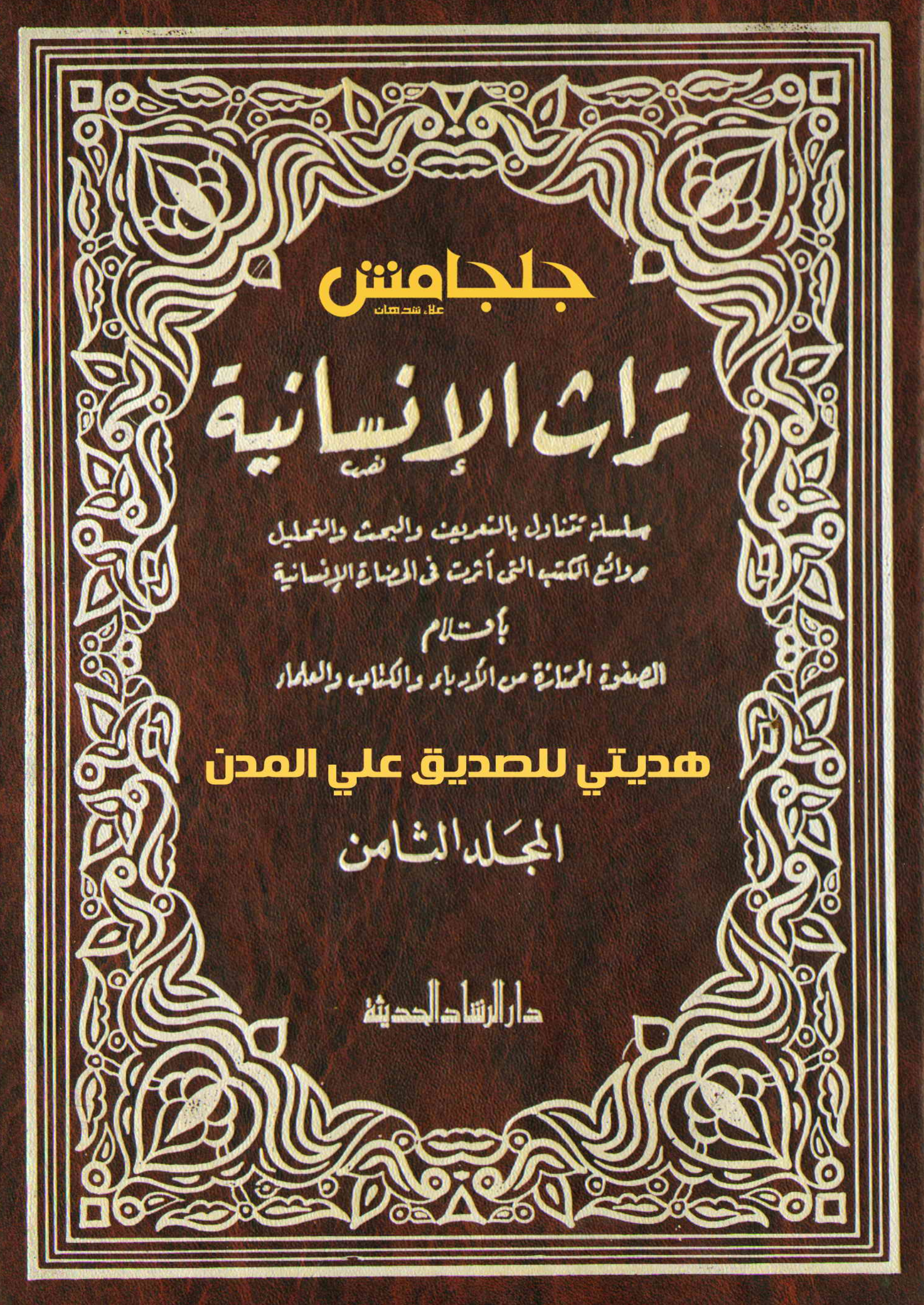


جلجامش
علاء شدهات
تراث الإنسانية
سلسلة تتناول بالتعريف والبحث والتحليل
روائع الكتب التي أثرت في الحضارة الإنسانية
بأقلام
الصفوة الممتازة من الأدباء والكتاب والعلماء
هديتي للصديق علي المدن
المجلد الثامن
دار الرشاد الحديثة

بعثة (المتحدية) للكشف العلمي للمحيطات للسير ويفيل طومسن

بقلم
الدكتور أنور عبد العليم
أستاذ ورئيس قسم علوم البحار بكلية العلوم بجامعة الاسكندرية

مقدمة

قلما تخلو مكتبة من مكتبات الجامعات الكبرى أو معهد من معاهد علوم البحار المعروفة اليوم من نحو خمسين مجلداً ضخماً تضم بين دفتيها ثلاثين ألفا من الصفحات كتبها ٧٦ عالماً وسجلت فيها بدقة وأمانة نتائج أول بعثة علمية منظمة خرجت تجوب المحيطات العظمى لمدة ثلاث سنوات ونصف السنة ، قطعت خلالها قرابة ٦٩,٠٠٠ ميل بحرى لتدرس أعماق المحيطات والخواص الطبيعية والكيماوية لمياهها ، وأحياءها الغريبة التى تعيش بين نور السطح وظلمات الأعماق السحيقة ، إلى جانب تركيب قيعان المحيطات وماعليها من جبال وهضاب أوأخوار وأخاديد . تلك هى بعثة السفينة « تشالنجر » Challenger Expedition أو « المتحدية » التى ضرب ملاحوها وعلماؤها المثل الأعلى فى الشجاعة والبطولة والمثابرة والإيثار ليحققوا للعلم نصراً مؤكداً . هذه الحفنة من الرجال عملت أغلب الوقت تحت أسوأ الظروف المعروفة فى البحر التى قد تتعرض لها سفينة تسير بالشراع كسفينتهم ، وتحملوا زمهرير البرد فى المناطق القطبية وحرارة القيظ فى الأجواء الاستوائية الخانقة بشجاعة ، ولم تكن الأجهزة والآلات التى فى متناول أيديهم متقدمة بالقدر الذى نعرفه الآن . وعلى الرغم من كل هذا فإن النتائج التى حصلت عليها البعثة ظلت ثابتة لا تتزعزع حتى اليوم ، إلا فى أحوال يسيرة . ومبلغ العظمة فى هذه البعثة أيضاً أنها أخذت على عاتقها مهمة المبادأة والتحرك السريع للكشف عن أعماق المحيطات فى وقت كانت فيه دول أخرى من شمال أوربا تفكر فى هذا العمل ، فاستأثرت وحدها بالفخر كله .

لقد أبحرت السفينة « المتحدية» من ميناء سوثهامبتون الإنجليزى فى السابع من شهر ديسمبر سنة١٨٧٢ وعادت أدراجها فى ٢٤ مايو سنة ١٨٧٦ ، ثم صدرت مجلداتها الخمسون التى أشرنا إليها فى الفترة فيما بين عامى ١٨٨٠ – ١٨٩٥ حاوية لنتائج فحص العينات التى جمعتها البعثة ووزعت للدراسة على عدد كبير من العلماء المتخصصين كل فى فرع تخصصه ، وروعى فى اختيارهم أن يكونوا من ألمع علماء العصر وأقدرهم بصرف النظر عن جنسياتهم ، ومن ثم فقد ساهم فى كتابة هذه المجلدات علماء ينتمون لجنسيات مختلفة بالإضافة إلى العلماء البريطانيين ، إلا أن مهمة الإشراف

على إصدار هذه المجلدات وتنسيقها قد وكلت على التوالى إلى عالمين بريطانيين من أعضاء البعثة هما السير ويفيل طومسن C. Wyville Thompson (١٨٨٠ — ١٨٨٢) ثم السـير جـون مرى John Murray (١٨٨٣ — ١٨٩٥) .

ولما كانت الطبعة الأولى لمجلدات هذه البعثة قد نفدت منذ زمن طويل ، فقد فكر الإنجليز مؤخراً فى إعادة طبعها مرة أخرى ، وبدأ هذا العمل منذ سنتين : هذه المجلدات الخمسون لم تكتب فى الواقع إلا للعلماء المتخصصـين ، وفيهـا وصف دقيـق للمحطات الهيدروجرافيّة وهى مليئة بالأرقام والقراءات والرسوم البيانية والمنحنيات والجداول ، وبها تسجيلات لخواص المياه الطبيعية والكيماوية ، ووصف علمى مصور للأنواع الفريدة الجديدة للعلم من عالمى النبات والحيوان ومشاهدات عن مميزاتها وتشريحها وبيئتها ، وذلك إلى جانب دراسات عميقة لجغرافية المحيطات والجزر وللتيارات والمد والجزر وللرواسب البحرية التى تكسو قاع المحيط وتوزيعها وأنواعها . . الخ :

وإلى جانب ما تقدم ذكره فقدأصدر السير ويفيل طومسن مجلدين إضافيين عقب عودة البعثة بزمن قصير (عام ١٨٧٧) دون فيهما ملخصاً ميسراً للبعثة ونتائجها العامة اعتمد فيه إلى حد كبير على يومياته التى كان يسجلها أولا بأول ، وهو ما نعرضه فى هذا المقال : وقبل أن نفعل ذلك نرى لزاماً علينا أن نستعرض فى لمحات سريعة تاريخ الكشوف الاقيانوسية قبل بعثة المتحدية (تشالنجر) حتى يتيسر لنا إدراك الأثر الذى تركته هذه البعثة فى علوم البحار :

الكشوف الاقيانوسية قبل بعثة المتحدية

إن أغلب الكشوف الاقيانوسية التى تمت قبل بعثة «تشالنجر» كانت تهدف فى الواقع إلى البحث عن طرق جديدة للملاحة والتجارة أو إلى اكتشاف أراض جديدة لم تكن معروفة من قبل . وإذا رجعنا إلى الماضى البعيد لوجدنا فى حضارة المصريين والفينيقيين القدماء كل المقومات التى تجعل منهم ملاحين مهرة لا يرهبهم ركوب البحر أو التوغل فيه . ولربما كان هؤلاء الناس أول من بنى سفناً كبيرة تستطيع التوغل فى البحر ، كما أعانهم علم الفلك الذى نبغوا فيه على الاهتداء بالنجوم فى السير فى البحر . ويحدثنا التاريخ عن قناة ملاحيـة شقها المصريون القدمـاء فى عهـد الملك سيزوستريس كانت تصل البحر الأحمر بالنيل ، كما يحدثنا أيضاً عن أنباء البعثة التى أرسلت فى عهد الملكة حتشبسوت إلىجنوب البحر الأحمر وبلاد «بنت» ثم عادت محملة بأشجار الطيب والأفاويه والعاج وريش النعام ودونت أخبارها على جدران المعابد ، هذا إلى جانب أخبار بعثة بحرية أخرى عرفت باسم بعثة « نخاو ابن بسمتيك » أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين وقد دارت هذه البعثة حول سواحل إفريقيا وعادت من الغرب عن طريق جبل طارق .

أما اليونان القدامى فقد توغلوا هم الآخرون بسفنهم فى البحر الأبيض المتوسط شرقاً وغرباً ودون هوميروس فى الياذته الكثير من هذه المغامرات كما أشرفوا على المحيط الأطلسى الذى راعتهم أمواجه فأطلقوا عليه اسم بحر الظلمات وحسبوه جزءاً من الاقيانوس العظيم المحيط إحاطة دائرية بالأرض ، ولم تجرؤ مراكبهم على السير فيه ، باستثناء ملاح منهم يدعى « بيثياس » فى القرن الرابع قبل الميلاد يقال إنه توغل شمالا فى المحيط الأطلسى حتى بلغ سواحل النرويج .

وفى عهد اليونان القدامى ظهرت الجغرافيا الرياضية والفلكية وطغت شخصية بطليموس بمصنفاته الفلكية الجغرافية على ما سواها وامتد أثرها طويلا فى العصور الوسطى : كما تقدم الهنود والفرس القدماء فى تلك العلوم أيضاً .

ثم جاء العرب وامتدت دولتهم من المحيط إلى الخليج وازدهرت العلوم على أيامهم وكانوا قد هضموا علوم الهند وفارس واليونان وزادوا عليها ، ونبغوا فى علوم الرياضيات والفلك وفى تأليف الأزياج الكبرى ، واشتهر منهم من علماء القرنين التاسع والعاشر الميلادى الخوارزمى وكان أول من عرف العرب والغرب بمنهج الحساب الهندى ثم الكندى وله رسالة « فى البحار والمد والجزر » والبتانى وابن يونس وغيرهم وغيرهم . كما أدخل العرب تعديلات هامة على « الاسطرلاب » وعرفوا « بيت الابرة » وهما من أهم أدوات الملاحة ، وبفضل هذا التقدم تجاوزت معرفة العرب لحدود العالم الذى عرفه اليونان من قبل وتوغلوا فى البر والبحر أكثر مما توغلت الأمم التى سبقتهم ، فعرفوا سواحل آسيا حتى كوريا الشمالية والمحيط الهندى بأسره وأرخبيل الملايو ، ويقال إنهم داروا حول إفريقيا من الشرق إلى الغرب .

وصنف منهم فى الجغرافيا الطبيعية والوصفية والفلكية الكثيرون من أمثال ابن خرداذبة واليعقوبى والمسعودى والاصطخرى وابن حوقل والمقدسى والبيرونى والقزوينى والإدريسى وابن بطوطة وغيرهم وغيرهم ممن أثروا الفكر الأوربى فيما بعد لقرون طويلة .

كما نبغ من الملاحين العرب ربابنة مهرة من أمثال أحمد بن ماجد النجدى (القرن التاسع وأوائل العاشر الهجرى) وهو الذى أرشد أسطول فاسكو دى جاما من ساحل إفريقيا الشرقى إلى الهند ومؤلفاته وأراجيزه فى علوم البحار والجغرافيا الملاحية مثل « حاوية الاختصار فى أصول علم البحار » و « كتاب الفوائد » تعد بمثابة المرشدات البحرية للملاحة فى المحيط الهندى أو « البورتولانات » Portulans كما عرفها الغرب . وكان هذا الملاح العظيم يلقب بالمعلم لمهارته . وليس أدل على سيادة العرب فى الملاحة من أن فاسكو دى جاما الملاح البرتغالى قد عدد فى عام ١٤٩٧ من السفن العربية إلى الشمال من موزمبيق نحو ١٥٠٠ سفينة . وعنها يقول « ويحمل الربابنة (العرب) بوصلات لتوجيه السفن وآلات للرصد وخارطات بحرية » .

ومن قبل ابن ماجد بزمن طويل أيضاً تحدثنا المخطوطات عن رحلة « التاجر سليمان » (٨٥١ م) الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى وفيها وصف ممتع للمناطق بين سيراف وكانتون وللظواهر الجوية كالزوابع والأنواء الحلزونية المعروفة فى بحر الصين والفلبين ولغريب حيوانات البحر ووحوشه بما فيها الحيتان . ومن القرن التاسع الميلادى تأتينا من ناحية أخرى أنباء مغامرات الملاحين النرويج المعروفين بقبائل الفيكنج ومحاولتهم الوصول إلى جرنيلاندة وأمريكا وقد تحدثنا عنهم بما فيه الكفاية فى مقال نانسن والأصقاع الشمالية الذى نشر من قبل فى « تراث الإنسانية »[1] .

وما إن دالت دولة العرب فى الأندلس فى أواخر القرن الخامس عشر حتى رجحت كفة البرتغال فى السيادة البحرية فى الغرب وإن كان العرب لا يزالون حتى ذلك الوقت مسيطرين على زمام الأمور فى المشرق. فاكتشف كولمبس جزر الهند الغربية فى عام ١٤٩٢ ودار ماجلان حول الأرض بين أعوام ١٥١٩ — ١٥٢٢ م ومما يؤثر عن هذا الملاح الأخير أنه اعتقد بأن أعمق بقعة فى المحيطات تبلغ ٧٠٠ متر ، وتقع بين جزيرتى سان بول وتيبوروس فى المحيط الهادى وتبين فيما بعد أن العمق الحقيقى لهذا الغور يزيد عشرة أضعاف عن ذلك ولكن محاولة ماجلان كانت الأولى من نوعها على أية حال .

ثم إن علم الخرائط كان متقدماً فى إيطاليا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى ثم انتقلت هذه الشهرة إلى إسبانيا فى القرن السادس عشر وأصبحت

(١) العدد ٤ مجلد ٣ لسنة ١٩٦٥ .

لهذه الدولة هى الأخرى السيادة البحرية لفترة طويلة من بعد ذلك ، وإن ظلت هولندا تنافسها فيها من آن لآخر .

ويعزى ابتكار آلة « السدس » إلى اسحق نيوتن وبفضل هذه الآلة أمكن تحديد المواقع البحرية بدقة ، كما تمكن الفرنسى « بوشيه » من ابتكار فكرة خطوط الأعماق المتساوية وتمثيلها على الخرائط البحرية .

وفى القرن الثامن عشر انتقلت السيادة البحرية إلى الإنجليز فمسح جيمس كوك السواحل حول أستراليا ونيوزيلاندة فى الفترة بين ١٧٦٩ — ١٧٧٢ كما اكتشف جزر ساندوتيش فى المحيط الهادى . وكان الدافع إلى التوغل فى البحار الجنوبية فى تلك الفترة هو الاعتقاد فى نظرية قديمة تقول بوجود أراض مجهولة ذات مساحات شاسعة لم تعرف بعد فى نصف الكرة الجنوبى لتحدث التوازن بين مساحة اليابسة والمساحة المغطاة بالماء وهى الأراضى التى كانت تسمى باسم Terra incognita australis وفى الفترة بين ١٨٣٩ — ١٨٤٣ م اكتشف السير جيمس كلارك روس الإنجليزى مزيداً من المناطق والجزر غير المعروفة فى البحار الجنوبية أيضاً وتمكن من قياس عمق المحيط إلى ٢٤٢٥ قامة .

ويعزى إلى البارون بلنجهاوزن الروسى أنه كان أول من رأى شواطئ القارة المتجمدة الجنوبية وذلك فى عام ١٨٢٠ .

وفيما يتعلق بدراسة الظواهر الطبيعية والبيولوجية للبحر بالإضافة إلى الملاحظات التى تقدم ذكرها عن قياس الأعماق وعن المد والجزر وعن الأعاصير والزوابع البحرية وعن غرائب حيوان البحر وحيتانه التى وردت فى كتب الأقدمين — نجد أن الدراسات العلمية قد اتخذت شكلا آخر منذ أوائل القرن الثامن عشر وإن سارت ببطء شديد هى الأخرى وأول دراسة منظمة من هذا النوع قام بها الكونت لويجى فرناندو مرسيلى فى عام ١٧٣٥ م فى خليج مرسيليا ، إذ قاس الأعماق ودرجة حرارة الماء وملوحته كما اختبر طبيعة القاع واستعمل أنواعاً من الشباك البدائية والجرافات فى استخراج العينات من قاع الخليج الضحل نسبياً . وقد كتب هذا الباحث رسالة بعنوان « التاريخ الطبيعى للبحر » وكان أول من عارض مبدأ « البحر ليس له قرار » .

وفى عام ١٧٧٠ أصدر بنيامين فرانكلين فى أمريكا خريطته المشهورة لتيار الخليج لأول مرة . كما قام « مورى » Maury عالم الأرصاد الأمريكى بعد ذلك بنحو قرن من الزمان بدراسة أكثر تفصيلا لتيار الخليج وللعوامل الطبيعية الأخرى فى البحر كالرياح والتيارات ودرجات الحرارة . وألف عن ذلك كتابه المشهور المسمى « بالعوامل الطبيعية للبحر » كما دعا إلى تأسيس الجمعية الدولية للملاحة والأرصاد الجوية ونظم أول مؤتمر لها من نوعه فى بروكسل ببلجيكا فى عام ١٨٥٣ .

وفى عام ١٨٦٥ تمكن عالم دانمركى يدعى فورشهامر من تحليل عينات من ماء البحار والمحيطات بدقة واكتشف حقائق قيمة عن نسبة الأملاح إلى بعضها فى ماء البحر ، ساعدت مستقبلا على ابتكار طريقة لتقدير درجة ملوحة البحر .

ولا يفوتنا أن ننوه فى ختام هذه العجالة بفضل صيادى الحيتان الذين جابوا البحار القطبية الشمالية والجنوبية من دول اسكندناوة وإنجلترا وأمريكا مقتفين أثر الحوت ، وما جمعوه من معلومات ومشاهدات قيمة عن الشواطئ والجزر وعن خواص البحار التى جابوها مما كان له أثر أيضاً فى تراكم المعلومات عن البحار والمحيطات حتى القرن التاسع عشر الميلادى .

استكشاف الأعماق

وعلى الرغم من كل هذه المشاهدات السطحية للظواهر الطبيعية والبيولوجية فى البحر فقد ظلت أعماق

البحار سراً لا يعرف الناس عنه شيئاً لأجيال طويلة . وما برح العلماء أنفسهم حتى منتصف القرن التاسع عشر يعتقدون بأن قاع البحر فى الأغوار السحيقة مجدب قاحل لا أثر للحياة فيه . وكان هذا الأمر فى حد ذاته حافزاً من الحوافز التى عجلت تجهيز بعثة علمية كبعثة « المتحدية » لاستكشاف هذه الأعماق .

ويسرد السير ويفيل طومسن فى كتابه عن البعثة تتابع الحوادث التى أدت إلى اختمار فكرة القيام ببعثة لاستكشاف الأعماق فى ذهنه فيقول : « بدأت هذه الحوادث بتنفيذ الشركات لمشروع جليل هو مـد « كابلات » التلغراف على قاع المحيط ليصل بين الدنيا الجديدة والدنيا القديمة (فى منتصف القرن التاسع عشر) . فقد لفت هذا المشروع نظر العلماء إلى منطقة طالما كانت مبعثاً لكثير من الروايات والأساطير ، ألا وهى قاع البحر العميق . وكانت أول معالم الطريق إلى هذا العالم الغريب المغمور تحت سطح الماء هى بطبيعة الحال القيام بجسات لتحديد الأعماق ، ثم أعقبها نجاح العلماء فى الحصول على فتات صغير من رواسب الأعماق لمعرفة تركيب قاع البحر .

وبينما كانت الأمم تسعى لتقريب المسافات بينها وتحقيق الاتصال التلغرافى عبر المحيط ، كان هناك فريق آخر من العلماء يعيش فى عالم آخر ، لا يعنيهم شىء قدر معرفة أنواع الحياة البسيطة والمعقدة التى تعمر الأرض والمحيطات . وكانت وسائلهم فى جمع هذه العينات من المحيطات محدودة للغاية . ومن ثم نشأ الاعتقاد بأن الحياة على قاع البحر لا يعدو توزيعها سوى نطاق ضيق يحيط بالسواحل حتى عمق محدود ، تنعدم بعده الحياة كلية ؛ أما الحياة النباتية فى البحر فتنعدم على أعماق مائة قامة وأما الحيوانات فتندر ندرة عجيبة بعد هذا العمق ولا يمثلها سوى الكائنات الأولية بسيطة التركيب . وتبدأ منطقة العدم أو « اللاحياة » على أعماق تزيد على ٣٠٠ قامة » .[1]

« ثم جاء عـالم يدعى « واليش » Wallich (١٨٦٠ م) كان يعمل على مركب من مراكب مد أسلاك التلغراف على قاع البحر ، وحدث بأن نجوم البحر التى استخرجها من عمق ١٢٠٠ قامة كانت معدتها تحتوى على أنواع من الكائنات الأولية الدقيقة مما زعزع الاعتقاد السائد بأن قاع البحر مجدب قاحل . ولم يتقبل الناس بطبيعة الحال هذا الرأى بسهولة على أساس أن الأحوال السائدة فى الأغوار البعيدة لا تساعد بحال من الأحوال على قيام الحياة . وعلى الرغم من أن مثل هذه الأحوال كانت فى حكم المجهولة إلا أنه كان من الممكن التكهن ببعضها بالحساب . ومن ذلك أن الضغط يزداد بزيادة العمق حتى إن الكائن الحى الذى قد يعيش على عمق ٣٠٠٠ قامة يتعرض جسمه لضغط يعادل ثلاثة أطنان على البوصة المربعة ! وكان مجرد التفكير فى مثل هذا الأمر يجعل العلماء يترددون فى بحث أمر الحياة على الأغوار البعيدة !

ثم جاءت بعد ذلك بارقة من الأمل أنبأت عنها بحوث العلماء فى اسكندناوة ، فقد أدلى هؤلاء العلماء بجرافاتهم إلى أعماق تتراوح بين ٣٠٠ — ٤٠٠ قامة فى البحار الشمالية وتمكنوا من استخراج أنواع مختلفة من الحيوانات البحرية . وكانت هذه التجربة بمثابة ضربة قاضية على المدرسة الانجليزية التى اعتنق علماؤها نظرية « اللاحياة » حتى ذلك الوقت » .

وكان ذلك حافزاً لعالم اسكتلندى من علماء الحيوان فى أدنبرة يدعى ويفيل طومسن الذى أوردنا كلامه فيما

---

(١) من العلماء الذين نادوا بهذا الرأى عالم الحيوان الانجليزى المشهور « ادواردفوربس » E. Forbes الذى قام بدراسات على أحياء القاع ببحر ايجة باليونان عام ١٨٤٠ — ١٨٤١ م واعتقد بأن الحيوانات البحرية تقل فى العدد والتوزيع بزيادة العمق حتى تنعدم كلية بعد عمق ٣٠٠ قامة .

تقدم ولزميل له يدعى كاربنتر على التقدم فى عام ١٨٦٨ إلى الجمعية الملكية بلندن بالتماس لتمنحهم الأميرالية التسهيلات اللازمة لبحث موضوع العوامل الطبيعية والبيولوجية على قاع البحر فى المناطق العميقة. وأجيب العالمان إلى طلبهما ووضعت البحرية تحت تصرفهما مركباً صغيراً قديماً أجريا عليه اختباراتهما فى المنطقة الواقعة بين سواحل اسكتلندا وجزر فارو لمدة شهرين متتابعين تحت ظروف قاسية فى البحر. وكان جزاؤهما من هذه التجارب حصيلة من الحيوانات المختلفة جمعاها بالجرافات من أعماق تزيد على ٦٠٠ قامة لأول مرة، وقد خيل للعالمين فى ذلك الوقت أن هذه الحيوانات تربطها صلات بأنواع الحيوانات المنقرضة، كما فوجئا بحقيقة أخرى توصلا إليها عن طريق قياس درجات الحرارة على الأعماق البعيدة، وهى أن درجة حرارة الماء على الأعماق البعيدة ليست كما كان يظن الجميع بأنها درجة ٤ م بل إنها لتزيد أو تنقص عن ذلك تبعاً للظروف. وبناءعلى هذه التجربة قرر العالمان بأن أعماق البحار فيها طبقات مختلفة من المياه تحتفظ كل طبقة منها بخصائص معينة من حيث توزيع الحرارة وتعيش فيها أنواع من الحيوانات تتلاءم مع درجات الحرارة السائدة فى كل طبقة، كما أثبتا أيضاً بأن ماء البحر بين السطح والقاع يحتوى على مواد عضوية ذائبة أو معلقة فيه.

وقد حفزت هذه النتائج المبدئية ويفيل طومسن وزميله على تكرار هذه التجارب خلال فصل الصيف التالى ووضعت الأميرالية هذه المرة تحت تصرفهما لهذا الغرض مركباً أحسن حالا من زميلتها الأولى. وساعدهما الحظ أيضاً فى هذه المرة فقد كان الطقس ملائماً فتمكنا من استخراج حيوانات حية بالجرافة من عمق لم يتوصل إليه أحد سواهما من قبل وهو عمق ٢٤٣٥ قامة!

وفى هذه الأثناء أدخلت تعديلات هامة على ترمومترات الأعماق وذلك باحاطتها من الخارج بجدار آخر من الزجاج السميك وكان زجاجها من قبل يتأثر بالضغط السائد على الأعماق البعيدة فيعطى قراءات غير دقيقة. وقد استرعت هذه البحوث عن الحياة فى الأعماق البعيدة انتباه الرأى العام كما استرعت انتباه الشركات التى كانت تعمل فى مد خطوط التلغراف على قاع البحر وكان يهمها معرفة طبيعة هذا القاع وتركيبه ومدى تأثر أسلاك التلغراف بالحرارة وبأنواع الحيوانات التى تنمو عليها من الخارج وذلك إلى جانب تحديد العمق بدقة.

تجهيز البعثة

وتشجع «ويفيل طومسن» و «كاربنتر» على أن يعدا العدة لبعثة طويلة الأمد للكشف العلمى عن أعماق المحيطات وبخاصة بعد أن فشلت محاولات بعض دول أوروبا فى تجهيز بعثات مماثلة. وكتب الدكتور كاربنتر خطاباً بهذا المعنى لقائد الأسطول فأعدت البحرية مذكرة بالموضوع عرضت على «لوردات البحرية» الذين أبدوا استعدادهم لتجهيز البعثة إذا جاء الاقتراح من الجمعية الملكية.. وفيما يلى مقتطفات من خطاب الدكتور كاربنتر المؤرخ ١٥ يونيه سنة ١٨٧١ إلى الجمعية الملكية بلندن وقد أرفقه بنسخة من مجلة «نيتشر» العلمية[1] تعزز رأيه.

«.. إن ما نمى إلى علمنا مؤخراً حول نشاط بعض الدول الأخرى لاقتحام ميدان الكشوف العلمية الطبيعية والبيولوجية لأغوار البحر ليحملنا على تنبيه حكومتنا إلى أن الوقت قد حان لضرورة إعداد برنامج علمى أكثر استكمالا وتنظيما مما نفذناه بغية دخول هذا الميدان الجديد.. كما ينبغى أن تدرج الاعتمادات اللازمة (لمثل

(١) مجلة Nature مجلة علمية تسجل فيها ملخصات من نتائج البحوث الهامة قبل نشرها بالتطويل.

هذه البعثة) فى ميزانية العام القادم منذ الآن دون تأخير إذا أريد تنفيذ مثل هذا البرنامج .. وإنى أقترح أن يقوم مجلس الجمعية الملكية بالمبادرة ويتبنى هذا الموضوع – وهو الذى عمل دائماً على تشجيع العلوم وتقدمها فى بلادنا – فيعين لجنة لوضع خطة العمل بالاتفاق مع رئيس المجمع العلمى ورؤساء الجمعيات العلمية الكيماوية والجغرافية والجيولوجية والزولوجية وجمعية لينيوس . بحيث تكون الخطة جاهزة للعرض على الحكومة فى نهاية شهر نوفمبر القادم » .

وقد لقى هذا المطلب استجابة وفى ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٧١ شكلت لجنة من رئيس الجمعية الملكية ومن الدكتور كاربنتر وفرانكلاند وهوكر وهاكسلى والدكتور ويفيل طومسن وضم إليها أعضاء عن البحرية كما فوضت لتضم من تراه إلى عضويتها .

وفى آخر نوفمبر من نفس العام كانت اللجنة قد انتهت من إعداد تقريرها وأوصت بضرورة تهيئة سفينة تتحمل السير فى البحر لمدة أربع سنوات متصلة ، وعليها من المؤن والمعدات والتجهيز المعملى ما يكفى لتحقيق أغراض البعثة . وقد وقع الاختيار بالفعل على سفينة حربية تدعى المتحدية (تشالنجر) H.M.S. Challenger حمولتها ٢٣٠٦ طناً تسير بالشراع وعليها ماكينة إضافية تعمل بالبخار قوتها ١٢٣٤ حصاناً لتنفيذ هذه المهمة ، وأختير لقيادتها القبطان ناريس G. Nares وهو رجل كفء على جانب كبير من الخبرة بأعمال المسح البحرى . ويساعده طاقم من الضباط والمهندسين عددهم ٢٢ رجلا[1]. أما مجموعة العلماء فقد رشحتهم الجمعية الملكية وربطت مرتباتهم وذلك على الوجه التالى :

الدكتور ويفيل طومسن	: رئيساً علمياً للبعثة بمرتب سنوى قدره ١٠٠٠ جنيه
المستر وايلد	: سكرتيراً للرئيس ورسام البعثة ومرتبه السنوى ٤٠٠ ج
المستر بوكانان	: كيماوى بمرتب ٢٠٠ جنيه
المستر موسلى	: للتاريخ الطبيعى بمرتب ٢٠٠ جنيه
المستر جون مرى	: للتاريخ الطبيعى بمرتب ٢٠٠ جنيه
الدكتور فون فليموس سوم	: للتاريخ الطبيعى بمرتب ٢٠٠ جنيه

ويلاحظ أن الأخير هو من علماء النمسا ووقع الاختيار عليه فى آخر لحظة بعد أن اعتذر عالم بريطانى يدعى سترلينج عن الانضمام للبعثة بعد ترشيحه . هذا وقد أدخلت بعض التعديلات على السفينة لتلائم المهمة الجديدة التى أسندت إليها فأزيل ستة عشر مدفعاً من مدافعها الثمانية عشر وعدلت مقصوراتها وحولت صالاتها لمعامل للبحث والدراسة وركبت عليها أوناش وآلات جديدة وأضيفت إلى حجراتها معامل جديدة كما روعى أن تثبت جميع الأجهزة والآلات المعملية بما يضمن عدم قلقها أثناء اضطراب البحر . كما زودت مخازن السفينة بجميع ما يحتاج إليه العمل بالبحر من أدوات ورتب كل صنف منها فى صناديق خاصة وذلك إلى جانب آلاف من صناديق الزجاجات والأوانى لحفظ العينات وأوعية ملأى بالفورمالين والكحول لحفظها . وحملت السفينة على ظهرها أيضاً أطناناً من الحبال المختلفة السمك والطول لشتى الأغراض ، من بينها نحو ٢٥٠٠٠ قامة من حبال الكتان المتينة لجر الجرافات وحبل طوله ١٠,٠٠٠ قامة لسبر الأعماق وغيرها متعددة الطول والسمك للعمليات الثقيلة والخفيفة هذا فضلا عما اشترته المركب أثناء وقوفها بالموانى من

(١) بخلاف بحارة السفينة وعددهم ٢٤٠ رجلا توفى منهم فى الطريق أحد عشر بحاراً وغادر منهم السفينة فى الموانى المختلفة ١٥ بحاراً نتيجه المرض .

حبال إضافية . ولقد اتبعت السفينة فى سبر الأعماق نفس الطريقة التقليدية القديمة التى تعتمد على ربط ثقل بحبل وإدلائه إلى القاع مع تعديلات بسيطة تلائم العمل فى الأعماق البعيدة وزود الثقل أيضاً بأنبوبة معدنية تغوص قليلا فى رواسب القاع لتجمع عينة منها . والطريقة المشار إليها متعبة للغاية وتستنفد الكثير من الوقت عند جس الأعماق البعيدة . ويكفى أن تقول إن سبر غور قاع على عمق ٤٠٠٠ قامة كان يقتضى يوماً بأكمله من أيام عمل البعثة ، هذا فضلا عن عدم دقة العمق المسجل بهذه الطريقة لانحراف الحبل بوساطة التيارات تحت الماء .

هذا وقد زودت السفينة بقوارب مساعدة يعمل بعضها بالمحركات لتيسر الدراسة فى المناطق الضحلة وحول الجزر .

وما أن تمت كل هذه الاستعدادات حتى أبحرت السفينة كما أشرنا من ميناء سوثهامبتون بين دقات الطبول وعزف الموسيقى وتوديع الأهالى ، وعشية ابحارها تفقدها « لوردات البحرية » وبعض الوزراء . وجدير بالذكر أن البعثة المذكورة فقدت فى رحلتها الدكتور فون فليموس سوم النمسوى وكان قد أصابه المرض فى الطريق بين جزر هوائى وتاهيتى ، كما فقدت اثنين من ضباطها أيضاً .

ومن عجب أن هذه الفئة القليلة من العلماءعلى سطح السفينة تمكنوا من جمع ذخيرة من العينات والمعلومات وسعتها المجلدات الخمسون وكانت فى حد ذاتها فتحاً جديداً للعلم .

خط السير وخطة العمل

ورد فى تقرير اللجنة الرسمية التى عهد إليها أمر وضع برنامج العمل للبعثة بأن « الغرض الأساسى لها يتضمن بحث العوامل الطبيعية والبيولوجية لأحواض المحيطات العظمى » كما رسمت اللجنة المذكورة خط سير السفينة وحددت برنامج العمل على الوجه الآتى :

« تتجه السفينة من ميناءسوثهامبتن إلىسواحل البرتغال وأسبانيا ثم تعبر المحيط الأطلنطى من ماديرا إلى جزر الهند الغربية ومن ثم تتجه إلى جزيرة برمودا ومنها إلى جزر الأزور والرأس الخضراء ثم تيمم شطر سواحل البرازيل وأمريكا الجنوبية ثم تعبر الأطلنطى مرة أخرى من الجنوب إلى رأس الرجاء الصالح . ومن هناك تتجه إلى جزر مريون والكروزية وكيرجولين ثم إلى أستراليا ونيوزيلاندة وتواصل السير إلى الجنوب من منتصف المحيط الهندى حتى تقترب قدر الإمكان وفى الحدود التى تتطلبها سلامة المركب من حواجز الجليد على شواطئ القارة المتجمدة الجنوبية .

ومن نيوزيلاندة تخترق السفينة بحر المرجان ومضيق توريس وتتجه غرباً حتى تصل إلى ما بين جزيرتى بالى ومليوك ومن هناك إلى جزر السلبيز وبحار السولو ثم إلى مانيلا . ومن مانيلا تتجه السفينة شرقاً فى المحيط الهادى وتزور غينيا الجديدة وجزر السلمون . ثم تواصل رحلتها إلى اليابان حيث تمضى بعض الوقت هناك .

ومن اليابان تعبر السفينة المحيط الهادى إلى جزيرة فانكوفر ثم تتجه جنوباً إلى الحوض الشرقى لهذا المحيط وتعود إلى الجزر البريطانية من حول رأس هورن (فى جنوب أمريكا الجنوبية) .

ومن ثم يتضح أن خط سير السفينة يكون قد شمل المحيطات العظمى الثلاثة وهى المحيط الهادى والمحيط الأطلنطى والمحيط الهندى إلى جانب المحيط الجنوبى العظيم الذى يتكون من تلاقى المحيطات الثلاثة الكبرى فى نصف الكرة الجنوبى وتكون السفينة قد مست أيضاً سواحل القارة الجنوبية المتجمدة .

إن هذا الطريق ليهيئ الفرصة لدراسة العديد من ظواهر المحيطات الكبرى بما فيها تيار الخليج والتيارات

الاستوائية وكذلك لدراسة الأحوال البيولوجية لبحر الأنتيل وحيوانات المياه العميقة فى جنوب الأطلنطى التى لا تزال مجهولة حتى اليوم ، وذلك بالإضافة إلى القيام بدراسات هامة عن الأحياء التى تعيش على حواف البحر الجنوبى » .

ويضيف التقرير بأن أهمية خاصة يجب أن تعطى للدراسات النباتية والحيوانية على جزر مريون والكروزية وكيرجولن أو لأية مجموعات أخرى من الجزر يحتمل العثور عليها فى المنطقة الواقعة جنوب شرقى رأس الرجاء الصالح . ومن المحتمل أن يكتنف البحث فى تلك المناطق صعوبات جمة إلا أننا يجب ألا نغفل عن أن « الفونة »[1] البحرية لهذه المناطق تعتبر فى حكم المجهولة كما يحتمل أن توجد أوجه شبه بينها وبين « فونة » العروض المتطرفة فى نصف الكرة الشمالى ، وقد لا تسنح فرصة أحسن من هذه الرحلة لدراستها وكل إضافة جديدة عنها تعتبر إضافة قيمة للعلم .

« ولنفس هذه الأسباب أيضاً يجب أن تعرج البعثة قدر الامكان على جزر « أوكلاند وكامبل » وبصفة خاصة على جزر الماركيز وفيجى وفريندلى إذ من المتحمل أن توجد حيوانات المنطقة القطبية الجنوبية هناك على أعماق قليلة نسبياً . . . » .

وينوه التقرير أيضاً بضرورة القيام بدراسات عن تركيب الشعاب المرجانية وجمع مزيد من الصخور والمعادن ودراسة التيارات البحرية والاهتمام بالجغرافيا الطبيعية وتوزيع الأحياء فى النصف الشمالى للمحيط الهادى ، وكل هذا بالإضافة إلى القيام بدراسات أنثروبولوجية وأثنولوجية لشعوب جزر المحيط .

هذا وقد احتوى برنامج الرحلة على تفصيلات لأقسام الدراسات المختلفة نجملها فيما يلى :

أولا — الدراسات الطبيعية :

تقوم البعثة خلال عبور أحواض المحيطات العظمى بجمع المعلومات من محطات محددة الموقع بدقة . بين كل محطة وأخرى مسافة معقولة . وفى كل محطة منها « يوقع » الوقت وحالة البحر ودرجات الحرارة على السطح وفى الأعماق المختلفة . كما تقاس كثافة المياه ويرصد العمق وطبيعة القاع . وتؤخذ عينة من القاع بالجرافة كلما سمحت الظروف . وفى مسار التيارات تقاس درجات الحرارة على الأعماق : صفر ، ١٠ ، ٥٠ ، ١٠٠ قامة . ولتقدير أعماق المحيطات المقام الأول فى أعمال البعثة ومن ثم فيجب قياسها فى جميع الأحوال الممكنة حتى ولو لم تكن الظروف لتسمح بالقيام بعمليات أخرى سوى ذلك . إن معرفة « كونتورات الأعماق » فى المحيطات لتلقى الضوء على المشاكل المتعددة المتعلقة بالتاريخ القديم لكوكب الأرض وجغرافية المحيط فى الأحقاب الجيولوجية المختلفة ، كما تلقى الضوء على مشاكل التوزيع الجغرافى المعاصر للحيوانات والنباتات البحرية وعلى طبيعة دورة المياه .

وتمثل درجات الحرارة على منحنيات بيانية ليسهل مقارنتها وتجميع معلومات عن شدة الريح واتجاهها وعن التيارات السطحية وسرعتها واتجاهها وعن درجة رطوبة الجو . ولدرجات حرارة الماء على الأعماق المختلفة أهمية كبرى فى تمييز الطبقات المختلفة من المياه . ويضيف طومسن : « ومن خبراتنا فى شمال الأطلنطى وجد أن درجة الحرارة على أعماق تزيد على ألف قامة لا تزيد عن الصفر (المئوى) كثيراً » .

وثمة مسألة احتمال صعود المياه الثقيلة إلى أعلى (ضد قوى الجاذبية) عندما يصطدم تيار قاعى بجرف أو جبل يعترض مساره وهى مسألة ثار حولها جدل كبير . وجزر « الأزور » من أحسن المواقع التى يمكن اختبار هذه المسألة عندها . ولتقدير درجات الحرارة

(١) « الفونة Fauna » هى مجموعة الحيوانات التى توجد فى منطقة من المناطق مرتبة حسب التقسيم الطبيعى لعائلات عالم الحيوان ، ويقابلها لفظ فلورة Flora بالنسبة للنباتات .

على الأعماق المختلفة وبخاصة فى البحار الجنوبية أهمية كبرى أيضاً فى تحديد التيارات الباردة أو الدافئـــة ومساراتها .

ولدراسة حركات المياه السطحية والعميقة أهمية كبرى فى فهم الدورة العامة للمياه فى المحيطات وعما إذا كانت هناك تيارات عميقة من الأحواض القطبية نحو خط الاستواء . ولا يجب أن ندع فرصة تمر دون أن تسجل مشاهدات عن المد والجزر فى أية بقعة من العالم . كما تؤخذ قراءات دقيقة لمستوى سطح البحر مرة فى كل ساعة قمرية[1].

وتقدر كثافة المياه السطحية والعميقة بدقة مع استعمال الميزان الحساس كلما اقتضى الأمر ، كما تقدر درجة شفافية المياه مع تسجيل حالة السماء وارتفاع الشمس فى الأفق وقت القياس .

ولما كان الأستاذ « شوف » قد نشر بحثاً قيما فى عام ١٨٣٢ عن العلاقة بين قراءة البارومتر عند مستوى سطح البحر وبين خط العرض فعلى البعثة أن تحقق هذه العلاقة .

ثانياً – الدراسات الكيميائية :

وتتضمن التعليمات الخاصة بهذا القسم معلومات عن طريقة جمع عينات المياه وحفظها وتحليلها وتقدير درجة ملوحتها وكذلك تقدير الغازات الذائبة فى ماء البحر وتلك التى تحتويها المثانات الهوائية للأسماك حال استخراجها بالشباك .

ثالثاً – الدراسات النباتية :

ويجمـــل البرنامج وظيفة عالم النبـــات على السفينة فى أمرين أولها أن يجمع مجموعات كاملة من نباتات المناطق التى تزورها البعثة ويحفظها كما يدون ملاحظات عن النبات الحى وتركيبه وبيئته وأطواره كلما اقتضى الأمر ذلك . وعلى الضباط والبحارة أن يعاونوه على أداء مهمته فى الحالة الأولى .

ويلاحظ أن دراسة النباتات على الجزر المعزولة فى وسط المحيط لها أهمية خاصة بالنسبة للتطور ، فبعض هذه النباتات تمثل الأثر الباقى من « فلورة » منقرضة كما هى الحال على جزيرة سانتا هيلينا فى المحيط الأطلنطى وبعضها الآخر يمثل أنواعاً متطورة ، مع الاهتمام بدراسة نباتات كل جزيرة على حدة من مجموعات الجزر المختلفة . كما أن الكثير من الجزر التى ستمر عليها البعثة لا تزال نباتاتها مجهولة . ثم يعدد البرنامج بعد ذلك أسماء الجزر والمناطق التى يجب أن يعتنى بدراستهـــا من الوجهة النباتية فى المحيطات الثلاثة الكبرى وعلى سواحل أستراليا وفى أرخبيل الهند ، ومنها فى الأطلنطى جزر : الرأس الخضراء وترتسيان دى كونها وترينيداد (والساحل الإفريقى بين مراكش والسنغال)، وفى المحيط الهندى جزر :سيشيل وأميرانتى ومدغشقر وسوقطرة بالإضافة إلى الساحل الشرقى لأفريقيا شمال إقليم ناتال . أما فى المحيط الهادى فتهتم البعثة بشمال اليابان وكوريل وجزر اليوشن فضلا عن المناطق المدارية مثل جزر فيجى وتاهيتى ومارشال وسلمون وكارولينا وذلك بالإضافة إلى شواطئ المكسيك وأمريكا الجنوبية بين ليما وفالبريزو :

كما يراعى تصوير النباتات بالفوتوغرافيا أو رسمها رسما دقيقاً وتعطى عناية خاصة لموضوع إنبات البذور بعد تعرضها لماء البحر وعن طرق انتشار النباتات المختلفة :

ثم يدخل البرنامج بعد ذلك فى تفاصيل دقيقة كأن ينوه مثلا بجمع النباتات من أماكن بعينها على الجزر أو الاهتمام بشجرة خاصة مجهولة النوع ويطلب المزيد من العينات منها أو بزيارة تلك الجزر فى مواسم غير تلك المواسم التى سبق أن جمع الرحالة منها عينات ، مع العناية بجمع النباتات الطبية والنباتات اللازهرية

(١) الساعة القمرية تساوى ساعة واحدة شمسية ودقيقتين .

كالسراخس والطحالب والفطريات والدياتومات ، والنباتات العالقة بالأصداف والمرجان وكذلك النباتات الدقيقة التى توجد معلقة فى الماء وأثرها فى تلون ماء البحر حالات خاصة .

رابعاً – الدراسات الحيوانية :

ولما كان رئيس البعثة من علماء الحيوان ولديه من الخبرة ما يمكنه من إرشاد زملائه أثناء الرحلة فلم ترد نصوص كثيرة مفصلة فى هذا الباب سواء عن طرق جمع الحيوانات المختلفة أو حفظها وتثبيتها فيما عدا ملاحظات بسيطة عن الأماكن الهامة من وجهة نظر توزيع « الفونة » مثل منطقة بولينيزيا وماكرونيزيا مع فحص الأعماق وطبيعة أحياء القاع على خط وهمى يصل ما بين اليابان وجزيرة فانكوفر فى الشمال وعلى خط آخر يمتد جنوباً إلى جزيرة فالبريزو ، وذلك بالإضافة إلى دراسة التوزيع على جانبى « خط والاس » الهيدروجرافى فى أرخبيل الملايو .

كما يؤكد البرنامج ضرورة فحص الضوء المنبعث من أية كائنات بحرية بواسطة المنشور أو بواسطة المطياف لبيان تركيبه وألوانه .

والواقع أن الدراسات الحيوانية قد احتلت الجانب الأكبر من موسوعة مجلدات البعثة فيما بعد وذلك بالإضافة إلى المشاهدات الهامة عن الحيوانات النادرة أو الغريبة التى وصفها ويفيل طومسن فى مجلديه الإضافيين عن الرحلة . كما يجب أن ننوه أيضاً بجهود العالم جون مرى وملاحظاته عن الأصل العضوى للتكوينات الطباشيرية وغيرها على قيعان المحيطات وعلاقتها بالأحياء التى تعيش على السطح .

خامساً – دراسات تكميلية :

وتشمل التركيب الجيولوجى للمناطق غير المعروفة حتى ذاك الوقت مع جمع عينات من الحفريات والمعادن والصخور منها ، وكذلك الاهتمام بجمع الأدلة عن الارتفاعات أو الانخفاضات التى اعتورت ساحل البحر فى العصور المختلفة .

« وعلى البعثة أن تنتهز الفرصة أيضاً لتصوير أنماط من أجناس البشر الذين تقابلهم بمقياس موحد ليسهل مقارنة الصور مع تدوين الملاحظات عن المميزات الطبيعية لكل جنس وعن اللغة والعادات والمخلفات الأثرية والأدوات التى يستعملونها ، كما تجمع عينات من شعر الرأس للسلالات غير المختلطة من البشر » .

ويعطى لكل محطة من المحطات رقم مسلسل فى يوميات السفينة بحيث يدون هذا الرقم مع كل عينة من العينات التى تجمعها البعثة من نفس المحطة . وعلى كل باحث أن يحتفظ بمذكرة يدون فيها مشاهداته يوماً بيوم ويقدم هذه المذكرة من آن لآخر لرئيس البعثة الذى يدون بدوره فى يومياته الرسمية كل ما يفيد العلم من ملاحظات .

نتائج البعثة وأثرها فى تقدم علوم البحار

ولئن دلت الملاحظات السابق ذكرها على شىء فعلى أن البعثة المذكورة كانت قد أعدت لكل أمر عدته واتخذت كل الاحتياطات الضرورية التى تكفل نجاحها فى مهمتها . ومنها حسن اختيار الرجال ، سواء المدنيين منهم أو العسكريين ، وقد نوه الرئيس العلمى للبعثة بالتعاون الممتاز الذى لوحظ بين الفريقين ، وكان له أكبر الأثر فيما أحرزت البعثة من نجاح . وبالإضافة إلى ذلك فقد جهزت السفينة بالعدد والآلات وبأجهزة جمع العينات من أحسن ما عرف حتى ذلك الوقت ، كما عهدت البعثة إلى بعض الصناع المهرة بتحوير أو ابتكار الأجهزة الجديدة التى كانت فى حاجة إليها ، وتشيد البعثة أيضاً بالمعونة التى تلقتها من بعثة ألمانية صغيرة زارت بريطانيا قبل إبحار « تشالنجر » وأطلعتها على بعض الأجهزة الجديدة .

ويدل برنامج البعثة على دراسة عميقة وإلمام بكل ما عرف أو كتب عن البحار والجزر وحيواناتها ونباتاتها حتى وقت قيامها ، ويضاف إلى كل ذلك الصفات الإنسانية الممتازة التي يجب أن يتحلى بها مجموعة من الناس كتب على أفرادها أن يعيشوا معاً ليل نهار لمدة ثلاث سنوات ونصف السنة على ظهر سفينة تمخر بهم غياهب المحيطات فى أجواء متقلبة .

ويمكن القول بأن البرنامج الذى وضع للبعثة قبل قيامها قد تحقق على أحسن وجه ممكن . وعرف العالم لأول مرة الكثير من خبايا أعماق المحيطات وأسرارها . فقد وصفت البعثة لأول مرة أعداداً هائلة من أنواع الأسماك التى تعيش فى البيئات السحيقة وألقت الضوء على طرق معيشتها وطباعها ، ومنها الأسماك « الفوسفورية» التى ترصع جسمها بقع تضئ بضوء خافت جميل وتترتب هذه البقع بنظام خاص يتميز به كل نوع منها كما ألقت البعثة الضوء أيضاً على الأحوال السائدة على هذه البيئة السحيقة . ومنها على سبيل المثال أن درجة حرارة الماء على أعماق تزيد على ألف قامة ثابتة تقريباً فى جميع المحيطات وهى درجة منخفضة تقرب من الصفر المئوى . ثم إن التوزيع الجغرافى لحيوان القاع العميق متجانس تقريباً من القطبين إلى خط الاستواء ، حيث لا يوجد أثر لتقلب الفصول أو لتعاقب الليل والنهار على هذه الأعماق التى يسودها ظلام مطبق .[1]

كما وضحت البعثة لأول مرة أيضاً « كنتورات الأعماق » للمحيطات وإليها يرجع الفضل فى اكتشاف سلسلة جبلية ممتدة من شمال المحيط الأطلنطى إلى جنوبه وهى المعروفة باسم « السلسلة الفقرية » لهذا المحيط وتقسمه إلى قسمين كبيرين أحدهما يعرف باسم الحوض الشرقى والآخر باسم الحوض الغربى .

ولقد جمعت البعثة من رواسب قيعان المحيطات نحو ١٢,٠٠٠ عينة عنى بدراستها جون مرى والأب رينار الفرنسى وقاما بتقسيمها ودراسة خواصها وثبت أن هذه الرواسب هى هياكل صلبة لحيوانات أو نباتات دقيقة عاشت فى الطبقات السطحية للمياه وعند موتها تساقطت كرذاذ المطر على القاع العميق فكسته ببساط ممتد فسيح يتركب أحياناً من هياكل تدخل المادة الجيرية أو الطباشيرية فى تركيبها وهى تنتمى لأنواع من الكائنات تسمى المنخربات تنضوى تحت قبيلة الحيوانات الأولية المعروفة باسم « الأوالى » وأحياناً أخرى تنتمى إلى قبيلة الصدفيات المجنحة « البتيروبودا » كما قد يكون بساط الرواسب آنف الذكر من مادة طينية أخرى أكثر صلابة هى مادة « السيليكا » ومنها تتكون أغلفة كائنات دقيقة تعرف بالدياتوم وهى تنتمى لعالم النبات وليس لعالم الحيوان . وثمة أنواع من الحيوانات الدقيقة لها هياكل من السيليكا أيضاً وتعرف باسم « الراديولاريا » وهى تساهم بدورها أيضاً فى تكوين بساط الرواسب على القيعان العميقة للمحيطات .

وهذه الهياكل وتلك تقاوم عوامل البلى والذوبان نظراً لصلابتها وتترسب ببطء شديد على قيعان المحيطات وتغطى مساحات شاسعة منها .

وللبعثة المتحدية (تشالنجر) الفضل فى اكتشاف نوع جديد من الرواسب الطينية على أعماق كبيرة جداً يسمى بالطين الأحمر وتغطى هذه الرواسب مساحات شاسعة هى الأخرى من قاع المحيط ويتركب هذا الطمى من مواد مختلفة بعضها معدنى وبعضها من أصل بركانى وتتناثر فوقه عقد المنجنيز وأسنان أسماك القروش المنقرضة .

وثمة رواسب أخرى تكسو القيعان القريبة من شواطئ القارات وهذه تتركب فى جملتها من رواسب الأنهار والحصى والأصداف وحبيبات الرمل والطمى

---

(١) انظر كتابنا بعنوان « أضواء على قاع البحر » رقم ٤٨ فى سلسلة المكتبة الثقافية .

والرعد ، وتختلف كل الاختلاف فى خواصها عن رواسب القيعان العميقة . ومن عجب أن توجد فى بعض الأحايين قطع كبيرة من الجلاميد على قاع المحيط العميق ، وهذه صخور أرضية من غير شك حملتها الثلاجات وجبال الجليد التى انفصلت من شواطئ القارات وظلت هائمة فى المحيطات حتى ذابت فسقطت تلك الحجارة إلى القاع .

وأثبتت البعثة أيضاً أن قاع المحيط ليس مستوياً دائماً ، بل تعتوره جبال وهضاب وأخاديد أو أخوار عميقة ، وأقصى عمق سجلته البعثة بالطريقة التقليدية التى اتبعتها فى قياس الأعماق هو ٤٤٧٥ قامة[1] وذلك فى خانق على القاع بجوار جزر ماريانا فى المحيط الهادى ، كما رسمت البعثة كثيراً من خطوط الأعماق المتساوية للمحيطات .

وأما عن أنواع الحيوانات الجديدة التى وصفتها البعثة من الأعماق المختلفة فقد بلغت ٤٧١٧ نوعاً جديداً وهى بذلك تكون قد ساهمت مساهمة فعالة فى الكشف عن أنواع جديدة من الأحياء على كوكب الأرض لم تكن معروفة من قبل . وتنتمى هذه الأنواع التى جمعتها البعثة من بين السطح وأعماق وصلت إلى نحو ٤٥٠٠ قامة إلى قبائل وفصائل مختلفة من أقسام عالم الحيوان مثل القشريات ونجوم البحر وقنافذ البحر وخيار البحر والأصداف ، ومنها أنواع من القاع العميق لا مثيـــل لها اليوم على ظهر الأرض بين الكائنات الحية وأقرب أشباهها يوجد فى الحفريات التى انقرضت من ملايين السنين . وبذلك تكون البعثة قد نقلت منطقة « اللاحياة » التى كان « فوربس » قد حددها بنحو ٦٠٠ متر من قبل إلى نحو ٨٥٠٠ متر على الأقل . .

كما دحضت البعثة بعض المعتقدات القديمة التى ظلت كحقائق ثابتة لزمن طويل ، ومنها فكرة وجود قارة مغمورة تحت سطح الماء هى قارة اطلانتيس التى ظلت حية فى الأذهان منذ عهد اليونان القدامى . وكذلك فكرة وجود أصل الحياة على قيعان المحيطات على شكل « أميبا ضخمة » ، هى « أميبا الأعماق » . وكان أول ما نادى بها العالم الألمانى ارنست هيكل ، وقد أثبتت البعثة أنها مادة جيرية لا أثر فيها للبروتوبلازم أو مادة الحيـــاة .

ويرجع الفضل لبعثة المتحدية (تشالنجر) أيضاً فى عمل أول دراسة مفصلة للحاجز المرجانى الأعظم وحيواناته ، وكذلك فى وضع أسس التوزيع الجغرافى للأحياء البحرية على نطاق واسع . ومن وجهة نظر الملاحة استطاعت البعثة أن تدرس الكثير عن التيارات البحرية والمناخ كما اكتشفت جزراً جديدة وضحتها على الخرائط .

ويرى كثير من العلماء أن موسوعة بعثة المتحدية العلمية التى دونت فيها نتائج الرحلة هى بمثابة « الكتاب المقدس لأعماق البحر » .

ولا غرو والحال كذلك أن جعل هؤلاء العلماء تاريخ هذه البعثة بمثابة بداية لعلم جديد هو علم البحار والمحيطات الذى يطلق عليه اسم « الاقيانوغرافيا » أو « الاقيانولوجيا » .

وإذا كان الأمر كذلك فإن لهذه البعثة الفضل أيضاً فيما وصل إليه هذا العلم فى وقتنا الحاضر من تقدم . فقد دفعت عجلة البحث العلمى فى هذا المجال خطوات كبيرة إلى الأمام ، وشجعت بعثات أخرى على ارتياد أعماق المحيطات ، مزودة بمراكب حديثة وأجهزة

---

(١) القامة ١,٨٢ متراً وأقصى عمق سجل فى المحيطات إلى اليوم هو ١١,٠٥٠ متراً وسجلته سفينة الأبحاث السوفيتية «فيتياز» صيف عام ١٩٥٩ وحتى عام ١٨٩٥ لم يكن معروفاً فى جميع المحيطات سوى ٥٥ بقعة يربو عمقها على ٥٥٠٠ متر . ويرجع الفضل اليوم إلى جهاز سبر الأعماق بصدى الصوت المعروف « بالاكوسوندر » فى مسح قيعان المحيطات بدقة .

جديدة وآلات ألكترونية تجمع الأرصاد وتحصى النتائج ، بل وتمكن الإنسان نفسه مؤخراً من ارتياد أعمق بقعة فى المحيطات وهو بداخل غواصة صغيرة يرى من خلال نافذتها الزجاجية ما لا عين رأت من قبل من أسرار القاع العميق ، بل واكتشف الإنسان مؤخراً أن هذا العالم الصامت الذى طالما أبدع الشعراء فى وصفه لم يعد عالماً صامتاً بعد اليوم ، بل يعج بمختلف الأصوات والنغمات من جميع الطبقات . ويكفى أن نعلم أن فى وقتنا الحاضر تجوب أكثر من خمسين سفينة علمية بحار العالم ومحيطاته فى كل يوم وليلة .

ونختتم هذا المقال بفقرات من كلام السير ويفيل طومسن من كتابه آنف الذكر وفيها وصف ممتع لظاهرة السراب الذى شاهده على سواحل نوفا سكوتيا ونيوفوندلاند وعنه يقول :

« أشرفنا على هاليفاكس صبيحة التاسع من شهر مايو وكان الجو صحوا ساكناً لا يبدد صفوه سوى ضباب خفيف . وما إن توغلنا بالسفينة فى الخليج حتى فوجئنا بسراب مخيف لم نعهده من قبل ، اختلطت علينا فيه صور البحر والأرض والسماء بحيث أصبح من المتعذر على الرائى أن يفرق بينها . وتجردت المعالم على الشاطئ من أبعادها الحقيقية ، فبدت الأكواخ البيضاء كالأعمدة أو المنارات العظيمة ، بينما خيل إلينا أن جميع الجزر الصخرية المنخفضة قد توجت بالعمارات والأبراج وظهرت لنا على الأفق جزر جديدة لا محل لها فى الواقع على الخرائط ، وبدت كأنما تشكل نهاية الأفق وما لبثت أن تبددت كالأشباح رويداً رويداً كلما أطال المرء النظر إليهـا . .

أما القوارب الخفيفة التى يممت شطر الشاطئ فقد بدت هى الأخرى كأنما شدت إلى السماء وارتفعت على قوائم فوق البحر بينما علتها صورها المقلوبة التى بدت فى الواقع أوضح من الأصل . وكأن هذه الصور قد طبعت فوق أرضية ناعمة من الضباب الرمادى » .



الشاهنامه للفردوسى

بقلم
الدكتور يحيى الخشاب

– ١ –

الفردوسى هو أكبر شعراء القرن الخامس الهجرى وأحد الشعراء الفرس العظام. نظم الشاهنامه فبلغ الأوج فى نظمه ، وهى الملحمة الفارسية التى تصور القصص الإيرانى القديم كما تعطى صورة تاريخية صادقة لكثير من جوانب الحياة فى العصر الساسانى الذى سبق الفتح العربى لبلاد الفرس . ثم إنه نظم « يوسف وزليخة » متجها فى نظمه القصة نحو الأدب الإسلامى الخالص .

عنى كتاب السير وأدباء الفرس بالفردوسى وحاكوا حول حياته الكثير من القصص حتى أن استخلاص حقيقة حياة الرجل من هذه القصص المختلفة أصبح أمراً لا جدوى منه ، وإنما على الباحث أن يقرأ كتابى الفردوسى ، الشاهنامه وقصة يوسف وزليخة ، للتعرف على حياة الشاعر الذى كرس حياته للنظم والذى حرص أشد الحرص على أن ينظم الكتاب الإيرانى المعروف فى الفهلوية باسم خداى نامه والذى يعد أعظم أثر ادبى باللغة الفارسية .

والفردوسى حين قام بهذا العمل الأدبى الكبير إنما كان يعمل على إحياء القومية الإيرانية التى بعثها المأمون (١٩٨ / ٨١٣) حين أذن بقيام الدولة الطاهرية، أول دويلة فارسية داخل دولته ، فقد تبع ذلك قيام دويلات منها القوية والضعيفة ، الصفارية والسامانية والعلوية والزيارية والبويهية ، وكلها فارسية . ثم جاءت دولتان تركيتان ، الغزنوية والسلجوقية. واستتبع قيام الدويلات الفارسية إحياء الروح الفارسى والحنين إلى إحياء اللغة الفهلوية فى صورتها الإسلامية الحديثة لتكون لغة للعلم والأدب والديوان ، ومن هذا الاتجاه الفارسى كان عزم الفردوسى على أن يتفرغ لينظم الشاهنامه . ولم يكن قيام الدويلات التركية ليقف معارضاً لهذا التيار فكثير من وزراء السلاطين الأتراك كانوا فرساً وكانت أمنيتهم تشجيع الأدب الفارسى واستخدام اللغة الفارسية فى أعمال الديوان .

* * *

اختلف الكتاب فى اسم القرية التى ولد بها الفردوسى ذهب البعض إلى أنها شاداب (دولتشاه) وذهب آخر إلى أنها رزان (مقدمة بايسنقر) وذهب العروضى صاحب « جهار مقاله » – وقد زار طوس بعد وفاة الفردوسى بحوالى مائة سنة – إلى أنه ولد فى قرية باز من ناحية الطابران . ويأخذ الكتاب المحدثون برأى العروضى فى هذا . واختلف الكتاب أيضاً فى اسم الفردوسى ،

منصور أو حسن أو أحمد . أما كنيته « أبو القاسم » فيتفقون عليها . وكذلك يتفقون على لقبه الشعرى « الفردوسى » ، وفى طوس بستان يعرف باسم الفردوس ولعله ينسب إلى هذا البستان .

ويذهب العروضى إلى أن الفردوسى كان من دهاقين (أصحاب الضياع) طوس . ويؤيد هذا قوله فى الشاهنامه .

ولم يذكر كتاب التذاكر تاريخ ميلاد الفردوسى . ولكن يتبين من بعض أشعاره فى الشاهنامه ما يرجح هذا التاريخ . فهو يقول إنه فرغ من آخر فصل فى كتابه فى اليوم الخامس والعشرين من شهر اسفندرامز ، وكان قد مضى على الهجرة أربعمائة سنة ، وكان عمره فى ذلك التاريخ قد اقترب من الثمانين .

ومن هذا يتضح أنه فرغ من الشاهنامه فى ٢٥ فبراير عام ١٠١٠ (٤٠٠ هـ) . فاذا ذهبنا إلى أنه كان فى السادسة والسبعين أو السابعة والسبعين حينذاك فإن مولده قد يكون بين سنتى ٣٢٠ / ٩٣١ و ٣٢٣ / ٩٣٤ . وفى الشاهنامه نصوص أخرى قد تغير هذا التاريخ قليلا ، ذلك أن الفردوسى يذكر السنوات بالتقريب لا بالتحديد . وقد أخذ الإيرانيون ، حين احتفلوا بالعيد الألفى للفردوسى ، بهذا التاريخ الأخير وعلى أساسه أقاموا حفلهم الذى مثل مصر فيه الأستاذان الراحلان عزام والعبادى . فى هذا الاحتفال قال المغفور له السيد فروغى « إن الخلاف على تاريخ مولد الفردوسى ليس أمراً هاماً فإن الخلاف فى سنتين من ألف سنة لا يقدم ولا يؤخر شيئاً فإذا قلنا إن مدى الخلاف خمس سنوات فليس هذا شيئاً لأن المهم هو إحياء ذكرى الفردوسى » . وأقيم العيد الألفى للفردوسى فى يناير سنة ١٩٣٤ .

ويبدو أن الشاعر كان يعيش فى صباه من غلات ضيعته ، وأنه كان حريصاً على رى ضيعته رياً معتدلا بحيث لا يغرقها الماء إذا فاضت القناة ولا يحرقها الجفاف إذا امتنع الماء . بهذا يتحدث فى الشاهنامه .

وعرف شاعرنا العربية معرفة جيدة وعرف الفهلوية معرفة جيدة كذلك . وكانت درايته بتاريخ إيران دراية عميقة شاملة . أما العربية فهى لغة الثقافة فى ذلك العصر ، ومهما يكن من ظهور النزعة الفارسية والاتجاه إلى إحياء اللغة الفارسية فإن لغة القرآن لم يهمل أمرها . وقد كتب العلماء حينذاك باللغتين العربية والفارسية ومنهم من كان يكتب الكتاب نفسه باللغتين جميعاً . كتب ابن سينا والغزالى والرازى وغيرهم باللغتين ومن هنا عرف أن الحضارة العربية الإسلامية تقوم على العربية والفارسية . والفردوسى نفسه حين سئم سير الملوك فى إيران اتجه إلى القرآن الكريم يأخذ منه سورة يوسف لينظم قصة دينية فيها الدليل على إتقانه اللغة العربية . ولا خلاف بين الكتاب على معرفة الفردوسى للغة العربية إنما الخلاف على معرفته اللغة الفهلوية . نولدكه يرى أنه لم يكن يعرفها . أما عزام وماسيه فيذهبان إلى أنه كان يعرف هذه اللغة ، ونحن معهما فى هذا . فالفردوسى فى قصة « بيزن و منيزه » يقول إن صاحبه حدثه بقوله : « إن كنت لا تنام فاصغ إلى حتى أقرأ عليك من الكتاب الفهلوى قصة لتنظمها » و « كان يقرأ وأنا أنظم » . ويقول « فإن كنت تجهل الفهلوية فاعلم أن أروند هو دجلة عند العرب » . و « أن ورز رود هو ما وراء النهر عند العرب » . ويفسر كلمة بيوراسب — وهى لقب الضحاك — بأن بيور فى الفهلوية هى ده هزار فى الفارسية (عشرة آلاف فى العربية) . ويقول إن بيت المقدس يسمى بالفهلوية كنك دز هوخت . وهكذا .

ويذكر عوفى فى « لباب الألباب » شعراً للفردوسى يقول فيه إنه اجتهد كثيراً وقرأ كثيراً بالعربية والفهلوية .

وإذا كان مصدر الشاهنامه « الخداينامه » قد عرف عنه الكثير باللغتين العربية والفارسية قبل الفردوسى فإنه من غير المحتمل أن يتم نظم الكتاب كله مما عرف من

أجزائه التي نقلت إلى العربية أو الفارسية . إنما المحتمل أن يكون لدى الفردوسي هذه الترجمات الجزئية بالعربية والترجمة الفارسية له ثم النص الفهلوي أيضاً . إلى هذا الرأي الأخير اتجه فون روزن في بحثه الأخير عن التراجم العربية لخداي نامه . وقد انتهى فون روزن إلى أن ترجمة ابن المقفع ، وهي أولى ترجمات الخداينامه ، تلتها ترجمات منها ما كان نقلا صادقاً عن النص الفهلوي كالذي عمله محمد بن الجهم البرمكي وزادويه بن شاهويه الإصفهاني ؛ ومنها ما كان تأليفاً عن طريق الترجمة كالذي عمله محمد بن مطيار الإصفهاني وهشام بن قاسم الإصفهاني ، وقد استعان هذان الكاتبان بنصوص فهلوية من كتب أخرى ؛ ومنها ما كان تصنيفاً عن طريق الترجمة كالذي عمله موسى بن عيسى الكسروي والموبذ بهرام بن مردانشاه ، وقد أضافا روايات من نصوص أخرى أو مما سمعاه من الموابذة والدهاقين . ويذكر حمزه الإصفهاني في تاريخه أن الموبذبهرام راجع نيفاً وعشرين من الترجمات العربية لخداي نامه وأن الكسروي لم يجد نصين متفقين من هذه الترجمات .

وتتفق المقدمتان المبكرتان للشاهنامه على أن « أبو منصور المعمري » ترجم إلى الفارسية — عن الفهلوية — كتاب خداينامه الذي كتبه دانشور وذلك بأمر من « أبو منصور بن عبد الرازق » والى طوس في العهد الساماني حوالى سنة ٣٤٧ / ٩٥٧ . وقد ساعد المعمري في ترجمته أربعة من الفرس هم : تاج الخراساني ، يزدان داد بن شاپور ، ماهويه بن خورشيد ، شادان ابن برزين . ومهما يكن من أمر رواية المقدمتين فإن عزام وماسيه يلاحظان أن الفردوسي ذكر شادان بن برزين في أول قصة كليلة ودمنة كأنه الذي حدثه بهذه القصة . ويقول عزام ، نقلا عن نولدكه ، أن شاهوى الذي يذكره الفردوسي راوياً في مفتتح قصة وضع الشطرنج قد يكون تحريف ماهويه أحد الأربعة المترجمين ، وأن ماخ مرزبان هراة الذي يروي الفردوسي عنه سيرة هرمز بن أنو شروان يمكن أن يكون هو تاج أحد هؤلاء الأربعة . ولاحظ عزام أن الأربعة الذين ترجموا الكتاب كانوا مجوساً « ولم يكن غير المجوس إذ ذاك يعني بالفهلوية ويجيد قراءتها » ، ولسنا نوافقه على هذا الرأي فإن إسلام الرجل لا يحول دون حبه لثقافة أمته ، وأسماء المترجمين الذين ذكرهم حمزة الإصفهاني والبيروني والبلعمي وغيرهم تدل على أنهم كانوا مسلمين . ولكن قد يكون من هؤلاء المترجمين الذين قصدهم أستاذنا عزام مجوس . أما ماسيه فيرى أن هؤلاء الأربعة إيرانيون من الولايات الشرقية ، فهم من هراة وسيستان ونيسابور وطوس .

من هذا يتبين أن آثار الفرس وقصصهم كانت معروفة باللغتين العربية والفارسية وأن الفردوسي كان لديه هذه التراجم ، أو بعضها ، وكان لديه النص الفهلوي أيضاً .

* * *

عهد نوح بن منصور الساماني إلى شاعر شاب ذاع صيته في الشعر الفارسي حينذاك — القرن الرابع الهجري — اسمه الدقيقي (أبو منصور محمد بن أحمد) بأن ينظم الشاهنامه فبدأ بنظم قصة كشتاسب الذي ظهرت رسالة زردشت في عهده والذي خصته الأوستا (الأبستاق) بفصل تضمن نصح زردشت له بالإيمان بالدين الجديد ودخول هذا الملك في الزردشتية .

نظم الدقيقي ألف بيت من هذه القصة وحال الموت دون مضيه في نظم الكتاب ، يقول الفردوسي « ولكن سوء الخلق كان خدن شبابه ، فكان يقطع أوقاته بالبطالة وصحبة الأشرار حتى بغته الموت فتوجه بتاجه الأسود . لقد سلط الخلق الدميم على الروح الجميل ، وما نعم يوماً بالحياة . ثم انقلب به جده فقتله أحد عبيده » . ويعبر الفردوسي عن ترحيب الفرس بالدقيقي

فى نظم الشاهنامه قائلاً : «قال الدقيقى سأنظم هذا الكتاب ففرح الناس به أى فرح » .

* * *

وعزم الفردوسى على نظم الكتاب فإن ما لقيته قصص الأبطال من ترحيب الفرس شجعه على المضى فيما أخفق فيه سلفه الدقيقى . « ورغبت فى الحصول على كتاب خداى نامه كى أنقله إلى لغتى وكم من رجل سألت عن الكتاب دون جدوى . وكنت أخشى مر الزمان وقصر الأجل فأتركه لغيرى ؛ ثم ما آمل من ورائه من مجد قد يذهب سدى ؛ وقد لا أجد العظيم الذى يثيبنى بصلة على قد ما بذلت من جهد ، فإن الدنيا تعج بالخلف والزمن غير موات لمن ينشدون حسن الثواب . ومضى زمان لم أفض فيه لأحد بمكنون صدرى فإنى لم أجد من هو جدير بأن أحدثه بسرى . . ثم كان الصديق الأمين الذى هو قطعة من نفسى فكاشفته بالأمر فقال : إنها فكرة حسنة ولسوف تسعد بها . سآتيك بالكتاب الفهلوى (البهلوى) فامض قدماً ولا تتوان . إن لك موهبة النظم .وإنك على سبك قصص الأبطال قادر . قص على الناس من جديد حوادث هذا الكتاب يقدرك أصحاب السلطان وتنال الجزاء الذى تبغى » . وجاءه صاحبه بالكتاب فاطمأن الفردوسى إلى أن الطريق بدأ يتفتح لتحقيق رسالته .

كان الفردوسى قد بلغ حوالى الأربعين من العمر حين بدأ ينظم الشاهنامه ، وكان عليه أن يتفرغ للنظم والقراءة والاستماع إلى قصص شيوخ الموابذة أو غيرهم ممن يعون قصص إيران فى صدورهم . كان عليه إذن أن يترك ضيعته فلا يفلحها بنفسه فإن الفلاحة والأدب لا يجتمعان . ويتاح له أمير ذكى من ذرية الأبطال ، له دراية بالشعر وله ولع بأن يرى أمجاد أمته منظومة فى سفر باللغة الحديثة ، هذا الأمير هو والى طوس « أبو منصور محمد » الذى يتعهد الفردوسى ويهيئ له من أسباب الحياة ما يجعله فى غنى عن سؤال غيره : « ورعانى رعاية حسنة ولم يكن شىء يكدر صفو حياتى حتى لقد رقيت من أرضنا الدنيا إلى السموات العلى بفضل ما غمرنى به من المال ، فقد كان يرى الذهب والفضة لا يساويان أكثر مما يساوى التراب » :

وآخذ الشاعر فى المضى فى النظم ، وأخذ الناس يتناقلون ما نظم من قصص وأصبح الفردوسى ذائع الصيت فى كل مكان حتى أنه هدأ نفساً إذ أصبح من الخالدين .

واغتيل الأمير « أبو منصور » حاميه وراعيه ، وكاد النور الذى يضئ له حياته أن ينطفئ لولا أن قيض الله له حى (حسين) بن قتيبة والى خراج طوس الذى لم يكن يتلقى شعر الفردوسى دون أن يبعث له بعطاء جزيل « وهو الذى أعطانى الغذاء والكساء ووهب لى الذهب والفضة فكنت أدفع ما على من الخراج دون مشقة وعشت فى رغد وهناء » .

ولم تكن الحياة السياسية مستقرة لآل سامان ، وبدأت القبائل التركية تتطلع إلى الحكم ، والقصة الأزلية التى تصورها الشاهنامه للحرب بين توران وإيران بدأت جلية وقد اقترب الفردوسى من الفراغ من كتابه . وعلائم الإدبار بادية على الدولة السامانية التى احتمى فى ظل حكامها وعلائم الإقبال بدت واضحة للتورانيين الذين كانوا أمراء للجند السامانيين . ففى ٣٥١ / ٩٦٢ يظهر الب تكين التركى فى غزنة . وفى ٣٩٠ / ٩٩٩ يستولى الب على غور وخراسان ، وتأخذ الدولة الإيلخانية ما وراء النهر . وهذه الأحداث تؤثر أشد التأثير فى حياة الشاعر الذى تخلى عنه الأمراء الذين ساندوه ، واضطر أن يعتمد على غلات ضيعته مرة أخرى ، والنظرة السوداء سيطرت على رؤيته للأشياء ، وجاء ضغثا على إبالة سقوط الثلج الذى أتلف الزرع وأحال الحياة إلى موات . « وتجمع السحاب وأظلم

القمر وهطل الثلج من السحاب الأسود فلا ترى نهراً ولا سهلا ولا جبلا ولست بقادر على رؤية جناح الغراب ولم يبق لى من زاد أطعمه أو وقود أصطلى بناره، وعلى أن أنتظر الموسم القادم للشعير . فى هذه الأيام التى أظلم نهارها ، وفى حالة الفزع الذى ينتابنى مما على من الخراج ، وبينما كسا الثلج الأرض فكأنها جبل من العاج ، كسدت بضاعتى والأمل معلق بصديق يأتى لنجدتى » :

كانت هذه حالة الفردوسى وهو فى الثامنة والخمسين من عمره ، وتحمل الأديب مشاق الحياة ، حاملا العسر على اليسر ، ولكنه حين قارب الخامسة والستين أوجعه ريب المنون فقد مات ولده وكان فى السابعة والثلاثين . وبكى الشيخ ولده وزهد من بعده فى المجد الذى كان يرتقب وأصبحت الدنيا لديه لا تساوى شيئاً ، لقد هده الحزن وأحس بأنه لاحق مستتبع . « لقد كانت نوبتى فى الرحيل ولكن ولدى الشاب ارتحل فخلف لى الحزن الذى أحالنى جسداً بغير روح . إنى أحث خطاى عساى أن ألحق به ، ولى معه حين ألقاه عتاب رقيق : لقد كانت النوبة نوبتى فى الرحيل فلم ارتحلت يا بنى دون إذن منى ورضا وحرمتنى راحة البقاء . لقد كنت لى الفرج عندالشدة فما الذى حملك على أن تسلك طريقاً غير طريق صاحبك الشيخ الكبير . ألقيت فى الشباب رفاقاً فآثرتهم على ومضيت وخلفتنى وحدى » .

« إنه حين بلغ السابعة والثلاثين لم تعجبه هذه الدنيا فغادرها . . غادرها وقد ترك لى الحزن والقهر وأغرق فى الدم عينىّ . إنه الآن فى عالم النور وسيختار لأبيه مكاناً بقربه فيه . لقد انقضى زمن طويل ولم يعد أحد من رفاقه فى الطريق ، لعله ينتظرنى ويود أن ألحق به » .

والشاهنامه التى كبرت ونمت وكادت تتم والتى كانت رسالة يعمل لها أصبحت شيئاً لا يستحق الجهد الذى بذل فيها ، فقد قوبل عمله المجيد بالصد ونكران الجميل « بلغت الخامسة والستين وإن روحى قلق كئيب . وأشعر أنى كلما مضيت أبحث فى سير الملوك يتوقف عن السير نجمى ويأفل . كم من عظيم بلغ الأوج فى نسبه وعلمه بفضل كتابى وكم من حاكم اشتهر بكلامى . كلهم يستنسخ شعرى بالمجان وأنا فى مكان قصى أنظر وأرى . إنهم يحسبوننى أجيراً مرتزقاً فى أسرهم . لست ألقى منهم غير « أحسنت » ولقد خارت قواى مع هذا الثناء الرخيص ، أما خزائنهم العامرة فموصدة أمام قلبى الكسير » .

* * *

بعض مخطوطات الشاهنامه تذكر أن الفردوسى أتمها فى هذه الظروف الحزينة سنة ٣٨٤ / ٩٩٤ ، والبندارى مترجم الشاهنامه للعربية (٦٢٠ / ١٢٢٣ — ٦٢٤ / ١٢٢٧) من هذا الرأى . ويرى ماسيه أنه يمكن القول بأن الفردوسى أتم فى هذا التاريخ كتابته الأولى للشاهنامه ، ثم إنه استكمل ما فاته فى الكتابة الأولى وفرغ من هذا كله سنة ٤٠٠ / ١٠١٠ .

ويذكر الفردوسى فى مقدمة « يوسف وزليخة » أنه مل ذكر الملوك .

وضاقت خراسان فى وجه الشاعر ولم ير بداً من التفكير فى الهجرة إلى العراق . وكان من الطبيعى أن يفكر الفردوسى فى الدولة البويهية ، فأمراؤها فرس يحبون إحياء التراث الفارسى وهم شيعة وهوى الفردوسى معهم . ثم إن دولتهم تمتد إلى الغرب والجنوب من فارس فهى بعيدة عن خراسان . ومهما يكن من أمر الخصومات بين أمراء البويهيين فإنها أقل خطراً من فتن خراسان . وسار الفردوسى إلى مدينة الرى (من نواحى طهران) ليتوجه منها إلى إصفهان ثم إلى إقليم الأهواز . كان أمير البويهيين حينذاك « بهاء الدولة أبو منصور فيروز » (٣٧٩ — ٤٠٣) ، وكان من رجاله الموفق

(أبو على حسن بن محمد بن إسمعيل الإسكافى) الذى حث الفردوسى على نظم « يوسف وزليخة » وذلك بين سنتى ٣٨٠ / ٩٩٠ و ٣٨٦ / ٩٩٦ . وأشرقت آمال الشاعر من جديد . فإنه قد يظفر برضا « ملك الإسلام » وحسبه أن يظفر بإحدى مراتب حاشية بهاء الدولة إذا ما تقبل شعره قبولا حسنا .

هكذا يصف المؤرخون والشاعر نفسه إقامته فى العراق وإلى من كتب يوسف وزليخة . وهناك رواية أخرى تقول إن الشاعر فى أواخر حياته سار إلى بغداد حيث طلب إليه الخليفة أن يكفر عن نظمه مجد إيران المزدية بنظم قصة مستمدة من القرآن . وعندنا أن هذه الرواية وضعت رداً على توهم بعض الكتاب أن الشاهنامه قامت على أساس من الشعوبية ومحاولة رد الشاعر إلى الطريق المستقيم . والحق أن الشاهنامه عمل فنى رائع قصد به إحياء تراث إنسانى عظيم حرص العرب على إخراجه باللغة العربية قبل أن يحرص الفرس على إخراجه نثراً أو نظماً بالفارسية الحديثة . وأمهات الكتب العربية مليئة بالكثير من الأخبار الواردة فى الشاهنامه . وإحياء النص العربى للشاهنامه . ترجمة البندارى ، كان أول رسالة للدكتوراه قدمت إلى الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) . والنظر إلى الشاهنامه على أنها وليدة عصبية معينة يتجافى مع ما لهذا الأثر الخالد من قيمة فنية لا مراء فيها . وينفى ماسيه رواية توجيه الخليفة للفردوسى لينظم قصة من القرآن .

أرضت قصة « يوسف وزليخة » الأوساط الدينية ولكنها لم تستطع أن تعلو على الشاهنامه وتنال شهرتها وذيوعها . وكان الفردوسى ينشد الأمان والسلام فى العراق ولكنه وجد الأحوال فيه تتبدل . والموفق : الذى عاونه وهيأ له سبيل الاتصال بالأمير البويهى : يفقد مكانته عند الأمير الذى يأمر بإلقاء القبض عليه . ويفقد الشاعر مكانته أيضاً ويفكر فى الانتقال إلى إصفهان ثم إلى موطنه ، طوس ، حيث كانت الدولة فى يد محمود الغزنوى .

لم يكن قد مضى وقت طويل على وفاة الصاحب بن عباد الذى كان من وزراء البويهيين ، والذى شجع الشعراء والكتاب . وكانت سيرة الصاحب سنة متبعة من بعده ، ولعل الفردوسى أراد أن يحظى فى خان لنجان — من ضواحى إصفهان — بعطف الحاكم الذى قد يحقق له بعض الرجاء .

جاء فى مخطوطين للشاهنامه أبيات تقول بارتحال الفردوسى إلى إصفهان وتصوره وقد بلغ خان لنجان معدماً لا يقدر على شىء فيأخذه الحاكم ويكسوه ويطعمه . ولكن رجل سوء يسعى بالشر ، كالحمار ، بينه وبين الحاكم ويخاف الفردوسى أن يتغير قلب الحاكم عليه . ويحدث أن يخرج الشاعر فى رحلة معه فى نهر « زرين رود » ويقع الفردوسى من القارب ويكاد يغرق فيشمر الحاكم ويجذبه من شعره وينقذه ويرده سالماً إلى السفينة ويبدى الفرح بنجاته فيهب الفقراء ذبيحة فداء له .

ويختلف الكتاب فى نسبة هذه الأبيات للفردوسى . يرى فروغى أنها منتحلة فهى تنم عن أسلوب أحد النساخ المتأخرين . ويرى تقى زاده أنها صحيحة وكان نولدكه وشيفر يريان صحتها كذلك . ونحن نؤيد نسبة الأبيات للفردوسى .

ويخرج الفردوسى من إصفهان قاصداً خراسان ، طوس ، حيث الدولة التركية ، الغزنوية ، قد استقر لسلطانها محمود الأمر فى المشرق الإسلامى . ترى هل يريد الشاعر الذى بلغ من الكبر عتيا والذى يصف نفسه « بأن دوحة شبابه ذبلت ، وظاهر إهابه تغضن ، وألف قامته بعد الاعتدال صارت كالدال ، وعقد لآلىء أسنانه آذن بالانسلال والانحلال » هل يريد أن يعود لوطنه حنيناً إليه ؟ أم أن بلاط السلطان محمود قد

استهواه وجذبه إليه . يصور العروضى فى جهار مقاله كيف كان محمود يجمع أهل الأدب والعلم فى بلاطه ورسالته لخوارزمشاه معروفة ومعروف أن ابن سينا رفض التوجه إليه . ويصور العتبى فى تاريخه أن وزير السلطان : « أبو العباس الفضل بن أحمد » كان يؤثر اللغة الفارسية ويستخدمها فى الدواوين والرسائل وأن العربية فى عهده أهمل شأنها « حتى كسدت سوق البيان وبارت بضاعة الإجادة والإحسان » ، فمن الطبيعى أن يلقى الشاعر الذى نظم الشاهنامه بألفاظ تكاد تكون قاصرة على الفارسية عطف هذا الوزير الذى قد يتيح له فرصة القربى من السلطان محمود . مهما يكن فإن الفردوسى سار إلى طوس وفى نيته تقديم كتابه لسلطان الدولة الجديدة التى أدالت من السامانيين . وما أيسر أن يسطر الشاعر أبيات الشعر فى مقدمة كتابه وفى ثناياه وخاتمته ، يقول « ما عرف الناس مثل هذا الملك منذ خلق الله العالم . لقد لاح تاجه على العرش فازدانت الأرض كأنها قطعة من العاج وضاءة . كلا لا تجعل الشمس المضيئة مثلا له ، فمحمود قد وضع على تاج الشمس عرشه . . وقد طلع نجمى به وكان غارباً ، وفاض معين الفكر وكان ناضباً . . » .

وفى طوس لبث بعض الوقت ، لعله كان يكتب مدائح محمود ويوجه النصائح له فى ثنايا كتابه ، وفيها لقى أخا محمود حاكم خراسان « الأمير نصر » كما لقى الحاجب أرسلان الجاذب ؛ والفردوسى يحفظ لهما حسن لقائه .

ويذكر العروضى فى جهار مقاله أن رجلين عاونا الفردوسى فى هذه الفترة هما « على الديلمى » الذى كتب الشاهنامه فى سبعة مجلدات و « أبو دلف » الذى كان ينشدها . ومع هذين الصديقين توجه الفردوسى إلى غزنة ، إلى حضرة السلطان محمود ، وإلى وزيره « الفضل بن أحمد » الذى يحب اللغة الفارسية ويؤثرها فى أعمال الديوان . هو إذن يسير قاصداً « محمود ، الملك الشجاع الأصيد ، الذى يغلب على العبر براثن الأسد . ملك العالم — محمود — مسعر الهيجاء ، وناثر رؤوس الأبطال على الغبراء » ؛ وقاصداً « الفراش المبسوط على الزمان ، الذى لا يطويه الحدثان . مكان السرير من ذلك البساط الممهد ، مجلس « الفضل بن أحمد » الذى نشر فى المملكة الطمأنينة ، وأوحى إلى الكبراء العقل والسكينة . ما ظفرت الملوك بمثله وزيراً ، حزماً وجوداً ورأياً منيراً . طاهر اليد ، فصيح اللسان ، مخلص لله وللسلطان . لقد كشف عن الغم والحزن ذلك الوزير العادل رب الفطن » . وهو فى سعيه إلى غزنة ينشد « الجواد المفضال الذى لا تضرب دون نواله الأقفال » ؛ وفى يمينه كتابه « تمر عليه السنين ويتلوه كل حكيم فطين » ، « وطدته قصراً عظيم الخطر ، يهزأ بعصفات الريح والمطر » .

ولكن القدر الذى حرم الفردوسى من حياته ورعلته يضن عليه بالإقبال هذه المرة أيضاً وقد أوشك على الثمانين . من قبل اغتيل الأمير « أبو منصور محمد » والى طوس ، فلما ذهب للبويهيين وحماه « الموفق » لم يلبث هذا أن غضب عليه السلطان فعزله وقتله . وفى هذه الرحلة الأخيرة يظهر الوزير « الميمندى » وهو أفغانى — من غزنة — وينجح فى إقصاء منافسه « الوزير الفضل بن أحمد » ويقتله ، وتعود اللغة العربية لغة الديوان ، ويتوارى إلى حين محبو التراث الفارسى واللغة الفارسية ، وعلى أية حال يتغير الجو بالنسبة للفردوسى ، ويذهب الأمل فى أن يكون الكتاب « عونى فى الكبر ويمدنى بالمال والمجد والصيت الأغر » يذهب هذا الأمل أدراج الرياح . محمود تركى صميم لا يستطيع أن يتذوق ما ذكره الفردوسى من غلبة أبطال إيران على توران ، مهما تكن روعة هذا القصص الإيرانى . ومحمود بنى سياسته على التشدد فى التمسك بالدين فلا يستطيع أن يجيز الإشادة بالمزدية . والوزير الميمندى يعرف

للشاهنامه قدرها ولكنه لم يكن يستسيغ استخدام الفارسية فى الأدب وفى الديوان فهو لا يستطيع أن يكافئ الفردوسى المكافأة التى يستحقها صاحب هذا العمل العظيم . ثم إن هذا الوزير جاء على أثر ضائقة مالية هى التى أودت بسلفه وكان السلطان محمود فى حاجة إلى المال الكثير لغزواته فى الهند فلم يكن فى مقدور الميمندى أن يشير بإعطاء الفردوسى صلة تتناسب مع قيمة الشاهنامه وهو الحريص على توفير المال للسلطان . وقد رأينا أن الفردوسى ذهب إلى بلاط البويهيين حين رأى ما سبق القضاء على الدولة السامانية من فتن ، فهو إذاً شيعى من طوس ، وهو يلجأ إلى الدولة الشيعية . فهو اذاً شخص غير مرغوب فيه من الدولة الجديدة الغزنوية . ولو أن الميمندى قدر الشاهنامه كعمل فنى لا دخل للمذهب الدينى فيه فإنه قد يعرض نفسه لمنافسيه ولمن يحيطون بالسلطان الذى كان بنفسه حريصاً أشد الحرص على أن يقصى الشيعة من حوله . وقد تعرض رجل من كبار رجال هذا السلطان لسخط خلفه مسعود ولم تكن جريرته تؤدى إلى شنقه لولا أنه أتهم بصلته بالخليفة الفاطمى بالقاهرة . فالتشيع كان أمراً غير مرضى عنه من الغزنويين ، ومن هنا كان الوزير الميمندى غير حريص على مكافأة الفردوسى المكافأة التى يستحقها . والفردوسى لم يذكر الميمندى فى الشاهنامه ، فقد كان عازماً على تقديمها للسلطان فى عهد وزيره القتيل « الفضل » . يحدثنا العروضى فى جهار مقاله بأن السلطان سأل من حوله كم يعطى الشاعر فقالوا خمسين ألف درهم واستكثروا هذا المال فأرسل السلطان له عشرين ألف درهم . ولا تعد هذه الصلة شيئاً إذا قيست بما كان يبذله محمود للشعراء الذين يمدحونه. وكأن « محمود » لم يلتفت إلى الكتاب الذى جمع « تراث الفرس » الذى حرص على إحيائه العرب والفرس جميعاً . إنما عنى بذكر اسمه فى الكتاب فتمثل جوده فى هذا المبلغ الضئيل مكافأة على حشر اسمه بين أسماء الأبطال الذين أشاد

بهم الفردوسى فى كتابه . وكما فكر ابن سينا فى أن يلجأ إلى الزياريين فكر الفردوسى ، وهو الخبير بتاريخ إيران القديم ، فى أن يلجأ إلى أمير لا شك فى صحة نسبه إلى الساسانيين ، وهو أمير تابع فى ذلك الوقت للزياريين (ابن الأثير سنة ٣٨٨) . وشد الشاعر ، وهو ضيق الصدر ، رحاله إلى طبرستان . هناك يحكم رجل من أسرة قارن ، إحدى الأسرات الست القديمة فى تاريخ إيران ، اسمه شهريار . والمعروف أن طبرستان — كما يقول « لوسترانج » فى « بلدان الخلافة الإسلامية» — هى آخر إقليم إيرانى دخل فى الإسلام . وأن حكامه الذين حملوا لقب اصبهبذ (سپاهبد) ظلوا بعد الفتح العربى لبلادهم يحكمون مستقلين ، لهم نقودهم الفهلوية ولهم دينهم الزردشتى ، وكانوا كما يقول « كريستنسن » فرعاً من الأسرة المالكة الإيرانية القديمة . وظلت أسرة قارن تتمتع بامتيازها فى تحديد سلطة الملك ، وفى التتوج بتاج أصغر من تاج الملك ، فى العهد البرتى وكانوا يحملون لقب « پهلو » . وشهريار الذى قصده الفردوسى هو « شهريار بن شروين بن رستم بن سرخاب بن قارن بن شهريار بن شروين بن سرخاب بن مهر مردان بن سهراب » . سار الفردوسى إلى طبرستان التى يظلها جبل دنباوند موطن السيمرغ الذى تبنى زال والد رستم ، وهما البطلان اللذان أشادت بهما الشاهنامه، لعله يجد عند أميرها ملاذاً بعد أن اقترب من الثمانين وأصبح خالى الوفاض وإن كان بين يديه أعظم كتاب فى الأدب الفارسى . ويلتقى بشهريار ويقول : « سأحول هذا الكتاب من اسم محمود إلى اسمك فإن هذا الكتاب كله أخبار آجدادك ومآثرهم » . ولكن شهريار يهدئ من روع الشيخ الكبير ، فهو عاطف عليه ، محب للعمل الرائع الذى قام به ، عازم على أن يمنحه بعض المال ليعينه عوناً ما . خفى على الفردوسى أن الزياريين ، والأمير من أتباعهم ، قد أصبح هواهم مع محمود منذ سنة ٤٠٣ / ١٠١٢ ، ولا يستطيع شهريار أن يأتى بعمل

يغضب « محمود » ، والشاهنامه التي لم يقدرها محمود لا يستطيع هو أن يبدى إعجابه بها ولا أن يصل الشاعر بما يتكافأ معها . هون على الفردوسى وأكد له « أن محموداً حمل على هذا وأن الكتاب لم يعرض عليه وأنه سعى بك ؛ ثم أنت رجل شيعى ، وكل من تولى آل البيت لم تستقم له أمور الدنيا إذ لم تستقم لهم أنفسهم». وكان الفردوسى قد نظم مائة بيت فى هجاء السلطان محمود فعرض شهريار أن يشترى هذه الأبيات ، كل بيت بألف درهم ، على أن تبقى الشاهنامه باسم محمود وعلى أن يمحو شهريار أبيات الهجاء . وقبل الفردوسى . وبعد قرابة مائة عام يذكر العروضى ستة أبيات من هذا الهجاء تبين مدى غضب الشاعر على محمود الذى خيب أمله فيه . « لقد قالوا طاعنين : إن هذا المنطيق شاب على حب النبى وعلى ، ولئن حكيت لهم حبى لأحمين مائة مثل محمود . إن ابن الأمة لا يرجى خيره ولو كان أبوه ملكاً . حتام أطيل الكلام فى هذا ، وهو كالبحر لا أعرف له قراراً . لم يكن للملك قدرة على الخير وإلا لرفعنى على العرش ، ولم يكن عظيم الأصل فلم يحسن أن يستمع أسماء العظماء » .

والأرجح أن محموداً لم يسمع هذا الهجاء فلو أنه لم يمح وعرف به محمود لما عرف لشهريار حقه فكافأه ولمـــا استطاع الفردوسى أن يعود إلى بلدته طوس بعد مراضاة شهريار له . ومن المستبعد أن يعيـــد الفردوسى سطر هجائه لمحمود بعد أن قبل شراء شهريار لهذا الهجاء ، وبعد أن وعد ببقاء الشاهنامه باسم محمود، وترك مديحه إياه — وهو فى جميع مخطوطاتها — .

وعاد الفردوسى إلى طوس مهد شبابه ، جسداً محطماً وروحاً حزيناً : « قليل من الناس يتجاوزون السبعين وأنا أدرى أن ليس لهؤلاء غير الألم والبكاء على حياة أية حياة . لقد مس المرض قدمىّ فأقعدنى وأذنىّ فبهما وقر . وعدت علىّ السنين وأسلمتنى إلى الفقر والعوز » . ثم يتجه إلى السماء يسألها : « أيتها السماوات العلى لماذا أفقرتنى فى شيخوختى ، لقد كنت سمحة معى فى صباى فلما كبرت تركتنى للهوان . . » .

وفى غزنة كان السلطان محمود قد ندم على سوء تصرفه مع الفردوسى . هل هى وساطة شهريار « الذى قدم لمحمود يداً عظيمة وقد عرف له محمود حقه » كما يقول العروضى ؟ أو هل هو « نصر » والى خراسان الذى تدخل عند أخيه السلطان محمود ليرضى عن الفردوسى ويقدر عمله ؟ أو هل هى قصص الشاهنامه وكان يتغنى بها الناس فى كل مكان عرفت فيه ؟ كل هذه الفروض جائزة كما يقول « ماسيه » . ويروى العروضى أنه « سمع سنة ٥١٤ فى نيسابور من الأمير معزى أنه سمع من الأمير عبد الرزاق بطوس أن محموداً كان فى الهند مرة ، وبينا هو عائد منها إلى غزنة عرض له ثائر فى قلعة حصينة وكان منزل محمود فى اليوم الثانى عند باب هذه القلعة ، فأرسل إليه رسولا أن ائت غداً وقدم الطاعة . . فلما كان الغد ركب محمود . وبينما الرئيس الكبير (أحمد بن حسن الميمندى) يسير عن يمينه إذ عاد الرسول وأقبل شطر السلطان . فقال السلطان للرئيس الكبير ، ماذا يكون الجواب . فأنشد الرئيس بيت الفردوسى : إن لم يأت الجواب كما أريد فأنا والجرز والميدان وأفراسياب . قال محمود لمن هذا البيت الذى تنبعث الشجاعة منه ؟ قال للمسكين الفردوسى الذى احتمل العناء خمساً وعشرين سنة وأتم هذا الكتاب وما جنى أية ثمرة . قال محمود : أحسنت بما ذكرتنى فقد آسفنى أن يحرم عطائى هذا الرجل الحر ، ذكرنى فى غزنة لأرسل إليه شيئاً . . ثم أمر له بستين ألف دينار ، يعطاها نيلجا وتحمل على الإبل السلطانية إلى طوس ويعتذر إليه . ومضت سنون والرئيس فى شغل بهذا . . وأخيراً وصل النيلج سالماً إلى الطابران » . (كانت طوس تتألف من المدينتين التوأمين الطابران ونوقان) .

والمعروف أن الوزير الميمندى عزل سنة ٤١٦ / ١٠٢٥ . وسبق عزله هزات عنيفة لمركزه ، ورغم أخوته فى الرضاعة للسلطان محمود ومع ما بلغه من قوة حين أصبح وزيراً ، فإن خصومه كثر عددهم ، ونجحوا آخر الأمر فى إقصائه وولى مكانه حسنك (أبو على الحسن بن أحمد العباس) .

ويصور سيف الدين حاجى فى كتابه «آثار الوزراء» (منشورات جامعة طهران ١٩٥٨) ما كان من محاولات للإيقاع بالميمندى وقد طالت سنوات قبل عزله . وحسنك هذا شنق ، كما قلنا ، فى عهد السلطان مسعود بحجة صلته بالخليفة الفاطمى بمصر وكان شنقه بإيعاز من خليفة بغداد (القائم بأمر الله) . ومن المحتمل إذاً أن الميمندى ، مجاراة لميل أقوى خصومه ، رق للفردوسى وعمل على كسب رضاء السلطان عنه .

ومهما يكن فإن الشاعر الشيخ المحطم يتوفى قبل أن ينال صلة السلطان «فبينما الإبل تدخل من باب رودبار كانت جنازة الفردوسى تخرج من باب رزان» .

أما صلة السلطان فهناك روايتان عنها . واحدة تقول إن الفردوسى خلف بنتاً عظيمة النفس أرادوا أن يسلموا إليها هبة السلطان فأبت ، حرصاً منها على كرامة أبيها وإجلالا للشاهنامه التى أصبحت بعد موت ناظمها فوق الصلات . قالت «لا حاجة بى إلى هذا المال» ، فعمروا به رباط جاهه فى حدود طوس . والرواية الثانية تقول إن المال عرض على أخت الفردوسى فأخذته وأنفقته على إقامة جسر على النهر الذى كان يروى أو يطغى على أرض الفردوسى فحققت لأخيها أملا طالما تمناه فى أشعاره .

وتلاحق تهمة التشيع جنازة الفردوسى ، يقول العروضى إن واعظ الطبران المتعصب لم يجز حمل جنازة الفردوسى إلى قرافة المسلمين بحجة أنه كان رافضيا وأن الناس أطالوا الحديث إلى هذا الواعظ دون جدوى ، وكان للفردوسى حديقة عند هذه البوابة — اقتناها من صلة شهريار — فدفنوه بها . وزار العروضى قبره فيها سنة ٥١٠ / ١١١٦ .

* * *

أقام أرسلان الجاذب ، حاجب طوس من قبل السلطان محمود ، قبة على قبر الفردوسى . وهدمت القبة وأعيدت فى عهد المغول . وفى القرن العاشر الهجرى كتب دولتشاه أن قبر الفردوسى معروف يزوره المعجبون به . وفى القرن نفسه كتب نور الله الشسترى أن القبر أصبح خراباً كطوس نفسها وأن هدمه كان بامر من عبيدالله خان الأوزبكى و«أن كثيراً من الناس، وخاصة من الشيعة الإمامية ، يزورون هذا القبر الذى شرفت بزيارته» . (تاريخ بخارى : فامبرى ، ترجمة الساداتى) .

ورأى سايكس ، صاحب تاريخ إيران ، القبر وصوره فى كتابه ، ولا يتبين فى الصورة إلا أحجار منثورة فى العراء .

ومن بلغ شهرة الفردوسى ، وخلف أثراً كالشاهنامه ، هو أس التراث فى أمة ، لا يعنيه قبر مشيد ؛ وكأن مولانا الرومى يعنيه حين يقول :

«لا تبحث تحت الثرى عن ترابنا

فقلوب أحبابنا خير قبورنا»

فى عام ١٩٢٥ تألفت فى طهران جمعية لإحياء ذكرى الفردوسى وتشييد قبر له . وفى سنة ١٩٣٤ احتفلت إيران بمرور ألف عام على الفردوسى وأقامت له قبراً مهيباً حيث دفن ، يراه الزائر على مسافة أربعين كيلو متراً من مشهد ، مدينة الرضا عليه السلام .

— ٢ —

والشاهنامه ستون ألف بيت بالتقريب ، والمطبوع والمخطوطات تختلف فى العدد . وإذا استثنيت الأبيات الألف التى نظمها الدقيقى وأدخلها الفردوسى فى

كتابه ، فإنها تكون كلها نتاج شاعر واحد . ولا يبارى الشاهنامه فى طولها كملحمة إلا بعض الملاحم الهندية ولكن الشاهنامه تمتاز بأنها نظم شاعر واحد .

وهى تتناول قصص وتاريخ أربع أسرات : البيشدادية (أهل العدل) ، الكيانية (كى ، كاوى بمعنى الملك) ، الأشكانية ثم الساسانية .

ولم تشر الشاهنامه إلى الأسرة السلوكية : خلفاء الإسكندر .

والقصص الذى يروى تاريخ الأسرتين الأولى والثانية يكاد يكون خرافياً كله . فملوك الأسرة الأولى عشرة حكموا ٢٤٤١ سنة ؛ وملوك الأسرة الثانية عشرة أيضاً حكموا ٧٣٢ سنة .

وقصص الأسرتين موصولة ومتصلة بالأساطير الهندية إلى عهد لهراسب الذى كان قد ترك الملك وتفرغ للعبادة ثم جاء الملك التركى ارجاسب وقتله .

بعد لهراسب يأتى عهد كشتاسب ، الذى ظهر فى أيامه دين زردشت ، وبه تبدأ القصة التاريخية وتكون أقرب إلى التاريخ ، ويمكن إدخال الدور الأكمينى (الهخامنشى) فى هذا العهد . فكوروش الكبير (الثانى) هو كيخسرو وقمبيز هو كيكاوس وبهمن هو ارت خشتر (اردشير الأول – ارتجزرسيس) وهكذا . والشاهنامه ، على خلاف التاريخ ، تنهى هذه الأسرة بحكم الإسكندر المقدونى وتجعله ضمن الكيانيين ، فهو ليس أجنبياً عن إيران حتى يعد غازياً لها إنما هو ابن داراب ، وداراب هو أخو الملك دارا الثالث الذى تزوج بنت فيليب ملك الإغريق فأنجبت له الإسكندر الإيرانى .

والأسرة الثالثة ، الأشكانية (دولة البرت) ، حكمت فى الشاهنامه ٢٠٠ سنة ، ولا تذكر الشاهنامه أسماء حكامها جميعاً ، وهى تعدهم أجانب ولا تعنى بهم . والتاريخ يذكر ، بعد الإسكندر ، السلوكيين ثم الأشكانيين (البرت أو ملوك الطوائف) الذى ينهى عهدهم اردشير مؤسس الأسرة الساسانية .

والساسانيون حكموا ، حسب الشاهنامه ، ٥٠١ سنة وملوكهم ٢٩ . وفى التاريخ أنهم حكموا ٤٤١ سنة وملوكهم ٣٦ ملكاً . وتاريخهم ثابت مما كتب عنهم سواء عند مؤرخى اليونان أو فى الكتب البهلوية ثم العربية . وفى هذا القسم الأخير تعتبر الشاهنامه مصدراً تاريخياً للحضارة الإيرانية بوجه عام .

* * *

تصور الفترة الأولى من الشاهنامه التحول الحضارى لشعب إيران . فالملك قد اختير على أساس القدرة على فض المنازعات بين القبائل المتخاصمة أو على الحكم فى الخلاف بين الأفراد . فهو القاضى الذى يرتضى الناس حكمه ولذا يجب أن يعرف بالعدل . وهو قريب من الله وفيه من روحه ولذا فإنه يعبد وهو يفضى بالملك إلى أبنائه من بعده . والدنيا سكنت بالإنس والجن فكان على هذا الملك أن يحمى الشعب من الشر الذى يذيعه الشياطين ، وأن يحارب هذه الشياطين التى تتمثل فى التنين وغيره من الحيوانات المخيفة المفسدة . وفى هذه الفترة اكتشف الملوك وسائل الحياة من الملابس والنار والزراعة والكتابة وأكل لحم الحيوان . كما قسموا المجتمع إلى طبقات وأقاموا العمائر ونظموا الجيش .

فالملك هوشنك مثلا يجتاز الجبل ذات يوم مع بعض رجاله فيرى ثعباناً ضخماً يتطاير الشرر من عينيه وتظلم الدنيا من حر أنفاسه ، فيأخذ حجراً ويلقيه عليه بكل قوته فاذا الثعبان يجرى ليختبئ ولكن الحجر يقع على صخرة فتخرج شرارة من تكسرهما ويحمر موضع الشرر . وبدأ ظهور النار . وقد دعا الملك الناس إلى التوجه بالشكر إلى الله لأنه هداهم إلى النار . وفى الليل أشعل ناراً عظيمة التف حولها مع صحبه وشربوا الخمر . وسما هذا الاحتفال سده (السذق) .

والملك جمشيد الذى حكم ٧٠٠ سنة استخدم الحديد وأعد منه السيوف والرماح ونسج منه الدروع وعمل الجواشن والتجافيف وسائر أدوات الحرب فى زمانه . وعرف الملابس من الكتان والإبريسم وعلم الناس كيف يغزل الغزل وينسج . واستحدث الأبنية وشاد المدن . واستخرج الذهب والفضة والياقوت والفيروز فرصع بها المناطق والأساور والعصائب . ثم استخرج الطيب . المسك والكافور والعنبر . وأظهر علوم الطب وخواص الأدوية . وصنع المراكب وجاس بها البحار . وكان يسخر الجن فعمل تختاً مرصعاً بالجواهر ورتب له حملة منهم فكان يجلس عليه وهم يرفعونه فى الهواء ويحملونه إلى حيثما أراد . ووضع عيد النوروز فقد كان حمل الجن لتخته أول يوم فى السنة والشمس فى برج الحمل فعيد اليوم وسماه النوروز.

وقد طغى وله فى الحكم ٣٠٠ سنة ونسى ربه فنهاه رجال الدين عن ذلك فلم يأبه لقولهم فكان أن غلبه الضحاك وحمله على الهرب ٤٠٠ سنة ثم قده فى نهاية الأمر نصفين بمنشار .

والضحاك (ازدهاق) وهو بيوراسب (صاحب عشرة آلاف فرس) ، كان أبوه مرداس ملكاً تقياً فى الصحراء التى يسكنها الفرسان رماة السهام ــ العرب ــ وجاء إبليس إلى الضحاك وزين له قتل أبيه ليرقى عرشه فاستجاب لإبليس وقتل أباه . وكان يحب الأكل فتزيا إبليس فى زى طباخ وأخذ يهيئ له خير أنواع الطعام ، وكانت الأطعمة المعروضة قليلة عندهم ، فأثر ذلك فى نفس الضحاك وقرب الطباخ منه حتى صار أقرب الناس إليه . وذات يوم قال الضحاك للطباخ : اقترح حاجة أقضها إليك . فقال الطباخ دعنى أقبلك بين كتفيك . فأذن له ، ثم اختفى الطباخ فلم يعد يره الملك ، وخرج من كل واحد من كتفيه حية سوداء ، وجاء الأطباء فقطعوا الحيتين فعادتا ، كغصن الشجرة ، من جديد . وتكاثر الأطباء ولم يجد طبهم فى اقتلاع الحيتين . واتخذ إبليس هيئة الطبيب ودخل على الملك فقال له هذا قدر كتب عليك والعلاج أن نطعم الحيتين حتى لا يضج منهما الملك وطعامهما لا يكون إلا من أدمغة البشر. فأخذ الملك برأى الطبيب وقتل ما لا يحصى من الخلق لإطعام الحيتين بأدمغتهم . كان كل ليلة يأمر بقتل رجلين .

وكان لجمشيد طفل هربت به أمه إلى الهندوأحسنت تربيته حتى إذا شب وعرف ما يجريه الضحاك من المظالم فى إيران أخذ يستعد لتخليص البلاد من شره . والضحاك فى الوقت نفسه يسرف فى الدماء ويتبع أخبار هذا الولد ــ افريدون ــ الذى حدثه المنجمون عن أمره ويجمع الضحاك العلماء والزهاد من حوله عسى أن يدفع عن نفسه بعونهم . وذات يوم يثور « جاوه » وهو حداد قتل أحد ولديه وجاءت النوبة فى اليوم التالى على الابن الثانى . ورفع « جاوه » قطعة الجلد التى يغطى بها قدميه عند تطريق الحديدة المحماة ونادى من ورائه خلق كثيرون بشعار أفريدون الذى اتجه القوم إلى مخبئه ليأخذوه ويجلسوه على عرش أبيه . ويقود افريدون الثوار ويهزم الضحاك وفى اللحظة التى يريد أن يهوى بجرزه على رأسه كالصاعقة تمثل ملك أمامه ويقول « إن الله يأمر بمد أجل هذا الثعبان حتى يعذب طوال الزمان ، شد وثاقه والقه حبيساً فوق جبل دنباوند » . وبهذا انتهى عهد الضحاك الذى دام ألف سنة .

وظل علم جاوه « درفش كاويان » علم إيران منذ ذلك الزمان .

* * *

وعيد افريدون يوم ارتقائه عرش إيران أول يوم من ماه مهر ، وعرف هذا العيد باسم المهرجان .

وكان له ثلاثة أبناء زوجهم من ثلاث أخوات هن بنات ملك اليمن (سرو) . واستقر له ملك الدنيا فآثر الاعتزال للتعبد وقسم ملكه بين أولاده الثلاثة . فأعطى

« سلم » بلاد الروم و « تور » الصين وبلاد الترك و « إيرج » إيران وجعله ولياً للعهد . وتسنم كل منهم عرشه . ولكن سلم وتور حقدا على أخيهما وطعنا فى القسمة التى أجراها أبوهما وقالا إنهما كانا أحق بولاية العهد من إيرج . وبعثا برسول إلى افريدون منذرين متوعدين . فلما علم إيرج بهذا عرض على أبيه أن يذهب مسالماً إلى أخويه وأن يعمل على إخماد ما فى قلبيهما من الحقد عليه وذلك بأن يترك ملكه قسمة بينهما . وسار إلى أخويه فأحسنا استقباله ، وكان يعاملهما معاملة كلها ود وإخاء ، وكلما جرى على لسان أحدهما قول جارح قابله بالكلمة الطيبة . والكبراء حول الأخوة يشهدون عتو سلم وتور وهدوء إيرج وسلامة منطقه ورجاحة عقله وإيثاره السلام وحقن الدماء ؛ فكانوا يتحدثون عنه فى إكبار وإجلال ويتهامسون فيما بينهم بأن رأى افريدون هو الصواب فهذا الشاب أجدر أخوته بولاية العهد . ويشعر الأخوان بما يتهامس به الناس ويدركان ما كسبه إيرج من تقديرهم . فيثب تور على أخيه ويرميه بكرسى من ذهب فيتوسل إليه إيرج ألا يفلت منه الزمام وأن يهدأ حتى لا تكون فتنة بين التورانيين والإيرانيين ؛ ويقسو قلب تور فيستل خنجره ويطعن أخاه فيقتله ويحتز رأسه . ويرسل الأخوان رأس إيرج إلى أبيه .

ويحزن أفريدون حزناً شديداً ويبكيه بكاء مراً حتى يفقد بصره . ثم يعلم أن جارية بالقصر حامل من ولده إيرج ، وتلد الجارية بنتاً ، فلما تكبر يزوجها من ابن أخيه فتلد منه منوجهر الذى يسعد جده به ويجد فيه عوضاً عن ابنه إيرج ويرد الله إليه بصره .

ويعد منوجهر جيشاً ومعه قارن (صاحب الأسرة التى ينتسب إليها شهريار الذى قدم الفردوسى الشاهنامه إليه بعد أن يئس من محمود الغزنوى) ، وسار الجيش إلى توران فهزم جيش تور ثم انقض عليه منوجهر واحتز رأسه . ثم سار إلى حيث سلم ، وكان قارن قد قطع عليه سبل الفرار فقتله أيضاً .

ويعود منوجهر منتصراً إلى جده الأكبر أفريدون الذى يقر به عيناً ، فيرى الوقت قد آن لأن يبوئه عرش إيران وليجعله خليفته ، ثم إنه يعهد برعايته إلى سام ، البطل الإيرانى ، ويشعر بدنو أجله ، بعد أن حكم ٥٠٠ سنة . وبموت أفريدون يبدأ عهد الأبطال فى الشاهنامه ، وتطغى أخبارهم على أخبار الملوك . ولا تشير الأبستاق (الأوستا) إلى الأبطال بينما تذكر الملوك الخرافيين .

وهؤلاء الأبطال هم سام وابنه زال ثم رستم بن زال وأخيراً سهراب بن رستم .

* * *

ولد لسام ولد طالما انتظره ، وتطير حين رأى شعره أبيض فأخذه إلى جبل وتركه فيه . وجاءت السيمرغ (العنقاء) فرأت الطفل فأشفقت عليه وحملته إلى عشها ونشأته مع أفراخها . وكبر الولد ورأته القوافل وهى تسير بجانب الجبل وتحدث الناس عن الإنسى الذى يعيش فى شعفة الجبل بين أفراخ العنقاء . وسمع سام بقصة ابنه ورأى فى منامه رسولا يخبره بقصته ، وسار إلى الجبل بنفسه بحثاً عن ولده ورأته السيمرغ فأبلغت الولد ، وكانت تسميه داستان ، ونصحته بأن يقبل أن تحمله إلى أبيه . ونزعت ريشة من جناحها وطلبت إليه أن يحتفظ بها حتى إذا ما حزبه أمر أحرق الريشة فتحضر السيمرغ وتقضى حاجته . وعظم شأن زال وتبناه منوجهر وأبلى بلاء عظيما فى حكم الهند والسند حين ناب عن أبيه سام الذى وجهه الملك للحرب فى مازندران .

وأحب زال روذبه بنت ملك كابل ، وهى من نسل الضحاك ، وتزوجها بعد مشاورات طويلة وتردد . فقد كان الملك يخشى مصاهرة بيت الضحاك . ولكن زال ينجح فى إقناعه بعد أن يجتاز امتحاناً عقده

الموابذة له وسألوه عن اثنى عشرة أحجية أجاب عنها .
(أوديب له موقف مماثل) .

وحملت روذبه ، فلما جاءها المخاض تعسرت وأوشكت على الهلاك . وزال واقف ترتعد فرائصه ويبكى . وفجأة يذكر ريشة السيمرغ التى معه فيخرجها من جيبه ويحرقها ، فتحضر السيمرغ ومعها الخير والأمان ، تأمر زال بأن يأتى بحديدة حادة ويعطيها إلى آس حاذق ليشق بها خاصرة روذبه ثم يستخرج الولد ؛ ثم وصفت له الدواء الذى يوضع على الجرح قبل أن يخيط . وأمرت بأن تسقى الوالدة من الشراب ما يفقدها الوعى حتى تتم هذه العملية (القيصرية) . ونظرت السيمرغ فى حنان إلى زال ونزعت ريشة من جناحها تركتها له ثم حلقت . وجاء الآسى وقام بالأمر واستخرج ولداً لم ير له مثيل ، جمالا وقوة ، كأنه ابن عشر سنين . ولبثت روذبه مغشياً عليها يوماً وليلة فلما أفاقت ورأت ولدها بجانبها حدقت فيه وحنت عليه وقالت « برستم — أى نجوت » . فسمى الولد « رستم » .

وجئ للطفل الرضيع بمرضعات عشر ، فلما تم فطامه كان يأكل أكثر من نصيب خمسة رجال . وفى شبابه المبكر كان يصرع الفيل الثائر بضربة واحدة .

وامتحنه زال ليرى مدى دهائه بجانب ما أوتى من قوة ، فكلفه بفتح قلعة حصينة ، فتخفى رستم ورجاله فى زى التجار وخبأ السلاح فى أكيسة الملح ، ودخل القلعة فجعل عاليها سافلها . فاطمأن الوالد إلى قدرة ولده وكتب بذلك إلى جده سام .

* * *

ومات الملك منوجهر وكان قد أوصى بالملك لولده « نوذر » وأوصاه بأن يتبع النبى الجديد إذا ظهر بناحية المغرب ، وحذره من جنود بشنك ملك الترك وابنه افراسياب ونصحه بأن يستظل بحماية الأبطال ، سام وأولاده . ولم يكن نوذر جديراً بالملك ، كان لاهياً عابثاً . ويرسل بشنك جنوده وعلى رأسهم ابنه أفراسياب . ويموت سام فى زابلستان فيذهب أفراسياب إلى إيران منتهزاً فرصة تغيب زال لحضور العزاء فى أبيه . ويؤسر الملك نوذر ثم يقتل بعد أن يغلب زال جنود الترك ويقتل أعيانهم . ويلجأ أولاد نوذر إلى زال . وينصب هذا الملك زو بن طهما سب ، وهو أحد أحفاد أفريدون . ويلم القحط بالبلاد ويعجز جيشا توران وإيران عن متابعة الحرب ويعقد الصلح بين الطرفين . وتذهب الغمة وتخضر الأرض وتكثر الخيرات ولكن زو يموت ويعود أفراسياب ليحتل إيران . ويموت الملك الجديد كرشاسب وتزحف طلائع الترك على إيران ويلجأ الأشراف إلى زال فيعهد إلى ابنه رستم بالأمر ويطلب إليهم تنصيب ملك على إيران حتى لا يبقى الملك بغير رجل من آل أفريدون . فأشار الموبذ بكيقباد وسار رستم ليخبره بهذا وليكون فى دولته بطل الأبطال .

* * *

ويبدأ عهد الكيانيين مع البطل رستم . وحول رستم روايات كثيرة . منها المخاطر التى اجتازها وهو يخلص كيكاوس من « سپيد ديو » —العفريت الأبيض— وقتله ملك مازندران الذى كان يستعين بالشياطين . وتذكر القصص دور « الرخش » فرس رستم .

ولكن القصة التى اشتهرت هى قصة صلة رستم بسيدة من توران ومولد ابنه سهراب ثم الحرب بين الأب وابنه دون أن يعرف أحدهما الآخر . وهى القصة التى لخصها سانت بيف Sainte-Beuve بالفرنسية كما نقلها للإنجليزية ماتيو آرنولد Mathew Arnold

قال الفردوسى : خرج رستم ذات يوم للصيد عند حدود توران ، وبعد الصيد نام وترك « الرخش » يرعى فجاء جماعة من أهل مدينة سمنجان وسرقوا « الرخش » فسار رستم إلى هذه المدينة وقابل ملكها وطلب منه أن

يحضر الرخش بالحسنى . وهدأ الملك من روعه واستضافه في قصره . وفى الليل جاءته تهمينه ابنة الملك ، فعقد عليها برضاها . فلما آذنت الشمس بالطلوع أعطاها خرزة كانت مشدودة على عضده ، وقال لها : « إن رزقت أنثى فاربطيها فى قرونها ، وإن رزقت ابناً فشديها على عضده » . ثم إن ملك سمنجان دخل غرفته وبشره بالعثور على فرسه . فسر رستم وركب الرخش وانطلق إلى إيران . ووضعت ابنة الملك ولداً سمته سهراب ، كان يشب فى يوم ما يشب غيره فى سنة . فلما كبر سأل أمه عن أبيه وجده فقد وجد نفسه أطول أقرانه قداً ، وأوسعهم صدراً ، وأشدهم بأساً . فقالت له أنت ابن رستم من شجرة زال بن سام بن نيرم . وما استعلاؤك إلا لأن ذلك البيت أصلك . . فقال سهراب : لأجمعن جيشاً عظيما من الترك ولأخلعن كيكاوس عن عرشه وأنقل تاج إيران إلى رستم ، وأعطف إلى بلاد توران وأنتزعها من يد أفراسياب فأكون مع أبى ملكى هذه الدنيا . وبلغ افراسياب أن سهراب جمع جيشاً حوله وأنه يتصدى لاكتساب المجد . . وبعث افراسياب برجلين من ثقاته ليسيرا مع سهراب فى مسيرته لإيران ويبذلا أقصى المكر حتى لا يعرف أباه رستم عند الملاقاة . وكان أمله أن يقتل أحدهما الآخر . وفى الطريق التقى رستم بقائد قلعة واشتبكا فى المبارزة ، وكتب رجل فيها إلى الملك كيكاوس ينبئه بهذا الفارس التركى الذى لم ير مثله والذى يشبه سام بن نريمان فى عراكه ونبه الكاتب ملك إيران إلى ضرورة الاستعداد لملاقاة جيش هذا الفارس . فلما بلغ الكتاب الملك تشاور مع رجاله واتفقوا على استنهاض رستم فى زابلستان ليحضر بنفسه ويدفع شر هذا التركى الشجاع .

واستخدم الشاعر وسائل الإثارة فى نفسيتى رستم وسهراب ، وكثيراً من الظروف التى كانت تحول دون معرفة أحدهما الآخر ، واللقاء بين البطلين تم على مراحل ويقترب أمل القارئ من أن البطلين سيعرفان ما بينهما من صلة الرحم ثم يتبدد هذا الأمل. وتنتهى المعركة بأن يقتل رستم ولده سهراب ويراه وهو يحتضر ويستمع إليه يقول : « إن كنت أنت رستم فإنما قتلتنى وأنت أعمى القلب ، فكم تعرفت إليك وتملقت لك فما تحرك عرقك ولا لان قلبك . فحل الآن معاقد جوشنى . . فإن أمى حين ودعتنى شدت على عضدى خرزة وقالت هذه من أبيك » . . فلما رأى رستم الخرزة فقد من الحزن الصواب ، فلما ثاب إلى رشده أسرع فى إرسال رسول يطلب من الملك كيكاوس دواء لإيقاف نزيف ولده . . ويأبى الملك النذل أن يسعف الولد والوالد جميعاً ، غلبه طبعه السيئ . . وعاد الرسول ليخبر رستم بمنع الملك الدواء عن ولده فيسرع بنفسه للملك وفى الطريق يلاحقه الخبر بأن سهراب مات . .

وقد أبدع « عزام » حين نظم ، على مثال شعر الشاهنامه ، سماع أم سهراب بقتله :

وأخبرت الأم أن البطل	بسيف أبيه أتاه الأجل
فمزقت الدرع أظفارها	فلاحت تلألأ أبشارها
تئن وتجأر جهد الحزين	وينتابها الغشى فى كل حين
تلف أصابعها بالشعـــر	فتجتز من أصلهن الطرر
وتذرى على الخد دمع الدم	وتكبو وتنهض فى المأتم
ومدت لها سنة فى العمر	لنوح الليالى وندب النهر
وأسلمت الروح مما بها	فطارت تحن لسهرابهـــا

* * *

وينتقل الفردوسى بعد قصة سهراب ورستم إلى قصة جديدة لسياوخش بن كيكاوس . تزوج كيكاوس من سوذبه بنت ملك هماوران (حمير) ، كما أنجب ولداً من فتاة تركية يتصل نسبها بأفريدون وسمى الولد سياوخش ، وعهد بتربيته إلى رستم . وتتكرر القصة التى كانت بين امرأة بوتيفار وسيدنا يوسف (امرأة العزيز وسيدنا يوسف فى القرآن) . فتراود سوذبه ابن زوجها سياوخش عن نفسه فلا يجاوب وتخبر الملك

كيكاوس بخيانة ولده له فيأمر الملك بأن يجرى الابتهال على ولده ، ويأمر بإشعال النار ويمرق سياوخش بفرسه هذه النار فتكون برداً وسلاماً عليه ويخرج منها سالماً . ويأمر الملك بقتل سوذبه ولكن سياوخش ، مقدراً حب أبيه لها وما سيكون من نقمته عليه بعد قتلها ، يناشد أباه أن يعفو عنها ، فيعفو .

ويعود افراسياب فيحشد الجيوش لغزو إيران ويتقدم ، وينتهز سياوخش الفرصة لينجو بنفسه من حبائل كيد سوذبه فيعرض على أبيه أن يخرج لدفع العدو مع رستم . ويخرج البطلان ويضطرب أفراسياب ويرسل رجلا من قبله يطلب الصلح . ويتشاور بطلا إيران ويقرران القبول . لقد بعث إليهما أفراسياب مائة نفس من الأمراء الكبار تأكيداً لصدق ميله وإيثاره السلم . وبعد التشاور أوفد سياوخش رستم ليشرح الأمر لكيكاوس . ويغضب هذا ويهين رستم : « أحسب أن سياوخش شاب غر لم تصبه المكاره ولم تعضه النوائب . ألست أنت الجذيل المحنك والعذيق المرجب ومن يتعلم منه الملوك ؟ سآمره أن يهجم غير متلبث على افراسياب فى مخيمه ويضع فيهم السيف ويوسعهم القتل والأسر . أما الأمراء الذين أوفدهم أفراسياب فيحضرون عندى لأسقيهم كأس المنون » .

وتمسك رستم بأهداب السلم وآداب الحرب وقال لكيكاوس : « ليس يحسن فى الأحدوثة أن ينتشر عن سياوخش أنه أخفر الذمة وغدر بالرهائن » . ويتهم الملك رستم بأنه يشير بهذا إيثاراً للدعة ، وركوناً للرفاهية ويحتد رستم ويخرج غاضباً ويذهب إلى زابلستان .

أما سياوخش فيلقى رسول أبيه الذى يقص عليه ما جرى مع رستم ويحمل إليه أمر الملك بأن يحل «طوس» محل رستم ، ثم يبين له الرسول مدى حقد أبيه عليه والمصير الذى ينتظره إذا هو عاد دون قتال أفراسياب . فوجم سياوخش لما حزنه من تنكر أبيه عليه وما يخشى من عاقبة ذلك ، ويأبى أن يسلم الرهائن إلى أبيه . وكان على سياوخش أن يختار أحلى أمرين كلاهما مر . فهو لا يريد أن يذهب إلى إيران حيث أبوه الملك النزق الشرير الضعيف الذى وقع فى هوى امرأة لعوب وهو مجبر على أن يختار اللجوء إلى أفراسياب فيتخذ من العدو صديقه . ويشير رجال أفراسياب بوجوب استقبال سياوخش على الرحب والسعة ، ويقبل ملك الترك هذا الرأى بعد تردد شديد فقد كان المنجمون يخشون هذا اللقاء الوديع ، والناصحون يرون أن ملك إيران صائر إلى سياوخش والخير أن يكرمه الترك وهو فى محنته . ويلقى سياوخش الود الخالص من أفراسياب الذى يزوجه ابنته فرنكيس ، ويهب له ولاية فى دولته . هناك يعيش سياوخش ويحكم ويشيد مدينة كنكدز فتكون كالجنة فى الأرض . وكان نجم سياوخش إلى النحس أميل ، فإنه يثير حقد كراسيوز أخى الملك فيوقع هذا بينه وبين أخيه وينجح مسعى السوء بين الصديقين « إنه قد تغير عما كان عليه ، وقد تكررت الرسل إليه من أبيه كيكاوس فى السر ، وكذلك تأتيه الرسائل من أطراف الروم والصين ، وهو لا يشرب الآن إلا على اسم كيكاوس » ، ويقرر أفراسياب إنه سلم لمن سالمه وحرب لمن حاربه . ويقتل سياوخش . أما فرنكيس فتحزن لقتل زوجها ويحاول أبوها إسقاط الجنين الذى فى بطنها ولكن أميراً تركياً ينقذها وهو بمكيدة كراسيوز من العالمين ، ويسمى المولود كيخسرو كما أراد أبوه .

أما كيكاوس فيدرك أنه تسبب فى قتل ولده فيجلس للعزاء ويجئ رستم كالأسد الغاضب فيشبع الملك تعنيفاً ولوماً ويسرع إلى بلاطه فيدخل إلى حيث تقيم زوجه سوذبه فيجذبها من شعرها ويخرجها ويقدها بسيفه نصفين . ثم يأخذ جيشه ويسير إلى بلاد الترك . ويحتل رستم توران ويأسر ابن أفراسياب . أما هذا فيهرب إلى الصين ويصحب معه كيخسرو بن

سياوخش . وينجح جيو ابن أخي رستم فى اختطاف كيخسرو . وكان كيخسرو ينتظر هذا الخلاص الذى حدثته أمه به وكان نبوءة لأبيه قبل مقتله .

ويحضر كيخسرو إلى إيران ويلاقى جده كيكاوس الذى قام ونزل له عن تخته واعتنقه وقبل وجهه ، وحضر جميع الأصبهبذية والأمراء وسلموا عليه بالسلطنة عدا « طوس » ، « صاحب الكوس والمداس الذهبي وحافظ الدرفش الجاوياني » فكان يتعصب لعم كيخسرو « فرى برز » ويقول « كيف يجوز أن يكون الحافد وارث التاج والتخت مع وجود الابن . ونحن لا نرضى ملكاً من نسل أفراسياب » . ويختلف الأمراء ويلجأون إلى كيكاوس ليقضى برأيه فيشير بأن من يفتح منهما قلعة بهمن يكون صاحب الحق فى التاج . وينجح كيخسرو فى فتح قلعة الشياطين ويعود إلى إيران فيبايعه الأمراء جميعاً ملكاً عليهم .

وكيخسرو هو كوروش فى (الآثار الباقية) ، للبيرونى ، وهو ثالث الكيانيين والثالث عشر من ملوك الشاهنامه . وهو بقية من المقدسين فى الدين الآرى القديم . وهو آخر الملوك الذين تشترك فيهم أساطير الأبستاق والفيدا . وقصة ولادة كيخسرو فى توران وتربيته بين الرعاة وما كان من إشفاق جده أفراسياب من زوال ملكه على يده ، وقتل الجد بيد حافده فى النهاية تشبه كل الشبه ما يرويه هردوت عن ولادة كورش وما كان بينه وبين جده لأمه استياجس ملك ميديا . (پيرنيا وعزام) . وتدور الحرب سجالا مع التورانيين أيام كيخسرو ويلعب رستم دور البطل الأعظم فيها . وتجرى وقائع : كاموس الكشانى ، ورستم مع أكوان الجنى ، وحرب الإثنى عشر رخا وغيرها .

وتنتهى حياة كيخسرو فى غموض . فهو يعتزل فى آخر أيامه ويخلو إلى ربه ويطلب إليه أن يأخذه إلى جواره . كان وقد نصره الله ومكنه من أعدائه وأتاح له الثأر لأبيه وبلغه ملك المشرق والمغرب ، يخشى أن يملك العجب مقاده فيصير مثل الضحاك وجمشيد وأفراسياب ولهراسب الذين كفروا بالله وجعلوا أنفسهم آلهة من دونه . ويجتمع عظماء إيران الذين هالهم تصوف الملك وعزلته وانصرافه عن الملك بعد أن استقر له الأمر وهدأت الفتن ، وكما كانوا يلجأون إلى زال ورستم فى الحروب والمعارك استعانوا بهما لإقناع الملك بأن يعود إلى الحكم ويترك مناجاة ربه . ويشتد زال فى حديثه مع كيخسرو ويصبر هذا ولا يخاشن زال فى الجواب فليس هذا حسناً عند الله وهو لا يأمن موجدة رستم إن هو تطاول على أبيه الشيخ المهيب ، يقول له : « إنى سئمت التاج والتخت والأمر والنهى ووقفت بين يدى ربى فى هذه الأسابيع الخمسة أتضرع إليه وأسأله أن يخلص روحى من هذه الأرض المكدرة حتى استجاب دعوتى وحقق أملى . ولقد رأيت فى المنام كأن ملكاً نزل على وهمس فى أذنى : « إنك قد أعطيت ما سألت فتجهز إلى جوار الله الكريم ، ولا تقم فى هذه الدنيا الكدرة ، وفرق الأموال على المحتاجين والفقراء والمساكين . . » فاعتذر زال عما بدر منه ، وأدرك الحاضرون أن كيخسرو ليس بمجنون إنما هو من الواصلين .

وكما انتهت حياة « يدهشترا » وأخوته والذين كانوا فى وداعهم تنتهى حياة كيخسرو ومرافقيه .

تقول « المهابهارته » إن يدهشترا وإخوته يسيرون بعد أن اعتزل الملك ويودعهم الرجال والنساء ثم يرجع المودعون ، ويستمر السائحون فى رحلتهم حتى يبلغوا متاهة مهلكون فى رمالها ما عدا يدهشترا الذى يسير قدماً لا يعبأ بشىء ومن ورائه كلبه حتى يدخل السماء حياً (ورنر) ؛ وتقول « الشاهنامة » إن كيخسرو صعد إلى جبل وفى أثره العظماء والنساء والرجال زهاء مائة ألف نفس يبكون ويضجون حتى طن بصياحهم السهل

والجبل . ثم إن الملك التفت إليهم ونبههم إلى أنه يجتاز طريقاً صعباً لا ماء فيه ولا عشب ، فانصرف عنه زال ورستم وجوذرز ، وتبعه الباقون . . ولما طلعت الشمس ركب الملك وغاب عن أعينهم فهاموا على وجوههم يطلبونه ويبكون . . ثم تغيمت السماء واشتد الهواء ومطروا ثلجاً هلكوا تحته أجمعين .

وكان كيخسرو قد بايع لهراسب ليخلفه ، ولم يكن زال ورستم عن هذا الاختيار راضين . ويأتى بعد لهراسب كشتاسب . وفى عهده ظهر زردشت فاعتنق ديانته . واشتهر ابنه اسفنديار (أمه كتايون بنت ملك الروم) بالبطولة .

واسفنديار هو بطل قصة المنازل السبعة (هفتخوان اسفنديار) وقد وضعت هذه القصة محاكاة لقصة رستم المعروفة بهذا الاسم . فكما اجتاز رستم ، فى مازندران ، سبع عقبات : رخش رستم والأسد ، العطش يضعف رستم ، رستم يقتل التنين ، قتل رستم امرأة ساحرة ، رستم يأسر أولاد ، حرب رستم أوزنك الجنى ، قتل رستم الجنى الأبيض ، يجتاز أفراسياب سبعة خطوب .

واسفنديار هو بطل دين زردشت أيضاً . تعاون فى نشره بالسيف وعاون الوزير جاماسب فى إحيائه . واسفنديار هو الذى خلص والده كشتاسب أكثر من مرة وهو الذى قتل ملك الترك ارجاسب .

ويلقى اسفنديار من أبيه مثل ما لقى سياوخش : فإن كشتاسب حريص على الملك حرصاً أنساه الشفقة على ولده البطل ، فهو يستمع إلى كرزم الذى سعى إليه بالوقيعة وصور له أن ابنه يتآمر عليه ، وقر فى نفس كشتاسب أن يتخلص من اسفنديار .

وكان رستم فى زابلستان ملكاً لم يبايع ملك الملوك ، فأمر هذا ابنه اسفنديار أن يذهب إلى زابلستان ويأتى برستم أسيراً فى القيد . وعبثاً يحاول الابن أن يثنى أباه عن طلبه ، ذاكراً رستم وحروبه وإنقاذه إيران . وصمم كشتاسب وأمره مطاع وعصيانه حرام فى دين زردشت .

ويبذل رستم الكثير من الود نحو الشاب البطل ويقبل أن يصحبه إلى كشتاسب ولكن دون قيد ، وتلعب الأقدار دورها ويحسب اسفنديار أن رستم يخدعه . وينشب القتال بين البطلين ، ومن حولهما رجالهما ، ودون إذن بقتال يشتبك الرجال ويقتل ولدان من أبناء اسفنديار ، فيفقد هذا صوابه ويمطر رستم وابلا من سهام تصيبه وتضطره إلى أن يعتصم بجبل ويطلب استئناف القتال فى الصباح . ويجد أفراسياب أن الليل أقبل بظلامه فلا يلاحق خصمه . ويلجأ زال ، الشيخ الكبير الذى لم يفلح مسعاه للسلام ، إلى العنقاء فيحرق جزءا من ريشها التى سلمتها له عند مولد رستم ، فتحضر العنقاء وترفرف على رستم وتغمره بحنانها ثم تدخل منقارها فى جراحاته وتخرج منها نصالا أربعة ثم تمسحها بجناحها فتلتئم . وصنعت مثل ذلك بالرخش واستخرجت منه ستة نصال . ثم قالت لرستم « لأى معنى تعرضت لقتال اسفنديار . . وقاتله لا يرى الخير بعده . . وتقصر مدته ويلقى العناء بقية عمره ، ويذوق العذاب بعد موته ؟ فإن رضيت بهذه الحالة فاركب وأبصر العجب » . فركب رستم وسار إلى ساحل البحر . فأسفت العنقاء على شجرة من الطرفاء فقالت له : « اقطع من هذه الشجرة قضيباً مستقيما . . وركب عليه نصلا عتيقاً ، واجعل له قذذا . ثم إذا جاء اسفنديار يطلب قتالك فتضرع إليه وابلك بين يديه فلعلك تصرفه عن قتالك بحلو لسانك . فإذا لم يفعل فوتر قوسك وسدد نحو عينه هذا السهم . . فإنه يصيب عينه ، ويكون فى ذلك حينه » . وأرشدته إلى الطريق ، ثم ودعت « زال » وطارت .

ونزل البطلان إلى الميدان فلما تقاربا قال اسفنديار : « أيها السجزى ! كأنك قد نسيت صنيعى بك بالأمس ، وكان ظنى أنك تكون اليوم محمولا إلى الرمس . إنك لم

تبرأ إلا برقية أبيك وسحره . وسأسد عليك اليوم سبيل حيلته ومكره . فأجعل بدنك كالغربال بصادرات النبال . . . » . فقال رستم : « إنى ما جئت اليوم للقتال . وإنما جئت لأتضرع إليك عساك تجنح إلى السلم وتطفئ من قلبك نار الحقد » . ولكن القدر يدفع أفراسياب إلى الشر ويصوب رستم عليه السهم فيصيب عينه فينقلب عن ظهر فرسه ثم يتماسك وينتزع السهم ويجرى إليه ولده بهمن . ويحتضر اسفنديار ورستم قائم فى مكانه ويلتفت إليه البطل وهو فى نزعه الأخير ويقول له : « لم يقتلنى غير أبى كشتاسب حيث أكرهنى على قتالك والآن فهذا ولدى بهمن تسلمه منى واحمله معك إلى زابلستان وربه تربية الوالد لولده » . ويضع رستم يده فى يد اسفنديار ويعاهده على أن يربى ولده ويسعى له حتى يكون ملكاً . ويموت اسفنديار .

أما رستم فيقتله أخ له من أبيه اسمه شغاذ . هيأ له حفرة غرز فى قاعها نصولا محددة ثم غطاها . ودعا رستم إلى الصيد فوقع برخشه فى الحفرة فمزقته الحراب ولكنه يخرج مثخناً بالجراح القاضية من الحفرة ويطلب إلى أخيه أن يعطيه قوسه ونشابتين ليذود بها السباع عن نفسه حتى يموت . وقدم شغاذ لأخيه قوسه ووترها فتناولها رستم وخاف شغاذ فتترس بشجرة دلب كانت هناك مجوفة قد أتت عليها السنون . فرمى رستم الشجرة بنشابته فنفذت فيها وخلصت إلى شغاذ فخاطته مع الشجرة وأصمته . ويموت رستم وتنتهى حياة أعظم أبطال الشاهنامه .

* * *

وتمضى الشاهنامه بعد ذلك . فتتم تاريخ الأكمينيين وتجعل الغزو الإغريقى إيرانياً صرفاً فالإسكندر منهم وليس أجنبياً ثم تتحدث عن الأشكانيين ثم الساسانيين فتصور عصورهم الزاهية ثم عصر التحلل الذى جعلهم فريسة سهلة المنال للفتح العربى .

* * *

لا بد من الانتقال الآن إلى فن الفردوسى فى الشاهنامه فالحديث يطول لو تحدثنا عن العهد الساسانى كما تصفه الشاهنامه . إنما يكون هذا موضوع مقال على حدة .

والشاهنامه وهى تقص وقائع البطولة والانتصارات الكثيرة والهزائم القليلة لا تكتفى بالحرب وحدها . إنما هى تتحدث عن الحرب والمآدب — رزم وبزم — وتتحدث عن الحب حديثاً عذباً كالذى ذكرنا بين زال وروذبه وكالذى كان فى العهد الساسانى بين خسرو وشيرين . وعنيت الشاهنامه بالحديث عن الخيل فرخش رستم وبهزاد سياوخش لهما نصيب مرموق فى الكتاب . وتتحدث الشاهنامه أيضاً عن الصيد . وكان رياضة الفرس المفضلة . ولعب الكرة والصولجان والأدب وتذوق الموسيقى .

والملاحظ فى الشاهنامه أن الكلمات العربية قليلة فيها . لا تتجاوز ٤٣٠ كلمة . وربما عمد بعض النساخ إلى وضع هذه الكلمات . والفردوسى عمد إلى أن يجعل الشاهنامه إيرانية خالصة فهى تروى تراث أمة وعلى الشاعر الفنان أن ينظم هذا التراث بلغة هذه الأمة ما استطاع . فليس عن تعصب أن يعمد الشاعر إلى إحياء لغة الإيرانيين . وإذا نحن رجعنا إلى الترجمة العربية لبعض أجزاء الخداى نامه أو لكتاب تنسر فإنا نجد فى هذه الترجمة آيات من القرآن والحكم والأمثال العربية . لأن المترجم إلى العربية يكتب إلى العرب ويحاول التقريب بين العرب والفرس . أما الفردوسى فينظم الشاهنامه بالفارسية للفرس فلم يكن عليه أن يكثر من الألفاظ العربية . وروعة الشاهنامه فى أسلوبها هذا . وهى بهذا الأسلوب . الذى يعد أوج الشعر الفارسى الذى يتحدث عن التراث . من أيسر النصوص فهما لطلاب الثقافة الفارسية. فهو السهل الممتنع كما يقولون.

* * *

كان للفردوسى مقلدون كثيرون من الفرس ، على مدى التاريخ ، ولكن أحداً لم يبلغ بنظمه روعة شعر الفردوسى ، فشتان بين رجلين أحدهما يتخذ من عمله رسالة يكرس لها حياته والثانى يقلد مجرد تقليد . وقد ذكر الكتاب أسماء هؤلاء المقلدين (عزام وندا) وأما الأدب الأوربى فقد تأثر بترجمة مول للشاهنامه ، فقد تلتها ترجمات كثيرة بلغات مختلفة . واتخذ بعض الكتاب قصة من قصص الشاهنامه وأقام عليها قصة جديدة وقد ذكرنا بعض هذا فى ثنايا البحث .

والشاهنامه بأسلوبها هذا السهل الممتنع ، وبروعة ما فيها من قصص حافز للهمم ، مهذب للنفوس ، شاهد بالقيم الإنسانية العالية ، لا تزال جديرة بالقراءة العميقة التى قد تلهم بأدب ينفع الناس . وقد تنبه المصريون لهذا الأثر العظيم فنقله البندارى للغة العربية فى القرن السابع الهجرى ، وكان عزام فى القرن العشرين أول من نبهنا إلى الشاهنامه حين نشر ترجمة البندارى .

— ٣ —

قال قبل أن يكتب قصة بيزن ومنيزه :

« لله ليلة سوداء ذات جناح أحم كأنه طلى بالمداد أو لبس ثوب الحداد . لا يرى فيه بهرام ولا كيوان ولا عطارد . وكأن النجوم فيها مثل العيون رواقد . قد توارى قمرها بالمحاق ، وقطعت ظلمتها أشواط الأحداق . وقد ألقت على الأرض بالجران ، ووقف الفلك فيها عن الدوران . لا حس فيها ولا همس ، كأن الأحياء فيها حالفوا الموت . فاستولى على السهاد ، ونبا بى الوساد . فصحت بالغلام وقلت : قد طال الظلام ، وشرد عن عينى المنام . فقم وأشعل الشمعة وهيئ المجلس وأحضر الشراب واستنطق الجنك والرباب ، فقام والنعاس يرنق فى عينيه ، والترف يميل بعطفيه . وجاء بشمعة كالذهب على رأسها تاج من اللهب . ثم جاء برحيق ، ورمان كصرر عقيق ، وسفرجل كأنه سرر حبيب ، وأترج كأنه يفوح عن مسك سحيق وعنبر فتيق . فقعد بين يدى ينقر الجنك ويترنم ، ويسقينى المدام ويزمزم ثم قال : إن كنت لا تنام فاصغ إلى حتى أقرأ عليك من الكتاب الفهلوى قصة لتنظمها » .

* * *

منوجهر يختبر ذكاء زال :

فأحضر منوجهر موابذته وعقد مجلساً عظيما ، وجاءوا بزال فأمرهم أن يباحثوه ويسائلوه : فتصدى موبذ وسأله عن اثنتى عشرة شجرة جذب بأصباعها السموق ، ومد من أعضادها البسوق ، قد تشعب من كل واحدة ثلاثون غصناً لا يرى الناس فيها زيادة ولا نقصاً .

وسأله آخر عن فرسين أحدهما كبحر من القار والآخر كالبلور النضار ، لا يزالان يتراكضان ، يتعاقبان ولا يتسابقان .

وسأله آخر عن ثلاثين فارساً يعرضون على السلطان ، إذا عبروا نقص منهم واحد ، وإذا رجعوا فلا ناقص ولا زائد .

وسأله آخر عن روضة معشبة يرف نباتها فى رونق الغضارة ، وتروق العيون بالبهجة والنضارة ، ثم ينحى عليها ذو منجل ينزل بساحتها مكروه الخطب ، ويجمع فى حصدها بين اليابس والرطب .

وسأله آخر فقال : شجرتان من بواسق الأشجار ، نابتتان فى البحر الزخار ، على كل واحدة منهما وكر لطائر يصبح على إحداهما ويمسى على الأخرى ، إذا طار من هذه تساقطت أوراقها ، وإذا وقع على الأخرى راق العيون إبراقها ، فتكون أبداً أحداهما ناضرة والأخرى ذابلة .

وسأله آخر عن بلدة طيبة حصينة فى ذروة جبل ، تركها الناس وعمدوا إلى أرض تنبت القتاد فأرسوا بها الأوتاد ، وبنوا بها الدور وشيدوا فيها القصور وتناسو

تلك البلدة الطيبة ، فبينا هم كذلك إذ خسفت بهم أرضهم ، وقامت عليهم القيامة ، وحالفتهم الحسرة والندامة .

قالوا لزال : إن أوضحت هذه الرموز كنت العالم الخبير ، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وأعاد تلك المسائل، ثم قال :

أما الشجرات الاثنتا عشرة فهى عدة الشهور مع الأيام ، على تعاقب الأزمنة والأعوام .

وأما الفرسان فهما الملوان يتعاقبان ولا يتسابقان .

وأما أعداد الفرسان وما يظهر فيها من النقصان فذاك إلى نقصان الشهر وأنه تارة يكون تسعة وعشرين وتارة ثلاثين .

وأما الشجرتان اللتان عليهما معشش الطائر فإن العالم من وقت حلول الشمس فى برج الحمل إلى أن تبلغ إلى الميزان يتبرج كالخريدة المعطار ، فى حلى الرياحين والأزهار ، ومن حين حلولها العقرب إلى أن تحل الحوت يقبع بين أسحاف الحداد وأطمار السواد . فالشجرتان كنايتان عن عضدى الفلك الدوار والطائر عبارة عن الشمس الباهرة الأنوار .

وأما البلدة الطيبة فهى دار القرار ومنزل الأبرار ، والأرض التى آثروها عليها فهى الدنيا قرارة الأكدار وموطن الأخطار . . بينا أنت إلى نعيمها راكن ، وفى ظلالها وادع ساكن ، إذ تزلزلت من تحتك ، وأمطرت مكارهها من فوقك . . إن هذا الإنسان ، وإن طاول الكيوان ، فليس يصحبه منها غير سترة تحت حفرة ، فإن اكتسب فيها الذكر الجميل ، أحرز هنالك الأجر الجزيل ، وإن زرع العدل والإحسان ، حصد الروح والريحان . ثم إن صاحب المنجل كناية عن الأجل يحصدنا كحصد النبات . . » .

• • •

ومن قصة مزدك :

واتصل بقباد رجل فصيح اللسان ، غزير العلم ذو رأى وعقل ، اسمه مزدك . وأقبل عليه قباد واتخذه دستوراً (وزيراً) وخازناً . فاتفق أن أصاب الناس فى ذلك العهد لزبة شديدة احتبس فيها القطر وهلك الزرع فاجتمع أكابر إيران على باب قباد ، وضجوا مما هم فيه من الضيق والشدة وعدم الأقوات . فقال لهم مزدك : إن الملك سيزيل ظلامتكم ويحقق طلبتكم . ودخل على الملك وقال : ماذا تقول فى رجل معه جملة من الترياق المجرب ، وعنده رجل قد لدغته الحية وهو على شرف الموت وصاحب الترياق يمنعه عنه ويضن به عليه ويدعه حتى يموت ؟ قال الملك إن صاحب الترياق مأخوذ بدم هذا اللديغ ويجب أن يقتل به . فقام مزدك وخرج وقال للمتظلمين : إنى فاوضت الملك فى أمركم فانصرفوا الآن وعودوا إلى الدركاه غداً . قال فانصرفوا وعادوا بكرة، كما سبق الوعد . فدخل مزدك على الملك ودعا له وأثنى عليه ثم قال : قد أجبتنى أمس عن مسألتى ، وأريد اليوم أن تجيبنى عن مسألة أخرى أسألك عنها . فقال : سل . فقال مزدك : ماذا تقول فيمن حبس رجلا وقيده ومنعه الطعام والشراب حتى مات ؟ فقال : هـــذا المسكين متقلد دم لم يسفكه . فخرج مزدك عند ذلك وقال لمن حضر من المتعلمين : إن الملك قد أباحكم ما فى الأهراء من الغلات فابسطوا أيديكم وأينما وجدتم منها شيئاً فاستبيحوه . ففعلوا ذلك وطنت المدينة وماجت العامة الذين أخرجتهم المجاعة وانتهبت غلات السلطان وغيره . فأنهى إلى الملك ذلك وأخبر بأن مزدك هو الذى رخص لهم فى ذلك . فاستحضره وسأله عن السبب الذى حمله على ما كان . فقال : إن الجائع هو اللديغ والطعام هو الترياق ، وقد أباح الملك دم صاحب الترياق إذا لم يتدارك حشاشة اللديغ المشرف على الموت وقد رأيت الناس يموتون جوعاً ولا خبر عند أرباب

الغلات المدخرة من ذلك . فأحبهم إياها على مقتضى حكم الملك وقوله . فسكت قباد . واستعلى أمر مزدك وطالت باعه وكثرت أشياعه وأتباعه . وخالف الأنبياء فى فى مللهم وباين العلماء فى طرقهم . وكان يقول : ينبغى أن تكون أمور العالم على السواء . ولا يقع تفاوت فى نعم الله بين الأغنياء والفقراء . ويكون الغنى كالسدى والفقير كاللحمة . . » (البندارى) .

* * *

ومن حكم بزرجمهر التى يذكرها الفردوسى :

أخلاق العاقل المنجية له خمسة . وأخلاق الجاهل المردية سبعة . أما الخمسة المنجية فهى ألا يجزع على ما فات ولا يفرح بما هو آت ، ولا يرجو ما لا يكون ، ويحذر من عواقب الأمور ، وإذا حزبه حازب كافحه من غير جبن ولا خور . وأما السبعة المهلكة فأحدها أن يغضب من غير موجب للغضب ، والثانى أن يعطى من لا يستحق فيكون غير مأجور ولا مشكور . والثالث ألا يعرف قدر نفسه فيكفر نعمة ربه . والرابع ألا يكتم سره ويفشيه . والخامس أن يتكلم بما لا يعنيه فيقعد ملوماً مهموماً . والسادس أن يأمن غير ثقة ويصاحب غير ذى مقة . والسابع أن يكذب ويصر على الكذب . (البندارى) .

ومن وصف الفردوسى للطقس حين تكثر الثلوج ، رحلة لكيكاوس :

« كان ذلك فى أحد أيام الربيع التى تبهج القلب وتنضر الأرض . وفى تلك اللحظة هبت ريح عاصف من الجبل هلع من هولها قلب كيكاوس . أظلمت الدنيا كأنها جناح الغراب . وتعذرت معرفة السهل فى الأودية واحتجبت قمم الجبال تحت الثلوج التى كست الأرض بردائها الأبيض الكثيف . وأخذت الرياح العنيفة تهب بقوة وتصب جام غضبها على هذا المكان ثلاثة أيام بلياليها . وتركز البلل على الخيام وما فيها . وسرى البرد القارس فى الوجود كله فلم يعد لأحد قدرة على شىء »



اللاؤوكون لجوتهولت لسنج

بقلم
الدكتور احمد حمدى محمود

الألمان مصابون بداء المثالية بمعناها الفلسفى ومعناها العام . فهم يعشقون التأمل لذاته ، ويبغضون كل التصاق بالواقع . وقيل إنهم حرموا نعمة رؤية الأشياء على حالها . فالنظرة المباشرة فى ظنهم دليل على السطحية ولذا غاصوا فى أغوار بعيدة تعرضوا بسببها للضلال ، وإلى رؤية الحقائق الواضحة فى صورة مشوهة محاطة بستائر كثيفة من الغموض . وهم يسرفون فى الإطلاع فى كافة جوانب موضوعات دراساتهم ، ولكن كثيراً ما حدث تفاوت بين غزارة اطلاعهم وضآلة ما يستخلصون من موضوع البحث .

فالألمان إذن فى نظرتهم إلى الحياة وفى أساليبهم الفكرية على حد سواء يتميزون بالمثالية بخيرها وشرها . وبوسعنا أن نلحظ هذه الظاهرة حتى فى تاريخ أدبهم الذى لم يبدأ بمعناه الصحيح إلا فى القرن الثامن عشر . وعندما بدأ الوعى الألمانى الحديث لم يحبذ إلا قلة من الألمان ، أغلبهم من الأريستقراطيين ، اتباع الأساليب التى عرفتها البلدان المجاورة لهم ، التى استطاعت الإرتقاء بالفن والأدب بفضل عدم تعرضها لمؤثرات سياسية مماثلة للمؤثرات التى تعرض لها الألمان . أما الأغلبية العظمى (وعلى الأخص أبناء الطبقة المتوسطة المتنورة) فقد اتجهت إلى البحث عن أدب ألمانى أصيل يتبع أسلوبا قومياً متميزاً ، ويجعل الألمان إغريق العصر الحديث . فتعمقوا دراسة الحضارة الهلينية ، ولم يقنعوا بالرواسب التى ظلت سائدة فى الروايات المتناثرة عن اليونان ، والتى اقتصر عليها الإيطاليون والفرنسيون ، والتى أسموها بالمذهب الكلاسيكى الجديد ، بل درسوا نفائس الحضارة اليونانية ذاتها وأعادوا تقويمها .

وخشوا أن يتحولوا كغيرهم إلى مجرد مقلدين لليونان ، فدرسوا حضارات الشمال والحضارة القوطية ، واكتشفوا أمجادهم فى العصور الوسطى وقاموا بدراستها . وأسفرت هذه الدراسات عن غاية شاقة بحق وهى محاولة التوليف بين كل هذه العناصر المتنافرة . وخدعوا أنفسهم أحياناً ، وتجاهلوا كثيراً من النقائض والمتقابلات . فتصوروا شكسبير ، مثلا ، مماثلا لسوفوكليس ، وتصوروا فلسفة أرسطو فى كتاب فن الشعر صالحة للتطبيق على آداب الأمم كافة فى شتى العصور . ثم نسبوا لأنفسهم فى النهاية هذا المزاج الغريب من المكونات التى قد تعد متنافرة وأسموه أدباً قومياً ، بعد أن قاموا بتطعيمه بأساطيرهم وحكاياتهم الشعبية وأحلامهم وتطلعاتهم لإنشاء أمة موحدة ، فرسموا

بذلك الطريق أمام كل أمة حاولت فيما بعد إنشاء أدب قومى .

هذا الحلم الكبير ، وهذه المهمة العسيرة ، التى قد يسميها البعض معجزة قد تحققت بفضل جهود عدة أدباء ومفكرين قد نسيت أسماء أغلبهم الآن . ولكن أهم الشخصيات التى ساهمت فى خلق هذا الأدب الألمانى القومى كانت بغير مراء شخصية جوتهولت إفرايم لسنج ، الذى تفخر به جميع المراجع الأدبية الألمانية ، بل وجميع المراجع فى سائر البلدان ، باعتباره مثلا أعلى للكفاح والنضال فى سبيل تحقيق غاية سامية دون تورط فى رذائل أو سخافات .

* * *

ولد جوتهولت إفرايم لسنج فى ٢٢ يناير سنة ١٧٢٩ فى بلدة كامنتس فى إقليم سكسونيا بألمانيا . وهو ينتمى إلى عائلة من القساوسة كانت شديدة الحرص على أداء رسالتها الدينية فى الدعوة لمذهب لوثر ، وإن كان بعض أفرادها قد تميزوا أيضاً بحرية العقيدة . ومن بين هؤلاء جد جوتهولت ، الذى حصل على شهادة الدكتوراه لبحث قدمه عن الحرية الدينية . أما والد جوتهولت فكان إلى جانب نشاطه الدينى ، من أصحاب الاستعداد الحسن للبحث العلمى ، ومن المتمكنين فى اللغتين الفرنسية والإنجليزية وبعض اللغات الشرقية القديمة . وترجم عدة مراجع هامة ، وكان يميل إلى اشتغال ابنه فى نفس العمل الذى كرس حياته له .

والتحق جوتهولت بمدرسة كامنتس ، ثم قصد إلى مايسين وهو فى الثالثة عشر من عمره حيث تعلم باحدى مدارسها . وهناك بدأت عنايته بالأدب . فقرأ فى نهم بلاوتوس وتيرنس ، كما ألف قصيدة شعرية لاتينية فى مدح الجنود الساكسونيين .

وفى السابعة عشرة من عمره ، اتجه إلى لايبزج ، والتحق بجامعتها وأتم دراسته فى خريف عام ١٧٤٦ .

وحرص أثناء إقامته هناك على تهذيب نفسه وصقلها . فتعلم الرقص والمبارزة وركوب الخيل ، وبدأ يشاهد المسرح ، وكتب قصة أسماها الباحث الصغير ، عرضت على مسرح لايبزج وصادفت نجاحاً عند الجماهير . ودفعه الولع بالمسرح إلى تمضية سهراته فى رفقة الممثلين من الجنسين . ولم تكن موارده المالية تسمح بأية حياة من هذا النوع فتورط فى الدين ، واضطر إلى مغادرة لايبزج والاتجاه إلى برلين ، بحثاً عن عمل . وعرف والداه من رسائله شدة تعلقه بالمسرح ومحاولته تقليد موليير واقتفاء أثره لإنشاء مسرح ألمانى على غرار مسرح موليير . كما عرفا بتشككه فى التعاليم البروتستانتية ، واعتقاده أن الإيمان مسألة شخصية لا بد أن يقررها كل فرد لنفسه . فغضب أبوه وأرسل إليه ينصحه بالعودة إلى الصراط المستقيم ، ولكن جوتهولت كان قد قرر اتباع نهج يتوافق مع ميوله وتأملاته ، ولهذا لم يحرص بتاتاً على اتباع مثل هذه النصيحة أو غيرها . فلقد تميز منذ حداثته بشدة الحيوية والقدرة على السخرية وبالميل إلى القراءة والقدرة على استيعاب ما يقرأ فى أسرع وقت ، كما كان من بين صفاته الثورة على القيود وسهولة التحرر من الصداقات إن أحس بتعارضها مع أهدافه . واشتهر أيضاً بكراهيته للعنف والإيمان بضرورة تقبل الأوضاع على علاتها ، وعدم افتعال التغيير والإصلاح . هذه الصفات المتعارضة تفسر قلقه الدائم وعدم استقراره فى مكان واحد بمجرد شعوره بالاصطدام مع أية عقبات . وفى أحيان أخرى ، على العكس من ذلك ، فانه كان يرحل من أى مكان بمجرد شعوره بالاستقرار وبأنه قد حقق غايته ، وبأن إقامته فى هذا المكان لم تعد مستساغة ! فعندما غادر برونزفيلك إلى برسلاو مثلا قال فى تبرير مسلكه : « إن هذا لا يرجع إلى نفورى من برونزفيلك ، ولكنه يرجع إلى أن البقاء طويلا فى أى مكان يميل إليه المرء لن يعود عليه بالنفع » .

فاذا تتبعنا فى إيجاز خطواته سنرى أنه قد اتجه بعد انتهائه من الدراسة فى لايبزج إلى برلين فى نوفمبر ١٧٤٨، ولكنه غادرها مرة أخرى إلى لايبزج سنة ١٧٥٥ ، ثم عاد ثانية إلى برلين سنة ١٧٥٨ . وبعد سنتين نزح إلى برسلاو ولم يستقر فيها طويلا، بل بارحها إلى هامبورج وأخيراً استقر فى سنواته الأخيرة فى برونزفيك .

وكان طبيعياً أن يصحب هذه الهجرة الدائمة ، تقلب فى الوظائف المختلفة ، وتعرض للفشل جملة مرات. فقد اشتغل أحياناً فى تنظيم المكتبات ، كما حدث فى بداية حياته عندما قام بتنظيم إحدى المكتبات العامة التى يملكها أحد الأثرياء ، وفى نهاية حياته كذلك ، عاد إلى أعمال المكتبات عندما عين فى وظيفة صغيرة (١٧٧٠) هى أمانة مكتبة دوق برونزفيك فى فولفنبوتل .

وأصدر مجلة الرسائل الأدبية (١٧٥٩) وشاركه فى تحريرها مندلسون (الذى أصبح فيلسوفاً فيما بعد) والناشر الألمانى نيقولاى . وظلت الرسائل الأدبية تظهر حتى سنة ١٧٦٥ ، وإن كان لسنج قد مل الكتابة فيها بعد سنوات قليلة وترك هذه المهمة لكل من مندلسون ونيقولاى .

وفى برسلاو أصبح سكرتيراً للجنرال تاونتسين الذى تعرف إليه عن طريق الشاعر كلايست . وعاش هناك حياة خصيبة مختلفة غاية الاختلاف عن حياته الأولى . فقد أنجز فيها أهم كتبه كاللاؤوكون ومينافون بارنهيلم . وتعلم هناك المقامرة ، واستمر يمارسها فترة طويلة .

وأخفق فى محاولة شغل عدة وظائف ، كان من بينها إدارة المكتبة الملكية فى برلين . وكان اسمه واسم فنكلمان من بين الأسماء المرشحة لشغل هذه الوظيفة . ولكن الملك فردريك – وكان مولعاً بالفرنسيين – عدل عن اختيارهما ، وعين فرنسياً فى هذه الوظيفة بعد أن استكثر مرتب هذه الوظيفة على أى ألمانى .

ولما قتل فنكلمان فى تريستا ، حاول شغل مكانه فى روما ، ولكنه عدل عن هذه الفكرة لعدم عثوره على مال يكفيه لدفع نفقات السفر إلى هناك ، فقد عرف لسنج دواماً بإساءة التدبير ، وبشدة ارتباك أحواله المادية ، حتى اضطر قبل مغادرته برسلاو إلى بيع مكتبة زاخرة بالمؤلفات القيمة ، بأزهد الأسعار ، وندم على ذلك أشد ندم .

ومن الأحداث التى تهمنا فى تاريخ الأدب صلة لسنج القصيرة بفولتير . فلقد كان مقيما ببرلين عندما وصل فولتير إليها سنة ١٧٥٠ . وهناك تعرف إليه عن طريق سكرتيره ريشتر . وأعجب به فولتير فى البداية إعجاباً كبيراً . وكلفه بكل أعمال الترجمة التى كان فى حاجة إليها . وكان من المتوقع أن تتوطد هذه الصداقة ، وأن تعود بأعظم فائدة على لسنج بسبب الصداقة المشهورة بين الملك فردريك وفولتير ، ولكن العلاقات ساءت بين فولتير ولسنج بسبب حادثة تختلف المراجع المختلفة فى تأويلها وفى رواية أحداثها .

والرواية التى أرجحها هى استعارة لسنج مخطوطة كتاب لويس الرابع عشر قبل نشره من سكرتير فولتير – بغير علمه – وتسرب بعض محتويات المخطوطة مما أدى إلى تشكك فولتير (وكان معروفاً بشدة الحرص والدهاء) ومقاطعته للسنج . ويميل المؤرخون إلى رد كل المصائب التى لحقت بلسنج إلى هذه الواقعة ، لأن مقاطعة فولتير كانت تعنى سخط الملك على لسنج ، واضطهاده له ، وحرمانه من أية وظيفة مرموقة ، كما حدث فى حالة وظيفة مدير مكتبة برلين .

ولكن يبدو أن النحس الذى صادفه لسنج كان يرجع إلى ما هو أبعد من ذلك ، كما نستطيع أن نتبين من حادث أليم حدث له عندما كان فى قرابة الخمسين من عمره . فلقد تأخر لسنج فى الزواج ، إذ تزوج سنة ١٧٧٦ من أرملة تاجر للحرير فى هامبورج تعرف إليها

فى هذه البلدة ، وكانت تتميز بثقافتها ورقة شعورها . وكان متوقعاً أن يعود زواجه منها عليه بالخير العميم ، لأنه كان سيحقق له الاستقرار الذى ينشده . ولكن زوجته مرضت مرضاً خطيراً دام أسبوعين قبل أن تضع مولودهما الوحيد الذى لم يعش أكثر من أربعة وعشرين ساعة . وبعد ساعات من موته ماتت الزوجة كذلك . وكتب لسنج إلى أحد أصدقائه فى الفترة القصيرة التى كانت تعيشها زوجته فى غيبوبة بعد موت الطفل رسالة حزينة قد تعد من أفضل الرسائل الحزينة الصادقة فى الأدب العالمى . فلقد قال فى هذه الرسالة :
« إننى أنتهز فرصة استغراق زوجتى فى غيبوبة لأشكرك على عظيم اهتمامك . . . كانت فرحتى قصيرة إلى أبعد حد . لقد فقدت هذا الابن ، وأنا شديد التعلق به ! لقد بدت عليه ملامح الفطنة ، وكم كان فطناً إلى حد بعيد ! . ألا يدلنا على فطنته أنهم قد اضطروا إلى سحبه إلى العالم الخارجى بوساطة ملقط من الحديد ؟ . وألا يدلنا على ذلك أيضاً أنه سرعان ما اكتشف شقاء هذا العالم ، فانتهز أول فرصة وهرب منه ؟ ونجح المخادع فى سحب أمه إليه ، لأن الأمل واهن للغاية فى بقائها إلى جوارى . . . كم تمنيت أن أسعد مثل الآخرين . ولكن الأمور قد جاءت على غير ما أشتهى » .

وبرغم هذه الكارثة ، استمر لسنج فى كفاحه واستفاد من المصائب التى حلت به بدلا من أن ينحنى لها ، بل لقد تميزت سنوات حياته التى عاشها بعد ذلك بوفرة ما فيها من إبداع وأصالة ، حتى مات فى ١٥ فبراير سنة ١٧٨١ بعد أن وضع الأساس الأول للأدب الألمانى بمعناه الصحيح ، وبعد أن عانى الأمرين من إساءة فهم الكثيرين له . فلم يفهمه على حد قول جوته : « سوى العظماء من أمثاله . أما أوساط الناس فقد رأوه دواماً خطراً يهددهم » .

* * *

لم يترك لسنج ناحية من نواحى الأدب إلا طرقها . وتفاوت حظه من النجاح فى هذه المجالات المختلفة . وبوجه عام ، يستطاع حصر مؤلفاته فى نوعين . النوع الأول : هو أعماله الإبداعية من روايات تمثيلية[1] (شعرية ونثرية) ودواوين شعر . والنوع الثانى : هو أعماله النقدية . وسوف نتناول النوع الأول فى إيجاز شديد . فان ما حققه لسنج فى هذه الناحية قد كان عظيم الأثر فى نظر الألمان وحدهم ، لأن لسنج قد عرفهم فى رواياته (التى بدا فيها سعة الاطلاع) جوانب لم يعرفوها ، أو عرفوها فى صورة ممسوخة . ولكن هذه الروايات لم تترك أثراً يستحق الذكر خارج ألمانيا ، ولم تستطع أن تنافس الروائع الكلاسيكية الفرنسية ، كما ظهرت فيها محاكاة واضحة لبعض القصص والروايات الإنجليزية ، كما حدث مثلا فى رواية « مس سارة سامسون — ١٧٥٥ » ، التى صادفت نجاحاً كبيراً فى ألمانيا ، وتنبه المفكرون والنقاد إلى شــدة تشــابهها مع رواية « تاجر لندن » The Merchant of London تأليف ريتشاردسون ، التى اعتمدت حوادثها أيضاً على شخوص من الطبقة المتوسطة . وكانت هذه النزعة سائدة فى القرن الثامن عشر ، واعتبرت اتجاهاً ثورياً . إذ جرت العادة فى ذلك العهد أن تكون أحداث الروايات إما خاصة بالطبقة الأرستقراطية ، أو متجهة إلى السخرية من العوام للترفيه عن الأرستقراطيين .

وفى كوميديا « مينا فون بارنهيلم — ١٧٦٧ » استمر فى اختيار شخوص روايته من أبناء الطبقــة المتوسطة ، وتميزت هذه الرواية بأصالتها . إذ اختار لها شخصية حقيقية عرفها فى حياته . هذه الشخصيــة هى شخصية الماجور المتقاعد فون تلهايم . كما كان من بين شخصيات هذه الرواية : شخصية الأرملة التى ذهبت

(١) أول رواياته هى Der Freigeist (المفكر المتحرر) و Der Schatz (الكنز)

تطلب العون من الماجور ، وشخصية خطيبته التى تزوجها رغم أنفه ، وشخصية الوصيفة اللعوب (التى تأثر فيها بالأدب الفرنسى) . ولم ينس لسنج فى هذه الرواية تمجيد القومية الألمانية والجيش البروسى (الذى اشترك فيه زهاء أربع سنوات) وإظهار الولاء للملك فردريك . كما لم ينس السخرية من الفرنسيين . فمن بين شخصيات هذه الرواية شخصية مغامر فرنسى يتكلم الألمانية بلكنة غريبة تثير الضحك .

وبلغت رواياته البورجوازية ذروتها فى دراما « إميليا جالوتى » ١٧٧٢ التى عرض فيها الصراع بين البـــلاط والطبقة البورجوازية . وتمشياً مع الروح الجديدة التى اشتهر بها القرن الثامن عشر ، تمثلت فى الشخصيات البورجوازية التى ظهرت فى هـــذه الرواية كل المثل العليا للفضيلة عند صراعها مع مؤامرات البـــلاط ودسائسه ، ومجون أبناء الطبقة الأرستقراطية .

وربما اعتبرت آخر رواياته الشعرية « ناثان الحكيم ١٧٧٩ » أفضل الدرامات التى ألفها . فقد بثها خلاصة تجاربه ومعتقداته . وفيها دعوة إلى التسامح ودعاية للماسونية واستنكار للجمود الدينى وضيق أفق بعض رجال الدين . ولعل سخط رجال الدين البروتستانتيين على هذه الرواية كان من أسباب شهرتها فى خارج ألمانيا . وحاول لسنج تناول أسطورة الدكتور فاوستوس التى تدور حول حب العالم للحقيقة والآلام التى عاناها فى سبيلها ، ولكنه عدل عن مشروعه ، بعد عدم اهتدائه إلى قرار حاسم حول دور الشيطان .

هذه الروايات كلها قد أثبتت حقيقة بالغة الأهمية ، وهى أن الإحاطة بالأصول الدرامية والشكل الفنى وطرافة الموضوع ليست سبباً كافياً لخلود أى عمل فنى . فهناك سر آخر وراء الخلود ، لعلنا ما زلنا بعيدين عن فهمه .

فاذا إنتقلنا إلى النوع الثانى ، وهو الكتابة النقدية التى توافقت أعظم توافق مع شخصية لسنج وجرأته وتعلقه بالحقائق ، والتى تركزت فيها عبقرية لسنج فى النقد وكفاحه المستميت لإنشاء أدب ألمانى متميز يمكن التفرقة بينه وبين الآداب المحيطة به ، ويجمع خلاصة مميزات الفن فى عصوره المختلفة (هذه الكتابات التى دفعت ماكولاى إلى اعتبار لسنج أول ناقد عظيم يظهر فى أوربا وتناسى فى هذا الرأى مونتانى الفرنسى فى القرن السادس عشر) — فسنرى أصالة حقة وألمعية فائقة قد جعلت كتبه فى هذه الناحية جديرة بكل إعجاب وبحث ودراسة واستقصاء . وفى هذه المقالات النقدية التى تناولت أهم قضايا الفن والأدب واللاهوت والتى كتبت فى عبارة مشرقة مركزة خالية من الغموض والإبهام اللذين عرفا عن أكثر أدباء ألمانيا ، كتب لسنج نوعين من المقالات . اتجه النوع الأول إلى وضع أسس للأدب الألمانى ، كما اتجه النوع الثانى إلى المشاركة فى حل مشكلات الاستاطيقا .

وظهرت مقالات النوع الأول فى مجموعة مقالاته ودراساته التى نشرها فى (١٧٥٨) فى Litterature Briefe « الرســـائل الأدبية » كما ظهرت أيضاً فى المقالات التى نشرها فى هامبورج عن الدراما تحت عنـــوان Hamburgische Dramaturgie ، والتى قصد بها النهوض بحركة التمثيل فى ألمانيا . وكانت هذه المقالات تنشر فى مجلة تصدر مرتين فى الأسبوع وقصد بها نقد الممثلين ، وتعريفهم بأخطائهم ، كما قصد بها أيضاً تثقيف رواد المسرح والارتقاء بذوقهم الفنى .

وكتب لسنج أغلب هذه المقالات . ولكن المشروع توقف بعد سنتين بسبب نفور الممثلين من أية انتقادات توجه إليهم ، وبسبب عدم اقبال الجماهير على المناقشات المجردة التى تناولت الدراما ومهمتها وتاريخها . وإلى جانب ما تضمنته هذه المقالات من انتقادات لجوتشيد

بسبب اتجاهه إلى محاكاة الكلاسيكيين الفرنسيين ، وانتقاد للشاعر كلوبشتوك بسبب إسرافه العاطفى ؛ تناولت هذه المناقشات عدة مسائل أثارت الإهتمام خارج ألمانيا مثل نقده للأسس التى ابتكرها الأدباء والمفكرون الفرنسيون وقيدوا بها حرية الفن والأدب ، وارتكنوا عند اختراعها إلى بعض ملاحظات عابرة جاءت عند أرسطو كمسألة الوحدات الثلاث التى قدسها الفرنسيون ، ولم ينتبهوا إلى أن حالة التمثيل عند اليونان هى التى أرغمتهم على ضرورة التقيد بوحدة الزمن ووحدة المكان ، وإن كان أرسطو ذاته قد اعترف أن وحدة الفكرة هى الوحدة الأساسية فى الدراما وأن الوحدتين الأخريين تابعتان لها .

واندفع لسنج أحياناً فى الدفاع عن وجهة نظره فذكر مثلا صلاحية تطبيق مذهب أرسطو فى الدراما على درامات شكسبير ! . وكان شكسبير هو مثل لسنج الأعلى فى الدراما . فهو وحده الذى فهم الإنسان ، وقدم أروع نماذج له كالتى نصادفها فى شخصيات الملوك والمتسولين والبخلاء والمهرجين . كما أنه أفضل من أحاطوا بالعواطف الإنسانية كالغيرة والحسد والحقد . . . الخ . ودافع لسنج عن اتهام شكسبير بالخلط بين الكوميديا والمأساة ، وكأن الحياة الإنسانية تعرف أى انفصال بينهما . وأشاد لسنج ببراعته فى الربط بين الأحداث ورسم الشخصيات واختيار الشخوص التى تساعد على توضيح الفكرة التى يسعى لعرضها على عكس ما يحدث فى التراجيديات الفرنسية التى لا نعرف فيها سبباً لدخول الممثل المسرح أو خروجه منه ، والتى نفاجأ فيها باحداث غريبــة لا تمت بصلة إلى موضوع الرواية .

وكان لسنج ينصح الممثلين دواماً فى هذه المقالات بالاندماج فى أدوارهم والابتعاد عن كل آلية وتكلف ، وضرورة التحكم فى كلماتهم وتعابيرهم وإيماءاتهم ونبرات صوتهم ، وبعدم التشبه بالببغاوات ، كما أبدى أكثر من مرة إعجابا بالممثلين اليونانيين القدامى (اعتماداً على ما ترويه المراجع عنهم ، ولو أنه شاهدهم بنفسه لما اختلفت نظرته إليهم عن نظرته إلى معاصريه) وأرجع براعتهم فى الأداء إلى تعلمهم البلاغة والخطابة اللتين كانتا فى عهد لسنج قد بدأتا فى الاضمحلال والتدهور .

وأغلب الانتقادات التى ذكرناها كانت موجهة إلى كورنى بالذات ، وإن كان لسنج لم ينس غيره من الأدباء الفرنسيين ، وقد يستثنى من ذلك موليير وديدرو وحدهما . ففى هذه المقالات على سبيل المثال نقد وسخرية لاذعان لرواية سميراميس لفولتير (لا أظن أن فولتير قد أحس بهما) وكيف ظن الكلاسيكيون الفرنسيون أن عظمة الدراما تستند إلى فخامة مناظرها وحشد الجموع على المسرح ، وسخر لسنج من الشبح الذى ظهر فى سميراميس ، وقارنه بشبح هاملت الشهير ووصفه بأنه لا يثير رعب الأطفال أنفسهم . وعندما جعل فولتير الشبح يقتحم البرلمان فى وضح النهار فانه قد دل بذلك على جهله بطبائع الأشباح ، لأنه قد نسى أن الأشباح لا تتصف بمثل هذه الجرأة . وأية امرأة عجوز تستطيع أن تعرفه مدى خوف الأشباح من ضوء الشمس ومن اقتحام الجموع الكبيرة . وسخر لسنج أيضاً من شدة حرص فولتير على إرضاء السيدات المتأنقات عنـــد تأليفه مسرحياته .

على هذا النحو ، كتب لسنج مقالات كانت بعيدة الأثر فى إثارة اهتمام الألمان بالمسرح ، وكان لها بفضل طرافتها وأصالة نقدها وأسلوبها الساخر أثر عظيم خارج ألمانيا . واليوم هدأت المعركة الحامية الوطيس التى دارت فى القرن الثامن عشر حول أى الفريقين أكثر تمثيلا للروح الكلاسيكية الهلينية . واتضح لنا أن كليهما قد انحرف بتأثير روح القرن الثامن عشر عن القيود القديمة

ولا اختلاف فى هذه الناحية يستحق الذكر بين كورنى ولسنج . ففى هذا القرن كانت الروح الرومانتيكية قد بدأت تتسرب إلى الأدب والفنون فى صور مختلفة . وبانت آثارها عند لسنج فى شدة تحمسه لشكسبير واهتمامه بأشعار المايسترزينجر (أساطين الغناء) ، والمينيزنجر ، ومحاولة الربط بينهما وبين القوالب الكلاسيكية القديمة .

ويبدو أن لسنج قد تأثر بالفرنسيين دون أن يدرى ، ولقد اعترف هو ذاته بشدة تأثره بديدرو . وكل من يقرأ مقالاته ويعجب ببراعة منطقها وبما فيها من تدرج فى عرض قضايا الفكر . إذ لا تستخلص فيها النتائج إلا بعد تريث فى عرض خلاصة وجهات النظر ومناقشتها — يلمح على الفور مدى تأثره بالفرنسيين وبراعتهم فى كتابة المقال .

وإن صح القول بأن اهتمامنا بهذه المقالات قد قل بعض الشىء عن اهتمام القرن الثامن عشر بها ، فإن الأمر لم يكن كذلك فيما يتعلق باللاؤوكون . فقد تناول لسنج فى هذا الكتاب عدة مشكلات إستاطيقية قد أثرت تأثيراً هاماً على الإستاطيقا (الألمانية بوجه خاص) وما زلنا نشعر بآثار هذه المشكلات حتى وقتنا الحاضر . وهذه ناحية سنرجئ الكلام عنها حتى ننتهى من عرض الكتاب

اللاؤوكون

لاؤوكون أمير طروادى أسطورى كان أخاً لأحد الكهنة الأبولونيين . وفى رواية أخرى أنه كان من كهنة بوسيدون . ولقد تناول مأساته كثيرون ، فى طليعتهم سوفكليس فى رواية لم يبق منها إلا شذرات قليلة .

والرواية التى يقبلها الثقات إلى حد بعيد هى القول بأن لاؤوكون قد أصر على مقاومة الحصان الخشبى الذى أنشئ لغزو طروادة ، فانتقم منه أبولون بأن دفع ثعبانين كبيرين من جزيرة تندوس لقتله وقتل إبنيه ، وإن كان السبب الحقيقى لمقتله هو زواجه بغير إذن من أبولون .

واشتهرت القصة بعد ذلك عندما رددها فرجيل فى إحدى قصائده ، وعندما صنع تمثال من الرخام يمثل الأب وإبنيه فى صراع مرير مع الثعبانين . وهذا التمثال محفوظ حالياً فى الفاتيكان وهو من آيات المدرسة البرجامية ، وقام بنحته ثلاثة مثالين من رودس هم : اجيساندر وبوليدوروس ، و أتينودورس (من مدرسة النصف الثانى من القرن الأول الميلادى) . وعرض هذا التمثال فى قصر الإمبراطور تيتوس ، وكانت له قيمة فنية عظيمة فى ذلك العهد . وعندما أعيد الكشف عن الآثار الرومانية كان من أوائل التماثيل التى ذاعت شهرتها . واختار لسنج إسم هذا التمثال عنواناً طريفاً لكتابه الذى يتناول قضية إستاطيقية هامة هى إثبات الاختلاف بين التصوير والشعر ، واستحالة تطبيق قواعد واحدة على هذين الفنين . إذ يلزم مراعاة الفروق الكامنة فى طبيعة كل منها .

وما جعل الناس لا ينتبهون إلى هذه الحقيقة هو اعتقادهم أن الشعر والتصوير متشابهان ما دام الاثنان يتركان أثراً حسناً متماثلا فى النفس ، أو اعتقاد الفلاسفة أن قواعد جمال الأجسام التى تراعى فى التصوير ، يمكن تطبيقها على الأفعال والأفكار على نحو مشابه لتطبيقها على الأجسام . واندفع بعض النقاد وأرغموا الشعر على طرق مجالات لا يحسن الإفصاح عنها غير التصوير ، وسمح البعض للتصوير بتناول موضوعات لا تتناسب مع غير الشعر . وظهرت آثار هذا الخلط فى الشعر فى صورة افتتان بالوصف ، وفى التصوير فى صورة افتتان بالمعانى الرمزية والمجازية . لقد أراد هؤلاء النقاد من المصورين إبداع لوحات مصورة ناطقة ، فكانت النتيجة هى ظهور قصائد شعرية خرساء .

هذه هى القضية التى تذكرها لسنج عندما قرأ وصف فنكلمان (من أوائل مؤرخى الفن التشكيلى فى العصر الحديث) لتمثال اللاؤوكون ، وقوله عنه إنه يمثل الصفاء والهدوء الروحى والبساطة ، أى الخصائص التى عرفت عن اليونانيين . فتعابير الأعمال الفنية عند اليونانيين – فى نظر فنكلمان – برغم اختلاف انفعالاتها لا تكشف إلا عن روح صافية وديعة . فلقد تعرض لاؤوكون وولداه لآلام مبرحة يمكننا أن نتمثلها من منظر الثعبانين الملتفين حول بطنه . ولكن الوجه لا يظهر هذا الألم . ولم ينبعث من جوفه أى شىء خلاف بعض الآنات الصامتة . فهو يتألم ، ولكن ألمه قد بدا فى صورة اتسمت بالنبل والسمو ، بحيث أننا نتمنى تحمل الكوارث والمحن بروح سمحة مماثلة لروح هؤلاء الأبطال اليونانيين . أما الرومان – فى نظر فنكلمان أيضاً – فكانوا مختلفين عن اليونانيين . ويدلنا على ذلك أن الشاعر فرجيل قد تناول موضوع اللاؤوكون نفسه ، ولكننا نستطيع أن نستمع إلى صراخه فى كل نبرة من نبرات قصيدته .

فسر فنكلمان إذن الخلاف بين تمثال لاؤوكون اليونانى وقصيدة لاؤوكون الرومانية ، بأنه اختلاف بين اليونانيين والرومان . ويرد لسنج على هذه الدعوى بالرجوع إلى أمثلة أدبية أخرى عند اليونان ، ويبين أن هوميروس قد سمح لبعض شخصيات رواياته بالصراخ والعويل (على عكس اعتقاد فنكلمان) . فالاله مارس ذاته عندما تعرض لسهام ديوميد قد صرخ صرخة هائلة وكأن عشرة آلاف من المحاربين قد اشتركوا فى الصراخ ؛ وبرغم شدة عناية هوميروس بابراز اختلاف الالهة عن الآدميين ، إلا أنه قد عمد فى مسائل الألم والصراخ ، إلى جعلهم يتأوهون ويولولون كالآدميين سواء بسواء . فهم من حيث السلوك وحده آلهة ، أما من حيث مشاعرهم وانفعالاتهم فانهم يتأوهون ويعبرون مثل سائر البشر .

ما قاله فنكلمان إذن لم يكن صحيحاً ، فهو قد خلط بين التربية الأوربية الحديثة التى تدعو الناس إلى ضبط النفس وعدم إظهار أى انفعال ، وبين أحوال اليونانيين الذين كانوا لا يخجلون من انفعالاتهم أو من أية مظاهر للضعف الإنسانى ، بل كانوا يتركون أنفسهم على سجيتها . ومع هذا فقد كان اليونانى يبذل قصارى جهده حتى لا يجعل أوجاعه وآلامه تحول دون إقدامه على القيام بأسمى أعمال البطولة التى تتجاوز كل حدود إنسانية . فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا أسمى أبطالهم ، وأخلدهم ذكراً يبكون فى مواضع البكاء ، ويولولون ويندبون بغير شعور بأى خجل . وبوسعنا أن نذكر فى هذا المقام هرقل الذى قد تبدو صرخاته وعويله مثيرة للسخرية فى وقتنا الحالى ، ومتعارضة مع ما عرف عنه من شجاعة وجرأة وقوة .

خصائص التصوير

وبعد أن أثبت لسنج أن علامات الهدوء التى ظهرت على تمثال اللاؤوكون لا ترجع إلى خصائص يونانية فحسب ، كما بين فنكلمان الذى خلط بين خصائص اليونانيين وخصائص الفنون التشكيلية ، اتجه فى سبيل التمهيد لنظريته إلى الكلام عن خصائص الفنون التشكيلية (التصوير والنحت) ، فقال إن التصوير وفقاً لمفهومه فى القرن الثامن عشر ينزع إلى محاكاة الأشياء بغير التفات إلى مميزاتها الجمالية ، ولكنه كان عند اليونانيين مقصوراً على تصوير الأشياء الجميلة وحدها . فلم يتجه الفنانون اليونانيون إلى تصوير أى شىء غير الجميل ، وكانت أعمالهم الفنية تبعث السرور بسبب اكتمال الأشياء التى تمثلها . ونفروا لهذا السبب من رسم الأشياء القبيحة ، ويدلنا على ذلك إحجام أى مصور عن رسم أى شخصية تتسم بالانحراف أو تدعو إلى النفور ، بعكس ما يصنعه المحدثون (فى رأى لسنج) . واشتركت الدولة أيضاً فى إرغام الفنانين على ملاحظة الاقتصار على رسم الأشكال

الجميلة . فقد حثت بعض القوانين اليونانية الفنانين على ضرورة مراعاة الجمال ، ودفعتهم إلى العناية باظهار الأشكال التي يقومون برسمها في صورة مثالية ، ومنعتهم من الإساءة إلى كل مقاييس الجمال . وإلى نفس هذه الروح ، يمكن أن يعزى أيضاً تقليد إقامة نصب تذكارى لكل منتصر أوليمبي ، وإقامة تماثيل للأبطال الذين ينتصرون في ثلاث مرات متعاقبة .

من هذا يتضح أن الجمال عند القدامى كان أسمى غاية تسعى لتحقيقها الفنون التشكيلية . وأدرك القدامى أن هناك بعض انفعالات ستبدو عند تصويرها على شكل تجعيدات قبيحة تسيء إلى جمال الوجه ، ومن ثم عمدوا إما إلى تجنب إظهار هذه الانفعالات ، أو إظهارها في صورة مخففة لا تؤدى إلى تشويه الجمال ومسخه .

وفى سبيل تحقيق هذه الغاية ، تحول تعبير مثل التعبير عن الغيظ والحنق إلى تعبيرات جادة وقورة ، وتحولت الكآبة والغم إلى أسى وأسف ، واختفت كل مظاهر سورات الغضب من أعمالهم الفنية . وعلينا عندما نشاهد اختلافا بين الأعمال الفنية والأشياء التي تعبر عنها ألا نرجع ذلك إلى عجز الفنانين أو عدم قدرتهم على محاكاة التعابير التي تبدو قبيحة في حالة نقلها إلى التماثيل أو اللوحات ، بل علينا أن نرد ذلك إلى قاعدة أساسية شاعت عند اليونانيين وهي الاكتفاء بالمشاعر التي تجمع بين الجمال والسمو . ولذا كان الفنان يفضل إخفاء أية مشاعر تبدو في صورة غير مستحبة ، تسيء إلى عمله الفني . فكان لا يظهر مثل هذه المشاعر تاركاً للآخرين تأويلها أو استنباطها .

هذه القاعدة نصادفها في تمثال اللاؤوكون . فقد حاول مبدعه تحقيق أسمى قدر من الجمال يتوافق مع الآلام التي تعانيها شخصيات هذا التمثال . فاضطر إلى تحويل الولولة والصيحات إلى تنهدات ، لا لأن الصيحة تدل على روح تفتقر إلى السمو ، إنما بسبب إساءة شكل الصيحة إلى الجمال المراد إبرازه في التمثال ، ويمكننا أن ندرك ذلك إذا تخيلنا لاؤوكون فاغراً فمه، أو متأوهاً . إن شكله في هذه الحالة ، لن يبدو جميلا حتى إذا عبر عن الجمال والألم في نفس الوقت . ولكننا سنراه شكلا مفزعاً يثير الإشمئزاز . لأن منظر الألم من المناظر الكريهة، ولن يدعونا إطلاقاً منظر المعاناة إلى الشعور بالشفقة . فشكل الفم وهو مفتوح سيبدو في أية لوحة مصورة كأنه بقعة سوداء . وفي النحت سيبدو مجرد فجوة قاتمة، وكلاهما من الأشياء التي تنفر منها العين .

وتغيرت الأحوال في الفن التشكيلي بعد ذلك في العصور الحديثة . فقيل إن غايتها قد أصبحت الحقيقة والتعبير . وكما تضحى الطبيعة بالجمال في سبيل غايتها ، كذلك ينبغي أن يخضع الفنان الجمال لغايات عمله الفني ، وألا يسمح بغير القدر الكافي من هذا الجمال الذي يتناسب مع الحقيقة والتعبير .

ويعترض لسنج عما يقال عن إمكان تحول غاية التصوير من الجمال إلى التعبير . وأول حجة يسوقها هي القول أن المصور لن يستطيع أن يرسم أكثر من لحظة عابرة للطبيعة الدائمة التغير والتقلب . وكل ما يهم المصور هو اختيار لحظة موفقة تحقق الغاية التي يسعى إليها ، وهي تقديم موضوع يصلح للمشاهدة والتأمل مراراً . فالخيال إذن يلعب دوراً كبيراً في التصوير ، لأنه يحاول أن ينتزع من الطبيعة أفضل ما تتضمنه من معان غير عابرة ، كما يحاول أن يصلح من عيوبها حتى يتسم ما ينتقيه منها بالكمال . ومن ثم يستبعد المصور التأوهات والصيحات لأنها مجرد أشياء عابرة لن تستمر طويلا . ولو ظهرت في أية لوحة ، أو في أى تمثال وعبرت عن معنى ثابت ، لدلت في هذه الحالة على الأنوثة بدلا من دلالتها على الفحولة . وكان هذا المعنى هو الذى جال بخاطر صاحب تمثال اللاؤوكون .

وإذا رجعنا إلى تيموماخوس (وكان من المصورين المولعين بتصوير المشاهد الشديدة الانفعال ،

ولوحته التى رسمها لأجاكس فى حالة غضب ، والتى رسمها لميديا وهى تقتل أولادها من أخلد اللوحات فى الفن اليونانى) سنرى إذا تأملنا لوحاته أن المصور قد تجنب إظهار اللحظة العارضة التى يرتفع فيها الانفعال إلى ذروته حتى لا تحدث أثراً سيئاً عند من يتأملون الصورة . فاختار لحظة أخرى سابقة لها . فلم يرسم ميديا مثلا وهى تذبح أطفالها ، بل رسم موقفا آخر . إذ فضل خضوعاً لغاية الجمال التى ينبغى أن تتحقق فى التصوير أن يصور تردد ميديا الذى تغلب عليه عاطفة الأمومة ، على تصوير وحشيتها التى تتعارض مع الجمال . كما أن أجاكس لم يرسم فى حالة هذيانه وغيابه عن الوعى ، بل رسمه تيمو ماخوس جالساً ، يشعر بالضيق بعد أن مرت نوبة الجنون التى تعرض لها . لقد رأى المصور أن الهدوء الذى يعقب العاصفة أكثر تعبيراً عن الجمال من منظر ثورة أجاكس وهذيانه .

خصائص الشعر

وبعد أن بين لسنج أن غاية التصوير هى الجمال ، انتقل إلى الكلام عن الشعر وذكر أن الشاعر غير مرغم البته على اختيار لحظة واحدة تمثل موضوعه الفنى ، كما هو الحال عند المثال أو المصور ، لأن ما يعنيه هو عرض فكرة واحدة أو فعل واحد يستغرق لحظات متعددة . ففى قصيدة اللاؤوكون قام الشاعر بعرض قصة هذه الصيحة ، وعرفنا بواعثها . ولم ينس التحدث عن بطولة لاؤوكون ، وماضيه الوطنى المجيد وبذلك أمكنه تعريفنا بأن صيحاته لا ترجع إلى نقص فيه ، بل هى ترجع إلى ألم تصعب مقاومته .

هذا يدل على أن الشعر لا يتجه إلى تخفيف التعبير أو إخفائه كما هو الحال فى التصوير ، بل يعمد إلى إبرازه ، لأنه غايته الأولى . فلا عجب إذن إذا رأينا الشاعر الدرامى فى بعض أحيان يخشى ألا تكون الآلام التى يعرضها علينا غير كافية فى التأثير على مشاعرنا ، فيلجا لهذا السبب إلى إضافة مؤثرات أخرى تحقق هذه الغاية . فأحداث التعذيب مثلا عندما تمثل على المسرح قد تدفعنا إلى الاستخفاف بها لشعورنا بأنها غير حقيقية ، ولذا يلجأ الشاعر الدرامى إلى سبل أخرى قد تحقق ما يبتغيه من تأثير ، كأن يعرض البطل للجوع أو العطش ، أو يجعله يشعر بيأس قاتل . ومن الشخصيات الخالدة فى الأدب اليونانى ، التى استطاعت تحقيق مثل هذا الأثر شخصية فيلوكتيتس الذى ظهر محاطاً بكافة مظاهر الحرمان .

ولم يفهم كتاب الدراما الفرنسيون هذا المعنى ، وكادوا ينجحون فى القضاء عليه ، عندما أحاطوا فيلوكتيتس بالرفاق . وزارته فى مكان عزلته فى الجزيرة القفراء أميرة جميلة تصحبها وصيفتها ! وعلى حد تعبير لسنج : « لست أدرى هل كان الموقف يتطلب مثل هذه الوصيفة أم أن الشاعر الفرنسى هو الذى كان يشتهى مثل هذه الوصيفة لنفسه . . فلا يمكن لأى شاعر فرنسى أن ينسى إظهار إمرأة جميلة ذات عينين ساحرتين » .

أما أبطال الدرامات اليونانية فكانوا يعبرون عن كافة المشاعر التى يتعرض لها الإنسان ، فكان من بين هذه المشاعر ما يستدر الشفقة ، كما كان بينها ما يثير الهلع والخوف . شىء واحد فقط كان الكاتب الدرامى يحرص عليه وهو عدم إساءة هذه المشاعر إلى بطولة شخوص دراماته ، أو استحثاثنا على إزدرائها .

تمثال اللاؤوكون وقصيدة اللاؤوكون

وبعد أن تحدث لسنج عن الاختلافات العامة بين الفنون التشكيلية والشعر اتجه إلى الحديث عن كيف ظهرت آثار هذه الاختلافات فى كل من تمثال اللاؤوكون وقصيدة اللاؤوكون .

ففى قصيدة اللاؤوكون وصف الشاعر الحيتين ، وتعمد المبالغة فى إظهار طولها وإثارتها للرعب . إذ

استطاعتا الالتفاف حول الإبنين وحول الأب عندما هرع لإغاثتهما . وصور الشاعر الآلام التي لحقت بالجميع في صراعها مع هاتين الحيتين ، وكيف نفثتا السم في وجه الأب عندما حاول تخليص ولديه . وجعل الشاعر الذراعين حرتين طليقتين حتى يتسنى للأب وابنيه مقاومة الحيتين فيزداد من جراء ذلك الأثر الدرامى . فهل عمد المثال إلى محاكاة الشاعر بغير قيد أو شرط ؟ . الواقع أن المثال قد اشترك مع الشاعر في ناحية واحدة فقط وهي عدم تقييد الذراعين . ولكن ثمة اختلافاً بعد ذلك بين التمثال والقصيدة . ففي القصيدة إلتفت الحيتان مرتين حول جسم لاؤوكون ومرتين حول عنقه ، وكانت رأسهما تحلقان عالياً فوق رأس لاؤوكون . ونجح الشاعر بهذه الوسيلة في تحقيق غايته، لأننا نستطيع أن ندرك الأوجاع التي لحقت بلاؤوكون بتأثير التفاف الثعبانين حول الجسم ، وبتأثير السم الزعاف الذي نفث في وجهه . أما المثال ، فكان مضطراً إلى عدم تغطية سائر أجزاء الجسم ، لأن ما يهمه هو إبراز شكل عضلات جسم لاؤوكون ، وهي تتقلص بتأثير مقاومتها للحيتين . والتفاف الحيتين حول العنق كان سيؤدى إلى إفساد الشكل الهرمى للتمثال الذى ترتاح له العين . وعلو رأس الثعبانين فوق رأس لاؤوكون سيسئ إلى جمال التمثال بغير شك ، كما نستطيع أن نلحظ إذا تأملنا الصورة القبيحة التي رسمها أحد المصورين فيما بعد لهذا المشهد .

وتنبه المثالون القدامى إلى ضرورات فنهم ، ولذا نقلوا التفافات الثعبانين من العنق وجذع الجسم إلى الأفخاذ والقدمين ، لأن إخفاءهما لن يؤدى إلى إضعاف التأثير الجمالي للتمثال . ولم يؤثر هذا التصرف البتة على معنى التمثال . فمن يتأمله يشعر على الفور بمحنة لاؤوكون وعدم قدرته على الحركة أو تحرير أعضاء جسمه .

ويذكر لسنج اختلافاً آخر بين القصيدة والتمثال . ففي القصيدة ، يرتدى لاؤوكون ملابس مهيبة : أما المثال فقد اتجه إلى تجريد شخصيات تمثاله من الثياب، مما أدى إلى توجيه بعض انتقادات إليه بسبب تناسيه الأصول المرعية ، وعرضه مثل هذه الشخصية المهيبة في مثل هذه الصورة غير اللائقة . ولكن هؤلاء النقاد وأمثالهم قد تناسوا ضرورات فن النحت . فمنظر أى رداء سميك لن يكون مقبولا عند نحته بوساطة الأحجار . ولهذا فضل المثالون الإبتعاد عن الحقيقة على عدم مراعاة أصول فنهم ، وعلى عدم مراعاة غاية النحت ، وهي الجمال ، لأن الرداء لن يبدو في صورته المنحوتة أجمل منه في الطبيعة على الإطلاق . ولن يتساوى شكل الرداء مع شكل الجسم في الجمال بأية حال . أما في القصيدة ، فإن وجود الرداء لن يفسد البتة من تأثير القصيدة . فهو لن يحول دون شعورنا بالآلام التي عاناها لاؤوكون ، بل لعله يزيد من هذا الأثر .

ويفترض لسنج الرأى المقابل لرأيه ، والذى لجأ إليه كثيرون من النقاد والمفكرين (أى القول بأن المثال قد أبدع التمثال قبل ظهور قصيدة الشعر ، أى أن القصيدة مستلهمة من التمثال . وهذه قضية هامة قد تعمقها كثيرون من المفكرين الألمان كان بينهم جوته وشوبنهاور ، ولن نخوض في تفاصيلها هنا) ويقول إنه لو حدث ذلك ما قنع الشاعر فرجيل إطلاقاً بمثل هذه الفكرة البسيطة التي ظهرت في تمثال اللاؤوكون ، ولصح قول ريشاردسون بأن الشاعر لم يلجأ إلى قصة اللاؤوكون إلا بوصفها مقدمة للوصف المؤثر للتدمير النهائي للمدينة . ولعل الشاعر قد قصد عندما أبرز الكارثة التي حلت بأحد المواطنين أن يسترعى انتباهنا إلى الكارثة الكبرى التي حلت بالمدينة .

اعتراضات على تناسى المفكرين
الفروق بين الشعر والتصوير

وانتقل لسنج بعد ذلك إلى مناقشة المفكرين الذين أصروا على تأكيد التشابه بين التصوير والشعر والذين اعتقدوا أن الصلة بين الفنانين والشعراء صلة قائمة منذ الأزل ، فطالما تبادلا التأثير . وفى مساواة هؤلاء المفكرين الشعر والتصوير تناس للفروق الأساسية بينهما ، وكأنهما فن واحد يخضع لقواعد واحدة . واختار لسنج مفكراً إنجليزياً ثانوياً (لم يعد معروفاً الآن) هو جوزيف سبنس ، وصوب سهام نقده إليه . فقد تعثر سبنس هذا عندما صادف اختلافات بين الشعر والتصوير عجز عن تفسيرها ، إذ تساءل — فى دهشة — عن سر تحلى الإله باكوس بالقرون ، فى الشعر ، بينما لا توجد قرون مماثلة فى التماثيل . ولجأ سبنس إلى حجج مختلفة لتعليل ذلك كالقول بجهل القدامى ، أو القول بصغر حجم القرون مما جعلها تختفى وراء التيجان أو أغصان الغار التى تحلى رؤوس الآلهة . . كل هذه الحجج الباطلة قد أبعدته عن التفسير الحقيقى . فقد نسى أن قرون باكوس لم تكن قروناً حقيقية مثل قرون « الفون » و « الساتيرات » إنما كانت مجرد حلية توضع فوق الرأس ، ترتدى أو تنتزع وفقاً للمشيئة . . والشاعر يستطيع اعتماداً على القرون الإيحاء بأفعال الآلهة ، وصفاتها . أما إظهار القرون فى الفن التشكيلى ، فانه يؤدى إلى إفساد جمال الصورة ، أو جمال التمثال .

ومثل آخر هو وصف الشاعر ستاتيوس والشاعر فاليريوس فلاكوس لفينوس وهى غاضبة ، بحيث بدت فى تشبيهاتهما أحياناً شبيهة بعاصفة هوجاء ، بدلا من أن تشبه آلهة الحب . ولم يعثر سبنس فى الأعمال الفنية القديمة على صورة لفينوس فى حالة غضب . وفسر ذلك بالظن أن الشاعر يتميز بحرية أعظم من الحرية التى يتميز بها النحات أو المصور . ولكن غاب عن فطنته أن كثيراً من الأشياء التى تبدو حسنة فى الوصف الشعرى ، لا تظهر كذلك فى حالة التمثال أو الصورة . وبدلا من أن ينتهى سبنس إلى هذه النتيجة فانه قد وجه اللوم إلى الشاعرين المشار إليهما ، وذكر أنهما ينتميان إلى عصر اضمحل فيه الشعر الرومانى ، فبدا لهذا السبب فى وصفهما لفينوس قدر كبير من سقم الذوق وفساد الحكم ، على عكس العصور الذهبية للشعر التى لا يصادف فيها أى ابتعاد عن قواعد التعبير الفنى .

فلم يتنبه سبنس إذن إلى أن الآلهة والكائنات الروحية لا تظهر فى الشعر والتصوير على نحو واحد . فالفن يعرض أشكالا تجمع بين المعانى المجردة والمشخصة ، ويحاول استحثاثنا على الالتفات إلى المعانى المجردة وحدها ، وإلى إقناعنا بأن أى ملامح شخصية تحيط بها إنما جاءت بفعل ضرورات هذا الفن . أما عند الشاعر ، فإن الآلهة كائنات حقيقية فعالة تتصف إلى جانب خصائصها العامة بخصائص ومشاعر شخصية ، قد تتغلب فى بعض أحيان على خصائصها العامة . وفينوس مثلا لا تمثل فى نظر الفنان أى شىء آخر غير الحب . ولذا فإنه مضطر إلى الاقتصار فى تعابيره الفنية على ما يوحى لنا بهذا المعنى . وبامكانه أن يضفى عليه بقصد استهوائنا للنظر إليه بعض الملامح الجميلة الرشيقة — باعتبار أن الحب يقترن بالجمال والسحر . وأى انحراف عن هذه التأثيرات يؤدى إلى عدم تذوقنا للصورة أو التمثال . فإذا اتجه المصور إلى جعل الجمال يتصف بالسمو والجلال بدلا من التواضع فستتحول فينوس على الفور إلى آلهة أخرى هى يونون . ولو أنه جعل سحرها نابعاً من الجبروت لتحولت إلى مينرفا .

من هذا يتضح أن ظهور فينوس فى صورة غاضبة أو اتجاهها إلى الانتقام سيبدو فى نظر المثال دليلا على التناقض الصارخ :

أما فى نظر الشاعر فإن فينوس لا تمثل الحب وحده بل هى آلهة حب . وإلى جانب هذه الصفة فإن لها صفاتها الأخرى المتصلة بشخصيتها . فلا بأس إذن إذا جعلها الشاعر تثور وتغضب .. الخ . والشاعر يستطيع أن يلجأ عند الوصف إلى معان سلبية وإلى الجمع بين أية خصائص مختلفة برغم تناقضها . فلا يهمه أن تظهر فينوس دائماً فى صورتها الرشيقة ، أو أن ترتدى ثياباً ذات لون لازوردى . كل هذه الاختلافات بين الشعر والتصوير يدركها كل من يفهم التصوير فهما حقيقياً ، ويعرف أن أحكام أى منها لا تلزم بالضرورة فى الفن الآخر .

وعند المقارنة بين المصور والشاعر ينبغى الالتفات إلى مدى الحرية التى تمتع بها الإثنان فى إنجازهما لعملهما. فمن الواجب دراسة المؤثرات التى تأثر بها العمل الفنى . وكثيراً ما كان للدين مثل هذا الأثر . ويظهر هذا فى التماثيل المخصصة للعبادة ، والتى كثيراً ما اتجه المثالون إلى إثقالها بالرموز لكى تحدث الأثر المطلوب : وأدى عدم نقاء العمل الفنى أحياناً بتأثير ذلك إلى إساءة تفسيره ، ونسبة أشياء بعيدة عن الفن إليه .

فالقرون التى ظهرت فى تمثال باكوس فى معبد ليمنوس مثلا ، كان الدافع لإبداعها هو إمساك ابنته بها لإنقاذ أبيها . ولكن الفنانين الذين لم يقصدوا إنشاء تماثيل لكى توضع فى المعابد ، قد تمتعوا بحرية جعلتهم لا يلجأون إلى مثل هذا النوع من الرمز أو المسخ . ويستخلص لسنج من ذلك أن العمل الفنى هو الشىء الذى أراد الفنان بابداعه غاية فنية فحسب ، أى كان الجمال هو هدفه الوحيد . أما الأعمال الأخرى التى تشتم منها أية غايات غير فنية فلا يصح نسبتها إلى الفن .

والفنون التشكيلية — كما رأينا — لا تستهدف أى شىء آخر غير الجمال ، ولكنها إذا اضطرت إلى التعبير عن أية معان أخرى بعيدة عن رسالتها الأصلية ، فإنها تضطر إلى ابتكار رموز ، تصبح بمرور الزمن وبسبب كثرة تكرارها أصولا مرعية فى الفن . وواضح أن الشاعر غير مرغم على اتباع مثل هذه الرموز ، لأن لغته تسمح بالتعبير فى وضوح عن أى معنى يقصده بغير لجوء إلى رموز أو إشارات متفق عليها . ولذا تظهر فى الفن رموز فى كثير من الأحيان مثل شكل الأنثى التى تمسك باللجام فى يدها للتعبير عن العفة أو التى تستند إلى عمود للتعبير عن الوفاء . والمصور ربما كان مضطراً إلى الاستعانة بهذه الرموز للتعبير عن مثل هذه المعانى ، ولكن هل هناك ضرورة تتطلب قيام الشاعر بالمثل .

وبعد أن انتهى لسنج من نقد سبنس تابع فكرته الأساسية لبيان الاختلاف بين الشعر والتصوير فانتقد الكونت كايلوس (Caylos من أشراف فرنسا فى القرن الثامن عشر ، وكان مولعاً بالآثار والدراسات الكلاسيكية) ، لأنه قد خلط هو الآخر بينهما فظن أن من الواجب أن يلجأ الشاعر إلى الرموز وإلى المعانى الرمزية فى شعره ، كما رأى أن الشعراء كثيراً ما تأثروا بالأعمال الفنية وقاموا بمحاكاتها فى قصائدهم .

ولو صح هذا الكلام ، ولو صح قيام هوميروس بنقل المعانى التى ذكرها من بعض الأعمال الفنية التى اطلع عليها لأدى ذلك إلى انحطاط منزلته فى تقديرنا بغير مراء .

ويميل لسنج إلى الإعتقاد بامكان استيحاء المصور موضوعه من الشاعر ، وإن كان العكس غير صحيح . وتعليل ذلك هو أن التنفيذ فى التصوير أعسر من الإبداع بعكس الشعر ففيه الإبداع هو كل شىء ، لأن انتزاع المعنى الشاعرى من الخيال أعسر بكثير من التعبير عنه فى كلمات . والتعبير فى الفنون التشكيلية اعتماداً على مادة وسيطة كالرخام مثلا أشق بكثير من التعبير بوساطة الكلمات . من هذا يتضح أن التنفيذ (أو الناحية التقنية

فى الفن كما نقول حالياً) فى الفنون التشكيلية أكثر صعوبة من الإبداع والأصالة .

ويحبذ لسنج فكرة استلهام الشعر فى التصوير ويقول ان المصور الذى اتبع الأوصاف التى ذكرها الشاعر تومسون ، قد صور مشهداً جميلا يفوق فى جماله من اعتمد على الطبيعة اعتماداً مباشراً . فالمصور الثانى لا يصادف أى عناء لأنه يرى الأصل أمامه ، أما الأول فانه يضطر إلى قدح زناد فكره حتى يتمكن من تمثل الشيء الذى أمامه . والأول يبدع عملا جميلا اعتماداً على المحسوسات التى يراها ، أما الآخر فإنه لا يعتمد على أكثر من متمثلات واهنة غامضة .

ولكن لسنج يستدرك ويذكر أن شعور الفنانين بأن الابتكار ثانوى فى فنهم لم يكن دائماً ذا أثر محمود . فإن معرفة الفنانين اعتماد براعتهم على التنفيذ قد جعلتهم أحياناً لا يبالون بالأصالة . ولهذا لم تتقدم الفنون التشكيلية تقدماً مماثلا لما حدث فى سائر الفنون . ولكن هذا التكرار ليس أمراً سيئاً كما يبدو لأول وهلة ، لأنه يساعد كثيراً على سرعة تأثير الفن التشكيلى وفوريته . ولعل السبب الذى دفع الفنانين إلى الخوف من الابتكار ليس صعوبات الناحية الآلية فى التصوير واستغراقها وقتاً طويلا كما ذهب الكونت كايلوس إنما يرجع بمعنى أصح إلى سبب أعمق من ذلك ، وهو التزام التصوير بحكم طبيعته موضوعات محددة كما سنرى .

وثمة اختلاف آخر بين الشعر والفن لأن الشعر قادر على تناول الموضوعات المرئية وغير المرئية على حد سواء . أما التصوير ، فإن موضوعه أساساً هو المرئيات . والمصور قد يتناسى أحياناً الاختلاف بين المرئيات وغير المرئيات فيترتب على ذلك إبداع أشياء ممسوخة أو تدعو إلى الحيرة . ويضرب لسنج مثلا لبيان الاختلاف بين الشاعر والمصور فى هذا الصدد فيذكر أن الشاعر عندما يتناول الصراع بين الآلهة ، فانه يتناول جوانب كثيرة غير مرئية ويتيح للخيال فرصة تأملها وتخيل الآلهة فى عظمتهم وفى تساميهم على الآدميين . ولكن المصور مقيد بعوائق فنه التى ترغمه على الاقتصار على المرئيات . فهو مرغم فى حالة الآلهة على تصويرها فى صورة أشخاص . ولو لجأ إلى تضخيمها أو تغيير ملامحها لبدت أقرب إلى الوحوش منها إلى الآلهة . والمبالغات التى قد يطالعنا بها الشعر عن قوة الآلهة وقدرتها على زحزحة الأحجار أو تصويبها مهما كان ثقلها — كالحجر الذى ألقاه مينرفا على مارس مثلا — ستبدو غريبة لا معنى لها إذا أقدم أى مصور على تصويرها . فصور الآلهة قد نستطيع أن نتخيلها لو قرأنا الشعر ، ولكن التصوير يفسدها . ومهما اتصف المصور بالبراعة ، فإنه لن يستطيع تصوير الآلهة فى أية صورة أخرى غير صورة البشر .

ويلجأ المصورون عندما يحاولون الإيحاء بالأشياء غير المرئية إلى إحاطة الأشياء العادية بسحب رقيقة . والقصد من هذه الفكرة هو الإيحاء لمتأمل الصورة بتناسى ما يرى فى الصورة ، وبتخيل هذه الأشياء كأنها غير مرئية . وهذه الفكرة مأخوذة عن الشاعر هوميروس الذى كان يحيط أبطاله بسحابة رقيقة ، أو بالظلام ، عندما يريد إخفاءها من رماح الأعداء . هذا التعبير الشاعرى اللطيف عندما يتم نقله إلى التصوير فانه يظهر فى شكل سحابة حقيقية يختفى وراءها البطل ، وكأنه يختفى وراء ستار . مثل هذه الفكرة لن تبدو مستحبة على الدوام فى التصوير ، ولن تعنى نفس المعنى المجازى الذى يقصده الشاعر ، لأن ما يقصده الشاعر هو القول : « عليك أن تتخيله وكأنه غير مرئى » .

ويحاول لسنج إثبات عدم صلاحية كل موضوعات الشعر للتصوير بالقول بأننا إذا افترضنا ضياع مؤلفات هوميروس كلها (الإلياذة والأوديسا) ، وأن ما بقى ليذكرنا بها كان مجرد لوحات مصورة تمثل بعض المشاهد التى استشهد بها الكونت كايلوس . فهل نستطيع

بمجرد الاطلاع على مثل هذه اللوحات تذكر ما كتبه هوميروس ؟

فلنتصور مثلا قيام أى مصور بتصوير مشهد الطاعون : كل ما يستطيع المصور فى هذه الحالة أن يفعله هو رسم جثث ومراسم جنائزية ، وإله قابع فوق إحدى السحب (للإيهام بأنه شىء غير مرئى) . مثل هذا المعنى سيبدو هزيلا للغاية بالنسبة لأشعار هوميروس

وناحية أخرى يتميز بها الشعر وهى الموسيقى التى تتردد أصداؤها فى مقاطعه ونبراته ، والتى تعجز فرشاة المصور عن محاكاتها أو ترديدها . والتصوير لا يتفوق إلا فى رسم المرئيات الثابتة بعكس الشعر الذى يستطيع أن يصور أى حركات متتابعة متلاحقة ، كصورة بانداروس مثلا فى الكتاب الرابع من الإلياذة . وفيها صور لنا هوميروس باندارونس وكيف أمسك بالقوس فى يده ، كما صور لنا الحركات المتتالية للسهم ، بحيث يستطيع من لا يعرف أى شىء عن هذا الموضوع أن يتعلم فن القوس والسهم بمجرد اطلاعه على هذا الوصف . من هذا يتضح أن الشعر قادر على وصف المرئيات التى تتعرض للتغير . بعكس التصوير ، فإنه لا يستطيع أن يعرفنا بغير المرئيات الثابتة . فالتصوير إذن يعنى بالمكان وحده وبالأشياء المتجاورة ويتناسى وجود الزمان والأحداث التى تتعاقب فيه .

التصوير فن المكان والشعر فن الزمان

وبعد هذه المقارنات التفصيلية بين الشعر والتصوير ، حدد لسنج الموضوعات التى تصلح للتصوير فقال إنها الأجسام التى تتألف من أجزاء متراصة تقع فى مكان واحد . أما موضوع الشعر فهو الأفعال التى تحدث متعاقبة ومتتالية فى زمان .

ولو حاول التصوير عرض موضوعات الأفعال المتغيرة ما إستطاع أن يقدمها إلا فى مجموعة من الصور المتعاقبة التى لا تظهر فيها غير أجسام ثابتة . أما الحركة ، والأفعال وما تتعرض له من تغير ، فإنها تستخلص من الاختلاف الذى يظهر فى هذه الصور .

والشعر يعنى بالأفعال ، ولكن الأفعال لا تحدث فى فراغ أو خواء ، بل يضطلع بها أشخاص . وقارئ الشعر يستطيع أن يدرك صورة الشخص القائم بهذه الأفعال من خلال وصف الشاعر .

ومن يتأمل هوميروس سيرى أنه لم يصف غير أحداث متعاقبة ولم يرسم صورة لشخصية أو لأجسام إلا عندما تطلبت الأحداث ذلك . فالصور التى رسمها لن تصلح مادة للتصوير — كما توهم النقاد — لأن ما يحتاج إليه المصور لكى يصوره هو كل مكتمل وليس أجزاء متعاقبة . ولو أقدم المصور على محاكاة هوميروس لكان بحاجة إلى عدد لا حصر له من الصور . ويكفى فى هذا الصدد ذكر مشهد إبحار السفينة ورسوها . مثل هذا المشهد لن يحتاج إلى ما هو أقل من خمس صور أو ست لو أريد التعبير بالصور عن كل المعانى التى قصدها هوميروس . وهوميروس لم يتورط إطلاقاً فى رسم الموضوعات التى يتفوق فيها التصوير بحكم طبيعته : فهو مثلا عندما أراد تصوير الصولجان لم يستطع بالطبع أن يظهر ألوانه المتعددة الساحرة فلجأ إلى فكرة أخرى وهى سرد تاريخه وكيف صنعه الإله فولكان ، وكيف اكتسب بريقاً بفضل جوبيتر ، ثم تحلى به بعد ذلك الإله ميركورى ، وأصبح يمثل صولجان الحرب فى يد بنلوب ، كما يمثل عصا اتريوس الراعى المسالم .

ويقارن لسنج بين الشعر والتصوير فى ناحية هامة ، وهى ناحية البراعة فى الوصف . وهو يرى أن إدراك معالم أى شىء تتطلب نظرة خاطفة تنتقل بين أجزاء الشىء المختلفة بحيث تبدو كأنها نظرة واحدة . فالسرعة لازمة لكى ندرك أى شىء فى كليته وشموله . ولكن هذه السرعة تتعارض مع رسالة الشاعر ، لأنه فى انتقاله

من وصف جزء إلى جزء آخر غالباً ما يتريث . وغالباً ما يركز على جزء ما عندما يرى أن التركيز سيحدث الأثر الشاعرى المطلوب . ويترتب على ذلك فى النهاية نسيان المستمعين للشعر ما قيل فى أول الأبيات عند استماعهم وصف الأجزاء الأخيرة التى يصفها الشاعر . وما يسفر عنه ذلك هو تعذر الإحاطة بالكل فى السرعة المطلوبة ، اللهم إلا إذا كان المستمعون يتمتعون بذاكرة فذة تساعدهم على نسيان هذه الفواصل الزمنية وعلى تجميع الأوصاف الجزئية بحيث تتحقق صورة شاملة واضحة .

إن مثل هذه الصورة الشاعرية الجامعة فى وصف الأشياء غالباً ما تكون أكثر وهناً وتفككاً من أية صورة مرسومة تعتمد على الخطوط والألوان . صحيح أن اللغة لا تعجز عن تمثيل أى كل مادى ، ولكن يلزم فى هذه الحالة مراعاة خاصتين من خصائصها وهى أنها تتألف من ألفاظ لا تدل إلا على أشياء متتابعة وأنها قد نبعت من الأشخاص ولم تنبع من الأشياء ولذا تحتمل كثرة من التأويلات . وإذا أمكن للمستمع التغاضى عن هاتين الخاصتين وتناسى أن اللغة لا تفى بغير الأشياء المتعاقبة فى الأزمان ، وليس من شأنها وصف الأجسام المتجاورة فى مكان واحد : فإنه سيرضى عن الأوصاف التى يقرأها فى الشعر ويستفيد منها .

ولكن هل يعد تخلى اللغة عن هاتين الخاصتين (عدم تحديدها وتركيزها على الأشياء المتعاقبة) ميزة لها . إن الشعر فى الواقع لا يهدف إلى الأوصاف الواضحة ، لأن هذه هى مهمة النثر . أما ما يرمى إليه الشعر فهو استحثاثنا على تخيل المشاعر التى كنا سنشعر بها فى حضرة الأشياء التى يتحدث عنها الشاعر . فإذا ترك الشاعر مثل هذه المهمة الجليلة كان هذا دليلا على إفلاسه . فلا عجب إذا نظر بوب فى سنواته الأخيرة بازدراء إلى أشعار الوصف التى أضاع فيها وقته فى صباه . كما أن كلايست قد نظر إلى قصيدته « الربيع » نظرة خالية من كل تقدير . ولو قدر له أن يحيا طويلا لما كان من المستبعد إقدامه على تغييرها . ويستخلص لسنج من هذه المناقشة قاعدة أساسية هى ضرورة تخصص الشاعر فى المتعاقبات فى الزمان ، وتخصص المصور فى النواحى المتجاورة فى المكان .

وتبعاً لهذه القاعدة انتقد قيام بعض المصورين مثل فرانشسكو مازولى لقيامه بتصوير مشهدين فى نفس الصورة ، كما إنتقد تيسان لإقدامه على تصوير قصة الابن المنحل وحياته التى سادها الإنحلال ، وتعاسته ثم تكفيره عن خطاياه ، فى صورة واحدة . فتجاوز مهمة التصوير (وهى رسم شىء مكتمل) والقيام برسم أحداث متفرقة متباعدة فى الزمان يدل على عدم إدراك المصور لمهمته . ويعمد المصور البارع الذى يدرك قصور التصوير وإضطراره إلى التركيز على لحظة واحدة ، إلى اختيار أفضل اللحظات وأغناها بالمعانى ؛ كما يلجأ إلى البراعة فى ترتيب شخوص صورته ؛ وإلى الاقتصاد فى اختيار مكونات الصورة ٥

والشاعر بحكم هذه القاعدة مضطر إلى التركيز على جانب من الأحداث أو الأشياء التى يتحدث عنها : بدلا من سردها جملة واحدة . ولكن الشاعر ببراعته فى اللغة قد يستطيع اختيار كلمات مشبعة بالمعانى تجعلنا نتوهم أنه قد جمع فيها أكبر قدر من الأوصاف التى يرى التعبير عنها . ولنضرب مثلا لذلك هو وصف الدرع عند هوميروس ؛ (وهى مسألة قد شغلت كثيرين من المفكرين فى القرن الثامن عشر نذكر منهم الشاعر بوب ومدام دارسيه) فهو لم ينس فى هذا الوصف الدقيق أن يعرفنا مادته وشكله وكل الصور التى كانت مرسومة على سطحه الرحيب مما ساعد المصورين المحدثين على إبداع رسوم تمثل هذه الأشكال تمثيلا دقيقاً . ولا يفهم من ذلك أن هوميروس قد اعتدى على حدود الشعر . فهو لم يصف الدرع جملة واحدة ، بل وصف المراحل المتتابعة التى يمر بها صنع الدرع . فنحن

لا نتخيل عندما نقرأ الوصف الدرع ذاته ، بل نتخيل الصانع البارع عندما قام بصنعه ، فنراه وهو يمسك بالقادوم ، ويقف أمام السندان ، ونرى الحديد عند صهره وسبكه ، كما نرى الصانع الفنان وهو يتخيل الأشكال المختلفة التي ينوى تزيين الدرع بها . ولكن النقاد الذين لم يرضوا عن وصف هوميروس للدرع قد انتقدوا هذا الوصف لعدم درايتهم بما بين الشعر والتصوير من اختلاف . فقيل إن هوميروس قد ملأ الدرع بعدد كبير من الأشكال ، ما كان ميسوراً أن يحتويها سطحه : وأثبت بوافان (عالم اليونانيات الفرنسى جان بوافان) ذلك عندما قام برسم تخطيطى للدرع وفقاً للأبعاد التى ذكرها هوميروس ، ولكنه نسى أن الشاعر لا يعنى بالأحداث أو الأوصاف باعتبارها متجاورة فى مكان واحد ، بل إن ما يعنيه هو اللحظات المتعاقبة التى قد لا يستوعبها مكان واحد . ولهذا فاننا إذا جمعنا صور هوميروس على شكل لحظات أى حولناها من صورتها الشاعرية إلى الصورة التى تناسب التصوير ، لاحتجنا بغير جدال إلى عدد كبير من الصور كل منها تمثل لحظة من الزمان . فكل مشهد من هذه المشاهد العديدة التى صورها الشاعر بأشعاره فى حاجة إلى صورة منفردة . هذه المعانى يستطيع الشاعر إدماجها فى صورة مركزة غير مقيدة بأى تجاور فى المكان ، أو اشتراك فى لحظة واحـــدة كما هو الحال عنـــد المصور .

وظن الشاعر بوب أن هوميروس قد صور هذه المشاهد وفقاً لقواعد التصوير ، أى أنه لاحظ التباين وقواعد المنظور . . الخ . ولكنه تناسى أن فن التصوير أثناء حرب طروادة لم يكن قد توطد بعد كما شهد المؤرخ بلينى وآخرون . وبدلا من أن يعترف بوب بالاختلاف بين التصوير والشعر ، فإنه قد جعل الشاعر يتنبأ بقواعد التصوير التى ظهرت بعد أكثر من ألف سنة من وفاته .

الجمال والدمامة فى التصوير والشعر

وتنتقل المقارنة بين الشعر والتصوير بعد ذلك إلى ناحية أخرى وهى القدرة على عرض الأشياء الجميلة . والجمال الطبيعى يعنى وجود اتساق وانسجام بين الأجزاء المختلفة . ولكى يظهر هذا الاتساق ينبغى أن توجد هذه الأجزاء متجاورة . لذا أصبح الجمال هو الموضوع الذى تتميز به الفنون التشكيلية .

أما الشاعر وبحكم اضطراره إلى عرض الجمال اعتماداً على صور جزئية متعاقبة ، فإنه لا ينجح فى إحداث تأثير مماثل لتأثير المصور ، ومن ثم فإنه يتجنب أى وصف للجمال على هذا النحو . فثمة اختلاف بين منظر أى شىء مكتمل الأجزاء ومنظره مجزءاً إلى أجزاء متعاقبة . إن الحالة الأخيرة لا تستحثنا إلى الشعور بالجمال . اللهم إلا إذا تذكرنا حالات مكتملة مماثلة بمجرد رؤيتنا للقطات الجزئية التى يعرضها الشاعر .

وهوميروس هو أفضل من تنبه إلى هذه القاعدة أيضاً . فهو يكتفى بالإشادة بجمال هلين ، ولكنه لا يقحم نفسه فى عرض تفاصيل مفاتنها . لأنه واثق أن مثل هذا العرض لن يساعد على إحداث الأثر المطلوب . فلا صحة إذن لاعتقاد بعض النقاد أن الشعراء العباقرة قادرون على تحقيق ما تنجح فى إبرازه اللوحة المصورة ويرى لسنج أن ما يمكن الإفصاح عنه على أفضل وجه بوساطة الخطوط والألوان ، هو شىء تعجز الكلمات عادة عن التعبير عنه . فإذا كان دولشى قد أثنى على وصف الشاعر أريوستو لإحدى النساء الجميلات ، فإن لسنج بعد أن قرأ هذا الوصف يرى هذه القصيدة أفضل تحذير لجميع الشعراء بعدم اتباع مثل هذا الاتجاه غير السديد .

ربما استشففنا من بعض قصائد أريوستو بعض قواعد التناسب التى عرفها القدامى . وربما اعتقد البعض أن هذه القصائد قد دلت على معرفة كاملة بالتلوين

لا تختلف عن معرفة تيسان بها ، ولكن ما هى الفائدة التى سنجنيها من قراءة بعض أشعار تعرفنا بالجمال فى صورة مادية ؟ إن الشعر يرمى إلى شىء آخر وهو تعريفنا بالجمال الذى ينبض بالحياة ، والقصيدة الشعرية الحقة هى التى تدفعنا إلى الإحساس بالانفعال الصحيح الذى نشعر به فى حضرة الجميل . فلا قيمة إذن لترديد الشاعر أوصاف الجمال التى نراها مصورة ، أو لترديده النسب المختلفة لتقاطيع الوجه . وكأن الشاعر مدرس رسم يعرف تلاميذه الصغار كيف يرسمون بعض نماذج الجمال .

وأحسن فرجيل (ولم يثن لسنج عليه كثيراً خصوصاً عندما كان يقارنه بهوميروس) عندما أكد عجزه عن تصوير جمال هلين كما ينبغى ، وإن كان هذا لا يرجع إلى خطئه ، بل يرجع إلى حدود فنه . فهو إذن جدير بالثناء لأنه قد عرف كيف يراعى حدود هذا الفن ، لذا لجأ إلى حيلة طريفة لوصف الجمال . إذ تخيل رساماً يرسم معبودته فى حضرته . ولم يكن الشىء الذى يبغيه هو رؤية أجزاء الوجه وهى ترسم أمامه ، بل تخيل المحبوبة حاضرة أمامه وكأنها تتحدث أو تبتسم .

والشعر لن يخسر كثيراً إذا تجنب وصف الأشياء الجميلة لأنه يعوض ذلك بشىء آخر يتناسب مع قدراته وهى وصف الأثر الذى يحدثه الشىء الجميل ، وهكذا يستطيع أن يوحى لنا بوجود الشىء الجميل دون أن يعرض لنا تفاصيله . والشىء الذى تحدثت عنه الشاعرة اليونانية سافو وجعلها تفقد وعيها وصوابها ، لا آخالنا نتصوره من الأشياء القبيحة . والشعر قادر على منافسة التصوير فى وصف الجمال على نحو آخر عندما يحول الجمال إلى سحر . والسحر عبارة عن جمال فى صورة متحركة ، ومن ثم لا يصبح من الموضوعات التى تناسب التصوير . . وموضوع الفن التشكيلى يقتصر على الموضوعات الثابتة كما رأينا ، لذا يترك المصور استخلاص الحركة لفطنة المتأملين للوحاته .

ولقد طالب الشاعر أناكريون بالمستحيل من المصورين عندما طالبهم بجعل صورة محبوبته تتسم بالسحر الذى ينبغى أن يشع من ذقنها الرقيقة ومن عنقها المرمرى . فهل كان هذا ميسوراً ؟ . . إن التصوير بمعناه الصحيح ليس قادراً على تحقيق ما يبتغيه أناكريون . فالمصور يستطيع رسم الذقن فى أكمل استدارة ممكنة ، ويستطيع أن يبرز فتنة الوجه وملامحه ، وأن يختار أفضل الألوان التى تناسب العنق بحيث يجعلها قريبة إلى الحياة ، ولكنه سيتعثر لا محالة إذا حاول أن يخطو أية خطوة بعد ذلك .

وبعد أن تحدث لسنج عن الجمال انتقل إلى الدمامة ، وما تعنيه فى كل من الشعر والتصوير . ولكى نحكم على أى شىء بالدمامة علينا أن نراه مكتملا ، لأن الدمامة لا تظهر كما ينبغى فى حالة اللقطات الجزئية . وهى فى هذه الناحية مماثلة للجمال . وفقاً لذلك ، فانها ليست من الموضوعات المناسبة للشعر . ومع كل هذا فقد رسم هوميروس الدمامة فى أبشع صورها عندما تحدث عن أحد أبطاله . فما الذى دفعه إلى وصف الدمامة مع معرفته أن الشعر يختص بالصور المتلاحقة ، ومع إحجامه عن القيام بفعل مماثل فى حالة الجمال ؟ . . ألا تؤدى تجزئة أوصاف الدمامة إلى التخفيف من حدتها ، وإلى إضعاف الوصف كما يحدث فى حالة الجمال ؟ . . ويعترف لسنج بصحة هذا الرأى ، وإن كان هوميروس محقاً فيما اتبعه ، لأن تجزئة أوصاف الدمامة تؤدى إلى التخفيف من خصائصها المنفرة (!) ومن ثم يستطيع الشاعر تحويل هذه الدمامة إلى أشياء مثيرة للسخرية أو الرعب . فهوميروس قد صور الشخصية (التى أشرنا إليها) قبيحة لكى يجعلها مثيرة للسخرية . ولم يعتمد على الدمامة وحدها لإحداث هذا الأثر ، بل لجأ إلى إظهار التباين بين هذه الصورة القبيحة التى تبين عدم الاكتمال وبين صورة أخرى تمثل الكمال . والشىء المثير للسخرية لا يعتمد على قبح الملامح وحدها ، بل يجب أن تكمله صفات خلقية قبيحة كذلك . فايزوب كان سيتصف

بقبح مماثل لشخصية هومبروس التى تحدثنا عنها ، لولا حكمته وفضله وأثرهما فى الحيلولة دون إثارته للسخرية .

والدمامة عندما لا يتسبب عنها أى ضرر تثير السخرية ، ولكنها عندما تحدث ضرراً تصبح شيئاً مثيراً للرعب . واستشهد لسنج بشكسبير فى هذه الناحية ، وقارن بين شخصيتين من شخصياته اشتهرا بميلهما للشر وهما إدموند الابن الحرام لإيرل جلوستر فى رواية الملك لير ، وريتشارد دوق جلوستر الذى لجأ إلى كل الحيل الدنيئة والخبيثة للحصول على العرش ، ونجح وأسمى نفسه ريتشارد الثالث . والشخصية الأولى لا تثير فينا رعباً مماثلا للرعب الذى تحدثه الشخصية الثانية . فان الشخصية الأولى — برغم شعورنا بما فيها من جوانب شريرة — تستدر شفقتنا وهى تشكو المجتمع وظلمه ، وأحكام الناس الخالية من كل شفقة . ولكن شخصية إيرل جلوستر فى صورتها الشرسة المتغطرسة لا تمثل أى شىء سوى الشيطان ذاته .

ومن حيث الصلة بين الدمامة والتصوير ، فان المصور قادر على محاكاة الدمامة ، لأنه يستطيع محاكاة جميع المرئيات ، الجميلة والقبيحة على حد سواء . ولكن الفن الرفيع يمنع ذلك .

وقد يقال إن صور الأشياء القبيحة كثيراً ما تتحول إلى أشياء مستحبة . ويدلنا على ذلك أن المشاهد المروعة أو المحزنة ليست من المشاهد التى ننفر منها عندما نراها مصورة ، لأننا لا نبغض الشر إلا إذا تصورناه شيئاً حقيقياً ، فاذا عرفنا أن الشرور أشياء موهومة مصطنعة ستتحول مشاعرنا من النفور إلى الارتياح .

ولكن النفور ليس مرتبطاً بحقيقة الشىء المنفر فحسب ، لأننا نشعر بنفور حتى إذا أدركنا أن ما نراه ليس شيئاً حقيقياً البتة . والأمر بالمثل فيما يتعلق بقبح الأشكال ، لأن الأشكال القبيحة تثير الاشمئزاز ، وتعد شيئاً متعارضاً مع ميلنا إلى النظام والاتساق . واعتقادنا أن الأشياء التى نراها ليست حقيقية لن يؤدى إلى تخفيف نفورنا ، بل سيدعونا إلى التساؤل عما دفع الفنان إلى تخيله مثل هذا المعنى المنفر ، وإلى التشكك فى سلامة ذوقه .

وربما قيل اننا قد نعجب بمثل هذه الصور التى تمثل الدمامة باعتبارها تشبع فضولنا وميلنا للاستطلاع . ولكن مثل هذا الشعور مؤقت لا يعتد به ، وسرعان ما يزول ولا يبقى سوى الشعور بالنفور من الأشياء الدميمة أو ما يماثلها .

والأمثلة التى ذكرها أرسطو للدمامة لا تمثل أشياء دميمة فى الواقع ، لأن الحيوانات المتوحشة ليست دميمة ولكنها تثير الرعب . وسر شعورنا بالارتياح عندما نتأمل صورها هو أنها لا تماثلها من ناحية إثارتها للرعب ، إنما هى تشبهها من حيث المظهر وحده . وعلى ذلك يرفض لسنج اعتبار الدميم موضوعاً للفنون التشكيلية ، لأن الدمامة تثير النفور على الدوام ، ولا شىء يخفف من وطأتها . فهى قد تثير السخرية أمداً قصيراً فى حالة عدم إحداثها أى ضرر ، ولكنها تظل بعد ذلك على الدوام موضع استهجان واستنكار .

والشاعر يستطيع تطعيم مبدعاته ببعض النواحى الدميمة المنفرة التى تتباين مع الطابع العام لشعره فتزيد من تأثيره . والأشياء المنفرة تساعد على إشاعة السخرية فى حالة مقارنتها بالأشياء الجميلة ، كما يظهر لنا عنه أريستوفان . وأهم شرط عند تقديم المنفر فى الشعر هو إحسان اختيار الموضع المناسب الذى لا يتعارض مع الأثر العام للقصيدة الشعرية أو الدراما فى صورتها الكلية كما نلاحظ عند هومبروس وعند سوفوكليس .

* * *

واضح من هذا العرض شدة تعلق لسنج بالشعر ، واعتقاده أنه أسمى منزلة من التصوير . ولا أميل إلى إرجاع ذلك كما جاء فى كثير من مراجع تاريخ الفن إلى نقص فى معرفة لسنج بالفنون التشكيلية . فالأرجح فى رأيى هو شدة تعصب المفكرين فى القرن الثامن عشر

للحضارة الهلينية والرومانية . وفنونها . هذا التعصب هو الذى دفع لسنج إلى تناسى نفائس الفن التشكيلى الفلمنكى الأقرب عهداً من الفن اليونانى والرومانى . (وهو نفس السبب الذى دفع فنكلمان برغم معرفته الواسعة بالفنون التشكيلية إلى إصدار عدة أحكام يسخر فيها من الفن الفلمنكى) .

وأدى تركيز لسنج دراسته على الفن اليونانى إلى توهمه أن الجمال وحده هو غاية الفنون التشكيلية . هذا الحكم وإن صح عن آثار اليونان والرومان ، فانه لن يصح إطلاقاً على العصور الذهبية للتصوير سواء عند الإيطاليين فى عصر النهضة . أو عند الفلمنكيين ، أو عند الأسبان . أو عند المدارس الفرنسية المتعددة التى ظهرت فى القرن التاسع عشر . والتى لم يعرفها لسنج ، والتى أثبتت — كما أثبت رمبرانت من قبل — أن الفن التشكيلى لا يعرض لحظة من الزمان فحسب . كما اعتقد لسنج متأثراً بالمفكر الإنجليزى كيمز ، بل هو قادر على عرض تاريخ طويل حافل . وما يتميز به المصورون العباقرة هو قدرتهم على رسم لوحات تظهر التغلب على كل معوقات فنهم . ففى مثل هذه اللوحات ، لا نرى ألواناً أو أشكالا ثابتة فحسب . بل نتوهم أحياناً أنها تتحرك أمامنا . ونادر أن تتشابهت نظراتنا المتكررة إلى أية لوحة خالدة . ففى كل مرة ننتبه إلى شىء جديد لم نكتشفه فى المرات السابقة .

وربما كان لسنج متشككاً فى صحة ادعائه . كما يتبين من ثانى المختارات التى قمت بترجمتها فى نهاية البحث ، والتى تبين كيف يتحايل المصورون على مظاهر الثبات والسكون فى لوحاتهم ، فتبدو اللحظة الواحدة المشار إليها وكأنها تجر فى أذيالها جملة لحظات أخرى .

ومن الأفكار الهامة التى تضمنها كلام لسنج وأحدثت أثراً كبيراً فى الاستاطيقا ، تفرقته بين فنون المكان وفنون الزمان . والألمان مولعون بمثل هذا النوع من النظريات . كما تدلنا على ذلك تفرقة أخرى مشهورة لهم بين النظرة الطبيعية إلى الحياة والواقع ، والنظرة التاريخية . ولا أستطيع أن أؤكد وجود صلة واعية بين هاتين الفكرتين . ولسنا بحاجة إلى بيان بطلان هذه الفكرة . أو إلى القول بتغير نظرتنا إلى المكان والزمان تغيراً شاملا ، أى أننا نراهما الآن فى صورة مغايرة إلى أبعد حد للصورة التى زعمها لسنج .

هذا النقد لا يعنى تناسى قيمة الكتاب وأصالته . فلقد عرض مشكلة هامة بانت آثارها فى تاريخ الاستاطيقا وفى تاريخ الفن ، وترتبت عليها عدة نتائج ما زلنا نعانى من آثارها حتى الآن . ففى أغلب الإستاطيقيات التى ظهرت بعد لسنج (خصوصاً الألمانية منها) نصادف ترتيباً هرمياً للفنون . وهذه الفكرة تعنى وجود شىء مشترك بينها يسمح بمثل هـذه المقارنة ، وربما حدث تجاهل الاختلاف بين الفنون على نحو آخر . إذ اعتقد أحياناً أن مضمون الفن واحد والاختلاف هو اختلاف فى الشكل فحسب ، فقام الفنانون وفقاً لذلك بنقل موضوعات الفنون الأخرى وإعادة عرضها فى صورة لم تتناسب غالباً مع خصائص فنهم .

وأغلب الظن أن الفنون التشكيلية ، كانت أكثر الفنون تأثراً بهذه النزعة . إذ اعتبرتها أكثر المذاهب المثالية الألمانية أحط الفنون مرتبة بسبب شدة تقيدها بالمحاكاة والواقع . وهذا هو ما دفعها إلى التحرر من طابعها . فحاولت تقليد الموسيقى تارة وتقليد فن العمارة تارة أخرى . . . الخ . وما زال التصوير يعانى الأمرين بسبب حيرته التى تورط فيها ، أو بسبب إساءة المفكرين فهمه ، أو تصورهم أنه أحط منزلة من الشعر والموسيقى .

فكتاب لسنج ، برغم عدم اكتماله ، (لأن النية كانت متجهة فى البداية إلى تأليف ثلاثة أجزاء فى هذا الموضوع) عظيم القيمة إذن ، لأنه محاولة قيمة للتنبيه

إلى ضرورة الالتفات إلى أوجه الخلاف بين الفنون ، وإلى عدم افتعال أى تأثير متبادل بينها . وهو الأمر الذى يعزى أحياناً إلى نبوع كل الفنون من الإنسان ، أو من روح حضارية واحدة .

نماذج من الكتاب

التصوير فن المكان والشعر فن الزمان
(من الفصل السادس عشر)

. . . لو صح القول أن التصوير يلجأ فيما يحاكى إلى وسائل أو رموز مختلفة عن الوسائل والرموز المستعملة فى الشعر (التصوير يستخدم أشكالا وألواناً فى المكان ، والشعر من ناحية أخرى يستخدم أصواتاً منطوقة فى الزمان) ، وإذا سلمنا بأن هذه الرموز ينبغى أن تتصل اتصالا مناسباً بالأشياء التى ترمز إليها . فى هذه الحالة فان هذه الرموز عندما ترص متجاورة لن تستطيع أن تعبر إلا عن الموضوعات التى تتألف من أجزاء متراصة بجوار بعضها البعض . كما أن الرموز المتتابعة لن تعبر إلا عن موضوعات تتألف من أجزاء متتابعة .

والموضوعات التى تتألف من أجزاء متجاورة متراصة تسمى بالأجسام ، ومن ثم فان الأجسام بخصائصها المرئية هى الموضوع الذى يختص به التصوير

والموضوعات التى تتألف من أجزاء متتابعة تسمى بوجه عام بالأفعال ومن ثم فان الأفعال هى الموضوع الذى يختص به الشعر .

على أن الأجسام ليست موجودة فى مكان فحسب ، بل هى موجودة أيضاً فى زمان . فهى مستمرة فى الوجود . وقد تظهر فى أية لحظة من لحظاتها فى مظهر مختلف ، أو تتجمع مكوناتها فى صورة مختلفة . وكل مظهر من هذه المظاهر المؤقتة ، أو كل تكوين من هذه التكوينات نتيجة لأشياء سابقة له . ومن ثم فإنه يعد المحور الذى يتركز عليه أى فعل . من هذا يتضح أن التصوير يستطيع أيضاً أن يحاكى الأفعال ، وإن كان هذا لا يتحقق إلا فى صورة غير مباشرة بوساطة الأجسام .

ومن ناحية أخرى ، فان الأفعال لا تستطيع أن تحدث اعتماداً على نفسها ، بل ينبغى أن تكون مرتبطة بكائنات معينة . فمن حيث أن الكائنات إذن عبارة عن أجسام ، أو ينظر إليها على هذا النحو ، لذا يستطاع القول أن الشعر قادر على تصوير الأجسام ، وإن كان هذا لا يتحقق إلا فى صورة غير مباشرة بوساطة الأفعال.

فالتصوير بسبب تألف مبدعاته من أشياء متراصة لن يستطيع أن يصور غير لحظة واحدة من اللحظات التى يستغرقها أى فعل ، ومن ثم فانه مضطر إلى اختيار أنسب اللحظات التى توحى بالفعل ، وتشرح فى وضوح ما سبقها وما يعقبها .

وبالمثل ، فان الشعر فى مبدعاته التى تعتمد على أحداث متلاحقة لن يستطيع الإفصاح عن أكثر من خاصة واحدة من خصائص الأجسام ، ومن ثم فان عليه إختيار الخاصة التى تستطيع أن تعرفنا فى أكمل صورة حسية مستطاعة الجسم المقصود ، والناحية التى يراد تمثيلها .

* * *

متى يمكن تجاوز حدود الشعر والتصوير
(من الفصل الثامن عشر)

. . . مرة أخرى إذن أؤكد أن موضوع الشاعر هو الأحداث المتعاقبة فى الزمن ، أما المصور فموضوعه هو ما يظهر فى المكان .

وإن عرض حادثتين متباعدتين بالضرورة فى نفس الصورة الواحدة - - (كما فعل فرانشسكو مازولى عندما صور إغتصاب نساء بعض القبائل ، كما بين فى نفس الصورة مصالحة النساء لأزواجهن وأقاربهن) أو كما حدث عند تيسان الذى صور (قصة الابن المنتهك

وحياته المنحلة وتعاسته ثم ندمه فى النهاية) — يعد تطفلا من ناحية المصور فى عالم الشاعر . وهو أمر لا يرضى عنه إطلاقاً أى ذوق سليم .

ومحاولة تعريف القارئ صورة الكل بتعداد الأجزاء المختلفة أو الأشياء المختلفة الواحدة تلو الأخرى (أى الأشياء التى لا يمكن الإحاطة بها فى الحياة الفعلية إلا بمجرد نظرة خاطفة لو أريد التأثر بالشيء فى شموله) يعد تطفلا من الشاعر على عالم التصوير ، ويؤدى إلى تبديد قدر كبير من الخيال بغير مبرر .

إن التصوير والشعر يشبهان عالمين متجاورين متحابين . وبينما لا يسمح الواحد منها للآخر بأى إعتداء على أراضيه ، إلا أنهما قد يسمحان فى ترفق بأى أشياء تحدث على حدودهما ، أى أنهما يتغاضيان فى سلام عن أية اعتداءات صغيرة على حقوقهما بتأثير الظروف أو العجلة .

ولتأييد هذا الرأى لن أذكر ما يحدث فى اللوحات التاريخية الكبرى عندما تمتد اللحظة الواحدة بعض الشيء ، ولكننى أكتفى بالقول بأنه قلما توجد لوحة واحدة غنية بالشخوص ، تقوم فيها الشخصيات بعرض الحركة المناسبة أو الوضع الذى يتناسب مع حركة الفعل المطلوب . ففى بعضها تبدو الحركة أسرع مما يجب ، وفى البعض الآخر تظهر أبطأ قليلا . هذه الحرية التى يتمتع بها الفنان ، ينبغى أن يحرص على موازنتها أثناء قيامه بترتيب مكونات لوحته كأن يبرز بعضها إلى الأمام أو يرجعها إلى الخلف . . . . وسوف أكتفى بذكر ملاحظة ذكرها الهر منجز عن الأردية التى عرضها رافايل فى لوحاته . فهو يذكر أن كل ثنايا الأردية فى صوره كان لها ما يبررها . إذ كانت تدل على حركة الأطراف ، كما كانت تدل على اتجاهها . وفى بعض أحيان كانت هذه الثنايا تعرفنا أشياء سابقة للوحة . . . . ويمكننا أن ندرك من شكل هذه الثنايا هل تحركت الساق أو الذراع إلى الأمام أو إلى الخلف . أو هل بدأت حركتها من الانقباض إلى الاستقامة أو العكس . ولا يمكن أن ينكر أن الفنان فى مثل هـــذه الحالات ، يحاول الجمع بين لحظتين فى الوقت نفسه . فمثلا عندما تتحرك أية قدم إلى الأمام بعد انثنائها إلى الخلف ، يتبع ذلك على الفور حركة مماثلة فى الرداء المحيط بها ، اللهم إلا إذا اتصف قماش الرداء بصلابته وفى هذه الحالة فانه لن يناسب التصوير على الإطلاق . ولا يمكن للرداء أن ينثنى إلا الانثناءات التى يتطلبها وضع الساق على الذراع . وحتى ظهور ثنايا أخرى هو الجمع بين حركة الرداء فى هذه اللحظة ، وحركته التى حدثت فى لحظة سابقة لذلك . ولكن منذا الذى يصر فى هذه الحالة على ضرورة دقة المصور ، الذى ارتأى ضرورة عرض حادثتين ترجعان إلى لحظتين مختلفتين . ومنذا الذى لا يثنى عليه لأنه قد أدرك ذلك ، وتمتع بالشجاعة التى جعاته يقترف خطأ عديم الأهمية لتحقيق قدر أعظم من الكمال فى التعبير .

ويغتفر للشاعر اقتراف خطأ مماثل . فهو عندما يحاكى الأشياء المتعاقبة لا يسمح له فى أية لحظة بتناول أكثر من جانب أو خاصة من الأشياء التى يعرضها . ولكن إذا تميزت لغته ببراعة تساعده على التعبير عن أكثر من معنى بوساطة أى كلمة واحدة ، فلماذا لا يفعل ذلك . . . . . إننى لا أبغى من ذلك تبرير ما يقوم به الشاعر والمصور اللذان سبق أن جعلتهما شبيهين بالجارين المتحابين . فان التشبيه ليس برهاناً على صحة هذه القضية ، أو مبرراً لعدم اتباعها . على أننا نستطيع القول بأنه كما تقترب فى حالة المصور اللحظتان المنفصلتان بحيث نتصورهما بغير تردد وكأنهما لحظة واحدة ، كذلك فى حالة الشاعر ، فان الملامح المتعددة التى تصور الأجزاء ، والتى تتبع زمانين بينهما تعاقب سريع ، يضيق فيه الفاصل الزمنى ، بحيث أننا نتخيل كأنهما قد حدثا فى وقت واحد . . .

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتى

بقلم

الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

ازدهرت مدرسة التاريخ فى مصر فى العصور الوسطى وبلغت أوجها فى القرن الخامس عشر الميلادى[1]، وكان هذا الازدهار مرتبطاً بوجه عام بما بلغته الحضارة العربية من تقدم وانتعاش . ثم طرأت عدة عوامل كان لها أثرها فى اضمحلال الحضارة العربية ليس فقط فى مصر . بل فى قواعدها الأخرى فى المشرق والمغرب: فقد استهلكت الحضارة العربية — الإسلامية حيويتها ، ثم تأثرت تأثراً بالغاً بتحول طرق التجارة عن مصر والمشرق العربى — فى أعقاب حركة الكشوف الجغرافية — إلى المحيطات والعالم الجديد ورأس الرجاء الصالح . وفى النهاية وقعت الكتلة العربية من العالم الإسلامى فى أيدى الأتراك العثمانيين الذين آثروا، لأسباب عسكرية ودينية، أن يعزلوا ملكهم من العالم الخارجى . وحدث كل ذلك فى الوقت الذى عرفت فيه أوروبا النهضة والإصلاح الدينى وظهور الملكيات الحديثة التى ضعضعت الإقطاع وتحالفت مع الطبقة الوسطى لتدعيم الدولة الحديثة ، مصطنعة أساليب حديثة تقوم على وسائل الكشف والمخترعات .

وقد عاش المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى فى الوقت الذى خيم فيه الركود على الوطن العربى ، وسجل فى كتابه « عجائب الآثار » تاريخ مصر منذ أواخر القرن السابع عشر حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، وقدم لنا صورة عن مصر لا تكاد تختلف فى خطوطها العريضة عن صور الحياة فى الحواضر العربية الأخرى : الصورة التى قدمها البديرى عن دمشق والغزى عن حلب ومطالع السعود عن بغداد . فصور الحياة فى هذه الولايات العربية لا تكاد « تختلف إحداها عن الأخرى ، لأن المقومات التى قامت عليها حياة المجتمعات فيها تكاد تكون واحدة ، والأنظمة التى وضعها السلاطين العثمانيون لحكمها كانت واحدة »[1]. ويسجل الجبرتى أن من أسباب تدهور الكتابة التاريخية فى مصر العثمانية تسرب الكتب التاريخية من البلاد : « فإنا لم نر من ذلك كله إلا بعض أجزاء مدشتة بقيت فى بعض خزائن كتب الأوقاف فى المدارس » ؛ كما يربط هذه الظاهرة بتعدد الفتن واستفحال النزاع بين الفرق العثمانية والبيوتات المملوكية وما ترتب على ذلك من تلف كثير من المكتبات :

(١) انظر محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر .

(١) أحمد عزت عبد الكريم : حوادث دمشق اليومية ، ص ١٠ .

«ثم ذهبت بقايا البقايا فى الفتن والحروب وأخـذ الفرنسيس ما وجدوا إلى بلادهم» – هذا إلى ازورار الخاصة عن كتابة التاريخ : «وعدوه من شغل البطالين وقالوا أساطير الأولين» .

لهذا فإن ظهور مؤرخ كعبد الرحمن الجبرتى يعد ظاهرة متفردة ليس لها تفسير واضح ، وإن يكن هذا متصلا بالبيئة العلمية التى نشأ فيها وبالظروف المادية التى أحاطت به ، وهى ظروف يسر لم تتح للكثير من الكتاب سواء فى عصر الجبرتى أم فى غير عصره . هذا إلى وضعه الاجتماعى الذى سهل عليه الإحاطة بأحداث عصره ، وحبه للاستطلاع الذى انتقل به إلى مواطن الأحداث ، وما تميز به من دقة وموضوعية . وأخيراً فإن معاصرته لعصور ثلاثة قد أضفى على تاريخه أهمية خاصة : فقد عاش الجبرتى فى أواخر العصر المملوكى – العثمانى وشهد الحملة الفرنسية وأوائل حكم محمد على . وهو أول مفكر فى مصر الحديثة نستطيع أن نستخلص من آثاره موقفه من حضارة الغرب ، لا لأنه – كما هو الحال بالنسبة إلى رفاعة رافع الطهطاوى – قد لمس الحضارة الأوروبية فى منابعها الأصلية ، بل لأنه عاصر أول عدوان أوروبى على مصر فى العصر الحديث ، وسجل انعكاساته لدى المصريين ، وهى انعكاسات يشبهها المؤرخ أرنولد توينبى بموقف بنى البشر من أعمال مجموعة من السوبرمن .

عبدالرحمن الجبرتى

ولد عبد الرحمن الجبرتى فى عام ١٧٥٤ م ، وكان الوحيد الذى تبقى من الأبناء الذكور الذين أنجبهم الشيخ حسن الجبرتى – وكان من علماء الأزهر : وهو ينتسب إلى أسرة نزح أجدادها من جبرت بالحبشة . وكان الشيخ حسن ذا أوقاف وأملاك تدر عليه موارد غير يسيرة وتضفى عليه بحبوحة من العيش وتمكنه من الإنفاق على كثير من المشايخ الناشئين والمهاجرين الذين كانوا هم وغيرهم دائبى التردداد على منزله الكائن بجهة الصنادقية بالقاهرة المعزية . وقد لمس الشيخ حسن فى ابنه ووحيده عبد الرحمن مخايل النجابة : فقد حفظ القرآن وهو فى سن الحادية عشرة ، وكان يصغى إلى أحاديث والده ويحاول أن يتفهم ويستوعب ما يسمعه . لهذا أخذ الوالد يقص على الابن أحداث العصر وأخبار الولاة والأمراء والمشايخ الذين عرفوه – حتى إذا ما توفى ترك له أموالا طائلة وصداقات وطيدة أطرافها الأشياخ والمريدون من الطلبة والأصدقاء من الأمراء والكبراء . وما لبث عبد الرحمن أن تخرج فى الأزهر بعد أن درس شتى علوم الفقه واللغة . ثم أكب على خزانة والده يستزيد من علوم الفلك والحساب والهندسة وغير ذلك ، وعقد حلقات التدريس وفق ما جرت به عادة المبرزين من مشايخ الأزهر . ولم يكن الجبرتى راضياً عن زملائه فى المهنة – وعدم الرضى هذا هو المسئول فى كثير من الأحيان عن عادة التفكير الجاد والكتابة ؛ فقد أخذ عليهم أنهم «افتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية . وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء : . . واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان وأجروا الحبس والتعزير والضرب بالفلقة والكرابيج . . واستخدموا كتبة الأقباط وقطاع الجرائم والإرساليات للبلاد وقدروا حق طرق لأتباعهم ، وصارت لهم استعجالات وتحذيرات وإنذارات عن تأخر المطلوب مع عدم سماع شكاوى الفلاحين – ومخاصمتهم القديمة مع بعضهم بموجبات التحاسد والكراهية المجبولة والمركوزة فى طباعهم الخبيثة . وانقلب الوضع فيهم بضده ، وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميرى والفائظ والمضاف والرماية والمرافعات والمراسلات والتشكى والتناجى مع الأقباط واستدعاء عظمائهم فى جمعياتهم وولائمهم والاعتناء بشأنهم والتفاخر بترددهم والترداد عليهم والمهاداة فيما

بينهم . . . . زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية مع ما جبلوا عليه من الشح والشكوى والاستجداء وفراغ الأعين والتطلع للأكل فى ولائم الأغنياء والفقراء والمعاتبة عليها إن لم يدعوا إليها ، والتعريض بالطلب وإظهار الاحتياج لكثرة العيال والأتباع واتساع الدائرة وارتكابهم الأمور المخلة بالمروءة المقسطة للعدالة : كالاجتماع فى سماع الملاهى والأغانى والقيان والآلات المطربة وإعطاء الجوائز والنقوط بمناداة الخلبوص وقوله واعلاماه فى السامر »[1] . . . . . « وقد زالت هيبتهم ووقارهم من النفوس وانهمكوا فى الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية ومشاركة الجهال فى المآتم والمسارعة إلى الولائم فى الأفراح والمآتم ، يتكالبون على الأسمطة كالبهائم — فتراهم فى كل دعوة ذاهبين وعلى الخوانات راكعين وللكباب والمحمرات خاطفين وعلى ما وجب عليهم من النصح تاركين »[2].

ولا شك أن الجبرتى قد سر حين طلب منه أستاذه محمد مرتضى الزبيدى أن يعاونه فيما بدأ فيــه من الترجمة لأعلام المائة سنة المنصرمة : من مصريين وحجازيين ، خاصة وأن عبد الرحمن كان قد نشأ فى بيت علم واتصل برجالات مصر من أمراء وكبراء ومشايخ وأعيان . وقد أوصاه الزبيدى بالالتفات إلى الأعلام المشهورين و « بالتخير والتحرز » . وطفق الجبرتى يدون الأسماء — وكان من الطبيعى أن يبدأ بالمشايخ ، ومن كان منهم شيخاً للأزهر ، ثم أشياخ الأروقة وأرباب الحلقات ومن كان أبوه يطلق عليهم اسم « الطبقة العليا » ، ثم الطبقة التى تليها ممن اشتهروا بالعلوم الفقهية والعقلية والنقلية والشعر والأدب والخطابة — وغير ذلك . كما شرع يدون أسماء أمراء الوجاقات والصناجق ومن بلغ منهم مشيخة البلد ومن شاركه فى الحكم . وحين اتسع العمل أمامه طلب مساعدة صديقه إسماعيل الخشاب . ولما كان الخشاب من عدول المحكمة ، وبها صكوك وحجج . فقد طلب منه الجبرتى أن يدون أسماء الناس وأعمارهم — وكان يتردد على الديوان حيث دفاتر الكتبة والمباشرين . وقرر الجبرتى الطواف بالقرافات لقراءة المنقوش على القبور ، والاتصال بأقرباء الذين ماتوا للرجوع إلى أوراقهم ، إن كانت لهم أوراق .

وقد تعجل الجبرتى الترجمة لأشهر أعلام المــائة المنصرمة ، وبذل جهداً كبيراً فى تحرى الأخبار الصادقة والتواريخ الدقيقة وتقصى آثار المترجم لهم لدى أهلهم وأصدقائهم . وجمع هذه التراجم فى كراريس عديدة ، كما جمع إلى جانبها كثيراً من الحوادث والوقائع فى أوراق متناثرة يسميها طيارات ، تستقل كل منها بحادث معين ينوى تحقيق صحته فيما بعد — وهــذه الطيارات لا تكاد تختلف عن « الفيشات » التى يلجأ إليها الكتاب المحدثون .

وتبدو جدية الجبرتى فى تحرى الحقيقة التاريخية والدقة الموضوعية من قوله : « وانقضت السنة (١٢٢٥ هـ) بحوادثها التى قصصنا بعضها — إذ لا يمكن استيفاؤها للتباعد عن مباشرة الأمور وعدم تحققها على الصحة وتحريف النقلة وزيادتهم ونقصهم فى الرواية — فلا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار — وغالبها من الأمور الكلية التى لا تقبل الكثير من التحريف . وربما أخرت قيد الحادثة حتى أثبتها وبحدث غيرها وأنساها ، فأكتبها فى طيارة حتى أقيدها فى محلها إن شاء الله تعالى عند تهذيب هذه الكتابة — وكل ذلك من تشويش البال وتكدر الحال وهم العيال وكثرة الاشتغال وضعف البدن وضيق العطن (ج ٤ ، ص ١٢٤) .

---

(١) ج ٤ ص ٦٨ — ٩ .
(٢) نفس الجزء ص ٢٤٥ .

وحين أتت إلى مصر الحملة الفرنسية دون فى كراريسه أعمالها ومنشورات القادة ومراسلاتهم كما وصلت إليه ، خاصة وأنه تردد على بعض منشآتهم وأقام بعض الصلات مع رجال الحملة وأصبح عضواً فى الديوان الوطنى فى عهد الجنرال منو . وحين خرجت الحملة من مصر فى عام ١٨٠١ رأى أن يشارك المصريين أفراحهم وأن يحتفى بالعثمانيين الذين عادوا إلى حكم مصر ، فوضع كتاباً سماه « مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس »(١) أهداه إلى الوزير العثمانى يوسف باشا . ولا يستبعد أن الجبرتى الذى كان قد تعاون مع الفرنسيين قد خشى على نفسه بعد ذهابهم ؛ خاصة وقد انقلب المصريون على من تعاونوا مع الفرنسيين ، فألف كتاب «مظهر التقديس» ليبرئ نفسه ويعلن ولاءه للدولة العثمانية. وقد أفاض فى هذا الكتاب فى سرد أحداث الحملة الفرنسية ، ولم يذكر فيه شيئاً عن اتصاله بالفرنسيين وحضور حفلاتهم ومشاهدة تجاربهم العلمية ومفاوضة علمائهم ، وأغفل وثائق محاكمة سليمان الحلبى ، ولم يذكر عن نفسه أنه كان عضواً بالديوان الذى أنشأه منو . وآثر الجبرتى فى كتابه أن يكون أسلوبه مرسلا حين يسرد الأحداث اليومية ، ومسجوعاً حين يصف المعارك والفتن — وهو نفس الأسلوب الذى اتبعه فيما بعد حين وضع كتابه «عجائب الآثار» . وحين عاد الوزير العثمانى إلى الآستانة عرض الكتاب على السلطان سليم الثالث الذى أمر كبير أطبائه مصطفى بهجت بنقله إلى التركية — وتم ذلك فى عام ١٨٠٧ ، بل إن يوسف باشا قد استشف تضلع الجبرتى فى علم الفلك فعهد إليه بتحرير التقاويم والتوقيت ورتب له مكافأة على قيامه بذلك .

وأغلب الظن أن الجبرتى لم يعتزل الحياة العامة بعد خروج الفرنسيين ، ولم يقتصر نشاطه على العلم والتأليف ؛ بل خاض مع المشايخ فيما خاضوا فيه من الاهتمام بشئون الرعية بقدر ما يسمح له بالالتفات إلى مشاغله الخاصة ، لا سيما وأن الثناء على كتابه « مظهر التقديس » قد قوى عزمه على متابعة مشروعه التاريخى : وفى عام ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) ، وهو العام الذى اشتعلت فيه الثورة فى القاهرة ضد فوضى الحكم العثمانى وشهد تولية محمد على ، رأى أن يجمع التاريخ الذى انشغل به خمس عشرة سنة . وقد سهل عليه ما كتبه عن الحملة الفرنسية متابعة مشروعه ، فأخذ يستعين بأوراقه وكراريسه ويكد ذاكرته : فوضع تمهيداً تحدث فيه عن التاريخ وفائدته ، ثم أتبعه مقدمة ضافية تفلسف فيها فى تقسيم طبقات الناس ، ثم بسط النصيحة للحكام بمراعاة العدل وحسن السياسة . ثم ألم إلمامة سريعة بتاريخ مصر حتى الفتح العثمانى ، وتدرج منه إلى أواخر المائة الحادية عشرة . وإن يكن تاريخه يبدأ بالفعل بعام ١١٠٠ هـ (١٦٨٨ — ٩ م) ، بحكم أن نهاية المقدمة ليست بأى حال من الأحوال عرضاً منتظماً للأحداث ، بل إنها لا تحتوى على أية مادة تاريخية إلا فى القليل النادر . وبعد المقدمة شرع يتابع السنين واحده فواحدة : يبسط حوادثها ثم يترجم لمن ماتوا فيها . ولما وصل إلى الحملة الفرنسية اكتفى باثبات كتابه « مظهر التقديس » برمته بعد أن حذف مقدمته وبعض فصوله ، وعاد إلى أمانته التاريخية وقوم بعض الحوادث وصححها . ثم والى تنسيق الأحداث على النمط الذى اختطه لنفسه : فقسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء ، وسار بالجزء الأول حتى آخر عام ١١٨٩ هـ وبالثانى

---

(١) يقال إن المؤرخ الراحل محمد شفيق غربال قد حقق « مظهر التقديس » تحقيقاً علمياً قبل وفاته . وقد نشرت وزارة التربية والتعليم المصرية تحقيقاً للكتاب قام عليه أحمد زكى عطية وعبد المنعم عامر ومحمد فهمى عبد اللطيف وحنفى عامر (١٩٦١). كما قام محمد عطا بنشر مظهر التقديس فى جزأين فى سلسلة اخترنا لك (٥٩ — ٦٩ سنة ١٩٥٨) .

وللجبرتى مخطوطة تحت عنوان « تاريخ مدة الفرنسيس بمصر » هى جزء من كتاب مظهر التقديس : يحتمل أنه وضعها فى عام ١٧٩٨ بسبب انفعاله بحادثة احتلال الفرنسيين لمصر .

حتى آخر عام ١٢١٢ هـ وبالثالث حتى آخر عام ١٢٢٠هـ – وأسماه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ». وقد انتهى الجبرتى من تدوين هذه الأجزاء الثلاثة فى عام ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ م)[1].

وقد وقف الجبرتى من محمد على موقف المعارضة العنيفة منذ أوائل حكمه ، وظل حتى عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ – ٦ م) – وهو عام وفاته – يدون الحوادث على الطريقة التى شرحناها ، ويسندها إلى مصدر ثقة أو شاهد عيان أو شاهد سماع . وفيما يتعلق بالأحداث العامة كان يتوجه بنفسه لمعاينتها ، وكان يتصل بمن يأنس فيهم الاتصال بالأحداث . لهذا فإن الجزء الرابع أقرب إلى مذكرات كان يمنى النفس بتهذيبها وتنسيقها ، وفصوله مسهبة وسياقه منتظم ، وإن بدت بعض الفصول ممعنة فى القصر .

وفى عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢ م) قتل ابنه خليل . وقد كثرت الإشاعات والأقاويل بهذا الصدد ، وقيل إن الحادثة متصلة بنقده لحكم محمد على . وأياً كان الأمر ، فقد تأثر الجبرتى تأثراً عميقاً بهذه الفاجعة ، فلم يقو على استكمال تاريخه – وكان قد وصل فيه إلى أحداث الثورة اليونانية . وظل يندب ابنه حتى ذهب بصره ، وقبع فى داره أعمى لا يقرأ ولا يكتب إلى أن أدركته الوفاة – وهذا مما يفسر أن نهاية الجزء الرابع من تاريخه تبدو مبتورة[2].

---

(١) أدى انتشار هذه الأجزاء الثلاثة فى حياته إلى عداء بعض المشايخ له بوجه خاص ، وذلك لما احتوى عليـــه تاريخه من نقد مرير لبعض الناس .

(٢) يذكر موريه فى بحثه :

Reputed Autographs of Abd al-Rahman al-Jabarti and Related Problem.

أن الجبرتى ظل حتى نهاية حياته يبيع وينسخ الكتب فى القاهرة ، وأنه لهذا خط أكثر من نسخة من كتبه التاريخية . قارن هذا بخليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتى .

وقد بقى تاريخ الجبرتى محظوراً طبعه وتداوله إلى أن رفع الحظر فى عهد الخديو توفيق – فطبع الجزءان الثالث والرابع ؛ ثم طبع الجزءان الأول والثانى فى عهد الخديو عباس الثانى . وفيما بين عامى ١٨٨٨ و ١٨٩٦ ظهرت له ترجمة فرنسية كاملة فى تسعة أجزاء قام بها شفيق منصور (يكن) وعبد العزيز خليل وجبرائيل نقولا كحيل وإسكندر عمون تحت عنوان :

Merveilles biographiques et historiques, ou chroniques du Cheikh Abd el-Rahman el-Djabarti.

وترجم بعض الجزءين الثالث والرابع إلى اللغة الروسية ، مع مقدمة وبعض الملحوظات تحت عنوان :

I.M. Fil'shtinisky, Egipet v period ekspeditsii Bonaparta, 1798–1801 ; Kh. I. Kil'berg, Egipet pod vlast'yn Mukhammada Ali, 1806–1821 ; (Moscow, 1962–63).

وصدر لتاريخ الجبرتى فهرس تاريخى وضعه جاستون ڤييت وعبد الرحمن زكى تحت عنوان « فهرس عجائب الآثار فى التراجم والأخبار »[1]. هذا إلى المختصرات التى توخت تبسيط هذا التاريخ وتقديمه إلى القارئ العادى – ومن ذلك « المختار من تاريخ الجبرتى » الذى قام عليه محمد قنديل البقلى ونشرته مطابع الشعب فى عام ١٩٥٨ فى عدة أجزاء .

أهمية تاريخ الجبرتى

لم يقتصر الاهتمام بتاريخ الجبرتى علينا نحن العرب بل إنه أثار الاهتمام فى العالم الخارجى حيث اهتم به البحاثة والمستشرقون واعتبروه مصدراً رئيسياً لا غنى عنه بالنسبة إلى تاريخ مصر فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . ومن ذلك أن ماكدونالد – فى دائرة المعارف الإسلامية – يقول عن تاريخ الجبرتى إنه « باعتباره صورة تفصيلية للحياة الشرقية له

---

(١) القاهرة ١٩٥٤ .

قيمة اجتماعية عظيمة — وقد أفاد منه لين لهذا الغرض فى التعليقات التى وضعها لكتاب ألف ليلة وليلة ».

ومما يجعل كتاب « عجائب الآثار » مصدراً من الدرجة الأولى ما تميز به مؤلفه من دقة واستقصاء للأحداث والتحفظ فى ذكرها . كما أنه يتميز بالموضوعية التى نستشفها من تأكيده أنه يكتب للحقيقة والتاريخ : « ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير . ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق . . . لميل نفسانى أو غرض جسمانى » . وهذه الموضوعية لا تجعل من تاريخ الجبرتى عرضاً بارداً للأحداث ، بل إن كتاباته تفيض بالحرارة التى من ورائها عمق انفعاله بالأحداث . ثم إن الجبرتى محب لبلده ، يشاركه أفراحه وأتراحه — فهو لا يقتصر على تسجيل الأحداث والنظر إليها من بعيد بحجة التجرد والموضوعية المطلقة التى هى خرافة فى مجال العلوم الإنسانية، طالما أن من يكتب كائن حى لا بد له ميوله واتجاهاته وانفعالاته . ومما يجعل تاريخ الجبرتى صورة نابضة بالحياة أن تاريخ مصر العثمانية أغنى بكثير من تاريخ سوريا أو العراق فى نفس هذه الفترة ، وإن يكن هذا لا يقلل من تمكنه كمؤرخ : فقارئ الجبرتى يحس دائماً بالحياة الجياشة التى يصورها وأنه يعيش فى الجو الحقيقى لمصر وللعصر ، خاصة وأنه تميز بالدخول مباشرة إلى لب الموضوع الذى يدونه ومن رسم صورة كاملة نابضة بالحياة .

وقد امتاز الجبرتى عمن تقدمه من مؤرخى مصر بأنه لم يقصر اهتمامه على علية القوم والأحداث الهامة : فقد عنى بالأمور الجليلة والحقيرة والرفيعة والوضيعة ، ولم يدع شيئاً نمى إلى علمه ، مهما عظم أو صغر ، إلا ودونه فى دقة مدهشة . وهو محب للإتقان حيناً ، عجول برم أحياناً . لذلك نراه دقيق التحرى أميناً فى النقل نزيهاً فى الرواية ، يكشف عن آرائه فيما يعرض له : فينبسط وينقبض ويسخر ويتهكم ويشتط ويغضب. وهو دقيق الملاحظة ألمعى الذكاء نفاذ البصيرة . إلا أنه مهما حاول السمو عن مستوى عصره ، فقد بقى مشدوداً إليه لا يسمو إلى النظرة الشاملة . وهو ضيق الأفق بحكم بيئته ، لا يعرف شيئاً عما نسميه بالسياسة العليا ، ولا يتنبه إلى كبار الأوروبيين الذين زاروا مصر فى حياته . وقد أولع بالتغنى بالعدل والتشنيع على ظلم الحكام — وهو يفهم أن العدل إنما هو إقامة الشريعة والرفق بالرعية ، مما جعله يقف موقف النقد والتحدى من مستحدثات الأمور ، وخاصة ما جاءت به الحملة الفرنسية . فهو من رجال الدين بحكم بيئته ووضعه الاجتماعى ووظيفته ، لا يسمو إلى مستوى فحول الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ممن وصلت بهم حضارتهم إلى درجة من الثقة بالنفس لا تستنكف الأخذ والعطاء ، بل تعده مصدراً من مصادر تجدد الحوافز وشحذ العزائم .

وقد تأثر الجبرتى كثيراً بالصداقة والصحبة : فهو يعلن ميوله الشخصية وإيثاره هذا على ذاك . ولهذا كان لوالده وأصدقاء والده وأشياخه نصيب وافر من تاريخه ، مع محاولة الإنصاف وإجهاد النفس على تحرى الحق أو ما يراه حقاً . وقد أتقن فن الترجمة بقدر ما أتيح له ، وبرع فى تصوير الشخصية وإبراز خلق المترجم لهم براعة فائقة . على أن ولعه بالتراجم جعله يترجم لكل من عرفهم ومن لم يعرفهم من كبراء وأمراء ، ومن كل رفيع ووضيع ، حتى إنه ترجم لخدمة النعال فى المساجد والوقادين والمجذوبين ، بل لمن لا يعرف لهم ترجمة . ولعله انفرد بين المؤرخين بالتوسع فى وصف القاهرة ومساجدها وشوارعها وعطفاتها وتاريخ ما فيها من قصور وقلاع ومنازه . ولقد أسهب فى ذكر الشعراء ، يستشهد بالكثير من شعرهم ، وقد يستشهد بشعر بعض المتقدمين ، ولكنه لا يشعر بتضلعه فى الأدب والشعر . ثم إنه فقيه صوفى لا بد أن يولى همه مشايخ الصوفية ويشرح معمياتهم وألغازهم . وهو أيضاً

عالم فلكي يجب أن يذكر الأحداث الفلكية ويحاول تفسير الحوادث على ضوئها فى بعض الأحيان – ولعل تضلعه فى العلوم الحسابية جعله يطيل الجدل فى النقود وسكها وما فيها من ذهب وفضة . ولقد عنى عناية خاصة بالسلع وأثمانها وتوفرها ونقصها ، وأصبح يستعيد الذكريات القديمة حتى يصلها بما سبق له تدوينه أيام اشتغاله بالتراجم لشيخه مرتضى الزبيدى : فيسرد حوادث السنة متابعاً ترتيب الشهور ، ثم يختمها بتلخيص الحالة العامة وتراجم الذين ماتوا .

والجبرتى فى الجزءين الأول والثانى من « عجائب الآثار » ينقل عن غيره من المؤرخين : كالإسحاقى والدمرداشى وأحمد شلبى عبد الغنى . ولهذا فإن قيمة مؤلفه فى هذين الجزءين – باستثناء ما عاصره ودونه فى النصف الثانى من الجزء الثانى – لا يعتد بها كثيراً من الناحية العلمية بسبب نقله من عدة مصادر دون تمحيص . وفى بداية الجزء الأول نجده متحفظاً إلى أقصى حد فيما يتعلق بمصادر أوائل الحكم العثمانى لمصر – ومن ثم فليس ثمة دليل على إشارته إلى ابن إياس والقرمانى وابن زنبل باعتبارهم ثقات عن الفتح العثمانى – إذ أن وصفه لهذه الحادثة من القصر بحيث لا يمكننا التحقق من مصادره . ومع ذلك فإنه أسهب فى وصف تعادى الفرق العثمانية وتنافس أمراء المماليك على الحكم ووسائلهم ومصارعهم .

والحملة الفرنسية التى يبدأ بها الجزء الثالث تعتبر حداً فاصلا فى تاريخ الجبرتى . فقد كانت مصر حتى الحملة لا تزال غارقة فى سبات العصور الوسطى ، إلى أن آذنت الحملة برجوعها إلى المشاركة فى الفكر العالمى . والفارق كبير بين العقلية الأوروبية التى مثلتها الحملة وبين العقلية الشرقية التى كانت تتمثل فى مصر المملوكية – العثمانية بمقدار الفارق الزمنى الطويل الذى قطعناه فى تأخر وقطعته أوروبا فى تقدم . ولقد حدث الأثر الجديد فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ذاتها وإن كان قد بدأ ضعيفاً . فالمصريون قد ذهلوا لمقارنة تأخرهم بتفوق حكامهم الجدد – ونلحظ ذلك كله فى الجبرتى ذاته ، فإنه يمثل أفكار عصره . ومما يدل على الأثر الجديد الذى امتد إليه أنه بات بعد وفود الفرنسيين إلى مصر أكثر نقداً وجرياً وراء الأسباب والنتائج ، وقد قل تعصبه الدينى للدرجة التى أدت به إلى تمنى زوال العثمانيين . كما قل أثر غيبية التفكير فى تفسيره للأحداث ، وإن ظل حتى نهاية حياته محدود الأفق : إذ لم يستطع التخلص من إسار الإطار العام الذى شكل تفكيره وبنيت عليه شخصيته .

وهو يبدأ الجزء الثالث بالكلام عن سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) – عام نزول الفرنسيين أرض مصر ، ويعد هذه السنة « أولى سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالى المحن واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب – وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » . وبهذا يلمح الجبرتى إلى استحقاق أهل مصر لما نزل بهم من كارثة الغزو الأجنبى . والصفحات القاتمة التى خصصها لحكم إبراهيم ومراد فى الجزء الثانى من تاريخه لا تترك مجالا للشك فى أنه كان يكن لهذا العهد مقتاً شديداً مرده ألوان المظالم التى أنزلها الحكام بالمحكومين وفساد طوية الرعية . فالأجناد « متنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم مختلفة آراؤهم حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون فى ريشهم مغترون بجمعهم محتقرون شأن عدوهم مرتبكون فى رؤيتهم مغمورون فى غفلتهم – وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم » . أما الفلاحون فقد سلط الله عليهم « بسوء أفعالهم وعدم ديانتهم وإضرارهم لبعضهم البعض من لا يرحمهم ولا يعفو عنهم . . . وإذا التزم بهم ذو رحمة ازدروه فى أعينهم واستهانوا به وبخدمه وماطلوه فى الخراج وسموه بأسماء

النساء وتمنوا زوال التزامه بهم وولاية غيره من الجبارين الذين لا يخافون ربهم ولا يرحمهم لينالوا بذلك أغراضهم بوصول الأذى لبعضهم . وكذلك أشياخهم إذا لم يكن الملتزم ظالماً يتمكنون هم أيضاً من ظلم فلاحيهم لأنهم لم يحصل لهم رواج إلا بطلب الملتزم » . أما العلماء فقد سبق أن أشرنا إلى رأى الجبرتى فيهم ، وهو رأى يدل على انحدار مستواهم وعدم ارتفاعهم إلى مستوى الوضع الذى خلعوه على أنفسهم ، أو خلعته عليهم القيم الإسلامية كما كانت عليه فى العصور الوسطى .

ويرتبط أثر الحملة الفرنسية فى تفكير الجبرتى بما أثارته فى آفاق المصريين بوجه عام : فقد كانت بالنسبة إلى المصريين بمثابة تحد ضخم لهم ولمقوماتهم . حقيقة إنها فشلت فى خلق نظام سياسى — اجتماعى على أنقاض فوضى المماليك ، كما فشلت فى تطوير نوع من الحكم الذاتى لم يكن مقصوداً لذاته على أى حال . بل كان مجرد وسيلة للربط بين الحاكم والمحكوم ، وفى محاولة إرساء دعائم إدارة مدنية حديثة تحت السيطرة الفرنسية . وحقيقة أيضاً إن قصر مدة الاحتلال الفرنسى وعداء السكان للفرنسيين قد عرقلا انتشار أية مؤثرات أوروبية فى المجالين الاجتماعى والثقافى . إلا أنها — من ناحية أخرى — هدت قوى المماليك المادية والمعنوية . ومهدت للقضاء النهائى عليهم وبالتالى أفسحت المجال لإدخال النظم الحديثة . وأهم من هذا أنها أوجدت أمام المصريين نمطاً حضارياً متفوقاً نظروا إليه بعين الشك لمخالفته لمألوفهم . ولكنهم لم يكونوا ليستطيعوا مدافعة أثره فى بعضهم : كالشيخ حسن العطار ويعقوب حنا وغيرهما .

ويستقبح الجبرتى ما شاعت له ميوله وتقاليده مستحدثات الفرنسيين : كانفلات بعض الرجال والنساء وتحللهم من المثل الأخلاقية التى انطبع بها المجتمع المصرى خاصة وقد أبيح البغاء العلنى ، وسفرت بعض النساء ولبسن الملابس الملونة واختلطن بالرجال ، وتمردت بعض الفئات الاجتماعية على الأوضاع الموروثة وارتدت ما كان محرماً عليها من ملابس وامتطت الخيول وتحدت العرف الإسلامى بالأكل والشرب علناً فى رمضان وبتعاطى المسكرات . وتداخل الفرنسيون فى صميم حياة الناس فنبهوا عليهم بالامتناع عن دفن الموتى بالترب القريبة من المساكن ، وبنشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطحة عدة أيام وبتبخير البيوت خوفاً من الطاعون . وهدموا المساطب والبوابات جرياً وراء تحصين القاهرة واشتدوا فى الإرهاب والتنكيل خاصة كلما نشبت ثورة أو اضطراب . ومع ذلك فهو يندد بالهياج الشعبى وما اتصف به من إسراف — فهو يقول فى وصف ثورة القاهرة الأولى : « وخرجت العامة عن الحد وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد . وامتدت أيديهم إلى النهب والخطف والسلب ، فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام ، وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام . وأخذوا الودائع والأمانات وسبوا النساء والبنات » .

وتبدو موضوعية الجبرتى من إشادته بحب الفرنسيين للعلم — فهو يسجل أنهم أفردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية وأنهم جعلوا بيت حسن كاشف جركس مكتبة رحبوا بزوارها : « حتى أسافلهم من العساكر إذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعون الدخول إلى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر فى المعارف بذلوا له كل مودتهم ومحبتهم — ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء» وأشاد بأنهم « كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرتهم المعتادة ويصرفونهم بعد الظهر ويستعينون فى الأشغال

وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول المساعدة فى العمل وقلة الكلفة » : كاستعمال العربات ذات العجل لنقل التراب بدلا من النقل اليدوى البحت فى الغلقان والقصاع وغير ذلك . ومن الأمثلة التى يسوقها الجبرتى لترخى الفرنسيين احترام القانون ما ذكره من إعدام بعض جنودهم الذين قاموا بأعمال السطو — فقد « قتلوا ثلاثة أنفار من الفرنسيس وبندقوا عليهم بالرصاص بالميدان تحت القلعة قيل إنهم من المتسلقين على الدور » . ومنها أيضاً ما ذكره وهو نص بيان الديوان الذى أشار إلى عقاب بونابرت للخارجين على القانون ولو كانوا من جنسه أو ملته : « وقد اقتص من عسكره الذين أساءوا بمنزل الشيخ محمد الجوهرى وقتل منهم اثنين بقراميدان وأنزل طائفة منهم من مقامهم العالى إلى أدنى مقام ، لأن الخيانة ليست من عـــادة الفرنسيس خصوصاً مع النساء والأرامل ، فإن ذلك قبيح عندهم لا يفعله إلا كل خسيس » . وقد استفاض فى وصف محاكمة سليمان الحلبى قاتل كليبر وأعجب بطريقة الفرنسيين فى المحاكمة التى أحيطت بكافة ضمانات العدالة ، واكتشف أن الإجراءات الجنائية لها قوانين تنظمها ، كما أورد تقرير الطبيب الشرعى والجراح عن إصابات كليبر وسبب وفاته وشهادة الشهود وكل ما ورد بملف القضية من استجوابات فى محضر التحقيق وأشاد بعلنية المحاكمة .

وهكذا كان الجبرتى من القليلين الذين أعجبوا بما يستحق الإعجاب من أعمال الفرنسيين . فلقد حاول بونابرت أن يترضى المصريين بشتى الوسائل : فهو يفهمهم أنه أتى إلى مصر برضى السلطان العثمانى ، ويلوح لهم بالحكم الذاتى ، ويستثير فيهم مصر الفرعونية التى تقطعت بها الأسباب ، ويخاطبهم بلغة الثورة الفرنسية الداعية إلى الحرية والمساواة . ولكن العلماء أبوا تزيين صدورهم بالطيلسان المثلث الألوان رمز الثورة الفرنسية الذى كان يتلقفه الأحرار فى أوروبا — بل رأوا فيه رجساً من عمل الشيطان — ويصف هذه الحادثة بقوله : « طلب صارى عسكر بونابرته المشايخ ، فلما استقروا عنده نهض بونابرته من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلى — فوضع منها واحداً على كتف الشيخ الشرقاوى فرمى به إلى الأرض واستعفى وتغير مزاجه وامتقع لونه واحتد طبعه . فقال الترجمان : يا مشايخ أنتم صرتم أحباب الصارى عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة فى قلوبهم — فقالوا له : لكن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا المسلمين » . ورفض العلماء أن يعينوا قاضياً من بينهم بدل القاضى التركى قائلين إن تعيينه من حق السلطان ، وأنكروا عرض بونابرت الوظائف عليهم وقالوا له إن العامة لا يخشون سوى الأتراك . واشتد المصريون فى قتال الفرنسيين حين اصطدم تصورهم للحكم ووظيفته ومداه بتصورهم هم — فقد كانوا لا يكادون يعرفون لهم حكومة حقيقية تحكمهم وكان تدخل الإدارة العثمانية فى شئونهم ضيقاً متقطعاً — هذا بينما الفرنسيون قد جاءوا من عالم تطور فيه الحكم إلى حلقة متتابعة من الأنظمة الدقيقة المتصلة بنشاط الأفراد جميعاً . وكان هذا التطور هو الذى وجههم إلى تنظيم الملكية وترتيب الأحوال الشخصية وإعادة ربط الضرائب . وكان هذا كله ، بالإضافة إلى الشعور الدينى ، من وراء ثورة القاهريين مرتين على الحكم الفرنسى واستمرار أعمال التمرد فى الأقاليم .

* * *

وجلا الفرنسيون عن مصر فى عام ١٨٠١ ، وتعرضت البلاد للقلق العام المترتب على النزاع على السلطة وسوء سلوك الجند العثمانيين الذين اعتبروا مصر بلداً مفتوحاً يسوغ لهم أن يطلقوا فيه العنان لغرائزهم ولصوصيتهم . وخرج الشعب يدافع عن وجوده وكرامته ، فتهيأت مصر لحركة شعبية إيجابية وصلت

إلى حد الثورة ، وحاصرت الطوائف الشعبية القلعة وأعلنت خلع الوالى العثمانى خورشيد باشا الذى اعترض على ما حدث وعده اعتداء على حقوق السلطان وقال إن الفلاحين لا يملكون حق خلعه . وركب الجميع إلى بيت محمد على وقالوا له : « إننا لا نريد هذاالباشا حاكماً علينا ولا بد من عزله من الولاية » — فقال : « ومن تريدونه يكون والياً ؟ » قالوا له : « لا نرضى إلا بك وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير » . وتزعم هذه الحركة قادة المصريين من المشايخ — وعلى رأسهم نقيب الأشراف عمر مكرم — الذين اعتبروا أنفسهم أولى الأمر لأنهم حملة الشريعة المتصدون لرفع الظلم .

وناصب الجبرتى محمد على العداء « لأن فى طبعه داء الحسد والشره والطمع والتطلع لما فى أيدى الناس وأرزاقهم »، ولأنه « فتح بابه لنصارى الأروام والأرمن فترأسوا بذلك وعلت أسافلهم ولبسوا الملابس الفاخرة وركبوا البغال والرهوانات وأخذوا بيوت الأعيان التى بمصر القديمة وعمروها وزخرفوها وعملوا فيها بساتين وجنائن وذلك خلاف البيوت التى لهم بداخل المدينة — ويركب الكلب منهم وحوله وأمامه عدة من الخدم والقواسة » — ولأنه « يحب الشوكة ونفوذ أوامره فى كل مرام ولا يصطفى ويحب إلا من لا يعارضه ولو فى جزئية أو يفتح له باباً يهب منه ريح الدراهم والدنانير أو يدله على ما فيه كسب أو ربح من أى طريق أو سبب من أى ملة كان » — ولأنه « لم يكن له من الشغل إلا صرف همته وعقله وفكرته فى تحصيل المال والمكاسب وقطع أرزاق المسترزقين والحجر والاحتكار لجميع الأسباب ، ولا يتقرب إليه من يريد قربه إلا بمساعدته على مراداته ومقاصده ومن كان بخلاف ذلك فلا حظ له معه مطلقاً ، ومن تجاسر عليه من الوجهاء بنصح أو فعل مناسب ، ولو على سبيل التشفع ، حقد عليه وأبعده وعاداه معاداة من لا يصفو أبداً » .

وضاق الجبرتى بإجراءات الاحتكار التى طبقها محمد على وما كان من « استمرار المبتدعات والمكوس والتحكير وإهمال السوقة والمتسببين حتى عم غلو الأسعار فى كل شىء ». وبحكم وضعه الطبقى والاجتماعى أخذ يندد بتضييق الوالى الجديد على الطبقات الغنية القديمة : من ملتزمين وأعيان ونظار أوقاف وكبار تجار — وغير ذلك . بل إن إبراهيم باشا ، ابن الوالى وحاكم الصعيد ، اشتد على أصحاب الحقوق المكتسبة : « وإذا قال المتشفع والمترجى للمتآمر ينبغى مراعاة مثل هذا ومسامحته لأنه يطعم الطعام وتنزل بداره الضيفان فيقول له : ومن كلفه بذلك ؟ فيقال له : وكيف يفعل إذا نزلت به الضيوف على حسب ما اعتادوه ؟ فيقول : يشترون ما يأكلون بدراهمهم من أكياسهم ويغلقون أبوابهم ويشتغلون بأنفسهم وعيالهم ويقتصدون فى معايشهم فيعتادون ذلك ، وهذا الذى يفعلونه تبذير وإسراف ونحو ذلك على حسب حالهم وشأنهم فى بلادهم ، ويقول الديوان أحق بهذا ، فإن عليه مصاريف ونفقات ومهمات ومحاربات الأعداء » .

ولكن الجبرتى لا يتخلى عن موضوعيته ، فيشيد ببعض ما قام به محمدعلى من أعمال كإعادته لسد الموصل إلى الإسكندرية ، وكان قد تخرب وزحف منه ماء البحر المالح وأتلف أراضى كثيرة وخربت منه قرى ومزارع . ووصف محمد على بأنه له « مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذا الزمان » ، وإن يكن قد تحفظ بقوله : « فلو وفقه الله لشىء من العدالة ، على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » . وحين بنى محمد على حائطين فى رشيد على يمين البوغاز وشماله ينحصر بينهما الماء فلا تطغى الرمال وقت ضعف النيل ، أكبره الجبرتى ووصف ما قام به بأنه « من أعظم الهمم الملوكية التى لم يسبق لمثلها » . وحدث أن مصرياً — اسمه حسين جلبى عجوه — ابتكر جهازاً يوفر نصف الطاقة الحيوانية

اللازمة لدق الأرز ، فشجعه محمد على واقتنع بأن فى أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف — فعمل على تعليم بعضهم .

وهكذا يقف الجبرتى شامخاً باعتباره المؤرخ المصرى الذى توخى الحقيقة التاريخية ، ولم يقف من الأحداث موقفاً سلبياً ، بل انغمس فيها وعمل على تسجيلها . وهو من آخر من كتبوا الحوليات فى مصر : إذ ما لبثت أن انصبت على البلاد الموجة الغربية التى جرفت الكثير من الأساليب والعادات القديمة . وفى مجال التاريخ أخذت تظهر المؤلفات التى تتوخى الاهتمام بالأسباب والنتائج ، وتنحو منحى الوحدة الموضوعية وربط أطراف الموضوعات التاريخية بعضها ببعض . كما ظهرت الكتابات التاريخية المتخصصة ، وتطورت كتابة التراجم ، وظهرت فيها اتجاهات تنزع إلى التحليل النفسى وتبرز أثر البيئة المادية والمعنوية . على أن كل ذلك يتصل بتاريخ النهضة الفكرية فى مصر الحديثة .

مؤلفات الجبرتى

١ — عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (٤ أجزاء).
٢ — مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس .
٣ — تاريخ مدة الفرنسيس بمصر .
٤ — مختصر تذكرة الشيخ داوود الأنطاكى .
٥ — نقد لكتاب ألف ليلة وليلة :

مصادر البحث

ا — العربية

أحمد عزت عبدالكريم : حوادث دمشق اليومية (١١٥٤ — ١١٧٠ هـ = ١٧٤١ — ١٧٦٢ م) — جمعها الشيخ أحمد البديرى الحلاق ونقحها الشيخ محمد سعيد القاسمى (القاهرة ١٩٥٩).
جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر . (القاهرة ١٩٥٨) .
خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتى — سلسلة اقرأ : رقم ٧٠ (القاهرة ١٩٤٩) .
صبحى وحيده : فى أصول المسألة المصرية (القاهرة ١٩٥٠).
عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار — طبعة بولاق .
: مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس — نشر وزارة التربية والتعليم المصرية (١٩٦١) .
لويس عوض : المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث — المبحث الثانى : الفكر السياسى والاجتماعى — القسم الأول : من الحملة الفرنسية إلى عهد إسماعيل . (القاهرة ١٩٦٣) .
محمد أحمد أنيس : مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى . (القاهرة ١٩٦٢) .
: حقائق عن عبد الرحمن الجبرتى مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية — المجلدان التاسع والعاشر من المجلة التاريخية المصرية (١٩٦٠ — ١٩٦٢) .
محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر (القاهرة ١٩٤٩) .

ب — الافرنجية

— Ayalon, David, The Historian al-Jabarti, in : Historians of the Middle East, edited by Bernard Lewis and P.M. Holt. (London, 1962).
— Holt, P.M., Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt (B.S.O.A.S., XXV, part 1, London, 1962, pp. 38-51).
— Moreh, S., Reputed Autographs of Abd al-Rahman al-Jabarti and Related Problems. (B.S.O.A.S., XXVIII, part 3, London, 1965, pp. 524-540).

تريستان و ايزولد لجوتفريد فون شتراسبورج

بقلم
الدكتور مصطفى ماهر

تمهيد

تريستان وايزولد « Tristan und Isold » ، قصة شـعرية أنشأها الشاعر الألمانى الفذ جوتفريد فون شتراسبورج Gottfried Von Strassburg حول عام ١٢١٠ ، ولم ينشئ غيرها على قدر ما نعرف ، لا من النثر ولا من الشعر ، بل إنه ترك درته هذه ناقصة ، لم يتمها ، ولا بد أن يد المنون اختطفته ، بعد أن سطرت يده هو البيت رقم ١٩٥٤٨ بقليل . ولكنه صنع للإنسانية تحفة من أعظم تحفها ، لا تقتصر عظمتها على إفادة القارئ المتأمل وامتاعه ، بل تتجاوز ذلك إلى إلهام الأديب الخلاق والشاعر المبدع فى كل زمان ومكان . وهى تحفة إنسانية بكل ما فى هذه الكلمة الدسمة من معان ، فلم تكن مادة « تريستان وايزولد » ملكاً لجوتفريد ، ولا ملكاً لمن سبقه إلى معالجتها ، ولن تكون ملكاً لمن تبعه ويتبعه إلى معالجتها . إنها ملك الإنسان .

عصر جوتفريد

وينبغى علينا فى محاولتنا فهم جوتفريد فون شتراسبورج وعمله أن نضع أنفسنا فى زمانه ومكانه حتى لا نعامل الأحياء معاملة الموتى أو الجوامد . جوتفريد فون شتراسبورج واحد من عمالقة قلائل حملوا عصراً يعرف فى الأدب الألمانى بعصر الازدهار الأول أو بعصر الكلاسيكية الأولى أو بعصر الفروسية أو بالعصر البلاطى أو بعصر الملوك الاشتوفيين . وهذه الأسماء كلها صحيحة ، وقد تعددت لأنها تذهب فى تحديدها العصر أكثر من مذهب ، وتبصر به فى أكثر من ناحية : يمتد هذا العصر من الربع الأخير للقرن الثانى عشر إلى مشارف القرن الرابع عشر ، أى أنه يعد نحو ثلاثة عشر عقداً أو نحو قرن وربع قرن من الزمان . أما العمالقة الآخرون الذين نهضوا بأدب هذا العصر مع جوتفريد فون شتراسبورج فهم :

— هرتمن فون أوى (بين عام ١١٦٨ و ١٢١٥ على وجه الاحتمال) صاحب القصص الشعرية الجميلة : ايريك — جريجوريوس — هاينريش المسكين — ايفاين .

— فولفرم فون اشينباخ (بين عام ١١٧٠ وعام ١٢٢٠ تقريباً) صاحب القصص الشعرية الفريدة : بارتسيفال — فيلاهلم — تيتوريل .

— هاينريش فون فيلديكه (بين منتصف القرن الثانى عشر ومطلع القرن الثالث عشر (صاحب الانياده

ـ فالتر فون در فوجلفايده (بين عام ١١٦٨ وعام ١٢٢٨) صاحب الأغانى والقصائد التى لم يطاولها من بعده أحد حتى جاء جوته .

هؤلاء الأدباء كانوا من غير رجال الدين . فما أعظم التغير ! من قبل كان الأدب حرفة رجال الدين يكلفون به ويحتكرونه احتكاراً ويشكلونه بقوالبهم (اذكر جامع الأناجيل لتاسيان و وهلياند أو حياة المسيح المخلص وكتاب الأناجيل وغير ذلك كثير) لأنهم هم الذين أخذوا بنصيب من العلم . أما الآن فحملة الأدب « دنيويون » منخرطون فى سلك الفروسية أو مؤمنون بثقافة الفروسية ، مقيمون فى بلاط الأمراء أو متصلون بهم ومتخذون أمزجتهم وميولهم . كان أهل أوروبا فى القرون القليلة الماضية قد امتصوا مجموعة من الحضارات أتتهم على الأغلب عنوة ، امتصوا الفكر المسيحى وما أتى معه من طرف من ثقافة الإغريق والرومان ، وامتصوا الكثير من الثقافة العربية من أسبانيا تارة ، ومن جنوب فرنسا (البروفانس) المتأثرة بحضارة الأندلس تارة أخرى ، وأخذوا عن العرب والمسلمين الكثير عبر إيطاليا وأثناء التحامات الحروب الصليبية . كانت الحياة فى ألمانيا من قبل التأثير العربى الإسلامى ـ سواء من المشرق العربى أو من المغرب العربى ـ تعرف بلاط الأمير وتعرف طبقة الفرسان ، ولكن الصورة التى تشكل بها بلاط الأمير والقالب الذى ظهر فيه الفارس فى ذلك العصر المزدهر ، يحملان على الجزم بتأثير أنماط الحضارة العربية . وقد حدثت تطورات سياسية مختلفة فى الديار الألمانية شجعت على هذا التحول الذى شهده المجتمع والذى تهمنا منه ناحية حلول « الدنويين » أو أهل الدنيا محل أهل الدين أو رجال الدين فى حمل رسالة الأدب ، وناحية ازدياد قوة ورفاهية الأمراء واهتمامهم بالآداب . ويمكننا أن نلخص هذه التطورات السياسية أو الأحداث السياسية هنا ونستعين بملخصها على التعمق نوعاً ما فى فهم أصول هذه التطورات وعلى تصور المكان الذى اتصلت فيه .

كانت حقبة الملوك الزاليين قد انتهت بظهور صراع شديد بين القيصر الألمانى الذى كان يمد سلطانه إلى شمال إيطاليا وبين البابا الذى لم يكن يرضى أن يترك السياسة والحكم فى الدنيا لأهل الدنيا (قارن هاينريش الرابع وما حدث بينه وبين البابا) . وأصبح البابا طرفاً فى انتخاب القيصر الألمانى ، وكان القيصر الألمانى فى حقيقته أميراً من بين الأمراء ، صاحب إمارة من بين أصحاب الإمارات ، ولا يقوى إلا بالجيش والفرسان والاعتماد على إخوانه . وهكذا تمكن البابا من دفع الأمراء الألمان على اختيار قيصر ضعيف هو كونراد الثالث (١١٣٨ ـ ١١٥٢) حتى يخلو له الجو . وقد تم للبابا ما أراد ، وتعثر كونراد فى ألمانيا وتعثر أكثر فى إيطاليا . هكذا بدأ الأشتوفيون بداية فاشلة . وكونراد الثالث هذا ، القيصر الأشتوفى الأول (كلمة اشتوفى صفة من « شتوفن » اسم قلعة فى منطقة شفاين بجنوب غرب ألمانيا) هو الذى اشترك مع لويس السابع ملك فرنسا فى الحملة الصليبية الثانية التى منيت بالفشل . وإذا كانت سياسة البابا قد نجحت مع كونراد الثالث ، فقد فشلت مع خلفه « فريدريش الأول » بارباروسا ، الذى كان قيصراً قوياً محنكاً مستنداً على عصبة من أولى القوة والبأس . فأعاد سلطان ألمانيا على شمال إيطاليا ، ودعم قبضته على ألمانيا نفسها ، وحارب البابا الكسندر الثالث فلم يتغلب عليه لتحالفه مع الفرنسيين ، ولكنه مهد للسياسة المستقبلة وهى ضم جنوب إيطاليا إليه عن طريق زواج ابنه مع الأميرة كونستانسه ، لكى يضع البابا بين شقى الرحى . وخلف فريدريش بارباروسا ابنــه هاينريش السادس (١١٩٠ ـ ١١٩٧) الذى كان أقوى القياصرة الألمان نفوذاً وأوسعهم ملكاً . وهنا ينبغى أن نتوقف وقفة قصيرة ونشير إلى فشل الحرب الصليبية بعد أن قاد المسلمين صلاح الدين الأيوبى الذى

حول الحروب الصليبية إلى نهايتها خاصة بعد انتصاره فى حطين عام ١١٨٧ . ونعود الآن إلى هاينريش السادس لنجده يموت مبكراً ولنجد موته يبدأ عهداً جديداً من الفوضى فى أوروبا وألمانيا . عاد البابا إلى التدخل فى انتخاب القيصر الألمانى ، وعاد الانقسام بين الأمراء الألمان . تولى أوتو الرابع (١١٩٨ — ١٢١٥) وهو من حزب البابا ، ونصب حزب الاشتوفيين فيليب ابن بارباروسا . وقامت حروب أهلية انتهت بموت فيليب عام ١٢٠٨ . فلما استتب الأمر لأوتو حارب البابا . فخلعه الأمراء ونصبوا فريدريش الثانى (١٢١٥ — ١٢٥٠) الذى حمل التاج فى روما عام ١٢٢٠ واتجه إلى الشرق فى محاولة صليبية جديدة باءت بالفشل . ثم حدث له ما حدث لأسلافه ، إذ اختلف مع البابا ، فأخرجه البابا من المسيحية وأعلن خلعه ، فهاجم هو البابا واضطر البابا إلى الفرار إلى فرنسا . ونصب الأمراء الألمان جماعة من الملوك ضد فريدريش الثانى . وشاعت الفوضى والحروب الأهلية . ومات فريدريش عام ١٢٥٠ فماتت الإمبراطورية الألمانية .

يظهرنا هذا العرض الموجز على أسباب ظهور الاتجاه الدنيوى فى الأدب خاصة منذ عهد بارباروسا ، وعلى أسباب قوة الفرسان الذين كان العصر كله يتحرك بمشيئتهم لاتصال النزاع ، وعلى أسباب استقلال الأمراء كل فى إمارته سيد وفى بلاطه ملك . هذا هو الزمان الذى نشأت فيهالكلاسيكية الأولى وهذا هو المكان الذى احتواه . وفى هذا الزمان والمكان عاش جوتفريد فون شتراسبورج وأنتج .

من هو جوتفريد فون شتراسبورج ؟

هذا سؤال لا نعرف له جواباً شافياً . واضح من الاسم أنه من مدينة شتراسبورج الالزاسية . هذا هو كل ما فى الأمر . كذلك وصلتنا قصة شعرية ضخمة اسمها تريستان وايزولد لم يتمها صاحبها ، ولم يذكر اسمه ، وما كان يمكن أن يذكر اسمه إلا فى آخرها على عادة العصر . ولكن جماعة من الأدباء تناولت القصة وحاولت اكمالها وذكرت أن اسم المؤلف هو جوتفريد وأنه من شتراسبورج فنسبت القصة إلى اسمه ، نسبة صحيحة لا نكاد نشك فيها ، ولكننا لا نعرف عن الرجل شيئاً . وقد سعى الباحثون فى القرن الماضى إلى استجلاء هذا المكنون وظنوا أن جوتفريد كان كاتب مدينة شتراسبورج . ولكن البحث الحديث كذبهم . ومما يذكر عن جوتفريد ، استقاء من قصته ، أنه لم يكن من رجال الدين ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل ، وأنه كان يتقن اللغة الفرنسية اتقاناً كبيراً ، وأنه كان من عامة الشعب ولم يكن فارساً أو نحو ذلك فلم يذكره معاصروه ومن أدركوه بما يفيد غير ذلك . لم يسمه أحد « السيد جوتفريد » بل سموه « جوتفريد » مما يقطع بأنه كان من عامة الناس .

رفع جوتفريد فون شتراسبورج يده عن قصته « تريستان وايزولد » حول عام ١٢١٠ أى فى الوقت الذى أتم فيه معاصره العظيم فولفرم فون اشينباخ درته « بارتسيفال » . ولهذا يمكننا دون التورط فى تواريخ بعينها . أن نقول إن جوتفريد أدرك القيصر فريدريش بارباروسا وعصره المجيد وأدرك القيصر هاينريش السادس وأدرك أوتو الرابع وغريمه فيليب ، وأنه على الأرجح لم يشهد تنصيب القيصر فريدريش الثانى (١٢١٥) . وهذا يعنى أنه عاش جزءاً كبيراً من حياته فى ظل القياصرة المظفرين ، وفى ظل الاستقرار . وهذا يعنى أيضاً أنه عايش مرحلة الحروب الصليبية الحاسمة وأنه تأثر بما كان فيها من تيارات .

أحداث « تريستان وايزولد »

يشمل النص الذى بين يدينا من قصة تريستان وايزولد ١٩٥٤٨ بيتاً تنتظمها ٢٤٥ صفحة مزدوجة (أى ذات نهرين) هى طبعة العلامة فريدريش رانكه .

(اعتمدنا على الطبعة التاسعة منها التى ظهرت فى عام ١٩٦٥ فى زيوريخ وبرلين) .

ويمكن أن نقسم الأحداث إلى ثلاثة فصول كبيرة : نشأة تريستان ورحلته الأولى إلى أيرلنده — رحلة تريستان إلى أيرلندة للمرة الثانية وهيامه بايزولد — نفى تريستان ونهايته . وهذا هو التقسيم الذى أخذ به هلموت دى بور (المجلد الثانى من تاريخ الأدب الألمانى، نشر هلموت دى بور وريشارد نيفالد . ميونيخ ١٩٦٠ . ص ١٣٠ وما بعدها) . وهناك تقسيم آخر أكثر تفصيلا اصطنعه العلامة الفرنسى جوزيف بدييه فى رواية « تريستان وايزولده » هو :

١ — طفولة تريستان .
٢ — موررولت الأيرلندى .
٣ — الحسناء ذات الشعر الذهبى .
٤ — الشراب السحرى .
٥ — برانجين والوعول .
٦ — شجرة الصنوبر الكبيرة .
٧ — القزم فرونسن .
٨ — قفزة من الكنيسة .
٩ — غابة مورروا .
١٠ — الناسك أوجرين .
١١ — المخاضة العجيبة .
١٢ — حكم بالسلاح .
١٣ — دعاء البلبل .
١٤ — الجرس العجيب .
١٥ — ايزولد ذات الأيادى البيضاء .
١٦ — قاهردين .
١٧ — ديناس دى ليدان .
١٨ — تريستان مجنوناً .
١٩ — الموت .

وقد قسم الناسخ الذى كتب مخطوط هامبورج الورقى فى عام ١٧٢٢ أو الذى كتب الأصل الذى نسخ هذا عنه ، القصة إلى ٢٦ فصلا حسب الأحداث لا الفكرة كما فعل بدييه فيما بعد .

تبدأ القصة بحديث عن الأمير « ريفالين » أمير بارمينيرلاند وحربه المظفرة ضد واليه « مورجن » وتنتقل منه إلى وصفه رحلة قام بها إلى الملك الشهير « مارك » . ملك كورنيفال وإنجلترة . ولقد أحسن الملك مارك استقبال ضيفه ريفالين وأقام حفلا عظيما تبارى فيه الفرسان ما شاء لهم التبارى . وبرز فيه ريفالين وتفوق على الآخرين بما أوتى من مهارة وسرعة وقوة وبراعة فأعجبت به النساء كل الاعجاب . وكان إعجاب النساء بالفارس أسمى تقدير لفروسيته فى ذلك العصر . وكانت الحسناء بلنشفلور أخت الملك مارك أكثر النساء إعجاباً بريفالين . بل إنها أحبته وأوسعت له فى قلبها مكاناً . وما لبث أن أحبها هو أيضاً . ويصف جوتفريد هذا الحب وصفاً رائعاً :

ريفالين ذو الفكر واللب
حدث له ما بيّن
أن الروح المُحبة
تشبه الطائر الطليق تماماً
الذى ينطلق بالحرية التى لديه
إلى الغصن المدهون بالصمغ (= الخيط) فيحط عليه
وعندما يحس بالصمغ ويتملص منه
ويهم بالطيران
تزداد ساقاه التصاقاً .
فيحرك ريشه وينتفض
فلا يلمس من الفرع
جزءاً مهما رق
إلا ويزيد قيده ويحكم وثاقه .
فيضرب بكل ما أوتى من قوة
من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا
حتى ينتهى فى النهاية
إلى هزيمة ذاته بمقاومته

وإلى الرقود لصيقاً على الغصن

. . . .

هذا ما حدث لريفالين » .

(الأبيات من ٨٤١ إلى ٨٥٨ ثم ٨٧١) وجوتفريد فون شتراسبورج يتوسع دائماً فى وصف الحب ، وتحليله ، وله فيه نظرية سنعرض لها فى جزء خاص . وخرج ريفالين ، على ما كان متبعاً فى ذلك العصر ، لمنازلة أعداء الملك مارك . فأبلى فى ذلك بلاء حسناً ولكنه أصيب بجرح شديد قربه من الموت . فذهبت إليه بلنشفلور واعتنت به حتى برأ . فلما استعاد قوته أخذها إلى دياره زوجة له . ولكن حياة ريفالين امتلأت بعد ذلك بالمعارك كما كانت ممتلئة بها من قبل ، وانتهى أمره فيها إلى إصابة أودت بحياته . وكانت زوجته بلنشفلور حاملا فوضعت ابناً هو تريستان وماتت عقب الوضع وتركت الصغير يتيم الأبوين .

وشب تريستان فى رعاية عامل ريفالين « روال » كأنه من أبنائه، حتى بلغ الرابعة عشر فغامر حتى نزل بلاطاً هو بلاط الملك ماركه أو مارك، وهو خاله. ولكنه لم يكن يعلم بأمر القرابة وكذلك الملك لم يكن يدرى شيئاً عنها . وتقدم تريستان فى الفروسية حتى رسم فارساً وأظهر من الشجاعة والقوة ما لم يستطعه الآخرون . وكان أهم عمل قدر عليه هو منازلة العملاق الهائل موررولت الذى كان يثير الرعب فى البلاد ويفرض على الملك مارك أداء أتاوة أو جزية كان هذا يؤديها صاغراً . ولم تكن منازلة هذا العملاق فرداً لفرد أمراً هيناً ، بل أمراً بالغ الخطورة . فقد تلقى تريستان من سيفه المسموم ضربة أحدثت به جرحاً لم يعرف أحد سبيلا لمداواته .

وعلم تريستان أن العملاق موررولت له أخت هى ملكة أيرلنده وأنها متضلعة من الطبابة وأنها وحدها تعرف مرهماً إذا وضع شىء منه على الجرح برأ والتأم . فتنكر فى زى اللاعب تنتاريس وقصد ديار الملكة الأيرلندية واستمال الملكة ببراعته الموسيقية فعالجته حتى شفى وعينته مدرساً للموسيقى لابنتها الحسناء إيزولد . وجاء اليوم الذى قرر أن يعود فيه إلى بلاده ، فخرج سليما معافى منتصراً سعيداً ، وسلك طريق الإياب . ولقيه خاله أعظم لقاء ، وسعد لعودته أعظم السعادة ، وعينه وريثاً له مما أثار حقد الحاقدين ممن يعتقدون أنهم أوتوا بسطة فى الجسم والمال وأنهم أولى بالعرش منه . فلا عجب إذن أن يكلف الملك مارك ولى عهده تريستان بأكبر وأصعب مهمة ألا وهى مهمة خطبة ايزولد لتكون زوجة له — أى للملك مارك — وهى ابنة العدو القديم . والمهمة صعبة لأسباب كثيرة ، فقد أقام تريستان فى بلاط ملكة أيرلنده متنكراً ، وظل مدة طويلة يدعى أنه لا يزيد على أن يكون العازف تنتاريس ، وقد أحب تريستان إيزولد وأحبته هى ولم يزد الحب عن مجرد الحب شيئاً ولعل إيزولد منت نفسها أن يعود تريستان إليها يوماً ليخطبها لنفسه ، وقد طلب تريستان عون الملكة فعاونته وشفته من جرح كان لا محالة مهلكه وكان هو قاتل أخيها العملاق موررولت . فكيف يعود الآن إلى الملكة ؟ وبأى وجه يرجع الآن إلى إيزولد ؟ لا بد له من الإتيان بعمل هائل ، بعمل خارق للعادة يكون فيه خير وسعد لأيرلنده وملكتها حتى يحق له أن يسلك السبيل إليها .

وهكذا جاءت الرحلة الأيرلندية الثانية لتريستان .

نزل تريستان سراً ودخل فى صراع أليم مع التنانين الفظيعة التى كانت تفسد على أهل أيرلنده أمرهم كله أو جله وكانت تجعلهم يعيشون فى رعب دائم ، حتى رصد البلاط جائزة رفيعة لمن يخلص البلاد من شر هذه التنانين . ولم تكن هذه الجائزة الرفيعة سوى يد الحسناء إيزولد . من قتل التنانين وخلص البلاد من شرها حق له أن ينال إيزولد ذات الشعر الذهبى . وهكذا غلب تريستان التنانين . فلما تم له ذلك وقع مغشياً عليه من فرط التعب ، فوجدته النسوة وحملنه إلى البلاط . وهناك عرفت الملكة أنه هو قاتل موررولت ، عرفت ذلك من سيفه ومن أثر القتلة الباقى فيه . واغتاظت

الملكة ، ولكن تريستان استطاع ، مستعيناً برنجين الخادم المخلصة ، أن يهدئ من روعها ويصور لها الأمر على نحو آخر أقرب إلى صالحه . كذلك تعرض تريستان فى الوقت نفسه إلى محنة أخرى ، إذ ادعى تروكسيس الجبان أنه هو الذى قهر التنانين . ولكن تريستان لم يعدم الحيلة ليكشف كذب الجبان وليؤكد قوته وانتصاره . وأعلن تريستان على الفور مهمته فطلب يد إيزولد الجميلة لخاله وسيده الملك مارك . ونجحت المهمة وبدأ الاستعداد للعودة إلى كورنيفال . وكانت إيزولد ما تزال تحمل فى قلبها كرهاً شديداً لتريستان قاتل خالها مورولت ، حل محل حبها الشديد له قديماً . ولكن الأمر لاح كأنه قد قضى ، فقد تقرر زواجها من الملك مارك وخرج تريستان من الموضوع . وأعدت الملكة الأم شراباً سحرياً ليشرب منه إيزولد ومارك . كان هذا الشراب السحرى يؤدى بشاربيه إلى التأجج حباً ، وإلى الارتباط برباطه إلى الأبد ولم يكن هناك شىء يخفف منه أو يوقف مفعوله .

وفى الطريق ظمئ تريستان وظمئت إيزولد فشرب تريستان وسقى إيزولد من الكأس التى وضعت الملكة الأم فيها مشروبها السحرى . وجاءت الخادم برنجين الوفية متأخرة ورأت ما حدث ففزعت أشد الفزع وأخذت الاناء وألقت به فى البحر . ولكن المقدر حدث فتحول كره إيزولد إلى حب عنيف ملتهب وامتلأ قلب تريستان بمثله . وتحدد بهذا مصير الاثنين : الحب الذى لا تقف أمامه عقبة . . . والحيلة النافذة التى تمهد لهذا الحب كل طريق . وتمتع الحبيبان بالحب الحرام طوال أيام الرحلة دون أن يفكر أحدهما فى الأثم الذى يتورطان فيه ، فما كان يليق بتريستان أن يفعل ما فعل وقد كلفه خاله وسيده بالمهمة وائتمنه عليها ، وما كان يليق بايزولد أن ترتكب ما ترتكب وهى فى الطريق إلى من سيصبح زوجها . ولكن ما الحيلة والشراب السحرى يجرى فى دمائهما ويصب فيهما لهيباً لا يهدأ ؟

ولما بدت كورنيفال فى الأفق أفاقا إلى نفسهما ، وأحسا بإثمهما ، ولكنهما قررا مع الخادم الوفية برنجين أن يستمرا فى حبهما وأن يستعينا على أمرهما بالحيلة والخداع ، وتعاهد الثلاثة على الاخلاص حتى الموت بعضهم للبعض . ووصل الركب . واستقبله الملك أحسن استقبال . وأخذ الملك يستعد لعقد القران والثلاثة يقررون الخطط لخداعه . وفى ليلة عقد القران بدأ تنفيذ أول خطة إذ قاسمته الفراش « برنجين » دون أن يدرى ، وبهذا بقى سر الجريمة التى ارتكبها تريستان وإيزولد فى الطريق مكنوناً . وسرعان ما فكر تريستان وإيزولد فى التخلص من برنجين بالقتل لأنها هى الوحيدة التى تعلم السر والتى يخشى أن تبوح به . ولكن خطة القتل لم تنجح . وتعترض القصة حكاية لا تمس صلبها هى حكاية خطف الفارس « جاندين » لإيزولد ، وكثيراً ما تعترض القصص فى العصور الوسطى فصول اعتراضية من هذا النوع .

وسارت حياة تريستان وإيزولد فى بلاط الملك مارك على الحب والخديعة . ظل الاثنان على علاقتهما ، يتبادلان الحب ، ويطيعان ما يتأجج فى دمهما ، وكلما لاحظ أحدهم شيئاً وحذر الملك ، عرف الاثنان كيف يكيدان ويمكران ويخرجان من الموقف . وظل الملك مارك يؤمن بطهر إيزولد ولا يشك فيها أدنى شك ، وظل يثق فى تريستان ولا يرتاب فيه أقل ريبة . ولكن سرعان ما تغير الوضع ، وكثر الكلام وتردد الملك مارك بين التصديق والتكذيب ، وأراد أن يلزم جانب العدل فلا يحكم على إيزولد إلا بعد تثبت . وهنا تبدأ سلسلة من المحاولات لكشف الحقيقة لا تصل إلى شىء لشدة مكر الحبيبين . وأول من وشى بالحبيبين هو تروكسيس الذى كان له دور مشين أثناء إقامة تريستان الثانية فى أيرلندة . من محاولات مارك مثلاً وقوفه متخفياً فى قلب أغصان شجرة ليفاجئ الحبيبين ، ولكنهما يلاحظان وجوده فيتحدثان بحديث يبعد عنهما الشبهة تماماً . كذلك هناك فصل مؤثر جرت فيه محاولة تحكيم الله باستعمال حديد

متأجج ، وفى هذه المحاولة أيضاً تمكنت إيزولد من إثبات براءتها كذباً . وينتهى الأمر بالملك مارك إلى نفى إيزولد وتريستان . فيذهبان إلى الغابة ويعيشان هناك فى كهف أجمل عيشة ، يطلقان لأنفسهما العنان ، وينطلقان فى الحب لا ينغص عليهما منغص ، ولا يقترب منهما عزول . ويكتشف مارك مخبأهما فى كهف الحب ، ويتصادف أن يجدهما راقدين أحدهما بجوار الآخر وبينهما سيف . وكانت تلك علامة على الطهر فى ذلك العصر (راجع النيبلونجنليد) فانخدع الملك مارك مرة أخرى ولام نفسه وعفى عن الاثنين وأعادهما إلى البلاط . وعاد الاثنان إلى البلاط ، ولم يكفا عن حبهما الأبدى . وذات يوم فاجأهما الملك مارك فى البستان متعانقين أوثق عناق ، فلم يعد به حاجة إلى دليل . ورأى الاثنان أن الملك مارك قد اكتشف العلاقة ، فقررا أن يبتعد أحدهما عن الآخر .

لم يعاقب الملك مارك إيزولد واتبع فى ذلك نصح أصدقائه ، وترك تريستان ينفى نفسه ويرحل بعيداً . فرحل إلى نورمانديا ، ولكن الحب لم يفارق قلبه ، بل ظل يتأجج به ويؤرقه ، وظل الحنين إلى إيزولد يملك عليه نفسه ، ولا يفارقه لحظة . وراح تريستان ينازل ويصارع ويقهر العتاه ويغلب الغاصبين حتى قربه أمير أروندل «قايدين» إليه ، وعرض عليه أن يتزوج من أخته واسمها إيزولد ذات الأيادى البيضاء أو إيزولد بيضاء اليدين .

وهنا تقف قصة جوتفريد فون اشتراسبورج .

ولكننا نعرف من المصادر المختلفة بقية القصة . يتزوج تريستان من إيزولد بيضاء اليدين ، ويستمر فى حياته المضطربة ، فيكثر من النزال والصراع ، ولا ينسى إيزولد الشقراء قط ، بل يدفعه حبه لها ، وحنينه إليها ، إلى التماس كل السبل للوصول إليها ويتم له ذلك . مرة يتنكر جاعلاً نفسه مريضاً مصاباً بالبرص يتلمس العلاج على يد إيزولد المتضلعة من الطبابة ويتزل بلاط مارك فلا يعرفه أحد إلا إيزولد ، ومرة أخرى يتخفى فى هيئة مجنون ويلتقى بإيزولد .

وبينما تريستان يخوض المعارك من أجل الأمير قايدين ، يصيبه جرح مميت لا يستطيع أحد علاجه إلا إيزولد ؛ فيرسل إليها من يبلغها الخبر ويرجوها الحضور لإنقاذه من موت محقق ، ويرجو الرسول أن يرفع على المركب وهو قادم علماً أبيض اللون إذا كانت إيزولد معه ، وأسود اللون إذا أتى بدونها ، حتى يعرف الخبر قبل أن ترسو السفينة : ولكن إيزولد بيضاء اليدين تغتاظ ويتحرك قلبها بغيرة سوداء مقيتة فتكذب على زوجها المحتضر وتدعى أن المركب مقبلة بعلم أسود فيلفظ أنفاسه الأخيرة . وتصل إيزولد الشقراء بعد فوات الأوان فترى تريستان جثة هامدة فترتمى عليها وتموت من فورها . ويصل خبر موت تريستان وإيزولد إلى الملك مارك ، ويعلم بقصة الشراب السحرى فيغفر للحبيبين ، وكيف لا يغفر لهما وقد علم أنهما كانا من تأثير الشراب السحرى كالريشة يحركها الريح فلا تستطيع رداً أو صداً . ويقرر أن يدفنهما فى مقبرتين متجاورتين ، فإذا بشجرة تخرج من قبر تريستان وتدخل فروعها فى قبر أيزولد ، وكلما قطعت الشجرة نمت ومدت فروعها إلى قبر الحبيبة ، فما كان للموت أن يفرق بين اثنين ربطهما الحب :

مادة تريستان وإيزولد

ليس جوتفريد فون شتراسبورج أول من عالج قصة تريستان وإيزولد من الألمان ، فقد سبقه إلى ذلك أيلهارت فون أوبرج بقصته « تريسترانت وإيزالده » : والمعتقد أن أيلهارت من قرية أوبرج قرب مدينة براونشفايج وأنه كان متصلا ببلاط هذه المدينة وربما كان متصلا أيضاً بالبلاط الإنجليزى بهنرى الأسد وزوجه الثانية ماتيلده (ابنة هنرى الثانى واليانور دى بواتو) . ويحتمل أن يكون إيلهارت قد فرغ من قصته « تريسترانت وإيزالده » حول عام ١١٨٠ . وقصته

هى أقدم رواية كاملة لمادة تريستان وإيزولد . وليس هناك شك فى أن أيلهارت استخدم مصدراً أو مصادر مختلفة ، ربما نفس المصدر الذى استخدمه بيرول الفرنسى فى قصته التى وصلتنا فى ٤٥٠٠ بيتاً . فى قصة أيلهارت نجد الفصول الرئيسية المختلفة التى فى قصة جوتفريد فون اشتراسبورج ونجد أيضاً بقية الأحداث التى لم يعش جوتفريد ليرويها بقلمه . أيلهارت يحكى عن مولد تريستان (تريسترانت) ونشأته ووالديه ريفالين وبلنشفلور (أخت الملك مارك) . كذلك يحكى عن موت الوالدين وتيتم تريستان ودخوله فى ولاية آخر ويتتبعه عندما يكبر ويصارع موروِلد (أو موروِلت) ويصاب بجرح ثم يسافر إلى الملكة الأيرلندية طالباً الشفاء ، ويلتقى بالحسناء أيزالده (إيزولده) . ثم يعود به إلى خاله الملك مارك الذى يكلفه بالذهاب إلى أيرلنده وطلب يد إيزولده زوجة له . فيذهب إلى هناك ويصارع التنانين ، وينجح فى مهمته ويعود بإيزولد . وفى الطريق يشرب معها خطأ من المشروب السحرى وتشتعل نار الحب بين الاثنين . وفى رحاب الملك مارك تتصل سلسلة من الخيانات ، تبدأ بوضع الخادم برنجين (أو برنجينه) فى فراشه بدلا من زوجه حتى لا يعلم بسوء ما حدث ، وتتطور إلى محاولة قتل الخادم الوفية ، ثم إلى تصنت الملك مارك على تريستان وإيزولد وراء شجرة ثم تجارب إثبات براءة البرئ ، ثم هرب الاثنين إلى الغابة والحياة فى كهف الحب . وتصل إلى نفى تريستان وبقاء إيزولد فى معية الملك مارك . ويذهب تريستان إلى الملك هافيلين ويعاونه بقوته ويصادق ابنه كيهينيس ويلتقى بإيزولده بيضاء اليدين ، ويعود متخفياً إلى إيزولده الشقراء ويراها سراً . وتنتهى القصة بموته ، على نحو ما ذكرنا من قبل .

الأحداث مشابهة تقريباً لما فى قصة جوتفريد .

والحقيقة أن مادة تريستان وإيزولد تشغل الباحثين منذ زمن طويل يريدون أن يعرفوا مصدرها وأن يتابعوا تطورها من يد ليد أو على الأصح من قلم إلى قلم . ولا شك فى أن مادة تريستان وإيزولد شأنها شأن المواد الأدبية القديمة ترجع فى أصلها الأول إلى وقائع تاريخية لا يستطيع البحث أن يكشف عنها دائماً . ثم تتحول هذه الوقائع التاريخية إلى أساطير بإضافة عنصر التهويل إليها وبتغيير أشخاصها وأماكنها أحياناً وبمزج الأشياء المتفرقة المتباعدة بعضها مع البعض الآخر . كما أوضحنا فى مقالنا « النيبلونجنليد » الذى نشر فى هذه المجلة منذ بضعة أشهر . والمعتقد أن قصة تريستان وإيزولد تجمع على الأقل أسطورتين رئيسيتين . أولا أسطورة حب الإنسان لجنية . . وتبدأ هذه الأسطورة عادة باجتذاب الجنية للإنسان بقوة السحر — وهذا هو ما يجرى على تريستان إذ يتورط فى صراع العملاق موروِلت ، وهو أخو الجنية الأم (الملكة) ، فيجرح جرحاً يقربه من الجنية ، لأنها هى الوحيدة التى تستطيع علاجه . ثم تحمله سفينة إلى حيث الجنية (الجنية — العملاق — الجرح — السفينة) — والمرحلة الثانية فى هذه الأسطورة هى عودة الإنسان إلى جماعة البشر وإلى حب امرأة من البشر . . وهذا هو ما يحدث لتريستان عندما يذهب إلى الملك هافيلين أو الأمير قايدين ويتزوج من إيزولد بيضاء اليدين ، وهى امرأة من البشر . والمرحلة الثالثة هى استعادة الجنية لحبيبها الإنسان والالتجاء واياه إلى ملكوت الجنيات وكثيراً ما تستعمل الجنية فى هذه المهمة السفينة — وفى قصة تريستان شىء من هذا مثلا : التجاء تريستان وايزولد إلى الغابة وإلى كهف الحب وكذلك منظر موته وحضور ايزولد الشقراء إليه . ولكن قصة تريستان وايزولده لا تنتهى هذه النهاية لأنها ممتزجة بأساطير أخرى كما قلنا ، نشير منها إلى الأسطورة الرئيسية الثانية وهى أسطورة الخيانة الزوجية وهى قديمة جداً فى الثقافة الكلتية ، وتسير فى خط واضح هو ائتمان رجل آخر على زوجته وخيانة هذا الأمانة .

وهناك عناصر من أساطير أخرى مثل عنصر فرار تريستان وهو عنصر معروف فى الأساطير الأرلندية وفيها ينبذ المجتمع الحبيب أو الأحباء فيلوذ أو يلوذون بالغابة . كذلك هناك عنصر سفر الشاب بحثاً عن حبيبة أو زوجة ، وعنصر قتال التنانين ومشروب الحب والعروس المدسوسة ، واغتيال الشريك (هنا برنجين) وعنصر التنكر ، كلها عناصر ربما أخذت من مصادر أيرلندية . وقد أظهر الباحثان زنجر وبورداخ أن شخصية ايزولد بيضاء اليدين مستقاة من مصادر عربية . وليست شخصية ايزولد بيضاء اليدين وهى العنصر العربى الوحيد فى القصة ، بل إن القصة مليئة بالعناصر العربية صغيرة وكبيرة ، فى الأحداث وفى الشخصيات وفى الأسلوب.

أما البحث وراء تاريخية تريستان وإيزولد فلم يؤد إلى نتائج حاسمة . تمكن البحث مثلا من الكشف عن أصل اسم تريستان والجزم بأنه اسم بكتى (نسبة إلى ملوك البكت الذين سكنوا أسكتلنده قبل الكلتيين) كثيراً ما استعمل فى القرون السابع والثامن والتاسع وكان أصلا « دريستان » ومنه تفرعت الأسماء تريستران وتريسترانت وتريستان . أما الملك مارك فقد كان له وجود حقيقى ، كان ملكاً مشهوراً فى كورنوول (كورنيفال) . وأما اسم إيزولد فأغلب الظن أنه اسم جرمانى من « ايسهلد » أو « اسفالدا » أو « ايثيلدا » ومن هذه الأصول تفرعت أسماء ايزولد المختلفة : ايزنت — ايزويت — ايزيه — ايزولت — ايزول — ايزيلت — ايزود — ايزوته .

ومكان قصة تريستان وايزولد هو أرض الكلتيين : أيرلنده (ايزولد وموروولد) وكورنيفال (مارك) وبريتانى (مسقط رأس تريستان وايزولد بيضاء اليدين)

تريستان وإيزولد عند الفرنسيين

لم ينشئ جوتفريد فون شتراسبورج ولا سلفه أيلهارت فون أوبرج مادة تريستان وايزولد التى بينا فى شىء من الإيجاز طرفاً من مكوناتها الأسطورية والتاريخية الكثيرة المعقدة . والمتخصصون فى تريستان وايزولد يفترضون وجود أصل قديم للقصص التى عرفت فى فرنسا ثم تناقلتها البيئات الأخرى ، ويطلقون على هذا الأصل الافتراضى اسم « أورتريستان » أى الصيغة الأولى لتريستان ويضعونه فى منتصف القرن الثانى عشر أو قبله بقليل أو بعده بقليل (بدييه — شويرله) . هذه الصياغة الأولى أو هذه القصيدة البدائية أو النمط القديم أو الأورتريستان شىء لا طاقة لأحد على وصفه أو تحديده ، وكذلك لا طاقة لأحد على انكار وجوده . ويدفعنا الظن إلى القول بأنه كان أقصر من الصيغ المتأخرة وبأنه لم يكن يضم قصة والدى تريستان ريفالين وبلنشفلور وبأنه لم يستعمل عنصر الشراب السحرى الذى يشعل الحب أبداً ، وبأنه كان يقف عند هرب الحبيبين إلى كهف الحب بالغابة . ويرى رانكه أن الصياغة الأصلية لا بد كانت تشتمل على الأجزاء التالية :

(أ) صراع تريستان وموروولت ثم الرحلة الخطرة إلى الجنية . ثم العودة إلى كورنيفال ؛

(ب) إيزولد هى زوجة مارك ، تقع فى هوى تريستان وتريد دفعه إلى الاتصال بها ، فيهرب الاثنان إلى الغابة برفقة كلب أمين . ولكن تريستان يظل مخلصاً لسيده فلا يمس إيزولد ، بل يدع السيف يفصل بين فراشيهما . ويصل مارك إليهما ويراهما والسيف بينهما .

(ج) ذات مرة يخوض تريستان وإيزولد عبر نهر فترتفع المياه إلى أعلى ساق إيزولد فتعنفه ، ويتطور الأمر إلى تورط تريستان فى خيانة سيده مارك .

(د) يلقى تريستان النصل فى الماء وهكذا يصل مارك إلى اكتشاف مكانهما . ثم يصيب

مارك تريستان بجرح مميت ، وترتمى ايزولد
على صدره ويتعانقان فيخنقها ويموتان معاً .

من هذه الصياغة الأصلية بصورتها هذه أو بصورة شبيهة خرجت قصص توماس وبيرول وأيلهارت . وقصة الصياغة الأولى وكذلك قصص صياغات توماس وبيرول وأيلهارت مرتبطة بامرأة شهيرة هى « اليانور دى بواتو » وابنتها « ماتيلده » . ولدت اليانور دى بواتو (فى عام ١١٢٢) وسط بيئة مهتمة بالأدب والفن ومثله العايا من فرسانية وشهامة وحب وغزل . وكان جدها الدوق وليم التاسع دوق إقليم الأكيتين الفرنسى القريب من أسبانيا ، ولا يخفى أن إقليم بواتو الذى تنتسب إليه اليانور هو الإقليم الذى شهدت عاصمته « بواتييه » المعركة الشهيرة بين المسلمين والفرنجة والذى ظل على اتصال بالبيئة الثقافية العربية الإسلامية النشيطة فى أسبانيا . وجد اليانور هو أول شاعر بروفنسالى (تروبادور) نسمع به ، أما وليام العاشر والد اليانور فقد مات فى عام ١١٣٧ وترك اليانور فى سن الخامسة عشرة تصبح أغنى أميرة فى أوروبا وسيدة على أوسع ملك فيها . وفى العام نفسه تزوجت من الملك لويس السابع ملك فرنسا وكانت تعتقد أنها تتزوج ملكاً بمعنى الكلمة يعيش فى ابهة الملوك ويحفل بالأدب والفنون ، فاذا بها تكتشف أنه أشبه شىء بالراهب الزاهد الذى لا يعرف له شيئاً يهتم به إلا الحروب الصليبية . وقد اشترك لويس السابع فى الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ — ١١٤٩) مع القيصر الألمانى كونراد الثالث والأمير فريدريش الذى سيصبح القيصر فريدريش بارباروسا ، وأخذ لويس السابع زوجه اليانور معه إلى الشرق فى هذه الحملة التى فشلت فشلا تاماً . ولم تحتمل اليانور البقاء مع لويس أكثر مما فعلت فطلقت منه فى عام ١١٥٢ وتزوجت هنرى « بلانتا جينيه » الذى سيصبح هنرى الثانى ملك إنجلترا وكان يصغرها بأكثر من عشر سنين . وكان هنرى يحب الأبهة ويشجع الفنون والآداب :

وهكذا أتيح لحفيدة الشاعر البروفنسالى الأول أن تعيد الحياة التى ألفتها فى البلاط فى بواتييه ، إلى بلاط وستمنستر ، واهتمت بالأدباء والشعراء وأشعلت جذوة مبدعة منذ عام ١١٥٤ خاصة عندما أصبحت « ملكة إنجلترا وسيدة أيرلنده ودوقة نورمانديا والأكيتين وجاسكونيا ، وكونتيسة بواتو وسانتونج وأنجوموا وليموزانوأوفيرنى وبوردو وآجن وأنجوومين وتورين » وابنتها ماتيلده (من هنرى الثانى) تزوجت من هنرى الأسد ، ويعتقد غالبية النقاد أنها كانت « سيدة » الشاعر أيلهارت فون أوبرج ، صاحب تريسرانت وايزالده وملهمته ، فقد مدحها ورفعها ما استطاع . فلما عزل القيصر بارباروسا هنرى الأسد من ساكسونيا ذهبت ماتيلده وزوجها إلى بلاط أبيها وكان لماتيلده هناك تأثير أدبى هام . أما الابنة الأخرى لاليانور وهى مارى (من لويس السابع) فقد تزوجت هنرى الأول أمير شامبانيا ، وكانت مارى هذه هى سيدة وملهمة كريستيان دى طروا شاعر فرنسا الشهير فى ذلك الحين الذى يهمنا هو ملاحظة الاتصال الوثيق بين البيئات الأوروبية المختلفة بعضها بالبعض وارتباطها فى شخصية اليانور وبناتها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ملاحظة اتصال هذه البيئات بالشرق وقربها منه على الأقل (اليانور فى بواتييه وفى سوريا) . ويكاد العلماء يجمعون على أن الأورتريستان أو الصياغة الأولى لتريستان وايزولد نشأ فى بلاط اليانور فى بواتييه قبيل منتصف القرن الثانى عشر على يد شاعر مجهول لنا . وقد استند هذا الاجماع على شواهد منها أبيات للشاعر البروفنسالى برنارت دى فنتادور (حول عام ١١٥٠) التى تذكر « العاشق تريستان والعذاب الذى لقيه من ايزوت الشقراء » .

وإذا قلنا إن الأورتريستاننشأ فى بلاط بواتييه فعنى ذلك أن واحداً أو كثيرين حملوا المادة من مهدها إلى هناك . وقد أظهر البحث منذ حوالى ثلاثين سنة أن عملية

النقل هذه تمت على يد قصاص يدعى بليزبريكوس أو بليرى أو بريرى ، وأنه فعل ذلك أيام أبى اليانور . وقد ورد ذكر بريرى هذا فى شعر توماس على أنه من العليمين بحكايات الملوك البريطانيين . وإذا كان هذا هو الاسم الوحيد الذى وصلنا ، فليس معنى هذا أن عملية النقل أنجزها هذا الرجل وحده ، فالمؤكد أن بلاط وليم العاشر كان يعج بالقصاصين العليمين بالأساطير الكلتية وغيرها . المهم أن مادة تريستان وايزولد وصلت إلى هذا البلاط وأنها اختلطت بعناصر من مصادر مختلفة منها المصدر العربى وصيغت على نحو يوافق المزاج الأوروبى فى صياغة قديمة أو فى صياغات قديمة .

وأول من أنشأ قصة حول مادة تريستان وايزولد هو شاعر فرنسا العظيم فى العصر الوسيط كريستيان (أو كرتيان) دى طروا . وقد ضاعت قصته ، ولكن إشاراته إليها فى قصصه الذى بقى ، وخاصة فى « كليجيه » يقطع بوجودها ، ويوحى بأنه استعمل صيغة أقدم . وكانت عادة الكتاب المتبعة فى العصر الوسيط عامة هى « الاقتباس » ، هى التماس المادة فى « مصدر » والتشرف بذكر هذا المصدر لا التحرج منه . وصيغة تريستان ، على قدر ما تجمع لدينا من أخبارها ، تتحدث عن الصراع بين الخال وابن أخته على حسناء ، ولكنها تتصرف فى أمر الحب المحرم الآثم وتجد له حلا من السحر .

وهناك قصة بيرول ، التى يسمونها أيضاً الصيغة العامة ، التى وصلتنا فى قطع مجموع أبياتها حوالى ٤٥٠٠ بيتاً ، تحكى جل الحكاية ، على ما يبدو لجمهور واسع ، ومن هنا تسميتها بالصيغة العامة . والعلاقة بين قصة بيرول وقصة أيلهارت غامضة. بعض النقاد يذهب إلى أن أيلهارت استمد مادة قصته من بيرول ، والبعض الآخر يرفض ذلك . والرأى الوسط هو أن الاثنين استعملا مصدراً ، تالياً على الأورتريستان فى الأغلب ، هو ما يسمى « بالقصة » . وقد أشرنا من قبل إلى علاقة أيلهارت باليانور التى ارتبط اسمها واسم بلاطها بتريستان أوثق ارتباط . وتنقسم قصة بيرول (نشأت بين عام ١١٧٠ و ١١٩٠ أو بعد ذلك أو قبل ذلك ؟) تنقسم إلى قسمين قسم أول (بيرول الأول) وقسم ثان (بيرول الثانى). فى القسم الأول يعالج بيرول الحوادث إلى حياة الحبيبين فى الغابة ، على نحو يشابه أيلهارت. أما القسم الثانى — بيرول ٢ — فيختلف عن أيلهارت أشد الاختلاف . فلعل بيرول استخدم مصدراً آخر غير « القصة » أو لعل كاتب « بيرول ٢ » شخص آخر

والقصة الأخرى التى يعرفها تاريخ الأدب الفرنسى هى قصة توماس . والموجود منها حوالى ٣٠٠٠ بيت من الشعر تصل بالحكاية إلى ختامها . توماس البريطانى ألف قصته باللهجة الأنجلو نورمانية فى وقت مناظر لوقت بيرول تقريباً ، ولسنا نعرف هل كان توماس إنجليزياً أم كان من بلاد أخرى ؟ المهم أنه صاحب فضل كبير فى تطوير مادة تريستان وايزولد وتشكيلها بشكل رفيع متأثر بذوق البلاط ، الذوق الاليانورى ، مصطنعاً أسلوباً ليناً حسن الجرس ، مرهف الغنائية . نجد توماس مثلا يخفف وصف العاطفة الجياشة من الأصل الوحشى العنيف الغليظ وينتهج نهجاً رقيقاً نافذاً إلى أعماق نفوس شخصياته ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وحديث توماس عن الحب حديث مفعم بالمفاهيم البلاطية ، أو حديث يدور حول تحديد مفهوم الحب البلاطى . والحقيقة أن معالجة توماس لتأثير المشروب السحرى على قلب تريستان وايزولد ومارك معالجة جديرة بالاعجاب . فتوماس يرفض فكرة الحب بغير لقاء سابق ، ففى حين يتورط بعض المؤلفين فى جعل تريستان يحب ايزولد على غير لقاء سابق ، يشترط توماس هذا اللقاء ويتمسك به ، ثم يأتى المشروب السحرى فيقوى علاقة نشأت بالفعل . وإذا كان المشروب السحرى من شأنه أن يثير الحب ، وإذا كانت مقتضيات القصة تفرض أن

يظل مارك على حب ايزولد ، فإن توماس يبقى فى كأس المشروب السحرى شيئاً يصل إلى مارك ويشربه فيمتلىء قلبه بحب ايزولد إلى النهاية . إنك تحس أن توماس رجل تعلم وعرف المنطق واجتهد فى أن يربط الأسباب والمسببات .

جوتفريد فون شتراسبورج وتريستان وإيزولد

تأثر جوتفريد فون شتراسبورج بتوماس خاصة ، واتبع نصه اتباعاً وثيقاً . ولكنه كان يعرف المؤلفين الآخرين ونصوصهم ، وخاصة أيلهارت . فى الأبيات ١٣١ وما بعده يقول متحدثاً عن مصادره :

« أنا أعرف أن هناك كثيرين
قرأوا (وحكوا ؟) عن تريستان .
ولكن ما أقل
أولئك الذين أحسنوا القراءة (والحكاية ؟) .
فإذا كنت أسلك السبيل نفسه الآن
وأقول فيه كلمتى
: : : : :
فانى أتصرف على نحو آخر :
ولا ألومهم : فقد تكلموا
بنية كريمة خالصة
وأرادوا خيرى وخير الدنيا .
ولا ريب أنهم تصرفوا عن حسن نية :
وكل ما يفعله الإنسان عن حسن نية
هو أيضاً خير وعمل صالح .
أما ما قلته
من أنهم لم يحسنوا القراءة (والحكاية ؟)
فأمر واقع ، على نحو ما تحدثت .
لم يقص هؤلاء بالحق (= اعتماداً على مصدر)
مثلما فعل توماس البريطانى ،
الذى كان أديباً سيداً فى القصة
وقرأ فى الكتب البريطانية :
حياة الأمراء جميعاً
وحكاها لنا وعرفنا بها .
ومثلما قال عن تريستان
الصواب وذكر الحقيقة (المصدر ؟) .
بدأت أنا أبحث بحثاً حاراً
فى كل أنواع الكتب
الرومانية واللاتينية
ورحت أجتهد وأكد
حتى أنشئ
هذا الأدب على صواب » .

جوتفريد يقرأ إذن مصادر مختلفة باللغات الرومانية (يعنى الفرنسية ؟) واللاتينية — ربما تواريخ الأمراء ، ويعتمد على توماس البريطانى الذى كان فى رأيه الوحيد الذى لزم الصواب والذى استمد القصة من مصادرها الحقيقية والذى أنشأ قصة جعلته سيداً فى ميدان الأدب . ولكن جوتفريد أصيل ، يتحدث عن الحب حديث من خبره وعرفه ، ويرتب الأحداث ترتيباً يدل على أنه تصورها على نحو متكامل وأنه اتخذ له فيها مذهباً .

والعنصر الرئيسى فى قصة تريسان وايزولد فى صياغة جوتفريد هو الحب الذى يرتبط به الكيان الفرسانى بمغامرات أخلاقية وغير أخلاقية . وقد شهدت هذه الفترة من العصر الوسيط اهتماماً كبيراً بالحب ، وأنشأت له وحوله الكثير من الشعر الغنائى ، وألفت له الكتب تبحث فى أسبابه وأحواله وقواعده . والبحث فى احتمال تأثير البيئة العربية الأسبانية على ظهور هذا الاتجاه فى أوروبا بحث هام خليق بأن يفرد له مقال خاص . المهم أنه فى عصر تأليف تريستان ظهر كتاب أندريه كابيلان (أو شابلان) أو على الأصح ظهرت كتبه الثلاثة فى الحب (باللاتينية) ، وبها جزء طريف عن قواعد الحب ، يلخصها فيما يلى :

١ — ليس الزواج مبرراً لعدم الحب .
٢ — من لا يعرف الغيرة لا يقدر على الحب .

٣ ــ لا يمكن أن يرتبط إنسان بحبين .
٤ ــ الحب دائم الزيادة أو النقصان .
٥ ــ ما ينال المحب من محبوبته ضد إرادتها لا لا طعم له .
٦ ــ لا يمكن أن يحب الرجل إلا إذا بلغ الرجولة الكاملة .
٧ ــ ينبغى أن يحزن الأحياء على حبيب مات لمدة عامين .
٨ ــ لا يحق أن يحرم إنسان من الحب بغير سبب كاف .
٩ ــ لا يمكن أن يحب إنسان إلا إذا جذبه إغراء الحب إلى ذلك .
١٠ ــ من عادة الحب تجنب دار البخل دائماً .
١١ ــ من غــير المقبول أن يحب الإنسان من قد يخجل من الزواج بها .
١٢ ــ الحبيب الحق لا يميل إلى التمتع بحب واحدة سوى حبيبته .
١٣ ــ نادراً ما يدوم الحب بعد أن يكتشف .
١٤ ــ سهل المنال من الحب يصبح مقيتاً ، وصعب المنال من الحب يصير عزيزاً .
١٥ ــ كل حبيب يشحب عادة عندما يرى حبيبته
١٦ ــ قلب العاشق يرتجف عندما يرى حبيبته فجأة
١٧ ــ الحب الجديد يطرد القديم .
١٨ ــ حسن الخلق وحده يجعل الإنسان خليقاً بالحب .
١٩ ــ إذا خفت الحب فما أسرع ما ينتهى وما أندر ما يعود .
٢٠ ــ العاشق دائماً خجول .
٢١ ــ عاطفة المحب تزداد دائماً بالغيرة الصادقة .
٢٢ ــ اندفاع المحب وعاطفته يزدادان عند الشك فى المحبوبة .
٢٣ ــ من أرقه التفكير فى الحب قل طعامه وقل نومه .
٢٤ ــ كل فعل من المحبوب مرتبط بالتفكير فى المحبوبة .
٢٥ ــ المحب الحق لا يستحسن إلا ما يعتقد أنه سيسر محبوبته .
٢٦ ــ الحب لا يمنع شيئاً عن الحب .
٢٧ ــ لا يمكن أن يمل المحبوب من وصال محبوبته .
٢٨ ــ أقل الظن يدفع العاشق إلى الشك فى محبوبته
٢٩ ــ ما عرف الحب من أرقه الأثم .
٣٠ ــ العاشق الحق لا يفتأ يتأمل محبوبته .
٣١ ــ ليس هناك ما يمنع المرأة من حب رجلين ، ولا الرجل من حب امرأتين .

هذه القواعد تقربنا من مفهوم الحب عند جوتفريد . الحب عنده شىء قوى ، هائل يتملك الإنسان ويتسلط عليه ويجرده من إرادته . وما شراب الحب إلا رمز على هذه القوة الهائلة . وما أسعد جوتفريد عندما وجد عنصر « الشراب السحرى » ، فقد حسم به مشكلة العلاقة بين الحب والأخلاق ، لأن الشراب السحرى يجرد الإنسان من إرادته ، ومن تجرد من إرادته أصبح تأثيمه عبثاً أو ظلماً . فلا إثم إلا على من كان فى وعيه ، وكان يتصرف عن عمد وإرادة . جوتفريد يجعل الشراب السحرى رمزاً ، ويدخل فى مفهومه عن الحب عناصر من الصوفية ، كما بينت البحوث الحديثة . جوتفريد فون شتراسبورج يصور حبيبين تريستان وإيزولد فى سعيهما نحو الوحدة الصوفية أو الاتحاد الصوفى على صعيد الحب ونهايتهما نهاية الشهداء ، شهداء العشق ، لوقوف الدنيا منهما موقف العدو . ولهذا نجد جوتفريد فى مقدمته يتجه بقصة الحب الصوفية هذه إلى أصحاب « القلوب الكريمة » وحدهم ، ولا يتجه بها إلى العامة ، الذين لا يطيقون الصوفية ولا يفهمون الربط بين الحب

والألم ، بين الحياة والموت فى كل واحد ، فى وحدة واحدة على طريقة أهل الصوفية .

وجوتفريد بحديثه هذا عن أصحاب القلوب الكريمة يقسم الواقع إلى قسمين ، قسم رفيع وقسم وضيع ويضع القسمين أحدهما ضد الآخر . والقسم الرفيع هو الذى ذاق الحب ، وخبره خبرة عميقة ، فبلغ الفضيلة وبلغ الشرف والرفعة (انظر القاعدة رقم ١٨ من قواعد كابيلان) . جوتفريد ينقل مفاهيم الصوفية من صعيد الدين إلى صعيد الحب ، ويستعمل مصطلحاتها . هدف العاشقين هنا اتحاد بدنى روحى على أرقى مستوى ، ولا شأن له بالمعروف فى الاتحاد الصوفى ، اللهم إلا إذا عنينا المنهج . فى مفهوم الاتحاد الصوفى « الغرامى » نقرأ هذه الأبيات :

هائم وهائمة

رجل ، امرأة — امرأة رجل ،

تريستان ايزولد — ايزولدتريستان .

نراه يبدأ فى البيت الأول بربط الهائم والهائمة بحرف العطف « و » ، ثم ينتقل إلى التوحيد بينهما فيرفع حرف العطف ، فكأنما تريستان وايزولد كائن واحد . والحب عند جوتفريد شىء يقصد لذاته ، تريستان يحب ايزولد وينالها لا لأنه برع فى المغامرات وأتى بالكثير من أعمال القوة ، وإنما ينالها لأنه جدير بالحب (انظر قواعد كابيلان) ، وايزولد تستجيب للحب وتقابله بحب ولا تفعل ذلك مقدمة ثمناً أو مكافأة ، بل لاحساسها بلقاء من يملأ قلبها . إنه حب فوق كل شىء ، حب لا حدود له . والحب هنا لا يسعى إلى الزواج ، وأنى له هذا ؟ (انظر القاعدة الكابيلانية الأولى) إنه حب لذاته ، فيه الحس وفيه الروح . وجوتفريد لا يجرد الحب من ناحيته الحسية ، بل يراها جانبه الظاهرى الذى لا بد منه لكمال الحب . وهكذا يخرج جوتفريد بمفهومه هذا عن المفهوم الاجتماعى . والمجتمع لا يعترف من الحب إلا بالزواج . وقد يعترف بالحب المجرد عن الحس . أما هذا الحب فلا بد له من مكان آخر غير المجتمع بصورته المعروفة . ومن هنا يأتى تقسيم المجتمع إلى قسمين .

وقد كان تقسيم المجتمع إلى قسمين ، واحد معنا وواحد علينا ، شائعاً فى ذلك العصر ، فمعاصر جوتفريد الشاعر فولفرم فون اشينباخ يقسم المجتمع إلى قسمين ولكن على أساس آخر هو : المقدرة الفرسانية . وفى قصة جوتفريد نشاط فرسانى ، على عادة العصر ، ولكنه لا يقسم المجتمع ، بل لا يواجه هذه المشكلة أبداً . هذا النشاط الفرسانى ثانوى ، يمهد للأحداث الرئيسية ، مثلا الصراع بين تريستان وموررولت : يمهد للقاء تريستان وايزولد لا أكثر من ذلك ، فلسنا نجد تريستان يتوسل ببراعته وتفوقه على موررولت ليصل إلى قلب ايزولد ، بل على العكس لا بد لتريستان أن يخفى أمر هذا الصراع لأن موررولت هو خال ايزولد الحسناء . ويؤكد جوتفريد على ثقافة تريستان ، ويصفه بأنه كان يجيد القراءة ويحسن العزف ويتقن الكلام بأنه كان رجلا يتميز بأدب الندماء . وكذلك ايزولد ، أروع ما يصفه بها جوتفريد هو « أنوثتها » هو طبيعتها الرقيقة . وأن ايزولد لتبقى امرأة فى كل حال ، امرأة بكل ما تتصف به المرأة من صفات مميزة . (قارن صورة المرأة فى النيبلرنجنليد مثلا) .

والفصل الخاص بكهف الحب ، يصور قمة الاتحاد الصوفى بين الحبيبين اللذين عجز المجتمع بقسمه الوضيع عن شمولها . ليس كهف الحب عند جوتفريد ، كما كان عند سابقيه ، مكان هاربين طريدين ، بل هو رمز الاتحاد على أعلى مستوى له . الحبيبان عند جوتفريد لا يخرجان طريدين ، بل يسعيان إلى مكان خليق بحبهما . وجوتفريد يصور هذا المكان ، هذا الكهف ، كأنه الجنة ، ويضع فيه « سريراً من البللور » يرفع به مفهومه عن الحب إلى أعلى درجات النقاوة والصفاء .

ويظهر أن جوتفريد كان مقتنعاً من أن هذا اللون من الحب لا دوام له ، لأنه لا يستند على أساس من الواقع ، وأنه كان يريد أن يسير بقصته إلى المنقلب ، فيأسف على سوء ما حدث للمحبين ، ويتابع التراجيديا إلى انحطاط الحب من الرفعة إلى الضعة . وربما أراد جوتفريد بعد مشهد الانحطاط ، أن يصور انتصار مفهومه فى النهاية ، بلقاء المحبين الخالدين ، واتحادهما فى الموت إلى الأبد .

مخطوطات تريستان وإيزولد لجوتفريد

وصلتنا قصة تريستان وايزولد الشعرية لجوتفريد فون شتراسبورج فى مخطوطات أهمها ١١ مخطوطاً ، منها ستة مخطوطات من الرق :

م ــ مخطوط ميونيخ ويرجع إلى القرن الثالث عشر وهو محلى بالكثير من الصور ، ويرجع إلى القرن الثالث عشر ، ولكنه غير كامل .

هـ ــ مخطوط هايدلبرج ويرجع إلى القرن الثالث عشر أيضاً .

ب ــ مخطوط بلا نكنهايم ، وهو محفوظ الآن فى الأرشيف التاريخى لمدينة كولونيا ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر ، وهو محلى بالصور .

ف ــ مخطوط فلورنسا ، بالمكتبة القومية هناك ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر .

ن ــ مخطوط برلين ، وهو بمكتبة برلين ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر .

ف ــ مخطوط فيينا بالمكتبة الملكية ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر .

أما المخطوطات الورقية الخمسة فهى ترجع غالباً إلى القرن الخامس عشر وهى خالية من الصور وبعضها يحمل عناوين لفصول قسم الناسخ القصة إليها . وهذه المخطوطات محفوظة فى مودينا ، وفى كولونيا وفى برلين وفى بروكسل وفى هامبورج (نسخة هامبورج هذه صنعت فى القرن الثامن عشر فى عام ١٧٢٢ نقلا عن نسخة خطية قديمة ، وهى تقسم القصة إلى ٢٦ فصلا لكل عنوان مفصل يلخص مضمونه) .

وهناك مجموعة كبيرة من بقايا المخطوطات أو من المخطوطات الجزئية استعملها العلماء فى تحقيق النص وفى الدراسات الفيلولوجية والأدبية المختلفة ، نكتفى بالإشارة إلى وجودها . أما الطبعات التى ظهرت للنص محققاً فنذكر منها طبعة ر. بيششتاين (لا يبتسيج ١٨٦٩ وبعد ذلك) وطبعة مارولد (لايبتسج ١٩٠٦ وبعد ذلك) ثم الطبعة الهامة التى أخرجها ف . رانكه عام ١٩٣٠ والتى اعتمدنا عليها فى طبعة عام (١٩٦٥) .

وأول من أخرج نص تريستان وايزولد فى العصر الحديث (وكان أدب العصر الوسيط قد توارى تحت غبار الماضى والنسيان عدداً من القرون) هو كريستيان هاينريش موللر فى مجموعته المسماة « سلسلة الآداب الألمانية فى القرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر » ، المجلد الثانى ، برلين عام ١٧٨٥ . ومنذ ذلك الحين كثرت الطبعات ، خاصة بعد أن أصبحت دراسات الآداب الألمانية فى العصر الوسيط علماً خاصاً على يد الأخوين جريم فى القرن التاسع عشر .

مكملو تريستان وإيزولد

علمنا أن جوتفريد لم يتم قصته ، وأنه تركها ناقصة على الأرجح لموته . وقد تناول اثنان من الأدباء القدماء قصة جوتفريد واستعانا بمؤلفات أخرى مشابهة لاكمالها . هذان هما أولريش فون تورهايم (بين ١٢٢٥ و ١٢٣٥) وهاينريش فون فرايبرج (حول عام ١٢٩٠) . ولا شك أن اهتمام جماعة من الأدباء (ربما بايعاذ من الأمراء) باكمال هذا العمل الناقص دلالة على تقدير لقيمته ، وعلى استحسان القراء له . وقد أفدنا من هذا الاهتمام إفادة جوهرية تتلخص فى معرفة اسم صاحب

« تريستان وايزولد » لأنه كان من عادة الأدباء ألا يذكروا أسماءهم إلا فى آخر مؤلفاتهم (وربما ذكر بعض الأدباء اسمه فى مقدمة مؤلفه كما فعل هرتمن فون أوى فى « هاينريش المسكين ») ، وهكذا لم يرد اسم جوتفريد فى قصته . ولكن أولريش فون تورهايم وهاينريش فون فرايبرج ذكرا اسم جوتفريد فصحت نسبة العمل إليه . وقد اعتمد الأديبان المكملان على نص أيلهارت رغم اتهام جوتفريد له بعدم معرفة القصة على حقيقتها ، وكان الأحرى بهما أن يعتمدا على المصدر الذى رجع هو بصفة أساسية إليه وهو نص توماس . ولكن نص أيلهارت كان أقرب منالا وأكثر إغراء .

والملحق الذى أضافه أولريش فون تورهايم يتميز بالإيجاز الشديد ، وليست له قيمة أدبية كبيرة . ولأولريش فون تورهيم نشاط مشابه فى اكمال قصة فيلاهالم للشاعر الألمانى العظيم فولفرم فون اشينباخ . ويبدو أن العصر عرف اتجاهاً يميل إلى اكمال أعمال الكبار التى لم تتح لهم الفرصة لاكمالها .

تريستان وإيزولد بعد جوتفريد

لقيت مادة تريستان وايزولد رواجاً شديداً فى البلاد المختلفة . فى النرويج مثلا ظهرت عام ١٢٢٦ قصة تريسترام النرويجى ، وفى إيطاليا ظهرت فى مطلع القرن الرابع قصة حول تريستان ، وفى القرن الرابع عشر نشأت قصة تريستان التشيكية . وفى الوقت نفسه تقريباً ظهرت قصة السيد تريستراند فى إنجلترا . أما فى فرنسا فقد ظهرت — علاوة على ما سبق أن أشرنا إليه — قصة نثرية عن تريستان فى النصف الأول من القرن الثالث عشر . وقد حظيت القصة بصيغها المختلفة باهتمام العلماء فى فرنسا ، ولا بد أن نشير هنا إلى « رواية تريستان وايزو » التى صاغها جوزيف بدييه من جديد منذ أكثر من ربع قرن ، والتى نقلنا تقسيمها فى موضع آخر من هذه الدراسة . والطريف فى هذه الرواية أن بدييه استخدم فيها النصوص الأساسية المعروفة كلها تقريباً ، استخدم توماس وبيرول وأيلهارت وجوتفريد ، واتبع منهجاً وسطاً بين الترجمة والتأليف ، واصطنع أسلوباً شبيهاً بأسلوب العصر الوسيط .

أما الألمان فقد ألفوا قصة أخرى (قصيرة) عن تريستان فى نهاية القرن الثالث عشر أو فى مطلع القرن الرابع عشر فى براج ، وألفوا فى الوقت نفسه أو قبله بقليل فى منطقة الالزاس عن الموضوع نفسه بعنوان « تريستان راهباً » وهى قصة مغامرات طريفة . ولما دخلت المطبعة ظهرت فى ألمانيا رواية نثرية عن تريستان وايزولده طبعت فى أواخر القرن الخامس عشر أكثر من مرة ، وكانت محلاة بالصور ، واعتمد النص على قصة أيلهارت خاصة . وقد ترجمت هذه الرواية الألمانية الشعبية إلى اللغة الدنمركية فى منتصف القرن التاسع عشر ، وكانت الدنمرك تعرف رواية دنمركية باسم « تريستان وانديانا » منذ نهاية القرن الثامن عشر لا يعرف مصدرها ، وإن كان المعتقد أن يكون رواية ألمانية ضاعت . وأوحت الرواية الألمانية المطبوعة التى تحدثنا عنها ، إلى الشاعر العامل هانز زاكس بخمس أغان وبتراجيديا (عام ١٥٥١ و ١٥٥٣) . وفى عصر الرومانتيكية ظهر اهتمام مجدد بتريستان وايزولد فألف كارل ايمرمن قصة شعرية (ملحمة) لم يتمها (١٨٤١)

على أن الفضل يرجع إلى ريشارد فاجنر ، الشاعر الموسيقى ، فى صياغة مادة تريستان وايزولد الصياغة النهائية فى الدراما الموسيقية « تريستان وايزولده » . كتب فاجنر النص فى عام ١٨٥٧ ووضع موسيقاه فى عام ١٨٥٩ ، ومثلت الأوبرا لأول مرة فى ميونيخ فى عام ١٨٦٥ . وكان فاجنر فى هذا الوقت متأثراً بحب ماتيلده فيزندونك وما لقيه فيه من خبرة عميقة خلاقة . وقد قرأ فاجنر تريستان وايزولد فى ترجمة ه . كورتس (عام ١٨٤٤) وترجمة زيمروك (١٨٥٥) وتأثر « بشوبنهاور » وربما « بنوفاليس » ، فتم له من هذه

المؤثرات جميعاً خلق العنصر الجوهرى وهو الحب إلى الموت وفى الموت ، هو الحنين إلى الحب والوصال فى الموت ، هو الرمز الخالد لخلاص الإنسانية فى وحدة الكل وانسجامه .

أمثلة من قصة تريستان وأيزولد

أعدت الملكة ايزولد الأم مشروب الحب السحرى وأعطته للوصيفة برانجين وأوصتها الوصية التالية (البيت ١١٤٤٩ وما بعده) :

أخذت السيدة الحكيمة (الملكة ايزولد الأم) الشراب
وتكلمت مع برانجين بصوت خفيض ،
قالت لها : « أى برانجين ، يا عزيزتى وبنت أختى
أرجو ألا يكون كلامى ثقيلا عليك ،
فقد قررت أن تذهبى مع ابنتى فى سفرها .
لذلك فافتحى لى ذهنك
وانتبهى إلى كل ما أقول لك :
خذى هذا الكأس بما فيه من شراب
واجعليه فى حفظك وصونك ،
وانتبهى إليه جداً أكثر من كل ما عداه .
حذار أن يأتى كائن من كان على الأرض
ويمد يده إليه !
احفظيه بكل جد وجهد
حتى لا ينعم به أى إنسان .
واجتهدى أشد الاجتهاد
عندما تقترب ايزولد ومارك
من وصال الحب
أن تقدمى لها هذا الشراب على أنه نبيذ
ليشرباه معاً كله .
. . . .
إنه شراب الحب والهيام :
فلا تنسى هذا قط » .

وسارت السفينة بايزولد وتريستان ومن معهما إلى أرض الملك مارك . وكانت ايزولد حزينة وكان تريستان يواسيها (١١٥٤٠ وما بعده) :

وأعطيت السيدة (ايزولد) فى الرحلة
باشارة من تريستان
حجرة بالسفينة
خفية متوارية
لتقيم فيها .
هناك كانت الملكة
وفتياتها معها
ولا يدخل إليهن رجل أبداً
إلا تريستان من وقت لآخر :
فكان يدخل أحياناً
ويواسى الملكة
عندما كانت تجلس باكية .
كانت تبكى وتنتحب
لأنها تركت هكذا بلدها
الذى تعرف أهله
وتركت أصدقاءها جميعاً
لترحل مع قوم لا تعرفهم
. . . .
وهكذا كان تريستان يواسيها
على أحلى ما يستطيع
فى كل ساعة .
عندما كان الحزن يحل عليها .
كان يأخذها بين ذراعيه
بكل حلاوة ورفق
بطريقة لا تختلف عن
الزوج مع زوجه .
كان الرجل المخلص يجتهد
فى أن يكون للحسناء

تخفيفاً عما بها من هم .
فلما تكرر
تطويقه اياها بذراعيه ،
فكرت ايزولد الجميلة
فى موت خالها
وقالت له محتدة :
« كفاك يا ريس » (ريس المركب !) ، ابتعد ،
وابعد ذراعيك عنى !
أنت رجل جد شرير ،
فلماذا تلمسنى ؟
فيقول : « آه ، أيتها الجميلة ، هل أسئ التصرف ؟
فترد : « نعم ، لأننى أكرهك » .

ويتقرب تريستان إلى ايزولد ويحدث بينهما كلام وعتاب . وفى الطريق يقتربان من الشاطئ طلباً للراحة ، ويذهب من بالسفينة كل فى ناحية ، ويبقى تريستان مع ايزولد ، ويعطشان ، ويشربان على غير علم من الاناء الذى به الشراب السحرى ، فإذا بالحب يشتعل فى قلبيهما . (١١٧٤٥ وما بعده) :

فلما أحس تريستان بالحب
فكر على الفور
فى الاخلاص والشرف
وأراد أن يحسم الأمر حسما .
ولكنه ما لبث أن ثار على نفسه وقال :
« دع يا تريستان الأمور تجرى مجراها
ولا تهتم » .
كان قلبه يريد أمراً
وكان هو يصارع إرادته ،
وكان يشتهى ضد رغبته .
كان يريد هذا ، ثم يريد ذاك .
وفى الطريق حاول الرجل الضائع
مراراً وتكراراً
محاولات كثيرة ، واجتهد فى الاستقامة طويلا .
وكان أمره مع الاخلاص
يضطرب بين حالين متلاصقتين قاسيتين :
كان كلما رآها بعينيه
بدأ الحب الجميل
يؤجج قلبه ويوقد حسه ،
ثم يفكر فى الشرف ، فيصرفه فكره عن الحب ،
ثم ما يلبث الحب أن يعاوده ،
والحب صاحب الأمر والنهى ،
فيتحتم عليه الامتثال .
اختلجت فى نفسه : الرغبة
والاخلاص والشرف فى وقت واحد .
ولكن اختلاج الحب كان أقوى
وكان يحدث به ما هو أشد من الألم ،
وكان يؤرقه
أكثر مما يؤرقه الاخلاص والشرف مجتمعين .
وكان قلبه ينظر إلى الاثنين ويضحك
وتشيح عيناه عنهما .
كان إذا لم يرها
يحس بالقلق أشد القلق .
وكثيراً ما كان يرى نفسه ،
مثل الأسير
الذى يريد الهرب
ثم يعود إلى التفكير ويقول فى نفسه :
« قف فى وجه هذا ! ورد ذاك !
اصرف هذه الرغبة !
ابعد هذا الحب ! وفكر فى شىء آخر »
ولكنه كان إذا تناول قلبه وحسه
وهو فى الطريق
وحاول أن يغيرهما
لم يجد فيهما
إلا ايزولد والحب » .

مفاتيح العلوم للخوارزمي

بقلم
الأستاذ سعيد زايد

١ - المصطلح العلمى هو اللفظ الذى يتفق عليه العلماء ليدلوا به على شىء محدود ، ويميزوا به معانى الأشياء بعضها عن بعض . وهو جزء من المنهج العلمى وركن أساسى فى كل علم ، فـ « العلم لغة أحكم وضعها » كما قيل قديماً . فهو لغة التفاهم بين العلماء ، وهو الذى يعين على حسن الأداء ويدور عليه تبادل الآراء والأفكار ، وهو أيضاً النافذة التى يطل منها العلماء على غيرهم من الدارسين والمثقفين ، والأساس الذى يتبلور فيه التعاون بينهم ، إذ هو من ضرورات العلم وإحدى وسائله الهامة فى التعليم ونقل المعلومات ، فبالمصطلحات العلمية تقرب المسافة ، ويختصر الطريق ، وتوضح الدلالة ، وتستساغ الحقيقة العلمية .

والمصطلحات العلمية تتبع بالضرورة تقدم العلوم وازدهارها ، بما يصاحبها من اكتشافات واختراعات . فليس من شك فى أن التقدم والتطور - فى مجال العلوم - تنتج عنه أشياء جديدة تقتضى مسميات فيصطلح العلماء على تسميتها تسمية توائم بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى الذى يختارونه أو لا توائمه ؛ فإن العالم حر فى اختيار اللفظ الذى يؤدى به الحقيقة العلمية . إذ من البديهى أن علماء كل علم هم ذوو الاختصاص المباشر فى وضع مصطلحات علمهم ، وهم - فوق ذلك - قد يطلقون لفظاً واحداً فى علم واحد على معنيين مختلفين ، ما داموا قد ارتضوا ذلك واصطلحوا عليه ؛ وهم كما يستمدون لفظاً من الفصحى فإنهم يستمدون آخر من العامية ، وكما يستعينون باللغة الحية فإنهم يستعينون باللغة الميتة .

والمصطلحات العلمية قديمة قدم العلم ، عرفت أيام قدماء المصريين ، وأيام ازدهار حضارة اليونان والرومان وقد عرفها العرب قبل ظهور الإسلام بقدر ما كان لديهم من علوم محدودة تدور فى فلك محدود وتتناسب مع حياتهم داخل الجزيرة العربية . وازدهرت بظهور الإسلام وما أتى به من نظم تغلغلت فى حياتهم الخاصة والعامة ونظمت العلاقات الفردية والعلاقات العامة . فوضعت أسس المعاملة فى داخل الأسرة ، وأسس الصلة بين أفراد القبيلة وجمهور الأمة ، بل الإنسانية جمعاء ، وما ينبغى أن يسير عليه الفرد بالنسبة لربه وما تقتضيه العبادات من شروط وأحوال . فكما شرع الرسول صلى الله عليه وسلم أسس الأحكام الدينية ، فقد شرع أيضاً أسس الاصطلاح واستعمال الألفاظ ، فنبتت على يديه بذور الاصطلاحات الفقهية فى القرن

الأول للهجرة ، وذلك بنقله بعض الألفاظ من معانيها اللغوية إلى حقائق عرفية شرعية . وقد ظهرت آثار هذا النبت وأينعت فى القرن الثالث الهجرى بفضل المدنية التى ازدهرت من أواخر القرن الثانى الهجرى فأثرت فى كل شيء بما فى ذلك تفكير الناس وتعبيرهم ، وبفضل التدوين ، فإن التدوين يستلزم تحديد المعانى فى ألفاظ تدون للدلالة عليها . ويقتضى صبغ الأحكام بالصبغة العلمية . ولقد كان للاختلاف بين فقهاء الحجاز وفقهاء العراق أثره الواضح فى إمعان النظر فى أدلة الأحكام ومصادرها وتحديد ما يدل عليه الدليل وتمييزه عن غيره . وقد أدى ذلك إلى وضع كثير من المصطلحات التى كونت ثروة ضخمة ظهر أثرها جلياً فى دراسة العلوم القانونية باللغة العربية .

وكما أثرت مدنية الإسلام فى الدراسات الفقهية ، فقد ظهر أثرها أيضاً فى العلوم الأخرى . فنشأت دراسات أسفرت عن علوم واضحة المعالم منهجية الأسس فى اللغة والدين والقرآن والحديث والشريعة بصفة عامة ، علوم تداولها العلماء وعلموها لطلابهم وذخرت بالمصطلحات العلمية .

ولقد كان لمدرسة المفكرين الأحرار فى الإسلام وهى مدرسة المعتزلة بحوث عقلية هدفها الملاءمة بين العقل والنقل . فكان من الطبيعى أن تظهر فى كتاباتهم مصطلحات واضحة ذات مفهوم محدد ، استعملوها فى مجادلاتهم وسجلوها فى كتبهم ، مثل كتاب المغنى لشيخهم القاضى عبد الجبار الهمدانى الذى نشرت أغلب أجزائه أخيراً . فمن أصولهم الخاصة اصطلاحات العدل والتوحيد ، والوعد والوعيد ، وما يتبعها من الصلاح والأصلح والحسن والقبيح العقليين والجبر والاختيار وما إلى ذلك ؛ ثم المنزلة بين المنزلتين ، والقول بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد تبنى الفلاسفة المسلمون ، بعد ذلك ، كثيراً من مصطلحاتهم مثل الجزء الذى لا يتجزأ أو الجوهر الفرد ، والجوهر والعرض ، والحركة والسكون ، والجسم والروح ، وهى كلها ألفاظ عربية اختيرت فى دقة متناهية بما يلائم المعانى التى يراد التعبير عنها .

أما عصر الترجمة ، فقد مر بدورين : دور النقل المعجل إشباعاً للنهم العقلى ، وقد كان من الطبيعى أن تتسلل فى هذا الدور بعض المصطلحات الأعجمية مثل : هيولى وأسطقس ، وفنطاسيا ، وناموس . . . الخ . ودور التمحيص والإتقان فيما ترجم ويترجم ، وفيه ظهر العقل العربى مارداً جباراً مستبصر المدارك مستنير الملكات ، فراجع ما نقل فى هدوء ووضع مصطلحات عربية خالصة بدلا من المصطلحات الأعجمية ، بل جدد وزاد وأبدع وأجاد .

وقد نقل المسلمون عن العبرية والسريانية والفارسية والهندية واللاتينية واليونانية . وترجموا بعض الكتب عدة مرات وفقاً للأصول التى عثروا عليها . وغذت مدارس الإسكندرية وجنديسابور وحران المسلمين بالكتب والمترجمين من مسيحيين ويهود وصابئة وهنود وفرس . وقد تكونت بفضل الترجمة مصطلحات علمية فى الطب والكيمياء والفلسفة والمنطق والسياسة وجميع العلوم التى ترجمت . واعتمد المترجمون فى هذا المجال على اللغة العربية أولا ، فاستعملوا المجاز باستعارة ألفاظ ذات دلالات لغوية معروفة ، وشاءوا لها تأدية معانى جديدة ، ولجأوا فى بعض الأحيان إلى العلوم الأسبق تكويناً مستعملين بعض مصطلحاتها للتعبير عن المعانى الجديدة ، وبذا ظهر بعض المصطلحات المشتركة بين العلوم المختلفة عند المسلمين ، كما أشار الخوارزمى ، وكما سنبين ذلك فى جزء لاحق من هذا الفصل إن شاء الله .

ولم يقف العرب عند هذا ، بل نحتوا ، واشتقوا ، واستعملوا المصدر الصناعى . فقالوا بالهوية والماهية وما إلى ذلك ، وضموا « لا » النافية لينشئوا لفظاً جديداً

فقالوا باللاأدرية واللانهائية وهو ما يسمى بالتركيب المزجى .

وهكذا نرى أن العرب قد لجأوا فى مصطلحاتهم العربية والدخيلة إلى المجاز والاشتقاق والترجمة والتعريب ولم يستعينوا بالنحت إلا فى النادر ، ولجأوا أيضاً إلى التركيب المزجى .

وهناك كتب كثيرة تناولت المصطلحات العربية ، منها كتب عامة أى تعرضت لمجموعة من العلوم ، وكتب خاصة تخصصت فى فن معين . ونذكر منها على سبيل المثال — لا الحصر — كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى المتوفى سنة ١١٥٨ هـ ، وكليات العلوم لأبى البقاء الحسينى المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ ، والتعريفات للجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ هـ ، والبصائر النصيرية فى علم المنطق للساوى المتوفى سنة ٣٨٠ هـ . وكتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى .

٢ — حياة الخوارزمى

إن الخوارزمى الذى نقصده هنا ، هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب البلخى الخوارزمى ، وهو باحث من أهل خراسان . وقد قال عنه ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » والمقريزى فى « خطط المقريزى » إنه محمد بن أحمد بن يوسف ، وانفرد المقريزى بإضافة لقب « البلخى » بدلا من قوله « الخوارزمى » . وهو عالم آخر غير أبى عبدالله محمد بن موسى الخوارزمى ، الرياضى المعروف ، والذى عاش فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى . إذ أن عالمنا هذا عاش فى القرن الرابع الهجرى ، وألف كتابه الوحيد وأهداه إلى أبى الحسن عبيدالله بن أبى العتبى الذى كان وزيراً من وزراء نوح الثانى السامانى ، فقد كان يشغل منصباً إدارياً فى بلاطه بنيسابور من سنة ٣٦٦ حتى سنة ٣٨٧ هـ .

وبقدر ما ذخرت المراجع العامة بأخبار محمد ابن موسى الخوارزمى ، وأفاضت فى ذكر أخباره وكتبه ، فقد ضنت على محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمى ، فلم يذكر أغلبها عنه شيئاً ؛ والذى ذكر عنه لم يزد على مقتطفات هزيلة ، وكذلك الحال بالنسبة للمراجع الأجنبية التى حفلت بذكر أخبار العالم الأول . فقد نال شهرة عظيمة عند الإفرنج ودخل اسمه المعاجم الإفرنجية فقيل: Algorismus Guarismo Algorithm وقدتعلم أهل الغرب علم الحساب عن كتابه فى الحساب بعد أن ترجم إلى اللاتينية وعن كتب أخرى بنيت على هذا الكتاب . وقد نشر فردريك روزن النسخة العربية لكتاب الجبر والمقابلة للخوارزمى سنة ١٨٣١ م وطبعها فى لندن ونشر معها ترجمة إنجليزية له مع تعليق باللغة الإنجليزية . وبعد ذلك ترجم « مار » الفصل الخاص بالمساحات معتمداً على النسخة التى حققها روزن . وفى سنة ١٩١٥ نشر كاربنسكى ترجمة عن النسخة اللاتينية التى ترجمها روبرت أوف تشستر عن الأصل العربى . هذا ، وقد حقق الكتاب المرحوم الدكتور على مصطفى مشرفة والدكتور محمد مرسى أحمد عن نسخة محفوظة بأكسفورد ، ونشر هذا التحقيق فى القاهرة سنة ١٩٣٧ . وللخوارزمى هذا غير كتاب الحساب وكتاب الجبر والمقابلة كتاب فى تقويم البلدان شرح فيه آراء بطليموس وكتاب رابع جمع بين الحساب والهندسة والموسيقى والفلك . (الدليل الببليوجرافى . ط . مركز تبادل القيم الثقافية ، ص ٣٢٠ ، القاهرة ١٩٦٥) .

ويقول ڤان ڤلوتن G. Van Vloten الذى نشر كتاب « مفاتيح العلوم » فى ليدن فى يناير سنة ١٨٩٥ وقدم له باللغة اللاتينية إن الخوارزمى (أبو عبدالله محمد ابن أحمد بن يوسف) كان يستعمل مقاييس وأوزان أهل خراسان فى إشرافه على توزيع المياه فى مرو . وكان الخوارزمى على علم تام باللغة الفارسية ، فقد كان يرجع الكلمات العربية إلى أصلها الفارسى . ومن المحتمل أنه

كان يعرف شيئاً من اللغات اليونانية والسريانية والسنسكريتية . ومما لا شك فيه أن معرفته بهذه اللغات أفادته من مؤلفات العلماء أمثال أقليدس ونيقوماخوس وهيرو وفيلون . غير أنه لم تكن من عادته ذكر أسماء المراجع التى اعتمد عليها إلا فيما ندر ، عدا ما يتعلق بالخليل بن أحمد الذى جاء ذكره فى كتابه ثلاث عشرة مرة ؛ وذكر أيضاً أسماء ابن درستويه والأصمعى وابن المقفع ورسائل إخوان الصفاء .

ولم تذكر المراجع تاريخ مولد الخوارزمى ؛ واتفق أغلبها على ذكر تاريخ الوفاة ، فقد ذكر المستشرق ڤيدمان E. Wiedemann فى دائرة المعارف الإسلامية وحاجى خليفه فى كشف الظنون وڤان ڤلوتن G. Van Vloten فى مقدمته لمفاتيح العلوم وبروكلمان فى تاريخ الآداب العربية وجورج سارتون فى المدخل إلى تاريخ العلوم Introduction to the History of Science أن الخوارزمى توفى سنة ٣٨٧ ﻫ . ولكن البغدادى فى كتابه تاريخ العارفين قال إنه توفى حوالى سنة ٣٨٠ ﻫ . وفى رأينا أن التاريخ الأول هو الأصح إذ أنه ظل يعمل فى بلاط نوح الثانى السامانى من سنة ٣٦٦ﻫ حتى سنة ٣٨٧ﻫ .

٣ — مفاتيح العلوم

لم يدلنا أى مرجع من المراجع العامة التى تحدثت عن الخوارزمى أن له كتاباً آخر غير كتاب مفاتيح العلوم . وقد نشر الكتاب فى القاهرة سنة ١٣٤٢ ﻫ أى منذ ثلاثة وأربعين عاماً فى مائة وخمسين صفحة من القطع الكبير ، وذيل بفهرس عام فى أربع صفحات . ولم يكتب على غلافه إلا العبارة التالية التى تقول « عنى بتصحيحه ونشره للمرة الأولى سنة ١٣٤٢ ﻫ إدارة الطباعة المنيرية » . وقد قام النشر على نسخة خطية مكتوبة بخط نسخ منقوط واضح القراءة ، على ما يبدو من إحدى ورقات المخطوط التى صورت وظهرت فى أول الكتاب . ومن أسف لم يكشف الناشر عن اسم المخطوط ولا عن المكان الذى حفظ فيه . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنا لا نستطيع القول بأن هذا النشر محقق ، فهو لا يعدو أن يكون طبعاً للمخطوط كما هو بدون تعليق أو شرح أو حتى تصحيح .

وليس صحيحاً أن هذا النشر هو الأول كما ذكرت طبعة القاهرة ، إذ أن كتاب مفاتيح العلوم طبع طبعة علمية أخرى منذ أكثر من سبعين عاماً فى ليدن ، بتحقيق ڤان ڤلوتن G. Van Vloten فى يناير سنة ١٨٩٥م معتمداً فى نشره على خمس مخطوطات ، متخذاً مخطوطة ليدن أساساً ، ومراجعاً لها على أربع مخطوطات أخرى : ثلاث مخطوطات من المتحف البريطانى ، والرابعة هى مخطوطة برلين التى توجد ضمن مجموعة لاندبرج . وقد قدم له الناشر بمقدمة ضافية ، وإن لم يذيله بفهرس عام كما فعلت نشرة القاهرة ، اكتفاء بالتقسيم الذى ذكره المؤلف فى أول الكتاب للمقالات والأبواب والفصول وقد وقعت نشرة ڤلوتن فى ثلاثمائة وثمان وعشرين صفحة من القطع الكبير ، منها مائتان وستة وستون صفحة للنص ، وثلاث وخمسون صفحة للمصطلحات التى وردت فى الكتاب ، وتسع صفحات لأسماء البلدان عدا مقدمة باللغة اللاتينية فى سبع صفحات .

هذا ، وقد نشرت الألفاظ الاصطلاحية التاريخية التى وردت فى الكتاب فى المجلد السابع من المجلة التاريخية المصرية سنة ١٩٥٨ مضبوطة محققة بمعرفة الدكتور يحيى الخشاب والدكتور الباز العرينى ومقدماً لها بقلم المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال . وقد انفرد الدكتور يحيى الخشاب بضبط الفصلين الأول والثانى من الباب الثانى من المقالة الأولى المختص بعلم الكلام : وموضوع الفصل الأول « فى مواضعات متكلمى الإسلام » ، وموضوع الفصل الثانى « فى ذكر أسامى أرباب الآراء والمذاهب الإسلامية» . وأورد شروحاً على ما ورد فيهما من مصطلحات من كتب : كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ، وكتاب تبصرة العوام فى معرفة مقالات

الأنام للسيد المرتضى ، والترجمة العربية لكتاب بيان الأديان ، وكتاب الملل والنحل للشهرستانى ، والترجمة العربية لكتاب شرفنامه ، وكتاب اليزيدية ومنشأ نحلتهم لأحمد تيمور ، وكتاب تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم لعباس العزاوى ، وكتاب مختصر كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى ، ومختصر كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى بقلم عبد الرازق بن رزق الله الرسعنى ، وكتاب الفهرست لابن النديم ، وكتاب أصل الشيعة وأصولها للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، وكتاب تنسر ترجمة يحيى الخشاب عن الفارسية ، وكتاب التبصير فى الدين للاسفرائينى ، وكتاب ناصر خسرو (بالفرنسية) ليحيى الخشاب ، وغير ذلك من المراجع .

واشترك الدكتور يحيى الخشاب مع الدكتور الباز العرينى فى ضبط وتحقيق الفصل الخامس من الباب الثانى من المقالة الأولى أيضاً ، وعنوانه « فى أسامى أرباب الملل والنحل المختلفة » ، والفصل السادس الذى يتكلم عن « عبدة الأصنام من العرب وأسماء أصنامهم » ، والباب الرابع بأكمله ويحتوى على ثمانية فصول تتناول الكلام عن الألفاظ التى تستعمل فى كتابة الدواوين كديوان الخراج وديوان الخزن وديوان البريد وديوان الجيش وديوان الضياع والنفقات وديوان الماء ، ومواصفات كتاب الرسائل ؛ وكذلك الفصول الأول والثالث والسادس والثامن والتاسع من الباب السادس الذى يتكلم فى الأخبار فيذكر ملوك الفرس وألقابهم وملوك اليمن فى الجاهلية وألقابهم ، ويذكر بعض الألفاظ التى يكثر جريها فى أخبار الفرس وأخبار عرب الإسلام وملوك عرب الجاهلية وملوك الروم . وقد قام الدكتور يحيى الخشاب بضبط وتحقيق الألفاظ الفارسية وقام الدكتور الباز العرينى بضبط وتحقيق الألفاظ العربية معتمدين على بعض المراجع العامة .

قلنا إن الخوارزمى كتب كتابه للوزير أبى الحسن عبيدالله بن أحمد العتبى . وقد بين ذلك فى المقدمة القصيرة التى قدم بها الكتاب . ومفاتيح العلوم — كما يتبين من اسمه — يعد مدخلا للعلوم ومفتاحاً لأكثرها . ويتحدث عن الألفاظ المصطلح عليها فى كل علم والتى تواضع عليها العلماء واتفقوا على معانيها والمجال الذى تستعمل فيه ، وهى ألفاظ — كما يقول الخوارزمى — خلت منها أو من جلها كتب اللغة . وقد تحرى فى مصطلحاته « الإيجاز والاختصار ، وتوقى التطويل والإكثار ، وابتعد عن ذكر المشهور والمتعارف بين الجمهور ، وكذلك الغامض الغريب الذى يحتاج إلى شرح طويل وتفسير كثير » .

وقد قسم الخوارزمى « مفاتيح العلوم » إلى مقالتين : تحتوى المقالة الأولى على ستة أبواب ، فيها اثنان وخمسون فصلا ؛ وتحتوى المقالة الثانية على تسعة أبواب ، فيها واحد وأربعون فصلا ؛ وبذلك يكون الكتاب كله يحتوى على خمسة عشر باباً ، فيها ثلاثة وتسعون فصلا .

وقد خص المقالة الأولى بالعلوم الأدبية أو ما يغلب عليها روح الأدب من فقه وعلم كلام ونحو وكتابة دواوين وشعر وعروض وأخبار . وخص المقالة الثانية بالعلوم التى تغلب فيها روح العلم من فلسفة ومنطق وطب وحساب وهندسة وعلم النجوم وموسيقى وحيل وكيمياء .

ويبدأ الخوارزمى كتابه بالحديث عن الفقه فى الباب الأول من المقالة الأولى ، فيتكلم فى أصول الفقه والطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج وشروطه والبيع والنكاح والديات والفريضة والنوادر . فهو فى أصول الفقه يذكر أنها ستة أصول : ثلاثة متفق عليها وهى الكتاب والسنة والإجماع ، وثلاثة مختلف فيها وهى القياس والاستحسان والاستصلاح ؛ وهو فى كل ذلك يضع شروحاً وتعريفات توضح السبيل لمن يشتغل بعلم الأصول . أما فيما يتعلق بالطهارة ، فيعرف الخوارزمى الماء المضاف ، والماء المطلق ، والماء المستعمل ، وسؤر الكلب ، والتحرى ، والاستنثار . وفى فصل

الصلاة والأذان يعرف التثويب والترجيع والتحريم والتشهد . ويتحدث عن الصوم فيعرف القلس والاعتكاف ، والفجر الأول ، والفجر الثانى . ثم يعرف – عند الكلام على الزكاة – الورق ، والنصاب ، والركاز ، والكسعة ، وما إلى ذلك من أوزان ومكاييل تستعمل فى مجال الفرض الثالث من فروض الإسلام وعندما يتكلم عن الحج يعرف القران ، والتمتع ، والإفراد ، والاستلام ، والهدى ، والتجمير . وفى الفصل السابع يتكلم عن البيع والشركة ، فيعرف بيع العرايا ، وبيع الغرر ، وبيع المزابنة ، وبيع المحاقلة ، وبيع النجْش ، وبيع المضاربة . ثم يتناول الكلام عن النكاح والطلاق فى الفصل الثامن ، فيعرف زواج الشغار ، وزواج المتعة ، وطلاق الظهار ، والإيلاء ، والملاعنة ، والقرء ، والاستبراء ، والمحلل . ويتكلم عن الديات فى الفصل التاسع ، فيعرف الغرة والقسامة ، والأرش والشجاج . وفى الفصل العاشر يتكلم فى الفريضة فيعرف العصبة ، والكلالة ، والأكدرية ، ثم يعرف التناسخ فى مجال الوراثة . وعندما يتكلم عن النوادر فى الفصل الحادى عشر يعرف اليمين ، والنكول ، والجرح والحجر والتدبير ، والمكاتبة ، والتعجيز ، والرقبى .

وهكذا يسير الخوارزمى فيما يتعلق ببقية أبواب وفصول المقالة الأولى من كتابه ، فيعرف المصطلحات التى ترد فى علوم اللغة والكلام والنحو والشعر والعروض والأخبار .

أما المقالة الثانية من « مفاتيح العلوم » فهى – كما قلنا – تتناول الفلسفة والمنطق والطب وعلم العدد والهندسة وعلم النجوم وعلم الموسيقى وعلم الحيـــل والكيمياء . ويبدأ الخوارزمى مقالته هذه بالكلام فى الفلسفة ، وقد اعتبرها من علوم العجم وهى العلوم التى وقف عليها هذا الجزء من كتابه ، وقد قسم الباب الخاص بها إلى ثلاثة فصول : تكلم فى الفصل الأول عن أقسام الفلسفة وأصنافها ، وفى الفصل الثانى عن « جمل ونكت عن العلم وما يتصل به » ، وفى الفصل الثالث عن « ألفاظ ومواضعات يكثر جريها فى كتب الفلسفة » أما فيما يتعلق بأقسام الفلسفة ، فيبدأ الخوارزمى الكلام فيها بأن كلمة الفلسفة مشتقة من كلمة يونانية وهى فيلاسوفيا وتفسيرها محبة الحكمة ، « ومعنى الفلسفة علم حقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح » . ثم قسمها قسمين : جزء نظرى ، وآخر عملى . والنظرى له ثلاثة أقسام : قسم يفحص فيه عن الأشياء التى لها عنصر ومادة ويسمى علم الطبيعة ، وقسم يفحص فيه عن ما يخرج عن العنصر والمادة ويسمى علم الأمور الإلهية ، وقسم يفحص فيه عن أشياء موجودة فى المادة لا عن أشياء لها مادة مثل المقادير والأشكال والحركات ويسمى العلم التعليمى والرياضى . وهذا القسم متوسط بين العلم الأعلى وهو الإلهى وبين العلم الأسفل وهو الطبيعى . ثم يتناول الخوارزمى الفلسفة العملية فيقسمها إلى ثلاثة أقسام أيضاً : القسم الأول هو علم الأخلاق ، والثانى تدبير المنزل ، والثالث السياسة . ويرجع المؤلف مرة أخرى إلى الفلسفة النظرية ليذكر الفروع التى تقع تحت أقسامها ، فيذكر أن العلم الطبيعى يندرج تحته علم الطب وعلم الآثار العلوية وعلم المعادن والنبات والحيوان وجميع طبائع الأشياء التى تقع تحت فلك القمر ، وكذلك صناعة الكيمياء . ويذكر أن العلم التعليمى والرياضى ينقسم إلى أقسام أربعة : الاريثماطيقى أى علم العدد والحساب ، والجومطريا أى علم الهندسة ، والاسطرنوميا أى علم النجوم ، وعلم الموسيقى . هذا فيما يتعلق بأقسام العلم الطبيعى والعلم التعليمى . أما العلم الإلهى فقد أفرد له الخوارزمى فصلا خاصاً به سماه « فى جمل العلم الإلهى » ، فذكر أن « الله تبارك وتعالى وعز وعلا هو موجد العالم وهو السبب الأول والعلة الأولى وهو الواحد والحق ، وما سواه لا يخلو من كثرة من جهة أو جهات ، وصفته الخاصة أنه واجب الوجود ، وسائر الموجودات

ممكنة الوجود » . ثم عرف العقل الفعال بأنه القوة الإلهية التي يهتدى بها كل شيء في العالم العلوى والسفلى من أفلاك وكواكب وجماد وحيوان وإنسان . وعرف أيضاً العقل الهيولانى ، والنفس ، والنفس الكلية ، والنفس العامة . ويخلص الخوارزمى بعد ذلك إلى الفصل الثالث الذى خصه بالألفاظ التي تذكر كثيراً في الفلسفة ، فعرف الهيولى ، والصورة ، والأسطقس ، والكيفيات الأول ، والمكان ، والخلاء ، والزمان ، والمدة ، والجسم الطبيعى ، والجسم التعليمى ، والتجزؤ الطبيعى ، والتجزؤ التعليمى ، وفنطاسيا التي قال فيها إنها القوة المخيلة من قوة النفس وهى التي يتصور بها المحسوسات في الوهم وإن كانت غائبة عن الحس وتسمى القوة المتصورة والمصورة . وعرف أيضاً الأرواح عند الفلاسفة ، ورأى أنها ثلاثة أقسام : الروح الطبيعية وتشترك بين الحيوان والنبات ، والروح الحيوانية وتشترك بين الحيوان الناطق وغير الناطق ومكانها القلب والروح النفسانية وهى تخص الإنسان ومكانها الدماغ . ثم عرف الكمون والاستحالة والإرادة والمحال والكيان والنواميس .

أما الباب الثانى من المقالة الثانية فقدخصه الخوارزمى بالكلام في المنطق وقسمه إلى تسعة فصول : تكلم في الفصل الأول عن إيساغوجى أى المدخل ، والثانى عن قاطيغورياس أى المقولات ، والثالث عن بارى ارمينياس أى العبارة ، والرابع عن أنولوطيقا أى القياس ، والخامس عن أفودقطيقى أى البرهان ، والسادس عن طوبيقى أى الجدل ، والسابع عن سوفسطيقى أى السفسطة ، والثامن عن ريطوريقى أى الخطابة ، والتاسع عن بيوطيقى أى الشعر . ويلاحظ أنه اتبع التقسيم التقليدى لأجزاء المنطق الذى عرف منذ أرسطو وسار عليه فلاسفة الإسلام ، وما كان له أن يفعل غير هذا ، وهو الذى لا يهتم بالموضوع بقدر اهتمامه بالمصطلحات الواردة في العلم .

وقد تناول المؤلف في الباب الثالث من هذه المقالة موضوعات الطب في سبعة فصول : فتكلم في الفصل الأول عن التشريح كما عالج الأمراض والأدواء والأغذية ثم الأدوية المفردة والمركبة وأوزان الأطباء ومكاييلهم في بقية فصول هذا الباب . وقد عرف الشرايين والعروق والعضلات والأعصاب والمشيمة والشبكية والقرنية والاثنى عشر وغيرها ، كما عرف من الأمراض السمنة والهبرية والبهق والحصف والقوباء والجذام والسح والسرطان والصرع واليرقان ، كما تكلم عن الأدوية المفردة فقال : إنها إما نباتية وهى ثمر أو جذور أو زهر أو ورق أو قضبان أو أصول أو قشور أو عصارات أو ألبان أو صموغ ؛ وإما معدنية ، وإما حيوانية ، وشرح الأفاقد والسنبل الهندى والميعة والساذج والضرو والجنطايانا واليبروج وعصى الراعى وعنب الثعلب ولسان الثور .

وفي الباب الرابع تعرض الخوارزمى لموضوعات الأريثماطيقى ، فعرف الكمية المفردة والكمية المضافة والأعداد والنسبة وحساب الهند وحساب الجمل ومبادئ الجبر والمقابلة .

وتناول في الباب الخامس الهندسة وعالج موضوعاتها في أربعة فصول : الأول في مقدمات الصناعة ، والثانى في الخطوط ، والثالث في البسائط ، والرابع في المجسمات .

وتحدث في الباب السادس عن علم النجوم ، فعرض أسماء النجوم السيارة والثابتة وصورها وتركيب الأفلاك وآلات المنجمين كالاسطرلاب وأنواعه المختلفة من هلالى وكروى وزورقى وصدفى وغيرها .

وخص الباب السابع بالموسيقى وآلاتها وإيقاعاتها .

والباب الثامن بالحيل من نحو جر الأثقال بالقوة اليسيرة وآلاته ، وآلات الحركات .

وختم الخوارزمى كتابه بالباب التاسع من المقالة الثانية وخصه بالكيمياء وقسمه إلى فصول ثلاثة : فصل

فى آلات الصناعة ، وآخر فى العقاقير والأدوية من الجواهر والأحجار ، وثالث فى تدبيرات هذه الأشياء ومعالجتها .

والخوارزمى فى جميع فصول كتابه يعرف المصطلحات تعريفات مختصرة أحياناً ، أو تعريفات تقرب من الشروح أحياناً أخرى ، وإن كان إلى المنهج الأول أميل . وهو فى تعريفاته على العموم يراعى الدقة والإيجاز ويضع اللفظ فى مكانه المناسب ويستخدم التعبيرات العلمية .

ومما لا شك فيه أن الخوارزمى فى كتابه « مفاتيح العلوم » يعد من العلماء المستقرئين ذوى الاطلاع الواسع والقراءة الشاملة ؛ فقد اطلع على ما كتبه غيره من علماء وفقهاء وفلاسفة ومتكلمين ، واستخلص تعريفاته من مجالات استعمالهم لها ؛ وهذا شأن من يريد أن يبرز المصطلح العلمى فى الحقل الثقافى ، فهو يهتم أساساً بما تواضع عليه علماء كل علم وبما اصطلحوا عليه ، وباللفظ الذى نال حياة فى كتاباتهم ، ثم يسجل هذا كله فى قاموس مصطلحاته . فالمهمة الأساسية لواضع القاموس الاصطلاحى هى التسجيل بالإضافة إلى الثقافة الواسعة والتزام المنهج العلمى فى التبويب ، وهو ما نلحظه فى كتاب مفاتيح العلوم وما يبدو واضحاً فى فصوله المختلفة . فإنه يذكر المصطلح الواحد فى أماكن متفرقة فى كتابه حسب التبويب الذى سار عليه ، ويفرق — بالطبع — بين استعماله عند طائفة من أهل العلم وبين طائفة أخرى غيرهم . فهو فى الفصل الأول من الباب الثانى من المقالة الأولى الذى خصه بالكلام عن « مواضعات متكلمى الإسلام » يذكر تعريف «الشىء» عند المتكلمين بأنه « ما يجوز أن يخبر عنه وتصح الدلالة عليه » . وفى مكان آخر من الكتاب يذكر أن « الشىء فى كلام أهل الجبر والمقابلة هو الجذر المجهول » وذلك فى الفصل الخامس الذى عنوانه « فى وجوه الحسابات» من الباب الرابع من المقالة الثانية عند الكلام فى الأريثماطيقى .

ويعرف « المعدوم » — عند المتكلمين — بأنه « ما يصح أن يقال فيه هل يوجد ، والمعدوم هو المنتفى الذى ليس بكائن ولا ثابت » ؛ ويقول بصدده — فى مجال الكيمياء — « إن الخارصينى جوهر غريب شبيه بالمعدوم » .

ويعرف « الجوهر » — عند المتكلمين بأنه «المحتمل للأحوال والكيفيات المتضادات » ويعرفه — عند الفلاسفة — بأنه « كل ما يقوم بذاته كالسماء والكواكب والأرض وأجزائها والماء والنار وأصناف النبات والحيوان وأعضاء كل واحد منها » .

ويذكر معنى « الاسم » — عند النحويين — بأنه أحد أجزاء الكلام الثلاثة . ثم يذكره — عند المنطقيين — بأنه « كل لفظ مفرد يدل على معنى ولا يدل على زمانه المحدود ، كزيد وخالد » .

ويعرف « الخط » — عند المتكلمين — بأنه «المجتمع من الجواهر طولا فقط » ؛ ويقول — عند الكلام فى الأعداد المسطحة والمجسمة — « إن الواحد بمنزلة النقطة لأنه لا ينقسم ، الاثنان بمنزلة الخط لأنهما لا ينقسمان إلا مرة واحدة ، كما أن الخط لا ينقسم إلا طولا » . وفى مجال علم الجغرافيا يعرف خط الاستواء قائلا : إن « خط الاستواء من الأرض هو الخط الذى يقابل معدل النهار ، وهو حيث يرى القطبان الجنوبى والشمالى ملاصقين للأرض ، والليل والنهار مستويان فيه أبداً » . وعند الكلام « فى آلات المنجمين » يقول : « إن خط الاستواء هو الخط المقسوم الآخذ من المشرق إلى المغرب المار على مركز الصفيحة . وخط نصف النهار هو الخط الذى يقطع خط الاستواء على زوايا قائمة وابتداؤه من العروة » .

ويعرف « الرجعة » عند الشيعة — بأنها عند بعضهم « رجوع الإمام بعد موته » ، وعند بعضهم الآخر

« رجوعه بعد غيبته » . ويقول عنها — عند علماء الفلك — « بأن رجوع الكواكب ورجعتها هو سيرها طولا على خلاف نضد البروج » . ويعرفها — فى ألفاظ ديوان الكتابة — بأنها « حساب يرفعه المعطى فى بعض العساكر بالنواحى لطمع واحد إذا رجع إلى الديوان » ، و « الرجعة الجامعة يرفعها صاحب ديوان الجيش لكل طمع من صنوف الاتفاق » .

ويعرف « الردف » — فى علم العروض — بأنه « حرف لين قبل الروى مثل ياء . . . » ، ويعرفه — فى علم الأخبار — بأنه « هو خليفة ملك الحيرة وكان له المرباع من الغنائم وكان يجلس على يمين الملك ويشرب بعده قبل الناس كلهم ، والردافة هى الخلافة » . ويقول عنه — فى المنطق — بأن « النتيجة ما ينتج من مقدمتين كقولك كل إنسان حى ، وكل حى نام ، فنتيجة ما بين المقدمتين كل إنسان نام ، ويسمى الردف أيضاً » .

ويعرف « الضرب » — فى علم العروض — بأنه « الجزء الأخير من البيت » ، ويعرفه — فى الاريثماطيقى — بأنه « تضعيف أحد العددين بآحاد الآخر » .

ويعرف « العرض » — فى الفلسفة — بأنه « ما يتميز به الشىء عن الشىء لا فى ذاته ، كالبياض والسواد والحرارة والبرودة ونحو ذلك » ، ويعرفه — فى علم الكلام — بأنه « أحوال الجوهر ، كالحركة فى المتحرك ، والبياض فى الأبيض ، والسواد فى الأسود » .

ويعرف « القلس » — فى الفقه — بأنه « هو ما خرج من الحلق ملء الفم أو دونه » ؛ ويعرفه — فى علم الحيل — بأنه « الحبل الغليظ الذى يشد به السفن وغيرها » .

ويعرف « القول » — فى الفقه — بأنه « ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قاله » ؛ ويعرفه — فى المنطق — بأنه « ما تركب من اسم » .

ويعرف « الوضع » — عند كتاب ديوان الجيش — بأن « يحلق على اسمه فيوضع عن الجريدة » ، وهو — فى المنطق — « اسم للمقولة السابعة ويسمى النصبة وهى مثل القيام والقعود . . . » .

هذه بعض المصطلحات التى وردت فى كتاب « مفاتيح العلوم » والتى تستعمل فى علوم مختلفة ، سقناها للدلالة على مدى الدقة التى وصل إليها المصطلح العلمى عند القدماء ، ومدى وضع المعنى الاصطلاحى فى تعبير موجز دال ، ومدى أهمية كتاب الخوارزمى فى محاولة دراسة شاملة للمصطلحات العلمية عند العرب . وإن المتأمل فيها ليروعه تلك العقلية الفذة التى كان لها أثر واضح فى كل مجالات العلم الموضوعية وكيف امتد هذا الأثر إلى المجال الاصطلاحى .

٤ — منتخبات من الكتاب

١ — فى أصول الفقه : أصول الفقه المتفق عليها ثلاثة : كتاب الله عز وجل ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإجماع الأمة . والمختلف فيها ثلاثة : القياس ، والاستحسان ، والاستصلاح . فأما كتاب الله سبحانه ، فإن سبيل الفقيه أن يعرف تأويله ووجوه الخطاب فيه من الخصوص والعموم ، والناسخ والمنسوخ ، والأمر والنهى ، والإباحة والحظر ، ونحوها مما شرح فى التفاسير وكتب الدين . وأما سنة الرسول صلى الله عليه وسلم فهى ثلاثة أضرب : أحدها القول ، والثانى الفعل ، والثالث الإقرار . فالقول ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال . والفعل ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه فعله . والإقرار ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه أقر عليه قومه ولم ينكره عليهم . ثم من الأخبار (خبر التواتر) وهو ما رواه جماعة من الصحابة وقد اتفق عامة الفقهاء على قبوله . ومنها ما هو (خبر الواحد) وهو ما يرويه الرجل الواحد من الصحابة ، وأكثر الفقهاء يقولون بقبوله على شرائط يطول الكلام بذكرها . ومن الحديث ما هو متصل ، وهو الذى إلى النبى صلى الله عليه وسلم

واحد عن آخر من غير أن ينقطع ، والمرسل والمنقطع ما يرويه أحد التابعين الذين لم يروا النبي صلى الله عليه وسلم ، مثل الحسن البصرى وابن سيرين وسعيد بن المسيب ، ويقول : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غير أن يذكر من حدثه به عنه — وقد قبله كثير من العلماء وزيفه بعضهم . وأما الإجماع فهو اتفاق الصحابة من المهاجرين والأنصار . وكذلك اتفاق العلماء فى الأمصار فى كل عصر دون غيرهم من العامة . وأما القياس فقد قال به جمهور العلماء غير داود بن على الأصفهانى ومن تبعه . والقياس نوعان : قياس علة ، وقياس شبه . فقياس العلة أن تجمع المقيس والمقيس به علة ، وقياس الشبه أن لا تجمع المقيس والمقيس به علة ولكن يقاس به على طريق التشبيه . وكثير من الفقهاء لا يفرقون بينهما . وطرد العلة هو أن تجعل مطردة فى جميع معلولاتها . وأما الاستحسان فهو ما تفرد به أبو حنيفة وأصحابه ، ولذلك سموا أصحاب الرأى : ومثال ذلك جواز الحمام وإن كان ما يستعمل فيه من الطين والماء مجهول المقدار . وقيل : الاستحسان هو قياس ، لكنه خفى غير جلى . وأما الاستصلاح فهو ما تفرد به مالك بن أنس وأصحابه : ومثاله ما أجازه من تعامل الصيارفة وتبايعهم الورق بالورق والعين بالعين بزيادة ونقصان ، وإن كان ذلك محظوراً على غيرهم لما فيه من الصلاح للعامة .

٢ — أيس هو خلاف ليس . قال الخليل بن أحمد ليس إنما كان لا فى أيس فأسقطوا الهمزة وجمعوا بين اللام والياء ، والدليل على ذلك قول العرب : ايتنى بكذا من حيث أيس وليس .

٣ — فى ذكر أسامى أرباب الآراء والمذاهب من المسلمين وهى سبعة مذاهب : أحدها المعتزلة ويتسمون بأصحاب العدل والتوحيد وهم ست فرق . . . والمذهب الثانى الخوارج وهم أربع عشرة فرقة . . . والمذهب الثالث أصحاب الحديث وهم أربع فرق . . . والمذهب الرابع المجبرة وهم خمس فرق . . . والمذهب الخامس مذهب المشبهة وهم ثلاث عشرة فرقة . . . والمذهب السادس المرجئة وهم ست فرق . . . والمذهب السابع مذهب الشيعة وهم خمس فرق .

٤ — فى وجوه الإعراب على مذهب فلاسفة اليونانيين — الرفع عند أصحاب المنطق من اليونانيين واو ناقصة : وكذلك الضم وأخواته المذكورة . والكسر وأخواته عندهم ياء ناقصة . والفتح وأخواته عندهم ألف ناقصة . وإن شئت قلت الواو الممدودة اللينة ضمة مشبعة والياء الممدودة اللينة كسرة مشبعة والألف الممدودة فتحة مشبعة وعلى هذا القياس . الروم والإشمام نسبتهما إلى هذه الحركات كنسبة الحركات إلى حروف المد واللين أعنى الألف والواو والياء .

٥ — قانون الخراج أصله الذى يرجع إليه وتبنى الجباية عليه وهى كلمة يونانية معربة . الروزنامج تفسيره كتاب اليوم لأنه يكتب فيه ما يجرى كل يوم من الخراج أو نفقة أو غير ذلك . . . الموافقة والجماعة حساب جامع يرفعه العامل عند فراغه من العمل ولا يسمى موافقة ، ما لم يرفع باتفاق بين الرافع والمرفوع إليه فإن انفرد به أحدهما دون أن يوافق الآخر على تفصيلاته سمى محاسبة .

٦ — الفئ ما يؤخذ من أرض العنوة . . الخراج ما يؤخذ من أرض الصلح . . . العشر ما يؤخذ من زكاة الأرض التى أسلم أهلها عليها والتى أحياها المسلمون من الأرضين أو القطائع . . . صدقات الماشية هى زكاة السوائم من الإبل والبقر والغنم دون العوامل والمعلوفة .

٧ — التسبيب أن يسبب رزق رجل على مال متعذر ليعين المسبب له العامل على استخراجه فيجعل ورداً للعامل وإخراجاً إلى المرتزق بالقلم . . . . الحبة سدس سدس مثقال ، وإن شئت قلت ربع تسع مثقال ، والدينار ست وثلاثون حبة ، والشعيرة ثلث الحبة ،

والدينار مائة وثمان شعيرات ، والشعيرة ثلث ربع تسع مثقال ؛ وقد تختلف هذه المقادير باختلاف البلدان لكن ذكرت ما هو أعم وأشهر .

٨ ـ الترصيع أن يكون الكلام مسجعاً متوازن المبانى والأجزاء التى ليست بأواخر الفصول مثل قول أبى البصير : حتى عاد تعريضك تصريحاً وتمريضك تصحيحاً . . . التضريس هو ضد الترصيع وهو أن لا تراعى توازن الألفاظ ولا تشابه مقاطعها . . المضارعة أن يكون شبيهاً بالاشتقاق ولا يكونه ، كما قال بعضهم ما خصصتنى ولكن خسستنى .

٩ ـ العروض هو الجزء الأخير من النصف الأول من البيت وهى مؤنثة ، وبها سمى علم العروض لأنه إن عرف نصف البيت سهل تقطيعه . . . الضرب هو الجزء الأخير من البيت . . . السبب الخفيف حرفان أولها متحرك والثانى ساكن مثل قد وعلامته ١٥ والسبب الثقيل حرفان متحركان مثل أر وعلامته ٥٥ وذلك أن علامة الحركة عند العروضيين حلقة كالهاء وعلامة الساكن خط كالألف .

١٠ ـ المرازبة جمع المرزبان وهم ما وراء الملوك ، وهم ملوك الأطراف ، ومرز هو الحد بالفارسية مرزبان وهو صاحب الحد ، وكانت الفرس تسمى صاحب النهر أعنى جيحون مرز توران أى حد الترك ، وكان أهل خراسان يسمونه مرز إيران أى حد العراق .

١١ ـ الله تبارك وتعالى وعز وعلا هو موجد العالم وهو السبب الأول والعلة الأولى وهو الواحد والحق وما سواه لا يخلو من كثرة من جهة أو جهات وصفته الخاصة أنه واجب الوجود وسائر الموجودات ممكنة الوجود . . . العقل الفعال هو القوة الإلهية التى يهتدى بها كل شىء فى العالم العلوى والسفلى من الأفلاك والكواكب والجماد والحيوان غير الناطق والإنسان لاجتلاب مصلحته وما به قوامه وبقاؤه على قدر ما تهيأ له وعلى حسب الإمكان ، وهذه القوة التى فى الأشياء التى فى العالم الطبيعى تسمى الطبيعة . . . العقل الهيولانى هو القوة فى الإنسان وهى فى النفس بمنزلة القوة الناظرة فى العين : والعقل الفعال لها بمنزلة ضوء الشمس للبصر ، فإذا خرجت هذه القوة التى هى العقل الهيولانى إلى الفعل تسمى العقل المستفاد .

١٢ ـ الشرايين هى العروق النابضة ، واحدها شريان ، ومنبتها من القلب تنتشر فيها الحرارة الغريزية أى الطبيعية وتجرى فيها المهجة وهى دم القلب : وأما العروق غير النوابض فمنبتها من الكبد وبجرى فيها دم الكبد . ومن الشرايين الأبهران وهما يخرجان من القلب ثم يتشعب منها سائر الشرايين .

١٣ ـ الترياق مشتق من تيريون باليونانية ، وهو اسم لما ينهش من الحيوان كالأفاعى ونحوها ويقال له بالعربية أيضاً الدرياق . . . السكنجبين هو المركب من الخل والعسل ثم يسمى بهذا الاسم وإن كان مكان العسل سكر ومكان الخل رب السفرجل أو غيره .

١٤ ـ علم النجوم يسمى بالعربية التنجيم وباليونانية اصطرنوميا : واصطر هو النجم ونوميا هو العلم .

١٥ ـ علم الهيئة هو معرفة تركيب الأفلاك وهيئتها وهيئة الأرض . . . فلك البروج هو الدائرة التى ترسمها الشمس بسيرها من المغرب إلى المشرق فى سنة واحدة وهو مقسوم اثنى عشر قسما وهى البروج .

التغيّرات أو فلسفة الين واليانج

بقلم
الأستاذ فؤاد محمد شبل

١ ـ التعريف بالكتاب

يعتبر كتاب التغيرات Yi Ching من أمهات تراث الصين الثقافي التي يحصرها فلاسفتها في مؤلفات خمسة هي :

١ ـ كتاب التغيرات
٢ ـ كتاب التاريخ (أو الوثائق)
٣ ـ كتاب الأناشيد (أو الأشعار) والموسيقى
٤ ـ كتاب الطقوس
٥ ـ حوليات الربيع والخريف

ولكتاب التغيرات منزلة رفيعة عند المفكرين الصينيين ، أنزلته منزلة التقديس : وينسب إلى الملك الحكيم فوهسى Fu Hsi . وترجع الأساطير العهد بتأليفه إلى عام ٣٣٢٢ قبل الميلاد .

والكتاب ـ في الأصل ـ سجل للعرافة والكهانة . إذ يضم بين دفتيه رسوماً اقتبسها مؤلفه ـ أو مؤلفوه ـ من الرسوم التي تنشأ عن إحراق صدفة السلحفاة . فهذه الرسوم ، بعضها مستقيم ؛ والبعض الآخر مكسور . فكان أن وضع الكهان والعرافون لكل مجموعة من الخطوط مغزى خاصاً ورموزاً تشير إلى معان محدودة . واتسمت قراءة هذه الشقوق بالصعوبة البالغة ، فكان أن اتخذ العرافون متواليات ثلاثية ، وضعوا لكل متوالية معنى خاصاً .

وشاعت هذه الطريقة لمعرفة الطوالع ، حتى أصبحت الجيوش تستخدمها في المعارك ، ويستعين بها الملوك في رسم سياستهم ، ويعتمد عليها أفراد الشعب في توجيه شئونهم الخاصة .

ثم أقبل العلماء أنفسهم على الاستعانة برموز كتاب التغيرات في أبحاثهم ودراساتهم ، حتى أصبحت عماد الفكر الصيني في السياسة والفلسفة والآداب والأخلاقيات والاجتماع والقانون والطب ..الخ . ولم تبرأ مدرسة فلسفية واحدة من الاستعانة بكتاب التغيرات بطريقة أو بأخرى . وما برح لهذا الكتاب تأثيره على الفكر الصيني حتى وقتنا الحاضر .

٢ ـ المتوالية الثلاثية

قوام كتاب التغيرات أن ظواهر الكون بأسره تتألف في جوهرها من عاملين : ايجابي ، وسلبي . وقد حصر مؤلف الكتاب هذه الظواهر في ثمان أساسية ومثل كلا منها في متوالية ثلاثية الخطوط :

وترمز المتوالية إلى تلاقى ظاهرة كونية سلبيـــة بأخرى ايجابية ، ونتيجة هذا التلاقى :

فالظاهرة الايجابية يطلق عليها كتاب التغيرات اسم اليانج . ويعنى فى الأصل « الشمس » ويرمز إليها بشرطة متصلة ——

ويطلق على الظاهرة السلبية اسم « الين » ويعنى الاصلاح « القمرى » ويرمز إليه بشرطة متقطعة — —

ويتكون كتاب التغيرات – أساساً – من تجميع ثمانى متواليات ترمز إلى العناصر الثمانية الأساسية : السماء – الرعد – الرياح – النار – الماء – الجبال – المستنقعات . وهاك بياناً بهذه المتواليات ؟

(١) (٢) (٣) (٤)

(٥) (٦) (٧) (٨)

فالمتوالية (١) ترمز إلى السماء . وإذ كانت هى الرب الأعظم ، لأن السماء مصدر الأمطار ، فقـــد أصبحت ترمز إلى الأب . ونظراً لأن الرب هو رمز الأسرة ، ترمز المتوالية الى ، القوة ، السيادة .. الخ . وتتألف المتوالية من خطوط سليمة (يانج) ، وفى هذا توكيد مبدأ الذكورة المطلق .

والمتوالية (٢) ترمز إلى الأرض ، وهى الأم التى تتلقى الأمطار . وفى مجال المعانى تدل على : الحنان : المودة ، العطف ، الطاعة ... الخ . وتتألف المتوالية من خطوط جميعها متقطع ، توكيداً لمبـــدأ الأنودة المطلق .

ومن اتحاد المتواليتين (١) و (٢) ينتج :

المتوالية (٣) ؛ وتدل على الابن الأكبر . ويلاحظ أن الخط الأسفل سليم مثل الخطوط التى تمثل الأب ، وتشير المتوالية فى مجال المعانى إلى : التحرك والانطلاق والتحفز .

المتوالية (٤) تدل على البنت الكبرى . ويلاحظ أن الخط الأخير من المتوالية متكسر (ين) . وتدل المتوالية فى مجال المعانى على اختراق الأشياء والنفوذ إليها .

المتوالية (٥) ترمز إلى الابن الثانى ؛ وفى مجال المعانى الوعورة وشدة الانحدار .

المتوالية (٦) ترمز إلى البنت الثانية . وفى مجال المعانى إلى السطوع واللمعان ...الخ .

المتوالية (٧) ترمز إلى أصغر الأبناء ؛ وفى مجال المعانى إلى التوقف والصد ... الخ .

المتوالية (٨) ترمز إلى صغرى البنات . وتدل فى مجال المعانى على الرضاء والمسرة والحبور والغبطة .. الخ .

وبعدما تحددت هذه المعانى الأساسية ؛ أخذ الباحثون من شراح كتاب التغيرات ، يقيمون عليها المظاهر الكونية المختلفة ، وشرعوا يطابقونها على جميع الأشياء :

فالعاصفة ابن أكبر يرمز إليه بالمتوالية بينما أن الريح بنت كبرى يرمز إليها بالمتوالية .

ويعتبر الماء ابناً ثانياً يرمز إليه بالمتوالية بينما أن النار بنت ثانية يرمز إليها بالمتوالية .

ويعتبر الجبل ابناً أصغر يرمز إليه بالمتوالية ، لكن تعتبر المستنقعات بنتاً صغرى يرمز إليها بالمتوالية .

وبعبارة أوضح ، كانت المتواليات الثمـــان – الثلاثية الخطوط – تمثل لدى قدماء الصينيين عناصر الكون ذات الأهمية القصوى لهم وهى فى السماء الشمس والقمر والرياح والعواصف ؛ وعلى الأرض : الجبال والمستنقعات ، ومن الأشياء : الماء والنار . وقد ربطوا بين هذه المتواليات بعـــلاقات الأبوة والأمومة والبنوة .

ويفسر كنفوشيوس نشوء المتواليات الثلاثية الثمان بأن « الأول الأعظم » هو مصدر التغير وعلته . وهو قد قسّم نفسه اثنين كونا السماء (اليانج) والأرض (الين) . وانقسم الاثنان إلى أربع كوّنت الفصول : الربيع والخريف والشتاء والصيف . وعلى أساس فكرة اليانج والين (الجامد واللين) ؛ تكونت المتواليات الثلاثية الثمان . وعندما اتخذت تلك المتواليات ترتيبها المناسب توطد بذلك – كما يقول كنفوشيوس – منهاج السماء والأرض وتحددت رموز كل من : الرعد ، الريح و الماء و النار و الجبال و المستنقعات .

وباستكمال دورة المتواليات الثلاثية الثمان يتم :

أولا – تحديد الفوارق بين مواضع جهات البوصلة الأصلية الأربعة وجهاتها الفرعية .

ثانياً – انجاز عمليات الإنتاج والنماء والحصاد والتخزين .

ثالثاً – التعرف على صور الين واليانج

رابعاً – اضفاء القدرة على الاختراق والنفوذ على طاقة الفعل الروحية الخيرة .

خامساً – ابلاغ الأشياء جميعها مرتبة الكمال .

ويربط شراح كتاب التغيرات بين المتواليات الثمان والفضائل الخمس الثابتة التي عينها كنفوشيوس في مختاراته : الحب و العدالة و الحشمة و الحكمة ، الإيمان الحق .

فالسلوك الصالح : تستثيره المحبة، وتوطده الحشمة وتنظم العدالة أوضاعه ، ويحدد الإيمان الحق أبعاده ، وتكمله الحكمة .

وهذه الفضائل الخمس – وفقاً لكنفوشيوس – هي جماع الفضائل البشرية وهي الروابط التي تصل السماء بالإنسان ، وعن طريقها يتمكن الحكيم من فهم دلالة السماء وتنظيم العلاقات البشرية وإدراك أسمى أشكال السلوك .

٣ – المتوالية السداسية

من المتواليات الثمان ذات الخطوط الثلاثة – السالفة الذكر – ركبت في العصور التالية متواليات تتألف الواحدة من ستة خطوط . وتم ذلك عن طريق مزج متواليتين من ذواتي الخطوط الثلاثية – إحداهما بالأخرى . فيتكون – من ثمة – أربع وستون متوالية جديدة تتألف الواحدة من ستة خطوط .

ويطالعنا كتاب التغيرات بمتوالية سداسية الخطوط فريدة في نوعها ، وتركيبها :

وترمز إلى القيام بعمل عظيم . فها هنا تبدأ المتوالية بحالة سكون (خط متقطع – –) تتلوه حركة (يانج خط متصل ——) ، يتلوه ين ثم يانج ثم ين ثم يانج . وباجتماع الين واليانج تتم عملية اليانج (أي الحركة والانطلاق) . ويعني تكرار الاجتماع ، توكيد عملية الارتقاء .

والأشياء بفطرتها في تغير مستمر . ويحمل التغير في الكون بين طياته الزيادة والنقصان ، القدوم والذهاب ، الهدم والبناء . . . . الخ . فلا نهاية اطلاقاً لعملية التغير ؛ لأن ما يأتي ، يجب أن يذهب ؛ وما يذهب ، يجب أن يأتي مرة أخرى .

ومصداقاً لهذا الرأي ؛ يرمز إلى الرخاء واليسر والرفاهية . . . وما إلى ذلك من المعاني بالمتوالية السداسية الخطوط :



(أي ثلاثة خطوط ين بأسفلها ثلاثة خطوط يانج) . فان تغيرت الأحوال وحل القحط والإمحال والضيق . . . وما إلى ذلك من المعاني ؛ انقلب وضع

خطوط اليانج الثلاثة لتوضع فوق خطوط الين الثلاثة ، على النسق التالى :

كذلك ترمز السداسية :

(وهى عبارة عن خط يانج ــــ تتلوه خمسة خطوط ين ـ ـ) إلى عملية التحلل : ويلاحظ أن خط اليانج (ويرمز إلى الحركة والانطلاق) قد تلته خمسة خطوط ين (ويدل على التفكك والسكون) . فاذا تغيرت الحال بعودة الشئ إلى الحركة ؛ انقلب وضع السداسية فأصبح :

ومنه يبدو أن اليانج قد تغلب فى نهاية المطاف ، فعاد النشاط وتجددت فى الشئ الحياة :

وبالمثل ، ترمز السداسية :

إلى الحركة المنطلقة المستمرة المتواصلة : وفيها خطان متقطعان (ـ ـ) رمز الين ، يتلوهما خط يانج (ــــ) وهو رمز الحركة .

فاذا ما توقفت الحركة ، يرمز إلى العمليــة بالسداسية :

أى خط يانج (رمز الحركة) يتلوه خطان للين (رمز السكون) يتلوهما خط يانج الذى يتلوه بدوره خطان للين :

٤ ــ مدرسة الين واليانج الفلسفية

استخدم الصينيون ــ منذ عهد بعيد ــ فكرة الين واليانج لتوضيح ظواهر الوجود . فالتاوية[١] ــ ابان ازدهارها ــ قد استخدمت الاصطلاحين لشرح مبادئها . ويطالعنا فى هذا المقام عبارة تنسب إلى لاو تزو تقول « ان التــاو (أى السبيل أو النهج) قد أنتج الواحد ، والواحد أنجب الثنائية ، وتطورت الثنائية إلى التثليث ، وانبعث عن التثليث الآلاف المؤلفة من الأشياء . وتضم الأشياء جميعها بين طياتها « الين » وتشتمل على اليانج ، وبفضل الين واليانج ، يتوافر للأشياء التناسق والإنسجام » :

وتأسيساً على هذا الرأى ، يرتب كل شىء فى الوجود تحت أى من الفصيلتين ، باعتبار الين أنثى ، واليانج ذكر :

وبالتالى :

تنتمى السماء والشمس والنار إلى فصيلة اليانج .

وتلحق الأرض والقمر والماء بفصيلة الين .

ويدلل كتاب التغيرات على صدق الفكرة بأن العدسة المحرقة تستجلب النار من الشمس ؛ فى حين أن المرآة ــ وهى يانج ــ إذا ما تركت فى العراء ليلا تلتقط الندى ــ أى الماء ــ من القمر .

ويجب ملاحظة أن ثنائية الين واليانج ؛ لا تعنى تلك الثنائية المألوفة خارج الصين . وتعنى لدينا : الخير والشر ، والروح والمادة ... : وهى ثنائية ينفصل أحد شقيها عن الآخر ويباينه تماماً . فعلى العكس ؛ ينادى المنطق الصينى ــ كما بسطه كتاب التغيرات ــ بأن الين واليانج يكمّل أحدهما الآخر ؛ وبفضل هــذا التكامل يتوافر للكون انسجامه

(١) رجاء مراجعة بحثنا عن لاوتزو ــ عدد مارس ١٩٦٦ من تراث الإنسانية .

وتناسقه . فالشتاء – وينتسب إلى فصيلة الين – يتحول إلى صيف وهو من فصيلة اليانج :

فالين هو العنصر السهل ، اللين ، المذعن ، وهو السالب الساكن :

واليانج هو العنصر المتين الخشن ، وهو الموجب ، الحامل للحركة :

ويرمز اليانج إلى السيادة ، أما الين فيرمز إلى التكامل :

وإذا كان اليانج – بحكم طبيعته – هو العنصر المبدع ، فانه يصبح فى حالة سكون وقتما يصدف عن الإبداع . فاذا ما أخذ يحقق الإبداع ، يغدو فى حالة فعل وحركة .

وإذا كان الين – بحكم طبيعته – على استعداد للاستجابة لنداء القوة المبدعة . فاذا توافرت لديه قابلية الاستجابة ، يصبح فى حالة فعل وانطلاق .

وجميع الأشياء توضع – أوان إبداعها – فى قائمة اليانج ، بينما توضع الأشياء – أوقات استجابتها – فى قائمة الين . ويتيسر لكل شيء أن يكون فى وضع « اليانج » كما يتيسر لكل شيء أن يكون فى وضع الين .

وإذا كان لكل من الين واليانج معنى مختلف ، إلا أنهما مترابطان ولا غنى لأحدهما عن الآخر . فالشمس تغرب ، فيطلع القمر ، ولكل وظيفة واحدة هى إضاءة الأرض . كذلك إذا ولى الشتاء أقبل الصيف ، فاذا راح الصيف وفد الشتاء . وبتعاقب الصيف والشتاء تتم دورة السنة .

وإذا وصل شيء إلى حد التمام ، يكون قد بلغ – بالضرورة – مكانه السليم : ويقصد بالمكان السليم ، الموضع الذى يجدر أن يكون فيه ، أى يصبح كائناً فى البيئة المناسبة له . فوضع الزوجة السليم ، صلتها بشئون الأسرة الداخلية ، ومناط موضع الزوج السليم صلته بشئونها الخارجية . إذ تمثل العلاقة السليمة ركن العدالة الركين فى العالم . فاذا فحصنا نظام الأسرة ، نجد أن مكان الزوج الطبيعى أن يصبح – دون بقية أفرادها – الزعيم والمسيطر . فالأسرة الطبيعية هى التى يكون فيها الوالد والداً والابن ابناً .

وإذا كانت الكنفوشيوسية قد اتجهت فى بداية عهدها إلى بحث مشكلات السياسة والعلاقات البشرية ، فلم تعر الموضوعات الميتافيزيقية ما تستحقه من رعاية واهتمام ، فلقد انبعثت مدرستان فكريتان لسد هذا النقص فى التفكير الصينى ، وتبلورتا فى مدرسة الين واليانج ، والمدرسة التاوية .

ويعبر الفيلسوف « تونج شونج – شو » عن رأى هذه المدرسة الفلسفية فى طبيعة الين واليانج بقوله :

« يوجـــد الين واليانج فى نطاق الكون فى حالة أثيرية وينغمر جميع الناس فيهما على الدوام مثلما ينغمر السمك فى الماء على الدوام . والفارق بينهما وبين الماء أن جيشان الماء منظور ، فى حين أن فوران الين واليانج غير منظور . على أن وجود الانسان فى الكون مثل ارتباط السمك بالماء . ويوجد هذا الأثير فى كل مكان ، لكن ليست به لزوجة الماء . فالمقارنة بينه وبين الماء ، كالمقارنة بين الماء والطين . وعلى ذلك يبدو أن ثمة فى الكون عدمية ، ومع ذلك فثمة هيولى : أن الناس مغمورون على الدوام فى هذه الكتلة الدوامة التى تحملهم قدما فى تيار واحد ، بانتظام أو بغير انتظام » .

وإذا كان الوصف السابق يوحى إلى الذهن باعتبار كل من « الين » و « اليانج » أثيرا – ماديا أو سائلا – لكن لا ينظر إليهما بهذه الصورة المادية . فالحق يقصد من وراء تشبيه هذا الفيلسوف ، تقريب الأمر إلى الذهن . إذ يصف الين واليانج بموضع آخر من مؤلفه بأنهما « قوتان متعارضتان تتبعان سير السماء الراسخ لكنهما

لا ينشآن فى وقت واحد » . وهـــذا يعنى أنه وقتما ينبعث اليانج ، يتراجع الين ؛ والعكس بالعكس .

ويخلص فلاسفة الصين من دراساتهم لكتاب التغيرات إلى نتيجة عملية مدارها أنه إذا كان كل شىء فى الحياة ينقلب إلى نقيضه — إذا ما وصل منتهاه — فعلى الرجل العاقل أن يتخذ أهبته للأحداث التى تفد مع التغير ويحتاط لصروف الزمان . وعلى السياسى الحصيف أن يضع فى ذهنه دائما المخاطر التى لابد وأن تفد وفقاً لمنطق التغير . ونجد أحد حكمائهم « هسى تزو » يقول :

« ان الإنسان الذى يجعل الخطر ماثلا فى ذهنه هو الذى يحتفظ بمكانته ، والذى يرى النكبات قائمة أمام ناظريه هو الذى يعيش ، والذى يعمل حسابا للفوضى المتفشية ، يصبح فى مكنته السيطرة على المجتمع . ومن تقدر له السيطرة على المجتمع ، يجب أن ينسى امكانية تعرض حـــكمه للاضطراب . فالسلطان الحكيم هو من لا ينسى العدوان فى أوقات السلم ، والذى يتخذ الحيطة ضد العابثين بالأمن . ويجب أن يتحلى المرء بالتواضع لأن الدنيا إذا أقبلت لا تلبث أن تدبر » .

ويستوقف نظر الباحث فى كتاب التغيرات ؛ ذلك التشابه المذهل بين المذهب الفيثاغورى ودراسة الصينيين للرموز والأعداد وفقاً لكتاب التغيرات :

١ — وردت العبارة التالية بالملحق الثالث من كتاب التغيرات « فى التغيرات ، ثمة الأول الأعظم الذى أبرز الصيغتين (الين واليانج) إلى الوجود » . إذ تماثل هذه الفكرة القضية الفيثاغورية القائلة « من الجوهر الفرد ينشأ الاتحاد الزوجى غير المحدد » .

٢ — إذا ما اختبرنا مجموعة عشرة أزواج من المتناقضات التى ذكرها الفيثاغوريون — كالمحدود والمطلق — فواضح أن ما يطلق عليه المحدود يطابق تماماً ما يدعوه شراح كتاب التغيرات باليانج . كما أن ما يسميه الفيثاغوريون « المطلق » يطابق « الين » الصينى .

٣ — تستمسك الفلسفة اليونانية — عامة — بالفكرة القائلة بأن المطلق يكوّن المادة وأن المحدود يكوّن الصورة وأن الأشياء الطبيعية هى حاصل تأثير الصورة على المادة . وبالمثل ، يعتنق شراح كتاب التغيرات فى الصين فكرة أن اليانج ايجابى ، فيمنح — من ثم — القوة ويضفى القدرة ؛ فى حين أن الين سلبى ، فهو — لذلك — يتلقى ويتسلم

على أن ثمة فارقاً بين النظريتين الصينية واليونانية يتبين فى ناحيتين :

الأولى — يجعل شراح كتاب التغيرات من المحدود (أى اليانج بالاصطلاح الصينى) معادلا للمربع ، ومن المطلق — أى اللامحدود — (وهو الين فى الاصطلاح الصينى) معادلا للمستطيل . ومن رأيهم أن السماء (وهى مظهر اليانج المعين) مستديرة والأرض — مظهر الين المعيّن — مربعة .

وهنا تعرض لنا نقطة لا يختلف فيها الفيثاغوريون عن شراح كتاب التغيرات : فان الفيثاغوريين يعتبرون الأعداد الفردية — وتطابق المحدود — أعداداً مربعة ، بينما أن الأعداد الزوجية — وتطابق المطلق — أعداد مستطيلة . كذلك يعتبر شراح كتاب التغيرات أعداد اليانج (واليانج هو المحدود) فردية وأعداد الين (والين هو المطلق) زوجية . وهذا هو سبب تمثيل اليانج بخط فردى متصل (——) ، فى حين يمثل الين بخط زوجى (متقطع — —) .

الثانية — يجعل الفيثاغوريون من المحدود مطابقاً للسكون ، والمطلق معـــادلا للحركة . وهذا يخالف وجهة النظر الصينية على طول الخط لمعادلتها اليانج (أى المحدود) بالحركة ، والين (أى المطلق) بالسكون .

٥ — الحكم على مدرسة الين واليانج

تضم نظريات الين واليانج (وهى قوام كتاب التغيرات) الشىء الكثير من السخافات ، لكنها تتضمن — فى نفس الوقت — بدايات العلوم والفنون الصينية . فالحق ؛ يتبلور هدف الآراء المتصلة بالين واليانج فى إيجاد نظام فكرى شامل جامع إلى أبعد الحدود . وبالأحرى ، خلق مدرسة فكرية تستطيع الإحاطة بظواهر الكون بأسره وتفسرها . فمهما يقل عما فى مناهجها من قصور علمى ، وما يظهر من ضعف فروضها ، لكن تستبين لنا روح علمية من خلال نشدانها تنظيم ظواهر الكون وتنسيقها فى إطار مذهب علمى ، وسعيها إلى معرفة الأسباب والدوافع :

وقد يبدو — للوهلة الأولى — زوال تأثير مدرسة الين واليانج من التفكير الصينى ، بفعل اقتحام الفكر الأوربى — الغربى والماركسى — معاقل الفكر الصينى . غير أن الاقتحام ظاهرى محض ، وحسبى للتدليل على هذا الرأى ، فكرة الثورة الدائمة عند ماوتسى تونج وغيرها .

فالكون عند الزعيم الصينى فى حالة تغير دائم ينبنى عليه استمرار قيام التناقضات بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج ، حتى بعد زوال الطبقات . ولا تتأتى تسوية هذه التناقضات إلا بسلسلة « لانهائية » من التغيرات الوصفية (النوعية) . إذ لا مناص من نشوء تناقض بين قوى الإنتاج — نمواً متصلا — وبين جهود الأفراد لتكييف أنفسهم وفقاً لهذا النمو . ويحل هذا التناقض محل الصراع الطبقى .

وتناقض فكرة ماوتسى تونج عن الثورة الدائمة ، الفكرة الماكسية على طول الخط . فها هنا يتبدى لنا تأثير فكرة الين واليانج ، التى تعنى — فيما تعنيه — انبعاث الشىء من نقيضه فى سلسلة من التوالد والتكاثر لا نهاية لها من التفاعلات . بينما قد تأثر تفكير كارل ماركس — وهو يهودى الأصل — بفكرة الجنة الموعودة ، فكان أن دفعه إلى اعتبار المجتمع اللاطبقى الذى ينتفى منه عنصر الإرغام — ممثلا فى الدولة — وحيث يحصل الجميع على احتياجاتهم فى يسر وسهولة ووفرة ؛ اعتباره غاية الغايات . أى أنه الجنة الواردة فى الكتب المقدسة ، تنتصب على الأرض فى دنيا الناس .

وتقر فكرة الين واليانج أن لكل من الاصطلاحين معنى مختلفاً . لكنهما مترابطان ولا يمكن فهم أحدهما بدون الآخر ، ولهذا تأثيره على نظرية المتناقضات عند ماوتسى تونج . فانه يعتقد بأن عملية التحول تقوم على تحويل نوع ما — أى نوع — الى نوع آخر ويتم التحول نتيجة للتغير فى العلاقة الكمية بين أوجه التناقض الغالبة وأوجهه الخاضعة المغلوبة على أمرها ؛ وينجز على طريق اولبى ذى اتجاه واحد . ويقول الزعيم الصينى « الأشياء المتناقضة تكمل وتتم — فى نفس الوقت — بعضها بعضاً ، وهى تشكل الدعامة التى بفضلها تسند المتناقضات بعضها بعضا ويحافظ أحدها على بقاء الآخر ووجوده . وإذا كانت الأضداد — بحكم طبيعتها — يخالف أحدها الآخر ، فهى — من الناحية الأخرى — مترابطة ترابطاً وثيقاً متداخلة فى بعضها متلاحمة ولا غنى لأحدهما عن الآخر : فلا تفهم السهولة عن غير الصعوبة كذلك بدون السهولة لا توجد صعوبة . فالحق أنه من غير الواجهة الأخرى التى تعارض الواجهة ؛ تفقد كل واجهة مبرر وجودها » . ويطالب ماوتسى تونج بالعمل على كشف وجهة تطور التناقض ؛ والقاعدة — كما يقول — إن الواجبات المتعارضة تحوّل نفسها — فى ظل ظروف خاصة — إلى أضدادها ؛ وتتخذ الحركة فى جميع الأشياء : اما وضع السكون النسبى واما التغير المطلق الواضح ؛ وينشأ وضعا الحركة

– كلاهما – عن صراع عاملين متعارضي الإتجاه داخل الشيء نفسه[1] :

ولمدرسة الين واليانج تأثير آخر على تفكير الزعيم الصيني يتبين من قوله إن الريح قد شرعت تهب من الشرق من جديد . بمعنى أن رياح التغير أخذت تنطلق وستقود إلى انتقال النفوذ والسلطان من الغربيين إلى الشرقيين . فان مناط فكرة الين واليانج، تحوّل الين إلى يانج وهذا إلى ين . . . وهكذا . أي استحالة استدامة وضع من الأوضاع وثبات موقف إلى ما لا نهاية . فالزعيم الصيني يعتبر نهضة الصين الحالية تغييراً في ميزان القوى الدولية يبشّر باسترداد الصين مكانتها الحضارية المرموقة التي فقدتها بانتقال القوة غرباً .

٦ – مقتطفات من كتاب التغيرات

١ – عملية التغير الشامل

السماء مرتفعة والأرض منخفضة ، وبهذا تتحدد السماء والأرض . ومصداقاً لهذا يتحدد مكان الشريف والوضيع ولكل من الحركة والراحة وضعه الثابت ، ومن هنا يختلف القوى عن الضعيف وتتطابق السبل وفقاً لأنواعها ، وتنقسم الأشياء الى رتب. لذلك يحدث الحظ الحسن والحظ السيء . وفي السماء تتبدى الظواهر وعلى الأرض تعرض الأشكال . وعن طريق عرض الأشكال يصبح التغير والتحول واضحين . وهكذا تتفاعل خطوط المتواليات الثلاثية الثمانية الضعيفة والقوية ويؤثر كل منها في الآخر ويتأثر به . إن الأشياء يستفزها الرعد فينبعث موسم برد يتلوه موسم حرارة . إن طريق السماء يكوّن المذكّر . أما طريق الأرض فيكوّن المؤنث . تميز السماء الابتداء العظيم ، بينما تضفي الأرض على الأشياء تمامها . ان ادراك السماء مستمد من السهولة واليسر :

ان تعاقب حركة الين واليانج يؤلف مايطلق عليه « السبيل القويم » . ومنه ينبعث الشيء الصالح : ويبلغ مرتبة الكمال بفضل الفطرة البشرية . وعندما يميز الانسان « السبيل القويم » يطلق عليه «الانسانية» لكن الحكيم يطلق عليه الحكمة . وتعاقب الين واليانج هو عامل الانشاء واعادة الإنشاء :

٢ – بدايات الثقافة البشرية

عندما كان فوهسي[1] يحكم العالم، تطلع إلى السماء ليرصد مظاهرها ، وشخص إلى الأرض ليعاين أشكالها . فلاحظ أشكالها وسماتها وكيف توائم نفسها وفقاً لبيئاتها . وأحوت إليه دراسته لبدنه نفسه ؛ طائفة من الآراء ، لكنه مضى أبعد من ذلك فاستخلص أفكاراً قيمة من دراسته للأشياء الأخرى وبفضل دراساته هذه ابتكر الثماني المتواليات ذات الخطوط الثلاثية ، لكي يفقه فضائل الكائنات الروحانية وليصف أحوال جميع المخلوقات . وهو أول من عقد الحبال وصنع الشباك لصيد الأسماك واصطياد الطير والحيوان . وقد اقتبس الفكرة من دراساته لإحدى المتواليات الثلاثية .

ولما مات « فوهسي » ظهر شين تونج » الذي علّم العالم فوائد حرث الأرض وتطهيرها من الأعشاب واقتبس ذلك من دراسة إحدى المتواليات الثلاثية : وهو الذي شيّد الأسواق وعلّم الناس مبادلة منتجاتهم الزراعية والصناعية بمنتجات غيرهم ، سيراً بدراسته لمتوالية ثلاثية .

وبعد موته ظهر في العالم « الامبراطور الأصغر» و« ياو » و« شون »[2] وقد استفادوا من معرفتهم بكنه

---

(١) رجاء الاطلاع على مقالتنا « فلسفة المتناقضات عند ماوتسي تونج » بعدد فبراير ١٩٦٦ من مجلة الفكر المعاصر .

(١) امبراطور الصين الذي ينسب اليه تأليف كتاب التغيرات .

(٢) هؤلاء أباطرة أسطوريون . وما يزال الصينيون إلى وقتنا الحاضر يضربون بهم المثل في فعل الخير وإيثار النفع العام .

التغير فى إراحة الناس من متاعب الحياة . إذ أبانوا للناس أن التغيرات إذا بلغت فى سيرها منتهاها ، تعدّل خط سيرها ، فيمكنها هذا من الانطلاق فى طريقها إلى أن تصل إلى منتهاه فتعدل سيرها من جديد . وتظل هكذا أبد الآبدين ودهر الداهرين بفضل معونة السماء التى توفر الخير . وبفضل تواضع هؤلاء الأباطرة وسماحتهم ، انتظمت أحوال الدنيا ، وانبعثت إلى الوجود الابتكارات الهامة مثل استئناس الحيوانات واستخدامها فى النقل ، كما اخترعت القوارب للنقل المائى .

وظهر بعد هؤلاء الأباطرة حكماء أرشدوا الناس إلى تشييد الدور لحمايتهم من الرياح والأمطار والبرد والحر ، وعلموهم دفن موتاهم . وتوجت جهود الحكماء باختراع الكتابة والقراءة . وتم هذا كله بفضل الاستعانة بمنطق التغير .

٣ — سداسية السماء والأرض

جميع خطوط متوالية السماء متصلة ☰ وتعبر عما هو عظيم ومبدع ونافع وقويم وراسخ . فالسماء هى منشأ جميع الأشيـــاء . وبفضلها تتبدى فى أشكالها الكاملة . ويتبلور أساوب السماء فى التغيير والتبديل بحيث ينال كل شيء فى الكون فطرته السليمة التى تحددها السماء . وعندئذ يتحقق للكون الوحدة والتجانس .

أما الأرض فجميع خطوطها الستة متقطعة ☷ وتدين لها جميع الأشياء بمولدها . وهى تتلقى — طائعة — تأثيرات السماء . فهى ساكنة سكوناً تاماً ، صفتها الوداعة والسماحة ، وهى تتبع سيدها .

٤ — الأول الأعظم

إن الأول الأعظم يولّد — بفعل تحركه — اليانج . فاذا ما بلغ نشاطه منتهاه ، يركن إلى السكون ، وفى خلال فــترة سكونه يولّد « الين » . فاذا ما بلغ سكونه منتهاه تفد دورة جديدة من النشاط . ومن ثمة ، تتعاقب الحركة والسكون ، ويغدو كل منهما منشأ الآخر .

وعن طريق تحول اليانج واتحاده مع الين ، تتولد العوامل الخمسة الرئيسية : الماء ، النار ، الخشب ، المعدن ، التراب ، وبفضل توزيع هذه القوى المادية الخمس توزيعـــاً متناسقاً ، تسلك الفصول الأربعة سبيلها المعروف .

وتؤلف العوامل الخمسة نظاماً واحداً للين واليانج . ويؤلف الين واليانج « الأول الأعلى » . وتكون السماء عنصر التذكير ، وتكون الأرض عنصر التأنيث . وبوساطة تفاعل هاتين القوتين الماديتين ؛ يتم تكاثر آلاف الأشياء المؤلفة وتحولها ؛ وتتكاثر ألوف الأشياء وتتوالد فى تحول لا نهائى .

والإنسان وحده هو الذى يتلقى القوى المادية فى أحسن حالاتها ، فهو بذلك أشرف المخلوقات وأذكاها وأبرعها . ويتبدى شكله المادى وينمى روحه الوجدان . ويترتب عن احتكاكه بالعــالم الخارجى واستجابته لتحدياته ، استثارة المبادئ الخلقية الخمسة الكائنة فى طبيعته وهى : الشفقة ، العدالة ، الذوق ، الحكمة ، الايمان الصحيح ، وهنا ينطلق صوب الحركة والنشاط ، ويميز الخير من الشر . والإنسان الحصيف هو من ينمّى هذه الصفات فى ذاته ، بينما ينتهك حرمتها الإنسان الخسيس .

٥ — الإخلاص

الاخلاص جوهر الحكمة ، عظيم هو مبدأ السماء ، البارئ . منه تستمد جميع الأشياء بداياتها ، وهى منبع الاخلاص . ويتغير طريق مبدأ السماء ، ويتحول لكى يحصل كل شيء على فطرته السليمة وينال قسمته ونصيبه ، ومناط طريق السماء حركة الين واليانج المتعاقبة ، وما ينبعث عن نهج السماء خير ، والحكيم هو الإنسان المخلص .

الخـــراج لأبى يوسف

بقـــلم
الدكتور على حسنى الخربوطلى

ترجمة حياة أبى يوسف :

كان مولد يعقوب بن إبراهيم ، الذى اشتهر بأبى يوسف ، فى عام ١١٣ هـ ، وهو من أسرة عربية ، عريقة فى أصلها ، فقيرة فى مالها . وينحدر من الصحابى الجليل سعد بن حبته ، وهو من أنصار المدينة المنورة . وكان مولد أبى يوسف فى العصر الأموى ، وشهد انتشار الدعوة العباسية فى العراق وخراسان ، ثم عاصر قيام الدولة العباسية فى سنة ١٣٢ هـ وكان حينئذ فى التاسعة عشرة من عمره . فشهد مطلع العصر العباسى الزاهر ، وعاصر عهود الخلفاء العباسيين الخمسة الأول

تلقى أبو يوسف علومه الأولى فى العراق ، فدرس دراسة دينية من قرآن وحديث وفقه ، ودراسة أدبية من نحو ولغة وشعر . وكان ممن تلقى منهم العلوم الدينية محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى . وأبدى أبو يوسف نبوغاً وتفوقاً ، رشحه ليكون فى مقدمة تلاميذ إمام عصره أبى حنيفة . وأدرك أبو حنيفة مواهب تلميذه ونبوغه ، فكان يمده بالمال ليسد به حاجات الحياة وحتى يتفرغ لتلقى العلم على يديه . وكان أبو يوسف واحداً من ثلاثة من أبرز تلاميذ أبى حنيفة الملازمين له ، أما التلميذ الثانى فهو محمد بن الحسن الشيبانى ، والتلميذ الثالث هو زفر . وكان أبو يوسف أكثرهم فقراً ؛ فقد كان الشيبانى موسراً حتى إنه أنفق على تعلمه النحو والشعر والفقه ثلاثين ألف درهم . كما كان هذيل ، والد زفر ، والياً على البصرة .

وكان أبو يوسف يلازم أستاذه فى كل مجالسه ليتلقى عنه الدين والفقه والعلم . وكان أبو حنيفة فى سعة من العيش ، يحترف التجارة ، يبيع الخز ويجلس فى السوق ، ولذا كان معاصروه يطلقون عليه اسم النعمان ابن ثابت الخزاز . وشارك أبو يوسف أستاذه مجلسه فى السوق ، مما أفاده فى حياته العملية إذ اطلع على دقائق النشاط الاقتصادى ، وعرف ما يجرى فى الأسواق من معاملات تجارية وبيع وشراء ؛ فنمت معلوماته عن الاقتصاد والضرائب . وقد بلور هذه المعلومات فيما بعد فى صورة علمية منهجية دقيقة فى كتابه الخراج .

حتى إذا أتم أبو يوسف دراسته وحاز نصيباً وافراً من العلم ، أخذ يشق طريقه فى الحياة ، ترنوه عينا أستاذه ، فتدرج فى المناصب حتى تولى منصب القضاء فى عهد الخليفة العباسى الثالث المهدى ، وكان هذا المنصب حينئذ من أبرز مناصب الدولة . وقد اشتهر

المهدى بالعدل ، حتى إنه كان أول الخلفاء الذين جلسوا للنظر فى المظالم ، مما أتاح الفرصة لأبى يوسف ليمارس وظيفة القضاء فى حرية ، وبدون تدخل من الخليفة . وقد خالف أبو يوسف فى ذلك مسلك أستاذه أبى حنيفة الذى رفض أن يتولى منصب القضاء فى عهد الخليفة العباسى الثانى أبى جعفر المنصور ، كما تذكر بعض المصادر التاريخية ، كما رفض من قبل هذا المنصب أيضاً حينما عهد به إليه ابن هبيرة عامل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين . وينسب المؤرخون رفض أبى حنيفة منصب القضاء فى عهد الخليفة المنصور إلى ميله إلى العلويين ، كما كان المنصور ينقض عهوده ، وشعر أبو حنيفة أنه عاجز عن إرضاء المنصور وحاشيته فقال له : « لو هددتنى أن تغرقنى فى الفرات أو أن آلى الحكم لاخترت أن أغرق ، فلك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك ، فلا أصلح لذلك » .

ولم يرض كثير من المعاصرين لأبى يوسف عن قبوله منصب القضاء ، ونجد ذلك فى كتابات بعض المؤرخين ، فيقول الطبرى : « إنه قد تحامى حديث أبى يوسف قوم من أهل الحديث ، من أجل غلبة الرأى عليه وتفريعه الفروع والأحكام ، مع صحبة السلطان وتقلده القضاء » . فقد كان هناك فى مطلع العصر العباسى كثير من العلماء والفقهاء ممن يزهدون فى تولى الوظائف العامة فى الدولة ، حتى يظل الدين بعيداً عن السياسة ، وحتى لا يضطر العالم أو الفقيه أن يخالف دينه أو ضميره ويمالىء الخليفة وحاشيته .

وإن كنا نجد العذر لأبى حنيفة فى رفضه منصب القضاء ، إلا أننا نجد العذر أيضاً لأبى يوسف فى قبوله منصب القضاء فى عهد المهدى ثم ولديه الهادى والرشيد . فقد رفض أبو حنيفة تولى القضاء فى نهاية عصر الدولة الأموية ، وهى فترة قلقة حرجة تحفل بالاضطرابات السياسية وتيارات الشعوبية بين العرب والفرس ، كما رفض أبو حنيفة أن يلى القضاء للخليفة المنصور الذى كان يؤسس الدولة العباسية ويدعمها ويقضى على خصومها ، ويعمل بمذهب (الغاية تبرر الواسطة) وينادى بأن الخليفة هو ظل الله فى أرضه . وقد نكل المنصور بالإمام العلوى محمد النفس الزكية وبأخيه إبراهيم، كما قتل أبا مسلم الخراسانى عضدالدولة العباسية . أما أبو يوسف فقد تولى القضاء فى عهد الخليفة الثالث المهدى ، الذى كان عهده فترة رخاء واستقرار نعمت فيها الدولة العباسية بالهدوء والأمن ، واشتهر المهدى بالتدين والعدل والتسامح ، ويعتبر عهده مرحلة انتقال بين عهد القمع والشدة الذى شهده عهد أبى العباس السفاح والمنصور ، وعهد اللين والتسامح فى عهود الرشيد وأولاده .

كما أن أبا يوسف كان رجلا فقيراً ، فى حاجة إلى العمل وتولى مناصب الدولة ، بينما كان أبو حنيفة تاجراً موسراً ليس فى حاجة إلى الوظيفة الحكومية . ويعبر أبو يوسف عن رأيه فى المال فيقول : « رءوس النعم ثلاثة : أولها نعمة الإسلام التى لا تتم النعمة إلا بها، ونعمة العافية التى لاتطيب الحياة إلا بها ، ونعمة الغنى التى لا يتم العيش إلا بها » . وقد رأى أبو يوسف أن يجمع بين النعم الثلاثة : الإسلام ، والعافية ، والغنى . ولكن أبا يوسف فى عمله القضائى لم ينحرف أو يحيد عن الحق ، بل نراه فى كتابه « الخراج » يعظ الخليفة هارون الرشيد فى حزم وقوة ، ويتوجه إليه بالنصائح ، وحاز إعجاب ثلاثة خلفاء اختلفوا فى مشاربهم ووسائل حكمهم .

بل أتاح تولى أبى وسف منصب القضاء فرصة له ليفى لأستاذه أبى حنيفة حقه ودينه عليه . فقد حافظ أبو يوسف على مذهبه ، ودونه فى كتبه . حتى إذا أصبح قاضى القضاة فى عهد الرشيد ، عمل على تدعيم مذهب أبى حنيفة وبثه فى الأمصار الإسلامية ، وهذه الفرصة لم تتح لغير أبى يوسف من تلاميذ أبى حنيفة العديدين ، فقد جعل أبو يوسف مذهب أبى حنيفة

يتخذ صورة عملية إيجابية . ولذا يقول الحنفية : « إنه يعمل بقول أبي يوسف فى القضاء » .

وبعد وفاة الخليفة المهدى ، أقر ابنه الخليفة الهادى أبا يوسف فى منصبه القضائى ، اعترافاً بفضله وعدله ، رغم أن الهادى قد بدل كثيراً من الرجال البارزين فى عهد أبيه المهدى . حتى إذا تولى الخليفة هارون الرشيد ، لمع نجم أبي يوسف ، وأنشأ الرشيد منصب « قاضى القضاة » وكان أبو يوسف أول من تولى هذا المنصب . ويشبه المؤرخون المحدثون صاحب هذا المنصب بوزير العدل فى أيامنا هذه . فكان قاضى القضاة يقيم فى عاصمة الدولة ، ويولى قضاة ينوبون عنه فى سائر الأمصار الإسلامية ، واتسعت دائرة سلطات أبي يوسف ، فبعد أن كان ينظر فى القضايا المدنية والجنائية ، أصبح يفصل فى الدعاوى ، والأوقاف وتنصيب الأولياء ، كما تولى الإشراف على الشرطة والمظالم والحسبة وبيت المال . وتحدث المؤرخ السيوطى عن منصب قاضى القضاة فقال : « كان الخلفاء يولون القاضى المقيم ببلدهم القضاء بجميع الأقاليم والبلاد التى تحت ملكهم ، ثم يستنيب القاضى من تحت أمره من شاء فى كل إقليم وفى كل بلد ، ولهذا كان يلقب بقاضى القضاة ، ولا يلقب به إلا هو بهذه الصفة ، ومن عداه بالقاضى فقط . . . ولقد كان قاضى القضاة إذ ذاك أوسع حكماً من سلاطين هذا الزمان » .

حاز أبو يوسف رضا وإعجاب الخليفة هارون الرشيد ووزرائه من البرامكة ، حتى إنهم قدموه على سائر القضاة ، وخاصة القاضى محمد بن الحسن الشيبانى ، وهو من تلاميذ أبي حنيفة ، كما تتلمذ أيضاً على أبي يوسف . ويعلل المؤرخون ذلك بأن أبا يوسف كان يدارى ويجامل ، كما كان متواضعاً سمحاً ، خبيراً بمعاملة الناس . بينما كان الشيبانى متعالياً حتى إنه رفض أن يقوم للرشيد حين قدم إلى مجلس كان فيه . ورغم صداقة أبي يوسف للشيبانى فى صباهما ، إلا أنه كانت بينهما وحشة فى عهد الرشيد . ورغم هذه الوحشة بين الرجلين العظيمين ، فان الشيبانى يذكر فى صدر كل باب من أبواب كتابه (الجامع الصغير) : « محمد عن يعقوب (أبي يوسف) عن أبي حنيفة » .

وظل أبو يوسف يتولى منصب قاضى القضاة حتى توفى مدينة بغداد بالعراق فى سنة ١٨٢ هـ . وأصبح أبو يوسف قدوة يحتذى سائر القضاة الذين أتوا بعده حذوه ، وأصبحت أحكامه فى الخراج نافذة طوال العصر العباسى .

آثار أبي يوسف :

تولى أبو يوسف منصباً من أخطر مناصب الدولة العباسية ، ولكن هذا لم يشغله عن البحث والدراسة والاستقصاء ، فوضع أبحاثاً فقهية عظيمة ، وكتباً قيمة أشادت بها المصادر التاريخية القديمة .

اتصل أبو يوسف بالمحدثين ، وروى عنهم ، وفى ذلك يقول المؤرخ الطبرى : « كان أبو يوسف يعقوب ابن إبراهيم القاضى فقيهاً عالماً حافظاً ، ذكر أنه يعرف بحفظ الحديث ، وأنه كان يحضر المحدث ، فيحفظ خمسين أو ستين حديثاً ثم يقوم ويمليها على الناس ، وكان كثير الحديث ، وكان قد جالس محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ليلى ، ثم جالس أبا حنيفة ، وكان الغالب عليه مذهب أبي حنيفة ، وكان ربما خالفه أحياناً فى المسألة بعد المسألة » . وكانت هذه الدراية الواسعة بالأحاديث أساساً متيناً لكثير من المؤلفات القيمة .

وكان يحلو لأهل العراق أن يقارنوا بين أبي يوسف والشيبانى وزفر ، وكلهم من تلاميذ أبي حنيفة . فقد روى عن المزنى صاحب الشافعى أنه جاءه رجل فسأله عن أهل العراق ، قال : ما تقول فى أبي حنيفة ؟ قال : سيدهم ، قال : فأبو يوسف ؟ قال : أتبعهم للحديث . قال : فمحمد بن الحسن ؟ قال : أكثرهم تفريعاً . قال : فزفر ؟ قال : أحدهم قياساً .

تحدث ابن النديم فى كتابه « الفهرست » عن آثار أبى يوسف ، فذكر لنا أسماء كتبه . فقد وضع أبو يوسف كتباً عن أركان الإسلام وفرائضه ، فكان من كتبه « كتاب الصلاة » ، « كتاب الزكاة » ، « كتاب الصيام » ، « كتاب الفرائض » . كما وضع أبو يوسف كتباً تتناول مسائل فقهية منوعة ، مثل « كتاب البيوع » « كتاب الحدود » ، « كتاب الوكالة » ، « كتاب الوصايا » ، « كتاب الصيد والذبائح » ، « كتاب الغصب والاستبراء » . كما وضع كتاباً عن مظاهر الاختلاف فى الأمصار الإسلامية بعنوان « كتاب اختلاف الأمصار » .

وكان العصر الذى عاش أبو يوسف فيه عصر نهضة فكرية ، ظهر فيه كثير من الفقهاء والمحدثين . وقد تأثر أبو يوسف بآراء أستاذه أبى حنيفة ، واهتم بتدوينها وتسجيلها ، مع جانب من التجديد والتطوير ، دون تعصب أو تحيز ، بل طعم آراء أبى حنية بآراء أخرى تلقاها عن أستاذ آخر له هو : محمد بن عبدالرحمن ابن أبى ليلى الذى كان خصما لأبى حنيفة حتى إن أبا حنيفة كان يجهله فى بعض القضايا ويبرز أخطاءه ، كما تأثر أبو يوسف فى كتبه ببعض آراء الإمام مالك بن أنس وفقهاء الحجاز .

ومن كتب أبى يوسف « كتاب الرد على مالك بن أنس » . وكان أبو يوسف قد رحل إلى المدينة المنورة ، والتقى بالإمام مالك وناظره ، وأخذ عنه ورجع عن بعض آرائه إلى قول مالك وأقوال الحجازيين ، كما خالفهم فى بعض آرائهم . وقد أشاد بعض المحدثين بأبى يوسف ، وفى مقدمتهم ابن معين وابن حنبل ، ولكن المحدثين الذين عارضوا الإمام أبى حنيفة عارضوا بالتالى تلميذه أبى يوسف . فيقول فى ذلك ابن عبد البر : « كان ابن معين يثنى عليه – أى على أبى يوسف – ويوثقه ، وأما سائر أهل الحديث فهم كأعداء لأبى حنيفه وأصحابه » .

شهد أبو يوسف أمجاد البرامكة فى العصر العباسى ، وأدى توليه منصب قاضى القضاة إلى قيام صداقة وطيدة بينه وبين الوزراء البرامكة وخاصة يحيى بن خالد البرمكى ، وزير الرشيد ومربيه . وقد كلف هذا الوزير أبا يوسف بتأليف « كتاب الجوامع » ، فجعله أبو يوسف فى أربعين كتاباً ، تحدث فيه عن اختلاف الناس والرأى المأخوذ به .

كما طلب الخليفة هارون الرشيد من أبى يوسف أن يضع كتاب الخراج ، وفى ذلك يقول أبو يوسف : « إن أمير المؤمنين أيده الله تعالى سألنى أن أضع له كتاباً جامعاً يعمل به فى جباية الخراج ، والعشور والصدقات والجوالى » .

ومما يؤسف له ضياع جميع المؤلفات التى وضعها أبو يوسف ، ولم يبق لنـــا من آثاره سوى « كتاب الخراج » ، إلى جانب بعض الأقوال التى نقلها عنه الفقهاء من بعده ، وأبواب نقلها عنه الإمام الشافعى فى كتابه « الأم » .

منهج أبى يوسف فى كتاب الخراج :

نلمس فى كتاب الخراج مدى تأثر أبى يوسف بآراء أستاذه أبى حنيفة ، فقد حافظ أبو يوسف على جوهر مذهبه ، واهتم بتدوينه ، والاستدلال له ، وترتيب مسائله وتوسيعها . وكان تولى أبى يوسف منصب قاضى القضاة عاملا على أن يخدم فيه فقه أبى حنيفة بسلطانه . كما أن أبا يوسف نقل إلينا أقوال أبى حنيفة فى كل باب من أبواب الفقه وحفظ لنـــا ما ضاع من تراثه .

سار أبو يوسف على نهج أستاذه أبى حنيفة فى التشدد فى قبول الحديث ، فلم يقبل الخبر عن الرسول إلا إذا رواه جماعة عن جماعة . وفى ذلك يقول أبو يوسف « فعليك من الحديث مما تعرف العامة ، وإياك والشاذ منه . . . وكان عمر فيما بلغنا لا يقبل الحديث عن رسول

الله (ص) إلا بشاهدين ، وكان على بن أبى طالب لا يقبل الحديث عن رسول الله ، والرواية تزداد كثرة ، ويخرج منها ما لا يعرف ولا يعرفه أهل الفقه ، ولا يوافق الكتاب ولا السنة ، فإياك وشاذ الحديث ، وعليك بما عليه الجماعة من الحديث وما يعرفه الفقهاء ، فقس الأشياء على ذلك ، فما خالف القرآن فليس عن رسول الله (ص) وإن جاءت به الرواية . . . » .

وهذا التشدد فى الأخذ بالحديث دفع أبا يوسف إلى التوسع فى القياس والاستحسان ، فما لم يكن فيه أثر كتاب ولا أثر صحيح ، فليس فيه أمام المجتهد إلا القياس والاستحسان . وقد ساعده على ذلك خبرته التى اكتسبها من ممارسته شئون القضاء ، فبرز فى ذلك على غيره من الفقهاء .

طور أبو يوسف بعض جوانب فقه أبى حنيفة ، فقد رجع عن آراء له إلى الحديث الذى صح عنده ، وضيق حدود الرأى والقياس عما كانت عليه فى عهد أبى حنيفة ، نتيجة اتصاله الوثيق بأهل الحديث وفقهائه كما كان لمناظرات أبى يوسف مع الإمام مالك وفقهاء الحجاز أثرها فى رجوعه عن بعض آرائه إلى آرائهم . كما أدى اتصال أبى يوسف بالمحدثين إلى تدعيم مذهب أبى حنيفة بالحديث أيضاً ، وتطعيم المذهب ببعض آراء الفقهاء الحجازيين .

تفقه أبو يوسف بفقه أهل الرأى فى الكوفة ، وبفقه أهل الحديث فى المدينة وغيرها . ونرى أبا يوسف فى كتابه الخراج يفاضل بين الأحاديث ويختار أكثرها ذيوعاً وانتشاراً ، وفى ذلك يقول : « واتبعنا الأحاديث التى جاءت عن رسول الله (ص) فى مساقاة خيبر لأنها أوثق عندنا وأكثر وأعم مما جاء فى خلافها » .

كما يخالف أبو يوسف فى كتاب الخراج بعض آراء أستاذه أبى حنيفة ، إذ يرى اتباع الأثر ، فيقول : « وسألت يا أمير المؤمنين عما يخرج من البحر من حلية وعنبر . . . وقد كان أبو حنيفة وابن أبى ليلى رحمهما الله يقولان : ليس فى شىء من ذلك شىء لأنه بمنزلة السمك ، وأما أنا فانى أرى فى ذلك الخمس ، وأربعة أخماسه لمن أخرجه لأنا قد روينا فيه حديثاً عن عمر رضى الله عنه ، ووافقه عليه عبدالله بن عباس ، فاتبعنا الأثر ولم نر خلافه » .

وكتاب الخراج هو خلاصة ما تلقاه أبو يوسف من علم وثقافة إلى جانب خبرته فى شئون الدولة وتجاربه الشخصية . وأبو يوسف يتحدث فيه عن أمور الدولة المالية ، وهو من أصعب الأبحاث وأدقها ، ولم يكن أبو يوسف بقادر على أن يحيط بأطرافها المتعددة لو لم يكن يتولى هذا المنصب الكبير فى الدولة العباسية ؛ وساعده على ذلك أيضاً معاصرته لعهود ثلاثة خلفاء من أبرز الخلفاء العباسيين وهم المهدى والهادى والرشيد .

ويظهر فى كتاب الخراج سعة اطلاع أبى يوسف ، فقد اطلع على وثائق الدولة ودفاترها القديمة ، كما اتصل بحكم منصبه بكبار الموظفين ، واكتسب خبرة حكومية كما اتصل بشيوخ عصره فى سائر الأمصار الإسلامية على اختلاف آرائهم ومذاهبهم ، فهو يروى عن أبى حنيفة ، وعن مالك بن أنس ، وعن الليث بن سعد وغيرهم ، كما يروى عن « بعض أشياخنا الكوفيين » ، وعن « بعض أشياخنا من أهل المدينة » .

وحفظ أبو يوسف لنا الكثير من أقوال صحابة الرسول وأعمالهم ، كما أبرز لنا سيرة الخليفة عمر بن الخطاب وسياسته فى الحكم والإدارة والشئون المالية . فقد تمت الفتوحات الإسلامية فى عهده ، ووضع أسس النظم الإدارية والمالية التى سار عليها معظم الخلفاء ، كما كان أول من دون الدواوين . ويراعى أبو يوسف ظروف الزمان والمكان ، فلا يجد حرجاً فى مخالفة بعض نظم عمر بن الخطاب ، وخاصة فيما فرضه من ضرائب على الأرض ، ويعلل أبو يوسف هذه المخالفة بقوله : « إن عمر رضى الله عنه رأى الأرض فى ذلك الوقت محتملة لما وضع عليها ، ولم يقبل حين وضع عليها

ما وضع من الخراج إن هذا الخراج لازم لأهل الخراج، وحتم عليها، ولا يجوز لى ولمن بعدى من الخلفاء أن ينتقص منه ولا يزيد فيه . . . . ».

اعتمد أبو يوسف فيما جاء فى كتابه (الخراج) من تشريع وأحكام وأخبار على كثير من الرواة نذكر أشهرهم حسب الترتيب الأبجدى : أبان بن أبى عياش، الأحوص بن حكيم، أبو اسحاق الشيبانى، إسرائيل بن يونس، إسماعيل بن أبى خالد، أشعث بن سوار، الأعمش، ابن جريج، الحجاج بن أرطأة، الحسن بن عمارة، السرى بن إسماعيل، سعيد بن أبى عروبه، سفيان بن عيينة، شعبة، عبدالله بن على، عبدالله المزنى، عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عبد الرحمن ابن عبدالله المسعودى، عطاء بن السائب، الكلبى، الليث بن سعد، ابن أبى ليلى، مالك بن أنس، المجالد ابن سعيد، محمد بن اسحاق، محمد بن السائب الكلبى، أبو معشر، مغيرة، هشام بن سعد، هشام بن عروة، يحيى بن سعد، يزيد بن أبى زياد، وغيرهم .

الملامح العامة لكتاب الخراج :

يذكر معظم المؤرخين أن أبا يوسف كان أول من وضع كتاباً عن الخراج . ولكن الحقيقة أن معاوية ابن يسار وزير المهدى، والمعاصر لأبى يوسف، كان أول من ألف كتاباً فى هذا الموضوع، فيقول المؤرخ ابن طباطبا فى كتابه « الفخرى فى الآداب السلطانية » عن هذا الوزير : « وصنف كتاباً فى الخراج ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده، وهو أول من صنف كتاباً فى الخراج، وتبعه الناس بعد ذلك، فصنفوا كتب الخراج » . ولكن هذا الكتاب ضاع فلم يصل إلينا . ولذا يمكننا أن نصحح رأى هؤلاء المؤرخين، فنقول أن كتاب أبى يوسف عن الخراج هو أقدم الكتب التى حفظتها الأيام لنا .

ولا شك أن أبا يوسف الذى كان يتولى القضاء فى عهد المهدى قد اطلع على كتاب الوزير، وربما استفاد منه فى تبويب ومنهج كتابه، وإن كنا لا نستطيع تأكيد ذلك، لأن أبا يوسف لم يشر إلى كتاب هذا الوزير أو إلى شخصه فى صفحات كتابه، رغم أن هذا الوزير قد أحدث نظماً جديدة فى الخراج تغاير ما كان متبعاً فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين، إذ يذكر المؤرخ ابن طباطبا أن المهدى فوض إليه تدبير أمور الدولة، وسلم إليه الدواوين، فكان مقدماً فى صناعته، وابتكر أموراً كثيرة، منها أنه نقل الخراج إلى المقاسمة وكان الخليفة قبله يأخذ عن الغلات خراجاً مقرراً ولا يقاسم، فلما تولى هذا الوزير الوزارة قرر أمر المقاسمة، وجعل الخراج على النخل والشجر، واستمرت الحال على ذلك طوال العصر العباسى . ولكن من اليسير علينا أن نفسر اهمال أبى يوسف لكتاب الوزير معاويه بن يسار، فقد كان الوزير متكبراً متعالياً، كم اتهم ابنه بالزندقة فأمر الخليفة المهدى بقتله، واضطر الوزير إلى اعتزال الوزارة فلزم داره حتى مات سنة ١٧٠ هـ .

حذا كثير من الكتاب حذو أبى يوسف فى الاهتمام بموضوع « الخراج »، فقد وضع يحيى بن آدم كتاباً فى هذا الموضوع وسماه « الخراج » أيضاً . كما تحدث الإمام الشافعى عن الخراج فى كتابه « الأم » . ثم ألف أبو عبيد بن سلام كتابه « الأموال » وأصبح الخراج أبرز مواضيع كتابه، كما نال الخراج اهتمام الماوردى فى كتابه « الأحكام السلطانية » .

وكتاب أبى يوسف، وغيره من الكتب التى تدور حول نفس الموضوع، تمد المؤرخ بكثير من المعلومات عن أحوال الشعوب الإسلامية، ونظمهم الإدارية والمالية، إذ يطرق هؤلاء الكتاب الجوانب المختلفة من حياة هذه الشعوب، وتمدنا بصور اجتماعية واقتصادية مختلفة، كما تحوى الكتب كثيراً من الفتاوى فى كثير

من القضايا والمواضيع التى تشغل الأذهان وتختلف فيها الآراء والمشكلات التى يعانون منها . وإن كان كتاب الخراج لأبى يوسف ليس بكتاب تاريخ ، بل كتاب فقه يهتم بصفة خاصة بفقه الخراج ، إلا أنه يمدنا بصور تاريخية تصور تطبيق الأحكام الفقهية فى الدولة الإسلامية ويحدثنا عن الفتوح الإسلامية للعراق والشام .

ولندرك تفسير أبى يوسف للخراج ، علينا أن نستعرض بعض الآراء حول كلمة « خراج » . فقد جاء فى دائرة المعارف الإسلامية أن كلمة « خراج » مشتقة من كلمة (Choregia) الآرامية أو البيزنطية ، ومعناها العام « الضريبة » . أما معاجم اللغة فهى تفسرها تفسيرات مختلفة ، فقد جاء فى لسان العرب أن الخراج هو الإتاوة التى تؤخذ من أموال الناس ، كما يوسع لسان العرب نطاق الخراج بحيث يشمل الجزية التى تفرض على أهل الذمة ، ثم يلخص معنى الخراج فى كلمة واحدة هى « الغلة » . أما « القاموس » فيذكر أن الخراج هو الإتاوة . والخراج فى لغة العرب اسم للكراء والغلة ، ومنه قول الرسول : « الخراج بالضمان» ويذكر « جب » و « كرامرز » فى مختصر دائرة المعارف الإسلامية أن كلمة خراج فارسية اقتبسها الفرس عن الكلمة الآرامية « هلاك » . ويعرف الماوردى الخراج فى الإسلام بأنه « هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عليها » . ويذكر الماوردى أيضاً أن هناك فرقاً كبيراً بين الخراج والعشر ، فالخراج مقابل إيجار الأرض ، أما العشر فيؤخذ من المسلمين كزكاة على الزرع والثمر ، كما يذكر أنه لا يجوز أن يجتمع العشر والخراج ، بل يسقط العشر بالخراج . ويعرف ابن آدم أرض الخراج بأنها هى كل أرض مسحت ووضع عليها الخراج ، ويعرفها النويرى فى « نهاية الأرب » أنها كل أرض روتها أنهار الخراج ، وخصصت لزراعة الغلات المختلفة ، أو جعلت بساتين للنخل والكروم وغيرها ، أو شغلت بالطواحين »

عرض لكتاب الخراج ومقتطفات منه :

١ – يبدأ كتاب الخراج برسالة وجهها المؤلف إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد ، بدأها بالدعاء للخليفة ، ثم تحدث عن هدفه من تأليف الكتاب ، وأنه قد قام بتأليفه بتكليف من الخليفة .

قال أبو يوسف : « إن أمير المؤمنين ، أيده الله تعالى ، سألنى أن أضع له كتاباً جامعاً يعمل به فى جباية الخراج ، والعشور ، والصدقات ، والجوالى ، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به ، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته ، والصلاح لأمرهم . وفق الله تعالى أمير المؤمنين ، وسدده وأعانه على ما تولى من ذلك ، وسلمه مما يخاف ويحذر . وطلب أن أبين له ما سألنى عنه مما يريد العمل به ، وأفسره وأشرحه ، وقد فسرت ذلك وشرحته » .

والآراء مختلفة حول تفسير كلمة « الجوالى » التى أشار أبو يوسف إليها آنفاً . فهناك تفسير يذهب إلى أن الجوالى هى اختيار الأحسن من كل شىء ، سواء أكان من الممتلكات أم من الشاء ، الهزيل منها الصغير ، وربما كانت هذه هى وظيفة العامل فى الزكاة . أما التفسير الآخر لكلمة جوالى فيذهب إلى جمع كلمة « جالية » ، وأصلها الجماعة التى تفارق وطنها وتنزل وطناً آخر ، ومنه قيل لأهل الذمة الذين أجلاهم عمر بن الخطاب عن الجزيرة العربية « جالية » ثم نقلت هذه اللفظة إلى الجزية التى أخذت منهم ، ثم استعملت فى كل جزية وإن لم يكن صاحبها جلا عن وطنه . والرأى الثانى أقرب إلى الحقيقة والواقع .

ثم يتوجه أبو يوسف إلى الخليفة الرشيد بالنصيحة والموعظة فيقول : « لا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، فانك إذا فعلت ذلك أضعت . إن الأجل دون الأمل ، فبادر الأجل بالعمل ، فانه لا عمل بعد الأجل . إن الرعاة مؤدون إلى ربهم ما يؤدى الراعى إلى ربه . فأقم الحق

فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار ، فان أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته . ولا تزغ فتزيغ رعيتك ، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب . . . وكن من خشية الله على حذر . . واحذر فإن الحذر بالقلب وليس بلسان، واتق الله دائماً . . . » .

ويمضى أبو يوسف فى نصيحته ، فيذكر الخليفة بالآخرة ويوم الحساب ، ويدلل على نصيحته بآيات قرآنية كريمة ، ثم يقول : « فلا تلق الله غداً وأنت سالك سبيل المعتدين ، فان ديان يوم الدين إنما يدين العباد بأعمالهم ولا يدينهم بمنازلهم » .

ثم يبين أبو يوسف للخليفة أهمية كتابه ، ويطلب منه أن يتمعن فيه حتى يفهمه ، ثم يضعه موضع التنفيذ، حتى لا يقع ظلم على أحد ، وليصلح أمر الرعية ، فيقول : « وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحته لك وبينته ، فتفقهه وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه . فانى قد اجتهدت لك فى ذلك ولم آلك والمسلمين نصحاً ، ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه . وإنى لأرجو — إن عملت بما فيه من البيان — أن يوفر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد ، ويصلح لك رعيتك ، فان صلاحهم باقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم والتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم .وكتبت لك أحاديث حسنة ، فيها ترغيب وتحضيض على ما سألت عنه ، مما تريد العمل به إن شاء الله . فوفقك الله لما يرضيه عنك ، وأصلح بك ، وعلى يديك » .

ويدعم أبو يوسف نصائحه وتحذيراته بكثير من الأحاديث النبوية ، تحث على العدل وعمل الخير وتحقيق صلاح الأمة ، وتستغرق هذه الأحاديث نحو خمس صفحات . ثم يمضى أبو يوسف فى تدعيم أقواله ، فيذكر وصية أبى بكر لخلفه عمر بن الخطاب ، ويتبعها بخطبة لأبى بكر يوصى فيها الناس بتقوى الله ويذكرهم بالموت . ثم يذكر خطبة لعمر بن الخطاب يطلب فيها من الرعية تقوى الله وطاعته . ثم يذكر أبو يوسف وصية عمر لمن يتولى الخلافة بعده والتى جاء فيها : « . . . وأوصيه بأهل الأنصار ، فانهم ردء الإسلام وغيظ العدو وجباة المال ، أن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضىً منهم . . . » . ثم يذكر أبو يوسف كثيراً من خطب عمر ووصاياه لولاته فى الأمصار . ثم تحدث أبو يوسف عن عثمان وبكائه حينما كان يتذكر الجنة والنار ، كما ذكر وصايا على بن أبى طالب لعماله وولاته . ثم تحدث أبو يوسف عن رد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز المظالم ، وكان هذا الخليفة هو الوحيد من بين خلفاء بنى أمية الذى ينال تقدير الخلفاء العباسيين ، مما جعل أبو يوسف يخصه بالحديث من بين الخلفاء الأمويين العديدين .

٢ — ثم يبدأ باب « قسمة الغنائم » . ويوجه أبو يوسف الحديث إلى الرشيد . فيذكر أحكام قسمة الغنائم كما جاءت فى القرآن الكريم ويعدد الآيات القرآنية ، ثم يتحدث عما فعله الرسول فى موقعة بدر وغيرها من الغزوات . ثم يذكر رأى أستاذه أبى حنيفة ويتحدث عن تطبيق هذه القواعد فى الدولة الإسلامية ، فى عهد الخلفاء الراشدين ، وفى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز . ثم ينتهى أبو يوسف إلى إبداء رأيه الخاص فى طريقة قسمة الغنائم .

أما أحكام القرآن الكريم فى قسمة الغنائم ، فيقول أبو يوسف عنها : « أما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من قسمة الغنائم إذا أصيبت من العدو وكيف يقسم ذلك ، فان الله تبارك وتعالى قد أنزل بيان ذلك فى كتابه فقال فيما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم « واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير » . فهذا والله أعلم فيما يصيب المسلمون من عساكر أهل الشرك ، وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع ، فان فى

ذلك الخمس لمن سمى الله عز وجل فى كتابه العزيز ، وأربعة أخماسه بين الجند الذين أصابوا ذلك : من أهل الديوان وغيرهم ، يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم ، سهمان لفرسه ، وسهم له ، وللراجل سهم على ما جاء فى الأحاديث والآثار » :

وبعد أن استعرض أبو يوسف سنة الرسول فى قسمة الغنائم ، وآراء الفقهاء ، وما سار عليه الخلفاء ، أبدى رأيه فقال : « فعلى هذا تقسم الغنيمة فما أصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع وغير ذلك ، وكذلك كل ما أصيب فى المعادن من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص ، فان فى ذلك الخمس — فى أرض العرب كان أو فى أرض العجم — وخمسه الذى يوضع فيه مواضع الصدقات . وفيما يستخرج من البحر من حلية وعنبر والخمس يوضع فى مواضع الغنائم » :

٣ — والباب الثالث هو باب « الفئ والخراج » ، فذكر أبو يوسف أن المقصود بالفئ هو الخراج فى العصر العباسى ، واستشهد أبو يوسف فى ذلك بكثير من الآيات القرآنية الكريمة ، ثم تحدث عن سنة عمر بن الخطاب فى الفئ ، وخاصة بعد فتح بلاد العراق والشام

عرف أبو يوسف الفئ والخراج فقال : « فأما الفئ يا أمير المؤمنين فهو الخراج عندنا ، خراج الأرض ، والله أعلم . لأن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » ، حتى فرغ من هؤلاء ثم قال عز وجل « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » ، ثم قال تعالى « والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . ثم قال تعالى « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » ، فهذا والله أعلم لمن جاء من بعدهم من المؤمنين إلى يوم القيامة » :

وتحدث أبو يوسف عن سياسة عمر بن الخطاب نحو تقسيم أراضى بلاد العراق والشام فقال : « وقد سأل بلال وأصحابه عمر بن الخطاب رضى الله عنه قسمة ما أفاء الله عليهم من العراق والشام ، وقالوا اقسم الأرضين بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العسكر ؟ فأبى عمر ذلك عليهم ، وتلا عليهم هذه الآيات ، وقال : قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم فى هذا الفئ ، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شىء ، ولئن بقيت ليبلغن الراعى بصنعاء نصيبه من هذا الفئ ودمه فى وجهه » :

وأبو يوسف كعادته يبدى رأيه الخاص فى نهاية كل فصل بعد أن يعرض أحكام الدين ، وسنة الرسول ، وسياسة الخلفاء ، فيقول : « والذى رأى عمر رضى الله عنه من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها عندما عرفه الله ما كان فى كتابه من بيان ذلك توفيقاً من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ، لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس فى الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ، ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة والمرتزقة ، والله أعلم بالخير حيث كان » :

٤ — ثم يعقد أبو يوسف فصلا يتحدث فيه عن أرض العراق المعروفة بأرض السواد لما اشتهرت به من خصوبة جعل لونها أسود ، وجعل عنوان هذا الفصل « ما عمل به فى السواد » . ولخص أبو يوسف ما تناوله هذا الفصل فقال : « أما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين

من أمر السواد وما الذى كان أهله عوملوا به فى خراجهم وجزية رءوسهم ، وما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فرضه عليهم فى ذلك . وهل يجرى فى شىء منه صلح ، وما الحكم فى الصلح منه والعنوة » .

وتحدث أبو يوسف عن سياسة عمر بن الخطاب نحو أرض السواد فقال : « وافتتح عمر السواد والأهواز فأشار عليه المسلمون أن يقسم السواد وأهل الأهواز وما افتتح من المدن فقال لهم : فما يكون لمن جاء من المسلمين ؟ فترك الأرض وأهلها ، وضرب عليهم الجزية ، وأخذ الخراج من الأرض » .

وفصل أبو يوسف الحديث عن المحاورات ، والمناظرات التى دارت بين عمر بن الخطاب وكثير من الصحابة حول تقسيم أرض السواد . كما تحدث أبو يوسف عن فتح المسلمين للأراضى الفارسية ولقاء المغيرة للقائد الفارسى رستم ، وعدد انتصارات المسلمين على الفرس فى كثير من المواقع الحربية ، وخاصة موقعتى القادسية ونهاوند .

وكان بلال بن رباح وعبد الرحمن بن عوف يريدان تقسيم السواد ، بينما رأى عمر وعلى وطلحة غير ذلك . قال عمر : « فكيف أقسمه لكم ، وأدع من يأتى بغير قسم ؟ فأجمع على تركه وجمع خراجه وإقراره فى أيدى أهله ووضع الخراج على أرضيهم والجزية على رؤسهم » .

وأشار أبو يوسف عما انتهجه عمر بعد أن قرر عدم تقسيم السواد ، فقد « مسح السواد فبلغ ستة وثلاثين ألف ألف جريب ، وأنه وضع على جريب الزرع درهماً وقفيزاً ، وعلى الكرم عشرة دراهم ، وعلى الرطبة خمسة دراهم ، وعلى الرجل اثنى عشر درهما ، وأربعة وعشرين درهماً ، وثمانية وأربعين درهماً » .

وتحدث أبو يوسف عن تطبيق سياسة عمر ، فقد ولى عمر عثمان بن حنيف مساحة الأراضى ، وجعل أجره على ذلك ربع شاة يومياً . وقام عثمان بمسح الأرض ، وجعل على جريب العنب عشرة دراهم ، وعلى جريب النخل ثمانية دراهم ، وعلى جريب القصب ستة دراهم ، وعلى جريب الحنطة أربعة دراهم ، وعلى جريب الشعير درهمين ، اثنى عشر درهماً . كما فرض الجزية على أهل الذمة ، فكان الموسر منهم يدفع ثمانية وأربعين درهماً ، ويدفع متوسط الحال أربعة وعشرين درهماً ، ويدفع الفقير اثنى عشر درهماً ، مع إعفاء النساء والصبيان .

وقد ولى عمر بن الخطاب حذيفة على بعض أراضى السواد ، واستدعاه يوماً هو وعثمان بن حنيف ، وقال لهما : لعلكما حملتما الأرض ما لا تطيق . فقال عثمان : حملت الأرض أمراً هى له مطيقة ولو شئت لأضعفت أرضى . وقال حذيفة : وضعت عليها أمراً هى له محتملة ، وما فيها كثير فضل . فقال عمر لهما : انظرا لا تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق ، أما لئن بقيت لأرامل أهل العراق لأدعهن لا يحتجن إلى أحد بعدى .

وقبل وفاة عمر أوصى بأهل الذمة « أن يوفى لهم بعدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من ورائهم » .

٥ — وانتقل أبو يوسف من بلاد العراق إلى بلاد الشام والجزيرة ، فخصص فصلا جعل عنوانه « فصل فى أرض الشام والجزيرة » تحدث فيه عن شروط الصلح الذى عقده المسلمون مع أهل هذه البلاد ، وذكر أبو يوسف مصدره الذى استمد منه معلوماته ، وهو شيخ من أهل الحيرة ، وهى الإمارة العربية التى قامت على مشارف الشام قبل الإسلام .

فقال أبو يوسف : « وأما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من أمر الشام والجزيرة وفتوحهما ، وما كان جرى عليه الصلح فيما صولح عليه أهله منهما ، فانى كتبت إلى شيخ من أهل الحيرة له علم بأمر الجزيرة والشام فى فتحهما أسأله عن ذلك » . ثم نقل أبو يوسف رسالة هذا الشيخ ، وهى رسالة مطولة تستعرض تاريخ إقليم الجزيرة قبل الإسلام ، وسكانه وحدوده ، ثم

تحدث عن رسالته عن الجيوش الإسلامية وقوادها وفتوحاتها ومعاهدات الصلح المختلفة التى وقعها قواد المسلمين مع أهالى هذه البلاد ، وقد اختلفت هذه المعاهدات فى نصوصها وشروطها :

٦ — عقد أبو يوسف فصلا بعنوان « كيف كان فرض عمر لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم » ، بدأه بأن تحدث عن سنة الرسول حينما جاءه مال البحرين ، فقد أعطى كل رجل ما كان قد وعده به ، ثم قسم بقية المال « بالسوية على الصغير والكبير ، والحر والمملوك ، والذكر والأنثى » : ثم تحدث أبو يوسف عن سياسة أبى بكر ، فقد قسم المال فساوى بين الناس جميعاً ، واعترض البعض على هذه السياسة وقالوا إن بين الناس « أناس لهم فضل وسوابق وقدم » ، فأجاب أبو بكر : « أما ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل فما أعرفنى بذلك ، وإنما ذلك شىء ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة » . أما عمر بن الخطاب فقد رسم سياسته فقال : « لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه » ، ولذا فضل السابقين فى الإسلام وقدماء المهاجرين والأنصار ممن شهدوا موقعة بدر « وفرض لمن كان له إسلام كاسلام أهل بدر دون ذلك ، أنزلهم على قدر منازلهم من السوابق » :

وحاول البعض تملق عمر بن الخطاب فقالوا له : ابدأ بنفسك . ولكن عمر كان عادلا ، فرفض رأيهم « فبدأ بالأقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففرض للعباس ثم لعلى رضى الله تعالى عنهما ، حتى والى بين خمس قبائل حتى انتهى إلى بنى عدى بن كعب»

٧ — رأينا أبا يوسف وقد أفرد فصلا بعنوان « ما عمل به فى السواد » أى أنه تحدث عن الماضى ، ثم نراه يعقد فصلا آخر بعنوان « ما ينبغى أن يعمل به فى السواد » ، فقد رأى وجوب تغيير السياسة القديمة المتبعة ، تبعاً لسنة التطور وتغير ظروف الزمان والمكان.

وأراد أبو يوسف أن يدعم رأيه واقتراحاته ، فذكر أنه وصل إلى هذه الآراء بعد بحث ودراسة واستشارة المتخصصين فى مسائل الخراج .

قال أبو يوسف : « نظرت فى خراج السواد وفى الوجوه التى يجبى عليها ، وجمعت فى ذلك أهل العلم بالخراج وغيرهم وناظرتهم فيه ، فكل قد قال فيه بما لا يحل العمل به ، فناظرتهم فيما كان وظف عليهم فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى خراج الأرض واحتمال أرضهم إذ ذاك لتلك الوظيفة » .

ثم قارن أبو يوسف بين الظروف التى تمت فيها نظم عمر بن الخطاب ، وظروف العصر الذى يعيش أبو يوسف فيه ، فقال : « فذكروا — أى أهل العلم الذين ناظرهم — أن العامر كان من الأرضين فى ذلك الزمان كثيراً وأن المعطل كان يسيراً ، ووصفوا كثرة العامر الذى لا يعمل وقلة العامر الذى يعمل وقالوا لو أخذنا بمثل ذلك الخراج الذى كان حتى يلزم للعامر المعطل مثل ما يلزم للعامر المعتمل ثم نقوم بعمارة ما هو الساعة غامر ولا نحدثه لضعفنا عن أداء خراج ما لم يعمله وقلة ذات أيدينا » .

وتحدث أبو يوسف عن مشكلة الغلاء وارتفاع الأسعار أو انخفاضها ، وعلاقة ذلك بنظرية العرض والطلب ، فقال : « والرخص والغلاء بيد الله تعالى لا يقومان على أمر واحد . وكذلك وظيفة الدراهم مع أشياء كثيرة تدخل فى ذلك تفسيرها يطول ، وليس للرخص والغلاء حد يعرف ولا يقام عليه إنما هو أمر من السماء لا يدرى كيف هو . وليس الرخص من كثرة الطعام ولا غلاؤه من قلته ، إنما ذلك أمر الله وقضاؤه ، وقد يكون الطعام كثيراً وغالياً ، وقد يكون قليلا ورخيصاً » .

٨ — ثم عقد أبو يوسف فصلا عن القطائع ، فقال « فأما القطائع من أرض العراق فككل ما كان لكسرى ومرازبته وأهل بيته مما لم يكن فى يد أحد » . كما تحدث

عن الصوافى فقال عنها : « وهى التى يقال لها صوافى الأثمار ، وذلك أنه – أى عمر بن الخطاب – كان أصفى كل أرض كانت لكسرى أو لأهله أو لرجل قتل فى الحرب أو لحق بأرض الحرب أو مفيض ماء أو دير بريد » . ثم شرح أبو يوسف وضع هذه الصوافى والسياسة الواجب اتباعها فيها : « وذلك بمنزلة المال الذى لم يكن لأحد ولا فى يد وارث ، فللإمام العادل أن يجيز منه ويعطى من كان له غناء فى الإسلام ويضع ذلك موضعه ولا يحابى به . . . وإنما صارت القطائع يؤخذ منها العشر لأنها بمنزلة الصدقة ، وإنما ذلك إلى الإمام إن رأى أن يصير عليها عشراً فعل ، وإن رأى أن يصير عليها عشرين فعل ، وإن رأى أن يصيرها خراجاً – إذا كانت تشرب من أنهار الخراج – فعل ذلك موسعاً عليه فى أرض العراق خاصة ، وإنما يؤخذ منها العشر لما يلزم صاحب الإقطاع من المؤنة فى حفر الأنهار وبناء البيوت وعمل الأرض ، وفى هذا مؤنة عظيمة عـــلى صاحب الاقطاع ، فمن ثم صار عليه العشر لما يلزم من المؤنة . والأمر فى ذلك إليك – أى إلى هارون الرشيد – وما رأيت أنه أصلح فاعمل به إن شاء الله » .

٩ – ثم عقد أبو يوسف فصولا صغيرة ، تحدث فى أولها عن أراضى الحجاز واليمن والأراضى العربية التى افتتحها الرسول ، ورأى أبو يوسف أنه « لا يزاد عليها ولا ينقص منها لأنه شىء قد جرى عليه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكمه » . ثم عقد فصلا عن أرض البصرة وخراسان فقال : « فانهما عندى بمنزلة السواد وأما ما افتتح من ذلك عنوة فهو أرض خراج وما صولح عليه أهله فعلى ما صولحوا عليه ولا يزاد عليهم ، وما أسلم عليه أهله فهو عشر » . ثم جعل أبو يوسف فصلا بعنوان « فصل فى إسلام قوم من أهل الحرب وأهل البادية على أرضهم وأموالهم » ، وأبدى أبو يوسف رأيه فى السياسة الواجب اتباعها نحوهم فقال : « فان دماءهم حرام ، وما أسلموا عليه من أموالهم فلهم ، وكذلك أرضهم لهم وهى أرض عشر » .

ثم يعقد أبو يوسف فصلا عن « موات الأرض فى الصلح والعنوة وغيرهما ، ويبدى أبو يوسف رأيه فى الأرض الموات فيقول : « فاذا لم يكن فى هـــذه الأرضين أثر بناء ولا زرع ولم تكن فيئاً لأهل القرية ولا مسرحاً ولا موضع مقبرة ولا موضع محتطبهم ولا موضع مرعى دوابهم وأغنامهم ، وليست بملك لأحد ولا فى يد أحد ، فهى موات ، فمن أحياها أو أحيا منها شيئاً فهى له . ولك – أى للرشيد – أن تقطع ذلك من أحببت ورأيت ، وتؤاجره وتعمل فيه بما ترى أنه صلاح ، وكل من أحيا أرضاً مواتاً فهى له » .

ويخصص أبو يوسف فصلا صغيراً بعنوان « الحكم فى المرتدين إذا حاربوا ومنعوا الدار » فقال أبو يوسف عن الحكم فيهم : « ولو أن المرتدين منعوا الدار وحاربوا سبى نساؤهم وذراريهم وأجبروا على الإسلام» ثم تحدث أبو يوسف عن الخراج الذى يفرض على ما يخرج من البحر ، فقال : « وسألت يا أمير المؤمنين عما يخرج من البحر من حلية وعنبر ، فان فيما يخرج من البحر من الحلية والعنبر الخمس ، فأما غيرها فلا شىء فيه » . وخالف أبو يوسف فى ذلك أبا حنيفة وابن أبى ليلى فقد اعتبرا كل ما يخرج من البحر بمنزلة السمك ، واعتمد أبو يوسف فى رأيه على رأى عمر وعبدالله بن عباس . ثم تحدث أبو يوسف عن الخراج الذى يفرض على العسل والجوز واللوز فقال : « وأما العسل والجوز واللوز وأشباه ذلك فان فى العسل العشر إذا كان فى أرض العشر ، وإذا كان فى أرض الخراج فليس فيه شىء ، وإذا كان فى المفاوز والجبال على الأشجار أو فى الكهوف فلا شىء فيه ، وهو بمنزلة الثمار تكون فى الجبال والأودية لا خراج عليها ولا عشر »

وعقد أبو يوسف فصلا صغيراً بعنوان « قصة نجران وأهلها » ، وقد كانت مدينة نجران قبل الإسلام

مركزاً للجالية المسيحية فى بلاد اليمن . وتحدث أبو يوسف عن سنة الرسول ، والسياسة التى اتبعها أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، ويرى أبو يوسف أن يعامل أهل نجران معاملة أهل الذمة فيدفعوا الجزية « ولو اشترى نجرانى أرضاً من أرض الخراج كان عليه فيها الخراج » .

١٠ — خصص أبو يوسف فصلاً عن « الصدقات » ويرى أبو يوسف أن يتبع الولاة سنة الرسول ثم سياسة الخلفاء ، فقال : « وسألت يا أمير المؤمنين عما يجب فيه الصدقة فى الإبل والبقر والغنم والخيل ، وكيف ينبغى أن يعامل من وجب عليه شىء من الصدقة فى كل صنف من هذه الأصناف ؟ فمر يا أمير المؤمنين العاملين عليها بأخذ الحق وإعطائه من وجب له وعليه العمل فى ذلك بما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الخلفاء من بعده ، واعلم أنه من سن سنة حسنة كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينتقص من أجورهم شىء ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شىء » .

ويشير أبو يوسف إلى حديث الرسول : « تجاوزت لكم عن صدقة الخيل والرقيق » . ويقول أبو يوسف « فأما الإبل العوامل والبقر العوامل فليس فيها صدقة ... ولا تؤخذ الصدقة من الإبل والبقر حتى يحول عليها الحول ... والمعز والضأن فى الصدقة سواء » .

ثم يختم أبو يوسف حديثه عن الصدقات فيقول : « لا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر منع الصدقة ولا إخراجها من ملكه إلى ملك جماعة غيره ليفرقها بذلك فتبطل الصدقة عنها بأن يصير لكل واحد منهم من الإبل والبقر والغنم ما لا يجب فيه الصدقة ولا يحتال فى إبطال الصدقة بوجه ولا سبب » .

١١ — يتحدث أبو يوسف عن عدة مواضيع متنوعة ، يبدأها بالحديث عن (بيع السمك فى الآجام) ويقول : « فلا يجوز بيع السمك فى الماء لأنه غرر وهو الذى يصيده ، فانه كان يؤخذ باليد من غير أن يصاد فلا بأس ببيعه » . ثم تحدث عن « إجارة الأرض البيضاء وذات النخل » فقال : « فان أصحابنا من أهل الحجاز وأهل المدينة على كراهة ذلك وإفساده ، ويقولون الأرض البيضاء مخالفة للنخل والشجر ولا يرون بأساً بالمساقاة فى النخل والشجر بالثلث والربع وأقل وأكثر ، وأما أصحابنا من أهل الكوفة فاختلفوا فى ذلك ، فمن أجاز المساقاة فى النخل والشجر منهم أجاز المزارعة فى الأرض البيضاء بالنصف والثلث ... » . ثم يبدى أبو يوسف رأيه الخاص فيقول : « أن ذلك كله جائز مستقيم صحيح ، وهو عندى بمنزلة مال المضاربة قد يدفع الرجل إلى الرجل المال مضاربة بالنصف والثلث فيجوز هذا وهذا مجهول لا يعلم ما مبلغ ربحه ليس فيه اختلاف بين العلماء » .

ثم تحدث أبو يوسف عن « الجزائر فى دجلة والفرات » واعتبرها بمنزلة الأرض الموات فمن أحياها فهى له ، بشرط عدم الإضرار بالآخرين . ثم تحدث عن « القنى والآبار والأنهار والشرب » فقال : « وكل نهر له منفعة أكثر فلا ينبغى للإمام أن يهدمه ولا يتعرض له ، وكل نهر مضرته أكثر من منفعته فعلى الإمام أن يهدمه ويطمه ويسويه بالأرض إلا ما كان للشفة » .

كما قال « وكل من كانت له عين أو بئر أو قناة فليس له أن يمنع ابن السبيل من أن يشرب منها ويسقى دابته وبعيره وغنمه منها ، وليس له أن يبيع من ذلك شيئاً للشفة ... وله أن يمنع السقى للأرض والزرع والنخل والشجر ... ولا بأس ببيع الماء إذا كان فى الأوعية » .

ثم تحدث أبو يوسف عن « الكلأ والمروج » فقال : « ولو أن أهل قرية لهم مروج يرعون فيها ويحتطبون منها قد عرف أنها لهم ، فهى لهم على حالها يتبايعونها ويتوارثونها ويحدثون فيها ما يحدث الرجل فى ملكه ، وليس لهم أن يمنعوا الكلأ ولا الماء ، ولأصحاب المواشى أن يرعوا فى تلك المروج ويستقوا من تلك المياه ... وليس لأحد أن يحدث مرجاً فى ملك غيره ، ولا يتخذ

فيه نهراً ولا بئراً ولا مزرعة إلا باذن صاحبه ، ولصاحبه أن يحدث ذلك كله » .

١٢ – عقد أبو يوسف فصلا عن « شأن نصارى بنى تغلب وسائر أهل الذمة وما يعاملون به » . فقال إن بنى تغلب ضوعف عليهم الصدقة فى أموالهم وأسقطت الجزية عن رؤوسهم وحدد أبو يوسف من تجب عليه دفع الجزية ومقدارها فقال : « الجزية واجبة على جميع أهل الذمة ممن فى السواد وغيرهم من أهل الحيرة وسائر البلدان من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة ، ما خلا نصارى بنى تغلب وأهل نجران خاصة ، وإنما تجب الجزية على الرجال منهم دون النساء والصبيان . وعلى الموسر ثمانية وأربعون درهماً ، وعلى الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المحتاج الحراث العامل بيده اثنا عشر درهماً ، يؤخذ ذلك منهم فى كل سنة ، وإن جاءوا بعرض قبل منهم ، مثل الدواب والمتاع وغير ذلك . ويؤخذ منهم بالقيمة ولا يؤخذ منهم فى الجزية ميتة ولا خنزير ولا خمر » . ثم تحدث أبو يوسف عن لباس أهل الذمة وزيهم فقال : « لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين فى لباسه ولا فى مركبه ولا فى هيئته » واعتمد أبو يوسف فى تفسير ذلك على قول عمر بن الخطاب : « حتى يعرف زيهم من زى المسلمين » .

ويرى أبو يوسف أن تؤخذ الجزية من المجوس والصابئة والسامرة على ألا يأكل المسلمون من ذبائحهم ولا يتزاوجون معهم . وكان الرسول قد صالح مجوس أهل هجر « على أن يأخذ منهم الجزية ، غير مستحل مناكحة نسائهم ولا أكل ذبائحهم » .

١٣ – عقد أبو يوسف فصلا عن « العشور » ، وقد حددها فقال : « يؤخذ من المسلمين ربع العشر ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر ، من كل ما مر به على العاشر وكان للتجارة ، وبلغ قيمة ذلك مائتى درهم فصاعداً أخذ منه العشر ، وإن كانت قيمة ذلك أقل من مائتى درهم لم يؤخذ منه شىء . . . وما لم يكن من مال التجارة ومروا به على العاشر فليس يؤخذ منه شىء » . ثم تحدث أبو يوسف عن سياسة عمر فى العشور وأبدى رأيه الخاص فقال : « فان عمر بن الخطاب وضع العشور فلا بأس بأخذها إذا لم يتعد فيها على الناس ، ويؤخذ بأكثر مما يجب عليهم . وكل ما أخذ من المسلمين من العشور فسبيله سبيل الصدقة وسبيل ما يؤخذ من أهل الذمة جميعاً وأهل الحرب سبيل الخراج ، وكذلك ما يؤخذ من أهل الذمة جميعاً من جزية رءوسهم وما يؤخذ من مواشى بنى تغلب فان سبيل ذلك كله سبيل الخراج ، يقسم فيما يقسم فيه الخراج . وليس هو كالصدقة ، قد حكم الله فى الصدقة حكماً قد قسمها عليه فهى على ذلك ، وحكم فى الخمس حكماً فهو على ذلك . فتلك الوجوه التى عليها الصدقات فى المواشى والأموال . وعلى هذا العمل عندنا والله أعلم » .

١٤ – ثم عقد أبو يوسف فصلا عن « الكنائس والبيع والصلبان » فرأى أن يبقى لأهل الذمة كنائسهم لأنه « كان الصلح جرى بين المسلمين وأهل الذمة فى أداء الجزية ، وفتحت المدن على أن لا تهدم بيعهم ولا كنائسهم » . ثم عقد أبو يوسف فصلا « فى أهل الدعارة والتلصص والجنايات وما يجب فيه من الحدود » ورسم أبو يوسف للخليفة السياسة الواجب السير عليها فقال : « لا بد لمن كان فى مثل حالهم إذا لم يكن له شىء يأكل منه لا مال ولا وجه شىء يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة أو من بيت المال ، من أى الوجهين فعلت فذلك موسع عليك ، وأحب إلى أن تجرى من بيت المال على كل واحد منهم ما يقويه » . ثم تحدث أبو يوسف عن « الحكم فى المرتد عن الإسلام » ، فقال : « وأما المرتد عن الإسلام إلى الكفر فقد اختلفوا فيه ، فمنهم من رأى استتابته ومنهم من لم ير ذلك » ،

وعرض أبو يوسف كثيراً من آراء الفقهاء ثم أبدى رأيه وسنده فى الرأى ، فقال : « وأحسن ما سمعنا فى ذلك والله أعلم أن يستتابوا ، فان تابوا وإلا ضربت أعناقهم على ما جاء من الأحاديث المشهورة ، وما كان عليه من أدركناه من الفقهاء » .

١٥ ـ تحدث أبو يوسف فى ختام كتابه عن عدة مواضيع منوعة فى فصول صغيرة ، أولها عن مصدر المرتبات التى يدفعها الخليفة لقضاته وعماله ، فقال إنها تدفع من بيت مال المسلمين من جباية الأرض والجزية ، وليس من مال الصدقة . ثم تحدث أبو يوسف « فيمن مر بمسالح الإسلام من أهل الحرب وما يؤخذ من الجواسيس » فقال : « فان كان هذا الرجل الحربى إذا مر بمسلحة مر ممتنعاً منهم لم يصدق ولم يقبل قوله ، وإن لم يكن ممتنعاً منهم صدق وقبل قوله ، فان قال أنا رسول الملك بعثنى إلى ملك العرب ، وهذا كتابه معى ، وما معى من الدواب والمتاع والرقيق فهذه إليه ، فانه يصدق ويقبل قوله إذا كان أمراً معروفاً . . وإن قال هذا الحربى المأخوذ إنما خرجت من بلادى وجئت مسلماً فان هذا لا يصدق وهو فئ للمسلمين إن لم يسلم ، والمسلمون فيه بالخيار إن شاءوا قتلوه وإن شاءوا استرقوه » .

ثم تحدث أبو يوسف عن « قتال أهل الشرك وأهل البغى وكيف يدعون » فقال : « لم يقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً قط فيما بلغنا حتى يدعوهم إلى الله ورسوله » . وتحدث أبو يوسف عن الإغارات على بلاد المشركين ، وطريقة توزيع الغنائم التى يغنمها المسلمون منهم ، وتحدث عن سياسة الرسول حين فتح مكة ، وشروط الهدنة أو الصلح ، وأبرز شروط صلح الحديبية الذى عقده الرسول مع أهل مكة ، كما تحدث أبو يوسف عن السياسة التى انتهجها على بن أبى طالب حين قاتل خصومه السياسيين من المسلمين فقال : « إنه لم يقاتل قوماً قط من أهل القبلة فمن خالفه حتى يدعوهم ، وإنه لم يتعرض بعد قتالهم وظهوره عليهم لشىء من مواريثهم ولا لنسائهم ولا لذراريهم ، ولم يقتل منهم أسيراً ، ولم يذفف منهم على جريح ، ولم يتبع منهم مدبراً » . ثم تحدث أبو يوسف عن أهل البغى فقال : « ولا يصلى على قتلى أهل البغى ، ويورث قاتلهم من أهل العدل من مواريثهم مثل ما يورث نظراؤه ممن لم يقتل من قبل أن القاتل قتله على حق ، ولا يورث الباغى إذا قتل من أهل العدل أحداً ميراثاً منه إن كان قتله بيده لأنه قتله بباطل » . وكان هذا هو ختام المواضيع التى تحدث عنها أبو يوسف فى كتابه الخالد «الخراج» .



الجماعة والمجتمع لفرديناند تونيز

بقلم
الدكتور السيد محمد بدوى
أستاذ الاجتماع بجامعة الاسكندرية

يعتبر فردناند تونيز ، فى محيط الدراسات الاجتماعية فى ألمانيا رائداً وأستاذاً . إذ نجد الأسس الجوهرية لنظريته عند الغالبية العظمى من علماء الألمان المحدثين . كما أن هـــذه النظرية أصبحت تدرس وتناقش فى كثير من جامعات العالم ، وعلى الأخص فى هولندا وبلجيكا ، والولايات المتحدة ، واليابان . وفى ألمانيا ذاتها تغلغل تأثير الكتاب الذى نستعرضه فى هذا البحث وهو « الجماعة والمجتمع » ، فى نفوس الجماهير إلى درجة جعلت بعض الحركات السياسية الشعبية تتخذ منه مادة أساسية لبرامجها وخططها التقدمية :

حياته :

ولد تونيز فى ٢٦ يوليو ١٨٥٥ فى « كير شبيل أولدنزڤورت » Kirchspiel Oldenswort بمقاطعة « شلزونج Schleswig » . وعندما بدأ فى عام ١٨٧٢ ، دراســته العليا فى الفلسفة فى جامعـــة ستراسبورج لم يكن فى ألمانيا علم اجتماع بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة . فلم يظهر هناك إلا فى أوائل القرن العشرين حيث بدأ تدريسه فى الجامعات الألمانية منذ عام ١٩١٢ . ولذا فلم يكد أحد يتوقع — قياساً على الدراسات التى تلقاها — أن يصبح «تونيز» يوماً ما عالم اجتماع ؛ إذ أنه أثناء دراسته كان يجد ميلاً خاصاً لآراء « سبينوزا » و « نيتشه » ، ثم تأثر بعد ذلك بفلسفة « كانت » و « شوبنهور » و « أفلاطون» و « أرسطو » .

وفى عام ١٨٧٦ تعرف فى برلين على « پاولزن Paulsen » وهو فيلسوف أخلاقى كان له أثر كبير فى تشكيل آرائه . فمن صحبته اقتبس الفكرة التى تقول بأهمية علم النفس كأساس لكل دراسة تتخذ الإنسان موضوعا لها وسنجد بعد ذلك فى آرائه أن الطبيعة الإنسانية يجب أن ينظر لها أولا من زاوية « الإرادة » « كما نجد أثر « پاوازن » فى معـــالجته للمسائل الأخلاقية ، ومحاولته ربطها بالنشاط الحيوى وبنمو الاستعدادات الشخصية للفرد سواء أكانت موروثة أم مكتسبة .

غير أن ما يهمنا فى هذا المجال ، بصفة خاصة هو توجيه « پاولزن » لتونيز نحو الفلسفة الاجتماعية ، فقد عين له الطريق التى يسلكها فى أبحاثه حين نصحه بدراسة « هوبز » و « آدم شميث» و «كارل ماركس»

و « رودبرتوس » و « هيــوم » و « سبنسر » و « أوجست كونت » . واهتم تونيز بهذه الدراسات اهتماماً جعله يحدد طريقه نحو البحوث الاجتماعية عندما أتم دراسته العليا فى عام ١٨٧٧ .

ويمكن أن نميز فى حياة « تونيز » العلمية مرحلتين أساسيتين . وتمتد المرحلة الأولى من عام ١٨٨١ إلى ١٩١٢ ، ويتخللها عدد من مرات الفشل . فقد بدأ « تونيز » بالتدريس عام ١٨٨١ فى جامعة « كيل » ، وفى عام ١٨٨٣ لم يكن يستمع إلى دروسه إلا طالب واحد . وحينئذ ترك التدريس وسافر إلى لندن حيث أقام فيها خــلال عام ١٨٨٤ ، وانتهز هــذه الفرصة لتتعمق فى دراسة « هوبز » و « سبنسر » . وعندما عاد إلى ألمانيا فى عام ١٨٨٥ استأنف تدريسه بالجامعة ومنى مرة أخرى بالفشل . وفى عام ١٨٨٧ اعتكف فى مكان منعزل وأخرج فى العام نفسه مؤلفه الرئيسى « الجماعة والمجتمع Gemeinschaft und Gesellschaft » . ولم يصادف الكتاب فى بادىء الأمر ، من النجاح أكثر مما صادفته محاضراته فى الجامعــة ، بالرغم من أنه يتضمن الأفكار الرئيسية لنظريته الاجتماعية .

وزاده تخففه من أعباء التدريس إمعاناً فى البحث والتأليف . وخصصت له إحدى المجلات العلمية باباً يعرض فيه بانتظام آراءه حول الكتب والبحوث التى تظهر فى ميدان علم الاجتماع . ومكنت له اتصالاته بمجالات هذه الدراسة فى البلاد الأجنبية من أن يصبح عضواً فى « المجمع الدولى لعلم الاجتماع بباريس » عام ١٨٩٤ . وفى عام ١٨٩٨ حصل بدراسته عن « المصطلحات » الفلسفية من وجهة النظر النفسية الاجتماعية [١] » على جائزة « ولبى Welby » ولكن هذه الدراسة لم تنشر إلا فى عام ١٩٠٦ .

وقام تونيز برحلة إلى الولايات المتحدة حيث اشترك فى عام ١٩٠٢ فى أعمال « مؤتمر الفنون والعلوم » ونشر مجموعة من البحوث الاجتماعية نذكر منها : « نمو المسألة الاجتماعية » (١٩٠٧) . والعادة Die Sitte (١٩٠٨) . ثم ذاعت شهرته بعد المحاضرات والبحوث التى ألقاها فى « المؤتمر الدولى للفلسفة » فى هيدلبرج .

وهكذا نرى كيف أخذ تونيز يشق طريقه خطوة فخطوة نحو النجاح . وهنا نقف برهة لنذكر أن فشله فى المرحلة الأولى من حياته العلمية كان يرجع لسببين يعتبر الثانى منهما نتيجة للأول : أما السبب الأول فهو نظر الحكومة البروسية إليه بعين الشك والريبة . فمنذ أن نشر كتابه « الجماعة والمجتمع » اعتبره أقطاب السياسة البروسية أحد أتباع ماركس ، واعتبروا نظريته مظهراً من مظاهر الفكر الاشتراكى ولم يفهم هؤلاء السياسيون. بل بتعبير أصح لم يحاولوا أن يفهموا أن هذا الكتاب يعالج نظرية اجتماعية من الناحية العلمية المحضة . وكان عذرهم فى عدم الفهم أن علم الاجتماع لم يكن يدرس بعد فى الجامعات الألمانية . أما السبب الثانى للفشل الذى صادفه تونيز فى هذه المرحلة ، فهو مرتبط بالأول ارتباطاً وثيقاً . ذلك أن جامعات ألمانيا لم تكن تهتم فى ذلك الحين إلا بالعلوم السياسية بوصفها أداة لسيطرة البروسية . وكانت المدرسة التاريخية ، والفلسفة الهيجلية تقف موقف العداء من كل محاولة لإنشاء نظرية اجتماعية علمية . وبمؤازرة الحكومة البروسية استطاع علم السياسة أن تكون له الغلبة على الدراسات الاجتماعية الأخرى .

بل إن العلوم الاجتماعية نفسها كانت تقف أحياناً عقبة فى سبيل ظهور علم الاجتماع العلمى . إذ كانت تستوحى آراءها من نظريات كونت وآدم سميث وسبنسر . فأدى ذلك إلى تشعب اتجاهاتها وعدم استطاعتها التزام منهج دقيق وتحديد مجالات البحث . فلم يكن من الغريب ، فى مثل هذه الظروف ، أن

---

(١) Philosophische Terminologie in Psychologisch-Soziologischer ansicht. Berlin, K. Curtius, 1906.

يصادف كتاب « الجماعة والمجتمع » عدم الاكتراث فى بادىء الأمر . إذ أن هذا الكتاب قد أخذ على عاتقه وضع أسس النظرية الاجتماعية فى صورتها التحليلية الصرفة ، وكان علماء أواخر القرن التاسع عشر فى شغل شاغل عن الاهتمام بمثل هذه الدراسة التحليلية ؛ ولذلك لم يجد الكتاب من يهتم به ويقدره حق قدره إلا منذ عام ١٩١٢ .

ومنذ هذا التاريخ تبدأ المرحلة الثانية من حياة تونيز العلمية ، وهى مرحلة تتميز بالخصب والنجاح المتواصل . فأعيد فى السنة نفسها طبع كتاب « الجماعة والمجتمع » بعد أن بدأ المفكرون ، فى المحيط العلمى ، يكتشفون مراميه الحقيقية وما احتواه من أسس نظرية عميقة . وفى عام ١٩١٣ عين أستاذاً ولكنه اضطر لتدريس الاقتصاد من ناحيتيه النظرية والعملية. إذ بالرغم مما ظهر من أبحاثه وأبحاث زميله « زيميل Simmel » — الذى نشر فى عام ١٩٠٨ أبحاثه فى أشكال المجتمع — فلم يكن قد أنشىء بعد كرسى لعلم الاجتماع فى الجامعات الألمانية . غير أن الدراسات والأبحاث الاجتماعية أخذت تتكون وتنتشر فى المحيط الهامشى للجامعة . فتأسست فى عام ١٩٠٩ « الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع » وانتخب « تونيز » رئيساً لها .

وفى عام ١٩١٦ أوقف « تونيز » محاضراته مرة أخرى ليتفرغ تفرغاً تاماً لأبحاثه ، ثم عاد إلى التدريس فى عام ١٩٢١ ، وأصبح ما يشغله منذ ذلك الحين هو تحقيق هدفه الرئيسى ؛ ونعنى به إرساء قواعد علم الاجتماع العلمى فى ألمانيا .

وفى خلال سنوات الحرب أسهم فى كتابة عدة مقالات ذات طابع سياسى . نذكر منها : « القيصرية وحلفاؤها » (١٩١٤) — « مكان ألمانيا تحت الشمس » (١٩١٥) — « السياسة العالمية الانجليزية من وجهة نظر انجلترا » (١٩١٥) — « الدولة الإنجليزية والدولة الألمانية » (١٩١٧) — « الحرب العالمية وحقوق الشعوب » (١٩١٧) — « مسألة المسئوليات » (١٩١٩) .

ومنذ عام ١٩٢٢ بدأ ظهور عدد من مؤلفاته ذات القيمة السسيولوجية المتفاوتة . فظهر أولا « نقد الرأى العام » [1] ، ويعتبر الجزء الأول من مشروع علمى ضخم ظهر منه الجزء الثانى فى عام ١٩٣٥ بعنوان « روح العصور الحديثة [2] وظل الجزء الأخير دون إكمال . ومن مؤلفات « تونيز » الأخيرة نذكر مؤلفه الهام الذى ظهر فى ثلاثة مجلدات بعنوان «دراسات ومحاولات نقدية فى علم الاجتماع » [3] وهو مجموعة من المقالات والأبحاث مختلفة تلقى ضوءاً ساطعاً على اتجاهات المؤلف وتعين على فهم نظريته الاجتماعية . وفى عام ١٩٤١ نشر « مقدمة فى علم الاجتماع » [4] .

وحظى « تونيز » قبل وفاته بالمجد ، ونعم بمظاهر التكريم الرسمية والشعبية . وكان أكبر انتصار لجهوده أن شهد دخول علم الاجتماع بصفة رسمية فى الجامعات الألمانية . ورأس حتى آخر حياته مؤتمر علم الاجتماع فى ألمانيا . وها هى مؤلفاته ونظرياته تدرس الآن فى كثير من الجامعات الأجنبية .

وإذا تركنا جانباً القيمة العلمية الأصيلة لمؤلفات « تونيز » من الناحية السسيولوجية البحتة ، وجدنا أن من العوامل التى اسهمت فى نجاح آرائه وذيوعها ، أنها صادفت توافقاً مع الروح الاجتماعية التى ولدها فى ألمانيا نمو الصناعة الكبيرة . فنظرية « المجتمع » ، وجدت إلى حد ما صداها فى التعارض بين الطبقة الكادحة ورأس المال ، وهو تعارض تحول إلى صراع حاد منذ عام ١٨٤٠ ، وحددت الحكومة البروسية

---

(١) Kritik der öffentlichen Meinung Springer, Berlin 1922.

(٢) Geist der Neuzit, Hans Buske, Leipzig, 1935.

(٣) Sociologische Studien und Kritiken. Fischer, Iéna, 1929.

(٤) Einführung in die Soziologie, Enke, Stuttgart, 1931.

موقفها منه بمحاربتها للاتجاهات الاشتراكية . وحتى بعد أن خفت حدة هذا الصراع فقد وجد جزء من الشعب الألمانى فى نظريات « تونيز » صدى لآماله ومطامحه . ومما يؤيد ذلك أن « تونيز » نفسه قد أوضح التطبيقات العملية لنظريته ، وعرض بصراحة وشجاعة قضية الطبقات الشعبية ، وانتقد فى نزاهة لا يشوبها الحقد أو الكراهية مساوىء الرأسمالية العالمية .

وكان استقبال الجماهير لنظريته عن « الجماعة Communauté أشد حماسة وقوة ، لأنها وجدت فيها تعبيراً عميقاً عن روح الشعب ومزاجه . وإذا كان « المجتمع » يصور مرحلة التدهور العربى ، فإن «الجماعة» تصور على العكس الحالة الاجتماعية التى يجب الرجوع إليها . ومن هذا التعارض بين الواقعى والمثالى استمدت « حركة الشباب » Die Jugendbewegung القوة التى تغذيها واتسع نطاقها فى جميع أنحاء ألمانيا منذ عام ١٩١٩ . وهكذا نرى أنه إلى جانب القيمة العالمية لآراء « تونيز » فإنها قد أفسحت المجال لتغيرات ومعان أيديولوجية ظل المؤلف يحتج ضدها لأنها لا تتفق مع روح البحث العلمى .

نظريته الاجتماعية

كان أرسطو أول من أوضح فى العصور القديمة أن الحياة الاجتماعية من جوهر الإنسان ، ولخص ذلك فى عبارته المشهورة « الإنسان حيوان سياسى » (أو اجتماعى) . وقد نشر الرواقيون بعد ذلك فكرتهم التى تقول إن الإنسان تتحكم فيه غريزتان أساسيتان . الأولى « أنانية » ، والأخرى « غيرية » . وهاتان الغريزتان تندمجان اندماجاً كلياً فى حياة الإنسان بحيث لا نستطيع أن نفصل أثر إحداهما عن أثر الأخرى . فالإنسان لا يرضى بحياة العزلة حتى ولو تهيأت له جميع أنواع الملذات . وهو حين يحافظ على حياته بدافع من الأنانية يسعى ، فى الوقت نفسه ، للعيش فى المجتمع لأن حياة المجتمع من أهم الوسائل لحفظ النوع .

وقد تعاقبت بعد ذلك النظريات والآراء التى تقول بأن علاقة الإنسان بغيره ، وتأثيره فى الغير أو تأثره به جزء جوهرى من الشخصية الإنسانية ، لا نستطيع إذا أغفلناه أن نفهم الدوافع الأساسية التى تسيطر على نشاط الفرد .

وهناك طائفة من العلماء المحدثين نذكر منها « أوتمار سپان Spann » الألمانى ، و« ألفريد إسپيناس Espinas » الفرنسى ، هؤلاء قد حاولوا تصوير هذه العلاقة على أساس اعتبار المجتمع كائناً عضوياً تتعاون الأعضاء المختلفة فيه (وهم الأفراد) على القيام بأوجه نشاطه . فالفرد إذا نظرنا إليه كعنصر منفصل عن الجسم كله أو عن الكيان الاجتماعى بأكمله ، ظهر لنا بوضوح أنه لا يستطيع أن يكفى نفسه بنفسه . وعلى ذلك فالتأثير المتبادل بين الأفراد ، روحياً كان أم مادياً ، هو المبدأ الخالق الذى تتحقق عن طريقه الشخصية الإنسانية .

والفرق بين « المجتمع الطبيعى » ، و « المجتمع المصطنع » فى نظر « سپان » ، وكذلك فى نظر «تونيز» — كما سنوضحه بعد قليل — يتركز فى أن « المجتمع الطبيعى » أو الجماعة التلقائية تعبر عن وحدة متكاملة ، وتبرز فيها فكرة الاندماج والتعاون التى تتجلى بأجلى معانيها فى الكائن العضوى ، وهذه الوحدة المتكاملة هى الشرط الأساسى لظهور القيم الروحية أو إذا شئت فقل إنها تجعل من المجتمع قوة خالقة .

والإنسان بدون اندماجه فى هذا الكائن لا يكون إلا إنساناً بالقوة . والمجتمع وحده هو الذى يخرج نشاطه من حيز القوة إلى حيز الفعل ، ويحرك الإمكانات الكافية فيه نحو تحقيق نموه الروحى .

أما « إسپيناس » فلم يقتصر على هذه الفكرة ، بل زاد عليها أن الفردية فى جميع مراحلها ليست فى

الواقع إلا درجة من درجات الحياة الاجتماعيــة : فالكائن « الحى » مجتمع من الأعضاء بل إن العضو « مجتمع من الخلايا » فمن غير الطبيعى إذن ألا تنظر إلى الفرد على أنه عضو فى المجتمع الذى يعيش فيه : والحقيقة التركيبية للعناصر التى يتكون منهــا الكائن العضوى ، ليست من طبيعة أخرى تختلف عن الحقيقة التركيبية للأفراد الذين يتكون منهم المجتمع وليس المجتمع نفسه إلا كائناً حياً . وعلى ذلك فالشعور الاجتماعى أو غريزة الاجتماع ليست ؛ فى الواقع ؛ إلا غريزة الحياة نفسها إذ أن الحياة لاتظهر لنا إلا على شكل تجمعات لعدد من العناصر:

وإذا كان « سپان » و « إسپنياس » قد فسرا العلاقات الاجتماعية على أنها تعاون تلقائى يشبه التعاون العضوى الذى يدفع بالكائن الحى إلى النمو والتطور ، فإن « تونيز » على العكس يفسر هذه العلاقات بالرجوع إلى الحركات الإرادية للأفراد أنفسهم : وهو يميز بين شكلين من أشكال الإرادة . الإرادة العضوية « أو إرادة الحياة » (Wesenwille) والإرادة العقلية (Kurwille) .

والإرادة الأولى لاتنفصل من النشاط العملى لأنها تعبر عن الحالة الكاملة لنمو الفرد وتطوره . وهى وثيقة الصلة بنشاط الجسم ولكنها تتضمن كذلك الفكر ، أو على الأقل النشاط الفكرى الذى يهدف إلى تأكيد الكيان العضوى للفرد ، وذلك بمساعدته على التغلب على الصعوبات التى تثيرها أمامه الطبيعة . وهذه الإرادة العضوية تتخذ مظاهر ثلاثة رئيسية .

١ — جلب اللذة وابعاد الألم (وهو المظهر الذى يعبر عن حياة النمو الصرفة (Vie Végétative)

٢ — تكوين العادات النافعة (وهو المظهر الذى يعبر عن الحياة الحيوانية) :

٣ — تنمية الذاكرة للإفادة بما تعيه فى تقدم الإنسان (وهذا المظهر هو حلقة الوصل بين الحياة العضوية والحياة العقلية) .

ويذهب « تونيز » إلى أن هذه الإرادة العضوية هى مصدر الحاسة الخلقية . لأن الخير ليس إلا نوعاً من العقل العملى الغرض منه تحقيق الرفاهية للجنس البشرى :

أما الإرادة العاقلة فإنها تتمثل فى الفكر الخالص ومن الغريب أن يدعى « تونيز » أنها تهدف إلى غرض واحد هو سعادة الفرد دون النظر إلى المجموع .ولذلك فإنها أساس البحث عن مظاهر القوة ، والطمع ، والطموح . ومكانها خارج نطاق الأخلاق لأنها لاتولد إلا روح العداء .

هذا التناقض الذى قد يبدو فى فكرة « تونيز » عن الإرادة العضوية وصلتها بالأخــلاق والإرادة العاقلة وصلتها بالأخلاق ، والإرادة العاقلة وصلتها باللاخلقية ، لا يفسره إلا تذكر مذهب « نيتشة » عن فلسفة القوة . فالإنسان بالغريزة قد يميل إلى الخير (كما قال روسو) . ولكنه بالذكاء والعقل لا يميل إلا للسيطرة والغلبة .

كما أن هذه التفرقة بين نوعين من أنواع الإرادة تذكرنا بما جاء فى فلسفة بسكال من تفرقة بين القلب والعقل ، وبما جاء فى فلسفة برجسون من تفرقة بين الإنسان الصانع homo faber ، والإنسان العاقل homo sapiens .

وقد وجد « تونيز » أن المرأة يغلب عندها النوع الأول من الإرادة (أى الإرادة العضوية) : ولذا فإن نشاطها يتميز بتغلب العاطفة . أما الرجل فيغلب عنده النوع الثانى ، ولذا فهو يحكم العقل غالباً ، ويحسب للأمور حسابها الدقيق .

على أن أهم فكرة استخرجها « تونيز » من هذا التضاد بين نوعى الرياضة هى تقسيم أنواع التجمع

إلى قسمين كبيرين : التجمع الطبيعي أو الجماعة (Gemeinschaft) — Communauté ، والمجتمع السياسى (Gesellschaft) — Société .

فالتجمع الطبيعى أو الجماعة أساسها العلاقات العضوية . وهذه العلاقات العضوية تقوم على عواطف طبيعية وتلقائية ، ولذلك يتولد عنها الوئام وحسن المعاشرة . وهى على أنواع ثلاثة :

علاقات الدم (وتتصل بارادة حياة النمو وحفظ النوع) .

وعلاقات المكان (وتتصل بالحياة الحيوانية) .

وعلاقات الروح (أو العلاقات ذات الطابع المعنوى) وتتصل بارادة الحياة العليا .

ومعنى ذلك أن العلاقات الجماعية التلقائية الأساسية هى : علاقة القرابة ، وعلاقة الجوار ، وعلاقة التعاطف .

والقانون العام الذى يسيطر على التجمع الطبيعى هو فى جوهره قانون الحب .

أما المجتمع السياسى فيقوم ، على العكس ، على علاقات عقلية بين إرادات مفكرة مدبرة . وإذا شئت فقل إنه يقوم على حساب وتدبير للمصالح . والمبدأ الأساسى الذى يسيره هو الموازنة الحسابية بين الوسائل والأغراض . ولذلك تنمو فيه وتنتعش أوجه النشاط النفعى كالتبادل والتجارة والصناعة والتكنولوجيا.

ومعنى ذلك أن العلاقات الاجتماعية Sociétaires تقوم فى أصلها على التبادل ، وهذا التبادل قد يتم بين أفراد ليس بينهم أى صلة فى الدم ، ولا يستبعد أن يكونوا أعداء بالطبيعة جمعت بينهم المصلحة .

قانون التملك وقانون التعاقد

ويستخلص « تونيز » من التقسيم السابق لأنواع التجمع ، تقسيما آخر يقوم على التفرقة بين نوعين من القانون :

(ا) قانون التجمع الطبيعى Droit Communautaire ويتميز بفكرة التملك ووضع اليد . وهذا التملك يبدو فى ثلاثة مظاهر أساسية :

١ — تملك الإنسان : ومن أهم مظاهره سلطة الأب المطلقة على أفراد الجماعة (أو الأسرة الكبيرة) ، وسلطة الزوج المطلقة على نسائه .

٢ — تملك الأشياء : : ويظهر فى الاستحواذ على كل أرض بواسطة من يفلحها .

٣ — التملك الروحى : وأساسه سيطرة العقيدة وتسلطها على عقول الأفراد .

(ب) أما قانون المجتمع السياسى فلا يقوم على العواطف والمشاعر ، بل يعتبر الأفراد وحدات مجردة . وهو لايصاغ فى شكل حكم أو لائحة Statut تصدر من الكبير إلى الصغير ، بل يعبر عن نوع من « التعاقد Contrat » بين الأفراد الذين يتكون منهم المجتمع .

وفكرة الملكية فى المجتمع السياسى لاتتخذ شكل التملك ووضع اليد ، كما كان الحال فى التجمع الطبيعى ؛ بل تصبح الصلة بين المالك وبين ما يملكه صلة قانونية . وامتلاك الأشياء لا يصبح غاية تقصد لذاتها بل وسيلة لتحقيق أغراض أخرى .

ويبدو لنا أن هذا التمييز بين نموذجين للتنظيم التشريعى ، نموذج « اللائحة "Statut" ، ونموذج التعاقد Contrat » قد اعتمد إلى حد كبير على التقسيم المماثل الذى أورده « السير هنرى من Maine » فى كتابه المشهور «القانون القديم . Ancient Law

فقانون اللائحة يمثل القانون الطبيعى للجماعة العضوية ، وتحدده العلاقات وأنواع الترابط القائمة على الإرادات العضوية الفردية . وهو — كما قلنا — فى أشكاله المختلفة يقوم على فكرة « التملك Possession » وهو لا يصدر عن الفرد بوصفه

كائناً مجرداً ، بل يعبر عن الإرادة العضوية لمجموعة من الأفراد المرتبطين ، بعضهم مع بعض ، بروابط طبيعية ، ويكونون جماعات قد يضيق نطاقها أو يتسع يطلق عليهـا « تونيز » اسم « الكائنات الاجتماعية » ، وأبسطها « الكائن الاجتماعي الباطريركي L'être social patriarcal أو الأسرة وقد يتسع نطاق الأسرة فتنبثق عنها جماعات أكثر تركيباً كالجماعات الإقليمية أو الجماعات الدينية. وتتصل بهذه الأشكال الرئيسية الثلاثة للكائنات الاجتماعية ، ثلاثة أشكال من أشكال القانون :

١ – القانون العائلى .
٢ – القانون العرفى .
٣ – القانون الدينى .

هـذا مع ملاحظة أن الدين ، فى الجماعات العضوية ، يدخل فى كل شئ وتتسم به جميع النظم التشريعية ، وهو الذى يوحى بها ويوجهها .

والقانون العائلى هو التعبير الصريح للإرادة العضوية للكائن الباطريركى . وأول مظاهره الاتحاد الطبيعى بين الرجل والمرأة الذى يقوم على الغريزة الجنسية وعلى إرادة التناسل . ويبدو أن الزواج منذ أصوله البعيدة كان خاضعاً لتنظيم صارم محدد . وكان قانون الجماعة يحمى المرأة – وفقاً لشعائر وقواعد خاصة – طالما أنها لا تنتمى إلى رجل ؛ فالعلاقات الجنسية يحوطها سياج من التنظيم والمحرمات الصارمة "Tabous" ؛ والعلاقات الآثمة بين الأقارب L'Inceste ممنوعة لما تجره من شرور وخراب على الجماعة ولكن بمجرد أن يتم الزواج تصبح المرأة ملكاً للرجل :

وتبدو ظاهرة « التملك » أيضاً فى القانون العائلى بالنسبة للأولاد ، وهى هنا مظهر من مظاهر الغريزة الطبيعية التى نجدها أيضاً عند الحيوان ، ونعنى بها غريزة الأمومة . غير أنها عند الإنسان تغدو شعوراً بالالتزام ؛ وهـذا الشعور قد ظهر أولا فى صورة « النظام الأمى Le Matriarcat »حيث ينتمى الطفل إلى أمه ويحمل اسمها ويتبعها من الناحية القانونية . ويحتمل فى رأى « تونيز » أن يكون هذا الشكل البدائى للقانون العائلى قد نتج عن دور المرأة الرئيسى فى الإنسان واستمرار الحياة [1] .

ولم تتـأكد السلطة الأبوية و « النظام الأبوى Le Patriarcat إلا بصورة تدريجية وبعد تغير ظروف حياة الجماعة وتتخذ صورة « التملك » فى هذا النظام ، مظهر القوة بعد أن كانت تقدم على الغريزة الطبيعية عند المرأة . إذ يتمتع الرجل ، الذى يغدو « عاهل الأسرة Pater Familias بسلطان مطلق يعترف به القانون ، ويمتد هذا السلطان لا إلى زوجته أو (زوجاته) فحسب ، بل إلى أبنائه حتى ولو كانوا متزوجين ، وإلى جميع من يظلهم سقف بيته من خدم وأرقاء وموالى وأسرى حرب .

ولم يبق اليوم فى القوانين الحديثة للأحوال الشخصية إلا صوراً باهتة من القانون العائلى القديم مجردة من سماتها العضوية والعاطفية التى كانت تعطيها كل جوهرها فى الماضى .

ويتصل القانون العرفى بالقانون العائلى اتصالا وثيقاً يعبر عن العلاقات الدائمة بين الاشتراك فى المكان والاشتراك فى الدم . فالأسرة لا تستطيع أن تعيش دون ارتباط بالأرض التى تستغلها وما يتصل بهذا الاستغلال من روابط وعلاقات قانونية . وينشأ عن « تملك » الأرض وعن العمل الذى يتطلبه هذا التملك عادات اجتماعيـة تكون فى مجموعهـا مايسمى بالعرف La Coutume وعلى أساس القانون العرفى الذى يعبر

---

(١) أيدت الدراسات الأنثروبولوجية التى قام بها «باخوفين» وأثبتها فى كتابه المشهور « حق المرأة » Das Mutterrecht كثيراً من آراء تونيز حول هذا الموضوع .

عن الإرادة العضوية للجماعة ينظم الأفراد سلوكهم وأعمالهم ومسلك الفرد أو الجماعات الخاصة بإزاء هذا القانون يشبه مسلك الأنسجة والأعضاء بالنسبة للكائن الحى فهم محدودون بالإطار العام الذى يسيطر عليهم . وينظم القانون العرفى حياة الجماعة حتى فى أدق تفاصيلها ، فيحدد مثلا المساحات التى تزرع صيفاً أو شتاء ، ويحدد أجور الزراع فى الحقول والعمال فى القرى ، وينظم العلاقات بين الملاك مقرراً حق الجوار وحق الشفعة ... الخ

والغاية القصوى لهذا القانون – فى رأى تونيز وكما قرر سير هنرى من قبل – هى حفظ السلام للكائن الاجتماعى الذى يعتبر هذا القانون وسيلته الوحيدة للتنظيم . وهو ينجح فى تحقيق هذه الغاية بقدر ما يقوم فى جوهره على « التوافق » ، أى على الانسجام بين عناصر النظام الطبيعى : ولكى يضمن عدم تعكير صفو هذا الانسجام يحبذ القانون العرفى أن تتحول العلاقات الفردية ، « والخدمات المتبادلة ، والمساعات الودية إلى « واجبات ملزمة » .

ويستمد القانون العرفى سلطته من الاحترام الراسخ فى النفوس لتقاليد السلف . فأعضاء الجماعة يحتفظون بالقواعد التى تلقوها عن أجدادهم ، لا لأنهم يؤمنون بفائدتها فحسب ، بل وأيضاً لأن العرف مناسبة فريدة لإظهار تقديسهم وتبجيلهم للسلف الصالح .

وعلى هذا النحو يرى « تونيز » أن القانون العرفى قانون عضوى ينبثق مباشرة من الحياة الجماعية . وهو قانون طبيعى وتلقائى كالقانون العائلى سواء بسواء ؛ لا يصدر عن الإرادة والمعرفة الموضوعية ، بل عن الشعور وعن الإحساس بضرورة إبعاد الشر وجلب الخير . فهو إذن لا يعبر عن « موقف قانونى » بقدر ما يعبر عن « موقف ضميرى » . وينطبق عليه وصف شيشرون ، المشرع الرومانى بأنه « قانون غير مكتوب ولكنه فطرى ؛ لم نتعلمه أو نقرأه ولكن تلقيناه عن الطبيعة واستيقناه من مصادرها » .

أما بالنسبة للقانون الدينى فإن « تونيز » يميز بين الإيمان والشعائر . وهو يرى أن الإيمان فى جوهره ذو طابع جماعى واضح ، إذ يعبر عن وحدة الجماعة واتفاقها حول مبادئ وأفكار واحدة . وليس التدين فى جملته إلا مجموعة من الأفعال تصدر عن الإيمان .

ويصاحب الدين جميع أشكال ومراسم القانون دون أن يكون بالضرورة أساساً لها . وما ذلك إلا لأن الدين والقانون مظهران من مظاهر الحياة الجماعية أحدهما (وهو القانون) يعبر عن الحياة الواقعية والآخر (وهو الدين) يعبر عن الحياة المثالية . وتبدو هذه العلاقة بوضوح فى القانون العائلى : فالدين يكرس الزواج ويضفى عليه طابع القدسية ، ولكن الزواج ، فى حد ذاته ، نتيجة للغريزة الجنسية التى يكسبها القانون صفة الشرعية . ويتدخل الدين بصفة مستمرة فى كل ما يتصل بالعلاقات العائلية ، فتتسم بطابعه جميع المناسبات كالميلاد والوفاة وتقسيم الميراث ، وهو بذلك يدعم ويرفع من الصفة القانونية لهذه المناسبات .

والصفة البارزة فى القانون الدينى هى ، فى الحقيقة ، قيمته الخلقية . فبينما يتميز فى القانون العقلى – حسب رأى كانت وفيخته – الفصل بين « الحق » و « الواجب » ، وبين « الأخلاقية » و« القانونية » ، نجد أن التطابق كامل بين القانون الدينى والأخلاق . وتفسير ذلك نجده فى الصفات الأساسية لحياة الجماعة العضوية ، وهى التضامن الوثيق والتعاطف الروحى بين الأفراد . فالقانون الذى يؤسس على هذه الصفات يجب أن يكون تعبيراً خالصاً عن إنكار الذات أوالغيرية ، أو بمعنى أشمل عن المحبة . ولذا فإن مبادئ هذا القانون يصعب

التعبير عنها وترجمتها فى صيغ واضحة ومنطقية كما يحدث بالنسبة للقوانين الفعلية فى المجتمع السياسى .

* * *

وخلاصة نظرية « تونيز » أن الإنسان يوجد فى « جماعة طبيعية » مع أهله بمجرد ولادته إذ يتحد معهم فى الخير والشر . ولكنه يدخل بعد ذلك فى « المجتمع » كما لو كان يدخل فى أرض غريبة . والأسرة هى التعبير العام عن فكرة الجماعة الطبيعية . أما العلاقات الاجتماعية فإنها تتكون تحت شعار « كل يعمل لمصلحته » ؛ ولا يتنازل أى إنسان عن أى شئ لزميله إلا إذا تأكد أنه سيتلقى منه شيئاً مساوياً على الأقل لما تنازل عنه، وعلى ذلك فإن المجتمع تسود فيه فكرة الحساب المغرض (كما كان يرى هوبز) ، والعلاقات القائمة على وزن الأمور بميزان العقل ؛ على حين أن الجماعة تسود فيها العلاقات القائمة على الغريزة وعلى العاطفة .

وتظهر العلاقات « الجماعية » فى شكل العرف ، ويحكمها نطاق الدين . أما العلاقات « الاجتماعية » فإنها تظهر فى شكل التجارة والصناعة والعلم .

وقد كان سير التاريخ من الجماعة الطبيعية القائمة على السلطة المطلقة إلى المجتمع السياسى القائم على التعاقد . إذ ساد فى العصور الوسطى نظام الاقطاع القائم على التملك والاستحواذ ؛ وكان عصر النهضة بداية التحول نحو الحالة الاجتماعية القائمة على المساواة . أما من حيث التوزيع الجغرافى فإن تونيز يرى أن مجتمعات الغرب تتميز بالمظهر الجماعى communautaire على حين أن مجتمعات الغرب تتميز بالمظهر الاجتماعى sociétaire

ويبدو لنا أن هناك نوعاً من التعسف والتجريد فى هذا التقسيم الذى قسمه « تونيز » لأنواع العلاقات الإنسانية . والواقع أن كلا من فكرة « الجماعة » و« المجتمع » كما وصفهما لا تعبر عن حقيقة واقعية وتصنيفه على هذا النحو لا يعبر إلا عن « نماذج تقديرية » لا تنطبق إلا انطباقاً جزئياً على المجتمعات الكائنة بالفعل .

وبالرغم من اعتراف تونيز بهذه الحقيقة ، فإنه يؤكد أن لتصنيفه أهمية من الناحية التاريخية ؛ إذ أن التطور الطبيعى للفكر الإنسانى قد أدى إلى طغيان « الإرادة الطبيعية » . ولذلك فإنه لا يسعه إلا أن يقرر (مع الأسف) أن النموذج « الجماعى » يترك مكانه ، فى مجتمعاتنا الحديثة للنموذج « الاجتماعى » .

ولقد كان لنظرية تونيز أهمية كبيرة فى تاريخ علم الاجتماع بألمانيا ؛ واقتبس كثير من علماء الاجتماع وجهة نظره فى التميز بين الجماعة والمجتمع . ومن هؤلاء « فيركنت Vierkandt ومدرسته . فهذه المدرسة قد أكدت وجود « العاطفة الاجتماعية » أو الغريزة الاجتماعية » وصلتها أساساً لتكوين الجماعة . وإذا كنا نجد فى تحليلها لمظهرى الحياة الاجتماعية ، أى الجماعة والمجتمع ميلا إلى منهج علم النفس ، إلا أننا نلاحظ ، فى سهولة مقدار التقدم الذى أحرزته هذه المدرسة، إذا قارنا ما وصلت إليه من نتائج بما وصل اليه ماك دوجال وتارد وأمثالهما من المتطرفين فى التشيع لعلم النفس الفردى . فالفرد هنا يحقق ذاتيته كاملة عن طريق العلاقات الاجتماعية ، وعلى ذلك فعلم النفس الاجتماعى له مجاله الخاص وهو لا يمكن أن يؤول إلى علم النفس الفردى بالرغم من اتخاذه أساساً له . ونحن إذا درسنا الفرد الوحيد ، فلا يمكن أن نجد فى هذه الدراسة مايتشابه مع موضوعات البحث فى علم النفس الاجتماعى .

كتاب « الجماعة والمجتمع » :

Gemeinschaft und Gesellschaft

يشتمل هذا المؤلف على ثلاثة كتب (أوأقسام) وملحق وموضوع الكتاب الأول هو تحديد المعانى

الأساسية للنظرية وينقسم إلى فصلين كبيرين ، يعالج المؤلف فى الفصل الأول نظرية الجماعة ، وفى الفصل الثانى « نظرية المجتمع » . أما الكتاب الثانى فموضوعه « الإرادة المفكرة » ، وهو ينقسم إلى ثلاثة فصول : فصل عن « أشكال الإرادة الإنسانية ، وفصل ثان عن « التعارض بين شكلى الإرادة » ، وفصل ثالث يشرح المعانى التجريبية لهذا التعارض كما يظهر عند الرجل والمرأة ، وعند الشباب والشيوخ وهكذا ... وينقسم الكتاب الثالث أيضاً إلى ثلاثة فصول وموضوعه « الأسس السسيولوجية للحق الطبيعى » وهو فى الفصل الأول يهتم بتحديد بعض المفاهيم كالشخصية والإلزام والتعاقد والتجمع والاتفاق . أما الفصل الثانى فيشرح الصلة بين الطبيعة العضوية والقانون . ويوضح الفصل الثالث كيف تتخذ أشكال الإرادة فى المجتمع ، ثم يحدد الصلة بين الكائن الاجتماعى والدولة .

وينتهى المؤلف بملحق يوضح النتائج التطبيقية للبحث ، ومدى ما يمكن التطلع إليه فى المستقبل .

وسنحاول الآن إعطاء القارىء العربى صورة متكاملة عن هذا الكتاب من خلال النماذج التى اخترناها من أجزاء متفرقة وراعينا فيها أن تكون معبرة أصدق تعبير عن آراء المؤلف وموضحة لدقائق نظريته[1] .

العلاقات بين الإرادات الإنسانية — الجماعة والمجتمع فى التعبير اللغوى :

يشرح المؤلف فى الفصل الأول الفكرة العامة الموجهة لنظريته ويهتم على الخصوص بتحديد معانى المصطلحات الرئيسية التى ترد خلال سرد تفصيلات هذه النظرية فيقول :

« توجد الإرادات الإنسانية فى علاقات متعددة بين بعضها وبعض . وكل علاقة من هذه العلاقات عبارة عن نشاط متبادل ، بحيث إذا كان النشاط يمارس من من جهة فانه يستقبل من جهة أخرى . وهذه النشاطات تبدو لنا كما لو كانت تنزع إما للمحافظة وإما لتدمير الإرادة أو الكائن المقابل ؛ فهى إما أن تكون إيجابية أو سلبية » .

« والنظرية التى أعرضها ، وموضوعات بحثها لا تهتم إلا بالعلاقات ذات التأثيرات الإيجابية المتبادلة. وكل من هذه العلاقات تمثل وحدة فى التعدد ، وتعدداً فى الوحدة . فهى تتألف من متطلبات ، ومسكنات ، وأفعال تذهب وتعود ، وتعد تعبيراً عن الإرادات وعن مدى قوتها .

والمجموعة التى تتكون من هذه العلاقات الإيجابية ، بوصفها كائناً أو موضوعاً فاعلا بطريقة متجانسة فى الداخل أو الخارج ، — هذه المجموعة تسمى « تجمعاً association » .

« والعلاقة نفسها ، ومن ثم التجمع ، يمكن أن تفهم على أنها حياة حقيقية أو عضوية ؛ وحينئذ يكون هذا هو جوهر فكرة الجماعة Gemeinschaft وإما أن تفهم على أنها تصور بالقوة يتحقق بطريقة آلية ، وحينئذ يكون هذا هو مفهوم « المجتمع » « Gesellschaft » .

« واستخدام المصطلحات التى اخترناها سيوضح أن أساسها هو الاستعمال المشابه فى اللغة الألمانية . ولكن مما يؤسف له أن الكتابات العلمية ما زالت تستخدمها دون أى تمييز ، بل إنها قد تخلط عن قصد بين مصطلح وآخر . ولذا يتعين إثبات بعض الملاحظات التمهيدية التى توضح التعارض بين معنى وآخر :

فكل ما يوحى بالثقة والألفة والمعيشة المشتركة يدخل فى نطاق حياة « الجماعة » ، (أو هكذا نحن

(١) اعتمدنا فى هذا العرض على الترجمة الفرنسية التى نشرت بالعنوان التالى :

Communauté et Société, trad. de J. Leif, P.U.F., 1944.

نتصورها) . أما « المجتمع » فيعنى ما هو عام ، وهو الاتصال بالعالم الخارجى . ونحن نجد أنفسنا فى « جماعة » مع ذوينا منذ الولادة ، ونرتبط معهم ارتباطاً وثيقاً فى السراء والضراء؛ على حين أننا ندخل « المجتمع » كما لو كنا ندخل أرضاً غريبة . ونحن نحذر اليافع ضد « المجتمع السيىء » : ولكن تعبير « الجماعة السيئة » يطرق الأذن كما لو كان فيه تناقض . صحيح أن المشرعين يتكلمون عن « المجتمع العائلى » ، ولكنهم حينئذ لا يقصدون إلا المفهوم الاجتماعى للعلاقة . ولكن « الجماعة العائلية » ، بتأثيراتها اللانهائية على الروح الإنسانية ، يشعر بها كل واحد ممن ينتمون إلى هذه الجماعة . وعلى هذا النحو يشعر الخطيبان أنهما ، بالزواج ، يدخلان فى حياة جماعية كاملة communio totius vitae . أما إذا قلنا إنهما يدخلان فى « حياة مجتمعية » ، فهذا التعبير ينطوى على تناقض فى حدوده .

وتوجد « وحدة جماعية » تنم عن الاشتراك فى اللغة أو العادات أو العقيدة ؛ ولكن يوجد « مجتمع » للعمل أو للعلوم . ومجتمعات التجارة لها من وجهة النظر هذه دلالة خاصة ؛ وحتى مع وجود الثقة والترابط بين أعضائها ، فلا نستطيع مع ذلك أن نسميها « جماعات » التجارة .

ونستطيع بمعنى عام أن نتكلم عن « جماعة » تضم الإنسانية كلها ، على النحو الذى تدعو إليه الكنيسة . ولكن « المجتمع » الإنسانى يُفهم على أنه مجرد تجاور بين أفراد مستقلين بعضهم عن بعض .

ومجمل القول إن « الجماعة » مفهوم قديم ، أما « المجتمع » فهو حديث كوجود وإسم . والجماعة هى المعيشة المشتركة الحقيقية والدائمة ؛ أما المجتمع فإنه فقط عابر وظاهرى . وعلى ذلك نستطيع أن نفهم الجماعة على أنها كائن حى والمجتمع على أنه تكتل آلى ومصطنع .

وحدة الدم ، والمكان ، والشعور ، والقرابة ، والجوار ، والصداقة :

« تنزع جماعة الدم ، كوحدة للوجود ، إلى تأكيد كيانها عن طريق وحدة المكان ، وتصل إلى ذلك بتعبير مباشر فى المسكن المشترك . ويؤدى هذا بدوره إلى وحدة الشعور عن طريق النشاط والتنظيم المشترك فى اتجاه واحد ولهدف واحد . ووحدة المكان يمكن اعتبارها الكل المتناسق للحياة الحيوانية ، على حين أن وحدة الشعور والتفكير يمكن اعتبارهما الكل المتناسق للحياة العقلية — وهذه الأخيرة هى إذن — فى علاقاتها مع الأولى — أكثر أنواع الوحدة تحقيقاً للصفة الإنسانية وأعلاها درجة .

وكما أن وحدة الدم تفترض ارتباطات تتصل بالقرابة ، فكذلك نجد أن وحدة المكان تفترض علاقات بالنسبة للتربة والأرض ، ونجد أن وحدة الشعور تفترض علاقات مشتركة بالأماكن المقدسة ، وبالآلهة المعبودة . وهذه الأنواع الثلاثة من الوحدة الجماعية يرتبط بعضها ببعض فى المكان وفى الزمان ، ومن ثم ترتبط فى نموها وفى كل من ظواهر الخاصة ، وكذلك بصفة عامة فى تأثيرها على الحضارة الإنسانية وتاريخها .

وكلما كان هناك أناس يرتبطون بعضهم ببعض عن طريق إرادتهم العضوية ، ويقوم بينهم اتفاق متبادل يمكن القول بوجود « جماعة » من هذا النوع أو ذاك . ونستطيع أن ننظر إلى هذه الأنواع المختلفة من الجماعات ، الواحدة بعد الأخرى ، من خلال أسمائها الأصلية المفهومة :

١ — القرابة . ٢ — الجوار . ٣ — الصداقة .

والقرابة لها البيت كمكان يجسم حقيقتها ؛ ففيه تكون المعيشة المشتركة تحت سقف واحد ، وفيه يكون الاستمتاع المشترك بما تملك الأسرة وخاصة

الأغذية المستمدة من مؤن واحدة ، والتى تقسمها الأفراد حول مائدة واحدة . كما أن البيت يمثل وحدة العبادة حيث تقام الشعائر للأسلاف [1] حتى تظل أرواحهم غير المنظورة حامية لأهله وبحيث تكون الرهبة والتقديس المشترك حافزاً أكيداً لحياة عائلية مطمئنة ونشاط مستمر ... ولهذه الأسباب فإن الإنسان السوى يكون عادة فى أتم حالات السعادة وهدوء النفس عندما يكون محاطاً بأفراد عائلته ؛ إذ أنه يحس حينئذ بأنه فى بيته .

والجوار هو الصفة العامة للمعيشة المشتركة فى القرية حيث يكون تقارب المساكن وتجاور الحدود فى الحقل من عوامل الاتصالات العديدة بين الناس وحيث تؤدى عادة الحياة المشتركة والمعرفة الوثيقة المتبادلة إلى ضرورة الاشتراك فى العمل وفى التنظيم والإدارة وإلى الابتهال إلى آلهة واحدة تمنح الخير والبركة وتدفع البلاء . وإذا كان الشرط الجوهرى لروابط الجوار هو الاشتراك فى مكان الإقامة ؛ إلا أن هذه الروابط قد تظل قائمة فى حالة البعد وإن كانت بدرجة أقل من روابط القرابة . وفى هذه الحالة تبحث عما يغذيها فى بعض الذكريات المشتركة أو الاجتماعات بين الحين والحين .

وتتميز الصداقة عن القرابة والجوار بهوية ظروف العمل وطرق التفكير التى تغدو نتيجة لها . فهى تنشأ من تشابه الحرفة أو الفن ولكن هذه الرابطة يجب أن تتوطد وتتدعم عن طريق محاولات من التقارب واللقاء بين حين وآخر ويحدث هذا داخل نطاق مدينة واحدة . وهكذا نرى أن أصحاب الفن الواحد وكذلك من يشتركون فى عقيدة واحدة يأنس بعضهم إلى بعض لأنهم يرتبطون برباط واحد أو يشتركون فى عمل واحد .

وإذا كانت الحياة المشتركة فى المدينة يمكن اعتبارها نوعاً من الجوار ، وكذلك الحياة تحت سقف واحد ما دام يشترك فيها غير الأقارب والخدم ، فان الصداقة الروحية تشكل على العكس نوعاً من الرباط غير المنظور ، نوعاً من الاتحاد الصوفى يحركه ويغذيه شعور حدسى وإرادة خالقة . والعلاقات بين الأشخاص بوصفهم أصدقاء أو رفاق ليست لها بالضرورة الصفة العضوية التى تجعلها تتأثر بشروط داخلية . فهى أقل ما تكون خضوعاً للغريزة ، وشرط العادة أقل ظهوراً فيها مما هو بالنسبة لعلاقات الجوار . فهذه العلاقات (أى علاقات الصداقة) ذات طبيعة عقلية ، ولذلك فهى إذا قورنت بعلاقات الجوار نجدها تقوم إما على الصداقة أو على الاختيار الحر .

الحياة المنزلية — الدوائر الثلاثة

تتكون الأسرة المنزلية من ثلاث طبقات أو دوائر تتحرك كلها حول مركز واحد . فالطبقة أو الدائرة الداخلية هى أقدم الثلاثة وهى تتألف من الرجل والزوجة أو الزوجات إذا كن يتمتعن بمركز مماثل بالنسبة لبعضهن البعض . وتأتى بعد ذلك الذرية ، وأفرادها يكونون دائرة واحدة حتى ولو كان بعضهم متزوجاً أما الدائرة الخارجية فتتكون من الخدم والأتباع ؛ وهؤلاء ولو أنهم فى الحقيقة نبات خارجى ، إلا أنهم ينتمون إلى الجماعة بقدر ما يندمجون فى إرادتها وروحها العامة ، وبقدر ما يشعرون بالارتياح للانتماء إليها والانسياق فى تيارها العام . وهذا الوضع أيضاً ينطبق على النساء اللائى يأتين إلى أزواجهن من الخارج . وبما أن الأولاد هم ثمرة اتحاد الزوج والزوجة فإنهم يألفون ، بوصفهم ذرية وأتباعاً ، حالة وسطاً بين السلطة والتبعية . وكذلك يمكن القول

---

(١) يشير المؤلف إلى عبادة الأسلاف فى المجتمع اليونانى القديم انظر كتاب فوستيل دى كولانج « المدينة القديمة »
La Cité Antique

إن حالة الخدم قد تشبه حالة الأولاد ، ولكنها تنقلب إلى استرقاق عندما تهان كرامة الإنسان .

وهناك اعتقاد خاطىء راسخ فى الأذهان بأن الخدمة مهنية فى ذاتها ولذاتها لأنها ضد المساواة الإنسانية . والواقع أن أى إنسان يمكن أن يهبط بنفسه أمام إنسان آخر فى ظروف متباينة : إما لأنه جبل على العبودية ، أو بسبب الخوف ، أو بالعادة ، أو التأثر بالخرافة ، أو بدافع الحساب المغرض لتحقيق مصلحة ذاتية . وهذا الخضوع يكون أشد وضوحاً كلما ازدادت وقاحة السيد ووحشيته وطغيانه، أو كلما كان جشعه وحبه للاستغلال يدفعانه لامتهان الأشخاص التابعين له . وعلى حين أنه يتعاقد معهم تعاقداً حراً إلا أنه يسمح لنفسه بظلمهم وإيلامهم . وإذا كان من يعامل معاملة سيئة يرضى بذلك ، فانه « كماسح الجوخ » (أو المتملق) ذو طبيعة أقرب إلى طبيعة الرقيق ؛ على حين أن الخادم الذى يتقاسم مع الأسرة أفراحها وآلامها ، ويكن لسيد الأسرة احتراماً كاحترام الابن الناضج ، ويتمتع بثقته كرفيق يستشيره فى أموره الخاصة — هذا الخادم يكون ، على العكس ، إنساناً حرًّا من الناحية الخلقية ، حتى ولو لم يكن كذلك من الناحية القانونية . وينطوى الوضع القانونى للرقيق على الإجحاف والظلم وذلك لأن القانون يهدف إلى أن يكون ، بل يجب أن يكون معقولا . وهو حين يميز ، على هذا الأساس ، بين « الإنسان » و « الشىء » يتطلب فى الواقع الاعتراف بإنسانية الكائن العاقل .

الاقتصاد المنزلى — البيت والمائدة

إن أول شىء يجب الاهتمام به فى تنظيم المنزل هو الاقتصاد المنزلى على اعتبار أنه المظهر الذى تبدو فيه الجماعة عاملة ومستمتعة فى وحدة متناسقة . والمتعة التى تتكرر دائماً — شبيهة بالتنفس — هى متعة الغذاء . ومن هنا كان صنع الأغذية وتحضيرها هو أشد الأعمال ضرورة وأكثرها انتظاماً . وتتوزع هذه الأعمال عادة بين الأبناء والأحفاد دون الكبار . وكما أن الغابة والحقل هما المجال الخارجى الطبيعى ، فكذلك يعتبر الموقد [1] وشعلته المتوهجة نواة البيت وجوهره الأساسى إذ أنه المكان الذى يجتمع حوله الرجال والنساء، والشبان والشيوخ، السادة والخدم ليستمتعوا سوياً بتناول الوجبة الأساسية ولذلك اتخذ الموقد والمائدة معنى رمزيا : فالموقد يرمز للطاقة الحية للبيت واستمراره فى تتابع الأجيال ، والمائدة ترمز لاتحاد أعضاء الأسرة فى احتفاظهم وتجديدهم للجسم والروح .

ويمكن القول إن المائدة هى البيت نفسه على اعتبار أن كل فرد فى الأسرة يتخـــذ مكانه منها ويحصل على نصيبه من خبرات الجماعة . وإذا كان الأعضاء يتفرقون ويقسمون أنفسهم ليقوموا بالعمل اللازم فانهم هنا (أى حول المائدة) يعاودون التجمع ليتقاسموا فيما بينهم ثمار هذا العمل .

ويتعارض التبادل بمعناه الحقيقى مع طبيعة الأسرة وهو لا يوجد إلا خارج القسمة المشتركة للمتع الأساسية ، وبقدر ما يرغب الأفراد فى امتلاك شىء مستقل ؛ وفى هذه الحالة يحققون رغبتهم بتبادل أشياء صنعوها لأنفسهم خارج نطاق النشاط الجماعى ويستطيع البيت ذاته كوحدة — عن طريق رئيسه أو من ينيبه عنه — أن يحول الفائض من منتجاته إلى سلع يرى أنها ضرورية عن طريق التبادل . ومثل هذا التبادل لا يمكن تصوره إلا إذا حدث بين أسر تدخل فى نطاق جماعة تعتبر نفسها أسرة كبيرة واحدة (كما يحدث فى القرية ، وفى المدينة أو بين المدينة والريف فى منطقة واحدة) . وحينئذ يتم التبادل فى هدوء وسلام

(١) فى المجتمع اليونانى القديم كانت الشعلة المقدسة فى وسط البيت رمزاً لاستمرار الأسرة ، ولذلك كان يقال « شعلة انطفأت » بمعنى أسرة اندثرت . انظر فوستيل دى كولانج « المدينة القديمة » .

وفق مبادئ يظهر عدلها للتفكير السليم ، وتبدو كما لوكانت تعبيراً عن قسمة مشتركة شبيهة بالمتعة المشتركة حول المائدة الحافلة . وسوف نلاحظ أن هذه الحركة البسيطة هي الأصـــل فى فكرة التبادل وفى دورة البضائع . ولكن مظاهر هذه الفكرة قد تغدو بعيدة كل البعد عن الأصل وتبدو تشوبها لها مما يضطرنا — لكى نفهم التبادل فى صورته الحقيقية — إلى تفسيره بالعودة إلى حاجات الأفراد وإراداتهم .

نظرية المجتمع

المجتمع عبارة عن مجموعة من الناس يعيشون بعضهم مع بعض ، ويحتفظون إزاء بعضهم البعض بعلاقات سلمية (كما هى الحال عند أفراد الجماعة) ، ولكن لا تجمع بينهم أية رابطة عضوية ، بل يظلون دائماً منفصلين عضويا » .

« فبينما يكون الأفراد فى الجماعة » مرتبطين بالرغم من انفصالهم ، فهم فى المجتمع منفصلون بالرغم مما قد يؤدى إلى ارتباطهم . وعلى ذلك فلا يوجد فى المجتمع نشاطات تصدر عن وحدة قبلية a priori وبصورة ضرورية بل يعمل كل واحد من أجل نفسه ؛ ويصدر سـلوكه عن حالة من التوتر والتحفز بإزاء الآخرين . ومثل هذا السلوك السلبى طبيعى فى المجتمع ؛ فلا يقبل أى شخص أن يقوم بخدمة للآخر ، أو يعطى أى شئ للآخر ، إلا إذا كان ذلك نظير خدمة مقابلة ، أو عطاء يكون على الأقل مساوياً لعطائه . وقد يكون من الضرورى أحياناً أن تكون الخدمة أو العطاء الذى يحصل عليه أكثر فائدة ، فى نظره ، من ذلك الذى يقدمه ، وذلك لأن الأمل فى الحصول على شئ أحسن هو وحده الذى يدفعه إلى عمل الخير .

والمجتمع المدنى هو فى الحقيقة مجتمع تبادل Société d'échange يهتم الاقتصاد السياسى بمعرفة طبيعته وتصرفاته ؛ والأفراد فيه يمكن وصفهم ، حسب تعبير آدم سميث بأن « كل منهم تاجر » . وإمكان العلاقة الاجتماعية لا يفترض شيئاً آخر غير عدد من الأشخاص المجردين ، يكونون قادرين على الإنتاج وبالتالى على بذل الوعود .

والمجتمع من حيث أنه تجمع لعدد من الناس يجب أن يسود بينهم نظام اتفاقى من القواعد ، يكون ، بحسب هذا التعريف ، غير محدد بحدود ؛ إذ أنه يستطيع أن يتخطى باستمرار حدوده الحقيقية . أو المحتملة .

وبما أن كل شخص فى المجتمع يبحث عن منفعته الخاصة ، ولا يتفق مع الآخرين إلا بالقدر وفى المدة التى يسعون فيها معاً لتحقيق مصلحة واحدة ، فان علاقة كل شخص بالآخر قبل الاتفاق وخارجه ، وكذلك قبل وخارج أى تعاقد خاص — هذه العلاقة يمكن تصورها على أنها علاقة عداء بالقوة ، أو حرب كامنة ، وذلك بغض النظر عن اتفاقات الإرادة التى قد تكون بمثابة معاهدات للصلح . فالمشترون والبائعون ، فى وجوه نشاطهم المختلفة ، يقف كل منهم إزاء الآخر كما لو كان يرغب ويحاول أن يعطى أقل ما يمكن من ماله الخاص ، ويحصل على أكثر ما يمكن من مال الغير . كما أن التجار الحقيقيين يجرى كل منهم فى حلبة السباق . ويحاول أن يتخطى صاحبه ليكون ترتيبه الأول — إذا أمكن — فى الوصول إلى الهدف . ومعنى ذلك أن كلا منهم يحاول أن يدفع الآخر بمنكبه حتى يكبو ، وبذلك تكون خسارة الواحد هى فى الوقت نفسه مكسباً للآخر . وهذه هى « المنافسة العامة » التى تحدث فى شتى الميادين ؛ ولكنها أشد ما تكون وضوحاً فى ميدان التجارة . وقد وصفها بعضهم للتدليل على ما أطلقوا عليه « حرب الجميع ضد الجميع » ، واعتبروا

هذه الحالة ، هى الحالة الطبيعية العامة التى فُطر عليها الجنس البشرى[1] .

غير أن هذه المنافسة ، تحمل فى طياتها ككل أشكال الحرب إمكان نهايتها . إذ يقرر الأعداء ولو بتجشم المصاعب أحياناً ، أن بعض المواقف تقتضى منهم الاتفاق لأن ذلك تحقق مصلحة الجميع ؛ وبذلك يتغاضى كل منهم لصاحبه عن بعض الأمور بل قد يتحدون لتحقيق هدف مشترك (وفى الغالب يكون هذا الاتحاد ضد عدو مشترك) ؛ وعلى هذا النحو تخف وطأة المنافسة وتتحول إلى تحالف coalition .

« هذه العلاقات التى تقوم على تبادل القيم المادية يحدث ما يناظرها فى كل اتفاق اجتماعى يقوم على الكياسة ومراعاة الغير . فتبادل كلمات الثناء وعرض الخدمات التى يبدو فيها أن كل شخص يقدر موقف الآخرين ويضع نفسه فى موضعهم مثل هذا الموقف فى الحقيقة يخفى وراءه تفكير كل شخص فى نفسه، واهتمامه ، على العكس ، بانتصار وجهة نظره وتحقيق مصالحه الذاتية . ولذلك نرى أن كل واحد ينتظر بل يطلب من الآخر قدراً معادلا على الأقل لما قدمه إليه من صنوف التودد والمجاملة ونراه تبعاً لذلك يزن خدماته بدقة وكذلك تملقه وهداياه الخ ... على أساس أن هذه الأشياء ستحدد الغايات المطلوبة .

ولكن القول عموماً إن شروط الحياة الاجتماعية أساسها المقارنة بين خدمات ممكنة أو مقترحة وأن العلاقات بين الأشخاص تتصل بموضوعات حسية أو مادية . أما النشاط المنزه عن الغرض والكلمات الطيبة التى تحمل معناها الحقيقى فمجالها هو الجماعة التى يجمع بينها رباط الدم .

التعارض بين الجنسين

يربط « تونيز » التعارض بين الرجل والمرأة بالتفرقة الأساسية التى أقامها بين الإرادة العضوية (أو العاطفية) والإرادة الواعية (أو العقلية) . وقد شرح تفاصيل هذا التعارض فى القسم الثالث من الكتاب الثانى الذى خصصه لما سماه « المعانى التجريبية لنظريته .

وهو يقول : « من الحقائق الشائعة والهامة فى الوقت نفسه أن النساء يتحركن فى غالب الأحوال مدفوعات بعاطفتهن وأن الرجال يخضعون لما يمليه عليهم العقل وأنهم أكثر ذكاء من النساء فهم وحدهم قادرون على العمليات الحسابية المعقدة وعلى التفكير المجرد وربط الأفكار بعضها ببعض فى إحكام وفقاً لقواعد المنطق . والقاعدة العامة هى أن النساء قلما يسلكن هذا المسلك . ومعنى ذلك أنه ينقصهن التعبير الجوهرى عن الإرادة الواعية .

على أنه ليس بصحيح أن الرجال يلجأون إلى الإرادة الواعية وحدها عندما يقومون بنوع من النشاط الخاص وأنهم يتخذون موقفاً محايداً إزاء الطبيعة ويسيطرون سيطرة تامة عليها . بل كل ما فى الأمر أن نشاطهم يتطلب استخدام العقل الواعى أو المفكر . وأن هذا الاستخدام ينمى هذه الملكة لديهم .

وتفسير ذلك أن الأنثى لا عند البشر فحسب بل وكذلك عند الحيوانات الثديية تكرس معظم وقتها لرعاية صغارها ؛ أما الذكر فعليه يقع عبء توفير الغذاء والدفاع ضد العدو المهاجم . ووظيفة الهجوم والاغتصاب — ويدخل فى ذلك اغتصاب الأنثى ذاتها — تستدعى منه أن يكون حذراً يحسن

---

[1] (۱) يشير تونيز هنا إلى نظرية هوبز التى أعلنها فى كتابه « التنين » Leviathan وذكر فيها أن حالة الطبيعة ، أى قبل نشأة المجتمع ، هى حالة « حرب الجميع ضد الجميع » Bellum omnium contra omnes . ومن الواضح أن تونيز يعارض هوبز ، إذ يرى ، على العكس أن حالة الحرب أو على الأصح المنافسة لم تظهر إلا بعد ظهور المجتمع .

المراقبة والترقب ويدرب أكثر حواسه نشاطاً وهى السمع والبصر حتى تصبح من الحدة والإرهاف بحيث تدرك الأشياء البعيدة . ويؤدى ذلك بطبيعة الحال إلى نمو ملكة التنبؤ وإعداد العدة لكل احتمال . وفلك لأن الرجل هو الموجه لكل نشاط يتصل بمواجهة الطبيعة الخارجية . وهذا أمر طبيعى طالما أنه الأقوى والأكثر استعداداً للصراع وكذلك الأكثر تحركاً والأخف حركة وبمقارنتها بالرجل فى هذا المجال، تعتبر المرأة أكثر استكانة وأشد ميلا للخمول .

ووظيفة الرجل كقائد تستلزم منه كذلك أن يعتاد إصدار الحكم بسرعة ، وأن يقرر فى حزم ما يجب عمله ، فى ظرف ما ، باعتبار أنه التصرف المناسب . فلا يكاد يشعر بخطر قادم حتى يأخذ لكل احتمال عدته ، ويتخذ من علاقات الخطر دعائم لتقليب الأمر على جميع وجوهه ؛ ومن خبرته السابقة بالأخطار المشابهة أساساً لرسم خطط العمل .

وتبرز عند الرجل عموماً ملكة المقارنة . وتتفرع عنها صفات شكلية خاصة : كالقياس ، والوزن ، والحساب بجميع أنواعه وهذه جميعاً تتلخص فى تمييز الكميات وعلاقاتها بعضها ببعض .

كما أن أنواع النشاط التى يقوم بها الرجل تستلزم نمو فكرة « العلية » ؛ فعلى أساس هذه الفكرة يقوم كل نشاط علمى .

* * *

ولكن إذا كان الذكاء يُعزى بحسب الأفضلية إلى الرجل ، فهو لايساوى على كل حال القوة الذهنية فى عمومها . وبقدر ما تكون هذه القوة خلاقة وتركيبية فان عقل المرأة هو الذى يبرزها فى أجلى معانيها . وتفسير ذلك أنه ، مثلما يتميز تكوين الرجل بسيطرة « الجهاز العضلى » يتميز تكوين الأنثى بسيطرة « الجهاز العصبى » . ففيما يتصل بنشاطها السلبى المتواصل تتحرك المرأة فى دائرة ضيقة وهى عموماً أكثر استقبالا وأكثر إحساساً بالإنطباعات التى تفرض نفسها عليهـا من الخارج . وتفضل الاستمتاع بالمتعة القريبة ، الحاضرة ، المنتظمة عن البحث لبلوغ متعة بعيدة ، مستقبلة ، ونادرة .

وتتحرك إرادة المرأة بدافع الانفعال بازاء التغيرات الملائمة أو المنفرة ؛ وبالتالى فان الإحساس لديها هو واسطة التعبير عن مشاعرها الإيجابية أو السلبية وهذا الإحساس يتكون ويزداد إرهافاً بحيث تكمن فيه المقدرة على التمييز بين الخير والشر ، والجميل والقبيح ؛ وهذا التمييز قد لا ينطبق تمام المطابقة مع معرفة الأشياء والظواهر ، وهى المعرفة الموضوعية . فهذه المعرفة نحصل عليها (بوصفها إدراكاً حسياً) عن طريق نشاط العين الفاحصة ، ثم الأذن مع الاستعانة باللمس . أما الاحســاس الانفعالى فيعتمد أولا على حواس الشم والذوق ولا يحتاج إلا لملاحظة عابرة ، وهو ما نجده عند المرأة . ويظهر فى جميع التعبيرات المحملة بالمشاعر ، وفى تغيرات المزاج ، وفى الأفكار التى يرحى بها الضمير لا العقل .

ومن طبيعة هذا النشاط الذى يقوم على الإرادة العاطفية أنه يتسم بالصراحة والإخلاص والسذاجة ؛ وهى الصفات المباشرة والانفعالية عند المرأة ، وكذلك عند جميع الرجال الطبيعيين[1] فى كل الظروف . وإلى هذه الصفات يرجع إنتاج العقل والإبداع الذى يصبح بواسطة رقة الشعور وحسن الاختيار والتذوق إنتاجاً فنياً ، حتى ولو كان هذا الإنتاج يحتاج — لكى يخلق أعمالا عظيمة — إلى القوة العضلية والذكاء ، أو إلى دوافع أنانية تحرك وترفع حافز العمل عند الرجل » .

(١) يقصد « تونيز » بكلمة « الطبيعيين » ، الرجال قبل أن تغيرهم حياة المجتمع السياسى .

وتؤدى هذه الكلمة إلى رأى غريب عن العبقرية يسرد « تونيز » تفاصيله بقوله : « يبدو لنا على هذا النحو أن نواة العبقرية ، وأن أحسن ما فى الرجل يرجع إلى ما ورثه عن طريق الأم . ولذلك فان الرجل العبقرى يظل فى كثير من صفاته ، ذا طبيعة أنثوية ، فهو ساذج مخلص وديع ، لمّاح سريع تقلب المزاج ، هادىء أو ميال إلى الكآبة . وهو بعد ذلك حالم ، شارد الذهن ، يعيش كما لو كان تحت تأثير نشوة دائمة يعطى من ذاته للناس بإيمان وثقة .

ونتيجة لكل هذا قد يبدو مثل هذا الإنسان المتحمس — فى نظر الناس العاديين الذين يدبرون أمورهم بعقل بارد — مقهوراً أو مخبولا ، بل أبلها أو سخيفاً ، أوكرجل ثمل بين رجال واعين . وسلوك المرأة عندما تكون أحكامها حرة غير مقيدة بقيود ، لا يختلف كثيراً عما ذكرنا ؛ ولذلك فالرجال العاديون لا يفهمونها وتبدو فى نظرهم سخيفة .

وفى الحقيقة تظهر عند الرجل العبقرى فى قوة ونماء ، الصفات التى قد تظهر فى شكل ما عند الكائنات المزودة بالقدرة على الكلام . وهو أكثر النماذج اقتراباً من نموذج الرجل الكامل الذى نريد أن نصوره كمثال أعلى . وذلك لأن القوة العضلية والشجاعة تتفاضل بها الحيوانات فيما بينها ؛ أما الطاقة الذهنية أو العبقرية فيختص بها النوع البشرى ، حتى ولو على سبيل الإمكان لا التحقيق . فالإنسان العبقرى هو الإنسان الفنان ؛ هو الشكل النامى (أو الزهرة) للإنسان الطبيعى (البسيط والحق) .

وإذا سلكت المرأة وسلك الرجل كل حسب تكوينه : الأولى ككائن طبيعى ، والثانى ككائن مصطنع ، فان الرجل الذى تسود عنده الإرادة العضوية يكون ، مع ذلك ، ما زال مصطنعاً بالروح الأنثوية ، وهو يتخلص من هذه الروح عن طريق الإرادة الواعية ، والمفكرة ، وحينئذ فقط يبدو فى صورة الرجولة الخالصة . وقد يميل الشعراء والمفكرون إلى امتداح المجهول فى المرأة ، والعمق الخفى فى كيانها ومشاعرها ، والصفاء فى روحها . وهذا الميل يدل على أننا نحتاج ، فى بعض الأوقات لأن نتذكر كل ما فقدناه عندما أصبحنا نفكر ببرود ، أى عندما أصبحنا نعمل فى ضوء العقل وحده .

ومع ذلك فالطبيعة لا تدمر نفسها ، إلا لتنمى بطريقة جديدة عناصر طاقتها . إذ أن الإنسان يعود إلى لذة التأمل والمحبة اللذين قضى عليهما التدبير والتطلع ، عن طريق أصفى المعارف وأسماها ، وذلك حين تصبح المعرفة فلسفة .

تلخيص

وفى ختام هذا البحث نورد ملخصاً للأفكار الأساسية التى جاءت فى كتاب « الجماعة والمجتمع » ، وقد أثبت هذا التلخيص المؤلف نفسه فى بعض فصول الكتاب :

الفروق بين المرأة والرجل

المــزاج

عندالمرأة	عند الرجل
يتميز باللون العاطفى	يتميز بالنشاط المغرض

الصفة المميــزة

عند المرأة	عند الرجل
سيطرة الشعور	سيطرة العقل

التفكـــير

عند المرأة	عند الرجل
يعتمد على الحدس	يعتمد على المعرفة الموضوعية

الفروق بين الجماعة والمجتمع

الجماعة	المجتمع
الإرادة العضوية	الإرادة الواعية
الأنا (أو الذات)	الشخصية
التملك (أو الاستحواذ)	الملكية التعاقدية
الاعتماد على الأرض أو التربة	الاعتماد على المال
سيادة القانون العائلى	سيادة قانون الالتزام

صورة سيدة لهنرى جيمس

بقلم
الدكتورة انجيل بطرس سمعان

يعد هنرى جيمس من أعظم الروائيين فى العصر الحديث ومن أهم الأسماء فى تاريخ الرواية الإنجليزية بوجه خاص . فبالرغم مما لاقاه فى حياته من فتور وما لاقته أعماله من كساد ، كان يعزى فى كثير من الأحوال لصعوبتها وتعذر فهمها على القارئ العام ، إلا أنه يشغل الآن مكانة أدبية ممتازة ، وتحظى أعماله باهتمام كبير فى الأوساط الأدبية فى إنجلترا والولايات المتحدة على حد سواء . وترتكز مكانته الأدبية على سجل حافل من الأعمال الروائية والنقدية . إذ لم يكن جيمس روائياً مبدعاً من الطراز الأول فحسب ، بل كان أيضاً ناقداً هاماً فى مجال نقد الرواية ، فكان أول من يمكن أن يقال عنه إنه أقام النقد الروائى على نظام موضوعى . كما أضاف إلى هذا الميدان ثروة كبيرة من الكتابات النقدية والألفاظ والعبارات النقدية التى كان يفتقر إليها .

وهنرى جيمس فنان أصيل واع بقيمة فنه وقدسيته ، اهتم أكثر ممن سبقه من الروائيين الجادين من أمثال جين أوستن وجورج إليوت بتأكيد فكرة الرواية كفن رفيع وقدسية عمل الفنان الجاد[1] ، وكرس حياته لتطبيق ما نادى به من مبادئ وآراء فى أعماله المبدعة الكثيرة . فقد سعى جيمس لتوسيع إمكانيات هذا الفن مستخدماً فى سبيل ذلك جميع الوسائل والأساليب الفنية الممكنة ، مستعيراً من بعض الفنون الأخرى كالتصوير والمسرح كل ما من شأنه أن يجعل الرواية أعظم تأثيراً وأكثر قدرة على تصوير الحياة ، ولذا اهتم بتأكيد أهمية الشكل والبناء الفنى للرواية .

كان جيمس بالرغم من دقته المتناهية واهتمامه الشديد بالإجادة والارتقاء بعمله إلى أعلى مراتب الكمال ، كاتباً خصباً غريز الإنتاج . امتدت حياته الأدبية إلى ما يقرب من الخمسين عاماً كتب فيها تسع عشرة رواية وتسعاً وستين قصة قصيرة وثلاثة أجزاء من السير الذاتية إلى جانب ست مسرحيات وعدد كبير من كتب

---

(١) انظر مقاله « الفن القصصى » فى :
"The Art of Fiction" (New York, 1948), pp. 3-23.

أو

"Views on the Art of the Novel", compiled by Angele Botros Samaan (Cairo, 1965), pp. 115-144.

الرحلات والتراجم والدراسات النقدية والمقـالات المتفرقة التى جمع منها للآن ستة أجزاء إلى جانب ما طبع من مذكراته . كذلك راسل جيمس عدداً من كبار كتاب عصره وطبعت من رسائله الخاصة والأدبية عدة أجزاء[1] .

وقد امتازت أعمال جيمس بطابع خاص نتيجة لميوله الأدبية الشخصية ولظروف نشأته وثقافته من ناحية ولطبيعة مرحلة التطور التى كانت تمر بها الرواية الإنجليزية من ناحية أخرى . فقد جمع جيمس بين ثقافتين عالميتين : الثقافة الأمريكية الحديثة والثقافة الأوربية العريقة ، كما كتب فى فترة تعرضت الرواية الإنجليزية فيها لبعض المؤثرات الأوربية بحيث جاءت أعماله وليدة تأثره بالتراث الروائى الإنجليزى من ناحية وببعض المؤثرات الخارجية الأوربية من ناحية أخرى . فلكونه أمريكياً عاش فى أوربا رأى لزاماً عليه أن يعالج « موضوعاً عالمياً » وأن يهتم بعلاقة الأمريكى بأوربا وأثر أوربا على الأمريكيين . أما تأثره ببعض الاتجاهات فى مجال الرواية الأوربية فلعل أهم مظاهره اهتمامه بالشكل الفنى للرواية واحترامه الشديد لبعض الروائيين الأوربيين من الفرنسيين والروس مثل بلزاك وفلوبير وترجنييف .

نشأته وبدء حياته الأدبية

ولد هنرى جيمس فى مدينة نيويورك عام ١٨٤٣ وقضى صـباه متنقلا بين الولايات المتحدة وأوربا ثم عاد إلى أوربا شاباً يافعاً متفتحاً للحضارة الأوربية متنقلا بين مسارحها فى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا ، وأخيراً استقر به المقام فى إنجلترا وإن لم يتخذ الجنسية البريطانية إلا فى عام ١٩١٥ أى قبل موته بسنة واحدة .

نشأ هنرى جيمس فى أسرة ثرية مثقفة ، فقد ورث أبوه ثروة كبيرة عن والده الإيرلندى الأصل الذى هاجر إلى أمريكا وكون ثروة ارتكز عليها رخاء الأسرة فيما بعد . وقد كانت هذه الثروة أداة لتثقيف الأبناء دون التقيد بالإعداد لمهنة معينة . فقد كان الأب رجلا مثقفاً بل فيلسوفاً يرى فى التقيد بمهنة معينة « تضييقاً » للأفق ، كما حدث عندما أبدى ابنه الأكبر وليم ميلا للفن ورغبة فى دراسته ، ولكنه كان يؤمن بتهيئة الفرصة لأبنائه للحصول على أكبر قدر من الثقافة . ولعل هذا الميل من جانب الأب نحو عدم التحديد بالرغم من عطفه ورقته المتناهية نحو أبنائه يفسر تصميم هنرى فيما بعد على كسب عيشه عن طريق الكتابة منذ سن مبكرة بل وتنازله عن نصيبه فى ثروة أبيه لأخته .

ومن حسن حظ الدارس لحياة جيمس وأعماله أن ترك لنا هذا الأديب سلسلة من السير الذاتية كتبها فى أواخر أيامه ، تعد سجلا حافلا لحياة جيمس المبكرة إلى بداية فترة اشتغاله بالأدب هى : « صبى صغير وآخرون » (١٩١٣) ، « مذكرات ابن وأخ » (١٩١٤) و « السنوات الوسطى » التى لم يتمها جيمس ونشرت بعد وفاته (١٩١٧) .

ويبدو واضحاً فى هذه الأعمال احترام هنرى لأبيه وتقديره له . أما الأم فقد كانت مصدر حب وحنان وإحساس بالجمال وشعور بالأمن لجميع أفراد الأسرة التى بلغ عدد أبنائها خمسة أكبرهم وليم جيمس الفيلسوف المعروف ، يليه هنرى الذى يصغره بثمانية عشر شهراً ثم يتبعه ابنان آخران وابنة تدعى أليس .

وقد شغل الأب بتعليم أبنائه ، وتردد طويلا بين أوربا وأمريكا ومزايا كل منهما ، فقد رأى أول الأمر أن يتلقى الأبناء تعليمهم فى وطنهم ولكنه عاد فقرر إرسالهم إلى أوربا عام ١٨٥٥ . فقد كان يريد لأبنائه أن يفيدوا أكبر إفادة من تلك الثقافة الأوربية العريقة التى تفتقدها أمريكا ولكنه عاد فاستدعاهم للوطن ليعود

[1] (١) انظر لزيادة التفصيل الثبت البيليوغرافى الملحق بكتاب :
F.W. Dupee, "The Question of Henry James" (New York, 1945).

فيرسلهم مرة أخرى لسويسرا عام ١٨٥٨ حيث بقوا إلى عام ١٨٦٠ عندما عادوا إلى أمريكا حيث استقر بهم المقام فى نيويورك أولا ثم فى بوسطن . وهكذا قضى هنرى طفولته متنقلا بين أوربا وأمريكا وتلقى تعليمه فى مدارس نيويورك وجنيف وباريس وبولونيا على أيدى مدرسين من مختلف الجنسيات . وبالرغم من أن هذا التغيير المستمر قد أقلق هنرى إلا أنه قد استفاد كثيراً دون شك . لم يبرز هنرى فى دراسته إذ لم يكن يستطيع معالجة أصغر مسألة ميكانيكية أو هندسية ، ولكنه قرأ كثيراً واكتسب كثيراً من التجارب .

ومن بادئ الأمر نرى سحر كلمة أوربا يلهب خيال الصبى الصغير الذى راح يحلم بتلك البلاد إلى أن أصبح الخيال حقيقة عندما أرسله والده إلى سويسرا . وهكذا يظل هنرى الشاب مشدوداً إلى أوربا مبهوراً بثقافتها وكنوزها الفنية ، يعبر عن ذلك كله عندما يعود إليها ليزور إيطاليا لأول مرة كشاب مستقل لا كطفل يذهب إلى المدرسة كما سنرى .

أما السنوات التى سبقت بدء حياته الأدبية مباشرة فكانت بداية فترة قلق واضطراب لا نعرف عنها الكثير ، فقد بدأت الحرب الأهلية فى ربيع ١٨٦١ وأصيب هنرى فى أواخر هذا العام إصابة فى ظهره منعته من الاشتراك فى الحرب ، فأثر ذلك فى حالته النفسية ، ومما زاد الحالة سوءاً أن إصابته لم يمكن تشخيصها على وجه التحديد مما أدى إلى اهمال علاجها ، فقاسى من جرائها كثيراً من الألم والمرارة .

بدأ نشاط هنرى جيمس الأدبى عام ١٨٦٤ ونشر بين هذا التاريخ وعام ١٨٦٨ اثنتى عشرة قصة قصيرة وحوالى خمسين عرضاً للكتب ، وتعرف ببعض كتاب عصره ممن اتصل بهم بشأن نشر كتاباته مثل لويل ونورتون وبدأ صداقة وثيقة مع و . د . هاولز . ولعل أهم ما يلفت النظر بشأن هذه الفترة ليس نوع كتابته أو درجة جودتها بالرغم من أنها كانت تحوى الكثير من دلائل القدرة على الكتابة ، بل استمراره فى الكتابة وتصميم جيمس على اتخاذ الكتابة مهنة يكسب منها عيشه ، ولعل هذا يعوض ما يشعر به القارئ من أن جيمس لم يكن لديه شىء ذو بال يقوله ، إذ يدور الكثير من قصصه حول شبان مهزومين حائرين .

لم تدم هذه الفترة طويلا على أية حال ، ففى عام ١٨٦٩ قام جيمس بزيارة لأوربا كان لها أكبر الأثر فى نفسه وأصبح هذا التاريخ نقطة تحول فى حياته وكأن هذه التجربة قد فكت عقال نبوغه فأصبح لديه من ذلك الوقت ثروة كبيرة من المادة الهامة للكتابة .

وجدير بنا قبل أن نعالج هذه الفترة الغنية بمصادر الإلهام أن نوضح أن صداقات جيمس أثناء سنوات الحرب الأهلية الصعبة وما بعدها قد تركت فى نفسه آثاراً لا تمحى وحببت إليه إلى الأبد بعض نواحى الحياة الأمريكية . فنجد مثلا فى « صبى صغير وآخرون » ذكريات سارة عن صفات الشباب الأمريكى الذين عرفهم عن قرب من عدم تكلف وبساطة وإخلاص وحسن نية وروح اجتماعية . وهو يقارنهم بمن عرفهم من شباب بعض الجهات الأخرى التى زارها بصفاتهم المضادة لهذه الصفات الطبيعية غير المتكلفة ، إذ يبدو هؤلاء أكثر تدريباً واستعداداً وتأهباً وتسلحاً لمواجهة الحياة الاجتماعية من الشباب الأمريكى . ولعل أحب شخصيات هذه الدائرة التى عرفها جيمس لنفسه كانت قريبته مينى تمبل التى قضت فى شبابها بداء الصدر ولم تبلغ من العمر أكثر من أربعة وعشرين ربيعاً ، والتى تلوح فى كتابات جيمس كرمز وضاء لجميع صفات الفتاة الأمريكية الكاملة والتى أوحت لجيمس باثنتين على الأقل من خيرة بطلاته هما إيزابيل آرتشر بطلة « صورة سيدة » موضوع هذا المقال وميلى ثيل بطلة « جناحى اليمامة » . وعنها يكتب جيمس :

« لقد كانت طبيعية لدرجة تبلغ حد الكمال . . . كانت طبيعية فى عدد من النقط وبخصوص عدد من

الأشياء ومدى أكثر اتساعاً من الحرية والبساطة وامتداد الأفق بدرجة تفوق بكثير ما يمكن أن تحلم به الأخريات من بنات الخؤولة والعمومة»[1].

لقد كانت «تمثل صورة وقوام ما يشعر به المرء فى الحياة من اهتمام، اهتمام يمتد بعيداً بلطف أو يثبت بألفة وجمال، كما قد يحدد ذلك رقة إحساسها الرائع المتغير، إحساسها الخلقى، الشخصى، أو العصبى». لقد كان جوهر حياتها أن تنغمس بنشاط فى الحياة «لقد طالبت بها الحياة واستخدمتها وأزعجتها، وجعلتها تتنقل فى تحسس طريقها، طريقها الغض وغير المضىء من بداية السلم إلى نهايته»[2]. لقد كان موت مينى تمبل بعد نضال عنيف للتغلب على المرض نهاية مرحلة فى حياة هنرى وأخيه وليم. لقد كانت «نهاية شبابهما».

أما المصدر الآخر لإلهام جيمس فهو أمريكيته. وهنا نجد جانباً هاماً من جوانب إعداده. فقد نشأ جيمس فى بيئة أمريكية ثم انتقل إلى بيئة أوربية ولذا أحس بأن لديه القدرة على رؤية هذه البيئة والكتابة عنها من وجهة نظر جديدة، فهو ككاتب أمريكى يتمتع بامتيازات وفرص لا تتوفر لسواه، كما يكتب لأحد أصدقائه:

«إننا أمريكيون مولداً، وعلينا أن نقوم بدورنا كذلك. إنى أعتبر ذلك عطية عظيمة من السماء. وأعتقد أن كون المرء أمريكياً يعده إعداداً عظيما للثقافة. إننا كشعب نملك صفات جميلة ويبدو لى أننا نفوق الأجناس الأوربية فى أنه يمكننا أكثر من كل منها أن نعالج بحرية أشكالا من الحضارة غير حضارتنا ويمكننا أن نختار وأن نمتص جمالياً، بل وأن نجد ما نعتبره ملكاً لنا فى أى مكان... لا بد أن يكون لنا بالطبع شىء خاص بنا — شىء مميز ومتماثل — وأعتقد أننا سنجد هذا الشىء فى وعينا الخلقى وفى قوتنا وخفتنا الروحية التى لم يسبق لها مثيل»[1].

ويمكن ربط مثل هذا القول بما سبق الإشارة إليه من صفات الشباب الأمريكى التى تمثله مينى تمبل، ومما يمكن أن يطلق عليه فكرة «الأمريكية». فقد أدرك جيمس فيما بعد أن لعلاقة الأمريكى بأوربا وجوهاً مختلفة عبر عنها بقوله «إن كون المرء أمريكياً مصير مفعم بالتركيب والتعقيد». ويمكن اعتبار رواياته وقصصه عمليات استكشاف للطرق العديدة المختلفة التى يمكن أن يظهر بها هذا التعقيد، كما يقول د. و. جيفرسون فى دراسته لجيمس.

أما زيارته لأوربا عام ١٨٦٩ فقد حملته إلى إنجلترا ومنها عبر فرنسا وسويسرا إلى إيطاليا بكنوزها الفنية وآثارها ومدنها القديمة وجوها الثقافى الخاص. وقد كان لروما أثر خاص فى نفسه كما كتب يخبر أخاه وليم عن هذه التجربة وما كان لها من أثر «لا يمكن التعبير عنه بالكلام ولا يمكن مقارنته بأى شىء آخر»:

«أخيراً — وللمرة الأولى — أحيا! [إن روما] تفوق كل شىء... إنها لا تشبه فى شىء روما التى تخيلتها — والتى قرأت عنها — لقد رحت أتمايل وأئن وسط الطرقات. فى حمى من المتعة. وجبت فى ظرف أربع أو خمس ساعات بجميع أنحاء روما ورأيت كل شىء رؤية خاطفة — الفورأم والكوليزيوم (الذى يفوق فى عظمته كل شىء)، البانثيون والكابيتول وكنيسة القديس بطرس وعمد تراجان وقصر سانت أنجيلو — وكل الميادين والأطلال والآثار. إن الأثر الذى

(١) «سيرة هنرى جيمس»
"Henry James Autobiography", ed. F.W. Dupee (1956), p. 283.
هذا الكتاب يحوى كتب السير الذاتية المشار إليها أعلاه.

(٢) المرجع السابق ص ٥٠٩.

(١) "Selected Letters of Henry James," ed. Leon Edel, 1956, pp. 51-52.
ص ٥١ — ٥٢.

يتركه ذلك شيء لا يمكن وصفه[1] .

ولم تكن روما المكان الوحيد الذى ترك فى نفسه أثراً قوياً فقد كتب خطابات أخرى تصف تأثره بانجلترا وبالإنجليز وبمن قابلهم من مواطنين فى الخارج . فقد كان جيمس يتمتع بقوة خارقة للاستجابة للأماكن المختلفة وأنواع السلوك المختلفة المرتبطة بها .

كانت زيارته هذه أصلا للعلاج ولذا عاد إلى أمريكا فى نهايتها بعد أن قضى أربعة عشر شهراً فى أوربا . ولكنه عاد فقام بزيارتين أخريين بعد أن تحسنت صحته وفى عام ١٨٧٥ قرر أن يقيم فى باريس وتعرف أثناء إقامته بالحياة الأدبية الفرنسية عن قرب ، وخاصة ببعض كبار الكتاب مثل فلوبير وترجنييف . ولكنه ما لبث أن قرر ترك فرنسا والاستقرار فى إنجلترا فى عام ١٨٧٦ . وفى إنجلترا قابل بعض الشخصيات الهامة مثل جورج إليوت ولورد تينيسون وشارك فى الحياة الاجتماعية الإنجليزية مشاركة خفيفة أول الأمر إلا أنه جمع مادة غزيرة نتيجة لما حققه من صلات اجتماعية كثيرة فيما بعد .

ولعل أهم ما نجنيه من تأملنا لسيرة جيمس الشخصية هو تلك الصورة القيمة لبزوغ الفنان المبدع ونموه وتطوره ، وذلك السجل الدقيق لما كان سيشغله فى مستقبل حياته الأدبية من موضوعات هامة .

أعماله الأدبية وتطور أسلوبه الفنى

أما أهم نتائج زيارته الأولى لأوربا فكان مجموعة من القصص التى ترجع أهميتها إلى وصف الأماكن التى زارها مثل « السائح الشغوف » (١٨٧١) و « سيدة المستقبل » (١٨٧٣) ، إلى جانب سلسلة من كتب الرحلات بدأت فى الظهور عام ١٨٧٢ .

ويمتاز إنتاج جيمس فى السبعينات بغزارته وتنوعه فقد بلغ عدد ما نشره فى الدوريات فى عام ١٨٧٥ نحو سبعين عملا . فبالإضافة إلى القصص القصيرة وعرض الكتب كان هناك الكثير من أدب الرحلات والنقد الأدبى والمسرحى . وظهرت قدرة جيمس الطبيعية على الوصف البليغ اللماح . وتعكس قصص هذه الفترة وروايتها قدرة كبيرة على تصوير علاقة الأنماط الأمريكية بجوانب هامة لأوربا والأوربيين . كما تمتاز بثروة فى المادة التسجيلية نتيجة لما تمتع به جيمس من قوة ملاحظة وذكاء فطريين .

وهنا نواجه نقطة طال الجدل حولها وهى إلى أى حد كان جيمس مهتما بتقديم ما يوصف « بالموضوع العالمى » وإلى أى حد كان مهتماً أصلا بتقديم أنماط أمريكية . وفى هذا الصدد يقول جيفرسون : « من السهل أن نخطئ باعتبارنا المواقف العالمية فى رواياته ذات أهمية هامشية أو جانبية لأنها تنصب فقط بالطبع على أولئك الأشخاص غير العاديين الذين يتزوجون من أجانب أو الذين يصنعون لأنفسهم حياة مصطنعة مختلطة بالحياة فى الخارج أو أولئك الذين تدل حريتهم فى السفر على عدم ارتباطهم بمجتمعهم . غير أنه يمكن الرد على ذلك بالقول بأن وضع الأمريكيين والأوربيين جنباً إلى جنب ومقارنتهم كان وسيلة مؤثرة جداً أولا لاكتشاف الأنماط الأمريكية ثم لتقديم هذه الأنماط تقديماً أكثر حدة وتأكيداً . فمن صفات القصة العالمية أنها وسيلة « فنية » لتحديد السلوك الأمريكى وتوضيحه . ففى مثل هذه الدراسات الصغيرة مثل « حزمة من الرسائل » ١٨٧٩ و « وجهة النظر » ١٨٨٢ ، حيث يكمن معظم السرور فى الملاحظات التى تبديها الشخصيات التى تمثل أنماطاً قومية واجتماعية مختلفة بعضها على البعض الآخر ، يظهر بوضوح كبير فضل وضع الأمريكيين فى وسط عالمى . فمن ناحية معينة تتطلب المادة ذاتها هذا التطور . إذ يمكن اعتبار الكثير من حاجات الأمريكيين وأمانيهم

(1) "The Letters of Henry James," ed. Percy Lubbock (1920), Vol. I, pp. 24-5.

وأوهامهم وإما متصلة اتصالا مباشراً بأوربا أوعلى الأقل فالتعبير عنها تعبيراً كاملا أكثر احتمالا فى بيئة أوربية . وهكذا تمكن الجدل بأن أولئك الأمريكيين الذين تزوجوا فعلا من أجانب أو الذين أصبحوا أكثر أوربية من الأوربيين فى مسائل المعرفة بأمور الفن هم أشكال نموذجية وحالات مفيدة ومتصلة اتصالا مباشراً بدراسة الأمريكية . فعندما أحضر جيمس بعض الشخصيات لأوربا كان يهيئ لها الفرصة لتبدو بوضوح أكثر أمريكية مما لو فعلت دون ذلك »[1].

وبالرغم من أن أعمال هذه الفترة لم تكن كلها ناجحة إلا أنها جميعاً تساعدنا على فهم تطور طريقة جيمس فى الكتابة فى الفترة المتأخرة . ولعل « مدام موف » ١٨٧٤ أول قصة حقق فيها مستوى رفيعاً من التكنيك أو الأسلوب الفنى .

أما « رودريك هدسون » ١٨٧٥ فأول رواية هامة تحوى موقفين أمريكيين كبيرين على الأقل ، وتعالج حياة شاب أمريكى فنان يذهب ليتعلم الفن فى روما ولكنه يفشل . تليها « الأمريكى » (١٨٧٦ — ١٨٧٧) وتقدم نيومان الذى يمثل رجل الأعمال الأمريكى ، وتجمع شخصيته النجاح فى عالم الأعمال مع سجل مشرف فى الحرب الأهلية ، فى اصطدامه بالنظام الأرستقراطى الأوربى — تقدم أكثر الأنماط الأمريكية تميزاً . ويلى « الأمريكى » « الأوربيان » وفيها يدير جيمس ظهره لأوربا مسرح المغامرات والمواقف المتطرفة ويقبل على معالجة الحياة العائلية الهادئة لأسرة من أسر بوسطن المحافظة . وينقل لنا بمهارة تدعو إلى الإعجاب جو الجدية والاهتمام بالحياة الداخلية الذى تتميز به حياة هذه الأسرة. أما الأوربيان فهما شاب وفتاة ينتميان بصلة القرابة إلى هذه الأسرة، يعودان من أوربا ويختلفان دون شك فى كثير من أوجه سلوكهما . ويجيد جيمس تصوير عملية الملاءمة التى تحدث بين مرح الزوار وحريتهم الكبيرة نسبياً وبين جدية حياة الأسرة الأمريكية ووقارها . وتعد « الأمريكى » من أعمال جيمس الناجحة التى تستحق من الاهتمام قسطاً أكبر مما تحظى به فعلا . ويمكن القول بوجه عام إن أهم موضوعات هذه الفترة هو تصوير الاتجاهات والمواقف الأمريكية فى بيئات أوربية. غير أن هذا الموضوع يعالج بأساليب مختلفة تدل على خصوبة خيال جيمس وثرائه .

أما موضوع الفتاة الأمريكية الذى شغل به جيمس فى كثير من أعماله فقد عالجه فى عــدة أعمال أهمها قصتا « ديزى ميلار » و « حــدث دولى » وروايتا "The Reverbrator" و « صورة سيدة ». أما « ديزى ميللر » فهى قصة من النوع الذى يطلق عليه لفظ «نوفيللا» لأنها أطول من القصة القصيرة ولكنها ليست رواية . وتعد « ديزى ميللر » من خير أعماله وأنجحها . ديزى فتاة أمريكية جميلة جذابة ولكنها لا تعرف أصول السلوك فى المجتمع التقليدى . وقد رأى جيمس أن خير وسيلة للكشف عن نوع سلوك ديزى أن يقدمها لنا فى هذا المجتمع . ويصور لنا كيف تفزع السيدات الأمريكيات المستقرات فى أوربا ويشعرن بالحرج والارتباك من سلوكها . إذ تمثل هذه السيدات إطاراً من السلوك المقبول والمتواضع عليه والذى يعد كل عمل مخالف تأتيه ديزى تعدى إرادى أو لا إرادى عليه . ولكن فن جيمس يتلخص فى تقديمه ديزى وحماقاتها من وجهة نظر عريف بطرق هذا المجتمع ولكنه فى نفس الوقت متجاوب مع ديزى ، فهو سهل الوقوع تحت تأثيرها ولكنه يقف منها موقف الناقد الذى لا يتقبلها على علاتها وكأنه يقف منها موقفاً وسطاً يمكنه من الحكم على سلوكها وتفهمه فى نفس الوقت. وهذا الشخص مرهف الحس وعلى درجة كبيرة من الذكاء تمكنه من تحليل موقفه بالنسبة لديزى . فهو يشعر مثلا أنه قد عاش فى جنوه بعيداً عن أمريكا فترة من الزمن جعلته يحس

(١) D.W. Jefferson, "Henry James", (1960), pp. 18-19.

بشيء من الارتباك فى هذا الموقف ، فهو يحس أنه قد فقد الصلة بالمزاج الأمريكى الشاب . وتبرز استجابته لديزى ما تهدف القصة إلى إبرازه ، نوع جمالها الذى يصعب تحديده والإحاطة به . فكلما صعب تحديد هذا الجمال بمعناه الواسع والإحاطه به ، وكلما صعب اكتشافه فى محل أعمالها الحمقاء الخاطئة ، زاد السرور عندما ينقذها هذا الجمال فى النهاية . فهى قد تبدو كما تقول إحدى تلك السيدات « عادية » أو خالية من علامات التهذيب والرقى الاجتماعى ، ولكن هذا الوصف لا يمكن أن يحيط بتلك الرشاقة الطبيعية العجيبة التى تتمتع بها . وهكذا نجد ونتربورن مشغولا تماماً بمحاولة الإحاطة بهذه الظاهرة الهائلة وهى سلوك ديزى ، وفى متابعة نشاطه الذهنى تبقى القصة حية مثيرة للاهتمام والسرور . وهكذا نرى أن شخصية ديزى تجمع بين جنباتها شيئاً يندر وجوده فى الحياة ، ولعل هذا ما كان يرمى جيمس إلى تصويره وما يعنيه عندما قال إن هذا النمط « شعر خالص » . فبالرغم من أنها نشأت فى بيئة غير مواتية هى المسئولة عما فى سلوكها من شطط وحماقة إلا أنها تتمتع بتلك البراءة وعدم التكلف التى تتميز بها الفتاة الأمريكية والتى تنقذها فى النهاية من السوقية .

وقد وجد جيمس فى موضوع الفتاة الأمريكية مجالا خصباً يمتاز بالجدة والنضارة ويتحمل التحديات الفنية فى المجال الروائى ، فقد كان فى جدتها وعدم تكلفها فى وجه التقاليد وأنواع السلوك الاجتماعى الثابتة مجال للشعر والمسرح والملهاة والمأساة ، فخلق على غرار ديزى ميللر عدداً من البطلات الأمريكيات الرائعات .

وإذا كانت الفتاة الأمريكية فى الأعمال الثلاثة الأولى السالفة الذكر موضوعاً للملهاة الاجتماعية ، فبالرغم مما تثيره الملهاة فيها جميعاً من أمور جدية ، إلا أنها فى الرواية التالية من أعمال جيمس وهى « صورة سيدة » تعالج على مستوى مختلف تمام الاختلاف . فهذه رواية مأسوية من الطراز الأول ، وبطلتها إيزابيل آرتشر كما سنبين بالتفصيل من أهم بطلات جيمس وأكثرهن إثارة للعطف والاهتمام .

وتعد « صورة سيدة » علامة على الطريق فى حياة جيمس الأدبية لأنها تمثل نهاية المرحلة المبكرة وأعظم أعمالها من ناحية ولأنها آخر أعمال جيمس الهامة قبل وفاة والديه فى عام ١٨٨٢ وانقطاعه عن زيارة أمريكا إلى أن قام بزيارته الأخيرة فى عام ١٩٠٤ ، ١٩٠٥ من ناحية أخرى .

يلى ذلك عملان هامان هما « أهل بوسطن » ، و « الأميرة كازاماسيما » (١٨٨٥ — ١٨٨٦) وتعالج الأولى أمريكيين فى أمريكا ويعتبرها كثير من النقاد من خير أعمال جيمس ، أما الثانية فتعالج المثالية الثورية وتتخذ لندن مسرحاً لأحداثها . ولعل أهم ما يجب الإشارة إليه هنا بشأن هاتين الروايتين اللتين يتفق معظم النقاد الآن[1] ، على نجاحهما وروعتهما هو أنهما استقبلتا فى الثمانينات استقبالا سيئاً جداً أصاب جيمس بخيبة أمل كادت تحرم الفن الروائى من عبقريته . ولنستمع إليه يحدث صديقه و . د . هاولز فى أول ١٨٨٨ قائلا :

« لقد أقبلت على أيام شريرة — ولكن هذا سر بيننا — إن هذا يبدو أمراً جللا . ولكنه يعنى فقط أننى أترنح تحت وطأة هذه الضربة الغامضة التى تبدو أنها قد أصابت موقفى عن طريق « أهل بوسطن » و « الأميرة » التى كنت أتوقع منهما خيراً كثيراً ولكنهما لم تعودا على بشيء يذكر . فقد قللتا الرغبة فى إنتاجى والطلب له لدرجة الصفر — كما أحكم من أنه بالرغم من كتابتى لعدد من الأشياء الصغيرة الجيدة ، فإنها لا تجد لها مكاناً للنشر ، إذ يؤجلها رؤساء التحرير لشهور ، بل

---

(١) انظر مثلا رأى ليفيز فى الأولى

F.R. Leavis, "The Great Tradition" (1960), p. 153.

ورأى ليونيل تريللنج فى الثانية

Lionel Trilling, "The Liberal Imagination" (1961 edition), p. 61.

لسنوات كما لو كانوا يخجلون منها ، وهكذا يبدو وكأنه قد حكم على بالصمت إلى الأبد » .

من هـــذه « الأشياء الصغيرة الجيدة » « درس المعلم » ، « الكذاب » و « أوراق أسبيرن » . وفى عام ١٨٩٠ أصدر « ربة المأساة » ثم « التلميذ » ولكن دون أن يحدث أى تغير فى الموقف . ولكن هذا لم يفل من عزيمة جيمس إذ استمر فى العكوف على الكتابة مؤملا خيراً فى الأيام المقبلة :

« ولكنى على أية حال لا أيأس إذ أعتقد أننى أحسن حالا مما كنت فى أية فترة أخرى من حياتى ، وما زلت أنوى القيام بأعمال كثيرة . ومن المحتمل أيضاً أن نثرى المدفون كله سيرفس الشواهد المقامة على قبره ويبعث حياً دفعة واحدة يوماً ما » .

ولكن جيمس بالرغم من ذلك حاول الهرب من مصيره الذى كان يبدو محتوماً بأن كتب للمسرح عله ينال شيئاً من التقدير ويربح شيئاً من المال ، ولكنه سمى هذه المرحلة فيما بعد مرحلة « نشارة الخشب وقشر البرتقال » . كافح جيمس مع هذا النوع الأدبى حتى خيل له أنه تمكن منه . وأثارت بعض مسرحياته شيئاً من الاهتمام ، ولكن ما لبث جمهور المسرح أن انصرف عنه وفشلت المسرحية التى ظنها خير مسرحياته « جاى دومفيل » فشلا ذريعاً فى عام ١٨٩٥ .

وتعد هذه الفترة من أسوأ مراحل حياته الأدبية . عبر عن بعض ما عاناه فيها فى بعض قصصه مثل « موت الأسد » (١٨٩٤) ، « السنوات الوسطى » (١٨٩٥) و « المرة القادمة » (١٨٩٥). وجميع أبطال هذه القصص كتاب مرهفو الحس يؤلمهم إعراض الجمهور العديم الحس ، كما يؤلمهم تماماً اهتمامه الخاطئ بهم . وجدير بالملاحظة أنه وإن صور هؤلاء الأبطال بعض نواحى شخصية جيمس إلا أنهم يختلفون عنه كثيراً أيضاً . ويعتقد النقاد أن هذه الأعمال قد أسهمت بقدر فى الإساءة لسمعته إذ أن هؤلاء الأبطال بإحساسهم المرهف لدرجة قد تبلغ حد الشذوذ ورقتهم وجمال أسلوبهم كانوا قريبى الشبه بأولئك الجماليين الذين كان ينظر إليهم بشىء من الاستنكار . ومن المتناقضات أنه بقدر ما كان لجيمس من قدرة على تصوير مثل هذه الاتجاهات بعنف وحيوية بقدر ما كان هو نفسه شخصاً مختلفاً تماماً .

ولا يسعنا إلا أن نعتبر فشل مسرحية « جاى دومفيل » حدثاً سعيداً إذ دفع جيمس إلى معاودة آماله ومحاولاته بالنسبة لعماله الأصلى وهو الكتابة الروائية ، ففى الفترة التالية وصل فنه إلى أقصى مراحل تطوره ونضجه .

وفى عام ١٨٩٧ أى بعد مرور عامين على فشل هذه المسرحية قام جيمس بعمل يكاد يكون رمزياً فى مدلوله . فقد أدار ظهره لمدينة لندن وحياتها الاجتماعية الحافلة وصلاتها العديدة واتخذ لنفسه بيتاً قديماً فى بلدة راى بمقاطعة سَسِكْس حيث كرس حياته لعمله وفنه غير أن هذه العزلة لم تكن عزلة كاملة . فبالرغم من أنه رفض الانتماء إلى أية جمعيات أو منظمات أدبية ، بل واعتذر عن قبول شرف رئاسة الجمعية الأدبية الإنجليزية إلا أنه ظل محتفظاً بعضوية ناديه فى لندن كما ظل بابه مفتوحاً لاستقبال أصدقائه المقربين من كبار الأدباء والكتـــاب .

فاذا ألقينا نظرة سريعة على الأعمال الروائية التى تلت « أهل بوسطن » و « الأميرة كازاماسيما » لوجدنا جيمس يوجه اهتماماً خاصاً بالمواضيع الانجليزية أولا ثم يعود إلى موضوعه الأثير ألا وهو الأمريكى فى أوربا . ولا يمكن القول بأن هناك نقطة بداية محددة لمرحلة اهتمامه بالمواضيع الإنجليزية فبعد « السائح الشغوف » تمضى سنوات قبل أن تستأثر هذه المواضيع باهتمامه ، وإن كانت هناك أمثلة لذلك مثل مشهد الافتتاح فى « صورة سيدة » وشخصية لورد واربرتون بها أيضاً ، إلى غير ذلك من أعمال مثل « الحدث الدولى » و « ليدى

باربارينا » . إلا أن هذه الدراسات تزداد فى النصف الثانى من الثمانينات وتسود فى التسعينات كما فى قصة « الشيء الحقيقى » (١٨٩٣) و « ربة المأساة » (١٨٨٩ — ١٨٩٠) ، و « غنائم بوينتون » (١٨٩٦) و « السن الحرجة » (١٨٩٩) و « النافورة المقدسة » (١٩٠١) .

ويبدى جيمس معرفة تتسم بالدقة والعمق بطرق الحياة فى المجتمع الإنجليزى وبتقاليده وتزمته وأرستقراطيته وماديته وقيمه وحدوده . ولكنه بوجه عام لا يؤكد النقد الاجتماعى النوعى هنا ، إذ بينما يرى جيمس نقائص هذا المجتمع وعيوبه إلا أنه يرى فيه أيضاً « ثمرة من أنضج ثمار الزمن » . يقول جيفرسون « وإذا كان جيمس لم ينتم تماماً إلى المجتمع الإنجليزى فحد ذلك من عمله فى بعض النواحى ، إلا أن ذلك أعطاه ميزة كبيرة ، إذ جعله أكثر قدرة على التركيز بحدة على بعض المميزات التى بدت له مركزية ونمطية ، وعلى بعض الشئون التى قد لا تلفت نظر الكاتب الإنجليزى أو التى قد لا ينظر إليها من وجهة نظر نقدية . . . ويمكن القول بأن جيمس قد صور بعض نواحى المشهد الإنجليزى تصويراً أكثر حيوية وذكاء مما فعله أى كاتب آخر »[1] .

أما الفترة الأخيرة من حياة جيمس الأدبية فتشمل ثلاثة أعمال هامة يعدها كثير من النقاد ذروة ما وصل إليه الفن الروائى من ناحية الأسلوب والصنعة الفنية ، لا يشذ عن ذلك سوى نفر قليل يفضلون عليها بعض الأعمال المبكرة مثل « صورة سيدة » و « أهل بوسطن » . وهذه الأعمال هى « أجنحة اليمامة » (١٩٠٢) ، « السفراء » (١٩٠٣) و « الكأس الذهبية » (١٩٠٤) هذا بخلاف عملين لم يتممهما جيمس ونشرا بعد موته هما « البرج العاجى » و « الاحساس بالماضى » (١٩١٧) .

بدا اهتمام جيمس بالحقائق النفسية والخلقية أو بما يشار إليه عادة بالحياة الداخلية من بادئ الأمر . وإذا كان من الطبيعى أن تزداد رؤيته للحياة نضجاً وعمقاً بمرور الزمن ، فان ما يلفت النظر بشكل واضح هو تطور أسلوبه الفنى وما يضفيه ذلك على أعماله من إحساس بالعمق وصدق الرؤية وإدراك لدقائق المشاعر والانطباعات . يبدو ذلك واضحاً أشد الوضوح إذا قارنا « ميدان واشنطون » مثلا « بصورة سيدة » فهما تعالجان موضوعاً متشابهاً بعض الشيء . ولعل أهم ما يلفت النظر أن جيمس استمر فترة طويلة يستخدم الطريقة التقليدية فى كتابة رواياته . ولكنا نلحظ تطوراً فى أسلوب التعبير الفنى حتى قبل أن يبدأ فى استخدام أسلوب « وجهة النظر » القائم على الاعتماد على « وعى مركزى » ، و « عنصر موحد » كما هو الحال فى « السفراء » . وبتطور أسلوبه الفنى ازداد أسلوبه اللغوى تعقيداً وتكاثرت الصور اللفظية وزاد الاعتماد على الرمز . وكأنما أصبح هدفه الأول الوصول بعمله عن طريق جميع الوسائل المختلفة إلى الكمال الفنى الذى يستحقه موضوعه . ولا يفوتنا الإشارة هنا إلى ما يؤكده ليفيز من أن أعمال جيمس اتسمت منذ البداية بالنضج والتكامل الفنى ، وإن تفاوتت درجاتها ، ووصلت إلى أعلاها فى أعماله المتأخرة كما يرى غيره من النقاد .

« صورة سيدة » (١٨٨١)[1]

تعد « صورة سيدة » من خير أعمال جيمس وأنجحها فهى تتسم بكل ما يميز عمله من صفات فنية لم يفسدها بعد إسرافه فى الصنعة والاهتمام بمسائل البناء والأسلوب الذين بلغا مبلغاً فى أعماله المتأخرة جعل فهمها ومتابعتها أمراً شاقاً على القارئ العادى بل وأضعف — كما يذهب بعض النقاد — الإحساس بالحياة فى هذه الأعمال .

---

(١) المرجع المذكور أعلاه ص ٦١ .

(١) ظهرت « صورة سيدة » أولا فى شكل مسلسلة فى الولايات المتحدة فى « مجلة ماكميلان » (أكتوبر ١٨٨٠ — نوفمبر ١٨٨١) وإنجلترا فى مجلة « أتلانتيك منثلى » (نوفمبر ١٨٨٠ — ديسمبر ١٨٨١) .

أما هنا فنجد مثلا رائعاً لتلازم الفن والحياة الذى نادى به جيمس ، كما نجد درجة رفيعة من الفنية وروعة التصوير وثراء الأسلوب .

كان جيمس يهتم اهتماماً كبيراً بالشكل الفنى لأعماله ويسعى نحو الكمال فى تنفيذ فكرته بكل ثراء ووضوح ، ولذا نراه يعنى عناية خاصة ببناء قصته ويستبعد منها كل ما لا يمت إليها بصلة الحتمية . وهو إلى جانب ذلك يفضل التصوير أو تقديم المشاهد الحية على الاعتماد على السرد أو تلخيص الأحداث ، كما يؤمن بضرورة تحميل نسيج القصة كل ما يرغب فى نقله للقارئ دون تدخل من جانبه . ولذلك فهو يسعى إلى الاستفادة بكل إمكانيات فنه وأن يستخلص من كل مشهد أو حدث أقصى ما يمكن استخلاصه من تأثير . قوام ذلك كله شخصيات واضحة متميزة نابضة بالحياة ، ذات وعى رائع وضمائر حية متيقظة ، شخصيات تتكشف أمامنا عن طريق الحدث والديالوج ، بل وعن طريق التأمل الذاتى الذى كثيراً ما يتسم بسمة الحدث الذى يخطو بالقصة خطوات إلى الأمام ، وقدرة بالغة على تصوير الأحداث والأماكن تصويراً تجسيمياً بأسلوب معبر غنى بالصور اللفظية ، يتبع حركة الفكرة ويكون جزءاً لا يتجزأ من مادة الرواية وبنائها .

وتتميز « صورة سيدة » إلى جانب ذلك بأنها تجمع بين جنباتها أكثر من موضوع من الموضوعات التى شغلت اهتمام جيمس طيلة حياته الأدبية : إذ نجد هنا مثلا رائعاً للفتاة الأمريكية بما تتميز به من صفات ، كما نجد الموضوع العالمى الذى يتلخص فى عـــلاقة الأمريكى بأوربا يلف الرواية ويكون أحد عناصرها الهامة . كل ذلك فى قصة يمكن اعتبارها قصة عن الزواج أو الحرية أو القدر .

« فصورة سيدة » قصة فتاة أمريكية ذكية جميلة مرهفة الحس مستقلة الشخصية تواقة إلى المعرفة ، تؤمن بحريتها وتعتقد أن الحياة شىء جميل مضئ وأنه ما على المرء إلا أن يستمتع بحريته ليختبر الحياة ويحيا حياة كاملة ، ويحصل على المعرفة والسعادة وتحقيق الذات . ولكنها سرعان ما تكتشف خطأها عندما تقع فريسة خدعة كبيرة فى الوقت الذى كانت تظن أنها تمارس حريتها وتختار لنفسها الحياة التى تريدها والتى ترى فيها تحقيقاً لكل آمالها فى الحياة الحرة والمعرفة الحقة .

تنشأ إيزابيل آرتشر بطلة هذه الرواية ، كما نعرف من مجرى القصة ، فى ولاية آلبنى بالولايات المتحدة فى أسرة لا يؤمن ربها بالشدة والصرامة فى تنشئة بناته فتتمتع هذه الابنة منذ صغرها بقسط وافر من الحرية حتى بالنسبة للفتاة الأمريكية العادية التى لا تتقيد بالتقاليد الاجتماعية الأكثر صرامة والتى تلتزم بها الفتاة الأوربية أو الفتاة الإنجليزية فى ذلك الوقت بوجه خاص .

وتبدأ الرواية بذهاب إيزابيل آرتشر إلى أوربا بصحبة خالة ثرية لها تتوسم فيها الذكاء والاستقلال فتقرر منحها فرصة زيارة عدد من البلاد الأوروبية ، وتحل بها أولا فى انجلترا فى منزل زوجها مستر تتشيت الذى يعيش معظم الوقت بصحبة ابنه الوحيد رالف بينما تعيش الزوجة بمفردها فى منزل لها بايطاليا فيما عدا فترة قصيرة من كل عام تزور فيها زوجها وابنها . ثم تصطحبها إلى باريس ثم إلى إيطاليا . وتسعد الفتاة برحلتها وبلقائها بعدد من الناس وبنجاحها الاجتماعى . وتمارس إيزابيل حريتها فى رفض خطيبين يتقدمان لها مفتونين بجمالها وذكائها وشخصيتها : أحدهما نبيل انجليزى يتمتع بالذكاء والوسامة والثراء والجاه وكرم المحتد ، والآخر رجل أعمال أمريكى شاب يحبها منذ فترة طويلة . ولكنها ترفضهما معتمدة دون شك على أن فى الحيـــاة مجالا لأشياء أفضل . ويرى ذلك ابن خالتها رالف تتشيت ، الذى يحبها بدوره ولكن يمنعه المرض بداء الصدر من أن يبوح لها بحبه ، ويدرك أنها لا يمكن أن تتمتع بكامل حريتها واستقلالها مع فقرها ، فيقنع والده

أن يترك لها الجزء الأكبر من الثروة التى كان سيورثها له على أن يكتفى هو بجزء صغير منها ، ممنياً النفس بالاستمتاع بمشاهدة إيزابيل وهى تتصرف بحرية فى حياتها بعد أن كفل لها الثراء والاستقلال المادى . ولكن إيزابيل تخيب أمله عندما تقع – رغم ذكائها وفطنتها وما تعتقد أنها تتمتع به من قدرة على فهم الناس والتمييز بينهم – فى شرك تنصبه لها امرأة أمريكية مستوطنة فى أوربا هى مدام مرل وعشيقها السابق ، الفنان الأرمل الفقير جيلبرت أوزموند . وهكذا نجد إيزابيل التى تؤمن بحريتها وتسعى للاحتفاظ بها فترفض لورد واربرتون ثم كاسپار جودوود تقع فريسة هذه الحرية والمثالية . تظن إيزابيل أنها وجدت بغيتها فى هذا الرجل الذى ترى فيه إنساناً حراً وفناناً أصيلا يمكنها أن تساعده بمالها فتكتشف بعد زواجها أنه إنسان محب للذات ، عبد للتقاليد ، وما فنه وحبه للحرية وتعاليه على التقاليد إلا خداع وادعاء ، وأنه ما تزوجها إلا لمالها وما سيكفله لا بنته من عشيقته مدام مرل من نصيب محترم يكفل لها زواجاً ممتازاً .

وقبل أن نتابع أحداث هذه المأساة لنرى كيف تسلك إيزابيل عندما تكتشف حقيقة شخصية زوجها وخديعتها الكبرى ، لتجد نفسها فى عالم مظلم وسجن ضيق خانق ، وكيف تحقق المعرفة الذاتية التى كانت تنقصها بعد أن تدفع ثمن تفاؤلها ومثاليتها ورومانسيتها غالياً ، لنتوقف برهة لندرس كيف يقدم لنا جيمس هذه القصة وكيف يعالجها فنياً .

كتب جيمس فى الجزء الأخير من حياته ثمانى عشرة مقدمة لبعض أعماله الروائية التى أعيد نشرها فى طبعة نيويورك . وتعد هذه المقدمات فى مجموعها مرجعاً هاماً فى فن الرواية وتضارع فى أهميتها فى رأى أحد النقاد « فن الشعر » لأرسطو فى مجال النقد الأدبى . وبالإضافة إلى أهميتها كتعبير صادق عن كثير من آراء جيمس فى فن الرواية وكوصف لمحاولته للبلوغ بهذا الفن عملياً إلى أعلى مراتب الكمال ولتطور هذا الفن على يديه ، مما لا نستطيع شرحه هنا بالتفصيل ، فهى تلقى لنا بكثير من الضوء على الروايات الفردية التى قدم لها وعلى طريقة معالجته لها والأسلوب الفنى الذى اتبعه فى كل منهـا .

يقول جيمس فى مقدمته « لصورة سيدة » التى كتبها فى عام ١٩٠٨ أى بعد حوالى عشرين عاماً من كتابة الرواية نفسها :

« إننى عندما أحاول أن أستعيد هنا البذرة الأولى لهذه الرواية أرى أنهـا لم تتكون إطلاقاً من فكرة حبكة – هذا اللفظ الشرير – أو فى وميض من الخيال ، أو فى مجموعة من العلاقات أو فى أحد هذه المواقف التى تبدأ على الفور عن طريق منطق خاص بها فى الحركة أمام عين القصاص ، فى مسيرة عسكرية أو فى حركة اندفاعية ، فى قعقعة من الخطوات السريعة ، بل تكونت فى الإحساس بشخصية واحدة ، شخصية ومظهر شابة معينة فاتنة ، شخصية كان لا بد وأن يضاف إليها جميع العناصر العادية اللازمة " للموضوع " ، وللمشهد بالطبع » (١).

ويوضح جيمس أنه كان – مثله فى ذلك مثل صديقه الروائى الروسى المعروف إيفان ترجنييف – يحس أول ما يحس بالشخصيات التى تحوم حوله وتشد انتباهه وليس بالمشهد الذى ستظهر فيه هذه الشخصيات ، وأنه لم يكن يستطيع التفكير إلا قليلا فى أية قصة لا تحتاج أولا إلى أشخاص يدفعون بها إلى الأمام ولا التفكير فى أى موقف لا يعتمد فى إثارته للاهتمام على طبيعـة الأشخاص وعن طريق ذلك على طريقة سلوكهم فى هذا الموقف .

ويشرح جيمس كذلك أن نوع ودرجة إحساس الفنان بموضوعه لها أهمية خاصة إذ يعدا التربة التى سيزرع

(١) أنظر "Views on the Art of the Novel", p. 252.

منها هذا الموضوع وتمثل هذه التربة وقدرتها على أن تنبت القصة بالقوة اللازمة والاستقامة اللازمة رؤيا الفنان الخلقية للحياة بقوتها أو ضعفها .

أما بالنسبة « لصورة سيدة » فقد كانت الخطوة الأولى فى سبيلها هى «إمساكى بهذه الشخصية الواحدة التى تملكتنى منذ فترة من الزمن». فقد كان من الكافى أن يبدو لى أننى كنت أملكها تماماً وقد تملكتها لمدة طويلة من الزمن جعلتها مألوفة تماماً لى وإن لم يقلل ذلك من سحرها ، فقد كنت أراها بكل وضوح وإيلام متحركة متنقلة . وهذا يساوى قولى إنى رأيتها مصممة على مصيرها — مصير ما — أما أى مصير من بين هذه المصائر الممكنة فقد كان هذا هو السؤال الذى يشغلنى . وهكذا كان فى حوزتى هذا الفرد المتميز — المتميز بدرجة قوية — بالرغم من كونه ما زال طليقاً وغير مقيد بظروف معينة ، وغير مغموس فى الحومة التى ننظر إليها عندما نبحث عن الكثير مما يميز شخصية مثل هذا الفرد »[1].

ذلك إذن هو موضوع « صورة سيدة » . والسؤال الآن هو ما الأسلوب الفنى الذى صور به جيمس هذا الموضوع ؟

وللإجابة على هذا السؤال يمكننا الإشارة أولا إلى قول لجيمس يعبر خير تعبير عن موقف الفنان الجاد من فنه واهتمامه وعكوفه على تقديم موضوعه فى خير صورة فنية . يقول جيمس : « إن إحساسى بقيمة هذه الصورة لطبيعة أنثى شابة — كانت تحت يدى طيلة هذه المدة — هو الذى جعلنى أرغب رغبة دينية فى أن أضع ' كنزى ' فى المكان الصحيح . وهذا يذكرنى ببائع العاديات الذى يفضل أن يحتفظ بالقطعة الثمينة فى حرز حريز ، مهما كلفه ذلك، على أن يبيعها لأيد لاتعرف قيمتها » .

ثم يستطرد جيمس موضحاً أن النقطة الهامة هى أن حجر الزاوية الصغير الوحيد هذا كان كل ما يملك من عتاد لهذا البناء الكبير « لصورة سيدة » ، والذى صار منزلا مربعاً فسيحاً ، وبناءاً مقاماً بكفاءة هندسية فائقة ، بل إن ما يثير الاهتمام حقاً هو أن هذا البناء كان لا بد له أن يوضع حول هذه الشابة بينما تقف هى فى عزلة تامة ، « فبأى عملية منطقية إذن كان لهذه الشخصية الضئيلة التى لا تعدو أن تكون ظلا رقيقاً لفتاة ذكية جريئة أن تجد نفسها وقد أضفيت عليها كل الصفات الرفيعة التى تجعل منها موضوعاً لرواية ؟ » ، فالرواية بطبيعتها « عملية حول شىء ما » .

والسؤال الآن هو هل كان من السهل أن تصبح إيزابيل آرتشر موضوعاً لرواية ؟ ولعل هذا السؤال يتضمن بدوره سؤالين آخرين هما : أولا هل لهذه الشخصية من الأهمية ما يجعلها أهلا لهذا الاهتمام ؟ وثانياً أليس الاهتمام بها أو وضعها فى مركز الاهتمام عملا شاقاً صعباً ؟ وكأن جيمس يجيبنا على هذين السؤالين بقوله : « لقد أمعنت النظر فى هذا الإسراف فكانت النتيجة أن أدركت سحر هذه المشكلة ، فأنت إذا تبصرت أية مشكلة بذكاء لأدركت بسرعة أنها مفعمة بالقيمة . أما العجيب هنا فهو كيف تتمسك الشابات من أمثال إيزابيل آرتشر ، بل والكثيرات ممن هن أقل منها شأناً بكثير بأنهن ذوات قيمة كبرى » .

ولعل جيمس يكشف لنا هنا عن سر اهتمامه بالشخصيات النسائية فى أعماله ، فالمرأة تلعب دوراً هاماً فى كثير منها . وكأنه يجيب على سؤالنا الأول عندما يشير إلى قول الروائية جورج إليوت : « إن هذه الآنية الضعيفة تحمل بين جنباتها على مر العصور كنز المحبة الإنسانية » ثم يضيف مؤمناً على ذلك بقوله إنه فى مسرحية شكسبير « روميو وجولييت » يجب أن تكون جولييت ذات أهمية كبيرة كما أنه فى « آدم بيد » و « ميد لمارش » و « دانيال ديروندا » وغيرها من أعمال

---

(١) ص ٢٥٧ .

جورج إليوت يجب أن تكون شخصياتها النسائية مثل هيتي سوريل وروزاموند فينسي وجوندولين هارليث شخصيات هامة أيضاً . ثم يضيف وكأنه يجيب على سؤالنا الثانى قائلا « ولكن هذه الشخصيات تمثل أنماطة من الصعب وضعها فى مركز الاهتمام ، بل يمكن القول إن هذه الصعوبة بلغت حداً جعل كتاباً كباراً مثل ديكنز ووالتر سكوت ، بل وروبرت لويس ستيفنسون يفضلون الإحجام عن محاولة ذلك . بينما يحتمى كتاب آخرون وراء القول بأن هذه المحاولة لا تستحق القيام بها وإن كان هذا لاينقذهم من اللوم ، إذ أن ضعف شعور الفنان بشىء ما لا يبرر تصويره له على أسوأ ما يكون التصوير »[1].

وتتضح الصعوبة عندما نرى – كما يشير جيمس – أنه حتى فى حالة شكسبير وجورج إليوت فان تسليمهما بأهمية چوليتاتهم وكليوباتراتهم يعانى من أن تلك الرقيقات عندما تظهرن كالدعائم الأساسية للموضوع فانه لا يسمح لهن مطلقاً بالاستئثار باثارة الاهتمام ، بل يكمل نقصهن عن طريق « المساعد الفكاهى » والحبكات الثانوية كما يقول كتاب المسرح إن لم يكن كلية بجرائم القتل والمعارك والانقلابات العالمية . وإذا أظهرن على أن لهن أهمية خاصة إلى أقصى حد ممكن فان الدليل على ذلك يوجد فى مئات من الأشخاص الآخرين الأكثر قوة والذين لهم مئات من العلاقات الأخرى الهامة بجانب علاقتهم الواحدة بهذه الشخصيات النسائية ، كما هو واضح فى حالة بطلات شكسبير مثل كليوباترا ، وبورشيا فى مسرحية « تاجر البندقية » . ولعل ذلك أكبر دليل على صعوبة المشكلة التى واجهتها جورج إليوت عندما جعلت من آنيتها الرقيقة إن لم تكن المركز الكلى من الانتباه فقد جعلت منها على الأقل أكثر مراكز الاهتمام وضوحاً واستثارة .

وهكذا نرى أن « سحر هذه المشكلة » كان يكمن دون شك بالنسبة لجيمس فى صعوبتها ، تلك الصعوبة التى تجذب انتباه الفنان الجاد وتشحذ همه . فلقد كان من الممكن أن يتجنب تلك الصعوبة وأن يركز اهتمامه لا على هذه الآنية الرقيقة ، بل على علاقتها بالآخرين مثلا ، ولكنه رفض هذا الشكل بإباء وصمم على البحث عن أصعب الطرق لمعالجته . فهو يحادث نفسه قائلا :

« لتضع مركز الموضوع فى وعى هذه الفتاة نفسها فتحصل بذلك على صعوبة شائقة جميلة بقدر ما تريد . عليك أن تلتزم بذلك – بمركز الاهتمام – ضع الثقل الأكبر فى تلك الكفة التى ستكون لحد كبير كفة علاقتها بنفسها . واجعلها تهتم بالقدر الكافى فقط ، فى نفس الوقت ، فيما يعدو ذاتها من أشياء ، ولا تخشى من أن تجعل هذه العلاقة محدودة جداً . وضع أثناء ذلك فى الكفة الأخرى الثقل الأقل وزناً (ذلك الثقل الذى يرجح عادة كفة ميزان الاهتمام) ولتضغط أقل ما تضغط ، باختصار ، على وعى اتباع بطلتك ، وخاصة الذكور منهم ، واجعل من ذلك مجرد مركز اهتمام يسهم فى أهمية المركز الأعظم . ولتر على أى حال ما يمكن فعله بهذه الطريقة . وهل هناك مجال أفضل للمهارة اللازمة ؟ إن الفتاة تحلق بشكل لا يمكن اخفاءه كمخلوق فاتن ، وستكون المهمة ترجمتها إلى أسمى عبارات هذه التركيبة ، وبقدر الإمكان علاوة على ذلك إلى التركيبة كلها . فاذا اعتمدت عليها وعلى شئونها الخاصة اعتماداً كلياً فعليك أن تذكر أن ذلك سيوجب عليك أن تصورها أو أن « تفعلها » بحق : "really 'doing' her" ، كما كان يحلو لجيمس أن يصف عملية التصوير الفنى »[1].

(١) ص ٢٦٠ .

(١) انظر ص ٢٦٢ .

وهكذا نرى كيف استطاع جيمس عن طريق تلك الصرامة الفنية المنظمة الرفيعة التي التزمها أن يقيم على تلك المساحة من الأرض كومة متناسقة من اللبنات التي تكون من الناحية البنائية أثراً فنياً رائعاً . كذلك فقد كان مصمماً بالرغم من إدراكه لضرورة وضع هذه اللبنات لبنة لبنة ألا يدع مجالا لشيء يخرج عن المستوى أو المجال الذى اختاره ، وبالرغم من ذلك فإنه – باعترافه – لم يأل جهداً للترفيه عن القارئ : « ولعل هذا هو المسئول عن تطور قصتى بما فيها من تعقيدات . فقد كان من الجوهرى أن تكون هذه الفتاة شخصية متعددة الجوانب – كان هذا على الأقل هو الضوء الذى رأيتها فيه – غير أنه كان لا بد من أضواء أخرى متضاربة متصارعة ، وذات ألوان مختلفة . . لاستخدامها لإثبات ذلك . . . وهكذا وجدت نفسى ذات صباح وفى حوزتى جميع تلك الشخصيات الأخرى اللازمة للمساهمة فى تاريخ إيزابيل آرتشر . . لقد عرفت فيهم الأجزاء الملموسة لحبكتى » .

أما الآن فلنحاول تتبع كيف حقق جيمس هذه الخطة الفنية فى الرواية ذاتها .

أدرك جيمس من بادئ الأمر أن عليه أولا أن يثبت شخصية بطلته وأن يكشف للقارئ عن حقيقتها ويرسى قواعد علاقاتها بمن حولها ، قبل أن يقذف بها فى معمعة الدراما الإنسانية التى تزلزل كيانها النفسى والعاطفى ، فقضى وقتاً طويلا فى بداية الرواية للتعريف بها لا عن طريق السرد أو الخبر ، بل عن طريق المشهد الحى والكشف عن الكثير مما يدور بوعيها أو بوعى الآخرين بخصوصها .

قدم لنا أولا صورة واضحة زاهية للمنزل الريفى القديم الذى ستنزل به إيزابيل عندما تحل بانجلترا وقدمنا إلى ثلاثة رجال يتلقى اثنان منهما نبأ وصولها فى برقية مقتضبة ترسلها زوجة أحدهما – ووالدة الآخر – من أمريكا قائلة إنها ستحضر معها ابنة أخت « مستقلة » ويعجب الرجال لهذا القول لا يدرون ماذا تعنى مسز تتشيت بكلمة « مستقلة » ، أتعنى الاستقلال الاقتصادى أو استقلال الشخصية . ومنذ البداية نجد إشارات عابرة إلى شخصية مسز تتشيت ذاتها أيضاً ، فنعلم أنها امرأة شاذة نوعاً ما فى معاملتها للناس وفى ميلها إلى الاستقلال والاعتماد على النفس ونكتشف فى ذلك أحد أسباب اهتمامها بإيزابيل التى تشبهها فى بعض النواحى .

ولكن جيمس يسعى قبل أن يلقى لهؤلاء الرجال بهذا النبأ إلى التعريف بهم . أما الأول وهو رجل مسن يجلس فى ظل شجرة كبيرة مغطياً قدميه بغطاء من الصوف ، فيبدو من تقاسيم وجهه أنه أمريكى لم يغير كثيراً من طريقة حياته الأمريكية بالرغم من الثلاثين عاماً التى قضاها فى انجلترا ، كما يبدو أنه رجل طيب كريم على معرفة بطباع الناس وخلقهم :

« لا بد أنه عرف كثيراً من الرجال وإن كان وجهه ينم بابتسامته الباهتة عن بساطة تكاد تكون ريفية ، تلك الابتسامة التى تبدو على وجهه الواسع الحاد وتضئ عينه المرحة وهو يضع ببطء وعناية فنجان الشاى على المنضدة . كان حسن الهندام فى حلة سوداء ، يغطى رجليه بغطاء مطبوع ويلبس فى قدميه شبشباً سميكاً مطرزاً . وجلس على الخضرة بجواره كلب « كولى » جميل يلاحظ وجه سيده بنفس الدقة التى ينظر بها هذا السيد إلى البيت الذى يبدو أكثر جلالا ، بينما كان كلب آخر يوزع اهتمامه بين الرجلين الآخرين » .[1]

أما الرجلان الآخران فأحدهما « رجل قوى البنية بشكل ملحوظ فى الخامسة والثلاثين من عمره يبدو وجهه إنجليزيا بقدر ما يبدو وجه الرجل المسن شيئاً آخر : يتمتع بوجه وسيم نضر صريح ذى تقاطيع مستقيمة ثابتة ، وعين رمادية اللون تبدو فيها الحيوية ، ولحية

(١) « صورة سيدة » (طبعة أكسفورد ، ١٩٦٢) ص ٣ من الآن فصاعداً سنشير إلى رقم الصفحة من هذه الرواية بعد الفقرة المنتقاة من نص مباشرة .

غزيرة كستنائية ، وكان هذا الشخص يبدو سعيداً لامعاً غير عادى – يشع حوله جو من المزاج السعيد الذى أخصبته حضارة رفيعة – جو يجعل كل من يراه تقريباً يحسده » . أما صاحبه فكان مختلفاً تمام الاختلاف وبالرغم مما قد يثيره من حب استطلاع قوى فانه على العكس من الآخر لم يكن ليثير فى نفس المرء تلك الرغبة العمياء فى أن يجد نفسه مكانه . كان طويل القامة نحيلا ، يبدو عليه ضعف البنية وتفككها – له وجه قبيح ، مريض ، ذكى ، فاتن ، ولحية وشارب لا يزيدان من جماله بشكل من الأشكال . كان يبدو ذكياً ومريضاً وهما صفتان لا تبدوان متفقتين » (ص ٤) .

ومن حديث الرجال الثلاثة يبدو أن الأول وهو لورد واربرتون يدعى السأم بينما يميل الثانى وهو رالف تتشيت إلى السخرية من الأشياء وعدم الثقة بها ، ولكنه بالرغم من مرضه دائم المرح ومحاولة التخفيف عن والده المريض الذى يعتقد بدوره أن ابنه لم يتمتع قط بفرصته فى الحياة ، بالرغم من مرحه الدائم .

ويتطرق الحديث تدريجياً إلى موضوع الزواج فيقول الأب للورد واربرتون إن خير علاج لملاه أن يجد لنفسه امرأة ويتزوجها « إن السيدات هن اللاتى سيخلصننا – غير أنى أعنى خير السيدات ، لأنى أفرق بينهن – تقرب من امرأة طيبة وتزوجها فتصبح حياتك شائقة أكثر مما هى الآن » . ذلك بالرغم مما يعلمه ابنه وصديقه خير العلم من أن تجربته هو فى الزواج لم تكن ناجحة تماماً . ويحذر مستر تتشيت لورد واربرتون بتصميم وفى شىء من المزاح من التفكير فى الزواج من ابنة أخت زوجته . ويعجب لورد واربرتون لذلك لجهله بوجود مثل هذه الفتاة فيخبره صديقاه بأمر البرقية التى أرسلتها الخالة من أمريكا . يقول مستر تتشيت :

« يجب ألا تفكر فى هذه الفتاة إذ قد لا تصلح لأن تكون زوجاً صالحاً . . . أو ربما تكون هى مخطوبة فعلا » . وإن لم تكن مخطوبة فهو يرجو ألا تكون قد جاءت بحثاً عن زوج . ويعد لورد واربرتون تحذير مستر تتشيت قسوة من جانبه ولكنه يقول :

« من المحتمل جداً أن تكون مخطوبة ، لقد عرفت كثيراً من الفتيات الأمريكيات وكن دائماً مخطوبات ، وإن لم أجد مطلقاً أن هذا يغير من الأمر شيئاً . أما عن كونى زوجاً صالحاً فانى لست متأكداً من ذلك . على كل يمكن للمرء أن يحاول »

ولكن الآب يقول بابتسامة : « حاول كما يحلو لك ولكن لا تحاول مع ابنة الأخت هذه » . وتبدو معارضته للفكرة معارضة مقرونة بشىء كبير من الفكاهة .

ويختم اللورد ، بقدر أكبر من الفكاهة « ربما تكون فى النهاية لا تستحق المحاولة » . (ص ١١) .

وببداية الفصل الثانى نعلم أنه بينما كان مستر تتشيت وضيفه يتبادلان هذا الحديث ، بغتة يرى رالف تتشيت الذى كان يتجول قليلا فى الحديقة – فتاة غريبة تقف عند مدخل المنزل ويجرى نحوها كلبه وهو ينبح نباحاً ينم عن الترحيب أكثر مما ينم عن شىء آخر ، ويلحظ رالف كيف تدرك الفتاة بسرعة ترحيب الكلب فتنحنى لتلتقطه دون تردد بينما يستمر هو فى ثرثرته . ويرى رالف أنها فتاة طويلة القامة ترتدى ثوباً أسود وتبدو جميلة لأول وهلة ويعجب رالف لهذا الأمر إذ يعلم أن المنزل قلما يرتاده الضيوف نظراً لمرض الأب . ويراها الرجلان الآخران فى نفس الوقت ويتساءلان من تكون ، بينما يتقدم رالف نحوها فتسأله وهى ما زالت تحمل الكلب الصغير « هل هذا كلبك يا سيدى ؟ » فيرد قائلا « لقد كان كلبى منذ لحظة ولكنك تبدين بغتة وكأنه تملكينه » .

فترد قائلة « ألا يمكن أن نشترك فيه ؟ إنه فى منتهى اللطف » .

وينظر إليها رالف فيجد أنها جميلة جداً ، فيقول « يمكنك أن تعتبريه ملكاً لك كلية » .

ويلاحظ أن الفتاة تتمتع بثقة كبيرة بنفسها وبالناس ولكن هذا الكرم المفاجئ من جانبه يدفع بحمرة الخجل إلى وجهها فتقول « يجب أن أخبرك أنى فى الغالب ابنة خالتك » .

فيرد قائلا « فى الغالب » ثم يردف وهو يضحك « كنت أظن أن الأمر مؤكد ! » .

وتخبره الفتاة بأنها وصلت منذ نصف ساعة مع والدته التى تطلب إليه أن يذهب لرؤيتها فى الساعة السابعة إلا ربعا . فيشكرها ويرحب بها . ويلاحظ رالف أنها :

« كانت تنظر إلى كل شىء بإدراك واضح — إلى رفيقها وإلى الكلبين وإلى الرجلين اللذين يجلسان تحت الأشجار — وإلى المنظر الجميل الذى يحيط بها » ، ثم تقول « لم أر فى حياتى أجمل من هذا المكان . لقد تجولت فى جميع أنحاء المنزل . إنه منزل ساحر بدرجة غير معقولة » . (ص ١٢) .

وعندما تسأله عن رفيقيه يخبرها أن أحدهما والده والآخر صديق لها هو لورد واربرتون ، فتبدى سعادة قائلة « لقد كنت أرجو أن يكون هناك لورد . إن هذا تماماً كما فى الروايات » . ويعتذر رالف لأنه لم يعرف بوجودها قبل ذلك ويشير إلى أن والده مريض ثم يأخذها ليقدمها له فيستقبلها الأب بلطف وطيبة كبيرين . وتبدو إيزابيل ذكية ، سعيدة بما ترى ، خالية من التكلف ، فعندما تعلق على جمال المنزل ويرد الأب مجاملا بقوله إنها هى جميلة أيضاً ، تجيب دون تكلف : « نعم إنى جميلة » .

ثم يلى ذلك حديث بينها وبين رالف الذى يتوق إلى مواصلة الحديث معها . يعجب رالف لعدم تقابلهما من قبل فتخبره أن السبب هو خلاف نشب بين أبيها وخالتها بعد وفاة والدتها ولكن خالتها قد عادت فزارتها بعد وفاة والدها ثم تضيف :

« لقد كانت لطيفة جداً معى . واقترحت أن أذهب معها إلى أوربا » .

ويرد رالف « فهمت ، لقد تبنتك » .

« تبنتنى ؟ » وتحملق الفتاة بينما تعود الحمرة إلى وجهها تصحبها نظرة سريعة تنم عن الألم ، ينزعج لها محدثها . لقد أساء تقدير وقع كلماته . وأثناء ذلك يقترب لورد واربرتون الذى كانت تلح عليه الرغبة فى رؤية إيزابيل عن قرب . وتستقر عينا إيزابيل المتسعتان عليه ثم تقول « آه ، كلا ، إنها لم تتبنانى — إنى لست مرشحة للتبنى » . ويتمتم رالف « إنى فى شدة الأسف — لقد كنت أعنى — أعنى — » ولم يكن يعرف تماماً ما يعنى .

« كنت تعنى أنها أبدت اهتماماً بى ، أنها أخذت بيدى . نعم ، إنها تحب أن تهتم بالناس وتأخذ بيدهم . لقد كانت لطيفة جداً معى ولكن » ثم أضافت برغبة بادية فى الإيضاح . « ولكنى شغوفة جداً بحريتى » .

« أتتحدثون عن مسز تتشيت ؟ » هكذا ابتدرهم الرجل المسن من كرسيه « تعالى هنا يا عزيزتى وحدثينى عنها . إنى دائماً شاكر لأية معلومات أتلقاها عنها » .

وترددت الفتاة قليلا مبتسمة ثم أجابت « إنها حقاً طيبة جداً » ثم ذهبت لزوج خالتها الذى داعبته كلماتها .

أما لورد واربرتون فظل واقفاً مع رالف تتشيت ثم قال له بعد برهة « لقد كنت ترغب منذ وقت قصير فى أن تعرف فكرتى عن امرأة تثير الاهتمام . . ها هى ذى ! » . (ص ١٧ ، ١٨) .

ومنذ البداية نجد تركيزاً على فكرة الحرية والاستقلال ، فى برقية مسز تتشيت أولاً وفى كلمات إيزابيل ذاتها ثانياً ، ثم من فم مسز تتشيت فى حديثها مع رالف .

وهكذا يقدم لنا جيمس بطلته عن طريق هذه المقابلة بينها وبين عدد من الشخصيات التى ستلعب دوراً هاماً فى حياتها والتى تبدو سريعة التأثر بها وباستخلاص الكثير عنها فى هذه اللحظات القصيرة التى تعرفها فيها . فنحن نلحظ كيف يظهر الأب ميلا لها منذ اللحظة الأولى وكيف تثير اهتمام الشابين الذكيين لورد واربرتون

ورالف تتشيت ، كما نلحظ اعتدادها بنفسها وبجمالها واهتمامها بكل ما حولها .

وينظم جيمس مادته فى شكل عدد من المشاهد التى تلقى مزيداً من الضوء على هذه الفتاة . فيأخذنا أولا إلى الوراء (الفصل الثالث) ليقدم لنا مشهد المقابلة الأولى بين الخالة وابنة أختها – وذلك بعد أن يعرفنا بهذه الخالة – ثم يرينا كيف رأت هذه السيدة ما أعجبها فى هذه الفتاة الغريبة الصريحة التى تفضل قضاء وقتها بمفردها فى غرفة داخلية « حبيس » بعيدة عن بقية المنزل والتى تبادر خالتها عندما تعرفها بنفسها بقولها « لا بد أنك خالتى المجنونة » ، أو التى ترد عندما تقول لها الخالة :

– « إذا عرفت أنك ستكونين مطيعة وتفعلين كل ما آمرك به فسآخذك إلى فلورنسا » .

– « أفعـــل كل ما تأمريننى به ؟ لا أظن أننى أستطيع أن أعد بذلك » .

– « لا . إنك لا تبدين من هـــذا النوع . إنك تفعلين ما تريدين . ولكنى لا أستطيع أن ألومك على ذلك » .

– « ولكن مع ذلك . فالذهاب إلى فلورنسا يجعلنى أعد أن أفعل أى شىء تقريباً » (ص٢٧)

ثم يأخذنا جيمس إلى حضرة أخت إيزابيل وزوجها (الفصل الرابع) ليسمعنا كيف يتحدثان عن إيزابيل . أما الأخت فتتوق إلى زواج أختها التى تراها فتاة ذكية شغوفة بالقراءة والمعرفة وأن كل ما تحتاج إليه هو الفرصة المواتية . ولكن الزوج يرى أن إيزابيل آخر فتاة يمكن أن يفكر فى الزواج منها وأنه لا يفهمها . ويضيف أن آخر ما تحتاج إليه هو فرصة تجعلها تنمو وتتطور أكثر مما هى . ويختم الزوجان حديثهما بالقول بأن إيزابيل دون شك تشعر بالعظمة منذ زارتها خالتها ، ودعتها للسفر معها إلى أوروبا .

ثم ينفذ بنا جيمس إلى ذهن إيزابيل نفسها لنرى تأثير دعوة خالتها عليها واستجابتها لتلك الفرصة الرائعة فى فقرة من فقرات الرواية المميزة :

« سواء شعرت بالعظمة أم لا ، فإنها على أى حال تشعر بالاختلاف ، تشعر وكأن شيئاً حدث لها . وعندما وجدت نفسها بمفردها فى المساء جلست برهة تحت المصباح ويداها خاليتان وقد أهملت أعمالها المألوفة . ثم قامت وتجولت فى الغرفة ثم من غرفة إلى أخرى ، مفضلة الأماكن التى لا يصلها ضوء المصباح الشاحب . لقد كانت قلقة ، بل ومضطربة ، وأحياناً كانت ترتجف قليلا . إن ما حدث لها أهم بكثير مما يبدو ، لقد حدث حقاً تغير فى حياتها . أما ما سيأتى به هذا التغيير فما زال غير محدد على الإطلاق ؛ ولكن إيزابيل كانت فى موقف يجعل لكل تغيير قيمته . كانت ترغب فى أن تترك الماضى وراءها وأن تبدأ من جديد ، كما تقول لنفسها . ولم تكن هذه الرغبة فى الحقيقة وليدة هذه اللحظة ، بل كانت شيئاً مألوفاً لديها كصوت سقوط المطر على النافذة ، كانت هذه الرغبة السبب فى بدايتها صفحة جديدة مرات كثيرة جداً . أقفلت عينيها وهى جالسة فى أحد أركان حجرة الجلوس المظلمة الهادئة . ولكن ذلك لم يكن نتيجة لرغبتها فى أن تغفو وتتناسى ، بل لأنها على العكس من ذلك كانت تشعر بأنها فى حالة صحو شديد وترغب فى أن تكبح جماح إحساسها برؤية أشياء كثيرة فى وقت واحد . لقد كان خيالها بطبيعته نشطاً بشكل مضحك ؛ فاذا لم يكن الباب مفتوحاً قفز من النافذة . ولم تكن معتادة فى الحقيقة أن تحبسه وراء الأقفال ؛ وفى اللحظات الهامة ، عندما كانت تفضل أن تستخدم عقلها فقط ، كانت تدفع ثمن إسرافها فى تشجيع قدرتها على رؤية الأشياء دون الحكم عليها . أما الآن ، وعندما شعرت أن ناقوس التغيير قد دق فقد حضرها تدريجياً عدد من صور الأشياء التى ستتركها وراءها ، عادت إليها سنوات حياتها ، وجلست

تستعرضها لفترة طويلة من الوقت : فى سكون لا يبدده سوى دقات الساعة البرنزية الكبيرة . لقد كانت حياة سعيدة جداً كما كانت هى شخصاً محظوظاً جداً حقاً — لقد كانت هذه هى الحقيقة التى ظهرت بكل وضوح . لقد تمتعت بخير الأشياء ، فى العالم الذى لا تدعو فيه ظروف كثير من الناس إلى الحسد ، كان عدم تعرضها أبداً لشىء كريه حقاً ميزة كبيرة . لقد بدا لإيزابيل أن الشر كان مجهولا لها ، لأنها لمست من معرفتها بالأدب أن ذلك كثيراً ما يكون مصدر الاهتمام والعبرة . ولكن والدها قد جنبها ذلك — والدها الوسيم الذى أحبته كثيراً والذى كان يكره الشر بشدة . لقد كانت سعيدة أشد السعادة ببنوتها له ، بل لقد شعرت إيزابيل بالزهو فى أبوته لها . كان يبدو لها منذ وفاته وكأنه يدير لأولاده جانبه الأكثر شجاعة وكأنه قد أفلح فى تجاهل القبح الكائن فى الحياة العملية بالقدر الذى تمنى تجاهله . ولكن هذا إنما رفع من حنانها نحوه ؛ فلقد كان من المؤلم أن تفترض أنه كان مسرفاً فى الكرم ، مسرفاً فى السماحة ، مسرفاً فى عدم اهتمامه بالمسائل المادية القبيحة . . . لقد كان والدها ينظر إلى الحياة نظرة كبيرة ، ولم يكن قلقه واضطراب سلوكه فى بعض الأحيان إلا دليلا على ذلك . . . كان يجب أن تكون شريكة لوالدها فقد كانت العضو الوحيد من بناته الثلاث الذى عوضه عن كل الأشياء الكريهة التى لم يذكرها ، وفى أخريات أيامه لم يقلل من رغبته العامة فى ترك العالم — الذى ازدادت فيه صعوبة سلوك الإنسان كما يحلو له كلما تقدمت به السن — سوى ألم الفراق من ابنته الذكية المتفوقة الممتازة . . أما أختها إيديث فكانت أكثر منها نجاحاً فى اجتذاب الآخرين . فتسعة عشر شخصاً من عشرين (بما فى ذلك الأخت الصغرى نفسها) كانوا يعترفون بأن إيديث تفوق أختها فى جمالها تفوقاً لانهائياً . أما الشخص العشرين فلن يكتفى بقلب هذا الحكم ، بل يرفه عن نفسه باعتبار التسعة عشر الآخرين سوقيين فى ميولهم الجمالية . كانت إيزابيل فى قرارة نفسها ترغب رغبة لا حد لها فى الفوز بالاعجاب ، بل إنها كانت تفوق فى ذلك أختها إيديث ، ولكن طبيعة هذه الفتاة كانت تقع على عمق بعيد كما أن الاتصال بينها وبين السطح كان يحول دونه عشرات النزوات القوية . . . . كانت ترى الفتيان يتهافتون فى أعداد كبيرة على رؤية أختها ولكنهم بوجه عام يخشونها هى ، كانوا يعتقدون أن الحديث معها يستلزم استعداداً خاصاً . كانت معروفة بحبها للقراءة فكان ذلك يحيطها بغلاف من السحب كما لو كانت إلهة فى ملحمة . كانت الفتاة المسكينة تود أن يظنها الناس ذكية ، ولكنها كانت تكره أن تعتبر شديدة الشغف بالكتب ؛ كان من عادتها أن تقرأ سراً وبالرغم من قوة ذاكرتها إلا أنها كانت تتجنب كل ما قد يبدو مباهاة بمعلوماتها . كانت ترغب رغبة قوية فى المعرفة ولكنها فى الحقيقة كانت تكاد تفضل على الكتاب أى مصدر آخر للمعلومات ، كان لديها حب استطلاع كبير وكانت دائمة التطلع والتعجب . كانت تحمل بداخلها رصيداً كبيراً من الحياة ، وكانت أعمق متعها أن تشعر بالاستمرار بين حركات روحها وخلجات العالم » . (ص ٣١ — ٣٤)

ويذهب جيمس ليؤكد لنا أن كل ذلك لم يبعد عنها الفتيان تماماً فقد كان بينهم من خفق لها قلبه وعقله معاً . وبالاختصار فقد تمتعت إيزابيل بكل ما تتمناه فتاة فى مثل سنها من الحنان والاعجاب والحلوى والزهور وفرص الرقص والاستمتاع بالموسيقى والقراءة ، فتاة لم تعرف الألم ولم تختبر الشر . يمر كل ذلك أمام ذاكرتها فى شكل مشاهد وأحداث ، وهى تجلس فى ذلك الركن المظلم من الغرفة الهادئة .

وكان لا بد لجيمس أن يطلعنا هنا على إحـــدى علاقاتها بهذا العالم المتصل بكل هذه الذكريات ولذا فهو يقدم ذلك الشاب الأمريكى الذى يحب إيزابيل ويتقدم لها فى هذه اللحظة عارضاً حبه بكل عزم وتأكيد

ولكن إيزابيل التى ترى فى هذا الحب قيدا لحريتها ، ترده خائباً ، وإن كان هو يبدو وكأنه لن يقبل الهزيمة : ذلك هو كاسبار جودوود الذى يستمر فى عرض حبه وإخلاصه لها إلى النهاية .

ولا يتم هذا التعريف بايزابيل دون أن نراها كما يراها رالف ابن خالتها ، الشاب الذكى الفيلسوف الذى يمثل أحد أعمدة الرواية لما يتمتع به من وعى فذ وتعاطف مع البطلة لا يعوقه عن أن يراها بالرغم من حبه لهـــا بموضوعية نافذة ، ولما يلعبه فى حياتها من دور فعال.

يذهب رالف للترحيب بوالدته وقبل أن يدور بينهما حديث كاشف عن إيزابيل ، يكشف لنا جيمس أولا عن شخصية هذا الشاب ، فنعرف أنه جاء إلى إنجلترا طفلا بصحبة والديه وتلقى تعليمه فى مدارس إنجليزية ثم فى جامعة أمريكية ثم أتمه فى جامعة أكسفورد الإنجليزية ، وكأن الأب يرغب فى خلق توازن بين أثرى إنجلترا وأمريكا فى شخص ابنه . كان الأب أحد أصحاب البنوك وسرعان ما وجد الابن طريقه إلى عمل أبيه ولكن مرضه يمنعه من العمل المجهد ، ولذا فهو يحيا الآن حياة خالية من العمل أو الاهتمام الجدى . « وقد أنقذه من وطأة قسوة التضحية بالحياة العاملة معين كبير من عدم الاهتمام ، إلا أن رائحة الفاكهة المحرمة كثيراً ما كانت تداعب أنفه مذكرة إياه بأن أجمل المتع هى نشوة العمل » . يثير رالف اهتمام إيزابيل ، كما تثير هى بذكائها وجمالها وإقبالها على الحياة اهتمامه وتشوقه إلى معرفة المزيد عنها ، فيخاطب والدته قائلا :

« أما الآن فحدثينى عن هذه الفتاة . . ماذا تنوين أن تفعلى بها ؟ » .

وتجيب مسز تتشيت على الفور « أنوى أن أطلب من والدك أن يدعوها للبقاء فى جاردن كورت ثلاثة أو أربعة أسابيع » .

ويقول رالف « دعك من هذه الرسميات ، إن والدى سيدعوها لذلك بطبيعة الأمر ! » .

« ومن أدراك بذلك ! إنها ابنة أختى أنا ، وليست ابنة أخته » .

« بالله يا والدتى العزيزة ، ما كل هذا الإحساس بالملكية ! إن هذا أدعى لأن يدعوها والدى للبقاء هنا ولكن بعد ذلك - أعنى بعد ثلاثة شهور (فمن المضحك أن ندعو الفتاة المسكينة أن تبقى هنا ثلاثة أو أربعة أسابيع هزيلة) - ماذا تنوين أن تفعلى بها ؟ » .

« أنوى أن آخذها معى إلى باريس . أنوى أن أشترى لها ملابس » .

« آه طبعاً . ولكن بخلاف ذلك ؟ » .

« سأدعوها لقضاء الخريف معى فى فلورنسا » .

ويقول رالف « إنك لا ترتفعين عن مستوى التفاصيل يا والدتى العزيزة . إنى أود أن أعرف ماذا تنوين أن تفعلى بها بوجه عام » .

وتعلن مسز تتشيت « أفعل واجبى ! » ثم تضيف « أظنك تشعر بشفقة كبيرة نحوها » .

« لا ، لا أظن أنى أشفق عليها ، إنها لا تبدو لى وكأنها تثير الشفقة . لكنى أحسدها . ولكن قبل أن أتأكد من ذلك خبرينى قليلا عما ترينه واجبك نحوها » .

« إنى أرى واجبى فى أن أريها أربعة بلاد أوربية — وسأترك لها اختيار اثنتين منها — وفى منحها فرصة اتقان اللغة الفرنسية التى تعرفها جيداً الآن » .

ويقطب رالف جبينه قائلا « إن هذا يبدو جافاً بعض الشىء — حتى بالرغم من حرية اختيار اثنتين من هذه البلاد » .

فتقول الأم ضاحكة « إذا كانت هذه الخطة جافة ، فيمكنك أن تترك لإيزابيل أمر ريها ! فهى دائماً مثل مطر الصيف » .

« أتعنين بذلك أنها مخلوقة موهوبة ؟ » .

« لا أدرى إذا كانت مخلوقة موهوبة أم لا ، ولكنها فتاة ذكية — ذات إرادة قوية ، ومزاج حاد . ولا تنوى أن تشعر بالملل » .

ويقول رالف « يمكنني أن أتخيل ذلك » ثم يضيف بغتة « كيف تتفقان أنتما الاثنتان ؟ » .

« أتعني بذلك أني مملة ؟ لا أظن أنها تجدني كذلك ، إني أعرف أن بعض الفتيات قد يجدنني كذلك ؛ ولكن إيزابيل أكثر فطنة من ذلك . أظن أنها تجد عندي شيئاً من الترفيه . إننا نتفق لأني أفهمها ؛ أعرف أي نوع من الفتيات هي . إنها صريحة جداً وأنا صريحة جداً . إننا نعرف تماماً ما نتوقعه الواحدة من الأخرى » .

« آه يا والدتي العزيزة ، إن المرء يعرف دائماً ما يتوقعه منك ! إنك لم تبعثي الدهشة في نفسي إلا مرة واحدة ، اليوم ، عندما قدمت لي ابنة خالة جميلة لم يخطر لي وجودها قط على بال » .

« أتظنها جميلة جداً إذن ؟ » .

« جميلة جداً حقاً ، ولكني لا أصمم على ذلك . إن ما يلفت نظري هو ما توحي به من أنها شخص معين . من هذه المخلوقة النادرة وما هي ؟ أين وجدتها وكيف تعرفت عليها ؟ » . (ص ٤١ — ٤٣) .

وهكذا يستمر الحديث بين رالف ووالدته كاشفاً عن اهتمام رالف بإيزابيل واهتمامه بوجه خاص بما تنوي الأم أن تفعله بها ولكن الأم ترد قائلة عندما يكرر سؤالها عن ذلك « إنك تتحدث عنها كما لو كانت متراً من القماش . إنني لن أفعل بها شيئاً على الإطلاق ، وهي نفسها ستفعل كل ما تريد ، لقد عرفتني بذلك » .

ثم نرى رالف يصطحب إيزابيل في جولة حول المنزل لتشاهد إيزابيل اللوحات التصويرية الجميلة بينما يرى رالف أنها أجدر بالنظر والتأمل من هذه اللوحات . فهي إلى جانب ذكائها واستقلالها جميلة جداً .

وهكذا تتضح أمامنا تدريجياً صورة حية واضحة المعالم لشخصية فتاة جميلة ذكية حساسة مثقفة ، تعتد برأيها وحريتها وتسعى لمعرفة المزيد عن العالم والناس وتهتم بكل ما حولها . أما رالف فيجدها مثيرة جداً للاهتمام وكأنها هبة من السماء قد وهبت له في الوقت الذي كاد يفقد اهتمامه بكل شيء ، ويعتقد أنها أفضل بكثير من أجود عمل فني ، وأن في رؤيتها متعة تفوق كل شيء في الوجود . « فهي أنفس من لوحة فنية لتيتيان أو تمثال إغريقي أو كاتدرائية قوطية » (ص ٦٥) وبالرغم من أنه يقبل على الاستمتاع بهذه الفرصة النادرة إلا أنه يدرك أنه لا يملك مفتاح هذه الكاتدرائية ولا يفهمها تماماً . إنها ذكية وكريمة وطبيعتها جميلة حرة ولكن ماذا ستفعل بنفسها ؟ ولكن هذا سؤال غير عادي ؟ فمعظم النساء لا يصنعن شيئاً على الإطلاق بأنفسهن ، بل ينتظرن في سلبية إلى أن يأتي رجل ويقرر مصيرهن في الحياة . ولكن إيزابيل مختلفة . إنها توحي للمرء بأن لها أهدافاً شخصية . ويتمنى رالف أن يكون حاضراً ليشاهدها عندما تنفذ تلك الأهداف .

وتمر الأيام وبالرغم من رغبتها في رؤية عدد أكبر من الناس إلا أنها تستمتع بقضاء الوقت بصحبة زوج خالتها الذي تجلس بجواره تتحدث إليه وتمطره بأسئلتها أو بصحبة رالف الذي يصحبها للتجديف أو التجول بالحديقة الواسعة أو ما حولها في العربة الصغيرة التي يملكها مستر تتشيت .

وذات يوم يحل بجاردن كورت زائر هو لورد واربرتون الذي كانت إيزابيل قد رأته لمدة نصف ساعة عندوصولها واكتشفت أنه يعجبها . ويبقى الضيف بضعة أيام يدعو في نهايتها إيزابيل لزيارة قصره . وتذهب إيزابيل بعد أن تأتي الأخوات لزيارتها ودعوتها رسمياً . وتعترف إيزابيل أن إحساسها الأول بالنسبة للورد واربرتون كان صادقاً فهي تعجب به بعد أن تعرفه عن قرب نتيجة لحديثهما معاً ولحديثها عنه مع رالف الذي يظنه لطيفاً جداً ومحظوظاً جداً ، بينما ترى فيه إيزابيل لأول وهلة بطلا رومانسياً ثم تكتشف أنه نبيل من آخر طراز ، فهو ديموقراطي النزعة ومعارض للطرق العتيقة ولكنه بالرغم من ذلك يحتفظ بلقبه وأملاكه ومركزه ولا يفكر لحظة في التخلص منها ، ولذا فهي ترى في

موقفه شيئاً من الخداع وعدم المنطق وتتوق لرؤيته فى بوتقة الاختبار . ولكن مستر تتشيت يؤكد لها أنه وإن قامت بالبلد ثورة فإن أحداً لن يمس لورد واربرتون بسوء ، لأنه محبوب جداً .

وتتنهد إيزابيل قائلة « إذن فلن يمكنه أن يصبح شهيداً حتى ولو أراد ذلك ! إن هذا موقف يدعو إلى الأسى » .

ويرد الرجل المسن « إنه لن يصبح شهيداً أبداً إلا على يديك » .

وتهز إيزابيل رأسها ؛ قد يبدو أن هناك شيئاً مضحكاً فى أنها فعلت ذلك بلمحة من الحزن :

« لن أجعل من أى إنسان شهيداً » .

« إنى أرجو ألا تصبحى أنت شهيدة » .

« أرجو ذلك . ولكن هل تشعر نحو لورد واربرتون بالشفقة كما يفعل رالف؟ » .

ونظر زوج خالتها إليها فترة ، بنظرة عطف ثاقبة « نعم أظن أنى أشعر نحوه بالشفقة فى نهاية الأمر ! » (ص ٧٨) .

ويمكن القول هنا بأنه كما تمثل إيزابيل الفتاة الأمريكية فإن لورد واربرتون يمثل الحضارة الإنجليزية بقيمها وتقاليدها وعراقتها ، بينما يبدو رالف نتاجاً للحضارتين الأمريكية والإنجليزية معاً ، أما كاسبار جودوود فيمثل الحضارة الأمريكية الخالصة .

وتشعر إيزابيل أن لورد واربرتون يعجب بها وتحس نغمة غريبة تزحف فى حديثه معها وتبعث فى نفسها الخوف — الخوف من أن يعبر لها عن حبه لها — هذا فى الوقت الذى تنبئها صديقتها هنريتا ستاكبول الصحفية الأمريكية بوصول كاسبار جودوود الذى مايلبث أن يكتب لها طالباً رؤيتها ، وبينما تستغرق إيزابيل فى قراءة هذا الخطاب فى الحديقة وهى تشعر بالضيق تلتفت لترى لورد واربرتون واقفاً أمامها .

وهكذا نرى جيمس لا يألُ جهداً فى معالجة موضوعه فهو لا يعتمد على المشهد الحى والصورة المجسمة فقط بل يعتمد على الصورة اللفظية والحدث الرمزى والتلميح ليوفى الموضوع حقه من الناحية الفنية أو التكنيكية . فإيزابيل مثلا مثل العمل الفنى فى جمالها وإثارتها للانتباه ، ورالف يتنازل عن ملكيته الكلبه لمجرد أن تبدى إيزابيل إعجابها به ، ومستر تتشيت يقول إن الشخص الوحيد الذى يمكنه أن يجعل من لورد واربرتون شهيداً هو إيزابيل بينما يتمنى ألا تصبح هى بدورها شهيدة . أما فى هذا الموقف بالذات فإنه — بينما تشعر إيزابيل بالضيق لنبأ وصول كاسبار وتخشى أن يعكر وصوله صفو الجو الجميل الذى تتمتع به فى جاردن كورت ، فإنها تحس عنـدما يقف لورد واربرتون أمامها فى الحديقة بعد انتهائها من قراءة خطاب كاسبار « أن ابتسامته كانت سارة وودية بصفة خاصة وقد بدا شخصه كله وكأنه يشع هذا الإحساس الطيب والحياة الطيبة الذين شعرت بسحرهما فى شعورها الأول نحوه . وكأن هذه الابتسامة قد أحاطت به كمنطقة من الجو الصيفى الصحو » (ص ١٠٧) .

ومرة أخرى يطلعنا جيمس على ما يدور بخاطر هذه الفتاة وهى تواجه هذا الموقف الذى تخشى فيه أن تتقدم لها هذه « الشخصية الكبيرة » بطلب يدها للزواج والذى تشعر فيه بشىء من حب الاستطلاع والجزع فى نفس الوقت . أما الجزع فيتكون من عدة عناصر لم تكن كلها غير سارة . فقد قضت إيزابيل فى الواقع عدة أيام تحللها فيها ونجحت فى فصل السار عن المؤلم من هذه العناصر .

« لم تكن متلهفة على إقناع نفسها بأن مالكا عظيما من ملاك الأرض ، كما سمعت لورد واربرتون يدعى ، قد أصابته سهام حسنها . فقد كان التقدم بهذا الطلب من مثل هذا المصدر يحمل معه حقاً من علامات الاستفهام أكثر مما يجيب . لقد أحست إحساساً قوياً بكونه « شخصية كبيرة » ،

وشغلت نفسها بتأمل هذه الصورة . وبالرغم مما قد تتعرض له من إضافة دليل آخر على استقلالها الذاتى فإنه يجب القول بأنه كانت هناك لحظات كان يمثل فيها إمكان إعجاب شخصية كبيرة بها درجة من الإهانة ، بل ودرجة من المضايقة فهى لم تعرف شخصية كبيرة من قبل ، ولم يكن فى حياتها شخصية كبيرة بهذا المعنى ومن الممكن ألا توجد مثل هذه الشخصيات فى بلدها . عنـدما كانت تفكر فى شخصيات ممتازة كانت تفكر فى ذلك على أساس الخلق والذكاء وخفة الروح ، وما يمكن أن يحبه المرء فى عقل الشخص وحديثه . هى ذاتها شخصية ذات طابع معين — كان يتعين عليها أن تدرك ذلك ، وحتى ذلك الوقت كانت رؤيتها للوعى الكامل تشغل نفسها لحد كبير بالصور المعنوية ، وبما إذا كانت الأشياء تسر روحها السامية أم لا . أما لورد واربرتون فكان يلوح أمامها ضخماً مضيئاً مثل مجموعة من الصفات والقدرات التى لا تقاس بهذه القاعدة البسيطة ، بل تتطلب تقديراً من نوع آخر — تقديراً أحست الفتاة التى اعتادت الحكم السريع الحر — أنه ينقصها الصبر اللازم للقيام به . فهو يبدو وكأنه يطلب منها شيئاً لم يجرؤ أحد آخر أن يطلبه منها . وكان ما تحسه هو أن شخصية بارزة فى مجال الملكية الأرضية ، ومجال السياسة والمجتمع قد فكرت لاجتذابها فى خطة تتسم بشىء من الظلم داخل النظام الذى تعيش وتتحرك فيه . وأحست بغريزة معينة ، غير مسيطرة ولكنها مغرية تقول لها أن تقاوم وتتمتم لها أن لها فى الواقع نظاماً ومداراً خاصاً بها . وتقول لها أشياء أخرى كثيرة متضاربة . كأن فتاة مثلها لا تخطئ إذا سلمت نفسها لمثل هذا الرجل وإنه لمن الشائق أن ترى شيئاً من نظامه من وجهة نظره هو . وإنه من ناحية أخرى فعلى أى حال من الواضح أن جزءاً كبيراً من هذا النظام سيبدو لها فى كل لحظة كمجرد تعقيد للأمور ، بل وإن بالنظام بأكمله شيئاً جامداً يتسم بالغباء ويجعله حملا ثقيلا . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان هناك شاب أمريكى ليس له نظام على الإطلاق ولكن كانت له شخصية مستحيل عليها أن تحاول إقناع نفسها بأن الأثر الذى تتركه فى نفسها أثر منير » (ص ١٠٧ — ١٠٩) .

ويعرض عليها لورد واربرتون الزواج فعلا ولكنها بالرغم مما تشعر به نحوه من ميل وإعجاب وتقدير وما يبديه هو نحوها من حب خالص نقى — مثل المصباح الذى يضئ باستمرار فى مكان لا تهب به رياح — فانها ترفضه برفق واحترام وشعور بالشكر . إنها لاتستطيع الزواج من لورد واربرتون . « لقد فشلت هذه الفكرة فى إثارة أى شعور مستنير فى صالح حرية استكشاف الحياة التى تدين بها للآن أو التى كان بمقدورها أن تدين بها الآن » (ص ١١٧) .

أما ما أقلقها وأثار العجب فى نفسها فهو أنها لم تعان إلا قليلا جداً مقابل رفضها هذه « الفرصة الرائعة » .

وتتضح لنا أهمية هذه الفرصة عندما نرى رد فعل أصدقائها لهذا الرفض . أما مستر تتشيت الذى تذهب إليه لتنبئه أولا بهذا الخبر فهو الوحيد الذى يشعر أنها أصابت بالرفض . أما مسز تتشيت فتستنكر هذا الرفض ويعجب رالف لمـا يمكن أن تأمل فتاة ترفض شخصاً مثل لورد واربرتون أن تفعل بحياتها .

ترفض إيزابيل كذلك الشاب الأمريكى كاسبار جودوود الذى يتبعها عبر المحيط سعياً وراء إجابة أفضل مما حصل عليه فى ألبانى . ترفضه إيزابيل لأن الزواج منه يعنى الحد من حريتها وخاصة بعد أن رفضت فى سبيل هذه الحرية رشوة كبيرة هى الزواج من لورد واربرتون . هذا بالإضافة إلى أنه كان يبدو لها « ذا فك مربع جداً وكان قوامه مستقيما جامداً جداً ، وكانت هذه الأشياء توحى بنقص فى سهولة التوافق مع حركات الحياة العميقة » .

وهكذا ترفض إيزابيل ما تقدمه لها الحضارة الإنجليزية العريقة وما تقدمه لها الحضارة الأمريكية

الشابة . وكأنها ما زالت تبحث عن شيء أفضل .

ويبدأ فصل هام فى حياة إيزابيل عندما تتعرف بسيدة أمريكية مستوطنة فى أوربا هى مدام مرل صديقة مسز تتشيت التى تحضر لزيارتها فى الوقت الذى يرقد فيه مستر تتشيت على فراش الموت . وتدرك إيزابيل لأول وهلة ترى فيها مدام مرل – عندما تسمع شخصاً يعزف البيانو فتذهب إلى حجرة الجلوس لتراها وظهرها نحوها تعزف بمهارة فائقة – تدرك أنه سيكون لهذه المرأة شأن كبير فى حياتها . تجد إيزابيل فى مدام مرل سيدة ذكية أنيقة جميلة تلفت النظر بمعرفتها وخبرتها وطريقة سلوكها ، وتخبرها خالتها أنها سيدة لا تخطئ أبداً وأن بمقدورها أن تتعلم منها الكثير . أما عندما تذهب لاستطلاع رأى رالف فيبدى هذا أنه لا يميل إليها كثيراً ولكن دون أن يذكر لذلك أسباباً معينة . ولذا فان إيزابيل لا تتقبل آراءه التى لا تغير من علاقتها بمدام مرل شيئاً ، بل على العكس نجد هذه الصداقة تنمو وتقوى .

ويموت مستر تتشيت تاركاً لإيزابيل ثروة ضخمة تقدر بسبعين ألفاً من الجنيهات . ويرجع ذلك إلى تدخل رالف الذى أقنع والده أن يترك لإيزابيل نصف نصيبه من ثروته قائلا « أريد أن أضع بعض الريح فى شراعها . إنى أود أن أمكنها من الوفاء بمطالب خيالها » . وبالرغم من تخوف الأب من وقوعها فريسة فى يد زوج يسعى وراء ثروتها إلا أن رالف يرى أن تلك مخاطرة لا مفر منها .

أما إيزابيل التى لم تكن تتوقع شيئاً من هذا القبيل فتكاد تصاب بشبه ذهول تام ، وتمر أيام وهى لا تدرى ما تظن بأمر هذه الثروة الكبيرة . ولكنها بعد أن ترسل شيكاً لكل من أختيها فى أمريكا ، تبدأ فى التفكير فى كيفية استخدام هذه الثروة ومدى الفرص التى تمنحها لها ، وما تعنيه من قوة وما تستلزمه من جدية . وتبدى إيزابيل تخوفها من كل هذه الثروة وما تعنيه من حرية لرالف عندما تسأله عما إذا كان يعلم بأمرها أو بسبب ترك والده لها . فهى تخشى أن تخطئ وتود أن تعلم كيف تستعملها ولكن رالف يقوى عزيمتها قائلا : « إن الثروة قد تخيف الضعفاء ولكنها قوية » . فتتساءل : « ولكن كيف تدرى أنى لست ضعيفة ؟ » فيرد « آه لو كنت ضعيفة ، فانى سأكون قد بعت نفسى » . (الفصل الحادى والعشرون) .

وتعلم مدام مرل فى هذه الأثناء بما أصاب إيزابيل من حظ وافر وكأنها تشعر بشىء من الحسد ولكن ذكاءها الشيطانى يرشدها إلى وسيلة تفيد عن طريقها من ثروة هذه الفتاة الساذجة المثالية فتعمل على تقديمها لشخص يدعى جلبرت أوزموند تقول إنه صديق قديم لها وتصفه بأنه فنان وشخصية متميزة يتعين على إيزابيل لقاءها . أما مسز تتشيت فتصحب إيزابيل إلى لندن فباريس ومنها إلى فلورنسا حيث يقيم أيضاً هذا الرجل الأمريكى المستوطن بأوربا دون أن تعلم ما يدور بخلد صديقتها .

وفى منتصف الكتاب تقريباً يترك جيمس إيزابيل تتأمل مصيرها وماضيها وحاضرها ، ليقدم لنا أوزموند وابنته پانسى ويكشف لنا عن شىء من العلاقة التى تربط أوزموند بمدام مرل . وعلى عادة جيمس يبدأ أولا بوصف الفيللا الأنيقة التى يقطنها أوزموند وبعض محتوياتها قبل أن يقدمنا لأوزموند نفسه الذى يقدم لنا وصفاً دقيقاً لمظهره (ص ٢٤٦) . أما ابنته ففتاة صغيرة ترى بصحبة الراهبتين اللتين قد أتيتا بها من المدرسة ، مطيعة ، ربتها الراهبات على الطاعة والخضوع للسلطة . يصفها والدها بأنها زهرة نقية . وهى تمثل نمطاً من الفتيات اهتم جيمس بتصويره فى كثير من أعماله . وفى هذا المشهد وبعد انصراف الراهبتين ، يكشف الروائى للقارئ عن العلاقة التى تربط أوزموند ومدام مرل وعن شىء من شخصيتهما الحقيقية . أما أوزموند فيتضح من كلام مدام مرل أن أسوأ صفاته ليس حب الذات كما يدعى هو ، بل التكاسل . لكن مدام مرل

تخبره أنها تريده أن يقوم بعمل ما فى فلورنسا وتكشف له عن خطتها التى تتلخص فى أن يتقرب من إيزابيل ويتزوجها ، مشيرة إلى جمالها وشخصيتها الجذابة وثروتها الكبيرة . ويتضح من خلال هذا الحديث التفاهم التام بين هذين الشخصين اللذين يبدوان متعاونين متفاهمين وإن لم يكونا متحـــابين كما كانا فى وقت من الأوقات . ويعد أوزموند بزيارة إيزابيل وإن كان يفضل ألا يرى رالف الذى لا يحبه ، أما الخالة فلا يعبأ كثيراً لها .

وفى بداية الفصل التالى (التاسع والعشرين) تشير مدام مرل فى حديثها مع إيزابيل مرة أخرى إلى أوزموند ولكن بصورة أقل تأكيداً أو صراحة مما تفعل فى إشارتها لأوزموند عن إيزابيل ، معبرة عن رغبتها فى أن تتعرف به كواحد من خير معارفها ومن ألطف وأمهر الرجال فى أوروبا . وتصوره مدام مرل على أنه شخص غير عادى ومثير للاهتمام ويستحق دون شك أن تعرفه إيزابيل .

وخلال هذه الفترة تستمتع إيزابيل بكنوز فلورنسا الفنية وتستسلم فى نشوة غامرة لتأثير ما تراه من لوحات فنية وتماثيل رائعة وكنائس قديمة ومبان جميلة ، يقودها لذلك رالف الذى يتجدد حماسه الأول لهذه الأشياء وهو يقدمها لابنة خالته الشابة الممتلئة شوقاً واهتماماً .

ثم يأتى أوزموند لزيارة مدام مرل وتقدم هذه له إيزابيل . ويصور لنا جيمس مشهداً رائعاً غنياً بمدلولاته. تجلس إيزابيل ساكنة بعيداً فى الظل لمشاهدة المشهد الرائع بين هذين الشخصين الرائعين وكأنها تنصت لحفلة موسيقية ستفسدها حتما إن هى تدخلت فى الحديث . ومنذ البداية تشعر وكأن هذين الشخصين يقومان بتمثيل دور أعداه خصيصاً لاكتساب هذه الفتاة التى تبهرها مهارتهما فى الحديث وفى السلوك بحيث لا تكاد تبدى حراكاً .

وبالرغم من أن جيمس يهدف كما يقرر فى المقدمة إلى كشف الأمور عن طريق وعى إيزابيل إلا أنه يستخدم أيضاً وعى رالف أحياناً ، بل ومدام مرل أحياناً أخرى . فهنا مثلا لا ترى إيزابيل ولا يمكن أن ترى ما يدور خلف الستار بين مدام مرل وأوزموند . ولكن لديها فرصة استنتاج شىء عن حقيقتهما من ملاحظات رالف عنهما . وكى يتضح لنا إسراف إيزابيل فى الاعتماد على النفس وحرية الاختيار نراها بالرغم من رغبتها فى استطلاع رأى رالف فى مدام مرل وأوزموند لا تتقبل وجهة نظره . هذا علماً بأن رالف لا يفصح عن رأيه فى كليهما وإنما يكتفى بالتلميح أولا ثم بالافصاح فيما بعد (عندما يشعر بخطورة الموقف) . فيقول عن مدام مرل مثلا إنها سيدة ماهرة جداً وأنها تبدو كاملة بدرجة تقلقه . أما عن أوزموند فيقول إنه يجهل كل شىء عنه فيما عدا كرهه للسوقية والابتذال وما يبدو من أن هذا هو شغله الشاغل . ومهما يكن من أمر فانه يبدو من الواضح أن رالف لا يميل إليهما ، بل وإنه بالرغم من رفضه الافصاح عما يدور بخلده إلا أنه لا يدع مجالا للشك لدى إيزابيل فى أنه لا يوافق عليهما ، ولكنها مبالغة فى الاعتماد على رأيها ، ترجع ذلك إلى حالته النفسية ومرضه .

فعندما تسأله إيزابيل مثلا إذا ما كان يعرف أوزموند يرد قائلا :

« هل أعرفه ؟ . . . نعم أعرفه ، لا أعرفه جيداً ولكن بوجه عام بالقدر الكافى . لم أعاشره قط كما يبدو أنه لم يجد قط أنه لا يمكنه الاستغناء عن صحبتى . من هو وما هو ؟ إنه أمريكى غامض لا يمكن تفسيره . عاش هنا فى إيطاليا طيلة ثلاثين عاماً أو أقل قليلا . لماذا أقول إنه لا يمكن تفسيره ؟ لا شىء سوى تغطية لجهلى . فأنا لا أعرف ما سبق من حياته ولا أسرته ولا أصله . ومن يدرى لعله بالرغم من ذلك أمير متنكر ، فهو يبدو كذلك بعض الشىء . وعلى أى حال فهو يبدو كأمير

تنازل عن الإمارة فى فورة من السخط وبقى فى حالة تأفف منذ ذلك الوقت . كان يعيش فى روما ؛ ولكنه اتخذ له مقراً هنا فى السنوات الأخيرة ؛ أذكر قوله إن روما أصبحت سوقية . إنه يخشى السوقية بدرجة كبيرة هذا هو اتجاهه الخاص ؛ فليس له اهتمام آخر على ما أعلم . يعيش من دخله الذى لا أظنه كبيراً بدرجة سوقية . إنه رجل فقير ولكنه شريف ــ هكذا يصف نفسه . تزوج فى شبابه وفقد زوجته ، وأعتقد أن له ابنة . وله أيضاً أخت ، متزوجة من كونت ما من هذه الناحية . أذكر مقابلتى لها فيما مضى : إنها ألطف منه ، فيما أعتقد ، ولكن من الصعب تحملها . أذكر أنه كانت هناك بعض الشائعات عنها ولا أظن أنى أشير عليك بمعرفتها . ولكن لما لا تسألين مدام مرل عن هؤلاء الناس؟. إنها تعرفهم خيراً مما أعرفهم أنا » . (ص ٢٦٨) .

أما بخصوص مدام مرل ، فعندما تحتج إيزابيل بأنه لا تعجبها الطريقة التى يتحدث بها رالف عنها فانه يقول :

« إنى أتحدث عن مدام مرل تماماً كما أتحدث إليها باحترام مبالغ فيه أيضاً . . . أفعل ذلك لأن مزايا مدام مرل مبالغ فيها . . . دعينى أشرح . عندما أقول إنها تبالغ فانى لا أعنى أنها تبالغ بالطريقة المبتذلة ــ أى أنها تفاخر وتسرف فى القول أو تصف نفسها وصفاً رائعاً . ولكن أعنى بالحرف الواحد أنها تذهب بالسعى وراء الكمال إلى حد بعيد جداًــ وأن مزاياها نفسها مبالغ فيها؛ فهى طيبة جداً ، وكريمة جداً ، وذكية جداً ، ومثقفة جداً ، ومهذبة جداً ، وكل صفاتها مبالغ فيها ، وبالاختصار فهى كاملة جداً » . (ص ٢٧٠) .

ثم يردف رالف مخاطباً إيزابيل :

« إنه من الممكن أن يجد المرء نقصاً أو نقطة سوداء فى كل شخص آخر ، حتى أنت ، أما بالنسبة لمدام مرل فلا شىء ، لا شىء ، لا شىء » .

وتقول إيزابيل « إنى أتفق معك تماماً . وهذا هو السبب فى حبى الشديد لها » .

« إنها شخصية ممتازة إذا أردت شخصاً تعرفينه ؛ وما دمت ترغبين فى رؤية العالم فلن يمكنك الحصول على دليل خير منها » .

« أظنك تعنى بذلك أنها دنيوية ؟ »

« دنيوية ؟ إنها الدنيا الكبيرة المستديرة ذاتها ! »

(ص ٢٧١) .

وواضح أن نغمة رالف التى لا تخلو عادة من الفكاهة والسخرية تحمل كثيراً من المعنى هنا . وقد نتساءل لماذا لا يفصح رالف برأيه فى مدام مرل ؟ السبب كما يكشف لنا جيمس هو أن رالف كان يعتقد أن المرأتين لا تعلمان كل شىء عن بعضهما وأنه بمجرد أن تكتشف إحداهما شيئاً من ذلك فان علاقتهما ستفتر وأن إيزابيل لن يلحقها من ذلك أدنى ضرر .

وتذهب إيزابيل بصحبة مدام مرل لتناول الشاى مع أوزموند وابنته وأخته الكونتيسة جيمينى ويبذل أوزموند جهدا خاصا للحفاوة بإيزابيل دون ابتذال أو سوقية ، ويريها تحفه وقطعه الفنية ، ويفضى إليها بشىء غير قليل عن نفسه وعن عدم اهتمامه بالنجاح أمام العالم واكتفائه بألا يفعل شيئاً . وتترك الزيارة أثراً قوياً فى نفسها بينما يخرج القارئ بشعور لا يمكن التخلص منه بأن البيت يشبه المتحف ، وأن كل شىء به بما فى ذلك سلوك صاحبه قد جهز خصيصاً للعرض . ويزورها أوزموند فى بيت خالتها خمس مرات فى أسبوعين مما يلفت نظر الخالة ورالف ولكن رالف لا يعتقد أن إيزابيل ستقبل أوزموند حتى لو تقدم طالباً يدها ؛ أما إيزابيل فتشعر أنه مثير للاهتمام ــ وكأن الصورة التى تركتها فى نفسها زيارتها لمنزله فى أعلى التل تبقى وتقوى بتكرار لقائهما . . صورة رجل هادئ الطبع ، ذكى ، حساس ، ممتاز .

ويذهب الجميع إلى روما حيث تلتقى إيزابيل صدفة بلورد واربرتون الذى يبدو أنه ما زال يحبها . ويتكرر لقاء الأخير بأوزموند ويدرك مايسعى إليه هذا ،

فيقلقه الأمر ويشاور رالف الذى يرى أن خير وسيلة لإنقاذ إيزابيل هى عدم التدخل . وينقل إلينا جيمس بمهارة بالغة قلق أصدقاء إيزابيل بشأن أوزموند وتقربه منها عن طريق أحاديثهم الخاصة كما هو الحال بين رالف وواربرتون وملاحظاتهم المباشرة كما هو الحال مع هنريتا التى لا تخفى ضيقها منه .

وقبل أن تترك إيزابيل روما يعبر لها أوزموند عن حبه بمنتهى الاحترام واللياقة ولكنها ترفض مناقشة الأمر معه محتجة بأنها لا تكاد تعرفه وأنه خير لهما أن يفترقا . ويعلق جيمس على استجابة إيزابيل لهذا الموقف بقوله :

« وعندما انصرف ، وقفت برهة تتلفت حولها ثم جلست ببطء وبشىء من التمعن . جلست هناك إلى أن عاد رفاقها ، ويداها مطويتان ، تحملق فى السجادة القبيحة . كان اضطرابها — الذى لم يتناقص — اضطراباً ساكناً جداً ، عميقاً جداً . أما ما حدث فكان شيئاً توقعه خيالها طيلة الأسبوع وتقدم لملاقاته ، ولكن هنا ، عندما حدث ، توقفت ، فبشكل ما تعطل هذا المبدأ السامى . لقد كان سلوك هذه الفتاة النفسى غريباً ، وكل ما أستطيع فعله أن أقدمه لكم كما أراه ، دون أمل فى أن أجعلها تبدو طبيعية » . (ص ٣٣٧) .

وتقوم إيزابيل مع مدام مرل برحلة فى الشرق الأوسط ، ونلتقى بها مرة أخرى بعد عودتها ونزولها بقصر مسز تتشيت فى فلورنسا فى أواخر الربيع أى بعد عام من الأحداث التى رويناها . وفى هذا الجزء من الرواية نرى أثر إعلان خطبتها على كاسبار جودوود الذى يحضر خصيصاً من أمريكا ليراها قبل أن تتزوج وليعرف شيئاً عن ذلك الرجل الذى تتزوجه (الفصل الحادى والثلاثون) ثم على خالتها التى تستنكر هذه الخطبة وخداع مدام مرل لها وتعد بأن تعمل على إقناع إيزابيل بالعدول عن رأيها بأن تطلب من رالف أن يحاول ذلك ، نرى هذا فى عدد من المشاهد المتتالية ، لعل أهمها المشهد الذى يكشف فيه رالف أخيراً لإيزابيل عن رأيه فى خطبتها .

يجد رالف نفسه فى حيرة بالغة فهو يعلم أن تدخله لكشف حقيقة أوزموند ومدى خداعه لابنة خالته التى يعزها أكثر من أى شىء آخر فى الوجود ، إنما يمكن تبريره فقط إذا تأكد من نجاحه فى إقناع إيزابيل ، أما إذا باءت محاولته بالفشل فسيقضى عليه ، إذ ستلومه إيزابيل وتستمر فى طريقها . وهكذا قضى رالف وقته شارداً تائهاً متنقلا بين أنحاء القصر كسفينة بغير دفة فى مجرى صخرى ، أو جالساً فى الحديقة على كرسى كبير من الخيزران ماداً رجليه وملقياً برأسه إلى الخلف وقبعته تغطى عينيه .

« كان يشعر ببرودة حول قلبه . لم يكره فى حياته شيئاً مثلما كره هذا الأمر . ماذا يستطيع أن يفعل وماذا يستطيع أن يقول ؟ فسواء جهر برأيه أو تظاهر بغير ما يعتقد فسيكلفه ذلك نفس الجهد . إذ لا يمكنه الموافقة باخلاص أو المعارضة بأمل » . (ص ٣٦٦)

أما إيزابيل فبالرغم من توقعها معارضة رالف لزواجها إذ من الطبيعى أن يكره ابن الخالة الزوج ويعارض ، إلا أنها كانت على استعداد لهذه المعارضة . لن تلوم رالف إذا لم يظهر مشاركة كافية . وتمضى ثلاثة أيام لا يتفوه فيها رالف ببنت شفة .

وذات صباح تعود إيزابيل من نزهتها الصباحية لتجده فى بقعة جميلة من الحديقة فى جلسته المعتادة فتظنه نائماً . وبالرغم من أنها لضيقها قد اتهمته بعدم الاكتراث إلا أنها لم تغفل عن ظهوره بمظهر من يشغله أمر . ولكنها كانت ترجع شروده جزئياً لسوء حالته الصحية أو لأسباب تتعلق بأعماله المالية . وتقف إيزابيل تتأمله لحظة من الزمن . ولكن رالف يفتح عينيه فتجلس بجواره ويدور بينهما الحديث التالى :

« معذرة ، لقد أيقظتك . إنك تبدو متعباً » .

ويقول رالف « إنى أشعر بتعب شديد . ولكنى لم أنم . كنت أفكر فيك » .

« أتعبت من ذلك ؟ » .

« تعبت جداً . فذلك لا يؤدى بى إلى شىء . فالطريق طويل ولا أصل أبداً » .

ثم قالت إيزابيل وهى تطوى مظلتها « وإلى أى شىء تريد الوصول ؟ » .

« إلى نقطة التعبير كما يجب عما أظنه فى أمر خطبتك»

فأجابت بخفة « لا تفكر كثيراً فى أمرها » .

« أتعنين أن ذلك ليس من شأنى ؟ » .

« بعد نقطة معينة ، نعم » .

« تلك هى النقطة التى أود تحديدها . ظننت أنك قد تجدينى مقصراً فى حسن السلوك ، إذ لم أهنئك بعد » .

« لاحظت ذلك طبعاً وعجبت لماذا التزمت الصمت ؟ » .

« كانت هناك أسبابا كثيرة . سأخبرك الآن » .

وخلع رالف قبعته ووضعها على الأرض . ثم جلس ينظر إليها . واتكأ إلى الخلف فى ظل تمثال برنينى (الموجود فى الحديقة) ورأسه يستند إلى القاعدة المرمرية ، وتدلى ذراعاه إلى جنبيه ، ويداه على جانبى مقعده الواسع . بدا فى وضع غير رشيق وغير مريح وتردد طويلا . ولم تقل إيزابيل شيئاً . كانت عادة تشعر بالأسف نحو الناس عندما يجدون أنفسهم فى حيرة ، ولكنها صممت ألا تساعد رالف فى التفوه بكلمة لا تشرف قرارها الرفيع . وأخيراً قال رالف « لم أفق بعد من دهشتى . لقد كنت آخر شخص أتوقع أن أراه وقد وقع فى الشرك » .

« إنى لا أدرى لماذا تقول وقع فى الشرك » .

« لأنك ستوضعين فى قفص » .

فأجابت « فاذا أحببت القفص فيجب ألا يقلقك هذا » .

« هذا ما أعجب له . هذا ما كنت أفكر فيه » .

« إذا فكرت أنت فيمكنك أن تتصور كيف فكرت أنا . إنى مقتنعة بأنى على صواب » .

« لا بد أنك تغيرت تغيراً كبيراً . فمنذ عام كنت تقدرين حريتك فوق كل شىء . كنت تريدين فقط أن ترى الحياة » .

فقالت إيزابيل « لقد رأيتها . وأعترف أنها لا تبدو لى الآن كمكان مغر لهذا الحد » .

« إنى لا أدعى أنها كذلك . ولكنى كنت أظن أنك تنظرين إليها نظرة ودية وتحاولين رؤية الميدان بأكمله » .

« لقد رأيت أنه ليس بمقدور المرء أن يفعل شيئاً عاماً هكذا . لا بد أن يختار المرء ركناً ويوليه عنايته » .

« هذا هو اعتقادى . يجب على المرء أن يختار خير ركن . لم أكن أدرى ، طيلة الشتاء ، بينما كنت أقرأ خطاباتك الممتعة ، أنك كنت تختارين . لم تذكرى شيئاً عن ذلك . لقد جعلنى صمتك أتخلى عن حيطتى » .

« لم يكن هذا أمر يحتمل أن أكتب لك عنه . وإلى جانب ذلك ، فانى لم أكن أعلم شيئاً عن المستقبل . فقد حدث كل هذا حديثاً . وحتى إذا كنت قد أخذت حيطتك فماذا كنت تفعل ؟ » .

« كنت أقول : انتظرى قليلا » .

« أنتظر ماذا ؟ »

فقال رالف وعلى وجهه ابتسامة مضحكة بعض الشىء بينما وجدت يداه طريقهما المعتاد إلى جيبيه :

« تنتظرى نورا أقوى قليلا مثلا » .

« ومن أين كان لهذا النور أن يأتى ؟ منك ؟ » .

« ربما كان فى استطاعتى أن أقدح شرارة أو اثنتين » .

كانت إيزابيل قد خلعت قفازيها . وأخذت ترتبهما وهما على ركبتها — كانت رقة هذه الحركة عرضية . إذ لم تكن نظرتها نظرة مصالحة : « إنك تدور وتلف

يا رالف . . إنك ترغب أن تقول إنك لا تحب مستر أوزموند ولكنك خائف ! » .

« إنى على استعداد لأن أجرح ولكنى أخشى أن أضرب ؟ » إنى على استعداد لأن أجرحه هو ، نعم — ولكن لا لأجرحك أنت . . إنى أخشاك أنت ولا أخشاه فاذا تزوجته فانه لن يكون من حسن حظى أن صرحت برأيى » .

« إذا تزوجته ؟ وهل كان لديك أمل فى أن تثنينى عن عزمى ؟ » .

« بالطبع يبدو لك هذا ضرباً من العبث » .

فقالت إيزابيل بعد قليل « لا ، بل يبدو لى شيئاً يدعو إلى الرثاء » .

« إن هذا لا يغير من الأمر شيئاً . إن ذلك يجعلنى مضحكاً لدرجة الرثاء » .

ربتت إيزابيل مرة أخرى على قفازيها الطويلين « إنى أعلم أنك تكن لى مقداراً كبيراً من المحبة . . هذا شىء لا يمكننى التخلص منه » .

« بحق السماء لا تحاولى . احتفظى بذلك أمام ناظريك فسيقنعك هذا إلى أى حد أتمنى لك أن تفلحى » .

« ما أقل ثقتك بى ! »

ساد السكون لحظة وبدت الظهيرة الحارة وكأنها تنصت ثم قال رالف « إنى أثق بك ، ولكنى لا أثق به »

رفعت عينيها ورمته بنظرة واسعة عميقة « لقد قلتها الآن ، وإنى مسرورة لأنك وضحت الأمر بهذه الدرجة ولكنك ستقاسى بسبب ذلك » .

« لن أقاسى إذا كنت عادلة » .

وقالت إيزابيل « إنى عادلة جداً » (ص ٣٧٠ — ٣٧١) .

يصور جيمس هذا الموقف بمنتهى الجمال والرقة بحيث تضيف كل لمسة وكل جملة من الحديث الجارى بين هذين الشخصين إلى شعورنا بإحساس رالف المرهف وحبه لإيزابيل ورغبته الصادقة فى تحذيرها وإلى إدراكنا لغضب إيزابيل وشعورها ببطوليتها لا فى الدفاع عن أوزموند فقط ، بل فى محاولتها للكشف عن فكرتها ورغبتها فى العدل تجاه رالف . يقول رالف معبراً عن مدى خيبة أمله فى مستقبلها :

« إن هذا لا يشبه فى شىء الزواج الذى كنت أتصورك ستعقدينه » . (ص ٣٧٢)

ثم يضيف مفسراً :

« لقد كنت أمتع النفس برؤيا فاتنة لمستقبلك . . كنت أسرى عن نفسى بتخطيط مصير رفيع لك . لم يكن به شىء من هذا القبيل . فما كنت لتهبطى بهذه السرعة » .

« أتقول أهبط ؟ » .

« إن هذا يعبر عن إحساسى بما حدث لك ، على أى حال . كنت تبدين لى وكأنك تحلقين بعيداً إلى أعلى فى زرقة السماء ، وكأنك تبحرين فى نور وضاء — فوق رءوس الرجال . وبغتة يلقى شخص ما بوردة ذابلة لم تتفتح أكمامها — بقذيفة كان يجب ألا تصل إليك أبداً — وبسرعة تهبطين إلى الأرض . . إن هذا يؤلمنى ، يؤلمنى كما لو كنت أنا الذى سقطت » . (ص ٣٧٣) .

وتتعجب إيزابيل من قوله هذا بقولها : « إنه ما من شىء أرفع للفتاة من أن تتزوج شخصاً يعجبها » فيجيب رالف :

« إن إعجابك بالشخص الذى نتحدث عنه هو ما أجرؤ على نقده ، يا ابنة خالتى العزيزة . كنت أتصور الرجل الذى تتزوجينه ذا طبيعة أكثر نشاطاً وأكثر اتساعاً وحرية » . وتردد رالف ثم أضاف : « لا يمكنى التخلص من الإحساس بأن أوزوموند بشكل ما — لنقل ، صغير » . لقد نطق هذه الكلمة الأخيرة دون ثقة كبيرة ؛ كان يخشى أن تغضب مرة أخرى . ولكن أدهشه أن بقيت هادئة ، وكان منظرها يوحى بأنها تفكر .

« صغير ؟ » لقد جعلت الكلمة تبدو هائلة :
« أظن أنه ضيق الأفق ، محب للذات . يأخذ نفسه مأخذ الجد بإسراف » :

ويستمر الحديث وكل يدافع عن وجهة نظره ، رالف يبين نقائص أوزموند وإيزابيل تدافع عما تراه من مزاياه ومحاسنه ويختم رالف الجزء الأول من هذا الحديث بقوله إنه ما تحدث بهذه الطريقة إلا لأنه يحب إيزابيل ، ولكنه يضيف عندما تتهمه بالتحيز نتيجة لذلك بأنه يحبها حباً لا أمل فيه . وتقول إيزابيل فى كلمات تعلق بذهن القارئ ويذكرها بعد فشل زواجها واكتشافها حقيقة زوجها :

« إنك تفعل خيراً بتحذيرى ، إذا كنت فعلا منزعجاً ولكنى لا أعد بالتفكير فيما قلت : سأنسى ذلك بأسرع ما يمكن . حاول أنت أيضاً أن تنساه . لقد أديت واجبك ولا يمكن لأى إنسان أن يفعل أكثر من ذلك . لا أستطيع أن أشرح لك ما أشعر به ، وما أؤمن به ، ولن أفعل حتى إذا استطعت ذلك . إنى لا أفهم فكرتك عن مستر أوزموند . لا يمكننى أن أفيها حقها ، لأنى أراه بشكل مختلف تماماً . إنه ليس مهما — لا ، إنه ليس مهماً ؛ إنه رجل لا يعنيه المركز المهم على الإطلاق إذا كان هذا ما تعنيه عندما تسميه « صغيراً » ، إذن فهو « صغير » بالدرجة التى تحلو لك . أنا أسميه « كبيراً » — إنه أكبر شىء أعرفه . . : هل تشكو من أن أوزموند ليس غنياً ؟ إن هذا بالذات هو سبب ميلى له . فمن حسن الحظ أنى أملك مالا كافياً . لقد مرت بى لحظات كنت أود أن أذهب وأركع بجانب قبر والدك : لعله قد فعل خيراً مما قصد عندما مكننى من أن أتزوج رجلا فقيراً — رجلا تحمل فقره بعزة وعدم اهتمام . إن مستر أوزموند لم يجر ولم يكافح — إنه لم يعبأ بأية جائزة دنيوية . إذا كان هذا ضيقاً للأفق وحباً للذات ، إذن فكل شىء على ما يرام : إنى لا أخشى مثل هذه الكلمات . ولست حتى مستاءة ؛ ولكنى آسفة فقط لأنك ترتكب خطأً كهذا . قد يخطئ الآخرون ولكنى أعجب أن تخطئ أنت . فأنت يمكنك أن تعرف الرجل الكريم إذا رأيت واحداً ، فلك عقل ممتاز . أما مستر أوزوموند فلا يرتكب أخطاءا . إنه يعرف كل شىء ، يفهم كل شىء وروحه أكثر الأرواح رقة وحناناً وسمواً . لقد كونت فكرة خاطئة . إنه لمن المؤسف ، ولكنى لا أستطيع أن أقول شيئاً . فهذا شأنك أنت وليس شأنى » . (ص ٣٧٥ — ٣٧٧) .

ويختم رالف بقوله : « لقد قلت لك فى العام الماضى إذا وجدت نفسك فى مأزق فسأشعر وكأنى قد بعت نفسى . هذا ما أشعر به اليوم » . ويضيف أنه يظن الإنسان فى مأزق إذا كان على خطأ . وتجيب إيزابيل « إنى لن أشكو لك من أى مأزق » . (ص ٣٧٧) .

وهكذا تسد إيزابيل أذنيها عن سماع النصيحة وتجد نفسها سعيدة بخطبتها لرجل تحبه وتحترمه ، تستسلم له بتواضع وتتزوجه بفخر وتشعر أنها بزواجها منه لا تأخذ فقط ، بل تعطى أيضاً . أما أزموند فكان نجاحه فى الحصول على إيزابيل أكبر حافز للسلوك المثالى : فكان محباً مثالياً ، عطوفاً رقيقاً ، واثقاً من نفسه .

أما أول إشارة إلى فشل هذا الزواج فتأتى من مدام مرل فى حديث لها مع شاب أمريكى وصديق قديم لإيزابيل ، يود الزواج من بانسى أوزموند ويرى أن مسز أوزموند أى إيزابيل تستطيع أن تساعده ، ولكن مدام مرل تنصحه بألا يكون السبب فى توسيع شقة الخلاف بين الزوجين . يحب إدوارد روزير بانسى ويرغب فى الزواج منها ولكن الأب يعتقد أنه ليس كفأً لها لأنه ليس غنياً بالدرجة الكافية . ولكن مدام مرل ترى أن تحتفظ به مؤقتاً ، بينما ترفض إيزابيل مساعدته رغم عطفها عليه لأنها تدرك موقف الأب منه . تبادله بانسى الحب ولكن أوزموند واثق من أنها لن تعصى له أمراً فقد رباها تربية صحيحة .

وجدير بالذكر أننا نرى كلا من إيزابيل وزوجها أول ما نراهما بعد الزواج من خلال نظرة روزيير لهما — روزيير جامع التحف الذى يدرك أصالة الشيء وقيمته الحقيقية بغض النظر عن قيمته الكتالوجية أو المالية . وبينما يبدى إعجابه بإيزابيل وقلقه على سعادتها فهو الذى ينطق أيضاً بكثير من الأحكام على أوزموند فى مجرى تعبيره عن استيائه من موقفه من حبه لبانسى . فعندما يقول مثلا : « إن بانسى لا تأبه مثقال ذرة بمال الشخص » ، فترد إيزابيل « ولكن أباها يأبه كثيراً » ، يقول « آه لقد أثبت ذلك » . كذلك فاننا نراهما من خلال موقفهما بالنسبة لحب بانسى وروزيير .

وتسير الأحداث بسرعة أكبر فى الجزء الثانى من الرواية وكأن جيمس يعوض عن بطء الجزء الأول وخلوه نسبياً من الأحداث ، فيحشد هنا عدداً من المشاهد الرائعة التى تحمل القصة إلى نهايتها المحتومة .

ومرة أخرى يظهر لورد واربرتون على مسرح الأحداث بصحبة رالف الذى يحضره إلى إيطاليا نظراً لاشتداد المرض عليه وحاجته إلى الانتقال إلى جو أكثر دفئاً . ومرة أخرى يبدى الصديقان قلقهما على إيزابيل وشكهما فى سعادتها عندما يكتشف كل منهما أن حجة الآخر فى الحضور إلى روما لم تكن سوى عذر واه لرؤيتها . ويدرك الاثنان أن إيزابيل لن تشكو تعاستها لأحد ، فهى تضع على وجهها قناعاً سميكاً من الهدوء والآلية . ثم يحضر إلى روما كاسبار جودوود وهنريتا ستاكبول صديقة إيزابيل وتكتمل الدائرة .

وتبدأ الأمور فى التعقيد عندما يبدى لورد واربرتون اهتماماً ببانسى ، وتظهر مدام مرل بغتة فى روما بعد أن ظلت بعيداً لمدة طويلة بعد زواج إيزابيل . وتلاحظ إيزابيل تغيراً فى سلوكها ومبالغة فى الابتعاد عنها وكأنها تذكر قول رالف إن مدام مرل تسرف فى كل شيء حتى إن كمالها يبدو مبالغاً فيه كما تعجب لما تسر به لها مدام مرل ذات يوم من أنها إنما تبتعد حتى لا تسبب لها أية مضايقات ، خاصة وأنها صديقة قديمة لأوزموند . وترجو إيزابيل إذا ما وجدت ما يثير غيرتها أن تلومها هى لا أوزموند .

وذات صباح تعود إيزابيل من نزهتها لتجد مدام مرل وأزموند فى وضع يلقى كثيراً من الضوء على بعض ما ساورها من شكوك عن مدى علاقتهما . إذ تجد أوزموند جالساً بينما تقف مدام مرل وبينهما إحدى النظرات التى تطول بين شخصين رفعت الكلفة بينهما . وقبل أن تنصرف مدام مرل وبعد أن يتركهما أوزموند تفضى هذه لإيزابيل بمايدور بخاطرها بشأن إعجاب لورد واربرتون ببانسى وتشير إلى أنه بمقدورها أن تجعله يتزوج بانسى بما لها من تأثير عليه ، مذكرة إياها بأنها إذا كانت قد رفضت هى الزواج منه فلا أقل من أن تهيئ له فرصة الزواج من أخرى .

وفى الفصل التالى نرى إيزابيل تفكر فى هذا الأمر وترى أن زواج بانسى من لورد واربرتون سيسعد زوجها . هى تريد أن تسعد زوجها . لماذا لا تساعد إذن على إتمام هذا الزواج ؟ غريب أن يعجب لورد واربرتون ببانسى « الدمية » الصغيرة الهادئة ، ولكن من يعلم ما يعجب الرجال . وفى الوقت الذى تقرر فيه إيزابيل أنه من الجميل فعلا أن يتم هذا الزواج يدخل أوزموند ويفسد كل شيء . فهو يصمم بدوره أنه بما لها من نفوذ على لورد واربرتون يمكنها أن تساعد على إتمام هذا الزواج وتتساءل إيزابيل فيما بينها وبين نفسها : هل يتصور أوزموند أن إيزابيل ستساعد فى جعل لورد واربرتون الذى ما زال يحب زوجة أوزموند على أن يتزوج ابنته ؟ لا لن تفعل ذلك .

وفى الفصل الثانى والأربعين الذى يعد من خير فصول « صورة سيدة » تواجه إيزابيل هذه الصورة كما تواجه صورة مدام مرل وأوزموند كما رأتهما فى اجتماعهما الذى يدل على الألفة والقرب . وفى نظرة إلى الوراء تستعرض إيزابيل زواجها ، وكيف خدعت

فيه ، كيف خدعها أوزموند ، وكيف خدع بها هو بدوره . لقد ظنها ستستسلم له ولآرائه وتقاليده . لقد كان أسوأ شيء بالنسبة له أن اكتشف أن لها شخصية خاصة وفكراً خاصاً . كان يتصور أنها ستتقبل آراءه وتجعل منها آراءها . فلما أبدت أنها ستستخدم قدرتها على الحكم على الأشياء ، بل وستظهر احتقاراً لآرائه لم يكن باستطاعته إلا أن يكرهها :

« لم يكن هذا نتيجة لخطئها — إذ لم تمارس هي أي نوع من الخداع ؛ لقد أعجبت وصدّقت . خطت الخطوات الأولى بمنتهى الثقة ، وبغتة وجدت أن المنظر اللانهائي للحياة المتكاثرة ، حارة ضيقة في نهايتها حائط كالح . وبدلا من أن توصّل إلى أماكن السعادة العالية حيث يبدو العالم للمرء من تحته ، وحيث ينظر إلى أسفل بشعور من الرفعة والامتياز ، ويحكم ويختار ويشعر بالشفقة ، إذا بها توصل إلى أسفل ، إلى الأرض ، إلى الممالك المحدودة ، ممالك الحزن والضيق حيث تسمع من أعلى أصوات حياة أناس آخرين ، حياة أسهل وأكثر حرية ، وحيث تعمل على جعل الشعور بالفشل أكثر عمقاً . كان شعورها العميق بعدم الثقة بزوجها — كان هذا ما أظلم الحياة لها . . . لقد حدث ذلك تدريجياً — لم يحدث حتى نهاية السنة الأولى من حياتهما معاً ، تلك السنة التي اتسمت أول الأمر بألفة تدعو إلى الإعجاب . ثم بدأت تتجمع الظلال ، كما لو كان أوزموند عن عمد وسوء نية تقريباً قد أطفأ الأنوار ، الواحد تلو الآخر . كان الغسق في بادئ الأمر رقيقاً غير واضح ، وكانت لا تزال ترى طريقها فيه . ثم ازدادت كثافته بصفة مستمرة ، وحتى إذا انقشع من وقت لآخر أحياناً فقد كانت هناك أركان بالذات من المنظر الذي يمتد أمامها — أركان حالكة الظلام لا يمكن اختراقها» . (ص ٤٦١— ٤٦٢) .

ويصور هذا الفصل خير تصوير بؤس إيزابيل ووحدتها، فهي حريصة أشد الحرص ألا يرى أصدقاؤها وخاصة رالف ما أصاب حياتها من فشل وما حل بها من ظلمة . ويناقش الأصدقاء فيما بينهم بؤسها وفشلها : لورد واربرتون ورالف ، جودوود ورالف ، أما الوحيدة التي تحدث إيزابيل صراحة كعادتها فصديقتها هنريتا ستاكبول . وعندما يشتد المرض برالف ويقرر العودة إلى انجلترا فتطلب إيزابيل من كاسبار جودوود أن يصحبه في سفره،يشعر الجميع أن إيزابيل تود التخلص منهم جميعاً (لا لمجرد أن أوزموند يكره أصدقاءها) ، بل لأنها تشعر أنهم جميعاً يلاحظونها ، ويودون اكتشاف دخيلتها . تقول هنريتا « إنك مثل الغزال الجريح الذي يسعى بعيداً نحو الظل الداخلي » . (٥٤٦) . أما رالف فآخر كلماته لها : « لقد كنت أرغب في الحياة من أجلك . . . ولكن يبدو أني لا أستطيع أن أقدم لك أية خدمة » . ولكنها إذ تشعر بأن نهايته قد حانت وبمدى عطفها عليه تقول « إذا استدعيتني فسألبي النداء » فيرد قائلا « سأبقى هذه المتعة إلى النهاية » .

وسرعان ما تصل برقية من مسز تتشيت تطلب من إيزابيل بناء على رغبة رالف الحضور إذا أمكنها ذلك . تصل هذه البرقية في وقت تشتد فيه الأزمة بين إيزابيل وزوجها نتيجة لظن أوزموند أن إيزابيل قد عملت على إبعاد لورد واربرتون عن بانسي ، كما تلومها مدام مرل على ذلك . ويبدي أوزموند عدم موافقته على سفر إيزابيل لرؤية رالف الذي يكرهه . وفي هذه الحالة من البؤس واليأس ، تثير إيزابيل شفقة الكونتيسة جيميني أخت أوزموند التي لا تحبه كثيراً ، فتكشف لها عن حقيقة العلاقة بين أوزموند ومدام مرل وأن بانسي ابنتهما ، وتؤكد لها أن مدام مرل قد رتبت زواجها من أوزموند كي تحقق لابنتهما حياة رغدة .

وتكاد تنهار إيزابيل تحت وقع الصدمة ولكنها تقرر السفر . وتذهب قبل سفرها لزيارة بانسي التي أعادها والدها إلى الدير الذي تعلمت فيه ليبعدها عن روزيير

الذى باع جميع تحفه ليتزوجها ولكن الأب رده خائباً . وهنا نرى مثالا آخر لقسوة أوزموند وماديته — إذ يضحى بسعادة ابنته أملا فى حصولها على زوج أغنى وأهم اجتماعياً . ونرى الفتاة الرقيقة ترتعد خوفاً من والدها وترجو إيزابيل ألا تهجرها وتعد إيزابيل بالعودة وهناك أيضاً تقابل إيزابيل مدام مرل بعد أن عرفت حقيقتها . ولكن مدام مرل التى تستنتج ما حدث تخبرها أن ابن خالتها رالف هو فى الحقيقة المسئول عن كل ما حدث لها ، فهو الذى أقنع والده أن يترك لها كل تلك الثروة .

وقبل وفاة رالف تشكره إيزابيل على عطفه عليها ومساعدته لها وتعترف له ببؤسها وبمحاولتها إخفاء ذلك عنه ، ولكنه يخبرها أنه كان يعلم طيلة الوقت ما تعانيه . وهكذا يقترب الصديقان فى لحظة من السعادة العميقة والرضا . ويؤكد لها رالف بآخر أنفاسه تقريباً . أنها « وإن كانت موضع كره فقد كانت أيضاً موضع حب ، لا بل عبادة » .

وللمرة الأخيرة يجتمع الأصدقاء حول رفاة رالف ويواجهنا السؤال : ماذا تفعل إيزابيل الآن؟ تعلم إيزابيل أن لورد واربرتون على وشك الزواج من فتـــاة أرستوقراطية وإن كان سلوكه نحوها لا يقنعها تماماً أنه تغلب على حبه لها . أما كاسبار جودوود فيظهر أمامها مرة أخرى ليعرض عليها حبه ويرجوها ألا تعود لزوجها وتبقى معه . ولكنها ترفض . وكأن جيمس يدرك ما قد يثيره قرار بطلته من شكوك فى أذهان القراء ، فيقدم لنا لمسة إنسانية بارعة عندما يصور إيزابيل وقد احتضنها جودوود فى فورة من الحب العارم ، فتشعر بضعف مفاجئ وكأنها تصبو للاستسلام ، وتحس لأول مرة مدى إخلاصه — وكأن حبه « يلفها ويرفعها عن الأرض » فى الوقت الذى تشعر فيه بثقل من الرصاص يشدها إلى أسفل . ولكنها تتخلص من بين ذراعيه لتندفع فى الظلام نحو المنزل بسرعة ودون تردد .

وهكذا نرى إيزابيل ترفض الحب والخلاص من السجن المظلم الذى تحولت إليه حياتها لتعود إلى زوجها ، لأن ذلك هو الطريق الوحيد الذى تراه أمام الزوجة التى تتمتع بضمير رائع وإحساس بالواجب ، وتقبل نتائج عملها الحر واختيارها وخطئها . طالما نوقشت هذه النهاية وادعى القراء أنها لا تتمشى مع بقية الأحداث ولا تتفق مع شخصية البطلة . فهم يتوقعون إيزابيل الحرة المستقلة التى لا تخضع للتقاليد أن تترك زوجها . ولكن الواقع غير ذلك ، فإيزابيل الحرة الطليقة هى إيزابيل الفتاة الجريئة التى لم تختبر الحياة ، أما إيزابيل التى تعود إلى روما فهى إيزابيل الزوجة التى عرفت الحياة والتى فقدت حريتها ولكنها ما زالت تحتفظ بفكرتها عن الحق والواجب ، بل وعن نفسها وعن نزاهتها وقيمتها . فكما نجد كلمتى الحرية والاستقلال تسودان الجزء الأول من الكتاب نجد كلمتى الشرف والواجب تتكرران بشكل ملفت فى الجزء الأخير منه .

تلك إذن لمحة عن صورة السيدة التى يقدمها لنا جيمس فى بناء متناسق مترابط محكم التنظيم ونسيج فنى يفيض حيوية وثراء ، ويعتمد على اللفظ المعبر والصورة والرمز . لقد أصاب ف . ر . ليفيز عندما أطلق على جيمس تعبير « الروائى الشاعر » وفسر ذلك بالإشارة إلى قول هوثورن الروائى الأمريكى « إن جيمس دائم البحث عن صور تتخذ مكانها فى تقابل تصويرى جميل مع الحقائق النفسية التى يعنى بها . فهذا البحث بالطبع من جوهر الشعر »[1] . فاذا أضفنا إلى ذلك قول جوزيف كونراد أن جيمس « مؤرخ الضمير الرائع »[2] لوجدنا أن عمق اهتمامات جيمس وجدتها تتضح أولا فى

(١) انظر "The Great Tradition," p. 129.

(٢) انظر "Views on the Art of the Novel", pp. 227- 282.

نوع المسائل النفسية والخلقية التى تشغله وفى عكوفه على تصويرها فنياً خير تصوير ثانياً ، فهذا فى الواقع جوهر اهتمامه بالحياة والفن .

وهكذا نرى أن روعة « صورة سيدة » لا تكمن فقط فى أهمية الموضوع الذى عالجه وفى روعة شخصية البطلة ، بل وفى المقدرة الفنية التى صور بها هــذا الموضوع . أما من ناحية البناء ، فبالرغم من تعــدد الشخصيات وثرائها مثلا فانها جميعاً لازمة وهامة بالنسبة للخطة الكلية للرواية . ففى تقابلها وتضادها توضح بعضها بعضا وتسهم بنصيبها فى الخطة الكلية . ففى تقابل لورد واربرتون وأوزموند ، وكاسبار جودوود وأوزموند ، ورالف وأوزموند مثلا تتضح لنا شخصية أوزموند وما قد يمثله . فهو من ناحية الفنان المدعى والإنسان الأنانى الضيق الأفق ومن ناحية أخرى الأمريكى المستوطن فى أوربا الذى تنقصــه صفات الأوربى الحقيقى والأمريكى معاً ، بينما يمثل واربرتون نتاج الثقافة الإنجليزية الحقيقية الذى تغلب عليه صفاتها الحميدة ، ويمثل جودوود الحياة الأمريكية بما تمتاز به من صراحة واستقامة وما قد يصحبهما من حاجة إلى الصقل ، بينما يجمع رالف صفات كل من الحضارتين إلى جانب صفاته الشخصية من ذكاء ورقة ووعى رائع . كذلك الحال بين الشخصيات النسائية فى الرواية . فدام مرل المغتربة الأمريكية الكاملة لا تملك من الصفــات الأمريكية شيئاً ولكنها تملك صفات الحضارة الاجتماعية التى تمثلها وكأنها — فى سعة تجاربها ومعرفتها الاجتماعية وصعوبة الإمساك بها — العالم الكبير المستدير بأكمله كما يصفها رالف ، تقابلها مسز تتشيت بصراحتها وحدتها وسلوكها الذى يترك كما يشير ليفيز أثراً كحد السكين . ثم هناك الكونتيسة جيمينى سيدة المجتمع التى فشلت فى إخفاء أمر مغامراتها ولكنها ما زالت تحمل قلباً رقيقاً يحن لإيزابيل فى محنتها وإن كانت لضعف شخصيتها وسيطرة مدام مرل عليها لم تتمكن من تحذير إيزابيل فى الوقت المناسب . هناك أيضاً هنريتا ستاكبول الصحفية الجريئة الحرة التى تمثل المرأة الجديدة ونوعاً آخر من استقلال الشخصية يقابل استقلال إيزابيل ، كما تمثل البراءة الأمريكية التى تزدهر فى تعرضها الحر للعالم . يقابلها نمط الزهرة النقية والبراءة التى يسيج حولها بسياج من العناية والحيطة الذى تمثله بانسى .

أما استخدام جيمس للصورة والرمز فى روايته هذه للتعبير عن الحقائق النفسية والخلقية والكشف عن حقيقة الشخصيات وتطورها فيحتاج لمقال مستقل . فاذا اتخذنا على سبيل المثال تصويره لشخصية إيزابيل فى مراحل مختلفة من قصتها لوجدنا مثلا كيف يراها رالف بادئ الأمر كعمل فنى رائع ألقت به المقادير فى طريقه ، ثم كيف تشعر إيزابيل بعد عودتها من رحلتها الطويلة فى الشرق الأوسط من أنها أكبر سناً وأنها كالعمل الفنى تزداد قيمته بمضى الوقت ، ثم كيف يتأملها روزيير جامع التحف الخبير وهى تقف فى أحد أبواب بيتها المذهبة فى روما ، ثم كيف نشعر أن أوزموند قد أفلح فى إضافة تحفة نادرة إلى مجموعته ، تحفة خدع هو فى حقيقتها ، إذ لم يدرك مدى أصالتها وكأنه حطمها بلمسته ، إذ نلاحظ كيف يحلو لإيزابيل بعد فشل زواجها أن تجلس بين أطلال روما وآثارها التى تهدمت وتحطمت وكأنها واحدة منها .

ومن ناحية أخرى يراها رالف فى بادئ الأمر كسفينة يود أن يضع شيئاً من الريح فى شراعها ثم نراها فى النهاية كسفينة تتقاذفها الأمواج فى بحر عاصف . كذلك يتصورها رالف طائراً محلقاً فوق رءوس الجميع ثم يشير عند خطبتها إلى أنها أمسكت وستوضع فى قفص ، بينما نشعر طيلة الوقت بوجود فكرة الفخ الذى تسعى مدام مرل لإيقاع إيزابيل فيــه والتى تسعى هى نحوه نتيجة لمثاليتها وجهلها بالحياة . وفى النهاية تشعر إيزابيل بأنها سجينة ذلك القصر الكبير الذى أثثه أوزموند تبعاً لذوقه الخاص والذى أصبح رمزاً لذلك الزواج

الفاشل القائم فعلا على التقاليد التى تسحقها كالرحى كما يقول رالف . وترى إيزابيل نفسها بدلا من ذلك الإنسان الحر الذى كانت تتخيله ، مجرد أداة حديدية معلقة استخدمتها مدام مرل وأوزموند لأغراضهما الخاصة . وعندما تفكر فى وفاة رالف تحسده ، وترى فى فكرة العدم الكلى فكرة جميلة كرؤيا حمام بارد فى حوض من المرمر فى حجرة مظلمة ، فى بلد حار . . وفى النهاية عندما يعرض عليها كاسبار جودوود فكرة البقاء معه بعيداً عن زوجها قائلا إن العالم مكان كبير جداً وترد قائلة لا بل العالم صغير جداً ، يبدو لها العالم فى الواقع أكثر اتساعاً منه فى أى وقت آخر ، يبدو وكأنه يمتد ويتسع أمامها كبحر هائل ، حيث تطفو هى فى حياة لا قاع لها . وتشعر وكأن المساعدة التى كانت تتوق لها قد جاءت فى سيل جارف . ولكنها ترفض هذه المساعدة . وعندما تتخلص من ذراعى كاسبار فى الحديقة وتذهب بعيداً عنه نحو باب المنزل يعبر جيمس عن لحظة الرؤيا التى تنبثق أمام إيزابيل بهذه الكلمات البسيطة الجميلة ، التى تضع اللمسة النهائية لبطلته ذات الضمير الرائع :

« تلفتت حولها من كل ناحية ؛ وأنصتت قليلا ؛ ثم وضعت يدها على المزلاج . لم تكن تدرى من قبل أين تتجه ؛ ولكنها عرفت الآن . عرفت أن هناك طريقا مستقيما جداً » .

غير أن تصوير جيمس للشخصيات واستخدامه للصورة والرمز والأسلوب المعبر ليست إلا بعض جوانب عذته الفنية . ولعل ليفيز يعبر عن ذلك خير تعبير عندما يقول : « إن اهتمام جيمس الدائم والعميق بالحقائق النفسية يجد تعبيراً لا فيما يجب أن يسمى باستخدام الرمز فحسب ، بل أيضاً فى معالجته للشخصيات والأحداث والحوار وفى كلية الحبكة ، حتى إنه عندما يبدو وكأنه يقدم لنا رواية سلوك فهو يعطينا شيئاً أكبر — شيئاً يلعب فيه الشعر دوراً أساسياً »(1)

(1) Leavis, "The Great Tradition," p. 129.



الأشعار الغنائية لسافو

بقلم
الدكتور ابراهيم سكر

سافو هي أعظم شعراء الشعر الغنائي اليوناني ، وقد وضعها ديونيزيوس الهاليكارناسي (Lit. comp. 23) على رأس قائمة شعراء هذا اللون من الشعر ، وجعل أناكريون Anacreon وسيمونيديس Simonides في المرتبة الثانية بعدها .

كانت سافو معاصرة للشاعر ألكايوس Alcaeus وعلى معرفة به ، وإن فاقت شهرتها شهرته ؛ وكان لهما معاً أثر كبير على أسلافهما . كان اسم سافو يلقى نوعاً من السحر على الأجيال التي جاءت بعدها من إغريق ورومان ، فنسجوا حول حياتها وأعمالها القصص والروايات ، حتى أصبح من الصعب الآن التمييز بين ما هو حقيقي منها وما هو مختلق .

ولدت سافو Sappho (أو Psappho) باجماع معظم الآراء في الأولمبياد الثاني والأربعين (أي حوالي عام ٦١٢ — ٦٠٩ ق . م قارن سويداس ، تحت اسم سافو ا) بمدينة إريسوس Eresos في جزيرة ليسبوس Lesbos ، من أبوين كريمين ينتميان إلى طبقة ملاك الأراضي . كان أبوها يسمى سكاماندرونيموس Skamandronymos وأمها Kleis ، وكان لها ثلاثة إخوة : لاريخوس Larichus وخاراكسوس Charaxos وإيوريجيوس Eurygyos . وكان الأول يعمل ساقياً للخمر بقاعة المدينة ، وكان هذا العمل مقصوراً على شباب الأسر الكريمة الذين يتميزون بحسن المظهر .

وتحدثنا أخبار الرواة بأنها هاجرت من مسقط رأسها إلى مدينة ميتليني Mytilene عاصمة الجزيرة حيث عاصرت الفترة العصيبة التي كانت تجتاح المدينة في ذلك الوقت ، إذ كانت الديمقراطية تعمل على الإطاحة بطبقة النبلاء القديمة ، وذلك تحت زعامة جماعة من الباحثين عن الشهرة والمجد على رأسهم ميلانخروس Melanchros وميرسيلوس Myrsilos والحكيم بتاكوس Pittakos . وليس هناك ما يدعو إلى الشك في صحة الرواية التي تقول إنها لجأت إلى صقلية فراراً من حالة الاضطرابات التي سببتها تلك الثورات في جزيرة ليسبوس ، فقد كانت صقلية وطناً ثانياً لكثير من المنفيين السياسيين ؛ ومما لا شك فيه أن أهل سيراكوز Syracuse بصقلية قد أقاموا تكريماً لها تمثالا هو قطعة رائعة من أعظم ما نحته الفنان سيلانيون Silanion في القرن الرابع ق . م . ، وقد ظل هذا التمثال يزين قاعة مدينتهم حتى سرقه فيرس Verres في القرن الأول ق.م Cf. Cic. In ver. II. iv. 126-127

ومن العجيب ألا نرى فيما وصلنا من أشعار سافو ما يشير إلى هجرتها لصقلية . ويبدو أن سافو كانت صغيرة عندما كانت فى صقلية ، حتى أنها لم تترك فى نفسها أثراً عميقاً ، أو أنها كانت منغمسة فى حيـــاتها الخاصة لدرجة أنها لم تلاحظ العالم الجديد الذى دخلته . وعلى أية حال فقد عادت سافو إلى ليسبوس وأنفقت باقى أيامها فى مدينة ميتلينى .

وقد تزوجت سافو وأنجبت بنتاً أطلقت عليها اسم أمها Kleis . فهى تقول فى إحدى شذراتها (٣٠)[1] .

« لى ابنة صغيرة لطيفة تشبه الزهرة الوضاءة ، ألا وهى محبوبتى Kleis ، التى لا أرضى بغيرها بديلا ، حتى ولو أعطيت كل ليديا أو ليسبوس البديعة » .

ورغم أن اسم زوجها وهو كير كيلاس Kerkylas من جزيرة أندروس Andros ما هو إلا أسطورة فى نظر البعض ، إلا أنه لا يوجد أدنى سبب يجعلنا نعتقد أنها لم تتزوج ، لمجرد أن عدم الزواج كان تقليداً شائعاً بين مثيلاتها فى ذلك العصر . ولكن الأمر الذى لا يقبله العقل ، إذ يبدو بعيداً عن الواقع ، هو القصة التى تحكى أنها أحبت شخصاً يدعى فاون Phaon ، وأنها ألقت بنفسها من فوق صخرة ، لتتخلص من تباريح الهوى . وحقيقة الأمر تتضح بجلاء عندما نعلم أن فاون Phaon لم يكن رجلا ، بل قوة إلهية مرتبطة بالإلهة أفروديت Aphrodite .(Cf. Ath. 2. 69 d) ويبـــدو أن رواية حب سافو لفاون قد شاعت على أثر ظهورها فى الكوميديا الحديثة ، كما جاء فى ميناندر (Fr. 312, Koch) ومن المحتمل أنها جاءت نتيجة تفسير خاطئ لبعض أشعار سافو نفسها ، التى جاء فيها وصف لجمال هذا الإله Phaon . وعلى أية حال فان تاريخ وفاتها غير معروف ، ومن المحتمل أنها قد عمرت طويلا ، هذا إن صح الزعم القائل بأنها كانت تقصد نفسها عندما شكت من بياض الشعر ووهن أعضاء الجسم (Fr. 118, appendix, p. 434; cf. fr. 42

وفى ميتلينى عاشت سافو حياة رائعة مدهشة ، فقد جمعت حولها جماعة من بنات جنسها فى معهد خاص تدربهن فيه على فنون الشعر والموسيقى ، وكانت تطلق على معهدها هذا اسم μοισοπόλων οἰκία أى بيت راعيـــات الفنون (cf. fr. 108) ولكن يبدو أن هذا المعهد كان يعنى شيئاً أكثر من مجرد مدرسة يجتمع فيها الفتيات لتلقى بعض المحاضرات عن الشعر والموسيقى فقد كانت عضواته تشكلن ما يسمى θίασος ، أى اجتماع دينى مقصور على الفتيات وكان مكرساً للإلهة أفروديت . ولم تكن جماعة سافو هى الوحيدة من نوعها فى ميتلينى . كانت هناك جماعات أخرى تحت إشراف بعض المنافسات لسافو مثل جورجو Gorgo وأندروميدا Andromeda . ولم تكن علاقة سافو بهن علاقة طيبة ، إذ قامت بينهن وبينها منازعات مصدرها الحقد والغيرة ، الأمر الذى ساعد على نشر الشائعات عنها ، فاتخذت الكوميديا من ذلك موضوعاً للفكاهة والتسلية ، مما جعل البعض يسيئون الظن بها ويصدرون ضدها أحكاماً قاسية . وكان يربط جماعة سافو ببعضهن وبرائداتهن روابط صداقة متينة وحب ومودة . ولم يكن ماكسيموس التيرى على خطأ حين قارن علاقة سافو بتلميذاتها بالعلاقة التى كانت تربط سقراط بأتباعه (Max. Tyr. 24) . ووجـــه الخلاف بينهما أنه بينما كان سقراط يجمع حوله الشباب بتأثير شخصيته وسحر موضوع البحث عن الحقيقة ، كانت سافو مرتبطة مع فتياتها بروابط دينية أو نصف دينية على الأقل . لم يكن إذن بيت خادمات الإلهة أفروديت وراعيات ربات الفنون Muses مدرسة أو كلية للموسيقى والشعر ، بقدر ما كان أولا وقبل كل شىء اجتماعاً لبعض الفتيات تحت زعامة إحداهن ، وقد كرسن أنفسهن جميعاً لعبادة الآلهة أفروديت . وكانت جماعة سافو هذه تختلف فى طابعها عن جماعات الفتيات فى إسبرطة ، اللائى كن يقمن ببعض الطقوس الدينية الخاصة بالإلهتين أرتيميس Artemis وهلين Helen فمن الواضح أنهن لم يكرسن حياتهن كلية للعبادة ، كما

١ – أرقام الشذرات لأشعار سافو حسب ترتيبها فى طبعة Lyra Graeca by J.M. Edmonds

كانت تفعل تابعات سافو ، وإن كان يبدو من أغنية ألكمان Alcman المسماة «أغنية العذراء» أن فتيات إسبرطة كن يعشن فى جو من المودة العاطفية ، وهذا يشير إلى احتمال وجود تشابه بين الحالتين .

كانت سافو وفتياتها يحرصن دائماً على الاحتفال بالإلهة أفروديت والإلهات التابعات لها ، أعنى إلهات الرشاقة Χάριτες ، وربات الفنـــون αἱ Μοῦσαι وإن لم يكن هذا هدفهن الوحيد من الحياة . فقد كن يؤهلن أنفسهن للزواج ، وكان عندما يأتى تكتب لهن سافو أغنيات الزفاف . وبعد ذلك تقطع علاقتها بهن . ولكن حتى يحين هذا اليوم ، فقد كن يعشن حياة منعزلة بعيدة عن مجتمع الجنس الآخر ، وأفكارهن وعواطفهن كانت متجهة ناحية بعضهن ورائدتهن سافو . وقد أشرفت سافو على رغباتهن الناضجة وتمكنت من توجيهها الوجهة الصالحة ، بأن تسللت فى نفوسهن بالتعاطف معهن وبالفهم الصادق لمشاعرهن وإحساسها العميق بضرورة انجذابها نحوهن . وما بقى لنا من أشعارها يبين لنا إلى أى مدى دخلت سافو حيـــاة فتياتها ، وكم كانت تبادلهن الحب والمودة ، وكيف استطاعت أن تعبر عن روح رغباتهن .

قد لا يستطيع البعض ، من وجهة النظر الحديثة ، تقدير مثل هذا النوع من المجتمعات تقديراً صحيحاً . فلم تكن العقيدة فيها شعوراً ذاتياً بالجمال ، بل عبادة حقيقية لإلهة تؤمن بها سافو وفتياتها كل الإيمان ، إذ كانت أفروديت إلهة موجودة فى نظر سافو وفتياتها ، وعبادتهن لها كانت تفرض عليهن اتخاذ موقف معين تجاه الحياة . كانت أفروديت تعتبر راعية جمال المرأة ، ومن ثم فإن جمال من يعبدنها أمر معترف به وجـــدير بالتكريم ، وكان هذا الجمال يناقش بحرية ويقبل على أنه سبيل للحب والإخلاص . إن عقيدة الجمال هذه غالباً ما كان يساء توجيهها ، ولكن يبدو أنها كانت تطوراً طبيعياً فى ديانة تقبل العطايا الطيبة عندما تأتى من الآلهة . ومما لا شك فيه أن مثل هذه المجتمعات فى إسبرطة كانت تعقد فيها مسابقات رياضية بين الفتيات ، مثل ما كان يحدث فى الاحتفال بأعياد الإلهة هيرا فى أولمبيـــا (cf. Paus. V, 16, 2-8) ، أما فى ليسبوس فقد اتخذ الاحتفال بأفروديت شكلا أبسط وأكثر اتصالا بالإلهة . فلم يكن النشاط الأساسى فى الرياضة ، بل فى الغناء . كانت أفروديت تكرم ربات الفنون ، وكان من المعتقد أن الاحتفال بهن يتطلب الأغانى ، وكانت سافو تدرب الفتيات المكرسات لأفروديت على الغناء .

لم تكن أفروديت الإلهة الوحيدة للحب ، كما أنها لم تكن إلهة الحب فحسب . فقد كانت الشهوة وجميع الرغبات الجسدية من اختصاص إيروس Eros ، أما أفروديت فكان اختصاصها أعم وأشمل ويختلف عن ذلك ، فهى إلهة الجمال أكثر منها إلهة الرغبة فيه ، كما أنها إلهة الأزهار والبحر الباسم ، وقوتها تكمن فى البهجة والفتنة التى تلقيها بسحرها على المرئيات ، ومن ثم فان Eros الرغبة و Peitho الاغراء تابعان لها ، كما صورهما فيدياس Pheidias فى *أولمبيا* Olympia . ولكن حيث إن جمال التكوين الإنسانى يصـــور أروع وأعظم ما فى الكائنات من فتنة ، فلا بد وأن تكون واهبته مسئولة أيضاً ، ولو مسئولية غير مباشرة ، عن السحر الذى ينزل بكل من يقع نظرهم عليه . ومن ثم اعتبر الإغريق هبة أفروديت كنوع من الجنون واعتقدوا أن زنارها يحتوى على فنون الغواية «التى تسلب حتى لب الحكيم» (cf. Paus. V, 16, 216-217) وكما تمثل أرتيميس Artemis المثال الكامل للبراءة ، فان أفروديت تمثل اللحظات المفاجئة للجمال المذهل الذى يطرأ على المرئيات فيغوى من يقع نظرهم عليها ويجعلهم فى حالة بعيدة كل البعد عن خبرتهم العادية . وحتى يوربيديس Euripides كان يراها قوة حقيقية للطبيعة ، قوة ، وإن كانت قاسية ، إلا أنها منصفة . واعترف سوفوكليس Sophocles بقوتها التى لا يستطيع أحد الصمود أمامها . أما سافو فكانت نظرتها إليها تختلف عن ذلك ، فان سحر الجمال

الفيزيقي بكل أشكاله ، والعواطف التي يوقظها هذا الجمال في الفتيات اللاتي لم تطمس مشاعرهن بالزواج والولادة ، كل هذا كان بالنسبة لسافو المادة التي تصوغ منها أغانيها .

كان شعر سافو يعني أساساً بالحياة في جماعتها ، فقد كانت تكتب في مناسبات محددة ولأفراد معينين ، وكانت أشعارها تعكس مشاعرها نحو جماعتها ونحو أفراد هذه الجماعة . ويتحتم على من يريد منهم قصيدة من أشعارها أن يحاول أولا أن يعرف الظروف التي كتبت فيها هذه القصيدة . قد يكون صواباً ، وهو أمر سهل ميسور ، تعميم معنى أشعارها وتطبيقه على مواقف إنسانية عامة ، ولكن سافو كتبت لأفراد معينين لهم صفات وطباع محددة ويختلفون عنا كثيراً ، وهذا ما يجب أن يوضع في الاعتبار . إن طبيعة هذه المسألة يمكن أن ترى بوضوح في القصيدة الأولى من كتابها الأول،وهي عبارة عن أنشودة موجهة إلى أفروديت :

« أي أفروديت الخالدة ، يا ذات العرش الوضاء ، يا بنت زيوس ، يا مدبرة الأمور ، إليك أتقدم بالضراعة : أي ملكتي ، لا تفعمي قلبي بالآم والأحزان ، بل أقبلي إلى هنا ، إن كنت قد استمعت من قبل إلى صوتي ذات مرة عن بعد وأنت تطلين من عل ، إن كنت قد تركت بيت أبيك الذهبي وأقبلت بعد أن ملكت زمام عربتك . إن بجعتيك المليحتين السريعتين قد أحضراك فوق الأرض المعتمة ، وهما ترفرفان بأجنحتهما القوية عبر السماء خلال الهواء ، وسرعان ما وصلتا . وأنت ، أيتها المباركة ، والابتسامة تعلو وجهك الخالد ، قد سألت عم ألم بي ، ولمـــاذا أدعوك ، وماذا في قلبي الثائر أريده أن يحدث أكثر من أي شيء آخر : « من تلك التي تودين الآن أن يوقعها الإغراء في حبك ؟ من تلك التي تلحق بك الأذى ، أي سافو ؟ وحتى لو كانت تفر منك الآن ، فانها سرعان ما سوف تسعى إليك ، وإذا كانت لا تتقبل منك هداياك، فانها مع ذلك سوف تعطيك ، وإذا كانت لا تحبك ، فانها سوف تقع سريعاً في هواك ، رضيت أم أبت » . تعالى إلى الآن كما فعلت من قبل ، وخلصيني من الهموم القاسية ، وحققي كل ما يتطلع إليه قلبي ، حققي ، وكوني حليفتي في المعركة » .

إن الغرض من كتابة هذه القصيدة واضح إلى حد كبير . فان سافو تستنجد بأفروديت ، لعلمها أن الإلهة قد أسرعت لنجدتها من قبل . في وقت آخر ، كان يمكن لمثل هذه الأبيات أن تعد تعبيراً عن بعض المشاعر كتبتها شاعرة لتخفف بها عن نفسها من ضغط أفكارها عليها . ولكن في حالة سافو ، وقد كانت تكتب أشعارها لتغنيها هي أو أفراد جماعتها ، فلا بد أن تكون هذه الضراعة لأفروديت قد ألفت لمثل هذا الغرض . إنها ضراعة حقيقية موجهة إلى إلهة حقيقية عاشت سافو على خدمتها . إن الصدق واضح في القصيدة بصورة لا تقبل الشك ، فالقصيدة تتحدث عن حادثة وقعت في حياة سافو ، ولكن سافو ، على غير ما هو متوقع ، لا تذكر اسم المحبوبة ، بل تترك الموقف غامضاً . القصيدة وصلتنا كاملة ، وليس هناك ما يدعو إلى القول بأن اسمها ذكر بعد ذلك فيما لم يصلنا من القصيدة ولعل السبب في عدم ذكر الاسم هو أن سافو كانت قد غنت هذه القصيدة في حضور الفتاة المحبوبة بين باقي أفراد الجماعة ، وأنها كانت معروفة لدى جميع الحـــاضرات (Cf. Wilamorwitz, Sappho und Simonides, p. 48)

هذه القصيدة توصلنا إلى قلب الحياة في جماعة سافو ، فهي ترينا كيف أن هذه الحياة كانت تسيطر عليها الإلهة أفروديت التي تعبدها وتكرمها تلك الجماعة. فطالما كانت الفتيات عضوات في هذه الجماعة ، فقد كان في إمكانهن تبادل الحب مع بعضهن ومع سافو . وليس في مثل هذه العلاقة أي غضاضة من وجهة النظر الأخلاقية اليونانية ، وحيث إنه لا يوجد أي دليل أكيد على أن هذا الحب كان مشوباً بالأنانية أو البحث عن المتعة الجسدية ، فليس هناك ما يدعو إلى توجيه أي اتهام ضد هذا الحب ، جرياً وراء قواعد أخلاقية أكثر

صرامة من القواعد اليونانية . فهذا الحب كان يختلف تماماً عن اللواط الذى كان موجوداً فى بلاط بوليكرايتس Polycrates (طاغية جزيرة ساموس فى النصف الأخير من القرن السادس ق . م) ، وبالرغم من أن الجماعتين كلتيهما لها طبيعة تكاد تكون واحدة ، وهى انعزال الجنس اجتماعياً عن الجنس الآخر ، إلا أن الحب فى جماعة سافو كان أسمى بكثير عن مستوى الحب فى البلاط السالف الذكر . فقد كان الحب فى جماعة سافو تطوراً طبيعياً بين جماعة تؤمن إيماناً صادقاً بالحب وإلهته ، هذا إلى جانب أن الحب بينهن كانت تصونه قيود صارمة من القيم الروحية ، وتسمو به حاسة سافو الأخلاقية الخاصة . حقاً كانت مشاعرها تجاه العذارى فى كثير من الأحيان مشاعر عاطفية ، ولكنها لم تكن بحال مشاعر جنسية . فشاعرها كانت مليئة بالرقة والود ؛ فهى تحس بلوعة الفراق وذل الهجران ، ولكن هذه كلها مشاعر طبيعية لشخصية كسافو تحس إحساساً عميقاً وتعبر بوضوح عما تحس . وإنه لمن سوء الحظ لطبيعة سافو الغريبة وعبقريتها الفذة أن الشذرات الباقية من أشعارها محوطة بالغموض ومليئة بالأفكار المتضاربة ، فهى أحياناً لوذعية ، وأحياناً أخرى خيالية ، وفى بعض الحالات عاطفية ، بل وعاطفية جداً حتى لتبدو مرضية شوكاوية ، مما دعا البعض ، ممن لا يتوخون الدقة فى إصدار أحكامهم ، إلى اتهامها بالخلاعة والمجون ، واعتبارها امرأة ساقطة ؛ وهذا يتنافى تماماً مع الاحترام الذى كان يبديه كتاب العصور القديمة أثناء حديثهم عنها . فأرسطو (Rhet. 1398 B) يحدثنا عن تقدير معاصريها واحترامهم لها ، حتى إن حكومة بلدها قد مجدتها ونقشت صورتها على قطع العملة . (Pollux IX, 84) . ويضعها سقراط فى مصاف الحكماء (Plat. Phaed. 235 B) ولا يملك المرء ، عند سماع أغانيها ، إلا أن يتوقف عن الشراب ويخفى كأسه خجلاً (Plut. Symp. VII, 8, 2)

وكان من دواعى الفخر لنساء عصرها أن يقال عنهن إنهن كسافو فى الثقافة والحكمة وكتابة الشعر (Luc. Merc. Cond. 36) ولعل وجود سيدة ساقطة فى ليسبوس تحمل نفس اسم الشاعرة سافو (cf. Ael. V.H. 12, 19 ; Suid. SV. Phaon) من الأمور التى أدت إلى إشاعة الخلط بين الشخصيتين عند بعض الرواة . كما أن التفسير الخاطئ لكلمة ἑταῖρα التى تحمل فى الغالب معنى « محظية » من الأمور التى أدت إلى نفس الشيء ، فالكلمة تحمل أيضاً معنى « صديقة حميمة » وقد استعملتها سافو نفسها فى هذا المعنى فى إحدى قصائدها (Ath. 15, 571 d)

...τάδε νῦν ἑταίραις
ταῖς ἔμαισι τέρπνα κάλως ἀείσω (شذرة ١٢)

« سأغنى الآن لصديقاتى هذه الأغنيات غناء متقناً » .

أما عظمتها كشاعرة فأمر يكاد يكون متفقاً عليه من جميع الرواة والنقاد ، فقد رفعها البعض إلى مصاف الإلهة واعتبرها إلهة عاشرة لربات الفنون التسعة Muses (cf. Anth. Pal 71, 407, 718 ; 9, 66, 506; Plut. Amat. 18) وأشعارها فى رأى البعض الآخر تفوق كل شعر دبجه يراع امرأة ، كما يفوق شعر هوميروس كل شعر جاء على لسان رجل (cf. Anth. Pal. 7, 15) وكان من عادة سقراط أن يطلق عليها اسم « سافو الجميلة » أثناء حديثه عنها ، رغم أنها كانت ضئيلة وسمراء ، وذلك لجمال أشعارها وروعتها ، (Max. Tyr. 24 (18), 7) ، تلك الأشعار التى تمنى سولون الحكيم ذات يوم أن يحفظ بعضاً منها ثم لتأت المنية (Stob. Fl. 58, 29) .

إن طبيعة عواطف سافو يمكن أن ترى بوضوح من هذه الأبيات الرائعة التى تتحدث فيها عن فتاة رحلت عنها ، وتستعيد أيام حياتهما معاً فى شكل محادثة دارت بينهما قبيل الرحيل (شذرة ٨٣) .

« إذن فانى لن أرى أتثيس مرة أخرى » .

« إنى حقاً أود أن أموت . لقد تركتنى وهى تبكى بدموع غزيرة وقالت لى « وا أسفاه ! كم نحن تعساء ! على الرغم منى ، يا سافو ، أرحل عنك ، أقسم لك » . وأجبتها بهذه الكلمات « اذهبى وابتهجى ، فقط اذكرينى ، فأنت تعرفين مدى شغفى بك . وإن كنت لا تذكرين ، فانى أذكرك بما نسيت ، أذكرك بالأوقات السعيدة البهيجة التى أمضيناها معاً . فكم من مرة ، وأنت بجانبى ، قد زينت خصل شعرك المتهدلة بجدائل من زهر البنفسج والورد البهيج ، وعقدت حول عنقك الرقيق قلائد من مئات الأزهار ، وضمخت جلدك البض ، وأنت فى صدرى ، بكثير من العطور الملكية الثمينة ، وكل ما تتمناه (فتاة أيونية ناعمة) حصلت عليه ، وأنت تجلسين على حشية لينة ، من أيدى وصيفات رفيقات . وليس هناك من (تل) أو مكان مقدس أو (جدول ماء) لم نذهب إليه ؛ ولم (نملأ) الربيع (المبكر) أى غابة بشدو (البلابل) المتنوعة (إلا وتجولت فيها معى) . . . » .

وبالرغم من أن القصيدة لم تصلنا بدايتها ولا نهايتها ، وكثير من أبياتها متناثرة ، إلا أنها مع ذلك تمدنا بطبيعة الحياة بين سافو وجماعتها . فالقصيدة تسجل محادثة استعادت فيها سافو الساعات الحلوة التى أمضتها مع صديقتها التى اضطرت إلى الرحيل عنها والتى قال عنها بعض المعلقين إنها كانت تسمى أتثيس . فهى تبدأ بكلمات مختصرة غير منمقة يتجلى فيها الأسى بوضوح ، ثم تنتقل سافو إلى ذكر ألوان المتع المختلفة التى كانت تمضى فيها حياتها مع صديقاتها : فى الاحتفالات ، حيث كن يتزين بالزهور ويتضمخن بالطيب ، وفى زيارة الأماكن المقدسة حيث يحتفلن بأعياد الإلهة أفروديت ، وفى التجوال بين المناطق الحلوية التى حبتها الطبيعة بجمال فتان وبين الأحراش وجداول المياه حيث تصدح البلابل بشدوها العذب الذى يبعث فى النفس النشوة والطرب .

إن الإلهة ، التى كانت سافو وصويحباتها يقمن على خدمتها ، هى أفروديت ، ولكن التفاصيل الدقيقة للطريقة التى كانت تقدم بها طقوس عبادتها تكاد تكون مجهولة تماماً . وأفضل ما وجد فيما وصلنا من شعر سافو ، وله صلة بهذه الطقوس ، شذرة تتألف من أربعة أبيات (شذرة ١١٧) تصف مذبحاً من الأغصان نصب تكريماً للإلهة أفروديت وإلهات الرشاقة Χάριτες

« . . . أما أنت ، يا ديكا ، فانسجى بيديك الرقيقتين جدائل بديعة واجدلها معاً بأغصان الزهور . فان الإلهة (أفروديت) تهتم بكل ما أبدعت زينته بالأزهار ، وكذلك ربات الرشاقة المباركات يزداد استحسانهن له ، ولكنهن يتحولن عن كل الأشياء التى لا تتوجها الزهور » .

ويبدو من هذه الأبيات أن طقوس الإلهة أفروديت كانت تتم فى الهواء الطلق . وربما فى أحد الأحراش المقدسة . وهناك بيتان يؤكدان هذه الفكرة (شذرة ١١٢) .

« لقد طلع البدر علينا ، واتخذت العذارى أماكنهن حول المذبح . . . »

وربط إلهات الرشاقة بالإلهة أفروديت أمر طبيعى ومعروف ؛ فهوميروس فى الإلياذة (٥ ، ٣٣٨) يجعل إلهات الرشاقة ينسجن رداء مقدساً للإلهة أفروديت ، وفى الأوديسا (٩ ، ٣٦٤) يتغنى ديمودوكوس Demodocus بالطريقة التى كن يغسلن بها الإلهة أفروديت ويضمخنها بالزيت عند ذهابها إلى قبرص .

وكانت الإلهة تستدعى لحضور هذه الطقوس بالأغنيات . ولدينا شذرة (٦) تدل على أن هذه الطقوس كانت عبارة عن مأدبة تدعى إليها الإلهة لتشارك فيها :

« أى إلهة الحب ، أقبلى ، أيتها القبرصية ، وصبى برقة لرفيقاتى ورفيقاتك الرحيق الممزوج بالبهجة فى الكئوس الذهبية » .

ولا بد أن تكون هذه الأبيات جزءاً من أنشودة ابتهال من سافو إلى أفروديت . ومن المحتمل أن تكون

الكؤوس الذهبية كؤوساً خاصة بالطقوس الدينية تستعمل فى المناسبات الكبيرة ، كالأوانى الذهبية التى يصفها بندار وهى تستعمل فى حفلات الزفاف (Ol. vii. I ff) . وأفروديت نفسها هى التى تصب الخمر ، وإسناد الوظيفة إليها شخصياً يجعلنا نعتقد أن شرب الخمر كان جزءاً من الطقوس . وهى باعتبارها إلهة للماء ، فقد كانت ، كالإله ديونيزيوس Dionysius مرتبطة بالخمر واهب الحياة . وكانت إلهات الرشاقة تستدعى أيضاً بمثل هذه الكلمات (شذرة ٦٨) .

« أى إلهات الرشاقة ، ذوات الأذرع الوردية الطاهرة ، أقبلن ، يا بنات زيوس » وكانت ربات الفنون مرتبطة بالهات الرشاقة ، والربط بينهما طبيعى ومعقول ، فعبادة إلهات الرشاقة تشتمل على الغناء ، وهو من اختصاص ربات الفنون ؛ ومن ثم فان ربات الفنون كانت هى الأخرى تستدعى لمثل هذه الولائم (شذرة ١٢٩) .

« أى ربات الفنــون ، أقبلن أيضاً ، واتركن (مأواكن) الذهبى » .

وهذا البيت يجمع بينها (شذرة ١٠١) .

« والآن ، أقبلن ، أى إلهات الرشاقة الرقيقات ، وأنتن أيضاً ، أى ربات الفنون الشقراوات » .

وكان يرتبط بعبادة أفروديت أيضاً حبيبها الصغير أدونيس Adonis . وكان روحاً من أرواح النماء ، ولد من شجرة الآس (Ovid. Met., x, 512) التى أصبحت رمزاً تدل عليه . كانت القرابين التى تقدم إليه هى ثمار الخريف ، وكانت أحواض الزهور يطلق عليها اسم « حدائق أدونيس » (Plat. Phaed., 276 b) وكان أدونيس يحيا ويموت كل عام . وبالرغم من أن عبادته لم تلق رواجاً فى معظم أنحاء العالم اليونانى ، إلا أنها كانت ذات أهمية كبيرة فى ليسبوس . ولا بد وأن تكون سافو قد كتبت عن عبادته بعض الأغنيات ، فان ديوسكوريديس Dioscorides قــد كتب يحدثنا عنها بأنها كانت « تشارك أفروديت فى نحيبها ، عندما كانت تنوح من أجل سليل كينيراس الصغير (وهو أدونيس ، cf. Ox. Class. Dict., p. 193) فى الدغل المقدس للآلهة المباركة » (Anth. Pal. vii. 407) إن النحيب من أجل أدونيس يعبر عن النحيب لغروب شمل الحياة عن الحقول والحدائق ، والأغنية التى كتبتها سافو لهذه المناسبة تحمل طابع الأغنية الشعبية ، وقد وصلنا من هذه الأغنية بيتان (شذرة ١٠٣) هما حوار بين أفروديت ووصيفاتها اللائى ربما كن عرائس الغاب . ومن المحتمل أن هذه الأغنية كانت تغنيها سافو متمثلة أفروديت ويرد عليها فتيات جماعتها يمثلن تابعات أفروديت . ويمكن أن ترتب على النحو التالى :

العرائس : أى كيثيريا (اسم لأفروديت) ، إن أدونيس الرقيق فى النزع الأخير ، ماذا ينبغى علينا أن نفعل ؟

أفروديت : أضربن صدوركن ، يا فتيات ، ومزقن ثيابكن .

إن رنة الحزن والنحيب على الإله المحتضر تبدو بجلاء فى الأغنية ، ومثل هذه النغمة الحزينة تظهر أيضاً فى العبــارة «ὦ τὸν Ἄδωνιν» وبلاه لأدونيس (شذرة ٢٥) .

كانت جيرينا Gyrinna وأتثيس Atthis وأناكتوريا Anactoria أحب الفتيات إلى قلب سافو (Max. Tyr. 24, [18]) والقصيدة التالية تبين مدى شغفها بالأخيرة (شذرة ٣٨) .

« فى رأى البعض أن أحسن ما على الأرض السوداء جيش من الفرسان ، وفى رأى البعض الآخر جيش من المشاة ، وفى رأى غيرهم أسطول من السفن ، ولكن بالنسبة لى فهو من يحبه المرء . ومن السهل توضيح ذلك لأى إنسان . فان هيلين ، التى كانت تفوق كل البشر جمالا ، فضلت على أفضل الرجال (وهو زوجها مينلاوس) من دمر كل شرف طرواده (باريس) دون أن تفكر مطلقاً فى طفلتها (هيرميون) ووالديها الأعزاء ، ولكن أضلها الحب فجعلها تذهب بقلبها

بعيداً ، فمن السهل دائماً أن تستمال المرأة ، عندما تفكر باستخفاف فيما هو قريب وعزيز . وهذا ما يجعلني أتذكر الآن أناكتوريا ، التي رحلت عنا ، والتي أفضل سماع وقع خطاها الجميل ورؤية وجهها المشرق الوضاء ، على جميع عجلات ليديا الحربية ومشاتها المسلحين . إني أعلم علم اليقين أن المرء لا يستطيع أن يحصل على الأكمل ، ولكن أن يرغب فيما يشاركه فيه غيره ، أفضل من أن ينساه » .

هذه القصيدة تلقى ضوءاً على عواطف سافو وفنها ، فهى قصيدة عن الحب ذاته . وما تريده سافو هو حضور أناكتوريا الذاتى ؛ والجملة التى تعبر فيها عن هذه الرغبة هى بيت القصيد ؛ وعلى الرغم من بساطة هذه الجملة ، إلا أن الكلمات فيها قد أحسن اختيارها ، حتى إن كلا منها يعطى التأثير المطلوب فى الحال . ولهذه القصيدة أهمية أخرى ، فهى تلقى ضوءاً على رأى سافو فى الحب من خلال ذكر هيلين . واسم هيلين بالذات له أهمية كبيرة ، لأنه يفسر طبيعة الحب. إن سافو لم تتهم هيلين ، كما اتهمها ألكايوس عندما قارنها بثيتيس Thetis (شذرة ١٢٠ من ألكايوس فى Lyra Graeca) ، ولم تمتدحها ، ولكنها تقرر أنها فعلت ما فعلت بسبب الحب وحده . وسافو فى موقفها هذا تجاه هيلين أقرب إلى موقف هومر من أى شاعر آخر من شعراء الإغريق ، والفرق بينهما أن فهم هومر لمشكلة هيلين يأتى من الخارج ، أما فهم سافو لها فمن الداخل . فسافو تفهم هيلين ، لأنها هى نفسها تحب ، وتعلم جيداً أن المرأة عندما تحب ، فان كل شيء ، فيما عدا الحب ، لا يعنى شيئاً بالنسبة لها .

إن الدور الذى لعبه الليديون فى هذه القصيدة يبين لنا إلى أى مدى كانت ليسبوس قريبة من آسيا العظيمة القوية ، وتقدير هذه القوة حق قدرها يمدنا بحل لفهم قصيدة أخرى تتعلق بفتاة أخرى من تلميذات سافو وصديقاتها وهى أتثيس ، الموقف هنا واضح تمام الوضوح . فتاة ما قد رحلت إلى ساردیس Sardis فى ليديا Lydia ، وسافو تفكر فيها وهى فى مقامها الجديد وهى تتذكر أتثيس بشوق وحنين (شذرة ٨٦) .

« (أتثيس ، إن عزيزتنا أناكتوريا تسكن بعيداً) فى سارديس ، ولكنها كثيراً ما تبعث بأفكارها إلى هنا ، وتفكر فى الأيام التى كنا نحياها معاً ، عندما كنت بالنسبة لها إلهة مجيدة ، وأغانيك أحب الأغانى إليها . ولكنها الآن تضيء بين نساء ليديا ، كالقمر بعد غروب الشمس ، كالقمر ذى الأصابع الوردية وهن من حولها كالنجوم ، كالقمر الذى ينشر ضوءه عبر البحر الأجاج وفوق الحقول المزهرة أيضاً ، بينما الطل ينزل جميلا على الأرض ، والورود تحيا من جديد وكذلك الحشائش الرقيقة والنباتات المزدهرة . وهى غالباً ما تروح وتغدو عندما تتذكر حبها لأتثيس الدمثة ، ويتحرق قلبها الرقيق بلا شك شوقاً وحنيناً ، وتصرخ بنا عالياً أن نذهب إليها هناك ، وما تود أن تقوله ، فنحن نعرفه جيداً ، أنا وأنت ؛ لأن الليل ، الذى تنسج خيوطه الأزهار والذى يملك آذاناً كثيرة ، يطلعنا على كل ما بيننا » .

إن المناسبة التى أثارت سافو لكتابة هذه الأبيات يمكن تخمينها على النحو التالى : ترى سافو القمر يطلع من البحر عبر ميتليني ويجعل ليديا على مرأى البصر ، الأمر الذى يذكرها بصديقتها التى تعيش فى سارديس تحت ضوء نفس القمر . ومشاعرها هنا ليست مشاعر الحب بقدر ما هى مشاعر التعاطف والمشاركة الوجدانية فقد أثارها الحب الذى تكنه الفتاة البعيدة لأتثيس . وتدخل سافو فى الموضوع مباشرة حتى لتبدو القصيدة وكأنها رد فعل لحبها هى . وطبيعة عاطفتها تظهر من التشبيه بالقمر ، فهذا التشبيه يبين كم كانت سافو تجد المتعة فى جمال الفتاة ، وتصويرها لرفعة شأنها بين الفتيات الليديات بالقمر بين النجوم تصوير رائع ، لا لأنه تصوير مناسب وجميل فحسب ، بل لأنه تصوير فرضه عليها القمر نفسه وهو يتلألأ فوقها مضيئاً فى كبد السماء .

إن الفتاة التى تشير إليها هذه القصيدة هى أتثيس ، والفتاة الأخرى التى رحلت إلى ليديا هى أناكتوريا .

وهناك أشعار أخرى جاء فيها ذكر أتثيس ، والدليل على حب سافو لها هو أشعارها . فبعد كتابة القصيدة السابقة ، تركت أتثيس سافو وانضمت إلى جماعة أندروميــدا Andromeda منافسة سافو . فكتبت سافو تقول (شذرة ٨١) .

« انظرى ، إن الحب ، الحلو المر ، مفكك الأعضاء ، ذلك المخلوق الذى لا يقهر ، يعصف بى ، بينما أصبحت أنت ، يا أتثيس ، تكرهين التفكير فى ، وهربت إلى أندروميدا بدلا منى » .

كانت أندروميدا مثل سافو ترأس جماعة من الفتيات . وكان الخروج من جماعة إلى أخرى يعتبر خيانة شخصية . وقد قارن أحد النقاد (Max. Tyr. 24 [18]) علاقة ســـافو مع أندروميـــدا بعلاقـــة سقراط مع السفسطائيين بروديكوس Prodicus وجورجياس Gorgias وبروتاجوراس Protagoras ، وقال « كانت فى بعض الأحيان تخطئهن ، وأحياناً أخرى تدحض دعواهن أو تتجاهلهن ، تماماً كما كان يفعل سقراط » . وقد وصلنا من أعمال سافو مثلان يوضحان هذه العلاقة . فى الأول تخاطب سافو فتاة معجبة ، بأندروميدا وتوضح لها أخطاء منافستها (شذرة ٩٨)

« أى امرأة ريفية فى ملابس ريفية تلك التى تلهب صدرك ، مع أنها لا تعرف كيف تسدل رداءها إلى ما فوق خلاخيل أقدامها » .

وفى مناسبة أخرى توجه خطابها إلى أندروميدا فى سخرية مريرة (شذرة ١٢١) :

« إنى أتشرف بتقديم أزكى تحياتى إلى ابنة الملوك الكثيرين » .

كما جاء ذكر أندروميدا فى بيت آخر (شذرة ١٢٥)

« لقد حصلت أندروميدا على صفقة رابحة » .

وليس هناك ما يشير إلى طبيعة هذه الصفقة ، وإن كان من المحتمل أن يكون المقصود بها ذهاب أتثيس إلى جماعتها . وإذا كانت سافو تعامل منافستها أندروميدا بطريقة عاجلة ومرتجلة ، فانها تعامل عدم وفاء أتثيس لها بجدية كبيرة . ويبدو أن سافو قد كتبت قصيدة تلخص فيها حبها القديم لأتثيس . وفى هذه القصيدة بيت من أجمل ما كتب فى هذا المعنى (شذرة ٤٨) :

« أى أتثيس ، كنت أحبك ذات يوم ، منذ أمد بعيد » .

وهى فى نفس القصيدة تصفها عندما رأتها لأول مرة ، وكانت سافو ما تزال فى ريعان صباها ، بأنها كانت صغيرة غير مكتملة .

« وعندما كان شبابى فى أوج ازدهاره ، كنت فى نظرى مجرد طفلة صغيرة غير مكتملة » .

وهناك بيتان فى نفس الوزن ، وربما كانا من نفس القصيدة ، يشيران إلى قصة الحب القديم بينهما (شذرة ٨٩) .

« لقد أحسنت صنعاً إذ أتيت ، فقد كنت فى شوق إليك ، فأنت تشعلين قلبى غراماً بك » .

فهذه الأبيات المتناثرة تشير إلى قصة عاطفية ، فان سافو وهى فى ريعان شبابها ترى أتثيس ، ولا تأبه لها فى أول الأمر ، ولكنها تقع فى حبها ، وتبادلها أتثيس العاطفة ، ثم ترحل عنها إلى أندروميدا ، فتغضب سافو وينكسر قلبها إلى حد كبير .

هذه الحادثة تكشف لنا عن مشاعر سافو نحو فتيات جماعتها . ومثل هذه العلاقة كانت تصل إلى ذروتها عندما ترحل عنها إحدى الفتيات إلى بيت الزوجية . ففى هذه الحالة كان يتنازع سافو عاملان . الأول مشاعرها الخاصة لانفصال إحدى صديقاتها عنها ، وكانت هذه المشاعر تلهمها كتابة قصيدة تعبر فيها عن أحاسيسها الخاصة . ولكن كان عليها أيضاً أن تكتب أغنية الزفاف ، وكانت هذه تصور بروح مختلفة تماماً . وأحسن ما يصور الحالة الأولى قصيدة مشهورة ، كتبتها سافو فى حفل عرس ، عندما رأت العروس تجلس بالقرب من عريسها ، وهذه القصيدة ترينا كيف أن سافو أحست الموقف إحساساً عميقاً (شذرة ٢) .

« يبدو لى أن هذا الرجل ند للآلهة ، إذ يجلس أمامك ويستمع ، وهو قريب منك ، إلى نغمات صوتك

العذبة وضحكاتك الساحرة ، التى تجعل قلبى يخفق بين جوانحى . فعندما أنظر إليك ، أى بروخيا ، تعوزنى الألفاظ أو تخوننى تماماً ، وينعقد لسانى عن الكلام ، وفى الحال تسرى فى بدنى نار هادئة ، وتغيم عيناى ، وتطن أذناى ، ويتصبب منى العرق ، وتنتاب جسدى كله رعدة ، وأصبح شاحبة كالعشب ، حتى لأبدو وقد صرت قاب قوسين أو أدنى من الموت » .

لا شك أن المناسبة التى أثارت سافو لكتابة هذه الأبيات هى حفل عرس ، لا لأن كلمة ανηρ تحمل معنى « زوج » ، ولكن لأنه فى حفلة الزفاف فحسب يمكن للفتاة أن تجلس بجوار الرجل وتتحدث معه فى حرية . ومن المحتمل أن تكون الفتاة محجبة والحفل مقام فى منزل أبيها . ووجود سافو بالحفل يرجع إلى أنها أستاذة الفتاة ورئيسة الجوقة التى ستغنى أغنية الزفاف . ولكن فيما يخص مشاعر سافو الخاصة ، فانها منفصلة عن واجبها حيال العروس ، فهى تشعر بالخسارة التى حاقت بها كنتيجة حتمية لهذا الزواج . والآثار الناجمة عن عواطفها المتأججة آثار فيزيقية ، كما هو واضح من ألفاظ القصيدة ، وقد جاءت مثل هذه التعبيرات فى شذرات أخرى لسافو . فهى تصف الحب (شذرة ٢٨) بأنه « مسبب الألم ، ناسج خيوط الأقاصيص » (قارن شذرة ٤٢ ، ٧ — ٨) . وفى مكان آخر تقول (شذرة ٥٤) :

« أما بالنسبة لى ، فان الحب يعصف بروحى ، كما تعصف ريح عاتية بشجرة عالية » .

وفى نهاية القصيدة تقول بأنها موشكة على الموت . والتعبير طبيعى وصادق بعد الأعراض الفيزيقية التى انتابتها . إن الرغبة فى الموت تعبير شائع بين الشعراء منذ العصر الهلنستى ؛ وبالرغم من أنه قائم على عواطف حقيقية ، إلا أنه أصبح « كليشيه » ينقصه الإخلاص الصادق . أما بالنسبة لسافو ، فانها عندما تقول إنها تود أن تموت ، فهى تعنى ما تقول ، لأن تباريح الهوى بسبب الهجران تكاد تقضى عليها ، حتى إن الموت لا يبدو أمراً حتمياً فحسب ، بل ومرغوب فيه أيضاً . ولا بد أنها كانت فى مثل هذه الحالة عندما قالت : « وإنى لتسيطر على رغبة ملحة فى أن أموت ، وأرى ضفاف نهر أخيرون التى تغطيها أزهار اللوتس الندية » . (شذرة ٨٥ ، ١٠ — ١٢) وعندما قالت « إنى حقاً لود أن أموت » (شذرة ٨٣ ، ٢) .

وإذا كانت هذه مشاعر سافو عندما رأت إحدى فتياتها الأثيرات تجلس بجوار عريسها ، فان الشذرات الباقية لنا من أهازيج العرس ἐπιθαλάμια التى كتبتها تؤكد لنا أنها كانت تستطيع أن تكبح جماح عاطفتها الشخصية ، وتكتب أغنيات فى غاية الجمال والشفافية لتغنى فى حفل الزفاف التقليدى .

كانت لأهازيج العرس أنواع مختلفة تبعاً لزمان ومكان الحفل الذى ستغنى فيه . وكانت حفلات العرس تبدأ عادة بوليمة العرس ، التى كان يحضرها العريس وعروسه ؛ وكانت هذه الوليمة تقام بمنزل والد أحدهما ، وكان يمكن للسيدات الحضور . وكان لهذه الوليمة طابع دينى ، إذ كان والد العروس يقدم القرابين لآلهة الزواج ومن بينها الإلهة أفروديت ، ومعرفة سافو لهذه الطقوس تتضح من وصفها لإحدى هذه الولائم فى الأولمب (شذرة ١٤٦) .

« كان هناك وعاء من الأمبروزيا المخلوطة معداً من قبل ، وقد أخذ هيرميس إبريق الخمر وصب للآلهة . وعندئذ رفع الجميع أقداحهم ، وأراقوا قرباناً من الخمر وتمنوا للعريس أطيب التمنيات جميعها » .

وأيا كان العريس والعروس المقام لهما هذا الحفل فى الأولمب ، فلا شك أنه صورة طبق الأصل لحفل على ظهر الأرض . وليس من الواضح أن الأغنيات كانت تغنى عادة أثناء هذه الولائم ، وليس فى أغنيات سافو الخاصة بحفلات الزواج ما يشير إلى ذلك بصورة واضحة . ويبدو أنها كانت تبدأ فى نهاية الوليمة . وكان

الحفل ينتهى عندما تصل إلى منزل الزوجية الجديد عربة العروس التى كان تقلها وبجانبها العريس وبالجانب الآخر الإشبين المسمى παρανύμφιος . وقد وصف لنا لونجوس Longus ، وهو أحد الشعراء العارفين بتقاليد ليسبوس الذين قرأوا أشعار سافو ، نموذجاً ريفياً لمثل هذه الحفلات (Longus, Daph. & Ch. IV. 40)

« وعندما يأتى الليل ، كان المدعوون يصحبونهما إلى مخدع الزوجية ، كان البعض يعزفون بالفلوت والبعض الآخر يعزفون بالمزامير ، وآخرون يحملون فى أيديهم الفوانيس والمشاعل وهم يسيرون فى مقدمة الموكب . وعندما يصلون إلى عتبة المخدع كانت تنطلق الأغانى فى نغمات جافة خشنة تشبه أصوات الفئوس والمعاول » .

والأغنية التى كانت تغنى على هذا النحو هى أغنية الزفاف الحقة (ὑμέναιος) وقد ورد وصف مماثل فى هومر (Il. XVIII 491-496) :

« كان هناك أعراس وولائم ، وكانوا يخرجون العرائس من حجراتهن ، ويسيرون بهن خلال المدينة تحت أضواء المشاعل ، وكانت أغانى العرس التى كانت تتردد إذ ذاك عظيمة ، كان الفتية الراقصون يدورون ، ومن حولهم ترتفع أصوات النايات والمزامير ، وكانت كل واحدة من السيدات تقف مشدوهة عند الباب الأمامى » .

لم يصلنا من شذرات سافو ما يشير إلى هذا الموكب وإن كان بعضها يمكن ربطه باللحظات الأخيرة منه ، عندما يتوقف الجمع أمام مخدع العرس . وكما جعل لونجوس المحتفلين بالعرس الريفى يغنون فى « أنغام جافة خشنة » فقد تركت سافو فى هذه الأغانى أسلوبها الشاعرى المعتاد ، واستخدمت أسلوباً مغايراً قريباًمن لغة الحوار المتداول بين الناس . ولعل السبب فى وجود الصخب والتهريج وفحش القول فى حفل الزفاف يرجع إلى فكرة إبعاد الحظ السيئ عن العروسين بجعلهما يبدوان أقل سعادة مما هما . ومثل هذا الفحش والصخب يرى بوضوح فى أغنية الزفاف الموجودة فى نهاية مسرحية « السلام » لأرستوفانيز ، ولكن هناك من أشعار سافو ما يكفى لتوضيح ذلك . كان الهزل عند سافو أقرب إلى المداعبة منه إلى الفحش . كان «البواب» شخصية هامة ، ومن ثم يستحق المداعبة بالتهكم عليه . كان على البواب أن يوصد الباب على العروسين ويمنع أصدقاء العروس من الدخول لمساعدتها ، إذا ما صاحت مستنجدة . وقد جعله ثيوكريتوس Theocritus يقول وهو يباشر عمله « الجميع بالخارج » (ἔνδοι πᾶσαι) ثم يوصد الباب (cf. Theoc. XV. 77) وكان هناك بالطبع بعض أفراد الجوقة من أصدقاء العريس الذين كانوا يتهكمون عليه . وفى هذه الأبيات تتهكم سافو من أقدامه الضخمة (شذرة ١٥٤) :

« إن أقدام البواب يبلغ طولها سبعة أذرع ، ونعاله مصنوعة من جلد خمسة من الحيوان ، واشتغل بها عشرة من صانعى النعال » .

ويمثل هذه الروح المرحة تداعب العريس وتتهكم على طول قامته وتقول إن السقف يجب أن يرفع عندما يدخل (شذرة ١٤٨) :

« ارفعوا السقف عالياً ، مرحباً باله الزواج Hymen
ارفعوها عالياً ، أيها العمال المهرة ، مرحباً باله الزواج Hymen
فالعريس قادم وكأنه أريس ، مرحباً باله الزواج Hymen .
وهو أطول من أطول رجل ، مرحباً باله الزواج Hymen » .

ومن ناحية أخرى فانه من الطبيعى أن تمتدح سافو العروس ، وهى صديقتها ، وتبين كم هى جميلة ، وكيف أن العريس محظوظ بالزواج منها . وهنا سرعان ما يتحول موقفها من الهزل إلى الثناء . وأحسن مثال لهذا الانتقال يمكن أن يرى بوضوح من بعض الأبيات

التى تبدأ بتهنئة العريس وتنتهى بأنشودة تتغنى فيها بالعروس (الشذرات ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨) :

« أيها العريس السعيد ، هنيئاً لك ،
فقد تحقق لك الزواج كما تمنيت ،
وحصلت على العروس العذراء كما تمنيت ،
إن وجهها البديع يفيض رقة وعذوبة .
وأنت أيتها العروس ، إن شكلك بديع للغاية .
عيناك ذات لون عسلى ، ووجهك يغمره الحب .
وقد حبتك أفروديت بالتشريف والتكريم » .

ويبدو أن مثل هذه الأغانى كانت تنتهى بمثل هذه الكلمات (شذرة ١٦٢) :

« إلى الملتقى أيتها العروس ، إلى الملتقى أيها العريس الموقر » .

وهناك لون آخر من أغنيات الزفاف قد لا تجد له مثيلا لدى شعراء الإغريق فى غير أعمال سافو . ففى إحدى الشذرات التى وصلتنا نجد حواراً بين العروس وفتاة أخرى تمثل العذرية (شذرة ١٦٤) :

العروس : أى عذريتى ، أى عذريتى ، إلى أين هربت وذهبت بعيداً عنى ؟

العذرية : إلى حيث لن أعود إليك ثانية ، إلى حيث لن أعود إليك ثانية » .

ومثل هذه الأغنية لا بد وأن تكون مستمدة من الأغانى الشعبية ، وهى تذكرنا بالحوار الذى تتبادل فيه أفروديت وتابعاتها النحيب على أدونيس (شذرة ١٠٣) . ومن المحتمل أن العروس كانت تقوم بدورها فى الأغنية ، وترد عليها إحدى زميلاتها من فتيات سافو .

لم يلعب الرجال إلا دوراً ضئيلا فى حياة سافو ، ومن ثم لم يأت لهم ذكر فى أشعارها إلا نادراً . فقد جاء ذكر لأخيها خاراكسوس Charaxus فى بعض الأشعار . وقد حدثنا هيرودوت (II. 135) عن القصة التى أثارت سافو لكتابة هذه الأشعار . رحل خاراكسوس إلى ناوكراتيس Naucratis المستعمرة اليونانية فى دلتا النيل بمصر . وهناك التقى بمحظية مشهورة يطلق عليها اسم رودوبيس Rhodopis ووقع فى غرامها ، وصرف مبالغ طائلة من أجل تحريرها ، وعندما عاد إلى وطنه ، عنفته أخته سافو على تصرفه هذا فى إحدى قصائدها .

كانت ناوكراتيس إحدى المراكز الهامة للتجارة اليونانية ، ومن المحتمل أن خاراكسوس كان قد رحل إلى هناك لأمور تتعلق بتجارة النبيذ من ليسبيا (cf. Ath. xiii. 596 b) . ولكن أهم ما فى القصة هو الجدية والصرامة التى قابلت بها سافو تصرف أخيها ، وإن فى معارضتها لهذا التصرف الطائش مع امرأة من هذا النوع لدلالة أكيدة على رفعة مستوى سلوك سافو نفسها . ولعل الاسم الذى عرفها به هيرودوت ، وهو رودوبيس ، هو اسم الشهرة الذى كان يطلقه عليها المحبون ، والاسم الحقيقى ، وهو ما جاء ذكره فى أشعار سافو ، هو دوريخا Doricha (cf. Stob. XVII, 808; Pap. Oxy. XV, 1800, I. 7-13 Phot. s.v. Ῥοδώπιδος ἀνάθημα) . وإذا لم تكن القصيدة التى أشار إليها هيرودوت قد وصلتنا ، فقد وصلنا على الأقل شذرات تشير فيها سافو بعداء إلى دوريخا . فقد جاء فى إحدى الشذرات (٣٧) :

« أيتها القبرصية (أفروديت) لعل دوريخا تجدك أكثر مرارة ، ولا تفاخر مرة ثانية بقولها إنها قد وصلت إلى الحب الذى كانت تتوق إليه نفسها » .

لقد كان يكفى سافو أن تعيد إليها دوريخا حب أخيها لها ، وقد عبرت عن هذا الأمل بتمنيها لدوريخا أن تجد الحب مراً . ومن المحتمل أن هذه الشذرة جزء من القصيدة التى أشار إليها أثينايوس (xiii. 596 b) بأن سافو عنفت فيها دوريخا لأنها نحلت وبر أخيها . وإذا كانت سافو تستخدم فى الحديث عن دوريخا ألفاظاً قاسية ، فإنها سرعان ما تصفح عن أخيها . ولدينا شذرة هى افتتاحية لقصيدة ترجو فيها سافو لأخيها عوداً حميداً إلى الوطن ، وتعده بأنها ستغفر له كل أخطائه (شذرة ٣٦) :

« أى عرائس البحر الشقراوات ، أرجو أن تسمحوا لأخى أن يعود سالماً ، وأن تحققوا له كل رغبات قلبه الصادقة ، كما أرجو ، وقد زالت عنه كل أخطائه السابقة ، أن يصبح بهجة لأصدقائه ، وخطراً على أعدائه ، ولعل بيتنا لا يصيبه الخزى بسبب أى رجل . كما أرجو أن يكون راغباً فى أن يجعل أخته تمتلىء فخراً به ؛ ولعله ، عندما يعود فى يوم قريب ، يعمل ، وهو فى عز فرحة مواطنيه به ، على إزالة الألم المرير والكلمات الجارحة للشعور ، التى أصر قبل رحيله أن يملأ بها قلبى ؛ ولعله يحصل ، إن أراد ، على زوجة جديرة به وبعقد شرعى ؛ أما أنت ، أيتها الكلبة السوداء المؤذية (والمقصود بها دوريخا بلا شك) ، فلعل سموم شرك تذهب هباء ، وتسعين لاصطياد فريسة أخرى »

لم يقتصر احتقار سافو لدوريخا ، بل تعداها إلى أخريات . فلدينا شذرة (٧١) يقال إنها موجهة إلى امرأة غير متعلمة (cf. Stob. Flor. IV, 12) .

« عندما تموتين فسوف ترقدين فى عالم النسيان ولن يذكرك أحد ، لأنك لم تقومى بدور تجاه الورود نتاج بيريا Pieria ؛ فهناك الظلام ، وفى الظلام سوف تجوسين فى منزل الموت ، وتتجولين بين أشباح عديمة القيمة لا وزن لها » .

ولهذه الأبيات أهمية خاصة ، لأنها تطلعنا على رأى سافو بأن الخلود الحقيقى فى كتابة الشعر والأغانى ، وهى أول من عبر عن هذا الاعتقاد . كانت سافو تؤمن بهذا الرأى إيماناً صادقاً ، حتى إنها كتبت بفخر ولكن ببساطة (شذرة ٧٦) :

« إنى أقول إن شخصاً ما سيتذكرنا حتى فى الأيام المقبلة » .

كما تقول أيضاً (شذرة ١١) :

« ولكنى حصلت على النجاح الحق من إلهات الفن الشقراوات ، وعندما أموت لن أصبح نسياً منسياً » .

ويحدثنا أرسطو (Rhet. 1.9) بأن ألكايوس هو الشخص الذى كتبت له سافو تقول (شذرة ١١٩) :

« إذا كنت ترغب فيما هو عف ونبيل ، وإذا كان لسانك لا يهفو إلى قول ما هو سيئ ، فلن يملأ الحياء عينيك ، بل ستتحدث عنه بحكمة » .

وذلك رداً على أشعار لألكايوس يقول فيها (شذرة ١٢٤) :

« أى سافو الطاهرة ، يا ذات الخصل البنفسجية والابتسامة العذبة ، بنفسى كلام أود لو أقوله لك ، ولكن الحياء يمنعنى » .

وربما جاء ذكر لزوجها فى بعض الأشعار المفقودة (cf. Rose, H.B. G. L. p. 96)

وبالرغم من أن الجزء الأكبر من أشعار سافو كان يتصل بحياتها الخاصة ، إلا أن هناك بعض الشذرات التى لا علاقة لها بهذه الحياة .

من هذه الشذرات :

« إن من يبدو جميلا فهو جميل المظهر ، ولكن الفاضل سرعان ما يكون جميلا أيضاً » . (شذرة ٥٨)

« إن الثراء بلا فضيلة ليس رفيقاً مأمون الجانب ، ولكنهما لو اجتمعا معاً يكونان قمة الحظ السعيد » . (شذرة ١٠٠)

« إن الموت بلاء ، هكذا يعتقد الآلهة على الأقل ، وإلا لكانوا قد ماتوا هم أنفسهم منذ أمد بعيد » . (شذرة ٩١)

هذه هى سافو وهذه هى بعض الشذرات التى وصلتنا من أعمالها التى يقال إنها كانت تملأ تسعة كتب. ومن الواضح أنها كانت واثقة كل الثقة من نفسها وفنها ، وقد عاشت أشعارها كل هذه القرون الطويلة وما زالت تحمل نفس الروعة والبهجة والطرافة التى كانت عليها وقت كتابتها لأول مرة ، ومن ثم فهى تعتبر أعظم امرأة شاعرة أنجبتها الطبيعة حتى الآن ؛ فان ذوقها السليم ، وصدقها المتناهى فى التعبير ، وخيالها البديع ، وقوة عاطفتها ، لهى مميزات وهبتها لها إلهات الفنون وربات الرشاقة ، فجعلن منها شخصية خارقة تفوق مستوى البشر ، ولذا نراها قد كرست معظم حياتها وفنها لهن ، كما أن أشعارها تفوح دائماً برائحة عبير وحنين .

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين أبى المحاسن يوسف ابن تغرى بردى

بقلم

الأستاذ ابراهيم الابيارى

تمهيد

واءم علم التاريخ فى نشأته نشأة الأمة العربية ، فكان حديثاً عن أنساب الناس حين كانوا قبائل مترحلة لم تستقر الأماكن تحت أرجاها ، كما كان حديثاً عن أيامهم ومآثرهم حين تشاحنوا على مواقع الحيا حيث الخصب ، وحين ظهر من بينهم الأنجاد والأمجاد . وعندما استوت لهم مدن كان حديثهم عنها يمثل التاريخ الجامع لشئونهم الكثيرة ، وشاعت عصبية الوطن بعدما اختفت عصبية النسب وإذا هذه الأوطان يختصها المؤرخون بكتب خاصة .

ومن أقدم ما انتهى إلينا من ذلك — أعنى الحديث عن البلدان — أخبار الحيرة لهشام بن محمد الكلبى (٢٠٤ ﻫ) . وقد أخذ مؤرخو كل إقليم منذ القرن الثالث فى جمع ما يتصل بتاريخ إقليمهم ، فكان من ذلك تاريخ مصر والإسكندرية للواقدى أبى عبدالله محمد بن عمر (٢٠٧ ﻫ) ، وأخبار مكة للأزرقى أبى الوليد محمد بن عبدالله (٢٢٣ ﻫ) ، ثم فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم أبى القاسم عبد الرحمن بن عبدالله (٢٥٧ ﻫ)

وما إن أهلّ القرن الرابع الهجرى حتى انضمت إلى هذه المدرسة التاريخية مدرسة أخرى تعنى بالحديث عن خطط البلاد ، وكان أول من ألف فى ذلك أبو عمر محمد بن يوسف الكندى (٣٥٠ ﻫ) .

ومضت هاتان المدرستان المختصتان بالمدن تتسعان للكثير مع القرون اللاحقة ، وكان ممن كتبوا عن مصر فى الجانب التاريخى :

١ — ابن يونس عبد الرحمن بن أحمد الصدفى (٣٤٧ ﻫ) وله تاريخان : أحدهما لأهل مصر ، والثانى للغرباء الواردين عليها .

٢ — أبو عمر محمد بن يوسف الكندى (٣٥٠ ﻫ) وله : فضائل مصر المحروسة .

٣ — ابن زولاق الحسن بن إبراهيم (٣٨٧ ﻫ) وله : الذيل على تاريخ الصدفى .

٤ — المنجم على بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس (٣٩٩ ﻫ) وله : تاريخ أعيان مصر .

٥ — الحضرمى أبو القاسم يحيى بن على (٤١٦ ﻫ) وله : ذيل أيضاً على تاريخ الصدفى .

٦ — المسبحى عز الملك محمد بن عبدالله (٤٢٠ ﻫ) وله : تاريخ مصر .

٧ ـ أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى (٥٢٩هـ) وله : الرسالة المصرية ، ذكر فيها من اجتمع بهم من أهل مصر وما شاهد من آثارها .

٨ ـ ابن الصيرفى أبو القاسم على بن منجب (٥٥٠ هـ) وله : الإشارة إلى من نال الوزارة .

٩ ـ إبراهيم بن وسيط شاه (٥٩٩ هـ) وله : جواهر البحور ووقائع الدهور فى أخبار الديار المصرية .

١٠ ـ موفق الدين عبداللطيف البغدادى (٦٢٩ هـ) وله : أخبار مصر .

١١ ـ ابن أبى طى يحى بن حميدالحلبى (٦٣٠ هـ)

١٢ ـ القفطى جمال الدين على بن يوسف (٦٤٠هـ) وله : تاريخ مصر .

١٣ ـ التيفاشى أحمدبن يوسف (٦٥١ هـ) وله : سجع الهديل فى أخبار النيل .

١٤ ـ أبو المظفر وحيد الدين منصور بن سليم الإسكندرى (٦٧٤ هـ) وله : تاريخ الإسكندرية .

١٥ ـ ابن ميسر المصرى أبو عبدالله محمد بن على (٦٧٧ هـ) وله: أخبار مصر ، وهو يعد ذيلا على تاريخ مصر للمسبحى .

١٦ ـ ابن دانيال شمس الدين أبو عبدالله محمد الخزاعى (٧١٠ هـ) وله: عقود الجواهرفيمن ولى مصر

١٧ ـ الأدفوى أبو الفضل جعفر بن ثعلب (٧٤٩ هـ) وله:الطالع السعيد الجامع لأسماء فضلاء الصعيد .

١٨ ـ ابن الدرهم الموصلى تاج الدين على بن محمد (٧٦٢ هـ) وله : الانصاف بالدليل فى أوصاف النيـــل .

١٩ ـ ابن مرزوق التلمسانى شمس الدين محمد بن أحمد (٧٨١ هـ) وله: أشرف الطرف للملك الأشرف.

٢٠ ـ ابن الطولونى حسن بن حصين بن أحمد (٨٣٢ هـ) وله:النزهة السنية فى أخبار الخلفاء والملوك المصرية .

٢١ ـ المقريزى تقى الدين أحمد بن على (٨٤٥ هـ) وله : عقد الجواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط ، والسلوك .

٢٢ ـ ابن حجر العسقلانى أحمد بن على (٨٥٢ هـ) وله : الإعلام بمن ولى مصر فى الإسلام .

٢٣ ـ الباعونى أبو الفضل محمد بن أحمد (٨٧١هـ) وله : فرائد السلوك فى تاريخ الخلفاء والملوك .

٢٤ ـ ابن تغرى بردى جمال الدين يوسف (٨٧٤ هـ) وله : النجوم الزاهرة ، الذى سنحدثك عنه وعن كتابه .

٢٥ ـ السيوطى جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (٩١١ هـ) وله : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، وتحفة الكرام بأخبار الأهرام .

٢٦ ـ الباعونى محمد بن يوسف (٩١٦ هـ) وله: الإشارة الوافية .

٢٧ ـ ابن إياس محمد بن أحمد (٩٣٠ هـ) وله: بدائع الزهور فى وقائع الدهور .

وتتالى من بعد ذلك فى هذا الميدان مؤلفون بأساليب تقارب وتباعد من المنهج الذى بدأه السابقون .

أما عن مدرسة الخطط فقد بدأها ـ كما قدمت ـ الكندى (٣٥٠ هـ) ثم جاء من بعده :

١ ـ ابن زولاق الحسن بن إبراهيم بن الحسين (٣٨٧ هـ) وعنه يقول ابن خلكان : وله كتاب فى خطط مصر استقصى فيه .

٢ ـ القضاعى أبو عبدالله محمد بن سلامة (٤٥٤هـ) وله : المختار فى ذكر الخطط والآثار .

٣ ـ أبو عبدالله محمد بن بركات النحوى (٥٢٠ هـ) وهو تلميذ القضاعى . وقد ذكره حاجى خليفة فيمن كتب فى خطط مصر ولم يذكر اسم مؤلفه .

٤ ـ الشريف محمد بن إسماعيل الجوانى ، وله :النقط لمعجم ما أشكل من الخطط ، قال عنه حاجى خليفة : وقد نبه فيه على معالم قد دثرت .

٥ – ابن نشوان محيى الدين عبدالله بن عبد الظاهر (٦٩٢ هـ) وله : الروضة البهية الزاهرة والخطط المصرية القـــاهرة .

٦ – ابن المتوج تاج الدين محمد بن عبد الوهاب (٧٣٠ هـ) وله : إيقاظ المنفعل وإيعاظ المتوسل، بين فيه أحوال مصر وخططها إلى سنة ٧٢٥ هـ .

٧ – المقريزى تقى الدين أحمد بن عبد القادر (٨٤٥ هـ) وله : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

٨ – على مبارك (١٣١١ هـ) وله : الخطط التوفيقية .

ابن تغرى بردى

بالقرب من مدرسة السلطان حسن (حى القلعة الآن) وفى دار كانت للأمير سنجك اليوسفى ، وفى حدود سنة (٨١٢ هـ) كان مولد مؤلفنا يوسف بن الأمير تغرى بردى .

على هذا تلميذه أحمد بن حسن التركمـــانى ، المعروف بالمرجى ، فى ترجمته للمؤلف بآخر كتاب المنهل الصافى . ويشاركه هذا الرأى ابن العماد الحنبلى فى كتابه شذرات الذهب عند الكلام على حوادث سنة (٨٧٤ هـ) ، وابن إياس فى تاريخه .

ويخالفهم السخاوى فى كتابه الضوء اللامع فيقول : « ولد فى شوال تحقيقاً سنة ثلاث عشرة وثمانمائة تقريباً »

ويعنينا أن نقول إن الذى ذكره تلميذه التركمانى كان نقلا عن المؤلف نفسه ؛ فهو يقول : سألته عن مولده فقال : مولدى بالقاهرة . . . فى حدود سنة اثنى عشرة وثمانمائة تقريباً . . .

وكان أبوه تغرى بردى مملوكاً رومياً جميل الطلعة اشتراه السلطان برقوق وجعله من مماليكه ، وحين شب أعتقه وضمه إلى إحدى فرق المماليك السلطانية .

وبعد أن توفى برقوق وتولى ابنه فرج بن برقوق الأمر مكانه، نبه شأن تغرى بردى فتولى نيابة دمشق، إلى أن كان دخول تيمور لنك إلى الشام وانهزام فرج ابن برقوق بجيوشه أمامه ورجوع تغرى بردى معه . ثم عاد تغرى بردى إلى نيـــابة دمشق للمرة الثانية بعد خروج التتار عن الشام، غير أنه ما لبث أن اتهم بالخيانة العظمى، فهرب إلى التركمان وبقى هناك إلى أن عفا عنه السلطان، وتزوج من كبرى بناته فاطمة وولاه نيابة دمشق للمرة الثالثة، فبقى عليها إلى أن وافته منيته سنة ٨١٤ هـ .

وحين ترك هذا الأب دنياه خلف من ورائه أبناء ستة – كان أبو المحاسن أصغرهم ، وكان عندها فى الثانية من عمره – وبنات أربعاً منهن : خوند فاطمة ، زوج السلطان فرج ، وبيرم ، وكانت زوجة لقاضى القضاة ناصر الدين بن النديم الحنفى ، وبعد وفاته تزوجت قاضى القضاة جلال الدين البلقينى الشافعى .

ونشأ رجلنا أبو المحاسن يتيما ، ذاق اليتم مبكراً ، فقد توفى أبوه وهو فى الثانية من عمره كما مر بك ، فتولى تربيته زوج أخته بيرم قاضى القضاة ناصر الدين محمد بن النديم إلى أن مات ابن النديم سنة تسع عشرة وثمانمائة ، فتولى تربيته الزوج الثانى لبيرم وهو قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن البلقينى الشافعى ، فأخذ فى تحفيظه القرآن الكريم ، وما إن أتم حفظه حتى كان الفتى قد كبر وترعرع واستعد للتلقى والتعلم، فحفظ مختصر القدورى فى فروع الحنفية ومضى يستزيد فى دراسة المذهب الحنفى ، وهو منهج زوج الأخت الراحل ابن النديم ، ولم يلتفت للمذهب الشافعى وهو مذهب زوج أخته البلقينى ، فتفقه بالشيخ شمس الدين محمد الرومى ، وبقاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء الحنفى قاضى مكة ، وبقاضى القضاة بدر الدين محمود العينى الحنفى ، ودفعه ميله إلى المذهب ألا يأخذ النحو وغيره من علوم أخرى إلا عن أحناف إن وجد ، فأخذ النحو عن تقى الدين الشمنى الحنفى ، وقرأ

المقامات الحريرية على قوام الدين محمد بن محمد الحنفى ، وأخذ البديع والأدبيات عن شهاب الدين أحمد بن عمر شاه الدمشقى الحنفى .

وكانت له ملازمة لمشايخ عصره وإفادة من أدبهم ومن علمهم مثل : شهاب الدين أحمد بن حجر ، وقاضى القضاة جلال الدين أبى السعادات بن ظهيرة قاضى مكة ، والعلامة بدر الدين بن العليف ، وقطب الدين أبى الخير بن عبد القوى ، وكان هذان الأخيران شاعرى مكة فأخذ عنهما أبو المحاسن الكثير من شعرهما وتأدب بأدبهما ، وكانت له غير هذا سماعات كثيرة على مشايخ كثيرين نخاف أن نثقل بذكر أسمائهم .

ثم حُبِّب إليه علم التاريخ فلازم مؤرخى عصره مثل قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى ، والشيخ تقى الدين المقريزى .

وكان له ولع بالفروسية فأجاد فنونها ، كلعب الرمح ورمى النشاب ولعب الكرة ، كما حذق فنون النغم والضروب والإيقاع وفاق فى ذلك أهل زمانه .

وكان إلى هذا كله ورعاً ديناً عفيفاً مع حسن محاضرة ولطف منادمة وحشمة زائدة ، وحياء كثير وميل إلى الخير ومحبة لأهل العلم والفضل والصلاح .

وهذه الحياة الجامعة بصّرت أبا المحاسن بأن يشارك فى أمور كثيرة وأن يخالط فئات مختلفة ، وحين أخذ فى التأريخ استقامت له من تلك الحصيلة الكبيرة مادة غزيرة ومكنته هـــذه المنافذ المختلفة من أن يسلك سبلاً متنوعة :

ولقد كان هذا القرن التاسع الهجرى من أهم القرون التاريخية ، فلقد أظل مع أبى المحاسن جملة من مشهورى المؤرخين فى مصر ، منهم من نشأ فيها ومنهم من ألم بها مثل ابن خلدون والمقريزى وابن حجر والعينى وابن عرب شاه وخليل بن شاهين والخالدى بهاء الدين بن محمد العمرى ، وابن الصدفى ، والسخاوى ، وابن إياس ، والسيوطى وعبد الباسط بن خليل الحنفى ، وابن الطولونى حسن ، وابن زنبل أحمد الرمّال .

هذا العصر الحافل بالمؤرخين والكتب التاريخية هو الذى أظل أبا المحاسن ، وقد عاش أبو المحاسن بين أجلّهم فلقد عاصر المقريزى والعينى وابن حجر وعاصره ابن الصيرفى والسخاوى وابن إياس .

وحين قبض الله إليه المقريزى ثم العينى أصبحت زعامة التاريخ فى مصر لأبى المحاسن .

مؤلفاته

١ ــ المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى . وهو يضم تراجم الأعيان والنابهين من أوائل الدولة التركية من المعز أيبك التركمانى إلى زمن المؤلف . وقد أراد به مؤلفه أن يجعله ذيلا للوافى ، تأليف الصفدى . وقد أخذت دار الكتب المصرية فى طبعه وتولته عنها دار التأليف والترجمة .

٢ ــ الدليل الشافى على المنهل الصافى ، وهو مختصر للمنهل الصافى ، ومنه مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

٣ ــ مورد اللطافة فى ذكر من ولى السلطنة والخلافة . اقتصر فيه على ذكر الخلفاء والسلاطين ، وهو اختصار للدليل الشافى . . ومنه مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

٤ ــ منهل الظرافة لذيل مورد اللطافة . ويشمل أسماء أمراء مصر إلى سنة ٨٨٤ هـ ، ومنه نسخة بمكتبة برلين .

٥ ــ حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور : جعله مؤلفه ذيلا لكتاب السلوك للمقريزى فبدأه من حيث انتهى ، أى من سنة ٨٥٦ هـ ، وقد خالف المقريزى فى طريقته فأطال فى التراجم إلا ما جاء ذكره فى كتابه المنهل الصافى . ومنه مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

٦ – نزهة الرائى فى التاريخ . وهو تاريخ متصل على السنين والشهور والأيام وفى مجلدات عدة ، منها الجزء التاسع فى مكتبة أكسفورد . ويضم حوادث السنين من ٦٧٨ – ٧٤٧ ﻫ .

٧ – البحر الزاخر فى علم الأوائل والأواخر ، مرتب على السنين . ومنه جزء صغير بالمكتبة الأهلية بباريس يحوى حوادث السنين من ٣٢ – ٧٢ ﻫ .

٨ – منشأ اللطافة فى ذكر من ولى الخلافة . يؤرخ لمصر من أقدم أزمانها إلى سنة ٧١٩ ﻫ . ومنه نسخة بالمكتبة الأهلية بباريس .

٩ – نزهة الألباب فى اختلاف الأسماء والألقاب .

١٠ – حلية الصفات فى الأسماء والصناعات ، مرتب على الحروف يشتمل على مقاطيع وتواريخ وأدبيات .

١١ – البشارة فى تكملة الإشارة ، وهو ذيل على كتاب الإشارة للحافظ الذهبى .

١٢ – الانتصار للسان التتار ، وهو فى معانى اللغة التركيـــة .

١٣ – كتاب فى الرياضيات والموسيقى .

١٤ – السـكر الفاضح والعطر الفائح ، فى التصوف ؛ ومنه نسخة بمكتبة الإسكوريال .

ثم كتابه :

١٥ – النجوم الزاهرة .

وهو من أهم ما ألف أبو المحاسن ، يؤرخ فيه لمصر منذ الفتح الإسلامى إلى الدولة الأشرفية سنة ٥٨٧ ﻫ مع استطرادات كثيرة فى أخبار البلاد المجاورة ، وهو مرتب على السنين وفى آخر كل سنة تراجم من مات فيها وزيادة النيل ونقصانه . . يقول ابن تغرى بردى فى خطبة هذا الكتاب :

«أما بعد فلما كان لمصر ميزة على كل بلد بخدمة الحرمين الشريفين ، أحببت أن أجعل تاريخاً لملوكها مستوعباً من غير مَيْن ، فحملنى ذلك على تأليف هذا الكتاب وإنشائه ، وقمت بتصنيفه وأعبائه ، واستفتحته بفتح مصر وما وقع لهم فى المسالك ومن حضرها من الصحابة ومن كان المتولى لذلك ، وعلى أى وجه فتحت : صلح أم عنوة من أصحابها ، وأجمع فى ذلك أقوال من اختلف من المؤرخين وأهل الأخبار وأربابها ، وذلك بعد اتصال سندى إلى من ولى عنه منهم رواية ، ليجمع الواقف عليه بين صحة النقل والدراية ، وأطلق عنان القلم فيما جاء فى فضلها وذكرها من الكتاب العزيز ، وما ورد فى حقها من الأحاديث وما اختصت به من المحاسن فصار لها على غيرها بذلك التميز ، ثم أذكر من وليها من يوم فتحت وما وقع فى دولته من العجب ، واحداً بعد واحد لا أقدم أحداً منهم على أحد باسم ولا كنية ولا لقب ، ثم أذكر أيضاً فى كل ترجمة ما أحدث صاحبها فى أيام ولايته من الأمور ، وما جدده من القواعد والوظائف والولايات فى مدى الدهور ، ولا أقتصر على ذلك ، بل أستطرد إلى ذكر ما بنى فيها من المبانى الزاهرة ، كالميادين والجوامع ومقياس النيل وعمارة القاهرة ، أولا بأول أذكره فى يوم مبناه وفى زمان سلطانه ، مستوعباً لهذا المعنى ضابطاً لشأنه ، على أننى أذكر من توفى من الأعيان فى دولة كل خليفة وسلطان باقتصار ، بعد فراغ ترجمة المقصود من الملوك مع ذكر بعض الحوادث فى مدة ولاية المذكور فى أىما قطر من الأقطار ، وأبدأ فيه بعد التعريف بأحوال مصر بولاية عمرو بن العاص فى المملكة الإسلامية ، ثم مَلِكٍ بعد ملك كل واحد على حدته ، وما وقع فى أيامه إلى الدولة الأشرفية الإينالية ، وسميته :

«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» .

والله الموفق والمنان ، وبالله المستعان» .

ويقال إن الصحبة التى كانت بين المؤلف والأمير محمد بن جقمق هى التى حملته على أن يأخذ فى تأليف هذا التاريخ ، وكان فى نيته أن يختمه بحكمه غير أن المنية عاجلت ابن جقمق قبل أن يأخذ المؤلف فى تأليف هذا

التاريخ الكبير ، فلقد كانت وفاة ابن جقمق نحواً من سنة ٨٣٢ ه .

ولما فتح السلطان سليم العثمانى مصر ووقع له هذا الكتاب أمر بنقله إلى التركية فنقله شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا قاضى العسكر بالأناضول يومئذ . ويقول شمس الدين سامى فى كتابه قاموس الأعلام التركى أنه ترجم إلى اللغة اللاتينية وإلى لغات أوربية أخرى .

وقد ذكر حاجى خليفة أن المؤلف قد لخص هذا الكتاب وسماه « الكواكب الباهرة فى النجوم الزاهرة » وقال : وهو مجلد أوله الحمد لله الذى زين السماء الدنيا بالنجوم الزاهرة . . . الخ . ثم قال : ذكر أنه اختصره حذراً من أن يختصره غيره على تبويبه وفصوله واقتدى فى ذلك بجماعة من العلماء كالذهبى والمقريزى ، فإن الذهبى اختصر تاريخ الإسلام بسير النبلاء ، ثم اختصر سير النبلاء بالعبر ، ثم اختصر العبر بالإشارة إلى وفيات الأعيان .

وقد اهـتم بنشر كتـاب النجوم الزاهرة المستشرقون منذ زمن بعيد ، فأخرج منه المستشرق الهولاندى جونبل مجلدين كبيرين فى أربعة أجزاء مع تقدمة وملاحظات باللغة اللاتينية طبعت بمطبعة بريل فى مدينة ليدن من سنة ١٨٥١ — ١٨٥٥ م .

ويشمل المجلد الأول السنين من ٢٠ — ٢٥٣ ، والثانى ٢٥٤ — ٣٦٥ ه

كما أخرج المستشرق الأمريكى وليم بوبر منه عشرة مجلدات مع مقدمة باللغة الإنجليزية وقد طبعت بكالفورنيا من سنة ١٩٠٩ — ١٩٢٩ وتشتمل على السنين من ٣٦٥ — ٥٦٦ ، ومن سنة ٨٠١ — ٨٧٢ ه .

ومن هذا نرى أن الجزء الخاص بالسنين من ٥٦٧ — ٨٠٠ ، لم يخرج . وقد أخذت دار الكتب المصرية فى طبع هذا الكتاب كله طبعة محققة فصورت للنسخة الخطية المحفوظة منه بمكتبة أياصوفيا وقد أصدرت الجزء الأول سنة ١٩٢٧ وينتهى بسنة ١٤٣ ه ومضت تخرجه مع الأعوام أجزاء كل جزء يضم حقبة من السنين — وقد ذيل كل جزء بفهارس واسعة مختلفة وقد انتهت إلى الجزء الرابع عشر .

ثم تولت دار التأليف والترجمة بوزارة الثقافة الأجزاء الباقية ، وسوف تخرج قريباً .

وقد أعادت دار التأليف طبع الأجزاء الأولى التى طبعت فى دار الكتب واقتطعت منها الفهارس لتضمها كلها معاً فى آخر الكتاب بعد تمام طبعه .

وهذا شىء مما جاء فى كتاب النجوم الزاهرة عن ولاية الظافر :

ذكر ولاية الظافر على مصر

الظافر بالله أبو منصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد الحميد بن الأمير محمد ، ابن الخليفة المستنصر معد بن الظاهر على بن الحاكم منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد ، التاسع من خلفاء مصر من بنى عبيد ، والثانى عشر منهم ممن ولى من أجداده خلفاء المغرب .

بويع بالخلافة بعد موت أبيه الحافظ فى جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وهو ابن سبع عشرة سنة وأشهر ، لأن مولده فى يوم الأحد منتصف شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة . وأمه أم ولد تدعى ست الوفاء ، وقيل : ست المنى .

قال العلامة شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلى سبط ابن الجوزى فى تاريخه مرآة الزمان — بعد أن سماه يوسف ، والصواب ما قلناه أنه إسماعيل — قال : « وكانت أيامه مضطربة لحداثة سنه واشتغاله باللهو ، وكان عباس الصنهاجى لما قتل ابن سلار وزر له واستولى عليه . وكان له ولد اسمه نصر ، فأطمع نفسه فى الأمر وأراد قتل أبيه ، ودس إليه سما ليقتله . فعلم أبوه واحترز وأراد أن يقبض عليه فما قدر ، ومنعه

مؤيد الدولة أسامة بن منقذ وقبح عليه ذلك ، وقال : إن فعلت هذا لم يبق لك أحد ويفر الناس عنك . فشرع أبوه يلاطفه (يعنى الوزير عباس يلاطف ابنه نصرا) وقال له : عوض ما تقتلنى اقتل الظافر . وكان نصر ينادم الظافر ويعاشره . وكان الظافر يثق به وينزل فى الليل إلى داره متخفياً . فنزل إليه إلى داره وكانت بالسيوفيين داخل القاهرة ومعه خادم له . فشربا ونام الظافر ، فقام نصر فقتله ورمى به فى بئر . فلما أصبح عباس (يعنى الوزير أبا نصر المذكور) جاء إلى باب القصر يطلب الظافر ، فقال له خادم القصر : ابنك يعرف أين هو (ومن) قتله . فقال عباس : ما لابنى فيه علم . وأحضر أخوى الظافر وابن أخيه فقتلهم صبرا بين يديه ، وأحضر أعيان الدولة وقال : إن الظافر ركب البارحة فى مركب فانقلبت به فغرق . ثم أخرج عيسى ولد الظافر . فتفرقوا عن عباس وابنه ، وثار الجندوالعبيد وأهل القاهرة وطلبوا بثأر الظافر من عباس وابنه نصر . فأخذ عباس وابنه نصر ما قدرا عليه من المال والجواهر وهربا إلى الشام . فبلغ الفرنج فخرجوا إليهما ، وقتلوا عباساً وأسروا ابنه نصراً ؛ وقتل نصر فى السنة الآتية » . انتهى .

وقال القاضى شمس الدين أحمد بن خلكان : « بويع يوم مات أبوه بوصية أبيه . وكان أصغر أولاد أبيه سناً . كان كثير اللهو واللعب والتفرد بالجوارى ، واستماع المغانى . وكان يأنس بنصر بن عباس . فاستدعاه إلى دار أبيه ليلا سراً بحيث لا يعلم به أحد ، وتلك الدار فى المدرسة الحنفية السيوفية الآن ، فقتله بها وأخفى أمره . قال : وقصته مشهورة ، وذلك فى نصف المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وكان من أحسن الناس صورة . والجامع الظافرى الذى بالقاهرة داخل باب زويلة منسوب إليه ، وهو الذى عمره وأوقف عليه شيئاً كثيراً » . انتهى كلام ابن خلكان . قلت : والجامع الظافرى هو المعروف الآن بجامع الفاكهانيين على الشارع الأعظم بالقرب من حارة الديلم .

وقال ابن القلانسى : « إن الظافر إنما قتله أخواه يوسف وجبريل وابن عمهما صالح بن الحسن . » قلت : وهذا القول يؤيده قول ما نقله أبو المظفر من أن عباساً قتل أخوى الظافر وابن عمه صبرا (أعنى لما بلغه قتلهم للظافر قتلهم به) غير أن جمهور المؤرخين اتفقوا على أن قاتل الظافر نصر بن عباس المقدم ذكره .

قال : وكان الظافر قد ركن إليهم (يعنى أخويه وابن عمه) وأنس بهم فى وقت مسراته . فاتفقوا عليه واغتالوه . وذلك فى يوم الخميس سلخ صفر . وحضر العادل عباس الوزير وابنه ناصر الدين نصر وجماعة (من) الأمراء والمقدمين (للسلام) على الرسم . فقيل لهم : إن أمير المؤمنين ملتاث الجسم . فطلبوا الدخول إليه فمنعوا . فألحوا فى الدخول بسبب العيادة فلم يمكنوا . فهجموا ودخلوا القصر وانكشف أمره . فقتلوا الثلاثة وأقاموا ولده عيسى وهو ابن ثلاث سنوات . ولقبوه بالفائز بنصر الله وبايعوه . وعباس الوزير إليه تدبير الأمور . ثم ورد الخبر بأن طلائع بن رزيك فارس المسلمين قد امتعض من ذلك وجمع وحشد وقصد القاهرة ، وكان من أكابر الأمراء . وعلم عباس أنه لا طاقة له به . فجمع أمراءه وأسبابه وأهله وخرج من القاهرة فلما قرب من عسقلان وغزة خرج عليه جماعة من خيالة الفرنج . فاغتر بكثرة من معه . فلما حمل عليهم قتل أكثر أصحابه وانهزموا . فانهزم هو وابنه الصغير وأسر ابنه الكبير الذى قتل ابن سلار مع ولده وحرمه وماله وكراعه . وصار الجميع للفرنج . ومن هرب مات من الجوع والعطش . ووصل طلائع ابن رزيك إلى القاهرة ، فوضع السيف فيمن بقى من أصحاب عباس ، وجلس فى منصب الوزارة». انتهى كلام ابن القلانسى . وما نقله غالبه مخالف لغيره من المؤرخين . والله أعلم .

وقيل غير ذلك : أن خدام القصر كتبوا إلى طلائع ابن رزيك وهو والى قوص وأسوان والصعيد يخبرونه بقتل الظافر ويستنجدونه على عباس وابنه نصر . وكتب إليه فيمن كتب القاضي الجليس أبو المعالى عبد العزيز ابن الحباب قصيدته الدالية التي أولها :

دمعى عن نظم القريض غوادى
وشف فؤادى شجوه المتمادى

وأرق عيني والعيون هواجـع
هموم أقضت مضجعى ووسادى

بمصرع أبناء الوصى وعترة النـ
ـبى وآل الذاريات وصاد

فأين بنو رزيك عنهم ونصرهم
ومـا لهم من منعـة وذيـاد

أولئك أنصار الهدى وبنو الردى
وسم العدا من حاضرين وبـاد

لقد هد ركن الدين ليلة قتـله
بخـير دليـل للنجاة وهـاد

تدارك من الإيمان قبل دثوره
حشاشة نفس آذنت بنفـاد

وقد كاد أن يطفى تألق نوره
عـلى الحق عاد من بقية عاد

فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم
ومصرعهم لم تكتحـل برقاد

وهي طويلة كلها على هذا المنوال في معنى النجدة . وقد نقلتها من خط عقد لا يقرأ إلا بجهد . فلما بلغ ذلك طلائع بن رزيك جمع ودخل القاهرة فى تاسع شهر ربيع الأول ، وجلس فى دست الوزارة ، وتلقب بالملك الصالح ، وهو صاحب الجامع خارج بابى زويلة وأخرج جسد الظافر من البئر التى كان رمى فيها بعد قتله وجعله فى تابوت ومشى بين يديه حافياً مكشوف الرأس . وفعل الناس كذلك ، وكثر الضجيج والبكاء والعويل فى ذلك اليوم .

وقال بعضهم وأوضح الأمر ، وقوله : إن الظافر كان قد أحب نصر بن عباس حباً شديداً ، وبقى لا يفارقه ليلا ونهاراً . فقدم مؤيد الدولة أسامة بن منقذ من الشام ، فقال لعباس الوزير يوماً : كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول ! قال عباس : وما يقولون ؟ قال يقولون : إن الظافر بنى على ابنك نصر . فغضب عباس من ذلك ، وأمر ابنه نصراً ، فدعا الظافر لبيته فوثب عليه وقتله ، وساق نحواً مما سقناه من قول أبى المظفر وابن خلكان . وانتهى كلامه

وقال صاحب كتاب المقلتين فى أخبار الدولتين : « ولما تم أمر الظافر ركب بزى الخلافة وعاد إلى القصر ، ولم يقدم شيئاً على انتقامه من ابنى الأنصارى لما كان يبلغه عنهما فى أيام والده الحافظ » :

وخبر ابنى الأنصارى أنهما كانا من جملة الكتاب وتوصلا إلى الحافظ ، فاستخدمهما فى ديوان الجيش قصداً لتمييزهما ، وهما غير قانعين بذلك ، لما يعلمانه من إقبال الحافظ عليهما ، فوثبا على السادة من رؤساء الدولة مثل الأجل الموفق أبى الحجاج يوسف كاتب دست الخليفة ومشورته ، ومن يليه مثل القاضى المرتضى المحنك ، والخطيرى البواب ، فتجرأ عـلى المذكورين وغيرهم من الأمراء مع قلة دربة . فتتبع القوم عوراتهم ، والخليفة الحافظ لا يزداد فيهما إلا رغبة . ووقع لهما أمور قبيحة ، والقوم يبلغون الخليفة خبرهم شيئاً بعد شىء ، وهو لا يلتفت إلى قولهم . ولا زال ابنا الأنصارى حتى صار الأكبر شريك الأجل الموفق فى ديوان المكاتبات ، ولكن خصص الموفق بالإنشاء جميعه . ولما تولى ابن الأنصارى نصف الديوان نعت بالقاضى الأجل سناء الملك ، بعد أن وصاه الخليفة الحافظ أن يقنع مع الموفق بالرتبة ويدع المباشرة ، ويخدم الموفق . وصبر الأجل الموفق على ذلك مراعاة لخاطر الخليفة . وأما ابن الأنصارى الصغير فانه تجند فتأمر فى يوم ، وخلع عليه بالطوق وما يلزم

الأمرية ، وصار أمير طوائف الأجناد . فقال الناس : هو الأمير الطارى بن الأنصارى ! وبينما هم فى ذلك مرض الخليفة الحافظ ومات ، وآلت الخلافة لولده الظافر هذا . فنرجع لما كنا عليه من أمر الظافر مع ولدى الأنصارى المذكورين . فركب الخليفة الظافر بعد العشاء الآخرة فى الشمع بالقصر ، ووقف على باب الملك بالإيوان المجاور للشباك ، وأحضر ابنى الأنصارى واستدعى مولى الستر ، وهو صاحب العذاب ، وأحضرت آلات العقوبة ، فضرب الأكبر بحضوره بالسياط إلى أن قارب الهلاك ، وثنى بأخيه كذلك ، وأمر بإخراجهما وقطع أيديهما وسل ألسنتهما من قفيهما ، وصلبا على بابى زويلة الأول والثانى زماناً .

وأقام الظافر ابن مصال المغربى وزيراً مدة شهرين فخرج عليه ابن سلار ، وكان والياً على البحـــيرة والإسكندرية ، ولم يرض بوزارة ابن مصال المذكور ، وتابعه عباس وكان والياً على الغربية ، وهو ولد زوجته ، فلما بلغ الوزير ابن مصال ذلك ، خرج إلى الصعيد لكونه لم يطق لقاء ابن سلار ومن معه على غير موافقة من الخليفة الظافر . ودخل ابن سلار إلى القاهرة وزيراً ، فما طابت به نفس الخليفة الظافر بالله ، فباشر الأمور مباشرة بجد . وأقام الظافر خليفة إلى أوائل سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ولم يصف بين الخليفة والوزير عيش قط ، وجرت بينهما أمور ، وثبت عند ابن سلار كراهة الخليفة فيه ، فاحترز على نفسه منه ، وأقام كذلك أربع سنين وبعض الخامسة ، حتى قتله نصر بن عباس اغتيالا فى داره . وذكر أن ذلك بموافقة الخليفة الظافر على ذلك ، لأن هذا نصراً كان قد اختلط بالخليفة اختلاطاً دائماً أدى إلى حسد أكثر أهل الدولة له على ذلك . وخشى عباس على نفسه من ولده نصر المذكور لما تم منه فى حق ابن سلار ، فرمى بينه وبين الخليفة بموهمات قبيحة ، حتى قتل نصر الخليفة أيضاً . ودفنه فى داره التى بالسيوفيين ، وقتل أستاذين معه .

ولما علم الخليفة استخلف ولده بعده ، وهو أبو القاسم عيسى ، ونعت بالفائز بنصر الله ، وكان عمره يومئذ خمس سنين . أخرجه الوزير عباس من عند جدته أم أبيه الخليفة يوم قتل عميه يوسف وجبريل ابنى الحافظ — وهما مظلومان — بتهمة أنهما قتلا أخاهما الخليفة الظافر حسداً على الرتبة لينالاها بعده . وليس الأمر كذلك ، بل عباس الوزير وولده نصر قتلاه . فرآهما الخليفة هذا الصغير مقتولين ، فتفزع واضطرب وغشى عليه . ولازمه ذلك وكثر به .

قلت : وقول هذا عندى فى قتل الخليفة الظافر أثبت الأقاويل . وبكلامه أيضاً يعرف جميع ما ذكرناه فى أمره من أقوال المؤرخين ، فإنه ساق أمره على جليته من غير إدخال شىء معه .

وأما تفصيل أمر عباس الوزير وابنه نصر فإن عباساً كان رجلا من بنى تميم ملوك الغرب ، ودخل عباس القاهرة فاجتمع بالخليفة ، فأكرمه وأنعم عليه بأشياء ثم خلع عليه بالوزارة على العادة ولقبه ، فباشر عباس الوزارة وخدم الأمور وأكرم الأمراء وأحسن إلى الأجناد لينسيهم العادل ابن سلار . واستمر ابنه نصر على مخالطة الخليفة الظافر ، حتى اشتغل الظافر عن كل أحد بابن عباس المذكور ، وأبوه عباس يكره خلطته بالخليفة . وانتهى الخليفة معه إلى أن يخرج من قصره لزيارة ابن عباس بداره التى بالسيوفيين ، بحيث لا يعلم عباس بذلك . فلما علم استوحش من الخليفة لجرأة ابنه ، وتوهم أنه ربما يحمله الخليفة على قتله . فقال عباس لابنه سراً : قد أكثرت من ملازمة الخليفة حتى تحدث الناس فى حقك معه بما أزعج باطنى ، وربما يتناقل الناس ذلك ويصل إلى أعدائنا منه ما لا يزول ، ففهم ابنه نصر عنه وأخذته حدة الشباب ، فقال نصر لأبيه : أيرضيك قتله ؟ فقال : أزل التهمة عنك كيف شئت . فخرج الخليفة ليلة إلى نصر بن عباس على عادته فقتله بالجماعة الذين قتل بهم الوزير ابن سلار ، وقتل

أيضاً أستاذين كانا مع الخليفة الظافر ، وطمرهم فى بئر هناك . وأصبح عباس فبايع عيسى بن الظافر ، ولقبه الفائز ، على ما يأتى ذكره فى أول ترجمة الفائز .

ولما تم لعباس ما قصده من قتل الخليفة وتولية ولده الخلافة ، كثرت الأقاويل . ووقع الناس على الخبر الصحيح بالحدس . فاستوحش الناس قتل هؤلاء الأئمة . وكان طلائع بن رزيك والياً على الأشمونين ، والبهنسا ، فتحرك حاشداً على عباس ، ولبس السواد وحمل شعور النساء حرم الخليفة على الرماح . فتخلخل أمر عباس وتفرق الناس عنه . وصار الناس تسمعه المكروه فى الطرقات من كل فج . حتى أنه رمى من طاق ببعض الشوارع وهو جائز بهاون نحاس ، وفى يوم آخر بقدر مملوءة ماء حاراً ، فقال عباس : ما بقى بعد هذا شىء . فصار يدبر كيف يخرج وأين يسلك . فأشار عليه بعض أصحابه بتحريق القاهرة قبل خروجه منها فلم يفعل ، وقال : يكفى ما جرى . فلما قرب طلائع بن رزيك إلى القاهرة خرج عباس وابنه ومعهما كل ما يملكانه طالباً للشرق . فحال الفرنج بينه وبين طريقه ، فقاتل حتى قتل وأسر ولده نصر . وفاز الفرنج بما كان معه . وذلك فى شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وأما ولده نصر فنذكر أمره وقتله فى أول ترجمة الفائز بأوسع من هذا إن شاء الله تعالى .

وكانت قتلة الخليفة الظافر هذا فى سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة على قول من رجح ذلك . وله اثنتان وعشرون سنة . وكانت خلافته أربع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام . وتولى الخلافة بعده ولده الفائز عيسى .

ونذكر إن شاء الله أمر قتله أيضاً فى ترجمة الفائز بأوسع من هذا هناك .

* * *

السنة الأولى من ولاية الظافر بأمر الله أبى منصور إسماعيل على مصر وهى سنة خمس وأربعين وخمسمائة .

فيها مُطرت اليمن مطراً دماً . وبقى أثره فى الأرض وفى ثياب الناس .

وفيها فى المحرم نزل الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكى صاحب الشام على دمشق وحاصرها ، فراسله صاحبها مجير الدين ، وخرج إليه هو والرئيس ابن الصوفى وبذلا له الطاعة وأن يخطب له مجير الدين بعد الخليفة والسلطان ، وأن ينقش اسمه على الدينـــار والدرهم ، فرضى نور الدين وخلع عليه ورحل عنه . وعاد وافتتح قلعة اعزاز .

وفيها اختلف وزير مصر ابن مصال المغربى والعادل ابن سلار وجمعا العساكر واقتتلا ، فقتل الوزير ابن مصال ، واستقل ابن سلار بالوزر والملك . وقد ذكرنا نحو ذلك فى ترجمة الظافر هذا .

وفيها توفى أبو المفاخر الحسن بن ذى النون الواعظ (ابن أبى القاسم) كان فاضلا صالحاً إماماً فقيهاً حنفى المذهب ، كان يعيد الدرس خمسين مرة . ومن شعره :

مات الكرام ومروا وانقضوا ومضوا
ومـــات بعـــدهم تلك الكرامـــات
وخـــلفونى فى قـــوم ذوى سفـــه
لو أبصروا طيف ضيف فى الكرى ماتوا

وفيها توفى الأمير أبو الحسن على بن دبيس صاحب الحلة ، كان شجاعاً جواداً إلا أنه كان على عادة أهل الحلة رافضياً خبيثاً .

وفيها توفى قتيلا الوزير على بن سلار وزير الظافر صاحب الترجمة بديار مصر ، كان يلقب بالملك العادل . وتولى الوزر بعده عباس أبو نصر الذى قتل الظافر ، حسب ما ذكرنا ذلك كله مفصلا .

وفيها ملكت الفرنج عسقلان بالأمان بعد أن قتل من الفريقين خلق كثير ، وكان قد تمادى القتال بينهم فى كل سنة إلى أن سلموها . وأخذ الفرنج جميع ما كان فيها من الذخائر وغيرها .

وفيها توفى أحمد بن منير بن أحمد الأديب أبو الحسين الطرابلسى الشاعر المشهور المعروف بالرفاء. ولد سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة بطرابلس. وكان بارعاً فى اللغة العربية والأدب إلا أنه خبيث اللسان كثير الفحش. حبسه الملك تاج الملوك بورى صاحب دمشق، وعزم على قطع لسانه، فاستوهبه منه الحاجب يوسف ابن فيروز فوهبه له فنفاه. وكان هجا خلائق كثيرة، وكان بينه وبين ابن القيسرانى مهاجاة، وكان رافضياً. وكانت وفاته بحلب فى جمادى الآخرة. ومن شعره:

جـنى وتجـنى والفـؤاد يطيعه
فلا ذاق من يجنى عليه كما يجنى
فان لم يكن عندى كعينى ومسمعى
فلا نظرت عينى ولا سمعت أذنى

وفيها توفى الأمير تمرتاش بن نجم الدين ايلغازى الأرتقى صاحب ماردين وديار بكر. كان شجاعاً جواداً عادلا محباً للعلماء والفضلاء يبحث معهم فى فنون العلوم. وكان لا يرى القتل ولا الحبس. ومات فى ذى القعدة، وكانت مدته نيفاً وثلاثين سنة. وقام بعده ابنه.

وفيها توفى حيدرة بن الصوفى الذى كان أقامه مجير الدين صاحب دمشق مقام أخيه، ثم وقع منه سعى بالفساد، فاستدعاه مجير الدين إلى القلعة على حين غفلة فضرب عنقه لسوء سيرته وقبح أفعاله.

الذين ذكر الذهبى وفاتهم فى هذه السنة، قال: وفيها توفى أبو بكر محمد بن أبى حامد بن عبد العزيز بن على الدينورى البيّع ببغداد. والمبارك بن أحمد بن بركة الكندى الحبار.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم ست أذرع وأربع وعشرون أصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وثلاث عشرة أصبعاً.

* * *

السنة الثانية من ولاية الظافر على مصر وهى سنة ست وأربعين وخمسمائة.

فيها دخل السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى إلى بغداد، وخرج الوزير ابن هبيرة وأرباب الدولة إلى لقائه فأكرمهم.

وهذا الرجل الذى عنّى نفسه بهذه الأعمال الكثيرة وظل مكباً عليها إلى ما قبيل وفاته: لم يسلم من نقد رجلين مؤرخين ممن عاصروه، وهما ابن الصيرفى والسخاوى. وما أكثر ما توغر المشاركة فى عمل صدورَ المعاصرين، ثم إنا ما عرفنا السخاوى ترك علماً من أعلام عصره دون أن يجرحه وينقده وما نجا منه المقريزى شيخ المؤرخين فى عصره، ولا ابن خلدون شيخ مؤرخى الإسلام.

ولقد ظل أبو المحاسن مشغولا بعمله وتآليفه لا يصرفه عنه صارف إلى أن توفاه الله فى يوم الثلاثاء خامس ذى الحجة سنة أربع وتسعين وثمانمائة.

وحسب هذا الراحل عزاءً عما ترك من عمل صالح، ما كتبه عنه تلميذه أحمد بن حسن التركمانى فى ترجمته له:

«ونرجو إن أطال الله عمره وفسح فى أجله ليملأن خزائن من العلوم والمصنفات فى كل فن لِعِلْمى باتساع باعه فى التصنيف والتأليف».

ثم قول ابن إياس فيه: «وهو الذى قد خلف أبا المحاسن على زعامة المؤرخين بمصر: وضح لنا حقاً أنه كان رئيساً حشما فاضلا حنفى المذهب وله اشتغال بالعلم وكان مشغوفاً بكتابة التاريخ».

ثم حسب ابن تغرى بردى فى وصف نفسه شعره الذى يقول فيه:

تجارة الحب غدت فى حب خود كاسده
ورأس مـالى هبة لفرحـتى بفائده

مدام بوفارى لجوستاف فلوبير

بقلم
الأستاذ على أدهم

جوستاف فلوبير فى طليعة كبار الكتاب البارزين فى تاريخ الأدب الفرنسى ، وهو يعد فى تاريخ الأدب العالمى أحد الأساتذة الرواد فى كتابة الرواية الواقعية ، ولم يبلغ فلوبير هذه المكانة الرفيعة فى عالم الأدب لأنه كان كاتباً موهوباً فحسب ، وإنما ظفر بها لأنه أراد ذلك ، وعقد عليه العزم ، ولم يدخر جهداً ، ولم يحجم عن أية تضحية فى سبيل تحقيق رسالته الأدبية ، وهى مسألة لها وزنها فى تقويم عبقريته وتقدير أدبه ، ولم يعط كاتب من الكتاب أسلوبه العناية التى أسبغها فلوبير على أسلوبه ، ولم يأخذ أحد من الكتاب نفسه فى مزاولة الكتابة بالشدة فى تحرير الكلام وضبطه وتصفيته وتنقيحه التى التزمها فلوبير وفرض على نفسه قيودها الثقيلة وتكاليفها المرهقة ، كان يمضى ثمانية أيام — كما يقول إميل فاجيه فى كتابه القيم عنه — من العمل المتصل ليكتب صفحة واحدة ، وكان يصحح ما يكتبه ويعيد عليه الكرة منقحاً ومصححاً ، ويفحص كل كلمة ويزنها ويعرضها على أذنه ليختبر وقعها فى السمع ، ويتعرف جرسها ، وكان يقيم لنفسه عقبات لا لزوم لها تحرياً لمراعاة الدقة والإحكام فى الكتابة ، فلا يكرر لفظة بعينها فى الصفحة نفسها ، ويعمل على أن يكون لأسلوبه إيقاع موسيقى ، ولذلك كان يقرأ ما يكتب بصوت مرتفع ليتحاشى الكلمات الحوشية والحروف المتنافرة ، وكان الذين يمرون بجانب داره — كما يروى لنا النقادة الدانمركى جورج براندز — يسمعونه وهو يعيد قراءة ما يكتب فيعتقدون أنه محام يجرب ما سيقوله أمام المحكمة ، وقد كان الكاتب الروائى الروسى الكبير إيفان ترجنيف صديقاً حميماً لفلوبير ، وكان كثيراً ما يزوره فى أثناء إقامته بفرنسا ، وقد أعلن أنه مما يثير العطف ويبعث على الإشفاق أن يراه وهو أقل الناس صبراً عاكفاً على المجاهدة فى استبعاد العبارات الغامضة ، والتراكيب المستغلقة ، باذلا فى سبيل ذلك أقصى ما فى طاقته من الجهد ، وروى عنه استراتشى أنه حاول فى أحد مشاهد رواياته وصف حديقة نبات الكرنب فى ضوء القمر ليلا ، فسأل نفسه « كيف يبدو منظر حديقة الكرنب فى ضوء القمر وقد أرخى الليل سدوله ؟ فأرجأ الوصف حيناً من الزمن حتى جاءت الليلة المناسبة ، فخرج من داره يحمل مفكرة فى يده ، وغشى إحدى حدائق الكرنب ليدون بالتفصيل الدقيق ما شاهده ، ولذلك كان إنتاجه بالقياس إلى غيره من مشاهير الكتاب الروائيين قليلا ، فقد كان يكتب فى

ببطء شديد ، وقد قضى قرابة سبع سنوات فى كتابة أشهر رواياته ، وهى رواية مدام بوفارى ، كما قضى بعد ذلك ثلاث عشرة سنة فى كتابة روايته « بوفار وبيكيشيه » ولم تكن قد كملت حينما أدركته الوفاة .

وفلوبير فى تحريه الدقة فى الوصف ونفاذ ملاحظاته وبراعة تعليقاته خليفة للكاتب الروائى الفرنسى الكبير بلزاك ، ولكنه فى فرط عنايته بأسلوبه وتثقيف جمله وتنطسه فى اختيار ألفاظه نقيض لسابقه العظيم ، وهذه المزايا والصفات تجعل فلوبير ممثلا لعصره ، فقد كانت الحاسة الناقدة مسيطرة عليه وعلى عصره ، ولكن تمكنها منه وسيطرتها عليه كانت تفوق سيطرتها على سائر الكتاب المعاصرين له ، وكان هو نفسه يقول عن بلزاك لصديقته لويز كوليه « أى رجل كان يمكن أن يكون بلزاك لو أنه عرف كيف يكتب ! » .

وكان فلوبير يحتمل هذه الآلام المبرحة فى التأليف ويتعرض لأزمات اليأس ونوبات الضيق والكرب لا رغبة فى الشهرة ، ولا استجابة لحرصه على جمع المال ، ولا بغية التقرب لامرأة يود استمالتها ، ونيل عطفها واعجابها ، وإنما بدافع إخلاصه للفن الذى كان يعد مبشراً برسالته وكاهناً فى محرابه : ومن أقواله فى إحدى رسائله « إنى لا أعبأ فتيلا بالدنيا ، ولا بالمستقبل ولا بما سيقوله الناس ، ولا أطمع فى منزلة وطيدة ، ولا أتطلع حتى إلى الشهرة الأدبية التى كنت فى بواكر أيامى أقضى الكثير من الليالى حالماً بها » ، ولم يكن فلوبير بطبيعته صالحاً للاستمتاع بأى لون من ألوان السعادة الدنيوية التى عرفها الكثيرون ممن هم أقل منه شأناً ودونه منزلة ، فحينما نال كتابه « مدام بوفارى » شهرة موقوتة تسرب إليه الشك فى قيمته ، وكتب إلى صديقه دى كامب « أود لو استطعت أن أجد سبيلا لجمع قدر من المال حتى أشترى جميع النسخ الموجودة من « مدام بوفارى » وألقى بها جميعاً فى النار ولا أسمع شيئاً مرة ثانية عن هذا الكتاب » ، وكانت سبب الحالات النفسية الغالبة عليه والتى كانت تبعثه على إعلان مثل هـذه التصريحات النزعة الكلبية العريقة فى نفسه ، وقد كتب فى إحدى رسائله يقول « برغم أنى والحمد لله لم ألق قط عناء على يد أحد الناس ، وبرغم أن حياتى لم تكن تنقصها الوسائل التى أستطيع بها أن أنتحى زاوية وأنسى الناس جميعاً فانى مع ذلك أمقت شركائى فى الحياة ولا أشعر أبداً بأنى زميل لهم » وقد أثارت الحياة نقمته فظل يعانى الضيق والملل ، وقال فى ذلك لصديقه دى كامب « إن مخدر الملل الذى غمست فيه نفسى فى إبان الشباب سيكون له تأثيره حتى أواخر أيام حياتى ، إنى أمقت الحياة ، نعم إنى أمقت الحياة وأجتوى كل شىء يذكرنى بأن الحياة يجب أن تحتمل ، فالأكل وارتداء الملابس والوقوف على قدمى ذلك كله يكلفنى ما لا أطيق من العناء ، ولقد رسفت فى قيودهذا الشقاء بكل مكان حللت به » وربما كان سبب ذلك فرط حساسيته ، وهذا الضيق بالحياة يبدو واضحاًخلال روايته مدام بوفارى ، ولذا كان يقول عن هذه الشخصية العجيبة التى أوجدها « مدام بوفارى هى أنا » .

وكان فلوبير فى كتابته يتعمد إخفاء عواطفه ، وقمع ميوله ، وأهوائه ، وكبت حيويته ، لأنه كان يعتقد أن التجرد التام من قيود الميول والأهواء لازم للفن الصادق والكتابة الجيدة ، ويؤكد لنا فرنسيس ستيجملر — أحد من تصدوا لدراسة حياة فلوبير — أنه لم يكن من هؤلاء الذين تتملكهم العواطف العنيفة فى الحب وتعصف بنفوسهم عواصفه ، ولم يجرب فى حياته الميل إلى البقاء مع حبيبته أبد الدهر أو الشعور بأن غيابها عنه سيقفل فى وجهه أبواب الجنة ، ولم يكن الحب فى رأيه أكثر من متعة جسدية ، ويستدل على ذلك بما كتبه إلى صديقته لويز كوليه قائلا « إذا كنت تحسبين أن الحب هو الطبق الرئيسى فى الوجود فإن

جوابى عن ذلك هو النفى ، أما إذا كنت ترين أنه طبق إضاف فإنى أوافقك ، وإذا كنت تعنين بالحب أن يظل الإنسان مشغولا بمن يحب وأن لا يعيش إلا معها وأن لا يرى فى الأشياء التى ترى فى الدنيا غيرها وأن يملأ التفكير فيها نفسه وأن يشعر بأن حياته مرتبطة بحياتها وأنها قد أصبحت شعبة من نفسه فإنى أرد على ذلك بالنفى ، وإنى لم أشعر قط بضرورة معاشرة أى إنسان ، نعم قد شعرت بالرغبة وأما بالحاجة فلا » .

وقد ولد فلوبير بمدينة روين فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٢١ وهو ابن أشيل كليوڤاس فلوبير الذى كان كبير جراحى مستشفى المدينة ، وكان هو نفسه نجل طبيب بيطرى ، وكانت والدته آن جستين كارولين فلبريو ، وكانت تنتسب من ناحية والدتها إلى أقدم الأسر فى نورمانديا السفلى ، وكانت شديدة الاعتزاز بنسبها ، وقد أورثت ابنها الاستعداد لاضطراب الأعصاب والميل إلى احتقار الناس العاديين ، ومهما يكن من الأمر فانها كانت شديدة التوفر على العناية بنجلها ، وكان هذا من أسباب إعراضه عن الزواج ، فقد قضى حياته عزباً .

وكان فلوبير طويل القامة ، قوى البنية ، وقد مال فى شيخوخته إلى البدانة ، وكان كبير الأنف ، عالى الجبين بارز العينين ، كث الشارب ، وقد ولد فى مستشفى هوتيل ديبه ونشأ بها ، وظل هناك حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وأرسل إلى باريس لدراسة القانون ، ودرس فى الليسيه طالباً خارجياً ، ولم يبذل فى دراسته جهداً ، وظهر تعلقه بالأدب مبكراً ، ففى الحادية عشرة من عمره اشترك مع بعض رفقائه فى تمثيل رواية من تأليفه .

ولم يكن فلوبير فى طفولته أو شبابه كثير الأصدقاء وقد وصفته سيدة عرفته فى مطلع شبابه فقالت « كان جوستاف فلوبير فى ذلك الوقت يبدو كأنه يونانى فى مقتبل السن ، وكان طويل القامة ، نحيف الجسم ، رشيق الحركة كالرياضى المصارع ، غير شاعر بمواهبه العقلية والجسدية ، وغير حافل بتقاليد المجتمع . . . وحينما قلت له أن النفوذ والشهرة من الأشياء المرغوبة والتى لها قيمتها أصغى لحديثى فى غير اكتراث وقد علا وجهه الابتسام ، وكان يعجب بما هو جميل فى الطبيعة والفن ، وقال إنه سيعيش من أجل ذلك دون أن يفكر فى مصلحته الشخصية ، ولم يحلم قط بالمجد أو المنفعة ، وكان الذى يفيض على نفسه السرور أن يجد شيئاً يبدو له أنه جدير بالاعجاب ، والمتعة التى يجدها الإنسان فى الاجتماع به والقرب منه باعثها تحمسه لكل ما هو نبيل ، وتفوقه العقلى يبدو فى فرديته القوية ، والذى ينقص طبيعته هو الاهتمام بالأشياء الخارجية النافعة ، فاذا سمع قول الناس أن الدين والسياسة أو الشؤون العملية شائقة مثل الأدب والفن فانه يفتح عينيه من التعجب والرثاء لحالة القائلين بذلك » .

وهكذا كانت حالة فلوبير حينما قدم باريس سنة ١٨٤٠ لدراسة القانون ، وقد مل الحياة بها وكره ما يسمى « حياة الطلبة » ولم يكن قد وضع خطة لحياته الأدبية بعد ، وكان يقضى أكثر أيامه وحيداً فى شقته الصغيرة وما يكاد يفتح كتاباً من كتب القانون حتى يطوى صفحاته ويستلقى ساعات فى فراشه مدخناً وحالماً ، لقد صار ممن يؤثرون الاسترسال مع الأفكار والغوص فى التأملات .

وكان يتردد من الحين إلى الحين على مرسم براديبه ، وهناك لقى فى أحد الأيام ڤيكتور هيجو وعرف السيدة لويز كوليه وكانت إحدى النساء المتأدبات المعروفات فى ذلك العهد ، وفى سبتمبر وأكتوبر سنة ١٨٤٠ قام برحلة فى جبال البرانس وجزيرة كورسيكا ، وكان لهذا التغيير فى أسلوب حياته أثره الحسن فى حالته النفسية ، ووصفه لجزيرة كورسيكا فى الرسائل التى بعث بها إلى أصدقائه ينم على قدرته الفائقة على الوصف التى تجلت بعد ذلك فى مؤلفاته .

وفى سنة ١٨٤٥ مات والده ، وتوفيت شقيقته كارولين فى السنة التالية ، وأصبحت والدته تعيش فى عزلة ، فصمم على مغادرة باريس التى كان لا يستريح إلى الإقامة بها وترك دراسة القانون التى كان يكرهها وآثر أن يعيش فى كرواسيه القريبة من روين بمنزل يستطيع أن يرى منه نهر السين والقوارب مصعدات فيه ومنحدرات ، وفى الضفة الثانية التلال المكسوة بالخضرة .

وقضى فى ذلك المكان أربعة وثلاثين عاماً حتى أدركه الموت ، وعاش عيشة دراسةوعكوف على العمل لم يتخللها سوى رحلة إلى بريتانى مع صديقه ماكسيم دى كامب سنة ١٨٤٦ ورحلة معه كذلك إلى الشرق سنة ١٨٤٩ وزيارات لباريس فى فترات غير منتظمة .

ولم يقبل على الأدب إقبالا جدياً إلا فى سنة ١٨٤٦ وبدأ يكثر من القراءة والاطلاع ويكتب مذكراته ويسجل تعليقاته على ما يقرأ فى رسائله إلى أصدقائه ، ويضع خططاً لحياته المقبلة ، وشرع فى كتابة أصول روايته « إغراء القديس أنطونيوس » ، وفى هذه السنة نفسها بدأت علاقته المعروفة بالسيدة لويز كوليه ، وظلت حتى سنة ١٨٥٤ وكانت هى العلاقة العاطفية الوحيدة فى حياة فلوبير .

وفى سنة ١٨٤٩ قام بالرحلة إلى الشرق السابق الإشارة إليها مع صديقه ماكسيم دى كامب وزار مالطة ومصر (وقد أصعد فى النيل إلى قنا) وسوريا وفلسطين والقسطنطينية وأثينا وجزءاً من بلاد اليونان ، وفتن بما شاهد من مناظر ، وعاش باقى أيام حياته يحلم بالعودةإلى تلك البلاد الحافلة بالأطلال الدوارس والآثار التاريخية ، وأعجب أيما اعجاب بأهرامات الجيزة وأبى الهول ، وكتب فى ذلك يقول « بلغنا سفح التل الذى تقوم فوقه الأهرامات فى مساء الساعة الرابعة يوم الجمعة الموافق اليوم السابع من ديسمبر سنة ١٨٤٩ وأطلقت العنان للجواد الذى امتطيته وكذلك فعل ماكسيم ووقفنا عند قدمى أبى الهول . وتلقاء منظره الذى لا يمكن وصفه طافت بذهنى خواطر شتى ، وحال لون وجه صاحبى حتى صار فى بياض صفحة الورقة التى أكتب عليها ، وحينما أقبل المساء وغربت الشمس بدا أبو الهول والأهرامات الثلاثة جميعــاً وردية اللون كأنها غارقة فى الضوء ، ونظر إلينا هذا الوحش الجبار العجوز نظرة جامدة مخيفة ، ولن أنسى ما عشت الانطباع الغريب الذى خلفه ذلك المنظر فى نفسى ، وقضينا ثلاث ليال عند أقدام هذه الأهرامات القديمة ، والقول الصريح أنها رائعة ، وكلما أطلت إليها النظر بدت لك أكبر وأضخم ، وأحجارها التى تبدو على مسافة عشرين خطوة مثل أحجار رصف الطرق تقرب فى الحقيقة من حجم الإنسان ، وحينما تتسلقها تزداد علواً مثلما يتسلق الإنسان جبلا » .

وبعد سنة ١٨٥٠ أصبحت حياة فلوبير مقصورة على حوادث حياته الأدبية ، وصار تاريخه تاريخ كتبه التى شغل بتأليفها ، وكان يقضى معظم العام فى كرواسيه مقبلا على التأليف ، ولا يسمح لنفسه بالراحة إلا مدة أيام قلائل ، وكان لا يذهب إلى روين إلا اذا كان هناك بعض أعمال تقتضى ذلك ، وحينما كان يزور باريس كان يجتمع بسانت بيف وتيوفيل جوتييه وغيرهما من الكتاب والأدباء ، وفى أواخر حياته كان يلقى الفونس دوديه وإميل زولا والأخوين إدمون جونكور وجيل جونكور وتدور بينهم أحاديث عن الأدب والفن ، وفى بعض هذه الزيارات كان يجتمع بريتان وتين وجورج ساند .

وشغل فى المدة من سنة ١٨٥٠ إلى ١٨٥٦ بكتابة روايته المشهورة « مدام بوفارى » وقد ظهرت فى مجلة « ريفى دى بارى » من أول أكتوبر سنة ١٨٥٦ إلى ١٥ ديسمبر من السنة نفسها ، وفى يناير وفبراير سنة

١٨٥٧ شغل بالقضية التى اتهمته فيها الدولة بالخروج على الآداب فى رواية مدام بوفارى ، وقد برأته المحكمة ولكن بعد أن أبدى القاضى ملاحظات شديدة حول قيمة الكتاب من الناحية الأخلاقية .

وفيما بين سنة ١٨٥٧ وسنة ١٨٦١ شغل بتأليف رواية سلامبو وإتمام رواية إغراء القديس أنطونيوس ، وظهرت سلامبو سنة ١٨٦٢ بعد أن بذل فى كتابتها جهوداً أدبية ضخمة وقام ببحوث تاريخية وأركيولوجية

وفيما بين سنة ١٨٦٢ إلى سنة ١٨٦٩ عاد إلى دراسة عادات المجتمع الحديث ووصف أحواله وكانت نتيجة هذه الدراسة رواية التربية العاطفية التى ظهرت فى سنة ١٨٦٩ .

وبعد سنة ١٨٧٠ تكاثرت عليه الهموم والأحزان ، وكان بطبيعته ميالا إلى الحزن والتشاؤم ، وقد قوى هذا الميل فى نفسه تقدم سنه والأحداث السياسية وما لقيته روايتاه « سلمبو » و « التربية العاطفية » من قلة الرواج وسوء التقدير ، يضاف إلى ذلك تعرضه لمرض عصبى أصابه كانت نوبات هجماته تشكل خطراً مستمراً على حياته ، وكان قد فقد منذ زمن أخته وصديقه الحميم لى بوتيفان كما فقد صداقة ماكسيم دى كامب ، وفقد والدته سنة ١٨٧٢ وتقدم فى الشيخوخة ، وحفت به العزلة الموحشة ، ولم تسعده فى هذه الفترة سوى رعاية قريبته مدام كومنفيل وصداقة جورج ساند التى ساندته وكتبت إليه رسائل مشجعة تنطوى على كثير من التقدير والاعجاب والتشجيع ، كما راقه تفتح ملكات تلميذه جى دى موباسان ، وقد علمه فلوبير العناية الشديدة بالأسلوب والتحرج من المبادرة إلى سرعة الإخراج ، ووجد فيه بحق خير متمم لرسالته ومقدر فى الكتابة الفنية لطريقته وخطته .

وفى سنة ١٨٧٧ أخرج مؤلفاً به ثلاث قصص لم يلق النجاح المنتظر ، وأخذ يستعد بعد ذلك لكتابة رواية « بوفار وبيكيشيه » وكان يؤثرها على سائر مؤلفاته ، وقد بذل فى كتابتها جهداً جباراً وبرغم ذلك مات قبل أن يتمها ، وكان ينوى أن نخرجها فى مجلدين ، ولكن المواد التى تركها لم تكن تكفى إلا مجلداً واحداً ، وقد مات فى أعقاب نوبة سكتة قلبية فى صباح اليوم الثامن من شهر مايو سنة ١٨٨٠ وهو فى الثامنة بعد الخمسين من عمره ، وكانت جنازته فى اليوم الحادى عشر من مايو ، ولم يكن عضواً فى الأكاديمية الفرنسية ، ولم تلق خطب على قبره سوى كلمة وداع من لابير أحد أصدقاء أسرته وصاحب مجلة كانت تصدر فى روين .

وقد كانت تغلب على فلوبير خليقتان ، وهما الحياء والكبرياء ، والحياء بطبيعته يغرى بالكبرياء ، كما أن الكبرياء تزيد الحياء قوة وسيطرة على النفس ، وكان فلوبير حيياً ومتكبراً إلى حد كبير ، فكان لا يطيق المعارضة فى المناقشة ، وكان أصدقاؤه يعرفون ذلك ويتحاشون مخالفته خشية ثورة الغضب التى تتملكه وتهدد حياته حينما يعارضه أحد فى آرائه ومذاهبه ، وكان شديد الاحتقار لأدب القرن التاسع عشر ، وكان يرى أن كل ما لا يعنيه ليس له قيمة ، وهذا المزيج من الحياء والكبرياء كان يجعله حريصاً على أن يتحدث عن نفسه ، ولكنه مع ذلك لم يكن يشعر بالارتياح فى ذلك ويسره أن يسمع الحديث عن نفسه ولو أنه يسبب له قلقاً وازعاجاً ، وقد أفسدت سرعة غضبه ما بينه وبين صديقه ماكسيم دى كامب ، وبطبيعةالحال كان يضيق بالنقد ، فحينما كتب سانت بيف عن مدام بوفارى مقدراً ومطرياً كتب فلوبير يقول « إن مقال سانت بيف صالح كل الصلاحية للبورجوازية ، وقد بلغنى أنه أحدث تأثير عظيما فى روين » .

وهذه الكبرياء المقترنة بالحياء وفرط الحساسية جعلت فلوبير يعيش فى عزلة دائم التذمر ، وكان يحبس

نفسه فى صومعتــه بكرواسيه مضمراً الاحتقار للبشر منطوياً على همومه فى صمت وإباء ، ولا يسمح إلا لعدد قليل من الأصدقاء بالاقتراب منه ، ولم يسمح لأية امرأة أن تقتحم عليه عزلته لتؤنس وحشته برغم التوسل إليه للسماح بذلك ، وقد عاش هكذا طوال حياته ، وقد أدرك منذ مستهل شبابه أنه سيظل يعيش على هذا النمط ، ففى الثامنة عشرة من عمره كتب يقول « لا تحسبنى متردداً فى اختيار وظيفة ، فانى فى الحقيقة لن أختار أية واحدة ، لأننى شديد الاحتقار للناس إلى حد أننى لا أريد أن أسدى لهم خيراً أو أن أسبب لهم ضرراً » ، وفى الخامسة والعشرين من عمره كتب يقول « الجو أكدر ، والنهر أصفر اللون ، والحشائش خضراء ، ولا تكاد تظهر أوراق الشجر ، إنها آخذة فى الظهور ، إنه الربيع أوان السرور والحب ، ولكن قلبى ليس به ربيع . . . ومن عجيب الأمور أننى قد ولدت بمثل هذا الإيمان القليل بالسعادة ، وحينما كنت فى أولى مراحل الشباب طالعتنى صورة ما سألقى فى الحياة من متاعب وهموم ، لقد كانت تشبه رائحة المطعم الكريهة التى تأتى من خلال النافذة ، فقبل أن تلمس الطعــام بيدك تدرك أنه يسبب لك المرض » وفى الثلاثين من عمره كتب يقول « من يوم ليوم أشعر بأن نفورى من زملائى البشر يزداد وهذا مما يسرنى » ويقول كذلك « أحب أن أرى الإنسانية وكل ما يحترمه الإنسان وقد هان شأنه واستخف به وسخر منه وكره وانتقص ، وهذا سبب ما عندى من الاحترام القليل للإنسان » .

ولقد كانت حساسيته تجعله سريع الغضب ، وسرعة الغضب كانت فى دورها تجعل الحزن غالباً على طباعه ، وحزنه كان يحيله كارهاً للبشر ، وكراهته للبشر كانت تثير حقده عليهم ، ولذلك كان يمقت السخف والغباء ويحبهما فى الوقت نفسه ، لأنه يجد فيهما مجالا لاشباع هوايته فى الزراية بالناس واستصغار شأنهم ، وهكذا كان فلوبير الكاتب الروائى الفنان ينظر إلى الإنسانية نظرة خوف واشمئزاز وسخرية واستخفاف ، وقد أمضى حياته وهو يقول لنفسه ويعيد القول ويكرره إن الإنسان صغير والفن عظيم ، فهو يحتقر الإنسان ولكنه فى الوقت نفسه يخدم الفن فى حماسة وإخلاص وتفان .

وكان فلوبير رومانسياً وواقعياً فى الوقت نفسه ، وقد بدأ ظهوره فى عالم الأدب فى منتصف القرن التاسع عشر ، فاجتمعت فى نفسه مؤثرات الأربعين سنة السابقة والأربعين سنة اللاحقة ، وهو منذ طفولته كان يؤثر الأحاسيس العارمة ، وقد ولد ونشأ فى مستشفى ، وكان يتسلق فى طفولته مع صغار الأطفال الحيطان ليروا الجثث فى قاعة العمليات ، وكان يحلم كثيراً بالعودة إلى الشرق ويحزنه أنه لا يستطيع أن يعيش فى ربوعه ، كتب إلى صديق له يقول « أيها الرفيق القديم العزيز متى تعود إلى الاستلقاء فوق رمال الإسكندرية أو إلى الرقاد فى ظلال أشجار الدلب على شاطئ الدردنيل ؟ وكان يميل إلى الحزن ويستطيبه ويجد فيه متعة تبعثه على تحليله تحليلا وافياً ليزداد به تشبعاً وله تقديراً . ومن أقواله « لم أر قط طفلا دون أن أذكر أنه سيصبر رجلا عجوزاً وشيخاً هماً ، ولا رأيت مهداً إلا ذكرت القبر ، وكلما نظرت إلى امرأة بدت لخاطرى صورة هيكلها العظمى ، ولهذا تحزننى المناظر المرحة المفرحة والمناظر المحزنة لا تؤثر فى نفسى كثيراً » وهذا الميل إلى تذوق الحزن واستطلاع الخفايا الغامضة والنزوع إلى الشرق وأضوائه الساحرة هى العناصر التى تتكون منها النزعة الرومانسية ، ولكنها ليست الأساس الذى تقوم عليه .

وأساس الرومانسية هو النفور من الواقع والرغبة الملحة فى الهرب منه ، ولذا تضيق الرومانسية بدقة الملاحظة ، لأن الملاحظة تستدعى الخضوع للواقع ،

والاستعانة بالعقل فى دراسته ، وجعله نقطة الابتداء ، ومحور التركيز والاهتمام ، وهى تحرر نفسها من الواقع عن طريق الخيال والتعويل على الحساسية الفردية ، وبرغم العناصر الرومانسية التى كانت فى نفس فلوبير فانه كان يميل إلى مواجهة الواقع وتأمله ودرسه ، ففى السابعة عشرة من عمره كان يدون ملحوظاته عن الناس العاديين الذين يلقاهم وعن مدرسيه وأترابه من الطلبة . وقد ولد قوى الملاحظة ، نافذ النظرات ، قادراً على وصف الواقع ، وكان يعجب بكبار الشعراء الذين مثلوا النزعتين ، النزعة الواقعية والنزعة الرومانسية مثل هوميروس واسخيلوس وشيكسبير وبيرون وفيكتور هيجو وشاتوبريان ورابليه وجيتى وفولتير ولابرير ولى ساج ، أى أنه كان من ناحية يعجب بالذين أوتوا الخيال العظيم المحلق والذين وهبوا الملاحظة الدقيقة الحاسمة ، وكان يحب أن يرى الأشياء بدقة ووضوح بحيث لا تخفى عليه فيها خافية ، وكان يميل فى الوقت نفسه إلى أن يتخيل المشاهد الفخمة ، والمناظر الرائعة الضخمة ، أى أن عقله كان موزعاً بين حب استطلاع الواقع والحاجة فى الوقت نفسه إلى انطلاق الخيال وخصوبته وقد كانت مؤلفات فلوبير نتاج اجتماع هاتين النزعتين فى نفسه ، فبعد إخراج مدام بوفارى الواقعية النزعة أتم رواية سلمبو ، وهى رومانسية النزعة ، وبعد رواية سلمبو كتب رواية « التربية العاطفية » وبعد الانتهاء منها شرع فى تأليف « إغواء القديس أنطونيوس » وبعدها كتب رواية « بوفار وبيكنشيه » ، ويمكن أن نستخلص من ذلك أنه كان فى توالى مؤلفاته يرضى النزعتين الكامنتين فى نفسه ، وحينما كان يؤلف ما يشبع خياله كان يعود بعد ذلك إلى تأليف ما يقنع نزعته الواقعية .

وكانت هناك فكرة غالبة على تفكير فلوبير ، وهى أن الأدب يجب أن يكون « غير شخصى » أى أنه يجب أن لا يظهر المؤلف فى مؤلفاته ، ويجب أن لا يقحم مشاعره وأفكاره ومعتقداته ، وأن لا يجعل كتاباته تنم على أفكاره وآرائه وحالاته النفسية ، وقد أكد هذه الفكرة مئات المرات فى الرسائل التى كان يبعث بها إلى جورج ساند ، قال عن روايته مدام بوفارى « موضوع الرواية وشخصياتها وتأثيراتها كل ذلك من خارج نفسى . وأعتقد أن هذا ما يجب أن يكون ، وما تكتبه لا تكتبه لنفسك وإنما نكتبه للآخرين ، والفن لا شأن له بالفنان ، فاذا كان لا يحب اللون الأحمر أو اللون الأخضر أو اللون الأصفر فان هذا مما يضر به ، والألوان جميلة ، ولا بد من رسمها » ويقول فى رسالة أخرى « ليس فى استطاعتنا أن نعرف هل كان شيكسبير حزيناً أو مسروراً ؟ وعلى الفنان أن يسلك بحيث يجعل الأجيال التالية تظن أنه لم يعش قط ، وكلما قلت قدرتى على تكوين فكرة عنه بدا لى أنه أعظم شأناً ، ولا أستطيع أن أتخيل شيئاً عن شخصية هوميروس أورابليه ، وحينما أفكر فى ميشيل أنجيلو لا أرى سوى ظهر رجل مسن ضخم الجسم يعمل فى نحت تماثيله فى الليل على ضوء المشعل » .

وهذه الفكرة تؤكد الجانب الواقعى فى فلوبير ، لأن الفن الواقعى قوامه الخضوع للموضوع ومحاولة النظر إليه فى وضوح ودقة ، والمشاعر التى تقوم بنفس الإنسان فى مواجهة الأشياء قد تجعله لا يراها على حقيقتها وإنما يراها كما يود أن يراها ، فالتجرد وعدم التأثر من مستلزمات الواقعية ، ونحن بطبيعة الحال لا بد أن نشعر ، ولكن علينا أن لا نطلق العنان لمشاعرنا حينما نصف مشاعر غيرنا ، لأن التدخل من جانب مشاعرنا حينما نصف مشاعر غيرنا يغير الصورة التى نحاول تصويرها ، والفنان الواقعى حقاً لا تسيطر عليه نزعاته الشخصية ، وفنه نفسه يرغمه على أن يكبح جماح شخصيته .

رواية مدام بوفارى

يرى بعض الناس أن الواقعية هى الأمانة فى الفن ، وقد كان فلوبير يفهم الواقعية على هذا الأساس ، ولذلك كان يلتزم أقصى حدود الأمانة فى رواياته الواقعية ، ولقد كانت النزعة الرومانسية متأصلة فى نفسه ، ولكنه شعر بأن الرومانسية يصحبها لون من ألوان الدجل والشعوذة والخداع والمبالغة والتضليل يموه به الكاتب على نفسه ويخدع قراءه ، والخيال قد يغتنم فرصة انطلاقه بلا كابح ليمعن فى تزييف الواقع وخلق الأوهام ، وفلوبير فنان له ضمير يحرص على تحرى الحقائق ، ويعنى ببذل المجهود فى التعرف على الطبائع وتصوير الواقع ، وكان لذلك يقدر صعوبة الفن الواقعى ، فإن على الفن الواقعى أن يتناول النـــاس العاديين ، وهم ليست لهم مميزات بارزة تميز بعضهم من بعض ، وبرغم ذلك فإن على الكاتب الواقعى أن يكون دقيقاً فى وصفه ، أميناً فى تصويره ، ليظهر الفروق الدقيقة بين الناس العاديين ، وعليه كذلك أن يكون شائقاً فى عرضه بارعاً فى تصويره حتى لا تملنا واقعيته ، ويحملنا على الاهتمام بأشخاصه العاديين .

وتعد رواية مدام بوفارى فى طليعة الروايات التى استوفت شرائط الواقعية ، وقد ظهرت فى وقت كان مناسباً لظهورها ، فقد كانت موجة الأدب الرومانسى قد أخذت فى الانحسار ، ومل قراء الأدب المبالغات الرومانسية ، وفى عالم الأدب كما فى عالم الفكر بوجه عام كلما سادت نزعة من النزعات تستنفد جهدها وتمهد السبيل لظهور نزعة مناقضة لها ، وبعد التحليق فى الخيال نميل إلى أن نرسو على شاطئ الواقع ، ولما كان الواقع نفسه لا يخلو من رتابة مملة لذلك سرعان ما تمله النفس وترتد إلى الخيال حتى تضيق ذرعاً بنوع آخر من الرتابة .

وفى سنة ١٨٥٠ كانت النزعة الرومانسية قد أجهدت نفسها ، وكان بلزاك وستندال ومريميه قد مهدوا السبيل لتذوق الفن الواقعى دون أن يشبعوا الميل إلى هذا التذوق ، إشباعاً وافياً ، وبرغم أن هؤلاء الكتاب الثلاثة قد ساعدوا على خلق تذوق الواقعية فإنهم لم يمثلوا الأدب الواقعى تمثيلا كاملا ، وقد قام بهذا التمثيل فلوبير وبوجه خاص فى رواية مدام بوفارى .

ويعرف قراء بلزاك أنه يبدأ رواياته بالاسهاب فى وصف البيئة ومختلف الأمكنة التى تقع فيها حوادث الرواية ، ويتقلب فيها أبطالها ، ويعنى بوصف دقائق المسكن الذى يقيمون به وملابسهم وسمات وجوههم وطريقتهم فى التعبير عن أنفسهم ومختلف مظاهر كيانهم الطبيعى ، ويروى لنا بعد ذلك أخبار تحركاتهم وأفعالهم ، أما فلوبير فيمزج من أول الرواية وصف البيئة والمظاهر الطبيعية بوصف الأخلاق والأمزجة والأعمال ، فحينما يظهر أبطاله ويتحدثون تمثل لنا بيئتهم فى خلال حديثه عن الصفات المميزة لهم ، ففى أول لقاء بين بوفارى وإيما يصف له المزرعة ورواالت العجوز وإيما وبوفارى فى صفحة واحدة ، ويسير على هذا النمط فى مختلف فصول الكتاب .

وفلوبير يعيش مع أشخاص رواياته ، فيرى ما يرون ، ويشعر بما يشعرون ، وهذه هى الواقعية الحقة ، ورواية مدام بوفارى حافلة بالشخصيات الحية ، وكلهم ناس عاديون ، ولكن لكل واحد منهم مع ذلك خصائصه ومميزاته ، فهم ليسوا طرزاً معروفة ولا مختصرات موجزة للإنسانية ، وإنما هم شخصيات نابضة بالحياة بادية السمات والملامح .

والحياة الرتيبة المملة الخالية مما يشوق ويعجب تؤثر تأثيراً سيئاً فى أصحاب الخيال الواسع والطموح البعيد ، وقد يصل هذا التأثير إلى حد وقوع المأساة ، وهذا هو المحور الذى دارت حوله رواية مدام بوفارى ،

وفى تصوير فلوبير لمدام بوڤارى قدم لنا صورة من أبرع الصور النسائية فى الآداب العالمية ، فقد استقصى حوادث حياتها وأرانا تطور مشاعرها وتتابع الحالا ت النفسية التى استولت عليها واستبدت بها ، ولقد كان والدها روالت رجلا عطوفاً ولكنه مجرد من العاطفة الدينية والحاسة الأخلاقية ، حسياً إلى حد ما قليل الجدية وبه شيء من الزهو والخيلاء ، وكانت لا تكاد تعرف والدتها ، وقد نشأت نشأة حسبما اتفق فى ضيعة والدها ، وظلت بها حتى بلغت الثالثة عشرة من عمرها وتعلمت القراءة والكتابة دون أن تقوم بعمل أى شيء فى الضيعة ، وقرأت رواية بول وڤرجينيا فى طفولتها ، وهى رواية لها تأثيرها فى إيقاظ الأحلام الرومانسية ، وبخاصة فى نفس حساسة نزاعة إلى الاسترسال مع تلك الأحلام مثل الطفلة إما التى صارت فيما بعد مدام بوڤارى ومن سمات النزعة الرومانسية تطلع الإنسان إلى ما وراء آفاق حياته الراهنة ، ومن شأن هذا التطلع أن يجعل صاحبه غير قادر على تبين ما فى حاضره من مزايا ونواح مقبولة ، والرغبة فى التغير الدائم من أعراض النزعة الرومانسية ، وقد ظهرت هذه الأعراض على إما منذ بلوغها الثانية عشرة من عمرها ، وألحقها والدها فى الثالثة عشرة بدير الراهبات ، وقرأت روايات السير ولتر سكوت التاريخية ، فامتلأ خيالها بصور العصور الوسطى والفرسان والقلاع والجسور التى تفتح وتغلق ، وقرأت أشعار لامارتين العاطفية ، وأخرجت من الدير وعادت إلى ضيعة أبيها ، ولم تكن والدتها هناك لتحمل عنها أعباء الضيعة ، وكان لهذا الانتقال من الحياة الدينية الحالمة التأملية إلى حياة الضيعة الرتيبة الخشنة اليومية وقعه السيئ فى نفسها ، ولذلك كانت تنتظر من ينقذها من الضيعة والإشراف على شؤونها ، ويلوح فى أفق حياتها وهى تعانى التبرم بحياتها شارل بوڤارى ،وكانت مستعدة للترحيب بأى رجل يتقدم لها ويطلب يدها ، وكان يبدو لها أن كل رجل قادر على إشباع أحلامهاالرومانسية واستنقاذها من الرتابة المملة التى تعيش فيها وتعانى أوصابها .

وقد استطاع فلوبير فى وصفه لشخصية شارل بوڤارى أن يتغلب على صعوبات جمة ، فشارل بوڤارى أقرب إلى أن يكون طرازاً من الناس منه إلى أن يكون له شخصية ، أو هو شخصية بغير شخصية إن صح هذا التعبير ، وهو مخلوق سلبى تشكله البيئة كما شاءت مثل الماء الذى يأخذ شكل الإناء الذى يحتويه ، وهو خلو من الذكاء والإرادة والخيال ، لا يفكر ولا يحلم ولا يكاد يرى شيئاً بعينيه ، فهو صدى لأفكار غيره من الناس ، ورغباته تملى عليه ، وهو المنفذ ، ومشاعره نفسها تأخذ الصورة المطلوبة لها ، وهو يحب زوجته ولكن كما تريده هى أن يحبها ، ويحب طفلته ولكن بالأسلوب الذى يفرض عليه ، وقد تزوج فى أول الأمر نزولا على إرادة والدته وعملا بإشارتها ، وهى التى اختارت له الزوجة الملائمة فى تقديرها ، وماتت زوجته الأولى ، أما فى المرة الثانية فقد تزوج باختياره المرأة التى أحبها ، وكان والدها قد أصيب بكسر فى ساقه فاستدعى الطبيب الريفى شارل بوڤارى لمعالجتها ، وكان شارل حينذاك قد فقد زوجته الأولى ، ووفق شارل فى علاج الساق المكسورة واقتضاه ذلك أن يتردد غير مرة على ضيعة رووالت ، وتكرر لقاؤه للآنسة إما ، ولما أتم علاج الساق المكسورة وكان روالت قد علم بفجيعته فى زوجته الأولى دعاه فى ذات صباح وقدم له أجر العلاج وأهدى إليه ديكاً رومياً وقال له وهو يربت على كتفيه « لقد جربت هذه الفجيعة ، وكنت فى هذا الموقف نفسه ، وحينما فقدت زوجتى العزيزة كنت أذهب إلى الحقول لأخلو بنفسى وسقطت على جذع شجرة ، وبكيت ودعوت الله . . . وكنت مستطار العقل إلى حد أنى لم أر شيئاً وفكرة الذهاب إلى المقهى منفرداً ملأت نفسى نفوراً . . وكرت

الأيام يتلو بعضها بعضاً وبالتدريج تولى هذا الشعور ، لقد ذهب وغاص فى الأعماق ، أعنى بذلك أن شيئاً يبقى فى القاع كما يقول الناس ، يبقى راسخاً فى قلب الإنسان ! ولكن ما دام هذا هو حظنا جميعاً فعلينا أن لا نستسلم لليأس ، ولا نريد الموت لأن غيرنا قد مات ، وعليك أن تتجلد يا سيد بوڤارى ، وكل هذا سيزول ، فاحضر لزيارتنا ، وابنتى تفكر فيك فى بعض الأحيان ، أتعرف ذلك ؟ وهى تقول إنه يبدو أنك قد نسيتها » .

وعمل شارل بنصيحته ، فكان يتردد على الضيعة ويقص عليه الشيخ صاحب الضيعة طريف أخباره ، وتأكدت العلاقة بينه وبين إما ، وشجع ذلك شارل على التقدم لخطوبتها ، وتم الزواج ، ولكن بعد انتهاء شهر العسل أدركت إما أنها لا تحب زوجها ، ورأته على حقيقته رجلا عادياً لا نصيب له من الخيال ولا عناية له بملبسه والمحافظة على مظهره الخارجى وليست له آراء مبتكرة ، وإنما هو يردد كالببغاء الآراء الشائعة الممجوجة ولا يميل إلى ارتياد المسرح ومشاهدة أحدث الروايات التمثيلية وحياته فى مجموعها بطيئة بليدة مكونة من أشياء صغيرة وتفاهات لا قيمة لها ، ولم يسؤها منه أنه من الناس الذين يمرون بالحياة دون أن يستبطنوا أسرارها ودخائلها فإن معظم الناس من هذا القبيل وإنما ساءها بوجه خاص أنه كان لا يفهم شيئاً ولا يحسن النظر حتى من الزاوية الضيقة التى يعيش بها ، وهو لا يرى ما يتجاوز أنفه ، وهو يعيش لأنه يجد ما يمسك عليه رمقه ويقيم أوده ، وهى تعيش فى المستقبل وهو يعيش فى حاضره ، وهو مستغرق فى الواقع ، وهى مسترسلة فى الأحلام وهو كالمقيد بالمكان الذى يحتويه ، وهى هاربة بأفكارها وطموحها من مستقر وجودها ، فهو فى رأيها يمثل الحاضر الذى تضيق به وتمقته ، وإذا حدثته فهو لا يصغى لها ولا يفهم مدلول حديثها ، وكل ما تحدثه عنه مناف لطبيعته ، وقد قبلته خطيباً ورضيته زوجاً لا لأنها أحبته وإنما بدافع من رغبتها فى التغيير وميلها إلى مفارقة البيئة التى تعيش بها وتجربة لون آخر من ألوان الحياة ، وكانت نقمتها على حاضرها تزداد حدة مع مرور الأيام : فهى لا تكف عن التطلع إلى التغيير الذى تحلم به ، كانت كالملاح الذى ألقت به السفينة الغارقة على شاطئ مهجور ، فهو لا ينى يدير الطرف فى الوحشة المحدقة به مترقباً رؤية الشراع الأبيض لائحاً فى الأفق غير عارف إلى أى مكان تدفع به الرياح ، ولكنها تنتظر فى كل صباح مجئ يوم الخلاص وحينما تغرب الشمس ويقبل الليل يغمر نفسها الحزن وتعاود التطلع إلى الغد المأمول .

ودعيت مع زوجها إلى حفلة أقامها مركيز من أعيان الريف فى ضيعته ، وكان شارل قد عالجه وهدأ آلام بثرة أصيب بها ، وارتدت إما خير ما عندها من الملابس وأزينت ورقصت مع أحد الحاضرين على نغمات الكمان ، وقد زادها حضور هذا الحفل ضيقاً بحياتها فعادت غاضبة ناقمة ، وأخذت تحلم بالحياة فى باريس وغشيان المسارح والصالونات ، وتحدث نفسها بأن هذا هو الوضع الذى يلائمها ويرضى نزعاتها ، وصارت حياتها الحاضرة تبدو لها فى صورة أضأل من حقيقتها وأنزل من مستواها الحقيقى ، وقوى شعورها بأن زوجها أكثر فظاظة وأشد نكراً ، فكانت تقول لنفسها « ما أشد فقره وإجداب نفسه وما أحقره وأهون شأنه ! » .

وفى هذا الموقف العصيب والحالة النفسية المتأزمة ظهر فى أفق حياتها العاشق المنتظر فى صورة الشاب الوسيم الرشيق ليون كاتب أحد المحامين فى مدينة يونفيل القريبة من روين ، وكانت قد أغرت زوجها بالإقامة بهذه البلدة وولدت له بها طفلة ، وكان ليون مثلها يحلم بالحياة فى باريس ، ويحب الموسيقى ، وكان مما دار بينهما من الحديث فى أول لقاء قولها له « إنى لا أعرف

أجمل من غروب الشمس ، وبخاصة بجانب البحر » ، فأجابها ليون قائلا « آه ، إنى أهيم بالبحر » فأجابته قائلة « ألا نرى أن العقل يبدو أكثر حرية وانطلاقاً حينما نواجه هذا الامتداد غير المحدود ، وأن روحنا تسمو حينما نتأمله ، وأنه يوحى إلينا أفكاراً عن المثل الأعلى وعن اللانهاية ؟ » .

فأجابها ليون قائلا « هذا هو نفس ما يشعر به الإنسان فى المناطق الجبلية ، ولى ابن عم قد سافر إلى سويسرة فى السنة الأخيرة ، وقد أخبرنى أن الإنسان لا يستطيع أن يتصور شعر البحيرات وجمال منحدرات المياه وتأثير الأنهار المتجمدة الضخم ، وهناك أشجار صنوبر سامقة بصورة لا تكاد تصدق متناثرة فى سيول جبالها وبيوت صغيرة معلقة على هاويات وعلى مسافة ألف قدم فى الأعماق أودية تلوح للناظرين حينما ينجلى الضباب ، وأمثال هذه المناظر يجب أن تملأ نفوسنا بالحماسة وتوحى إلينا العبادة والنشوة الروحية ، ولذلك لا يدهشنى هذا الموسيقار الشهير الذى كان من عادته أن يذهب إلى أحد المواقع الفخمة ويعزف على البيان ليثير خياله ويزيده نشاطاً » .

فسألته إما « هل أنت موسيقار ؟ » .

فأجابها قائلا « كلا ، ولكننى شديد الولع بالموسيقى » .

« وأى نوع من أنواع الموسيقى تفضل ؟ »

فأجابها « أوه ، الموسيقى الألمانية ، إنها جد حالمة »

« أتعرف الأوبرات الإيطالية ؟ »

فأجاب ليون « لم أعرفها بعد ، ولكن فى نيتى أن أوالى الذهاب إليها فى السنة التالية ، حينما أعتزم المعيشة فى باريس وأفرغ من دراستى القانونية » .

وحينما قال شارل بوفارى فى عرض الحديث « أن زوجتى تؤثر أن تظل دائماً فى حجرتها لتقرأ » أجابه ليون قائلا « إن شأنها فى ذلك كشأنى ، ولا شىء بالتأكيد أجمل من الجلوس إلى جانب الموقد فى المساء مع كتاب جيد بينما الريح تعصف بزجاج النافذة والمصباح يرسل الضوء الباهر فى الحجرة » .

فقالت إما وقد حدقت إليه النظر بعينيها الواسعتين السوداوين « هذا ما أراه تماماً » فاسترسل ليون قائلا « إن الإنسان ينسى كل شىء والساعات تمضى بعضها فى أثر بعض وينتقل الإنسان فى البلاد التى يحسب أنه يراها ، وأفكار الإنسان التى تحملها تيار الرواية تجد متعة فى كل تفصيل وإيضاح أو تتابع سرد أخبار المغامرات وتصبح هذه الأفكار أجزاء من الشخصيات المختلفة ، ويتوهم الإنسان أنه هو نفسه الذى يتنفس فى ملابسها » .

فأجابت إما « هذا حقيقى ، هذا جد حقيقى » .

فمضى ليون يقول « ألم يحدث لك أن صادفت فكرة غامضة ، فكرة غير واضحة تأتى من بعيد وبرغم ذلك تعبر عن أعماق مشاعرك الخفية ؟ » .

فأجابت إما « لقد لحظت ذلك فى أغلب الأوقات ، وهذا سبب ولوعى بالشعر بوجه خاص . فإنى أرى أن الشعر أرق حاشية من النثر وأنه يفجر الدموع من عيوننا بسهولة أكثر » .

فقال ليون « ولكن برغم ذلك سرعان ما تسأمينه ، وأنا على نقيض ذلك أحب قراءة القصص التى تسترسل بدون اعتراض وتكاد تجعلك خائفة وأكره الأبطال السوقيين والعواطف المبتذلة » .

وتكررت مناسبات التقائهما وشعر كل منهما بتقارب ميولها ولكنهما لم يتبادلا مع ذلك ألفاظ الحب وعباراته ، وشعر ليون بأنها تحاول بكتمانها عواطفها إرغامه على إعلان حبه لها .

وكانت تزداد فى خلال ذلك كراهتها لزوجها شارل ، وكان اعتقاده بأنه لا يدخر وسعاً فى العمل على اسعادها يبدو لها كأنه إهانة تدل على فرط الغباء ، وأنه

نوع من إنكار الجميل ، وغلب على تفكيرها الاعتقاد بأنه هو العقبة القائمة فى طريق سعادتها وأنه سبب الشقاء الذى تمانيه وألقت عليه تبعة متاعبها جميعها ، وكانت تود لو أن شارل أوسعها ضرباً حتى تجد مبرراً لكرهها له وضيقها به والعمل على الانتقام منه ، وكانت فى بعض الأحيان تعجب من خواطرها الشريرة ، وبرغم ذلك كله كان عليها أن تتكلف الابتسام ، وتزعم أنها سعيدة ، وتدعى ذلك لتحمل الغير على تصديقها .

وكرهت هذا الرياء ومالت إلى الهرب مع ليون إلى أى مكان كان ما دامت تجدد فيها حياتها وتتخلص من رتابة عيشها الممل ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه تشك فى حبه لها فماذا تصنع ؟

كانت كلما فكرت فى ذلك تنهمر من عينيها الدموع ويشتد بها الكرب ، ولم يطمئن ليون لبقاء هذه العلاقة التى لم تسفر عن حب واضح صريح فآثر الابتعاد ونأى بجانبه عنها ، فأخذت تلوم نفسها وتأسى على ابتعاده عنها فقد كان النور الذى أضاء فى ظلمات حياتها ، والأمل الوحيد الذى تعلقت به فى نوبات يأسها ، فلماذا أضاعت من يدها هذه الفرصة السعيدة ولماذا لم تحرص على اجتذابه وتيسير أسباب اقترابه ، واكتساب عطفه وحبه ؟ وطاف ببالها أن تذهب إليه معتذرة متوسلة ، وترتمى بين يديه ، ولكنها أحجمت عن ذلك ، وكبر عليها الأمر وضاعف الأسف رغباتها وأطال حيرتها وأصبحت ذكرى ليون تثير شجاها ورواقد آلامها .

وأخذت تهدأ ثورة حبها له وتنطفئ وقدة هيامها به ، وساءت حالتها النفسية واعتلت صحتها ، وفى هذه الفترة ظهر رودلف بولانجيه صاحب ضيعة لاهيشت القريبة من يونفيل ، وهو رجل أعزب له دخل سنوى لا لا يقل عن خمسة عشر ألف من الفرنكات ، وكان قد جاء إلى شارل ليجرى عملية فصد لخادمه ، وحضرت مدام بوفارى إجراء العملية ، ونظر إليها بولانجيه بعد انتهاء العملية وتبادل بعض الأحاديث مع الحاضرين ومنهم مدام بوفارى وقال لها « لقد سررت بمعرفتك » ودفع أجر إجراء العملية بغير اكتراث وانصرف .

وأعجب بولانجيه بمدام بوفارى ، واستماله جمالها ، وكان فى الرابعة بعد الثلاثين من عمره ، وفى طباعه شدة وصرامة ولكنه كان واضح التفكير ، وله خبرة بأحوال النساء وطول معاشرته لهن جعلته يجيد فهمهن ، وقد أخذ يفكر فى إما لأنها حسناء فاتنة ، وقال لنفسه « إنى أتصور أن زوجها غاية فى الغباء وهى من غير شك قد سئمت معاشرته ، وأظافره قذرة ، وهو لم يحلق لحيته منذ ثلاثة أيام ، وهى بطبيعة الحال ترى أن معيشتها فى هذه البلدة الصغيرة مملة ، وتفضل أن تعيش فى المدينة وترقص فى كل مساء ، وهذه المسكينة لا بد أن تكون نزاعة إلى الحب ، فاذا قال لها أى رجل ثلاث كلمات مهذبة فإنها ستعبده عبادة ، وإنى واثق من ذلك ، وستكون شديدة الحب قوية العطف ولكن كيف أتخلص منها بعد ذلك ؟ » وأخذ يقارن بينها وبين عشيقته التى ملها وبدأ يزهد فيها ، وقال لنفسه « إنها أوفر منها جمالا وأكثر نضارة . . . » وعقد العزم على إيجاد علاقة معها وشرع يفكر فى أقرب السبل إلى ذلك ، واستقر رأيه على اغتنام الفرص ، وأن يزور شارل فى بعض الأوقات ويدعوه لزيارته مع زوجته ، وتسنح الفرصة المنتظرة ويلقى إما ، ويقول لها فى حديثه معها :

« لقد عاكسنى الحظ فى أشياء كثيرة ، ولقد عشت دائماً وحيداً ، آه فلو كان لى هدف فى الحياة أو لو لقيت عطفاً أو قابلت أحداً . . . لو حدث ذلك لكنت استنفدت كل ما عندى من طاقة ولكنت تغلبت على كل عقبة » .

فقالت له إما « لا أظن بعد كل شىء أن حالتك يرثى لها » .

فسألها قائلا « أتظنين ذلك ؟ » .

فقالت بعد أن ترددت لحظة « بعد كل شيء أنت حر وغني » .

فقال « لا تسخري مني » فنفت ذلك عن نفسها .

وقال لها في خلال هذا الحديث « إني لم أجد مثل هذه المتعة في الاجتماع بأي امرأة قبلك ولكنك ستنسينني وسأكون كمجرد خيال مر بحياتك ، ولكن لا ، من المؤكد أنني أمثل شيئاً في أفكارك وحياتك » .

وكان هذا اللقاء والحديث في المعرض الزراعي ، وصحبها رودلف حتى أوصلها إلى باب منزلها وودعها وعاد أدراجه .

ومر على هذا اللقاء ستة أسابيع لم يرها فيها وقال لنفسه « إنها إذا كانت قد أحبتني من اليوم الأول للقائنا فإن ذلك الحب سيقوى ويزداد ، وستكون شديدة الشوق إلى لقائي » وحينما زارها تأكد من إصابة ظنه ، ووجد الفرصة سانحة لمصارحتها بحبه لها ، والواقع أن إيما لقيت رودلف في الفترة التي طغى فيها الملل على نفسها ولفها في غياهبه ، وشعرت بأنها في حاجة إلى حب يستولى عليها ، ويزود عنها السأم الذي تعانيه ، فهي كانت تحرص على الدخول إلى عالم الحب لا إلى رودلف ، وكان رودلف الذي هيأ لها الفرصة ، وأشبع في نفسها تلك الرغبة ، وقد عرفت متعة الحب ، وعاشت فترة في عالم غريب لامع كله أحلام ومتعة ونشوة ، فهي تحب الحب نفسه لا رودلف ، ورغبتها في أن تعرف الحب هي سبب الخطيئة الأولى التي وقعت فيها ثم يقع الخلاف بينها وبين رودلف وهو مأساة حياتها ، فقد اتفقت معه على أن يهربا معاً ، ولكن رودلف غير في آخر لحظة رأيه ، ونكث عهده ، ونقض وعده ، وأرسل إليها رسالة يقدم بها أعذاره ، وكان لهذه الرسالة أسوأ وقع في نفسها ، وانهارت أحلامها ، وفكرت في الانتحار ، ومرضت مرضاً شديداً ، وحينما خفت وطأة المرض صحبها زوجها شارل إلى المسرح ، وهناك لقيت ليون ، وأعاد ذلك اللقاء نيران حبهما القديم إلى الاشتعال ، وتجددت العلاقة الغرامية بينهما ، ولكن الشاب ليون لم يقو على الثبات أمام عواطفها القوية المجتاحة ، وتعرضت لصدمة زادت همومها ، وبلبلت خواطرها ، وأوقعتها في حيرة عز عليها المخرج منها ، فقد أصبحت الصكوك التي كانت تستدين بموجبها وتسرف في نفقاتهـــا دون أن يعلم شارل واجبة الدفع ، وصارت مهددة في كل لحظة بالحجز على ما في منزلها وكل ما تملك هي وزوجها ، ولجأت إلى ليون وتوسلت إليه أن يعمل على استدانة المبلغ المطلوب سداده لتتحاشى الحجز ، ولكن ليون لم يوفق في مساعيه ، ولم يبق أمامها إلا أن تستذل كرامتها وتنزل عن كبريائها وإبائها وتذهب إلى رودلف تلتمس منه أن ينقذها من ورطتها ، ويصف لنا فلوبير لقاءها لرودلف في الفصل الثامن من الجزء الثالث من الرواية فيقول « سألت نفسها ماذا تقوله له وما الذي نوت أن تبدأ به الحديث ، ومضت في طريقها وعرفت الأشجار والأدغال القائمة فوق الرابية والقصر الرابض في سفحها وشعرت بحنوها السابق عليه يعود إليها ، وخفق بالحب قلبها الموجع ، ودخلت من باب الحديقة الصغير كما كانت تفعل في الأيام السابقة ، ومشت في الساحة الكبرى التي كان يحف بها صفان من شجر الزيزفون وكانت أغصانه تتمايل ويسمع حفيفها في الرياح ، وأخذت الكلاب المقيدة بالسلاسل تنبح ، ولكن لم يظهر أحد برغم الضجة التي حدثت ، وصعدت على الدرج الواسع المنحدر الذي يؤدي إلى الممشى المرصوف وكان به حجرات عدة على طريقة الأديرة أو الفنادق ، وكانت حجرته في أقصى آخر الممشى من ناحية اليسار ، وخشيت أن لا يكون هناك ، والواقع أنها كانت تأمل أن لا يكون هناك ، وبرغم ذلك كان هو أملها الوحيد ، وفرصتها الوحيدة للخلاص ، ولذلك انتظرت لحظة لكي تستعيد جأشها وتشد من عزمها ، واستعانت

بالتفكير في أزمتها الراهنة على ابتعاث شجاعتها ، ودخلت الحجرة ، وكان جالساً إلى جانب الموقد وقدماه فوق حاجز الموقد وقد أشعل غليونه .

فقال وقد نهض مسرعاً « ها أنت ! » .

« نعم ها أنا ذا ، لقد جئت أسألك النصيحة يا رودولف » .

« إنك لم تتغيرى ، إنك دائماً فاتنة » .

فأجابت في مرارة « أوه ، إن محاسنى قليلة يا صديقى ما دمت تزدريها » .

فأخذ يحاول تفسير سلوكه معتذراً عن نفسه بكلمات غامضة لأنه لم يستطع أن يبتكر أعذاراً أقوى وتركت نفسها تتقبل كلماته وتتأثر أكثر من ذلك بصوته ورؤيته حتى تظاهرت بتصديقه أو ربما صدقته فيما قاله عن سبب انقطاع العلاقة بينهما ، لقد كان سراً يتوقف عليه شرف شخص ثالث ، بل حياته ، وقالت وقد نظرت إليه في حزن « لقد شقيت كثيراً » .

فأجابها متفلسفاً « حسن ، هذا هو نصيب الإنسان العادى في الحياة » . فمضت إنما تقول « مهما يكن من الأمر فإنى آمل أن حظك كان سعيداً منذ افتراقنا » .

« أوه ، من هذه الناحية لم يكن هذا بوجه خاص ولا ذاك »

« ربما كان الأحسن أننا لم نفترق » .

« نعم . . . . ربما »

فسألته قائلة « أحقاً تظن ذلك ؟ » واقتربت منه وتابعت الحديث بعد أن تنهدت تنهداً عميقاً « أوه ! لو كنت تعلم يا رودلف ! لقد أحببتك حباً قليل النظير » وأمسكت بيده وجلسا حيناً من الزمن مثل جلستهما في اليوم الأول للقائهما في المعرض الزراعى ، ولما رأت أنه يجاهد في إخفاء حنوه بدافع الكبرياء قالت وقد ارتمت على صدره « كيف تنتظر أن أعيش بدونك ؟ لا يستطيع الإنسان أن يتعود فقدان السعادة ، لقد كنت يائسة ، وخلت أنه كان يجب أن أموت . . . في حين أنك — أنت تجنبتنى » .

ولقد كانت هذه هي الحقيقة ، فقد عمل على ذلك في السنوات الثلاث الأخيرة ، بدافع ذلك الجبن الذى يميز الجنس الأقوى ، واسترسلت إما في حديثها محاولة إغراءه كالهرة العاشقة وبحركات رشيقة من رأسها « إنك متيم بنساء أخريات ، قل الحق ، أوه ! إنى أفهم ذلك وأنا أعذرهن ، وأظنك أغويتهن كما أغويتنى ، وأنت رجل فيك كل الصفات التى تمكنك من أن تجعل نفسك محبوباً ، ولكننا سنبدأ ثانية أليس كذلك ولا نزال يحب كل منا الآخر ؟ انظر ! إنى أضحك وأشعر بالسعادة ! . . . . تحدث إلى ! » .

كان منظرها فاتناً جذاباً وقد ترقرقت الدموع في عينيها مثل قطرات الندى في غلالة زهرة زرقاء ، وجذبها إلى ركبتيه وداعب شعرها الذى انعكست عليه أشعة الشمس الغاربة ، بظهر يده ، فأحنت رأسها فقبل في رفق جفنها بطرف شفتيه .

وهتف قائلا « ولكنك تبكين ! فما سبب ذلك ؟ »

فاشتد تشيجها ، وظن رودلف أنه مجرد تعبير عن حبها ، ولكن لما كانت لا تزال صامتة فقد ظن أن هذا آخر جهادها مع الاحتشام ، فمضى يقول « أوه سامحينى ! إنك أنت المرأة الوحيدة التى أعتنى بها ، ولقد كنت قاسياً وأحمق ، إنى أحبك وسأظل أحبك دائماً . . . فما شأنك ؟ أرجوك أن تخبرينى » وركع على ركبتيه إلى جانبها .

« حسن ، لقد دمرت حياتى يا رودلف ! أتعيرنى ثلاثة آلاف فرنك ؟ » فقال وقد أخذ ينهض من ركوعه بالتدريج وعلت وجهه سيما الجد « ولكن . . . ولكن هل هذا حقيقى . . . »

فمضت مسرعة في حديثها قائلة « أنت تعرف أن زوجى قد وضع أمواله في يد المحامى ، وقد هرب

الهامى ، وكان علينا أن نقترض ، والمرضى لا يدفعون ، وضيعة والده لم تصف بعد ، وسنحصل على المـال قريبا ، ولكن إذا لم نجد ثلاثة آلاف فرنك فان منزلنا سيحجز عليه اليوم ، ولقد يحدث ذلك فى أية لحظة ، وقد جئتك معتمدة على صداقتك » .

ففكر رودلف الذى اشتد فجأة اصفرار وجهه « أوه ! هذا هو السبب الذى جاءت من أجله » ولكنه قال فى هدوء تام « ليس عندى ما يعادل هذا المبلغ يا عزيزتى » .

وكان بلا شك صادقاً فيما قال ، ولو كان يملك هذا المبلغ لأعطاه لها من غير شك ، ولو أنه باعتبار القاعدة عامة من أعمال العطف التى لا ترتاح لها النفس ، وليس أكثر قضاء على الحب من طلب المساعدة المالية ، فنظرت إليه فى صمت دقيقة أو دقيقتين ، ثم قالت : « ليس عندك هذا المبلغ ! » وكررت ذلك قائلة « ليس عندك المبلغ ! . . . كان يجب أن أجنب نفسى هذا العار الأخير ، إنك لم تحبنى قط ولست خيراً مـن الآخرين ! » .

ولكن رودلف اعترض حديثها قائلا إنه هو نفسه فى ضيق مالى ، فقالت « إنى حزينة من أجلك ! نعم أنك مأزوم فى الواقع » ورأت بندقية ماسورتها مرصعة فى أحد الأركان فقالت « حينما يكون الإنسان مأزوماً لا يكون عنده ألواح من الفضة فى كرنافة بندقيته ولا يشترى ساعة حائط مغلفة بعظم السلحفاة ولا صفافير مطلية ولا تعويذات لسلسلة ساعته ، فعنده كل ما يريد . . . وأنت فى رغد من العيش ، وعندك جوسق ، ولك ضياع وغابات ، وتذهب للصيد وتقضى جزءاً كبيراً من وقتك فى باريس ، وإذا لم يكن عندك شىء سوى هذه الأزرار (وتناولت أزرار القميص من المشجب) فانك تستطيع أن تحصل منها على المال ! آه إنى لا أريدها ! احتفظ بها » .

وألقت بها من يدها فى عنف إلى حد أن السلسلة الذهبية الرفيعة كسرت عند اصطدامها بالحائط .

فأجاب رودلف فى هدوء تام كما يفعل الرجال حينما يدافعون عن أنفسهم متخذين الغضب درعاً « إنى لا أملك هذا المبلغ ! » .

فخرجت ، وبدا لها كأن الحيطان تهتز وأن السقف سينقض ، ونزلت من الممشى الطويل ، وكانت تتعثر فى أكداس الأوراق الجافة التى تذروها الرياح ، وكسرت أظافرها فى محاولة فى فتح البوابة الصغيرة ، وعلى بعد مائة ياردة توقفت عن السير لاهثة من الإعياء وشعرت كأنها توشك أن تسقط .

وأحست كأن الأرض تدور بها ، وكانت لا تعى وجودها إلا بتيار الدم السريع المتدفق فى شرايينها ، وكانت تستطيع أن تعتقد أنها سمعته يفلت منها مثل الموسيقى التى تصم الآذان والتى ملأت ما حولها ، وكانت الأرض تحت قدمها ألين من الأمواج وبدت أخاديد الأرض كأنها أمواج داكنة ، وظهر لها أن كل ما تتذكره وأفكارها جميعها كأنها تفر منها مثل آلاف الشظايا فى عرض كبير للألعاب النارية ، ورأت والدها ومكتب ليهيريه وحجرتها ومنظراً طبيعياً آخر ، وشعرت كأنها قد فقدت صوابها وتمشى الخوف فى نفسها ، ولكنها نجحت فى استعادة جأشها ولو أنها كانت لا تزال مضطربة النفس قد اختلط عليها الأمر ولم تستطع أن تتذكر سبب الحالة الرهيبة التى تعانيها أى أنها كان باعثها المال ، ولم تذكر إلا شقاءها فى الحب ، وشعرت بأنها تفقد روحها فى تلك الذكرى كالجرحى من الرجال الذين يشعرون وهم يعانون غصص الموت بأن حياتهم تتساقط من خلال جروحهم الدامية .

وأقبل الظلام ، وبدأ طير العقعق يعود إلى مواطنه ، وفجأة بدا لها كأن كريات نارية تنفجر فى الهواء مثل الكرات المدوية وأنها تدور وتعلو حتى تختفى فى الثلج

بين فروع الأشجار ، وظهر وجه رودلف فى وسط كل منها ، وأخذ عددها فى التكاثر وتقارب بعضها من بعض ، واختفت أخيراً ، وعرفت حينئذ أضواء المنازل التى كانت تضئ خلال السحاب فى الأفق ، ثم أخذت تدرك موقفها على حقيقته ، وقد بدا أمامها كالهاوية الفاغرة ، ولهثت كأن صدرها كان سيتمزق ، واتقدت فى نفسها حماسة بطولية جعلتها تكاد تشعر بالسعادة ، فانطلقت إلى أسفل التل وعبرت الجسر الخشبى واجتازت الممر الضيق ، وبعد أن عبرت الميدان وصلت إلى حانوت الكيميائى . . . . » .

ولم يكن هناك أحد ، وهمت بالدخول ، ولكن يمكن أن يحضر أحد على صوت الجرس ولذا تلمست طريقها إلى الحائط وقد حبست أنفاسها حتى وصلت إلى باب المطبخ حيث كانت هناك شمعة مشتعلة فوق الموقد ، وكان جستين يحمل طبقاً للخارج ، فقالت لنفسها « أوه ! أنهم يتناولون عشاءهم وعلى أن أنتظر » ولما عاد قرعت النافذة قرعاً خفيفاً ، فخرج ، فقالت له « اعطنى مفتاح الحجرة التى فى الطابق العلوى حيث يوجد . . ؟ » .

« ماذا تعنين بذلك ؟ » . . ونظر إليها وقد عرته الدهشة لاصفرار وجهها فقد بدا أبيض اللون فى ظلمة الليل ، وظهرت له غاية فى الجمال وقد حفها الجلال كأنها طيف ماثل ، وبدون أن يفهم ما كانت تريده أدرك أن شيئاً مخيفاً سيحدث ، ولكنها بادرت مسرعة إلى القول فى نغمة رقيقة منخفضة متوسلة « إنى أريده ، إعطنى اياه » .

وكانا يستطيعان أن يسمعا من خلال الحاجز الرقيق صوت السكاكين والشوك فى حجرة الطعام ، وادعت أنه تريده لقتل الفيران التى منعتها من النوم .

فقال « ولكن لا بد من أن أخبر السيد هومبز » .

فأجابته قائلة « إن الأمر لا يستحق إزعاجه » ، وسأخبره فى الحال ، أرجوك أن تريني النور » .

وذهبا إلى الممر الذى يفضى إلى باب المعمل ، وكان هناك مفتاح معلق على الحائط ، وصاح الكيميائى الذى بدأ يقلق « جستين ! » .

فقالت « اصعد إلى الطابق العلوى ، فتبعها ، وفتحت المغلاق بالمفتاح واتجهت إلى الرف الثانى مباشرة (لأن ذاكرتها خدمتها جيداً) وأمسكت بالزجاجة الزرقاء ورفعت سدادتها وأدخلت يدها وتناولت كمية من المسحوق الأبيض وشرعت فى ابتلاعها » .

فصاح بها ممسكاً بيدها قائلا « توقفى ! » .

فأجابته « التزم الصمت ، وإلا حضر بعض النـــاس » .

فلم يدر ما يصنع ، وأراد أن يدعو أحداً لنجدته ، ولكنها طلبت إليه أن لا يقول شيئاً لأن الخطأ جميعه سيقع على سيده ، وذهبت إلى بيتها ، وشعرت فجأة بالارتياح كأنها قد أنجزت واجباً » .

وهكذا وصف لنا فلوبير عودة أمها خائبة من قصر رودلف ، وتصميمها على تناول السم ، وكيف ذهبت إلى دار الكيميائى هومبز وابتلعت الزرنيخ .

ولما عاد شارل إلى المنزل ووجدها سألها « ما الخبر » وطلب منها أن توضح له جلية الأمر ، وكانت حينذاك جالسة إلى مكتبها وقد أتمت كتابة رسالة له وطوتها ، بعد أن أثبتت بها التاريخ والساعة ، وقالت له فى لهجة جادة « لا تقرأ هذه الرسالة إلا غداً ، وبين هذا وذاك أرجوك أن لا توجه إلى أى سؤال » .

ويشتد بها الألم وتسوء حالتها ، ويسرع شارل إلى الرسالة ويفضها ويقرؤها ويعرف أنها تناولت السم ، ويطلب النجدة ، وتتقاذفه لجج الحزن ، فتقول له إنما « لا تبك ، فبعد قليل لن أتعبك أبداً » .

فيقول لها شارل « ولماذا ؟ ما الذى دفعك إلى ذلك ؟ » .

فتجاوبه قائلة « كان على أن أفعل ذلك يا عزيزى »

فيقول شارل « ألم تكونى سعيدة ؟ وهل أخطأت ؟ لقد بذلت كل ما فى وسعى ؟

« هذا حق . . . أنك طيب جداً . . . »

وأمرت يدها فى بطء على شعره ، وعمقت عذوبة هذا الإحساس حزنه ، وشعر بأن حياته جميعوا تنهار أركانها حينما فكر فى أنه سيفقدها فى الوقت الذى تعترف فيه بحبها له .

واضطر شارل بعد موتها إلى أن يبيع كل ما يملك من الأشياء الفضية وأثاث المنزل ليسدد الديون ، وفتح فى النهاية درج مكتب إمما فوجد فيه الرسائل التى كان يبعث بها إليها ليون ، وصورة رودلف ، فتضاعف حزنه وكبر عليه الأمر ، ورفض أن يرى مرة اه وآوى إلى حجرته معتزلاً الناس وكان يتمشى فى حديقة داره جيئة وذهوباً وهو يبكى بصوت مسموع ، وفى ذات يوم وجدته طفلته الصغيرة ميتاً وفى يده خصلة طويلة من شعر إمما الأسود اللون .

وهذه هى مأساة مدام بوفارى التى بذل فلوبير فى كتابتها جهداً جباراً فجاءت طرفة من طرائف الفن الخالد فى موضوعها وفى أسلوبها .



رسالة منطقية فلسفية للودفيج ڤتجنشتين

بقلم
الدكتور عزمى إسلام

يعتبر ڤتجنشتين ، على الرغم من النقد الذى يوجه إلى فلسفته بصفة عامة ، أحد العلامات الهامة على طريق الفكر الفلسفى المعاصر ، حتى لقد ذهب بعض مؤرخى الفلسفة المعاصرة مثل بتشر Pitcher إلى القول بأن ڤتجنشتين كان واحداً من كبار فلاسفة القرن العشرين إن لم يكن أعظمهم بالفعل .

وتعود أهمية فتجنشتين إلى أن فلسفته — وخاصة تلك المتمثلة فى رسالته المنطقية الفلسفية — كانت بمثابة نقطة تحول حاسمة فى تاريخ الفلسفة المعاصرة والمنطق الجديد ، ولم يكن ذلك راجعاً إلى ما توصل إليه من نتائج فلسفية بقدر ما يرجع إلى المنهج التحليلى الذى اتبعه فى بحثه الفلسفى ، حتى أن كثيراً من المعاصرين — على حد تعبير داڤيد بول فى كتابه عن فلسفة ڤتجنشتين — يؤكدون أن كل طرق التفلسف القديمة أصبحت غير مقبولة منذ ظهور مؤلفات ڤتجنشتين .

وتعود أهمية فتجنشتين كذلك إلى أن فلسفته كانت أشبه ما تكون بالثورة على الفلسفة التقليدية وذلك بدعوته إلى تغيير المفهوم القديم للفلسفة فأصبحت عنده عبارة عن تحليل للغة التى نتكلم بها فى الفلسفة أو نعبر بها عما نثيره من مشكلات فلسفية بدلا من إقامة نسقات فكرية أو ميتافيزيقية متكاملة . أصبحت الفلسفة لديه بمعنى آخر فلسفة للفلسفة ، وأصبح عمل الفيلسوف عنده هو أن يكون فيلسوفاً للفيلسوف بتحليله لما يقول .

كما تعود أهمية ڤتجنشتين أيضاً إلى أنه كان أول من نادى بأن قواعد المنطق — إن هى ، إذا حللناها — إلا قواعد اللغة ، فأوجد بذلك نوعاً من التوازى بين قواعد كل منهما على أساس أن صورة المنطق ، ومن ثم صورة الفكر شىء واحد . وقد تبعه فى هذا الكثير من الفلاسفة فيما بعد مثل كارنب .

هذا فضلا عن الأثر البالغ الذى تركه فتجنشتين فى كل التيار الفكرى الوضعى والتحليلى المعاصر ، الأمر الذى جعل دراسة الفلسفة فى اتجاهها التحليلى أو الوضعى المنطقى شيئاً متعذراً بغير دراسة أفكار فتجنشتين وتحليلاته المنطقية التى اعتبرها برتراند رسل لعمقها واتساع مجالها حدثاً هاماً فى تاريخ الفلسفة .

حياة فتجنشتين

ولد لدڤيج چوزيف يوهان فتجنشتين Ludwig Joseph Johann Wittgenstein فى

السادس والعشرين من شهر ابريل عام ١٨٨٩ بالنمسا وتلقى أول تعليم له بالمنزل حتى سن الرابعة عشرة ثم التحق بمدرسة لينتز Lintz فى شمال النمسا لمدة ثلاث سنوات التحق بعدها عام ١٩٠٦ بالأكاديمية الصناعية فى برلين وظل بها حتى عام ١٩٠٨ حين سافر إلى انجلترا والتحق بجامعة مانشستر لدراسة الهندسة واستمر بها حتى عام ١٩١١ . وقد شغل فى هذه الفترة – بالإضافة إلى دراسته – بأبحاث قام بها فى الملاحة الجوية ، انتقل من تجاربه فيها على الطائرات الشراعية إلى إنشاء محرك نفاث للطائرات وكان عمل المحرك أول الأمر هو موضع اهتمامه ، إلا أنه سرعان ما ركز كل اهتمامه على تصميم المحرك ، وكان هذا التصميم فى أساسه عملية رياضية الأمر الذى دفعه إلى الاهتمام بالرياضة فاتجه أولا إلى الرياضة البحتة ثم إلى أسس الرياضيات وفلسفتها ، وبدأ بدراسة الجزء النظرى من أسس الرياضيات فقرأ كتاب « أصول الرياضيات » لبرتراند رسل الذى كان قد ظهر عام ١٩٠٣ . وفى عام ١٩١١ توقف فتجنشتين عن دراسة الهندسة وارتحل إلى ينا Jena فى ألمانيا لكى يناقش أفكاره عن أسس الرياضيات مع فريجه G. Frege الذى نصحه بالتوجه إلى كمبردج للدراسة مع رسل ، فعاد إليها فى السنة نفسها وظل بها يدرس الفلسفة والمنطق والرياضيات فضلا عن علم النفس والموسيقى وفلسفة الجمال حتى خريف عام ١٩١٣ حين ارتحل إلى هولنده وأقام لنفسه بها كوخاً صغيراً بالقرب من مقاطعة سكولدن ، عاش فيه متفرغاً للفلسفة حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ فتطوع فى جيش النمسا ، ووقع فى الأسر أثناء انهيار الجيش النمسوى المجرى فى نوفمبر من عام ١٩١٨ ، وظل أسيراً حتى أغسطس من العام التالى ١٩١٩ بأحد معسكرات الاعتقال فى جنوب إيطاليا .

وقد اختار فتجنشتين بعد انتهاء الحرب مهنة التدريس ، وتدرب عليها فى الفترة بين عامى ١٩١٩ ، ١٩٢٠ فى كلية المعلمين بفينا ، ومارس هذه المهنة لمدة ست سنوات ثم استقال منها عام ١٩٢٦ . وبدأ فى خريف العام نفسه فى عمل استغرق فيه طوال سنتين كاملتين ، وهو بناء منزل فى فينا لإحدى أخواته وقد تعرف إليه فى تلك الأثناء موريس شليك مؤسس جماعة فينا وفريدريش فايزمان أحد أعضائها ، ثم عاد إلى كمبروج مع بداية عام ١٩٢٩ وتقدم برسالته المنطقية الفلسفية للحصول على درجة الدكتوراه ، وحصل عليها فى يونيه من العام نفسه ، وأصبح ابتداء من عام ١٩٣٠ زميلا فى كلية ترينتى . وقد ظل فتجنشتين يعمل فى كمبردج حتى نهاية العام الجامعى ١٩٣٥–١٩٣٦ ثم رحل إلى النرويج وظل بها لمدة عام تقريباً بدأ فيه تأليف كتابه « أبحاث فلسفية » ، ثم عاد إلى كمبردج عام ١٩٣٧ وخلف چورج مور عام ١٩٣٩ على كرسى الفلسفة بها حتى قامت الحرب العالمية الثانية فاشترك فيها مساهماً فى الأعمال الطبية بمستشفيات لندن ونيوكاسل . ثم اعتزل كرسى الفلسفة بالجامعة عام ١٩٤٧ وارتحل إلى ايرلندة وظل بها إلى أن أكمل الجزء الثانى من كتابه « أبحاث فلسفية » ، وقد تبين له فى تلك الأثناء أنه مريض بالسرطان الذى ظل يعانى منه حتى توفى فى كمبردج عام ١٩٥١ .

أعماله :

لم يكن فتجنشتين مكثرا فى إنتاجه الفلسفى بل كان مقلا ، حتى إنه لم ينشر فى حياته إلا كتاباً واحداً هو « رسالة منطقية فلسفية » ، ومقالا له بعنوان « بعض ملاحظات على الصورة المنطقية » . وكل مانشر من كتاباته – سواء قبل وفاته أو بعدها – كان عميقاً يصعب فهمه أحياناً حتى بالنسبة لتلاميذه الذين كانوا يستمعون إلى محاضراته ، الأمر الذى أدى إلى ظهور

كثير من الكتب الحديثة يحاول مؤلفوها شرح أفكار ڤتجنشتين الفلسفية التى أوجزها فى مؤلفاته القليلة . وخير مثال لذلك ظهور أكثر من خمسة أبحاث فى السنوات العشر الأخيرة ، يحاول أصحابها - وأغلبهم من تلاميذ ڤتجنشتين ، مثل أنسكوم Anscombe أن يفسروا ما ذهب إليه فى رسالته المنطقية الفلسفية التى ظهرت لها ترجمتان انجليزيتان حتى الآن تختلفان إلى حدما فى تناول النص الأصلى الذى كتبه ڤتجنشتين باللغة الألمانية :

وفيما يلى أهم مؤلفات ڤتجنشتين الفلسفية ، مرتبة ترتيباً زمنياً :

١ - المذكرات Notebooks التى كتبها فى الفترة بين عامى ١٩١٤ ، ١٩١٦ وقد ترجمتها إلى الانجليزية أنسكوم التى قامت بنشرها كذلك بالاشتراك مع فون رايت عام ١٩٦١ فى بلاكويل بانجلترا وتعتبر هذه المذكرات بصفة عامة نموذجا طيباً لأفكاره الفلسفية الأولى التى ركزها بعد ذلك وبلورها فى رسالته المنطقية الفلسفية .

٢ - « رسالة منطقية فلسفية »

Logich — Philosophische Abhandlung

ونشرت باللغة الألمانية عام ١٩٢١ ، ثم باللغة الانجليزية عام ١٩٢٢ بالعنوان اللاتينى الذى عرفت به وهو Tractatus Logico-Philosophicus بعد أن ترجمها أوجون Ogden وكتب لها رسل مقدمة طويلة وسأتناول بالتفصيل أهم أفكار ڤتجنشتين فى هذه الرسالة فيما بعد .

٣ - « بعض ملاحظات على الصورة المنطقية »

Some Remarks on the Logical Form

وهو مقال باللغة الانجليزية نشر فى » منشورات الجمعية الأرسطية عام ١٩٢٩ ، يستكمل فيه ڤتجنشتين الإطار المنطقى الذى أسهب فى الحديث عنه فى رسالته المنطقية الفلسفية ويمكننا القول بأن هذه المؤلفات الثلاثة والرسالة بصفة خاصة توضح الأثر الكبير الذى تركه كل من فريجه ورسل فى تفكير ڤتجنشتين المنطقى والرياضى وقد عبر ڤتجنشتين عن ذلك فى مقدمة رسالته بقوله « إننى لن أشير إلا إلى مؤلفات فريجه التى أنا مدين لها ، كما انني مدين لكتابات صديقى برتراند رسل من حيث استثارة أفكارى هذه » .

٤ - مؤلفان كبيران مكتوبان باللغة الألمانية على الآلة الكاتبة (لم ينشرا بعد) .

(ا) الأول منهما بحث يقع فى حوالى ثمانمائة صفحة مقسمة إلى أجزاء وفصول .

(ب) والثانى يحمل اسم « ملاحظات فلسفية » Philosophische Bemerkungen وكان موضوعهما عاما شاملا ، وإن كان ڤتجنشتين يعطى فيهما اهتماماً خاصاً لفلسفة الرياضيات ويمثلان موقف ڤتجنشتين الفلسفى بصفة عامة سنة ١٩٣٠ حين بدأ يراجع أفكاره الفلسفية الأولى .

٥ - محاضرات ڤتجنشتين فيما بين عامى ١٩٣٠ - ١٩٣٣ ، وهى بعض الملاحظات التى استطاع چورج مور جمعها من محاضرات ڤتجنشتين ومناقشاته فى كمبردج فى تلك الفترة وقد نشرت بالعنوان السابق فى مجلة مايند عام ١٩٥٤ (عدد يناير سنة ١٩٥٤ من صفحة ١-١٦ ، وعدد يولية من صفحة ٥٣٠-٥٥٩ ، وعدد يناير ١٩٥٥ من صفحة ١ - ٢٧) ثم أعاد مور نشرها ضمن مجموعة مقالات له ظهرت بعنوان « بحوث فلسفية » Philosophical Papers عام ١٩٥٩

٦ - « الكتابان الأزرق والبنى » Blue and Brown Books وهو العنوان المختصر لهذين الكتابين اللذين ظهرا فى مجلد واحد عام ١٩٥٨ (وقد أعيد طبعهما عام ١٩٦٠ ، ثم عام ١٩٦٤) والكتاب

الأزرق عبارة عن محاضرات ألقاها ڤتجنشتين فى كمبردج أثناء العام الجامعى ١٩٣٣ — ١٩٣٤ ، أما الكتاب البنى فقد أملاه على اثنين من طلبته هما فرانسيس سكينر F. Skinner وأليس امبروز A. Ambrose أثناء العام الدراسى ٣٤ — ١٩٣٥ .

وترجع تسمية هذين الكتابين بالأزرق والبنى إلى لون الغلاف الذى كان كل منهما مغلفا به ، بحيث تداول تلاميذ ڤتجنشتين قراءة هذه الكتب مع مع تسميتها بلون الغلاف الذى كانت النسخة الأولى من كل منهما مغلفة به . وترجع أهمية هذين الكتابين إلى أنهما توضحان بصفة خاصة كثيراً من العبارات الغامضة فى رسالته المنطقية الفلسفية ، كما أنهما توضحان تطور أفكاره الفلسفية — وخاصة الكتاب الأزرق — لأنه كان يحتوى على ما أسماه ڤتجنشتين بالفلسفة الجديدة التى تمثلت فيما بعد فى كتابه « أبحاث فلسفية » .

٧ — « ملاحظات على أسس الرياضيات »

Bemerkungen uber die Grundlagen der Mathematik وهى مختارات من ملاحظات كتبها ڤتجنشتين فيما بين عامى ١٩٣٧ — ١٩٤٤ ترجمتها انسكوم ونشرتها بالاشتراك مع ريز Rhees عام ١٩٥٦ ثم أعيد طبعها عام ١٩٦٤ وهى تمثل أفكار ڤتجنشتين الجديدة المتعلقة بأسس الرياضة بصفة خاصة وبعلاقة الرياضة بالمنطق بصفة عامة .

٨ — « محاضرات فى الجمال وعلم النفس والدين »

وهى مقتطفات من العدد القليل من المحاضرات التى ألقاها ڤتجنشتين فى كمبردج عام ١٩٣٨ عن فلسفة الجمال فضلا عن عدة ملاحظات كتبها ڤتجنشتين عن علم النفس والدين فى ذلك الوقت (وقد جمع هذه المحاضرات والملاحظات ريز R. Rhees ، وسميثيز Y. Smithies ونشرها سيريل باريت Barrett عام ١٩٦٦ .

٩ — « قصاصات » Zettel

وهى مجموعة من الملاحظات التى كتبها ڤتجنشتين على قصاصات فى الفترة بين عام ١٩٢٩ ، وعام ١٩٤٨ . وأغلب الملاحظات المنشورة فى هذا الكتاب تتعلق بالفترة بين عامى ١٩٤٥ ، ١٩٤٨ — وقامت بترجمتها أنسكوم ونشرتها بالاشتراك مع ڤون رايت عام ١٩٦٦ . وتعبر هذه الملاحظات عن أهم أفكار ڤتجنشتين الجديدة التى ظهرت مرتبة مبلورة فى كتابه « أبحاث فلسفية » .

١٠ — « أبحاث فلسفية »

Philosophische Untersuchungen

وهو مكون من جزءين انتهى ڤتجنشتين من أولها عام ١٩٤٥ ، أما الجزء الثانى فقد كتبه بين عامى ١٩٤٧ ، ١٩٤٩ وقد قامت أنسكوم بترجمتها إلى اللغة الانجليزية ونشرته بالاشتراك مع ريز Rhees عام ١٩٥٣ (وأعيد طبعه عام ١٩٥٨ ، ثم عام ١٩٦٣) . ويعتبر هذا الكتاب (١) بمثابة المراجعة الأخيرة أو التصحيح النهائى لأفكار ڤتجنشتين السابقة ، وقد عبر عن هذا المعنى بقوله فى مقدمة الكتاب — إننى قد اضطررت أن أتبين أخطاء جسيمة فيما كتبته فى الكتاب الأول مثل فكرته عن الأنا وحديه وفكرته عن الذرية المنطقية . (٢) كما يعتبر فى الوقت نفسه بمثابة تطوير لأفكاره القديمة الواردة فى رسالته المنطقية الفلسفية ، أو هو بمثابة إعادة ترجمة لهذه الأفكار القديمة فى سياق فلسفى جديد متطور .

* * *

الرسالة المنطقية الفلسفية

Tractatus Logico-Philosophicus

تعتبر رسالة ڤتجنشتين المنطقية الفلسفية من أهم المؤلفات التى ظهرت فى الثلاثينيات الأخيرة ، سواء بالنسبة للمنطق أو بالنسبة لفلسفة التحليل المعاصرة :

فهي كانت ذات أثر بالغ فى الفكر الفلسفى بصفة عامة ، وفيا يتعلق بالاتجاهات الفلسفية المؤيدة للاتجاه التحليلي المنطقى خاصة ، مثل مدرستى كمبردج وأكسفورد وكذا فلسفة الوضعية المنطقية .

ولا يكاد الإنسان يغالى فى القول بأن هناك شبه إجماع بين دارسى الفلسفة المعاصرة على أهمية « رسالة » فتجنشتين وأثرها البالغ فى الفكر الفلسفى المعاصر فيقول رامزى مثلا فى كتابه « أسس الرياضيات » (صفحة ٢٧٠) « إن الرسالة كتاب له أهمية غير عادية ويستحق أن يوليه كل الفلاسفة اهتمامهم الشديد » ، كما يقول ماكسويل فى كتابه « الفلسفة والتحليل اللغوى » (صفحة ٩٣) « إن الإنسان يستطيع القول — بلا مبالغة — إن كل الفلسفة الانجليزية التالية لظهور الرسالة ، كانت متضمنة فى الرسالة نفسها على نحو أو آخر » . ويعبر ستنيوس عن هذا المعنى أيضاً فى كتابه « رسالة ڤتجنشتين المنطقية الفلسفية » (صفحة ١٦) بقوله « إن الرسالة كانت ذات أثر بالغ فى الحياة الفكرية المعاصرة » وهو المعنى ذاته الذى يذكره بتشر فى كتابه « فلسفة فتجنشتين » (صفحة ٦) حين يقول « إن الرسالة أحدثت تأثيراً عميقاً فى كل ما تلاها من أفكار فلسفية » ، مؤيداً بذلك قول موريس شليك بأن ظهور رسالة ڤتجنشتين كان بمثابة نقطة تحول حاسم فى تاريخ الفلسفة » .

هذا ويمكننا تلخيص أهمية رسالة ڤتجنشتين بصفة عامة فى أنها قدمت لنا طريقة مثيرة وجديدة فى كيفية تناول المشكلات القديمة للفلسفة ، وذلك بتحليل القضايا التى نصوغ فيها هذه المشكلات تحليلا منطقياً يوضح أن أغلبها ليست إلا مشكلات زائفة وانها لم تنشأ إلا نتيجة لسوء فهم منطق اللغة . ولقد كان لهذه الفكرة أبلغ الأثر فى فلسفة التحليل المعاصرة المتمثلة فى مدرستى كمبردج واكسفورد ، وخاصة عند رايل وأوستن وستروسون وويزدم .

ولقد عبر داڤيد بول فى كتابه « فلسفة ڤتجشتين المتأخرة » عن أهميـــة المنهج الذى اتبعه ڤتجنشتين بقوله « يكفى أن نقول إن ڤتجنشتين قد ابتدع طريقة جديدة للتفلسف ، بل إن كثيراً من المعاصرين يؤكدون أن كل طرق التفلسف القديمة أصبحت غير مقبولة فى الفلسفة منذ ظهور مؤلفاته » . كما أن فكرة فتجشتين عن تحقيق القضايا فى « الرسالة » بمقارنتها بالدافع الخارجى ، كانت ذات أثر بالغ فى ظهور مبدأ التحقق عند فلاسفة الوضعية المنطقية بصفة عامة ، وبعد أن تطور فى فلسفة اير Ayer إلى ما يعرف بالتحقق الفعلى والتحقق الممكن .

فضلا عن أن الرسالة كانت تطبيقاً للمنطق الرمزى على أوسع نطاق ، على حد تعتبر بلا نشارد فى كتابه « العقل والتحليل » (صفحة ١٣٥) ، كما كانت فى الوقت نفسه استكمالا للنقائص الموجودة فى محاولات رسل وفريجه المنطقية .

كما ويعتبر فتجنشتين فى « رسالته » أول من تكلم فى المنطق المعاصر على أنه مجرد علامات اتفاقيـــة لا تكشف عن طبيعة الأشياء ، الأمر الذى جعله ينتهى فيها إلى أن قضايا المنطق كلها تحصيلات حاصل.

تكوين « الرسالة » .

تعتبر رسالة ڤتجنشتين المنطقية الفلسفية تعبيراً موجزاً عن تأملاته فى الفلسفة والمنطق والرياضيات لفترة لا تقل عن ست سنوات آخرها عام ١٩١٨ حين انتهى من كتابة مسودتها قبل أن يقع أسيراً فى العام نفسه أثناء اشتراكه فى الحرب العالمية الأولى .

وقد نشرت الرسالة لأول مرة باللغة الألمانية عام ١٩٢١ فى المجلة السنوية لفلسفة الطبيعية ثم غير ڤتجنشتين عنوان الرســـالة إلى الإسم اللاتينى الذى

اقترحه جورج مور بعد ترجمتها إلى اللغة الانجليزية على غرار الإسم اللاتيني الموسوم به كتاب سبينوزا « رسالة لاهوتية فلسفية » Tractatus Theologico-Politicus وقد قام أوجدن بترجمة الرسالة إلى اللغة الانجليزية بمعاونة بعض المتخصصين فى الفلسفة من أصدقاء ڤتجنشتين مثل فرانك رامزى ، ونشرها كيجان بول فى حوالى ثمانين صفحة باللغة الألمانية ، تقابلها صفحات مماثلة عليها الترجمة الانجليزية ، مع مقدمة لرسل تقع فى سبع عشرة صفحة يلخص فيها أهم أفكار ڤتجنشتين الفلسفية ويشرح أهم المصطلحات الواردة بها .

وتتكون « الرسالة » من سبع قضايا أساسية — هى فى نظر ڤتجنشتين أكثر عبارات الكتاب أهمية — رقمها بأعداد صحيحة تبدأ من ١ وتنتهى بالعدد ٧ وهى على التوالى : —

١ — العالم هو جميع ماهنالك .

٢ — إن ما هو هنالك ، أى الواقعة ، هو وجود الوقائع الذرية .

٣ — الفكر هو الرسم المنطقى للوقائع .

٤ — الفكر هو القضية ذات المعنى .

٥ — القضايا عبارة عن دالات صدق للقضايا الأولية . (والقضية الأولية هى دالة صدق نفسها) .

٦ — إن الصورة العامة لدالة الصدق هى : [قَ ، غَ ، ن ، (غَ)] وهى تقرأ هكذا : نسبة القضية المعينة إلى سياقها فى حالتى الاثبات والنفى .

٧ — إن مالا يستطيع الإنسان أن يتحدث عنه ، ينبغى أن يصمت عنه .

كما تتكون أيضاً من عبارات فرعية أخرى رقمها بأعداد عشرية مثل ٤,٥٢١,١ تكون شرحاً للقضايا الأساسية السابقة أو تعليقاً عليها ، فتكون العبارة رقم ١,١ مثلا تعليقاً على العبارة رقم ١ كما تكون العبارة رقم ٤,٥ شرحاً للعبارة رقم ٤ وللعبارات الموجودة بين رقم ٤ ورقم ٤,٥ وهكذا .

وتتكون أيضاً من عبارات فرعية أخرى رقمها ڤتجنشتين بأعداد مئوية مثل ١,١١ وهذه تكون تعليقاً على العبارات ذات الرقم العشرى مثل ١,١ وبالتالى على العبارة الأساسية رقم ١ وهكذا تتفرع العبارات بحيث تكون كل عبارة فرعية جديدة شرحاً لما سبقه أو تمهيداً لما يأتى بعدها من عبارات ، وفى هذا الصدد يقول ڤتجنشتين فى بداية رسالته « إن الأعداد العشرية كأرقام للقضايا المنفصلة توضح الأهمية المنطقية للقضايا ، وقد ركزت على هذا الموضوع أثناء حديثى فى هذا الكتاب . فالقضايا ن١ ، ن٢ ، ن٣... الخ هى بمثابة الشروح للقضية ن كما أن القضايا ن م ١ ، ن م ٢ .... الخ تعتبر بمثابة التعليقات على القضية نوم ... وهكذا .

إلا أن ڤتجنشتين لا يلتزم التزاماً دقيقاً بهذه القاعدة فهو أحياناً يستخدم عبارات مرقمة باعداد مئوية أو ألفية لكى يتناول بها القضية الأصلية مباشرة ، كما هو الحال فى العبارة رقم ٢,٠١ التى تكون تعليقاً على العبارة السابقة لها مباشرة وهى رقم ٢ إذ ليس فى الرسالة وجود لعبارة رقمها (٢,٠) ، وكالعبارة رقم ٣,٠٠١ التى تكون تعليقا على العبارة السابقة لها مباشرة وهى رقم ٣ إذ لا وجود لعبارة رقمها (٣,٠٠) أو (٣,٠) فى الرسالة .

ولقد كانت طريقة كتابة الرسالة على هذا النحو من أهم الأسباب التى أدت إلى وصف هذا الكتاب الهام بالصعوبة بل وحتى بالغموض ، وهو رأى يجمع عليه كل من تناول « الرسالة » بالدراسة مثل ارستنيوس الذى يذهب إلى أن « الرسالة » عمل فلسفى بالغ الصعوبة ، ويعترف صراحة بعدم فهمه بعض عباراتها فيقول فى مقدمة كتابه « رسالة فتجنشتين

المنطقية الفلسفية » إن عبارات هذه الرسالة تنقسم إلى أربعة أنواع هي :

أولا : عبارات أعتقد أنني أفهمها وأظن أنها عبارات هامة ، وهي بالطبع أحسن أجزاء الرسالة .

ثانياً : عبارات أعتقد أنني أفهمها ، وإن كنت أظن أنها عبارات مضللة ، ولذا فإن قيمتها تكون تالية لقيمة العبارات الأولى .

ثالثاً : عبارات لم أفهمها ولذا فإنني لا أستطيع تحديد قيمتها .

رابعاً : عبارات تبدو من ناحية مما يمكن فهمه إلا أنها تبدو من ناحية أخرى تعطينا انطباعاً غامضاً غير محدد ، ولذا فهي ليست مما يتعذرقبوله أو رفضه .

٢ — ماكسويل تشارلزورث الذي يذهب في كتابه « الفلسفة والتحليل اللغوي » إلى أنه لا يوجد شيء في تاريخ الفلسفة كله يمكن أن يساعدنا على فهم الرسالة ، فهي مكتوبة على شكل سلسلة من الأقوال الفلسفية المفككة الغامضة .

٣ — فرانك رامزي الذي يذهب في كتابه « أسس الرياضيات » إلى أن الرسالة كتاب يصعب فهمه إلى أقصى حد .

٤ — أنسكوم التي ذكرت في كتابها « مقدمة لرسالة فتجنشتين » إن الأفكار في كتاب فتجنشتين كانت مضغوطة جداً حتى أصبح من الضروري أن يتوقف الإنسان عند كل كلمة لينظر في معناها حتى يمكنه أن يفهم عباراته الأمر الذي جعل باتون Paton يذهب في التمهيد الذي صدر به كتاب انسكوم إلى القول بأن الكتاب يتطلب مجهوداً كبيراً من القارئ حتى يستطيع أن يفهمه .

٥ — ماكس بلاك الذي يقول في مقدمة كتابه عن رسالة فتجنشتين اننا لا نكاد نجد عملا فلسفيا من الصعب فهمه والسيطرة عليه كما هو الحال بالنسبة لرسالة فتجنشتين .

٦ — براند بلانشارد الذي ذهب في كتابه « العقل والتحليل » إلى أن منطق فتجنشتين في الرسالة قد بلغ حداً من الصعوبة أن كان منطق هيجل إلى جانبه شيئاً واضحاً مفهوماً .

والواقع أن من يقرأ رسالة فتجنشتين يصطدم لأول وهلة بهذه الصعوبة أو بهذا الغموض ويصبح حاله كحال بتشر الذي يقول في مقدمة كتابه عن « فلسفة فتجنشتين » إن الرسالة كتاب صعب في عباراته عبارة عبارة ، وغالباً مايشعر الإنسان أثناء قراءته إياها لأول مرة بأنه قد فشل في فهم ماقد قيل في كل عبارة على حده . إلا أن فتجنشتين لم يكن يتعمد الصعوبة أو الغموض في رسالته ، بل كان يرمي دائماً إلى الوضوح بقدر الإمكان ، حتى إنه جعل من الوضوح الكامل شرطاً أساسياً للتفلسف ، وجعل وظيفة الفلسفة مقصورة على مجرد توضيح القضايا والعبارات بتحليلها تحليلا منطقياً يكشف عما إذا كانت ذات معنى أو لم تكن . ولقد عبر فتجنشتين عن هذا المعنى في أكثر من موضع من رسالته ، وخاصة في العبارة رقم ٤,١١٦ التي تقول « إن كل مايمكن التفكير فيه على الإطلاق يمكن التفكير فيه بوضوح ، وكل مايمكن قوله ، يمكن قوله بوضوح » .

ونحن لو تخلينا عن محاولة فهم كل عبارة من العبارات الأساسية في الرسالة على حدة ، لوجدناها أشبه ماتكون بالكل المترابط ولأضحت أمامنا خطاً فكرياً متصلا يبدأ من العبارة رقم ١ وينتهي بالعبارة رقم ٧ مارا بالعبارات الفرعية المتوسطة التي تزيده إيضاحاً وغنى وثراء . فهو يتكلم في العبارة الأولى عن العالم وتحليله ، ثم يتناول الوحدات النهائية التي ينحل إليها العالم . وهي الوقائع الذرية في العبارة الثانية ، ثم يربط بين الفكر وبين هذه الوقائع الذرية في العبارة الثالثة ، ثم بين الفكر واللغة في العبارة الرابعة ، وبالتالي بين اللغة وبين العالم فيكون الفكر هو القضية ذات

المعنى . ثم يحلل اللغة فى العبارة الخامسة ، منتهيا إلى أن جميع القضايا عبارة عن دالات صدق للوحدات الأولى التى تنحل إليها اللغة وهى القضايا الأولية . ثم يتكلم عن تعميم القضية وكيفية الوصول إلى صورة عامة لكل قضية ذات معنى ، أى تكون دالة صدق لقضايا أولية موضحاً الصورة العامة لدالة الصدق فى العبارة السادسة ، ثم يختم رسالتـه بالعبارة السابعة التى ينصحنا فيها بأن نسكت عن الكلام إذا لم نستطع أن نقول كلاما يأخذ شكل الصورة العامة لدالة الصدق الواردة فى العبارة السادسة التى تعبر عن الصورة العامة للقضايا ذات المعنى .

• • •

فلسفة فتجنشتين فى الرسالة :

يمكننا أن نعرض بايجاز لأهم أفكار فتجنشتين الواردة فى رسالته — وخاصة ما يتعلق منها بالفلسفة والمنطق وكانا موضع اهتمامه الرئيسى فيها — من خلال عرضنا لتحليلاته المختلفة ، وذلك على النحو الآتى :—

أولا : معنى الفلسفة ووظيفتها :

يربط فتجنشتين بين الفلسفة والتحليل ، وهو بذلك يعطى للتفلسف بعداً جديداً غير الأبعاد التى كانت تستخدم فى إقامة نسقات فكرية ميتافيزيقية متماسكة . فالفلسفة عنده منهج يتبع وأسلوب يصطنع فى تناول المشكلات وليس تفكيراً تأملياً مجرداً يهدف إلى إقامة نسقات مثالية ، إنها طريقة لحل مشكلات الفلسفة لا إلى خلق مشكلات جـديدة وإضافة صعوبات أخرى فى طريق الفكر الإنسانى . إنها تحليل للمشكلات عن طريق تحليل عبارات اللغة التى نصوغ فيها تلك المشكلات وقد عبر فتجنشتين عن ذلك المعنى بقوله فى العبارة رقم ٤ر١١٢ « إن موضوع الفلسفة هو التوضيح المنطقى للأفكار . فالفلسفة ليست نظرية من النظريات ، بل هى فاعلية . ولذا يتكون العمـل الفلسفى أساساً من توضيحـات ، ولا تكون نتيجة الفلسفة عدداً من القضايا الفلسفية إنما هى توضيح لقضـايا . فالفلسفة يجب أن تعمل على توضيح وتحديد الأفكار بكل دقة ، وإلا ظلت تلك الأفكار معتمة ومبهمة — إذا جاز لنا هذا الوصف » .

والتحليل عند فتجنشتين هو السمة البارزة فى فلسفته ، بل إن بعض مؤرخى الفلسفة المعاصرة — مثل ماكويل — يذهبون إلى أننا نستطيع أن نتكلم لأول مرة بطريقة صحيحة عن وجود فلسفة للتحليل حينما نتكلم عن فلسفة فتجنشتين .

وهو يستخدم التحليل كمنهج فى الفلسفة لا كغاية فلسفية ، فهو لا يستهدفه لمجرد تقسيم العالم إلى عدد من الوقائع ، أو لرد اللغة إلى عدة قضايا ، إنما يستخدمه كى يوصله إلى غاية أبعد من ذلك ، هى توضيح المشكلات الفلسفية — وخاصة الميتافيزيقية — التى إذا حللناها زال عنها كل غموض ، واتضح أنها مشكلات زائفة ، أو أنها ليست بمشكلات أصلا .

والتحليل عند فتجنشتين لا يضيف إلى معرفتنا معرفة جديدة ، ولا تنتج عنه مبادئ جديدة ، بل هو مجرد طريقة توضح ما نقوله — لكى نتبين بناء عليها — ما له معنى من كلامنا وما لا معنى له .

ومنهج التحليل عند فتجنشتين كما يتمثل فى « الرسالة المنطقية الفلسفية » ، يعتمد على رد ما هو مركب إلى عناصره الأولى ، أو وحداته الأولية البسيطة التى لا تنحل إلى ما هو أبسط منها . فالعالم عنده بناء على ذلك ينحل إلى وقائع (عبارة رقم ١ر١) ، والوقائع تنحل إلى أشياء أو بسائط (عبارة رقم ٢ر٠١) ، كما أن اللغة تنحل إلى مجموعة من القضايا الأولية (٤ر٥٢) والقضية الأولية تنحل إلى أسماء (٤ر٢٢) وهكذا .

ثانيا : تحليل العالم :

يبدأ ڤتجنشتين رسالته المنطقية الفلسفية بالحديث عن العالم فى حين أن الغرض الأساسى من فلسفته فى هذه الرسالة هو تحليل اللغة ، وبيان كيف يكون سوء فهمنا لمنطقها هو السبب فى كثير من مشكلات الفلسفة . وكان الأولى به أن يبدأ بحثه باللغة وتحليلها إلا أنه فضل أن يبدأ بتحليل العالم . وأرجح أن يكون مرجع تفضيله هذا إلى أن تحليل اللغة بالطريقة التى ذهب إليها فى رسالته يستلزم تحليل العالم أولا لأن صدق أو كذب القضايا الأولية التى تنحل إليها اللغة إنما يتوقف على مدى مطابقتها ، للواقع الخارجى ، لأن القضية الأولية ليست إلا وصفاً لواقعة من الوقائع التى ينحل إليها العالم .

والعالم عند ڤتجنشتين « هو جميع ما هنالك » (عبار رقم ١)، فهو يتكون من كل ما هو موجود ، وإن كان وجود هذه الموجودات يتبدى فى شكل وقائع لا فى شكل أشياء بسيطة منفصلة . ولذا فالعالم عنده « هو مجموع الوقائع لا الأشياء » (١,١) ، أى أن الواقعة هى الوحدة الأولى التى ينتهى إليها تحليل العالم وإن كانت هى نفسها تنحل بدورها إلى أشياء . وهو فى هذا يتفق مع رسل الذى يذهب فى « فلسفة الذرية المنطقية » إلى أن « العالم الخارجى لا يمكن وصفه وصفاً كاملا بواسطة مجموعة من الأشياء المفردة ، بل يجب أن ندخل فى اعتبارنا أيضاً هذه الأشياء التى أسميها بالوقائع » ، فالواقعة عند رسل ليست شيئاً جزئياً ، بقدر ما هى مركبة من شىء (أو أكثر) بالإضافة إلى صفاته وعلاقاته .

كما يتفق كذلك مع تشالز بيرس الذى يذهب إلى أن الوجود الخارجى يتعلق أولياً بالوقائع ولا يتعلق بالأشياء إلا من حيث عناصر هذه الوقائع .

ثالثاً : تحليل الوقائع

لا يكاد القارىء لرسالة ڤتجنشتين يجد تعريفاً محدداً لمعنى الواقعة ، إنما يمكن القول بأنها هى ما تجعل القضية صادقة أو كاذبة . وهو يستخدم كلمة واقعة فى رسالته على أكثر من نحو : —

(ا) فالواقعة إما مركبة Tatsache (fact) تتكون منها وقائع أخرى أبسط منها وإما بسيطة لا تتكون من وقائع أخرى أبسط منها ، ويسميها ڤتجنشتين بالواقعة الذرية Sachverhalt . والوقائع الذرية هى : —

١ — أبسط ما يمكن أن ينحل إليه الوجود الخارجى فاذا قلت مثلا « سقراط حكيم » جاء هذا القول معبراً عن واقعة ذرية ، أما إذا قلت « سقراط حكيم وأفلاطون تلميذه جاء قولك معبراً عن واقعة مركبة لا واقعة ذرية بسيطة .

٢ — على من كونها أبسط وحدات ينتهى إليها تحليلنا للعالم ، إلا أنها هى فى حد ذاتها مما يمكن تحليله . وليس فى هـذا تناقض ، فالواقعة الذرية بسيطة من حيث أنها أبسط مستوى من الوقائع يمكن أن ينتهى إليه تحليلنا للعالم ، وهى مركبة بمعنى أنها تتكون من أشياء أو عناصر بسيطة . وهذا ما يفسر لنا قول ڤتجنشتين « إن العالم مجموع الوقائع لا الأشياء » (عبارة رقم ١,١) لأن الأشياء بالنسبة له ليس لها وجود مستقل منفصل عن الوقائع التى تدخل فى تكوينها — « فن جوهر الشىء أن يكون مكوناً ممكناً لواقعة ذرية ما » (٢,٠١١) — ولذا فالأشياء تتضمن إمكان حملها لأية حالة من حالات الواقع (٢,٠١٤) — « وكما أننا لا نستطيع تخيل الأشياء المكانية خارج المكان ، ولا الأشـياء الزمانيـة خارج الزمان ، فكذلك لا نستطيع أن نتخيل شيئاً ما معزولا عن إمكان ارتباطه بأشياء أخرى (٢,٠١٢١) وعلى ذلك

فالشيء فى ذاته ليس له وجود منفصل عن الواقعة، بمعنى أن ما له وجود هو الوقائع لا الأشياء ، وإن كان وجود الوقائع معتمداً على وجود الأشياء .

٣ - انها مستقل بعضها عن بعض بحيث اننا « لانستطيع من وجود أو عدم وجود واقعة ذرية ما أن نستنتج وجود أو عدم وجود واقعة ذرية أخرى » (٢,٠٦٢) فمن وجود واقعة ذرية ولتكن ق (الكتاب أزرق) مثلا لا نستطيع أن نستنتج وجود واقعة أخرى ل (الكتاب على يمين القلم) أو عدم وجود واقعة أخرى مثل م (الكتاب بين القلم والمحبرة) إذ ليست هناك ضرورة منطقية ولاواقعية تستلزم مثل هذا الاستدلال .

٤ - انها مكونة من أشياء مرتبطة بعلاقات معينة وليست مجرد مجموعة من الأشياء ، وفى هذا الصدد يقول فتجنشتين « ان التركيبة التى قوامها أشياء هى التى تشكل الواقعة الذرية » (٢,٠٢٧٢) « ففى الواقعة الذرية تتشابك الأشياء أحدها بالآخر كحلقات السلسلة » (٢,٠٣) « أوهى ترتبط بعضها ببعض على نحو محدد » (٢,٠٣١) والطريقة التى تتشابك بها الأشياء فى الواقعة الذرية يسميها فتجنشتين ببنية الواقعة ، أما إمكان ترابط الأشياء على نحو معين ، أى إمكان قيام هذه البنية فيسميه بصورة الواقعة . وعلى ذلك فبنية الواقعة تتعلق بالواقعة نفسها ، بينما صورة الواقعة تتعلق بالأشياء التى تتكون منها هذه الواقعة وبامكان ترابط هذه الأشياء على هذا النحو أو ذاك ، أى فى هذه الواقعة أو تلك .

٦ - هى ليست ثابتة بل متغيرة ، أما الثابت فهى الأشياء التى تتكون منها الوقائع الذرية ، ويعبر فتجنشتين عن هذا المعنى بقوله فى العبارة رقم ٢,٠٢٧١ « ان الشئ هو الثابت ، وهو الموجود ، أما المتحول المتغير فهو البناء المركب من أشياء » والتركيبة التى قوامها أشياء هى التى تشكل الواقعة الذرية .ولتوضيح ذلك أقول : لوكانت أمامى ثلاثة أشياء أرمز لها بالرموز ا ، ب ، حـ مرتبة على النحو التالى فى واقعة ذرية (ب بين ا ، حـ) فان هذه الواقعة يمكن أن تتغير بتغير العلاقة الموجودة بين العناصر التى تكونها ، فتصبح مثلا (ا بين ب ، حـ) وتكون هذه واقعة جديدة غير الواقعة الذرية الأولى . وقد تتغير هذه الواقعة الجديدة فتصبح مثلا (حـ بين ب ، ا) وهى واقعة تختلف عن الواقعتين السابقتين .. وهكذا ظلت ا ، ب ، حـ ثابتة بينما تغيرت الوقائع بتغير الروابط التى تربط بين هذه العناصر الثابتة .

(ب) والواقعة أيضاً إما أن تكون موجبة فتشير إلى ترابط الأشياء على نحو معين فى الواقع الخارجى كأن أقول (القلم على يمين الكتاب) ويكون القلم موجوداً بالفعل على يمين الكتاب . وإما أن تكون سالبة فلا تمثل الطريقة التى توجد بها الأشياء فى الواقع الخارجى ، وفى هذا الصدد يقول فتجنشتين ان « وجود الوقائع الذرية أيضاً يسمى بالواقعة الموجبة وعدم وجودها يسمى بالواقعة السالبة » (عبارة رقم ٢,٠٦) . ولتوضيح ذلك نفترض أن العالم كله يحتوى على ثلاثة أشياء هى ا ، ب ، حـ نسميها على التوالى بالرموز التالية : ل ، م ، ن فى هذه الحالة يمكننا أن نكون القضايا الذرية الآتية :

١ - ل م بحيث تشير إلى الواقعة الذرية المكونة من ا ، ب ولنرمز لها بالرمز $ق_1$.

٢ - م ن بحيث تشير إلى الواقعة الذرية المكونة من ب ، حـ ولنرمز لها بالرمز $ق_2$.

٣ - ل ن بحيث تشير إلى الواقعة الذرية المكونة من ا ، حـ ولنرمز لها بالرمز $ق_3$.

ولنفرض أن القضيتين الأوليتين ل م ، م ن فقط صادقتان ، أما القضية الأخيرة (ل ن) فهى كاذبة . فى هذه الحالة سيكون العالم مكوناً من

واقعتين ذريتين فقط هما ق١ ، ق٢ بحيث يعبر اتصالها معاً عن كل الصدق الموجود فى العالم .

لكن قد يكون هناك من يعترض على ذلك القول بأننا أهملنا فى حديثنا عن العالم شيئاً آخر بالإضافة إلى ق١ ، ق٢ هو عدم وجود الواقعة المكونة من ا ، حـ . فى هذه الحالة يمكن القول بأن العالم مكون من ثلاث وقائع هى : ق١ ، ق٢ ، لا ق٣ وسنحتاج بالتالى إلى قضية سالبة لا موجبة لكى نعبر بها عن لا ق٣ أو عن عدم وجود ق٣ . ولكن لكى يكون قولنا هذا صحيحاً ، لا بد — بناء على رأى فتجنشتين — أن يكون هناك فى الواقع الخارجى ما يجعل هذه القضايا صادقة ، لأنه « إذا كانت القضية الأولية صادقة ، كانت الواقعة موجودة ، وإذا كانت كاذبة ، كانت غير موجودة » (عبارة رقم ٤,٢٥) ، وهو شرط متوفر بالنسبة للقضيتين الأوليتين (ل م) ، م ن اللتين تعبران عن الواقعتين ق١ ، ق٢ على التوالى ، لكنه لا ينطبق على القضية الثالثة لا (ا حـ) التى عبرنا عما تشير إليه بالرمز لا ق٣ . إلا أن الرمز لا ق٣ لا يعنى وجود الواقعة ، أو هو يعنى عدم وجود مجموعة مكونة من ا ، حـ فى الواقع الخارجى .

إذن ما الذى يقابل هذه القضية السالبة فى الواقع الخارجى ؟ يقابلها عدم اتصال ا ، حـ فى مجموعة واحدة أو واقعة ذرية معينة ، وعلى ذلك فان صدق لا ق ٣ يرجع إلى انفصال ا عن حـ أو عدم وجود واقعة مكونة من ا ، حـ فى العالم .

رابعاً : تحليل اللغة :

كان تحليل اللغة هو الهدف الأساسى من فلسفة فتجنشتين بصفة عامة ، وفى رسالته المنطقية الفلسفية على وجه الخصوص ، وقد عبر فتجنشتين عن هذا المعنى فى أكثر من موضع من رسالته . وهو حين يحلل اللغة ينتهى إلى أن أبسط وحدة نصل إليها هى القضية لا الإسم ، كما كان الحال فى تحليله للعالم حين انتهى إلى الوقائع لا إلى الأشياء . « فاللغة هى مجموع القضايا » (عبارة رقم ٤,٠٠١) كما أن العالم هو مجموع الوقائع لا الأشياء .

هذا ويمكننا تصنيف القضايا عند فتجنشتين طبقاً لتحليلاته المختلفة فى الرسالة على النحو الآتى :

ا — من حيث الصدق أو الكذب — وهى عنده ثلاثة أنواع : —

١ — قضايا صادقة بالضرورة ، أى صادقة فى جميع الظروف الممكنة ولا يمكن تصورها على أنها كاذبة على الإطلاق ، ويسميها فتجنشتين بقضايا تحصيل الحاصل Antology ويمثل لها بالقضايا المنطقية والقضايا الرياضية ، مثل قضايا الذاتيـة (ا ، هـ ، ا) ، والقضية الرياضية (٢ + ٢ = ٤) . وهى فى نظره لاتقول شيئاً فانى لا أعرف مثلا أى شئ عن حالة الطقس حين أعرف أن السماء إما أن تمطر أولا تمطر » (عبارة رقم ٤,٤٦١) ..

٢ — قضايا كاذبة بالضرورة ، أى كاذبة فى جميع الظروف الممكنة ، ولا يمكن تصورها على أنها صادقة على الاطلاق ، ويسميها فتجنشتين بقضايا التناقض مثل (ا هـ لا ا) أو (ا هى ب ولا ب) .

٣ — قضايا يمكن تصورها على أنها صادقة ، كما يمكن تصورها على أنها كاذبة ويكون حكمنا فى هذه الحالة على مدى صدق القضية أو كذبها بناء على مقارنتها بالوجود الخارجى الذى تصوره ، وهى القضايا التجريبية أو قضايا العلوم .

ب — من حيث المعنى .. وهى عند فتجنشتين على نوعين هما :

١ — قضايا لها معنى لأنها تقول شيئاً مثل القضايا

التجريبية أو العلمية التى تتحدث عن الوجود الخارجى فتجيء رسما له سواء كان هذا الرسم مطابقاً للواقع فتكون القضية صادقة ، أو غير مطابق للنمو الذى يوجد عليه الواقع فتكون كاذبة .

٢ — قضايا خالية من المعنى لأنها لا تقول شيئاً بحكم تركيبها مثل قضايا الرياضة وقضايا المنطق وكذا قضايا الميتافيزيقا .

فقضايا المنطق تحصيلات حاصل ولذا فهى قضايا تحليلية لا تخبرنا خبراً جديداً عن الواقع الخارجى وهذا ما يفسر السبب فى « عدم إمكان إثباتها تجريبيا بأكثر من رفضها تجريبيا ، إذ لا يكفى فى قضية المنطق استحالة أن تنقضها أية خبرة ممكنة ، بل لابد لها كذلك من استحالة أن تؤيدها أية خبرة ممكنة » (العبارة رقم ٦,١٢٢٢) .

وقضايا الرياضيات أيضاً تحصيلات حاصل طالما أن « الرياضيات هى إحدى طرق المنطق » عبارة رقم ٦,٢ عند ﭭتجنشتين . ولذا فصدق أو كذب القضية التحليلية رياضية كانت أو منطقية لا يتوقف على مدى مطابقتها للواقع الخارجى لنتحقق مما إذا كانت تصوره أم لا ، بل يتوقف على مدى اتساق القضية نفسها بحيث لا تبدو متناقضة بذاتها ، كما هو الحال فى القضية الرياضية التى هى عبارة عن معادلة ، والتى يكون صدقها موجوداً فى القضية نفسها لا بمقارنتها بالوجود الخارجى . فاذا كان هناك تعبيران يرتبط أحدهما بالآخر بعلاقة التساوى ، مثل ٤ + ٦ = ١٠ » فإن ذلك يعنى إمكان استبدال أحدهما بالآخر ويلزم أن يكون ذلك بارزاً فى التعبيرين معاً على حد سواء » عبارة رقم ٦,٢٢ أى واضحاً فى القضية نفسها .

وهذا ما ينطبق أيضاً عند ﭭتجنشتين على قضايا الفلسفة وخاصة الميتافيزيقا « فمعظم القضايا والأسئلة التى كتبت عن أمور فلسفية ليست كاذبة ، بل هى خالية من المعنى . فلسنا نستطيع اذن أن نجيب عن أسئلة من هذا القبيل ، وكل ما يسعنا هو أن نقرر عنها أنها خالية من المعنى عبارة رقم ٤,٠٠٣

حـ — من حيث الكيف .. وهى عنده نوعان هما :

١ — قضايا موجبة — وهى التى تفيد فى رسالة ﭭتجنشتين أن الأشياء الموجودة فى العالم الخارجى قد ترابطت على نحو معين فى واقعة ما ، وهى قد تكون صادقة إذا جاء ما تفيده القضية رسماً صادقاً للواقع الخارجى وإلا كانت كاذبة .

٢ — قضايا سالبة — وهى التى تفيد فى فلسفة ﭭتجنشتين أن الأشياء الموجودة فى العالم الخارجى ليست مترابطة على نحو معين مثل « لا (ا ع) ب » وهى أيضاً قد تكون صادقة أو كاذبة بقدر تصويرها للواقع الخارجى .

د — من حيث الكم . . وهى عند ﭭتجنشتين على نوعين رئيسيين هما : —

١ — قضايا تصدق كل منها على واقعة واحدة فقط ، كأن أقول « سقراط مفكر » أو « القلم على يمين الكتاب » ، وهى ما يسميها ﭭتجنشتين بالقضية الأولية Elementarsatz ويسميها رسل بالقضية الذرية فى مقابل الواقعة الذرية التى ترسمها هذه القضية .

والقضية الأولية هى الوحدة النهائية التى يرتد إليها تحليلنا للغة ، هى أبسط أنواع الكلام لأنها تعبر عن أبسط أنواع الوحدات التى ينحل إليها الوجود الخارجى وهى الوقائع الذرية . وكما أن الواقعة الذرية تتكون من أشياء ، فكذلك تتكون القضية الأولية من أسماء تشير إلى هذه الأشياء . وكما أن الأشياء ترتبط فى الواقعة الذرية على نحو أو آخر . فكذلك تترابط الأسماء فى القضية الأولية على هذا النحو أو ذاك بحيث تجئ رسماً صادقاً أو كاذباً لما هو موجود فى الواقع .

والقضية الأولية لا ترسم الواقعة الذرية فقط عند ڤتجنشتين ، بل إنها تثبت وجودها أيضاً ، وهو في هذا الصدد يقول « إن أبسط قضية ، أي القضية الأولية ، تثبت وجود واقعة ذرية ما » عبارة رقم ٤,٢١ . فاذا قلت « ا على يمين ب » فهذا يعني أن الوجود الخارجي موجود على النحو الذي أوضحته . وهو كون ا على يمين ب بالفعل – إذا كانت القضية صادقة . وهذه الفكرة عند ڤتجنشتين هي ما تسمى باسم النظرية التصويرية للغة ، تلك النظرية التي لزم عنها قوله بفكرة تحقيق القضية – وهي الفكرة المعروفة في الفلسفة الوضعية بمبدأ التحقق – على الرغم من أنه لا يكاد يستخدم كلمة تحقق verification في فلسفته ، بل نجده يستخدم كلمة مقارنة فيقول في العبارة رقم ٢,٢٢٣ « لكي نكشف عما إذا كان الرسم صادقاً أو كاذباً يلزم أن نقارنه بالوجود الخارجي » ، كما يقول في العبارة رقم ٤,٠٥ «أن الوجود يقارن بالقضية».

كما ترتب أيضاً على قول ڤتجنشتين بتحقيق القضية بمقارنتها بالواقع الخارجي ، نتيجة على جانب كبير من الأهمية في فلسفته وهي القول بالأنا وحدية (أو الأنانة Solipsism)أو بالمثالية الذاتية المتطرفة . إذ أن مقارنة الوجود بالقضية تتم حين تكون الواقعة حاضرة في خبرة الشخص الذي يعقد هذه المقارنة حتى يمكنه معرفة ما إذا كان هناك تطابق بينهما أم لا . ولما كانت الخبرة شيئاً خاصاً بالضرورة ، شيئاً شخصياً أو ذاتياً ، لزم عن ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يعرف شيئاً على أنه موجود باستثناء ما يقع في خبرته هو ، الأمر الذي يجعل معنى العالم مقصوراً على ما يدركه الإنسان ويستطيع أن يعبر عنه باللغة . كما يضيق من مفهوم اللغة ذات المعنى فتصبح محدودة بما يقوله الإنسان من قضايا تعبر عما يقع في خبرته هو . وقد عبر ڤتجنشتين عن هذه النتيجة بقوله « إن معنى أن العالم هو عالمي ، يتبدى في الحقيقة القائلة بأن حدود اللغة (اللغة التي أفهمها) تعني حدود عالمي » (عبارة رقم ٥,٦٢) وهو بهذا يقترب إلى حد كبير من مثالية بركلي الذاتية المتمثلة في عبارته المشهورة « الوجود هو الإدراك » ، وإن كان قد حاول التخلي عن هذه الفكرة في فلسفته المتأخرة بعد ذلك .

والقضايا الأولية مستقلة منفصلة كل واحدة منها عن الأخرى ، شأنها شأن الوقائع الذرية التي ترسمها : فلا تتضمن أية واحدة منها واحدة أخرى ولا تناقض معها لأن كل استدلال منطقي يتعلق عند ڤتجنشتين بالقضايا غير الأولية ، « فلا يمكن استدلال أية قضية أولية من قضية أولية أخرى » (عبارة رقم ٥,١٣٤) ، فاذا قلت مثلا « سقراط حكيم) فان صدق هذا القول لا يستلزم صدق أو كذب القول بأن « سقراط أثيني » . أو بالعكس والقضايا الأولية تتصف كذلك بصفة بالغة الأهمية بالنسبة لمنطق ڤتجنشتين ، وهي أنها أسس صدق للقضايا ، بمعنى أن القضايا الأولية هي التي تخلع الصدق على القضايا » (عبارة رقم ٥,٠١) طالما أن « القضايا هي كل شيء ينتج عن القضايا الأولية » (عبارة رقم ٤,٥٢) بناء على اتخاذ إجراء معين إزاء إحدى القضايا الأولية . ويمثل ڤتجنشتين لهذه الإجراءات بالنفي والجمع المنطقي والضرب المنطقي والتعميم . . . مثل (لا ق) التي تنتج عن القضية الأولية (ق) بتطبيق إجراء النفي .

٢ – قضايا لا تصدق كل منها على واقعة واحدة بل أكثر ، ولذا فهي ليست قضايا بالمعنى الحقيقي عنده بقدر ما هي دالات صدق للقضايا الأوليـــة . وڤتجنشتين يستخدم كلمـــة دالة function بالمعنى الذي تستخدم به في الرياضة ، فاذا كانت ص = ٢س + ٥ مثلا ، كانت ص هي دالة س بمعنى أن قيمة س هي التي تحدد قيمة ص ، وأن قيمة ص تتوقف على قيمة س ،

فلو كانت قيمة س هى ٣ فى المثال السابق ، كانت ص = ١١ . وهذا هو نفس المعنى الذى يذهب إليه فتجنشتين حين يقول إن جميع القضايا عبارة عن دالات صدق للقضايا الأولية ، بمعنى أن صدق هذه القضايا أو كذبها يتوقف على صدق أو كذب القضايا الأولية . فاذا كانت كل من ق ، ل قضية أولية ، كانت العبارة (ق ، ل)وكذا العبارة (إما ق أو ل) مثلا دالة صدق لكل من القضيتين الأوليين ق ، ل بمعنى أن صدق أو كذب أى من العبارتين يتوقف على صدق أو كذب ق وكذا على صدق أو كذب ل .

ومثل هذا النوع من القضايا (أو بالأحرى دالات الصدق تبعاً لنظرية فتجنشتين) ينقسم بدوره إلى نوعين فى « الرسالة » هما :

(ا) قضايا مركبة : : وتتحدث عما هو مركب من واقعتين أو أكثر ، ولذا فهى تتكون من أكثر من قضية أولية واحدة . مثل قولى « سقراط حكيم وأفلاطون تلميذه » الذى يتكون من قضيتين أوليين هما « سقراط حكيم » و « أفلاطون تلميذ سقراط » أو قولى « القلم على يمين الكتاب وهو قلمى » وهو قول يتكون من قضيتين أوليين هما : « القلم على يمين الكتاب » و « القلم قلمى » .

والقضايا المركبة ليست إلا دالات صدق للقضايا الأولية التى تتركب منها عند فتجنشتين ، بمعنى أن صدقها أو كذبها إنما يتوقف على صدق أو كذب هذه القضايا الأولية .

ب — قضايا عامة (كلية) مثل قولى « الإنسان مفكر » ، وهو قول لا يشير إلى فرد أو جزئية واحدة بل يتكلم عن صفة نصف بها أو خبر نخبر به عن أى فرد أو جزئية يمكن أن يندرج تحت فئة بعينهـا هى موضوع الحديث . ومثل هذه القضايا ليست بالقضايا الأولية لأنها لا تشير إلى واقعة ذرية واحدة ، بل هى دالات صدق لقضايا أولية أجرينا عليها إجـراء التعميم بحيث يتوقف صدقها أو كذبهـا على صدق أو كذب القضايا الأولية التى عممناها : فاذا كانت لدى قضية أولية مثل « سقراط عاقل » وأجريت عليها إجراء التعميم فوضعت اسما متغيرا (انسان) بدلا من الاسم الثابت (سقراط) لحصلت على القضية الكلية التالية « الانسان عاقل » وهى عند فتجنشتين مجرد دالة قضية وليست بالقضية ، لأن صدقها أو كذبها يتوقف على صدق او كذب القضايا الأولية التى تتكون من أسماء مثل سقراط ، محمد ، هى كل قيم متغير القضية الكلية (أى الانسان) .

• • •

موضع الرسالة فى فلسفة فتجنشتين :

تعبر الرسالة تعبيراً صادقاً عن فلسفة فتجنشتين فى المرحلة الأولى من مراحل تفكيره الفلسفى ، وكان يعتقد — وقت كتابته إياها — أنه قد توصل بها إلى حل جميع مشكلات الفلسفة فنراه يقول فى مقدمة الرسالة ان الأفكار التى سيقت هنا يستحيل الشك فى صدقها ، أو هى أفكار مقطوع بصدقها ، ولذا فانى أعتقد أن ماهو أساسى فى مشكلات الفلسفة قد تم حله نهائياً .

إلا أنه بدأ يراجع أفكاره مرة أخرى بعد أن تبين فيها بعض الأخطاء ، نتيجة لمناقشاته مع بعض أعضاء جماعة ڤينا مثل شليك وڤايزمان ، فضلا عن نقد بيرو سرافا Sraffa وفرانك رافرى الذى يعطى له فتجنشتين أهمية كبرى فى مقدمة كتابه « أبحاث فلسفية » .

ومما لاشك فيه أن أهم نقد وجه إلى رسالة فتجنشتين كان منصباً على الفكرة الرئيسية التى تدور حولها رسالته ، وهى معرفة حدود اللغـة حتى لا نتكلم فيما لا يمكن الكلام فيه ولا نقول إلا ما يمكن أن يقال . ولما كان كل ما يمكن قوله عند فتجنشتين

هى قضايا العلم الطبيعى التى تتناول العالم الخارجى ، كانت قضايا الفلسفة والميتافيزيقا بوجه خاص خالية من المعنى ، وكانت قضاياه الواردة فى الرسالة نفسها مجرد لغو لا معنى له . ولقد كان ڤتجنشتين نفسه واعياً بذلك الموقف لكنه كان يحاول تبريره فيذهب إلى أنها قضايا ذات فائدة على الرغم من خلوها من المعنى لأنها تكون فى نظره أشبه بالدرجات التى يستخدمها الانسان فى الصعود إلى أعلى فيتجاوزها ، ثم يلقى بالسلم بعيداً بعد أن يكون قد حقق وظيفته فيقول فى هذا الصدد « ان قضاياى توضح الموقف على النحو التالى : ان من يفهمنى سيعلم آخر الأمر أن قضاياى كانت بغير معنى وذلك بعد أن يكون قد استخدمها (سلما) فى الصعود ، أى صعد عليها ليجاوزها » (عبارة رقم ٦,٥٤) .

إلا أن هذا التبرير الذى فسر به ڤتجنشتين موقفه من قضاياه الفلسفية لم يكن تبريراً مريحاً لدى الكثيرين مثل كارنب ورسل وكورنفورث وغيرهم . لكننا إذا ما ناقشنا هذه الفكرة ، فربما يتبين لنا أن نقدر رسالة ڤتجنشتين على هذا النحو وهو كذلك يحتاج إلى تبرير ، لأننا إذا ما اعتبرنا أن قضايا الرسالة مجرد لغو ، فسنكون قد توصلنا إلى هذا الحكم اعتماداً على بعض عبارات الرسالة نفسها — مثل العبارة رقم ٤,٠٠٣ ورقم ٦,٥٢٢ ورقم ٦,٥٣ التى تفيد أن قضايا الفلسفة والميتافيزيقا خالية من المعنى :

ونحن فى هذه الحالة : — ١ — إما أن نعتقد فى صحة هذه العبارات .وبالتالى يكون لها معنى . ومن ثم فاننا نحكم على الرسالة بأنها خالية من المعنى أو مجرد لغو . لكن هذه العبارات هى بعض عبارات الرسالة نفسها ، فهى بالتالى خالية من المعنى شأنها شأن بقية عبارات الرسالة ، وعلى ذلك فهى ذات معنى ، وهى خالية من المعنى فى الوقت نفسه وهذا تناقض .

٢ — وإما ألا نعتقد فى صحة هذه العبارات ، وفى هذه الحالة لا نستطيع أن نحكم على القضايا الواردة فى الرسالة بأنها خالية من المعنى :

بمعنى آخر أننا نجد دوراً فى هذا النقد ، لأن المعيار الذى أحكم بناء عليه بخلو قضايا الرسالة من المعنى ، هو نفسه أحد أجزاء الرسالة ، فهو أيضاً خال من المعنى وبالتالى لا يصلح لأن يكون معياراً استخدمه فى الحكم على غيره طالما أنه هو نفسه لا يفيد أى معنى .

والرأى عندى أن ڤتجنشتين حين قال إن عباراته الواردة فى الرسالة على الرغم من أنها خالية من المعنى إلا أنها تعتبر لغوا له أهمية ، كان يفيد نفس المعنى الذى ذكره من قبل عن تحصيل الحاصل ، وعن معنى الصفر فى الرياضة : فعلى الرغم من أن قضايا تحصيل الحاصل والتناقض لا تفيد شيئاً ولا معنى لها عند ڤتجنشتين ، إلا أنها ليست خالية تماماً من المعنى « إنها جزء من الجهاز الرمزى ، على نفس النحو الذى يكون فيه » الصفر « جزءاً من الجهاز الرمزى الخاص بالحساب » (عبارة رقم ٤,٤٦١١) . وكأن ڤتجنشتين كان يريد القول بأننا كما نستخدم الصفر فى الجهاز الرمزى الخاص بالحساب على الرغم من أنه لا يشير إلى فئة معينة من الأشياء ولا يعتبر متغيراً شأنه شأن بقية الأعداد الأخرى ، وكما أننا نستخدم تحصيل الحاصل وكذا التناقض فى الجهاز الرمزى الخاص بالقضايا وإمكانات الصدق ، فكذلك نحن نستخدم قضايا الفلسفة لكى نرتفع فوقها ونجاوزها على الرغم من أنها فى نظره خالية من المعنى .

وعلى العموم ، فقد بدأ ڤتجنشتين يراجع أفكاره الفلسفية الواردة فى « الرسالة » فيما بعد ومن بينها أفكاره عن اللغو والخلو من المعنى وكذا فكرته عن الذرية المنطقية ، ونظريته التصويرية للغة ، وفكرته

عن طبيعة المعنى وفكرته عن الأنا وحدية . . وغير ذلك .

فهو مثلا يتخلى عن فكرته التى افتتح بها «رسالته» من أن العالم ينحل إلى وقائع ذرية تتكون من أشياء أو من بسائط منطقية .. إذ أن السبب الأساسى الذى دعا ڤتجنشتين إلى القول بتحليل العالم إلى وقائع ، كان هو ضرورة وجود وحدات أولية ينحل إليها العالم ، لكى تقابل الوحدات الأولية التى تنحل إليها اللغة — أى أن تحليله للعالم على هذا النحو جاء تبريراً لتحليله للغة إلى مجموعة من القضايا الأولية .

ولما غير ڤتجنشتين من وجهة نظره بتحليل اللغة فى فلسفته المتأخرة (التى تتمثل فى كتابه « أبحاث فلسفية تخلى بالتالى عن فكرته السابقة فى تحليل العالم .

* * *

وأخير لم يكن ڤتجنشتين مهتماً بالنتائج الفلسفية التى يتوصل إليها بقدر اهتمامه بالمنهج الجديد الذى يجب اتباعه فى الفلسفة وهو المنهج التحليلى . ولقد تركت هذه الفكرة فى كثير من الفلاسفة المعاصرين أثراً بالغاً ، فضلا عن تأثير أفكاره الفلسفية ذاتها فى فلاسفة الوضعية المنطقية وفلاسفة التحليل اللغوى .

فلقد تأثر برتراند رسل بأفكار تلميذه ڤتجنشتين المتعلقة بالذرية المنطقية فنراه يقول فى مقدمة مقالته عن « فلسفة الذرية المنطقية » التى نشرت عام ١٩١٨ « انه معنى إلى حد كبير بشرح الأفكار التى تعلمها من صديقه وتلميذه السابق لدڤيج ڤتجنشتين » .

كما كان تأثير ڤتجنشتين فى رودلف كارنب أشد وضوحاً وخاصة فيما يتعلق بفكرته عن خلو قضايا الميتافيزيقا من المعنى ، وليس أدل على ذلك من أن كارنب خصص لهذا المعنى مقالا بعنوان « حذف الميتافيزيقا باستخدام التحليل المنطقى للغة » وهى نفس الفكرة التى دعا إليها أيضاً فى مقاله « المنطق القديم والمنطق الحديث » . فضلا عن تأثيره فى آير Ayer وخاصة فكرته عن تحقيق القضية وارتباط معناها بمدى مطابقتها للواقع . وكذا فكرته عن خلو قضايا الميتافيزيقا من المعنى ، تلك الفكرة التى نجد صداها دائماً عند كل فلاسفة التحليل اللغوى المعاصرين مثل جلبرت رايل الذى يذهب فى مقال له بعنوان «تعبيرات مضللة » الى أن العبارات الميتافيزيقية من هذا النوع لأنها فى حقيقتها خالية من المعنى . وهى نفس الفكرة تقريباً التى نجدها عند ڤايزمان وويزوم وغيرهما .



فن الحب لأوفيديوس

بقلم
الدكتور احمد عبد الرحيم ابوزيد
كلية الآداب – جامعة القاهرة

كان « أوفيديوس » Ovidius شاعراً مثقفاً حمل إلينا ثقافته الواسعة سواء تلك التي أخذها عن اليونان وبخاصة شعراء الاسكندرية أو تلك التي استقاها من الرومان الذين سبقوه أو عاصروه . وأعطى أوفيديوس للوزن الإليجى باتقانه وسيطرته عليه صورته النهائية واستخدمه فى مجال أوسع فكتب به فى الحب ، وفيما يخالج المرأة من نزعات ، وفى الشعر التعليمى ، وفى الذم وفى الأحزان . ووجد أوفيديوس آذاناً صاغية من العالم الأوربى الذى استجاب لكتاباته أكثر من استجابته لأى كاتب رومانى آخر .

أما عن الحب فقد كتب شاعرنا كتباً كثيرة منها كتاب فى « الغزليات » Amores وآخر فى « رسائل البطلات » Heroides وثالث عن « طلاء وجه المرأة Medicamina Faciei ورابع عن « فن الحب » Ars Amatoria وخامس عن « الشفاء من الحب » Remedia Amores .

وكانت هذه الكتب جميعاً بالشعر الإليجى الذى يقوم على بيتين من الشعر ، الأول بالوزن السداسى ، والثانى بالوزن الخماسى . ومن الصعب تحديد موضوع هذا اللون من الشعر عند اليونان والرومان .

وقد ظهر شعراء الإليجى منذ سنة ٧٠٠ ق م ؟ ويمكننا أن نعرف الموضوعات المختلفة التى طرقها الشعراء اليونان الأوائل مثل الأغنيات التى كان يتغنى بها وقت الشراب والموضوعات الحماسية التى تدور حول الحرب والسياسة والقصص المأخوذة من واقع الحياة أو من وضع الخيال والنقوش المسطورة على المقابر والمرثيات . وقد جعل شعراء الإسكندرية لهذا النوع من الشعر صورة أدبية مميزة وابتعدوا به عن أغراضه السابقة وأضفوا إليه صورة حية من عندهم فكان « كاليماخوس » شاعر الأسكندرية أكبر داع للقصيدة الشعرية القصيرة وسيد الشعر الإليجى بعد كتابته لقصيدته المعروفه « الأسباب » Aitia ، كما كتب أشعاراً عن الحب مثل قصيدته « خصلة بيريليكيس» التى كتب عنها الشاعر الرومانى كاتوللوس. وقد تأثر أيضاً كتاب غير كاتوللوس بشعراء الاسكندرية فكتبوا عن الحب بالشعر الإليجى .

ولكن الرومان – وليس كاليماخوس – هم أول من ابتكروا شعراً إليجياً لا يتحدثون فيه عن قصص الحب عامة بل يعبرون عن تجاربهم العاطفية الذاتية . كما نجد فى كاتوللوس الذى أحب لسبيا Lesbia

وجالاســوس الذى أحب « ليكوريس » Lycoris وتيبوللوس الذى أحب ديليا Delia وپروپرتيوس الذى أحب « كينثيا » Cynthia وأخيراً أوڤيديوس الذى كان يحب « كورينا » .

فكأن الشعر الإليجى هو أقوى أنواع الشعر الصادر عن ذاتية الشاعر . وبالرغم من أن الغموض يكتنف أصل هذا النوع من الشعر وتطوره عند الرومان فإن كاتوللوس قد خطا فى ميدانه خطوة هامة أصبح لها تأثير كبير على من أتى من بعده من شعراء الرومان ومن ثم على الأدب فى العالم . فقد أصبح الحب أهم موضوع للشعر الإليجى .

والشعراء الذين ينتظرون من الشاعر أن يلتزم بتعاليم أخلاقية قد يجدون فى أوڤيديوس شاعراً مستهتراً . ولكن علينا أن نلحظ أنه كان طبيعياً فى تفكيره ومصطلحاته ، وأنه كان يكتب للتسلية التى هى من أهداف الأدب . وقد كان الحب موضوع حديث من سبقوه منذ كتابة «الملاحم» حتى «الدراما» . فلم يكن فى كتابات « أوڤيديوس » ما يثير الشهوات أو ما ينافى الأخلاق . حقاً إنه كان يكتب عن الحب ولكنه كان يكتب عن تجربة فى أمر خطير فى عالمنا وهو جنس النساء ولم يظهر أى شاعر رومانى معرفة عميقة بهذا الموضوع أكثر منه ، وكما لم يظهر أى شاعر مقدرة مثله على سرد القصص .

وولد «پوبليوس أوڤيديوس ناسو» PubliusOvidius Naso فى ٢٠ مارس سنة ٤٣ ق.م بمدينة « سولمو » Sulmo التى يطلق عليها الآن اسم « سولمونا » Sulmona وتبعد نحو تسعين ميلا شرقى روما . وتقع فى مقاطعة « پاليلجنى » Paeligni فى وسط إيطاليا ويحدثنا أوڤيديوس عن جوها البهيج وجداولها الكثيرة وكانت أسرته من طبقة الفرسان .

ومعظم معلوماتنا عن حياته مستقاة من مقطوعة له فى كتابه « الأحزان » Tristia (الأحزان — الكتاب الرابع — المقطوعة العاشرة) بالإضافة إلى ما يخبرنا « سنكا الأكبر » و « كوينتيليانوس » عن تعاليمه البلاغية ومميزاته بوصفه شاعراً . اهتم والده بتربيته وأراد له العمل بوظائف الدولة فأرسله مع أخيه الذى كان يكبره بسنة إلى روما ليتعلما فن البلاغة والخطابة حيث درسا على يد « أريليوس فوسكوس » Arellius Fuscus و « پوركيوس لاترو » Porcius Latro وقد أظهر أوڤيديوس ميلا إلى الشعر أكثر من ميله إلى الخطابة . وبعد ذلك ذهب إلى أثينا كغيره من أبناء الأغنياء إذ كانت أثينا تعتبر جامعة العالم الرومانى . وذهب أيضاً إلى آســيا الصغرى مع صديقه الشاعر «ماكر» Macer وعند عودته التحق ببعض الوظائف الصغيرة مثل وظيفــة التريومفير كاپيتاليس Triumvir Capitalis [1] «والكنتومفير» Centumvir [2] ولكنه سرعان ما ترك هذه الوظائف المضنية التى أرادها له أبوه واحتشد لكتابة الشعر فقد كانت لديه فطرة قوية نحو الشعر منذ الصغر وقد شجعه على ذلك كونه الوارث الوحيد لممتلكات أبيه بعد وفاة أخيه . وطرق أوڤيديوس المحب للحياة السهلة المرحة موضوع الحب فى اشعاره التى كتبها بالوزن الإليجى ، هذا الوزن أصبح على يديه فى صورة جديدة تخالف ما كان عليه فى شعر « پروپرتيوس » و « تيبوللوس » فكان هذا الوزن أكثر صقلا وصفاء من ذى قبل ، ينساب فى سرعة وخفة ورونق .

وقد جعله مناسبا لإنتاج السريع ذى التأثير المشبع دون أن يضمنه تعمقاً كبيراً . وهكذا ابتدأ عهد جديد وشعر الناس بوجوده عندما نشر أوڤيديوس

(١) يتكون هذا المنصب من ثلاثة قضاة يفصلون فى المنازعات بين العبيد والأشخاص من الطبقات الدنيا ويباشرون السجون ويحضرون موت المجرمين .

(٢) محكمة من مائة شخص يفصلون فى القضايا الخاصة بالملكية والوراثة .

حوالى سنة ١٦ ق.م طبعته الأولى من « الغزليات » Amores وقد كتب كتباً أخرى فكانت محاولته الثانية هى « رسائل البطلات » وهى مجموعة من الرسائل الأدبية الشعرية ترفعها سيدات من الأساطير إلى أزواجهن الغائبين أو محبيهن . وطرق بعد هذه الرسائل موضوعاً تعليمياً عن زينة المرأة فكتب عن « طلاء الوجه » ، وبعد السنة الأولى الميلادية نشر مؤلفه عن « فن الحب » قصد به أن يعالج الحب كعلم ثم كتب « الشفاء من الحب » عندما أحس أن مؤلفه « فن الحب » لا يروق الامبراطور « أوغسطوس » الذى كان يهدف إلى تقويم الأخلاق. ثم تحول إلى موضوع آخر أكثر جدية فجمع عدة قصص من الأساطير تحدث فيها عن تحول شخص أو شيء إلى شكل مغاير وصاغها بدربته على سرد القصص فى إطار مناسب أكسبها نوعاً من الوحدة ، وهذه القصص احتواها كتابه المسمى « التغيرات » Metamorphoses وفى نفس الوقت الذى كان مشغولا فيه بكتابة التغيرات كان يكتب كتابه عن « التقويم الرومانى » Fasti .

وبينما كان يواصل كتابته لهذا الكتاب حلت به ملمة نغصت عليه حياته إذ كان يعيش فى روما فى هدوء مع زوجته الثالثة التى برهنت على اخلاصها وولائها له ويقدره الجميع لمقدرته الأدبية إذ جاءه أمر امبراطورى سنة ٨ ميلادية وهو فى سن الخمسين بالنفى إلى « تومى » Tomi التى تقع على البحر الأسود كما صودرت جميع كتبه من المكتبات العامة فى العاصمة . وقد كان نفى أوفيديوس من النوع الذى يطلق عليه « ريليجاتيو » Relegatio وهو أبسط أنواع النفى إذ أن المنفى يؤمر بأن يعيش فى بلد معينة خارج إيطاليا بينما يحتفظ بحقوقه كمواطن ولا تصادر أملاكه . ويذكر أوفيديوس بأن الامبراطور لم يسلبه الحياة أو الغنى أو حق المواطن [1]

(١) Nec vitam nec opes nec ius mihi civis ademit.

ويقول فى مكان آخر إن جميع ما فعله هو أنه أمرنى بأن أترك وطن آبائى [1] . ولكن كان وقع الخبر عليه كالصاعقة فتألم كثيراً إذ كان يجب عليه أن يترك روما بمسراتها ومجتمعها الذى أحبه وكذلك زوجته ومنزله وأصدقاءه إلى مكان قصى دون روما فى الحضارة والمدنية ويختلف فى اللغة والعادات.

وكان من نتائج تأثره أن أحرق وهو فى طريقه إلى المنفى بعضاً من أشعاره ومن بينها كتاب « التغيرات » الذى لم يتمكن من مراجعته جميعه ولكن لحسن الحظ كانت هناك نسخ منه فى أيدى أصدقائه الذين نشروه . ونحن لا نعرف حتى الآن السبب الحقيقى فى نفى أوفيديوس . وهو نفسه يخبرنا بأن نفيه يرجع إلى شيئين : « قصيدة » و « غلطة » [2] والقصيدة هى « فن الحب » Ars Amatoria تلك القصيدة التى تتنافى مع اصلاحات أوغسطوس الاجتماعية بما تحتويه من أشياء مفسدة للأخلاق . ويتضح ذلك مما يذكره أوفيديوس فى الجزء الثانى من كتاب الأحزان [3] . ولكن بما أنه قد مضى ما يقرب من عشر سنين على نشر هذا الكتاب فإنه لابد وأن يكون السبب المباشر لنفيه هو الغلطة ويذكر أوفيديوس بأنها غلطة error وليست جريمة (scelus) [4] . ولكنه يلوذ بالصمت ولا يفسر لنا طبيعة هذه الغلطة بل يقول إن سبب نفيه سوف

(١) Nil nisi me patriis iussit abire focis.

(٢) كتاب الأحزان – الجزء الثانى – سطر ٢٠٧ :
duo crimina, carmen et error.

(٣) Carmina fecerunt, ut me moresque notaret Iam demum visa Caesar ab arte meos. Trist. 11.7.

«إن قصائدى كانت السبب فى أن قيصر وصمنى وأخلاقى بالعار بسبب الفن (فن الحب) الذى ظهر لمدة طويلة خلت » . كان فن الحب قد نشر فى سنة ٢ ميلادية .

(٤) Tristia I. iii. 37

لا يبوح به وسيكون فى طى الكتمان[1] . وعلى كل فقد آذت هذه الغلطة الامبراطور أوغسطوس[2] . ونظراً لأن أوڤيديوس يخبرنا بأن عينيه كانتا السبب[3] . فهذا يدل على أنه كان شاهد عيان لعمل ما أغضب الإمبراطور . فما هو إذن هـذا الشئ ؟ اختلفت الآراء فى كنهه ، فمن قائل إنه ربما كانت هناك مؤامرة ضد أوغسطوس ولكن كان يجب حينئذ أن يعاقب المتآمرون عقاباً صارماً بدلا من نفيهم مع الاحتفاظ بحقوقهم المدنية . ومن قائل إنه ربما رأى زوجة أوغسطوس فى الحمام . ومن قائل إنه ربما كان عشيق چوليا (Julia) حفيـدة الامبراطور أو تستر على علاقتها الفاسقة ففى سنة ٨ ميلادية ، وهى نفس السنة التى نفى فيها أوڤيديوس ، نفى الامبراطور حفيدته إذ أن أفعالها المخزية تتعارض مع سياسة أوغسطوس إزاء حماية الأخلاق كما تحمل العار لمنزله فربما رأى أوڤيديوس عملاً مشيناً أتته هذه الحفيدة ... إلى غير ذلك من الافتراضات .

واستغرقت رحلته من روما إلى « تومى » - تلك التى كان بعضها بحراً وبعضها الآخر براً ما يقرب من سنة — وقد كان هذا النفى أمراً قاسياً بالنسبة لشاعر حساس متحضر كأوڤيديوس فقد قاسى الكثير من مرارة النفى والمرض وجو تلك البلاد القارس البرد كما كان دائم الشكوى من نقص الكتب والأصدقاء من الأدباء ومن هجوم القبائل المتبربرة المحيطة بالمنطقة التى كان يقطن بها وكان تواقاً للعودة إلى وطنه أو على الأقل إلى منفى آخر أليق من تومى . كل هذه الآلام والآمال مذكورة فى أشعاره التى كتبها فى المنفى وأهمها كتاب «الأحزان» Tristia وأتبعه بكتاب « رسائل من پونتوس » Epistulae ex Ponto كما كان هناك مقطوعته المعروفة باسم « إيبيس » Ibis وهى قصيدة هجاء ضد شخص أراد أن تصادر أملاكه . وكتب أيضاً قصيدة تعليمية بالوزن السداسى (ذلك الوزن الذى كتب به أيضاً «التغيرات») عن الأسماك والحيوانات البحرية المختلفة فى البحر الأسود . كما نسب إليه مقطوعات أخرى مثل المقطوعة المسماة « شجرة عين الجمل » Nux التى يتحدث فيها عن آلام هـذه الشجرة التى يقذفها المارة بالحجارة دون جريرة ارتكبتها .

كل هذه القصائد ينقصها المرح الذى نشاهده فى قصائده الأولى ونجد فيها آلامه وتوسلاته الكثيرة إلى الأباطرة فقد قضى فى المنفى مايقرب من عشر سنين قضى منها أربعا تحت حكم الامبراطور تيبريوس خليفة أوغسطوس ولكنه لم يمنح الإذن بالعودة إلى إيطاليا . وهكذا مات فى المنفى كسير القلب سنة ١٨ ميلادية .

أعماله

الغزليات

تحدث أوڤيديوس عن محبوبته « كورينا » Corinna ولم تكن كورينا شخصية حقيقيـة بل كانت من نسج خيال الشاعر . وقد خالف الشاعر بذلك المأثور عن شعر الحب الإليجى . فلقد سبقه من قبل الشاعران « تيبوللوس » و « پروپرتيوس » وكان كل منهما يحب معشوقته حقاً فكان الأول يحب « ديليا » Delia وكان الثـانى يحب « كينثيا » Cynthia ولكن معشوقة أوڤيديوس لم تكن سوى شخصية خيالية جعلها موضوعاً لتجاربه الذاتية .

ونعتقد أن شاعرنا ربما خاض من التجارب العاطفية الكثير ، وأن تجاربه هذه كانت متنوعة المواقف رغم وحدة الشخصية التى اتخذها موضوعاً

---

(١) Tristia. IV. x. 99

(٢) Tristia. II. 133, 209

(٣) Tristia. III. v. 49 : peccatumque oculos est habuisse meum.

« وإن خطئى هو أن لى عينان »

لتجاربه . وربما أوحى ذلك لنا بأن «كورينا» كانت خلاصة النساء اللاتى صادقهن الشاعر فى حياته فهى حيناً متزوجة ، وحيناً بغير زوج ، وتارة نراها تستدعى الإعجاب وأخرى نراها عارية من الحياء . وهذا يعزز ما نراه من أن كورينا كانت النموذج الذى اتخذه الشاعر لكل المواقف العاطفية التى عاناها فى حياته رغم تعددها وتباينها بل تناقضها أحياناً .

ويحتوى كتابه عن الغزليات تسعاً وأربعين إليجية تختلف فى تنوعها وقوة جيشانها مما كتبه أسلافه فى هذا الميدان . وهى توضح لنا ميله الشديد لمغامرات الحب . إنه يقول : «وأخيراً فإن أية فتاة يعجب بها شخص فى أى حى من أحياء روما يتطلع إليها حبى»[1].

وكتاب الغزليات يشتمل على ثلاثة كتب :

يتحدث فى الكتاب الأول عن كيوبيد إله الحب وكيف أنه يلزمه بالكتابة عن الحب وأنها أفضل من الكتابة عن الحرب ثم يذكر أنه أسير عند كيوبيد . ويتحدث فى المقطوعات الأخرى عن إخلاصه لسيدة حقيرة ومحاولته الكلام بلغة تلميحية فى حضرة زوج معشوقته ، واستعطافه البواب لكى يفتح الباب لمعشوقته . واعتذاره لضرب معشوقته ولعنه للقوادة التى تعلم معشوقته كى تستخدم مفاتنها للاستمتاع والكسب ، وإخباره معشوقته بأن الحب يجب ألا يدنس ، وشكره لأحد الخدم بعد أن سلم رسالة حب من أجله ورجاؤه الفجر ألا يسرع بالرحيل . ويتحدث فى الكتاب الثانى عن محاولته أن يثنى معشوقته عن رحلة اعتزمت القيام بها وتمنيه لها بولادة سهلة عندما يأتيها المخاض . وإطرائه لبلدته «سولمو» Sulmo تلك التى لا ينقصها إلا حضور معشوقته . واعترافه بعبوديته لمعشوقته كورينا . ويحتج على سيدة فى المقطوعة السابعة لاتهامها إياه بأنه أحب خادمتها . وفى المقطوعة العاشرة يعترف بأنه يحب وأنه يرجو أن يقع فى حب فتاتين فى وقت واحد .

ويصف فى الكتاب الثالث سباق العربات الذى حضره مع معشوقته ، ويخبر فى المقطوعة الثالثة زوجاً غيوراً بأنه بقدر ماهو يراقب زوجته بعناية بقدر ماهى تميل إلى الرذيلة . وفى السادسة يلعن نهراً عاق مروره إلى معشوقته .

وفى الثامنة يندب حظه لأن معشوقته قد فضلت عليه رجلا ثرياً . وفى التاسعة يشكو الإلاهة «كيريس» لأن عيدها قد فصله عن معشوقته . ويذكر فى الثانية عشرة كيف أن أشعاره قد أعلنت عن معشوقته حتى أصبح له منافسون كثيرون . ويصف فى الثالثة عشرة عيد الإلاهة «يونو» الذى حضره مع زوجته .

ونلحظ أن كتابه هذا يحتوى على مقطوعات أوحت له بكتابة مؤلفه عن «فن الحب» وذلك مثل المقطوعة الرابعة من الكتاب الأول حيث ينصح معشوقته بالسلوك الواجب عليها اتخاذه فى حضرة زوجها ، أو المقطوعة الثامنة من الكتاب نفسه حيث يتحدث عن نصائح القوادة للعاهرة .

البطلات

أما كتابه عن البطلات فهو مجموعة من رسائل خيالية من سيدات من عصر الأبطال أو الأساطير إلى أزواجهن أو عشاقهن الغائبين . وتظهر هذه الرسائل مقدرة أوڤيديوس على سرد القصص وفهمه لأخلاق النساء . ويعتبر هذا الكتاب أكثر أعمال أوڤيديوس ذيوعاً .

فهناك مثلا رسالة پينيلوپى Penelope إلى زوجها «أوديسيوس» تشكو ما هى فيه بسبب عدم عودته من حرب طرواده . والرسالة التى تبعث بها «بريسيس» Briseis محظية «أخيليس» تؤنب فيها أخيليس لقعوده عن إنقاذها من «أجاممنون» الذى استولى عليها .

(١) كتاب الغزليات الثانى — المقطوعة الرابعة .

والرسالة التى تبعتها « أوينونى » Oenone إلى باريس Paris تذكره فيها بأيام شبابهما الحلوة على منحدرات جبل « إيدا » Ida بطرواده وكيف أنه خط اسمها على الأشجار هناك ثم تتساءل إن كان سيقرأ خطابها أم أن زوجته الجديدة (هيلين) ستمنعه من ذلك . أو الرسالة التى تبعتها (ديدو) ملكة قرطاجنه الى « أينياس » الذى هجرها فعزمت على الانتحار .

وكل رسالة من هذه تعبر عن مأساة ولكن فى كل منها تنوع فى الحوادث ، وتصوير مغاير لشخصياتها أمدها أوفيد يوس بروح من عنده ووضعها فى قالب حى بمقدرته التى لا تجارى فى فن القصص رغم أنه أخذ موضوعاتها عن غيره .

تطرية وجه السيدات

وهى عبارة عن كتاب يوضح الطريقة التى تتبعها السيدات فى صبغ وجوههن . ووصلت إلينا فى شذرات مكتوبة بالوزن الأليجى . ويعتبر كتاباً تعليمياً .

الشفاء من الحب

لاقت كتب أوفيديوس عن الحب شيئاً من عدم الاستحسان حمله على أن يسترضى هذه المشاعر بكتابه الذى أطلق عليه « الشفاء من الحب » .

وفى هذا الكتاب يذكر مثلا كيف يجب على الإنسان أن يقلع عن الحب قبل أن يتملك منه . وإذا لم يستطع فلينتظر قليلا حتى يفرغ الحب جميع مافى جعبته ويستنفد قواه . وبعد أن ينهل الإنسان من كأس الحب حتى يرتوى ويشعر بالمرض فليبحث عن عمل كالزراعة ، أو فلاحة البساتين أو الرماية أو صيد الأسماك ليشغل به نفسه فإن الحب ينتصر على البطالة . ويمكن للإنسان أن يرحل بعيداً فليس هناك ما يفضل السفر الطويل وتغيير المناظر للتخلص من ذلك الشئ الذى يسكن القلب ، وإذا كان الانسان مضطراً للبقاء فى المدينة رغبة منه أو بالرغم منه فعليه ألا يقترب من الأماكن التى تعود أن يقابل محبوبته فيها . ويجب أن يقطع علاقته بأصدقائها ويحرق رسائلها ويمزق صورتها ويتخذ لنفسه فتاة أخرى .

التغيرات

قام أوفيديوس بكتابة مجموعة هامة من القصص التى تبلغ مائتين وخمسين قصة معظمها عن الأساطير اليونانية يتحدث فيها عن تحول شخصى أو شئ ما إلى شكل مغاير له تماماً كشجرة أو صخرة أو طائر أو حيوان أو زهرة أو جسم سماوى . . . وهذه التغيرات تحدث بسبب الحب والحقد والانتقام الذى ينتاب الآلهة والأبطال أو المحبين الغضاب . وجعل الشاعر بدايتها مقترنة بابتداء الخليقة حتى عصر يوليوس قيصر الذى وصفه بأنه قد تحول إلى نجم .

فيتحدث مثلا عن « سكيلا » Scylla إحدى حوريات البحر التى أحبها إله البحر « جلاوكوس » ولكنها صدته عن حبها فذهب إلى الإلاهة « كيركى » Circe الشهيرة بالسحر كى تساعده على أن تحبه سكيلا ولكن الإلهة الساحرة نفسها أحبت جلاوكوس فلم يستجب لحبها فصممت على ألا تتمتع سكيلا بحب جلاوكوس وسممت المكان الذى كانت سكيلا قد تعودت أن تستحم فيه وكان نتيجة ذلك أن تحولت سكيلا إلى وحش بحرى واتخذت الشكل الذى نشاهده فى الفن — وإن كان وجهها لا يزال وجه حورية جميلة ولكن بقية جسمها اتخذ صورة وحوش فى شكل كلاب تنبح . وقد واجهها أوديسيوس فى رحلته البحرية بعد سقوط طرواده . وقد كان مسرح حوادث أسطورة سكيلا فى مضيق مسينا حيث توجد صخرة فى الجانب الإيطالى من المضيق

تسمى باسمها ، ومن هنا أضيفت الأسطورة القائلة بأنها قد انتابها تغير آخر بمرور الزمن وتحولت إلى صخرة .

وكانت طريقة سرد أوڤيديوس لهذه القصص غالباً ما تقوم على المزج بين القصص . ونلحظ أنه رغم أن هذه القصص عديدة إلا أنه يسودها الوحدة كما تسود قصص « ألف ليلة وليلة » ، وربما كانت قصص أوڤيديوس أكثر وحدة فإن موضوعات قصصها متشابهة وتسودها روح رومانتيكية أسطورية واحدة . وقد اتبع أوڤيديوس طريقة شاعر الاسكندرية « كاليماخوس » فى كتابه « الأسباب » Aitiae المكون من عدة آلاف من الأبيات فى قالب قصصى فجمع بين العمل الطويل والقصص القصيرة فيحتوى كتاب التغيرات خمسة عشر جزءاً .

وأخذ أوفيديوس موضوعه هذا عن الشعراء وكتاب المسرحية اليونان الذين طرقوا موضوع الأساطير ، كما أخذ عن بعض الفلاسفة اليونان ، مثل « بيثا جوراس » Pythagoras الذى يقول بتناسخ الأرواح وأن الأشياء تتغير دون أن تفنى .

كما أنه تأثر أيضاً بشعراء الاسكندرية فقد طرق بعضهم موضوع التغيرات كما فى مؤلف « نيكاندروس » (القرن الثانى قبل الميلاد) المسمى Heteroioumena « أشياء تغيرت » وهو يشتمل على مجموعة من القصص .

وكتب أحدهم ويدعى « بويوس » Boeus فى تاريخ غير معروف Ornithogonia « أصل الطيور » ويتعلق بتغير البشر إلى كائنات مجنحة .

وكان هذا نموذجاً لعمل شبيه كتبه « أيميليوس ماكر Aemilius Macer أحد معاصرى أوفيديوس » .

وتأثر أيضاً بالرومان ، مثل فرجيليوس خاصة عندما تحدث عن رحلة « أينياس » . ونلحظ أنه لم يشد بالوطنية الرومانية ولم تكن هدفه كما كانت عند فرجيليوس . حقاً لقد تحدث عن يوليوس قيصر كما تحدث أيضاً عن أوغسطوس ولكنه لم يتخذ الأخير محوراً لحديثه بل ذكره كأنه آخر أعجوبة حيث يقول إنه يعتبر مجداً خالداً ليوليوس قيصر أن يكون أبا لأوغسطوس وإنه حينما يترك أوغسطوس العالم الدنيوى سوف يحكم فى السماء ويصبح إلاهاً مجيب الدعوات .

من هذا يتضح أن معظم هذه القصص كانت معروفة ولكن أوڤيديوس سردها بطريقة مختصرة بليغة وأكسبها لوناً جذاباً لا يستطيع القيام بمثله سوى رجل ذى مقدرة أدبية . وقد تحرر أوڤيديوس فى سرده لبعض هذه القصص كما أنه قد ذكر بعضاً من قصص الأساطير التى ليس لها علاقة بالتغيرات كاختطاف « پروسرپينا » مثلا وموت « أخيليس » وقصة حب « بيراموس » لثيسبى Thisbe

وقد طلى أوڤيديوس هذه الأساطير بطلاء جديد وأكسبها حيوية أثرت فى الأدب والفن فى العصور الوسطى والنهضة الأوروبية .

ولقد كانت الأساطير القديمة مظهراً واضحاً من مظاهر ثقافات كثير من اليونان والرومان المثقفين ، وبخاصة الشعراء فلاغرابة فى أن يطرق أوڤيديوس المثقف هذا الموضوع مثلهم وأن يسبغ عليه من معلوماته الوفيرة وذاكرته القوية وخياله الخصب وتصوره اللماح حياة جديدة ... ولا غرابة فى أن تتأثر أيضاً حضارة العصور الوسطى والنهضة الأوروبية بهذا الموضوع ...

التقويم الرومانى Fasti

كتب أوڤيديوس قصيدة هى تقويم للسنة الرومانية ولذلك تعتبر قصيدة تعليمية . وقد وصل إلينا منها ستة كتب يتحدث فى كل منها عن شهر من أشهر النصف الأول من السنة وذلك من شهر

يناير حتى شهر يونيو وفيها وصف الأعياد والطقوس الدينية والأساطير والحوادث التاريخية المتصلة بأيام خاصة .: وقد استقى أوڤيديوس مادتها من السجلات القديمة للدولة الرومانية والتاريخ والأساطير وعلم الفلك .

ويخبرنا أوڤيديوس نفسه بأنه استخدم السجلات القديمة .

ونحن نعرف أن « ڤيريوس فلاكوس» Verrius Flaccus كتب تقويماً شبيهاً بما فعله أوڤيديوس خصوصاً ما يختص بأيام الأعيـاد والاحتفالات السنوية كما كتب « ڤارو » Varro عن الآثار الرومانية القديمة والمعتقدات الدينية الشائعة . وكذلك كتب « إنيوس » Ennius وغيره « حوليات » Annales عن الموضوع نفسـه : . وكتب « كلوديوس توسكوس » Clodius Tuscus عن علم الفلك – فمن المحتمل أن يكون أوڤيديوس قد استقى معلوماته من هؤلاء جميعاً .

وقد عرض الشاعر « پروپرتيوس » فى أواخر أيامه للأساطير ولمثل هذه الموضوعات الأثرية عند ما يئس من الحب وعندما شجعه « مايكيناس » وزير أوغسطوس على ذلك فطرق هذه الموضوعات بالوزن الإليجى وبذا يكون قد خلق لوناً جديداً من الشعر الإليجى اقتبسه أوڤيديوس لكتابة تقويمه إذ أنه خالف الشعراء التعليميين السابقين أمثـال « لوكريتيوس » و « ڤرجيليوس » الذين استخدموا فى أشعارهم وزناً غير الوزن الإليجى وهو الوزن السداسى .

ويذكر أوڤيديوس[1] أنه كتب اثنى عشر كتاباً ولكن ليس لدينا سوى ستة ولا يوجد ما يثبت وجود الستة الباقية حتى يكمل الجزء الخاص بنصف السنة الثانى فمن المحتمل أنها قد أحرقت مع ما حرقه من كتاباته عند ترك روما لمنفاه أو أنها لم تكن معدة للنشر وعلى أية حال لا يمكن الجزم برأى قاطع فى هذه المسألة :

ويمتاز وزن الإليجى فيها بالرقة والسهولة ولكنه لم يبلغ من السمو والإيقاع الهرمونى ما نجده عند كبار الشعراء ، كما يتلاعب أوڤيديوس فيها بتصوراته وخياله :

وقد خلق أوڤيديوس شعراً وطنياً وربما كان يهدف إلى إرضـاء الامبراطور أوغسطوس حتى يأخـذ فى القصر الامبراطورى مكان الشـاعرين « ڤرجيليوس » و «هوراتيوس» اللذين كانا قد توفيا، خاصة بعد كتاباته عن الحب التى لم تكن تساعد الامبراطور على نشر القيم الأخلاقية فى المجتمع الرومانى ولكن جاء نفيه مخيباً للآمال :

الأحزان Tristia (Sc. Carmina)

وكتب أوڤيديوس فى منفاه أغانى حزينة فى صورة رسائل بالوزن الإليجى تظهر حزنه العميق لنفيه وما يقاسيه فى هذا النفى .. ويشمل مؤلفه هذا خمسة كتب تقوم على الترتيب الزمنى كما أن أوڤيديوس لا يذكر فيها أسماء الأشخاص المرسلة إليهم حتى لا يتعرضوا لغضب الامبراطور .

والكتاب الثانى منها يقوم على موضوع واحد أما باقى الكتب فتشتمل على عدة رسائل متنوعة لها مقدمة وخاتمة فيذكر مثلا فى المقطوعة الأولى من الكتاب الأول – الذى يحتوى على إحدى عشرة مقطوعة مجموعها ٧٣٨ بيتاً ، يذكر إرسال الكتاب إلى روما وأنه لم يعتن بتغليفه لما كانت عليه حالة كاتبه المنفى من الأسى وأنه ليس عنده أمل فى أن يجسر أحد الأشخاص على تقديمه للإمبراطور .

والمقطوعة الحادية عشرة هى الخاتمة وفيها يعتذر عن العيوب والشوائب التى تكابد منها قصائده إذ أنها

(١) كتاب الأحزان – الجزء الثانى – سطر – ٥٤٩ .

كتبت أثناء رحلة شاقة عبر بحر الأدرياتيك وبحر إيجه.

أما الكتاب الثانى فقد كتبه فى المنفى ورفعه إلى أوغسطوس ويختلف عن باقى الكتب كما ذكرنا فى أنه لا يحتوى على عدة رسائل بل على موضوع واحد فهو عبارة عن دفاع مطول يبلغ ٥٧٨ بيتا عن كتابه « فن الحب» وكتبه بلغة تقرب من اللغة الخطابية فى المحاكم. ويذكر ضمن دفاعه أنه بالرغم من أن كتابه « فن الحب » يعتمد أنه يعلم الزنا إلا أنه ليس هناك من يتهمه شخصياً بهذا السلوك السيئ وربما كانت تسود أشعاره الحرية ولكن لا تشوب حياته شائبة .. وأنه ليس من الواجب على الشعراء أن يكونوا قد مارسوا جميع ما يقولونه فى أشعارهم ، ومع أن الشعراء كانوا قد طرقوا موضـــوع الحب إلا أن أوفيديوس هو الوحيد الذى لحقه اللوم من جراء ذلك.

ويسرد فيه قصة حياته وأعماله وكان يرجو أن يتبدل العقاب الذى لحق به ويقنع بمنفى يكون أليق من بلدة « تومى » ، منفى يناسب زلته اليسيرة .

والقصائد فى هذه الكتب صادرة عن نفس معذبة مفعمة بالشكوى التى تستدعى الشفقة والرحمة لصاحبها، كما يكثر فيها التوسل الذى يصل إلى درجة الذلة والعبودية فكان يبث كتبه آلامه وأحزانه وما ينتابه من مشاعر فهو أحياناً يعطف على زوجته ويظهر فيها تقديره إياها ويتحدث عن إخلاصها ويصف آخر ليلة قضاها فى روما ويرفع قصيدة إلى صديق تنحى عنه أو إلى شاعر صديق أسعده نجاحه ، ويأمل أن ينجو من مصير كالذى حل بشاعرنا . وأحيانا أخرى يرسل إلى أصدقائه فى روما ويصف متاعبه وأحزانه ووحدته فى « تومى » ويحثهم على مساعدته فى محنته . أو يتحدث عن برودة المنطقة التى يعيش فيها ووحشيتها . أو يهاجم الشخص الرومانى الذى حط من قدر شاعرنا الذى كتب ضده مقطوعته المسماة « إيبس » Ibis ونشعر فيها بألم أوفيديوس بسبب الوحدة وتحايله عليها بالدراسات الأدبية واللغوية . كما أن اليأس قد تطرق إليه بدرجة كبيرة جعلت أمله ضعيفاً فى العفو عنه .

« رسائل من بونتوس »

Epistulae ex Ponto

ولأوفيديوس أربعة كتب يطلق عليها « رسائل من پونتوس » — أى — « رسائل من تومى » .

وهى تعتبر امتداداً لكتبه « الأحزان » فهى من النوع نفسه ومنظومة أيضاً بالوزن الإليجى. وتختلف عن الأحزان فى أنه يذكر فيهـــا أسماء الأشخاص الذين يرفع إليهم كتبه .. وقد كتبت الكتب الثلاثة الأولى فيما بين سنة ١٢ و١٣ ميلادية .

أما الكتاب الرابع فقد نشر بعد وفاة أوفيديوس.

ونلحظ أن الأحزان والرسائل من « بونتوس » تسودها الرتابة لأنها تصور أحزان أوفيديوس العميقة التى يرددها بكثرة .

كما أن اسهابه المطرد يقلل من تأثير الجانب المحزن الذى يستجيش العواطف رغم أنها تمس أحياناً شغاف القلوب .

ويذكر اوفيديوس نفسه أن أشعاره فى المنفى لم تكن جيدة مثل تلك التى كتبها فى روما .

إيبس Ibis

كتب أوفيديوس فى منفاه إلى جانب هـــذه الأشعار مقطوعة عنوانها « إيبس» Ibis مقلداً فى ذلك شاعر الاسكندرية « كاليماخوس » الذى كتب مقطوعة بهذا العنـــوان هاجم فيها « أبولونيوس الروديسى » Apollonius Rhodius ولفظ « إيبس » Ibis يطلق على طائر ذى عادات قذرة كان يُرى فى أماكن كثيرة من الإسكندرية (Strabo, p. 823) .

ويظهر أنه كتبها فى « تومى » فى بداية منفاه إذ يذكر أوفيديوس نفسه (Ibis 7) أنه لم يكتب سطراً

واحداً يحمل روح العداء لأحد خلال الخمسين سنة التي انقضت .

وفى القصيدة قاموس من الشتائم واللعنات ساقها أوڤيديوس ضد شخص مجهول الاسم اضطهد زوجته وأصدقاءه وحاول أن تصادر أملاكه ليستفيد منها . ويقال إن هذا الشخص هو الذى يشير إليه فى كتابه الأحزان ، (الكتاب الأول – المقطوعة السادسة – سطر ١٤ : الكتاب الثالث – المقطوعة الحادية عشرة ؛ السطر الثانى والسطر العشرون ؛ الكتاب الرابع – المقطوعة التاسعة – السطر الخامس عشر وما بعده) .

وقد صب على رأس ذلك العدو كل لعنة خطرت على باله سواء من الأساطير أو التاريخ ساعده على ذلك معرفته الواسعة بالأساطير .

وكتب أيضاً مقطوعة تعليمية Haleuticon « الصيد فى البحر » بالوزن السداسى وهى الوحيدة من بين كتابات أوڤيديوس التى كتبت بهذا الوزن إذا استثنينا « التغيرات » – عن السمك وبعض المخلوقات الأخرى الموجودة فى البحر الأسود . ويذكر المؤرخ پلينيوس Plinius أنه كتبها فى أواخر أيامه وهى غير كاملة ولم يصل إلينا منها سوى ١٣٢ بيتاً ويتحدث فى القسم الأول منها عن طرق دفاع هذه المخلوقات عن نفسها حسب ما وهبتها الطبيعة ، وفى قسمها الثانى عن أنواع السمك الموجودة هناك ، ونشرت بعد مماته دون مراجعتها .

هناك مقطوعات أخرى مطبوعة فى بعض الطبعات القديمة لأوڤيديوس ولكن ليس من المؤكد أنها له مثل « "Nux" وهى شجرة « عين الجمل » تشكو من المارة الذين يقذفونها بالحجارة بالرغم من أنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها ولا ذنب لها سوى أنها مثمرة ، وعدد أبياتها ١٨٠ بيتاً وربما كتبت فى نهاية حياة أوڤيديوس وترمز إلى الشاعر نفسه الذى لاقى الكثير من الاضطهاد . والإطراء على الامبراطور (الأسطر ١٤٣ – ١٤٦) يرجح أصحاب الرأى القائل بأنها لأوڤيديوس . وكذلك مقطوعة يطلق عليها Consolatio ad Liviam وهى عزاء فى ٤٧٤ بيتاً إلى « ليڤيا » لموت دروسوس Drusus ويذكر فيها كيف أن الامبراطورة « ليڤيا » كانت تنتظر عودة ابنها « دروسوس » منتصراً بعد أن كان يعسكر فى ألمانيا سنة ٩ وحاز عدة انتصارات على أعداء روما ولكن موته فجأة وحمل جثته إلى روما لدفنها أفعم قلبها بالحزن . ولكن خلوها من اطرائه المسهب والشكوى من حالته التى عودنا إياها فى كتاباته المرفوعة إلى القصر الامبراطورى والمستوى اللغوى الذى كتبت به هذه المقطوعة والذى هو دون مستوى كتابات أوڤيديوس يجعلنا لا نعزوها إليه .

وهناك أشعار أخرى كتبها أوڤيديوس ولكنها فقدت ولم تصل إلينا مثل مأساة « ميديا » Medea (الأحزان – الكتاب الثانى – سطر ٥٥٣) وقد امتدحها النقاد القدماء خصوصاً من الناحية البلاغية ولم يتبقى لنا منها إلا بيتان . وكتب أوڤيديوس قصيدة رثاء يرثى بها الإمبراطور أوغسطوس (رسائل من پونتوس – الكتاب الرابع – المقطوعة السادسة ، السطر السابع عشر) .

كما كتب قصيدة فى مدح القصر الامبراطورى باللغة الجيتية وهى لغة القوم الذين كان يعيش معهم فى منفاه (رسائل من پونتوس – الكتاب الرابع – المقطوعة الثالثة عشرة السطر ١٩ – ٣٦) ، والجيجانتوماخيا Gigantomachia (الكتاب الثانى من الغزليات المقطوعة الأولى – السطر ١١ – ١٦) وهى عبارة عن ملحمة أسطورية تصف موقعة بين الآلهة والعمالقة .

وقصيدة عرس Epithalamium لفابيوس ماكسيموس Fabius Maximus (رسائل من پونتوس

ـ الكتاب الأول ـ المقطوعة الثانية ـ السطر ١٣١).
كما كتب قصيدة رثاء لماركوس ڤاليريوس ميسالا M. Valerius Messala (رسائل من پونتـوس ـ الكتاب الأول المقطوعة السابعة ـ السطر ٣٠) .
وقصيدة مدح لتيبريوس فى سنة ١٣ ميلادية (رسائل من پونتوس ـ الكتاب الثالث ـ المقطوعة الرابعة ـ السطر الثالث) . كما كتب أيضاً مقطوعات أخرى مثل liber in malos Poetas وهى عن ضعاف الشعراء (كوينتيليانوس ـ نظم الخطابة (٦ ـ ٣ ـ ٩٦) .

فن الحب Ars Amatoria

كتب أوڤيديوس شعراً تعليمياً من نوع جديد :
حقاً لقد كتب الشعراء من قبله هذا النوع من الشعر مثل « إيليوس » و « لوكريتيوس » و « ڤرجيليوس » ولكنه يختلف عنهم فى أنه كتب شعراً تعليمياً عن الحب . فابتدأ بكتابة مقطوعة قصيرة لم يتبق لنا منها إلا ما يقرب من مائة سطر يطلق عليها « عن تطرية الوجـه » De medicamina Facie أو Medicamina faciei feminae «تطرية وجه المرأة » يتحدث فيها عن أطلية التجميل التى تستعملها النساء لتزين وجوههن .
أما كتبه الثلاثة المسماة « فن الحب » Ars Amatoria أو Ars Amandi وقد أطلق عليها أوڤيديوس الاسم الأخير [1] . وفى الكتابين الأولين تعاليم للرجال أما الثالث ففيه تعاليم للنساء . ويحتوى الكتاب الأول على ما يجب أن يفعله الرجل عند اختيار المرأة التى يريد أن يستحوذ عليها ويقول مثلا « أولا اقبض على أرنبتك فإن الصائد يعرف كيف ينشر شبكته كى يصطاد الوعل وصائد السمك يعرف المياه المليئة بالأسماك أما عن المحب فإنه لا يحتاج إلى السفر بعيداً ففى روما فى إمكانه أن يجد جميع أنواع الجمال فى احتفالات النصر أو فى المسرح حيث تتجمع الحسان هناك كالنحل مرتديات أفخر الثياب ولا يرغبن فى مشاهدة المسرحية أكثر من رغبتهن أن يرمقهن الناس.
وكذلك فى السيرك حيث يمكنك الجلوس بجوار امرأة وهناك يمكنك التحدث معها بسهولة ولا تنتظر كى تكون المرأة هى البادئة بل كن جريئاً وسوف لا تصادف صعوبة وامطرها بوابل من المدح والثناء .
ولا تبدأ باهدائها الهدايا فإن هذا خطأ وسوف تجد أنه لا نهاية لهذا الأمر إذستطالب منك الهدايا دون انقطاع مختلقة الأسباب لذلك . ادرس الفنون الجميلة وغذ عقلك حتى يمكنك إدخال السرور عليها بحديثك .
ولا تتحدث إليها كأنك أستاذ بل ابتعد عن الأسلوب العالى فى حديثك . ادّع السكر فإنه يساعدك على أن تقول ما لا تستطيع أن تقوله وأنت صاح . ولا تدعها تعرف عنك الإلحاح . وباختصار فإن هذا الكتاب يعلم المحب كيف ينال حبيبته .

وفى الكتاب الثانى يعلم الشاعر تلميذه كيف يحتفظ بمحبوبته فيقول مثلا « وإن المظهر الحسن له أثره ولكن العادات الحسنة لها أيضاً قيمتها . إن الكلمات السارة كالموسيقى تعتبر غذاء للحب . ويجب أن يمتنع الشخص عن العراك والمنازعات ويجب أن يسمع المحبوبة دائماً أموراً سارة » .

ويقول إن المال يلعب دوراً كبيراً فى الحب فربما لا يحتاج المحب الثرى إلى تعلم فن الحب فإن المال هو جواز المرور إلى كسب ود المحبوبة . رفه عن محبوبتك إذا كانت مريضة . ولا تندفع فى عواطفك واجعل نفسك تدريجيا شخصا لا يستغنى عنه . وعندما تتأكد أنها تتوق إليك اتركها لمدة قصيرة حتى يكون غيابك سببا فى ازدياد شوقها إليك ولكن لاتتركها لمدة طويلة فإن البعيد عن العين بعيد عن الخاطر .
ولا تتجسس عليها ولا تسألها عن سنها .

(١) Ars. Am. i. 1.

وفى الكتاب الثالث يوجه نصائحه للنساء فيقول : « يجب أن يسرعن والا يبخلن بعواطفهن عندما يكن يافعات فإن الكبر والتجاعيد والشعر الأبيض تلحق بهن سريعاً . إن المنظر الحسن شئ جميل إلا أنه نادر . ولكن بشئ من الزينة تصبح المرأة جذابة وبدونها يفقد الوجه الجميل فتنته . إنى أعتقد أن ماتفعله نساؤنا فى الوقت الحاضر أمر معقول ليس لأننا نملك ذهباً أو نلبس ملابس فاخرة ولكن لأننا نعرف كيف نستمتع بملاذ الحياة ولأننا انصرفنا عن عادات أسلافنا الخشنة حيث كانت تقبع المرأة فى عقر دارها تحيك الملابس أوتغزل حتى تقتل وقت فراغها .

تزينى بالملابس ولكن لا تغالى فيها وتعطرى واعتنى بأسنانك وانظرى كى لا تكون أرجلك مشعرة وتعلمى فن التجميل ولكن إياك أن تستخدمى المساحيق أمام زوجك فإن منظر المساحيق أثناء استخدامها شئ بغيض .

تعلمى كيف تمشين وكيف تضحكين بل كيف تبكين لأنه هناك الصواب والخطأ فى استعمال أى شئ وإذا أردت أن تحافظى على جمال وجهك تحكمى فى أعصابك فليس هناك امرأة أقبح منظراً من تلك التى يستحوذ عليها الغضب وإذا أصبحت عواطف محبوبك باردة دعيه يشم رائحة غريم له ، لاتدعيه يعتقد أنه الحصاة الوحيدة على الشاطئ ، لا تكونى نهمة ولا تكثرى من تعاطى المسكرات فليس هناك منظر أبشع من منظر المرأة السكرى ... الخ .

وكل ما ذكره أوڤيديوس ممكن حدوثه فى أية عاصمة أو مدينة كبيرة فالمرأة هى المرأة لم تتغير وكذلك الرجل هو الرجل والطرق التى يتبعها كل إزاء الآخر واحدة فى جميع العصور . إنه يتحدث عن مجتمع محب للمباهـــج والملذات ولا يسوده الحب العميق الذى ينتهى بضرر أو يأس أو موت ، وفى رأيه أنه ليس هناك اخلاص دائم . وفنه هذا جديد على روما . إنه فن الكياسة والرقة ومعاملة المحبين . وقد كتب هذا الفن التعليمى بالوزن الإليجى واستقاه — كما يخبرنا هو — من تجاربه . ولاشك أن كتابة هذا لم يعجب فلاسفة الأخلاق وإن كان أوڤيديوس لم يقصد به — كما يذكر — حرائر الرومانيات ، بل الجوارى المعتقات .

ولكن ذلك ليس إلا ذراً للرماد فى العيون . كما أنه كان ضد مايرمى إليه أوغسطوس من اصلاحات ومع ذلك فقد كان كتابه هذا فيه صقل للذوق والعادات الرومانية كما أنه يدعو إلى نواح فنية وأدبية فهو الذى يقول بأنه يجب ألا نزين الجسم فقط بل العقل أيضاً ، فواجب على الرجل أن يهتم كما تهتم المرأة بالموسيقى والشعر والرقص . كما يعطينا صورة للحياة فى عصره خصوصاً ما كانت تتزين به المرأة .

ولا يتحدث أوڤيديوس عن الحب ذى العاطفة الجامحة التى هى بعيدة عن مجتمعه المحب للملذات . وفى رأيه أن المحبين لو استمعوا إلى نصائحه عن الحب لما كانت نهايتهم مفجعة ولما كان « تيريوس » مثلا قد فقد عقله بحبه « فيلوميلا » أخت زوجته ولما تحول إلى طائر بسبب آثامه ولما كانت « ديدو » قد انتحرت بسبب حبها لأينياس الذى هجرها . ولعرفت « فايدرا » خطأها عندما أحبت « هيپوليتوس » ابن زوجها . إن فن الحب شئ جديد على روما وكذلك فن الرقة والكياسة يعتبر طقساً جديداً للرومان كان أوڤيديوس كاهنه الأكبر .

وقد تأثر الأدباء المحدثون بفن الحب لأوڤيديوس مثل « مكاولى » Macaulay الذى يصفه بأنه أحسن أشعار أوڤيديوس وكذا تأثر به « جيته » فى كتابه « الإليچيات الرومانية » وكان أوڤيديوس شاعره المفضل كما أنه يقال إن قصة الرسام الإيطالى الشهير « تيتزيانو » Tiziano (١٤٧٧ — ١٥٧٦) المسماة « أريادنى على جزيرة ناكوس » استوحاها من كتاب

« فن الحب » وليس من قصة « كاتوللوس » المشهورة في ذلك الموضوع .

نصوص
من الكتاب الأول — تعاليم للرجال

عليك أولا أن تجتهد لتجد من تحب ، أنت يا من تخوض المعركة للمرة الأولى ، سيكون مجهودك ثانياً أن تكسب ود من أحببت ، وعليك ثالثاً أن تجعل الحب يستمر مدة طويلة . هذا هو سبيلي ، هذا هو ميداني الذي سوف ترسمه عربتي ، هذا هو الهدف الذي سوف تقتحمه عجلات عربتي .

وما دامت الظروف تسمح وما دام في استطاعتك أن تذهب إلى أي مكان مطلق العنان فاختر من تقول لها : « إنك أنت الوحيدة التي تعجبني » . فإنها لن تأتي إليك من نفسها .... عليك أن تبحث عن الفتاة التي تروق عينيك . إن الصائد يعرف جيداً أين ينصب شباكه للغزلان . ويعرف جيداً في أي الوهاد يقيم الوعل الثائر . إن الطيور تعرف الأشجار . ومن يمسك بالشص يعرف في أي المياه تسبح أسماك كثيرة . وأنت أيضاً يامن تبحث عمن تحبه حباً طويل الأمد عليك أن تعرف أولا أي مكان ترتاده الفتاة دائماً .

إنني لا أطلب منك أن تبسط شراعك للريح أو أن تقطع طريقاً طويلا حتى تجدها . وبرغم أن « پرسيوس » أحضر « أندروميدا » من بين الهنود السود [1] . وبرغم أن الرجل الفريجي اختطف الفتاة اليونانية [1] إلا أن روما ستعطيك فتيات جميلات كثيرات جداً حتى إنك لتقول : « إن في روما كل ما في العالم من فتيات جميلات » [2] .

ويعطي « السيرك » الفسيح فرصاً كثيرة للراغبين في الحب . فلا حاجة هناك للأصابع التي تعبر بها في كلام صامت ولا حاجة لأن تلقى إشـــارة بالإيماء . فاجلس بجوارها فليس هناك عائق يمنعك من ذلك ثم اقترب منها ما أمكن حتى تتلامسا .

وهذا أمر سهل إذ أن صف المقاعد يحمل على هـــذا التلامس إن لم تكن هي راغبة فيه ، فبحكم المكان يجب أن تلمس الفتاة . وعليك هنا أن تبحث عن بداية لحديث التعارف ودعها تسمع منك أولا حديثاً عاماً . ولتسأل عن أصحاب الجياد التي تتقدم في الحلبة ولا تضع الوقت . ومهما يكن الأمر فكن في صف ذلك الذي تكون هي في صفه . ولكن عندما يمر الاحتفـــال المزدحم الذي يتنافس فيه الشباب فصفق لڤينوس سيدة الحب بأيد مشجعة [3] وإذا سقط غبار عن طريق الصدفة على صدرها — كما يحدث عادة — فلتنفضه عنها بأصابعك .

وإذا لم يكن هناك غبار فلتنفض اللاشيء . وليكن لديك أي مبرر لما قمت به . وإذا تهدل معطفها واسترسل على الأرض فالتلمه ولترفعه من الأرض المعفرة في عناية وحينئذ سترى عيناك حتما قدميها برضاها جائزة لك على ما قمت به .

---

(1) ربما يقصد بالهنود السود سكان إثيوبيا « أندروميدا » بنت « كيفيوس » Cepheus ملك إثيوبيا التي ادعت أنها أجمل من حوريات البحر فما كان من إله البحر « بوسيدون » إلا أن صب جام غضبه على وطنها وأرسل وحشاً بحرياً لتخريبه وأشارت النبوءة أنه لا يمكن انقاذ الوطن إلا بالتضحية بأندروميدا لهذا الوحش وقد قيدت فعلا إلى صخرة على الشاطىء وأصبحت عرضة لهذا الوحش ولكن « پرسيوس » يأتي في الوقت المناسب وينقذها ثم يتزوجها وترحل معه إلى بلاد اليونان .

(1) يقصد « پاريس » الذي اختطف « هيليني » ورحل معها إلى طروادة بآسيا الصغرى .

(2) يقصد أنه يسهل أن تجد الجمال في روما دون مشقة السفر للبحث عنه في بلاد نائية عن روما .

(3) شرح أوفيديوس هذا الاحتفال في كتاب الغزليات (Amores, 3, 2. 43 ff.) ويبدأ الحفل من قمة الكابيتول إلى سوق المدينة (الفوروم) ثم إلى السيرك . وكان يحمل المحتفلون تماثيل من العاج يصفق لها عند مرورهم عشاق أصحاب هذه التماثيل فيصفق مثلا المحبون لڤينوس إلهة الحب ويصفق الجنود لمارس إله الحرب .

ولتنظر كذلك خلفك كى لا يكون هناك من يضغط على ظهرها الرقيق . إن العقول تأسرها أشياء صغيرة ، فلقـد أفاد الكثيرون من تهيئة وسادة الفتـاة بأيد متوثبة ، أو التهوية بمروحة رقيقة ، أو وضع مقعد تحت قدمين رقيقتين ..... ولتدع جسدك يروق بنظافته كما يروق بوعثاء[1] المعارك . لتكن عباءتك ملائمة لجسدك ولا تكن ملطخة ، ولا تدع سير حذائك متجعداً ، واحذر ألا يعلو أسنانك الصدأ . ولا تجعل قدميك غير ثابتتين وتسبحان فى حذاء واسع . ولا تشوه خصلات شعرك بحلاقة رديئة . واحلق شعرك ولحيتك عند حلاق ماهر . ولا تجعل أظافرك طويلة تتخللها القذارة . ولا تجعل الشعر ينمو فى خياشيمك ، ولا تكن أنفاسك ذات رائحة كريهة .

من الكتاب الثانى
تعاليم للرجال

إن العاشق يتوج فى سرور أشعارى بأكاليل النصر ويفضلها على قصائد شعراء الملاحم : هكذا فعل الغريب ابن « بريام » فبسط شراعه الوضاء مصاحباً عروسه التى اختطفت من مدينة « أميكلاى »[2] Amyclae المحاربة . وهكذا فعل من حملك ، يا « هيپوداميا » [3] فى عربته المنتصرة وحملك على عجلات أجنبية .

لماذا تتسرع ، أيها الشاب ، ؟ إن سفينتك تبحر فى وسط المحيط والميناء الذى أنشده بينى وبينه أمد بعيد . ليس كافياً أن تكون قد كسبت الفتاة بما مهدتُ لك من طريق . إنك قد حصلت عليها بفنى وبفنى عليك أن تحتفظ بها . وليست الجرأة فى الاحتفاظ بمن كسبتها بأقل من الجرأة فى البحث عنها .

وللحظ فى ذلك نصيب ولكن الأمر فى حاجة إلى فن .... إن « مينوس » Minos لم يستطع أن يسيطر على أجنحة الرجل[1] . ولكننى أعد العدة للسيطرة على الإلاه المجنح كيوبيد . إنه لمخدوع كل من يلجأ إلى فن تساليا[2] وأن يتعاطى ماينتزعه من جبهة المهر[3] . إن أعشاب « ميديا » Medea [4] لن تعمل على أن يعيش الحب ه... فلو أن الحب يمكن الاحتفاظ به عن طريق السحر وحسب لكانت قد احتفظت (ميديا) بابن « أيسون » Aeson [5] كما احتفظت « كيركى » بأوديسيوس . إن أشربة الحب الصفراء تضر الفتيات : إنها تؤثر فى العقل ولها من القوة مايدفع إلى الجنون . لتبتعد هذه الأشياء المدنسة ! كن رجلا حبيبا كى تحب . ولن يمنحك الوجه أو الشكل فقط هـذا الشىء رغم أنك قد تكون « نيريوس » Nemesis [6] الذى كان « هوميروس » القدماء مفتونا به ، أو الفتى اليافع « هيلاس » [7] الذى اختطفته حوريات المياه

(١) الوعثاء ، الغبار .

(٢) يقصد پاريس الأمير الطروادى الذى اختطف هيلين من من اسبرطة .

(٣) يقصد «پيلوپس» Pelops الذى أتى من آسيا الصغرى إلى بلاد اليونان وأحب « هيپوداميا » وتزوجها بعد أن فاز فى سباق العربات على أبيها الذى جعل هذا الفوز شرطاً لمن يريد أن يتزوجها .

(١) بعد أن شيد « ديدالوس » قصر اللابيرنته فى كريت أراد أن يعود إلى وطنه أثينا ولكن « مينوس » ملك كريت لم يوافق على عودته مما اضطر « ديدالوس » لأن يصنع لنفسه أجنحة يطير بها إلى بلاده .

(٢) كانت «تساليا» فى شرق بلاد اليونان مشهورة بالسحر.

(٣) غشاء ينمو على جبهة المهر (Hippomanes) عند ولادته ويستخدم كشراب للحب .

(٤) كانت « ميديا » مشهورة بالسحر الذى ساعدت به حبيبها « چاسون » كى يستولى على الفراء الذهبى .

(٥) يقصد چاسون .

(٦) كان « نيريوس » أجمل وأعظم تأنقاً ممن كان فى جيش اليونان ما عدا « أخيليوس » (الالياذة – الكتاب الثانى – سطر ٦٧ وما بعده) .

(٧) ذهب « هيلاس » إلى إحدى الينابيع كى يشرب فأخذت حوريات المياه بجماله واختطفوه إلى داخل المياه .

المذنبـــات . فلتضف إلى المزايا الجسمية مواهب عقلية : إن الجمال ميزة سريعة التهشم فكلما تقدم العمر يصبح الجمال أقل بريقاً ثم تقتطفه السنون نفسها ، فليس البنفسج دائم الازدهـــار والزنبق لا يفتح ثغره دائماً . وعندما تذبل الوردة تجف ويبقى الشوك . أيها الإنسان الجميل ، سرعان مايصبح شعرك أبيض وتظهر التجاعيد التي تحفر جسمك . فلتجعل لك الآن روحاً ، تلك التي من خصائصها أن تبقى ولتضفها إلى جمالك[1] وإنها الوحيدة التي تبقى معك حتى تفارق الحياة . ولا تهمل في تثقيف نفسك بالفنون الجميـــلة أو أن تتعلم اللغتين . إن « أوديسيوس » لم يكن جميلا بل كان فصيحاً ورغم ذلك فإنه أشعل نار الحب في قلبى الالاهتين من إلاهات البحر ..... وإذا لم تكن الفتاة مشجعة بما فيه الكفاية أو ودودا لمن يحبها ، فلتتحمل حتى النهاية ولتثابر فسوف تصبح طيعة فيما بعد .

إن الغصن المعوج ينثنى من شجرته باللين وإنه لينكسر لو استخدمت قوتك . وباللين تسبح خلال المياه وإنك لا تستطيع أن تقهر الأنهار بدلا من أن تقبض عليك الأمواج إذا سبحت ضد التيار . إن اللين يستأنس النمور وأسود « نوميديا » Numidia . ورويداً رويداً يخضع الثور للمحراث الريفى . وهل كان هناك أعنف من « أتالنتا[2] النوناكريه[3] » وبرغم ذلك فقد خضعت لمروءة رجل . . . : فبالاستسلام سترحل منتصراً . لتستسلم إذا قاومت فبالخضوع سوف تتحاشى المنتصر . عليك فقط أن تفعل ما تأمرك به ، لُم إذا لامت ، وافق على أى شىء توافق عليه : أكد ما تؤكده وأنكر ما تنكره ، واضحك إذا ضحكت ، وتذكر أن تبكى إذا بكت . دعها تسطر دستورها على محياك . . . إن الحب نوع من الحرب : أيها الجبناء ، ابتعدوا . إن أعلام الحب هذه يجب ألا يحرسها الجبناء : إن الليل والشتاء والرحلات الطويلة والآلام المبرحة وكل جهد موجود بداخل المعسكر الأنيق .

أيها القوم ، احتفوا بى أنا شاعركم : تغنوا بمدحى . اجعلوا اسمى يتغنى به فى جميع أنحاء العالم ، فقد أعطيتكم السلاح . إن إلاه الحدادة قد أعطى الأسلحة لأخيليوس . فانتصروا كما انتصر بما منحت لكم من عطايا . ولكن إذا قهر أى منكم الأمازونيات[1] بلاحى فليخط على غنائمه :

« إن « ناسوا »[2] هو سيدى » .

الكتاب الثالث — تعاليم للنساء

إن المرأة لا تلوح باللهب أو الأقواس القاسية : ويندر أن أرى أن هذه الأسلحة تؤذى الرجال : غالباً ما يخدع الرجال وأما الفتيات فغالباً لا يخدعن : وإذا سألت : فإن جرائمهن فى الخداع قليلة . إن « چاسون » المخادع طرد ميديا بينما كانت فى ذلك الوقت أماً ، وأتت زوجة أخرى إلى أحضان ابن « أيسون »[3] . وفيما تخص دورك ياثيسوس فإن

(1) يذكرنا هذا بقول شاعر العربية أبى الطيب المتنبى :

وفى الجسم نفس لاتشيب بشيبه ولو أن مافى الوجه منه حراب
يغير منى الدهر ما شاء غيرها وأبلغ أقصى العمر وهى كعاب

(2) بنت « ياسوس » Jasus ابن « ليكيرجوس » ملك أركاديا . وكانت مشهورة بالصيد كما كانت ضد فكرة الزواج وقد أحبها « ميلانيون » Milanion ولم يستحوذ على قلبها ويتزوجها إلا بعد وقت طويل وجهد كبير أثناء مشاركتها الصيد « أنظر Proportius 1.1.9 » .

(3) أى الأركادية « من أركاديا » نسبة إلى « نوناكريس » وهو اسم جبل فى اقليم اركاديا .

(1) تقول الأساطير إن الأمازونيات نساء جميلات محاربات كن يقطن منطقة « سيثيا » Scythia .

(2) كان اسم أوڤيديوس هو : « پوبليوس أوڤيديوس ناسو » Publius Ovidius Naso .

(3) يقصد « چاسون » .

« أريادنى » قد وقعت فريسة للطيور البحرية وتُركت وحيدة فى مكان غير معروف [1] ... إن « أينياس » له شهرة بالتقوى ومع ذلك فإن الضيف يا « ديدو » أمدك بسيف وسبب للموت [2] . أأخبركم عن سبب هلاككن ؟ إنكن لم تعرفن كيف تحببن . إنه كان ينقصكن المهارة . إن المهارة تجعل الحب يستمر ... والآن تذكرن الشيخوخة . وهكذا لن يضيع وقت سدى . وما دامت الظروف تسمح ولا تزلن فى ربيع العمر فالعبن لأن السنين تمر مر المياه الجارية ، والموجة التى مرت لا تستدعى ثانية ، والساعة التى انقضت لا يمكن أن تعود . استفيدى من وقتك . إن الوقت ينسل بخطى سريعة . وليس المستقبل كالماضى فى الجمال .

إننى أبدأ بالعناية بالجسد . إن العنب ينمو جيداً من الكروم المعتنى بها وعلى التربة المعتنى بها تشمخ عيدان القمح . إن الحب هبة الإله . إن كل واحدة مفتونة بمالها من جمال خلاب ولكن منكن من تحتاج لمثل هذه الهبة . إن العناية تكسبك الجمال ، والإهمال يطمسه ولو كان شبيها بجمال ڤينوس . واذا لم تكن نساء الماضى يعتنين بأجسادهن وكذلك لم يكن للرجال القدماء أجساد تحظى بالعناية ، وإذا كانت « أندروماخى » تتدثر فى عباءة خشنة فأى غرابة فى ذلك ؟ لقد كانت هناك فى الماضى بساطة خشنة ولكن روما الآن فى عصر ذهبى وتملك الثروات الطائلة للعالم المشهور .... إننا الآن فى عصر حضارة غيرت من حياتنا ...

ولكن لاتثقلن آذانكن بالأحجار الكريمة التى يجمعها الهندى الأسود من المياه الخضراء ولاتحضرن مثقلات بملابس قد حيكت بالذهب . وابتعدن عن الثروة التى تبحثون بها عنا . إننا نؤخذ بالأناقة الطبيعية . لا تدعى شعرك بغير نظام . إن لمسة باليدين واحدة تكسبك الجمال وتسلبك إياه . وليس للزينة طريقة واحدة . لتختر كل ماينانسبها ولتستشر فى ذلك الأمر مرآتها . إن الوجه البيضاوى يفضل فرقا للشعر على الرأس يترك بدون زينة .... وتميل الوجوه المستديرة إلى أن تكون فى الشعر عقدة صغيرة تترك فى أعلى الجبهة بحيث تظهر الأذن ..... وقد تصبغ إحدى النساء شعرها بأعشاب ألمانية وتبحث بفنها عن لون أفضل من لونه الطبيعى . وتسير امرأة أخرى مثقلة بشعر مستعار ... لقد نصحتك ألا ينبعث من إبطيك رائحة كريهة وألا تكون رجلاك مخشوشنة بشعر حاد ..... لا تدعى حبيبك يجد علب حليك موضوعة على المنضدة .

إن الفن المختفى يساعد جمالك . من ذا الذى لا يؤذيه رؤية الصباغة تلوث جميع الوجه عندما تنزلق لثقلها وتسقط على صدرك الدافئ ؟ ! فهناك أشياء كثيرة ليس من الصواب أن يعرفها الرجال . إننا معشر الشعراء دعاة للجمال المعشوق . إن « نميسيس » وكذلك « كينثيا » مشهورة . إن الغرب والشرق يعرف « ليكوريس » [1] .

ولم يكن غرض أوڤيديوس إثارة اللذة بل التسلية ولم يكن ينظر إلى الأشياء شزراً بل كان يبتسم لها .. لقد خلق عالماً يسر به القراء فكانت رسالته موجهة إلى المجتمع المثقف فى العاصمة وإدخال السرور عليه وساعده على ذلك حيويته وفطنته وشعوره العميق بالجمال سواء الجمال الجسمانى أو جمال الطبيعة وكذلك خياله الخصب القادر على الخلق فلم يكن له نظير بين

(١) جزيرة ناكسوس Naxos .

(٢) يقصد « أينياس » الذى استضافته « ديدو » ملكة قرطاجنة وأحبته ثم انتحرت بعد أن تركها وفشلت فى إبقائه معها .

(١) « نميسيس Nemesis » إحدى معشوقات الشاعر « تيبوللوس » و « كينثيا » معشوقة الشاعر « بروبرتيوس » و « ليكوريس » معشوقة الشاعر جاللوس الذى كان أول حاكم من قبل الرومان على مصر .
وجميعهم شعراء الغزل الرومان .

الرومان فى سرد القصص ولم تكن شهرته ترجع إلى أنه كتب موضوعاً عن الحب ذلك الموضوع المحبب إلى النفس أو إتقانه للوزن الإليجى وإنما ترجع إلى مقدرته كقصاص ماهر خصوصاً سرده لقصص « التغيرات » التى تعتبر كتاباً قيماً فى الأساطير القديمة التى يشع منها شعر سهل ، سلس ، شفاف .

لقد كان شاعراً بالسليقة وإن كان شعره لم يبلغ جلال شعر من سبقوه خصوصاً فرجيليوس ولهذا السبب ترك باعترافه الكتابة فى شعر الملاحم كشيء خارج عن نطاق قدرته ولكنه كرس نفسه لأن يكون مترجماً لعصره وإن كانت كتاباته يسودها التطويل الممل ، كما أن فلسفته لم تكن عميقة ويعيب عليه بعض النقاد استهتاره وعدم مبالاته بما تحتمه اللياقة وإنه لم يكن متديناً كما أن قصصه لا تظهر خيالا محلقاً ويكثر من الحيل البلاغية واللفتات الملحة مما جعل « سنكا » يلومه ويصف هذه الأشياء بأنها عبث أطفال (Seneca, Q.N. III, XXVII, 12...) ويصفه بأنه مولع بمهارته .

وأهم كتبه التى تأثر بها الغرب هو كتاب « التغيرات » ذلك الكتاب الذى يسرد فيه بسرعة وطلاقة وحيوية وتأمل وسهولة قصص الحب والمغامرات .

وقد نالت « قصص البطلات » فى العصور الوسطى الإعجاب وأوحت للناس فكرة الرومانسية التى امتاز بها حب الفرسان فى ذلك العصر .

وعندما ظهرت فكرة الرومانسية بوضوح فى القرن الثانى عشر كانت ترجع فى بعض أسبابها إلى المسيحية من ناحية احترام العذراء وعدم المبالاة بمتاعب الجسد ولكن من بين الأسباب التى ساعدت على نمو هذه الفكرة كتابات أوفيديوس فقد عالج الحب باعتباره علما كما كانت مؤلفاته مفعمة بالعواطف وقد استجابت روحه الحساسة للشعور الشخصى والطبيعة . . لذلك كان لأوفيديوس تأثير كبير على الآداب الأوروبية خصوصاً مايتعلق منها بالحب الرومانسى وتأثر بقصصه الأدباء الفرنسيون والإيطاليون كما تأثر الأدباء الانجليز . . وقد بدأت قصصه تدخل الأدب الأوروبى فى القرن الثانى عشر كما يظهر من القصة الشعرية الفرنسية المسماة « بيراموس وثيسبى » وهى قصة عاشقين بائسين ويقول عنها أوفيديوس بأنه لم يأخذها عن الرومان أو اليونان بل أخذها عن الشرق (Ovidius. Metam. 4. 55–160) وهى تشبه رواية « روميو وجوليت » إذ أن العاشقين تفرقهما العداوة بين أسرتيهما ويتقابلان سراً ويموتان نتيجة وهم خاطئ عند علم كل منهما بموت الآخر . وقد ذاعت هذه القصة وكثيراً ما كان يستشهد بها نقلا عن أوفيديوس كثير من الأدباء الفرنسيين والإيطاليين فى القرن الثانى عشر وما بعده .. وفى القرن الثالث عشر تُرجم كتاب التغيرات الذى يعتبر أهم كتاب أنار الطريق للرومانسية .

وترجم هذا الكتاب فى القرن الثالث عشر إلى اللغة اليونانية حيث كان فى متناول الحضارة الشرقية التى كانت تتزعمها الامبراطورية البيزنطية وقد كان يطلق على هذه الفترة من العصور الوسطى بفترة « أوفيديوس »

وفى القرن الرابع عشر عرف تشوسر Chaucer أوفيديوس أكثر من أى كاتب لاتينى آخر ولقد أعجب بالتغيرات التى كانت مستودعاً خصباً للقصص ، وملهماً لمصورى النهضة الحديثة فأخذ تشوسر عنها قصة « پيراموس وثيسبى » وجعلها قصته الثانية فى مؤلفه (Legend of Good Women) كما أن كتابه المسمى (The Duchess) يبدأ وينتهى بقصة Ceyx و Alcyone (Metam. 11. 410–748.)

وكذلك كتابه المسمى The House of Fame به كثير من وصف أوفيـديوس لمنزل الشهرة فى التغيرات (Metam 12. 39 F) وقد أفاد أيضاً من خطابات أوفيديوس الخيالية فى «رسائل البطلات» كخطاب أوفيديوس الخـاص بباريس وهيلين فى Pretty Coquette Criseyde وقد تأثر تشوسر أيضاً بالتقويم الرومانى كما يظهر من قصته Lucretia فى كتابه المسمى The Legend of good Women إن مقدرة تشوسر على كتابة قطع مطولة فى الوصف والمقارنات ترجع إلى دراسته الكلاسيكية .

وبعد اختراع الطباعة مباشرة أخذ فى طبع «رسائل البطلات» تباعاً وكان أول ترجمة لها بالانجليزية سنة ١٥٦٧ وبعد خمس عشرة سنة من ذلك التاريخ استرعت هذه الأشـعار نظر «خريستوفر مارلو» Christopher Marlowe الذى أحرقت أشعاره علنا بأمر الكنيسة سنة ١٥٩٩ .

كما تأثر به عصر الملكة اليزابيث فتأثر به «إدموند سبنسر» Edmund Spenser (١٥٩٠ — ١٥٩٦) فى قصته Faerie Queene وتأثر به شكسبير بقصة بيراموس وثيسبي فى روايته Midsummer-Night's dream وإن كانت معلوماته فى اللاتينية أقل بكثير من معلومات سبنسر إلا أن شكسبير تأثر كثيراً بكتابات أوفيديوس حتى أنه يمكن كتابة كتاب كامل عن هذا التأثير فأخذ مثلا مقطوعتـه الشعرية المسماة Venus and Adonis عن أوفيديوس متأثراً بكتابه «الغزليات» Amores وقد اهتدى النقاد إلى إشارات كثيرة فى رواياته مكتوبة عن كتاب التغيرات مثلها فى روايته المسماة Cleopatra التى يقول عنها النقاد إن تأثره فيها بشخصية «ديدو» عند أوفيديوس فى كتابه التغيرات أعمق من تأثره بشخصية «ديدو» عند فرجيلوس فى إنيادته .

وفى الواقع إن اشارات شكسبير عن الأساطير يرجع معظمها الى أوفيديوس وقد ترجم آرثر جولدنج» Arthur Golding (١٥٦٥ — ١٥٦٧) كتاب التغيرات فأثرت دون الحاجة إلى قراءتهـا مباشرة عن الأصل اللاتينى فى عقلية شكسبير وشعره .

وكان اهتمام أوفيديوس بالحب والأشياء الخارقة للطبيعة مناسـباً لعصر شكسبير بل لشكسبير نفسه . . واستمر تأثير أوفيديوس إذ أن كتابات «ميلتون» Milton تردد صدى «التغيرات» من حيث لغته وطريقة تفكيره كما تأثر أيضاً «دريدن» Dryden «ماتيوپريور» Mathew Prior وبوب Pope الذين كتبوا شعرهم بال Heroic Couplets التى تعتبر أوفيدية . وقد أثر جيته Goethe (١٧٩٥) بكتاب «فن الحب» فى مؤلفه (الإلجيات الرومانية) وتأثر به الشعراء الغنائيون فى القرن التاسع عشر أمثال «وردزورث» Wordsworth و «شيلى» Shelley اللذان يدينان له فى كتاباتهما وقد ذكر «كيتس» Keats بأنه ليس هناك مادة أمام الشاعر أروع مما فى التغيرات .

من هذا كله نرى مدى تأثر أدباء الغرب بأوفيديوس .

ونرى أيضاً أن أوفيديوس كان على حق عندما كان مولعاً بكتب... و ...رته الأمر الذى عابه عليه بعض الرومان القدماء .

رحلات حول العالم للكابتن جيمس كوك

بقلم
الدكتور سليم أنطون
قسم علوم البحار بكلية العلوم – جامعة الاسكندرية

عشر سنوات ذهبية فى تاريخ الكشوف الجغرافية ، هى نفسها سنوات مجيدة فى حياة جيمس كوك . ففى ٢٨ أكتوبر ١٧٦٨ احتفل كوك بعيد ميلاده الأربعين على ظهر سفينته « انديفر » ، وهو فى مستهل رحلته الأولى حول العالم . وفى ١٤ فبراير ١٧٧٩ سقط قتيلا على شواطئ هاواى فى نهاية رحلته الثالثة ، بعد أن جاوز الخمسين ببضعة أشهر . وفى خلال هذه السنوات العشر كان كوك قد « أعاد رسم خريطة العالم » ، بعد أن استكشف أو أعاد أستكشاف كثير من جزر المحيط الهادى ونيوزيلانده . والساحل الشرقى لأستراليا والساحل الغربى لأمريكا الشمالية حتى مضيق بارنج شمالا . كما استطاع أن يلقى نظرة على القارة القطبية الجنوبية وأن يتنبأ بوجودها .

قصة الكشوف الجغرافية :

لا تكاد توجد الآن بقعة فى العالم لم تستكشف بعد . وباستثناء بعض الأماكن المنعزلة فى القارة القطبية الجنوبية فان هناك القليل الذى يمكن إضافته إلى خريطة العالم . ولكن الأمر لم يكن كذلك فى عصر كوك أى منذ مائتى عام حين كان العالم يجهل تماماً وجود القارة القطبية الجنوبية ، وكان وجود أستراليا ونيوزيلاندا وكثير من جزر المحيط الهادى ضرب من الحدس والتخمين ومنذ خمسة قرون فقط لم يكن العالم القديم يعرف شيئاً عن أمريكا ، ولم تكن استدارة الأرض قد ثبتت عملياً بالدوران حولها .

لم تكن الحضارة المصرية القديمة حضارة نهرية فقط بل إنها كانت تحمل أيضاً ملامح الحضارات البحرية فأنشأت الموانىء على سواحل البحرين الأحمر والمتوسط وبنت الأساطيل التى قامت برحلات بعيدة مثل رحلة حتشبسوت حوالى ١٥٠٠ قبل الميلاد إلى بلاد البونت أو الصومال . واشتهر الفينيقيون كملاحين مهرة جابوا البحر المتوسط واستكشفوا شواطئه ، بل إنهم غامروا بالخروج إلى السواحل الأوربية والأفريقية المطلة على المحيط الأطلنطى . أما الإغريق فقد مدوا تجارتهم البحرية إلى شواطئ البحر الأسود وحملتهم غزوات إسكندر الأكبر حتى الهند شرقاً مما أضاف الكثير إلى معلوماتهم الجغرافية . ولم يكن الرومان بحارة بارعين ولكن غزواتهم حول البحر الأبيض المتوسط وعلى الأخص فى أسبانيا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا ، وسعت دائرة المعارف الجغرافية .

وفى خلال القرون الثمانية التى أعقبت سقوط الإمبراطورية الرومانية حوالى عام ٤٠٠ انتقلت حركة الكشوف الجغرافية إلى العرب وأهل الشمال . جاب العرب المحيط الهندى ووصلوا فى رحلاتهم التجارية إلى مدغشقر وموزامبيق فى الجنوب وإلى الهند وسيلان والصين فى الشرق . أما أهل الشمال فقد عبروا من النرويج إلى أيسلنده ومن اسكتلندا إلى جرينلاند ومنها إلى سواحل اللبرادور فى شمال أمريكا .

وباندلاع الحرب الصليبية توقفت التجارة بين الشرق وأوربا ، وقاطع العرب كل الدول الأوربية عدا البندقية التى احتكرت التجارة مع العرب وكونت ثروات طائلة من بيع منتجات الشرق إلى بقية أوربا ، مما دفع البرتغال وجنوه إلى محاولة الوصول إلى الهند عن طريق الدوران حول أفريقيا .

وهكذا بدأ عصر الكشوف الجغرافية بمحاولات البرتغاليين الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح للوصول إلى الهندوجزر التوابل والتى انتهت بنجاح فاسكودى جاما عام ١٤٩٨ . وفى نفس الوقت تقريباً عبرت السفن الأسبانية المحيط الأطلنطى تحت قيادة كريستوفر كولومبوس واكتشفت جزر الهند الغربية ، وإن كان قصدها الأصلى الوصول إلى جزر الهند الشرقية بالابحار غرباً . واصل الأوربيون بعد هذا استكشاف السواحل الأمريكية من الشمال إلى الجنوب بقصد العثور على منفذ يؤدى إلى جزر التوابل فى الشرق . وفى عام ١٥١٩ تمكن ماجلان على رأس بعثة أسبانية من اختراق المضيق الذى يعرف باسمه فى الطرف الجنوبى من القارة الأمريكية ، ثم الابحار شرقاً فى المحيط الهادى والوصول إلى جزر الهند الشرقية ، فكان بحارته أول من استطاعوا الابحار حول العالم .

احتكر البرتغاليون الطريق حول أفريقيا ، والأسبان الطريق حول أمريكا الجنوبية ، وظلت لهما السيادة البحرية تاركين إنجلترا وهولندا وفرنسا يحاولون الوصول إلى الشرق بالبحث عما كان يعرف « بالممر الشمالى الغربى » فى شمال أمريكا الشمالية و « الممر الشمالى الشرقى » فى شمال آسيا ولكن هذه الجهود الجريئة لم تحقق أى نجاح حتى تمكنت هذه الدول من هزيمة أسبانيا والبرتغال ومن ثم اتجهوا إلى الجنوب أيضاً .

وبتغير القوى البحرية فى أوربا ، أصبح من الطبيعى أن يتغير اتجاه هذا النشاط فبينما كانت الكشوف الجغرافية الكبرى من نصيب أسبانيا والبرتغال خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر نجد أن هذا النشاط انتقل إلى هولندا وإنجلترا وفرنسا وروسيا . وبنهاية القرن السادس عشر بدأ الهولنديون والإنجليز الاتجار مع الهند . ولما كانت أستراليا تقع خارج الخطوط الملاحية بين أوربا وجزر الهند الشرقية ، فان سواحلها بقيت دون أن تستكشف بدقة حتى عصر كوك .

هذه لمحة سريعة عن التقدم الذى أحرزته البشرية فى الكشوف الجغرافية قبل عصر كوك . وقد قصدنا بها أن نعرف العالم الذى ولد فيه كوك قبل أن نتحدث عن الرجل .

حياة جيمس كوك :

ولد جيمس كوك فى ٢٨ أكتوبر ١٧٢٨ فى قرية صغيرة فى منطقة يوركشير بالقرب من ميناء ويتبى المطل على بحر الشمال . وقد نشأ فى أسرة فقيرة مما اضطره إلى مغادرة المدرسة ليعمل أجيراً مع والده فى الزراعة . وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره كان يشتغل كبحار تحت التدريب على ظهر مركب صغير يعمل فى تجارة الفحم بين شمال وجنوب إنجلترا . واستغل أوقات فراغه فى دراسة الرياضة والملاحة حتى ليقال إنه ، عندما انتهى من فترة تدريبه ، كان يعرف من الملاحة أكثر من أى مستكشف سبقه إلى المحيط الهادى . وسرعان ما أصبح كوك ضابطاً فى البحرية التجارية وهو فى الرابعة والعشرين من عمره وكان يستطيع أن يحصل

على وظيفة ربان لو قنع بالعمل على السفن التجارية .

وعندما اندلعت الحرب بين المستعمرين الإنجليز والفرنسيين فى شمال أمريكا عام ١٧٥٥ ، وجد كوك فرصته فى ارضاء طموحه فى العمل فى المياه البعيدة فتقدم متطوعاً إلى البحرية الإنجليزية كبحار بسيط ، وعمل على ظهر السفينة ايجل تحت امرة الكابتن سير باليسر ، الذى سرعان ما اكتشف كفاءته وخبرته . نال كوك ترقيات سريعة واشترك كضابط فى الحرب الدائرة فى شمال أمريكا ، ولكن هذه المشغوليات لم تبعده عن كتب الرياضة والفلك وغيرها حتى يرفع من مستوى تحصيله فى المدرسة . وكان الإنجليز يستعدون لمهاجمة كيوبك وانتزاعها من أيدى الفرنسيين ، وكان نجاحهم رهناً بقدرتهم على الملاحة فى نهر سانت لورانس فكلف كوك بعمل مساحة للنهر بين كيوبك والبحر ، وقام فعلا خلال أسبوع من العمل تحت جنح الظلام برسم خريطة دقيقة لهذه المنطقة ونجح فى ارشاد سفن الأسطول بتحديد المجرى الملاحى بوساطات عوامات حتى تستطيع السفن الكبيرة الصعود فى النهر دون عقبات واقترن احتلال الإنجليز لكيوبك بالمهمة التى قام بها كوك مما أكسبه حظوة لدى رؤسائه .

اشترك كوك بعد ذلك فى استعادة نيوفوند لاند عام ١٧٦٢ وقام بعمل مساحة جزء من الشاطئ فعين فى وظيفة « مساح بحرى لساحل نيوفوند لاند واللبرادور » وظل فى هذه الوظيفة حتى عام ١٧٦٧ ، أعد خلالها عدداً من المجلدات فى الارشاد الملاحى لهذه المنطقة ، والتى صدرت (١٧٦٦ — ١٧٦٨) تحمل دليلا على كفاءته وتمكنه من علوم المساحة البحرية . وفى خلال هذه السنوات أيضاً ارتفع صيته كرياضى وفلكى برصده الكسوف الشمسى فى ٥ أغسطس ١٧٦٦ ، وكتاباته فى المجلة العلمية « المراجعات الفلسفية » .

وفى عام ١٧٦٨ كانت الجمعية الملكية — وهى أكبر هيئة علميه فى بريطانيا — تعد العدة لارسال بعثة إلى مكان قصى من العالم لرصد كوكب الزهرة . فمن المعروف أن كوكب الزهرة — مثله فى ذلك مثل عطارد — أكثر قرباً إلى الشمس من الأرض إليها ، وأنه يدور حول الشمس فى مدار داخل مدار الأرض حولها . وفى أوقات معينة نادرة تمر الزهرة بين الأرض والشمس فعلا بحيث تتحرك على وجه الشمس كنقطة سوداء ويترقب الفلكيون حدوث هذه الظاهرة لأنهم يستطيعون من تعيين المدة اللازمة لعبور الكوكب حساب المسافة بين الأرض والشمس . وتستلزم هذه العملية رصد الكوكب من نقطتين تفصلهما مسافة بعيدة على سطح الأرض . وقد وقع الاختيار حينئذ على جزيرة تاهيتى فى جنوب المحيط الهادى لمشاهدة عبور كوكب الزهرة . وعرضت الأدميرالية ارسال سفينة تحمل البعثة العلمية إلى هذه الجزيرة التى كان كابتن « واليس » قد اكتشفها حديثاً لحساب بريطانيا .

عاد كوك إلى إنجلترا بعد أن كانت ترتيبات الرحلة قد تمت فوقع الاختيار عليه — وهو فى الأربعين من عمره — لقيادة هذه البعثة . ومنذ هذه اللحظة سوف نرى أن حياة جيمس كوك ترتبط بالبعثات الكشفية الثلاث التى قادها والتى وصفها فى يومياته الشهيرة بحيث يصعب علينا أن نفصل بين حياة كوك ورحلاته ويومياته ، مما يدعونا لأن نعالج هذه الموضوعات كعناصر متداخلة فى دراسة أكثر شمولا .

عصر جيمس كوك :

أدت اكتشافات كوك إلى إلقاء الضوء على خريطة العالم ، فاستطاع برحلاته أن يرفع الحجاب عن بقاع كانت مجهولة للعالم المتحضر ، وأن ينفى ويدحض كثيراً من الشائعات والنظريات عن وجود معالم جغرافية خيالية . وحتى نتبين الدور الذى لعبه كوك ، ونتمكن من تقويم جهده ونتائجه فاننا نعرض هنا إلى حدود العالم فى عصر كوك ، والمعلومات التى كانت تحت يده

عن الأراضى التى اكتشفها فيما بعد ، وعن النظريات التى كانت تراود العلماء وتشغل حيزاً من معتقدات الجغرافيين والملاحين فى ذلك العصر .

فمع انتهاء القرن السادس عشر كان هناك تقدم واضح فى معلومات الأوربيين عن توزيع اليابس والماء على سطح الأرض . واحتلت أمريكا مكانها كمساحة شاسعة من اليابس على خريطة العالم . وأخذت الرحلات خلال القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر تسد الثغرات فى معلوماتنا عن خريطة العالم ، وعلى الأخص فى المحيط الهادى ، أضخم المحيطات وأحدثها اكتشافاً . ولكن « المحيط الجنوبى » ظل يمثل مساحات ضخمة من المياه التى لم تبحر فيها أية سفينة . فحتى رحلة كوك الثانية لم تكن الدائرة القطبية عند خط عرض ٣٠َ ٦٦° جنوباً قد عبرت بعد ، بل إن عدداً قليلا من السفن كان قد أبحر حتى ٣٠° جنوباً . وطبيعى أن تبقى هذه المياه مثارا لخيال الجغرافيين والملاحين ، وأملا يراود المستعمرين ومكاناً للتنافس بينهم ؟

شغل الجغرافيون والمستكشفون فى ذلك الوقت بثلاث قضايا هامة دار حولها كثير من النقاش ، وقدر لكوك أن يقدم للعالم — خلال رحلاته الثلاث — حلا لهذه القضايا الثلاث التى نعرض لها هنا .

أولا : القارة الجنوبية :

والتى عرفت حينئذ بأرض الجنوب المجهولة
(Terra Australis Incongenita)

بدأت الرحلات الهامة فى المحيط الهادى تتجه خلال القرن السابع عشر إلى البحث عن أرض ضخمة مجهولة إلى الجنوب من هذا المحيط . ويرجع أصل هذه العقيدة إلى العصور الكلاسيكية ، عندما اعتقد الجغرافيون بوجود أرض فى الأطراف الجنوبية من العالم . ووضع بطليموس الجغرافى هذه الأرض على الخريطة كجزء من اليابس يمتد بين أفريقيا وآسيا على طول المحيط الجنوبى . وبالرغم من أن كثيراً من آراء الجغرافيين القدامى قد تداعت وانتهت فى العصور الوسطى ، فان نظرية بطليموس بقيت ذات أثر قوى ، كما ظلت خرائطه كمرجع أساسى حتى اكتشف الطريق البحرى إلى الهند .

ووجدت الفكرة القديمة قبولا لدى كثير من مشاهير الجغرافيين فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، مثل الجغرافى الهولاندى « ميركاتور » ، الذى لم يضعها فقط فى خرائطه ، بل أنه برر ضرورة وجودها بأن مثل هذه الكتلة من اليابس لازم لموازنة القارات فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية . ورغم أن هذه النظرية التى تدعو إلى التوزيع المتوازن لليابسة على سطح الكرة الأرضية لم تقبل من الجميع ، فانها كانت عاملا أساسياً فى إحياء نظرية القارة الجنوبية .

وجاءت الكشوف المتتالية وكل منها يحمل بعض الأمل فى وجود مثل هذه القارة . فعندما عبر ماجلان المضيق الذى يعرف باسمه فى الطرف الجنوبى من قارة أمريكا الجنوبية ، كانت هناك أرض تمتد إلى الجنوب . وظلت خرائط الأوربيين تظهرها لسنين عديدة كجزء من القارة الجنوبية الضخمة . حتى أثبت سير فرانسيس دراك أن هذه الأرض التى تعرف باسم (Tiera del Fuego) ما هى إلا جزيرة صغيرة تنتهى جنوباً برأس هورن . ولكن نتائج بعض الرحلات الاستكشافية التالية كرحلات شوتن وكيروس وجانزون ظلت تؤيد هذا الاحتمال ، فقد اتجه معظم المستكشفين فى ذلك العصر إلى أن يأخذوا كل أرض جديدة تكتشف إلى الجنوب على أنها جزء من القارة القطبية الجنوبية . وظل هذا السؤال قائماً حتى عصر كوك : هل توجد حقاً هذه القارة الجنوبية وإذا كان الأمر كذلك فما هى طبيعتها وامتدادها الجغرافى ؟

ثانياً : القارة الاسترالية :

بدأ الهولنديون استكشاف واستعمار جزر الهند الشرقية ومنها وصلوا إلى سواحل أستراليا . ولكن هناك من يرى أن سفن أسبانيا والبرتغال بلغت أستراليا قبل الهولنديين . ويعتمد هذا الرأى على بعض الخرائط التى يرجع تاريخها إلى عام ١٥٣٠ . بينما يرفض جمهرة من العلماء هذا الرأى ويعتقدون أن هذه الخرائط تعتمد على الخيال أو على أحاديث الأهالى فى جزر الهند الشرقية .

جاء اكتشاف القارة الأسترالية متأخراً . فقد كانت تقع خارج الخطوط الملاحية بين أوربا وجزر الهند الشرقية . وحتى عندما عرف بوجودها فان استكشافها واستعمارها تأخرا كثيراً بسبب التقارير غير المشجعة التى عاد بها الرحالون الأوائل الذين أبحروا على طول السواحل الغربية القاحلة . ومن أمثلة هذه التقارير ما جاء فى وصف واحد منهم للشمال بأن « الجانب الأكبر منه صحراء ويسكنه فى بعض الأماكن قوم سود قساه متوحشون » !

استطاع الهولنديون فى القرن السابع عشر أن يطردوا البرتغاليين والإنجليز من جزر الهند الشرقية ويستولوا على تجارة التوابل . وكان أهم مركز تجارى لهم ميناء باتافيا فى جزيرة جاوه التى نعرفها الآن باسم جاكرتا . والواقع أن الهولنديين لم يحتلوا فعلا سوى جزيرة جاوه واكتفوا باقامة مراكز تجارية على الجزر الأخرى . وقد وجدت شركة الهند الشرقية الهولندية أن احتلال استراليا عملية غير اقتصادية . وخاصة أن التقارير الأولى للمكتشفين الأوائل لم تكن مشجعة . ومن ناحية أخرى فقد كان الهولنديون يرفضون أن يروا أوربياً آخر يستقر فى هذه الأرض لذلك أعلنوا ملكيتهم لها وادخلوها فى خرائطهم وأسموها هولندا الجديدة .

لعل أول من اكتشف استراليا هو وليم جانزون الهولندى ، الذى أبحر على طول الساحل الجنوبى لغينيا الجديدة ثم تابع رحلته جنوباً حتى وصل إلى مضيق كاربنتاريا فى شمال استراليا واستمر يتحرك على طول ساحله الشرقى حتى أجبرته عداوة الأهالى على العودة . ولكن أهم رحلة استكشافية تسبق رحلة كوك كانت بقيادة ابل تاسمان الهولندى عام ١٦٤٢ أى قبل رحلة كوك باكثر من مائة وعشرين عاماً ، وكان الحاكم الهولندى لجزر الهند الشرقية فان ديمن يرغب فى معرفة نطاق هذه الأرض الجديدة فأرسل بعثة بقيادة تاسمان ، الذى غادر باتافيا متجهاً إلى الغرب حتى جزر موريشياس فى المحيط الهندى ثم قفل عائداً إلى الشرق والجنوب الشرقى ليقع على جزيرة كبيرة أطلق عليها اسم أرض فان ديمن هى ما نعرفها اليوم بجزيرة تاسمانيا فى جنوب شرق أستراليا . ومن هنا اتجه تاسمان شرقاً مع الرياح الغربية حتى وقع بصره على نيوزيلاندا . فأبحر على طول ساحلها الغربى ومن هناك عاد إلى جاوه ماراً بشمال غينيا الجديدة .

يرى بعض الكتاب أن رحلة تاسمان كانت « فشلا رائعاً ! » فمن سوء حظه أنه دار حول استراليا دون أن يراها ، ولكنه استطاع بذلك أن يحصر المساحة التى يمكن أن تقع فيها القارة الجنوبية . كما أثبت أن استراليا ليست جزءاً من القارة الجنوبية ، وإن كان قد توهم أن نيوزيلاندا جزء من القارة الجنوبية وبالرغم من هذا فان رحلة تاسمان تعد من أنجح الرحلات الكشفية فقد أدت إلى إضافة تاسمانيا ونيوزيلاندا وعدد آخر من الجزر الصغيرة إلى خريطة العالم . وفتحت الباب على مصراعيه لرحلات كوك التالية .

ثالثاً : الممر الشمالى الغربى :

ذكرنا فيما سبق أن الطرق البحرية إلى جزر الهند الشرقية كانت تقع فى أيدى الأسبان والبرتغاليين ، بينما بقيت دول شمال غرب أوربا بعيداً عن هذا الميدان فى وقت كانت النزعات القومية تفرق بينها ، وكان

التنافس على المستعمرات والاتجاه إلى التوسع هو الصفة الغالبة بينها . وكان طبيعياً أن تتجه هذه الدول إلى البحث عن طريق آخر إلى الشرق ، وأن يكون بحثها فى مناطق لم تستكشف بعد . وانفرد الانجليز والهولنديون بمحاولة الوصول إلى جزر الهند الشرقية بالابحار حول شمال آسيا شرقاً أو أمريكا غرباً . وقد بدأت محاولات البحث عن « الممر الشمالى الشرقى » فى شمال آسيا وانتهت أولا . ومن ثم اتجهت جهود الرحالة إلى العثور على « الممر الشمالى الغربى » على الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية . وتتعاقب رحلات المستكشفين فروبشير الانجليزى (١٥٧٦ — ١٥٧٨) وجون دافيز (١٥٨٥ — ١٥٨٧) على نفقة تجار لندن ، ثم هنرى هدسون (١٦٠٩ — ١٦١٠) فى خدمة الهولنديين ، وباتون (١٦١٢) وبيلوت وبافين (١٦١٥ — ١٦١٦) وقد كشفت هذه الجهود عن تفاصيل كثيرة فى خريطة الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية ، ولكنها لم تنجح فى الكشف عن ممر يؤدى إلى المحيط الهادى . وبقيت هذه المشكلة معلقة ليعاود كوك المحاولة فى رحلته الثالثة .

* * *

هذه هى القضايا الثلاث التى شغلت بال الجغرافيين والملاحين والمستعمرين والساسة فى هذا العصر ، وقدر لكوك أن يغير بشكل حاسم فى أفكارهم جميعاً نتيجة للحقائق الجغرافية الجديدة التى عاد بها من رحلاته .

لم يكن كوك وحده فى الميدان ، ويجدر بنا أن نأخذ فكرة عن الرحلات المعاصرة له حتى نستطيع أن نقدر النجاح الذى حازه بالمقارنة بما أحرزه معاصروه من المستكشفين فى نفس المياه التى أبحر فيها كوك .

ففى عام ١٧٦٤ غادر جون بيرون إنجلترا ، بتعليمات للبحث عن جزر بيبس وجزر فالكلاند ولكنه لم يجد الجزر الأولى التى قيل إنها شوهدت عام ١٦٨٤ ، واستولى على مجموعة جزر فالكلاند التى توجد بالقرب من مضيق ماجلان ، حاسباً اياها جزر بيبس ، وكان بوجانفيل الفرنسى قد استعمرها فى رحلة سابقة . واستطاع بيرون فى رحلته عبر المحيط الهادى أن يكتشف عدة جزر وأن يقدم بعض الأدلة على وجود أرض إلى الجنوب ، وهو زعم لم تثبت صحته بعد ذلك .

لم تنجح هذه الرحلة كثيراً ، فتقرر ارسال سفينتين بقيادة كل من واليس وكارتيريت ، ولكن السفينتين افترقتا عند دخولها المحيط الهادى ، واتخذتا مسارين مختلفين ، فاكتشفت الأولى جزيرة تاهيتى الكبيرة واكتشفت الثانية مجموعة جزر سانتا كروز ، وصححت موقع عدد من الجزر التى سبق اكتشافها .

وأسهم الفرنسيون فى هذا النشاط برحلات لويس انطوان دى بوجانفيل الذى قاد عامى ١٧٦٣ ، ١٧٦٥ رحلتين لاستعمار جزر فالكلاند ثم ذهب فى عام ١٧٦٦ ليسلم هذه الجزر إلى أسبانيا ومنها اتجه إلى ريو دى جانيرو حيث اصطحب معه سفينة تموين ليبدأ رحلة حول العالم عبر فيها المحيط الهادى بقصد البحث عن حل لمسألة القارة الجنوبية . فزار جزيرة تاهيتى بعد اكتشاف واليس لها ببضعة أشهر ، ثم اكتشف مجموعة جزر ساموا ثم زار عدداً من الجزر التى تقع إلى الشرق من استراليا ، ومنها اتجه إلى الساحل الشمالى لغينيا الجديدة فى طريق عودته إلى فرنسا التى وصلها عام ١٧٦٩ ، بعد أن غادر كوك انجلترا فى رحلته الأولى .

يوميات الكابتن كوك :

من تقاليد البحر أن يحتفظ قبطان السفينة بسجل يكتب فيه بانتظام الأحداث التى تمر بها السفينة . وعندما تكون الرحلة غير عادية ، والأصقاع التى تمر بها السفينة غير معروفة ، يصبح دفتر الأحوال هذا عملا له أهمية كبيرة ، وخاصة إذا كتبه قبطان مثل كوك ، ذلك العالم المدقق ، ذو الحاسة السادسة للكشوف الجغرافية ، والذى كان يعرف تماماً أبعاد المهمة المنوطة به ، ويعرف كيف يحققها على أكمل وجه

ممكن . ويوميات البحر هذه هى المصدر الرسمى لأى كشف جغرافى جديد ، ومرجع للعلماء فى التـــاريخ للكشوف الجغرافية ، وخاصة عندما تتنازع الأمم شرف السبق إلى هذه الفتوح سواء عن رغبة علمية أو نزعة استعمارية . ولكن هذه اليوميات فى حالتها الأصلية تصبح عبئاً على القارئ الباحث أو القارئ العابر بما فيها من تفاصيل قد لا تمت بصلة كبيرة للموضوع الأصلى . لذلك يعمل أصحابها أو الناشرون على إعادة كتابتها بعد تصفيتها من التفاصيل غير الأساسية . وهذه اليوميـــات لمشاهير المستكشفين تعطينا عادة صورة حية لظروف المعيشة على ظهر السفينة ، وانفعال الكاتب بالأرض الجديدة وأهلها ، والأهداف الحقيقية لهذه الرحلات ومدى نجاحها .

صدرت يوميات كوك على مراحل متتالية وتحت عناوين مختلفة . ففى عام ١٧٧٢ — ١٧٧٣ نشر دكتور هوكسورث كتاباً تحت عنوان « رحلات » وتولى فيه تحرير حكاية كوك عن رحلته الأولى تحت عنوان « وصف لرحلة حول العالم فى السنوات ١٧٦٨ — ١٧٧١ » .

أما قصة الرحلة الثانية فقد كتبها الكابتن كوك نفسه بالاشتراك مع جورج فورستر ابن الدكتور فورستر العالم الطبيعى ، واللذين صحباه فى رحلته الثانية وتولى دوجلاس إصدارها فى جزءين عام ١٧٨٤ تحت عنوان « رحلة إلى القطب الجنوبى وحول العالم » .

أما يوميات الرحلة الثالثة فقد قام كوك بكتابتها حتى مصرعه ثم تولى الملازم « كنج » — الذى رقى فيما بعد إلى قبطان — كتابة بقية الرحلة حتى العودة إلى انجلترا . وقد نشرت الرحلة الثالثة بوساطة دوجلاس أيضاً فى ثلاثة أجزاء عام ١٧٨٤ ، تحت عنوان « رحلة إلى المحيط الهادى ... لعمل استكشافات فى نصف الكرة الشمالى » .

أثارت رحلات كوك كثيراً من الخيال ، وأقبل الكثيرون على قراءتها مما جعل الناشرين يتبارون فى إصدارها بمختلف اللغات وفى طبعات وأحجام عديدة وتحت عناوين متباينة . ويستطيع القارئ أن يتبين هذا الاقبال من مقدمة أحد الناشرين عام ١٨٣٣ ، والتى أعرض هنا جزءاً منها ، يقول الناشر « بين كل الملاحين الذين عرفهم العالم ، كان الكابتن كوك أكثرهم قدرة ومهارة كما فاقهم بكثير فى النجاح الذى حققه . وقد أخذ وصف رحلاته الثلاث ، منذ أمد طويل ، مكانا متفوقاً على أى أعمال مماثلة . فنشرت أعماله فى جميع الأحجام ، ويمكن أن يقال أنها أصبحت مرجعاً أساسياً للمدارس . وجزءاً لا غنى عنه فى مكتبة رجل البحر » .

الرحلة الأولى :

كان الهدف الأول لهذه الرحلة هو رصد كوكب الزهرة من جزر تاهيتى أثناء عبوره عام ١٧٦٩ . ولكن الآمال الكبيرة فى احتمال الكشف على القارة الجنوبية دعت البحرية إلى تخصيص سفينة تحمل بعثة الجمعية الملكية إلى تاهيتى ثم تتجه بعد ذلك إلى القارة المنشودة التى كان الكل يعتقد أنها أكبر من أوربا وآسيا مجتمعتين وأنها سوف تفيض بالثروة والرخاء على أول دولة ترفع علمها عليها . تولى كوك قيادة هذه الرحلة وكان تمكنه فى علوم الفلك والملاحة قد رشحه لتولى رئاسة هذه البعثة العلمية ، التى كانت تضم عدداً من العلماء منهم شارل جرين الفلكى وجوزيف بانكس عالم النبات المعروف الذى منح لقب سير وانتخب فيما بعد عضواً بالجمعية الملكية وصار رئيساً لها لمدة تزيد على الأربعين عاماً ، وترك للمتحف البريطانى مجموعات نباتية لا تقدر بثمن . وقد صحب بانكس فى هذه الرحلة صديقه دكتور سولاندر وعدداً من مساعديه ، حتى يقوموا ببحوث فى التاريخ الطبيعى . وقد نجح كوك فى التعاون مع مجموعة العلماء وتيسير مهمتهم ، كما كان لحماس

بانكس واخلاصه وتعاونه مع كوك الفضل الأكبر فى النجاح الذى حققته البعثة . وقد أعطت هذه المجموعة من العلماء البعثة طابعاً جديداً لم تعرفه الرحلات المماثلة من قبل .

ووقع الاختيار على السفينة « انديفر » التى بنيت فى ويتبى لتجارة الفحم . وهى سفينة ذات ثلاثة قلاع تبلغ حمولتها ٣٦٨ طناً ، وتمتاز بغاطس صغير ، وسعة كبيرة وامكانية رفعها على الشاطئ لعمل الإصلاحات الضرورية وكانت هذه كلها كما أثبتت حوادث الرحلة مميزات كبيرة لسفينة سوف تبحر لمسافات طويلة فى مياه ساحلية لتتمكن من رسم الشواطئ الجديدة التى ستكتشفها .

غادرت « انديفر » إنجلترا فى ٣٠ يوليه ١٧٦٨ ، وهى تحمل ٩٤ فرداً على ظهرها . وفى يناير ١٧٦٩ كانت تمر بكاب هورن فى طريقها إلى المحيط الهادى وفى ١٣ أبريل بلغت مياه تاهيتى وبدأت فى الاتصال بالأهالى . وفى خلال ثلاثة أشهر من الإقامة استطاع كوك – بفضل النظام الدقيق الذى فرضه على بحارته – أن يحافظ على علاقات المودة مع الأهالى . وأخيراً جاء يوم ٣ يونيه المنتظر الذى ثبت كما يقول كوك « أنه صالح تماماً لأغراضنا كما كنا نرجو . فلم تر سحابة واحدة طول اليوم وكان الهواء شفافاً فحصلنا على كل ميزة تمكن أن نتمناها فى ملاحظة عبور كوكب الزهرة على قرص الشمس » وهكذا أمكن للبعثة أن ترصد الزهرة من مكانين أو ثلاثة على الجزيرة . وبالإضافة إلى هذا قامت مجموعة العلماء بعدة رحلات داخل الجزيرة وعلى طول الساحل لدراسة الجزيرة من عدة وجوه مختلفة .

وإلى هنا كانت المهمة المعلنة للبعثة قد انتهت ، ولكن الأدميرالية كان لها هدف آخر ، ففى مظروف مغلق كان كوك يحمل أوامر سرية بأن يتقدم من تاهيتى « إلى الجنوب بقصد الكشف عن القارة (التى توجد إلى جنوب مسار والاس) حتى تصل إلى خط عرض ٤٠° إلا إذا وقعت عليها قبل ذلك ، أما إذا لم تكتشفها أو أية علامات تدل عليها فى هذا المسار ، فعليك أن تتقدم للبحث عنها إلى الغرب ، بين خط العرض السابق ذكره وخط عرض ٣٥° حتى تكتشفها أو تقابل الساحل الشرقى للأرض التى اكتشفها تاسمان والتى تسمى الآن نيوزيلانده . . وإذا فشلت فى اكتشاف القارة . . فعليك عندما تصل إلى نيوزيلاند أن تلاحظ خطى العرض والطول اللذين تقع عندهما هذه الأرض ، وأن تكشف أكثر ما يمكنك من سواحلها بقدر ما تسمح حالة المركب ، وصحة بحارتها ، ومخزونك من الأكل»

وهكذا لم يكن رصد عبور الزهرة سوى الهدف المعلن لبعثه كان الهدف الحقيقى لها هو الكشف عن القارة الجنوبية ، وإضافة أرض جديدة للامبراطورية . وقد زود كوك عند سفره بكثير من المعلومات والخرائط والمراجع ، كان بينها كتاب دى بروس[1] الفرنسى عن تاريخ الملاحة حول أرض الجنوب ، والذى كان يحوى عدة بيانات هامة عن القارة الجنوبية ، ودعوة حارة إلى الفرنسيين للقيام بعمل استكشافى فى هذه المنطقة وتكررت هذه الدعوة فى بريطانيا عام ١٧٦٦ بوساطة كالندر ، ثم جاء دارلمبل ، وكان من غلاة المؤمنين بوجود هذه القارة والداعين للبحث عنها ، فألف كتاباً صغيراً جمع فيه بيانات عن الرحلات السابقة لهذا الجزء من العالم ، وأعطى مخطوطاً منه إلى جوزيف بانكس قبل أن تغادر البعثة إنجلترا . وكان من رأى دارلمبل أن هذه القارة تقع على مسافة قصيرة إلى الغرب من أمريكا الجنوبية . ولهذا السبب فان كوك عندما غادر كاب هورن فى طريقه إلى تاهيتى اتخذ كما يقول فى مذكراته « مساراً أكثر انحرافاً إلى الغرب من أيه سفينة فعلت ذلك من قبل ، ولكن هذا لم يسفر

(١) de Brosses' : Histoire des navigations aux terres Australes.

عن أى كشف حتى وصلنا إلى المنطقة المدارية حيث اكتشفنا عدة جزر » .

غادرت البعثة تاهيتى فى ٣١ يوليه ١٧٦٩ أى بعد عام من بدء الرحلة . وهنا يبدأ جانبها الشيق من الناحية الجغرافية . واصطحبت البعثة معها أحد الأهالى بناء على رغبته . وقد قدم توبيا ، وهذا اسمه خدمات جليلة للبعثة فى مراحلها التالية . وما كاد كوك يتحرك غرباً حتى عثر على مجموعة من الجزر سماها جزر الجمعية تكريماً للجمعية الملكية ، ثم اتجه جنوباً بحثاً عن القارة المنشودة ، حتى قطع ١٥٠٠ ميل ووصل إلى ٤٠° جنوباً دون أن يعثر لها على أثر فغير اتجاهه إلى الغرب ليصل فى ٧ أكتوبر إلى نيوزيلانده .

اكتشف تاسمان نيوزيلانده عام ١٦٤٢ ، ولكن هولندا لم تستطع احتلالها ، بل إن أحداً من الأوربيين لم يرها حتى وصل كوك . وكان تاسمان يظن أنه اكتشف جزءاً من القارة الجنوبية ، ولم يكن كوك يدرى عند وصوله إذا كانت هذه هى القارة الجنوبية ، ونراه يعلق على هذا قائلا « هذه الأرض أصبحت موضوعاً لكثير من المناقشات الشيقة ، ولكن يبدو أن الفكرة العامة تقول إننا وجدنا أرض الجنوب المجهولة » . لذلك عندما وصل كوك إلى الساحل الشرقى ، وهو الساحل الذى لم يره تاسمان أبداً ، قرر أن يبحر على امتداده حتى يتمكن من فحصه وأن يضع حداً لهذه المناقشات .

تحرك كوك ببطء فى اتجاه الجنوب حتى رأس « تيرن آجين » (Cape Turn Again) ثم عاد ثانية فى اتجاه الشمال ليرسم خريطة الساحل ، ثم دار حول الجزيرة الشمالية واستكشف المضيق المعروف باسمه والذى يفصل بين الجزيرتين الرئيسيتين لنيوزيلانده ، وكان تاسمان قد اعتبره خليجاً مقفلا . ثم دار حول الجزيرة الجنوبية ، وانتهى من رسمها بدقة فى مارس ١٧٧٠ . واستطاع أن يستكشف ٧٤٠٠ ميل من السواحل فى أكثر قليلا من ستة أشهر ، وأن يرسمها بدقة كبيرة ، لا تزال تشهد حتى اليوم بقدرته على الملاحظة ، وكفاءته فى المساحة البحرية . وعندما حاول أحد المستكشفين الفرنسيين أن يعمل خريطة لجزء من الساحل فيما بعد ، وجد أنه « عندما قارنت خريطتى بخريطة كوك وجدت أنها على درجة من الضبط والدقة فى التفاصيل حتى انها إدهشتنى بدرجة تفوق قدرتى على التعبير . إننى أشك إذا كانت سواحلنا الفرنسية قد رسمت بدقة أكبر » .

وبانتهاء هذه المرحلة من الرحلة ، عرف كوك أن نيوزيلانده ليست القارة المنشودة . ولكنه كان قد نفذ تعليمات الأدميرالية بالضبط ، وكان يستطيع أن يعود إلى انجلترا مباشرة . ولكنه كان يود أن يسلك الطريق الذى يكمن فيه احتمالات الكشف الجغرافى . وكان أمامه أن يعود عن طريق كاب هورن فى أمريكا الجنوبية حتى يدرس احتمال وجود القارة الجنوبية فى هذه الأصقاع ، ولكنه رأى أن يتفادى الابحار فى هذه العروض المتطرفة « فى أعماق الشتاء بسفينة لم تعتبر كافية لمثل هذه المغامرة » . ولهذا السبب أيضاً رفض كوك الابحار إلى رأس الرجاء الصالح مباشرة . وقرر أنه « يجب علينا أن نعود من جزر الهند الشرقية ، ولهذا السبب يجب علينا عند مغادرة الساحل أن نتجه غرباً حتى نقع على الساحل الشرقى لهولندا الجديدة ثم نتابع اتجاه الساحل إلى الشمال حتى نصل إلى طرفها الشمالى . وبهذه الفكرة تحركنا فى اتجاه البحر فى مطلع يوم السبت ٣١ مارس ١٧٧٠ . . . . . » . وأثبتت هذه الخطة نجاحاً كبيراً ، فقد وقع نظرهم على الأرض مرة أخرى فى ١٩ أبريل «لقد حددت موقع هذه الأرض بخط عرض ٣٨° وأعطيتها اسم نقطة هيكس (Point Hicks) الضابط الأول الذى كان أول من رآها » ولكن كوك لم ير أرضاً فى اتجاه الجنوب ورفض أن يذكر إذا كانت هذه الأرض التى اكتشفها تتصل مع تاسمانيا أو أرض فان ديمان التى اكتشفها تاسمان أم لا . وبدلا من أن

يتجه كوك جنوباً ليفحص هذا الأمر ، قرر أن يتجه شمالا على طول الساحل تاركاً هذه المسألة ، حتى عرف عام ١٧٩٨ أن تاسمانيا جزيرة منفصلة تماماً عن أستراليا .

وفى أثناء الرحلة شمالا كانت البعثة تنزل من وقت لآخر على الشاطئ وتتصل بالأهالى الذين كانوا يقابلونهم بكثير من الشك . وفى أحد الأماكن عاد بانكس ، وسولاندر بثروة من النباتات بدرجة جعلت كوك يطلق على الخليج الذى كانت تحيط به الخضرة من كل جانب اسم خليج النبات ، والذى لا يزال يعرف بهذا الاسم حتى اليوم . وإلى الشمال قليلا اكتشف فى ٦ مايو موقع بورت جاكسون الذى احتلته فيما بعد مدينـــة سيدنى .

وبدأت الرحلة تدخل مرحلة خطيرة باقترابها من الحاجز المرجانى العظيم الذى يمتد ١٢٠٠ ميل على طول الساحل الشرقى لأستراليا . فقد وجدوا أنفسهم فى المنطقة المحصورة بين الحاجز والساحل ، وهى منطقة تقتضى كثيراً من الحذر أثناء الملاحة بسبب الشعاب التى تختفى تحت سطح الماء وتكون عقبات ملاحيـــة خطيرة . ولمسافة ألف ميل كان هناك دائماً رجل فى مقدمة السفينة ليقيس عمق المياه تحتها ، ورغماً عن هذه الحيطة فقد وقعت أنديفر صباح يوم ١٠ مايو فى مأزق خطير كان يمكن أن يقضى على السفينة وبحارتها . فبعد أن مروا بعدد من الشعاب المرجانية الخطرة وبدا لهم أنهم دخلوا فى مياه عميقة ، اصطدمت بصخرة لم يتبينوها ، وبقيت السفينة مستقرة عليها على مسافة من الشاطئ . . وعمل الجميع على إنقاذ سفينتهم فأداروا المضخات والتواكل ما يمكن الاستغناء عنه من السفينة حتى عامت مع ارتفاع المياه أثناء المد التالى . وقد تبين فيما بعد أن السفينة قد نجت بأعجوبة حين اكتشفوا أن الثقب الأكبر فى قاع السفينة بقى مسدوداً بوساطة حجر كبير ، استطاع كوك أن يقود السفينة بحذر إلى مكان مناسب على الساحل حيث رفعت السفينة على الشاطئ لاصلاحها .

وقد أثبت هذا الحادث أن السفينة كانت اختياراً موفقاً بسبب غاطسها الصغير الذى يسمح لها بالابحار فى المياه الضحلة . وفى خلال الفترة التى قضتها البعثة على الشاطئ استطاعت أن تستكشف جانباً من الأرض وأن ترى وتصطاد لأول مرة حيوان الكانجارو أكبر حيوان ثدى فى استراليا .

وفى ٤ أغسطس أنزلت انديفر إلى البحر وتحركت شمالا على طول الساحل لبضعة أيام ، ولكن القناة بين الحاجز المرجانى والساحل كانت تضيق باستمرار مما يزيد فى أخطار الملاحة حتى قرر كوك وضباطه أن يخرجوا إلى البحر عند أول فتحة فى الحاجز ، ولكنهم ما كادوا يفعلون حتى وجدوا أنفسهم فى مأزق أشد خطورة . فان الأمواج والرياح وتيارات المد كانت تدفع بهم نحو الحاجز المرجانى وبجهد كبير استطاع كوك أن يبعد سفينته عن الصخور حتى تمكن فى أول فرصة مواتية أن ينزلق مع التيار خلال إحدى الفتحات إلى المياه الهادئة بين الحاجز والساحل .

واصل كوك رحلته شمالا حتى وصل إلى الطرف الشمالى لاستراليا فى ٢١ أغسطس ونراه يكتب « إننى الآن على وشك أن أغادر الساحل الشرقى لهولندا الجديدة الذى سرت بمحاذاته من خط عرض ٣٨° حتى هذا المكان والذى لا أشك مطلقاً أن أحداً من الأوربيين قد رآه من قبل . . . . » .

غادر كوك أستراليا إلى غينيا الجديدة خلال ممر تورس ، وهكذا أثبت كوك أن أستراليا وغينيا الجديدة منفصلتان تماماً ، وهى حقيقة أثبتها تورس قبل قرن ونصف قبل ذلك ولكنها كانت موضع شك فى عصر كوك ، الذى نراه يعلق على بعض الخرائط ويقول فى تواضع « لقد اعتقدت دائماً قبل أن أرى هذه الخرائط أنه لم يكن معروفاً إذا كانت هولندا الجديدة وغينيا الجديدة أرضاً واحدة متصلة أم لا . لقد حسمنا الآن النقاش فى هذا الموضوع تماماً ، وكما أعتقد فان هذا

الأمر كان معروفاً من قبل ، ولكن ليس على نطاق عام ، إننى لا أدعى لنفسى أكثر من أننى أوضحت نقطة كانت غامضة » .

وصلت البعثة إلى باتافيا لتقضى بعض الوقت فى الراحة وإصلاح السفينة وتموينها ، ولكنها تعرضت لأمراض المناطق الحارة مثل الملاريا والدوسنتاريا فسقط خلال عشرة أسابيع ثلاثون من الرجال ، كان من بينهم توبيا الذى رافق السفينة من تاهيتى . ثم مات جرين الفلكى بعد أن غادرت السفينة باتافيا فى ٢٧ ديسمبر عام ١٧٧٠ فى طريقها إلى رأس الرجاء الصالح حيث قضت البعثة شهراً . وفى ١٢ مايو ١٧٧١ وصل كوك ورفاقه إلى انجلترا بعد غيبة استمرت أكثر من سنتين وتسعة أشهر .

كان تقرير كوك إلى الجمعية الملكية غير مرض تماماً ، فان رصد عبور الزهرة لم يأت بجديد فى تحديد المسافة بين الأرض والشمس . ومن ناحية أخرى لم تصل البعثة إلى حل لمسألة القارة الجنوبية . وعدا هذا فان رحلة كوك – بصرف النظر عن آثارها السياسية – قد أضافت كثيراً إلى جغرافية الكرة الأرضية . فقد أظهرت نيوزيلانده كجزيرتين منفصلتين ، وليست جزءاً من القارة الجنوبية كما ظن تاسمان ، كما أنها ضيقت النطاق الذى يمكن البحث فيه عن القــارة الجنوبية . وبالرغم من أن كوك ليس المكتشف الأول لاستراليا فانه أضاف الساحل الشرقى بأكمله إلى المعلومات السابقة عن السواحل الأخرى ، وأثبت أن هذه القارة منفصلة تماماً عن غينيا الجديدة . واستطاع كوك أن يدعم كل هذه الاكتشافات بخرائط غاية فى الدقة .

ولعل من أهم النتائج الإيجابية لرحلة كوك ، قدرته على المحافظة على صحة بحارته فى وقت كان مرض الأسقربوط العدو الأكبر للرحلات الطويلة . ولولا الكارثة التى حلت بالبعثة نتيجة للأمراض المعدية لانتهت الرحلة دون ضحايا . فقد عرف كوك باتخاذه إجراءات مشددة لحماية صحة بحارته ، مثل تزويده البحارة بعصير الموالح وإدخال الخضروات فى الأكل والعناية بنظافة أماكن البحارة . وهكذا كان فى استطاعته أن يعلن – عندما وصل إلى باتافيا – « إننى أقول بكثير من الرضى إننى لم أفقد رجلا واحداً نتيجة المرض خلال الرحلة بأكملها » .

الرحلة الثانية :

عاد كوك إلى إنجلترا فى وقت تزايد فيه اهتمام فرنسا بالمحيط الجنوبى واحتمال الكشف عن القــارة الجنوبية. فاكتشف كرجيولن (Kerguelen–Trémarec) فى فبراير ١٧٧٢ الجزيرة التى تعرف باسمه فى جنوب المحيط الهندى ، وعاد إلى فرنسا فى نفس الشهر الذى غادر فيه كوك إنجلترا فى رحلته الثانية . كذلك سافر ماريون (Marion–Dufrense) وكورزيت Corzet فى رحلة إلى الجنوب حيث اكتشفاجزيرة ماريون ثم جزيرة كورزيت فى يناير ١٧٧٢ . وهذه الجزر الثلاث تقع فى المحيط الهندى جنوب خط عرض ٤٥ واعتبرت بوساطة مكتشفها كنقط متقدمة للقارة الجنوبية المنشودة .

لم تكن انجلترا بغافلة عن هذا النشاط الفرنسى فى وقت اشتد فيه التنافس الأستعمارى ، فقررت الأدميرالية الإنجليزية ارسال كوك فى رحلة ثانية ليجد حلا نهائياً لمشكلة القارة الجنوبية . وأختيرت سفينتان حديثتان حمولتهما ٤٦٢ و ٣٣٦ طناً ، ولم يدخر أى جهد فى إعدادهما لهذه المهمة بدرجة تفوق أى بعثة سابقة . تولى كوك قيادة السفينةالكبيرة رزوليوشن (Resolution) بينما قاد السفينة الثانية أدفنتشر (Adventure) الكابتن فورنو (Furneaux) الذى خدم كملازم ثان تحت قيادة واليس فى بعثة سابقة . وفكر العالم الطبيعى بانكس الذى رافق كوك فى رحلته الأولى أن ينضم إليه فى مهمته الجديدة ولكن هذه الفكرة لم تتحقق وسافر مع كوك عالم فى التاريخ الطبيعى – من أصل ألمانى – هو جوهان

فورستر (Johann Forster) مصطحباً ابنهجورج ، الذى شارك كوك فى كتابة رواية هذه الرحلة .

وفى يوم ١٣ يوليه ١٧٧٢ غادرت السفينتان بليموث ، وكانت التعليمات المكتوبة بتاريخ ٢٥ يونيه تدل على الأثر الكبير الذى تركته الرحلات الفرنسية على البرنامج الموضوع ،والذى يشرحه كوك فيقول« كان علىّ بعد مغادرة رأس الرجاء الصالح أن أتقدم إلى الجنوب وأن أبذل جهدى كى أقع على رأس سريكمسزيون التى قال عنها مسيو بوفيت إنها تقع فى خط عرض ٥٤° جنوباً وخط طول حوالى ٢٠َ ١١° شرق جرينتش . فاذا اكتشفت هذه الرأس ، كان على أن أثبت إذا كانت جزءاً من القارة التى جذبت أنظار الجغرافيين والملاحين القدامى ، أو إنها جزء من جزيرة . فاذا ثبت الاحتمال الأول ، كان على أن أبذل جهدى فى اكتشاف أكبر جزء منها بقدر ما أستطيع وأن آخذ بيانات وملاحظات من كل نوع بقدر ما يكون نافعاً للملاحة أو التجارةأو يعد تقدما فى العلوم الطبيعية . وقد تلقيت أيضاً توجيهات بأن ألاحظ عدد السكان ، إن وجدوا ، وما يتصفون به من ذكاء ومهارة ومزاج واستعداد للتعاون . وأن أبذل جهدى بكل الوسائل الصحيحة كى أنشئ صداقة وأعقد حلفاً معهم ، وأن أقدم لهم هدايا من الأشياء التى يقدرونها ، وأن أدعوهم للتجارة ، وأن أظهر لهم كل أنواع الأدب والاحترام . أما إذا أثبت أن هذه الرأس جزء من جزيرة فقط ، أو إذا لم أتمكن من العثور على الرأس المذكورة فان على فى الحالة الأولى ، أن أعمل المساحة اللازمة للجزيرة ثم أواصل الاتجاه جنوباً ، بقدر ما أستطيع الحكم على احتمال العثور على القارة الجنوبية وهو مما يجب أن أفعله أيضاً فى الحالة الأخيرة ثم على أن أتقدم شرقاً لمزيد من البحث عن القارة المذكورة ، كذلك أن أكتشف الجزر التى يحتمل وقوعها فى هذا الجزء الذى لم يستكشف بعد من نصف العالم الجنوبى ، وأن أبقى فى العروض المتطرفة وأن أنفذ اكتشافاتى كما ذكر سابقاً بالقرب من القطب بقدر ما تسمح الظروف حتى أكون قد درت حول العالم ، وعندئذ يجب أن أتقدم نحو رأس الرجاء الصالح ومنها إلى إنجلترا » .

غادرت السفينتان رأس الرجاء الصالح فى ٢٢ نوفمبر ١٧٧٣ فى طريقهما نحو الجنوب وبالرغم من الصيف الجنوبى فقد وزعت الملابس الثقيلة على البحارة، إذ كان الجو يزداد برودة . وسرعان ما شوهد أول جبل ثلجى فى ١٠ ديسمبر ؛ ثم حاول كوك البحث عن أرض بوفيه التى كان يعتقد أنها رأس متقدمة للقارة الجنوبية ، ولكنه لم يجد أى أثر للقارة أو الجزيرة . وفى يوم ١٧ يناير ١٧٧٣ ، عبرت البعثة الدائرة القطبية الجنوبية لأول مرة فى تاريخ الإنسان ولكن كوك لم يقنع بهذا ، وواصل التقدم حتى خط عرض١٥َ ٦٧° فى جو متزايد البرودة وظروف ملاحية خطرة بسبب الضباب والأمطار والثلوج والجبال الثلجية ، حتى اضطر للعودة قائلا « لم نستطع التقدم أكثر من ذلك فان نطاق الثلج كان مغلقاً تماماً إلى الجنوب على طول المسافة من الشرق إلى الجنوب الغربى دون أقل شاهد لوجود أى فتحة فيه » . وفى هذه الظروف افترقت السفينتان ولم تتمكنا من التلاقى إلا بعد ثلاثة أشهر فى نيوزيلانده التى اتفق على اختيارها من قبل كنقطة التقاء فى مثل هذه الأحوال ، وكمكان مناسب لقضاء فصل الشتاء .

ومن نيوزيلانده قصد كوك تاهيتى فوصلها فى ١٦ أغسطس ١٧٧٣ ومن هناك زار عدداً من الجزر واستكشفها من بينها مجموعة جزر « تونجا » التى سماها جزر فريندلى نظراً للعلاقات الطيبة بين سكانها وحسن استقبالهم للغرباء .

وقبل أن يتجه إلى الجنوب فى مهمته الأساسية قرر المرور بنيوزيلانده وبالقرب من ساحلها افترقت السفينتان مرة ثانية فى ٣٠ أكتوبر وفشلت كل محاولة للتلاقى وفى ٢٥ نوفمبر بدأ كوك بحثه للمرة الثانية فى

اتجاه الجنوب وفى خلال هذا الصيف الجنوبى اخترق الدائرة القطبية مرتين عند خطى طول ١٤٠° ، ١٠٦° غرباً ، ووصل إلى خط عرض ٧٠° جنوباً وفى يوم ١٤ ديسمبر شاهدوا أول جبل ثلجى وفى خلال الأسابيع الستة التالية أبحرت البعثة فى جو قطبى ، تعطينا قصة الرحلة وصفاً تفصيلياً له ، هو أول تسجيل دقيق لهذه الأجواء . ففى ١٤ ديسمبر قابلوا عدداً من الجزر الثلجية الضخمة ثم كمية من الثلج المفكك ، وبتقدمهم أكثر ازداد عدد الجزر الثلجية بسرعة كما ازدادت كميات الثلج المفكك . وسرعان ما أفلتوا من هذه الثلوج ، ولكن بعد أن تلقوا عدة صدمات قاسية من الأجزاء الكبيرة رغم حرصهم على تفاديها . وفى ٣٠ يناير ١٧٧٤ ، فى الصباح الباكر ، رأوا سحباً فى الأفق إلى الجنوب ، فى أضواء بيضاء ثلجية غير معتادة ، فعرفوا أنها تدل على اقترابهم من حقل من الثلوج . وسرعان ما كانوا على مقربة من حافته ورأوه منتشراً شرقاً وغرباً على امتداد البصر ، وشاهدوا من مكانهم النصف الجنوبى من الأفق مضاء بأشعة من الضوء المنعكس من الثلج إلى ارتفاع كبير ، ورأوا بوضوح ٩٧ جبلا ثلجياً فى وسط الحقل وكان كثير منها فى منتهى الضخامة وكانت تبدو على شكل سلسلة من الجبال يرتفع فيها الواحد فوق الآخر حتى يضيعوا فى السحاب . وكانت الحافة الخارجية أو الشمالية لهذا الحقل مكونة من ثلج مفكك مفتت ولكنه متراكم بعضه على بعض بدرجة لا تسمح لأى شىء باختراقه . وكان يبلغ الميل عرضاً وفى وسطه يوجد ثلج صلب فى جسم واحد متصل تبين أنه من المستحيل التقدم فى هذا الاتجاه .

وصل كوك فى بحثه جنوباً حتى خط عرض ١٠َ ٧١° وهى أقصى نقطة بلغها إنسان جنوباً وظلت كذلك مدة نصف قرن بعد كوك . وهنا وصل كوك إلى القرار التالى « سوف لا أقول أنه من المستحيل فى أى مكان التقدم أكثر إلى الجنوب ولكن المحاولة قد تصبح عملا خطيراً ومتهوراً أعتقد أنه لا يخطر على بال رجل فى مثل موقفى . وقد كان من رأيى فعلا ومن رأى معظم الموجودين على السفينة أن هذا الثلج يمتد مباشرة حتى القطب ، أو ربما يتصل على أرض ما ويحيط بها منذ أيام سحيقة . وأنه هنا ، أى فى جنوب خط العرض الذى بلغناه يتكون فى الأصل كل الثلج الذى رأيناه متناثراً فى الشمال ، والذى ينفصل فيما بعد بواسطة العواصف أو عوامل أخرى ، وتحمله التيارات إلى الشمال والتى لوحظ أنها تتجه دائماً فى هذا الاتجاه فى هذه العروض المتطرفة . وعندما اقتربنا من هذا الثلج سمعنا بعض طيور البنجوين ولكننا لم نرها أو نرى طيوراً أخرى أو أى شىء آخر يجعلنا نعتقد أن هناك أرضا على مقربة منا . ولكننى أعتقد أنه لا بد أن يكون هناك أرض إلى الجنوب خلف هذا الثلج . وإذا وجدت هذه الأرض فانها سوف لا تعطى ملجأ أفضل لهذه الطيور أو أى حيوانات أخرى من الثلج نفسه والذى لا بد أنه يغطيها تماماً » .

وبدلا من أن يعود كوك إلى الجزر التى يعرفها فى الشمال فانه اتجه إلى الشمال الشرقى حتى وصل إلى جزيرة ايستر فى شرق المحيط الهادى ومنها إلى تاهيتى ثم زار عدداً من الجزر المعروفة واكتشف جزيرة كبيرة هى نيو كاليدونيا (New Caledonia) واستكشف سواحلها واتصل بأهلها ثم اكتشف جزيرة نورفولك قبل أن يصل إلى نيوزيلانده لتموين السفينة وإعطاء بعض الراحة لرجاله . وهنا استطاع أن يجد بعض الشواهد التى تدل على أن سفينته الثانية « ادفنتشر » قد سبقته إلى زيارة نيوزيلانده . غادر كوك نيوزيلانده فى ١٠ نوفمبر إلى الجنوب الغربى حتى خط عرض الطرف الجنوبى لأمريكا الجنوبية ثم تقدم فى اتجاه الشرق حتى وصل إلى كاب هورن دون أن يرى اليابسة ، وهكذا سقط أى احتمال لوجود القارة المنشودة فى جنوب المحيط الهادى بين خطى عرض ٥٠° ، ٦٠° . واستمر

كوك فى اتجاهه شرقاً فاكتشف جزيرة ساوث جورجيا فى جنوب المحيط الأطلنطى وهى جزيرة صخرية قاحلة مغطاة بالثلوج القطبية ، وتعد نقطة متقدمة للقارة القطبية الجنوبية . ثم واصل تقدمه شرقاً فاكتشف مجموعة جزر ساندويتش الجنوبية ، وأبحر على مقربة من جزيرة بوفيه ولكنه لم يرها ، حتى ألقى مرساه السفينة أمام رأس الرجاء الصالح فى ٢١ مارس وهنا عرف أن السفينة « ادفنتشر » قد سبقته فى العودة بسنة كاملة . وبعد زيارة قصيرة لجزر الآزور وصلت « رزوليوشن » إلى إنجلترا فى ٣٠ يوليه ١٧٧٥ بعد أكثر من ثلاث سنوات وبعد أن قطعت أكثر من ٦٠ ألف ميل أى ما يكفى للدوران حول الأرض مرتين .

ولعل أكبر نجاح حققه كوك فى هذه الرحلة ، هو نهايتها السعيدة فلم يفقد من بين ١١٢ رجلا سوى ثلاثة بسبب الحوادث ورجلا واحداً فقط بسبب المرض . وكان من المعتاد أن تفقد السفن ثلث بحارتها فى هـذه الرحلات الطويلة ، ولكن اهتمام كوك بنظافة عنابر البحارة وملابسهم وإصراره أن يأكلوا وجبات متنوعة ، وأن يحتوى طعامهم على خضروات ولحوم طازجة ثم تزويد مخازن السفينة بالخضروات والحساء المحفوظ كل هذا حفظ للبحارة صحتهم فلم يمت واحد منهم بمرض الأسقربوط .

كان البرنامج الذى قام به كوك برنامجاً هرقلياً . فى وقت كان تحديد موقع السفينة فى البحر عملا صعباً معرضاً لكثير من الخطأ . وكانت الصعوبة المعتادة تكمن فى تحديد خطوط الطول وكان كثير من الاكتشافات تفقد أو يصعب العودة إليها مثل ما حدث فى جزيرة بوفيه . ولكن كوك استعان بالأدوات الملاحية الحديثة وكان من أهمها جداول ملاحية جديدة وكرونومترات غاية فى الدقة ، مما ساعده على بلوغ الدقة الكبيرة التى عرفت بها خرائطه وتقاريره .

نالت رحلة كوك الثانية شهرة واسعة وحتى نتبين قيمتها نذكر أن أحد المستكشفين الفرسيين وهو فرانسوا لابروز أرسل فى رحلة استكشافية إلى المحيط الهادى بعد عشر سنوات من رحلة كوك (١٧٨٥ — ١٧٨٨) . ورغم كفاءته وبرنامجه الحافل فان رحلته أثمرت قليلا ولكنه تقبل الأمر راضياً وأعلن فى كثير من السماحة « لقد أنجز مستر كوك الكثير من الأعمال — حتى إنه لم يترك لى شيئاً سوى الاعجاب بعمله . . . » .

والندع الآن كوك يكتب تقريره عن هذه الرحلة مبيناً نتائجها ، يقول كوك : « لقد قمت الآن بالدوران حول المحيط الجنوبى فى خط عرض متطرف ، واخترقته بطريقة لا تدع مجالا للشك فى احتمال وجود قارة إلا بالقرب من القطب أبعد من أن تصلها الملاحة . وبزيارتى مرتين للبحر المدارى فاننى لم أنته برأى قاطع بالنسبة للكشوف القديمة فقط ، ولكننى قمت باكتشافات جديدة كثيرة ، وتركت — كما أعتقد — القليل جداً الذى يمكن عمله فى هذا الجزء من العالم . ولهذا فاننى راض ، تماماً لأن الهدف من هذه الرحلة قد تحقق من جميع الوجوه ، وأن نصف الكرة الجنوبى قد استكشف بدرجة كافية وأن نهاية قاطعة قد وضعت للبحث عن قارة جنوبية ، والتى أثارت — فى بعض الأوقات — انتباه بعض القوى البحرية خلال القرنين الماضيين تقريباً . كما كانت نظرية محببة بين الجغرافيين من كل العصور .

إننى لا أنكر أن هناك احتمالا لوجود قارة أو مساحة كبيرة من اليابسة بالقرب من القطب ، بل على العكس إننى من أنصار هذا الرأى ، بل أن هناك احتمالا أننا رأينا جزءاً منها . فهذا البرد الشديد والجزر الكثيرة والحقول الواسعة من الثلج العائم ، كلها تنحو إلى إثبات أنه لا بد أن يكون هناك أرض إلى الجنوب . ولقد أوردت بعض الأسباب التى تجعلنى أقتنع أن أرض الجنوب هذه لا بد أنها تقع أو تمتد امتداداً أكبر نحو

الشمال فى مواجهة المحيط الأطلنطى الجنوبى والمحيط الهندى وإننى أضيف إلى هذه الأسباب البرد الذى عانيناه إلى درجة أكبر فى هذه البحار عن المحيط الهادى الجنوبى عند نفس خطوط العرض . . . . » .

ثم يختتم حديثه معلقاً على نتائج رحلته فيقول : « إذا كنا قد توصلنا لاكتشاف قارة هناك لكنا أقدر على إرضاء حب الاستطلاع ، ولكننا نرجو ونحن لم نجدها بعد كل هذا البحث المضنى أن نقلل من الحدس والتخمين فى المستقبل بشأن العوالم غير المعروفة والتى لا تزال فى حاجة إلى الاستكشاف . ولكن مهما كان حكم الرأى العام على الأشياء الأخرى فاننى — بكثير من الرضى ودون أن أدعى أى فضل سوى قيامى بالواجب — أختتم هذا الحديث بملاحظة تدعمها الحقائق وهى أننا اكتشفنا امكانية المحافظة على الصحة بين هذا العدد من ركاب السفينة ، ولمثل هذه المدة الطويلة ، وفى مثل هذه الأجواء المتنوعة ، وفى وسط هـــذه الصعوبات والمتاعب المستمرة . وأن هذا سوف يجعل هذه الرحلة مرموقة بين المهتمين بهذه الناحية الإنسانية ، عندما يفقد النقاش حول القارة الجنوبية قدرته على جذب الانتباه وإشاعة الفرقة فى الرأى بين الفلاسفة » .

الرحلة الثالثة :

عاد كوك إلى وطنه حيث نال كثيراً من الشهرة وأسبغ عليه كثيراً من التقدير فاستقبله الملك جورج الثالث ورقى إلى رتبة أعلى وعين مديراً لمستشفى جرينتش . وخلال العام التالى لعودته كانت البحرية البريطانية تستعد لارسال بعثة إلى شمال المحيط الهادى للبحث عن الممر الشمالى الغربى الذى أوردنا عجالة عنه فيما سبق . ولما كانت المحاولات السابقة قد بدأت جميعاً من المحيط الأطلنطى لاختراق شمال القارة الأمريكية من الشرق إلى الغرب ، فقد كان هناك فسحة من الأمل فى العثور على هذا الممر بالبحث فى الاتجاه المعاكس وخاصة أن الساحل الأمريكى الغربى المطل على المحيط الهادى لم يكن معروفاً بدرجة كافية . وطلب من الكابتن كوك الاشتراك فى اختيار قائد لهذه البعثة ، ولكنه عرض أن يتولى قيادتها بنفسه فقبل هذا العرض فى الحال وبترحيب كبير . ولعل هذه القصة تلقى بعض الضوء على شخصية كوك وهو الذى أمضى معظم سنى حياته فى أسفار بحرية بعيدة ، وكان يستطيع — وهو الزوج والأب — أن يركن إلى الراحة والدعة ليتمتع بما نال من الشهرة والمجد .

كان الهدف الرئيسى من رحلة كوك الثالثة هى البحث عن الممر الشمالى الغربى ، وقد عرفنا كيف فشلت الجهود الأولى للبحث عن هذا الممر . وفى عام ١٧٤٥ أعلنت الحكومة البريطانية عن جائزة قدرها ٢٠ ألف جنيه لأية سفينة تجارية بريطانية تكتشف ممراً من خليج هدسون . وحاول عدد من السفن دون جدوى أن تنال هذه الجائزة ، فقررت الحكومة تعديل شروط الجائزة لتشمل السفن الحربية ، وأن يمتد البحث إلى مناطق أخرى غير خليج هدسون . وهكذا استقر الرأى أن تكون مهمة كوك الأساسية هى البحث عن هذا الممر من الساحل الباسيفيكى . وتعكس الأوامر الصادرة إلى كوك الأفكار السائدة حينئذ عن موقع هذا الممر ، فتطلب إليه عند وصوله إلى هذا الساحل أن يتقدم شمالا على طول الساحل . . . « حتى خط عرض ٦٥° أو أكثر إذا لم تعترضك أراض أو ثلوج وأن تأخذ حذرك أن تضيع أى وقت فى استكشاف انهار أو فتحات أو لأى سبب آخر ، حتى تصل إلى خط العرض ٦٥° المذكور سابقاً . وعندما تقطع هذه المرحلة ، عليك أن تبحث بدقة عن مثل هذه الأنهار أو الفتحات وتستكشفها بقدر ما يبدو من امتدادها واتجاهها نحو خليج هدسون أو خليج بافين . وإذا تبين لك من ملاحظاتك أو من المعلومات التى قد تحصل عليها من الأهالى . أن هناك تأكيداً أو حتى احتمال لوجود ممر

مالم يصل إلى الخليجين السابقين أو إلى واحد منهما ، فعليك فى هذه الحالة أن تبذل أقصى ما لديك من جهد لتمر خلاله . . . » .

وهناك أهداف جانبية للرحلة تظهر فى الأوامر الصادرة إلى كوك ، الذى كان عليه فى طريقه إلى شمال المحيط الهادى أن يستولى على الأراضى التى لم تكتشف بعد بواسطة الدول الأخرى وأن يفحص بدقة بعض الجزر التى قيل إنها شوهدت مؤخراً بواسطة الفرنسيين عند خط ٤٨° جنوباً وعلى خط الطول التقريبى لجزر موريشياس .

عاد كوك مرة ثانية إلىسفينتهرزوليوشن ووضعت تحت لوائه سفينة ثانية هى ديسكافرى (Discovery) بقيادة كابتن كلارك وتولى الملازم كنج أخذ الأرصاد الفلكية اللازمة على ظهر السفينة رزوليوشن وقام أندرسون طبيب السفينة الذى صحب كوك فى رحلته الثانية ببحوث التاريخ الطبيعى ودراسة الأهالى من حيث العادات والتقاليد واللغات . وكان بين رجال كوك « فانكوفر » الذى اشتهر كقائد لرحلة استكشافية تالية ووليم بلاى الذى عرف فيما بعد كقبطان للسفينة المشهورة بونتى التى حدث عليها العصيان بالقرب من جزر تاهيتى عام ١٧٨٩ . وصحب كوك معه أيضاً أوماى من أهالى جزر الجمعية ، وكانت السفينة ادفنتشر قد أحضرته معها إلى لندن . وقد قدم أوماى خدمات جليله للبعثة حتى غادرها فى موطنه الأصلى . كذلك حملت السفينتان عدداً من الحيوانات النافعة بقصد تربيتها فى الجزر التى سبق اكتشافها .

غادرت رزوليوشن بليموث فى ١٢ يوليه ١٧٧٦ ، وتبعتها ديسكافرى بعد بضعة أيام . وتوقف كوك فى جزر كانارى حيث يرتفع جبل تاناريف بقممه الشهيرة وحاول طبيب المركب أن يصل إلى القمة ولكن الوقت لم يسعفه بفحص الجبل الذى درسهالكسندرفون هومبولت فيما بعد بدقة كبيرة فى عام ١٧٩٩ [1] .

اتخذ كوك طريقه نحو رأس الرجاء الصالح ، ومنها اتجه إلى جزيرة كرجيولن التى اكتشفها الفرنسيون جنوب المحيط الهندى . وكان كرجيولن قد أذاع تقارير مشجعة عن هذه الجزيرة ولكن كوك وجدها مجدبة وموحشة إلى أقصى درجة . وأعلن طبيب المركب « ربما لم يكتشف مكان فى أى من نصفى الكرة عند نفس خط العرض يعطى ميداناً فقيراً لعالم التاريخ الطبيعى مثل هذه البقعة الجرداء » .

بعد هذا قضى كوك بضعة أيام فى تاسمانيا ثم أسبوعين من شهر فبراير ١٧٧٧ فى نيوزيلانده وأمضى ثلاثة شهور فى دراسة جزر فريندلى قبل أن يصل فى ١٢ أغسطس إلى جزيرة تاهيتى .

وفى ٢ نوفمبر غادر كوك تاهيتى فى طريقه إلى مهمته الأساسية فى شمال الباسيفيكى . وإلى الشمال من خط الاستواء عثر كوك على جزيرة مرجانية صغيرة تعلوها أشجار جوز الهند ، حيث قضت البعثة عيد الميلاد وسمتها فى هذه المناسبة جزيرة كريسماس . وفى ١٨ يناير ١٧٧٨ شاهد كوك مجموعة جزر أسماها جزر ساندويتش نسبة إلى القائد الأول للبحرية الإنجليزية وواحد من غلاة المتحمسين للكشوف الجغرافية . وقد ظلت هذه الجزر تعرف بهذا الاسم مدة طويلة قبل أن تحمل اسم جزر هاواى بلسان أهلها الأصليين . ولا تعد هذه الجزر اكتشافاً جديداً لكوك فقد عرفها الأسبان فى القرن السادس عشر ، ولكن شيئاً لم يعرف عنها خلال المائتى عام السابقة . قام كوك بدراسة هذه الجزر بقدر ما اتسع له الوقت — ومن أكثر ملاحظات البعثة طرافة أنه بالرغم من المسافة التى تفصل هذه الجزيرة عن باقى جزر المحيط الهادى فان لغتها قريبة الشبه من

(١) أنظر الكون لألكسندر فون هومبولت » للدكتور سليم أنطون » تراث الانسانية ، المجلد الثانى ، العدد الثالث .

لغة تاهيتى حتى أمكن التفاهم مع الأهالى بسهولة . ولفت نظر البعثة ما يتمتع به الأهالى من طبيعة سمحة وانطلاق كبير وقوام جميل وخبرة فى السباحة .

وفى ٧ مارس وصلت البعثة إلى الساحل الغربى لأمريكا الشمالية الذى كان يعرف فى ذلك الوقت باسم نيو البيون New Albion . وهنا كان كوك يقف على عتبة استكشافات جغرافية جديدة فهذا الساحل شمال ٤٠° شمالا يعد – باستثناء المناطق القطبية – أكثر سواحل القارات حاجة إلى الاستكشاف والدراسة . وكانت كل المعلومات القليلة لدى كوك قد تجمعت نتيجة لرحلات الأسبان على طول الساحل إلى الشمال من مستعمراتهم فى غرب المكسيك .

واصلت البعثة سيرها شمالا بمحاذاة الساحل وعند منطقة سماها كوك رأس فلاترى Cape Flattery (١٥َ ٤٨° شمالا) كتب كوك يقول «عند خط العرض هذا وضع الجغرافيون مضيق جوان دى فوكا الخيالى . أننا لم نر شيئاً يشبهه أو وجدنا أقل احتمال لوجود مثل هذا الشيء» .

وفى ٢٩ مارس وجدت السفينتان مرفأ ملائماً لها فى خليج نوتكا على الجانب الغربى لجزيرة عرفت فيما بعد باسم جزيرة فانكوفر ، لكن كوك لم يتبينها كجزيرة وهنا قضت البعثة شهراً فى إصلاح السفينتين وقلاعهما بواسطة الأخشاب المتوفرة بكثرة . وكانت هذه المدة فرصة كافية للراحة وتموين السفينتين والاستعداد للمرحلة التالية من الرحلة . كذلك أمكن للبعثة أن تقيم صلات طيبة مع الأهالى ، وأن تعرف الكثير عن عاداتهم وطرق معيشتهم .

أبحر كوك إلى الشمال فى محاذاة الساحل ولكن دون أن يراه إلا لماماً ، فقد اضطره الجو العاصف من ناحية ورغبته فى الوصول إلى المنطقة الشمالية بسرعة إلى التغاضى عن هذه الفرصة لرسم خريطة لساحل . وهو فى هذا كان ينفذ الأوامر الصادرة إليه بعدم إضاعة الوقت قبل الوصول إلى المنطقة المنشودة التى ما كاد يصلها حتى بدأ يتفحص الساحل بدقة وخاصة فتحات الخلجان ومصبات الأنهار . واستمر يتابع ساحل الاسكا ويشاهد جبالها العالية ثم يمر على جزر الوتيان حتى يصل إلى طرف أمريكا الشمالية فى أقصى الغرب ثم يدخل بحر بارنج ثم مضيق بارنج الذى يفصل أمريكا الشمالية عن آسيا والذى لا يزيد عرضه عن ٥٥ ميلا ويصل المحيط الهادى بالبحر القطبى الشمالى .

وكان فيتاز بارنج (Vitus Bering) الدانمركى قد اكتشف هذا المضيق عام ١٧٢٨ وهو فى خدمة بطرس الأكبر قيصر روسيا . ورغم أن وجود هذا المضيق كان معروفاً للرحالة الروس ، فانه لم يكن معروفاً بشكل كاف فى أوربا الغربية وكانت الخرائط الأوربية ترسم الطرف الشمالى لألاسكا إلى الشرق بعيداً عن موقعه الحقيقى . وعلى هذا يعلق كوك «إن قارة أمريكا الشمالية تمتد أكثر إلى الغرب مما يمكن أن نتوقعه من الخرائط الحديثة الأكثر شهرة» . ثم يضيف «وهذا يجعل وجود ممر إلى خليج بافين أو خليج هدسون أقل احتمالا أو على الأقل يدل على أنه لا بد أن يكون أكثر امتداداً . . . » .

دخل كوك ممر بارنج وتقدم فى البحر القطبى الشمالى على كل من الجانبين الأمريكى والأسيوى ولكن البحر كان مليئاً بالثلوج حتى أصبح التقدم مستحيلا . وكان الشتاء يقترب فقرر كوك العودة إلى الجنوب بعد أن وصل إلى خط عرض ٤٤َ ٧٠° شمالا . وفى طريق عودته قابل كوك فى جزر الوتيان مجموعة من الروس وكان رئيسهم يدعى إسماعيلوف وكان يعرف الكثير عن جغرافية المنطقة فأعطى كوك كثيراً من المعلومات والخرائط ، كما أن كوك سلمه تقريراً مرفقاً به خريطة حتى يقوم بارساله إلى رؤسائه فى البحرية البريطانية .

اختار كوك جزر ساندويتش ليمضى فيها الشتاء وما كاد يصل مياهها حتى اكتشف جزيرة هاواى أكبر جزر هذه المجموعة ، والتى لم يرها فى زيارته الأولى . قوبلت البعثة بترحاب كبير ولكن الأمور سرعان ما انقلبت عندما افتقد البحارة أحد القوارب وحاولوا استعادته من الأهالى . وكانت طريقتهم التقليدية احتجاز واحد من شيوخ الأهالى على السفينة لحين إعادة الأشياء المسروقة . ولكن هذه الطريقة التى طالما نجحت كانت وبالا على كوك . فبينما كان مع مجموعة من البحارة على الشاطئ يحاولون أن يصحبوا واحداً من الأهالى إلى السفينة ، تجمع جمهور غاضب والتحم فى معركة سريعة مفاجئة . وتأتى النهاية التعسة سريعاً ، كما يصفها تقرير البعثة :

« يرى بعض الحاضرين ، أن البحارة ، وأولئك الذين كانوا موجودين فى القوارب ، قد أطلقوا النار بدون أوامر من الكابتن كوك ، وأنه كان يحرص على أن يمنع مزيداً من إراقة الدماء ؛ لهذا فانه من المحتمل ، أنه فى هذه الظروف كانت إنسانيته سبباً فى مصرعه ، فقد لوحظ أنه بينما كان يواجه الأهالى لم يلق أى تهديد ، ولكنه عندما استدار ليعطى أوامره للقوارب ، طعن فى ظهره وسقط ووجهه إلى الماء . فتصايح الأهالى عندما رأوه يسقط ، وجروا جسده بطريقة غير إنسانية على الشاطئ . حيث أحاط به الأعداء الذين تخاطفوا الخنجر بين أيديهم ، كل يحاول أن يشترك — بشغف وحشى — فى نهايته » .

وعندما أطلقت رزوليوشن مدافعها على الشاطئ ، لم ير أى أثر للقائد . وبعد أيام قليلة أعاد الأهالى إلى البحارة المحزونين بقايا من جسد قائدهم . وخيم الحزن على الرجال الذين فقدوا فى كوك قائداً شديد السهر على سلامتهم وصحتهم ، والذى ذهبت معه « روح الاستكشاف والتصميم والشجاعة التى لا تقهر » .

تولى كابتن كلارك قيادة البعثة وحاول أن يتابع مهمة كوك فوصل إلى كامشاتكا (Kamchatka) فى شرق سيبريا ثم دخل مضيق بارنج فى ٥ يوليه ولكن الثلوج عادت تعرقل سيره كما حدث مع كوك فى الصيف السابق فانقلب عائداً عن طريق رأس الرجاء الصالح . ولكنه لم يعش ليتم رحلة العودة فقد مات فى ٢٢ أغسطس ١٧٧٩ . ووقعت مسئولية القيادة على كابتن جور (Gore) ، الذى كان يقود ديسكافرى منذ وفاة كوك والذى انتقل الآن إلى السفينة رزوليوشن ، بينما رقى الملازم كنج ليقود ديسكافرى والذى تعطينا يومياته القصة الرسمية للرحلة بعد وفاة كوك .

وفى ٤ أكتوبر ١٧٨٠ وصلت السفينتان إلى قاعدتهما فى إنجلترا بعد غيبة أكثر من أربع سنوات ودون أن تفقد سوى خمسة من الرجال بسبب المرض .

* * *

كان قد مضى بضعة أشهر على سفر كوك فى رحلته الأخيرة ، عندما أعلنت الجمعية الملكية اختيار كوك عضواً بها ومنحه ميدالية سير جودفرى كوبلى (Sir Godfrey Copley) الذهبية على البحث الذى تقدم به إلى الجمعية عن الطريقة التى اتخذها فى المحافظة على صحة بحارته ، بالإضافة إلى تقدير الجمعية لاكتشافاته الجغرافية العديدة ومساحته الدقيقة للسواحل المكتشفة . وكانت عضوية الجمعية الملكية فى ذلك الوقت — ولا تزال — أكبر شرف علمى يمكن التطلع إليه فى الجزر البريطانية .

منحت الميدالية الذهبية إلى كوك فى غيابه بخطبة كلها تقدير وتكريم من سير جون برمنجل . ولكن هذه الكلمات الحارة لم تصل إلى مسامع كوك على الاطلاق ، فعندما كانت عائلته وأصدقاؤه ينتظرون عودته ، تلقوا خطاباً من كابتن كلارك بتاريخ ٨ يونيه ١٧٧٩ من كامشاتكا يقول فيه أن كوك لقى مصرعه فى ١٤ فبراير ١٧٧٩ .

الرعاية لحقوق الله للحارث بن أسد المحاسبي

بقلم
الدكتور عبد الحليم محمود

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .

روى صاحب طبقات الصوفية بسنده ، عن الحارث بن أسد المحاسبي بسنده أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال :

« أثقل ما يوضع في الميزان : حسن الخلق » .

ولقد وضع المحاسبي هدفاً له في الحياة يسعى إلى تحقيقه ، هو : « حسن الخلق » .

لقد وضعه هدفاً يعمل على تحقيقه في نفسه ؛ ووضعه هدفاً يعمل على تحقيقه في مجتمعه .

أما فيما يتعلق بنفسه ، فانه أخذها بتحقيق صفة العبودية على أساس من القرآن والسنة لا يحيد عنه .

وإنه ليعبر عن شعاره في ذلك ، فيقول هذه الكلمة التي تصفه حالا ومقالا :

« إذا أنت لم تسمع نداء الله ، فكيف تجيب داعي الله ؟ ومن استغنى بشيء دون الله ، جهل قدر الله » .

ولم يجهل المحاسبي قدر الله ، فلم يستغن بشيء دونه سبحانه .

وأما فيما يتعلق بالمجتمع ، فان المحاسبي أخذ في نشر حسن الخلق فيه بسمته ، واتباعه للسنة ، وبدروسه التي كانت تفعل الأعاجيب في القلوب ، وبكتبه التي تبين حسن الخلق : وسائل وغايات ، والتي لا يزال لها إلى الآن أريج عطري يتجدد على مر الزمن ، فيهدي الحيارى ، وينير الطريق أمام السالكين .

* * *

ولكن من هو المحاسبي ؟ ومالنا نتعجل ، فنتحدث عن المحاسبي في القمة قبل أن نبدأ معه من البداية ؟

إنه الحارث بن أسد المحاسبي ، وكنيته : أبو عبدالله

ولقد نشأ بالبصرة ، واستمر بها سنوات لا يتأتى لنا تحديدها في يقين جازم .

ثم ذهب إلى بغداد ، ويبدو أنه ذهب إليها في سن مبكرة ، واستقر به المقام فيها .

متى ولد ؟

إننا لا نعلم بالضبط تاريخ ميلاده ، إذ أن الكتب القديمة التي تحدثت عنه ، لم تذكر ذلك ، بيد أن جميع الملابسات ترشد إلى أنه ولد — على التقريب — في العقد السابع من القرن الثاني الهجري .

أما وفاته ، فان الكتب التي أرخت له تحدد سنة ٢٤٣ هـ ثلاث وأربعين ومائتين للهجرة .

وحياته الشخصية لا نكاد نعلم عنها شيئاً ، وقد يمكننا أن نقول : « استنتاجاً » :

إنه قضى طفولته فى شيء من اليسر ، والرخاء ، ذلك أن والده حينما توفى ترك ثروة تقدر بسبعين ألف درهم .

ويروى المؤرخون أن المحاسبى ، حينما توفى والده لم يأخذ من هذه الثروة شيئاً تورعاً : ذلك أن والده كان يقول بالقدر : أى أنه كان قدرياً يدين بمذهب المعتزلة : فلم يستسغ المحاسبى أن يشترك فى الميراث توسعاً فى تطبيق القاعدة الإسلامية التى تحرم التوارث بين أهل دينين مختلفين .

وما من شك فى أن المحاسبى امتنع عن ذلك لمجرد الورع ، والزهد فيما تجره الثروة وتستتبعه من تفكير فيها ، وتدبير لها ، وتنمية وحفظ .

هذه الحادثة ترشد إلى أمور : الأمر الأول هو : أن أسرة المحاسبى ، كانت أسرة ميسورة .

الأمر الثانى : هو أن والد المحاسبى كان من الذين اشتركوا فى الثقافة الدينية ، والجدل الكلامى ، وساهم فى ذلك بنصيب : وحدد المعسكر الذى يقف جندياً فى جيشه .

وما من ريب فى أن العامة حينئذ لم يكونوا فى صف المعتزلة ، وما كان الذى يدين بما يدين به المعتزلة يفعل ذلك إلا بعد دراسة واختيار ، وأن الطريق التقليدى الذى كان يتبعه الجمهور الأعظم من الأمة إنما هو طريق أهل السنة .

والأمر الثالث الذى ترشد إليه الحادثة هو ورع المحاسبى الذى حمله على أن يزهد فى الميراث مع حاجته إليه : تورعاً وتقوى .

ونبأ آخر نتبين منه شيئاً عن شخصية المحاسبى ، يقول الجنيد :

كنت كثيراً أقول للحارث : عزلتى أنسى .

فيقول : كم تقول عزلتى أنسى ! ؟ لو أن نصف الخلق تقربوا منى ما وجدت بهم أنساً ، ولو أن نصف الخلق الآخر نأى عنى ما استوحشت لبعدهم .

هذه القصة ترشدنا إلى قوة شخصية الإمام المحاسبى والواقع أن الظروف والأحوال الثقافية التى أحاطت بالمحاسبى ، ومواقف المحاسبى منها ، وحديث تلاميذه عنه ، وإن كان نادراً . . . كل ذلك يرشد إلى أنه كان صاحب شخصية إيجابية قوية .

ومما يستأنس به تأييداً للقصة السابقة ، وإشارة إلى ما للمحاسبى من شخصية قوية ، وبياناً عابراً عن بعض أساليبه فى تأليف كتبه ، ما رواه الجنيد أيضاً بقوله :

كان الحارث المحاسبى يجئ إلى منزلنا ، ليقول : أخرج معى نصحر : (نذهب إلى الصحراء) فأقول له

تخرجنى عن عزلتى وأمنى على نفسى ، إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات ؟ فيقول :

« اخرج معى ، ولا خوف عليك ، فأخرج معه ، فكان الطريق فارغاً من كل شيء ، لا نرى شيئاً نكرهه » .

فاذا حصلت معه فى المكان الذى يجلس فيه قال لى : سلنى

فأقول له : ما عندى سؤال أسأله

فيقول : سلنى عما يقع فى نفسك .

فتنثال على السؤالات : فأسأله عنها ، فيجيبنى عليها للوقت .

ثم يمضى إلى منزله فيعملها كتاباً .

ترشد هذه القصة إلى أن المحاسبى لم يكن يخشى : « الطرقات والآفات ورؤية الشهوات » ، وأنه لم يكن يؤثر العزلة وما فيها من أمن على النفس وعدم تشتيت للفكر ، كلا : إنه يجابه الحياة محاولا السير بها إلى ما يراه حقاً وإصلاحاً .

أما فيما يتعلق بطريقته فى التأليف : فانه يعمل أحياناً على تلبية ما يرغب المتحدثون الإجابة عنه ، وهى طريقة حية : إنها استجابة لما يحب المجتمع أن يرى الرأى الصريح فيه .

ولم تكن كتبه كلها على هذا النسق ، فان بعضها كان إسهاماً فى الحركة المقاومة لحركة الاعتزال .

وكان بعضها حلقات فى التخطيط الذى رسمه المحاسبى للإصلاح الأخلاقى فى المجتمع .

* * *

على أننا قد تعجلنا الحوادث مرة أخرى ، فتحدثنا عن المحاسبى فى القمة ولم نتدرج معه تدرجاً طبيعياً .

ولنعد إلى المحاسبى أول مقدمه بغداد : كان ذلك فيما يبدو فى سن مبكرة نسبياً .

وكانت بغداد حينئذ تموج بمختلف التيارات الفكرية : ثقافة يونانية وافدة تريد أن تأخذ حق الإقامة سيدة متغلبة .

وثقافة فارسية ، يحاول نشرها الفرس بما لهم من تأثير ونفوذ ، وبما لهم من مال وثراء ، وبما لديهم من ترف فكرى ، وبما فى نفوسهم من كبت لزوال ملكهم يحاول أن يتنفس — شاعراً أو غير شاعر — فى صورة ثقافة تنافس الثقافة الإسلامية البحتة .

وثقافة عربية مشوبة بثقافات أخرى ، تريد أن تجد حلا للتعارض والتنافس بين مختلف الألوان والأجواء الثقافيـــة .

وثقافة إسلامية بحته ، تجاهد فى أن تفوز فى قيادة المجتمع إلى الهداية الربانية ، والرشاد الإلهى .

وجاء المحاسبى بغداد ، متعلماً ، ومتثقفاً ، أو مستزيداً من العلم والثقافة : يبتغى السير على السنن المستقيم :

وأخذ فى الدرس فى جد واجتهاد : فتشعبت به الطرق ، وتجاذبته الثقافات المختلفة ، تحاول كل منها ، أن تستأثر به وحدها ؛ ولكل منها مغرياتها ؛ ولكل منها منطقها .

ووقف المحاسبى : مستوعباً ، متأملا ، متروياً .

هل طال به الوقوف ؟

متى خرج من تأمله ؟

متى استقر به الاتجاه ؟

ذلك ما لا نعلمه ، إذا نظرنا إلى الزمن .

بيد أن المحاسبى ، وإن لم يعن بالتأريخ لحياته ، تأريخاً زمنياً ، فانه ترك لنا أثراً نفيساً ، أبان فيه عن بعض أحوال معاصريه ، وتحدث فيه عن حيرته الفكرية وعن أسبابها ، وعن كيفية خروجه منها .

وهذا الأثر نعتبره ، أساساً لكتاب : « المنقذ من الضلال » راسما للإمام الغزالى تخطيطه ، موجهاً له إلى كتابته ، بل وراسما له الطريق فى حياته الروحية .

ولعل التشابه بين هذا النص الذى نثبته الآن ، وكتاب : « المنقذ من الضلال » يجعلنا نستنتج أن التشابه قوى بين المحاسبى ، والغزالى فى حياتهما .

ولأهمية هذا النص بالنسبة ، للمحاسبى ولعصره ، وبالنسبة لصلته بكتاب المنقذ من الضلال ثقة وثيقة ، نثبته بأكمله ، وإن كان فيه بعض الطول .

وقد كتبه المحاسبى مقدمة ، لكتابه : « الوصايا » الذى طبع أخيراً بالقاهرة .

يقول المحاسبى — فى مفتتح كتابه : الوصايا — بعد مقدمة موجزة .

« أما بعد ، فقد انتهى إلينا : أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة ، منها : فرقة ناجية ، والله أعلم بسائرها .

فلم أزل ، برهة من عمرى أنظر اختلاف الأمة ، وألتمس المنهاج الواضح ، والسبيل القاصد وأطلب من العلم والعمل ، وأستدل على طريق الآخرة بارشاد

العلماء ، وعقلت كثيراً من كلام الله ، عز وجل ، بتأويل الفقهاء .

وتدبرت أحوال الأمة ، ونظرت فى مذاهبها وأقاويلها ؛ فعقلت من ذلك ما قدر لى .

ورأيت اختلافهم بحراً عميقاً ، قد غرق فيه ناس كثير ، وسلم منه عصابة قليلة ؛ ورأيت كل صنف منهم يزعم أن النجاة فى تبعهم ، وأن الهالك : من خالفهم ، ثم رأيت الناس أصنافاً :

فمنهم العالم بأمر الآخرة ، لقاؤه عسير ، ووجوده عزيز .

ومنهم الجاهل ، فالبعد عنه غنيمة .

ومنهم المتشبه بالعلماء ، مشغوف بدنياه ، مؤثر لها .

ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين ، ملتمس بعلمه التعظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا .

ومنهم متشبه بالنساك ، متجر بالخير ، لا غناء عنده ، ولا بقاء لعلمه ، ولا معتمد على رأيه .

ومنهم حامل علم ، لا يعلم تأويل ما حمل .

ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء ، مفقود الورع والتقى .

ومنهم متوادون : على الهوى يتفقون ، وللدنيا يتباذلون ، ورياستها يطلبون .

ومنهم شياطين الإنس عن الآخرة يصدون ، وعلى الدنيا يتكالبون ، وإلى جمعها يهرعون ، وفى الاستكثار منها يرغبون ، فهم فى الدنيا أحياء ، وعن العرف موتى ، بل العرف عندهم منكر ، والسوء معروف .

فتفقدت فى الأصناف نفسى ، وضقت بذلك ذرعاً

فقصدت إلى هـــدى المهتدين ، بطلب السداد والهدى ، واسترشدت العلم ، وأعملت الفكر وأطلت النظر ، فتبين لى ، فى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ، واجماع الأمة : أن اتباع الهوى يعمى عن الرشد ، ويضل عن الحق ، ويطيل المكث فى العمى ! !

فبدأت باسقاط الهوى عن قلبى ، ووقفت عند اختلاف الأمة ، مرتاداً لطلب الفرقة الناجية ، حذراً من الأهواء المردية ، والفرقة الهالكة ، متحرزاً من الاقتحام قبل البيان ، والتمست سبيل النجاة لمهجة نفسى .

ثم وجدت باجماع الأمة فى كتاب الله المنزل ، أن سبيل النجاة : فى التمسك بتقوى الله ، وأداء فرائضه ، والورع فى حلاله وحرامه ، وجميع حدوده والإخلاص لله تعالى ، بطاعته ، والتأسى برسوله ، صلى الله عليه وسلم .

فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء فى الآثار فرأيت اجتماعاً واختلافاً ، ووجدت جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض والسنن : عند العلماء بالله وأمره .

وأن الفقهاء عند الله ، العاملين برضوانه الورعين عن محارمه المتأسين برسوله ، صلى الله عليه وسلم ، المؤثرين الآخرة على الدنيا : أولئك المتمسكون بأمر الله وسنن المرسلين .

فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجتمع عليهم ، والموصوفين أقفو آثارهم ، وأقتبس من علمهم ، فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم مندرساً ، كما قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء » .

وهم : المنفردون بدينهم .

فعظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأتقياء ، وخشيت بغتة الموت أن يفاجئنى ، على اضطراب من عمرى ، لاختلاف الأمة ، فانكمشت فى طلب عالم ، لم أجد لى من معرفته بداً ، لم أقصر فى الاحتياط ولم أن فى النصح

فقيض لى الرءوف بعباده ، قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى ، وأعلام الورع ، وإيثار الآخرة على الدنيا .

ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى ، ووجدتهم مجتمعين على نصح الأمة لا يرجون أحداً فى معصيته ، ولا يقنطون أحداً من رحمته :

يرضون أبداً بالصبر على البأساء والضراء ؛ والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء .

يحببون الله تعالى ، إلى العباد بذكرهم أياديه واحسانه ، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى .

علماء بعظمة الله تعالى ، وعظيم قدرته ، وعلماء بكتابه وسنته ، فقهاء فى دينه ، علماء بما يحب ويكره ، ورعين عن البدع والأهواء ، تاركين التعمق والإغلاء مبغضين للجدال والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم والأذى ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ، ورعين فى مطامعهم وملابسهم ، وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتزئين بالبلغة من الأقوات ، متقللين من المباح ، زاهدين فى الحلال ، مشفقين من الحساب ، وجلين من المعاد ، مشغولين بينهم مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم ، لكل امرئ منهم شأن يغنيه .

علماء بأمر الآخرة وأهاويل القيامة ، وجزيل الثواب ، وأليم العقاب .

ذلك أورثهم الحزن الدائم ، والهم المضنى ، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها .

ولقد وصفوا للآداب صفات ، وحددوا للورع حدوداً ، ضاق لها صدرى . وعلمت أن آداب الدين ، وصدق الورع : بحر لا ينجو من الغرق فيه شبهى ، ولا يقوم بحدوده مثلى ، فتبين لى فضلهم ، واتضح لى نصحهم ، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة ، والمتأسون بالمرسلين ، والمصابيح لمن استضاء بهم ، والهادون لمن استرشدهم .

فأصبحت راغباً فى مذهبهم ، مقتبساً من فوائدهم ، قابلا لآدابهم ، محباً لطاعتهم ، لا أعدل بهم شيئاً ، ولا أوثر عليهم أحداً .

ففتح الله لى علماً اتضح لى برهانه ، وأنار لى فضله ، ورجوت النجاة لمن أقربه أو أنتحله ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ، ورأيت الرين متراكماً على قلب من جهله وجحده ، ورأيت الحجة البالغة لمن فهمه ، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجباً على .

فاعتقدته فى سريرتى ، وانطويت عليه بضميرى ، وجعلته أساس دينى ، وبنيت عليه أعمالى ، وتقلبت فيه بأحوالى .

وسألت الله عز وجل ، أن يوزعنى شكر ما أنعم به على ، وأن يقوينى على القيام بحدود ما عرفنى به ، مع معرفتى بتقصيرى فى ذلك ، وأنى لا أدرك شكره أبداً » . اه

ووجد المحاسبى نفسه حينئذ فى معسكر أهل السنة على وجه العموم وفى تيار الصوفية منهم على وجه الخصوص .

ولم يكن المحاسبى ، ذا طبيعة سلبية ، فكان لا بد من أن يدخل المعركة .

ودخل المعركة فى قوة قوية ، مسلحاً بالعلم والتقوى ومن أجل ذلك ، كان ذا أثر مزدوج .

لقد أثر باعتباره ، قدوة وأسوة .

وأثر باعتباره عالماً باحثاً .

وأثره كعالم ، كان يظهر فى دروسه ومناقشاته ، ويظهر فى كتبه .

كتبه

أما كتبه ، فانها من الكثرة بحيث قدرها بعضهم بمائتى مصنف ، حسبما روى السبكى فى : « طبقات الشافعية » والمناوى فى : « الكواكب الدرية » .

وهذه الكتب — فى أغلبها الأعم — إنما هى فى هداية النفوس ، وترقيق القلوب ، والسير بالأرواح إلى عالم الفلاح : إنها فى أغلبها فى علم التصوف والسلوك .

يقول التميمى – كما جاء فى الكواكب الدرية – عن المحاسبى :

« هو إمام المسلمين فى الفقه ، والتصوف ، والحديث والكلام » . اﻫ

ولقد كتب المحاسبى فى هذه العلوم جميعها ، بيد أن مسحته الظاهرة ، ونزعته الواضحة ، والكثرة الكثيرة من كتبه ، إنما كانت فى التصوف والكلام .

أما كتبه فى الكلام ، فانها قد فقدت . ولقد رأينا قطعة لا بأس بها من كتبه فى الكلام الذى فقد والذى كان عنوانه : « فهم القرآن » .

ومنهجه فى الكتاب ، يفهم من عنوانه : إنه كان يرجع إلى القرآن فى الرد ، ويتخذ منه مرشداً وهادياً .

ولعل السبب فى إهمال كتبه الكلامية وفقدها : هو حملة الإمام أحمد بن حنبل ، عليها .

يقول الخطيب البغدادى ، فى كتابه : « تاريخ بغداد » جزء ٨ ص ٢١٤ .

« وكان أحمد بن حنبل ، يكره للحارث نظره فى الكلام ، وتصانيفه الكتب فيه ، ويصد الناس عنه » .

ويذكر هذه المسألة الإمام الغزالى فى كتابه : « المنقذ من الضلال » ، ويفصل الرأى فيها ويحسم المسألة بحل موفق فيقول :

لقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبى – رحمهما الله – تصنيفه فى الرد على المعتزلة .

فقال الحارث :

« الرد على البدعة فرض » .

فقال ، أحمد :

نعم ، ولكن حكيت شبهتهم أولا ، ثم أجبت عنها ، فيم تأمن أن يطالع الشبهة من تعلق بفهمه ، ولا يلتفت إلى الجواب ، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه ؟

وما ذكره أحمد : حق ، ولكن فى شبهة لم تنتشر ولم تشتهر .

فأما إذا انتشرت ، فالجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية . ولقد أصاب الإمام الغزالى التوفيق فى رأيه .

وما من شك فى أن المعتزلة إذ ذاك كانوا يعملون جاهدين على نشر بدعتهم .

وأن بدعتهم كانت معروفة مشهورة .

ومهما يكن من شىء ، فقد كان الإمامان : أحمد والمحاسبى متعاصرين ، وحدث بينهما اختلاف فى الرأى يتعلق بالكتابة فى المسائل الكلامية ، وحمل الإمام أحمد على كتب الإمام المحاسبى فى علم الكلام ، فقل تداول الناس لها – فيما يبدو – واختفت شيئاً فشيئاً ، ولعل بعضها لا يزال موجوداً ، بيد أننا لا نعلم عنها شيئاً .

على أن رأى المحاسبى فى المسائل الكلامية معروف ، تحدث عنه الشهرستانى وغيره ممن كتبوا فى الملل والنحل ، وهو الرأى السلفى ، ولم تكن حملة الإمام أحمد عليه لرأيه وعقيدته ، فذلك أمر يتفق فيه الإمامان وإنما كان انكار الإمام أحمد عليه للأسلوب والطريقة التى ينصر بها الدين .

وما من ريب فى أن ما قام به الإمام المحاسبى ، فى الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الانحراف : إنما هو فى الوقت نفسه انتصار للإمام ، أحمد بن حنبل ، وتقوية له ، وعون على بلوغه غايته : رضى الله عنهما .

* * *

أما كتبه فى أدب النفس وتزكيتها ، وفى الإنابة إلى الله ، والرجوع إليه ، وفى الرعاية لحقوق الله ، وفى التصوف على وجه العموم : فقد بقى منها كثير ، عرفنا عنه جملة صالحة ، لا تزال مخطوطة ، وطبع البعض فى أوربا ، والقاهرة ، وسوريا .

ومن كتبه المخطوطة فى دور الكتب :

١ – المسائل فى أعمال القلوب والجوارح .

٢ – كتاب أدب النفوس .

٣ – كتاب المسائل فى الزهد .

٤ – فصل من كتاب العظمة .

٥ – كتاب فى المراقبة .

٦ – إحكام التوبة .

٧ – كتاب العلم .

٨ – كتاب الصبر والرضا .

أما كتبه المطبوعة ، فنتحدث بكلمات موجزة عن كل منها ، ثم نفصل القول عن كتاب الرعاية .

١ – كتاب الوهم :

أول ما طبع ، للمحاسبى : « كتاب الوهم » طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٧ وقد عنى بنشره الدكتور ا. ج. آربرى ، وكتب مقدمته الدكتور : أحمد أمين وفى المقدمة يقول ، عن الكتاب :

« نحا فيه منحى طريفاً يدل عليه اسمه ، فلم يقتصر على ما ورد من الأخبار فى الخوف والرجاء ، كما فعل غيره ، بل استعمل توهمه ، وبعبارة أخرى خياله فى وصف شعور أهل الجنة وأهل النار ، وما يلقون من : سعادة وشقاء ، ونعيم وعذاب ، وأسلس لخياله القياد ، فتخيل ما تخيل وصور ما صور ، فهى لوحة جميلة لفنان أجاد ألوانها ، أو رواية رائعة ، لكاتب جمل منظرها ، وفصل مواقفها ، وصقل لغتها ، حتى يؤثر بالحقيقة التى تتضمنها فى نفوس القارئين والسامعين ، أكبر الأثر وأبلغه » .

٢ – رسالة المسترشدين :

وطبع له فى « حلب » رسالة المسترشدين . «حققه وخرج أحاديثه ، وعلق عليه : عبد الفتاح أبو غدة » .

وهذه الرسالة اللطيفة الحجم يوجه فيها المحاسبى الإرشاد للمسترشدين الذين يريدون أن يكونوا من ذوى الألباب العالمين بالله وبأمره .

ومنهاج ذوى الألباب – كما تحدده الرسالة – إنما هو رعاية حدود الشريعة من كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، وما اجتمع عليه المهتدون من الأئمة .

وهذا هو الصراط المستقيم الذى دعا إليه عباده ، فقال جل وعز :

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل ، فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

وقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ » .

والرسالة : إنما هى إرشادات توضح بعض زوايا هذا المنهج ، فهى تتحدث عن التوبة ، والتقوى والخطرات ، والخوف من الله ، والصبر والرضا ، وغير ذلك من أحوال اللائذين إلى الله ، السالكين إليه .

٣ – كتاب الوصايا :

وطبع له فى القاهرة أخيراً : « كتاب الوصايا » تحقيق وتعليق وتقديم : عبد القادر أحمد عطا » .

والعنوان مكتوب هكذا : « الوصايا » أو النصائح الدينية ، والنفحات القدسية ، لنفع جميع البرية » وموضوعه هو موضوع الكتاب السابق ، وإن كان على صورة أوسع ، وبأسلوب فيه بعض الحدة ، وهو أقل تأنقاً وجزالة من أسلوب الكتاب السابق .

٤ – كتاب الرعاية ، لحقوق الله عز وجل :

وكتاب الرعاية : هو أكبر الكتب التى بين أيدينا من كتب المحاسبى ، مخطوطة كانت تلك الكتب أم مطبوعة ، وربما لا يوجد فيما فقد من كتبه ما هو أكبر منه ، ويقع فى حوالى أربعمائة وستين صحيفة من القطع الكبير .

وهو على كل حال أهم كتبه فى نظر القدماء والمحدثين ، حتى لقد عرف به ، وإذا لم يذكر أحد المؤرخين القدماء من كتب المحاسبى إلا كتاباً واحداً : فانه يكون الرعاية ، وهو بالنسبة للمحاسبى ، كاحياء علوم الدين بالنسبة للغزالى ، وقد حاول المحاسبى أن يشرح فيه الطريق الذى يحقق الرعاية ، لحقوق الله تعالى

ويبدأ المحاسبى ، كتاب : « الرعاية » بالحمد والثناء على الله ، سبحانه وتعالى ، ثم يتحدث عن حسن الاستماع :

« فقدم حسن الاستماع منك ، لما أجبتك به ، لعل الله عز وجل ، أن ينفعك بفهم ما أجبتك عنه : من الرعاية ، لحقوق الله عز وجل ، والقيام بها ، فان الله تبارك وتعالى ، أخبرنا فى كتابه . أنه من استمع كما يحب الله ويرضى ، كان له فيما يستمع إليه ذكرى . يعنى : اتعاظاً ، ثم يذكر المحاسبى الآيات الدالة على هذا والأحاديث .

ويرى القارئ فى هذا النص الذى نقلناه من الصحيفة الأولى للكتاب أمرين :

الأمر الأول : أن المحاسبى ، يفترض مخاطباً ، يخاطبه ، أو سائلا يسأله والمحاسبى يجيبه .

والواقع أن الكتاب كله يسير على هذا النسق : أسئلة من مخاطب وإجابات من المؤلف .

وما من شك فى أن بعض الأسئلة التى أوردها المحاسبى قد سئلها بالفعل ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن بعض كتب المحاسبى ألف استجابة لأسئلة .

بيد أن كتاب : « الرعاية » يظهر فيه — فى وضوح — من التناسق والترتيب والتخطيط ما يبعد الظن بأنه ألف استجابة — مجرد استجابة — لأسئلة وقتيـــة .

أما الأمر الثانى الذى يتبينه الإنسان من النص ، فهو أن المحاسبى يرجع إلى الكتاب الكريم ، يستند إليه فى آرائه ، إنه يقول :

« فان الله تبارك وتعالى ، أخبرنا فى كتابه . . . » .

وهذا التعبير أو ما فى معناه : سار فى جميع أجزاء الكتاب ، ويضاف إليه الاستناد إلى السنة ، وقد كان المحاسبى من المحدثين ، تلقى الحديث على أعلام السنة ، وتلقى عنه أعلام السنة .

وبعد أن قدم المحاسبى ، ضرورة حسن الاستماع ، بدأ فى شرح معنى : الرعاية ، لحقوق الله . وهى أمر عظيم ، أصبح عامة الناس — كما يقول المحاسبى — له مضيعين :

وما من شك فى أن : « كل ما أمر الله ، عز وجل ، بالقيام به ، قد أمر برعايته » . « وكل حق أوجبه الله ، جل وعز ، على عباده فى خاصة أنفسهم ، أو فيما أوجب لبعضهم على بعض : فقد أمرهم بحفظه والقيام به ، وذلك رعاية حقه الذى افترضه عليهم » .

وسواء أقلت : الرعاية لحقوق الله أم قلت : « التقوى » فان المعنى لا يكاد يختلف ، ذلك أن التقوى ، إنما هى : اتقاء الشرك فما دونه من ذنب ، من كل ما نهى الله عنه ، واتقاء تضييع واجب مما افترضه الله .

والرعاية والتقوى هما : الاستجابة إلى الأمر والانتهاء ، عما نهى الله عنه .

ومن أجل ذلك تحدث المحاسبى ، عن التقوى بعد شرحه لمعنى الرعاية توضيحاً للرعاية وبياناً لها ، وبين جزاء المتقين وأنهم : « فى مقام أمين » ، ويقال لهم عن الجنـــة :

« ادخلوها بسلام آمنين » .

والناس دائماً يريدون الأمور ، محددة مرسومة ، فيسألون عن الخطوة الأولى التى يخطوها من يريد أن يسلك الطريق إلى الله ؟ وعن كيفية البدأ فى الإعداد للمقام بين يديه ، سبحانه .

« فليكن أول ما تبدأ به من العدة لذلك المقام : تقوى الله ، عز وجل ، فى السر والعلانية ، ليأمن قلبك

فى ذلك المقام مع قلوب المتقين ، حين ينجز لهم ما وعدهم : من الأمن ، والغبطة ، والسرور » .

فالتقوى أول منزلة العابدين ، وبها يدركون أعلاها ، وبها تزكو أعمالهم ، لأن الله ، عز وجل ، لا يقبل عملا إلا ما أريد به وجهه .

ولكن الإنسان قد يكون مغتراً مخدوعاً بعبادته :

فكم من متقشف فى لباسه ، متذلل فى نفسه ، آخذ من حطام الدنيا اليسير ، ومن مصل ، وصائم ، وغاز ، وحاج ، وباك ، وداع ، ومظهر للزهادة فى الدنيا ، والرفض لها على غير صدق ، ولا إخلاص ، ولا صلاح حقيقى :

وإذا ما أراد إنسان من هؤلاء : أن يزن أعماله بموازين الدين ، إذا استيقظ فؤاده ، فأراد أن يعرف أين هو من المخلصين ؟ فعليه أن يرجع إلى نفسه ، ويعرض أيامه التى خلت من عمره فى عبادته وينظر : هل أتى عليه يوم منها حفظ فيه جوارحه وقلبه عما كره الله ؟ ! وهل سلم من العجب ، والكبر ، والحسد ، والشماتة ، وسوء الظن ؟ !

ولعله بعد هذا العرض يتواضع ويبدأ فى إصلاح أمـــره :

على أن التقوى ، وإن كانت أول منازل السالكين ، فانها معنى عام ، يبدأ أول ما يبدأ ، حينما يعلم الإنسان أنه عبد مربوب : « لأن أول ما يلزمك فى صلاح نفسك الذى لا صلاح لها فى غيره ، وهو أول الرعاية : أن تعلم أنها مربوبة متعبدة ، فاذا علمت ذلك علمت أنه لا نجاة للمربوب المتعبد إلا بطاعة ربه ومولاه » :

والطاعة سبيل النجاة .

والعلم هو الدليل على السبيل :

ولا بد للتقوى من المحاسبة ، وقد كان المحاسبى كثير المحاسبة لنفسه ، بل إنه لم يسم المحاسبى ، إلا لهذه المحـــاسبة .

وقد روى عن النبى ، صلى الله عليه وسلم : « الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت » .

وقوله : دان نفسه : يعنى حاسب نفسه .

ولقد قال سيدنا عمر ، رضى الله عنه :

« حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، وتهيئوا للعرض الأكبر » .

وكتب إلى أبى موسى : « حاسب نفسك فى الرخاء قبل حساب الشدة » .

هذا الذى قدمناه للآن يعتبره المحاسبى ، كالمقدمات العامة للموضوع ثم يأخذ فى وصف : « منازل التوابين » ويبين فيه اختلاف الفطر والجبلات :

فمن الناس من نشأ على الخير ، فرعاية حقوق الله ، عز وجل ، عليه أسهل .

ومنهم تائب بعد صبوته ، وراجع إلى الله عن جهالته ، وإنه ليدخل فى نطاق قوله تعالى : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » .

أما الثالث : فانه المصر على ذنبه المقيم على سيئاته ، إنه : « محتاج إلى ما يحل به عقود الإصرار من قلبه ، فيتوب إلى ربه من ذنبه ، فيلحق بصاحبيه اللذين من قبله : الناشئ على غير صبوة ، والمنيب بالتوبة إلى خالقه تعالى .

ما الذى يبعثه على التوبة وترك الإصرار ؟

أما الذى يبعثه على التوبة وترك الإصرار : فهو الخوف والرجاء ، يقول تعالى :

« وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هى المأوى » .

فأخبر عز وجل ، أنا لما خاف ربه نهى نفسه عن الهوى ، ولقد وصف الله أولياءه بأنهم يدعونه رغباً ورهباً : أى راجين خائفين .

وينال الخوف والرجاء ، بأن تصبح المعرفة بعظم قدر الوعد والوعيد واضحة سافرة والله ، سبحانه قد

خوفنا بالعقاب لنخوف أنفسنا ورجانا لنرجيها ، ومما يعين على ذلك ، وقد أمرنا الله به : أن نفكر فى المعاد ، وهجوم الموت ، وعظيم حق الله عز وجل ، ووجوب طاعته .

وحقاً إن الفكر فى ذلك ثقيل على النفس بيد أنه مما يحققه علم الإنسان بعظيم قدر ما ينال بالفكرة من المنافع فى الدنيا والآخرة : ذلك أن فى نعيم الطاعة فى الدنيا والظفر بنعيم الآخرة سعادة لا تعد لها لذة المعاصى

ولن يتذكر متذكر ، أو يفكر فى المعاد والنجاة مفكر ما لم يجتمع همه ، فطريق الفكرة ومفتاحها ، إنما هو : « اجتماع الهم مع المطالبة بالعقل والتوكل على الرب لا على العقل » .

واجتماع الهم إنما هو بعدم تشتت القلب والجوارح فى ميادين اللعب واللهو ، يقول ابن مسعود ، رضى الله عنه :

« طوبى لمن لم يشغل قلبه بما ترى عيناه ، ولم ينس ذكر ربه بما تسمع أذناه » .

على أن المصرين فى منازل شتى : فمنهم من كثرت ذنوبه ، ومنهم من قلت ذنوبه ، ومنهم تائب من بعض ذنوبه وهو مصر على البعض الآخر .

وعلاج كل ذلك هو إدمان الفكر بالتخويف ، كالداء إذا أعضل لم يبرأ صاحبه إلا بدوام التداوى ؛ وإدمان الفكر بالتخويف يستمر إلى أن تسخو نفسه بالتوبة الخالصة النصوح التى يوقن فيها أنها كانت بمنة ربه وتفضله ، سبحانه ، لا بقوته هو فيستأهل بذلك الزيادة من الله عز وجل لأنه يقول :

« لئن شكرتم لأزيدنكم » .

وفى التفسير : لأزيدنكم من طاعتى :

على أنه إذا سخت نفسه بالتوبة فتاب ، فانه يجب أن يستمر فى تيقظه وحذره ، فان الاهتمام والحذر إن ألزمهما قلبه يوقظاه ، فيما يستقبل من عمره ، فاذا استمر على توبته دخل تحت قوله تعالى :

« رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » .

ومما لا مماراة فيه : أنه لا بد للخلق أجمعين من معرفة حقوق الله ، عز وجل ، بأسبابها وأوقاتها وعللها وإرادتها ووجوبها ، وفيم هى ؟ وأيها بدأ الله عز وجل به خلقه ؟

فعلى العبد أن يبدأ بما بدأ الله عز وجل ، به فيبدأ برعاية حقوق الله عز وجل فى قلبه إذ عنه تكون أعمال الجوارح ، وجمل حقوق الله عز وجل فى القلب ثلاث : اعتقاد الإيمان ومجانبة الكفر ، واعتقاد السنة ومجانبة البدعة ، واعتقاد الطاعة ومجانبة الإصرار على ما يكره الله عز وجل من عمل قلب وبدن .

وجمل حقوق الله ، عز وجل ، فى الجوارح : القيام بالحركات فيما أوجب الله تعالى ، وترك الحركات وهو السكون عما كره الله عز وجل .

على أنه مع كل ذلك ، لا بد من مراعاة حقوق الله ، عز وجل ، عند خطرات القلب الداعية إلى كل خير وشر .

وقد تكون الخطرات من هوى النفس ، والله سبحانه وتعالى ، يقول :

« إن النفس لأمارة بالسوء » .

وقد تكون خيراً .

ومهما يكن من شىء فانه إذا عرضت الخطرات عرضها على الكتاب والسنة : فما وافق قبله وما خالف رفضه : يجب أن يشهد له العلم ، أن الله عز وجل ، قد أمر بها وندب إليها ، أو أذن فيها بأسبابها وعللها ووقتها وإرادتها فيها ، فانه قد يقبل الخطرة يرى أنها داعية إلى سنة وهى بدعة ، وقد يرى أنها داعية إلى طاعة وهى معصية ، وقد يرى أنها داعية إلى خير وهى شر : كالخطرة تدعو إلى الإخلاص بترك العمل ، وإلى التنزه عن الخلق بالفكر ، وإلى الرجاء على العمل بالعجب والعزة ، وإلى المنافسة بالحسد ، وإلى الغضب لله عز

وجل بتمنى البلاء فى الدين والدنيا للمسلمين واعتقاد استحلال ما حرم الله عز وجل ، منهم ، ونحو ذلك من الخطرات ، وإلى القدر[1] بتنزيه الله عز وجل ، وإلى رأى جهم[2] : بنفى التشبيه ، وإلى التشبيه : بنفى رأى جهم ، وإلى الاعتزال بتثبيت الوعيد ، وإلى الخروج بالسيف بالغضب لله عز وجل ، أو إلى الإرجاء بتعظيم الأقدار وتنزيه الإيمان من النقصان .

وقد تخطر الخطرة تدعو إلى بدعة فى الجملة يحسبها سنة ، ومما يدل على ذلك : أن قلوب أهل البدع إذا خطر بها الخطرات تدعوهم إلى بدعة عدوها سنة ، فكذلك أهل السنة : لن يدع العدو أن يدعوهم إلى البدع عند غفلاتهم من حيث لا يشعرون ، ولولا ذلك ما ابتدع أحد بدعة بعد اعتقاده للسنة فى عبادة ولا غيرها لأنه قد يدعوه العدو إلى الابتداع فى زهده ، وفى رضائه ، وتوكله ، فيخالف زهد الأئمة المتقدمين وتوكلهم ، ورضاءهم ، ويقينهم بمخالفته السنة واعتقاده البدعة ، وهو يرى أنها سنة ، كما اعتقد قوم الزهد فى الدنيا بتضييع العيال وبترك وجوب حق الوالدين ، والتوكل بترك الاكتساب على الأهل والأولاد والخروج فى السفر بلا زاد ، والرضا بالسرور بالبلاء إذا وقع بالمسلمين وبتحريم الدواء والدعاء وترك التمنى أن المعاصى لم تكن ، وبالاشتغال بالله ، عز وجل ، بترك الفرائض وبترك النوافل ، ودعوى البصائر واستنارة القلوب بادعاء علم الغيوب : من القطع على ما فى ضمائر الخلق وما يسرون ويكتمون ؛ ويحتجون فى ذلك بآثار : مثل قوله ، صلى الله عليه وسلم :

« المؤمن ينظر بنور الله » .

وكل فرقة ممن ذكرنا تحتج بالآثار ، والكتاب ، والمقاييس ، ولكن يطول ذكرها ، وإنما أردنا تحذير جملتها ، ليعرفها العالم المثبت بالكتاب والسنة .

وكذلك الخطرات التى تدعو إلى تدين القلوب من غير عبادات بالأعمال : كالقدر .

ورأى جهم ، والرفض ، والاعتزال ونحوه ، فلن يميز العبد بين ذلك ، وبين ما أحب الله عز وجل ، من الأعمال والسنن إلا بشاهد العلم » . اه

لقد تعمدنا نقل هذا النص السابق بطوله ، لأنه يدل على اتجاه المحاسبى فى الجانب العقدى أى أنه يحدد اتجاهه بالنسبة للفرق الموجودة فى عصره ، وهو نص غاية فى الأهمية ، من الناحية الصوفية ، ومن الناحية الكلامية :

أما من الناحية الصوفية ، فان المحاسبى يحمل على من يدعو إلى الإخلاص بترك العمل وإلى التنزه عن الخلق بالفكر ، ويرى أن ذلك خطرات شيطانية ، وكذلك الأمر فى كل خطرة ، تدعو إلى نوع من الزهد ، والرضا ، والتوكل الذى يخالف زهد الأئمة ورضاءهم وتوكلهم ويقينهم ، أى تخالف السنة .

ومن أمثال ذلك اعتقاد قوم الزهد فى الدنيا بتضييع العيال ، وبترك وجوب حق الوالدين .

وإنه لمن الانحراف الشيطانى — فيما يرى — أن يمتنع قوم عن الاكتساب على الأهل والأولاد ، أو الخروج فى السفر بلا زاد تحت تعلة التوكل ؛ أو أن يرضى بالبلاء يقع بالمسلمين ويحرم الدواء ويمتنع عن الدعاء وكل ذلك تحت تعلة الرضا . . . .

إلى آخر ما ذكره المحاسبى من ذلك .

أما من الناحية الكلامية ، فان هذا النص يبين أن المحاسبى ، لا ينتسب إلى المعتزلة ولا إلى الجهمية . ولا يقول بالتشبيه ، ولا بالتعطيل ، ولا بوجوب تحقق الوعيد ، وأنه ليس من المرجئة ، وليس من الشيعة .

إن هذا النص الذى جاء فى صورة عابرة : يشير إلى بعض ما كان يمكن أن يفصل لو أننا عثرنا على

---

(١) القول بالقدر : هو القول بحرية الإرادة : أى أن الإنسان حر فيما يأتى وفيما يدع من الأفعال ، وليس مجبورا من الله على عمل من الأعمال .

(٢) رأى جهم فى الصفات : هو أن الصفات عين الذات .

الكتب التى فقدت ، ولكن أهميته لا تقل بسبب اجماله ، إذ هو واضح كل الوضوح فى بيان موقف المحاسبى من الفرق الكلامية ، ومن الاتجاهات المنحرفة فى التصوف .

ثم بعد هذا يأخذ المحاسبى فى شرح ما يبتدئ به الإنسان من أداء الفروض وترتيب ذلك .

فاذا عرض للعبد أمران واجبان فى وقت واحد بدأ بأوجبهما ، مثال ذلك فى الوالدين : فان العبد يبدأ بحاجة والدته ، لأن برها مقدم فى سنة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكذلك إذا وجب عليه الحج بالاستطاعة المالية وعليه دين حل موعده ، فليؤد إلى الدائن حقه .

وإذا عرض له واجبان ، لأحدهما وقت يفوت والآخر لا يفوت وقته بدأ بما يفوت وقته قبل الآخر ، كالرجل يريد الحج فى وقت فيه سعة من الأيام ، فيأمره والده أن يقيم إلى آخر الوقت للحج فليطعهما .

وإذا كان فى فرض ، فعرض له فرض دونه : لم يخرج منه إلى ما هو دونه حتى يتمه ، كما إذا كان فى الحج المفروض محرماً به ، فكتب إليه والداه بالحضور فليتمه ولا يخرج منه .

وإذا كان فى فرض فعرض له فرض أوجب منه : قطعه بعد ما يحل فيه كالصلاة ، وكما إذا أمره والداه ألا يخرج من بلدهما ، فيحضر النفير لظهور المشركين على المسلمين وليس فى وجوههم من يقوم بقتالهم ، فعليه الخروج وترك المقام .

وإن عرضت له نافلة وهو فى واجب لم يقطعه من أجلهـــا .

وكذلك الفضل والتطوع : يبدأ بالأفضل فالأفضل

على أن الواجب أن يبادر الإنسان بالعمل على نجاة نفسه حتى لا يكون مثله كمثل من قال الله ، فيه :

« حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت » .

قال الله ، عز وجل ، مجيباً :

« كلا إنها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » .

قال عبد الرحمن بن يزيد ، لرجل يعظه : يا فلان ، هل أنت على حال ترضى فيها الموت ؟

قال : لا

قال : فهل أجمعت للنقلة إلى حال ترضى فيها الموت ؟

فقال : لا ، ما سنحت نفسى بذلك بعد .

قال : فهل بعد الموت دار فيها مستعتب ؟

قال : لا

قال : فهل تأمن بغته الموت ؟

قال : لا

قال : ما رأيت مثل هذا الحال رضى بها عاقل .

والعاقل هو الذى يتوب — قبل الموت — أى على الفور ، توبة طاهرة عن الذنوب والخطايا : بأن لو قيل له : إنك تموت الساعة ، فانه لا يجد عنده ذنباً يحتاج إلى التوبة منه ، فيسأل النظرة من أجله .

ولقد أجاد سيدنا عمر بن عبد العزيز ، فى الحض على الذكر والفكر ، حينما قال فى خطبته :

« ألا ترون أنكم تتقلبون فى أسلاب الهالكين ، ويرثها منكم الباقون ، كذلك حتى تردون إلى خير الوارثين ، وأنتم تجهزون كل يوم غادياً أو رائحاً إلى الله عز وجل ، تضعونه فى صدع من الأرض ، ثم فى بطن صدع ، قد توسد التراب ، وخلف الأحباب ، وقطع الأسباب ، موجه للحساب ، غنى عما خلف ، فقير إلى ما قدم » .

* * *

ثم يبدأ المحاسبى شرح وتحليل الرذائل النفسية ، ووصف العلاج لها : تلك الرذائل التى تحبط الأعمال وتنفى الإخلاص :

وأول هذه الرذائل هو : « الرياء » ويستفيض المحاسبي في الحديث عن الرياء استفاضة تتناسب مع تغلغله في النفوس وتشعبه بحيث يظهر فيما لا يكاد يحصى من الأعمال ، على أن جميع أعمال البر عرضة ، لأن يعصف بها الرياء ، فتصبح كسراب بقيعة . ومن أجل كل ذلك كتب عنه المحاسبي حوالى خمس وعشرين ومائة صحيفة أي ما يزيد قليلا على ربع الكتاب ووضعه تحت عنوان كتاب : « الرياء » .

ويبدأ المحاسبي ، كتاب الرياء على الصورة العادية في كتاب الرعاية كله : سؤال السائل ، وإجابة المؤلف قلت : قد وصفت لى مراقبة الله — عز وجل — وذكره الرعاية لحقوق الله عز وجل ، ووجوه طلبها .

والأول من الواجب والفضل ، فما تخاف على إن قمت لذلك ؟

قال : أخاف عليك أن تفسده بما يبطل ثوابه في آخرتك ، ويذهب بحلاوته من قلبك .

قلت : ذلك أعظم للحسرة : أن أتعنى ثم يحبط ويبطل عملى ، وما ذاك المعنى ؟ » . اه

ومما يحبط عمل المتقى : أن يحب ، أن يحمد ويوقر بسبب عبادته .

ولا بد من الإخلاص التام ، حتى يصل الإنسان إلى منزلة الخاصة .

وما من شك في أن الإخلاص : منزلة الأقوياء والخاصة من العابدين ، ولكن الجميع مطالبون به وعلى قدر إخلاصهم يكون ثوابهم .

وقد سأل رجل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يا رسول الله : فيم النجاة ؟ فقال :

« ألا تعمل بما أمرك الله به تريد الناس » .

فسأله عن نجاته في أعماله ، فأخبره بترك : الرياء .

لا غنى للعبد إذن عن تركه : فاذا سألت الآن عن مفهوم الرياء فانه :

« إرادة العبد العباد بطاعة ربه » .

يقول تعالى :

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » .

وقد روى عن معاوية بن أبي سفيان ، وروى عن مجاهد ، في تفسير هذه الآية قالا : « هم المراءون » .

والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وكلام الصحابة والتابعين ، رضى الله عنهم في التحذير من الرياء ، لا تكاد تحصى .

ومن أشد ما يروى في ذلك حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن أبي هريرة — فيما رواه مسلم — سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول :

« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها : قال : قاتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبت ولكنك قاتلت ، لأن يقال جرئ ، فقد قيل ثم أمر به ، فسحب على وجهه حتى ألقى في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ، قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ، ليقال : عالم وقرأت القرآن ، ليقال : قارئ ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ، قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ولكنك فعلت : ليقال جواد ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار » .

وفي رواية ، أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، خط على فخذ أبي هريرة ، وقال : « يا أبا هريرة أولئك أول

خلق الله ، عز وجل ، تسعر بهم نار جهنم يوم القيامة » فذلك أعظم الرياء عند الله ، عز وجل .

وإذا كان هذا إرادة غير الله بالطاعة ، فان من أنواع المرائين من يريد الله ويريد الناس أيضاً ، وذلك أقل من السابق ولكنه أيضاً رياء .

يقول تعالى :

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

ويقول ، صلى الله عليه وسلم ، فى حديث قدسى ، عن الله عز وجل :

« أنا أغنى الشركاء عن الشريك من عمل لى عملا : وأشرك معى شريكاً ودعت نصيبى لشريكى » .

ومن أخس أنواع الرياء : أن يتظاهر الإنسان بالعبادة ، طمعاً فيما فى أيدى الناس وحباً فى أن يبرره بما يظهر من طاعة ربه .

لا بد إذن من المجاهدة والمكابدة والتيقظ ، لمداخل الشيطان والنفس الأمارة وليس ذلك بسهل فى مبدأ الأمر ، والناس فى هذا متفاوتون ولكن ، الله ، سبحانه وعد بأن يعين الذى يبدأ مخلصاً فى السير إليه ، حيث قال ، سبحانه :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا . . . » .

ثم يأخذ المحاسبى ، فى وصف ألوان من الرياء عديدة تأتى على شكل خطرات تتردد فى النفس ، ليكون الإنسان منها على حذر ، ويبين المراءة فى الفروض ، والمراءاة فى السنن .

ثم يتحدث عن بعض ما ينشأ عن الرياء من الأخلاق المرذولة المذمومة .

ومن هذه الأخلاق التى تنشأ عن الرياء : مثل المباهاة بالعلم ، والعمل ، والتفاخر بالدين والدنيا ، وحب الغلبة .

أما علامة المرائى : فهى حب الحمد والثناء ، وإظهار العمل من أجل الاحترام والتبجيل والمدح .

ومن أجل كل ذلك ، لا بد من إخلاص النية ، ولا بد من أن يصل الإنسان إلى أن يكون ممن وصف الله من عباده ، مادحاً لهم ، فقال :

« يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ، ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ، ويتيما وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً » .

أما من تحدث إلى الناس بما عمل من الطاعة ، يريد بذلك وجه الله ، وحضهم على الاقتداء به ، فليس من الرياء فى شيء ، ولأن يهدى الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها .

وقد ختم المحاسبى ، كتاب : « الرياء » بقوله :

وقد روى أن ابن السماك ، قال لجارية له : « مالى إذا أتيت بغداد تفتحت لى الحكمة ؟ قالت له جاريته : يشحذ لسانك الطمع ، وصدقت : إن العبد يكثر الكلام بالخير عند الغنى ، ما لم يتكلم به عند الفقير ، يهيجه الطمع على ذلك ، أو تعظيمه للدنيا وكذلك يظهر الخشوع وغيره من الطاعات .

* * *

ويبدأ المحاسبى بعد ذلك فى : « كتاب الإخوان ومعرفة النفس » ولا يقصد المحاسبى أن يتكلم فى هذا الباب على الصداقة وشروطها وواجباتها ، أو عن النفس من ناحية التصور الفلسفى لها : جوهراً ، كانت أم عرضاً ، وقديمة أم حديثة كلا ، وإنما يريد أن يتحدث فى الموضوع من ناحية الإعانة على ذكر الله والتقوى ، فقد يترك الإنسان الرياء فترة من الزمن عازماً على ألا يعود إليه ، ثم تخور عزيمته ، وينتكث فى طريقه .

ولأجل ألا يحصل ذلك لا بد من قطع كل سبب يكون عنه الزلل والفتنة . فاذا ما زل مع ذلك . فلا بد من المسارعة إلى الإقلاع قبل أن تألف النفس المعصية ، وتتمكن فى القلب حلاوة الشهوة .

وقد يكون من أسباب الزلل : مجالسة الذين لا يسلم الإنسان معهم — بسبب مجالستهم — من الزلل ، ومثل صاحب السوء ، كمثل صاحب الكير يعنى الحداد : إن لم يحرقك بشرره يعبق بك من ريحه .

ولقد قال سيدنا عمر : احذر صديقك إلا الأمين من الأقوام ، ولا أمين إلا من خشى الله، كل هذا إذا أنس من نفسه ضعفاً ، أما إذا كان يمكنه أن يغير اتجاه أصحابه ويتغلب على تياراتهم فيوجههم إلى الخير ، فذلك حسن .

يقول إبرهيم التيمى :

« إن الرجل ليأتى القوم وهم يخوضون فى الباطل ، فيصرفهم إلى الذكر ، فيكون له أجره وأجرهم » .

وبعد هذا الكتاب ، كتاب آخر يرتبط به ارتباطاً وثيقاً ، حتى لقد كان يمكن أن يكونا كتاباً واحداً ، ويكونان بذلك وحدة متحدة ، ذلك هو : « كتاب التنبيه على معرفة النفس وسوء أفعالها ، ودعائها إلى هواها » . ونكتفى فى هذا بما ذكرناه سابقاً .

* * *

ومن الرذائل الخبيثة فى النفس : « العجب » فبسببه هلك أئمة الضلالة ، وبالعجب تكبر المتكبرون وافتخر المفتخرون ، واختال المختالون .

ولقد روى عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه » .

وقد يكون العجب بالدين :

والعجب بالدين بوجوه أربعة : بالعمل والعلم والرأى الصواب والرأى الخطأ ، فالعلم : ما حفظ وفهم من الكتاب والسنة وقول علماء الأمة .

وأما الرأى الصواب : فما استنبط قياساً ، على الكتاب والسنة والإجماع ، مشبها بها حكمة مثل حكمة .

وأما الرأى الخطأ : فما كان من غير استنباط من كتاب ولا سنة ولا اجماع الأمة . وإنما هو : تأويل بغير الحق ، وانتحال له على سبيل الجهل ، من قبل هوى النفس ، مع اعتراض من الظن أنه حق .

فأما الإعجاب بالعمل والعلم والرأى الصواب ، فمعنى واحد : لأنه كله منة من الله عز وجل ، ونعمة منه .

فجملة العجب بالدين : حمد النفس على ما عملت أو علمت ، ونسيان النعم من الله ، عز وجل ، عليك بذلك فحمد النفس ونسيان المنعم : هو العجب بالدين .

أما إذا رأى الإنسان أن ما به من نعمة — مالا أو قوة ، أو علماً أو سدادا فى الرأى ، أو طاعة وعبادة . . . . . . فمن الله : فانه بذلك ينفى العجب عن نفسه ، يقول تعالى :

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً » .

ويستفيض فى الحديث عن العجب بالدنيا ، وبأعمال الطاعة ، وبالعلم ، وبالنفس ، وبالحسب ، مع أن الله تعالى ، يقول :

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ومع قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لابنته ولعمته : يا فاطمة بنت محمد ، ويا صفية بنت عبد المطلب : عمة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« اعملا لأنفسكما ، فانى لا أغنى عنكما من الله شيئاً » .

ويتحدث المحاسبى عن العجب بكثرة العدد ، ويذكر رداً على ذلك قول الكافرين :

« نحن أكثر أموالا وأولاداً » .

ثم يأخذ المحاسبى فى كتاب : « الكبر » والكبر : من علامات الذين لا يؤمنون بالآخرة ، يقول تعالى :

« فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون » .

وما ألحد كثير من الملحدين ، أو انحرف كثير من المنحرفين ، إلا بسبب الكبر : إن الله يصرفهم عن رؤية آياته والاعتبار بها بسبب كبرهم .

« سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » .

وإن الله ، سبحانه وتعالى ، يطبع : « على كل قلب متكبر جبار » .

وقد ينشأ الكبر عن العجب فى الدين بالعلم والعمل ، فاذا كان من قبل العلم ، فان العالم إذا أعجب بعلمه ، أخرجه عجبه إلى الكبر تعظماً على العباد ، فيتكبر على العوام ، وإن كان بعضهم أتقى لله عز وجل ، منه وذلك الذى خافه عمر – رضى الله عنه – على العلماء ، حين قال : « تواضعوا لمن تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم عند الله بجهلكم ، أى لا يزكو عند الله إذا تكبرتم به .

ومن العباد قوم ضلال ، قد جمعوا إلى الضلال الكبر ، لا يرون أن أحداً يقول : الحق على الله عز وجل ، غيرهم وأنه لا مهتد فى الأرض غيرهم ، وهم الذين يقولون : إن القرآن مخلوق ، وهم الذين يقولون بالوقف ، والذين يقولون باللفظ ، والذين يكذبون بالقدر ، والذين ينكرون أن الله عز وجل ، يرى فى الآخرة والذين يغلطون الموازين ، ومنهم الرافضة[1] والمرجئة ، والحرورية[2] والذين يكذبون بالشفاعة ، ويشتمون أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، والذين يشتمون عائشة أم المؤمنين المبرأة من الإفك رحمها الله ، ولولا ما أكره أن يطول الكتاب بذكرهم لذكرتهم فكل هذه الفرق آبقة غير جائرة عن الطريق ،

لا يرون أحداً يقول بالحق ، وأنه لا مهتد فى الأرض غيرهم جهلا بالله عز وجل ، وتكبراً على عباده ، كما روى العباس ، رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« يكون قوم يقرءون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم ، يقولون : قد قرأنا القرآن ، فمن أقرأ منا ؟ ومن أعلم منا ؟ » . ثم التفت النبى ، صلى الله عليه وسلم ، إلى أصحابه ، فقال :

« أولئك منكم أيها الأمة ، أولئك هم وقود النار » .

وقد يكون الكبر عن الرياء :

ويجب على كل إنسان : أن يعلم ، أن أصل بن آدم : من التراب الذى يوطأ بالأقدام إنه من حمأ مسنون والله ، سبحانه تعالى ، يقول :

« قتل الإنسان ما أكفره : من أى شىء خلقه ؟ ! من نطفة خلقه فقدره » .

ثم إن الله تعالى ، لا يحب المستكبرين ، ويقول ، صلى الله عليه وسلم :

« لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » .

ثم يتحدث المحاسبى عن : « الغرة بالله عز وجل » ويميز بين الغرة والرجاء فبعض المغترين : يظن أن الغرة منه رجاء ، فيقيم على معاصى الله ، عز وجل ، ويظن ذلك حسن الظن منه ، وليس ذلك بحسن ظن ، كما قال وهب : حسن الظن بالله ما جانب الغرة ، وقيل للحسن : إن قوماً يقولون نرجو الله عز وجل ، ويضيعون العمل ، فقال :

هيهات هيهات ، تلك أمانيهم يترجحون فيها من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف شيئاً هرب منه .

ويتحدث المحاسبى فى كتاب : « الغرة » عن غرة أهل النسك ، وغرة الفقهاء ، وغرة الوعاظ ، وغرة المتكلمين .

(١) الرافضة : هم الشيعة .
(٢) الحرورية : هم الخوارج .

ثم يأخذ فى شرح الحسد : أسبابه ومضاره ، وما من ريب فى أن جملة الحسد المحرم : أن يكره الحاسد ما يرى من غيره من النعم ويحب زوالها عنه .

وأما المنافسة فى خيرى الدنيا والآخرة ، وأن يحب ما يرى بغيره من النعم ، أن يكون له مثله غبطة منه ، دون أن يكره لغيره ما يرى به من النعم ، فهذا لا بأس به ، بل إنه مما يحسن ومن هنا كان قوله ، صلى الله عليه وسلم :

« لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله عز وجل ، مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله عز وجل علماً ، فهو يعمل به ويعلمه الناس » .

فذلك الذى هو المنافسة فى الخير .

ويختم المحاسبى : « كتاب الرعاية » ب « كتاب تأديب المريد » يذكر فيه سيرة المريد فى ساعات الليل والنهار : إنه يرسم فيه الدستور الذى يسير عليه المسلم ، فى حياته ، حينما يعزم على أن يأخذ السمت الإسلامى الصحيح .

وفيه يقول المحاسبى :

فنعوذ بالله من الحيرة بعد الهدى ، ومن العمى بعد البصر ، ومن الإعراض عن الله تعالى ، بعد الإقبال إليه ، ونسأله السلامة والعون على ما يحب ويرضى . . .

أثر المحاسبى وكتابة «الرعاية» فى الفكر الإسلامى

إن تأثير المحاسبى فى الأجيال التالية له : لا ينكر .

إنه من الواضح ، أن تلميذه الأكبر — وإن لم يلتق به — كان الإمام الغزالى :

إن الإمام الغزالى ، يعترف بأنه قرأ كتب الحارث المحاسبى ، قال ذلك فى كتابه : « المنقذ من الضلال » .

ولقد قرأ أيضاً سيرة الحارث المحاسبى ،ويتحدث عن الخلاف الذى كان بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل

ثم إنه ينقل عنه فى كتابه : « الأحياء » كثيراً من الآراء والنصوص .

وفى كتاب : « الاحياء » يقول عنه الإمام الغزالى ، دون تحفظ ولا استثناء ، هذا التقدير الهائل : « المحاسبى خير الأمة فى علم المعاملة » .

وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ، وأعوار العبادات .

وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه » . اه

هذه الشهادة أو التقدير من الإمام الغزالى ، كان له أثر كبير فى كتاب : « الاحياء » فان كتاب الأحياء : تضمن تقريباً كتاب : « الرعاية » وكلمة الشيخ زاهد الكوثرى ، رحمه الله ، سبق أن ذكرناها فى المقدمة التى كتبناها ، لكتاب الرعاية : إذ يقول :

« لقد تبطن الإمام الغزالى ، كتاب الرعاية فى كتابه الإحياء » .

ولكن أثر المحاسبى كان أيضاً كبيراً قبل الإمام الغزالى ، يقول السبكى عنه :

« عالم العارفين فى زمانه ، وأستاذ السائرين ، الجامع بين علمى الباطن والظاهر » .

ويقول الشعرانى عنه ، إنه : « أستاذ أكثر البغداديين » .

لقد كان رحمة الله عليه ، أستاذ أكثر البغداديين وعلم العارفين فى زمانه ، وامتد تأثيره إلى الإمام الغزالى ، وإلى الصوفية من بعده ، واستمر هذا التأثير قرناً فقرناً ، واستمر تقدير العلماء الصوفية له قرناً فقرناً ، حتى إذا كان القرن الحادى عشر الهجرى ، وكان المناوى صاحب التآليف الكثيرة المشهورة المعروفة ، كتب عن المحاسبى فى كتابه : « الكواكب الدرية » يقول :

المحاسبى البصرى : علم العارفين فى زمانه ، وأستاذ السائرين فى أوانه ، عالم سار بنا فضله ، وصوفى طار نبله ، برع فى عدة فنون ، وتكلم على الناس فأراهم الجوهر المكنون ، وأحيا القلوب بوعظه ، وشنف الأسماع بدر لفظه ، تصانيفه مدونة مسطورة ،

وأقواله مبوبة مشهورة وأحواله مصححة مذكورة ، وكان فى علم الأصول راسخاً راجحاً . وعن الخوض فى الفضول جانحاً . وللمخالفين الزائغين قامعاً وناطحاً ، وللمريدين مربياً وناصحاً . . .

قال التميمى : هو إمام المسلمين فى الفقه ، والتصوف ، والحديث ، والكلام وقال غيره له المصنفات النافعة الجمة ، بحيث تبلغ نحو مائتى مؤلف ، وناهيك برعايته ، وكتبه فى هذه العلوم ، أصول لمن صنف فيها .

قال فى الأحياء : المحاسبى خير الأمة فى علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ، وأغوار العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على نفسه .

على أن التقدير الذى نحب أن نسجله هنا : هو ما كتبه الأستاذ لويس مسينيون عن كتاب : « الرعاية» فى كتابه مصطلحات التصوف :

« إن المحاسبى : سما فيه بالتحليل النفسى إلى مرتبة لا نجد لها مثيلا فى الآداب العالمية إلا نادراً » .

وبالأمس القريب خصص التلفزيون فى الجمهورية العربية المتحدة عدة حلقات للمحاسبى وكتابه : « الرعاية » فى برنامج : « دنيا ودين » تحدث فيها عميد كلية دار العلوم ، وعميد كلية أصول الدين ، والسيد الدكتور عيسى عبده ، تحدثوا فيها عن المحاسبى كممثل لمنهج معين من مناهج المعرفة ، وكممثل للاتجاه الصوفى السليم ؛ وتحدثوا عن كتاب : « الرعاية » باعتباره من الكتب ذات القيمة الذاتية الخالدة .

النصـــــــــوص

النص الأول

باب منازل التوابين

اعلم أن الناس مختلفون فى ذلك على ثلاث منازل ، لا رابع لها :

فمنهم من نشأ على الخير ، لا صبوة له إلا الزلة عند الشهوة ، كالزلة التى لم يعر من مثلها النبيون ، والصديقون ، ثم يرجع إلى قلب طاهر لم تعتوره الشهوات ، ولم يغتذ اللذات من الحرام ، ولم تعقبه الذنوب ، ولم يعل قلبه الرين[1] ، ولم تغلب عليه القسوة

فرعاية حقوق الله عز وجل ، والقيام بها على هذا أسهل ، والمحنة عليه أخف ودواعى النفس له أقل وأضعف ، لأن قلبه طاهر ، والله عز وجل عليه مقبل ، وله محب ومتول ، والولى لا يخذل وليه ، والحبيب لا يسلم إلى الهلكة حبيبه .

وقد جاء فى الحديث يعجب ربك للشاب ليست به صبوة ، أى يسر به ، ويعظم قدره عنده لأن العجب على وجهين :

أحدهما المحبة بتعظيم قدر الطاعة ، والسخط بتعظيم قدر الذنب فى الجرأة .

والوجه الثانى : الاستكثار للشىء ، وإنما يعجب استكثاراً للشىء ، الجاهل الذى لم يكن يعرف الشىء فلما رآه استكثره وتعجب منه ، وجل الله جل جلاله عن هذا الوصف وإن كان قد قرأ بعض القراء : (بل

(١) الرين : الدنس

عجبت [1]) فليس هو على الاستكثار لما لا يعلم ومعنى قوله يعجب ربك للشاب ليست له صبوة : أى أن الله عز وجل : محب له ، راض عنه ، عظيم قدره عنده .

وروى فى بعض الحديث عن شريح : أن للشاب الناشئ على عبادة ربه ومحبته أجر سبعين صديقاً .

وروى معاذ بن جبل ، رضى الله عنه ، عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أن الله عز وجل ، يقول :

« أيها الشاب الباذل شبابه لى ، التارك شهوته من أجلى ، أنت عندى كبعض ملائكتى » .

فمن أطهر من هذا قلباً ، أو من أولى بالمعونة والتوفيق ممن لم يركب الذنوب عند بلوغه ونشأ على طاعة ربه وعبادته ، واعتاد القيام بحقه ورعاية حقوق الله عز وجل ، عليه خفيفة لطول عادته للقيام بها وتركه الركون إلى أضدادها ، قليل مكابدته ومجاهدته ، طويل بالله عز وجل شغله واشتغاله .

وآخر تائب من بعد صبوته ، وراجع إلى الله سبحانه ، عن جهالته ، ونادم على ما سلف من ذنوبه فى أيامه ، قد أعطاه العزم ألا يعود إلى تضييع شىء من غرضه ، ولا معاودة شىء مما سلف من ذنوبه ، والنفس منه تنازعه إلى عادتها لترده برغبتها إلى لذتها ، وهو يقمعها ، ويجاهدها ، ويخوفها عواقب ما كان منها ، وعدوه يذكرها ما فاتها ويدعوها إلى ما تركت من شهوتها ، وهو يذكرها قبيح ما كان منها . ويعظم منه الله عز وجل ، عليها بنقلتها عما يسخط به ربها عليها ، فما لبث إلا قليلا — أن صدق الله ، عز وجل فى مجاهدته ، وأمسك نفسه عن الشهوات التى تنقص عزمه — حتى يمده الله عز وجل ، بمعونته ، فيسهل عليه سبيل الطاعة كما ضمن لمن أناب إليه ، فقال عز وجل :

« والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم [1] » .

وقال عز وجل :

« ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وإذاً لأتيناهم من لدنا أجر عظيما . ولهديناهم صراطاً مستقيما » .

فوعدهم الله تبارك وتعالى : أن يحملهم على الطريق المستقيم ، ويريهم الحق نهاراً سرمداً ، لأنه كريم يتقرب ممن يتباعد منه ، فكيف بمن يتقرب إليه ؟ ويتحبب إلى من يتبغض إليه ، فكيف بمن يتحبب إليه ؟

وكذلك روى أبو هريرة ، عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : يقول الله عز وجل :

« يا بن آدم إن تقربب إلى فترا تقربت إليك شبراً . وإن تقربت إلى شبراً تقربت إليك ذراعاً ، وإن تقربت إلى ذراعاً تقربت إليك باعاً وإن أتيتنى سعياً أتيتك هرولة » .

وإنما هذا على حسن المعونة ، وسرعة الإجابة والهداية بالسداد والتوفيق ، والا كتناف بالعصمة . فلم يلبث هذا التائب إلا يسيراً حتى يقبل الله ، عز جل عليه بمعونة فيغلب له هوى نفسه ويقوى منه ضعفه ، ويميت منه دواعى شهواته ، فيقهر العقل منه الهوى ، ويغلب العلم منه الجهل ، ويسكن قلبه الخوف والهم ، ويواصل فيه الأحزان بعد طول لهوه ، واتصال أفراحه بالدنيا ، كلما ذكر ما كان منه من ذنوبه هاج خوفه ، وغلب همه وطال حزنه ، فاذا غفل عن الذكر وسها عن الفكر ، نازعته نفسه فمال إلى بعض الزلل الذى لم يعر من مثله الصالحون عند غفلاتهم وسهوهم ، ثم يرجع إلى الله — عز وجل — بقلب طاهر من الرين والدنس ، قد فطمه عن عادته وأعقبه بالخوف من الأمن والإصرار ، وبالرجاء الصادق من الغرة

---

(١) يشير إلى الآية الثانية عشرة من سورة الصافات وهى : « بل عجبت ويسخرون » .

(١) وفى هذا المعنى قوله تعالى : (والذين جاهدوا فينا ، لنهدينهم سبلنا » .

والتسويف ، فهو من سالف ذنوبه هارب لرحمة ربه عز وجل ، يهربه طالب حتى يلقاه آمناً من عذابه .

وقد جاء فى الحديث عن النبى ، صلى الله عليه وسلم :

« إن العبد ليذنب الذنب ، فيدخله ذنبه الجنة ، قيل : يا رسول الله ، وكيف يدخله ذنبه الجنة ؟ قال لا يزال نصب عينيه تائباً منه هارباً منه حتى يدخله الجنة».

وقيل لسعيد بن جبير : من أعبد الناس ؟ قال : رجل أصاب من الذنوب ، فاذا ذكرها اجتهد .

وروى عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « خياركم كل مفتن تواب » .

يخبرك : أن خيار أمته لم يعروا من الزلل ، وأن علمهم بالله عز وجل ، لن يدعهم حتى يرجعوا إليه بالتوبة والإنابة .

والثالث مصر على ذنبه ، مقيم على سيئاته ، يغلبه الهوى وضعف الخوف ، مقر مع ذلك بأن لله عز وجل ، معاداً يبعثه فيه وهو لا يتغشاه به ، ومقاماً يوقفه فيه ويسأله عما كان منه ، وثواباً وعقاباً يصرفه من بعد السؤال إلى أحدهما ، ثم يحل فيه مخلداً ، إلا ما شاء الله الملك الكريم من بعد التخليد فى العذاب الأليم

فهذا إقرار بالإيمان فى قلبه قد زايل به الجحد ، وصدق به الرب عز وجل . والقلب بالشهوات مشغول عن الفكر . والرين له مانع عن الذكر إلا الخطوة تهيج من الإيمان بذكر المعاد ثم لا تجد موضعاً تستقر فيه . لما غلب على قلبه من القسوة وتتابع فيه من الغفلة ، فقلبه هائج باشتغال الدنيا . لا يلزمه ذكر التخويف . ولا يتفرغ للفكر . ولا يجد حلاوة الذكر وكيف يكون للذكر فيه مستقر . والأشغال تنازعه . والغفلات تغلب عليه ؟ فهذا محتاج إلى ما يحل به عقود الإصرار من قلبه . فيتوب إلى ربه من ذنبه . فيلحق بصاحبيه اللذين من قبله : الناشئ على غير صبوة والمنيب بالتوبة إلى خالقه تعالى .

النص الثانى

باب منازل أهل الرعاية ، لحقوق الله عز وجل ، فى رد الخطرات وقبولها فى أعمال القلوب والجوارح على قدر منازل أهل القوة والضعف .

والراعون ، لحقوق الله عز وجل ، فى منازل شتى ، وقد ينتقل كل راع منهم فى تلك المنازل على قدر قوته وضعفه ، فأول منزلة من الرعاية ، وأهلها أقوى الخلق فى الرعاية لحقوق الله عز وجل ، الرعاية عند الخطرات بعد اعتقاد جمل حقوق الله عز وجل ، فلا تخطر بقلبه خطرة من أعمال قلبه ، إلا جعل الكتاب والسنة دليلين عليها ، فلم يقبلها باعتقاد الضمير ، وبتركها يسكن قلبه فى مجال الفكر من التمنى وغيره ، إلا أن يشهد له العلم أن الله عز وجل ، قد أمر بها وندب إليها ، أو أذن فيها بأسبابها وعللها ، ووقتها وإراداتها فيها ، فانه قد يقبل الخطرة ، يرى أنها داعية إلى سنة وهى بدعة ، وقد يرى أنها داعية إلى طاعة وهى معصية وقد يرى أنها داعية إلى خير وهى شر ، كالخطرة تدعو إلى الإخلاص بترك العمل ، وإلى التنزه عن الخلق بالفكر ، وإلى الرجاء على العمل بالعجب والغرة ، وإلى المنافسة بالحسد ، وإلى الغضب لله عز وجل ، بتمنى البلاء فى الدين والدنيا للمسلمين واعتقاد استحلال ما حرم الله عز وجل منهم ، ونحو ذلك من الخطرات ، وإلى القدر بتنزيه الله عز وجل ، وإلى رأى جهم : بنفى التشبيه ، وإلى التشبيه : بنفى رأى جهم . وإلى الاعتزال بتثبيت الوعيد ، وإلى الخروج بالسيف بالغضب لله عز وجل . أو إلى الإرجاء بتعظيم الأقدار وتنزيه الإيمان من النقصان .

وقد تخطر الخطرة تدعو إلى بدعة فى الجملة يحسبها سنة ، ومما يدل على ذلك أن قلوب أهل البدع إذا خطر بها الخطرات تدعوهم إلى بدعة عدوها سنة . فكذلك أهل السنة : لن يدع العدو أن يدعوهم إلى البدع عند

غفلاتهم من حيث لا يشعرون ، ولولا ذلك ما ابتدع أحد بدعة بعد اعتقاده للسنة فى عبادة ولا غيرها . لأنه قد يدعوه العدو إلى الابتداع فى زهده وفى رضائه وتوكله ، فيخالف زهد الأئمة المتقدمين وتوكلهم ، ورضاءهم ويقينهم بمخالفته السنة واعتقاده البدعة . وهو يرى أنها سنة . كما اعتقد قوم الزهد فى الدنيا بتضييع العيال وبترك وجوب حق الوالدين . والتوكل بترك الاكتساب على الأهل والأولاد . والخروج فى السفر بلا زاد . والرضا بالسرور بالبلاء إذا وقع بالمسلمين . وبتحريم الدواء والدعاء . وترك التمنى أن المعاصى لم تكن وبالاشتغال بالله عز وجل . بترك الفرائض . وبترك النوافل ودعوى البصائر ، واستنارة القلوب بادعاء علم الغيوب : من القطع على ما فى ضمائر الخلق وما يسرون ويكتمون . ويحتجون فى ذلك بآثار : مثل قوله . صلى الله عليه وسلم :

« المؤمن ينظر بنور الله » .

وكل فرقة ممن ذكرنا تحتج بالآثار . والكتاب . والمقاييس . ولكن يطول ذكرها . وإنما أردنا تحذير جملتها . ليعرفها العالم المثبت بالكتاب والسنة .

وكذلك الخطرات التى تدعو إلى تدين القلوب من غير عبادات بالأعمال : كالقدر ورأى جهم والرفض والاعتزال ونحوه . فلن تميز العبد بين ذلك وبين ما أحب الله عز وجل من الأعمال والسنن إلا بشاهد العلم ، لأن الله عز وجل . أمر بذلك أو ندب إليه وأذن فيه ولا تخطر خطرة فينفيها . أو يحجب قلبه عنها . إلا أن يشهد له العلم . أن الله عز وجل . قد نهى عنها وذمها بسببها وعللها وأوقاتها . فانه قد تخطر بقلب العبد الخطرة داعية إلى خير فينفيه . وهو يحسب أنها شر . وقد تدعو إلى سنة فينفيها وهو يحسب أنها بدعة . يزينها له عدوه . ومما يدل على ذلك : أن قلوب أهل البدع ، إذا خطرت بها خطرة تبعثهم على اعتقاد السنة نفوها وحسبوها بدعة

ولن يدع العدو أن يدعو العبد المريد إلى نفى خطرات التنبيه على الخير والشر لئلا يقبلها ، لأن على العباد وإن أرادوا الله عز وجل ، أن يصيبوا الحق بذلك .

وقد ذم الله عز وجل ، قوماً ولم يعذرهم ، بأن رأوا أن الشر خير والخير شر . فقال جل وعز :

« وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً[1] » .

وقال عز وجل :

« أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً[2] » .

وقال حذيفة . رضى الله عنه . لرجل سأله عن الرجل : يقاتل يريد وجه الله عز وجل ، فيقتل ، ولم يوفق للحق . فقال : ليدخلن النار ممن يقتل أكثر من كذا وكذا ولكن من قاتل يريد وجه الله عز وجل ، فأصاب الحق فهو فى سبيل الله .

ومن لم يوفق للحق . لم يوفق للخير . وكذلك الذى ينفى خطرات من الخير يحسبها سواء ولا يميز بين ذلك إلا بشاهد العلم من الكتاب والسنة ، وإذا تبين له بشاهد العلم إحدى الخطرتين . أنها مما أحب الله عز وجل من عمل قلب أو اعتقاد سنة قبلها وعزم عليها . وإن تبين له بشاهد العلم أنها مما كرهالله عز وجل أو ذمه فى كتاب الله عز وجل . أو فى سنة النبى — صلى الله عليه وسلم — أو اجتمعت[3] عليه العلماء نفاها عن قلبه وحجب قلبه عنها ، فان لم يتبين له عند إحدى الخطرتين ما هى ، أهى مما أحب الله عز وجل . أو مما كره الله تعالى ؟ وقف وتثبت ابتداء أو يشهد العلم له بأحد الأمرين فيقبل أو ينفى . وهو فى فسحة حتى يتبين بالنظر بقلبه ، أو بسؤال العلماء . إن كان مما لا يبلغه علمه فانه إن لم يفعل ذلك لم آمن عليه . أن يضل بغير دليل . فيعتقد الشر ويحسب أنه خير أو ينفى الخير ويحسب أنه شر .

---

(١) ١٣ : ١٠٤
(٢) ٣٥ : ٩
(٣) أجمعت العلماء على أنها مما يكره الله عز وجل .

ويعرف الشر ثم يعتقده ، أو يعرف الخير ثم يجانبه ، ولو تبين ذلك لم آمن ذلك عليه أيضاً ، فاذا فعل ذلك فقد رعى حقوق الله عز وجل ، فى جوارحه فلا يخطر بقلبه خطرة تدعو إلى القول بلسانه ، فيعتقد الهم بها ، ولا يأذن للسانه ، أن ينطق بها ، حتى يتبين له فى العلم بالكتاب والسنة ، أو فى اجماع الأمة أن الله عز وجل ، أمر بها أو ندب إليها وأباحها ، وكذلك الداعى إلى الاستماع إلى صوت من الأصوات ، فيعتقد الهم إلى الإصغاء إلى ذلك الصوت ، إلى أن يتبين له فى العلم أن الله عز وجل ، قد أذن فى ذلك ، أو ندب إليه أو أباحه .

ألا ترى إلى ما جاء فى الحديث عن ابن عمر ، عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أنه مر بزمارة راع ، فوضع أصبعيه فى أذنيه ، وعدل عن الطريق ، حتى قيل له : إن الصوت قد انقطع ، فمنع سمعه ، فلم يأذن له إلى ما كره الله عز وجل .

وكذلك إن خطرت خطرة تدعو إلى نظرة ، لم يعقد الهم بها ، ولم يدع بصره يتردد فى النظر إليها إن كانت نظرة فجأة ، حتى يعلم أن الله عز وجل ، قد أمر بها ، أو ندب إليها أو أباحها ، وكذلك يداه : لا يعقد الهم ببطشهما وحركاتهما ، بل لا يخلى بينهما وبين البطش ، وكذلك الرجلان لا يخلى بينهما وبين المشى حتى يعلم أن الله عز وجل ، قد أمر بها ، أو ندب إليها أو أباحها ، فى كتاب أو سنة أو فى اجماع الأمة .

قلت : فاذا رعيت حق الله عز وجل ، عند الخطرات التى تدعو إلى عقد ضمير القلوب ، والخطرات التى تدعو إلى الهم بحركات الجوارح وسكونها ، فما تخاف على بعد ذلك ؟ وهل يجب على غير ذلك ؟

قال : نعم ، إن الله عز وجل ، أوجب فرائضه فى كتابه نصاً فى التلاوة وكثير من نص التلاوة مجمل بالفرض ، يحتاج إلى التفسير بما فى سنة النبى صلى الله عليه وسلم ، فجعل بعض فرضه أوجب من بعض ، إذا اجتمع الفرضان ، وفرض فرضاً له وقت يفوت ، إن جاز وقته بغير عذر قبل أن يؤدى كان العبد عاصياً لربه ، وفرض فرضاً له وقتان ، فمن أداه فى أول وقته كان ذلك أفضل عليه وإن أداه فى الوقت الثانى لم يكن مأزوراً وأوجب الله عز وجل ، ألا ينال فرضه بما حرم على عباده ولا يؤثر على فرضه نافلة مما يتقرب به إليه ، فعليك وعلى العباد ألا يؤخروا من فرضه ، ما أوجب أن يبدأ به ، ولا يقدموا ما أمر أن يؤخر بعد غيره من الغرض ولا يتركوا فرضاً ، لطلب قربة بنافلة ولا غيرها

النص الثالث

باب ما ينفى به العجب بالرأى الخطأ

قلت : أفرأيت نفى العجب بالرأى الخطأ ، إذا كان ليس بنعمة فأذكر منة الله عز وجل ، بذلك ، ولا أضيف ذلك إلى نفسى فبم أنفيه ، إذ تبين لى أنه بلية وخذلان ، أو نقص فى الدين ؟

قال : قد ينفى العبد العجب بالرأى الخطأ بتهمة نفسه ، وترك الاستحسان لشىء من رأيه إلا بدليل بين وحجة واضحة من الكتاب والسنة ، أو قياس عليهما واستنباط حكم فى نازلة .

قلت : وكيف يتهمها ؟ وما الذى ينال به تهمتها ؟

قال : لمعرفته ما بنيت عليه فى الخلقة أن من شأنها السهو والغفلة ، ولما جرب منها من كثرة غلطها ، وكثرة زللها ، وسوء تأويله ما لا يحصى مراراً كثيرة ، فى كل ذلك يرى أنه مصيب ، لا يشك عند نفسه فى ذلك ، ثم يتبين له بعد أنه قد كان غفل وغلط ، وكان استجابة لذلك من قبل الهوى ، وتزيين الشيطان ، ولو لم يبعثه على تهمتها إلا ما يعرف من عامة هذا الخلق : من غلطهم وقولهم فى دين الله ، عز وجل ، بغير الحق ، وكلهم يزعم فيما يدعى الحق وهو على باطل ، وهو — مع ما هو عليه من الباطل — لا يشك أنه محق صادق ، وأن من

خالفه مبطل كاذب من جميع أهل الأديان ومن أهل البدع من المسلمين ، وكثير من أهل الفتيا والرأى .

وقد علم أن النفوس طبعها بعضه قريب من بعض ، بل كلها لا تعرى من السهو والغفلة ، وما نفسه إلا من أنفس الخلق من ولد آدم ، عليه السلام ، بنيته كبنيتهم ، وغريزته كغرائزهم ومع ذلك فان المزين لهم واحد ، وهو الشيطان المرصد لهم بالعداوة ، والباغى لهم الزلل والعصيان فاذا أثبت فى قلبه هذه المعرفة بنفسه اتهمها ولم يعجل بما يستحسن دون النظر فى الكتاب والسنة ، أو مساءلة أهل العلم والبصيرة ، ولم يزل ذلك شأن الصالحين العارفين بأنفسهم ، ولم يزالوا متهمين لآرائهم ، خائفين من أنفسهم . من ذلك ابن مسعود ، اختلف إليه شهراً فى مسألة عن امرأة مات عنها زوجها ولم يدخل بها ولم يسم لها صداقاً . فلم يجبهم شهراً مخافة الخطأ فى إجابته إياهم عما سألوه عن ذلك ، تهمة لنفسه وخشية لخطئها ، ثم قال لما لم يجد بداً من القول فيها قال : أقول فيها برأيى فان كان صواباً فمن الله ، عز وجل ، وإن كان خطأ فمن نفسى .

وروى عن أبى بكر ، رضى الله عنه ، مثل ذلك .

وقال عمر ، رضى الله عنه : إن الرأى كان من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، صواباً ، لأن الله ، عز وجل ، كان يريه : وهو منا الظن والتكلف .

وقال أبو سعيد ، رضى الله عنه : قال الله – عز وجل – لهم وهم أصحاب نبيه ، صلى الله عليه وسلم :

« لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم[1] » .

فكيف فيمن دونهم من الناس ؟

وقال قتادة فى قوله عز وجل : لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ، فأنتم أطيش أحلاماً ، فاتهم رجل رأيه وانتصح كتاب ربه ، عز وجل .

(1) ٤٩ : ٧

وقال أبو سعيد الخدرى ، رضى الله عنه : يقول الله تعالى ، لنبيه ، صلى الله عليه وسلم ، لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ، وقال : ونحن أصحابه ، فأنتم أعجز رأياً .

وقال ابن مسعود ، رضى الله عنه :

« أيها الناس اتهموا الرأى ، ولقد رأيتنى وأنا أهم أن أضرب بسيفى فى معصية الله ، عز وجل ، ومعصية رسوله ، صلى الله عليه وسلم » .

وقال سهل بن حنيف :

« أيها الناس : اتهموا آراءكم » .

وقال عمر ، رضى الله عنه ، اتهم رجل رأيه ، ولقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أقدر لرددت على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يعنى يوم صالح النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قريشاً يوم الحديبية فى إجابته إياهم ، والأحاديث فى ذلك كثيرة ، وتركنا ذكرها كراهية التطويل .

قلت : فاذا ثبتت المعرفة بذلك فاتهم رأيه ، كيف يتثبت حتى لا يخطئ ؟

قال : تعلم أن من كتاب الله ، عز وجل ، آيات محكمات قد أجمع المسلمون على تفسيرها ، ومنه ما يشتبه ويمكن فيه التأويل ، وذلك الذى اختلف فيه ومنه مشتبه ولم يختلف فيه إلا أهل الزيغ الذين أخبرنا الله عز وجل ، أنهم يبتغون تأويله ، ابتغاء الفتنة ، لما فى قلوبهم من الزيغ والضلالة : وكذلك سنة النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بهذه المنزلة .

فليعلم العبد المريد للصواب : ليدين الله عز وجل ، به أن من الكتاب والسنة محكماً بين التلاوة مفسراً باجماع وأن ذلك واضح لا يحتاج فيه إلى النظر والبحث ، ولا يجب على النفس التهمة فى قبولها واجتنابها إياه ، وأن الذى يمكن فيه الخطأ والصواب ، لضعف ابن آدم وسهوه ، وغفلته وغلبة هواه له ، وتزيين عدوه له :

ما اختلف فيه ، أو حادثة يحتاج فيها إلى التمثيل والقياس على الكتاب والسنة والاجماع . فعند ذلك يتهم نفسه ، ويتثبت ولا يعجل ، إذ كان الخطأ فى ذلك منه ممكناً ، فالعجلة وترك التثبت غرور وخطأ وترك التفقد للدين والتحرز من القول على الله لغير الحق . فلا يعجل ، ويتثبت ولا يجترئ ويتجنب ولا يقبل ولا يعتقد ما يستحسنه قلبه وزين فى عقله إلا من كتاب أو سنة أو ما اجتمعت عليه الأمة ، أو تأويل فيما اختلف فيه شبه للكتاب والسنة والاجماع أو قياس مساو لذلك إذا كان ممن يجوز له القياس والنظر ، وإن لم يكن ممن له أن يقيس ولا ينظر سأل العلماء ونظر فى أقوالهم وإلى ما ذهبوا إليه ، وإن كان ممن لا يحسن أن ينظر ويميز من الذين لا يعرفون حلالا من حرام ، ولا يحسنون التمييز لضعف عقولهم ، فليس على أولئك إلا التقليد للعلماء ، إذا سألوهم عند الحاجة ، وذلك كالأعجمى وبعض النساء ممن لا يحسنون التمييز ، وإن كان من المتشابه الذى وجب على المؤمنين الإيمان به ، ووكل علمه إلى الله ، عز وجل ، وقف وعلم أنه ليس له تأويله ، وبذلك وصف الله عز وجل ، الراسخين فى العلم بالإيمان به ، وترك تأويله ، وذلك فيما لا يجب على العباد فيه حكم يعملون به ، فهذا ما ينفى عنك العجب بالرأى الخطأ ، حتى لا تعجب إن شاء الله بخطأ فى دين الله – عز وجل – من غلط تأويل ولا قياس .

قلت : فالعمل الذى لم يمن به على كيف العجب فيه .

قال : الاتكال على قوتك وصبرك لما جربت من نفسك ونسيانك انتظار منة الله – عز وجل – بذلك .

وقد روى الأحنف بن قيس عن النبى : صلى الله عليه وسلم ، أن داود عليه السلام ، قال : يا رب إن بنى إسرائيل يسألونك بابرهيم واسحاق ، ويعقوب ، قال ابن عباس فى هذا الحديث : إن داود – صلى الله عليه وسلم – حدث نفسه أنه إن ابتلى يستعصم .

وقال محمد بن كعب والمقبرى فى هذا الحديث :

« إن الله ، عز وجل ، قال : إنى ابتليتهم فصبروا ، قال : يا رب وأنت إن ابتليتنى صبرت ، قال : أما إنى ابتليتهم ولم أخبرهم بأى شىء ابتليتهم ، ولا فى أى شهر ولا فى أى يوم ، وأنا مخبرك فى سنتك فى شهرك هذا ، ولكن داود لم يصبر على الابتلاء ، فاحرز نفسك » :



ثلاث مسرحيات للوبى دى ڤيجا

بقلم
الدكتور محمود على مكى

مسرح لوبى دى فيجا

يعتبر لوبى دى فيجا أعظم أعلام المسرح الإسبانى على الإطلاق ، وهو فى إسبانيا والعالم الناطق بالإسبانية بمثابة شيكسبير فى الأدب الإنجليزى ، وما زالت رواياته تمثل حتى اليوم على مسارح البلاد التى تستخدم اللغة الإسبانية دون أن يفقدها الزمن غضارتها وجدتها . على أن مسرح لوبى دى فيجا لم يقدر له فى العالم الخارجى ما قدر لمسرح شيكسبير من ذيوع وشهرة ، ولكن ذلك راجع إلى طبيعة كل من المسرحين ، فالإنجليزى أكثر اهتماماً بالنوازع النفسية إذ أن ميدانه هو الإنسان وسلوكه وأعماله مما هو مشترك بين سائر الأمم والمجتمعات ، أما مسرح لوبى فانه إسبانى خالص قبل كل شىء ، هو مسرح وطنى تتمثل فيه حياة إسبانيا لا فى عصره فقط ، بل إنه يعكس لنا حياة هذه الأمة منذ العصر الرومانى حتى وقت المؤلف ، وليس معنى ذلك أن مسرح لوبى دى فيجا خال من تلك الشخصيات التى تعتبر نماذج بشرية عامة ، غير أنه وسمها دائماً بسمة بلاده الخاصة بحيث لم يكن من السهل فهمها وتمثلها إلا فى نطاق بيئتها .

عصر لوبى دى فيجا

وقد كان لوبى صورة صادقة لإسبانيا فى عصره ، وربما كان مسرحه جامعاً للقيم الفنية والأدبية فى ذلك العصر الذى اصطلح على تسميته بالعصر الذهبى El Siglo de Oro للأمة الإسبانية ، وهو فى فنه المسرحى يعتبر نظيراً وقريناً لأديب آخر عبقرى هو ميجيل دى ثيرفانتيس سافدرا Miguel de Cervantes Saavedra صاحب تلك الرواية الخالدة التى تعد أشهر أثر أدبى إسبانى على الإطلاق : « دون كيخوتى دى لامانتشا » ، وهى التى تمثل مع مسرح لوبى الروح الإسبانية خير تمثيل .

أما هذا الذى يطلق عليه اسم « العصر الذهبى » فى إسبانيا فانه هو الذى يوافق أوج الإمبراطورية الإسبانية خلال القرن السادس عشر ، ثم بدء اختلال هـــذه الدولة فى أواخر هذا القرن والقرن التالى كله ؛ وإذا كانت إسبانيا قد ظهرت فى خلال الفترة الأولى من حكم الأسرة المعروفة باسم « أسرة النمســـويين » Casa de Austria باعتبارها الدولة الأوربية الأولى من الناحيتين السياسية والعسكرية ، فان اصطلاح « العصر

الذهبي » ينبغي ألا تخدعنا ، فان هذه العظمة التي أتيحت لإسبانيا كانت تحمل في طياتها عناصر الانحلال ، وهكذا لم يكد القرن السابع عشر يستهل حتى كانت إسبانيا في تراجع وتخلف مطرد لم يزل يشتد طوال القرنين التاليين ، ولعل ذلك العصر الذي هو موضوع حديثنا لم يكن « ذهبياً » حقيقة إلا في الفنون والأدب : هو عصر ثيرفانتيس أكبر روائي عرفته إسبانيا ، وعصر لوبي دي فيجا وكالديرون Calderon وتيرســو دي مولينا Tirso de Molina عباقرة المسرح ، وعصر بيروجيتي Berruguete وجريجوريو فرنانديث Gregorio Fernandez مثالي إسبانيا الشهيرين ، وعصر خوسيه دي ريبيرا José de Ribera وموريليو Murillo وثورباران Zurbaran وفيلاثكث Velazquez أمراء فن التصوير .

وقد كانت بداية هذه النهضة الإسبانية الهائلة التي كان لها في أول الأمر ظاهر سياسي وعسكري يوحي بالقوة وإن كان ينطوي على مبادئ الانحلال هي استيلاء الملكين الكاثوليكيين فرناندو وايزابيل على غرناطة آخر معاقل الإسلام في الأندلس في سنة ١٤٩٢ ، وهكذا اختتم آخر فصل من فصول التاريخ الإسلامي في هذه البلاد بعد صراع طويل استمر خلال نحو ثمانية قرون وبعد أن قدم العرب والمسلمون لإسبانيا ولأوربا عن طريق الأندلس خلاصة تجربة حضارية تركت على أرض شبه الجزيرة آثاراً عميقة لم تندثر معالمها حتى الآن

غير أن هذا الاحتكاك الديني الطويل بين الإسلام والمسيحية على أرض إسبانيا أوهم ساسة هذه البلاد وقادة الكنيسة فيها بأن عظمة إسبانيا لن تبدأ إلا من حيث تنتهي سيادة المسلمين في البلاد ، وعلى ضوء هــذا الاعتقاد ينبغي أن نفهم تاريخ إسبانيا الحديث ، فقد كان القضاء على غرناطة الإسلامية موحياً باتمام الوحدة الدينية وبانتهاء تلك الحرب الطويلة التي دارت على أرض الأندلس قروناً طويلة . ومن هنا كانت سنة ١٤٩٢ من السنوات الحاسمة ذات المدلول العميق في التاريخ الإسباني . لا سيما وأنه وقع في نفس السنة حدثان لا يقلان خطراً عما يعنيه التخلص من آخر ملاذ للإسلام في أرض شبه الجزيرة . أولهما طرد اليهود من إسبانيا ، وبهذا بدا لإسبانيا المسيحية أنها قد استكملت عناصر وحدتها الدينية . ثم كشف أمريكا بعد أن وصلت سفن كريستوفر كولمبس إلى العالم الجديد في ١٢ أكتوبر سنة ١٤٩٢ .

وقد بدا لإسبانيا المسيحية بالفعل منذ هذه السنة أنها مقبلة على عصر من العظمة لم تشهده أبداً من قبل ، وأكدت هذه العقيدة سلسلة من الانتصارات المتوالية قفزت باسبانيا إلى مكان الصدارة في أوربا خلال سنوات قليلة . ففي سنة ١٥٠٤ غزت الأساطيل الإسبانية إيطاليا فاحتلت مملكة نابلي وجزيرة صقلية أي نحو نصف إيطاليا الجنوبي . ثم بدأ تطلع إسبانيا إلى شمال إفريقيا . ففي سنة ١٤٩٧ احتلت مليلة ، ثم المرسى الكبير سنة ١٥٠٥ ووهران سنة ١٥٠٩ . وفي السنة التالية وصلت أساطيل إسبانيا إلى بجاية وطرابلس . وتأكدت سيطرة إسبانيا على جزر كنارياس .

وفي سنة ١٥١٢ استكملت إسبانيا وحدتها الجغرافية السياسية باحتلال إمارة نبرة الواقعة على الحدود بين فرنسا وإسبانيا . وكان ذلك هو آخر خطوة في توحيد إسبانيا كلها بصورتها الراهنة بعد أن اتحد عرشا مملكتي قشتالة وأرغون بالزواج المعقود بين ايزابيل وفرناندو ، وبعد أن تم الاستيلاء على مملكة غرناطة .

ولا تمضي على ذلك سنوات حتى يتسع نطاق السياسة الأوربية الإسبانية منذ أن يلي عرش إسبانيا حفيد الملكين الكاثوليكيين كارلوس الأول (المعروف باسم شارلكان أو شارل الخامس) في سنة ١٥١٧ ، وفي عهد هذا الملك وصلت الإمبراطورية الإسبانية إلى حد بعيد من الاتســاع ، إذ كان ثمرة زواج ابنــة الملكين الكاثوليكيين بالأمــير النمسوي الأرشيدوق فيليب

المعروف بلقب الجميل ، وهكذا ورث عن أبويه ملك إسبانيا ومستعمراتها الجديدة فى أمريكا بالإضافة إلى عرش النمسا والإمبراطورية الألمانية والبلاد الواطئة وممتلكات أسرة بورجونى وجنوب إيطاليا وصقلية وسردانية .

واستمر حكم كارلوس الأول حتى سنة ١٥٥٦ ، وزادت الإمبراطورية الإسبانية فى عهده اتساعاً بعد فتح المكسيك (١٥١٩ — ١٥٢١) وبيرو وشيلى (١٥٣١ — ١٥٤١) والاستيلاء على تونس (١٥٣٥) ، وبعد أن هزمت الجيوش الإسبانية ملك فرنسا فرانسوا الأول فى معركة بافيا (١٥٢٥) . وهكذا نرى أن إسبانيا لم تلبث أن صارت صاحبة الكلمة الأولى فى أوربا .

وظل الأمر كذلك خلال الشطر الأكبر من حكم خلف كارلوس الأول وابنه فيليب الثانى (١٥٥٦ — ١٥٩٨) ، وكان من أبرز ما تم فى عصره القضاء على ثورة الموريسكيين من بقية المسلمين فى جبال غرناطة بين سنتى ١٥٦٨ و ١٥٧٠ ثم الانتصار على الأسطول العثمانى فى موقعة ليبانتو Lepanto البحرية فى سنة ١٥٧٠ ، وأخيراً ضم البرتغال وممتلكاتها فى أمريكا (البرازيل) وأفريقيا إلى التاج الإسبانى (١٥٨٠) . فضلا عن فرض سيطرة إسبانيا على جزر الفيلبين (١٥٨١) وغيرها من جزر المحيط الهادى . وهكذا نرى الإمبراطورية الإسبانية تبلغ أوج اتساعها وقوتها ، وتصبح أعظم قوة سياسية فى القارة الأوربية . غير أن إسبانيا لم تنعم بذلك طويلا ، إذ كان من المفارقات أن عصر فيليب الثانى نفسه هو الذى بدأ فيه انحلال إسبانيا ولا سيا منذ أن استطاعت بريطانيا تحطيم الأسطول الإسبانى المشهور المعروف باسم « الأسطول القاهر » La Armada Invencible (الأرمادا) فى سنة ١٥٨٨ . وبهذا تبدأ قوة إسبانيا العسكرية فى الاضمحلال ويستمر ذلك طوال القرن السابع عشر ، وبصورة خاصة حينما يبدأ طرد المسلمين الموريسكيين فى سنة ١٦٠٩ .

وكانت العصبية الدينية هى التى حملت ملوك إسبانيا على اتخاذ هذا الإجراء ، ولكنهم لم يفطنوا إلى مدى ما قدر أن يصيب إسبانيا من جراء طرد هذه المجموعات الكبيرة من سكان البلاد . ويقدر المؤرخون عدد هؤلاء بأكثر من نصف مليون ، ولا شك فى أن هذا العدد أقل بكثير من الحقيقى . وقد أدى هذا إلى حرمان إسبانيا من عنصر كان من أكثر عناصر أهلها نشاطاً وخبرة . إذ كان هؤلاء المسلمون هم الذين يضطلعون بوجوه النشاط الحيوى من زراعة وتجارة وصناعة . ولهذا فاننا لا نلبث أن نرى أوضاع إسبانيا الاقتصادية تتدهور تدهوراً سريعاً . ورافق ذلك سلسلة من الكوارث السياسية والعسكرية تعاقبت خلال حكم فيليب الثالث (١٥٩٨ — ١٦٢١) وفيليب الرابع (١٦٢١ — ١٦٦٥) وكارلوس الثانى (١٦٦٥ — ١٧٠٠) ، نذكر منها الحروب المستمرة مع فرنسا وإنجلترا ، واستقلال هولندا وانفصالها عن الإمبراطورية الإسبانية (سنة ١٦٤٨) ثم انفصال البرتغال بدورها (سنة ١٦٦٥) . ولا ينتهى القرن السابع عشر ويبدأ فى إسبانيا حكم أسرة البوربون حتى تكون إسبانيا قد فقدت مكانتها باعتبارها الدولة الأوربية الأولى ، وتصبح فرنسا هى وريثتها فى هذا الميدان .

حاولنا فى الصفحات السابقة أن نوضح الخطوط العامة للعصر الذى عاش فيه لوبى دى فيجا . إذ أن أديب إسبانيا المسرحى الأول لم يكن بمعزل عن أحداث هذا العصر ، بل شارك فيه وصوره وكان مسرحه تعبيراً صادقاً له ، وإن كانت أمثال هذه العبقريات الخارقة للطبيعة لا يسهل إخضاعها لمقتضيات الأحوال السياسية والاجتماعية أو قياسها بهذا المقياس الضيق المحدود .

المسرح الاسبانى قبل لوبى دى فيجا

يمكن أن نقول إنه لم يكن هناك مسرح بمعنى الكلمة فى إسبانيا قبل لوبى دى فيجا ، وإنما كانت هناك

محاولات يتفاوت نصيبها من التوفيق . وأول ما نعرفه من صور الأدب المسرحى فى القرن الخامس عشر هو بعض التمثيليات ذات الطابع الدينى أو اللاهوتى كل منها من فصل واحد ، وكانت هذه التمثيليات تعالج ما من شأنه أن يلهب الروح الدينية فى ذلك العصر الذى كان الصراع فيه بين الإسلام والمسيحية يوشك على أن يتقرر مصيره الحاسم . فكانت الموضوعات التى يطرقها المؤلفون – وأغلبهم من رجال الكنيسة – تتناول السيد المسيح وحياته وآلامه وعن حيوات القديسين والقديسات ومواضيع اللاهوت التى تجسد فيها المعانى الروحية والقيم العقيدية والأسرار الصوفية ، فنحن نجد من شخصيات هذا المسرح اللاهوتى : الأبد والحب والفضيلة والشرف والخطيئة والإرادة والشر والشيطان والموت .

ولعل أول من أخرج المسرح من رحاب الكنيسة إلى الشارع هو الراهب الشاعر الموسيقى خوان دى لا إنثينا Juan de la Encina (١٤٦٨ – ١٥٢٩) وكان أديباً موسيقياً يعمل فى بطانة أحد النبلاء الإسبانيين ثم انخرط فى سلك الرهبنة فكان راعياً لكنيسة مالقة ، ثم ارتقى فى السلك الكنسى حتى أصبح أسقفاً لمدينة ليون ، ولم تمنعه ثقافته الدينية من معالجة الشعر الغنائى والمسرح الشعبى ، وإن كانت مسرحياته بسيطة فى الشخصيات والحوار ، وعلى كل حال فهو يعتبر أول من ألف تمثيليات ذات موضوعات شعبية عادية بعد أن كان المسرح الإسبانى البدائى مرتبطاً بالدين والكنيسة ، وهذا هو ما جعل مؤرخى الأدب الإسبانى يطلقون عليه لقب « أبا المسرح الإسبانى » .

ومن المسرحيات التى ترجع كذلك إلى ذلك العصر تمثيلية « لاثلستينا » La celestina (القوادة) التى تنسب إلى طالب كان يدرس فى جامعة سلمنقة هو فرناندو دى روخاس Fernando de Rojas ، وقد كتبت هذه المسرحية فى سنة ١٤٩٧ ، ويبدو عليها الطابع البدائى ، إذ هى أشبه بقصة طويلة أكثرها حوار ، وهى تتألف من واحد وعشرين فصلا ، وكان ذلك مما جعلها غير صالحة لأن تمثل على خشبة المسرح بصورتها الراهنة ، ولكنها مع ذلك تعد خطوة طيبة فى السبيل التى سلكها المسرح الإسبانى حتى بلوغه مرحلة النضج .

وممن يستحقون الذكر من بين هذا الرعيل الأول من المؤلفين الإسبان الإشبيلى لوبى دى رويدا Lope de Rueda الذى ولد فى أوائل القرن السادس عشر وتوفى سنة ١٥٦٥ ، وكان صاحب فرقة مسرحية يجوب بها مدن إسبانيا ، وقد أثنى ثيرفانتيس على مسرحه ثناء عظيما ، وكان متأثراً فى فنه بما كانت تقدمه الفرق المسرحية الإيطالية التى كانت تضطرب فى جنبات إسبانيا فى ذلك الوقت . والمؤلف الثانى الذى يعتبر مبشراً بلوبى دى فيجا هو خوان دى لاكويفا Juan de la Cueva (١٥٥٠ – ١٦١٠) وكان على عكس سابقه يعمل على تجنب الموضوعات الهزلية والشعبية ويحاول أن يخلق مسرحاً أكثر جداً وقيمة أدبية ، إذ كان يستلهم تمثيلياته من المسرح الإغريقى ومن التاريخ الوسيط والمعاصر ، ولعل أهم ما برز فيه هذا المؤلف هو ما استوحى مادته من المدونات التاريخية والأشعار الملحمية المرتبطة بتاريخ إسبانيا والتى كانت تتناقل شفاها جيلا بعد جيل[1] .

لوبى دى فيجا : حياته

إذا كان مؤرخو الأدب الإسبانى قد وفقوا فى السنوات الأخيرة إلى معرفة الكثير عن هذا الشاعر العبقرى خالق المسرح الإسبانى فان فى حياته وجوانب شخصيته أركاناً ما زالت تستحق مزيداً من الدراسة والتحليل . فالواقع أن لوبى دى فيجا يعتبر « حالة

(١) انظر دراستنا عن « المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر » – فى « المجلة » ، العدد ١٦ ، أبريل سنة ١٩٥٨ ص ٤١–٥١

نفسية » كثيرة التعقيد متشابكة الأطراف شأنه فى ذلك كشأن الكثيرين من عباقرة الفكر والفن والأدب ، وقد كان نشر مجموعة كبيرة من « رسائل » لوبى الخاصة فى السنوات الأخيرة مما أعان على فهم كثير من هـــذه النواحى الغامضة من شخصيته ونفسيته [1] ، كما أننا نجد فى ثنايا مؤلفاته الغنائية والقصصية والمسرحية إشارات كثيرة إلى نفسه وإلى تفاصيل حياته ، ولو جمعت كل تلك التفاصيل ودرست دراسة علمية فاحصة بالإضافة إلى رسائله ومكاتباته فانه من الممكن أن يكون كل ذلك أساساً لبحث مستفيض تحلل فيه نفسية هذا الأديب العبقرى ويصلح مدخلا إلى دراسة فنه .

ولد لوبى فيلكس دى فيجا إى كاربيو Lope Felix de Vega Carpio فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٥٦٢ فى مدريد من أبوين أصلهما من قرية قريبة من مدينة سانتا ندير Santander (فى شمال إسبانيا على البحر الكنتبرى) . وكان من أسرة متواضعة مغمورة تنتمى إلى عامة الشعب فى ذلك العصر الذى كان التباين الطبقى فيه من أسس الحياة الاجتماعية . وكان والد لوبى حائكاً فقيراً لم يكن لديه من سعة المال ما يعلم به أبناءه ، ويذكر لوبى دى فيجا نفسه أن أخته إيزابيل كانت أمية لا تعرف حتى مجرد التوقيع باسمها .

ويشير لوبى فى بعض ما كتبه إلى حياة والده التى كانت مزيجاً من المغامرات العاطفية العنيفة والتدين العميق . فقد هرب من بلده سانتا ندير إلى مدريد بعد أن أغوى إحدى النساء واختطفها على ما يبدو ، غير أن زوجته أم لوبى : فرانسسكا فرنانديث فلورس Francisca Fernandez Flores لم تلبث أن لحقت به وتمكنت من استنقاذه من بين ذراعى خليلته . كذلك نعرف من حياة والد لوبى دى فيجا أنه كان على كثرة مغامراته الغرامية وولوعه بالنساء كثيراً ما تنتابه نزعات متدينة صوفية يحاول فيها التكفير عن خطاياه فيعود المرضى ويكثر من التصدق ويسلك حياة التبتل والزهد .

ونحن نعرف من بين أفراد أسرة لوبى عمه ميجيل دل كاربيو Miguel del Carpio الذى كان أحد قضاة محكمة التحقيق La Inquisicion ويذكر عنه أنه كان من أكثر هؤلاء تعصباً وصرامة وقسوة ، حتى إنه كان مضرب المثل فى ذلك .

وإذا كان حقاً ما يذكر من قوانين الوراثة فاننا نجد فى أسرة لوبى دى فيجا التى انحدر منها كثيراً من الخصائص التى ميزت حياته . فنحن نرى فى أصله المتواضع الفقير ما يفسر لنا نزوعه إلى الشعبية وكراهيته للنبلاء وللطبقات الممتازة المتعجرفة ، ونرى فى حياة أبيه من التذبذب بين اللهو والولوع بالنساء وحياة الزهد والعبادة ما سنراه بعد ذلك لدى لوبى دى فيجا نفسه من ذلك فى صورة أجلى وأكثر تناقضاً ، وأخيراً نجد عنده ما نلاحظه عند عمه من العصبية الدينية والبعد عن التســامح .

ولسنا نعرف الكثير عن طفولة لوبى دى فيجا ، غير أننا نعلم أنه أخذ العلم فى صباه فى أحد معاهد اليسوعيين ، وأنه وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره هرب مع صبى صديق له إلى شقوبية Segovia لسبب لا نعرفه ، غير أن ذلك يدل على ما كانت تتميز به شخصية لوبى منذ صغره من نزعة إلى التمرد والانطلاق . كذلك نعرف من أخباره فى صباه المبكر أنه قام فى هذه السنوات المبكرة بترجمة قصيدة الشاعر كلاوديانو عن « اختطاف بروسربينا » De raptu Proserpinae من اللاتينية إلى الإسبانية ، وكانت هذه الترجمة الشعرية باكورة إنتاجه الأدبى .

---

(١) مثل المجموعة التى نشرها جونثالث دى أميثوا ومهد لها بدراسة قيمة بعنوان : « لوبى دى فيجا من خلال رسائله » — فى أربعة أجزاء .

A. Gonzalez de Amezua : Lope de Vega en sus cartas, Madrid, 1935–43.

ولم يلبث لوبى أن التحق بخدمة أسقف مدينة أبلة. ثم التحق بجامعة ألكلا دى إينارس Alcala de Henares (وهى بلدة قريبة من مدريد كانت تدعى فى أيام المسلمين قلعة عبد السلام). وذلك فى سنة ١٥٧٦ على وجه التقريب. ثم استكمل دراسته فى جامعة سلمنقة Salamanca بين سنتى ١٥٨٠ و ١٥٨١.

ولم يكد لوبى يجاوز سن البلوغ حتى بدت ميوله إلى النساء. وبدأ فى خوض مغامرات غرامية لم تنته إلا قبل موته بقليل. فنحن نعرف أنه وهو فى السابعة عشرة من عمره قد عشق امرأة متزوجة هى إيلينا أوسوريو Elena Osorio زوجة أحد الممثلين. واستمرت صلته بهذه المرأة نحو خمس سنوات، وسجل لنا قصة غرامه هذه فى إحدى رواياته هى التى تحمل عنوان «لادوروتيا» La Dorotea.

غير أن المرأة اللعوب انصرفت عن لوبى وآثرت عليه رجلا آخر من أسرة نبيلة مما حمل لوبى على هجائها هى وأسرتها فى أبيات عنيفة جارحة. وكان من آثار ذلك أن لوبى قدم للمحاكمة بتهمة القذف. وحكم عليه فى ٧ فبراير ١٥٨٨ بالنفى من مدريد مدة ثمانية أعوام.

وفى ١٠ مايو ١٥٨٨ تزوج لوبى من إيزابيل دى أوربينا Isabel de Urbina التى كان قد اختطفها من قبل فى ٨ فبراير بعد خروجه من السجن. وكانت إيزابيل هذه ابنة أحد المثالين المشهورين وأخت حاكم مدريد. غير أنه لم يبق مع زوجته إلا أياماً قليلة، فقد عادت النزعة إلى المغامرة تلح على لوبى من جديد، فاذا به يتطوع فى الأسطول البحرى الأسبانى المعروف باسم «الأرمادا». ويذكرنا هذا بانخراط ميجيل دى ثيرفانتيس أديب إسبانيا الأكبر وصاحب رواية «دون كيخوتى» فى سلك الأسطول أيضاً واشتراكه فى موقعة ليبانتو البحرية ضد الأتراك. وأبحر لوبى دى فيجا من ميناء لشبونة فى ٢٩ مايو على ظهر المركب «سان خوان» تاركاً زوجته فى أشد حالات الحزن والقلق. غير أن مغامرة لوبى الحربية انتهت على نحو محزن يشبه ما انتهت به مغامرة مؤلف «دون كيخوتى» الخالد. وإذا كان هذا قد وقع فى الأسر فإننا نعرف أن «الأسطول القاهر» قد تحطم كله على أيدى البريطانيين فى سنة ١٥٨٨. وكانت تلك الكارثة مؤذنة بأفول الشمس عن الإمبراطورية الإسبانية التى لم تكن الشمس تغيب عنها. وعاد لوبى دى فيجا مثل آلاف غيره من الإسبان وقد استبد بهم القنوط واليأس.

واستقر المقام بأديبنا المغامر بعد عودته فى بلنسية إذ كان قرار نفيه من مدريد ما زال قائماً، وهناك قضى أياماً هادئة فى دفء منزله ومع زوجته وأبنائه. وانقطع لوبى فى تلك الفترة إلى الكتابة، إذ لم يكن لديه وسيلة أخرى لكسب العيش إلا حرفة الأدب: وهو يشير فى مسرحياته التى ألفها حينئذ إلى نفيه وبعده عن مدريد ثم التحق بخدمة الدوق أنتونيو ألفاريث دى توليدو Antonio Alvarez de Toledo فاشتغل كاتباً له: ورافقه فى رحلاته إلى طليطلة (١٥٩٠) ثم إلى ألبا دى تورميس Alba de Tormes. وفى هذه البلدة توفيت زوجته إيزابيل سنة ١٥٩٥، فبكاها فى قصائد مؤثرة أشار فيها إلى وفائه لها وحبه اياها، ثم لم تلبث بنتاه منها أنتونيا Antonia وتيودورا Teodora أن لحقتا بأمهما بعد قليل.

ومع ذلك فان إخلاصه لذكرى زوجته المتوفاة لم يدم طويلا. إذ نعرف أنه تعرض للمحاكمة بتهمة علاقات غير شرعية بامرأة متزوجة هى أنتونيا تريليو دى آرمنتا Antonia Trillo de Armenta (سنة ١٥٩٦)، ولم يكتف بذلك، بل إلى هذه الفترة ترجع أيضاً صلته بممثلة جميلة متزوجة هى كاميلا لوثيندا Camila Lucinda وكانت زوجة ممثل مغمور رحل إلى بعض المستعمرات الإسبانية فى أمريكا وكان قد أحب هذه المرأة حباً عنيفاً مضطرماً، وعاشت

معه فى طليطلة ثم فى إشبيلية حيث استقر بعد ذلك ، وأنجب منها سبعة أبناء .

وفى سنة ١٥٩٨ تزوج لوبى دى فيجا من جديد . وكانت امرأته هذه المرة خوانا جواردو Juana Guardo ابنة تاجر غنى كان متعهداً بتوريد اللحم والسمك إلى القصر الملكى . وسخر أعداء لوبى من هذا الزواج وتندروا به . إذ اعتبروه صفقة رابحة لم يسع فيها إلا من أجل ثروة زوجته . وعاش لوبى مع زوجته فى طليطلة ثم انتقل إلى مدريد حيث استقر بها منذ سنة ١٦١٠ ، وإن كان بين وقت وآخر يعود إلى طليطلة وأشبيلية حيث يعيش فترات مع خليلته الممثلة كاميلا لوثيندا .

وفى سنة ١٦١٣ توفيت زوجته الثانية خوانا جواردو . فعادت حياته إلى الاضطراب من جديد . فانتقل فترة إلى طليطلة حيث عاود مغامراته الغرامية بينما كان يفكر فى الانخراط فى سلك الرهبنة . وهو ما حدث فعلا فى سنة ١٦١٤ حين غير لوبى منهاج حياته أو هكذا كان يبدو . إذ أصبح قسيساً منقطعاً إلى حياة التبتل والرهبنة . والواقع أن لوبى كان مخلصاً فى رغبته هذه ، إذ كان يشعر بثقل خطاياه وكان يسعى إلى التحرر منها والانقطاع إلى حياة أخرى ينعم فيها بسكينة الروح .

غير أن لوبى كان ضعيفاً أمام نفسه الهوائية المتقلبة وعواطفه العنيفة المضطرمة . إذ لم يلبث وهو بأخرة من عمره أن وقع فى غرام جديد. فقد عشق امرأة أخرى هى مارتا دى نيفارس Marta de Nevares وكانت مثل النساء السابقات فى حياته متزوجة . وأحب لوبى هذه المرأة بكل جوارحه . وهو يصورها لنا تصويراً نرى منه كيف كان يعتبرها جماع كل ما فى المرأة من جمال وفضيلة . وعاش لوبى مع مارتا السنوات الأخيرة من حياته . وأنجب منها بنتاً هى أنتونيا كلارا Antonia Clara . غير أن القدر يعود فيلاحقه بأرزائه . فتصاب مارتا بالجنون ثم تفقد البصر . وتموت بعد ذلك فى سنة ١٦٣٢ وهى تناهز الأربعين سنة . وكأن الله أراد أن ينتقم من لوبى وهو على شفا قبره لمن أغوى من نساء . فيفجعه بابنته الحبيبة إلى قلبه أنتونيا كلارا . إذ يقيض لها فتى كان يخدم فى البلاط الملكى يدعى كريستوبال تينوريو Cristobal Tenorio . فلا يزال يغويها حتى يحملها على الهرب معه .

ويقضى لوبى سنواته الأخيرة فى داره فى مدريد وحيداً لا مؤنس له . منقطعاً إلى كتبه وإلى حديقته الصغيرة وإلى صلواته التى أراد أن يكفر بها عن حياة قلقة لم يستروح خلالها نفحات السكينة .

ويبدو أن النكبات المتوالية التى حلت بلوبى فى تلك السنوات هى التى عجلت بوفاته . فقضى نحبه فى ٢٧ أغسطس سنة ١٦٣٥ . وتنكر القدر للأديب العظيم حتى بعد موته . إذ أن الدوق دى سيسا الذى كان لوبى يعمل كاتباً له كان من الجحود والقسوة بحيث أبى أن يتولى نفقات الجنازة ودفن رفات لوبى بعد أن كان قد وعد بذلك . مما أدى إلى دفن جسده فى إحدى المقابر العامة حيث اختلطت برفات الكثيرين . وهكذا لم يعد أحد يعرف الآن مستقراً للموضع الذى دفن فيه أديب إسبانيا الخالد .

وقد تقلب لوبى دى فيجا خلال حياته فى وظائف الكتابة الخاصة لبعض النبلاء كان أولهم الدوق دى ألبا Duque de Alba (سنة ١٥٩٠) والكونت دى ليموس Conde de Lemos (١٥٩٨) . غير أن أهم شخصيات النبلاء الذين اتصل لوبى بهم هو الدوق دى سيسا Duque de Sessa . وكان لوبى يوليه حبه ويخلص فى خدمته إخلاصاً أشبه بالتذلل المقيت . ومع ذلك فقد كان الدوق دى سيسا هو الذى تنكر لذكرى صديقه بعد موته فأبى أن يتكفل بنفقات دفنه وجنازته . على أنه كان يوده ويقربه فى حياته . وكان من مظاهر ذلك أنه منحه ضيعتين فى قرطبة وفى أبلة كانتا تدران على الشاعر الأديب ما يقوم بأود حاجته .

مسرح لوبى دى فيجا

ربما لم يعرف تاريخ الأدب الأسبانى ، بل الأدب العالمى كله أديباً له خصوبة لوبى دى فيجا ووفرة إنتاجه وكثرة الآثار الجيدة من هذا الإنتاج . وقد كان لوبى ناثراً شاعراً وإن كان الشعر أغلب على إنتاجه ، وتضيق هذه الصفحات عن تعداد عناوين مؤلفاته التى تناولت كل الألوان الأدبية المعروفة فى عصره ، فقد عالج الرواية الطويلة والقصة القصيرة وكتب فى التاريخ والزهد ، أما الشعر فاننا نراه كذلك قد استخدمه فى الأدب الملحمى والقصصى والدينى والغنائى ؛ وربما كان لوبى هو أبرز الشعراء الغنائيين فى العصر الذهبى على الإطلاق . ولا يقاربه فى ذلك أحد من معاصريه .

أما آثاره المسرحية فاننا لا نعرف كاتباً فى العصور القديمة ولا الحديثة له مثل هذا العدد من المسرحيات . ويقدر مونتالبان الذى ترجم حياة لوبى عدد ما كتبه من مسرحيات بألف وثمانمائة ، وبنص لوبى نفسه على أنه كثيراً ما كان يكتب المسرحية الواحدة فى أربع وعشرين ساعة . صحيح أن هذه المسرحيات ليست فى مستوى واحد من الجودة ، ومع ذلك فانه ليس من بينها ما يمكن أن يعتبر رديئاً ، بل إن كثيراً منها تعتبر من أجمل نماذج المسرح العالمى .

وقد عالج مسرح لوبى كل ما يمكن أن يسعه التفكير من موضوعات : ففيه المسرحيات الدينية التى كانت تتألف كل منها من فصل واحد وتدور حول المسيح وآلامه أو الأسرار اللاهوتية والميتافيزيقية ، والمحاورات الفلسفية . وتدخل فى هذا الباب مسرحيات مستوحاة من التوراة بعهديها القديم والجديد ، ومن حيوات القديسين والقديسات أو الأساطير الدينية . ومن مسرحياته ما هو مستمد من الميثولوجيا الإغريقية القديمة ، ثم نجد جانباً كبيراً من أعماله يدور حول موضوعات تاريخية ، ولا يكاد يند عن مسرح لوبى التاريخى عصر من العصور ، إذ نجد فيه ما كتب عن العصر الرومانى وعن التاريخ القديم سواء فى إسبانيا أو فى بلاد أخرى ، وأما العصور الوسطى فللوبى عشرات من المسرحيات تتبع فيها تاريخ إسبانيا منذالعصر القوطى حتى أيامه ، وصور فيها حياة إسبانيا بمختلف ممالكها المسيحية والإسلامية على السواء .

ولم يخل مسرح لوبى من آثار ترك فيها الحقيقة إلى الخيال والتاريخ إلى الأسطورة ، وجنح به خياله الخصب إلى الخوض فى كل موضوع . نجد منها ما عالج به القصص المتداولة بين الرعاة ، وقصص الفروسية ، ومسرحيات استلهم فيها الأدب القصصى السائد فى إسبانيا خلال العصور الوسطى ، منها ما هو مأخوذ من مجموعات عربية مثل « ألف ليلة وليلة » ومنها ما هو مستوحى من القصص الإيطالية التى كان لها ذيوعها فى إسبانيا بحكم خضوع إيطاليا فى ذلك الوقت للإمبراطورية الإسبانية ، وأهم هذه القصص هى التى كتبها بوكاتشو Boccaccio وبانديلو Bandello وجيرالدى تشنتيو Giraldi Cinthio ، هذا فضلا عن القصص الإسبانية الأصيلة .

وهناك جزء كبير من مسرح لوبى يمكن أن نطلق عليه المسرح الاجتماعى وهو يصور لنا المجتمع الإسبانى فى ذلك الوقت تصويراً رائعاً ، وهو فى ذلك لا يكاد يعزب عنه شىء ، نجد فيه حياة الملوك والنبلاء فى قصورهم والمزارعين فى حقولهم وقطاع الطرق والغجر والطبقات الوسطى ورجال الكنيسة .

كل شىء كان يستطيع قلم لوبى السحرى أن يحوله إلى مسرح ؛ وكل شخصية تخطر على البال مهما كبرت أو صغرت كانت صالحة لكى تحتل مكانها من أدبه . وإن القارئ لمسرح لوبى ليعجب لهذا العدد الهائل من الشخصيات التى رسمها فى براعة ودقة لكل أنواع النماذج البشرية أو الخيالية : الآلهة الوثنين والأبطال الأسطوريين والأنبياء والقديسين والرموز والأشباح ،

والملوك ، والنبلاء ، والجنود والبحارة والطلبة والمتسولين وأهل الشطارة ، واللصوص وقطاع الطرق والأميرات وسيدات المجتمع الراقى والخادمات والقوادات ، والعاهرات .

وأهم ما يميز مسرح لوبى دى فيجا هو الطابع الشعبى الغالب عليه ، فهو مسرح « جماهيرى » بمعنى الكلمة ، غير أنه ينبغى ألا نفهم من ذلك أنه مسرح يهدف إلى إرضاء الجمهور على حساب الفن ، بل هو موجه لإرضاء الجميع ، يجد فيه ذوو الثقافة الراسخة والذوق الناضج ما يشبع فضولهم ، ويخلب ألباب الجمهور العادى بما فيه من حركة وإثارة . هو من هذه الناحية مثل مسرح شيكسبير ، ووجه العبقرية فى هذين المؤلفين أنهما عرفا كيف يقدمان أدباً يأخذ منه القارئ أو المتفرج ما يرضيه مهما كانت ثقافته ومستواه . وإن كان هناك فرق واضح بينهما هو أن شيكسبير كان يهتم بالنوازع النفسية وهى قدر مشترك بين الناس جميعاً ، بينما كان مسرح لوبى وطنياً إسبانياً قبل كل شىء ، وهذا هو ما جعل لشيكسبير عالمية أوسع وأبعد مدى مما كان لهذا الأديب الإسبانى الكبير .

وقد كان لوبى كما ذكرنا من أسرة متواضعة فقيرة ، ولعل هذاهو ما جعله خير مترجم لروح الشعب نفسه ، ونحن نرى فى كثير من أعماله تصويراً لتفكير الطبقات الشعبية وإحساسها ولا سيما فى علاقاتها بطبقة النبلاء الإقطاعية المتعجرفة ، كذلك نجد فيه صورة لإسبانيا المسيحية المتعصبة التى كانت تعتبر نفسها حامية للكاثوليكية مجاهدة فى سبيلها . وإن كنا نرى مع ذلك صوراً للمسلمين الموريسكيين تستثير الإعجاب والتقدير وهذا وإن بدا من المفارقات أمر طبيعى منطقى ، فقد كان الموريسكيون الإسبان الذين احتفظوا بديانتهم حتى عصر لوبى من أهم عناصر المجتمع وأكثرها نشاطاً وفاعلية وكان كثير من الإسبان المسيحيين يكنون لهم مودة وعطفاً على الرغم من عصبية الكنيسة والحكومة .

أما اليهود فقد رسم لهم لوبى صورة منفرة تثير الاشمئزاز وهى بدورها ليست إلا تعبيراً عن شعور الشعب الإسبانى كله نحو هذه الطائفة التى طالما تآمرت على الأندلس الإسلامية وإسبانيا المسيحية على السواء . ومن مظاهر هذه الروح الشعبية فى مسرح لوبى كثرة ما يرد فيه من أغان ومقطوعات كانت مما يتردد على ألسنة الناس على مختلف طبقاتهم . وهذا هو ما جعل لمسرحه طابعاً غنائياً واضحاً ولا سيما حينما ينساب إلى شاعريته .

ولعل أعظم ميزة لمسرح لوبى دى فيجا هى التنوع الذى لا يعرف الحدود ولا الخضوع لقالب معين . وإذا كان المسرح بعد تطوره قد تحددت مذاهبه وأصبحنا نعرف الكتاب المسرحيين ونقوم خصائصهم سالكين إياهم فى مدارس وطوائف . فان لوبى دى فيجا يستعصى على ذلك ، فنحن نجد فى رواياته كل ما ستأتى لنا به المدارس المسرحية التالية لعصره حتى اليوم : فيه الاتباعية والابتداعية وفيه العاطفية الحالمة . والواقعية المتطرفة ، وفيه الحركة المتوثبة والتفكير الفلسفى الهادئ . . . بل إن من الغريب أن نرى لوبى مع هذا الإنتاج الهائل الذى لا نعرفه توفر لأديب مسرحى آخر — لم يعمد إلى نقل إحدى مسرحياته من مسرحية أخرى كما يفعل كثير من المؤلفين عفواً أو عمداً ، فهو لا يكرر أبداً . وكل ما كان يأتى به جديد يختلف عما سبقت له كتابته .

وهذا هو ماجعل لوبى دى فيجا يعتبر « أمة وحده » فالمسرح من قبله كان فى بدايته الأولى المتعثرة . وكان من المنتظر أن يمر وقت طويل حتى يكتمل نضجه ، ولكن لوبى كان فى تاريخ المسرح الإسبانى « حالة » استثنائية غريبة لا تستقيم مع سنن التطور أو النمو ، إذ نرى فيه المسرح الإسبانى وقد اكتمل فجأة وبغير مقدمات ، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن إنتاجه سواء من ناحية الكم أو الكيف يعتبر كثيراً على عشرات من المؤلفين معاً . وقد كان معاصرو لوبى يشعرون بذلك ، وتكفينا

في تقدير هذا الأديب شهادة أديب إسبانيا الأكبر ثيرفانتيس الذى سماه « الأعجوبة الجامعة للعبقريات » El Fenix de los Ingenios و« المارد الخارق لنواميس الطبيعة » El Monstruo de la Naturaleza ، وما نظنه أبعد فى هذا الوصف ولا جنح إلى الإحالة .

وقد كان من الرسوم التى وضعها لوبى للمسرح الإسبانى واستقرت منذ ذلك حتى اليوم تقسيمه للعمل المسرحى إلى ثلاثة فصول ، وهو تقليد لم يكن معروفاً من قبل ، ولم ينقطع فى إسبانيا إلا فترات قصيرة تأثر فيها المسرح الإسبانى بالمسرح الفرنسى خلال القرن التاسع عشر[1].

---

(١) هناك طبعات كثيرة لمجموعات من مسرحيات لوبى دى فيجا بعضها تم فى عصر لوبى نفسه إما باذنه أو سطواً بغير علمه ، وفى هذه الطبعات كثير من التحريف والتشويه مما كان يدخله الممثلون أنفسهم على خشبة المسرح ، وهو أمر طالما شكا منه لوبى . وهناك مسرحيات أخرى ظلت مخطوطة فى مختلف مكتبات العالم حتى وقت قريب . وفى أواخر القرن التاسع عشر بدأ المجمع اللغوى الملكى فى مدريد فى إعداد طبعة جديدة لمسرح لوبى ما بين سنتى ١٨٩٠ و ١٩١٤ ، وقد نشرت هذه المجموعة التى لم تضم إلا مسرحياته المشهورة المتداولة فى خمسة عشر مجلداً ضخماً ، وقد اشتمل معظم هذه المجلدات (من الثانى إلى الثالث عشر) على دراسات تمهيدية لعالم إسبانيا الكبير منندث بيلايو Menendez Pelayo ، ولما كانت هذه الطبعة كما ذكرنا غير كاملة ولا مستوفية لكل آثار لوبى المسرحية فقد شرع المجمع اللغوى بعد ذلك فى طبع مجموعة أخرى للمسرحيات التى كانت أقل نصيباً من الشهرة والتداول أو التى لم تكن قد نشرت بعد أو التى كان مشكوكاً فى نسبتها إلى لوبى ثم أثبتت الأبحاث الحديثة صحة هذه النسبة ، وقد اضطلع بهذا العمل الناقد الأدبى إميليو كوتاريلو إى مورى Emilio Cotarelo y Mori فنشر فى هذه المجموعة ٢٥٨ مسرحية فى ثلاثة عشر مجلداً يبلغ عدد صفحات كل منها نحو ٧٠٠ من القطع الكبير وبحروف بالغة الصغر والدقة . ومع ذلك فقد تبين بعد ذلك أن هاتين المجموعتين لم تستقصيا مسرح لوبى كله ، فقام بتذييلها الباحث جونثالث دى أميثوا Gonzalez Amezua بمجموعة تحت عنوان « مسرحيات مخطوطة مجهولة للوبى دى فيجا » (مدريد سنة ١٩٤٥) . أما الدراسات والأبحاث حول لوبى فإنها ربما احتاجت إلى كتاب خاص لتعدادها ، ويكفى أن نشير إلى أن من أهمها ما كتبه منندث بيلايو والباحث الإسبانى المعاصر إنترامباساجواس Joaquin Entrambasaguas الذى تخصص فى دراسة لوبى وإنتاجه الأدبى .

مسرحية « بيريبا نيث وحاكم أوكانيا »

إذا وضعنا نصب أعيننا ذلك الإنتاج الهائل الذى خلفه لوبى دى فيجا والذى ضاع منه الكثير وإن كان ما بقى منه يملأ عشرات من المجلدات فانه يمكن للقارئ أن يقدر مدى الصعوبة فى التعريف حتى بمختارات قليلة من آثاره المسرحية المشهورة ، إذ أنها لن تمثل إلا جانباً محدوداً من إنتاجه ، غير أنه لا حيلة لنا فى ذلك ما دام المجال لا يسمح بأكثر منه .

ولعل من أجمل مسرحيات لوبى وأصدقهاتصويراً لفنه هذه التى وقع عليها اختيارنا ، وهى التى تحمل عنـــوان Peribanez y el comendador de Ocaña وهى مسرحية مستمدة من أغنية شعبية كانت متداولة فى الأندلس فى خلال أسطورة ربما كان لها أصل تاريخى :

ويرفع الستار فى الفصل الأول على منظر احتفال بزفاف ، فنرى العروسين اللذين كانا قد انتهيا تواً من عقد مراسم الزواج : بيريبانيث Peribanez وهو فلاح من أسرة متواضعة وإن كان ميسور الحال ، وكاسيلدا Casilda وهى كذلك فلاحة رائعة الجمال فيها بساطة الريفيات وشرفهن وكرم أخلاقهن . ويقدم لنا لوبى هنا لوحة فولكلورية رائعة تمثل لنا هؤلاء المزارعين البسطاء فى أفراحهم وحفلات زواجهم وما يتخللها من رقص وأغان شعبية ، وربما كانت تلك الأغنية التى يشترك فيها الموسيقيون وأهل قرية أوكانيا Ocaña من أجمل ما اشتمل عليه ذلك الفصل :

لترحب بالعروسين
شهر مايو المشرق
والمروج المرحة
والعيون والأنهار
ولترفع أشجار الحور
رؤوسها المتوجة بالخضرة

ولتحيهما أشجار اللوز
بثمارها الجديدة
وليشرع عليهما الفجر الضحوك
سيوفاً خضراء
قد عطرها ندى السحر
ملقياً عليهما نثيراً من أزهار السوسن

ويمضى الفلاحون فى غنائهم ورقصهم ويتوالى أهل القرية على بريبانيث وعروسه مهنئين إياهما ، فقد كان الرجل طيباً محبوباً من الجميع ، وبينما الكل منصرفون إلى شأنهم إذا بجلبة شديدة وأصوات استغاثة تقترب من المجتمعين ، ثم يقدم رسول يبلغهم بما حدث : أن حاكم قلعة أوكانيا كان فى حفلة من حفلات مصارعة الثيران قريباً من المكان الذى كان الفلاحون يحتفلون فيه بزواج صاحبهم بريبانيث ، وتعقب الحاكم ثوراً ضخماً ثم شرع فى الإلقاء عليه بأنشوطته ، ولكن الحبل نشب فى عنق جواده ، فألقى به إلى الأرض ، وهاجمه الثور فأصابه بجراحات شديدة . ولا تمضى لحظات حتى يأتى الرجال وقد حملوا الحاكم وهو فاقد الوعى . وتنفض حفلة الزفاف ويقوم بريبانيث وامرأته فى شهامة ومروءة بالعناية بأمر الحاكم ، وتسهر كاسيلدا على تمريضه ، غير أن الحاكم لا يكاد يتمالك نفسه حتى يستطير لبه وهو يرى جمال العروس ، فيشتهيها ، ويخاطب نفسه قائلا :

« أليس من سوء تصريف الأقدار

أن يكون هذا الجمال من نصيب فلاح جلف ؟ »

ويشفى الحاكم من جروحه بفضل عناية بريبانيث وكاسيلدا ، ويشكر الزوجين على ما لقيه لديهما من إكرام وحفاوة ويعدهما بالمكافأة الجزلة ، ثم يمضى وهو يسر رغبة عارمة فى إغواء امرأة ذلك الفلاح الذى لا يكن له — بحكم عنجهيته وعجرفته — إلا الاحتقار ، إذ لا يراه يصلح حتى ليكون واحـــداً من أتباعه وخدمه .

ونرى بعد ذلك بريبانيث وامرأته وحدهما فى محاورة بعد ذهاب حاكم أوكانيا . وتقول المرأة المحبة لزوجها الوفية له إن الحاكم وعد بمكافأتهما على حسن صنيعهما ، ولكنه يشعر بالغيرة ويتملكه شعور غامض بأن نزول الحاكم فى داره فأل غير طيب . ولكن الزوجة الودود تزيل مخاوفه ، ويدور بين الأثنين بعد ذلك حوار غزلى يتحدث فيه الاثنان عن حقوق الزوجين والتزاماتهما ، وهو حوار رقيق ربما كان من أجمل القطع الغنائية فى هذه المسرحية ، وقد عرف لوبى فيه بمقدرته وبراعته كيف يستثير إعجاب المتفرجين وعطفهما على هذين الزوجين المتحابين اللذين يعبران فى غير تعمل ولا افتعال عن هذه العاطفة بين رجل وامرأة ارتبطا برباط الزواج المقدس .

وننتقل فى المنظر التالى إلى قصر الحاكم حيث نسمعه وهو يحدث نفسه عن الفلاحة الجميلة التى استولت على قلبه ويعبر عن حسده لذلك « الجلف » الريفى الذى يتمتع بهذه المرأة ، ثم يستدعى إلى حضرته أحد أتباعه « لوخان » ويبوح له الحاكم بسره ، فيهون هذا عليه الأمر ، ويقول له إنه لن يصل إلى المرأة حتى يغمر زوجها بفضله وعطاياه ، « فما أكثر الأزواج الذين يغفلون عن شرفهم إزاء الإغراء بالمال والجاه » . ونحن نرى فى هذه المحاورة القصيرة صورة لأولئك الأتباع والخدم الذين لا هم لهم إلا إرضاء شهوات سادتهم حتى ولو كانوا يقومون فى سبيل ذلك بأدوار لا تشرف المضطلع بها . وينصح « لوخان » سيده باهداء بريبانيث زوجاً من البغال ، ويذكره بمدى ضعف النساء أمام إغراء المادة .

ونشهد فى المناظر التالية حديثاً بين بريبانيث وكاسيلدا وهو يستعد للذهاب إلى أوكانيا ، وتذكره زوجته بما وعد الحاكم به من مكافأتهما على صنيعهما وتشير عليه فى سذاجة الريفيات بأنه لا بأس بأن يطلب

من الحاكم ما يستعين به على شأنه ، فثل هذا السيد النبيل الذى قدما له المعروف من قبل لا يمكن أن يرده خائباً ، بل لا بد أن يكون ذاكراً لفضله ومروءته .

ونعود إلى مشهد يدور فيه الحوار بين حاكم أوكانيا وأتباعه الذين يريدون أن ييسروا له سبل الاتصال بامرأة بريبانيث ، وهو يسائلهم كيف يمكن أن يهدى إلى الرجل البغلين وغيرهما من الهدايا دون أن يرتاب فى الأمر ، وفيما هم فى هذا الحديث إذا بخادم يعلن إلى الحاكم أن بريبانيث واقف على بابه ينتظر الإذن بالدخول . ويستطير الحاكم فرحاً ، وهو يرى الزوج الغيور قادماً عليه دون دعوة ولا ميعاد ، ويرى فى ذلك بشرى خير بأن الأمر موشك على أن يستقيم له وأنه سرعان ما سيقضى مأربه. ويستقبل الحاكم بريبانيث فى حفاوة بالغة ، ويهدى إليه البغلين وهدايا أخرى قيمة من أبسطة ثمينة وحلى لزوجته . ولا يرى الفلاح الساذج فى هذا الكرم الذى يستقبله الحاكم إلا دليلا على وفائه واعترافه بالجميل ولا يتطرق إليه الشك فى نواياه .

وفى المناظر الأخيرة من هذا الفصل نرى الملك إنريكى الثالث Enrique III الذى يصوره لنا لوبى دى فيجا فى صورة الملك العظيم العادل الذى يتطلع إليه الشعب فى محبة وإعجاب . وكان الملك قد أتى إلى طليطلة ليشهد احتفالاتها الدينية التى تقام فى شهر أغسطس ، ونحن نرى بعد ذلك بريبانيث وزوجته مع عدد من أهل قريتهما وقد أتوا ليتفرجوا على الاحتفالات ولينظروا إلى موكب الملك . ونرى حاكم أوكانيا وقد أتى بمصور يجلسه على مقربة من بريبانيث وأصحابه ويكلف المصور بأن يرسم صورة لكاسيلدا لكى ينقلها بعد ذلك على لوحة يحتفظ بها فى داره . ويقوم المصور بمهمته . وينتهى بذلك الفصل الأول .

ويبدأ الفصل الثانى بعدة مناظر فى القرية التى يسكنها بريبانيث ، فنرى الفلاحين مجتمعين يتحدثون عن تلك تلك الاحتفالات الدينية التى شهدها الرجل هو وأهله فى طليطلة ، ونحن نرى الحديث يجرهم بعد ذلك إلى الكلام عن كنيستهم الصغيرة وصورة القديس سان روكى التى توجد بها ، فيسوق الإيمان الساذج بعضهم إلى اقتراح تجديد تلك الصورة القديمة وتكليف أحد المصورين فى طليطلة بذلك ، ويعهدون بالمهمة إلى بريبانيث ، فيقبل ويستعد للسفر .

ويوعز حاكم أوكانيا الذى أمضته الرغبة فى امرأة بريبانيث إلى أحد أتباعه « لوخان » بأن يتنكر فى زى أحد المزارعين ويلتحق بالزمرة التى تعمل فى جمع المحصول بأرض بريبانيث حتى يهىء لسيده فرصة اقتحام دار الرجل فى غيبة منه . وينتهز هذه الفرصة على عادته فيرسم لنا لوحة رائعة بديعة لهؤلاء المزارعين وهم بعد انتهائهم من الحصاد مخلدون إلى أغانيهم التى تنبض بحرارة الإيمان . ونرى بعد ذلك « لوخان » تابع الحاكم وقد تجسس على بيت بريبانيث وعرف مسالكه يعود إلى سيده ويدله على الطريق حتى يقتحم مخدع كاسيلدا منتهزاً فرصة غياب زوجها فى طليطلة . ولكن الزوجة الوفية المخلصة لا تكاد تحس به حتى تغلق بابها وترفض لقاءه ويعود الحاكم خائباً بعد أن أحس به رفاق بريبانيث الذين يتظاهرون بالنوم على باب داره ، ويحاول الحاكم الحديث مع كاسيلدا وهى مطلة من النافذة فيصارحها بحبه لها وبرغبته فى وصالها ويعدها بالمال والجاه لزوجها لو انقادت له . وهنا يجرى لنا لوبى ذلك الحوار البديع بين المرأة الوفية لزوجها المحافظة على شرفه وذلك المتسور الذى يريد أن يشتريها بماله . وفيه تقول كاسيلدا :

« وإذا كان الحـــاكم يحبنى كما يقول
أكـــثر ممـــا يحب روحــــه وحيـــاته
وإذا كان يريد أن يشترى شرفى وعفتى
بعبــارات مــن الغــزل الكـــاذب

فلأقل له إننى أكثر حباً لبريبانيث
بعبـــاءته التى حـــال لونهـــا واغبر
منى لحاكم أوكانيا ذى الجـــاه والثروة
بطيلســـانه الموشى بخيـــوط الذهب »

وهذه الأبيات التى أدخلها لوبى دى فيجا فى ثنايا هذا الحوار هى ألفاظ الأغنية الشعبية الشائعة التى استمد منها لوبى المسرحية كلها .

ثم تهيب كاسيلدا برفاق زوجها الراقدين أمام دارها بالنهوض . ويرى الحاكم أنه سيفتضح أمره ، فيهرب على عجل ، وقد أقسم على أن ينتقم من المرأة الشريفة وأن يذلل قيادها طوعاً أو كراهية .

ونرى بعد ذلك فى المنظر التالى بريبانيث وهو فى مرسم المصور الطليطلى الذى أراد أن يكلفه برسم صورة جديدة لقديس القرية ، ويكون من الصدف أن يكون هذا المصور هو نفسه الذى قام برسم صورة كاسيلدا من أجل حاكم أوكانيا . وبينما يتأمل بريبانيث الصور المتناثرة فى المرسم إذا به يرى صورة امرأته ، ويستبد العجب بالرجل فيسأل المصور عن شأن تلك الصورة ، ويبوح له هذا بالسر : أن الحاكم أمره برسمها لامرأة ريفية تيمه هواها دون أن تفطن هى لذلك . ويقع الخبر على بريبانيث وقع الصاعقة وإن كان يخفف من ألمه ما يشهد به المصور من أنها ليست على علم بشىء . ويخاطب بريبانيث نفسه مقلباً الأمر على وجوهه : كيف يفعل مع ذلك الحاكم الذى كان ينبغى عليه أن يدين له بالطاعة والذى قدم إليه هو الخير والمعروف ثم لم يكن من جزائه إلا أنه حاول الاعتداء على شرفه ؟ والمقطوعة التى يقدمها لنا لوبى على لسان بريبانيث فى هذا المقام من أجمل ما كتب فى تصوير الغيرة والغضب للشرف المنتهك ، وفيها البيت الذى جعله لوبى ختاماً لكل فقره :

« ما أسوأ حظ الفقير يا رب
إذا خطر له أن يتزوج بامرأة جميلة ! »

ويتفق بعد ذلك أن يوجه الملك إلى حاكم أوكانيا رسالة يأمره فيها بتعبئة عدد من فرسان البلدة لكى يشتركوا فى الحملة التى كان يعدها لقتال المسلمين فى غرناطة ، وتعن للحاكم فكرة تعينه على إدراك مأربه من المرأة التى زاده إعراضها عنه تصميما على نيلها ، فيأمر باخراج مائتين من رجال البلدة : مائة من النبلاء ، ومائة من المزارعين . ويعن للحاكم أن يسند قيادة كتيبة المزارعين إلى بريبانيث فيرضى بذلك كبرياءه ويبعده عن منزله فى الوقت نفسه . ويلجأ الحاكم إلى تابع آخر من أتباعه « ليوناردو » فيأمره بأن يتعقب « إينيس » بنت عم كاسيلدا وصديقتها وأن يتظاهر لها بالحب وبعزمه على الزواج منها حتى يتيسر له عن طريقها الوصول إلى المرأة العنيدة .

وتمضى الخطة كما رسم الحاكم ، فيعاهد ليوناردو وإينيس على الزواج ويقول لها إن الحاكم نفسه يريد أن يخطبها لتابعه وأن يتحدث إليها فى شأن الخطبة ، وتلح إينيس على ابنة عمها أن تستقبل الحاكم فى دارها ، ويقدم بريبانيث فى هذه اللحظة ولكنه لا يكاد يستقر قليلا مع امرأته حتى يأتيه رسول من قبل الحاكم يستدعيه إلى حضرته . وبهذا ينتهى الفصل الثانى .

ونشهد فى أول مناظر الفصل الثالث كيف يقص الحاكم على أتباعه مدى نجاحه فى تنفيذ مشروعه . فانه لم يستدع بريبانيث إلا ليعلن إليه أنه اختاره لكى يتولى قيادة المزارعين المائة ، ويتضاحك الحاكم من براءة الفلاح المسكين الذى ظن أن فى ذلك تشريفاً له فأنفق أكثر ما لديه من مال قليل على شراء عدة الحرب والظهور بمظهر القيادة . ونرى بريبانيث بعد ذلك على رأس فرقته المتواضعة وهو يؤدى قسم الولاء للملك أمام الحاكم ، ويبالغ هذا فى تمثيل الدور ، فيمنح بريبانيث لقب « فارس » ويسلم إليه سيف « الفروسية » وحينئذ

يقف الفلاح الفارس فيوصى الحاكم فى أبيات كلها تعريض بأن شرفه وأسرته أمانة فى يديه . ويوقع كلام بريبانيث بعض الاضطراب فى نفس الحاكم ولكنه لا يكاد يذكر كاسيلدا وامتناعها عليه حتى تقوى عزيمته على اغتصابها فى نفس هذه الليلة بعد أن يخرج زوجها على رأس فرقته إلى دار الحرب .

ويقدم لوبى بعد ذلك مشهداً طريفاً للعرض العسكرى الذى تقوم به فرقتا النبلاء والفلاحين ، ويظهر هو نفسه على المسرح تحت اسم « بيلاردو »[1] الذى اعتاد أن يشترك به فى كل المسرحيات التى ألفها باعتباره واحداً من أهل القرية المتفرجين على الاستعراض ، فيجرى مقارنة بين جيشى الفلاحين والنبلاء ، ويقول إن هؤلاء الأخيرين على جمال زيهم وحسن سلاحهم لا يرون عربياً مسلماً إلا تولاهم الذعر وأطلقوا سوقهم للريح كأنهم أرانب مذعورة تهرب من كلاب صيد ، ونحن نرى فى هذا التعليق الساخر مدى ما كان يكنه لوبى من الاحتقار لهؤلاء النبلاء ومدى اعتداده وإعجابه بأولئك المزارعين المتواضعين .

ويطمئن الحاكم إلى ذهاب بريبانيث فيستعد لاقتحام داره والظفر بزوجته . غير أن الفلاح الغيور كان فى ريبة من أمر ما يدور وراء ظهره فاذا به لا يبلغ مشارف البلدة حتى يترك فرقته ويعود فى المساء متخفياً إلى القرية . ويتوجه بريبانيث إلى منزل صديق وجار له حتى يتسلل من هناك إلى بيته دون أن يحس به أحد . ويتربص الرجل بعد ذلك فى ركن من أركان داره منتظراً ما سيحدث . أما الحاكم فانه يتمكن عن طريق أتباعه من اقتحام البيت ، وتستيقظ كاسيلدا على أصوات غريبة فى دارها ، وإذا بها ترى الحاكم يهجم عليها محاولا اغتصابها ، فتدافع المرأة عن شرفها فى بسالة واستماتة ، ويخرج بريبانيث فى هذه اللحظة من مكمنه ولا يتردد فى قتل الحاكم بنفس السيف الذى كان قد قلده إياه فى صبيحة ذلك اليوم .

ثم يحمل بريبانيث زوجته على ظهر جواده ويتوجه إلى طليطلة حيث كان معسكر الملك إنريكى الثالث . ونرى بعد ذلك مشهداً يظهر فيه الملك وزوجته وقد أتاهما رسول من أوكانيا يبلغهما أن أحد المزارعين اغتال حاكم المدينة ، فيهيج الملك ويعتبر ذلك إهانة له ويأمر بالبحث عن المزارع القاتل وزوجته . ولا يكاد النداء يتردد بذلك حتى يستأذن فى الدخول إلى محضر الملك أحد المزارعين ، وإذا به بريبانيث نفسه أتى هو وزوجته ليسلما نفسيهما وليشرحا قضيتهما ، ولا يتأكد الملك من صدق الفلاح المتواضع حتى يعفو عنه ويأمر بضيعة له ولأسرته ويقلده سيف الفروسية بنفسه : وبهذا ينزل ستار الختام .

مسرحية فونتى أوبيخونا

وهذه المسرحية الثانية Fuente Ovejuna تعتبر من أشهر آثار لوبى دى فيجا وأروعها ، وإذا كانت الأولى التى عرضناها فى الصفحات السابقة مستوحاة من حديث أسطورى يدور حول أغنية شعبية

---

(١) اعتاد لوبى دى فيجا فى كثير من مسرحياته أن يقدم نفسه دائماً فى دور ثانوى لا يظهر على المسرح إلا عدة لحظات تحت اسم « بيلاردو » ، وهو فى هذه الأدوار يقص علينا شيئاً من تفاصيل حياته فى المسرحية مما يجعل الحوار المنسوب إلى بيلاردو فى مسرحه مرجعاً عظيم القيمة فيما يتصل بترجمة حياته . وهو مثلا فى هـذه المسرحية يظهر نفسه فلاحاً عجوزاً يسألونه عن سنه فيقول إنه فى التاسعة والستين من عمره وهو يلقى بتعليقات ساخرة لا تخلو من الفخر بكثرة ما كتب ، إذ يقول إنه لم يتعلم فى مدرسة وإنه ربما لا يحسن القراءة وإن كان من الطريف أنه مع ذلك يجيد الكتابة . وولع لوبى دى فيجا بإظهار نفسه على المسرح فى أدوار قصيرة عابرة يشبه ما جرى عليه الفنان الإسبانى جويا Goya من تصويره لنفسه فى مكان ثانوى من الصور التى تشتمل على جموع كثيرة من الناس . ومثل هذا نراه اليوم كذلك فى ميدان الفن السينمائى فى الروايات التى يخرجها هيتشكوك إذ يصر هذا المخرج دائماً على أن يحتفظ لنفسه بلقطة سريعة يظهر فيها فى دور ثانوى لا يستغرق إلا ثوانى معدودات .

فان « فونتى أوبيخونا » مسرحية نقلها لوبى من صفحات التاريخ .

ونحن نرى فى أول مناظر الفصل الأول محاورة تجرى بين فرنان جومث دى جثمان قائد بلدة فونتى أوبيخونا (من أعمال قرطبة) ورودريجو خيرون Rodrigo Giron القائد الأعلى لجماعة قلعة رباح الدينية[1]. وقد رسم لنا لوبى من خلال هذه المحاورة فى لمحات سريعة خاطفة شخصية القائد فرنان جومث دى جثمان Fernan Gomez de Guzman ،فنحن نرى أنه فارس لا تنقصه الشجاعة ولا الجرأة ، غير أنه مغرور متكبر يحتقر عامة الشعب كما لو كانوا من طينة غير طينته ، وهو مستبد لا يراعى خلقاً ولا ضميراً فى معاملة الناس . ثم يستكمل لوبى صورة القائد من خلال محاورة أخرى تجرى بين فتاتين ريفيتين من أهل قرية فونتى أوبيخونا هما باسكوالا Pascuala ولاورنثيا Laurencia ، إذ نعرف من هذه المحاورة أن فرنان جومث طالما غرر ببنات القرية مستنداً إلى جاهه وسلطانه ، وهو لا يرى ولا يسمع بامرأة جميلة إلا حاول اغتصابها يعاونه فى ذلك أتباعه وعلى رأسهم أورتونيو Ortuño وفلورس Flores وهما إمعتان لا عمل لهما إلا تملق الحاكم وكسب رضاه حتى على حساب كرامتهما ، بل إنهما لا يتورعان عن استجلاب النساء له .

ثم نشهد منظراً يجمع بعض شباب القرية والفتاتين باسكوالا ولاورنثيا ، ونسمع فيه جدلا بريئاًساذجاً وإن كان حافلا بتلك الحكمة التى تجرى على ألسنة القرويين فى غير تعمل ولا اصطناع ثقافة حول الحب : فبعضهم ينكر وجوده وآخرون يؤكدونه ، ونفهم من هذا الحديث أن الفتى فروندوسو Frondoso متعلق بلاورنثيا وأنه يريد الزواج منها .

ويدخل المسرح بعد ذلك فلورس تابع القائد فرنان جومث وقواده فيعلن إلى أهل القرية قرب وصول القائد بعد عودته من الحملة الظافرة التى اضطلع بها هو والقائد الأعلى لطائفة قلعة رباح ضد سكان مدينة « تيوداد ريال » Ciudad Real الثائرين . ويروى فلورس خبر الحملة فى عبارات طنانة يسبغ فيها المديح على سيده ويشير إلى بسالته واقتداره على فنون الحرب ، ولا تخلو عباراته من إشارة إلى قسوة القائد عند الحديث عن افتتاحه المدينة عنوة واستباحتها لجنوده وإيقاعه الوحشى بالثائرين . ولا نلبث بعد ذلك أن نرى القائد وهو يدخل فى كبرياء وقد اجتمع كبار أهل القرية لاستقباله وتهنئته ومعهم فرقة من الموسيقيين والمنشدين وهم يرفعون أصواتهم بنشيد حماسى . ويتقدم واحد من عمد القرى التابعة لفونتى أوبيخونا فيقدم للقائد باسم هؤلاء الريفيين البسطاء هدية مما جمعوه له : عربة كاملة محملة من الدجاج والخنازير واللحوم والجبن وغير ذلك . وينصرف الجمع ، ولكن القائد يأمر باستبقاء باسكوالا ولاورنثيا ويحاول أن يدخلهما إلى قلعته حتى « يريهما

(١) جماعة قلعةرباح Orden de Calatrava هى إحدى الجماعات الدينية العسكرية التى تألفت فى إسبانيا المسيحية على غرار الطوائف التى أنشئت فى أوربا فى عهد الحملات الصليبية مثل « فرسان المعبد » و « الاسبتارية » وغيرهما ، وكانت هذه الجماعات رد فعل لطوائف مماثلة أسسها المسلمون الأندلسيون فى إسبانيا من المرابطين المجاهدين الذين كانوا يقومون بحماية الثغور ، ولهذا كان يطلق عليهم اسم « المغاورين » أو « الثغريين » أو « أهل الرباط » . وقد ظهرت أول جماعة من هذا النوع فى إسبانيا المسيحية فى عهد ملك قشتالة سانتشو الثالث فى سنة ١١٥٨ ، وهى المذكورة هنا فى مسرحية لوبى والتى كان يطلق عليها اسم « فرسان قلعة رباح » إذ كانت تتخذ ثغر قلعة رباح Calatrava (فى المنطقة الواقعة بين مملكة قشتالة والأندلس الإسلامية) مركزاً لأعمالها العسكرية . ثم أسست بعد ذلك جماعة «فرسان شنت ياقب» Orden de Santiago وقد سميت بذلك لأن الهدف من تأليفها كان حماية الحجاج المسيحيين إلى مدينة سانتياجو فى شمال غرب إسبانيا ، وتألفت من بعد جماعة ثالثة هى المعروفة باسم « فرسان القنطرة » Orden de Alcántara ، وكان لفرسان هذه الجماعات نفوذ كبير فى خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر كما نرى من خلال أدب العصر الذهبى .

ما أحرز من غنائم » ولكن لاورنثيا تسأل أورتونيو : « ألا يكفى سيدك ما أهدى إليه من لحوم ؟ » فيجيب التابع فى مجون وصفاقة « إنه لا يريد إلا لحمكما أنتما ؟ » وتنظر إليه الفتاتان فى احتقار وترفضان دخول القلعة وتنصرفان إلى شأنهما .

ويظهر الملكان الكاثوليكيان فرناندو وإيزابيل بعد ذلك ، فنراهما فى معسكرهما يأذنان بالدخول لاثنين من كبار أهل مدينة ثيوداد ريال ، فيعرضان على الملكين ما أصابهما على أيدى القائد الأعلى لجماعة فرسان قلعة رباح والقائد فرنان جومث ، ويشكو الرجلان من الفظائع التى ألحقها بهم القائدان ويقولان إن فرنان جومث عاد إلى قلعته فى فونتى أوبيخونا حيث يعامل أهلها على نفس الصورة القاسية المستبدة . ويستاء الملك لذلك ويأمر دون مانريكى Don Manrique أحدأعوانه وثقاته بأن يذهب إلى فونتى أوبيخونا ويطلب إلى القائد تقديم حساب عن أعماله .

ونرى بعد ذلك لاورنثيا وفروندوسو يتطارحان الغرام فى حقل على شاطئ النهر ، ويطالب الفتى الريفى إلى صاحبته أن تحدد موعداً لزواجهما . وفى هـــذه اللحظة يقترب القائد فرنان جومث مطارداً ظبياً كان يحاول اقتناصه فى رحلة صيد . ويغتبط القائد لالتقائه بالفتاة وحدها فى ذلك المكان الخالى — إذ أن فروندوسو كان قد اختفى وراء بعض الأشجار — ويحاول القائد استمالة القروية الجميلة بلين الكلام وبالوعود ويقول لها إنه لا يفهم تمنعها هذا مع أن من نساء القرية المتزوجات من وهبنه حبهن فى غير جهد . ولكن الفتاة تصده فى عنف وحينئذ يستشيط غضباً ويحاول اغتصابها بالقوة . فيخرج فروندوسو ويلتقط من الأرض قوس القائد ونباله ويهدده بالقتل لو أنه اقترب من الفتاة ، وحينئذ يتركها القائد وإن كانت « الإهانة » التى لحقته من جانب الشاب الغيور قد أثارت ثائرته ، فهو يقسم على الانتقام لا من الشابين المتحابين فحسب ، بل من أهل القرية جميعاً .

ويبدأ الفصل الثانى بمشهد يضم كبار رجال القرية وعلى رأسهم العمدة إستيبان Esteban والد لاورنثيا وخوان روخو عمها وغيرهما وهم يتحدثون عن بعض شئون عملهم من الزراعة والفلاحة . ثم يدخل عليهم القائد بين تابعيه الوفيين فلورس وأورتونيو . ويتشعب الحديث بين المجتمعين ، ونسمع القائد وهو يخاطب كبار رجال القرية فى تعال واحتقار . ثم يسبهم جميعاً ويقول إنهم جهلة متزمتون ، فهم يغارون على نسائهم حتى كأن الله لم يخلق الشرف إلا بينهم مع أن هناك من النساء المدنيات المتحضرات من كن يتمنين أن يضفى أمثال القائد شرف وصاله عليهن . ويغضب رجال القرية وينصرفون فيتابعهم فرنان جومث باساءاته وإهاناته دون أن يبالى بكبر سنهم أو مقامهم فى القرية . ويحاول فلورس وأورتونيو أن يخففا حدة غضبه وينصحانه بالمداراة والرفق ولكنه يجيبهما فى عجرفة : « أتراهم يريدون أن يسووا أنفسهم وهم السوقة العبيد بالسادة النبلاء من أمثالى ؟ » ثم يتساءل القائد عن فروندوسو فيقال له إنه ما زال فى القرية ، فيهيج ويصيح :

« أيجرؤ على السير فى أنحاء ذلك المكان
رجل حاول قتلى ؟
وهل هان قدر الرجال
حتى يتحدى مثلى — ممن إذا شهروا سيوفهم
ارتعدت قرطبة وغرناطة فزعاً —
صبى حقير من جملة فلاحى هذا الريف
حتى إنه يوجه إلى صدرى السهم فى وعيد ؟
إن هذا لنذير بقرب قيام الساعة يا فلورس ! »

ويتساءل أورتونيو كيف تركه حياً حتى تلك اللحظة ، فيقول فرنان جومث إنه لو أراد لضرب

أعناق أهل القرية جميعاً فى ساعة واحدة ، غير أنه يريد أن يوقع بهم انتقاماً لم يسبق له مثيل . ثم يتحدث عن لاورنثيا فيقول إن تمنعها عليه هو الذى يلهب من جذوة غرامه وإنها لو كانت مثل غيرها من النساء الطيعات السهلة الانقياد لما أولاها عنايته .

وتظهر بعد ذلك لاورنثيا وباسكوالا ومنجو وهو فلاح كهل ، ويتحدث الجميع عن آخر جرائم القائد ، ويتمدحون بشجاعة فروندوسو الذى واجهه مدافعاً عن شرف لاورنثيا ، على أنهم يجمعون على أنه من الخير لفروندوسو أن يترك البلدة ويختفى عن الأنظار إذ أن القائد لن يتركه فى سلام فقد أقسم على أن يشنقه من فرع شجرة . وفى هذه الأثناء تلحق بالمجتمعين فتاة ريفية هى خاثينتا Jacinta هاربة من مطاردة خدم القائد وجنوده ، فتهرب الفتاتان الأخريان ولا تجد من الرجال إلا منجو الذى يتعهد لها بأن يحميها على قدر طاقته . ويظهر بعد ذلك جنود القائد فيحاول الفلاح الشيخ أن يمنعهم من اختطاف الفتاة ، ويدور الشجار بينه وبين الجنود ، ثم يأتى القائد على أصوات العراك ، فيناشده منجو أن يكف أتباعه عن المرأة الوحيدة العزلاء . ولكن الغضب يستبد بفرنان جومث فيأمر جنوده بأن يجلدوا منجو حتى يدموا ظهره . أما خاثينتا فانها تستعطف القائد ثم تنذره فيقول لها إن جزاء وقاحتها هو ألا تكون من نصيبه هو ، بل طعمة سائغة لرجاله وأتباعه .

ونرى بعد ذلك كهول القرية وبعض رجالها ونفوسهم تغلى بالثورة والتمرد وهم يروون آخر فعلات القائد من جلد منجو والاعتداء على خاثينتا وغيرها من النساء . ثم يتغير اتجاه الحديث بعد أن يأتى فروندوسو لكى يخطب لاورنثيا إلى أبيها إستيبان . ويوافق أهل الفتاة . ولا نلبث بعد ذلك أن نرى الاحتفال بزواج الشابين وما يتخلل الحفلة من أغان وأحاديث مرحة ، غير أن الجو يكفهر فجأة باقتحام القائد وجنوده للعرس ويأمر فرنان جومث بالقبض على فروندوسو وإيداعه السجن بتهمة إهانة « فرسان قلعة رباح » التى يمثلها القائد ، ويستشفع له كهول القرية ، ويهب أبو العروس إستيبان للدفاع عن صهره ولكن القائد يأمر جنوده بانتزاع رمحه منه وبأن يوجعوه ضرباً ، وتحتج الفتاة على ما أصاب زوجها وأباها ، فيأمر بسجنها هى أيضاً تحت حراسة عشرة من الجنود .

رأينا فى أواخر الفصل الثانى كيف كانت كلمات إستيبان التى واجه بها القائد فرنان جومث دى جثمان نذيراً باشتعال الثورة عليه بعد أن فاض الكأس وتقطعت حبال الصبر ، وأما الفصل الثالث فان الستار لا يكاد يرفع عن مناظره الأولى حتى نرى كبار أهل القرية وهم مجتمعون يتدبرون أمرهم ، ونرى إستيبان وقد أصبح هو محرك الثورة والحاض عليها :

« كهل قد خضبت شيبته الدموع
يسائلكم أيها الفلاحون الشرفاء :
أى مأتم عليكم أن تقيموا
على وطن ذليل ضاع شرفه ؟
وإذا كانت قد بقيت لديكم مسكة من شرف
فماذا أنتم فاعلون ولم يبق من بينكم
من لم يلحقه من هذا المتوحش عار الإهانة ؟
أجيبونى : هل فيكم أحد
لم يصب من قبله فى حياته أو شرفه ؟
ألا تجتمعون فيتباكى بعضكم إلى بعض ؟
فاذا لم يبق لديكم ما تمكن أن تبكوا على فقده
فما تنتظرون ؟ وإلام أنتم ساكتون ؟ »

ويتداول شيوخ القرية فيما بينهم وتنطلق أولى الصيحات منادية بالانتقام ، وفجأة تقتحم عليهم المكان لاورنثيا وهى مشعثة الشعر ممزقة الملابس . ويصيح إستيبان وهو لا يكاد يتعرف عليها : « أليست هذه هى ابنتى ؟ » فتقول له :

« لا . . . لست ابنتك . . .
لأنى لو كنت كذلك لما تركت هذا الطاغية يختطفنى
دون أن تحرك يداً للانتقام !
أو تحاول استرجاعى من أيدى هؤلاء الخونة .
إننى لم أكن قد أصبحت بعد فى عصمة فروندوسو
حتى أطالبه هو باعتباره زوجى
بأن يأخذ بثأر شرفى المنتهك ،
بل كنت أنت المكلف بعبء ذلك ! »

وتمضى لاورنثيا فى استنفارها لحمية رجال القرية فتدعوهم « أشباه رجال ! . . . ضرب من الدواجن !.. لأنكم تسكتون على انتهاك أعراض نسائكم ! . . . فلماذا تتقلدون السيوف وتصطنعون مظاهر الرجولة ! » وهى تصرخ أخيراً بأنه من الخير لهذه البلدة أن تخلو منها « أنصاف الرجال » هؤلاء وأن يهب نساؤها للدفاع عن شرفهن ما دام رجالها على هذه الصفة من الذل والخنوع .

وتؤتى صيحة لاورنثيا ثمرتها فاذا بالرجال وكان من بينهم المتردد والخائف يجتمعون يداً واحدة على الانتقام والثأر ، وتجمع لاورنثيا النساء فتهيب بهن أيضاً أن يثأرن لشرفهن ، ويستجيب لها النساء فيقررن أن يتسلحن بدورهن ويهاجمن قلعة القائد .

ونرى بعد ذلك القائد فى قلعته يحيط به جنوده وهم يقتادون فروندوسو مقيد اليدين والرجلين والقائد يأمرهم بأن يشنقوه ويعلقوه من برج القلعة حتى يكون عبرة ومثلا لأهل القرية . وهنا نسمع من الخارج أصوات ضجيج ترتفع وتقترب ، ويأتى جنود القائد فى فزع فيعلنون عليه النبأ : لقد اندلعت الثورة وأقبلت جموع الفلاحين نساء ورجالا فاقتحمت الأبواب وهى تنادى بالموت للطاغية وأعوانه . ولا يجد القائد بداً من الهرب ولكنا نسمع صوته من الخارج وهو يصرخ صرخة مدوية ، إذ قطع عليه الثائرون الطريق وقتلوه هو ومن عمد للمقاومة من أصحابه ، بينما يعمد الآخرون للفرار بعد أن ينتقم منهم أهل القرية شر انتقام .

ثم يظهر لنا الملكان فرناندو وإيزابيل وقد استأذن عليهما فلورس ذراع القائد الأيمن وكان قد أفلت من ثورة « فونتى أوبيخونا » بعد أن جرح ، ويأتى فلورس لكى يشكو إلى الملكين ما فعله أهل القرية بالقائد ، وهو يصف لنا قسوة انتقام القرويين ، فيقول إنهم مزقوا لحمه وإن النساء تناهبن ما تناثر من أعضاء جسده ، ثم مضى الثائرون إلى داره فنهبوها وأعملوا فيها التحريق والهدم ، ثم يطلب من الملكين توقيع العقوبة على الثائرين . ويتأثر الملك بما صوره فلورس من أمر هذه الثورة الجائحة ، فيأمر بأن يحقق ثقاته فى الأمر ويروا ما الذى أدى إلى الثورة وأن يعاقب الجناة .

ونرى بعد ذلك أهل القرية وهم يحملون رأس فرنان جومث على حربة ويهتفون بحياة بلدهم وبحياة الملك ، إذ أن ثورتهم لم تكن موجهة إلا ضد القائد الطاغية المستبد ، دون أن تتجاوز ذلك إلى التمرد على الملك أو حكومته ، وهم يعرفون أن الملك سيبعث إليهم بمن يحقق فى أمر مقتل القائد فيتداولون فيما يكون جوابهم جميعاً فى التحقيق .

ويأتى القاضى المرسل من قبل الملك ونسمع التحقيق مع عدد من أهل القرية من رجال ونساء وفتيان وأطفال فهو يسألهم عمن قتل القائد ، فاذا بجواب واحد يردده الجميع : « فونتى أوبيخونا » ، ويستشيط القاضى غيظاً فيأمر بتعذيبهم حتى يعترفوا ويقروا ، ولكنهم يصممون على ذلك الجواب .

ويتكرر التحقيق ، والسؤال والجواب لا يتغيران :

— من الذى قتل القائد ؟
— فونتى أوبيخونا يا سيدى .

ويكاد صواب القاضى يطير ، فيصيح فى غضب :

– ومن هو فونتى أوبيخونا ؟
– الكل فى واحد ! . . .

ونرى القاضى بعد ذلك فى محضر الملك ، وهو يقول له إنه حاول أن يعرف من هو المسئول عن مصرع القائد ، فلم يتلق منهم إلا جواباً واحداً أجمعوا عليه هو أن « فونتى أوبيخونا » قتلته ، ويقول القاضى إنه لم يستطع استكشاف الحقيقة حتى بعد أن قام بتعذيب ثلاثمائة من أهل القرية ، حتى الأطفال دون العاشرة لم يكن عندهم إلا ذلك الجواب . ويستأذن القاضى فى أن يدخل على الملك طائفة من أهل القرية حتى يسائلهم بنفسه ، ويدخل هؤلاء فيصفون ما كانوا يلاقون على أيدى القائد وأعوانه من عنت وعبث بالأرواح ونهب للأموال وهتك للأعراض . ويقتنع الملك فيعلن عفوه عن القرية وقبوله لحجج أهلها .

وبهذا تنتهى مسرحية « فونتى أوبيخونا» التى تعتبر من أروع ما كتب لوبى دى فيجا . ولعل أجمل ما فيها هو ما تضمنته من تمثيل واقعى حى لروح الشعب كله ، فالبطل هنا ليس فرداً بعينه ، بل القرية كلها ، ونحن نرى أن المسرحية تنتهى دون أن نعرف من هو الذى قتل القائد فرنان جومث ، وقد تعمد لوبى أن يبرز هذا المعنى ، فلب المسرحية هو تصوير ثورة شعبية بمعنى الكلمة على حاكم إقطاعى مستهتر مستبد . ولهذا فان « فونتى أوبيخونا » كانت من أول طلائع ما يمكن أن نسميه « الأدب الثورى » وهذا هو ما يفسر انتشارها وذيوعها ، فقد ترجمت إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها من اللغات فى وقت مبكر ، بل إن من الطريف أن نذكر أنها ترجمت إلى الروسية وكانت كثيراً ما تعرض فى مسارح روسيا القيصرية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، إذ كانت تعتبر متنفساً لطبقات الشعب الفقيرة الكادحة ضد سطوة الحكام الإقطاعيين المستبدين ، وكثيراً ما كان الجمهور الروسى يحول حفلات عرض « فونتى أوبيخونا » إلى مظاهرات صاخبة تهتف بسقوط القيصر وحكومته الإقطاعية الظالمة[1] .

وليس من العسير علينا أن نجد تفسير هذه الظاهرة ، فنحن نرى فى مسرح لوبى ولا سيما فى هذين الأثرين المسرحيين اللذين عرضناهما : « بيريبانيث » و « فونتى أوبيخونا » تصويراً لأول مظاهر الصراع الاجتماعى بين الطبقات ، وهو يلح على هذه الحقيقة ، ويرسم لنا صورة قاتمة للنبلاء الإقطاعيين بكل ما يتصفون به من جشع وأنانية وقسوة ونزوع إلى الفوضى واستهتار بكل الشرائع السماوية أو المدنية ، ولوبى يحدد لنا الطبقات المتصارعة تحديداً واضحاً ، فنحن نرى فى المسرحيتين المذكورتين ذلك التضاد الواضح بين كتلتين : عامة الشعب وسلطة الملك من ناحية والإقطاع من ناحية أخرى . ويجدر بنا أن نشير إلى أن لوبى ملكى النزعة وهو يصور السلطة الملكية على أنها الشرعية المستنيرة التى لا تتردد فى الوقوف إلى جانب الشعب ، بينما نجد السادة الإقطاعيين هم العقبة الوحيدة فى سبيل التقدم الاجتماعى ، ويجب ألا نعتبر ائتلاف الشعب والملك هنا من المفارقات ، فقد كان النظام الملكى هو السائد المعترف به فى تلك العصور ، والواقع أن ملوك إسبانيا فى تلك الفترة التى يصورها مسرح لوبى كانوا ذوى نزعة تقدمية ديمقراطية ، وكانوا فى صراع دائم مع طبقة النبلاء والسادة الإقطاعيين ، وكثيراً ما كانوا يقفون إلى جوار الشعب العامل فى كفاحه ضد هؤلاء الإقطاعيين الذين كانوا لا يكفون عن استغلاله ، ونهب ثرواته . هذا مع أنهم لم يبذلوا أبداً أية تضحية فى سبيل قضية البلاد ، حتى الصراع مع المسلمين الأندلسيين خلال القرن الخامس عشر لم يكن يتجشم مئونته إلا

(١) من حسن الحظ أن هذه المسرحية ستنشر أيضاً بالعربية قريباً ، فقد اضطلع الأستاذ الدكتور حسين مؤنس بترجمتها كاملة وسيمكن لقراء العربية أن يقرأوها فى مستقبل قريب .

الفلاحون الفقراء ، ونحن نرى بهذه المناسبة كيف يسخر لوبى من هؤلاء النبلاء فى مسرحية « بيريبانيث » فيقول إنهم لا يكادون يرون أندلسياً مسلماً ، بل لا يسمعون باسم فارس مسلم إلا ملأ الرعب قلوبهم فولوا عنه فراراً .

وهناك ناحية أخرى نراها تتكرر فى مسرح لوبى : هى مسألة الدفاع عن العرض المنتهك والانتقام المروع من المعتدى على الشرف ، وفى المسرحيتين اللتين عرضناهما فى الصفحات السابقة أروع مثل على علاج مسألة « العرض » عند لوبى ، والحل الذى يأتى به لوبى لهذه العقدة هو القتل . . . القتل الذى لا يعرف التردد أو الاحتكام لأى قانون . . . بل القتل الرهيب القاسى الذى لا بأس فيه بأشنع صور المثلة كما نرى فى مسرحية « فونتى أوبيخونا » ، فالشرف لا يسلم كما قال الشاعر العربى إلا إذا أريق على جوانبه الدم . وهذا المفهوم للشرف هو الشائع فى البيئة الإسبانية قديماً وحديثاً ، وهو الذى أبرزه الأدباء الإسبان منذ لوبى دى فيجا حتى غرسية لوركا ، إذ نراه كذلك فى إسبانيا القرن العشرين فى مسرحية « بيت برنارد ألبا »[1] . وهنا ننبه مرة أخرى إلى تطابق هذا المفهوم لدى الإسبان ولدى العرب ، ولسنا نشك فى أنه من جملة ما ورثه الشعب الإسبانى عن الأندلس العربية .

مسرحية « كلب البستانى »

ونعرض أخيراً لأحد آثار لوبى المشهورة ، وهى « كلب البستانى » El perro del hortelano وهى تنتمى إلى لون مسرحى آخر يختلف عن اللونين اللذين عرضنا النموذجين السابقين لها ، فهذه المسرحية ليست مستوحاة من أسطورة شعبية مثل « بيريبانيث » ولا من حدث تاريخى واقعى مثل « فونتى أوبيخونا » ، بل تندرج تحت ما يمكن أن ندعوه « مسرح المجتمع » ، إذ يصور فيها لوبى العادات والتقاليد المتبعة فى المجتمع الإسبانى المعاصر له ، تصويراً لا يخلو من النقد والسخرية .

وتدور أحداث المسرحية فى نابلى بايطاليا ، وإن كان معظم أبطالها إسبانيين ، فنحن نعرف أن نابلى وجنوب إيطاليا وصقلية كانت منذ القرن الخامس عشر تابعة للإمبراطورية الإسبانية . ويرفع الستار فى الفصل الأول عن جانب من قصر إحدى سيدات المجتمع الراقى الإسبانى ، وهى الكونتيسة ديانا دى بلفلور Condesa Diana de Belflor ونرى ديانا فى ساعة متأخرة من الليل وهى تتعقب شبح رجلين يهربان من قصرها ، وتنزعج السيدة وتنادى خدمها وتعنفهم على إهمالهم حراسة القصر حتى إنهم يتركون رجالا غرباء يتسللون إليه فى ظلام الليل . على أننا نعرف منذ بدء الرواية شخصية هذين الرجلين اللذين اقتحما القصر ، فهما تيودورو Teodoro الكاتب الخاص للسيدة وأمين سرها وخادمه تريستان Tristan ، أما السبب فى دخولهما القصر خفية فهو أن تيودورو على علاقة غرامية بوصيفة السيدة مارثيلا Marcela ، وإن كان الاثنان يتستران على هذه العلاقة خوفاً من أن تطردهما السيدة من خدمتها . وتوقظ ديانا جميع خدام القصر ووصيفاته وتبدأ فى مساءلتهم حتى تهتدى إلى حقيقة من اقتحم منزلها ، وأخيراً تكشف لها الخادمة أناردا Anarda عن سر تلك العلاقة الغرامية بين تيودورو ومارثيلا . وتغضب ديانا إلا أنها تكتم غضبها وتستوضح مارثيلا الحقيقة ، فتعترف لها الوصيفة بكل شىء وبأن تيودورو ينوى الزواج منها . وهنا يضع لوبى أيدينا على جانب من جوانب نفسية المرأة لا يكاد يستبطنه إلا أديب موهوب مثل لوبى يعرف كيف يصل إلى أعماق النفس الإنسانية فنحن نرى أن ديانا النبيلة التى تعتز بحسبها ونسبها والتى تؤمن بالفروق بين الطبقات لا تكاد تعرف بنبأ ذلك

---

(١) « بيت برناردا ألبا » لفيديريكو غرسية لوركا ، ترجمة د. محمود على مكى ومراجعة الدكتور حسين مؤنس ، سلسلة روائع المسرح العالمى رقم ٢٣ ، سنة ١٩٦٢ .

الحب بين وصيفتها وخادمها حتى تدركها الغيرة ، وتولد فيها الغيرة شعور الحب . غير أنها كانت تكتم هذا الحب وتحاول مقاومته . إذ تراه حباً مستحيلا لا يوصل إلى نتيجة . فديانا خاضعة لحكم تقاليد العصر التي تفرض بين الطبقات الاجتماعية أسواراً وحدوداً لا يمكن تخطيها. فهي لا تستطيع الزواج من ذلك الشاب الذي يعتبر واحداً من جملة خدمها ، ولكن اكتشافها لحقيقة الصلة بين تيودورو ووصيفتها مارثيلا يثير في نفسها لهيب الغيرة . وتحملها على التفكير في انتزاع هذا الرجل الذي أحبته من بين ذراعي خادمتها . وهنا نرى براعة لوبي في تحليل نفسية تلك المرأة النبيلة المتغطرسة . فقد أثار اكتشافها للحقيقة في نفسها إعصاراً عنيفاً . فهي باعتبارها امرأة تريد أن تظفر بهذا الرجل وتنتزعه من امرأة أخرى غريمة لها . وهي مع ذلك لا تستطيع الزواج منه . فلا يبقى أمامها إلا أن تفسد العلاقة بين الاثنين وتنتظر حتى يحل الوقت تلك العقدة . ومن هنا جاء العنوان الذي اختاره لوبي لمسرحيته . إذ هو تشبيه للسيدة بكلب البستاني الذي يقول عنه المثل الإسباني المعروف إنه « لا يأكل ولا يدع الناس يأكلون »
Como el perro del hortelano : ni come ni deja comer

وتعزم ديانا على أن توحي إلى أمينها الخاص بحبها له بطريق غير مباشرة ، إذ أن كرامتها ومستواها الاجتماعي يفرضان عليها ألا تتنزل إلى مصارحته بغرامها ؛ فتدعوه إلى محضرها وتسلمه رسالة تزعم أنها من صديقة لها من سيدات المجتمع الراقي تهيم حباً برجل يجهل حقيقة شعورها . وتقول في هذه الرسالة إن حبها لهذا الرجل نبع من غيرتها من امرأة أخرى يبادلها الحب . وتطلب ديانا من كاتبها أن يبدي رأيه في هذه المسألة ، وتدور بين الاثنين محاورة بديعة حول الحب وكيف ينبع من الغيرة ، مع أن المألوف هو أن الغيرة هي التي تتولد عن الحب . وتتكرر المحادثات بين ديانا وكاتبها ، ويخالج هذا الشك في أنه هو المقصود بتلك القصة المصطنعة ، ولكنه يستكثر على نفسه أن تحبه ، لا سيما وأنها حريصة على عدم البوح له بشيء . ثم إنه يتهافت عليها كثير من النبلاء ولكنها لا توليهم عنايتها . ونحن نرى كيف يتنافس على الظفر بقلب ديانا الجميلة اثنان من الكبراء : الكونت فيديريكو Conde Federico والماركيز ريكاردو Marqués Ricardo ، ولكن المرأة اللعوب التي يعجبها أن تكون موضعاً للتدليل ومثاراً للمنافسة لا تصدهما ولا تقربهما ، بل تدع لكل منهما بصيصاً من الأمل في الظفر بها . وهي تفعل مثل ذلك بكاتبها المسكين الذي لا يكاد يدخل في روعه غرامها به ، حتى تستدعيه وتقول له إنها موافقة على زواجه من وصيفتها . وإن كانت تأمرهما بأن يتجنبا كل لقاء يمكن أن يسيء إلى سمعة دارها .

ويكمل لنا لوبي في أول الفصل الثاني ملامح شخصية تيودورو . وهو يبدو هنا رجلا ضعيف الشخصية لا يكاد يرى من سيدته ما يوحي بحبها له حتى يعامل خطيبته الوصيفة في جفاء وتكبر . فاذا ولت له ديانا ظهرها عاد إلى حبه الأول مستكيناً مستغفراً .

ونرى مثلا لذلك حينما تستدعيه ديانا . فتقول له مصطنعة البراءة وعدم المبالاة إنها قررت أخيراً أن تتزوج . غير أنها متحيرة في أمرها إذ لا تدري من تختار : الكونت فيديريكو أو الماركيز ريكاردو . وتسأله أن يشير عليها . ولكنه يمتنع عن إبداء رأيه فتقول له إنها تفضل الزواج من الماركيز وتأمره أن يذهب لكي يبشره بأنها اختارته زوجاً لها . وحينئذ ينقطع رجاء تيودورو من سيدته . ويرى مارثيلا فيهرع إليها متودداً راغباً في الصلح . فتسخر هذه من طمعه في تخطي الحواجز الاجتماعية والزواج من سيدته . وتعلن إليه أنها قررت قطع صلتها به وأنها قد أصبحت خطيبة فابيو الذي يعمل أيضاً في قصر ديانا . ويستعطف تيودورو

الفتاة حتى تستجيب له أخيراً ، وتعود بينهما المياه إلى مجاريها ، ولكن بعد أن يعلن أن الكونتيسة قبيحة الشكل والخلق ، وهنا تدخل ديانا إلى المسرح فتتسمع إلى كل هذا الحديث ، ولكنها تتظاهر بأنها لم تسمع شيئاً ، وتأمره بأن يأتى لتمليه رسالة ، وإذا بالرسالة موجهة إليه هو وفيها تقول له إن الرجل الفقير المتواضع إذا باحت له سيدة ثرية نبيلة بحبها فان من الحماقة أن يتحدث مع أخرى ، وتنصرف غاضبة. ويندم تيودورو على تسرعه بمصالحة مارثيلا فلا يكاد يراها حتى يطلب إليها أن تقطع كل صلاتها به . ثم يأتى الماركيز ريكاردو مسرعاً بعد أن أبلغ بنبأ قبول ديانا الزواج منه ، ويهرع لرؤية الفتاة اللعوب فتصطنع السذاجة وتقول له إنها لم تقرر شيئاً بشأن الزواج وإنه ربما كان خدم القصر قد سمعوا ثناءها عليه فظنوا أنها قد اختارته زوجاً ، وتعتذر له عما حدث من سوء الفهم والتأويل . وأما تيودورو فانه ينفجر أخيراً ويقول لها إنه لا يفهم تصرفاتها إذ هى تحول بينه وبين مارثيلا غير أنها لا تمنحه بصيصاً من الأمل فى وصالها . وتغضب ديانا وتصارحه بأن غيرتها من خادمتها مارثيلا هى التى تدفعها إلى ذلك وأنه حر يستطيع أن يتزوج ممن يشاء باستثناء تلك الوصيفة ، وتثور ثائرتها فتنهال بالصفعات على وجه كاتبها حتى تخضب قميصه بالدم . على أنها لا تلبث أن تأتى إليه مراضية ملاطفة وتأمر له بألف إسكودو (العملة الإسبانية حينئذ) حتى « يشترى قمصاناً جديدة » .

ونرى فى الفصل الثالث المتنافسين على قلب ديانا : الماركيز ريكاردو والكونت فيديريكو وقد شهدا ما وقع من ضرب السيدة لكاتبها ثم مصالحتها له ، وهما يعلقان على ذلك فى تشكك وتوجس ، ويهجس فى خاطرهما أن هناك علاقة مريبة بين ديانا وكاتبها ، وأنه لو تسربت أنباء هذه العلاقة إلى الخارج لأصبحت فضيحة تلوث أسماء الجميع ، وحينئذ يرى السيدان النبيلان أن خير مخرج لهم من ذلك هو اغتيال كاتب ديانا والتخلص من منافسته المزرية بقدرهما .

ويفكران حينئذ فى استخدام أحد المجرمين المحترفين الذين كانت تغص بهم مدينة نابلى ، فيذهبان إلى إحدى الحانات التى يجتمع فيها أمثال هؤلاء وتسوقهم الصدفة إلى أن يختاروا لتنفيذ مهمة قتل تيودورو رجلا كان يبدو لهم رئيس مجموعة من الأشرار تجلس فى الحانة دون أن يعرفوا أن ذلك الرجل هو نفسه « تريستان » خادم تيودورو وموضع ثقته الذى عمه خير سيده منذ أصبحت ديانا تغدق عليه المال والعطايا . ويتظاهر تريستان بقبول المهمة ويطلب إلى النبيلين « مقـــدم الأتعاب » ، ويقول لهما إن خير وسيلة لقتله هو الالتحاق بخدمته حتى تسنح فرصة للإنهاء عليه .

ثم يلتقى تريستان بسيده تيودورو فيطلعه على ما دبر الماركيز ريكاردو والكونت فيديريكو لقتله ، ويبوح تيودورو لخادمه بما يلقى من عنت ديانا وتقلبها ، إذ أنها وإن كانت قد صرحت له بحبها إياه لا تجرؤ على أن تتخذه زوجاً لما يفصل بينهما من فوارق فرضها المجتمع ، فيفكر الخادم الوصولى الذكى فى حيلة يهيئ بها أمر زواج سيده من ديانا . وأخيراً يهتدى تريستان إلى الحل المنشود ، فان للسيدة ديانا جاراً نبيلا عجوزاً هو الكونت لودوفيكو Conde Ludovico كان قد أرسل ابناً وحيداً له يدعى تيودورو إلى جزيرة مالطة منذ عشرين سنة ، ولكن مركباً حربياً من مراكب المسلمين فى بزرت (تونس) أغارت على الجزيرة وأسرت تيودورو ومضت به إلى بلاد المسلمين ، ومضت السنون وانقطع أثر هذا الابن وإن كان أبوه الكونت لم يفقد الأمل فى عودته . فلماذا لا يتقمص كاتب السيدة ديانا شخصية هذا الابن المفقود ويصبح بذلك وريث الكونت لودوفيكو وبهذا يصبح له من الجاه والثروة ما يكون به نداً لديانا وجديراً بطلب يدها ؟ ويتكفل تريستان

بتدبير الأمر بحيث تنطلى الحيلة على النبيل العجوز ، فيتزيا بزى تاجر أرمنى ويذهب إلى الكونت بعد أن يخترع قصة قد أحسن حبك أطرافها : فهو يقول إنه تاجر قادم من بلاد الأرمن وإن له أباً كان من تجار الرقيق ووقع له يوماً صبى أسره المسلمون فى مالطة فاشتراه ورباه فى بيته مع أبنائه . وأن هذا الصبى الذى كانوا يدعونه تيودورو نشأ مع أخت للتاجر ، فلما بلغ سن الشباب أحب الفتاة واتصل بها بغير زواج حتى حملت منه ، وخشى هو على نفسه من أبيها فهرب من أرمينيا وبحثوا عنه كثيراً دون أن يوفقوا إليه . وأخيراً بعث التاجر والد الفتاة ابنه إلى إيطاليا لكى يتحرى عنه لا لكى يرغمه على الزواج من ابنته ، بل لمجرد الاطمئنان إلى أنه حى يرزق ، إذ كان يحبه حباً عظيما . ويمضى تريستان التاجر الأرمنى المزيف فى قصته فيقول إنه سمع أخيراً من جارية يونانية فى نابلى أنهناك شاباً يدعى تيودورو يعمل فى خدمة الكونتيسة ديانا دى بلفلور ، وأن أوصافه تتفق مع أوصاف الفتى الذى يبحث عنه ، فذهب التاجر إلى هناك واجتمع به وعرف منه أنه هو فعلا الفتى الهارب ورجاهذا لا يذيع خبره إذ أنه لا يريد أن يعرف أحد عنه أنه كان عبداً . ولكن التاجر قرر أن يبلغ الكونت لودوفيكو بنبأ ابنه المفقود الذى كان يائساً من عودته . وتنطلى القصة الملفقة على الكهل ، ويستطير قلبه فرحاً ويقرر الذهاب إلى دار الكونتيسة على الفور حتى يجتمع بابنه .

ويكون تيودورو فى هذه الأثناء قد علم بنبأ المؤامرة المدبرة لاغتياله . فيذهب إلى سيدته ويبلغها أنه قد عزم على ترك نابلى والعودة إلى إسبانيا إذ أن حياته فى خطر ولا أمل فى إمكان زواجه منها ، وتوافق هى على ذلك وهى منخرطة فى البكاء ، إذ أنها بدأت تحب كاتبها حباً صادقاً . ونشهد أخيراً موقف الوداع المؤثر بين ديانا وتيودورو ، ولكن لا نلبث أن نرى الكونت لودوفيكو يقتحم المكان وهو لا يتمالك نفسه من الفرحة وتوتر الأعصاب ، ويبلغ الكونتيسة نبأ عثوره على ولده المفقود ، ثم يرتمى بين ذراعى تيودورو وهو يبكى . وتفاجأ السيدة بهذا الخبر ، ولكنها تبتهج وترى فيه حلا لمشكلتها فها هو ذا تيودورو قد أصبح نبيلا يحمل لقب « كونت » الذى أورثه إياه أبوه ، وبهذا تتمكن من الزواج به بلا غضاضة . وهكذا تقرر عقد قرانها به فى نفس تلك الليلة .

غير أن الفتى تدركه النخوة ، فينفرد بها ويصارحها بأن كل هذا ليس إلا أكذوبة اخترعها خادمه ، وتكبر هى فيه ذلك ولكنها تتهمه بالغباوة وتنصحه بأن يقبل ما ساقه إليه القدر من خير وسعادة . وتنتهى المسرحية بينما نرى نبلاء المدينة مهنئين للعروسين اللذين يقرران زواج مارثيلا خطيبة تيودورو السابقة من فابيو أحد خدم ديانا وتريستان من دوروتيا إحدى خادماتها . وينزل الستار وتيودورو يخاطب جمهور المتفرجين قائلا لهم إنه يرجوهم ألا يذيعوا سره على الملأ .

وتعتبر رواية « كلب البستانى » من أكثر روايات لوبى نجاحاً بين الجماهير ، إذ حشد فيها المؤلف كل العناصر التى تعتبر مقومات العمل المسرحى الناجح ، ولا سيما إذا كان يدخل فى باب « الملهاة » . وقد وفق لوبى كل التوفيق فى رسم شخصية الخادم الظريف « تريستان » الذى نراه يتقمص مرة شخصية مجرم محترف مصطنع لدور « قاتل القتلة » ومرة أخرى شخصية تاجر أرمنى يتكلم لغة غريبة ملفقة مضحكة . وهو فى كل ذلك لا يكف عن الحركة وتدبير الحيل واختراع الأكاذيب .

والرواية بوجه عام محكمة البناء متماسكة التكوين ، ولعل خير ما فيها هو تحليل نفسية النبيلة المدللة التى تعبث بقلوب الرجال والتى تثير الغيرة فى نفسها جذوة الحب الكامنة لرجل أقل منها مقاماً وقدراً ، غير أنها

تصمم على انتزاعه من منافستها حتى تظفر بذلك فى النهاية . ومن هنا تعتبر رواية « كلب البستانى » من أول الأعمال المسرحية التى تولى جانباً كبيراً من اهتمامها إلى تحليل النوازع البشرية ولا سيما تلك التى تختلج فى نفس المرأة .

صحيح أن هناك بعض ما يؤخذ على هذه المسرحية وهوما نجده من تكلف وافتعال فى بعض الأحداث ، مثل ما نراه من الاعتماد على الصدفة فى التقاء الكونت والماركيز بخادم تيودورو وظنهما أنه مجرم محترف ثم تكليفهما إياه بقتل سيده ، أو فى السهولة التى انطلت بها خدعة الخادم الماكر على الكونت لودوفيكو ، غير أن كل ذلك لا ينال من قيمتها المسرحية وجودتها الفنية .

* * *

عرضنا فى الصفحات السابقة بعض آثار لوبى دى فيجا ، وهى ليست إلا جزءاً بالغ الضآلة من إنتاج هذا العبقرى الذى كان يقول عن نفسه إنه « كان يكتب بيدين فى وقت واحد » ، غير أنه يمكن أن يقدم لنا مثلا على عبقرية هذا الأديب الإسبانى الذى حول كل شىء إلى مسرح ؛ والذى يعتبر أعظم المؤلفين فى هذا الميدان خصوبة وأكثرهم إنتاجاً منذ وجد المسرح حتى اليوم .



تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان

بقلم
الأستاذ محمد عبد الغني حسن

أولا : سيرة حياة

إن مصادرنا فى الترجمة لحياة جرجى زيدان — مؤرخ العرب والإسلام والحضارة الإسلامية والأدب العربى — كثيرة متنوعة ، فقد تناولته بالدراسة والترجمة بضعة كتب ظهر بعضها فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر فى حياة الرجل ، كمثل كتاب « مرآة العصر » الذى أصدره إلياس زخورة سنة ١٨٩٧ فى ثلاثة أجزاء ، فكان أقدم مصادرنا لسيرة هذا الرجل المتعدد جوانب الثقافة .

على أن هناك ترجمة مختصرة دقيقة له ملحقة بآخر كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، أو على وجه الدقة ملحقة بذيل الجزء الرابع من هذا الكتاب ، الذى لم يكد الرجل ينتهى من تأليفه حتى فاجأته المنية فى شهر يوليو سنة ١٩١٤ ، فرأى القائمون على إصدار الكتاب من أسرة دار الهلال أن يختموه (بخلاصة ترجمته وذكر مؤلفاته على ما يقتضيه موضوع الكتاب . . .) .

وتكاد تدانى هذه الترجمة من ناحية الزمن ، تلك الترجمة الموجزة الدقيقة التى كتبها الدكتور يعقوب صروف رئيس تحرير « المقتطف » بقلمه فى عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ من مجلة « المقتطف » فلم تزد على صفحتين ، ولكن جاء فى متنها وهامشها تصحيح مهم لما جاء فى الترجمة الملحقة بكتاب تاريخ آداب اللغة العربية خاصاً باشتراك جرجى زيدان فى تحرير المقتطف ، فقد جاء فى تلك الترجمة أن إدارة المقتطف طلبت إلى جرجى زيدان سنة ١٨٨٦ « أن يتولى إدارة أشغالها ، والمساعدة فى تحريرها ، ففعل ». ولكن الدكتور يعقوب صروف فى ترجمته لجرجى زيدان أنكر أن يكون صاحبنا قد حرر فى « المقتطف » شيئاً ، إلا خاتمة السنة الحادية عشرة ، وهى نصف صفحة فقط ، كتبها جرجى زيدان لما كان مشتغلا بادارة المقتطف ! ومعنى هذا أن الثمانية عشر شهراً التى اشتغل فيها جرجى زيدان بالمقتطف كانت (للأدارة) فقط ، ولم يجر فيها قلمه (بالتحرير) إلا على نصف الصفحة التى أشار إليها الدكتور يعقوب صروف . . .

وقد اضطر صروف — على أدبه وحيائه — إلى تصحيح هذه الواقعة « إظهاراً للحقيقة » كما قال فى تأبينه وترجمته لزميله وصديقه جرجى زيدان. . . وعلى الرغم من هذا التصحيح المنشور فى مجلة المقتطف سنة ١٩١٤ ظل كثيرون من مؤرخى سيرة جرجى زيدان ومترجمى

حياته يقعون فى الوهم ، ويذكرون أن جرجى زيدان قد شارك فى تحرير المقتطف . ومن هؤلاء الأب لويس شيخو اليسوعى الذى ذكر فى كتابه « الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين » أن مجلة المقتطف انتدبت جرجى زيدان « ليكتب فيها ، فنشر عدة مقالات مستحسنة » ! ! مع أن هذا الندب كان للإدارة لا للتحرير . وقد جرى على هذا الوهم بغير تحقيق لفيف من أفاضل المحققين الذين نكن لهم كل تقدير ، كالأستاذ عمر رضا كحالة فى موسوعته الكبيرة العظيمة « معجم المؤلفين » ، والأستاذ طاهر الطناحى فى الفصل الجيد الذى كتبه فى كتاب « عصاميون عظماء من الشرق والغرب » ، والأستاذ محمد رجب البيومى فى البحث الطيب الذى كتبه عن جرجى زيدان فى العدد ٥٢٢ من مجلة الثقافة ، الصادر فى ٢٨ من ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، والدكتور محمد يوسف نجم فى كتابه « القصة فى الأدب العربى الحديث » ، وهو ينقل عن الترجمة الملحقة بتاريخ آداب اللغة العربية نقلا حرفياً .

وهذه الحقيقة فى سيرة حياة جرجى زيدان قد آن لها اليوم أن تتضح بعد أن ظلت منزوية فى ركن من الإغفال والنسيان منذ قام بتصحيحها والتنبيه إليها الدكتور يعقوب صروف فى سنة ١٩١٤ .

ولو أن هذا التصحيح المهم قد جاء من رجل غير أستاذنا المغفور له الدكتور صروف ، الذى عرفنا الكثير من خلقه العظيم ، لقلنا إنه تصحيح ذو غرض ، ولكن الرجل كان صادقاً فى تصحيحه — كعهده فى أمره كله — وما علمنا أن أحداً قام بالرد على الدكتور يعقوب صروف ليناقضه فى هذه الحقيقة التى لا نعلم له مصلحة خاصة فى تصحيحها .

وليست هذه هى الواقعة الوحيدة فى حياة جرجى زيدان التى تحتاج إلى تصحيح ، فهناك تاريخ وفاته الذى اضطرب فيه بعض من ترجموا له . فقد ذكر « معجم المؤلفين » أنه توفى بالقاهرة فى ٢١ أيلول « سبتمبر » سنة ١٩١٤ . وذكر شارحو ديوان الشاعر محمد حافظ إبراهيم المطبوع سنة ١٩٣٧ أنه توفى فى شهر أغسطس سنة ١٩١٤ ، بل ذكرت مجلة المقتطف فى عـــدد أغسطس سنة ١٩١٤ أن صاحب الهلال توفاه الله بغتة فى يوم الثلاثاء مساء فى ٢١ يوليو سنة ١٩١٤ . . ولا نجد مفراً من أن نأخذ بقول أهل الفقيد أنفسهم ، فهم أدرى بتاريخ وفاة فقيدهم ، كما هم أعلم بكثير من أمره . فقد جاء فى الترجمة التى ظهرت فى ذيل الجزء الرابع من « تاريخ آداب اللغة العربية » أن مؤلف هذا الكتاب توفى فى ٢٢ يوليو سنة ١٩١٤ .

على أن هذا الخلاف اليسير الهين فى يوم وبعض يوم ، وشهر بعض شهر ، يذكرنا بما وقع فيه مترجمو سيرة المفكر الثائر : أديب اسحاق ، فقد كادوا يجمعون على أن وفاته كانت سنة ١٨٨٥ ، إلا واحداً فقط هو المستشرق الدكتور كرنيلوس فانديك ، الذى ذكر تاريخ الوفاة صحيحاً فى سنة ١٨٨٤ ، حيث يؤكد هذا قرينة أخرى قوية ، وهى أن نعى أديب أسحاق فى المقتطف كان فى عدد يوليو سنة ١٨٨٤ فليس من المعقول أن تكون الوفاة قد وقعت فى سنة ١٨٨٥ [1] ! !

هاتان حقيقتان لا بد من تصحيحهما والتنبيه إليهما فى معرض الحديث عن جرجى زيدان ، بمناسبة الحديث عن كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وما عدا ذلك من الحقائق والوقائع مما يتصل بسيرة هذا المؤرخ اللغوى الأديب الكبير فلا اعتراض لنا عليه :

وإذا كانت بضعة من الكتب قد أمدتنا بمعلومات هامة عن سيرة جرجى زيدان ، كما أن عشرات من المقالات فى المجلات قد زودتنا بحصيلة من المعارف

---

(١) كان لنا حظ السبق إلى تصحيح تاريخ وفاة أديب اسحاق فى بحث لنا نشر بمجلة « المعرفة » التى تصدر بدمشق عدد شهر فبراير سنة ١٩٦٥ .

الضرورية للترجمة لحياة المؤرخ زيدان ، فأن هناك « مذكرات خاصة » للرجل قد رجع إليها ونقل عنها الأستاذ طاهر الطناحى ، وهو يترجم لصاحبنا فى كتاب « عصاميون عظماء من الشرق والغرب » الذى أصدرته دار الهلال سنة ١٩٥٤ . ولا شك أن هذه المذكرات التى كتبها صاحبها فى جو من الصراحة التامة وعدم التحرج من ذكر الفقر وصعوبات الحياة – تلقى أضواء ساطعة قوية على حياة هذا الرجل الذى تعد سيرته درساً عظيما لكل من يريد النجاح فى الحياة .

وتدلنا مذكرات جرجى زيدان الخاصة ، على طراز من الرجال ندر أن تقع العين من مثله على كثير . فكثير من الناس – وخاصة من بلغوا شيئاً فى الحياة – يتنكرون لماضيهم ، ويستحون أن يذكر هذا المـــاضى البئيس أمامهم أو يذكروه هم على أطراف ألسنتهم . . ويحاولون أن يطمسوه طمساً ، ويودون – بجدع الأنف – لو محى من تاريخهم . . . ولكن العصامى جرجى زيدان كان غير هذا . . لقد كان أبوه صاحب مطعم متواضع فى بيروت ، وقد جمع إلى الفقر الأمية فى العلم ، فلم يظفر بتعليم . . . ولكن ذلك لا يمنع صاحبنا أن يقول فى مذكراته : « نشأت فى صباى وأنا أرى والدى يخرج إلى دكانه فى الفجر ، ولا يعود إلا فى نحو منتصف الليل أو قبيله ، وأرى والدتى لا تهدأ لحظة من الصباح إلى المساء . . . » .

واضطر الغلام جرجى زيدان – وهو فى الحادية عشرة – أن يجيب دعوة أبيه إياه لمساعدته فى المطعم ، ولو كاتباً للحسابات على الأقل ! ووجد الأب من ابنه عوناً نافعاً فحبسه فى المطعم وحجزه عن إتمام تعليمه الذى كانت نفسه تتحرق إليه . . . وخشيت الأم وخشى معها ابنها على مستقبله . ويحدثنا جرجى زيدان فى مذكراته الخاصة بعبارته السمحة الطيبة قائلا : « ولما مضى على اشتغالى فى ذلك المطعم عام وبعض العام ، خافت والدتى أن يطول مقامى ويضيع مستقبلى . وكانت تكره المطاعم . وكانت منذ طلبنى والدى لمساعدته تلح عليه أن لا يطول مقامى ، وهو يعدها . . فلما مضت السنة الأولى ألحت عليه أن يخرجنى ويعيدنى إلى المدرسة ، فقال لها : إنه قد أتم دروسه ، ولا فائدة من كثرة الدرس ، إلا إذا كنت تنوين أن تجعليه كاتباً أو معلماً ، فضلا عن أن كثرة التعليم تجعله متفرنجاً متأنقاً ، لا يأكل إلا بالشوكة والسكين ، وربما حدثته نفسه أن يلبس اللباس الأفرنجى . . . ! ! » .

على أن هذا المطعم كان نعمة كبرى على الغلام جرجى زيدان فيما بعد . . . فقد كان – بمن يحويهم من نخبة الطاعمين – مثاراً لطموح الفتى واتساع اهتماماته . ففيه التقى باليازجى ، وعبدالله البستانى اللغوى وغيرهما ، واستمع إلى أحاديثهم ومناقشاتهم ، وفيه التقى بطلبة الطب فى الكلية الأميركية التى أنشأتها الإرسالية الأمريكية فى بيروت سنة ١٨٦٦ . ولا شك أن هؤلاء الطلبة قد أثاروا حماسته لطلب العلم . ولا شك أنهم هم الذين دلوه على طريق الدخول فى مدرسة الطب هناك . فدرس العلوم الإعدادية التى تؤهله للالتحاق بقسم الطب فى الكلية سنة ١٨٨١ . ولم تزد مدة دراسته الإعدادية هذه على شهرين ونصف شهر . وتصور لنا هذه المدة القصيرة روح العزيمة والجد التى تجلت فى الفتى منذ أول أمره . وإلى هذه الروح يشير خليل مطران فى رثائه له بقوله :

ألا فى سبيل الله حكمتك التى
جلاها « هلال » مالىء الكون مقمر
وجد به رضت الصعاب ، فما كبا
إلى أن دهـــاه جـــدك المتعـــثر

ولقد كان لهذا المطعم أثر آخر فى اهتمامات جرجى زيدان التى تجلت بعد هذا فى اطلاعاته الواسعة على حفنة من اللغات الأجنبية . فقد التقى فيه بأحد الحرفاء

« الزبائن » المترددين عليه للطعام ، — وهو المعلم مسعود الطويل — الذى كان يشتغل بتعليم الشبان اللغة الإنجليزية فى مدرسة خاصة فتحها لهذا الغرض ، ولم يتوان جرجى زيدان عن الانضمام إلى هذه المدرسة المسائية ، وما هى إلا خمسة أشهر حتى كان صاحبنا يقرأ « رحلة كوك » بالإنجليزية فى سهولة ويسر .

وكان كتاب رحلة كوك أول كتاب يقرؤه الفتى بالإنجليزية ، إلا أن كتباً عربية كثيرة قد سبقت إلى يديه ، وحصل عليها بماله الذى كان يقتطعه من مصروفه . والغرام بشراء الكتب واقتنائها — مهما كانت أثمانها — ظاهرة تلفت النظر فى حياة زيدان . ويروى لنا هو نفسه فى مذكراته الخاصة كيف اقتنى لأول مرة فى حياته كتاب « مجمع البحرين » للشيخ ناصيف اليازجى ، فيقول : (كنت أسمع بكتاب مجمع البحرين ، وأحب اقتناءه . لكنى كنت أستغليه ، لأن ثمنه على ما أظن كان أربعة فرنكات أو خمسة . ففى ذات يوم كنت جالساً بالمطعم ، فمر غلام وبيده هذا الكتاب مستعملا ، وهو يعرضه للبيع ، فاشتريته منه بتسعة قروش بيروتية ، أى أقل من نصف ثمنه ، وفرحت به كثيراً . ولما رجع والدى سألنى عنه ، فأخبرته أنى اشتريته بتسعة قروش ، فزعل ، وقال : « أتدفع فى هذا الكتاب تسعة قروش ، وتبدل الدراهم بورق ؟ » . فزعلت ، ولم أجبه . ولما انصرفنا للبيت فى المساء ، وكانت الوالدة قد أعدت لنا العشاء ، أظهرت أنى لا أريد الطعام ، وذهبت للنوم ، وأنا أتوقع أن يدعوانى ، ولا يتركانى أنام جائعاً . وسمعت والدتى تعنف والدى لإغضابى حتى نمت بلا أكل ، ولكنه أصر على رأيه . . . واتفق أن جاء أمين فياض — أحد أصدقاء والدى — للسهرة عنده فى تلك الليلة ، وكان يتودد إلى ، فسأل عنى ، فقيل له إنى نمت . واغتنمت والدتى هذه الفرصة ، وشكت إليه عناد والدى . فسأله عن سبب غضبه ، فقال : « إنه يصرف الدراهم فى شراء الورق بلا فائدة ! » فأجابه : « اشكر الله الله يا أبا جرجى أن ابنك ينفق الدراهم فى شراء الكتب ، وليس فى السكر ونحوه . إنها نعمة يجب أن تشكر الله عليها » وسمعت كلمات هذا الصديق وأنا أتظاهر بالنوم وللحال اشتد ساعد والدتى ، وقامت فأيقظتنى ، وأجلستنى إلى المائدة ، وطيبت خاطرى ، وكذلك والدى . . . ولا تزال هذه الحادثة نصب عينى . .) .

لقد كان الحافز إلى التعلم عند جرجى زيدان شخصياً وطبيعياً ، ولكن ظروفاً مواتية أعانت على تقوية هذا الحافز ودفعه إلى الأمام ، على الرغم من عدم مواتاة الظروف المادية التى كانت تعيش فيها أسرته . ولم يبال الفتى بهذه الظروف المعاكسة وحاول دائماً أن يتغلب عليها . وعلى أبواب السنة العشرين من عمره ، وفى سنة ١٨٨٠ ، كانت قد ظهرت الطبعة الثانية لكتاب « سر النجاح » لصمويل سميلز الذى ترجمه الدكتور يعقوب صروف وأصدرته مطبعة المقتطف ، وفى هذا الكتاب صور لنماذج بشرية نجحت فى الحياة ، وتغلبت على ما فيها من عقبات ، استناداً إلى العزيمة والدأب ، والجد والكفاح ، وعدم تسرب الملل واليأس إلى النفس. واقتنى الفتى نسخة من هذا الكتاب ، ورأى بعد قراءته أن المطالب العالية فى الحياة لا يقف دونها ما قد يتوهمه الناس حوائل وموانع . وكانت قراءته لهذا الكتاب مما دفعه دفعاً إلى الالتحاق بقسم الطب بالكلية الأمريكية :

ودخل جرجى زيدان مدرسة الطب ببيروت سنة ١٨٨١ ، وكان من أحسن طلابها استماعاً للأساتذة ، وإقبالا على العلم ، وعكوفاً على الدرس ، على الرغم من انشغاله فى الوقت نفسه بأمور معاشه . وتشير المصادر إلى أنه اضطر إلى ترك كلية الطب فى العام الثانى، بسبب «الاختلال المشهور الذى حصل فى تلك المدرسة»[1]

(١) الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين — للأب لويس شيخو ص ٧١ .

ويشير مصدر آخر حديث إلى أنه فى سنة ١٨٨١ وقعت فى الكلية حادثة « الحرية الفكرية » ، ويشير الأب لويس شيخو – نقلا عن مجلة الهلال – إلى ما حدث فى المدرسة من المنازعات التى كان لزيدان فيها نصيب وافر ، ثم ما حصل بين المعلمين من الانقسام بسبب التعليم بالإنجليزية بدلا من العربية .

وقد استطعت بعد طول تنقير وتنقيب أن أجد فى السنة السابعة من مجلة المقتطف تفصيلا – بقلم الدكتور يعقوب صروف نفسه – لحادث المدرسة الكلية الطبية ببيروت ، وما لابسه من استقالة ثلاثة من المشتغلين بالتدريس فيها ، وهم الدكتور كرنيلوس فانديك المستشرق المشهور ، وأستاذ الباثولوجيا بها ، والدكتور أدون لويس أستاذ الطبيعيات والكيمياء ، والدكتور وليم فانديك نجل العلامة كرنيلوس ومدرس المـــادة الطبية والحيوان بالكلية .

واتجه جرجى زيدان بعد ذلك إلى دراسة الصيدلة بدلا من الطب مع لفيف من رفاقه المبعدين من الكلية ، وامتحنته لجنة خاصة محايدة من علماء سورية وأطبائها ، منهم الكولونيل مراد بك حكيمباشى العسكر ، والدكتور فانديك ، والدكتور لويس ، فنال شهادة الصيدلة بالنجاح فى العلوم الآتية : اللغة اللاتينية ، والطبيعيات ، والحيوان ، والنبات ، والجيولوجيا ، والكيمياء العضوية والمعدنية ، والتحليل الكيمى ، والمواد الطبيعية ، والأقرباذين العلمى والعملى .

وجاء إلى مصر بعد ذلك ، ورغب أن يدخل مدرسة الطب المصرية ، ولكن طول الدراسة فيها صرفه عنها ، فاشتغل بالعلم ، والصحافة محرراً فى جريدة « الزمان » . ورافق الحملة النيلية إلى السودان سنة ١٨٨٤ مترجماً . وقد أكسبته هذه الرحلة كثيراً من التجارب الجديدة عليه .

وفى سنة ١٨٨٥ عاد إلى بيروت من مصر ، وكانت قد سبقته إليها شهرته العلمية واللغوية التى كسبها بقراءاته الواسعة ، فانتخب عضواً بالمجمع العلمى الشرقى . وهناك تعلم العبرانية والسريانية وأتقنهما وأضاف إليهما بعض اللغات السامية والشرقية الأخرى .

وفى سنة ١٨٨٦ زار إنجلترة وجال جولة مفيدة فى متاحفها ومكتباتها الشهيرة . وفى شتاء العام نفسه عاد إلى مصر حيث طلب إليه أصحاب مجلة المقتطف أن يتولى « إدارته » لا « تحريره » كما سلف القول . فنهض بالعبء على خير وجوهه . ولكنه آثر أن يستقل بالعمل وحده ، فاستقال من إدارة المقتطف سنة ١٨٨٨ حيث تفرغ للكتابة والتأليف ، وفى هذه الفترة أتم تأليف كتابه « تاريخ مصر الحديث » .

ولم يكن « تاريخ مصر الحديث » أول الكتب التى ألفها جرجى زيدان ، فقد سبقه بضعة من الكتب ، ولعل أول كتاب ألفه هو « الفلسفة اللغوية » الذى ظهر سنة ١٨٨٥ والذى قدمه إلى الهيئات والمجامع العلمية الدولية ، فظفر بعضوية « المجمع الآسيوى الملكى » فى إيطاليا . وتستطيع أن تحكم على العبقرية المبكرة لهذا العالم البحاثة إذا عرفت أنه أتم تأليف « الفلسفة اللغوية » ولم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين . . .

أما أولى روايات جرجى زيدان التاريخية ، فهى رواية « المملوك الشارد » التى أتمها حوالى سنة ١٨٩٠ ، والتى تصور عصر محمد على أدق تصوير .

وإذا كان كتاب « الفلسفة اللغوية » هو أول كتاب علمى لغوى ألفه جرجى زيدان ، فأن كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » هو آخر كتاب علمى أدبى صنفه ، فما كاد ينتهى من الجزء الرابع فى صيف سنة ١٩١٤ حتى أدركته منيته فى شهر يوليو من العام نفسه ، على أن أول جزء من هذا الكتاب – الذى هو موضوع بحثنا اليوم – قد صدر فى صيف سنة ١٩١١ ، فكأنه قضى

فى تأليف هذا الكتاب ثلاث سنوات ، وإن كان قد نشر طائفة من فصوله فى مجلة « الهلال » سنة ١٨٩٤ أى بعد صدورها بعامين اثنين .

ولقد دخل جرجى زيدان ميدان الصحافة الأدبية بأنشائه مجلة الهلال الشهرية سنة ١٨٩٢[1]. وفى أول سبتمبر من ذلك العام صدر أول أعداد الهلال يحمل فيما يحمله من مقالات وبحوث ودراسات ، مقدمة لمنشئه ، يكشف فيها عن خطته وأهدافه من إصدارها قائلا : « لا بد للمرء فيما يشرع فيه من فاتحة يستهل بها ، وخطة يسير عليها ، وغاية يرمى إليها . أما فاتحتنا فحمد الله على ما أسبغ من نعمه ، وأفاض من كرمه . والتوسل إليه أن يلهمنا الصواب ، وفصل الخطاب ، وأما خطتنا فالإخلاص فى غايتنا ، والصدق فى لهجتنا ، والاجتهاد فى وفاء حق خدمتنا . ولا غنى لنا فى ذلك عن معاضدة أصحاب الأقلام من كتبة هذا العصر فى كل صقع ومصر ، أما الغاية التى نرجو الوصول إليها ، فأقبال السواد على مطالعة ما نكتبه ، ورضاؤهم بما نحتسبه ، وإغضاؤهم عما نرتكبه. فأذا تيح لنا ذلك كنا قد استوفينا أجورنا ، فننشط لما هو أقرب إلى الواجب علينا . . »

وعلى الرغم من دخول « الهلال » ميدان الصحافة الأدبية منافسة « للمقتطف » التى أنشئت قبلها ببضعة عشر عاماً[2] ، فقد استقبلت الرصيفة القديمة زميلتها الجديدة استقبالا كريماً فى باب «الهداياوالتقاريظ » من عدد سبتمبر سنة ١٨٩٢ ص ٨٤٤ ، معرفة بها وبأبوابها ، مثنية على « منشئها الكاتب الفاضل جرجى أفندى زيدان » ، موجزة الحديث عن انسجام عبارتها وجمعها لأشتات الفوائد ، متمنية لها أتم النجاح .

وقد ظل اسم « الهلال » وجرجى زيدان متلازمين حتى بعد وفاة صاحب الهلال سنة ١٩١٤ . وما أغفل شاعر أو كاتب أو خطيب هذا التلازم فى حفل التأبين الذى أقيم لجرجى زيدان فى نادى الاتحاد السورى فى ٢٨ مايو سنة ١٩١٥ ، أى بعد عشرة أشهر من وفاته . فنجد الشاعر أحمد شوقى يقول :

قد أكمل الله ذياك « الهلال » لنا
فلا رأى الدهر نقصاً بعد إكمال
ولا يزل فى نفوس القارئين له
كرامة الصحف الأولى على التالى
فيه الروائع من علم ومن أدب
ومن وقائع أيام وأحوال
وفيه همة نفس زانها خلق
هما لباغى المعالى خير منوال

ونجد الشاعر حافظ إبراهيم يقول عن زيدان صاحب « الهلال » ، واليازجى صاحب « الضياء » :

وكم فزت من رب « الهلال » بحكمة
وكم زنت من رب « الضياء » بيانى

ثانياً : آثاره ومؤلفاته

لقد كان جرجى زيدان متعدد النواحى الثقافية ، فلم يقف بالمعرفة عند حد . وقد هيأته ثقافته الطبية والصيدلية والطبيعية الأولى لكى يكون مؤرخاً وأديباً ولغوياً علمى المنهج . فهو مؤرخ أدب لم تجنح به عاطفة ولم يمل به خيال فى الأحكام . وإنما هو صاحب عقلية علمية منهجية تجريبية . وقد ظهرت هذه العقلية فى أكثر ما كتبه وألفه من كتب . فحين أخرج لنا كتابه« تاريخ مصر الحديث » ، مبتدئاً من تاريخ الفراعنة حتى العصر الحديث ، لم يكتف بالانكباب على الكتب يقرؤها ويستخرج منها مادة كتابه التى نسقها تنسيقاً بديعاً ، ولكنا رأيناه يتجه إلى « المعاينة » و « المشاهدة »

---

(١) ذكر الأب لويس شيخو أن الهلال صدر فى تشرين الأول (أكتوبر ١٨٩١) ، وهو وهم .

(٢) صدرت المقتطف أولا فى بيروت سنة ١٨٧٦ عن الدكتورين يعقوب صروف وفارس نمر ، ثم انتقلت إلى مصر بعد ذلك بخمس سنوات حيث ظلت توالى إصدارها إلى سنة ١٩٥٢ .

و « التجربة » . كما كان يفعل الجاحظ . وكما أوصى مؤرخنا « ابن خلدون » أن يفعل المؤرخون حين يؤرخون . فنرى جرجى زيدان يحصل على ترخيص من وزارة الأوقاف بتفقد الآثار العربية . ثم يجشم نفسه عناء الرحلة والنقلة إلى الآثار التي تحدث عنها في كتابه ، حتى يكون كلامه كلام الخبير المجرب . ثم هو لا يبالى أن يرحل في سبيل « المعاينة التاريخية » إلى ما وراء « حلفا » آخر الحدود المصرية . ويقول فى مقدمته لكتاب « تاريخ مصر الحديث » : « فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها . ولا سيما ما كان منها قديماً . كجامع عمرو . وجامع ابن طولون . والجامع الأزهر . وجامع السلطان حسن . وجامع السلطان برقوق . وجامع قايت باى . وجامع الغورى وغيرها . وزرت ما هنالك من البنايات القديمة كالقلعة وما جرى مجراها . وتسلقت ما صعب مسلكه منها . ولا سيما أسوار القاهرة القديمة وأبوابها . كباب النصر . وباب الفتوح . وباب الشعرية وغيرها . ومن هذه الأماكن ما قد تداعت أركانه وصعب الصعود إليه إلا بالمخاطرة . فكثيراً ما كنت أخاطر بحياتي لهذه الغاية . ومن الآثار التي تفقدتها . ما عدا الجوامع والمشاهد والتكيات والشوارع . قصر الشمع أو دير النصارى فى مصر القديمة . ودار التحف العربية فى جامع الحاكم بشارع النحاسين . وغير هذه من الأماكن فى القاهرة وضواحيها كالقناطر الخيرية وغيرها .

أما الآثار المصرية القديمة فقد تفقدتها كلها أيضاً . ولا سيما ما هو منها فى مصر العليا . مبتدئاً من أهرام الجيزة بجوار القاهرة ، إلى ما وراء وادى حلفا آخر حدود مصر . فزرت خرائب سقارة . وأسنا . وطيبة . والكرنك . وبيبان الملوك . وجبل السلسلة . وأنس الوجود ، وأبا سنبل وغيرها . ومثل ذلك آثار مصر السفلى مبتدئاً بالمطرية ، فأتريب فغيرها . وفى مصر العليا فضلاً عن الآثار المصرية القديمة آثار استحكامات وبنايات بناها المماليك أو غيرهم فى حال محاربتهم حكومة البلاد أو دفاعهم عنها . كل هذه الأماكن تفقدتها جيداً إتماماً لمعدات التأليف . . » .

ومن هنا يتضح لك منهج جرجى زيدان فى تآليفه . فهو ليس جامع مادة . ولا حاشد معارف . بقدر ما هو محقق لها ومعاين لها بالنظر . ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وتمتاز كتابات جرجى زيدان — وخاصة العلمية — بحسن عرضها . وتنسيقها . وتنظيم الأفكار فيها . ولعله تأثر فى هذا بكتابات المستشرقين ودراساتهم . فهو ينحو نحوهم من طول ما عاناه من مطالعة كتبهم وبحوثهم . وقد وفق الله جرجى زيدان إلى أن يضع معلوماته الغزيرة ودراساته الجادة فى أسلوب علمى واضح مشرق العبارة . فى غير تعمل ولا تصنع ولا تعقيد ولا غموض . فهو يؤدى إليك المعانى المرادة فى بلاغ حسن بعيد عن الزخرفة والوشى . وينزل الألفاظ منازلها على أقدار موضعها من الكلام . وفى ترسل سهل يسير لا معاظلة فيه ولا تكلف . وقد أحسن المغفور له أنطون الجميل نعت أساوب جرجى زيدان بقوله : « من الكتاب من هم كالسيل الجارف المروع . يتدفق مرغياً مزبداً . فيثب وثبات عظيمة . وينحدر شلالات فخمة . يقف عندها المرء متهيباً . ومنهم من يشبه ذلك الجدول المترقرق على الحصباء . العاكس فى قاعه الصافى زرقة الماء . يناغيه على ضفتيه الزهر الندى . ويطرب الأسماع بخريره الشجى . وليس زيدان ذلك السيل الجارف . ولا هذا الجدول المترقرق . بل هو يشبه النهر الهادئ . كنهر النيل مثلا فى واديه . يسير بكل سكون ووقار . فيحمل فى طياته الحياة والثروة . فيحول الجدب خصباً . والتراب تبراً . . . » ومن هنا وجدت مؤلفات جرجى زيدان وكتاباته . وحتى رواياته . سبيلها إلى نفوس القراء فى كل أرض عربية أو تعرف العربية .

ونستطيع أن نقسم مؤلفات جرجي زيدان إلى مؤلفات تاريخية ، ومؤلفات فى اللغة ، ومؤلفات فى تاريخ الأدب ، ومؤلفات فى الاجتماع ، وروايات .
أما مؤلفاته التاريخية فهى :

١ – تاريخ مصر الحديث .
٢ – تاريخ التمدن الإسلامى .
٣ – تاريخ العرب قبل الإسلام .
٤ – تاريخ الماسونية العام .
٥ – تراجم مشاهير الشرق .
٦ – التاريخ العـــام .
٧ – تاريخ إنكلترا .
٨ – تاريخ اليونان والرومان .
٩ – أنساب العرب القدماء .

أما مؤلفاته فى اللغة فهى :

١ – الفلسفة اللغوية .
٢ – تاريخ اللغة العربية .

أما مؤلفاته فى الاجتماع فهى :

١ – علم الفراسة الحديث .
٢ – طبقات الأمم .
٣ – عجائب الخلق .

وليس له فى تاريخ الأدب إلا كتابه الخالد : « تاريخ آداب اللغة العربية » فى أجزائه الأربعة .

أما رواياته فيبلغ عددها اثنتين وعشرين رواية تدور مع تاريخ العرب من الجاهلية ، ومع تاريخ الإسلام منذ الفتوح إلى العصر الحديث .

وعلى الرغم من أن جرجى زيدان قد أفاد فى بحوثه ودراساته من كتب المستشرقين والأجانب ، فأن كثيراً من كتبه ورواياته قد ترجم إلى لغات أجنبية وشرقية . ولا يقولن قائل إن بضاعة المستشرقين قد ردت إليهم بهذه الترجمات ! فإن كتب جرجى زيدان مملوءة بمعارف ومعلومات من استنباطات الرجل واجتهاداته الكثيرة الموفقة التى لقى فيها المستشرقون وغير العرب أشياء جديدة عليهم . ويكفى أن نذكر هنا رأى العالم المنصف الدكتور يعقوب صروف فى مؤلفات جرجى زيدان على جملتها : « . . . واستخلص من ذلك كتباً ممتعة فى آدابها ، تشهد له بسعة الاطلاع ، وأصالة الرأى ، والبراعة فى التبويب والتنسيق ، فكان لهذه الكتب شأن كبير شرقاً وغرباً ، وترجم بعضها إلى كثير من اللغات الشرقية والغربية . وبحث فى تواريخ دول الإسلام . وألف فيها كتاباً جليلا ، وبنى على نوادرها سلسلة من الروايات التاريخية الفكاهية ، جمع فيها زبدة تواريخ تلك الدول على أسلوب لا يمله القارئ . . . » [1]

ثالثاً : كتاب تاريخ آداب اللغة العربية

تمتاز كتب جرجى زيدان فى التاريخ والأدب واللغة والسير والتراجم بأصالتها ، وبأنها أثرت المكتبة العربية ، وبأنها فتحت فى البحث العلمى ميادين جديدة لم يكن للناس فى عهده بها عهد . . . ويكفى لبيان حيوية هذه الكتب أنها شغلت العلماء والباحثين والناقدين بنقدها ومناقشاتها . والكتاب الجيد هو الذى يثير من القضايا ما لا يدع للناس سبيلا إلى السكوت عنه . وقد كان جرجى زيدان من العلماء الذين يرحبون بالنقد ولا تضيق صدورهم به . وكثيراً ما رأيناه يستحث العلماء على نقد مؤلفاته . ولا يكتفى منهم بتقريظها ، كما كانوا يفعلون فى عصره – ولا يزالون يفعلون – إبقاء على الود وإيثاراً للعافية . . . ومما يؤكد هذه الحقيقة أنه لما أصدر روايته « المملوك الشارد » فى سنة ١٨٩٢ أهدى نسخة منها إلى صديقه الدكتور يعقوب صروف رئيس تحرير المقتطف رجاء الكتابة عنها . وندع الدكتور صروف يكمل بقية الحديث قائلا : « تلقينا بالأمس نسخة من رواية المملوك الشارد التى وضعها جناب صديقنا الأديب جرجى أفندى

---

(١) مجلة المقتطف – عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ – ص ٢٨٤ .

زيدان . فاعتذرنا عن انتقادها ، وأردنا أن نقرظها بذكر موضوعها وإظهار محاسنها ، والإغضاء عما نظنه عيباً فيها ، فأبى إلا أن ننتقدها انتقاداً . فأجبنا الطلب وقرأنا الرواية على ما نحن فيه من كثرة الأشغال ، وضيق الوقت ، وعلقنا عليها السطور التالية . . . »[1]

ولما ظهر كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » سنة ١٩١١ صبر النقاد عليه حتى ظهر جزؤه الثانى بعد الأول . فاستقبلوه بالنقد والتعليق والمناقشة — مما سنعرض له بعد قليل — ولكن مؤرخنا العظيم لم يجزع للنقد ، ولم يهتز له ، بل انتضى قلمه الهادئ الرزين يرد الحجة بالحجة ، ويقرع البرهان بالبرهان ، فى أدب جم ، وعلم غزير ، وصبر جميل ، حتى لم تبد من بين شفتيه لفظة نابية . . . أو كلمة جارحة .

والحق أن كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان يعد رائداً فى التأليف فى تاريخ الأدب العربى على نهج لم يسبق إليه ؛ ومن هنا كان الاهتمام بهذا الكتاب ، لمكانه من الريادة فى هذا الميدان .

والحق — أيضاً — أن جهداً كريماً فى هذا الميدان قد سبق به الشيخ حسين المرصفى فى كتابه « الوسيلة الأدبية » الذى تحدثنا عنه فى العدد السادس من المجلد الرابع من « تراث الإنسانية » . فقد خطا المرصفى خطوة — على صغرها — فى ميدان التأريخ الأدبى على حسب العصور ، لا على حسب الموضوعات ودراسة النصوص كما كان يفعل القدماء . وهذه حقيقة لا ينبغى أن يفوتنا التنويه بها فى مقام التحقيق .

وجاء بعد الشيخ حسين المرصفى تلميذه فى دار العلوم المرحوم حسن توفيق العدل الذى تخرج فيها سنة ١٨٨٧ ، أى قبل وفاة أستاذه المرصفى سنة ١٨٩٠ بثلاث سنوات . فتنبه إلى ما فى تأريخ الأدب حسب العصور من مزية . وأكد هذا المعنى فى نفسه ما أتيح له من بعثة فى ألمانيا واتصال بالمستشرقين هناك . وخاصة « بروكلمان » الذى كان قد وضع كتابه فى تاريخ الأدب العربى على طريقة العصور . وإن كان لم يظهر مطبوعاً إلا فى سنة ١٨٩٨ . وأعجب المرحوم حسن توفيق العدل بهذه الطريقة . فلما عاد من ألمانيا ليشتغل بالتدريس فى دار العلوم قدم هذه الطريقة إلى طلبته فيها على هيئة مذكرات عنوانها « تاريخ آداب اللغة العربية » . ويذكر المرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد أنها طبعت بعد وفاته سنة ١٩٠٦ بمطبعة مدرسة الفنون والصنايع الخديوية[1]

وجاء المرحوم محمد بك دياب — وهو من رجال دار العلوم أيضاً — فأصدر فى التأريخ الأدبى على وفق العصور كتابه الموسوم : « تاريخ آداب اللغة العربية » الذى ظهر فى جزءين سنة ١٨٩٩ — ١٩٠٠ م . وانتهى القرن التاسع عشر بهذه الكتب الثلاثة فى تاريخ الأدب العربى على حسب العصور . ألفها ثلاثة من أساتذة دار العلوم أو أبنائها .

وجاء القرن العشرون فإذا بالأستاذ محمد حسن نائل المرصفى[2] يصدر فى سنة ١٩٠٨ كتابه : « أدب اللغة العربية » مرتباً ترتيباً زمنياً كذلك . وفى سنة ١٩٠٩ يظهر كتاب « أدبيات اللغة العربية » لجماعة من أبناء دار العلوم هم محمد عاطف ، ومحمد نصار ، وعبدالجواد عبد المتعال . ولا يطول بنا الزمن بعد هذا أكثر من عامين اثنين حتى نرى مؤرخنا جرجى زيدان يصدر كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » على نحو واسع مبسط مفصل لم يألفه الناس فيما صدر قبله من كتب فى

(١) مجلة المقتطف — السنة السادسة عشرة — سنة ١٨٩٢ — ص ٣٤٧ .

(١) مجلة الكتاب — عدد يوليو سنة ١٩٤٧ — ص ١٣٨٠ .

(٢) كان الشيخ محمد حسن نائل المرصفى من نوابغ الأدباء فى وقته ، وهو أزهرى ، ولم يتعلم فى دار العلوم كما ذكر ذلك خطأ خير الدين الزركلى فى « الأعلام » ونقل الخطأ عنه عمر رضا كحالة فى « معجم المؤلفين » . ومن آثاره فى الصحافة الأدبية مجلة « الجديد » التى كانت تحفة رائعة . توفى سنة ١٩٣٥ .

تاريخ الأدب العربى . ويظهر الجزء الأول من هذا الكتاب فى سنة ١٩١١ بهذا الاسم الجديد لهذا العلم الذى هو من مبتكرات جرجى زيدان . وقد سبق جرجى زيدان المرحومين حسن توفيق العدل ومحمد دياب ومحمد حسن نائل المرصفى ، ومحمد عاطف وزملاءه إلى تسمية هذا العلم بعلم « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فإنه فى سنة ١٨٩٤ وفى السنة الثانية من مجلة « الهلال » كان قد نشر فصولا تحت عنوان : تاريخ آداب اللغة العربية ، فكان بذلك أول واضع لاسم هذا العلم ، وعنه أخذ الأساتذة السابق ذكرهم عناوين كتبهم التى سبقوا بها فى الصدور والظهور منذ سنة ١٨٩٩ ، وإن كان كتاب جرجى زيدان لم يظهر — على شكل كتاب — إلا فى سنة ١٩١١ .

وقد يكون جرجى زيدان على حق حين يقول عن نفسه إنه أول من كتب فى « تاريخ الأدب العربى على هذا النحو ، وإنه أول من سمى هذا العلم باسم « تاريخ آداب اللغة العربية » ؛ فإن الفصول التى بدأ بنشرها فى مجلة الهلال منذ سنة ١٨٩٤ تحت هذا العنوان الجديد ، هى أقوى مؤيد لدعواه ، على أن جهود هؤلاء الرواد الذين ذكرناهم فى هذا السبيل لا يجوز إغفالها أو التقليل من قدرها .

وقد استقبل الدكتور يعقوب صروف الجزء الأول من « تاريخ آداب اللغة العربية » بكلمة فى مقتطف أغسطس سنة ١٩١١ تكاد تكون تقريظاً للكتاب وعرضاً موجزاً له . قدمها بهذه الأسطر : « لصديقنا جرجى أفندى زيدان — صاحب الهلال — فضل لا ينكر على أبناء العربية ، بما ألفه فيها ، وآخر ما أتحفنا به الجزء الأول من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وهو يبحث فى تاريخ آداب هذه اللغة فى عصر الجاهلية وعصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموى » .

واكتفى الدكتور صروف فى كلمته عن الجزء الأول بالتقريظ والعرض ؛ فلما ظهر نقد الجزءين الأول والثانى لحفنة من أفاضل العلماء ، لم يجد « صروف » بداً — حين حديثه عن الجزء الثالث فى عدد سبتمبر من المقتطف سنة ١٩١٣ — من أن يدخل ميدان النقد بكلمة وجيزة يقول فيها : « ولا شبهة فى أن كثيراً من منقولاته وأحكامه يفتقر إلى التحقيق والتمحيص ، ولكن ذلك يكون بعد هذا الجمع والتبويب . . » ويلاحظ ما فى هذه الكلمة من كياسة ولباقة ؛ فقد رضى الناقد هنا بمرحلة الجمع والترتيب — على ما فيها من مآخذ وأخطاء ، على أن يأتى التحقيق بعد ذلك فى مرحلة تالية . . . !
والحق أن كلمة الدكتور صروف هنا كانت دفاعاً عن صديق من صديق ، فى معركة سل عليه النقاد فيها سيوف نقدهم !

وتتجلى الروح العربية الخالصة فى مؤلفات زيدان عامة ، وفى « تاريخ آداب اللغة العربية » خاصة ، فهو يدافع عن العرب فى كل موقف ، ويغلى فى تقديرهم إلى درجة كبيرة ، ويضعهم من حيث الثقافة والعقلية فى مستوى لا يقل عن مستوى الأمم ذات الحضارات القديمة كاليونان والرومان ، وينفى عنهم ما قد توهمه البداوة جهالة وتخلفاً . فيقول مثلا فى موضع الحديث عن درجة ارتقاء عقولهم : « وقد يتبادر إلى الأذهان أن أولئك البدو كانوا أهل جهالة وهمجية ، لبعدهم عن المدن وانقطاعهم للغزو والحرب . . . ولكن يظهر مما وصل إلينا من أخبارهم أنهم كانوا كبار العقول ، أهل ذكاء ونباهة واختبار وحنكة . وأكثر معارفهم من ثمار قرائحهم ، وهى تدل على صفاء أذهانهم ، وصدق نظرهم فى الطبيعة وأحوال الإنسان ، مما لا يقل عن نظر أعظم الفلاسفة »[1] ويذهب فى تقدير حكمتهم درجة أخرى أكثر إغلاء فى المرمى ، فيعدحكم زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة مما « لا يقل شيئاً عن أحكام أكابر الفلاسفة . . . »[2] .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية — الجزء الأول — طبعة سنة ١٩٥٧ — ص ٣٤ . (٢) المصدر نفسه ص ٣٥ .

ثم يمضى جرجى زيدان فى إعظام تقديره للعلوم عند عرب الجاهلية فيقرر « أن العرب عرفوا كثيراً من الأمراض ومعالجتها ، وناهيك بما عرفوه وتوسعوا فيه من أحوال الأعضاء وأوصافها ، وهو من قبيل علم التشريح ، وهم يعبرون عنه بخلق الإنسان . وقد ألف أدباء المسلمين كتباً كثيرة فى هذا الموضوع نقلا عن العرب ، سيأتى ذكرها بين مؤلفات أهل اللغة . والمتأمل فيما حوته من أسماء الأعضاء وأوصافها يتبين له أن أولئك الجاهليين كانوا على معرفة بتشريح الأعضاء . . »[1] .

وقد بلغ من غلو جرجى زيدان فى هذا التقدير أن الدكتور شوقى ضيف - الذى عهد إليه تحقيق الطبعة الأخيرة من «تاريخ آداب اللغة العربية» والتعليق عليها ، والإضافة إليها - وجد نفسه مضطراً إلى أن يعلق على هذا الغلو قائلا : « ينبغى ألا نبالغ فى معرفة عرب الجاهلية بالطب ، فإن ما كان عندهم من ذلك لا يتجاوز ملاحظات أولية بسيطة »[2] ! !

ولم يُخَلِّ جرجى زيدان بين العرب ومعرفتهم لعلم تاريخ آداب اللغة العربية وسبقهم إليه ، كسبقهم فى موضوعات أخرى . ويقرر - فى هذا الشأن - أن كتب التراجم التى ألفها العرب فيها كثير من علم تاريخ الأدب ، لأنهم يشفعون الترجمة بما خلفه المترجم له من الكتب ، ويبينون موضوعات هذه الكتب ، وقد يجاوزون هذا التبيين إلى وصفها[3] . وعد من هذه الكتب المتخصصة فى البحث عن المؤلفين ومؤلفاتهم كتاب « الفهرست » لابن النديم ، و « مفتاح السعادة » لطاشكبرى زاده ، و « كشف الظنون ، عن أسامى الكتب والفنون » لحاجى خليفة ، و « أبجد العلوم » لصديق حسن خان القنوجى الهندى من علماء المسلمين فى القرن التاسع عشر .

(١) المصدر نفسه ص ١٩٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٩ بالهامش .

(٣) مقدمة جرجى زيدان لكتاب تاريخ آداب اللغة العربية - ص ٩ .

وعاد جرجى زيدان بعد قليل ليصحح الرأى فى هذا الموضوع الذى أثاره فقال إن هذه الكتب وأمثالها تعد من المآخذ الأساسية لدرس آداب اللغة ، ولكنها لا تصح أن تسمى تاريخاً لها بالمعنى المراد بالتاريخ اليوم[1]

وتتجلى القيمة الحقيقية لكتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان فى مزايا كثيرة تنكشف بأدنى نظرة عند القارئ المحقق المتفطن لقيمة ما يقرؤه ، وأول هذه المزايا ما هدف إليه جرجى زيدان من « بيان منزلة العرب بين سائر الأمم الراقية ، من حيث الرقى الاجتماعى والعقلى » . ولم يتخل هذا الهدف عن عينى « زيدان » لحظة واحدة فى خلال الألف وخمسمائة صفحة التى يحتويها هذا الكتاب الضخم .

على أن جرجى زيدان لم يكتف - فى معرض إثباته لحقيقة العقلية العربية الخصبة - بتقريرها فقط ، ولكنه يثبت بالوقائع والأدلة ما تقلبت عليه عقول العرب وقرائحهم ، وما كان لهم من أثر فى العصور المتعاقبة عليهم ، وما كان لتلك العصور وأحداثها من أثر فى تاريخ تطورهم العقلى والحضارى .

ولا يكتفى صاحبنا بالوقوف عند هذا الحد أو بلوغ هذا المبلغ ، ولكنه يقف عند كل علم من علوم العرب وقفة طويلة مستأنية ، يتابع فيها نشأته ، وتطوره ، ويراقب - مراقبة دقيقة واعية - نموه ونضجه وتشعبه وانحلاله أو ازدهاره . فعل ذلك فى الشعر الجاهلى ، وفى العلوم الطبيعية والرياضية فى العصر الجاهلى ، وفى الخطابة فى الجاهلية وصدر الإسلام . وفعل مثل ذلك وأكثر منه فى العصر الأموى والعباسى والمغولى والعثمانى والعصر الحديث الذى يبدأ منذ بداية القرن التاسع عشر . ففى النحو - مثلا - نراه يتحدث عن نشأته ، وأول

(١) المصدر السابق ص ١٠ .

من علله ، وأول من ضبط قواعده وألف فيه ، ومذهب البصريين والكوفيين . وكل هذا فى معرض الحديث عن النحو فى العصر العباسى الأول . فإذا بلغ العصر العباسى الثانى عالج موضوع النحو والنحاة فيه معالجة ملائمة ، فإذا بلغ — بعد عشرات وعشرات من الصفحات — العصر العباسى الثالث تناول موضوع النحو والنحاة فيه على ضوء ما تطور من دراسته ، مع بيان ما حدث فيه من تخلف أو توقف أو ابتكار ، وهكذا يمضى فى بقية العصور حتى العصر الحديث .

وهكذا يتناول الرجل كل علم ، وكل موضوع فى كل عصر من عصور الأمة العربية ، فيلقى عليه من الأضواء ما يكشف عن حقيقته ونموه أو تخلفه .

ولا يرضى صاحبنا من الحديث عن موضوعات العلوم وفنون الأدب بهذا القدر ، ولكنه يقف عند رجال هذا الموضوع ، أو أعلام هذا الفن ، يترجم لكل واحد منهم ترجمة قد تقصر إلى بضعة من السطور وقد تطول إلى بضع من الصفحات . فترجمته للإمام مسلم صاحب الجامع الصحيح فى حديث الرسول عليه السلام تبلغ ستة أسطر[1] ، وترجمته للمؤرخ الأديب الشاعر صلاح الدين الصفدى صاحب كتاب « الوافى بالوفيات » تبلغ أربع صفحات أو تقاربها[2] .

ومن المؤرخين والمؤلفين من يكتفى فى تراجمه للرجال بذكر أخبارهم التى ينقلها عن مصادر ومراجع لا يرى ضرورة للإشارة إليها . ولكن جرجى زيدان قد أفاد من المستشرقين فى هذه الناحية . فهو يذكر فى كل ترجمة المصادر والمراجع التى يمكن الرجوع إليها لمن يريد أن يتوسع فى الموضوع ، أو لمن يريد أن يهتدى إلى مآخذه ومصادره . ولقد كان بعض المؤرخين العرب يكتفى بذكر المصادر والمآخذ جملة فى صدر كتابه أو فى مقدمته ، كما فعل مؤرخنا المصرى

(١) الجزء الثانى من تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٤٦ .
(٢) الجزء الثالث — ص ١٧٤ — ١٧٨ .

العسقلانى « ابن حجر » فى كتابه « الدرر الكامنة ، فى أعيان المائة الثامنة » المطبوع بحيدر أباد الدكن بالهند سنة ١٣٤٨ هـ سنة ١٩٢٩ م . ولكن جرجى زيدان يذكر المآخذ والمصادر عقب كل ترجمة لكل علم ، شاعراً كان ، أم خطيباً ، أم مؤلفاً ، أم فقيهاً ، أم مفسراً ، أم محدثاً ، أم لغوياً ، أم صحافياً . . .

ولا يكتفى هنا بالمصادر العربية ، ولكنه يضيف إليها المصادر الأجنبية — أوربية كانت أم أمريكية . ففى ترجمته — مثلا — للشاعر الجاهلى : « تأبط شرا » يذكر مآخذ الترجمة لحياته على هذا النحو قائلا : « وأخباره فى الأغانى ٢٠٩ ج ١٨ ، والشعر والشعراء ١٧٤ ، وخزانة الأدب ٦٦ ج ١ . وكتب عنه بور BAUR بالألمانية مقالة فى سيرة حياته وشعره ، فى المجلة الشرقية الألمانية سنة ١٨٥٦ »[1] .

ولا تقتصر المصادر والمآخذ التى يسجلها جرجى زيدان فى تراجم الأعلام الأدبية على القديمة ، ولكن الرجل كان متابعاً لأحدث الكتب فى وقته . ففى ترجمته للمؤرخ بدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ يضيف إلى مآخذ ترجمته كتاب « الخطط التوفيقية » لعلى مبارك باشا . وفى ترجمته للشاعر الجاهلى : المتلمس ، يضيف إلى المصادر القديمة مصدراً معاصراً له وهو كتاب « شعراء النصرانية » للأب لويس شيخو اليسوعى المتوفى سنة ١٩٢٧ .

وحين يذكر جرجى زيدان كتب المؤلفين والأعلام الذين يترجم لهم ، أو دواوين الشعراء الذين يتناولهم بالدراسة ، لا يكتفى بذكر أسماء تلك الكتب وعناوينها ، ولكنه يشير إلى أماكن نسخها الخطية إن كانت مخطوطة ، وإلى أماكن طبعها وتاريخ الطبع إن كانت مطبوعة . وقد استعان فى ذلك العمل بالجهد الضخم الذى بذله المستشرق الألمانى بروكلمان فى كتابه « تاريخ الأدب

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ١٦٢ .

العربى » . ولكنه لم يكن فى الأمر كله عالة على بروكلمان، فقد أفاد من رحلاته وزياراته هو المتعددة إلى مكتبات أوربية كثيرة ، كما أفاد من تردده على « دار الكتب المصرية » واستئناسه الدائم بفهارسها . كما أفاد خاصة من مكتبة المرحوم أحمد تيمور باشا .

وتعد تعريفات جرجى زيدان بالكتب التى خلفها الفكر العربى الإسلامى على مر العصور حتى عصرنا الحديث الذى ظهر فيه كتابه – أدق وأوجز تقويم لهذه الثروة الطائلة من إنتاج الثقافة العربية ، والعقلية الإسلامية. فقد يقوم الكتاب أو ديوان الشعر فى سطر أو فى بضعة أسطر ، أو فى صفحة كاملة أوقريب منها ، فيقدم إلى القارئ صورة صحيحة دقيقة عن الكتاب الذى يقومه .

ولا شك أن هذا التعريف للكتب التى ظهرت فى العربية على مر العصور يعد مرآة صادقة صافية لتطور الحياة الفكرية عند العرب ، كما يعد مقياساً دقيقاً لهذا التراث الضخم ، وميزاناً مضبوطاً لمد التيارات الفكرية العربية وجزرها .

وإذا كان كثير من تلك الكتب التى وصفها جرجى زيدان حتى وفاته سنة ١٩١٤ قد تغير حاله إلى الطبع بعد أن كان مخطوطاً ، كما أن كثيراً من تراجم الرجال قد استحدث فيها دراسات وكتب جديدة منذ وفاة جرجى زيدان حتى يومنا هذا ، وإذا كانت موضوعات البحث حتى عصر زيدان قد جد عليها دراسات جديدة لم تكن فى عهده ، كما أن كشوفاً أدبية ولغوية وتاريخية قد ظهرت فى الميدان منذ لقى جرجى زيدان ربه ، فإن طبعة جديدة منقحة مزيدة من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » كانت ضرورية . ولقد نهض بهذا العبء الضخم رجل من علمائنا حمّال لمثل هذه الأعباء، هو الدكتور شوقى ضيف الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

وظهرت الطبعة الجديدة من « تاريخ آداب اللغة العربية » بتحقيقات الدكتور شوقى ضيف وتعليقاته وتصويباته واستدراكاته وإضافاته الثمينة سنة ١٩٥٧ . ومن عجائب المقدور أن يقوم الدكتور شوقى ضيف بعد أربعة وأربعين عاماً بتحقيق أمنية الدكتور يعقوب صروف التى تمناها على المؤلف فى حياته بتحقيق الكتاب وتمحيصه . ولا أحسب الدكتور شوقى ضيف قد بلغ الغاية من هذا ، ولكن مجهوده الضخم المضنى يظهر واضحاً فى كل صفحة من صفحات هذه الطبعة .

ومن مظاهر الروح العلمية فى هذه الطبعة الجديدة «لتاريخ آداب اللغة العربية» أن الدكتور شوقى ضيف قد أسقط عنصر المجاملة من حسابه ، مع أن ولدى جرجى زيدان هما اللذان ندباه للقيام بهذا العمل . فنراه يصحح الخطأ فى حرية تامة فى التعبير . فقد عدّ جرجى زيدان الشاعر « عبدالله بن الدمينة » من شعراء الجاهلية . وهنا نجد فى الهامش تعليقاً من المحقق يقول فيه : « أخطأ المؤلف فى عد ابن الدمينة من شعراء الجاهلية ، فهو إسلامى »[1] . ولا نمضى فى سرد أمثلة من هذه التحقيقات الثمينة ، فهى كثيرة واضحة تشهد بعلم المحقق وسعة اطلاعه وطول مراجعته ومعاودته للمصادر والمراجع . ولكن يظهر أن الدكتور شوقى قد أجاز لنفسه التغيير والتعديل المطلق فى مادة الكتاب . كما فعل فى صفحة ٢٤ من الجزء الأول – مثلا – فقد أباح لنفسه أن يصلح قليلا فى النص كما يعترف هو نفسه فى الهامش . بل جاوز الدكتور شوقى ضيف الحد فى صفحة ٢٤٦ من هذا الجزء أيضاً ، فوضع أسماء أربعة من رجال الحديث المشهورين فى العصر الأموى بدلا من أربعة آخرين مغمورين وضعهم جرجى زيدان فى الطبعات السابقة . وكان من الممكن أن يبقى الدكتور شوقى ضيف الأسماء الأربعة التى وضعها زيدان فى صلب الكتاب ، وأن

(١) تاريخ آداب اللغة العربية – ج ١ ص ١٧٨ .

يضع فى الهامش الأسماء الأربعة التى يراها أولى من غيرها . . .

وكما أجاز الدكتور شوقى ضيف لنفسه الزيادة — حيث لا تجوز الزيادة — فى الكتاب ، فأنه أجاز لنفسه الحذف ، والحذف الكثير ، بلا داع يبرره ، ولا سبب يسوغه . ففى مقدمة جرجى زيدان للجزء الثالث التى يرد بها على منتقديه ، نرى المحقق الفاضل يحذف ما يقرب من أربع صفحات تتناول موقف الرجل من المنتقدين ، كما تتناول موضوع انتقاد « تاريخ آداب اللغة العربية » وأسماء ناقديه وإيجاز الرد عليهم . ولا يفوتنا هنا — للتاريخ فقط — أن نذكر أسماء هؤلاء المنتقدين ، وهم الأب لويس شيخو اليسوعى الذى نشر نقده فى مجلة المشرق ، والسيد كاشف الغطاء الشيعى النجفى وقد نشر نقده فى مجلة « العرفان » التى كان يصدرها أحمد عارف الزين فى صيدا ، والأب أنستاس مارى الكرملى ، وقد نشر نقده فى مجلة « لغة العرب » التى كان يصدرها فى بغداد ، وأستاذنا المرحوم الشيخ أحمد الأسكندرى الذى نشر نقده فى مجلة « المنار » فى سنتها الخامسة عشرة والسادسة عشرة .

ونعود هنا فنؤكد قضية اهتمام جرجى زيدان بالنقد وإيمانه بفائدته وعدم ضيق صدره به . ومن مأثوراته فى هذا السبيل قوله : « لا جدال فى أن الانتقاد أكثر فائدة من التقريظ ، وقد يتبادر إلى الأذهان أن انتقاد الكتب يحط من قدرها أو يذهب بفضل أصحابها ، وهو خلاف الواقع . وإذا رأينا له مثل هذا التأثير أحياناً فلأن الكتاب المنتقد لم يكن يستحق عناية المنتقدين . ولو ترك بلا انتقاد لكان أسرع إلى السقوط . أما الكتب الهامة فأنها تزداد بالانتقاد شيوعاً ورواجاً ، ويزداد أصحابها رسوخاً فى عالم الشهرة »[1].

(١) تاريخ آداب اللغة العربية — ج ٣ ص ٤ .

رابعاً : نصوص مختارة

لعل كلام جرجى زيدان نفسه عن « تاريخ آداب اللغة العربية » وأقسامها يكون أصدق تعبير عن قضية كان الرجل أول من حمل لواءها بشمول واتساع وتفصيل ، فلنسمعه هنا يقول : (وإذا نظرنا إلى آداب اللغة العربية وأخواتها الساميات ، رأيناها تنطبق على ما تقدم بوجه اجمالى . أما عند التفصيل فأننا نجد بين آداب هذه اللغات وتلك فرقاً كالفرق بين طبائع الأمتين . فالشعر عند الساميين أقدم آدابهم ، لكن أكثره غنائى ، وليس فيه من الشعر القصصى إلا نتف قليلة . أما التمثيل فيظهر لأول وهلة أنه بعيد عن آداب العرب ، وسنرى أنه موجود فيها . . . ولا غرو إذا امتازت اللغات الأوربية بالشعر القصصى والتمثيلى ، فإن اللغة العربية وأخواتها تمتاز بنوع من الآداب كبير الأهمية ، ليس منه فى لغات الأفرنج إلا نتف ، نعنى « الأمثال » فأنها جزء مهم من آداب اللغات السامية ، ولا سيما العربية والعبرانية ، وتندر فى سواها .

وآداب اللغة العربية التى هى موضوع هذا الكتاب أغنى سائر الآداب السامية ، بل هى على الإجمال أغنى آداب سائر لغات العالم . . . لأن الذين وضعوا آدابها فى أثناء التمدن الإسلامى أخلاط من أمم شتى جمعهم الإسلام أو الدولة الإسلامية ، وفيهم العربى والفارسى والتركى والهندى والسورى والعراقى والمصرى والرومى والأرمنى والبربرى والزنجى والصقلبى وغيرهم . . . وكلهم تعربوا ونظموا الشعر العربى ، وألفوا الكتب العربية ، فى الأدب والنحو والتاريخ والطب والعلم والفلسفة ، فاحتوت آداب اللغة العربية بسبب ذلك على أحاسن القرائح ، وشتات الأخلاق والآداب والطبائع ، وأدخلوا فيها كثيراً من أساليب ألسنتهم الأصلية بدون قصد أو تعمل .

ونريد بتاريخ آداب اللغة العربية بسط ما تقلبت عليه اللغة وآدابها من أقدم أزمانها إلى الآن . . . فهى — بهذا الاعتبار — تقسم إلى أطوار ، لكل منها شأن يمتاز عن سواه ، وقد لاحظنا فى تقسيم هذا التاريخ ما توالى على الأمة من الانقلابات السياسية أو الأدبية ، وما كان من تأثير ذلك على المواهب والقرائح .

ويمكن قسمة تاريخ آداب اللغة العربية حسب علومها وآدابها ، أو حسب الأعصر التى توالت عليها . ونريد بقسمتها حسب العلوم أن نستوفى الكلام فى كل علم على حدة من نشأته إلى الآن ، على أن نبدأ بأقدمها ، ونتدرج إلى أحدثها ، فنبدأ بآداب الجاهلية ، فنذكر تاريخ الشعر مثلا وتراجم الشعراء من نشأته ، وما تقلب عليه من الأدوار فى الجاهلية والإسلام إلى اليوم . ونفعل مثل ذلك فى الخطابة وغيرها من آداب الجاهلية ، وبالفقه والتفسير والأدب والنحو واللغة وغيرها من الآداب الإسلامية . وهكذا نفعل بالعلوم الدخيلة منذ دخولها وما تقلب عليها إلى الآن .

أما قسمتها حسب العصور ، فيراد بها الكلام عن العلوم كلها معاً فى كل عصر على حدة . وهذا الذى اخترناه فى هذا الكتاب ، لأنه يصور حالة العصور المختلفة ، وما يكون من تأثير السياسة وانقلاباتها فى العلم والأدب . ولذلك فقد قسمنا تاريخ آداب اللغة العربية إلى قسمين كبيرين ، يفصل بينهما أهم انقلاب أصاب العرب من أول عهد تاريخهم إلى الآن . . نعنى ظهور الإسلام . فهى بهذا الاعتبار تقسم إلى آداب اللغة قبل الإسلام وآدابها بعده . وقسمنا آدابها قبل الإسلام إلى عصرين : عصر الجاهلية الأولى ، وعصر الجاهلية الثانية ، وقسمنا تاريخها بعد الإسلام إلى أعصر أو أطوار ، تناسب انقلاباتها السياسية أو الاجتماعية ، وهى :

١ — عصر صدر الإسلام .
٢ — العصر الأموى .
٣ — العصر العباسى .
٤ — العصر المغولى .
٥ — العصر العثمانى .
٦ — العصر الحديث .

وقسمنا العصر العباسى إلى أطوار بحسب التقلبات السياسية كما ستراه فى مكانه[1] .

وننتقل من هذا النص إلى نص آخر يعرف فيه جرجى زيدان الشعر ، فيقول : (الشعر من الفنون الجميلة التى يسميها العرب الآداب الرفيعة . وهى الحفر والرسم والموسيقى والشعر . ومرجعها إلى تصوير جمال الطبيعة . فالحفر يصورها بارزة ، والرسم يصورها مسطحة بالأشكال والخطوط والألوان ، والشعر يصورها بالخيال ، ويعبر عن إعجابنا بها وارتياحنا إليها بالألفاظ ، فهو لغة النفس ، أو هو صورة ظاهرة لحقائق غير ظاهرة . والموسيقى كالشعر . . . هو يعبر عن جمال الطبيعة بالألفاظ والمعانى . وهى تعبر عنه بالأنغام والألحان ، وكلاهما فى الأصل شىء واحد .

هذا هو تعريف الشعر فى حقيقته ، ولكن علماء العروض يريدون بالشعر الكلام المقفى الموزون ، فيحصرون حدوده بالألفاظ ، وهو تعريف للنظم لا للشعر . . . وبينهما فرق كبير ، إذ قد يكون الرجل شاعراً ولا يحسن النظم ، وقد يكون ناظما وليس فى نظمه شعر . . . وإن كان الوزن والقافية يزيدان الشعر طلاوة ووقعاً فى النفس ، فالنظم هو القالب الذى يسبك فيه الشعر ، ويجوز سبكه فى النثر .

وقد تقدم ابن خلدون خطوة أخرى فى تعريف الشعر ، فقال : « الشعر هو الكلام المبنى على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده ،

(١) الجزء الأول ص ٢٦ — ٢٨ .

الجارى على أساليب العرب المخصوصة به » فهو يجعل التقفية والوزن من شروط الشعر ، ويشترط أيضاً استقلال كل بيت منها بغرضه ، وهو تقييد لا باعث له ، إذ قد ترى فى الكلام المنثور معانى تؤثر فى نفسك تأثير الشعر ، وذلك كثير فى كلامهم ، والحكم فيه للذوق . ومن أصعب الأمور أن نعرف الشعر ، ونجعل له حدوداً جامعة مانعة ، كما نعرف الصرف أو النحو أو الفلك أو غيرها من العلوم والآداب . ولكنك إذا قرأت قولا فيه خيال شعرى تعرفت الشاعرية فيه ، وشعرت بلذة ذلك التعرف وطربت له . وقد يكون ذلك النثر قولا ، وإنما أطربك ما فيه من أساليب الكناية أو الاستعارة . . . فإذا سبكته فى قالب شعرى زاد رونقاً وطلاوة ، فإذا غنيته على توقيع الألحان زدت طرباً به . فالوزن يزيد الشعر طلاوة ، من قبيل التوقيع الموسيقى فى الألفاظ والحركات ، لا من قبيل المعنى .

فإذا قرأنا لبعضهم نثراً يصف به ذهوله فى الحب ، فيقول : « إذا جئت دار الحبيب ليلا لحاجة لى ألتمسها ، فلا أدخل الدار حتى أنسى ما جئت له » فهذا معنى شعرى ترتاح إليه النفس ، لكن ارتياحها يكون أكثر إذا نظم ذلك المعنى شعراً ، كقول المجنون :

فيا ليلَ ! كم من حاجة لى مهمة
إذا جئتكم بالليل لم أدر ما هيـــا

ويكون وقعه فى النفس أشد إذا غنى عن لحن مطرب .

وعلى ذلك فيدخل فى الشعر كثير من أقوال العرب التى نعدها من قبيل الأمثال أو الحكم المأثورة المبنية على الكناية ، كقولهم : « المرء بأصغريه لا ببرديه ، وعاد الأمر إلى نصابه ، وصاحت عصافير بطنه ، ونحو ذلك » .

فالشعر بالمعنى لا بالوزن والقافية . . . وقد رأينا بعض متقدمى العرب يرون هذا الرأى فى تعريف الشعر ، فقد قال بعضهم : « الشعر كلام وأجوده أشعره » ولم يقيده بالوزن ولا القافية . وقال آخر : « الشعر شيء تجيش به صدورنا ، فنقذفه على ألسنتنا ») .



أدولف لبنيامين كونستان

بقلم

الأستاذ أحمد رشاد

رجل غير واقعي

يجمل بنا في مقدمة هذه الدراسة، قبل أن نرفع الكلفة بيننا وبين بنيامين كونستان (Benjamin Constant) القول بأن هذا الرجل الذي كان يفتخر بخبرته في فنون الغرام، وأنه اتخذ الهيام هادياً ورسولا، لا يجد في نظرنا مكاناً له بين كبار الأحبة ولا مجلساً له مع أهل الهوى :

لا نريد اتهامه باتخاذه ربات الحجال سبيلا للتسلية، وإنما نظنه يعتبر النساء — على الأقل اللاتي عاشرهن — زميلات مرفهات أو صديقات في وسعهن منافسته في ذكائه. كان حبه لهن يلبس ثوب الصداقة أكثر من رداء الشهوة، وكان يميل إلى رؤية نفسه محبوباً أكثر منه كونه محباً، ليكون دائماً في مأمن من حرارة الحب أو الإطالة في عمره.

وسنراه في الثلاثين من عمره وسط صديقات تحاول كل واحدة منهن أسره بسحرها وإلحاحها، لتجعل منه شريك حياتها، ناسية أنه حريص كل الحرص على التمتع بحريته» وأن إلحاح النساء عليه في مجال الغرام جعله يفاتح مدام دي شاريير (Mme de Charrière) التي اعتاد استشارتها في أموره بقوله : «رغم إفهامهن أني لا أكن لهن إلا الصداقة، كن يطلبن مني الزواج مبديات استعدادهن للتضحية من أجلي حتى بشرفهن وبكل ما يملكن . . . » .

وفي الواقع، كان بنيامين يميل إلى الترويح الذهني أكثر من ميله إلى لذة الشهوة الجسدية. وإن صادف وهزته هذه الشهوة، جعل استمتاعه بها مع بنات الهوى. كان كل همه التفنن في المغازلة التي يسميها مونتسكيو «بالحب الكاذب».

إن تشاؤمه، ورخاوته، وتردده، وسرعة غضبه، وخوفه من المسئولية وقلقه المستمر من الخديعة، شحنت حياته بالمضايقات والمتاعب والفشل، وجعلت منه «رجلا غير واقعي» على حد تعبيره.

إن هذا الكاتب — السويسري المولد، الفرنسي الثقافة، الإنجليزي النزعة — ليس إلا مجموعة من المتناقضات. وهو يعترف بأنه لم يذق طعم الحنان في صباه — وهي الحقيقة — ولكنه بمجرد أن يشعر بالشفقة عليه من أحد، يسخر منه ويهزأ به. وبينما يصرح بأنه يكره الحياة ويحتقرها، يتهمها بأنها لم تجلب إليه الرفعة المنشودة، ولا علو الصيت المرتقب. وأنه إن دافع عن

قضية عادلة ، فسرعان ما ينفد صبره ويعلل ذلك بقوله : « إن الكفاح يتعبني ، وكل ما أريده هو الراحة » . وأنه إن تفانى فى مساعدة إخوانه ، فمن باب المجاملة لا الحب . وأنه إن افتخر بحريته الشخصية ، نجده أسير النساء ، أسير الميسر وضحية التقلبات السياسية . وأنه إن أكد بأن العقيدة لم تجد سبيلا إلى قلبه وأكب على تأليف المجلدات ضد الأديان ، نراه يعترف للدوق دى بروى (Duc de Broglie) قائلا : « لقد جمعت حوالى أربعة آلاف حادثة تعزز رسالتى ضد الأديان ، لكنى بعد تفكير عميق ، استبعدتها لعدم جدواها . وأنه إن تاق إلى رؤية اسمه يلمع بين أهل عصره ، وأفكاره تملأ صدورهم ، نراه يعترف وهو فى سن السابعة والثلاثين قائلا : « لقد ضقت ذرعاً بالعالم وأهله حتى فقدت الأمل فى أن يستظرفنى أحد ، فيا ليتنى مت قبل هذا ! » وأنه إن انتظر طويلا للعثور على زوجة شابة جميلة لطيفة كفيلة بضمان حياة رتيبة له ، نجده يتزوج لأول مرة بامرأة دميمة لا يحبها ولا تحفظه بالغيب . ثم يتعلق بصديقة قديمة ، يتركها مدة ، ليتزوجها بعد خمسة عشر عاماً . وأنه كان يمثل عدم الاستقرار ، ولكنه بدل الاعتراف بذلك ، يحاول التخلص من هذا العيب ليقع فى أعمال صبيانية ومهاترات تافهة .

ولكى نعطى صورة واضحة لحكمنا هذا عليه ، فلا يسعنا إلا أن نتركه يتكلم عن نفسه . إنه يقول فى مذكراته : « إن ذكرى عشرين عاماً من حياتى قد ضاعت وأصبحت ملكاً لمن استحوذ عليها دونى ، الأمر الذى سيجعلنى أحتقر نفسى وسيثبط من همتى إلى اليوم الذى تتغلب فيه عزيمتى على ترددى » . ولكنا سنرى أن هذا التردد المرذول الذى يسميه « بعذاب الحياة الأكبر » سيلازمه طيلة حياته دون استطاعته التخلص منه .

ونراه فى كتابه « أدولف » (Adolphe) يقص علينا اعترافات أحد أصدقائه نجح فى الفوز بحب امرأة له ، بفضل طول الصبر والثبات . ويعلق كونستان معترفاً بدوره : « إن منظر تلك السعادة جعلنى أندم على عدم بحثى عن مثلها ، فلم أكن بعد قد اتصلت بامرأة استطاعت بحبها لى ارضاء كبريائى . . . وأمام اضطراب شعورى ، قلت لنفسى : إلا من حبيبة تعشقنى ؟ » .

هل سمعته أيها القارئ العزيز ؟ إن كل ما يصبو إليه ، وكل ما ينشده ، لا أن يحب ولكن أن يرى نفسه محبوباً ! إن المسكين قد فاته أن حبنا لا ينمو ولا يثبت إلا عندما ننسى حبنا الذاتى !

ولنستأنف كلامنا عنه باستشهادات مستقاة من قصته ، إذ يقول : « فى اللحظة التى كان قلبى فيها متفتحاً للحب ، وطموحى تواقاً إلى النجاح ، وقع نظرى لحظة على اللينور (Ellénore) فخلتها خير فريسة لى » . أهذا هو كلام المحب الصادق أم الرجل النهاز للفرص الذى لا يهمه إلا إشباع هوايته بايقاع أكبر عدد من النساء فى حبائله ولا يرغب إلا فى اذلال المرأة باسم الحب ؟ ولكن هناك ما هو أسوأ ! إنه كثيراً ما يخلط بين الحنان العميق الصادق وبين عاطفة طارئة لمزاج متقلب ، إذ يقول : « إن أية عقبة تقف فى سبيل حياتى كانت تؤرقنى . والحب الكاذب الذى كنت أبديه منذ حين ، كان يخيل إلى أنى أشعر بلهيبه فى أحشائى » . والأمر الذى يحيرنا فى استجلاء شخصية هذا الرجل الذى اتخذ اللعب بالقلوب هواية ، هو قوله فى قصة «أدولف» : « الويل للرجل الذى لا يعتقد فى أبدية رابطة الحب » . ثم هو يقول مستأنفاً الكلام عن مغامراته مع اللينور : « وكنت أشعر بأن رابطة حبنا لا يمكن أن تدوم » .

وإذا عارضنا أحد فى هذا الحكم متعللا بأن هذا الشعور إنما ينطبق على أدولف بطل الرواية ، لا على بنيامين ، فنرجوه الاطلاع على المذكرات الخاصة التى

كتبها المؤلف والتى يقول فيها بالحرف فى سنة ١٨٠٧ : « سأبدأ بكتابة قصة هى فى الواقع تاريخ حياتى » .

ولا نريد أن يعتقد القارئ أننا سنلازم هذه القسوة فى الحكم على عواطف وتصرفات بنيامين كونستان ، الرجل ذى القلب الرحيم الذى ذبل قبل الأوان ، وصاحب القريحة الوقادة ، والملل السريع ، بل إننا نطمئن القارئ بأن الرجل يستحق أن نبعد عنه كل ما من شأنه أن يقلل من مكانته ، لأنه فى الحقيقة ، رغم ما فيه من تباين فى الصفات والأخلاق ، يعتبر كاتباً ماهراً يتمتع بسليقة الأديب ذى الأسلوب الساحر الأخاذ . وسحر بيانه كفيل بأن يجلب له الغفران عـلى زلاته . ولا يجد القارئ متعة فى قراءة أروع مؤلفاته فحسب ، بل يجد لذة فى استعادة قراءتها . كما أن نبل الكلمات التى سنسردها فيما يلى ، خير شفيع للتغاضى عن أخطائه وأطوار طيشه : « إننى أمقت كل مدع يتلمس العذر لإعجابه بمنطقه . إنى أمقت كل مختال يدير دفة الحديث حول نفسه ، ويحلل للسامعين شخصيته بدلا من الاعتراف بأخطائه . إنى أمقت ذلك الضعيف الذى يلقى تبعية ضرر ضعفه على الآخرين ولا يعترف بأنه هو مصدر ذلك الضرر » .

إن ما يضفى على بنيامين كونستان صبغة العظمة ويرفعه فى أعيننا هو قضاؤه سنى الصبا وأطوار الشباب دون عقال يكبح جماحها . وليس الخطأ من عنده ؛ بل يقع التقصير على أولئك الذين كان من واجبهم السهر على تربيته . ومع ذلك فهو لا ينحو باللائمة على أبيه ولا على مدرسيه رغم أنهم جميعاً أفرغوا فى قلبه الشك والجحود بالإيمان فى سن يكون فيها الشباب عادة مفعم القلب بالتفاؤل وقوة الإيمان . لهذا لا يجب علينا أن نرى فيه بعين الدهشة ، تلك الطبيعة المعقدة وميله إلى التهور أكثر من التؤدة ، وإلى التردد أكثر من الثبات ، وإلى الاندفاع أكثر من الحزم !

ويرى بعض النقاد فى بنيامين الرجل الجاف الذى لا يعرف الرحمة ، ولكنه فى الواقع ، كان يخفى وراء ذلك قلباً رؤوفاً مليئاً بالطيبة . وهو يكره فى الرجال تظاهرهم بأحاسيسهم وتأثرهم وحدبهم على صاحب المصيبة لأن غرضهم فى نظره ، لا مشاطرته أحزانه وأتراحه ، بل إلباس فداحة الأمر ثوب التفاهة . ويقول فى مذكراته : « إنى من أولئك الذين يحترمون آلام الغير ، وأدعو الله أن يحفظنى من إطفاء لهيبها فى قلوبهم بعبارات المواساة التقليدية ، لأنها فى نظرى تدنيس لتلك الآلام . ولا يثيرنى شىء أكثر من رضا المكلوم عنها » .

ونجده فى اعترافاته رجلا متسامحاً ، يميل إلى الصلح والمصالحة ، ولولا رجاحة عقله لظنناه يؤمن بالقضاء والقدر وما كتب على الجبين ؛ وهو يقدر ضعف الإنسان ، لذلك فهو يترفق به ويحلم عليه . ويقول فى هذا : « لا يوجد الرجل الكامل ولا يمكن أن يكون الإنسان صريحاً كل الصراحة ولا خبيثاً كل الخبث » .

ويؤثر عن مونتنى (Montaigne) قوله : « إن الإنسان متباين الصفات ومتلون الأخلاق » . وإذا كانت هذه الصفة لا يمكن خلعها على كل إنسان فانها تنطبق تماماً على بنيامين كونستان ، ذلك المخلوق الهوائى المزاج ، الرقيق العاطفة الذى تسيره الأهواء كيف شاءت ، لا يعرف ماذا يريد ، ولا يدرى ماذا يفيده ، كأنه لعبة فى أيدى الظروف ، يدس نفسه فى مآزق ولا يستطيع الخروج منها حتى يخيل لناقديه أنهم أمام رجل زئبقى ، يفلت من بين الأصابع ، أو رجل غامض لا يمكن استشفاف أفكاره ونواياه ، أو استكشاف اعوجاجه وانحرافاته !

وكتب عن نفسه فى ذات يوم يقول : « لقدهدمتنى الحياة وجوها الذى يخنق كل موهبة . . لا أدرى كيف أصف سرورى لوجودى وحيداً . . . إن العزلة هى دوائى الوحيد » .

ولعله كتب هذا وهو يفكر فيما قاله بسكال (Pascal) بأن المصائب تنصب على رأس الإنسان ، لأنه لا يعرف كيف يستجم فى غرفة . ولو أن كونستان التزم هذا العلاج لكفانا مؤونة البحث عن دراسة سكناته وحركاته لفهمه .

حياته وآثاره

كان هذا الكاتب ، بملامحه النبيلة ، ووجهه المعبر ، وشعره الأحمر المتجعد ، وعينيه الصغيرتين ، وقامته الطويلة المنحنية ، وكتفيه الضيقتين ، وساقيه الرفيعتين ، يخفى فى ثيابه أكثر من رجل عظيم ولكنه لم يكن واحداً منهم ؛ وعاش أكثر من حياة ولكن لم يستفد بواحدة منها . لقد سار وراء الحب دون أن يصل إليه ، وحاول الاعتقاد بأنه يعشق ولكن إله الحب كان لا يثق فى تصرفاته ، فأصم أذنيه لكى لا يستمع إلى نداءاته الولهانة . ويرجع ذلك إلى ميله لجلب العراقيل لنفسه ، والوصول إلى غايته عن طريق الأشواك ، والتصرف دون النظر فى العواقب أو الشعور بالمسئولية فى أموره وأحواله ، حتى ليبدو كأنه شخصية « فودفيل » . فمغامراته تنتهى عادة بمبارزة أو بانتحار غير موفق ، بل إنك لا تعرف أكان صريحاً فى شعوره أم مخاتلا ، صادقاً أم كاذباً . ومن أقواله عن نفسه : « إن خير صفة خلعتها على السماء هى أنى جعلت من نفسى مادة للسخرية ! » وكان يجدر به أن يضيف بأنه يجد لذة فى جعل الآخرين مادة لسخريته .

ولد فى لوزان يوم ٢٥ من أكتوبر سنة ١٧٦٧ من أسرة فرنسية بروتستنتينية الأصل ، استقرت فى هذه المدينة منذ أوائل القرن السابع عشر . كان والده جوست كونستان دى ربيك (Juste Constant de Rebecque) من مواليد سنة ١٧٢٦ يعمل ضابطاً برتبة يوزباشى فى فرقة سويسرية تابعة لهولندا . أما أمه هنرييت دى شانديو (Henriette de Chandieu) ، المولودة فى عام ١٧٤٢ : فقد لفظت أنفاسها الأخيرة بعد وضعه بأسبوعين .

قضى الصبى شبابه دون أن يشعر بأى عطف أو حنو . كما سبق أن قلنا . ولم يستطع أبوه أن يسهر على تربيته أو يسدى إليه النصائح لكثرة تنقلاته وما اتصف به من خجل مشوب بكبرياء . وسماحة ممزوجة بخشونة فضلا عن عدم وجود تجاوب نفسى بينه وبين ابنه .

ترعرع الشاب بين أيدى عدد من المدرسين والمربين غريبى الأطوار والأحوال : كان مربيه الألمانى يضربه ويركله ثم يحنو عليه . وكان مدرسه الفرنسى لا يعتقد فى الأديان ويميل إلى الفسوق ، وكان أستاذه البلجيكى موسيقاراً ضعيف العزيمة يترك تلميذه يلتهم المؤلفات المفسدة للأخلاق . وهناك مدرس فرنسى آخر هجر المحاماة للتدريس وحكم عليه بالنفى ، كان يرغم الشاب على نقل مسودات مؤلفاته التاريخية التافهة ، وراهب فرنسى ترك التعبد . مثقف ومجامل إلا أنه كان خائر الإرادة انتهى به الأمر إلى الانتحار من أجل حب فتاة .

هكذا تناولت تربيته عدة أيدى متنافرة متناقضة إلى أن رأى والده إلحاقه بجامعة أكسفورد بانجلترا . ولكن تبين له أن الجامعة لا تقبل إلا من بلغ العشرين عاماً بينما ابنه كان لا يزال فى الثالثة عشرة . عاد به أبوه إلى سويسرا حيث كلف به أحد المدرسين لتثقيفه ، ثم ألحقه بجامعة ارلنجن (Erlangen) فى سنة ١٧٨٢ . أظهر الفتى ذكاء ومثابرة فى تحصيل العلم ولكنه كان على جانب كبير من « الشقاوة » الأمر الذى جعله يترك ألمانيا ويلحق بأبيه الذى أدخله جامعة ادنبورج لاستكمال دراسته ؛ وكان عمره ستة عشر عاماً .

أقام الفتى عند أستاذ فى الطب يؤجر غرفاً فى بيته لبعض الطلبة . ونشأت بين كونستان وبين زملائه صداقة أدت إلى قيام محاورات ومناقشات وتحقيقات

عن الفن والأدب والفلسفة . ولكنه تعرف فى هذه الأثناء ، للأسف ، بموسيقار إيطالى تعلم منه لعب الميسر أكثر من فن الموسيقى . وتعلق بهذا الداء إلى آخر يوم فى حياته .

وبعد إقامة سنة ونصف فى اسكوتلندا ، توجه إلى باريس فى مارس سنة ١٧٨٥ بناء على رغبة أبيه . وكان يبيت فى دار الكاتب جان باتست سوار (Jean-Baptiste Suard) ويتلاقى مع زواره الأدباء . ووكل به المسيو بومييه وهو رجل تافه محتال ، فكان يطوف به على المواخير وبيوت الدعارة ، وعلم والده بالحياة التى يعيشها ابنه فأمره بالذهاب إلى بروكسل حيث نبض قلبه بأول حب .

* * *

هام بنيامين كونستان بمدام جوهانو (Mme Johannot) البالغة من العمر ثلاثين عاماً ، وهى سويسرية ساحرة الجمال على قسط وافر من الذكاء . متزوجه من رجل أعمال عين بعد الثورة الفرنسية نائباً فى الجمعية الثورية . كان هذا الحب يقوم على الفضيلة ولم يدم إلا دوام سحابة الصيف .

تلقى بنيامين أمراً من أبيه يحتم عليه العودة إلى سويسرا . فأقام فى مدينة لوزان وأكب على الدراسة وبدأ يكتب « تاريخ الوثنية » متأثراً بأفكار الفيلسوف الفرنسى هلفيسيوس (Helvétius) صاحب كتاب « الروح » .

دخل قلب الفتى حب جديد فى شخص مدام هارييت تريفور (Mme Harriet Trévor) وهى سيدة انجليزية فى الخامسة والثلاثين من عمرها ، افترقت جسدياً عن زوجها ، سفير انجلترا فى تورينو بايطاليا . كانت لا تزال تتمتع بحسن نادر وجمال أخاذ ، وكان لها أكثر من معجب . انضم بنيامين إلى جماعة المعجبين بهذه السيدة وأرسل إليها كتاباً بث فيه غرامه وشرح لها النيران المتأججة فى فؤاده من أجلها ، فلم تقبل إلا صداقته بينما كان يطمع فيما هو أكثر من الصداقة ، فذهب إليها وارتمى تحت قدميها فى تمثيلية عجيبة ، ثم راح يضرب رأسه فى الحائط ، مما جعل مدام تريفور فى وضع محرج دفعها إلى تهدئته ونصحه ، لكنه انصرف مهدداً بالانتحار . لم ينفذ تهديده هذا ، بطبيعة الحال ، كما لا يخفى على القارئ ، وراح يتردد عليها مكتفياً بالصداقة .

ولقد ذكرها فى كتيبه المسمى « الكراسة الحمراء » (Le Cahier Rouge) الذى حرره سنة ١٨١١ وقص فيه الحوادث التى مرت به فى العشرين سنة الأولى من عمره ، ويقول عن هذه السيدة : « كانت تستقبلنى فى بيتها ونمكث منفردين فيه حتى الثالثة صباحاً دون أن يحدث بيننا أى شىء ، فقد كنت خجولا للغاية رغم غرامى الشديد بها . ولم أكن أعلم وقتئذ أنه كان يجب على أن آخذ ثمرة الحب غلاباً لا استجداء . كنت أستجدى ، فى الواقع ، ولا أنال شيئاً اطلاقاً . كانت مدام تريفور تنظر إلى كعشيق من طراز فريد . ولما كانت النساء عادة يحببن كل ما يشبع غرورهن ، فلم تستنكر تصرفاتى وتعودت عليها » .

لم تدم هذه الصداقة وانتهت عند عودة بنيامين إلى باريس بأمر والده .

مدام شاريير وكونستان

تعرف بنيامين أثناء وجوده فى العاصمة الفرنسية ، بسيدة تتمتع بقدر وافر من الثقافة والذكاء أثرت فى مصيره تأثيراً ملموساً ، هى مدام دى شاريير (Mme de Charrière) الهولندية الأصل ، البالغة من العمر سبعة وأربعين عاماً ، بينما لم يكن فتانا قد ناهز العشرين . كانت لا تزال تحتفظ بقسط كبير من الجمال والدلال . تزوجت هذه السيدة بعد الثلاثين من عمرها برجل سويسرى له أملاك شاسعة ، رقيق الطباع لكنه فاتر

الشعور ، الأمر الذى جعلها تهرب من الحياة الزوجية إلى الإنشاء والتحرير . وعندما جاءت إلى باريس لطبع إحدى قصصها ، تقابلت مع بنيامين .

ويحق لسانت بوف (Sainte-Beuve) أن يقول بأن هذه السيدة اللامعة ساهمت أكثر من أى إنسان آخر على شحذ قريحة كونستان . ويجدر بنا – وإن بدا هذا غريباً – الاعتراف بأن هذه القريحة كانت مزدانة أصلا بعدة معلومات ومعارف متنوعة قبل أن يعرف هذه السيدة . فرغم حياته المختلة ومجونه وسهره على موائد الميسر ، استطاع تعلم اليونانية واللاتينية والإنجليزية والألمانية والإيطالية ، وأن ينشر مقالات ذات شأن ، وأن يقرأ عدداً ضخماً من كتب الأدب والفلسفة والتاريخ .

وخلال الأعوام الثمانية التى قضاها مع مدام دى شاريير ، كان إما يراسلها أو يزورها فى ضيعتها بمدينة كولومبييه (Colombier) . ويذكر ذلك فى كتابه « الكراسة الحمراء » حيث يقول : « كم من أيام وليال قضيناها فى المسامرة ! وكم كانت مدام دى شاريير قاسية فى حكمها على الناس ، وكم كنت أنا ساخراً بطبيعتى ، الأمر الذى جعلنا فى تجاوب تام » .

مل بنيامين مع طول الوقت تلك المسامرات والأحاديث الجافة الجدية المشبعة بالتشاؤم ، الخالية من الفكاهة والمرونة . أما مدام دى شاريير ، فقد فهمت صعوبة الاحتفاظ بجانبها ، بمثل هذا الفتى الطموح القلق المتقلب المليء بالشهوة ، التواق إلى الحرية ، والاستقلال .

وفترت صلة بنيامين بمدام شاريير عندما تعرف بمدام دى ستال (Mme de Staël) ، بيد أن هذا الفتور لم يمنع الصديقة السابقة من الاحتفاظ بالشاب الذى خفف عليها وطأة حياتها الكئيبة ، حتى إنها كتبت فى سنة ١٨٠٥ ، قبيل وفاتها ، تقول عن صلتها بكونستان : « إن من الخيوط ما يكون رفيعاً ودقيقاً حتى لا يكاد يرى ، ولكن صلابته تجعله لا ينقطع أبداً » .

وعندما علم بموتها صرح قائلا : « لقد خسرت صديقة وفية وأصبح العالم فى نظرى خالياً من الناس » .

إذا كانت مدام دى شاريير أثرت فى عقلية فتاها ، فإنها لم تفلح فى التأثير على أخلاقه وطباعه . فهو لا يزال يصرف وقته فى الميسر ويستدين . وأرادت سيدة عجوز تعرف أسرته أن تزوجه من فتاة فى السادسةعشرة من عمرها ، جميلة ولها إيراد يبلغ تسعين ألف جنيه سنوياً ، قاصدة بذلك ابعاده عن ذلك الداء . ولكن اتضح أن الفتاة مخطوبة . فما كان من والد بنيامين – على أثر فشل هذا الزواج واستمرار ابنه فى لعب القمار ، إلا أن أوفد إليه رسولا ليحضره إليه ، بيد أن الفتى هرب إلى انجلترا . والعجيب أنه بمجرد وصوله إلى هناك ، اشترى كلبين وقرداً ! ثم راح يطوف المدن البريطانية بحثاً عن أصدقائه وزملائه فى الدراسة . وانتهى به المطاف إلى ادمبورج .

وأخيراً فكر فى ضرورة العودة إلى والده ، فوصل إليه وكله خوف من عتابه ، ولكنه استقبله دون غضب أو فرح وهو يلعب الورق مع ضباط من أصدقائه ، مبادراً إياه بقوله : « آه ! أنت هنا ! كيف جئت ؟ » فقال : « تارة راكباً جواداً وطوراً عربة » . فرد عليه أبوه قائلا : « لا شك أنك متعب . اذهب إلى الفراش » .

ظل بنيامين ثلاثة أيام فى عزلة تامة ، ثم ذهب لزيارة مدام دى شاريير ولبيت عمه فى لوزان .

ويجمل بنا القول هنا بأن كونستان كان يكره أسرته ومسقط رأسه لكثرة ما صبه أبوه فى صدره من مساوئ الأرستقراطية السويسرية .

تشريفاتى وزوج

وجد الفتى نفسه فى أوائل سنة ١٧٨٨ محروماً من دفء الحياة العائلية ، مهموماً من تجارب الحب والغرام ،

تواقاً إلى إيجاد عمل شريف يشغله عن قلقه ، وينشله من البطالة التى يعيشها ، لذلك نراه يقبل وظيفة تشريفاتى فى بلاط أمير دوقية برانسويك (Duché de Brunswick) شارل الثـانى السياسى المرن والإدارى المحنك ، والأديب النابه . وبالرغم من تقـدير بنيامين لهذا الأمير ، كان يمقت حاشيته ولم ينسجم مع الذوق الألمانى وأحس بكراهية طبيعية لسكان البلد . ويقول فى ذلك : « إن الألمان قوم ثقال فى التفكير وفى المزاج وفى التسلية وفى الملل » . وكانت سخرية بنيامين وتصرفاته موضع استياء من النبلاء والعظماء فى البلاط ، فكانوا يعاملونه بجفاء وصلابة ، فكان يهرب من الجو بقراءة اليونانية ودراسة تاريخ ألمانيا وركوب الخيل واللعب على البيانو ومكاتبة مدام دى شاريير . بدأت خطاباتها تحمل إليه كل حب وحنان ، ثم راحت تظهر شيئاً فشيئاً العتاب ، إذ نجحت الأقاويل الخبيثة المغرضة فى بث بذور الشك فى قلب هذه السيدة وإضعاف تلك الصداقة النقية الطويلة .

هكذا وجد بنيامين نفسه فى عزلة ، مكلوم الفؤاد ، مكسور الخاطر ، فقرر الزواج فى مايو ١٧٨٩ من وهلملين دى كرام (Wilhelmine de Cramm) الوصيفة فى بلاط شارل الثانى . لم تكن هذه الزوجة جميلة ، بل بالعكس دميمة تحمل أثر الجدرى فى وجهها ، محمرة الأجفان ، نحيفة القوام ، عارية من كل ثقافة ، وفقيرة فوق كل هذا . عاش الزوجان فترة ساد فيها التفاهم . ولكن سرعان ما انقلبت وهلمين من امرأة وديعة مطيعة إلى خائنة لرباط الزوجية مع أمير روسى . وعلم بنيامين بهذا فتركها ثم طلقها فى سنة ١٧٩٥ .

إن هذا الشاب الذى جاء إلى ألمانيا فى الواقع ليرتب حياته ويضمن لنفسه مستقبلا باهراً بما حباه الله من ذكاء ، وسعة اطلاع وقوة قريحة ، والذى استقبل الثورة الفرنسية بحماس ، لم ينجح إلا فى الارتباط بامرأة غادرة تركت معاشرتها له أسوأ الأثر فى نفسه ، فأصيب بأزمة تدهورت على أثرها صحته ، ولم يكتسب من رجال البلاط إلا العداء والحسد ، فقدم استقالته وترك عمله فى عام ١٧٩٤ ليعود إلى سويسرا قرير العين لبعده عن عالم لم يهضم أخلاقه وتصرفاته .

ولنذكر هنا أنه قبل مغادرته بلاط الأمير بسنة تعرف بشارلوت دى هاردنبرج (Charlotte de Hardenberg) التى سنراه يتزوجها فى عام ١٨٠٨ .

وصال يدوم خمسة عشر عاماً

وصل بنيامين فى هذه الفترة من حياته إلى منحن هام حيث تعرف بمدام دى ستال التى فرضت سيطرتها عليه بحدة ذكائها وقوة حيويتها . امتازت هذه السيدة بميول تحررية ، وضمن لها قلمها صيتاً مدوياً فى الأوساط الأدبية .

تزوجت فى عام ١٧٨٦ من البـارون دى ستال هولشتاين (Staël-Holstein) سفير السـويد فى باريس ، ولم تجد نجاحاً فى بلاط لويس السادس عشر . ثم رأت من الحكمة أن تترك العاصمة الفرنسية بعد انهيار الملكية ، فلجأت إلى إنجلترا ، ثم إلى سويسرا حيث جمعت حولها فى قصرها بمدينة كوبى (Coppet) عدداً من النبلاء الفارين من وجه الثورة الفرنسية . وفى هذا القصر ، تمت مقابلة بنيامين مع مدام دى ستال لأول مرة فى ١٩ سبتمبر ١٧٩٤ .

لاحظت عليه علامات الخجل مما بدا عليه من ارتباك فى مشيته ، كما كان مدعاة للسخرية والضحك فى نظرها ، بقامته الطويلة وبصره الضعيف ، لكنها غيرت رأيها فيه بعد مجالسته ومحادثته ، إذ اكتشفت فيه المحدث اللبق الواسع الاطلاع حتى إنها طلبت منه العودة إلى زيارتها مرة أخرى .

عاد إليها ليظل معها حتى عام ١٨١٠ . وكثيراً ما حاول بنيامين التخلص من مزاج هذه السيدة الحاد

ولهجتها الآمرة ، ولكن سرعان ما كانت تهيمن عليه فيطيب له المقام بجانبها . كان يشعر بحاجته إلى هذه « المرأة الذكر » ليقوى من عزيمته ويبعد عن نفسه التردد .

وبعد انتهاء عهد الارهاب فى فرنسا ، رأت مدام دى ستال العودة إلى باريس ، ظناً منها أن فى التفاف المعجبين بها وانتشار صيتها ، سيجعل نجمها يتألق فى سماء فرنسا . ولكن سرعان ما خاب أملها ، فعادت أدراجها إلى كوبى فى نوفمبر سنة ١٧٩٥ ، أى بعد شهر من تكوين حكومة الإدارة الفرنسية (Directoire) المكونة من خمسة أعضاء والتى ظلت فى الحكم أربعة أعوام .

لم يذهب بنيامين إلى سويسرا مع مدام دى ستال لاعتقاده أن النظام الجديد ستكتب له الحياة . وطلب التجنس بالجنسية الفرنسية بصفته منحدراً من أسرة بروتستانتينية مهاجرة . ثم اشترى ضيعة بمبلغ ٣٠,٠٠٠ فرنك فى ضاحية باريس .

وظهر أول كتيب له بعنوان « قوة الحكومة الحاضرة فى فرنسا وضرورة الانضمام تحت لوائها » .
(De la Force du Gouvernement actuel en France et de la nécessité de s'y rallier)

ثم أعقبه بمؤلفين آخرين هما :

« رد الفعل السياسى »
(Des réactions politiques)

و« عواقب الارهاب »
(Des effets de la Terreur)

وبعد أن عاد الوفاق بين مدام دى ستال والحكومة الفرنسية ، سمح لها بالعودة إلى فرنسا على ألا تقطن باريس . فأقامت فى ضيعة بنيامين وكان فى نيتها أن تجعل منه وزيراً . وقبل أن تهتم بأمره رأت أن تؤدى خدمة جليلة لصديقها القديم تاليران (Talleyrand) حيث استطاعت تعيينه وزيراً للعلاقات الخارجية ، أما كونستان ، فجعلت منه سكرتيرها فى مساعيها ومباحثاتها ودسائسها حتى أتعبته وأنهكته إلى درجة جعلته يكتب إلى عمته لتبحث له عن زوجة . لقد مل خليلته الأديبة المتعبة ومل استعبادها له وعدم الاستقرار الذى يعيش فيه ، وإن كان فى قرارة نفسه قد اعتاد على تلك الحياة المضطربة الصاخبة بصالوناتها السياسية ، التى كان يحتدم فيها مع الصحفيين الذين كانوا يعتبرونه فرنسياً دخيلا .

وفى أوائل عام ١٧٩٧ ، أذنت الحكومة لمدام دى ستال فى الإقامة بمدينة باريس حيث عادت إلى دسائسها . وهكذا ساعدت باراس (Barras) أحد الأعضاء الخمسة فى « الإدارة » ، فى التخلص من اثنين من زملائه ومن كثير من أعضاء البرلمان . ثم قامت بعد ذلك تناهض الإجراءات التعسفية التى اتخذها باراس ، وتستنكرها بعنف .

ووصف بنيامين أعمالها هذه بالطيش وعدم الروية فصبت عليه غضبها هو الآخر . ورأى باراس أن يتخلص من ثرثرة ونقد مدام دى ستال ، فأصدر أمره بطردها من الأراضى الفرنسية .

ظل كونستان فى باريس ليحاول أن يثنى عزم باراس ويقنعه باصدار العفو عن مدام دى ستال . وفى هذه الأثناء تقابل مع سيدة تدعى جولى تالما (Julie Talma) سبق له التعرف بها على أثر عودته من بلاط شارل الثانى .

ويجدر بنا أن نذكر كلمتين عن هذه السيدة التى نجد شبها بينها وبين بطلة قصة كونستان المشهورة .

ولدت سنة ١٧٥٦ ، ورقصت على مسرح الأوبرا وهى فى التاسعة من عمرها . ثم تزوجت سنة ١٧٩٠ بالممثل الكبير تالما الذى لم يك وفياً لها .

كانت جولى تتمتع بحسن نادر وبجمال وثراء وثقافة ، راجحة العقل ، قوية العزيمة ، صادقة الحكم ، لمع صالونها خلال حكومة الإدارة . عشقت بنيامين

ولكنه لم يشعر نحوها إلا بالصداقة والاحترام ، فاستيقنت أنها لن تستطيع استمالة ذلك الرجل الثائر ، فانصرفت عن حبه . وماتت بمرض ذات الرئة بين ذراعى بنيامين فى مايو ١٨٠٥ ، فخلد ذكرها فى صفحات جميلة تحمل عنوان « رسالة عن جولى » (Lettre sur Julie) طبعت سنة ١٨٢٩ .

آنا لندسي وكونستان

رجعت مدام دى ستال إلى فرنسا بفضل مساعى بنيامين ، وفى رأسها أكثر من مشروع ، وأولها إيقاع الجنرال بونابارت فى حبائلها ، وهو يومئذ أكبر رجل فى الجمهورية . وعملت على مقابلته عند تاليران فى باريس عام ١٧٩٨ ، وحاولت جاهدة إغراءه بذكائها أكثر من جمالها . ولكنها أخفقت تماماً لأن بونابارت كان يمقت المرأة التى تشتغل بالسياسة . فتوجهت مدام دى ستال مكسورة الخاطر ومهزومة إلى كوبى وبصحبتها بنيامين كاتم سرها ووكيل أعمالها ومشاطرها أحزانها وآلامها .

وعندما عاد بونابارت من مصر وأحدث انقلاب ٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩ الذى مهد لقيام الامبراطورية ، كانت مدام دى ستال وبنيامين فى باريس : واختلفت نظرتهما لهذا الحدث حيث تشاءم بنيامين بينما رأت هى فيه فجر الحرية . لذلك راحت تولم الولائم وتبدى اعجابها بنابوليون وبأعماله ، وهى ترمى من وراء ذلك أن تجعل من بنيامين كونستان عضواً فى المجلس الاستشارى (Tribunat) بمساعدة تاليران . وقد تم لها ما أرادت .

وقبل أن نسير وراء بنيامين فى وظيفته الجديدة ونتصدى لآرائه السياسية ، يجمل بنا الكلام عن انا لندسى (Anna Lindsay) التى تعرف بها ، لما لها من شبه كبير ببطلة قصته المسماة « أدولف » .

إنها فتاة متوسطة الحال من أصل أيرلندى ، قامت بتربيتها الدوقة فرتيس جيمس (Fritz-James) فى لندن حيث تقيم . واجتذبها تيار المدنية وقامت بعدة مغامرات غرامية ، ثم استقرت مع شخص يدعى لاموانيون (Lamoignon) أنجبت منه ولدين . وذكرها شاتوبريان فى مذكراته قائلا عنها « إنها سيدة جميلة ساحرة ولكنها ذات مزاج عنيف » .

وعندما أجمعت على الحياةفى باريس سنة ١٧٩٩ ، اتصلت بجولى تالما وترددت على صالونها ، وتقابلت فيه مع بنيامين وتبادلا حباً جنونياً .

كانت « أنا » تطمع فى حياة رتيبة بالزواج من بنيامين ولكنه لم يكن ليفكر فى القران بها ، بل كان همه أن يزيد اسمها فى قائمة عشيقاته . وتراسلا ، واجتمعا ليفترقا على أمل التلاقى مرة أخرى . وتصرف هذا الرجل لا يدهشنا ، فقد عودنا على تصيده النساء اللاتى يشبهنه فى أخلاقه وأطواره العجيبة ، ثم تركهن لينساهن فى أحضان غيرهن .

بطل التحرير

لنترك مغامرات بنيامين فى الهوى لنقتفى آثاره فى مهمته السياسية . لم يحاول التزلف إلى رجال الحكم ، بل راح ينتقد موقف الحكومة من أعضاء المجلس الاستشارى . فهاجم الحكومة لعدم اعطائها الوقت الكافى لرجال المجلس لدراسة القوانين ، وطالب بحقه وحق زملائه فى فحص التشريعات فحصاً حراً . كان مذهبه السياسى يرتكز على الدفاع عن الفرد بما له من حقوق لا تقل عن حقوق الدولة نفسها ، مما أكسبه لقب « بطل التحرير » .

لم يعترف بمبدأ السلطة ولا بمبدأ الأغلبية وإنما بمبدأ الاستقلال الفكرى . ومن المأثور عنه قوله فى أهمية المعارضة : « ما هى حقوق وواجبات المعارضة ؟ إذا كان وجودنا لا فائدة منه ، فليستغنوا عنا . وإذا كانوا

فى حاجة إلينا فليعطونا الوسائل الكفيلة بقيامنا بالمهمة التى عينا من أجلها » . ثم أضاف : « إذا حدث ضرر حاسبونا عليه ، وإن خسرنا حرباً أو تأخر عقد السلام ، اتهموا المعارضة . يبقى علينا أن نصبح مسؤلين عن التقلبات الجوية وأن نسير الرياح والعواصف لإغراق الأساطيل وإهلاك الحرث » . وأنهى كلمته بهذه العبارة التى أغضبت بونابارت : « بدون استقلال المجلس الاستشارى لن يكون هناك تناسق فى الأعمال ولا حياة للدستور ، بل سيرزح الشعب تحت نير العبودية والصمت ، الصمت الذى سوف تسمعه أوربا بأسرها »

وفى اليوم التالى ، استهدف بنيامين لتهكمات الصحافة وثورة بونابارت الذى صاح متوعداً المعارضة بقوله : « هناك اثنا عشر أو خمسة عشر من ذوى الأفكار المجردة يجدر بنا إلقاؤهم فى البحر . فهم بمثابة الجراثيم العالقة بى والتى يجب أن أقضى عليها » .

أما بنيامين ، فانه لم يتفاءل عندما رأى بونابارت يقبض شيئاً فشيئاً بيد من حديد ، على كل السلطات معلناً أن « الحكومة الفرنسية تمثل الشعب صاحب السيادة ولا يمكن قيام معارضة ضد السيادة » . ولم يندهش بنيامين عندما رأى نفسه ، فى يناير ١٨٠٢ ، معزولا من المجلس الاستشارى مع عشرين من زملائه الأحرار .

لم يطق البقاء فى هذا الجو الخانق وعاد إلى ضيعته فى ضواحى باريس مثبط الهمة ، خائر القوى . لقد أسكنت قعقعة السلاح وطلقات المدافع صوت الحكمة والعقل !

وفى هذه الأثناء مات البارون دى ستال ولم يكن فى الواقع إلا زوجاً اسمياً . ورأى بنيامين من واجبه أن يتقدم للزواج من أرملته ، ولكنها رفضت عرضه لأنه يفقدها لقب « بارونة » التى تريد التمسك به .

وعندما أبدت تعبها من النفى المستمر ، قال لها بنيامين إنه مستعد لمصاحبتها إن هى ذهبت إلى ألمانيا وفى مدينة وايمر (Weimar) بالذات حيث يقيم فيها أناس من ذوى الشهرة العالمية فى مجال الفكر والقلم . فقبلت عرضه . وهناك فى جو من الهدوء المناسب ، استطاع كونستان أن يقوم بتأليف كتابه عن الدين .

السير وفق منهاج مخطط

كان بنيامين يتردد على المكتبات العامة ليطلع على أهم المؤلفات اليونانية فى اللاهوت والعلوم ويتصل بكبار المفكرين والمؤرخين والعلماء . وكثيراً ما اجتمع على موائد الطعام بالشاعر الفيلسوف الألمانى جوته ويقول عنه : « أنه رجل ذكى عميق التفكير ، له آراء جديدة ، ولكنه أقل الذين عرفتهم بساطة . » وكثيراً ما جالس شيلر وأمضى معه أمسيات فى التسامر . وكان اعجابه بهذا الأخير أكثر من اعجابه بجوته .

ظل يتابع أبحاثه طيلة سنة ١٨٠٤ حتى إذا ما ملها ، راح يتنقل ، للترويح عن نفسه فى المدن الألمانية ، ولا سيما لايبزيج وفرانكفورت . كما كان ينزح إلى جنيف ولوزان وكوبى . لكنه كان يفضل ڤايمار حيث يقول : « فى هذه المدينة أجد ما يشجعنى على اتمام مؤلفى الذى أعتبره أهم حدث فى حياتى » .

بدأ يشعر بأن صلته وعلاقته بمدام دى ستال لم تأت بالثمرة التى كان يرجوها ، رغم تضحياته ، كما يتضح من يومياته : « منذ أن تركت العزلة ، أصبحت لا أقوم بأى عمل قيم . . . أين السعادة التى كنت أشعر بها فى العزلة ! . . . لقد أصبحت لا أجد اللذة التى ضحيت لها بكرامتى ، ولا الكرامة التى ضحيت لها باللذة ! » .

ولما عزمت مدام دى ستال فى ديسمبر ١٨٠٤ على الذهاب إلى إيطاليا لتجد الجو الملائم لكتابة روايتها المقبلة ، انتهز بنيامين الفرصة للاستجمام ، ذهب إلى فرنسا . وجد هناك بعض صديقاته ، فآثر الإقامة مدة أطول من التى قدرها لنفسه . وتردد على جوليت

ديكاميه (Juliette Récamier) التى لم يكن قد هام بها بعد ، وزار أنا لندسى التى ما زالت تبحث عن زوج شرعى ؛ واتصل بجولى تالما التى أصيبت بداء الصدر وأشرفت على الموت ؛ وتقابل مع شارلوت دى هندنبرج التى كانت تأمل فى أسر قلب بنيامين بعد أن فشلت فى حياتها الزوجية مرتين .

هكذا أمضى بنيامين أجمل الأوقات فى باريس ، ثم توجه إلى كوبى فى يوليو ١٨٠٥ ؛ وكانت مدام دى ستال قد عادت إليها بعد رحلتها الموفقة ، فوجدها أكثر تفتحاً لدواخل قلبها ، وأكثر فيضاً فى شعورها . وكان المعجبون بها يحفون من حولها ويستمعون بلذة إلى الانطباعات التى تركتها « المدينة الخالدة » فى نفسها . لم يستسغ بنيامين هذا المنظر واستاء من هذه الجموع ودخلت الغيرة قلبه على صديقته ، وقامت محاولات لتهدئته وترضيته . ورؤى آخر الأمر تمضية الشتاء فى جنيف . وعرضت مدام دى ستال أن يقوم بدور تمثيلية لراسين وأخرى لفولتير ، ولكنه لم يحسن دوره ، بينما أظهرت مدام دى ستال مقدرة فائقة على التمثيل .

لم تنسه هذه التسليات مهنته ككاتب حيث يقول : « كم أريد الانتهاء من كتابين أحدهما فى السياسة والآخر فى الدين ، لأترك أثراً خالداً من بعدى » .

وفى سنة ١٨٠٦ ، نشر مقتطفات من كتابه فى السياسة الذى استغرق أربع مجلدات طبعت فيما بين ١٨١٨ و ١٨٢٠ تحت عنوان : دراسات فى السياسة الدستورية

(Cours de Politique Constitutionnelle)

وفى شهر مايو من هذه السنة ، استدعت مدام دى ستال صديقها كونستان إلى أوكسير (Auxerre) حيث كانت تقيم مؤقتاً للإشراف على طبع روايتها الجـديدة كورين (Corinne) . وما أن اجتمع العشيقان حتى قام الشقاق بينهما ، ويقول فى ذلك :

« إما أنها مجنونة وإما أنا المجنون ؛ ولا أدرى كيف سينتهى الأمر بيننا » .

واستطاع بالرغم من حياة القلق التى يعيشها ، الانتهاء من تأليف كتابه عن الوثنية الذى ابتدأه منذ عشرين عاماً ، ولكنه لم يطبع إلا فى سنة ١٨٣٣ تحت اسم « الوثنية عند الرومان » .

(Du polythéisme romain)

وفى أوائل عام ١٨٠٧ ، ألف ، فى مدى خمسة عشر يوماً قصته المشهورة « أدولف » التى راح يتلوها على بعض أصدقائه ، ولكنها لم تظهر فى السوق إلا سنة ١٨١٦ ؛ بعد أن تناولها عدة مرات بالتنقيح . وسوف نحلل هذه القصة فى آخر دراستنا .

بلغ بنيامين كونستان الأربعين من العمر « دون أن يحقق الفخار الذى كان ينشده » على حد تعبيره . وسبق له أن قال عن نفسه قبل ذلك ببضع سنوات « إن ما ينقصنى فى حياتى هو السير وفق منهاج مخطط » . ثم نراه يقول بعد ذلك : « لم أتخذ قراراً حاسما لثقتى بقصر الحياة الإنسانية » .

إن مثل هذه العقلية ، ومثل هذه الطريقة فى تفهم الأمور والأشياء لا تدهشنا إذا كان بنيامين قد وصل إلى عنفوان القوة والسن دون أن يعثر على الحياة التى طالما تمناها ، ليكون محط أنظار معاصريه . إنه بلا أسرة ، ولا زوجة ، ولا أصدقاء ، ولا حب ، ولا سعادة ، ولا نجاح ، ولا أى مشروع مخطط للمستقبل . هذه كانت حياة هذا الرجل الذكى المثقف الذى منعه ضعف عزيمته ، من اختراق أبواب الحياة ، وكبله بالسلاسل حتى أنه بدل أن يرتفع صيته ، ظل منزوياً وغير معروف إلى حين .

ونود التنويه هنا بملاحظتين عن بنيامين : الأولى أن علاقته بمدام دى ستال لم ترفع من معنويته ، بل كانت مصدر متاعب ومضايقات له . صحيح أن هذه العشيقة المتسلطة كانت تعترف بموهبة صديقها ولكنها

كانت مشغولة عنه بمصلحتها الخاصة ، وكانت ترى فيه العشيقة أكثر من الأديب ، العشيق الذى يستطيع اشباع رغباتها وملذاتها أو يخفف من حدة الشدائد التى كانت تستهدف لها من جراء تهورها . والملاحظة الثانية ، أن الشهرة التى حظى بها بنيامين فى آخر حياته ، كانت سياسية أكثر منها أدبية . فالصدفة والصدفة وحدها هى التى جعلت منه روائياً . وهذا الروائى لم يسجل التاريخ اسمه إلا بعد وفاته بوقت طويل .

شارلوت وكونستان

ورد اسم شارلوت دى هردنبرج فيما سبق من الكلام . ويجمل بنا هنا أن نذكر طرفاً من جوانب حياتها المتصلة بكونستان .

تنتمى هذه المرأة العاطفية فى شعورها ، الهوائية فى مزاجها ، البسيطة فى تفكيرها ، إلى أسرة ثرية من هانوفر (Hanovre) . كانت على وشك الطلاق من زوجها الأول عندما تعرفت بصاحب هذه الدراسة ، فى برانسويك ، واشتعل قلبها حباً به . ولكن لم تكن لديه الرغبة فى الزواج منها بعد أن مر بتجربته مع وهلمين .

رأت شارلوت ، أمام هذه الصدمة أن تتركه مدة من الزمن ، ولكنها لم تستطع ذلك بدافع عاطفتها الفياضة . وعندما أظهر لها حنانه تمنعت عنه . فغضب . فطلبت منه الصفح ؛ فلم يبد اهتماماً . فأصرت على أن يعتذر ، فتهرب ، فتملكها الغضب بدورها وقررت قطع علاقتها به نهائياً . فاستحلفها أن ترضى بزيارته لها ، فقبلت ولكنه تراجع .

ومرت عشر سنوات ، وكان كونستان فى هذه الآونة قد تعلق بمدام دى ستال . فما كان من شارلوت إلا أن عقدت قرانها الثانى على الفيكونت ألكسندر دى ترتر وهو رجل دنىء لا ضمير له :

وتلاقى بنيامين بشارلوت فى باريس فى شتاء عام ١٨٠٤ — ١٨٠٥ وأفرغ كل منهما ما فى قلبه من متاعب ومآسى للآخر واتفقا على الزواج ، ولكن كان عليهما الانتظار ثلاث سنوات : فكونستان كان مقيداً بمدام دى ستال من جهة ، ولم يقبل زوج شارلوت طلاقها من جهة أخرى إلا مقابل مبلغ وفير من المال .

وفى مايو ١٨٠٧ ، التقى العشيقان فى باريس . ويقول كونستان فى مذكراته : « كثيراً ما أذهب إلى مدام دى ترتر وأشعر بسحر جمالها وبطيبتها وحنانها مما يجعلنى أحس بالسعادة بجانبها وأن قرانى بها فيه راحة الحيـــاة .

ولكنه سرعان ما كان ينتقل من التفاؤل إلى التشاؤم ، ومن اليقين إلى الشك ، فيضيف فى مذكراته : « قضيت سهرة مع شارلوت . هل تنطفئ جذوة هذا الحب ويحل محلها السأم ؟ هذا ما أخشاه ! إن سحرها أخاذ فعلا ولكنها قلقة الشعور ولا تعرف تنويع الحديث » .

ومع كل ، فان كانت مدام دى شاريير ، وأنّا لندسى ، وجولى تالما ، وحتى مدام دى ستال ، لم يستطعن الاحتفاظ به ، فان شارلوت استطاعت ذلك . صحيح أن كونستان عندما سيصل إلى الخمسين من عمره سيهيم بامرأة أخرى . ولكن هذه المغامرة ستبلغ التفاهة حداً يجعل شارلوت لا تعطيها أية أهمية .

ولكن لا نتعجل الحوادث : فشارلوت لا تحمل اسم مدام كونستان بعد . وعندما ستحمله ، ستضطر إلى الانتظار بعض الوقت للإقامة فى عش واحد . ففى أواخر يونيو ١٨٠٧ ، ذهبت إلى ألمانيا لتصفية موقفها مع ألكسندر دى ترتر . وأرسلت مدام دى ستال رسولا من قبلها إلى كونستان ليخبره بأنها ستنتحر إن لم يعد إليها : هب كونستان يلبى نداءها ، فلما وصل إليها وجدها تضحك وتلهو وسط زوارها ، فغضب وتركها مع بطانتها التى لم يسترح لها ، وذهب إلى لوزان . ألحت

مدام دى ستال فى عودته إليها ولكنه تلكأ فى الاستجابة فذهبت هى إليه . ويقول فى مذكراته : « جاءت إلى وارتمت تحت قدمى وراحت تصرخ بشكل يفتت الأكباد المتحجرة . وعدت معها إلى كوبى ورضيت بالإقامة فيها ستة أسابيع . إن شارلوت تنتظرنى فى أواخر سبتمبر . فما العمل ؟ هل أدوس على مستقبلها وعلى سعادتى ! » .

مرت الأسابيع الستة ومرت الأشهر وكونستان لا يستطيع الفكاك من مدام دى ستال .

وأخيراً تقابل مع شارلوت فى باريس سنة ١٨٠٨ وكانت قد تخلصت من رابطة الزوجية وتنتظر تكوين حياتها الجديدة .

لم تكن لدى كونستان الشجاعة الكافية ليفاتح مدام دى ستال بمكنون صدره خوفاً من « أظافرها أن تمزق لحمه » حسب قوله .

وأخيراً قرر الزواج من شارلوت فى يونيو ١٨٠٨ على شرط أن يظل هذا القران طى الكتمان بعض الوقت . رضيت شارلوت ، فى بادئ الامر ، عن هذا الشرط . ثم رأت أن زوجها كثير التغيب ، كثير الأسفار إلى كوبى ، فطلبت منه أن يثوب إلى رشده وأن يتصرف تصرف الرجل القوى الحازم .

لم يستطع ذلك إلا فى مايو سنة ١٨٠٩ عندما ضرب ضربته القاضية بتقديم زوجته إلى مدام دى ستال التى رأت نفسها أمام الواقع ، فراحت تكيل له أنواع الهجو والشتم ووصمته بعدم الوفاء والأنانية والجبن . وبعد ذلك أملت عليه شروطها : لا بد من بقاء الزواج سراً إلى إيجاد حل مشرف لموقفها ؛ وخلال البحث عن حل لهذه الورطة ، يجب على بنيامين أن يعيش فى كوبى ؛ أما شارلوت فلتذهب حيثما أرادت .

ولما لم يمكنه الوقوف فى وجه هذه الطلبات ولا الصمود أمام تيار ذلك العتاب ، اعترف كونستان وزوجته بالهزيمة : فذهبت شارلوت إلى والد زوجها ، وتوجه هو إلى كوبى عند مدام دى ستال .

مناهضة الاستعمار

رأى كونستان ، بعد أن أمضى شهوراً وشهوراً فى كوبى ، بين البطالة وحدة المزاج وعقاب الضمير ، أن يسافر إلى ألمانيا مع شارلوت للتعرف على أسرتها . وهناك أقام فى قصر والديها وشعر بالنشاط يدب فى أوصاله ، ولكن إلى حين . لأن البروتوكول الألمانى المتشدد لم يرقه . وخلال فترة النشاط تلك ، حرر « الكراسة الحمراء » وزار مدينة برانسويك التى أمضى فيها ست سنوات من شبابه ، ثم عاد منها محملا بالذكريات المحزنة المؤلمة .

بدأ يمل الحياة حتى مع زوجته كما بدأ هذا الملل يجعله يأسف على الأيام التى عاشها فى نزاع مع مدام دى ستال « ذلك البركان المتقد » الذى انطفأ بالنسبة له ، والذى قد يلتهب مرة أخرى لأناس آخرين .

وفى هذه الأثناء ، وصلته أنباء هزيمة نابليون فى روسيا ، وهبت على أوربا ريح الحرية . وبدأت قلوب الناس تتفتح لآمال جديدة ، وشاطر كونستان الناس حماسهم ورأى أن نهاية الإمبراطور قد قربت ، فنشر فى هانوفر رسالة ضد نابليون تحت عنوان « روح الغزو والسلب »

(De l'esprit de Conquête et de l'Usurpation)

إن هذه الرسالة التى تشرف كاتبها ، تعتبر بحق ، ذات قيمة كبيرة حتى فى أيامنا هذه ، ذلك لأن الاستعمار لايزال يصب سمومه فى العالم بواسطة أذنابه . وتستحق هذه الرسالة ، فى الواقع ، دراسة دقيقة وافية ولكن نظراً لضيق المقام ، سنقتطف منها هاتين الفقرتين :

« إن الدفاع عن الوطن شيء ، والاعتداء على أقوام لهم وطن يدافعون عنه شيء آخر . إن روح الغزو

تحاول الخلط بين هاتين الفكرتين . فبعض الحكومات ، عندما ترسل جيوشها من قطب إلى خر . تتكلم عن الدفاع عن حياضها ، كأن كل مكان تضرم فيه النيران يصبح من أملاكها . . . » .

وقال أيضاً : « إن القوة التي تمكن شعباً من استعباد الشعوب الأخرى تعتبر في أيامنا هذه ميزة لا دوام لها . فالأمة التي تسير على هذا المنهج الاستعماري تضع نفسها في موقف أخطر من الموقف الذي تضع فيه الأقوام الضعيفة نفسها . إن مثل هذه الأمة تصبح محط الاحتقار والاشمئزاز من أهل الدنيا بأسرها . وأن الضمير العالمي والأماني القومية والسخط العام تقف في وجهها . وأن هذا الضمير وتلك الأماني وذلك السخط تصب ثورة غضبها على رأس تلك الأمة لتدميرها » .

ولانكون مبالغين إذا قلنا بأن هذه الكلمات تنطبق بالحرف على الأمم الاستعمارية الموجودة الآن . ولو أن كونستان لم يسطر غير هذه الكلمات لكفات لذكراه الخالد في سجل التاريخ وفي القلوب المحبة للتحرر .

وبعد هزيمة نابوليون في معركة لايبزيج واضطراره إلى التنازل عن الإمبراطورية ونفيه في جزيرة الب (Elbe) ، عاد كونستان إلى باريس سنة ١٨١٤ وحده ، تاركاً زوجته في هانوفر عند أهلها .

وجد الناس الذين أغدق عليهم نابوليون الألقاب والأموال يحاولون التقرب من الملك الجديد لويس الثامن عشر . ورغم التقدير الذي لقيه من الصحف التي امتدحت رسالته ضد الاستعمار ، انتاب كونستـــان شعور متناقض جعله يكتب في مذكراته بتاريخ ٢٩ مايو ١٨١٤ : « لا أعرف شيئاً عن مصيري : فلم تغدق على رجل عبارات الثناء أكثر مما أغدقت علي ، ولم يعان رجل من العزلة التامة أكثر مما عانيت » .

ثم أضاف بعد يومين : « أعتقد أن الناس يكرهونني ، وقد يكون هذا وهماً مني . ولكني في الحقيقة أنا المسئول عن عدم وضعي في المركز الذي أستحقه ، لا كما يخيل إلى أنهم يرفضون هذا المركز لي » .

وأخيراً قرر الفوز بهذا المركز بعد أن انضم إلى الملكية الدستورية ، نشر عدة كتيبات يوضح موقفه ، نذكر منها : « تأملات في النظم » (Réflexions sur les Institutions) و « التفرقـــة بين السلطات » (Distinction des Pouvoirs) و « حرية الصحافة » (Liberté des Journaux) و « مسؤلية الوزراء » (Responsabilité des Ministres) .

نالت مؤلفاته التحررية هذه كل تقدير وكان موضع حفاوة وولائم وحفلات . ويقول في ذلك وقد عمه السرور : « لقد انتشر صيتي » .

إن كل شيء أصبح يبتسم في وجه كونستان وتفتحت أمامه الأبواب على مصاريعها لمهام جديدة . ولكن في هذه اللحظة شعر بحب جارف طارئ لا يناسب وقاره يدفعه نحو مدام جوليت ريكامييه .

كاتب سياسي لامع

كانت مدام ريكامييه تعتبر أجمل نساء عصرها ، ترتمي القلوب تحت قدميها ، تتمتع بسحر لا يقاوم وذكاء وقاد . كانت تعيش في المنفى مثل صديقتها مدام دي ستال ، خلال حكم نابوليون . ولما عادت إلى فرنسا في يونيو ١٨١٤ ، فتحت صالونها الأدبي لكبار الشخصيات المشتغلة بالسياسة والأدب والفن والعلم . ومع أن كونستان كان يعرف هذه السيدة منذ عشرين عاماً دون أن يشعر نحوها بأكثر من الود والصداقة ، ومع أنه كان يعرف عنها فتورها الجنسي إزاء عشاقها — وما أكثرهم — أحس « بالنار تأكل أحشاءه كما لو كان في سن الثامنة عشرة » كما يقول .

وكتب في فجر هذا الحب الأسطوري يقول : « كنت أمضي أمسياتي لدى مدام ريكامييه ، المرأة التي عشت معها في سويسرا ، ورأيتها في أكثر من مناسبة

ولم أشعر وقتها بأية جاذبية نحوها ، وإذا بي على حين غرة ، أجد نفسي فريسة حب جارف . ولا أدرى هل أصابنى مس من الجنون أم أصبحت أحمق ؟ ولكن أملى أن أتخلص من هذا المأزق » .

ثم كتب بعد ذلك بأيام : « إن هذا الشعور ، للأسف ، لا يتركنى وحمى الهوى انسابت فى مفاصلى وامتلكت جسمى وعقلى . لقد انتهى عهد العمل والسياسة والأدب . نعم كل شىء انتهى ليبدأ عهد جولييت بالسيطرة على حياتى » .

كاد هذا الحب ينطفئ فى غده لولا نصيحة السيدة جوليانا كرودنر (Juliana Krüdner) التى كان لها نفوذ على القيصر اسكندر الأول ، وكانت تميل إلى التصوف وعلم النفس . لقد نصحته بالصبر والأمل . ولكنه مل الانتظار والأمل وأصبح منهوك القوى « يقضى الليل راكعاً يصلى أو مستلقياً على البساط » ، غريق وجدانه إلى أن ثاب إلى رشده من شعوذة تلك المرأة ، وعاد إلى العمل والسياسة والأدب .

وفى هذه الأثناء ، رجت أوربا أنباء عودة نابليون من جزيرة الب إلى فرنسا . ونشر كونستان فى جريدة « جورنال دى بارى » بتاريخ ١١ مارس ١٨١٥ مقالا ينتقد فيه حكم نابوليون الاستبدادى الذى سبب غزو الوطن . ثم نشر مقالا آخر فى « جورنال دى ديبا » بتاريخ ١٩ مارس ، أعنف من الأول ، مؤكداً أفكاره التحررية ، مشبهاً نابوليون بالطاغيتين تيمور لنك وجنكيز خان .

كان لهذين المقالين دوى كبير ، ولكنهما أغضبا أنصار الملكية وأنصار بونابارت . ووصمه الأولون بالتهور والآخرون بالوقاحة .

وفى يوم ١٩ مارس المذكور ، ترك لويس الثامن عشر باريس ليدخلها الامبراطور فى اليوم الثانى .

كان من المنتظر أن ينتقم نابوليون من السياسيين الذين خانوه وأن يحكم بالحديد والنار ، ولكنه لم يفعل هذا ونادى بالعفو العام ، وقرب إليه كونستان باعتباره أعظم كاتب سياسى فى عصره .

اتخذت مقابلة نابوليون له صفة الصراحة والود ، وكلفه باعداد الدستور . دهش كونستان من هذا التكليف بقدر ما سر منه . ودفعه اعتقاده فى حسن نية نابوليون إلى أن يقوم بما كلف به وينجزه فى بضعة أيام .

رأى الامبراطور أن يكافئه ، فعينه فى مجلس الدولة . وأظهر كونستان من الهمة والكفاءة ما جعله ملتقى الأنظار . ونستطيع القول بأنه كان يعتبر فى ذاك الوقت أكبر شخصية سياسية فى نظام الحكم القائم .

ولكن انهار هذا الصرح بعد مائة يوم على أثر موقعة « واترلو » ونفى نابوليون إلى « سانت هيلانه » . وكتب كونستان فى مذكراته يوم ٢١ يونيو ١٨١٥ ، ليلة تنازل الامبراطور : « يا لهؤلاء الأنذال ! إنهم خدموه بحماس عندما داس الحرية بقدميه . وتخلوا عنه عندما أقامها ! » .

وعاد لويس الثامن عشر والتف حوله النبلاء وطلبوا معاقبة الذين خدموا نابليون . وكان المقصود بذلك بنيامين . فما كان من هذا الأخير إلا أن أرسل خطاباً إلى الملك يبرر فيه موقفه ويبرهن بأنه ظل متمسكاً بالآراء التى تخدم مصلحة الوطن فى ظل التحرر .

أنقذته هذه الرسالة من ذل المنفى ، حتى إن رئيس الشرطة قال له : « لقد نجحت رسالتك وأقنعت الملك » فرد عليه بكل بساطة : « أعتقد ذلك لأنها أقنعتنى أنا نفسى » .

واتضح له أن الملكيين يحاولون انقاص قدره فى الصالونات ، فصمم على ترك البلاد . ويقول فى مذكراته بتاريخ ٢٤ يوليو ١٨١٥ : « سأترك فرنسا لمدة طويلة ، لأنى منهوك القوى . قد سئمت الناس ومدام ريكاميه . إن قلبى ورأسى فى حاجة إلى الراحة .

سأذهب إلى سويسرا وإلى زوجتى . وهذا كل ما أطلبه من الله » .

ولكنه لم يترك فرنسا إلا بعد ثلاثة أشهر من هذا التاريخ ، قاصداً بروكسل حيث لحقت به زوجته فى أوائل ديسمبر . ثم سافرا إلى انجلترا فى ١٥ يناير سنة ١٨١٦ . وفى لندن ، رأت قصة « أدولف » النور بعد تسعة أعوام من تحريرها . واشتراها الناشر منه بسبعين جنيهاً ذهباً .

أعمال النائب الكبير

عندما عاد كونستان إلى باريس فى سبتمبر ، وجد نفسه فى عزلة تامة : فلا وظيفة ، ولا صديق حتى أصبح غريباً فى وطنه .

كانت الانتخابات على الأبواب ، وكانت شعارات المرشحين ومناقشاتهم تافهة إلى درجة جعلت كونستان يفضل البقاء فى قصره العاجى . وروح عن نفسه باستئناف كتابة مذكراته عن « المائة يوم » (Mémoire sur les Cent-Jours) التى بدأها فى انجلترا . وظهرت فى جزءين بعد انتهائه من تحريرها بأربع سنوات .

وفى هذه الأثناء ، علم بمرض مدام دى ستال ، فذهب إليها وظل بجوارها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة فى سنة ١٨١٧ ، ولم نعرف مدى ألمه على موتها لأن مذكراته تقف عند سنة ١٨١٦ .

عاد بنيامين بعد ذلك إلى أعماله الأدبية . فراسل عدة صحف تحررية ، وألقى سلسلة من المحاضرات عن الدين ، وبدأ يطبع كتابه المسمى « دروس فى السياسة الدستورية » الذى يضم مذهبه وآراءه وأفكاره واقتراحاته فيما يتعلق بالحكومة النيابية والدستور فى فرنسا . واعتبر هذا البحث القيم ميثاق المعارضة البرلمانية لعدة سنوات .

كان ضمان حقوق الفرد فى نظر بنيامين ، يكمن فى كلمة « الحرية » وكان واجب الحكومة عنده ، ضمان هذه الحرية فى جميع أشكالها : حرية الفكر ، حرية الصحافة ، حرية الدين ، حرية السياسة ، حرية الاقتصاد أى حرية التصرف فى الأموال المكتسبة بالميراث أو من العمل الإنسانى . ولكنا نلاحظ فيما يتعلق بهذه العبارة الأخيرة ، تحفظاً يقربه من الاشتراكية إذ يضيف شارحاً : « إن الملكية بصفتها من المرافق الاجتماعية ، تصبح من اختصاص تشريع المجتمع وعلى ذلك يكون للمجتمع حقوق عليها » .

ولدينا ملاحظة أخيرة : فانه وإن بنى مذهبه على مبادئ ثورة ١٧٨٩ وبالتدقيق على وثيقة حقوق الإنسان ، فهو لا يحبذ الانتخابات العامة ولا يهتم بالمشاكل الاجتماعية ، وبالتالى لا يثنى على الديمقراطية . هل تنسى كلمته المشهورة التى تبدو ساحرة لأول وهلة ولكن لا يمكن التسليم بها ولا أخذها على علاتها . يقول كونستان : « إن الحرية فى رأيى هى انتصار الفردية على السلطة التى تريد أن تحكم بالوسائل الاستبدادية وعلى الجماهير التى تطالب بحق استعباد الأغلبية للأقلية »

يتضح لنا بتحليل هذه الفكرة الخلابة فى ظاهرها ، أن الفرد يجب أن يكون فوق السيادة وفوق الأمة وفوق الدولة ، أى يجعل البلد بدون حكم وبدون مراقبة ، الأمر الذى لا يتفق مع المنطق السليم .

كان كونستان يأمل بعد تجربته المؤسفة فى المجلس الاستشارى ، أن يكون فى يوم من الأيام ، المدافع عن الحرية والعدالة على منصة الخطابة . ولقد تهيأت له هذه الفرصة فى سنة ١٨١٩ عندما انتخب عضواً فى مجلس النواب ، حيث ظل محتفظاً بهذه العضوية إلى يوم وفاته . كان عضواً معارضاً وخصماً عنيداً لحزب اليمين . لم يكن بالخطيب المفوه بيد أنه كان قادراً على حسن العرض والاقناع .

وإذا كان كونستان مكروهاً من اليمين ، فلم يكن محبوباً من أعضاء حزبه ، ونعنى بهم الأحرار لتبعيتهم للبورجوازية التى كانت تهتم بالمحافظة على مركزها وعلى

أموالها ومظهرها ، وتسخر من أمثال هذا الرجل الصريح الذى لا يعبأ بالتقاليد والعادات المليئة بالخداع والرياء والمخاتلة .

وفى سنة ١٨٢٦ بدأ باصدار الجزء الأول من كتابه المفصل المسمى « الدين فى منبعه وأشكاله وتطوره » (La Religion considérée dans sa source, ses formes et ses développements) الذى يقول عنه البروفسور هنرى بيير (Henri Peyre) « إن كونستان يبدو فيه من كبار الباحثين فى الأدب اليونانى من ذوى الأفكار الفريدة ، متقدماً فى هذا المضمار على كينيه (Quinet) ورينان (Renan) » .

ولم يظهر الجزء الخامس والأخير من هذا العمل ، إلا بعد وفاة المؤلف بسنة .

كان كونستان يمثل الاستقلال البرلمانى قلباً وقالباً ، كما كان يمثل المقاومة ضد الاستبداد . كان الشباب الذى يحب فيه حسن البصيرة والنزاهة يحفظ خطبه عن ظهر قلب ويقرأ بشغف واهتمام كتبه ومقالاته . وكانت الرسائل تتدفق عليه من كل أنحاء فرنسا معبرة عن التقدير له والاعجاب به .

وفى سنة ١٨٢٩ أخذ السخط يزداد فى البلاد على أثر الأوامر الملكية التى راح يصدرها شارل العاشر وريث عرش لويس الثامن عشر . وقبل ثورة الشعب فى يوليو ١٨٣٠ ، أعلن كونستان فى البرلمان قائلا : « إننا لا نهاجم الامتيازات الملكية وإنما نطالب الملك فقط بالتنسيق بين السلطات ، وذلك إما بطرد مستشاريه أو بقيام انتخابات جديدة » . كان كونستان يريد ، بمعنى آخر ، إما تغيير الوزراء أو حل مجلس النواب .

واختار الملك حل المجلس ، وجاءت الانتخابات فى صالح المعارضة على غير ما كان يحتسب . وكان على شارل العاشر إما أن يخضع أو أن يتنازل عن العرش . ولكنه اختار حلا ثالثاً : وهو ضربه بعرض الحائط توجيهات المعارضة ، فقامت الثورة . وكان كونستان فى الريف متعباً ملازماً الفراش يعوده الأطباء حتى إن لافاييت (Lafayette) ، رجل اليسار المعروف ، أرسل إليه يقول : « إن الناس يلعبون هنا دوراً فيه ضياع رؤوسنا ، فقدم رأسك ! » .

لب كونستان نداء الواجب وذهب إلى باريس وكان ضمن المائتين وواحد وعشرين عضواً فى مجلس النواب الذين وقعوا على وثيقة عزل الحكومة وانتخاب لويس فيليب ملكاً . ورأى الجالس الجديد على العرش أن يكافئ بنيامين ، فعينه رئيساً لمجلس الدولة .

ومات المترجَم له فى ١٠ ديسمبر ١٨٣٠ ، وسار فى جنازته ، باعتباره بطلا شعبياً ، أهالى باريس والوزراء وأعضاء البرلمان وقواد الجيش : وحمل الشباب نعشه على أكتافهم تعظيما لرجل السياسة والأدب الذى استحق تقديرهم واحترامهم .

قصة « أدولف »

عندما ظهر كتاب « أدولف » ، لم يلق أى فهم أو تقدير من معاصريه . وعندما خصه الكاتب المعروف سانت بوف بدراسة فى سنة ١٨٥٢ ، لم يكن معروفاً إلا من رجال الأدب . ولم يحظ بالشهرة إلا بعد وفاة مؤلفه بأربعين عاماً ، متخذاً مكانه بين روائع الأدب الفرنسى . وحكم عليه الناقد الكبير البير تيبوديه (Albert Tribaudet) بقوله : « ألف بنيامين كونستان هذا الكتيب الذى سيظل لابساً ثوبه القشيب عبر الزمن ، إنه قصة حياة فاشلة ، لا قصة فاشلة . والدليل على ذلك هو أن الرواية السيكولوجية فى فرنسا ، لم تزد خلال نصف قرن ، أكثر من السير على منوال هذه القصة الهادئة المتزنة الشاملة للأهواء والأحاسيس الإنسانية ذات الرنين المستمر الصدى ، مع تعهدها بالإضافة والتعديل والتبديل والتجديد ليس إلا » . ويقول تيبوديه أيضاً : « إن « أدولف » قصة عبودية راضية ، عبودية

قام بتحليلها رجل وهب نفسه للحرية التى فضلها على كل شىء فى حياته » .

إن هذه الكلمات الوجيزة التى جاءت على لسان الناقد تعطى فكرة صحيحة عن القصة وعن طبيعة مؤلفها .

تقوم عبقرية كونستان على نجاحه فى التخلص من كل ما هو جاف . وتشويق القارئ بأسلوب سلس خلاب . رغم خلو القصة من وصف الطبيعة . أو وضعها فى إطار زخرفى . ورغم خلوها من التفاصيل عن الأبطال والأشخاص الثانويين . ورغم خلوها من المفاجآت ومن تكرار الحوادث أو وصف الأخلاق أو المكان الذى تجرى فيه فصول الرواية . ووقائع القصة تدور فى قلوب استطاع بطلها — وهو الكاتب نفسه — أن يدرسها بدقة وأن يقوم بتشريحها . لا ليدافع عن نفسه وإنما ليتهمها ويعود عليها باللائمة . ويكشف عن الآلام . لا للشكوى منها وإنما ليتحملها فى سكون . ويقدم اعترافاته بشجاعة موضحاً أخلاقه بما فيها من رخاوة وضعف . عارضاً المواقف التى خاضها دون تنميق ودون دموع . لأنه « كان أكثر أهل جيله رجولة وصراحة » حتى إنه جعل من نفسه على نفسه شاهداً وحكماً .

وإذا كان من السهل على القارئ أن يعرف فى أدولف حياة كونستان . فمن العسير أن يتعرف على الشخصية التى تخفيها اللينور .

بطلة القصة

يعتقد كثير من الناس أن هذه السيدة تتقمص شخصية النساء التى اتصل بهن الكاتب اتصالا وثيقاً . ودون الوقوع فى مثل هذا الاعتقاد المبالغ فيه . يمكن القول : كما أن الرسام يستعمل مختلف الألوان ليخرج لوحته . فالأديب يتخذ من بعض الأشخاص الذين قابلهم فى حياته صورة يستخرج منها شخصية البطل . وهذا ما فعله بنيامين كونستان . وفى تقديرنا أن اللينور هى مزيج من انَّا لندسى ومدام دى ستال وجولى تالما التى تكلمنا عنهن فيما سبق .

فاللينور : مثل «انَّا لندسى» . سيدة أجنبية لها طفلان تربطها علاقة غرامية . يفيض قلبها بالحنان والود ولكنها مستبدة . حادة الطبع إلى درجة مضايقة معشوقها . ومركز أدولف وخدين اللينور فى القصة هو مركز بنيامين وخدين « انا لندسى » . وأخيراً فان الظروف التى تحيط بماضى اللينور مستقاة من الظروف التى أحاطت بأنا لندسى .

واللينور هى أيضاً مدام دى ستال فى جهادها فى الدفاع عن حبها وفى الرغبة الملحة فى إطالة مدته وظهورها فى مظهر الضحية . وأن بعض مواقف اللينور مع أدولف منقولة من المواقف التراجيدية الغرامية لمدام دى ستال مع بنيامين . وأن ما قاله كونستان فى مذكراته سنة ١٨٠٤ عن حياته القلقة المشوبة بالآلام مع عشيقته تلك ، يمكن تطبيقه حرفياً على بطلى الرواية : « كم أود ترك الشكوى ، لا من مصائب الحياة ، بل من ناموس الطبيعة أى من الشيخوخة . إنى أريد ، أنا الرجل ، ألا أتحمل انفعالات امرأة ضاع شبابها . لا أريد أن أطالب بالحب بعد اتصال دام عشر سنوات ووصولنا إلى حافة الأربعين من العمر . وكم أعلنت أن الحب هجر قلبى . وهو تصريح لم أرجع فيه إلا لتهدئة أزمات الألم والغضب التى كنت أخشاها » .

وأخيراً فان كونستان الذى كان بجوار جولى تالما ساعة لفظها أنفاسها الأخيرة . نراه يتذكر ذلك الموقف الرهيب عند وصفه احتضار بطلة روايته .

إن أدولف يظن أنه يحب اللينور ولكن عندما يجد هذه المرأة شغوفة به ، يحاول الابتعاد عنها . إنه صورة طبق الأصل لواضع القصة : فهو المعشوق المتردد أمام الحب . الذى يظل محبوباً بينما قد خلا قلبه من الغرام : لذلك كتب كونستان فى يوم من الأيام هذه الجملة :

« يدهشنى أن أرى نفسى كريشة فى مهب الريح ، أنا الذى كثيراً ما رغبت فى التعلق بأى شىء » .

إن هذه الكلمة يمكن تطبيقها على أدولف . وفى الواقع يشعر هذا البطل بدوره بأنه غير قادر على ترك الينور أو البقاء بجانبها ؛ غير قادر على الاعتراف بنهاية حبه لها أو اخفاء ذلك عنها ؛ غير قادر على الاحتفاظ بذكراها أو نسيانها .

وهذا الشعور المتناقض لاحظناه فى حياة كونستان : فعندما كان يربط مصيره بمصير امرأة ما ، كان هذا الرجل المطاوع لعقله أكثر من قلبه ، لا يكشف اطلاقاً عن مكنون صدره أو عما يجول فى فؤاده . كان لا يتوانى فى البحث عن طريقة تعيد إليه استقلاله وحريته . بيد أنه كان عند انفصام حبل الصلة ، يتأسف على الملذات السابقة ويشكو من افلاته من ذلك الحب بدون روية . كانت هذه الشكوى وذلك الأسف يجعلانه يشعر فيما بعد ، بالعرفان وبالشفقة نحو التى تركها ، لأنه إذا كان الثبات ينقصه ، فانالشعور الرقيق متوفر لديه . ويقول فى مذكراته : « إن حياتى ، فى الواقع ، لا توجد إلا داخل نفسى ، ولا أظهر منها إلا جانبها الخارجى لمن يشاء . أما جانبها الداخلى فمحاط بسور منيع لا يمكن لأحد اجتيازه . وربما تصل الآلام إلى هذا الجانب الداخلى عن طريق الناس ولكنهم لن يستطيعوا الاستيلاء عليه » .

والآن نورد فيما بعد ملخص قصة أدولف مع ذكر مقتطفات منها خلال سردها .

ادولف أو عدم القدرة على الحب

أدولف هو ابن وزير يعمل فى معية أمير ألمانى . قد أنهى علومه فى جامعة جوتنجى Goettingue فى سن الثانية والعشرين . تبدو عليه علامات الخجل والتحفظ كوالده الذى يريد تدريبه على مهنته ليرث مركزه فى يوم من الأيام . ويذهب أدولف للترويح عن نفسه إلى مدينة مجاورة ويتعرف بالالينور السيدة البولندية الشابة .

على أثر اضطرابات وقعت فى بولندا ، انهار بيت أسرتها ونفى والدها فى روسيا . وذهبت هى مع والدتها إلى فرنسا . وماتت الأم بعد بضع سنوات . فوجدت الينور نفسها فى عزلة فعاشت بعض مغامرات عاطفية واستجابت لحب الكونت ب . . . وأصبحت خليلته . وعندما تعرفت بأدولف ، كان قد قضى على علاقتها بهذا الكونت حوالى عشر سنوات .

وما أن رآها أدولف حتى سحره جمالها ووقارها ، فغازلها باضطراب نظراً لأنه كان غراً غير مجرب . لم يستطع أن يفتح لها قلبه شفاهة . ففاتحها بغرامه كتابة ، منتهزاً فرصة سفر الكونت . ويقول فى ذلك : « رأت الينور رسالتى ، وهو أمر طبيعى . ناشئ عن قلب رجل يصغرها بعشر سنوات . مفعم بأحاسيس لم يعرفها من قبل ، تدعو إلى الصفح عنه أكثر من الغضب عليه . وردت على بحنان وزودتنى بالنصائح ومنحتنى صداقة خالصة ، ولكنها أخبرتنى بأنها لا تستطيع مقابلتى قبل عودة الكونت » .

عاش أدولف فى قلق وحاول أن يحيد عن شرطها دون جدوى . ورأت هى ، خوفاً من تصرف متهور من جانبه ، أن تلجأ إلى الريف بعض الوقت . وعاد الكونت وأعد وليمة كبيرة دعا إليها أدولف . وعند الذهاب إلى غرفة الطعام ، أعطى أدولف ذراعه إلى الينور وراح يسر إليها بآلامه وآماله . ولنتركه يتكلم : « إذا لم تسمحى لى غداً بمقابلتك فى الحادية عشرة ، فسأترك بلدى وأسرتى وأبى وأقطع كل روابطى وأتخلى عن واجباتى ، ثم أذهب إلى أية جهة لأتخلص فيها من حياة يلذك جعلها جحيما . فردت قائلة : «أدولف ! » ثم ترددت ، فقمت بحركة كمن يريد الابتعاد عنها . ولا أدرى كيف كانت ملامح وجهى فى هذه اللحظة ، ولكن كل ما أعرفه هو أنه لم يسبق لى أن تقلصت

عضلات وجهي بهذا الشكل : ونظرت إلى اللينور فلاحظت على وجهها خوفاً مشوباً بالحنان . ثم قالت : « سأقابلك غداً ولكني أستحلفك . . . . » ولم تكمل الجملة لأن المدعوين كانوا في إثرنا . . . » .

ظلت اللينور في بدء الطعام حالمة متهدمة . ثم راحت رويداً رويداً تزيح كابوس الكآبة وتبتسم وتشارك المدعوين الحديث . ولاحظت في نظر حبيبها من معالم السرور والعرفان ما جعلها تعطف عليه . وعند العودة إلى قاعة الجلوس تمتم أدولف قائلا : « ها قد اتضح لك أنك تسيطرين على حياتي كلها . فماذا فعلت لك حتى تجدى لذة في إيلامي ؟ » .

وعندما قابل اللينور . أعلمها بأنه لم يأت إليها لانكاره اعترافه حبها . أو ليحدثها عن شعوره الذى لا يمحوه الزمن . وإنما ليرجوها أن تنسى ذكرى لحظة جنون بدر منه . وأن تقابله كما قابلته أول مرة حتى لا يشعر بوخز الضمير لانفعال كان الأجدر به أن يخفيه في نفسه . ومما قاله لها : « إن حالتي لا تخفى عليك . ولا أخلاقي المتناقضة ولا قلبي البعيد عن ملاذ الدنيا . المنعزلة وهو وسط الناس . المتألم من هذه العزلة . إن صداقتك هي سندى الوحيد في الحياة . . . لا آمل في شيء . ولا أطلب شيئاً حيث لا أريد إلا رؤيتك . ولا بد لى من رؤيتك لأعيش » .

تأثرت اللينور من هذا الكلام وانقادت لرغبة أدولف على شرط أن يلتزم جانب الوقار ولا يقابلها إلا ضمن زوارها . وأحترم هذا الشرط بعض الوقت ولكن سرعان ما دبت الغيرة في قلبه من الخاطين باللينور . فرأت تهدئة له أن تقابله على انفراد في بعض الأحيان . ويقول أدولف : « هكذا تغيرت شروطها الصارمة بسرعة وسمحت لى بأن أصف لها حبي واعتادت تدريجياً على لغة الغرام . إلى أن اعترفت لى بأنها تحبني » .

وانتهى الأمر بها إلى الاستسلام له ، فراح يقول في نشوة المنتصر : « هل يستطيع بشر أن يعطينا صورة صادقة لسحرك أيها الحب ؟ ! . . . وهل يستطيع وصفك من ذاق طعمك ؟ » .

إذا كان أدولف قد شعر بارتياح لغزو قلب اللينور . فانها كانت بدورها مسرورة بحياتها الجديدة . ولكن ساورها القلق والخوف عندما لاحظت أن أدولف بدأ يتضايق من ملاحقتها له ، ورغبتها في الاستئثار به كله . ففي الواقع إذا كان أدولف يشعر بألم الفراق إن ابتعد عن اللينور . ولو بضع ساعات . وينشرح صدره عند ملاقاتها . فاننا نراه يقول في اضطراب : « أردت أن أجعل من اللينور مجرد عشيقة ولكن تبين لى أنها تريد رباطاً يدمج حياتي في حياتها » . وهداه تفكيره إلى أن صلته بها ستتراخى بطبيعة الظروف . ويقول في ذلك : « إن علاقة اللينور بالكونت ب . . . وتفاوت السن بيننا . واختلاف مراكزنا . واضطرارى إلى السفر الذى حان موعده . إن كل هذه الاعتبارات دفعتني إلى أن أتمتع بها بأكبر قسط مستطاع من السعادة في أقصر وقت ممكن » .

وبدأ الكونت ب . . . يكتشف ما يدور حوله . وبدأ أدولف يخشى على عشيقته ويسدى إليها النصح . ولكنها قالت له في تشاؤم : « لا تخف على ولا تتألم من أجلى ولنستمتع بالأيام وبالساعات . . . فنفسى تحدثني بأنى سأموت بين ذراعيك . . . » .

وإرضاء لإللينور . طلب أدولف من أبيه مهلة ستة أشهر ليعود إليه . ولكن هذه المهلة . جلبت للعشيقين حدة المزاج وعصبية في التصرف حتى دب الخلاف وقامت مشادات عنيفة بينهما : فهي تتهمه بغشها وأن صلته بها كانت طارئة . وأنه حرمها من حنان الكونت وعطفه . وجعلها في أعين الناس في مركز مشبوه .

ودارت نخلد أدولف أطوار حياته المشوبة بالقيود ، وشبابه المضيع فى البطالة واستبداد اللينور به ، ولكن بكاءها استرق قلبه ، فيحاول مواساتها ، فعاد إليها الهدوء بعض الوقت ، وصرحت له عند تأهبه للسفر قائلة : « إن الكونت منعنى من مقابلتك ولكن لن أخضع لهذا الأمر الاستبدادى . . . لأنه يستطيع الحياة بدونى ولا أستطيع الحياة بدونك » .

حاول أدولف أن يشرح لها الموقف وما عسى أن يلوكه الناس عنها ، فردت عليه بأن ذلك لا يهمها . فذكرها بابنيها المحتاجين إلى عطفها ، فردت عليه بأنهما ابنا الكونت ويستغنى بهما . ثم انتهى النقاش على الوجه التالى : « إذا أنا قطعت علاقتى بالكونت ، فهل سترفض رؤيتى ؟ فرد قائلا : « لا بالتأكيد ، وكلما شعرت بتألمك ، كلما امتلأ قلبى ولاء لك . ولكن قدرى الموقف . . . . » . فما كان منها إلا أن ردت قاطعة : « قدرت كل شيء ! » .

وبعد يومين تقابلا فى الدار التى استأجرتها وأطلعته على نيتها فى ترك الكونت . ولم يستطع ، أمام هذا القرار الحاسم أن يبدى أية معارضة ، ورجاها أن تنسى كل ما سببه لها من ألم وأن تثق فيه .

وبدأت المداهنة والمداراة بينهما : فاللينور لا تجرؤ على الإباحة بقلقها ، ولا هو يجرؤ على الشكوى من المتاعب والمضاعفات التى لم يستطع محاشاتها . ويقول فى ذلك : « إن المداراة تضع فى الحب عنصراً غريباً عنه يغير من طبيعته ويذبله » .

ولنتساءل : هل لا يزال فى الواقع يحب اللينور ، بل هل أحبها فى يوم من الأيام ؟ إنه أراد مغازلة امرأة ولكن دون السماح لها بالسيطرة عليه . وإنه أمر عجيب فالحب يحتاج ، لاستمراره وتوطيده — مهما شابه التطلع إلى الحرية — إلى التنازل عن جزء من هذه الحرية وعلى الناس الذين هم على شاكلة أدولف فى نزاع دائم مع أنفسهم ويوغر صدورهم عدم الثقة . ألا يعدوا بشىء لا يستطيعون انجازه . أو أن يعتزلوا العالم !

ولا نقول هذا دفاعاً عن اللينور . فهى أيضاً مذنبة بل ذنبها أكبر من ذنب معشوقها . إذ كان يجدر بها ، قبل استسلامها لهذا الحب الطائش أن تنظر إلى علاقتها الأولى وإلى سنها وأولادها . ولو فرضنا أنها نسيت كل هذه الاعتبارات . فكان يليق بها أن تتذكر . أن الحب له أجنحة ولا يمكننا أن نوجهه حسب رغبتنا وأهوائنا . إننا نجدها حنونة صامتة فى بادئ الأمر . ثم تنقلب سريعاً إلى ضحية شاكية باكية متظلمة غاضبة . ناسية أنه من العسير الاحتفاظ بأدولف سجيناً لحب انطفأت جذوته .

وبعد انقضاء نشوة الغرام الأول . انتابتها المخاوف من ناحية تقدمها فى السن . وهذا الشعور بالذات هو الذى جعلها تتصرف بتهور . . . . ومضت فترة الستة أشهر ، فترك أدولف عشيقته واعداً إياها بالعودة بعد شهرين . وبالرغم من تصريحه بأنه تركها على مضض ، فانه ينتظر بقلق مرور الأيام ليعود إليها أو تعود هى إليه . ويقول : « قارنت بين حياة الاستقلال والهدوء وبين حياة الاضطراب التى تمليها على هواها . فكنت أجد المتعة فى الحرية وفى الذهاب والإياب والخروج والعودة حسبما يروق لى ذلك ! ! » .

ولما لم يف بوعده . اتخذت اللينور العدة للذهاب إليه . فنصحها بتأجيل حضورها خوفاً من أن تنتابها أزمات عصبية جديدة . ولكنها جاءت إليه فى تردد وأشبعته لوماً وعتاباً . فاستشاط غضباً . ويقول : « استسلمنا لغضب جنونى استبعدنا خلاله كل ملاطفة وكل رقة ، وكنا فريسة للكراهية المتبادلة حتى خلنا أننا عدوان لدودان يريد كل منا تمزيق الآخر . بينما كنا فى الواقع شخصين بائسين يعرفان نفسيهما حق المعرفة ولا يستطيع أحد غيرنا الحكم على تصرفنا » .

ولأول مرة فى حياتهما لم يحاولا تصفية نزاعهما . ولما عاد أدولف إلى داره . وجد أباه على علم بحضور الليبنور . وقد قرر ابعادها عنه . فما كان من أدولف إلا أن شعر بعودة الحب إلى قلبه واستيقظت فيه روح حماية عشيقته . فراح يهزها فى فراشها قائلا : « لنرحل فوراً ! هل لك فى الدنيا شخص آخر يحميك غيرى ؟ هل لك صديق خلافى ؟ أليست ذراعاى مأواك الوحيد ؟ »

وقبل أن تفيق من الدهشة . وجدت نفسها مع فارسها فى عرض الطريق . وبعد أن ضمها إلى صدره ولاطفها . أخبرها بما كان ينويه أبوه . شكرته على رقة شعوره . ثم تبينت المتناقضات فى قصة حبيبها . فقالت له : « إنك مخطئ يا أدولف فى حق نفسك . إنك كريم ، كلك ولاء لى لأنى مضطهدة ، وتظن أنك تحبنى ، ولكنك فى الواقع تعطف على فقط » . ويعترف أدولف للقارئ بشعوره هذا ، بيد أنه لا يعترف به لمحبوبته .

وبعد أن وجد مكاناً يأوى إليه . كتب إلى أبيه يرجوه بألا يغضب على الليبنور لأن هذا التصرف يزيد فى نار الحب ولا يفصم عراه . فرد عليه أبوه يطمئنه بأنه لن يشغل باله بمسألة صبيانية كهذه . ثم واجهه قائلا : « إنك تضيع أجمل سنى شبابك سدى وهى خسارة لن تعوض » .

اقتنع أدولف فى قرارة نفسه بنصيحة أبيه لأن حياته تدور فعلا بين البطالة والانزواء . ومع كل ، ظل بجانب عشيقته عدة أشهر فى عزلة عن الناس فى مدينة صغيرة من مقاطعة « بوهيم » . وفى يوم من الأيام أخبرته الليبنور بأنها تلقت رسالة من الكونت يعرض عليها التنازل لها عن نصف ثروته مقابل تركها « ذلك الوغد الذى سبب انفصالها » . لم تلتفت الليبنور إلى هذا العرض . ولم يرق أدولف هذا التصرف « لأنه ظن أن الوقت قد حان ليختار مهنة ويدخل حياة الجد والاجتهاد ويرفع من صيته بين الناس ، وأن يستثمر مواهبه فيما ينفعه » .

حاول أن يشرح لها أن قوانين المجتمع أشد قوة من إرادة الأفراد ، وأنه من العبث أن يستمع الإنسان لنداء قلبه ، لأن العقل ينتصر عادة فى النهاية ، وأن عرض الكونت يستحق الاعتبار . وهنا أطلقت الليبنور صرخة ، ثم فقدت وعيها وارتمت على الأرض ، فراح يطيب خاطرها ويسحب اقتراحه ويؤكد لها أن حبه لم يتغير ! لقد أراد من الرأى الذى أبداه أن يجعلها حرة الاختيار . ويقول : « وانتشت من كأس حبها الذى ظنت أنى أبادلها اياه . وأكدت رفضها للكونت : وأصبحت ملتزماً بها أكثر من ذى قبل » .

وبعد فترة ، علمت الليبنور أن أباها الذى صدر العفو عنه ، عاد إلى بولندا ووجد ثروته كما هى وأنه يريدها بجواره . وأرادت أن تصطحب عشيقها . وبينما هى تفكر مع أدولف فى الذهاب إلى والدها ، أتاها نعيه .

رأى أدولف من واجبه أن يصطحبها لتسوية الميراث . ولم يرتح فى القصر الذى ورثته محبوبته لأنه أصبح يعيش على نفقتها .

وقابل أدولف صديقاً لوالده هو البارون ت . . . السفير فى وارسو . الذى نصحه بالابتعاد عن هذه المرأة التى لن يستطيع أن يتزوجها لكبر سنها ولسمعتها التى لاكتها الأفواه ، ثم أضاف : « تستطيع الزواج من أكبر العائلات . واعلم أن العقبة بينك وبين نجاحك فى الحياة هى الليبنور » .

حاول أدولف الدفاع عن عشيقته ولكنه كان فى قرارة نفسه مقتنعاً بكلام صديق والده الذى رن فى أذنيه تماماً . فراح يسير الساعات الطويلة فى مزارع الريف وهو يفكر فى حياة رتيبة مع زوجة تفهمه وتقدره وتحبها . ويقول : « لم أكن أهتم إلا بالليبنور وبنفسى : بالليبنور التى تستدر عطفى . وبنفسى التى لا تستحق

الاحترام . . . وارتحت للأفكار الجديدة التى طرأت على ذهنى ، ولقدرنا على نسيان نفسى لأتطلع إلى حياة أسمى ، حتى شعرت أن روحى تستيقظ من غفوة طويلة مخجلة » .

لاحظت اللينور على أدولف أنه يزداد قلقاً ، فعزت ذلك إلى الحياة المملة التى يعيشها بجانبها ، فعمدت . لتلطيف هذا الجو الخانق . إلى دعوة الأسر النبيلة القاطنة بجوارها لزيارتها . ولكنه لم يرتح لمجالسة هذه الفئة الثرثارة التى كانت بدورها تحذره وتكرهه . ويقول فى ذلك : « من العجب أنى كنت ضحية اللينور بينما كان الناس يبدون الشفقة عليها كما لو كانت ضحيتى . . . لقد أهملت . من أجل هذه المرأة ، كل مصالحى وملذات الحياة ، ومع ذلك ، كنت أنا المحكوم عليه » .

حاولت اللينور أن تشعل نار الغيرة فى قلب معشوقها بالتفاف الشباب حولها . إنه كبرياء المرأة المجروحة من فتور عشيقها . فتريد اقناع نفسها بأنها لا تزال محط أنظار المعجبين . طلب أدولف منها الكف عن هذه المهزلة المضحكة . لبت طلبه ولكن السعادة كانت قد طارت من عشهما وأضحت حياتهما مشوبة بالمنازعات والخاصمات ، وكانت تقول له : « إنك لا تشعر بمدى الألم الذى تسببه لى ، ولكنك ستعرفه بعد أن توارينى التراب » .

وفى هذه الأثناء ، أرسل البارون ت . . كتاباً رقيقاً إلى أدولف يطلب فيه مقابلته . فذهب إليه ودار الحديث بينهما على كل شىء فيما عدا اللينور . وشجعه الدبلوماسى على زيارته من وقت لآخر . وفى إحدى المقابلات ، فاتحه البارون قائلا : « أريد محادثتك بصراحة . ما الذى يرغمك على البقاء فى حالة أنت غير راض عنها ؟ لمن تعمل الخير ؟ أتظن أن الناس هنا لا يعلمون شيئاً عن صلتك باللينور ؟ إنهم على علم بالشقاق وبالحياة المريرة التى تعيشانها . إن ضعفك يضرك ، وعنفك يضرك ، وتهورك لن يسعد بهذه المرأة التى حولتك إلى رجل بائس » .

تردد أدولف بعض الوقت فى العمل بنصيحة السفير . ولكن اللينور راحت تعد عليه خطواته وروحاته . الأمر الذى سود عيشته ، فانفجر معلناً للبارون : « نعم سأقطع علاقتى بها . سأجد هذه الشجاعة . ويمكنك من الآن اخبار أبى بعزمى هذا » . بيد أن الشجاعة خانته . فكتب إلى السفير خطاباً يطلب منه مهلة . فما كان من هذا الأخير إلا أن أطلع اللينور على ذلك الخطاب . فحز ذلك فى نفسها ومرضت .

وعندما ذهب لعيادتها فى غرفتها ، نظرت إليه ولم تعرفه . فكلمها ، فصاحت مرتعدة : « ما هذا الصوت ؟ إنه الصوت الذى أضرنى ! . . » وقرر الطبيب المعالج أن المريضة فى حاجة إلى الراحة التامة ، وطلب من أدولف ألا يطيل جلسته . وعندما صرح له برؤيتها ، قالت له : « لا أريد أن أسمع منك كلمة جارحة . إنى لا أطلب أى شىء . ولا أعارض فى أى شىء ، ولكنى أرجو هذا الصوت الذى أحببته كثيراً وتسربت نبراته إلى أعماق قلبى ، ألا يدخله اليوم يمزقه » .

حاول أدولف أن يخفف ما بها ويواسيها ويطمئنها معترفاً لها بذنبه ، معتذراً عنه لوقوعه تحت دوافع ولحظات قاسية خارجة عن إرادته ، وأنه لا بد لهما من بدء حياة جديدة . فردت عليه قائلة : « لا تعاتب نفسك ، إنك كنت دائماً طيب القلب نحوى ولكنى أردت المستحيل . إن الحب كان كل شىء فى حياتى ولم يكنه بالنسبة لك » .

بدأت اللينور تضعف وتهزل وأدولف يحضر لها الطبيب إثر الطبيب ، ويجلب لها أنواعاً من العقاقير دون جدوى . ويقول : « وأرادت البكاء ، لكنها لم تجد الدموع . وأرادت الكلام ، ولكنها فقدت صوتها ، فتركت رأسها يميل فى استسلام على ذراعى وانخفض تنفسها وانطفأت . . . وشعرت بآخر رباط لى ينفصم ،

وأصبحت أمام الحقيقة المخيفة التى فرقت بينى وبينها ، وأصبحت الحرية التى كثيراً ما ندمت عليها ، ثقيلة على كاهلى . وكم تاقت نفسى إلى ذلك الخضوع الذى كثيراً ما ثرت من أجله ! » .

وعثر بين مخلفات اللينور على خطاب كانت رجته احراقه دون قراءته ، فاطلع عليه بدافع الفضول ، فاذا به عتاب موجه منها إليه . يقول الخطاب فى مضمونه : « لم تعاملنى بهذه القسوة يا أدولف ؟ ما هو الجرم الذى ارتكبته ؟ ألأنى أحبك ولا أستطيع الحياة بدونك ؟ ما هى هذه الشفقة الغريبة التى تمنعك من فصم عرى رابطة ثقيلة عليك وتشدك إلى مخلوقة بائسة تمزق أحشاءها ؟ . . . هل يطيب لك موتى يا أدولف ؟ إذن ليدخل قلبك السرور : ستموت هذه المخلوقة الضعيفة التى كنت تحبها ولكنك ضربتها بقسوة . ستموت اللينور التى لم تعد تتحمل رؤيتها لأنها أصبحت عثرة فى طريقك . . ستموت وستعود أنت إلى الناس الذين تريد الاختلاط بهم بفارغ الصبر وستعرفهم على حقيقتهم . وربما تضيق فى ذات يوم بهذه القلوب الجافة ، فتندم على ذلك القلب الذى كان فى حوزتك ويعيش بحنانك ، وكان مستعداً لخوض الأخطار لحمايتك ، ولم تعد تكافئه حتى بنظرة » .

* * *

قد تسألنى أيها القارئ العزيز ، بعد هذا القدر من القصة : ما الذى كان يستطيع عمله أدولف ليخفف من آلامه وآلام معشوقته ؟

إن هذا السؤال بالذات ألقاه عدد كبير من القراء على كاتب القصة بعد طبعها ، فكان جوابه الآتى : « لم يكن هناك منفذ لموقف أدولف واللينور . وهذا ما قصدته بالفعل . لقد أظهرته مضطرباً قلقاً لأنه كان يحب اللينور حباً ضعيفاً . ولو أحبها حباً جماً لما تغير اضطرابه ولا قلقه على كل حال . كان يتعذب من أجلها لفتور شعوره نحوها . ولو طغى شعوره لتعذب لأجلها . ولما كان المجمع قاسياً فى حكمه ، فلن يتورع من استنكار حنان أدولف لأنه عار من أية روابط ؛ وعلى طالب السعادة فى الحياة ألا يبتدئها بمثل هذه الصلة : لأن الإنسان متى سار فى هذا الطريق ، فلا مناص له من تحمل الآلام » .

إنه حكم قاس ولكنه واقعى . ويسرنا أن نختم به هذه الدراسة التى جعلت القارئ العزيز يقف على حقيقة رجل غير مستقر ولكنه صريح ، رجل أديب رقيق بقدر ما هو غزير المادة ، قوى التعبير . ولعلها تدفعك إلى قراءة روايته إن كنت لا تعرفها ، وإلى إعادة قراءتها إن كانت فى حوزتك . وإنى واثق من منحك الكاتب كل رضاك .

الخطط التوفيقية لعلى مبارك

بقلم
الدكتور عبد العزيز الشناوى
أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الأزهر

مكانته فى تاريخ مصر القومى :

يتمتع على مبارك بصدارة واضحة بين رواد النهضة العلمية فى مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . كان على حظ موفور من العلم وجمع بين الثقافتين العربية والفرنسية، ففتح العلم أمامه باب الأمل واسعاً لا حد لسعته ، وباب الرقى طويلا لا حد لطوله ، وتقلد العديد من المناصب الوزارية ، وهو الذى كان فى مرتع صباه يبيت من الجوع طاوياً ، وانطلق يشارك فى توجيه الحياة العقلية للمصريين ويسهم فى تنظيم الجهاز الحكومى وسرعان ما برز بروزاً واضحاً قوياً فى ميادين العلم والتعليم والتربية والتأليف، وغدا يمثل طرازاً فريداً لجهد الوزير العالم ودأب الباحث المحقق .

نشاته الأولى : طفولة مشردة :

ولد على مبارك فى قرية برنبال الجديدة (١) من أعمال مركز دكرنس بمحافظة الدقهلية سنة ١٢٣٩ هـ (١٨٢٣ — ١٨٢٤ م) من أسرة ريفية رقيقة الحال مثقلة بوفرة الإنجاب على العادة الشائعة فى المجتمع المصرى وقتذاك، إذ كان له سبع بنات شقيقات وإخوة ذكور من غير أمه . وعلى مبارك وهو يترجم لنفسه يسوق تسلسل آبائه على هذا النحو : مبارك ابن مبارك بن سليمان بن ابراهيم الروجى . وظفر جده الأعلى الشيخ ابراهيم الروجى بمكانة سامية فى البلدة فكان إمامها وخطيبها وقاضيها . وتوارث أبناؤه وحفدته هذه الوظائف فعرفت أسرته بعائلة المشايخ ، وأضيفت إلى وظائفها توثيق عقود الزواج والرقابة على الموازين والمكاييل .

وكانت حكومة محمد على ترهق الفلاحين من أمرهم عسراً بما تفرضه عليهم من نظام ضريبى جائر . وحدث أن أقطعت الحكومة أسرة المشايخ قسراً عنها قدراً من الأطيان لزراعتها، وكانت هذه الأطيان مثقلة بضرائب متأخرة وطلبت منها سدادها مع الضرائب الجديدة، واستخدمت مع أفراد الأسرة الضرب والسجن وغير ذلك من وسائل التعذيب « كأسوة الفلاحين

(١) توجد فى الوجه البحرى ثلاث قرى تحمل هذا الاسم : احداها فى مركز دسوق بمحافظة كفر الشيخ وتقع على الشاطىء الشرقى لفرع رشيد شمال مطوبس . وبرنبال القديمة وتسمى أيضاً برنبال البحرية وتقع على البحر الصغير بمحافظة الدقهلية . وبرنبال الجديدة مسقط رأس على مبارك.

فضاق خناقهم من ذلك لعدم اعتيادهم الإهانة ، وبعد بذلهم ما بأيديهم وبيعهم المواشى وأثاثات البيوت ، رأوا أن لا ملجأ لهم من ذلك إلا الفرار » (١) فارتحل أفراد أسرة المشايخ عن قريتهم وتفرقوا فى البلاد . ونزل الشيخ مبارك بن مبارك والد على مبارك فى قرية الحماد من أعمال محافظة الشرقية . وكان على مبارك قد بلغ من العمر وقتذاك ست سنوات . ولم يطب المقام للشيخ مبارك إذ لمس أن شعور أهل الحماد نحو الأسرة النازحة شعور غير طيب فارتحل عنها إلى عرب السماعنة وهم من عرب الحيش بمحافظة الشرقية. وعرف عن هؤلاء العرب أنهم يجلون رجال الدين، وكان الشيخ مبارك رجلا صالحاً على ثقافة دينية فظفر بتقديرهم وأصبح مرجعهم فى المسائل الدينية، وشيدوا مسجداً وعينوه إماماً وطابت له الإقامة فى هذا المرتحل الجديد وانصرف يدبر شئون أسرته .

وكان على مبارك قبل رحيله من قرية برنبال الجديدة بدأ يتعلم على رجل كفيف من أهلها ، فلما استقر بأسرته المقام بين عرب السماعنة أسلمه والده إلى فقيه يدعى الشيخ أحمد أبو خضر ، وعلى يديه استظهر القرآن حفظاً ، ولكنه ما لبث أن نفر من هذا الفقيه، إذ كان فظاً غليظ القلب أسرف فى ضربه وإيذائه . وأراد أبوه أن يجبره على الرجوع إلى الفقيه، لكنه أصر على الرفض وعول على الهرب ، وتدخل إخوته فى الأمر وصرح لهم بأنه لا يريد أن يكون فقيهاً وأنه يفضل أن يكون كاتباً نظراً لما لمسه من مزايا يتمتع بها الكاتب « من حسن الهيئة والهيبة والقرب من الحكام » ونزل الوالد على رغبة الابن ، فعهد إلى صديق له يعمل كاتباً بتعليمه الكتابة . ولكن ما لبث الصبى أن رأى من الكاتب غلظة فاقت قسوة الفقيه ، إذ ضربه يوماً بمقلاة بن شجت رأسه لأنه أخطأ فى الإجابة على سؤال فى جدول الضرب . فآثر على مبارك الهرب على احتمال القهر والضرب والهوان ، وكأنه كان يتطلع إلى أسلوب فى التعليم أرقى من الأسلوب العتيق .

حار الوالد فى تعليم الابن ، فأحاله إلى صديق آخر من كتبة المساحين كى يقوم على تعليمه، فلازمه ثلاثة أشهر ثم طرده ، لأنه كان يفشى أسرار الرشا التى كان يتناولها من الأهلين ، وبقى فى بيت أبيه يقرأ عليه ، ثم وفق الوالد فى أن يجد لابنه وظيفة كتابية هى مساعد كاتب فى مأمورية أبى كبير بمرتب شهرى قدره خمسون قرشاً . وماطل الكاتب فى دفع مرتبه إلى أن تسلم على مبارك يوماً ما حصيلة الضرائب من إحدى قرى مركز أبى كبير ، فاستقطع منها مرتباته المتأخرة عن ثلاثة أشهر وترك له ايصالا بتسلم هذا المبلغ ووضع الإيصال فى كيس النقدية . فنقم منه الكاتب هذا التصرف وأغرى به مأمور المركز واتفق معه على تجنيده واعتقله ، وظل فى السجن بضعة وعشرين يوماً وهو مقيد بالحديد . وبذل الشيخ مبارك مساعيه وساعدته الظروف إذ كان محمد على يزور منيا القمح بمحافظة الشرقية ، فرفع إليه ظلامة، وأمر محمد على بإخلاء سبيل الابن ، وعاد الوالد بالأمر إلى المأمور يطلب تنفيذه . وخرج على مبارك من السجن ليعين كاتباً عند مأمور زراعة القطن بناحية أبى كبير وكان يسمى عنبر أفندى وجعل مرتبه خمسة وسبعين قرشاً فى الشهر وجراية من الخبز تقدم له كل يوم . ولقى على مبارك معاملة طيبة من عنبر أفندى .

هل يقف السادة أمام العبيد ؟ حوار مثير بين الابن وأبيه

لاحظ على مبارك أن عنبر أفندى رجل حبشى أسود اللون وكأنه عبد مملوك . وزاد من دهشته أن رأى

---

(١) ترجمة حياة على مبارك بقلمه . الخطط التوفيقية ج ٩. ص‌ص ٣٧ - ٦١ .

علية القوم من أصحاب الثراء والحكام ومشايخ البلاد وقوفاً بين يديه وهو يلقى عليهم بالأوامر « وكنت لم أر مثل ذلك قبل ، ولم أسمع به ، بل أعتقد أن الحكام لا يكونون إلا من الأتراك على حسب ماجرت به العادة فى تلك الأزمان . وبقيت متعجباً متحيراً فى السبب الذى جعل السادة يقفون أمام العبيد ، ويقبلون أيديهم . وحرصت كل الحرص على الوقوف على هذا السبب » .

وفى اليوم التالى حضر الشيخ مبارك لزيارة ابنه . فقدمه إلى المأمور الذى بالغ فى إكرام وفادته حتى خرج من عنده ولسانه يلهج بالثناء عليه . ودار فى مساء نفس اليوم حوار مثير وطريف بين الوالد وابنه حول عنبر أفندى والأسباب التى قفزت به إلى شغل هذا المنصب الكبير . ولندع على مبارك يقص هذا الحوار « ولما سهرت مع والدى ليلا جعلت كلامى معه فى هذا المأمور ، فقلت له هذا المأمور ليس من الأتراك لأنه أسود ، فأجابنى بأنه يمكن أن يكون عبداً عتيقاً . فقلت هل يكون العبد حاكماً مع أن أكابر البلاد لا يكونون حكاماً فضلا عن العبيد ؟ فجعل هو يجيبنى بأجوبة لا تقنعنى ، فكان يقول لعل سبب ذلك مكارم أخلاقه ومعرفته ، فأقول : وما معرفته ؟ فيقول : لعله جاور بالأزهر وتعلم فيه . فأقول : وهل التعلم فى الأزهر يؤدى إلى أن يكون الانسان حاكماً ؟ ومن خرج من الأزهر حاكماً ؟ فقال : يا ولدى كلنا عبيد الله ، والله تعالى يرفع من يشاء . فأقول . مسلم ، لكن الأسباب لابد منها ، وجعل يعظنى ويذكر لى حكايات وأشعاراً لم أقنع بها ، ثم أوصانى بملازمته وامتثال أوامره ، وبعد يومين سافر عنى وتركنى عنده » .

أخذ على مبارك بوسائله الخاصة يتقصى الأخبار عن نشأة المأمور واتصل بأحد الخدم المقربين للمأمور وعلم منه أنه كان عبداً اشترته إحدى سيدات المجتمع فى مصر بثمن بخس دراهم معدودة . ولما أنشأ محمد على المدارس الحديثة استطاعت هذه السيدة بمالها من نفوذ فى مجتمع تركى ارستقراطى أن تلحقه بمدرسة القصر العينى الثانوية . وأبلغه الفراش أن خريجى هذه المدرسة يعينون حكاماً . فجاشت فى نفسه رغبة جامحة فى أن يلتحق بهذه المدرسة ، ولما سأله عما إذا كان يدخلها أحد من الفلاحين ، أجابه أن التحاق الفلاح بها أمر ممكن إن كانت لديه « واسطة » فقلق من هذا القيد ولكن لم تفتر عزيمته وأخذ يجمع مزيداً من المعلومات عن المدرسة ، فعلم أن تلاميذها يتعلمون بالمجان وتقوم الحكومة بإطعامهم وإيوائهم وكسائهم ، وازداد إصراراً على الالتحاق بالمدرسة وأخذ يسأل عن مكانها فى القاهرة وطريقة السفر إلى العاصمة ومقدار المسافة التى عليه أن نقطعها وأسماء البلدان التى يمر بها وصحت عزيمته على ترك عمله وطلب الإذن فى زيارة أسرته فمنحه عنبر أفندى إجازة خمسة عشر يوماً ، واتخذ طريقه إلى القاهرة سرباً .

نقف هنا وقفة قصيرة لنقرر أن عاملين رئيسيين لعبا دوراً كبيراً فى رسم مستقبل حياته ، هما : الآمال الكبار التى داعبت فؤاده وهو لا يزال شاباً يافعاً فأبى أن يقنع بعمل صغير فى معاونة موظف حكومى ومن ثم صمم على المضى فى تحصيل العلم مهما لقى من مشاق وأهوال : أما العامل الثانى فكان حرصه على كرامته إذ ظل حادث سجنه عالقاً فى ذهنه ، وكان يساءل نفسه عما يحدث لو نهج عنبر أفندى المأمور نهج الكاتب وألقى به فى غياهب السجن « واستمرت الفكرتان فى بالى ، وكانت همتى فى التخلص من كل ذلك ومن أمثاله ، وأود أن أكون بحالة لا ذل فيها ولا تخشى

غوائلها » وهذا القول دليل على أنه كان على حظ موفور من عزة النفس والطموح وإباء الضيم .

التحاقه بالمدارس الحديثة :

وبينما كان على مبارك يقطع الطريق إلى القاهرة سيراً على قدميه التقى بصبية مع كل واحد منهم دواة وأقلام ، وعلم منهم أنهم تلاميذ مكتب منية العز ، وأن نجباء تلاميذ المدارس الابتدائية — مكاتب المبتديان بمصطلح ذلك العصر — ينقلون إلى المدارس التجهيزية — أى الثانوية — دون واسطة « فرأيت ذلك غاية مرغوبى ، فلم أتأخر عن الذهاب معهم ودخلت المكتب » وتفوق فى دراسته واختير سنة ١٨٣٦ للالتحاق بمدرسة قصر العينى التجهيزية (١) وفى سنة ١٨٤٠ وقع عليه الاختيار لدخول مدرسة المهندسخانة واستمر محافظاً على تفوقه العلمى . وفى سنة ١٨٤٤ أوفد فى بعثة علمية إلى فرنسا أطلق عليها بعثة الأمراء أو بعثة الأنجال لأنها كانت تضم بعض أبناء محمد على وحفدته . وبعد أن أتم سنتين فى باريس عين ضابطاً فى الجيش الفرنسى برتبة ملازم ثان فى مدرسة المدفعية والهندسة الحربية بمدينة متز Metz وقضى فيها سنتين أخريين تعلم فيهما فن الاستحكامات وجاز امتحانها بنجاح وعين فى الفرقة الثالثة من سلاح المهندسين بالجيش الفرنسى . ولما تولى عباس الأول حكم مصر أمر باستدعاء معظم أعضاء البعثات فعادوا إلى مصر وكان من بينهم على مبارك .

وفى حكم عباس الأول تقلد على مبارك عدة مناصب حكومية وظفر بتقدير هذا الوالى الذى عهد إليه بوضع مشروع جديد للنظام التعليمى فى مصر وأخذ به

(١) نقلت هذه المدرسة بعد سنة إلى أبى زعبل لتحل محلها فى قصر العينى مدرسة الطب البشرى .

عباس وأصدر قراراً بالموافقة على لائحة على مبارك التعليمية (١٧ رجب ١٢٦٦ — ٢٩مايو ١٨٥٠) ورقاه إلى رتبة عميد وعينه ناظراً لمدرسة المهندسخانة وملحقاتها وظل يشغل هذا المنصب حتى نهاية حكم عباس. يقول مؤرخ التعليم فى مصر الحديثة إنه « قد أتيح لمدرسة المهندسخانة إدارة حازمة مستنيرة فى شخص ناظرها على مبارك . وكانت الفترة التى قضاها ناظراً لها من ١٨٥٠ إلى ١٨٥٤ من أحفل الفترات فى تاريخ حياته . والواقع أنها أعدت على مبارك وهيأته للدور الخطير الذى سيقوم به فى إدارة التعليم وتوجيهه بعد ذلك فى عصر اسماعيل وبعد عصر اسماعيل (١) » .

ولما تولى محمد سعيد حكم مصر عزله من منصبه وألحقه بإحدى فرق الجيش المصرى كانت مسافرة للاشتراك فى حرب القرم . وقد لبث فى هذه المهمة سنتين ونصف سنة تعلم خلالها اللغة التركية واتسعت مداركه وزادت معلوماته . ولما عاد إلى مصر حفت به المتاعب من يمين وشمال وعاش عيشة ضنكاً يشغل وظائف تافهة حيناً ، ويفصل منها أحياناً ، وتسوء حالته النفسية ، ويفكر فى العودة إلى قريته ليشتغل فلاحاً ، ويفكر حيناً آخر فى مزاولة التجارة . وبينما هو يجهد الفكر فى إيجاد عمل يرتزق منه جاء الموت سعيد باشا فى مطلع سنة ١٨٦٣ وتولى اسماعيل حكم مصر . وعندئذ بدأت حياة على مبارك تأخذ اتجاهاً آخر ، وغدا العالم المغمور المتعطل نجماً يسطع فى سماء البلاد وأصاب فى الحياة العامة النجاح والجاه والمال والمركز السامى .

كان على مبارك زميلا للوالى الجديد فى بعثة الأمراء إلى فرنسا ولذلك كان اسماعيل بهحفياً . فعينه ناظراً

(١) د. أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر . عصر عباس الأول وسعيد . القاهرة ١٩٤٥ ص ١٠٦ .

لمدرسة المبتديان فمهندساً للقناطر الخيرية وأظهر براعة فى توزيع الماء بين فرعى رشيد ودمياط ، وأشرف على عمليات تعميق رياح المنوفية وإقامة قناطره ومبانيه ، وعين كبيراً لمهندسى المعية السنية . وحدث أن ناقش مجلس شورى النواب فى نوفمبر ١٨٦٦ السياسة التعليمية وانتهت مناقشاته إلى عدة قرارات هامة كان من بينها إنشاء مدرسة ابتدائية فى كل مديرية وتنظيم المكاتب الأهلية تحت إشراف الحكومة وإباحة الالتحاق بها للجميع « من عموم الناس بالرغبة بدون استثناء مسلم أو قبطى ، غنى أو فقير . » ويتلقى جميع التلاميذ دروسهم معاً ما عدا دروس الدين ، فيفرد محل خاص للأقباط وينتدب غبطة البطريرك أحد القسس لتعليمهم الديانة المسيحية « حيث جميعهم أولاد الوطن » . ولم تكن هذه القرارات سوى مبادىء عامة تحتاج إلى إعداد فنى واسع . وهنا تقدم على مبارك ، وكان يشعر بميل فطرى نحو التعليم ، للعمل فى الحقل التعليمى. فقدم لاسماعيل مذكرة تضمنت آراءه ومعها مشروع لائحة لتنظيم وإصلاح المكاتب الأهلية . وعرفت هذه اللائحة باسم لائحة ١٠ رجب ١٢٨٤ (٧ نوفمبر ١٨٦٨) وهى تؤرخ المحاولة الحقيقية الأولى لنظام قومى للتعليم فى مصر وأوضح الطريق لمن جاء بعده من دعاة الإصلاح . وقبل أن تتم الموافقة على هذه اللائحة عين وكيلا لديوان المدارس فى سبتمبر ١٨٦٧ ثم مديراً له وناظراً للأشغال وناظراً للأوقاف . وجمع كل هذه الوزارات فى سراى درب الجماميز ليسهل إشرافه عليها ثم أضيفت إليه مصلحة السكك الحديدية . وقد وزع وقته بين هذه الوزارات طوال النهار وزلفاً من الليل .

وقد أرسى مبادىء هامة فى ميدان التربية والتعليم لاتزال معمولا بها إلى اليوم . وليس هذا المقال مجال التعرض لها . وقد أنشأ مدرسة دار العلوم لتخريج مدرسى اللغة العربية ، ومن المدارس الأخرى التى أقامها : الألسن والإدارة والمحاسبة ، كما أنشأ دار الكتب المصرية وأسس أول مجلة ثقافية فى مصر الحديثة هى مجلة روضة المدارس. ولئن كانت شهرته ترتكز على أمرين : خدماته فى التربية والتعليم ، وتأليف الخطط التوفيقية ، إلا أنه له مآثر أخرى تتصل بمنشآت الرى وتوسيع الشبكة الحديدية فى مصر وتنظيم القاهرة والمدن الأخرى وغير ذلك من الأعمال الهندسية والعمرانية .

وحدث أن فترت العلاقات بينه وبين الخديو اسماعيل بسبب دس الحاسدين له ، فانفصل عن مناصبه واعتكف فى منزله سنتى ١٨٧٠–١٨٧١ ثم أعيد إلى ديوان المدارس ونظارة الأوقاف والأشغال . ولما ألف نوبار باشا وزارته الأولى فى أغسطس ١٨٧٨ دخلها على مبارك وزيراً للمعارف والأوقاف . ولما سقطت هذه الوزارة فى فبراير ١٨٧٩ خلفتها وزارة الأمير توفيق فى ٢٢ مارس وتقلد على مبارك فيها نفس الوزارتين . ولم تعمر هذه الوزارة طويلا وأعقبتها فى ٨ من أبريل ١٨٧٩ وزارة شريف باشا ولكنه لم يدخلها وظل وزيراً متقاعداً حتى نهاية حكم اسماعيل .

ولما تولى توفيق الحكم ظل على مبارك بعيداً عن المناصب الحكومية معتكفاً فى داره . إلى أن ألف مصطفى رياض باشا وزارته فى سبتمبر ١٨٧٩ فدخلها على مبارك وزيراً للأشغال . وفى عهد هذه الوزارة ظهرت مقدمات الثورة العرابية ولم يكن على مبارك من أنصارها ، بل كان يميل إلى الاعتدال وأخذ الأمور بالحكمة والهوادة . وقد سقطت الوزارة فى سبتمبر ١٨٨١ نزولا على إرادة الثوار . وتعاقبت أحداث

الثورة سراعاً وانتهت بالإخفاق ووقوع البلاد فريسة للاحتلال البريطانى . ولما ألف شريف باشا وزارته الرابعة سنة ١٨٨٢ عقب الاحتلال دخلها على مبارك وزيراً للأشغال وظلت هذه الوزارة فى الحكم إلى أن استقالت فى يناير ١٨٨٤ احتجاجاً على أمر الحكومة البريطانية لها بإخلاء السودان وكان لعلى مبارك نصيب فى الموقف المشرف الذى وقفته هذه الوزارة ، ووجد الإنجليز فى نوبار باشا أداة طيعة لينة فقبل تأليف الوزارة على قاعدة إخلاء السودان . ولم يدخل على مبارك هذه الوزارة بطبيعة الحال . وظل نوبار فى الحكم إلى أن استنفد الإنجليز أغراضهم منه ومن وزارته ، فأقيلت الوزارة فى ٧ يونيو ١٨٨٨ ، وعهد توفيق إلى رياض باشا تأليف وزارة جديدة ودخلها على مبارك وزيراً للمعارف . وقد بقيت هذه الوزارة فى الحكم من ١١ يونيو ١٨٨٨ حتى ١٢ مايو ١٨٩١ وكان هذا التاريخ هو آخر عهد على مبارك بالمناصب الحكومية إذ آوى إلى داره ، وأخذ يتنقل بين القاهرة وقريته حيث أصيب بداء المثانة فعاد إلى القاهرة واشتدت عليه وطأة المرض إلى أن جاز إلى ربه فى داره بالحلمية الجديدة فى ١٤ نوفمبر ١٨٩٣ . وهو من الشخصيات المصرية القليلة التى عاصرت حكم محمد على وابراهيم وعباس وسعيد واسماعيل وتوفيق وعباس حلمى . وكانت حياته خصبة حافلة بجلائل الخدمات والأعمال تجعل من صاحبها طرازاً فريداً بين الرجال .

مؤلفات على مبارك :

كان لعلى مبارك فلسفته فى الحياة ، فهو يرى أن أول واجب يؤدى إلى الشعب هو تعليم أبنائه ونشر التعليم بينهم وزيادة عدد المدارس حتى يصبح نابتة البلاد عناصر صالحة منتجة فى المجتمع . ويمشى مع هذا الواجب جنباً إلى جنب واجب آخر هو وضع الكتب المفيدة . فتأليف هذا النوع من الكتب هدف سعى إليه على مبارك بنفسه ودعا إليه القادرين على التأليف العلمى نهوضا بالوطن وتوفية لما له من حقوق عليهم . ويقول فى أداء هذين الواجبين « ولهذا التزمت فى كل ما تقلدت من الأعمال ، وجميع ماتقلبت فيه من الأحوال ، أن أخدم وطنى بكل مانالته يدى وبلغه إمكانى مما أراه يعود عليه بالفائدة والنفع قل أو جل ، كالسعى فى استكثار المكاتب والمدارس ، وتعميم التربية والتعليم ، ونشر الكتب المفيدة ، إما بالاشتغال فى تأليفها بنفسى ، أو الحث والتحريض عليها لمن أرى فيه أهلية القيام بها » .

وتمشيا مع ما أخذ به نفسه تميز على مبارك بالإنتاج العلمى والأدبى الوفير . ففضلا عن كتاب الخطط التوفيقية له مؤلفات أخرى منها .

١ — حقائق الأخبار فى أوصاف البحار . وقد نشر أول الأمر فى حلقات متتابعة فى مجلة روضة المدارس ثم طبع مكتملا فى مطبعة وادى النيل سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠) م .

٢ — تنوير الأفهام فى تغذى الأجسام . طبع سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢) م .

٣ — نخبة النيل فى تدبير نيل مصر . وقد طبع فى مطبعة وادى النيل سنة ١٢٩٨ (١٨٨١) وقد أفرغ فى هذا الكتاب ثقافته الهندسية فى شئون الرى ومشروعاته فى مصر .

٤ — علم الدين . وهو قصة خيالية فى أربعة أجزاء تقع أحداثها فى مصر وأوربا ، ويدور الحديث فيها بين أحد العلماء المصريين من خريجى الأزهر وقد أطلق عليه اسم علم الدين ، وبين عالم انجليزى وفد

إلى مصر وتعلم اللغة العربية . ويبدأ الحديث في مصر ويتخذ العالم الإنجليزى موقف التلميذ من الشيخ المصرى يستوضحه مظاهر الحياة المصرية التى يراها وتاريخ البلاد . ثم يرحل الرجلان الى أوربا فينقلب الموقف تماماً ، وإذا بالعالم المصرى يتخذ موقف التلميذ ويسأل رفيقه الإنجليزى عن كل مايراه فى المجتمع الأوربى . واستهدف على مبارك من وضع هذه القصة عقد مقارنة بين مظاهر الحياة والحضارة فى الشرق والغرب لتنبيه أذهان أهل الشرق إلى مزايا الحضارة الأوربية الحديثة . والكتاب يزخر بمادة علمية وتاريخية واجتماعية غزيرة ومفيدة وطريفة وتضمن بحوثاً فى الموالد والأعياد والمواسم والمسارح ويسميها «التياترات» وتعدد الزوجات ومضار تعاطى الحشيش . وقد طبع الكتاب فى مطبعة المحروسة فى الإسكندرية سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢) م .

٥ — الميزان فى الأقيسة والمكاييل والأوزان ويحتوى على دراسة مقارنة فى تاريخ الأقيسة وغيرها فى مصر القديمة وفى مصر الإسلامية . وقد طبع فى القاهرة ١٣٠٩ هـ (١٨٩١) م .

٦ — خلاصة تاريخ العرب وهو كتاب عربه من الفرنسية لمؤلفه سيديو . وطبع فى القاهرة سنة ١٣٠٩ (١٨٩١-١٨٩٢) م .

٧ — تذكرة المهندسين .

٨ — تقريب الهندسة .

٩ — طريق الهجاء والتمرين وهو فى جزءين .

١٠ — المزاحمة وتأثيرها فى الارتقاء البشرى .

١١ — ومن الكتب التى أشير إليها ولم تطبع إلى اليوم كتاب ضخم وضعه بالاشتراك مع صالح مجدى تناول فيه المؤلفان تاريخ مصر فى مختلف العصور ابتداء من العصر الفرعونى ثم حكم الفرس وعصرى البطالمة والرومان ثم العصر الإسلامى ووصلا فيه إلى سنة ١١٦٠ هـ (١٧٤٨) م أى إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى تقريباً وقد ذكر محمد مجدى وهو يترجم لوالده صالح مجدى (١) أن المؤلفين جمعا المادة العلمية لهذا الكتاب فى نيف وأربعمائة كراسة وأنها لدى على مبارك وأنه يغلب على ظنه أنها مهيأة للطبع ، ولكن هذا الكتاب للأسف مفقود لانعرف عنه شيئا .

١٢ — آثار الإسلام فى المدنية والعمران . ويقول الدكتور محمد درى باشا فى ترجمته لعلى مبارك باشا إن هذا الكتاب كان آخر ما ألفه على مبارك ، وقد تناول فيه ما أدخله الإسلام من العمران فى البلاد التى انتشر فيها ، وأنه لما انتهى من وضعه وتبييضه أعطاه لأحد علماء الأزهر لمراجعته ، وأن هذا الكتاب محفوظ فى خزانة على مبارك .

الخطط التوفيقية : ملامحها العامة :

وأما كتاب «الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة » فيمثل قمة إنتاجه العلمى وأوج نضوجه العقلى . ويقع فى عشرين جزءاً ، وهو موسوعة عربية كبرى أو دائرة معارف عربية خاصة بمصر . وقد سار على مبارك فى وضع هذه الموسوعة على نهج المقريزى فى خططه . وقد اشتهرت مصر الإسلامية بفن تأليف كتب الخطط . فهذا الفن ، كما يقول الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال ، فن مصرى أصيل نشأ فى مصر

(١) صالح مجدى هو علم من أعلام مدرسة الألسن أظهر نبوغا فى دراسة اللغة الفرنسية وتعاون مع على مبارك فى الإنتاج العلمى.

الإسلامية ، وفيها دون غيرها من الأمصار الإسلامية نما وترعرع . وكان الكندى أول من ألف فيه ، ولم يكن يمضى قرن بعد ذلك حتى يظهر فيه مؤلف أو أكثر يكتبون فى خطط مصر ، وكان آخرهم تقى الدين المقريزى(١) واتخذ على مبارك بصورة عامة خطط المقريزى أساساً لخططه التوفيقية ، فتتبع مدن مصر وقراها ، ووصف طبوغرافيتها ، فكان يتحدث عن موقع المدينة أو القرية أولا ، ثم يؤرخ لها من أقدم العصور إلى الوقت الذى اندثرت فيه أو حتى القرن التاسع عشر إذا كانت لاتزال قائمة ، ويصف ما بها من منشآت ومرافق عـامة مثل المساجد والزوايا والأضرحة والكنائس والأديرة والمدارس والكتاتيب والوكائل والحمامات والمستشفيات والمصانع والقصور والدور ويثبت ما أصابها من تغير . ويقرن هذا الوصف الطبوغرافى المسهب بترجمة لمن برز فى كل بلدة ممن ولدوا بها أو عاشوا فيها أو دفنوا فى ثراها . وقد أفرد على مبارك الأجزاء الستة الأولى لمدينة القاهرة ، وخص مدينة الإسكندرية بالجزء السابع ثم أرخ لباقى المدن المصرية فى عشرة أجزاء تبدأ من الجزء الثامن إلى الجزء السابع عشر . وأفرد الجزء الثامن عشر لمقياس النيل منذ عهد الفراعنة حتى القرن التاسع عشر والاحتفالات التى كانت تقام عند وفاء النيل فى مختلف العصور . وفى الجزء التاسع عشر تكلم عن ترع النيل ورياحانه ومنشآت الرى . أما الجزء العشرون فقد أرخ فيه للنقود المصرية فى العصر الإسلامى .

عرض سريع لمحتوى الخطط التوفيقية :

شرح على مبارك البواعث التى أملت عليه وضع هذه الموسوعة العربية ، فقال إن مدينة القاهرة قد تعرضت لكثير من أحداث الزمن منذ أن شيدت على عهد المعز لدين الله رابع خلفاء الدولة الفاطمية وأولهم فى مصر ، فحينا كانت القاهرة مدينة زاهرة عامرة ، وحينا كانت واهنة واهية . وقال إن المقريزى المؤرخ العربى الذائع الصيت قد شرح فى كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» وهو الكتاب المشهور باسم الخطط ، ما طرأ على القاهرة من تغيير فى معالمها من منشآت وميادين وشوارع وما إليها ، وأسدى بوضع هذا الكتاب خدمة جليلة للتاريخ . ولكن منذ أن جاز هذا المؤرخ إلى ربه فى أوائل سنة ١٤٤٢ لم يحفل أحد بأن يترسم خطاه فيتابع تسجيل التطور التاريخى والعمرانى والدينى والاجتماعى للقاهرة وسائر المدن المصرية على الرغم من الحاجة الماسة الى القيام بمثل هذا العمل ، فقد وقعت منذ وفاة المقريزى أحداث عصفت ببعض معالم كانت قائمة على عهده فاندثرت وكادت تصبح نسياً منسياً ، ونسبت منشآت لغير أصحابها ، كما نفذت مشروعات هامة وظهرت شخصيات قيادية تركت بصماتها فى تاريخ البلاد . ثم يقول على مبارك فى وطنية دافقة «إن معرفة ذلك حق علينا ، إذ لايليق بنا جهل بلادنا ، والتهاون بمعرفة آثار أسلافنا ، التى هى عبرة للمعتبر وذكرى للمذكر . فهم وإن مضوا لسبيلهم ، قد تركوا لنا ما يحثنا على اقتفاء آثارهم ، وأن نصنع لوقتنا ماصنعوه لوقتهم ، وأن نجد فى طريق الإفادة كما جدوا » . ومن ثم جاشت فى نفس على مبارك رغبة جامحة فى وضع مثل هذا المرجع العلمى ،وقد وصفه فى تواضع العلماء بأنه « كتاب واف بما لمصر من قديم وحديث متضمن لذكر مبانيها الدائرة والموجودة وما يتبع ذلك من أخبار أربابها وذكر نيلها ومنافعه وكيفية تصرفاته ومواضعه » بيد أنه استشعر من أول الأمر ضخامة

(١) دكتور جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر . الطبعة الأولى ١٩٥٨ ص ص١٠٥، ١٠٦

المشروع وصعوبته لما يحتاجه من مجهود مضن ووقت فسيح لايتسع له وقته بسبب أعباء المناصب الكبرى التي كان يتقلدها مجتمعة في يده ، ومن ثم عرض على صفوة من علماء مصر القيام بهذا المشروع العلمى الجليل فلم تلق دعوته استجابة منهم وانتهى به التفكير إلى أنه لامناص من أن ينهض بمفرده بهذا العمل .

* * *

وقد استهل على مبارك الجزء الأول من الخطط التوفيقية بوصف المكان الذى أقيمت عليه مدينة القاهرة كمقدمة لوصف هذه العاصمة مدة الخلفاء الفاطميين ثم انتقل إلى كتابة تاريخ مصر عبر العصور التاريخية منذ تأسيس القاهرة حتى السنوات الأخيرة من حكم الخديو توفيق فوقف عند سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧-١٨٨٨ م) أى بعد الاحتلال البريطانى لمصر بست سنوات تقريبا ، وهى فترة اجتمع فيها مجد الوطن وبؤسه والتى أمله الطالع بشمسه الغاربة ، وشهدت البلاد قيام عدة دول وأسرات تعاقبت على حكمها : فأرخ للدولة الفاطمية ثم للأيوبية والمماليك البحرية والمماليك البرجية والحكم العثمانى لمصر والاحتلال الفرنسى وسنوات الاضطراب السياسى التى أعقبت خروج الفرنسيين ثم تولية أسرة محمد على حكم مصر حتى الثمانينات من القرن التاسع عشر — وعاد المؤلف بعد هذا السرد التاريخى إلى مدينة القاهرة يعين حدودها وتقسيمها الإدارى فى القرن التاسع عشر وعدد أقسام الشرطة والمرافق العامة بها من مستشفيات وصيدليات ومدارس حديثة ومرفق المياه وذكر عدد المساجد والزوايا والربط (١) والخوانق (٢) والتكايا (٣) والأسبلة (٤) والمقاهى والحمامات العامة وموالد الأولياء وعدد سكان القاهرة حسب تعداد ١٨٨٢ وقد بلغ ٣٧٤,٨٣٨ نسمة ثم أورد احصائية طريفة عن أصحاب الحرف فى القاهرة وقد بلغ عددها ٧٥ حرفة . وكانت أكثر الحرف تعدادا هى حرفة الحمارة فقد بلغ عدد أفرادها ١٧٣٩ ،ويلاحظ أن وسيلة المواصلات الرئيسية لعامة الشعب فى القاهرة وقتذاك كانت الحمير . وكان يلى الحمارة — من حيث العدد — النجارون (الدق) ثم عمال البناء ثم البقالون فالترزية ثم الصرماتية وهم المشتغلون بصنع الأحذية والبلغ وتصليحها . وكان أقل رجال الحرف تعدادا هم الصدفجية اى المشتغلون بتطعيم الأخشاب بالصدف وصانعو المنشات .

* * *

وفى الجزء الثانى تكلم المؤلف عن شوارع مدينة القاهرة وحاراتها وعطفها ودروبها وما يتبع ذلك من أسواقها . وقد بدأ هذا الجزء بحى الحسينية . وكان يتكلم عن كل شارع من حيث بدايته ومساره ونهايته والأزقة التى تتفرع منه وما بنى فيه من المساجد والزوايا والأضرحة والأسبلة والتكايا والمدارس

---

(١) الربط ويطلق عليها أيضاً الرباطات جمع رباط وهو مكان كان يعد لإقامة المتصوفة فيه وكان بعض الربط يخصص للسيدات المنقطعات أو المهجورات أو المطلقات أو العجائز الأرامل العابدات .

(٢) الخوانق ويطلق عليها أيضاً الخانقاوات وهى كلمة فارسية معناها بيت العبادة ثم خصصت لإقامة المتصوفة . وكانت تحبس عليها الأوقاف السخية .

(٣) التكايا جمع تكية وهى مكان يقيم فيه الدراويش من من الأعاجم .

(٤) الأسبلة جمع سبيل مكان يستقى منه المارة بواسطة كوز من النحاس مربوط بسلسلة وكان تحت السبيل صهريج تخزن فيه المياه . كان يقام عادة فوق السبيل مكتب لتعليم الأطفال القرآن الكريم والكتابة .

والوكائل والكنائس والحمامات والقصور والخانات (١) وتتميز هذه الطبوغرافية الدقيقة بمادة تاريخية طريفة ، فاذا تكلم مثلا عن المنحر الذى اتخذه الخلفاء الفاطميون لذبح الأضاحى فى عيد الأضحى وصف وصفا شائقا خروج الخليفة فى موكبه الرائع لأداء صلاة العيد ثم الذبائح التى كانت تنحر فى ذلك اليوم وما يتخلل ذلك من مراسم، ثم الأسمطة التى كانت تمد إلى غير ذلك من صور للحياة الاجتماعية فى مصر أيام الفاطميين — وفى هذا الجزء وصف على مبارك قصر ابن طولون ومدينة القطائع وما طرأ عليها . وقد ترجم فى هذا الجزء أيضا لبعض الوزراء الفاطميين والأمراء المماليك وكبار مشايخ الطرق الصوفية ومن إليهم ممن أطلقت أسماؤهم على بعض المساجد والمنشآت العامة ، كما ترجم لبعض كبار موظفى الحكومة المصرية المعاصرين له مثل عبد الله باشا فكرى وزير المعارف فى وزارة محمود سامى البارودى ، وترجم أيضا لحسين باشا حسنى ناظر مطبعة بولاق الأميرية ، وحجاج الخضرى أحد أبطال المقاومة الشعبية فى مطلع القرن التاسع عشر والذى تميز بالبطولة والفدائية ، ورفلة عبيد أحد كبار التجار فى حى الجمالية ، وترجم لشيوخ قبيلة كتامة الذين وفدوا مع الفاطميين إلى مصر . واختتم هذا الجزء بمائة وخمسة وعشرين بحثا تناول فيها شتى الموضوعات فى التاريخ والمجتمع والطبوغرافية وما إلى ذلك مثل أسواق القاهرة القديمة سواء التى كانت قائمة فى شارع مرجوش أو الغورية أو فى شارع الخردجية بخط الجواهرجية ، وخزانة الكتب أيام الفاطميين وخزانة الكسوة بشارع النحاسين وشتى أنواع الخزائن التى كانت قائمة فى هذا الشارع مثل خزانة الفرش وخزانة الخيم والأمنعة والسلاح والسرج وخزانة الطيب والجواهر والطرائف ، ثم مشيخة الجامع الأزهر وتجديد بناء المسجد الحسينى وبيان ما أنفق فى سبيل ذلك . ويلاحظ أن الفهرس الموضوع لهذا الجزء يتبع النظام التالى فى ذكر خطط القاهرة مع التقيد بترتيب الحروف الأبجدية فى كل قسم: الشوارع — الحارات — العطف — الدروب — الجوامع — الزوايا — المدارس — التكايا — الأضرحة — الأسبلة — الحمامات الدور — القصور — الكنائس — المكاتب الأهلية — الوكائل — التراجم — المطالب (١) .

★ ★ ★

وفى الجزء الثالث سار على مبارك على نسق الجزء الثانى فتكلم عن بقية شوارع القاهرة ومنشآتها، وبدأ بشارع بين السورين . وعالج المؤلف موضوعين هامين فى هذا الجزء هما الأسطول الحربى المصرى على عهد الفاطميين وقواعده فى دمياط والإسكندرية وغيرهما ، ثم موضوع الرزق الإحباسية الموقوفة على جهات البر ، وأفاض فى شرح أنواعها وتطورها التاريخى . وقد حفل هذا الجزء بتراجم لعدد كبير من الأعلام فى تاريخ مصر الوسيط والحديث سواء فى دنيا المال والاقتصاد أو فى عالم السياسة أو فى مجال العلم أو الدين أو الحرب أو الإدارة ، نذكر على سبيل المثال احمد المحروقى كبير تجار القاهرة وقد ارتبط اسمه بأحداث الحملة الفرنسية على مصر وما تلاها ثم ابنه محمد المحروقى، والقائد جوهر الصقلى والشيخ محمد مرتضى الزبيدى من أبرز علماء مصر فى القرن الثامن

(١) خانات جمع خان وهو وكالة أو فندق معد لاستقبال التجار والحجاج وبضائعهم أو أمتعتهم ودوابهم ويوجد به اصطبل للدواب وفى أعلاه غرف ينزل فيها الوافدون وتطل هذه المساكن على ساحة يطلق عليها الحوش يتوسط الخان . وكان يلحق بالخان بئر ماء وميضأة ومسجد صغير .

(١) المطالب يقصد بها أبحاث

عشر والذى شرح القاموس وأطلق على شرحه تاج القاموس فى عشرة مجلدات ، ثم الأمير أزبك بك الذى أطلق اسمه على منطقة الأزبكية ، ثم الأمير حسن بك الجداوى ، كما ترجم ترجمة مقتضبة نوعا ما للأمير محمد بك الألفى كبير بيت الألفية فى أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر . كما ترجم المؤلف لبعض المجاذيب من الدراويش مثل الشيخ على البكرى (١) والشيخة أمونة . وكان الاثنان وأضرابهما يمثلون قطاعا هاما فى المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر هو قطاع الدراويش وقد اتخذ معظمهم الدجل والشعوذة وسيلة لابتزاز الأموال من البسطاء رجالا ونساء باسم الدين والدين منهم براء .

وتضمن هذا الجزء أيضا مائة وأربعة وستين بحثا تناول فيها موضوعات متنوعة نذكر منها على سبيل المثال تحديد مواقع الأرض الحكر (٢) فى القاهرة وأنواعها وأوجه استغلالها ، وإنشاء دار الكتب المصرية ودار الضيافة وزواج السلطان طومانباى آخر سلاطين دولة المماليك الشراكسة ، وخان الحمزاوى ، وأسوار القاهرة ، والمبانى التى أزيلت عند بناء قصر عابدين ، ومسكن بونابرت فى بيت الألفى بالأزبكية وسكنى محمد على فيه ، ومدرسة الألسن ، ومعنى لفظة الخور لغة وعرفا عندما تعرض لخليج الخور بشارع قنطرة الدكة ، وكذلك سراى العتبة الخضراء . وأفرد فى نهاية الجزء الثانى بحثا مستفيضا عن أسرة البكرى التى ينتهى نسبها إلى أبى بكر أول الخلفاء الراشدين ويضفى المؤلف على هذه الأسرة الكثير من عبارات التبجيل . وانتهز الفرصة فترجم لأبى بكر الصديق ثم تكلم عن أصلاب أسرة البكرى وبعض فروعها وانتقل بعد ذلك إلى بيان الطرق الصوفية التابعة لمشيخة البكرى والتكايا التابعة لها ، وشرح تحت عنوان «العوائد الخصوصية للبيت الصديقى» احتفالات المولد النبوى الشريف التى كانت تقام على مر العصور فى المشرق والمغرب العربيين ثم وصف هذه الاحتفالات فى مصر الحديثة وحرص على إبراز دور أسرة البكرى فى هذه الحفلات وما تنفقه فى سبيلها من أموالها . وقد جاء فهرس هذا الجزء متمشيا مع فهرس الجزء الثانى من حيث ترتيب ذكر المنشآت مع اختلاف يسير يتمثل فى تقديم أو تأخير بعضها فذكرها على النحو التالى : الشوارع — الحارات — العطف — الدروب — الجوامع — الزوايا — المدارس — الأضرحة — الأسبلة — المكاتب الأهلية — الكنائس — الحمامات — الوكائل — الدور — التراجم — المباحث والمطالب .

* * *

وأفرد على مبارك الجزء الرابع لمساجد القاهرة وابتدأ بتاج الجوامع وهو الجامع العتيق أو مسجد عمرو ابن العاص على أساس أنه أول مسجد أسس فى مصر الإسلامية ، فكتب فيه بحثا تناول فيه تاريخ إنشاء المسجد والتطور المعمارى الذى طرأ عليه من حيث التجديدات والزيادات التى أضيفت إليه ، وزوايا التدريس بهذا

---

(١) كان هذا المجذوب يسكن سويقة الكرى فأطلق عليه اسم البكرى نسبة إلى السويقة وهو بذلك ، كما يقرر الجبرتى ، لايمت بصلة إلى أسرة البكرى . انظر الجبرتى ج ٢ ص ٢٤٨. وانظر قصته فى ج ٣ ص ص ٨٠ — ٨١ .

(٢) الحكر نوع من أنواع استغلال الأرض الموقوفة ويكون تأجيرها لغرض معين كالبناء والغراس فيها دون تقيد بمدة معينة فهو تمليك المحتكر حق البقاء والقرار فى الأرض المحتكرة له مادام ملتزما بدفع أجرة المثل . انظر : محمد سلام مدكور . موجز الوقف من الناحية الفقهية والتطبيقية ١٩٦١ صص ٩٧ — ٩٩ وانظر أيضا دكتور عبد المنعم البدراوى : المدخل للعلوم القانونية ١٩٦٢ صص ٥٠٩ — ٥١١ .

المسجد . وانتقل المؤلف إلى ذكر مساجد القاهرة ملتزما بالترتيب الأبجدى لأسمائها ، فبدأ — بعد جامع عمرو — بالجامع الأزهر وأفاض فى عرض تاريخه عبر القرون ووصف الجامع من حيث حدوده وأبوابه ومقاصيره ومحاريبه وصحنه وأروقته ومناراته ومزاوله والقناديل التى تستخدم فى إنارته والصهاريج التى تستخدم كمستودعات للمياه العذبة والمدارس الملحقة بالجامع الأزهر ، وتطرق إلى شرح طرق التدريس فى الأزهر وأساليب الامتحانات وطلبة الازهر وعاداتهم ومأكلهم ، وترجم للعلماءالذين تولوا مشيخة الأزهر . والحق أن ما كتبه على مبارك عن الأزهر فى هذا الجزء يعتبر كتابا قائما بذاته . ومضى بعد ذلك يستعرض مساجد القاهرة واختص المساجد الكبرى بالإسهاب والتأريخ لها ، ونذكرمنها مساجد ابن‌طولون والحاكم بأمر الله والسلطان حسن والرفاعى والمسجد الحسينى والسلطان الحنفى وأبى العلا وأولاد عنان والدمرداش . وجريا على عادته ترجم لهذه الشخصيات التى أطلقت أسماؤها على المساجد سواءكانت شخصيات دينية أوسياسية . واختص سيرة الحسين بن على بن أبى طالب بإسهاب فترجم للحسين وخروجه من مكة إلى العراق واستشهاده بها والأحاديث التى كانت تروى وما اتخذه الشيعة يوم قتله والعادات التى لايزال يتمسك بها الشيعة إلى الوقت الحاضر فى شهر المحرم . وترجم المؤلف أيضا لعدد من المتصوفة المدفونين بخانقاه سعيد السعداء . وانتهى فى هذا الجزء عند مسجد الرويعى .

* * *

ومضى على مبارك فى الجزء الخامس على نفس النهج يؤرخ لبقية مساجد القاهرة مبتدئا بحرف الزاى حتى آخر الأبجدية العربية . ومن أهم المساجد الكبرى التى أرخ لها فى هذا الجزء زين العابدين والسيدة زينب والسيدة سكينة والسيدة عائشة والسيدة فاطمة النبوية والإمام الشافعى وجامع المؤيد والظاهر والغورى والقاضى يحيى وجامع الكخيا — على مقربة من ميدان الأوبرا حاليا — وجامع الليث بن سعد بالقرب من مسجد الإمام الشافعى وجامع سنان باشا ببولاق على مقربة من شاطىء النيل وجامع قايتباى بقلعة الكبش والروضة والصحراء وجامع المؤيد وقوصون وجامع السادات الوفائية وجامع محمد على بالقلعة وقد أسهب فى وصف الجامع الأخير وجامع الامام الشافعى من قبل . وأورد المؤلف فى هذا الجزء بيانا عن الأوقاف الموقوفة على جامع كل من الغورى وسيدى عقبة وقايتباى وكوم الشيخ سلامة والكيخيا ومحمد أبى الذهب والإمام الشافعى وجامع سنان باشا وملحقاته من السبيل والمكتب والخان الكبير ببولاق . وذكر فى هذا الجزء أيضاً حادثين يعكسان صورتين من صور المجتمع فى مصر وقد وقع أولهما فى النصف الأول من القرن الثامن عشر وثانيهما فى نصفه الثانى . ويتلخص الحادث الأول فى أن واعظاً تركياً أخذ يعظ المصلين فى مسجد المؤيد خلال شهر رمضان ١١٢٣ (١٣ أكتوبر — ١١ نوفمبر ١٧١١) وحمل حملة عنيفة على ما يفعله فريق من المصريين بأضرحة الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل فوقها وحولها وجاهر بأنه لا يجوز بناء القباب فوق أضرحة الأولياء . وقد صادفت آراء هذا الواعظ التركى قبولا من جمهرة المستمعين وتحمسوا لها ، إلا أن نهاية الواعظ كانت مؤسفة إذ تكتل ضده بعض علماء الأزهر وقاضى القضاة وانضم إليهم الباشا العثمانى ومن ثم أصدر الأوامر إلى الجنود بنفى الواعظ وألقوا القبض على زعماء المصريين الذين ناصروه وأوسعوهم ضرباً وإهانة ونفوا بعضهم . أما الحادث الثانى فيتمثل فى أغرب عملية نصب ارتكبت فى القاهرة سنة ١١٧٣ هـ (١٧٥٩—

١٧٦٠) وهى حادث العنزة الصغيرة التى احتفظ بها الشيخ عبد اللطيف كبير خدم مسجد السيدة نفيسة ونسج حول العنزة قصصاً خيالية تدل على أنها تتمتع بكرامات شتى وتسامع الناس بهذه القصص حتى أصبحت العنزة حديث القاهرة فأقبل أهلها من كل فج لزيارة العنزة ويقدمون للشيخ النذور والهدايا . وأوغل الشيخ فى استغلال العنزة والجماهير معاً ، فقال إنها لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق ولا تشرب إلا ماء الورد والسكر المكرر ، فحمل إليه الأهالى هذه الأصناف بكميات وفيرة وعملوا للعنزة قلائد وأطواق من الذهب الخالص . وسمع الأمير عبد الرحمن كتخدا – كبير الأمراء المماليك – بقصة العنزة فأرسل إلى الشيخ عبد اللطيف يلتمس منه الحضور ومعه العنزة ليتبرك بها هو وأهل بيته . فركب الشيخ البغلة ووضع فى حجره العنزة وتحف به الطبول والأعلام والجم الغفير من الشعب حتى إذا وصل هذا الركب إلى دار الأمير أمر بادخال العنزة إلى الحريم ليتباركن بها ، وكان قد أوصى بذبحها وطبخها وجيء بالغذاء وفيه لحم العنزة فأكل منها الأمير والشيخ وضيوف الأمير من الأمراء والأعيان . ولما فرغوا من الأكل وتناولوا القهوة طلب الشيخ العنزة ليعود بها إلى مقر عمله فأخبره الأمير بما حدث وأنبه تأنيباً عنيفاً وأمر بأن يوضع جلد العنزة على عمامته وأن يذهب بها كما جاء بموكبه وبين يديه الطبول والأعلام و عهد بشرذمة من الجنود بإيصاله وهو على هذه الصورة النكراء إلى المسجد النفيسى . وقد حفل هذا الجزء أيضاً بعدد من الشخصيات ترجم لها المؤلف نذكر منها سنان باشا الذى قاد حملة عسكرية عثمانية كبرى لإعادة فتح بلاد اليمن سنتى ١٥٦٨–١٥٦٩. وكان الزيدية قد تمكنوا من طرد العثمانيين من أغلب بقاع اليمن . ودارت حرب ضروس بين العثمانيين وبين الزيدية انتصر فيها سنان باشا وسمى هذا الفتح بالفتح الثانى لليمن . ومما ذكره على مبارك أمرين : أولهما أن سنان باشا ضم إلى الحملة العسكرية عدداً من الأمراء المماليك صناجق مصر فاستشهدوا جميعاً فى حرب اليمن ، وثانيهما أن سنان باشا عين مرتين والياً على مصر وكانت المرة الأولى قبل حملة اليمن من ٢٤ شعبان ٩٧٥ حتى ١٣ جمادى الآخرة ٩٧٦ (فبراير ١٥٦٧ – ديسمبر ١٥٦٨) وكانت المرة الثانية بعد انتهاء حملة اليمن من أول صفر ٩٧٩ حتى سنة ٩٨١ (يونيو ١٥٧١–١٥٧٤) وأنه تولى الصدارة العظمى أى رياسة الوزارة فى الآستانة أربع مرات . ومن الشخصيات التى ترجم لها على مبارك فى هذا الجزء أيضاً الملك الكامل وشجر الدر والظاهر بيبرس والسلطان المؤيد والأشرف قايتباى وقانصوه الغورى ومحمد أبو الذهب وعبد الرحمن كتخدا ، ومن الشخصيات الدينية الإمام الشافعى والشيخ أحمد السبكى وعقبة بن عامر وذو النون المصرى وعمر بن الفارض والسيدة عائشة والسيدة سكينة والسيدة نفيسة كما كتب نبذة عن السيدة زينب .

★ ★ ★

وكان الجزء السادس هو ختام الأجزاء التى خصصها المؤلف لمدينة القاهرة . وقد استهل هذا الجزء بالكلام عن مدارس القاهرة فأرخ لست وتسعين مدرسة أنشئت منذ عصر الدولة الأيوبية وبعضها مدارس قائمة بذاتها وبعضها ملحق بالمساجد والبعض الثالث تحول عن غرضه الأصلى فأصبح يستخدم فى أغراض أخرى بعيدة عن التعليم مثل مدرسة الأشرف اينال وقد أنشأها بالصحراء حيث القرافة الكبرى . الملك الأشرف أبو النصر اينال العلائى الناصرى سنة ٨٦٠ هـ (١٤٥٦ م) فقد أصبحت مخزناً للبارود يتبع وزارة

الحربية . ومعظم المدارس التى أرخ لها على مبارك يرجع إلى القرن الثامن الهجرى وإن كان بعضها يرجع إلى القرن السابع ثم القرنين التاسع والعاشر . ويلاحظ أن المؤلف لم يؤرخ فى هذا الجزء للمدارس الحديثة التى أنشئت فى القاهرة فى القرن التاسع عشر الميلادى مثل مدرسة الطب البشرى والطب البيطرى والمهندسخانة والزراعة والصيدلة والكيمياء والألسن والمعادن وغيرها .

ومن المدارس انتقل إلى الزوايا وهى المساجد الصغيرة وقد أرخ لمائة وست وتسعين زاوية ، كان معظمها تقام فيه الشعائر وقليل منها معطل الشعائر وبعضها تنفق عليه وزارة الأوقاف أو « تحت نظر ديوان عموم الأوقاف » بمصطلح العصر وبعضها يعتمد على الوقف الأهلى ، إذ كان منشئو هذه الزوايا يشيدون فى بناية الزاوية بعض الحوانيت أو بعض المساكن ويوقف ايرادها للانفاق منه على الزاوية . وكان المؤلف حريصاً على ذكر التجديدات التى عملت للزوايا على مر العصور فكان يذكر اسم الشخصية التى أمرت بتجديد الزاوية وما أنفق عليها فى عمليات التجديد ثم يقرن ذلك بذكر الوقفية التى عملت للانفاق على الزاوية . وخير مثل يضرب فى هذا الصدد زاوية الطحاوى بالقرب من الإمام الشافعى ، فقد جاء فى الخطط فى هذا الجزء السادس أن حمزة باشا الوالى العثمانى أمر بتجديد الزاوية سنة ١٠٩٨ هـ (١٦٨٦–١٦٨٧) وأقام بها سبيلا وحوضاً وساقية ومزولة راسية ومزملة لشرب الماء . وفى حجة وقفيته المؤرخة فى ١٠٩٩ هـ (١٦٨٧–١٦٨٨) أنه أرصد على هذه الزاوية والمقام المدفون فيه الشيخ أحمد الطحاوى والسبيل والحوض والساقية جهات بر عديدة ينفق من إيرادها على أجرة الجمال التى تحمل الماء يومياً من النيل إلى السبيل وحدد مرتبات شهرية تدفع بانتظام إلى كل من شيخ القراء والقراء بالزاوية والمقام والبواب والفراش والخفير ومفرق الربعة وخدم كل من الزاوية والمقام والسبيل وكذلك ثمن زيت القناديل وأجرة الوقاد . وذكر المؤلف أنه توجد فى القاهرة ست عشرة زاوية تسمى كل واحدة زاوية الأربعين ، وأن فى معظم الزوايا أضرحة لبعض المشايخ تعمل لهم حضرة يوماً فى الأسبوع يتلى فيها القرآن الكريم والأوراد أو الأحزاب إذا كان الشيخ المدفون من المتصوفة ، كما يقام له مولد كل عام. ونستدل أيضاً من الدراسة الفاحصة للزوايا التى أرخ لها على مبارك أنه كان يقيم فى بعضها مجذوب من الدراويش وغالباً مايطلق على هذه الزاوية اسم هذا الشخص المجذوب ،فى زاوية ابراهيم بن عصيفير بشارع بين السورين كان يقيم فيها هذا الابراهيم وتبدو منه تصرفات غريبة ، فإذا مرت عليه جنازة وأهلها يبكون هرع إلى النعش يمشى أمامه ويقول زلابية هريسة ويكررها . وقد مات هذا المجذوب سنة ٩٤٢ هـ إبان الحكم العثمانى ودفن بالزاوية . ومن الزوايا التى من هذا القبيل زاوية الشيخ عبد الرحمن المجذوب بالحسينية وكان رجلا مقعداً يجلس على الرمل صيفاً وشتاء وإذا جاع أوعطش قال : أطعموه أسقوه . وكان ثلاثة أشهر يتكلم وثلاثة أشهر يسكت ، وقد دفن فى هذه الزاوية التى أطلق عليها اسمه . ومن الزوايا عاد على مبارك إلى استكمال بحث مساجد القاهرة فأرخ لسبعة عشر مسجداً مع تراجم لأصحاب بعضها .

وانتقل بعد ذلك إلى الخوانق فأرخ لثمانى عشرة خانقاه وكان من بينها خانقاه سعيدالسعداء وبيبرس وشيخو وقوصون ويونس وطناى النجمى وطيبرس . وانتقل المؤلف بعد ذلك إلى الربط فتكلم عن سبعة ربط كان من بينها رباط البغدادية والخازن والفخرى والمشتهى والست كليلة . ومن الربط انتقل إلى التكايا فذكر عشرين تكية ، نذكر منها تكية المغاورى وشيخو والخلوتية

ودرب قرمز والسنانية والسليمانية والمولوية والنقشبندية وتكية السيدة نفيسة وتكية السيدة رقية وتكية السادة الوفائية وتكية الهنود . ثم تكلم عن الأسبلة أو السبل فى القاهرة فذكر خمسة وخمسين سبيلا كان من بينها سبيل أم عباس ورضوان بك والسلطان محمود والسلطان مصطفى والشيخ صالح وحسن كتخدا عزبان وخليل أغا مستحفظان وطوسن باشا والست شوكار والست عائشة وعائشة هانم والعادلى والهياتم واليازجى . واستطرد على مبارك إلى الحمامات العامة فى مدينة القاهرة فتكلم عن ستين حماماً منتشرة فى أنحاء القاهرة ، كان من بينها حمام الأفندى وحمام الباشا وحمام الخليفة وحمام بابا وحمام الخواجة وحمام البشرى وحمام الثلاث وحمام الدرب الأحمر وحمام الذهبى وحمام السيوفى والشعرانى والصنادقية والصليبة وطولون والعتبة الخضراء والعدوى والعطارين والغورية وقلاوون والكيخيا والقربية والقاضى والمقاصيص والمؤيد والناصرية . واختتم المؤلف الجزء السادس بالكلام عن الكنائس الموجودة فى القاهرة والتابعة لمختلف الطوائف المسيحية فذكر ست وعشرين كينسة منها كنيسة الأرمن الكاثوليك وكنيسة الأروام وكنيسة خميس العهد وكنيسة الشوام والسبع بنات والسريانى والموارنة ، وذكر كنيساً واحداً لليهود . ثم عاد وتكلم عن كنائس الأقباط الأرثوذكس المقامة فى القاهرة حتى سنة ١٨٨١ وقد بدأ بالكنيسة البطريركية الكاتدرائية الكبرى وقال إنها معروفة أيضاً باسم الكنيسة المرقسية لأنها مرسومة باسم القديس مرقس الحوارى المبشر بالإنجيل فى الديار المصرية ، كما أنها تعرف بالبطريكخانة وبالقلاية أيضاً ، وأن معنى القلاية مسكن الرئيس الروحى ، ثم عرض بالتفصيل لتاريخ إنشائها وكيف أن أخت السلطان العثمانى كانت قد مرت بمصر فى طريقها من الآستانة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وسارع المعلم إبراهيم الجوهرى رئيس كتبة القطر المصرى بتقديم خدمات جليلة لها أثناء إقامتها فى الديار المصرية فى الذهاب والعودة ، كما قدم لها هدايا قيمة تناسب مقامها . فأرادت مكافأته واستفسرت منه عما يريده فالتمس منها المساعدة فى استصدار مرسوم من السلطان بالإذن فى بناء كنيسة بالأزبكية ورفع الجزية عن الرهبان وغير ذلك من مسائل طائفية ، وقد استجابت الآستانة لهذه الطلبات وانتهى العمل فى تشييدها سنة ١٨٠٠ وأخذ على مبارك يصف الكنيسة والهياكل المقامة بها والقباب والنقوش والأعمدة الرخامية وما إلى ذلك . وأرخ بعد ذلك لعدد آخر من كنائس الأقباط الأرثوذكس فى القاهرة ومنها الكنيسة الأولى والكنيسة الثانية بحارة زويلة وكنيسة حارة الروم السفلى وكنيسة الشهيد جرجيوس وكنيسة حارة السقائين . وترجم لبعض مشاهير الأقباط فى القرن التاسع عشر مثل دميان بك جاد شيحه وميخائيل جاد تادرس عريان وابنه عريان بك تادرس . ثم أردف ذلك ببحث عن تاريخ بطاركة الأقباط الأرثوذكس وقد بدأ فيه حيث انتهى المقريزى الذى كان قد وقف فى سرده لتاريخ البطاركة عند البطريرك اثناسيوس ابن القس أبى المكارم بن كليل وكان هذا البطريرك هو السادس والسبعون فى عدد البطاركة الذين تولوا الكرسى البطريركى الإسكندرى فأتم على مبارك تاريخ البطاركة مبتدئاً بالبطريرك السابع والسبعين وهو غبرائيل الثالث ومضى يستعرض تاريخ كل منهم الواحد بعد الآخر حتى وصل إلى البطريرك الثانى عشر بعد المائة وهو كيرولس الخامس وقد صدر أمر الخديو اسماعيل بتعيينه بطريركاً فى سنة ١٨٧٥ .

★ ★ ★

وقد أفرد المؤلف الجزء السابع لمدينة الإسكندرية

فبدأ بموقع المدينة وما كان يوجد به إبان العصر الفرعونى وحكم الفرس لمصر وانتقل إلى حروب الإسكندر المقدونى وتأسيس مدينة الإسكندرية وتدرج إلى تاريخ مصر أيام البطالمة والرومان وكيف اتخذ هؤلاء وأولئك الإسكندرية عاصمة للبلاد وخص مكتبة الإسكندرية ببحث خاص أوضح فيه مكانتها العلمية فى العالم وقتذاك وانتقل إلى الفتح العربى لمصر وبناء مدينة الفسطاط وانساق إلى نشأة الإسلام وأفاض فى شرح السيرة النبوية العطرة ثم خلافتى أبى بكر وعمر والفتوحات التى تمت وقتذاك فى آسيا وأفريقيا وعاد إلى فتح مصر وتكلم عن موقف المقوقس من العرب أثناء العمليات الحربية وحصار عمرو بن العاص لمدينة الإسكندرية، وناقش موضوع حرق مكتبة الإسكندرية وفنّد الفرية القائلة بأن العرب هم الذين أعملوا فيها النار، ثم تكلم عن عدد الولاة والحكام والملوك والخلفاء والسلاطين الذين تعاقبوا على حكم مصر منذ الفتح العربى ٦٤١ حتى قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ واستطرد إلى الأزمات التموينية وموجات الغلاء والأوبئة التى تعرضت لها مصر خلال هذه الأحقاب، واستعرض تاريخ بعض الولاة العثمانيين على مصر، ثم شرح كيف فقدت الإسكندرية زعامتها السياسية والعلمية وكيف انتقلت هذه الزعامة إلى الفسطاط فالقاهرة، وأبرز دور صلاح الدين الأيوبى فى إنهاء الحكم الفاطمى فى مصر والصراع الحربى الذى اشتد أواره بينه وبين الصليبيين وتدرج إلى تاريخ الحروب الصليبية — ويسميها حرب الصليب — وخص بالذكر موقعة فارسكور سنة ١٢٥٠ ويسميها « واقعة ستلويز المشهورة » وهو يقصد بلفظة ستلويز سانت لويس Saint Louis أى لويس المقدس وهو لويس التاسع ملك فرنسا وعاد فأطلق عليها « غارة سندلويز » وهو يقصد بهذه العبارة حملة لويس التاسع. وتكلم طويلا عن هزيمته فى فارسكور ووقوعه فى الأسر واقتياده إلى المنصورة وافتدائه بالمال الوفير. وخلص من هذا الاستطراد إلى القول بأن « غارة سندلويز سنة ١٢٤٨ على الديار المصرية لم تضر بالقطر، وإنما أضرت باسكندرية لأن الفرنساوية والبندقين أضرموا فيها النار وتركوها حين علموا أنهم لا يمكنهم الإقامة بها وذلك سنة ١٢٥٠ » ثم تعرض لتاريخ الدولة الأيوبية ودولتى المماليك والحكم العثمانى وشرح النظم السياسية والإدارية التى وضعها العثمانيون لحكم مصر وكيف تطورت هذه الأنظمة تطوراً أدى إلى استئثار الأمراء المماليك بالنفوذ، وتكلم عن حركة على بك الكبير — ويسميه على بك أباظة — وفشل هذه الحركة واستمر يؤرخ لمصر إبان حكم أبى الذهب ومراد بك وإبراهيم بك حتى نزول الحملة الفرنسية أرض مصر. وخلص من هذا التاريخ إلى حكم عام ينسحب على الإسكندرية وغيرها من بلاد القطر إذ قال « ومن النظر فيما تقدم من أخبار المدد السابقة والتقلبات التى مرت على تلك الديار علم أن مدينة الإسكندرية وغيرها من بلاد القطر بعد أن كانت متوجة بتاج المهابة والإجلال رافلة فى حلل السعادة والإقبال، وكان وادى النيل مزيناً من كل جانب بالمدن الفخيمة ذات المعابد والهياكل المشيدة العظيمة، تلوح على صغير أهلها وكبيرهم لوائح الثروة والابتهاج، نالها من شدائد الأزمان ما أخرها عن هذه التقدمات ... »

وانتقل من هذا التعميم إلى التخصيص وأخذ يتكلم عن تاريخ الإسكندرية منذ إنشائها على عهد الإسكندر وأبرز الرأى الراجح بين المؤرخين وهو وإن كان الاسكندر هو صاحب الفكرة فى انشاء المدينة لأن عصره لم يشهد سوى تخطيط المدينة وإقامة بعض المبانى فإن الذى قام ببنائها هو بطليموس سوتير «فالاسكندر

له الفكرة الأصلية وإلى بطليموس ينسب تجسيمها »
وناقش الآراء المتضاربة حول مكان قبر الإسكندر
ثم شرح التطور الذى طرأ على مساحة المدينة وعدد
سكانها وحياتهم الاجتماعية فى العصرين البطلمى
والرومانى وتكلم عن مسلتى كليوباتره من حيث
تاريخهما وأوصافهما والنقوش التى عليهما وانتقل إلى
عمود السوارى فتناوله بالشرح وتكلم عن التمثال
الذى كان موجودا فوق هذا العمود ، وانتقل بعد
ذلك الى الكلام عن أسوار المدينة وشارع كانوب
وجزيرة فاروس والمنار القديم والرصيف الحجرى
المسمى هيبتا ستاد الذى كان يصل جزيرة فاروس
بشاطىء البحر ، ووصف الميناء الشرقى وسعته والقصور
التى كانت تزخر بها المدينة فى العصرين البطلمى
والرومانى ، وفنَّد الرأى القائل بأن نبى الله دانيال
مدفون بالإسكندرية فى أسفل كوم الدكة تأسيسا
على أنه مات قبل بناء الاسكندرية بثلاثة قرون وأنه
قضى حياته فى بابل ، كما استند الى رأى محمود باشا
الفلكى . وتكلم عن جامع أثرى هو جامع الألف
عمود أو جامع السبعين ويطلق عليه أيضا الجامع الأخضر
وحدد موقعه وذكر سبب تسميته بالألف عمود
وجامع السبعين ، وقرر أن هذا المسجد كان موجوداً
إلى زمن الحملة الفرنسية . وانتقل إلى تاريخ المدينة
بعد الفتح العربى وما فعله المسلمون بها ومساحة المدينة
على عهد الحملة الفرنسية وعدد الأبواب التى كانت
بسورها القديم ووصف ضواحى المدينة فى العصرين
البطلمى والرومانى واعتمد فى ذلك على ماذكره
سترابون وديودور وغيرهما . وانتقل الى الكلام عن
خليج اسكندرية ومديرية مريوط ثم مدينة مريوط
ثم بحيرة مريوط وعين حدود تلك المديرية والحاصلات
الزراعية التى تجود فى أرضها وأوجه النشاط العمرانى
الذى كانت تزخر به هذه المديرية . كما دخل فى
تفاصيل عن مدينة مريوط وبحيرة مريوط وتكلم عن
الإجراء الحربى الذى أقدم عليه الإنجليز مرتين فى
مطلع القرن التاسع عشر وهو قطع سد أبى قير ،
وكانت المرة الأولى فى سنة ١٨٠١ إبان الحرب التى
خاضها الإنجليز لإجلاء الفرنسيين عن مصر ومحاصرتهم
الجنرال مينو فى الإسكندرية ، والمرة الثانية فى سنة
١٨٠٧ عند قدوم الحملة البريطانية على مصر واحتلالها
الإسكندرية وتطرق إلى وضع تاريخ موجز لحملة
سنة ١٨٠٧ . وانتقل على مبارك إلى الكلام عن
الإسكندرية فى القرن التاسع عشر وذكر عدد سكانها
فقرر أنه بلغ فى سنة ١٨٣٠ مايقرب من ١٣٠ ألف
نفس ثم قفز هذا الرقم فى سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤-
١٨٧٥) إلى ٢٧٠ ألف نسمة ، وأشار إلى القرار الذى
اتخذته الحكومة المصرية فى النصف الأول من القرن
التاسع عشر بالإذن للسفن الأجنبية فى دخول الميناء
الغربى وكان محظورا من قبل على هذه السفن دخوله ،
وكان الميناء الشرقى هو المعد لرسو السفن الأجنبية
على الرغم من الخطورة التى كانت تتعرض لها السفن
فى الميناء الشرقى ، وشرح مانجم عن هذا القرار من ازدياد
حركة السفن القادمة إلى الإسكندرية وتنشيط الحياة
الاقتصادية فيها ، وانتقل بعد ذلك إلى حفر ترعة
المحمودية سنة ١٨٢٠ والأسباب التى دعت إلى حفرها
ووصف مسار الترعة والأهوسة التى أقيمت عليها
ونفقات حفرها والمنافع التى عادت على المدينة من
إنشائها وإحياء موات الأراضى فى إقليم البحيرة ،
وذكر المبانى التى ألحقت بالترعة وكان من بينها
مسجدان أحدهما عند مخرج الترعة فى العطف وثانيهما
عند مصبها فى البحر المتوسط وهو جامع التاريخ ،
ومنها مخازن الغلال الأميرية وحفر مجرى تحت الأرض

لتوصيل الماء العذب الى جهة الترسانة والجمرك ، وقد فتح فى عدة مواضع منه موارد لأخذ السقائين والأهالى الماء فى أى وقت شاءوا . وانتقل المؤلف بعد ذلك إلى تعميق ميناء الإسكندرية ومد أرصفة ترسو السفن الكبيرة بجوارها للتخفيف من نفقات الشحن والتفريغ وإنشاء ترسانة بحرية وجهود المهندس الفرنسى سيريزى Cérisy فى بناء السفن ولم يفت على مبارك أن يشيد بكفاءة أحد الإسكندريين فى صناعة بناء السفن وهو الحاج عمر فإنه « كان صاحب إدارة ومعرفة طبيعية وإقدام على مثل هذه الأعمال مع الإصابة » وتكلم عن المدرسة البحرية التى أنشأتها الحكومة لإعداد الشبان المصريين للعمل بحارة على السفن المصرية وإنشاء الفنار وقد وصف موقعه وارتفاعه وقوة إضاءته ، والحوض الجاف لإصلاح السفن وشرح طريقة استخدامه ، وتعرض بالشرح لقوة الأسطول الحربى المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وأورد عدة بيانات تفصيلية عن عدد السفن وأسمائها وعدد مدافعها وقوتها وعدد بحارتها وأنهم بلغوا ١٥,٦٤٣ وأن عدد عمال الترسانة البحرية ٤,٠٧٦ عاملا ، وعاد فذكر بيانا تفصيليا آخر عن القوات المسلحة المصرية — برية وبحرية — وأسماء الفرق والأسلحة التى تنتمى إليها وأنواعها وعددها والأماكن المرابطة فيها وما ينفق عليها ، ثم تكلم عن واقعة تسليم أحمد فوزى باشا قائد الاسطول العثمانى ٢٥ قطعة بحرية من الأسطول لمحمد على عقب هزيمة الجيش العثمانى فى موقعة نصيبين فى ٢٤ يونيو ١٨٣٩ على يد الجيش المصرى ثم وفاة السلطان محمود الثانى فى ٣٠ يونيو ، وأورد على مبارك بيانا عن قوة هذه الوحدات وعدد رجالها . وخرج المؤلف من هذا السرد إلى أن الإسكندرية قد غدت مدينة ذات بأس وقوة ، وقارن بين حالتها وقتذاك وحالتهاعندماداهمتها حملة الجنرال بونابرت سنة ١٧٩٨ ووصف دخول الفرنسيين الإسكندرية. وتكلم عن حصيلة الرسوم الجمركية وقيمة البضائع الواردة والصادرة من سنة ١٨٢٣ حتى سنة ١٨٤٢ . وأفرد بحثا عن الإسكندرية إبان حكم ابراهيم باشا وبحثا آخر عنها إبان حكم عباس الأول . ويلاحظ أن على مبارك قد أشاد بحكم عباس الأول ولم يبخسه حقه كما فعل معظم الذين أرخوا لهذا الوالى . وكان على مبارك موضع تقدير عميق من عباس الذى استفاد به فى تنظيم المدارس وعينه ناظرا لمدرسة المهندسخانة وملحقاتها . تكلم على مبارك عن الأنظمة العسكرية التى أدخلها عباس على الجيش المصرى واهتمامه بإقامة الاستحكامات العسكرية فى الإسكندرية وغيرها من ثغور مصر الشمالية على ضوء ما كان يقترحه جاليس بك Gallice مدير الاستحكامات . وقال على مبارك إن عباسا قد أنشأ ثلاثة حصون جديدة فى كل من العجمى وأبى قير ومقابر اليهود التى أنشأ فيها أيضا مستودعا للمواد الحربية كان يسع تسعة آلاف قنطار بارود ، وأنه بنى عدة مستشفيات عسكرية كان من بينها مستشفى فى أبى قير ، وبنى ورشة للطوبجية فى وسط المدينة على مقربة من كوم الناضورة تشمل أقساما للنجارة والحدادة والبرادة والسبك . وذكر على مبارك أيضا أن عباسا أمر بإجراء عملية مسح للشواطىء المصرية ابتداء من الإسكندرية شرقا حتى العريش ، وغربا حتى مرسى مطروح التى كانت تعتبر الحد الفاصل بين حدود مصر الغربية وبين طرابلس الغرب . وظل الأمر على ذلك حتى حكم الخديو اسماعيل فاتضح بما لايدع مجالا للشك أن السلوم هى آخر بلدة مصرية تقع على حدود مصر الغربية وسجل ذلك التحديد فى خرائط عسكرية .

وقد أمر عباس بأن تمتد عمليات المسح لتشمل بحيرة مريوط إلى حدود الأراضى الزراعية فى إقليم البحيرة وإلى حدود الأراضى المرتفعة جهة وادى النطرون . وأشار إلى اهتمام عباس اهتماما زائدا بالمحافظة على صهاريج المياه فى الإسكندرية لمواجهة الطوارىء ، وكانت أحداث قطع الإنجليز لسد أبى قير لاتزال ماثلة فى الأذهان. ويلاحظ أن هذا الاهتمام بمسائل الطوارىء والتعزيزات العسكرية كان مرده إلى الأزمة السياسية التى قامت بين القاهرة والآستانة حول تطبيق قانون التنظيمات . وقد ظل هذا الاهتمام قائما لأنه بعد أن سويت أزمة التنظيمات اشتركت القوات المصرية فى حرب القرم إلى جانب الدولة العثمانية ضد روسيا. وأشار المؤلف فى هذا البحث إلى الطريق العسكرى الذى أنشئ من قلعة القبارى إلى باب العرب ليجتازه الجنود فى تحركاتهم ، وذكر المحطات الواقعة على الطريق من الإسكندرية إلى السلوم وانتقل الى مشروع استخراج الإسفنج من الشواطىء المصرية فى منطقة السلوم بمعرفة أحد الملتزمين لمدة عشر سنوات تبدأ من سنة ١٢٩١ ﻫ (١٨٧٤–١٨٧٥ م) وفق شروط معينة . وتعرض المؤلف لتخطيط المنطقة الفضاء الواقعة بين مينا البصل وميناء الشراقوة حيث شيدت مستودعات ضخمة للبضائع الواردة والصادرة ، وأصبحت هذه المنطقة تعج بنشاط اقتصادى واسع لقربها من الميناء الغربى وشاطىء ترعة المحمودية حيث كانت السفن النيلية تفرغ شحناتها وفى نفس الوقت كانت السفن البحرية تشحن البضائع المصدرة إلى الخارج . كما أشار المؤلف إلى اهتمام عباس بتعمير جهات الحضرة والمندرة والسيوف والرمل ، وخلص من هذه المشروعات المتعددة إلى المشروع الرئيسى وهو مد الخط الحديدى من الإسكندرية إلى القاهرة على عهد عباس واستعرض المؤلف المحاولات التى بذلتها بريطانيا على عهد محمد على لإنشاء خط حديدى من القاهرة عبر الصحراء إلى السويس وكيف وافق محمد على أول الأمر على المشروع واستورد مقادير من القضبان والآلات ، ثم عاد فصرف النظر عن المشروع واستخدم القضبان فى مد خط من طرا الى شاطىء النيل لنقل الأحجار اللازمة لمشروع القناطر الخيرية ، وتكلم عن تنظيم الطريق البرى من السويس إلى القاهرة فالإسكندرية على عهد محمد على وكيف اتجه هذا الوالى لتمصير الأجهزة الإدارية التى تشرف على تنظيم هذا الطريق واختتم المؤلف البحث بشرح بعض الملابسات التى أحاطت بإنشاء الخط الحديدى من الإسكندرية فى اتجاه القاهرة . وأعقب على مبارك هذا البحث ببحث آخر عن الاسكندرية إبان حكم الخديو اسماعيل ، فذكر أن عدد سكانها حين تولى هذا الخديو الحكم فى يناير ١٨٦٣ كان قد بلغ ١٧٠ ألف نفس ثم قفز فى سنة ١٨٧٢ الى ٢١٢,٠٤٣ نسمة ومن بين هذا العدد ٤٧,٣١٦ أجنبيا . وأورد احصائية عن استهلاك اللحوم فى الإسكندرية وأوضح أن هذا الاستهلاك قد زاد زيادة كبيرة للغاية ، وأرجع هذه الزيادة إلى زيادة حركة النشاط التجارى فى المدينة وارتفاع مستوى المعيشة بها ، ودلل على ذلك أيضا باحصائية طريفة عن وسائل النقل فى الإسكندرية ومنها يتضح أن عدد عربات الركوب وخلافها قد بلغ ١٤٣١ من عربات حنطور ومزدوجة ومفردة وعربات ركوب بالأجرة هذا عدا عربات أفراد أسرة محمد على وتوابعهم وعربات الأجانب . ثم تكلم عن الشوارع التى فتحت فى ذلك العهد وما تم تبليطه منها حتى سنة ١٢٨٧ (١٨٧٠ م) وإقامة تمثال محمد على فى ميدان المنشية وقد بلغت تكاليف إقامته مليونين من الفرنكات .

وانتقل الى الكلام عن التقسيم الإدارى للمدينة ، فقرر أن بها ثمانية أقسام للشرطة – أو الضبطية بمصطلح ذلك العصر – وأن فى كل قسمين معاونا واحدا . وتكلم طويلا عن ضاحية الرمل وجهود الحكومة لتعميرها وتنشيط حركة الاصطياف فى ربوعها وتيسير المواصلات بينها وبين المدينة . وانتقل إلى الكلام عن مساكن المدينة ودور قناصل الدول فى الاسكندرية التى اتخذوها مصيفا لهم ينتقلون إليها من القاهرة فى السكة الحديدية على نفقة الحكومة المصرية وانتقال الحكومة إلى الإسكندرية ثلاثة أشهر فى الصيف . وقرر أن محمد على هو الذى استن هذا التقليد ، وأوضح المنافع الاقتصادية والاجتماعية التى تعود على المدينة من انتقال الحكومة إليها صيفا . وتكلم عن مساجد الإسكندرية فقال إن بها من المساجد الجامعة ٤٩ جامعا ومن الزوايا ٩٧ وتضم بعض الزوايا أضرحة لبعض الأولياء بينما البعض الآخر خال من الأضرحة ونذكر على سبيل المثال من المساجد التى أرخ لها فى إسهاب أو إيجاز : مسجد أبى العباس المرسى وياقوت العرشى وتاج الدين بن عطاء الله الإسكندرى ونصر الدين والبوصيرى والشيخ تمراز والحجارى والمغاورى وعبد الرزاق الوفائى والحلوجى والصورى وسيدى جابر الأنصارى ونبى الله دانيال والطرطوشى وسيدى مجاهد وبجميع هذه المساجد أضرحة من تنسب إليهم . ومن المساجد الخالية من الأضرحة مسجد طاهر بك ومسجد سلطان ومسجد محرم بك ومسجد كرموز ومسجد الشيخ بالميدان ومسجد عبد اللطيف وهو معد لصلاة الجنازة . وانتقل الى الكلام بعد ذلك عن كنائس المدينة فقرر أن عددها ثلاث عشرة كنيسة : عشرة للنصارى وثلاث لليهود . وذكر أسماءها وأماكنها وتكلم أيضا عن فنادق الإسكندرية ومستشفياتها وحماماتها العامة ومقاهيها ومسارحها وأسواقها والجمعيات الخيرية الأجنبية وشركات التأمين والبورصة وبيوت الرهن والشركات التجارية بها وطوائف الصناع ورجال الحرف والمدارس المصرية والأجنبية . وأفرد بحثا ضافيا عن ميناء الإسكندرية فتكلم عن المنشآت الحديثة التى تمت به إبان حكم اسماعيل من إنشاء حوض عائم من الحديد لإصلاح السفن يحل محل الحوض الذى كان محمد على قد أنشأه من الحجر والذى أصبح لايساير تطور صناعة بناء السفن ، وذكر أنه صنع فى فرنسا سنة ١٢٨٥ (١٨٦٨–١٨٦٩) . وحدد ارتفاعه وعمقه وعرضه ووزنه وقوة آلاته وقرر أن تكاليفه بلغت ١٢٦,٣٦ جنيها مصريا وقد أطلق على مبارك على الحوض لفظة دوك وهى مأخوذة من الكلمة التى تستعمل فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية dock وشرح أهمية وجود أحواض لإصلاح السفن فى الموانى الكبرى ، والمقصود بكلمة حوض . ثم تكلم عن حاجز الأمواج الذى أقامته الحكومة من جزيرة رأس التين إلى العجمى ليقى الميناء طغيان الأمواج ويجعل السفن الراسية به بمنجاة من العواصف وجعل فيه البوغاز لمرور السفن فيه ، وبناء أرصفة للشحن والتفريغ ، ومد خطوط حديدية إلى أرصفة الميناء لتسهيل تلك العمليات ثم أورد سبع إحصائيات عن النشاط التجارى البحرى للإسكندرية ومقارنته بنشاط الموانى المصرية سواء فى البحر المتوسط أو فى البحر الأحمر . ومن هذه الاحصائيات إحصائية عن عدد السفن التى دخلت ميناء الإسكندرية ابتداء من سنة ١٨٣٧ حتى سنة ١٨٧٢ وإحصائية ثانية عن عدد الوافدين من الأجانب على ميناء الإسكندرية خلال هذه الفترة وقيمة البضائع الصادرة والواردة إليه فى سنة ١٨٧٠ وإحصائية مقارنة عن قيمة

الصادرات والواردات فى موانى الإسكندرية ودمياط وبورسعيد والسويس والعريش والقصير وسواكن ومصوع ، وإحصائية أخرى توضح حجم التبادل التجارى بين مصر وبين كل من انجلترا وفرنسا وبلاد اليونان وأمريكا والسويد والمغرب والنمسا وإيطاليا وبلجيكا وروسيا وألمانيا والشام وتركية أوربا وتركية آسيا ، وإحصائية عن عدد السفن التى دخلت ميناء السويس فى الفترة من سنة ١٨٤٩ حتى سنة ١٨٧٢ وكيف تضاعف عددها حوالى أربع مرات ، ثم احصائية أخرى عن عدد السفن التى دخلت موانى سواكن والقصير ومصوع وحمولة هذه السفن . ومن ميناء الإسكندرية انتقل المؤلف إلى الكلام عن مصلحة وابورات البوستة الخديوية والنجاح الذى حققته واتساع نطاق أعمالها وتملكها ست وعشرين باخرة تجوب البحار ناقلة المسافرين والبضائع والبريد وما تستهلكه كل سفينة فى السنة من الفحم مقدراً بالأطنان ، وأورد إحصائية بأسماء خمس وعشرين باخرة من سفنها وقوة كل منها ، ثم أسماء ١١ من سفن البحرية المصرية وقوة كل منها ومجموع حمولتها ونذكر على سبيل المثال أسماء ثلاث سفن هى « المحروسة » وقوتها ٨٠٠ حصان ومخصصة لركوب الخديو ، و« مصر » وقوتها ٦٠٠ حصان ، ومخصصة لركوب المعية الخديوية ، و« الغربية » وقوتها ٥٠٠ حصان ، ومخصصة لركوب الفاميليا الخديوية — أى العائلة الخديوية — ثم استعرض أسماء شركات الملاحة البحرية الأجنبية ونشاطها ومواعيد سفر سفنها ، وانتقل بعد ذلك إلى الكلام عن الفوائد التى عادت على الإسكندرية من ربطها بالشبكة الحديدية وبأسلاك البرق وتكلم عن الشبكة الحديدية فى مصر وطول الخطوط الحديدية مقدرة بالأميال ، وانتقل إلى الكلام عن سكك حديد السودان وأقسامها ومحطاتها ، وشرح على مبارك الجهود التى بذلها حين تولى إدارة مصلحة السكك الحديدية فى إنشاء المحطات والنهوض بمستوى الخدمة فى هذه المصلحة ، ثم تكلم عن عدد الخطوط الحديدية ومحطات الوجه البحرى والوجه القبلى والوقت الذى يستغرقه المسافر من محطة إلى أخرى . واختتم هذا البحث بالكلام عن طول الأسلاك البرقية الممتدة فى مصر وفى السودان حتى سنة ١٢٩١ ﻫ (١٨٧٤—١٨٧٥) مقدرة بالأميال الإنجليزية . وقرر حقيقة هامة هى أن مصر فاقت فى استخدام البرق كثيرا من الدول الأوربية مثل السويد وبلجيكا والدانمرك وهولندا والبرتغال . وأورد إحصائية عن جملة أسلاك البرق فى كلّ من مصر والسودان عدا خطوط البرق الخاصة بشركة قناة السويس وشركة مالطة .

★ ★ ★

وابتداء من الجزء الثامن حتى الجزء السابع عشر استعرض على مبارك البلاد المصرية فيما خلا القاهرة والإسكندرية . وقد التزم بالترتيب الأبجدى فى ذكر أسماء البلاد . ومن البحوث الهامة التى وردت فى الجزء الثامن البحث الذى وضعه عن انتشار ظاهرة اجتماعية فى مصر هى شرب القهوة وما أثاره رجال الدين من ضجة حول تحريمها أو إباحة شربها . وكان قد شاع استخدامها بادىء ذى بدىء فى أوساط المتصوفة لتساعدهم على السهر فى حلقات الذكر . وقد جلب البن الى مصر متصوفو اليمن ، واستطرد المؤلف إلى الكلام عن نبات البن فى اليمن والحبشة وأشار إلى بلدة الجبرت فى الحبشة وهى الوطن الأصلى لأسرة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المشهور ، فترجم لوالده الشيخ حسن الجبرتى . وتكلم عن القرار الذى أصدره الجنرال بونابرت بتحريم تعاطى الحشيش

وشرب البوزة ومعاقبة من يخالف هذا القرار من المصريين بالحبس ثلاثة أشهر، كما نص فى القرار على حرق طرود الحشيش التى ترد إلى الجمارك المصرية . ولما جاء ذكر قرية انبابة - فى شمال الجيزة على الشاطىء الغربى للنيل تجاه بولاق - شرح الموقعة المشهورة التى جرت بين مراد بك والجنرال بونابرت وهى التى يسميها الفرنسيون معركة الأهرام (٢١ يوليو ١٧٩٨) تمجيدا لانتصارهم فيها ، وقد أفاض على مبارك فى شرح الأيام العصيبة التى شهدتها القاهرة والتى سبقت ولحقت هذه المعركة وقد استقى مادتها العلمية من الجبرتى . وتعرض لوصف مقياس النيل الذى كان موجودا فى أسوان وشرح معنى لفظتى اغريقى واللبتى - اللاتينى - ووصف خشب الدوم ومزاياه . وشرح فى هذا الجزء أيضا شرحا وافيا منطقة آثار أبى سمبل ويكتبها (ابسنبول) ومعابد إدفو وأرمنت والأشمونين. ومن المدن الهامة التى أرخ لها فى هذا الجزء أبو تيج واخميم وأبو كبير وأرمنت والإسماعيلية وإسنا وأسوان وأشمون والأشمونين. ومن الشخصيات التى ظهرت لها تراجم فى هذا الجزء ذو النون المصرى وابن جبير وابن زولاق وابن سيناء وعبد الرحمن الناصر والشيخ محمد الخرشى وعلى الأجهورى والشيخ محمد عليش والشيخ محمد الإنبابى والشيخ محمد احمد فرغل والشيخ عبد الرحمن البوتيجى والشيخ محمد السميعى وهؤلاء الثلاثة من أعلام أبى تيج . ومن الشخصيات الأجنبية سترابون اليونانى الجغرافى وفيزاغورس العالم اليونانى وبلوتارك العالم الفيلسوف . وقد تضمن هذا الجزء البلاد التى تبدأ اسماؤها بحرف ا .

★ ★ ★

وفى الجزء التاسع بحث ضاف عن قافلة الحج المصرية ونظام خروجها من القاهرة وإقامتها خمسة أيام فى بركة الحج - وهى قرية فى شمال شرق القاهرة تقع فى جنوبى الخانكة وشرقى المرج - ثم استئناف سيرها إلى الحجاز . ويستعرض المؤلف المحطات التى تقف عندها القافلة حتى تصل إلى الأراضى المقدسة بالحجاز ، والاجراءات التى تتبع فى إقامتها وفى ظعنها وتدابير الأمن للمحافظة على الحجاج والأموال ، ويشرح كيفية عمل الكسوة الشريفة التى تأخذها البعثة الرسمية معها وتنظيم موكب المحمل وما إلى ذلك من تفصيلات وافية ودقيقة . وقد جاء كل هذا الاستطراد عندما تكلم عن بركة الحج التى أشرنا إلى موقعها . ولما تكلم عن بنى مزار وصف مصنع السكر فى هذه المدينة وإنتاجه من السكر الأبيض والسكر الأحمر ومدة تشغيل هذا المصنع ليلا ونهارا أربعة أشهر ابتداء من مدة عصر عيدان قصب السكر ، وتكلم أيضا عن المبانى الملحقة بهذا المصنع مثل المستودعات المخصصة لحفظ السكر ومساكن المهندسين الأجانب ووابور النور الذى يمد المصنع بالإنارة وبالقوى المحركة لإدارة آلاته ، والخطوط الحديدية الممتدة إلى داخل المصنع وإلى أراضى تفتيش زراعة القصب فى بنى مزار. كما يحوى هذا الجزء وصفا للأعياد التى كان يحتفل بها المصريون فى العصور القديمة وقد نقلها عن هيرودوت . وشرح المؤلف بعض المصطلحات التى ورد ذكرها فى المصادر والمراجع التى تناولت تاريخ مصر الإسلامية ، ومن هذه المصطلحات نذكر على سبيل المثال : البقط ، البازدار ، مفردى ، مفارده . متفردون . مفردون ، الديوان المفرد ، الزمامى ، الزماميون . ديوان الازمة ، صاحب ديوان الزمام ، زمام دار . خوندة ، خوندات خاتون ، خواتين . كما شرح بعض مصطلحات فنية فى دراسة فلاحة الارض نذكر منها : المرجع ، الدهيبة ، البراش ، الرداد ، التلويق . ومن المدن التى

أرخ لها فى هذا الجزء ، الباجور ، باقور ، بانوب ، ببا والبتانون ، ويكتبها البتنون ، البدارى ، بدرشين ، بردين ، بسيون ، بلبيس ، بلقاس ، بلينا ، بنها ، بنى سويف ، بنى عدى ، بنى مزار ، بهتيم ، بهجورة . وفى هذا الجزء ترجم على مبارك لنفسه ترجمة مستفيضة تناولت حياته الخاصة والعامة . كما ترجم لتقى الدين احمد بن على المقريزى واستمد مادته العلمية عنه من كتاب أبى المحاسن التميمى المسمى بالمنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى . وترجم ايضا للشيخ ابراهيم الباجورى شيخ الجامع الأزهر والشيخ احمد الدردير من علماء الأزهر وإبراهيم المتبولى وعلى الخواص من كبار المتصوفة . . ومن الشخصيات الأجنبية التى ترجم لها : شامبليون ويكتب على مبارك اسمه بالطريقة التركية جانبوليون ، وهو عالم الآثار المصرية القديمة الفرنسى الذى عكف على فك رموز اللغة الهيروغليفية فى القرن التاسع عشر ، كما ترجم لبعض الفلاسفة والعلماء اليونانيين وغيرهم من القرن الثالث والخامس والسادس للميلاد نذكر منهم اجاثمبر ، اتيين البيزنطى ، اولنبيودور ، بروكوب . وترجم أيضا لأحد العلماء الفرنسيين الذين اشتغلوا بالعلوم الطبيعية والنباتية وهو ريمور . ولم يغط هذا الجزء جميع البلاد التى تبدأ أسماؤها بحرف الباء فوقف عند بهوت وهى قرية تتبع مركز المحلة الكبرى بمحافظة الغربية حاليا وترجم لثلاثة من علمائها عاشوا إبان الحكم العثمانى .

★ ★ ★

وحفل الجزء العاشر بعدة أبحاث تتصل ببعض البلاد المصرية ذات الشهرة التاريخية ، مثل بوصير والبوطة وأبو قير — ويكتبها بوقير — وتروجه وتنيس وحلوان . فلما جاء ذكر بوصير تكلم عن مقتل مروان ابن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية وحاول تحديد المكان الذى لقى فيه هذا الخليفة مصرعه وهل هو بوصير الجيزة أو بوصير الفيوم ؟ واستعرض كتابات المقريزى وابن حوقل وأبى المحاسن وأبى الفداء وابن خلكان فى هذا الصدد . ولما تعرض للبوطة وهى قرية فى محافظة البحيرة كانت مسكنا لشيخ عرب البحيرة حسن بن برعى وأخيه شكر تعرض لقتلهما على يد المماليك الشراكسة الذين قطعوا رأسيهما وشربوا من دمهما وجزل بعضهم من لحمهما بالسيف وأفاض فى وصف نهايتهما جزاء خيانتهما للسلطان طومانباى . وعند أبى قير تكلم عن الخليج الناصرى(1) الذى حفره الناصر محمد ابن قلاوون وكانت هذه الترعة تخرج من الرحمانية وتأخذ مسار خليج الإسكندرية القديم واستطرد إلى العلاقات بين مصر والصليبيين فى صيدا بالشام ، وبين مصر وجزيرة قبرص . وانتقل من التاريخ الوسيط إلى التاريخ الحديث فتكلم عن موقعتى أبى قير البحرية (اول اغسطس ١٧٩٨) وأبى قير البرية (٢٥ من يوليو ١٧٩٩) ونشر بعض منشورات بونابرت للشعب المصرى وناقش موضوع قطع سد أبى قير كإجراء حربى لجأ اليه الإنجليز فى محاربة الفرنسيين . ولما تكلم عن تروجه — وهى مدينة قديمة فى جنوب غرب دمنهور — استعرض تاريخها منذ سنة ١١٧ هـ واستند إلى ما كتبه عنها المقريزى فى خططه والنويرى فى نهاية الأرب وكاترمير نقلا عن المقريزى فى كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . وتعرض للمفاوضات التى جرت فى هذه البلدة سنة ٣٥٨ هـ بين جوهر الصقلى قائد الجيش الفاطمى أثناء زحفه من الإسكندرية إلى الجيزة وبين وفد يرأسه أبو جعفر مسلم وأسفرت عن عقد الصلح ، وانتقل إلى الكلام عن إقامة الظاهر بيبرس فيها ومقتل السلطان الأشرف خليل فيها سنة ٦٣٩ هـ . ولما وصل المؤلف

(١) كانت الترع تسمى فى ذلك الوقت خلجانا .

فى ذكر المدن الى تنيس كتب تاريخا ضافيا عنها تناول الدور الذى لعبته فى العصور القديمة وفى العصور الإسلامية على ضوء ما كتبه المقريزى والمسعودى وأبو السرى الطبيب وأبو الفداء وغيرهم . وقال إن الجنتين اللتين ورد ذكرهما فى القرآن الكريم «واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا » (١) كانتا فى تنيس لأخوين من بيت الملك قليمون من نسل اتريب بن قبطيم. وتكلم عن الشهرة العريضة التى أصابتها هذه المدينة فى صناعة الثياب وتكلم عن الحياة الاجتماعية بين سكانها.

ووضع بحثا مستفيضا عن حلوان وقال إنها كانت قرية مشهورة عامرة بالسكان منذ أكثر من ألف وثمانمائة وخمسين عاما خلت ثم أخنى عليها الدهر فغدت بلدا مهجورا حتى جددها وعمرها عبد العزيز بن مروان الذى ولى حكم مصر وأعجب بهوائها فنزل بها سنة ٧٠ ﻫ ليكون بمنجاة من الطاعون الذى اتخذ مظهر الوباء فى تلك السنة . وشيد بها المساجد والدور وغرس النخيل والكروم . وتابع المؤلف تاريخ حلوان عبر العصور فتكلم عن زيارة المأمون الخليفة العباسى لها سنة ٢١٧ﻫ وذكر طرفا من زيارة هذا الخليفة لمصر ، وتعرض لخواص المياه الكبريتية التى تنبثق من عين حلوان وأهميتها فى علاج الأمراض الجلدية ، وشرح مظاهر الاهتمام بتعمير حلوان منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر من إنشاء خط حديدى يربطها بالقاهرة . ولم يكن هذا الخط يبدأ من محطة باب اللوق كما هو الحال الآن، بل كان يبدأ من قره ميدان بالقلعة ثم يمر على مقابر المماليك وشرقى ضريح الإمام الشافعى إلى البساتين ويأخذ مساره الحالى . كما تكلم عن إنشاء

(١) سورة الكهف آية رقم ٣٢ والآيات التالية لها مكملة لقصة الأخوين .

حمامات للمياه الكبريتية بها وشق شوارع متسعة ومستقيمة من النيل إلى الحمامات وبناء فندق سياحى وفندق آخر للعلاج وذكر التسعيرة التى وضعت للنازلين فيه بمختلف الدرجات ، وعما اذا كانت الإقامة تشمل تناول الطعام أو مقصورة على المبيت . وتكلم عن التيسيرات التى قدمتها الحكومة لتشجيع الأهالى على بناء دورهم فى حلوان ، واستعرض النشاط الاقتصادى فيها وازدياد حركة البناء والتعمير خلال السنوات من ١٨٨٢ إلى ١٨٨٧ ومن الوقائع . التاريخية التى تعرض لها فى هذا الجزء الهدية التى أرسلها المقوقس . ويصفه على مبارك بأنه صاحب الإسكندرية ، إلى النبى عليه الصلاة والسلام، وكان من ضمنها مارية وأختها سيرين ، ومارية هى التى ولدت للنبى ابنه ابراهيم وخلص من ذلك إلى القول بأن ثلاثة من الأنبياء صاهروا الأقباط هم ابراهيم الخليل تسرى بهاجر أم اسماعيل . ويوسف تزوج بابنة صاحب عين شمس التى ذكرها الله فى كتابه فقال «وغلقت الأبواب وقالت هيت لك»(١) ومحمد عليه الصلاة والسلام تسرى بمارية . وتكلم عن الحياة المترفة الرتيبة التى كان يحياها المتصوفة فى خانقاه سرياقوس والتى أنشأها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ ﻫ (١٣٢٣) م وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفى ولقب شيخها بلقب شيخ الشيوخ بعد أن كان هذا اللقب مقصورا على من يتولى مشيخة خانقاه سعيد السعداء . كما أفاض المؤلف فى تحديد الأقاليم فى مصر التى نزلت بها القبائل العربية بعد الفتح الاسلامى وذكر دخول معاوية بن أبى سفيان مصر وولاية محمد ابن أبى بكر الصديق عليها وقتله بها . وتكلم عن نظام الخلع فى دولة المماليك وأفاض فى وصف خلع أرباب السيوف وخلع أرباب الأقلام وخلع العلماء .

(١) سورة يوسف جزء من الآية رقم ٢٣ .

ووضع بحثاً عن نظام النيابة فى دولتى المماليك وشرح وظيفة النائب الذى كان يقوم مقام السلطان وكان صاحب هذه الوظيفة يسمى ملك الأمراء ونائب الحضرة وكافل الممالك ، وتكلم عن اختصاصاته المتشعبة ووضعه فى الدولة وفى الاحتفالات الرسمية وفى المواكب ، ووصف دار النيابة التى بناها الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٣هـ . وانتقل المؤلف من النيابة إلى الوزارة فتكلم عنها على غرار ما فعل فى كلامه عن النيابة . وتكلم عن التجربة التى قامت بها الحكومة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر لزراعة أشجار التوت لتربية دود القز ، وذكر أن الحكومة حفرت أكثر من ألف ساقية واستدعت خبراء من الآستانة لتدريب المصريين ، كما زرعت أيضاً فى نفس المنطقة وهى رأس الوادى بمديرية الشرقية أشجار الزيتون لاستخراج الزيت واستخدامه فى صناعة الصابون . وفى هذا الجزء شرح المؤلف بعض المصطلحات التاريخية نذكر منها على سبيل المثال : بغلطاق ، بغلوطاق ، بغالطيق ، صولق ، صوالق ، الحياصة ، حوائص ، شيوب ، زراقة ، قراسنقر ، آق سنقر ، شنتور ، شنتار ، طبلخانة ، أمراء الطبلخانة ، شاد الشرابخاناه ، شاد الدواوين ، شاد العمائر ، شاد الخاص ، شاد الزردخانة ، شاد الحوش ، شادية ، أمير أخور ، جشار ، تشاهير ، مروات ، الخانقاه . ومن المدن التى أرخ لها فى هذا الجزء ، عدا التى ذكرناها ، أبو قرقاص ويكتبها بوقرقاص ، وبولاق الدكرور ، ويكتبها بولاق التكرور ، بورسعيد ، تلا ، جرجا ، الجيزة . وترجم فى هذا الجزء لعدد كبير من الشخصيات نذكر منها الشيخ البوصيرى صاحب البردة وابن خلكان والشيخ على البيومى من المتصوفة وابن السالوس وزير الأشرف خليل والشيخ حسن الحداوى من علماء الأزهر وهو لا ينسب إلى ميناء جده بالحجاز بل ينسب إلى الحدية وهى قرية بمحافظة البحيرة ، على الشاطىء الغربى لفرع رشيد وجنوبى مدينة رشيد ، وترجم لبعض الصوفية الذين عاشوا أو دفنوا فى خانقاه سرياقوس ، وترجم أيضاً للأمير عيسى شيخ عرب بنى عونة ولشيخ العرب سويلم بن جيب بالقليوبية وابنيه سالم وسويلم . كما ترجم لبعض المستشرقين الفرنسيين مثل كاترمير (١٧٨٢–١٨٥٧) وساسى (١٧٥٨–١٨٣٨) وهربلوبرتلمى (١٦٢٥ – ١٦٩٥) . وقد غطى على مبارك فى هذا الجزء بقية البلاد التى تبدأ أسماؤها بحرف الباء ثم أحرف التاء والجيم والحاء والخاء والدال .

* * *

وحفل الجزء الحادى عشر بذكر عدد من أمهات المدن ذات الشهرة التاريخية فتكلم عن دمنهور وتاريخها فى العصور القديمة والحديثة وتعرض بوجه خاص لأحداث الحملة الفرنسية المتصلة بدمنهور والفترة التى أعقبت خروج الفرنسيين من مصر والحرب بين محمد على ومحمد الألفى والأزمة التى واجهها محمد على حين صدر مرسوم من السلطان بنقله من مصر إلى سالونيك ومؤازرة علماء مصر لمحمد على إبان هذه الأزمة واستعرض تاريخ مدينة دمياط الحافل إبان الحروب الصليبية وأفاض فى شرح أحداث الفترة الحرجة التى تولت فيها شجر الدر مقاليد الأمور عقب وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ريثما يحضر توران شاه ابن الملك المتوفى وكانت حملة لويس التاسع قد نجحت فى الاستيلاء على دمياط والوصول إلى المنصورة تجاه البحر الصغير . ومما هو جدير بالذكر أن على مبارك يسمى قائد الحملة روا دفرنس أى ملك فرنسا وهى نفس التسمية التى أطلقها من قبل المقريزى فى خططه (١) وانتقل إلى تاريخ دمياط ابان الحملة الفرنسية ثم فى فترة الصراع على

(١) المقريزى : الخطط . طبعة الشياح — لبنان — ثلاث مجلدات المجلد الأول الجزء الثانى ص ص ٣٩٠ — ٣٩٢ .

الحكم فى مصر بين محمد باشا خسرو الوالى العثمانى وبين عثمان بك البرديسى ، وتكلم عن مساجدها ومدارسها ووصف سمكة تظهر فى مياه دمياط يطلق عليها فرس البحر وذكر منافعها . وسار على نفس النهج عند كلامه على رشيد وأفاض فى وصف المدينة والحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية لسكانها وأخذ يعدد أنواع المحصولات التى تشتهر بها وذكر أنواع البلح وأصناف الأرز واستعرض تاريخ رشيد فى العصور الوسطى ثم فى القرن التاسع عشر وأطال فى الكلام على الحملة البريطانية على مصر سنة ١٨٠٧ وانتصار المصريين على البريطانيين فى معركتى رشيد والحماد . ولما جاء ذكر بلدة دندرة وصف معبدها وتاريخ إنشائه وانتقل منه إلى قصة إيزيس وأوزوريس وهاتور . ومن المصطلحات التاريخية التى شرحها المؤلف فى هذا الجزء : خشداش ، خشداشية ، طواشى ، الغرارة ، الحواء ، البرك . ومن المدن التى أرخ لها فى هذا الجزء — عدا التى ذكرناها — دراو ، الدر ، ديروط ، دشنا ، دكرنس ، الزقازيق ، زفتى . وقد ترجم لابراهيم الدسوقى والوزير الصاحب ولعدد وافر من علماء دمياط ودمنهور ورشيد كما ترجم للسائح الفرنسى سافارى ويسميه « سوارى السياح الفرنساوى » وقد زار مصر فى القرن الثامن عشر ، كما ترجم لسائح فرنسى آخر هو الأب سيكار ويصفه بأنه «سياح فرنساوى قسيس من طائفة الجزويت» وترجم أيضاً لعلى باشا الجزائرلى أو الطرابلسى أو على برغل وهو الوالى العثمانى الذى لقى حتفه فى مطلع سنة ١٨٠٤ فى القرين بصحراء الشرقية على يد الأمراء المماليك ، كما ترجم لبعض أعضاء البعثات العلمية الذين أوفدتهم الحكومة المصرية إلى أوربا فى القرن التاسع عشر . ويغلب على هذا الجزء — الحادى عشر — فى مجموعة طابع التراجم . وذكر الزوايا المنتشرة فى أنحاء البلاد المصرية . وقد تضمن هذا الجزء ذكر البلاد التى تبدأ أسماؤها بحروف الدال والذال والراء المهملة والزاى المعجمة .

* * *

وجاء الجزء الثانى عشر على غرار الأجزاء السابقة حافلا بالبحوث فى شتى الموضوعات فخاض بحثاً ضافياً عن الرزق الإحباسية ونشأتها وتطورها فى مصر الإسلامية ، وأورد نصاً حرفياً لعهد أخذ على نصارى العرب من أهل نجران فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وعدة عهود أخرى أخذها عمر بن الخطاب على نصارى الشام . وتكلم عن وضع الكنائس فى ظل الإسلام مستشهداً بأحاديث نبوية وأقوال منسوبة إلى عمر ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وما رواه الحسن البصرى ، ثم تكلم عن الجزية المقررة على الذميين وفئاتها وجواز رفع نسب هذه الفئات على ذوى الدخول الكبيرة . واستعرض حوادث الزلازل العنيفة التى تعرضت لها القاهرة فى القرنين السابع والثامن الهجريين ، ووصف خروج السلطان أيام دولة المماليك إلى الصيد فى سرياقوس أو شبرا ، ووصف ركوب السلطان من القلعة فى الأعياد . وتكلم عن تحنيط الجثث عند قدماء المصريين وأطلق على هذه العملية تصبير الموتى . وشرح عاداتهم فى الجنازات وتكلم عن قصر أنس الوجود . وفى هذا الجزء شرح كيفية عمل السمك المقدد المعروف فى الصعيد باسم الملوحة . وأرجع سبب انتشاره إلى أن سكان البلاد التى يكثر فيها قصب السكر يستطيبون أكل السمك المقدد ، وذكر أسماء الأراضى الزراعية فى مصر تبعاً لنوعها وجودة الزراعة بها وسهولة ريها وما إلى ذلك ، وهى أسماء تبدو غريبة بالنسبة للقارى غير المتخصص فى الشئون الزراعية ، وحسبنا أن نذكر هنا من هذه الأنواع على سبيل المثال : البروبية ،

الشهامة ، الشتونية ، شق الشمس ، نقاء ، وسخ مزدرع ، وسخ غالب ، مستبحر ، خرس ، إلى غير ذلك من الأسماء . والمهم أنه يعطى مواصفات لكل نوع من هذه الأراضى وأنواع الزراعات التى تجود فيها وكيفية ريها إلى غير ذلك من تفصيلات فنية . واستعرض أنواع الخضر وفوائدها ، وانتقل إلى الكلام عن بعض أنواع النباتات التى تزرع فى مصر وتستخدم فى علاج بعض الأمراض والحميات مثل النزلات المعوية والشعبية والمغص وآلام الظهر والمفاصل والربو وأمراض القلب والجرب ،وتكلم عن النباتات التى يؤدى تعاطيها إلى زيادة إفراز الكبد، وذكر منافع شجر الحناء ووصف تركيباً من زهرة الحناء تضاف إليها مواد أخرى لتفتيت الحصى فى الكليتين ، وعلاج الطحال وإدرار البول . وتكلم عن منافع الكزبرة وشرح أنواع المشروبات التى تصنع من البلح أو الذرة أو الزنجبيل وكيفية إعدادها للشرب ثم تكلم عن شراب البوزة والدكاوى وغيرهما من المشروبات . ومن أهم المدن التى تعرض لها على مبارك فى هذا الجزء مدينة السويس وقد شرح معالمها ، فتكلم عن شوارعها وأسواقها ومساجدها وزواياها ووكائلها والشركات القائمة بها والنشاط التجارى والاقتصادى بها وحركة الملاحة فى مينائها وبيان البضائع الأجنبية الواردة إليها بحراً وحوض إصلاح السفن والمنائر وما إلى ذلك من منشآت بحرية فى ميناء السويس . وتكلم عن تاريخ المدينة على عهد الحملة الفرنسية وقدوم الجنرال بونابرت إليها، وهو يطلق عليه بانوبرتو ، وانتقل إلى النشاط الذى دب فى المدينة وفى مينائها إبان الحروب الوهابية وإبحار الحملات العسكرية التى قامت تباعاً من ميناء السويس إلى ينبع وجدة وتكلم عن المذهب الوهابى والحركة التى قادها محمد بن عبد الوهاب . وانتقل إلى تنظيم الطريق البرى Overland Route من القاهرة إلى السويس عبر الصحراء على عهد محمد على ، وتحسين الخدمة فى هذا الطريق على عهد عباس الأول ثم مد الخط الحديدى من العاصمة إلى السويس وتكلم أيضاً عن المنطقة المحيطة بمدينة السويس وأشار إلى منطقة عيون موسى وغيرها . ومن المدن الأخرى التى ورد ذكرها فى هذا الجزء أسيوط ، سمنود ، سمالوط ، السنبلاوين ، سوهاج ، شبراخيت ، شربين ، الشهداء ، شبين الكوم ، شبين القناطر وتكلم عن واحة سيوة وعادات أهلها . وذكر ثلاثة وأربعين بلداً يبدأ كل منها بكلمة شبرا مثل شبراخيت وشبرا الخيمة وشبرا النملة . ويتميز هذا الجزء من الخطط التوفيقية بأنه يحوى شرحاً لعدد وفير من المصطلحات التى شاع استعمالها فى مصر فى عصر دولتى المماليك والحكم العثمانى وبخاصة فى الجيش والإدارة وأنظمة الحكم والألعاب والصناعات اليدوية الدقيقة ونذكر منها على سبيل المثال : الكراتة ، شبابه ، طبردارية ، النمشة ، الخاصكى ، الجمقدار ، الكفت ، الأكفات ، التزميك ، الشربوش ، الهناب ، حامل المزرة ، اليسق ، كتّاب الدرج ، كتّاب الاست ، الطشتخاناه ، الركابخانه ، الحوائجخانة . وتضمن هذا الجزء أيضاً تراجم لشخصيات كثيرة حسبنا أن نذكر منها هنا : الجاحظ وابن الأثير ومعروف الكرخى وشمس الدين السخاوى المؤرخ وجلال الدين السيوطى والعارف السوهاجى وزكريا الأنصارى وأبو بكر الماردانى أحد كبار رجال الدولة الطولونية، وقد حبس على الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة أوقافاً وضياعاً كان من بينها أسيوط ، وكان يصل إيراد هذه الأوقاف إلى مائة ألف دينار فى السنة . كما ترجم لنابليون بونابرت ترجمة ضافية منذ مولده حتى وفاته فى منفاه ثم إحضار « رمته » أى جثته إلى فرنسا لدفنها فى باريس على عهد

الملك لوى فيليب وترجم أيضاً لعالم فرنسى هو لارشيه Larcher (١٧٢٦ - ١٨١٢) الذى ترجم كتاب هيرودوت وعلق عليه ، كما ترجم للمؤرخ مانيتون . وقد تناول هذا الجزء البلاد التى تبدأ أسماؤها بحرف السين وحرف الشين المعجمة .

* * *

واحتوى الجزء الثالث عشر موضوعات شتى فى التاريخ القديم والوسيط والحديث فمن موضوعات التاريخ القديم تعرضه لمدينتى صا الحجر وصان الحجر فقد استعرض تاريخهما فى العصور القديمة . كما تكلم عن مدينة طينة أو بيلوز Péluse وهى فى موقع بورسعيد الحالية والدور الذى لعبته هذه المدينة فى التاريخ القديم . على أن أهم ما جاء فى هذا الجزء خاصاً بالتاريخ القديم كان بلا شك مدينة طيبة - الأقصر الحالية - ويسميها المؤلف طيوه ، فقد أفاض فى شرح آثارها سواء معبد الكرنك أو آثار البر الغربى مثل مدينة هابو - ويسميها آبو - والرمسيوم والقرنة وسائر الآثار التى حفل بها وادى الملوك . أما الموضوعات التى تعرض لها فى التاريخ الوسيط فكان نظام البريد فى الدولة الإسلامية عامة وفى مصر خاصة ، وتولى شجر الدر حكم مصر . وشرح الموجات البشرية من التتار الذين زحفوا على الشرق العربى وسقوط بغداد فى أيديهم وانتقل إلى الكلام عن مدينة بغداد وتاريخها ، وتكلم عن الهدايا التى كان يتبادلها حكام البلاد الإفريقية فيما بينهم ، ووصف صحراء عيذاب والطريق الذى يمر عبر الصحراء من قفط إلى ميناء عيذاب الواقع على البحر الأحمر وأسماء المحطات الواقعة على هذا الطريق . وتكلم عن معدن الزمرد ومواطن استخراجه فى الصعيد الأعلى ابتداء من قفط بمديرية قنا حتى أسوان وشرح خواص هذا المعدن واختلاف لونه حسب فصول السنة وحالة الطقس ، وقال إنه يزداد توهجاً فى ضوء القمر حتى يكتمل بدرا . ثم انتقل إلى الزبرجد وأنواعه وخواصه . ومن المصطلحات التى شرحها فى هذا الجزء : الشاليس ، اليزكية ، الكراع ، استادار ، الاقامات بمعنى الميرة . ومن المدن التى جاء ذكرها فى هذا الجزء طنطا ، طهطا ، طلخا ، طما ، طوخ . وترجم لعدة شخصيات منها السيد أحمد البدوى ورفاعة رافع الطهطاوى وعبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر فى نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر . وقد شمل هذا الجزء البلاد التى تبدأ أسماؤها بأحرف الصاد المهملة والضاد المعجمة والطاء المهملة والظاء المعجمة .

* * *

وحفل الجزء الرابع عشر بعدة بحوث ووثائق تاريخية فتكلم ، وهو يذكر أسماء البلاد المصرية ، عن عجرود . وكانت إحدى محطات قافلة الحج المصرية ، وهى على بعد عشرين كيلو متراً غرب مدينة السويس ، وتقع حالياً على الخط الحديدى الصحراوى الذى يصل بين القاهرة والسويس وتقف عندها القطارات الحديدية التى تسير على هذا الخط . وكأن هذه المحطة كانت نقطة انطلاق فكرى لعلى مبارك فأخذ يذكر معلومات ضافية وطريفة عن الطريق التى كانت تسلكها قافلة الحج مارة بعجرود والمدن والدروب والمسالك والمغارات وآبار الماء والخانات والدور الواقعة على طريق الحج فى كل من مصر وشبه الجزيرة العربية حتى المدينة المنورة ومكة المكرمة ، ويصف مهام أمير الحج والترتيب الذى يوضع للحجاج فى ظعنهم وإقامتهم والأخطار التى يتعرضون لها فى الطريق من هجوم العربان عليهم وذكر أسماء القبائل والمناطق التى تسيطر عليها هذه القبائل . وتكلم عن وصول حجاج مصر والشام إلى رابغ حيث يبدأ الإحرام . وانتقل إلى عيذاب كميناء تقصده

السفن القادمة من الهند واليمن، وكمركز يباع فيه اللؤلؤ الذى يستخرج من الجزر القريبة من الميناء ، وكطريق يسلكه بعض الحجاج فى الوجه القبلى إلى الحجاز . ويذكر معلومات طريفة للغاية عن منطقة عيذاب وعادات سكانها والمتاعب التى يلقاها الحجيج القادمون من قوص إلى عيذاب فى طريقهم إلى جدة وكيف كان يتحكم سكانها فيهم ويشحنون بهم المراكب ويطلقون عليها الجلاب (جمع جلبة) فيجلس الحجاج وكأن السفن أقفاص مليئة بالدجاج حتى يستوفى صاحب الجلبة ثمنها من رحلة واحدة وهو لا يبالى بالأخطار التى تتعرض لها الجلبة وهى تجتاز البحر الأحمر . وانتهز المؤلف فرصة كلامه عن عيذاب فربط بين هذا الميناء وبين رحلة ابن بطوطة من إدفو إلى عيذاب وكيف تعذر عليه مواصلة رحلته إلى جدة فعاد من عيذاب إلى قوص ومنها صعد فى النيل إلى القاهرة ثم واصل سفره إلى الشام ماراً ببلبيس والصالحية والعريش ورفح، وتكلم عن القدس ومدن الرملة وطبرية وبيروت ودمشق وقبور الأنبياء الصالحين فى بعض هذه المدن الشامية مثل قبور إبراهيم واسحق ويعقوب وزوجاتهم ويونس وصالح وشعيب وسليمان وخالد بن الوليد وأبى عبيده الجراح وعمر بن عبد العزيز وبلال مؤذن الرسول عليه السلام ، ثم انتقل إلى العراق فذكر أن قبر على فى مدينة مشهد على من بلاد العراق ، وأن أهل هذه المدينة كلهم رافضة أى شيعة ويحكمها نقيب الأشراف دون سواه ووصف المقبرة. ثم تكلم عن قرية أم عبيدة فى العراق حيث دفن بها أحمد الرفاعى ، وانتقل إلى مسجد على بن أبى طالب فى مدينة البصرة ومشهد الإمام الحسين بمدينة كربلاء ، وقبرى الإمام أبى حنيفة والإمام أحمد بن حنبل فى بغداد . وتضمن هذا الجزء أيضاً بحثاً عن العلاقات التجارية والسياسية والحربية فى العصور الوسطى بين مصر وبين بعض الدول الأوربية مثل فرنسا والبندقية وجنوه وفلورنسه وغيرها من دول وإمارات حوض البحر المتوسط. وتكلم فى موضوع تعيين قناصل لبعض هذه الدول فى مصر منذ أيام الدولة الأيوبية ودولتى المماليك البحرية والبرجية وتتبع نشاطهم ومقار عملهم ومدى نجاحهم أو فشلهم فى رعاية مصالح بلادهم ، ثم انتقل إلى موضوع المحاولات التى بذلت لإيصال البحرين المتوسط والأحمر قبل شق قناة السويس . كما تضمن هذا الجزء بحثاً عن ترعة الفرعونية شرح فيه الأخطار التى كانت تتعرض لها أراضى الوجه البحرى من مياه هذه الترعة وما كان يتهددها من الغرق ، وتابع الجهود التى بذلتها السلطات الحكومية للمحافظة على جسور هذه الترعة منذ أواخر عصر المماليك فى سنة ١٢٠٧ هـ (١٧٩٢) وإبان الاحتلال الفرنسى وأوائل حكم محمد على حتى سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١) م . وانتقل إلى مذبحة المماليك بالقلعة ويسميها على مبارك « وقعة المماليك بقلعة الجبل بمصر » ويعلق عليها بقوله « وكان موتهم رحمة للعباد وعمارة للبلاد وأمنت بعدهم السبل براً وبحراً . » ومن الأبحاث التى تضمنها هذا الجزء تدابير الحكومة المصرية فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى للحد من استهلاك الأقمشة المستوردة من جمهورية البندقية ، إذ كانت سيدات مصر يغالين فى تفصيل ملابسهن منها، وكانت مودة ذلك الوقت تفصيل ملابس فضفاضة واسعة للغاية الأمر الذى أدى إلى استهلاك كميات كبيرة من الأقمشة الأوربية الفاخرة، فحصل « التنبيه » فى الشوارع بالكف عن ذلك ، وفى أكتوبر ١٣٩٠ نزل رجال الحكومة إلى أسواق القاهرة وشوارعها وقطعوا أكمام الملابس الواسعة التى كان النساء يرتدينها . وانتقل المؤلف إلى بحث فى التاريخ القديم عن منطقة العرابة المدفونة

ويسميها « العربات المدفونة » فى أبيدوس على مقربة من البلينا بمحافظة سوهاج ، فشرح آثار هذه المنطقة وأسماء الشمس المقدسة عند قدماء المصرين وغيرهم من شعوب الشرق القديم . ومن الوثائق التى نشرها على مبارك فى هذا الجزء نذكر ثلاثاً : هدنة عقدت بين حكومة جنوة ودولة المماليك البحرية على عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون وابنه الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون ، ووثيقة ثانية تاريخها ٤٢٢ ﻫ باسم « دستور يتضمن العامر والغامر من أرض الفيوم » « تشمل بياناً عن شبكة الترع التى كانت منتشرة فى إقليم الفيوم وقتذاك . أما الوثيقة الثالثة فمنشور أذاعه غازان ملك التتار على سكان مدينة دمشق بعد معركة مجمع المروج سنة ١٢٩٨ أعلن فيه لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وندد بسياسة دولة المماليك ، وكان سلطانها وقتذاك هو الناصر محمد بن قلاوون . وشرح على مبارك على عادته بعضاً من المصطلحات التى كانت ذائعة فى العصور الإسلامية ونذكر منها على سبيل المثال : الحراوة ، الندب ، التنبول ، الطرائد ، الشوانى ، الحراقات ، بطس ، العشاريات ، بيكار ، بياكير . ومن المدن أو البلاد التى كتب عن تاريخها فى هذا الجزء : العريش ، العسيرات ، العطف ، فارسكور ، فاقوس ، فرشوط ، الفرما ، الفشن ، الشيخ فضل ، فوه ، الفيوم القصير ، قفط ، القلزم ، قليوب ، قنا ، قوص ، القوصية ، قويسنا . وفى هذا الجزء تراجم لشخصيات عديدة نذكر منها : ابن خلدون وابن بطوطة وعبد الوهاب الشعرانى إمام المتصوفة فى مصر فى القرن العاشر الهجرى وبعض أفراد أسرته والإمام الليث ابن سعد وابنه الإمام شعيب والبهاء زهير والشيخ حسن العدوى وأبو الحسن الشاذلى والكندى وعبد الرحيم القنائى والشيخ سليمان الفيومى . وترجم أيضاً لعدد وافر من علماء فرشوط والفيوم وفارسكور وقنا غير ما سبق ذكرهم . وقد غطى هذا الجزء البلاد التى تبدأ أسماؤها بحروف العين المهملة ثم العين المعجمة والفاء والقاف .

* * *

واستهل على مبارك الجزء الخامس عشر بالكلام عن مدينة كانوب ، وتقع مكان ضاحية أبى قير الحالية ، واستعرض تاريخها زمن الفراعنة وفى العصرين البطلمى والرومانى ومعابدها وبخاصة معبد سيرابيس الذى كان يقصده المصريون طوال العام لا للتبرك والزيارة فحسب ، بل لما كانت تتخلل الحياة فى كانوب من مجون وفسق بسبب كثرة النساء العاهرات وأماكن المجون واللهو غير البرىء ، وخلص على مبارك من ذلك إلى القول بأن كهنة معبد سيرابيس كانوا أغنى رجال الدين فى مصر قاطبة . ووقف المؤلف وقفة طويلة للغاية عند ذكر بلدة المطرية من ضواحى القاهرة وأثبت أن المطرية ليست عين شمس وإنما هى على مقربة منها ، وتكلم عن مسلاتها العديدة التى نقلت منها إلى رومه إبان الحكم الرومانى ، ثم انتقل إلى هيا كلها قبل دخول المسيحية إلى مصر وأخذ يستعرض تاريخها عبر العصور وتتبع رحلة السيدة مريم وابنها عيسى عليه السلام ومعهما يوسف النجار من بيت المقدس إلى مصر وتجوالهم فى مختلف البلاد المصرية وإقامتهم فى المطرية . وتكلم عن الأحداث التاريخية الهامة التى وقعت فى منطقة المطرية إبان الحكم الإسلامى حتى وصل إلى معركة الريدانية التى لقى فيها السلطان طومانباى آخر سلاطين دولة المماليك الهزيمة على يد السلطان العثمانى سليم الأول ، وشرح الأيام العصيبة التى سبقت ولحقت هذه المعركة ، وإقامة السلطان سليم فى مصر ثمانية أشهر ثم رحيله إلى الآستانة والقرارات التى اتخذها عند رحيله ،

ونشر القصيدة المشهورة التى نظمها ابن اياس يرثى فيها حالة مصر بعد أن ضاع استقلالها وأضحت ولاية عثمانية واحتل أرضها جنود عثمانيون حليقو الذقون يضعون على رءوسهم الطراطير ، ووصفهم بأنهم ليسوا على حظ موفور من الشجاعة لأنهم يعتمدون فى الحرب على سلاح المدفعية ، وسجل فى هذه القصيدة أعمال التخريب التى ارتكبها العثمانيون فى أحياء القاهرة ومساجدها وتكدس جثث الموتى فى الشوارع كأنها ذبائح عيد الأضحى . وانتقل على مبارك إلى الكلام عن موقعة عين شمس بين الفرنسيين والعثمانيين وهزيمة الأخيرين (٢٠ مارس ١٨٠٠) وأفاض فى الكلام عن ثورة القاهرة الثانية وهى الثورة العارمة التى قام بها الشعب ضد الفرنسيين واستطالت ثلاثة وثلاثين يوماً وذكر مراحل هذه الثورة ودور الزعماء والشعب فيها وقد استمد من الجبرتى المادة التاريخية عنها كما نقل عنه عدة حوادث تمثل المقاومة الشعبية فى العصر العثمانى وأوائل حكم محمد على ، وكان بعضها لعلماء الأزهر وقد وقفوا من الأمراء المماليك فى كل حادث وقفة تنم عن الإباء والعزة والكرامة . ونقل عن الجبرتى أيضاً قصة وقعت فى ربيع آخر ١٢٣٥ (١٧ يناير ١٨٢٠ — ١٤ فبراير ١٨٢٠) وهى تشبه فى معظم عناصرها إلى حد بعيد حادث دنشواى (١٩٠٦) مع اختلاف النتائج فى كل منها بطبيعة الحال (١) . وتكلم عن المحاولة التى قامت بها الحكومة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر لاستيراد أنواع معينة من الأغنام من أوربا وتربيتها فى مصر بغية استغلال أصوافها وشرح بالتفصيل المراحل التى مرت بها هذه العملية واجراءات الحكومة لتنظيمها . ومن الأبحاث التى جاءت فى هذا الجزء الحملة العسكرية التى أرسلها السلطان العثمانى إلى مصر بقياة حسن باشا الجزائرلى سنة ١٧٨٦ لكسر شوكة المماليك واسترجاع نفوذ الدولة فى مصر ، ونشر صورة الفرمان الذى أرسله حسن باشا إلى أولاد حبيب بناحية دجوة . ومن المصطلحات التى شرحها على مبارك فى هذا الجزء : الإخراق ، البرك ، المشاعلية ، نيدة البوش ، النيدة المعقودة ، الحبيص ، شجر البلسان والبسام ، عازق ، بيورلضى ، بيورلضيات ، وأنواع الأعلام الحربية مثل الشطفة ، والعصابة والصنجق . ومن المدن التى تكلم عنها كفر الزيات ، كفر الشيخ ، اللاهون ، المحلة الكبرى ، محلة روح ، المراغا ، مرصفا ، مغاغة ، ملوى ، مليج ، المنصورة ، منفلوط . وبالنسبة للمنصورة فقد أفاض فى الكلام عن النهضة الصناعية التى شهدتها هذه المدينة فى القرن التاسع عشر . أما منفلوط فقد أبرز معنى خاصا بها هو أنها كانت مسرحاً لحوادث القتل والشغب التى كان يلجأ إليها الأمراء المماليك فى أواخر القرن الثامن عشر تحدياً لحكومة القاهرة واستخفافاً بالباشا العثمانى .

---

(١) قدم رجل انجليزى من الإسكندرية إلى قرية كفر حشاد بمركز تلا بمديرية المنوفية ليصطاد بها الحمام وصوب بندقيته نحو حمامة ولكن أصابت الطلقة أحد الفلاحين فى ساقه . ورأى أحد الألبانيين هذا الحادث ، وكان يمسك بيده هراوة غليظة فقال للإنجليزى : ألا تخشى أن يأتى إليك بعض الفلاحين ويضربوك على رأسك هكذا ؟ وأشار بما فى يده إلى رأس الإنجليزى ، إذ كان الألبانى لا يتكلم الإنجليزية . فما كان من الإنجليزى إلا أن ضرب الألبانى برصاصة صرعته فى الحال . فاجتمع الفلاحون وقبضوا على الإنجليزى وسافروا به ومعهم القتيل إلى القاهرة وقابلوا وكيل محمد على واجتمع الألبانيون وأصروا على قتل الإنجليزى ، وخشى الوكيل عاقبة هذا التصرف ، واقترح التريث حتى يستدعى القناصل ويعرض عليهم المسألة . ولكن استنكر الألبانيون تأخير قتل الإنجليزى وتعليق قتله على رأى القناصل ، وطالبوا بقتله فوراً وتهددوا بنزولهم إلى حى الافرنج ونهب المساكن وقتل جميع من بها من الأجانب فلم يسع الوكيل إلا أن أمر بقتله فنزلوا به إلى الرميلة وقطعوا رأسه .

وقد ذكر فى هذا الجزء احدى عشرة قرية تتكون أسماؤها من كلمات مركبة تبدأ الكلمة الأولى فى كل منها باسم معصرة مثل معصرة اطفيح ومعصرة سمالوط ومعصرة عرفة وكلها عبارة عن قرى . كما ذكر اثنتين وثلاثين بلدة تبدأ أسماؤها المركبة بكلمة محلة مثل محلة روح ومحلة المرحوم . وحفل هذا الجزء بتراجم لعدد كبير من الشخصيات نذكر منها المسعودى المؤرخ العربى ، وابن الحباب وابن زولاق وعبد اللطيف البغدادى والشريف الرضى وعثمان بك البرديسى والشيخ محمد الدواخلى نقيب الأشراف ، والشيخ محمد الشناوى من كبار المتصوفة ، والشيخ صادومه وهو أزهرى فاسق ماجن ، وحمدان ابن الأشعث مؤسس فرقة القرامطة ، والشريف الرضى وأخيه المرتضى ، والشيخ محمد القاضى المعروف بابن فخر القضاة المنفلوطى . وترجم أيضاً لطبيبين عربيين برعا فى الطب هما أبو بكر حامد بن سمجون وأبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة . كما ترجم لعدد وافر من علماء كل من المحلة الكبرى ومرصفا والمنصورة والمنزلة . وتضمن هذا الجزء البلاد التى تبدأ أسماؤها بحرف الكاف ثم اللام ثم الميم .

★ ★ ★

واستهل على مبارك الجزء السادس عشر بالكلام عن مدينة منف فشرح موقعها الجغرافى وتاريخها ومعبدها ومقياس النيل الذى كان قائماً فى منطقتها وتكلم عن عبادة أبيس عند قدماء المصريين وخاض بحثاً ضافياً عن أهرام مصر وعددها وأسماء بناتها وتاريخ إقامتها والأدوات التى استخدمت فى بنائها وكيف تم تشييدها والأغراض التى استهدفها الفراعنة منها ثم المحاولات التى قام بها فريق من الملوك والحكام الأقدمين لدخول هرم الجيزة الأكبر بإحداث فجوة فيه . وتعرض للثلمة التى فتحها المأمون الخليفة العباسى فى الهرم أثناء زيارته لمصر ومحاولة أحمد بن طولون فتح الهرم .

وانتقل من الكلام عن أهرام الجيزة إلى تمثال أبى الهول ويطلق على مبارك عليه «الصنم» ويلاحظ أنه استعمل نفس التسمية التى أطلقها المقريزى فى خططه على «الصنم» (١) . ومن الموضوعات التى طرقها المؤلف حمام الرسائل التى كانت تبعث به السلطات الحكومية فى مصر فى القرن السابع الهجرى حاملة رسائل السلاطين وكبار رجال الدولة ، وقرر أن ميت عقبة بالجيزة كانت أول مراكز انطلاق الحمام الزاجل وقد بلغ عدده نحو ١٩٠٠ طائر ، ووصف طريقة حمل الرسالة تحت جناح الطائر . ومن الأبحاث الهامة التى وردت فى هذا الجزء نظام القضاء فى مصر إبان الحكم العثمانى ، وإدخال عناصر عثمانية فى القضاء المصرى واستعلاء كبير القضاة العثمانى على القضاة المصريين . كما تكلم المؤلف عن ظاهرة اجتماعية فى العصر العثمانى — أو فى أوائله بتعبير أدق — هى منع النساء من الخروج إلى الأسواق خوفاً من اختلاط الجنود العثمانيين بهن وفقدانهم لياقتهم البدنية . وقد استثنيت من قرار المنع السيدات العجائز كما تقرر عدم السماح للسيدات بركوب الحمير وتقرير عقوبات رادعة على المخالفات لهذا القرار وعلى المكارية الذين يسمحون بركوب السيدات على الحمير . ومن المصطلحات التى تناولها المؤلف بالشرح فى هذا الجزء: الأورجى الأرور . الأشل ، الجريب . ومن المدن التى أرخ لها : منوف والمنيا وميت غمر وسمنود . ويمكن أن يطلق على هذا الجزء بحق الجزء الخاص بالبلاد التى تبدأ بكلمة « منية » فقد ذكر على مبارك مائة وواحداً وأربعين بلداً تبدأ أسماؤها المركبة بهذه الكلمة . ويلاحظ أن عدداً من هذه البلاد احتفظ بهذه اللفظة دون تحوير أو تحريف ولا يزال يبدأ اسمها بها ؛ مثل منية الباسل ومنية الأشراف ومنية شنتنا عياش . وحدث فى أسماء البعض الآخر تحريف

(١) المقريزى : الخطط طبعة الشياح — لبنان ثلاثة مجلدات المجلد الأول الجزء الثانى ص ص ٢١٦ — ٢١٨.

إلى كلمة ميت مثل ميت غمر وميت رهينة وميت عقبة وميت القرشي وميت فارس وميت أبوغالب وميت بره وميت حبيش القبلية وميت حبيش البحرية وميت يزيد ، كما حدث فى أسماء البعض الثالث تحريف إلى كلمة منيا ، مثل منيا القمح وإن كانت تكتب أحياناً باسمها الأصلى منية القمح وأخيراً ، تخلصت تماماً بعض البلاد من لفظة منية مثل سمنود . وقد ترجم المؤلف فى هذا الجزء لعلى بك الكبير وأحمد باشا الوالى العثمانى الذى حاول الاستقلال بمصر سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٤) م ، والشيخ أحمد العروسى شيخ الجامع الأزهر ، وعبد الوهاب العفيفى ، وعقبة بن عامر ، وأحمد بن قاسم شيخ عرب الوجه البحرى ، وابن سندر وقصته مع عمر بن الخطاب . ولم يشمل هذا الجزء سوى أسماء البلاد التى تبدأ أسماؤها بحرف الميم .

★ ★ ★

وفى الجزء السابع عشر من الخطط التوفيقية تكلم عن الواحات المصرية فى غرب النيل وعددها وأسمائها والبلاد والقرى التابعة لكل منها وما يتصل بتاريخها من أحداث وأساطير وطرق المواصلات بينها وبين وادى النيل ومواردها الاقتصادية وعادات سكانها والامتيازات المقررة لهم كإعفائهم من السخرة والتجنيد وشرح واجباتهم إزاء الحكومة وتتلخص فى تقديم الإبل عند الحاجةوحراسة الدروب ، واستطرد إلى الكلام عن معدن أو حجر الشب ومواطن استخراجه فى مصر وفوائده والرسوم المقررة عليه أيام دولة المماليك وطرق تصديره . وتكلم عن القبائل العربية النازلة بين الواحات ووادى النيل وتحديد منطقة كل منها ، وقد قرن المادة العلمية عن الواحات بمعلومات طريفة للغاية عن بعض بلاد الواحات ، ووصف الرحلة من الفسطاط الى الواحة الخارجة ثم إلى دارفور ، وقد استقى على مبارك هذه المعلومات من رحلة قام بها الشيخ محمد بن عمر التونسى وسجل أحداثها فى كتاب وضعه باسم « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » . وانتقل على مبارك إلى وصف الآثار والقرى الواقعة فى المنطقة الممتدة من أسوان إلى وادى حلفا وتعرض لمعبدى كلبشة وأبى سمبل ثم تتبع الطريق من وادى حلفا إلى دارفور والمدن التى تقع على هذا الطريق والبعثة التى أوفدتها الحكومة المصرية فى سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦) م من المهندسين والأطباء والعسكريين لاستكشاف أقرب طريق إلى تلك الجهة تمهيدا لإنشاء ما يلزم فيها من محطات ، وتكلم عن التكوين الانثوجرافى لسكان بلاد النوبة وعادات العرب الذين يسافرون فى القوافل التى كانت تسير بين شطرى الوادى ، وتكلم عن بعض الأديرة وانتقل منها الى غزو الفرس لمصر ثم الى صناعة النطرون ومواطن استخراجه فى مصر ، واعتمد فى ذكر المادة العلمية على ماكتبه علماء الحملة الفرنسية فى مصر عن وادى النطرون وصناعته والطريق من وادى النطرون إلى الطرانة . وتكلم عن مشروعات ايصال نهر النيل بالبحر الاحمر لايجاد طريق مائى تسير فيه السفن من منف وغيرها من بلاد الصعيد إلى البحر الأحمر مباشرة ، ومن البحوث الطريفة التى جاءت فى هذا الجزء عادة الفراعنة فى ذبح الثيران التى تقدم قرابين لآلهتهم ، وأبرز حرص المصريين على أن يكون الثور خاليا من الشعر الأسود أو الأبيض احتراما للعجل أبيس الذى كان يتميز ببقع سوداء وبيضاء ، وذكر معلومات إجتماعية ودينية طريفة للغاية فى موضوع تقاليد المصريين ازاء الثيران والعجول ، واستطرد إلى براهمة الهنود الذين يمتنعون عن أكل لحم البقر . وفى هذا الجزء نشر المؤلف وثيقة الوقفية التى أوقف فيها السلطان مراد الرابع سنة ١٠٣٦ هـ (١٦٢٦) ،

قرية وراق الحضر شمال انبابة بالجيزة على الحرمين الشريفين . ومن البلاد التى أرخ لها فى هذا الجزء : نبروه وتكلم عن مدرسة الزراعة التى انشئت بها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر كما أرخ لبلاد أخرى منها ههيا ودنقلة والفاشر ودارفور . ومن تراجم الشخصيات : الشيخ محمد النشرتى شيخ الجامع الازهر والشيخ محمد المهدى وبعض ذويه والشيخ حسونة النواوى والشيخ محمد اسماعيل النفراوى والشيخ شهاب الدين احمد عبد الوهاب النويرى مؤلف كتاب نهاية الأرب فى فنون الادب ، وعرض على مبارك عرضا سريعا لأجزاء هذا الكتاب ، كما ترجم لوالد مؤلفه الشيخ تاج الدين النويرى والشيخ محمد عمر التونسى .

وقد أنهى على مبارك عرض البلاد المصرية فى الجزء السابع عشر بقرية اليهودية إحدى قرى مديرية البحيرة وترجم لأحد علمائها وهو الشيخ احمد برغوث بالعبارة التقليدية التى درج عليها الجبرتى وغيره «قدم الأزهر وتفقه على مشايخ العصر ومهر فى المعقول والمنقول وتصدى للتدريس وانتفعت به الطلبة» ثم يختم هذه الخطط عن البلاد المصرية بقوله « اعلم أن الكلام على خطط القاهرة من المهمات التى اعتنى بها أفاضل العلماء والمؤرخين ورؤساؤهم قديما» وقال إن الخطط جمع خطة بمعنى محلة أو بلد لانه يخط عند التحديد . واستعرض مؤلفى كتب الخطط من المؤرخين العرب ، فقال إن أولهم أبو عمر محمد بن يوسف الكندى . وتابع اسماء زملائه الذين كتبوا فى الخطط حتى انتهى إلى المقريزى .

★ ★ ★

وأفرد على مبارك الجزء الثامن عشر من الخطط التوفيقية للحديث عن مقياس النيل منذ عصور الفراعنة حتى القرن التاسع عشر الميلادى . وقد قدم له بالكلام عن أهمية قياس درجة فيضان النيل فى كل سنة ، لأن القياس هو القاعدة فى ربط الضرائب وتوزيعها على البلاد على أساس أن الفلاحين لايستطيعون زراعة الأرض وبالتالى الحصول على الإنتاج الزراعى الا اذا سقيت الأرض بماء النيل . وانتقل إلى المقاييس التى استخدمت أيام قدماء المصريين فى قياس ارتفاع الفيضان ، وكيف كانت آلة القياس تودع فى معبد أطلق عليه اسم سيرابيس أى معبد النيل ، وكان كهنة هذا المعبد هم المخصصون لاستعمال آلة المقياس . وتظهر فى الخطط التوفيقية للمرة الأولى والأخيرة رسوم هى أشكال المقاييس المختلفة وقد نقلها عن الرسوم الموجودة على الآثار المصرية ومما ذكره هيرودوت . ثم تكلم عن المقياس فى مدة حكم الفرس والبطالمة والرومان وانتقل إلى العصر الإسلامى ، وأسهب فى الكلام عن المقياس على عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وعمليات ترميمه أو إعادة بنائه فى عهود الحكم الإسلامى وواصل الحديث عن المقياس زمن الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين والفرنسيين وحكم أسرة محمد على . وتكلم عن جزيرة الروضةومساجدها ودورها ، وكتب فصلا عن جبر البحر وهو فصل ممتع أوضح فيه عناية المصريين البالغة باحتفالات وفاء النيل على مدار العصور ، وأشار إلى العادة التى درج عليها المصريون من إلقاء عروس فى النيل وكيف أبطلها الإسلام عند دخول العرب مصر ثم وصف عيد الشهيد عند المسيحيين فى اليوم الثامن من شهر بشنس القبطى وهو وصف لايخلو من طرافة ، وعاد يصف الاحتفالات بوفاء النيل أيام الفاطميين وتدرج على مر العصور والأحقاب حتى وصل إلى سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٤)م ، وذكر المرتبات التى قررتها الحكومة

المصرية لشيخ المقياس، ثم أورد جدولا سجل فيه الحد الأعلى الذى بلغه منسوب مياه الفيضان ارتفاعا والحد الأدنى هبوطا منذ أن فتح العرب مصر سنة ٢٠ ﻫ حتى عزل الخديو اسماعيل سنة ١٢٩٦ ﻫ (٦٤٠–١٨٧٩)م وقد استغرق هذا الجدول أربعا وسبعين صفحة من الخطط التوفيقية . وختم بحثه عن المقياس بذكر حادثين وقعا سنة ١٨٨٧ كان أولهما العثور فى بئر المقياس على حجر من الرخام من عهد الحملة الفرنسية ومنقوش على أحد وجهيه باللغة الفرنسية «السنة الثامنة عشرة من الجمهورية» وعلى الوجه الآخر باللغة العربية التاريخ الهجرى ١٢١٥ وهو يوافق سنة ١٨٠٠ . أما الحادث الثانى فهو عمل مقياس مترى على حائط الرصيف الشرقى لسراى حسن باشا المانسترلى فى زاوية السلم القريب جدا من المقياس الأصلى . واختتم على مبارك هذا الجزء بعدة بحوث ، نذكر منها : التغيرات التى حدثت فى شاطىء النيل فى منطقة القاهرة إذ كانت هناك مناطق من العاصمة ذكر أسماءها كانت تطل على النيل مباشرة ثم أصبحت بعيدة عنه وخلص من ذلك إلى القول بأن النيل آخذ فى الانتقال نحو الغرب مخلفاً أرضا كانت مغمورة به ، ومن البحوث الأخرى مايتعلق بخليج أمير المؤمنين فقد أتى على تاريخه منذ أيام الفراعنة والفرس والرومان وكيف أعاد عمرو ابن العاص حفر هذه الترعة فى عام الرمادة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب وتكلم عن مسار الترعة من القاهرة حتى مصبها فى البحر الاحمر والقناطر التى انشئت عليها فى منطقة القاهرة . وأخيرا وضع بحثا مستفيضا عن تاريخ قناة السويس وركز اهتمامه على التاريخ الحديث منذ عهد الوالى محمد سعيد باشا وتكلم عن عقدى الامتياز التى ظفر بها دى لسبس والشروع فى حفر القناة سنة ١٨٥٩ ثم استعرض مراحل النزاع بين الحكومة المصرية وشركة القناة وتحكيم نابليون الثالث امبراطور فرنسا ، وأسهب فى وصف حفلات افتتاح القناة وعناية الخديو اسماعيل الفائقة بأوجينى امبراطورة فرنسا . ويستفاد من كتابته عن تاريخ قناة السويس أنه كان ناقما على سياسة التساهل التى درجت عليها الحكومة المصرية إزاء شركة القناة ، كما كان ساخطا على مظاهر البذخ الشديد فى حفلات افتتاح القناة ، وقد قال تعليقا عليها إنها تكلفت أكثر من مليون ونصف مليون جنيه وقرر أن هذا المبلغ يعادل سدس إيراد الحكومة المصرية فى سنة كاملة .

* * *

وأفرد الجزء التاسع عشر من الخطط التوفيقية لترع النيل ورياحاته ومنشآت الرى فى الوجهين البحرى والقبلى . وقد قدم له باعتذار قال فيه إنه سجل فى هذا الجزء ما كان موجودا فى مصر من ترع ومنشآت وقت قيامه بتأليف الخطط التوفيقية سنة ١٢٩٢ ﻫ (١٨٧٥)م ثم استدرك قائلا إنه « لايخفى أنه تجدد بعد ذلك أشياء أخر غير ما ذكر ، وبطلت أشياء ، فسبحان من لايتغير » وقد بدأ بالكلام عن رياح روضة البحرين ، وانتقل الى باقى الرياحات والترع فكان يتكلم عن مسار كل ترعة من مخرجها إلى مصبها أو نقطة تلاشيها ثم طولها وعرضها وارتفاع المياه فيها زمن الفيضان وزمن التحاريق ، وأسماء البلاد والنواحى والكفور والنجوع التى تمر بها والمديريات التى تروى أراضيها ، وعما إذا كانت ترعة نيلية أو صيفية وتاريخ تحويلها إلى صيفية ، وعما إذا كانت قديمة أو مستحدثة وتاريخ إنشائها ، وعدد العمال الذين اشتغلوا فى حفرها ، ومقدار الأنقاض التى تخلفت عن حفرها ، والقناطر المقامة عليها وعدد عيونها وهل هى مبنية بالطوب الأحمر أو بالحجر . ثم لايقصر كلامه على

هذه البيانات أو التفصيلات بل يقرنها بالكلام عن آلات الرى ويسميها «الوابورات» التى أقيمت على كل ترعة وعددها ونوعها سواء كانت آلات ثابتة ويسميها «ثوابت» أومتحركة ويطلق عليها «كوموبيل» وقوة كل منها مقدرة بالحصان وأسماء أصحابها . ويلاحظ من دراسة هذه الأسماء أن غالبية أصحاب الآلات كانوا من الأجانب والمتمصرين واليهود وأفراد أسرة محمد على وأصهارهم وكبار الملاك الزراعيين مثل عائلات ذو الفقار باشا وشريف باشا وراتب باشا والمنشاوى باشا وراغب باشا والشواربى باشا وعباس باشا يكن وأحمد باشا الدرملى والبدراوى عاشور . وتعكس دراسة هذه الأسماء صورة اجتماعية اقتصادية قاتمة هى أن الملكية الزراعية فى مصر منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت مركزة فى يد حفنة من الأجانب والأمراء والباشوات . ومما يلاحظ أن على مبارك كان يطلق على نهر النيل اسم البحر الأعظم وعلى فرع دمياط البحر الأعظم الشرقى وعلى فرع رشيد البحر الأعظم الغربى . وفى تعرضه لترعة الوادى أطلق على شركة قناة السويس عبارة « كبانية الكنال » .

* * *

أما الجزء العشرون فقد خصصه المؤلف للكلام عن العملة وتطورها . فتتبع تاريخ العملة التى كانت متداولة فى مصر منذ الفتح العربى على مر العصور التاريخية ثم انتقل إلى شكل النقود وقطر كل قطعة ذهبية أو فضية مقدرا بالمليمترات ، وعقد فصلا طويلا عن الصور والكتابة التى كانت ترسم وتنقش على النقود الإسلامية وأول من ضرب النقود فى الإسلام ، وكيفية نقش التاريخ على العملة ثم عرج على العادة التى كانت متبعة من نقش الأدعية وأسماء الملوك والولاة وألقابهم ونعوتهم على العملة . والأسماء الدالة على الرتب والوظائف ، وما كان ينقش مع أسماء الخلفاء على النقود من أسماء أبنائهم وأسماء العمال والولاة المستقلين وغير المستقلين . وانتقل المؤلف إلى الأندلس وبلاد افريقيا التى دخلها الإسلام فأفرد فصلا عن النقود التى ضربت فى هذه الأقطار ، كما كتب عدة فصول أخرى تناولت شتى الموضوعات المتصلة بالعملة ، مثل : القيمة الحقيقية للنقود ، حدة النقود وتقييمها ، عيار النقود ، نقود الذهب ، نقود الفضة ، نسب نقود الذهب والفضة بمصر ، ثمن الذهب والفضة فى مصر ، النقود التى كانت متداولة فى مصر عند قدوم الحملة الفرنسية إليها ، مقدار النقود التى ضربت إبان سنوات الاحتلال الفرنسى وما جنته الحكومة من أرباح وقتذاك ، العملة النحاسية ويسميها «فلوس النحاس» وتضمن هذا الجزء عدة جداول إيضاحية هامة ، منها : جدول بأسماء البلاد الإسلامية التى كانت تضرب فيها العملة وقد بلغ عددها ٣٠٧ بلدة فى أوربا وأفريقيا وآسيا وكان بعضها مدنا وبعضها ولايات إسلامية والتزم فى ذكر هذه البلاد ترتيب حروف المعجم . كما وضع المؤلف ثبتا طويلا يتضمن أنواع العملة العربية الفضية والبلاد التى ضربت بها وبيان أوزانها وتواريخها وأسماء الخلفاء الذين ضربت على عهدهم هذه العملات ابتداء من عبد الملك بن مروان . ويقع هذا الثبت فى تسع وستين صفحة . ثم أردف هذا الثبت بجدول تفصيلى عن نقود مصر أوضح فيه اسم العملة ومكان وتاريخ ضربها واسم الخليفة أو السلطان أو الوالى الذى ضربت فى عهده والوزن الرسمى للعملة بالحرام والوزن الجارى والعيار الرسمى والعيار الجارى وسعرها الذى تتداول به إلى غير ذلك من بيانات فنية تفصيلية . وقد استغرق

هذا الجدول عشر صفحات كوامل . واختتم هذا الجزء الأخير من الخطط التوفيقية ببحث رائع ضاف يقع فى خمس وثلاثين صفحة تناول فيه القوة الشرائية للنقود فى مصر عبر اثنى عشر قرنا فى مختلف عهود الحكم الاسلامى من سنة ٨٧ ه حتى ١٢٨٦ (٧٠٦ – ١٨٧٠) م واستعرض فى نظام رتيب فترات الغلاء التى مرت بالبلاد وأزمات التموين فى المواد الغذائية وكيف كان عنف المجاعات عاملا فى دفع الشعب إلى الثورة على الحكام . وكان يعمد إلى الدراسة المقارنة لأسعار مواد التموين فى أوقات الرخاء وفى أوقات الشدة ، وتكلم عن تدفق العملات الاجنبية على مصر فى القرن التاسع عشر والعملات الذهبية والفضية التى ضربت فى حكم إسماعيل وكيف جعل عيار الذهب واحدا وعشرين قيراطا . والحق أن هذا البحث يعتبر من أهم البحوث التى جاءت فى الخطط التوفيقية ويعتبر مسك الختام . وقد اختتم على مبارك الخطط التوفيقية بهذه العبارات التى تنم عن سمات الرجل العالم المتواضع المتدين فقال «وإلى هنا وقف بنا جواد القلم فى مضمار البيان ، وإنا نسأله سبحانه وتعالى أن يجعل سعينا مشكورا ، وعملنا متقبلا مبرورا ، وأن ينفع بهذا الكتاب النفع العميم ، ويجعله سببا للفوز لديه بجنات النعيم . والمرجو ممن اطلع عليه من كل حر حسن خيمه وطاب أديمه أن يسبل على مايعثر عليه من الهفوات جميل الأستار ، فقلما يسلم جواد من عثار ، سيما والإنسان محل الخطأ والنسيان . والحمد لله على التمام ، والصلاة والسلام على من هو للأنبياء والمرسلين ختام ، وعلى آله وصحبه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون » .

مصادر ومراجع الخطط التوفيقية

تقلد على مبارك عديد المناصب الوزارية على عهد الخديو اسماعيل ثم الخديو توفيق فعين ، على فترات متصلة حينا ومتقاربة حينا آخر ومتباعدة حينا ثالثا ، وزيرا للأشغال والأوقاف والمعارف كما تقلد الإدارة العامة لمصلحة السكك الحديدية . ولا شك أنه استفاد من وجوده وزيرا فى هذه الوزارات فرجع الى محفوظات كل وزارة واستقى منها المادة العلمية اللازمة فى إعداد الكثير من الأبحاث التى وردت فى الخطط التوفيقية . وحسبنا أن نذكر هنا على سبيل المثال أن الجزء التاسع عشر يحوى تفصيلات ضافية فنية عن ترع النيل ورياحاته ومنشآت الرى . ولا يستطيع باحث أن يكتب بمثل هذه الإفاضة والدقة والإحصائيات عن شبكة الترع الموجودة فى مصر الا إذا كانت سجلات وزارة الأشغال ميسرة أمامه يستقى منها المادة العلمية . ويكفى أيضا أن نشير إلى أنه ذكر ثلاثة وعشرين فرعا تخرج من ترعة المحمودية وخاض فى تفاصيل فنية هندسية عنها . وقس على ذلك سجلات وزارة الأوقاف حيث توجد الوثائق والحجج التى أوقف فيها حكام مصر وغيرهم من أهل الخير الأراضى الزراعية وغيرها من العقارات على المساجد والزوايا والأسبلة والتكايا والحرمين الشريفين فى مكة والمدينة . كما استمد من سجلات وزارة المعارف المادة الغزيرة عن المدارس وما يتصل بها . واستفاد من وجوده مديرا عاما للسكك الحديدية فرجع إلى الأوراق الرسمية عند كتابته عن الشبكة الحديدية فى مصر . وعلى هذا فإن المصدر الأول للخطط التوفيقية كان الوثائق والأوراق الرسمية الموجودة فى وزارات الأشغال والأوقاف والمعارف ومصلحة السكك الحديدية وغيرها من دواوين الحكومة .

وعلى مبارك يجيد اللغة الفرنسية وقد تعلمها اثناء وجوده فى فرنسا عضوا فى بعثة الأنجال واستغل

معرفته بالفرنسية فى الرجوع الى الموسوعة التى وضعها علماء الحملة الفرنسية عن مصر فى عشرين جزءا باسم «وصف مصر» (١) ويطلق عليها على مبارك حينا «خطط الفرنساوية» (٢) وحينا آخر «خطط مصر للفرنساوية» (٣) وكأنه يريد أن يؤكد إجادته للغة الفرنسية فلا يعتمد على هذه الموسوعة الفرنسية فحسب بل يعتمد على الترجمة الفرنسية التى قام بها المستشرق الفرنسى كاترمير Etienne Quatremère لكتاب المقريزى «السلوك لمعرفة دول الملوك» فكثيرا مايصادف الباحث فى الخطط التوفيقية هذه العبارة «نقله كترمير عن كتاب السلوك» واعتمد ايضا على بحوث المستشرق الفرنسى دى ساسى de Sacy . كما استغل معرفته باللغة الفرنسية فى الرجوع إلى كتب الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر مثل فانسلب Vansleb الذى زار مصر سنة ١٦٧٢ (٤) والرحالة سافارى Savarri ويسميه على مبارك «سوارى السواح الفرنساوى» (٥) واعتمد على رحلة «ولين الفرنساوى» (٦) ورجع الى كتاب كلوت بك ويسميه قولوط بك (٧) ، والى قاموس الجغرافية الافرنجى ومنه استمد المادة العلمية لتراجم الشخصيات الأجنبية التى يتصل نشاطها بتاريخ مصر . وفى كتابة تاريخ مصر القديم رجع الى كتب العلماء الأجانب الذين كتبوا فيه قديما أو حديثا أو قاموا بأعمال البحث والتنقيب فى الآثار المصرية فى القرن التاسع عشر ونذكر من هؤلاء واولئك على سبيل المثال هيرودوت (١) وديودور الصقلى وسترابون (٢) وماريبت (٣) وشانبليون (٤) .

وفى الخطط التوفيقية تبرز سمات مؤلفها فاذا هى صفات الرجل العالم الذى يتميز بالأمانة العلمية وينأى بنفسه عن مواطن أو شبهات السرقة الأدبية بمصطلح الوقت الحاضر الذى نعيش فيه — فهو حريص دائما على أن يذكر اسم المصدر أو المرجع الذى أخذ عنه . وكان يذكر أحيانا اسم الكتاب فقط واحيانا اخرى اسم مؤلفه واحيانا قليلة يجمع بين اسم الكتاب واسم المؤلف واحيانا لايذكر اسم الكتاب كاملا . ومن مظاهر الأمانة العلمية التى تميز بها على مبارك فى الخطط التوفيقية أنه قرر قبل ان يتكلم عن تاريخ الكنائس والأديرة المصرية ويؤرخ للبطاركة الأقباط الارثوذكس منذ سنة ١٢٦٢ م حتى سنة ١٨٧٥ انه اعتمد فى جمع المادة العلمية على «أكابر القسس الشهيرة بمصر» (٥) كما سجل أنه استفاد من الأبحاث التى قام بها العالم المصرى محمود الفلكى عن جدران أسوار الإسكندرية (٦) .

ومن المراجع الرئيسية التى استقت منها الخطط التوفيقية مادتها العلمية مؤلفات المقريزى وهى الخطط ، ودرر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة (ج ٨ ص ١٧) ، والبيان والإعراب فيمن دخل مصر من

---

1) Description de l'Egypte ou Recueil des Observations et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'Expédition de l'Armée francaise publié par les ordres de S.M. L'Empereur Napoléon le Grand. Paris. Imprimerie impériale (1809 — 1822).

(٢) ج ٧ ص ٤٣ .
(٣) ج ٢٠ ص ٤ .
(٤) ج ١٥ ص ٥٠ .
(٥) ج ١١ ص ٧٥ .
(٦) ج ٧ ص ١٦ .
(٧) ج ٧ ص ٥٠ .

---

(١) ج ٩ ص ٦٤ .
(٢) ج ٧ ص ٣٧ ، ج ٩ ص ٦٧ .
(٣) ج ١٤ ص ٣٨ ، ٣٩ .
(٤) ج ٨ ص ٣١ .
(٥) ج ٦ ص ٧٢ .
(٦) ج ٧ ص ٣٥ .

الأعراب (ج ١٢ ص ١٠٥) والترجمة الفرنسية لكتاب السلوك والتى سبقت الإشارة اليها ، وابن اياس فى «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» وكذلك الجبرتى فى «عجائب الآثار» .

ولا نستطيع فى هذا البحث المحدود النطاق ان نستعرض جميع مراجع الخطط التوفيقية ويكفى ان نذكر بعضا منها : ابن جزلة خواص : منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان من الأدوية المفردة والمركبة (ج ٨ ص ٢٠) ، ابن خرداذبه : المسالك والممالك (ج ٩ ص ٧٠) ، ابن العوام : كتاب الزراعة (ج ٩ ص ٨٥) ابن زولاق : سيرة الإمام المعز لدين الله (ج ١٥ ص ٥٦) ، ابن عباد : المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية (ج ١٤ ص ٥٧) وابن بطوطه فى رحلته ، وابن جبير فى رحلته : ذكر مشاهد بعض أصحاب النبى والتابعين بقرافة مصر ، ورحلة النابلسى ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، وابن أبى السرور البكرى : قطف الأزهار من الخطط والآثار ، وابن دقماق ، وابن المتوج ، وابن كثير ، وابن الصباغ : فضائل الأئمة (ج ٥ ص ١٦) وابن الطولونى : النزهة السنية فى اخبار الخلفاء والملوك المصرية ، وابو عبد الله محمد ابن عبد الرحمن القيسى : تحفة الألباب (ج ١٦ ص ٢) وأبو المحاسن : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى (ج ٩ ص ٦٩) وأبو الفداء (ج ١١ ص ٢٢) وابراهيم بن عامر العبيدى : قلائد العقيان فى مفاخر آل عثمان (ج ٦ ص ٣٤ و ج ١٠ ص ١٠٢) والشيخ الصبان : اسعاف الراغبين فى أهل البيت (ج ٥ ص ٦ ، ٢٢) والنجم الغزى : الكواكب السائرة (ج ٥ ص ١٧) والاسحاقى : نزهة الناظرين (ج ٥ ص ١٩) والمحبى : خلاصة الأثر (ج ٦ ص ٣٧) والإدريسى : نزهة المشتاق (ج ٨ ص ٩٥) والنووى : تهذيب الاسماء واللغات (ج ٥ ص ٥٦) والشهاب بن أبى جحلة التلمسانى (ج ٥ ص ٥٦) وشمس الدين السخاوى : الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، وعماد الدين شاهنشاه : تقويم البلدان (ج ١٠ ص ١٦) وعماد الدين الاصفهانى : تاريخ السلجوقية (ج ٩ ص ٣٥) وتاريخ فتح المقدس (ج ١٠ ص ٣٨) وعلى أبى جابر الاتباى : مناهل الصفا باتصال نسب السادات الوفائية بالمصطفى (ج ٣ ص) ومحمد بن عمر التونسى : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان (ج ١٧ ص ٣٣) ومحمد عبد المعطى الاسحاقى : أخبار الدول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول (ج ٤ ص ١١١) وحسن العدوى : مشارق الأنوار (ج ٥ ص ١٠) ولسان الدين بن الخطيب : الاحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة ومؤلفات عبد الوهاب الشعرانى وجلال الدين السيوطى والواقدى ويضاف إلى تلك المراجع كتب : ديوان الانشاء ودرر الفرائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المعظمة (ج ١٤ ص ٨ ، ٥٢ ، ٥٤) وغير ذلك كثير كما رجع إلى كتاب الاحصاءات المصرية لسنة ١٨٧٢ واستقى منه الكثير من معالم تاريخ مصر الحديث . ولا يسع دارس الخطط التوفيقية إلا أن يدرك المجهود الضخم الذى بذله على مبارك فى وضع هذه الموسوعة .

تقييم الخطط التوفيقية :

نهجت الخطط التوفيقية نهجا علميا إذ استقت مادتها العلمية من المصادر والمراجع القديمة والحديثة ، العربية وغير العربية ، ونصت على اسمائها وقد ظهر فيها واضحا أثر الثقافتين العربية والفرنسية اللتين امتاز بهما المؤلف . وفى الخطط التوفيقية محاولة رائدة لإعادة كتابة تاريخ مصر القومى من جديد . والحق أن الخطط التوفيقية قد أضافت إلى تاريخ مصر القومى فى فرعى

التاريخ القديم والحديث مادة علمية جديدة . ففيما يختص بالتاريخ القديم استفاد على مبارك من نتائج الكشوف الأثرية التى أجريت فى مصر فى القرن التاسع عشر وما كتبه العلماء الاوربيون عن التاريخ الفرعونى . وكانت الكتب العربية التى وضعت فى العصر الاسلامى إذا تعرضت لتاريخ مصر القديم بخسته حقه لعدة أسباب منها جهل المؤلفين بحقائقه إذ كانوا لايعرفون عنه إلا خليطا من الأوهام، ولأن العصور القديمة والموغلة فى القدم كانت لاتمثل فى أذهان المؤرخين المسلمين سوى الوثنية القائمة على عبادة الأصنام وأن فراعنة مصر لم يكونوا حكاما مثاليين . يقول على مبارك عن التطور الذى طرأ على الدراسات التاريخية لمصر الفرعونية « إن أكثر الآثار القديمة كالأهرام والبرابى وغيرها مما بقى من أعمال الأمم الماضية والقرون الخالية لم يكن الغرض من ذكرها إلا كونها من عجائب الدنيا . ومعلوم أن الكتابة الطيرية المعروفة بالهيروجليفية لم تنكشف حقيقتها إلا فى هذا القرن ، فقد وقف الأفرنج على حقائقها من الكتابات الباقية على جدران الآثار المصرية والمبانى الفرعونية ، وأخذوا مجدين اليوم فى توسيع دائرة علمها ، فالتزمت أن أطالع ما كتب بخصوص تلك الآثار وألخص مافيه الفائدة من غير إطالة ولا إكثار » (١) وهكذا حملت الخطط التوفيقية إلى قراء العربية معلومات صحيحة وجديدة عن تاريخ مصر القديم .

أما فيما يختص بتاريخ مصر الحديث فقد جاءت الخطط التوفيقية سجلا حافلا لمظاهر الحضارة التى أدخلت فى مصر فى القرن التاسع عشر مثل التوسع الزراعى ومحاولة إدخال الصناعات الكبيرة فى البلاد وإنشاء القوات المسلحة البرية والبحرية والشبكة الحديدية وأسلاك البرق التى مدت فى طول البلاد وعرضها والمنائر التى أقيمت على الشواطىء المصرية لهداية السفن وإنشاء الحوض العائم فى ميناء الاسكندرية ومشروع الطريق البرى ثم انشاء قناة السويس إلى غير ذلك من مظاهر استعرضنا طرفا منها من قبل . وقد شارك على مبارك فى تنفيذ بعض هذه المشروعات أو عاصرها أو كان قريب العهد بها فكتابته عنها لها قيمتها ولها وزنها . ثم هو يضيف إلى التاريخ الحديث تراجم للشخصيات المصرية . ويمكن أن نقسم هذه الشخصيات إلى فريقين : فريق عاش فى الفترة من وفاة المقريزى سنة ١٤٤٢ حتى أوائل حكم محمد على . وقد استقى تاريخ حياتهم من ابن اياس وابن زنبل والجبرتى وغيرهم . أما الفريق الثانى فقد عاشوا فى القرن التاسع عشر وتقلدوا المناصب القيادية فى الحكومة . وكانت الخطط التوفيقية أول من ترجمت لهم لأنهم كانوا رفاق المؤلف فى الدراسة فى مصر أو فى فرنسا أو فى زمالة العمل الحكومى . وكانت ترجمته لهم فى ضوء معلوماته عنهم واتصاله بهم . وكان إذا أعوزته المادة التاريخية الكافية لوضع ترجمة أحدهم فإنه كان يطلب منه أن يكتب له ترجمة حياته بنفسه .

والخطط التوفيقية فى تعرضها لتاريخ مصر القومى لم تقتصر على الجانب الاسلامى فقط ، بل شملت الجانب القبطى أيضا فأرخت للكنيسة القبطية الأرثوذكسية ولبطاركة الكرازة المرقسية وترجمت لكبار الأقباط وأعيانهم . وحرصت على ذكر الكنائس والأديرة القائمة فى مصر . وبجانب اهتمام الخطط التوفيقية بتاريخ مصر القومى فقد عنيت بالتاريخ الإسلامى العام .

لقد كانت الخطط التوفيقية من العوامل التى أسهمت فى نشر الوعى التاريخى فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وساعدت على إيجاد الحاسة التاريخية

(١) ج ١ ص ٣ .

لدى المثقفين ودفعتهم إلى العناية بالتاريخ كعلم بوجه عام وتاريخ مصر فى عصورها المختلفة بوجه خاص . وتأسيسا على ماسبق نستطيع أن نقرر أن هذه الموسوعة قد ساعدت على تغذية الروح القومية وأدرك الشعب أن الحضارة المصرية هى أم الحضارات وأن له أمجادا يزهو بها فى ميادين العلم والهندسة والفن والثقافة . والجديد فى الخطط التوفيقية هو روح الفحص والنقد والمناقشة عند كتابة تاريخ مصر القومى . ويكفى أن نشير هنا الى موقفين على سبيل المثال . فقد نعت الخطط التوفيقية على الحكومة المصرية تساهلها إزاء شركة قناة السويس حتى ظفرت بامتيازات مجحفة بحقوق البلاد ، كما أنها انتقدت التبذير الشديد فى حفلات افتتاح القناة حتى بلغت نفقات الاحتفال سدس إيراد الحكومة المصرية فىالسنة . أما الموقف الثانى فقد ناقشت الخطط التوفيقية ما جاء فى كتاب عجائب الآثار للجبرتى خاصا بالعلاقة التى كانت تربط الفرنسيين بزينب بنت السيد خليل البكرى نقيب الأشراف أيام الحملة الفرنسية . وعلى الرغم من ان كتاب عجائب الآثار استخدم عبارة مهذبة جاء فيها ان زينب كانت «ممن تبرج مع الفرنسيس (١) ولم يذكر تفاصيل خارجة عن التقاليد كما فعل نقولا الترك فى مذكراته ، فقد ناقشت الخطط هذا الموضوع وقالت « ولا التفات لما قاله الجبرتى مما لايناسب شرف هذا البيت العالى المقدار ، سيما والأحوال الجارية فى أوقات الفتن لا يوقف لها على قرار ، ولا تعلم لها حقيقة ، ولا يوصل لها الى أصل صحيح» (٢)

واعتمدت الخطط التوفيقية على العلوم المساعدة لتفسير التاريخ وفهمه مثل الوثائق والنميات والآثار

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٩٢ .
(٢) الخطط ج ٣ ص ١١٣ .

والنقوش ، فهذه قل من استعملها من قبل . وإذا كانت خطط المقريزى قد أفادت من الوثائق والنقوش فإن الخطط التوفيقية قد خطت خطوات واسعات فى هذا المضمار فهى تزخر بالكثير من الوثائق التاريخية وحجج الأوقاف والإحصائيات كما أنها تضم جزءاً قائماً بذاته عن النميات هو الجزء العشرون .

وابتعدت الخطط التوفيقية عن العبارات المسجعة وعمدت إلى الأسلوب السهل المرسل ولم تشذ عن هذه القاعدة إلا فى مقدمة الخطط وفى الفقرة التى أنهى بها هذه الموسوعة . وإذا كانت الخطط التوفيقية قد سارت على نهج خطط المقريزى حتى ليعتبرها البعض تكملة وتجديداً لها إلا أنها جاءت أكثر شمولا وعمقاً وإحاطة بجميع المدن والقرى المصرية القديمة والحديثة،كما أنها لم تهتم بالجانب السياسى فقط ولكنها أرخت للنواحى الحضارية والاجتماعية والاقتصادية ...

وقد استغرق وضع الخطط التوفيقية بضعة عشر عاماً ، فقد طبعت سنة ١٣٠٦ هـ (٦ سبتمبر ١٨٨٨– ٢٧ أغسطس ١٨٨٩) أثناء توليه وزارة المعارف فى وزارة رياض باشا الثانية) . وقد ظلت فى الحكم من يونيو ١٨٨٨ حتى ١٢ مايو ١٨٩١ . ولا يتبادر إلى الذهن أنه وضع هذه الموسوعة أثناء توليه الوزارة فلاشك أنه أنفق فى وضعها بضعة عشر عاماً ونستدل على ذلك من عدة أدلة جاءت فى سياق كتابته فمن ذلك أنه تعرض لتطور الحفلات التى أبدع المصريون فى إقامتها احتفاء بوفاء النيل منذ أقدم الأزمنة إلى عهد أسرة محمد على ثم قال » وهاك شرح الجارى الآن يعنى سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف هلالية »(١)

(١) ج ٧١ص ٣٤.

ووقعت هذه السنة الهجرية فى الفترة التى بدأت من ١٨ فبراير ١٨٧٤ وانتهت فى ٦ فبراير ١٨٧٥

ولنا على الخطط التوفيقية مأخذان هما التكرار والاستطراد. أما التكرار فقد كان يتناول موضوعاً بالبحث ثم يعود إليه فيذكره مطولا أو مقتضباً فى جزء آخر من الأجزاء العشرين التى تتكون منها هذه الموسوعة . ومثل هذا التكرار لا يلحظه القارىء العادى ولكن يلحظه ويسجله الفاحص الباحث . ولئن قيل إن الضرورة هى التى دعت المؤلف إلى العودة إلى موضوع سبق بحثه فقد كان يكفيه أن يحيل القارىء إليه ويتجنب التكرار . وقد وقع هذا التكرار عند ذكر بعض الحوادث وتراجم الشخصيات وفى الأزمات السياسية وتفسير بعض المصطلحات التاريخية . نذكر من صور التكرار حادث العنزة المشهورة التى اتخذها كبير خدم مسجد السيدة نفيسة أداة للدجل والإثراء (ج ٥ ص ١٣٧ ، ج ٨ ص ص٥٢–٥٣) وإنشاء دار الكتب المصرية ج ٣ ص ١٤ و ج ٩ ص ٥١) وترجمة ذى النون المصرى وهو من صوفية القرن الثالث الهجرى (ج ٥ ص ص٥٧–٥٨ ، ج ٨ ص ص٣٩ –٤٠) والأمير عبد الرحمن كتخدا وعمائره (ج ٤ ص ص ١٢–١٣ ، ج ٥ ص ص ١١٦–١١٨ وج ٨ ص ص ٥٣–٥٤) والأمير محمد بك الألفى الكبير (ج ٣ ص ١٠٣ ، ج ١١ ص ص ٢٧–٣٤) والموقف السياسى الدقيق فى مصر عقب وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب (ج ٧ ص ٢٥ ، ج١١ ص ٤٣ – ٤٦ ، ج ١٢ ص ١١٤) ويشرح معنى « أمير أخور » مرتين (ج ١٠ ص ٨٠ ، ج ١٢ ص ٢٧) . أما الاستطراد فقد أوغل فيه المؤلف إيغالا بعيداً . ففى الجزء السابع – وقد أفرده لمدينة الاسكندرية – انتقل إلى الكلام عن الحروب الصليبية وحملة لويس التاسع على مصر ووقوعه فى الأسر فى موقعة فارسكور . ولعله شعر بهذا الاستطراد فقال « وإنما خرجنا عن الموضوع وأطلنا فى تفصيل حوادث هذه الأوقات ليعرف القارىء ما ورد على الديار المصرية . » (ج ٧ ص ٣٥) ولما تكلم فى الجزء الرابع عشر عن عجرود استطرد إلى نظام قافلة الحج المصرية على نحو ما أوضحناه وقد كتب فى هذا الاستطراد ما يقرب من تسع وعشرين صفحة . ونهج هذا المنهج الاستطرادى عند كلامه على عيذاب ورحلة ابن بطوطة .

ومثل هذه المآخذ لا تقلل من القيمة العلمية لهذه الموسوعة فهى – بتعبير الأستاذ الرافعى – غرة فى تاريخ مصر العلمى ومأثرة خالدة لعلى مبارك باشا (١). والواقع أنها مرجع للباحثين تتناول فى أمانة التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى والحضارى لمصر وطبوغرافية مدنها وقراها وواحاتها وثغورها وموانيها فى العصور القديمة والوسيطة والحديثة .

* * *

ونختم هذا المقال بنقطة أخيرة خاصة باللغط الذى أثير حول المؤلف الحقيقى للخطط التوفيقية . فقد انطلقت بعض الألسنة تردد أن هذه الموسوعة لم تكن كلها من وضع على مبارك بل كانت هناك مجموعات من مرءوسيه ، وبخاصة المهندسين ، وقفوا وراءه وأسهموا معه فى وضع هذه الموسوعة . وليس هناك دليل يسند هذا الإدعاء . وقد ذكر اثنان من الأساتذة الذين تعرضوا لتاريخ على مبارك هذا القول . ولكن لم يزد دور كل منهما عن أنه porte - parole أى ناقل رواية . فأحدهما ، وهو الدكتور محمد أحمد خلف الله ، أشار إلى « هذه التهمة التى التصقت به »

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل . الجزء الأول . الطبعة الثانية ١٩٤٨ ص ٢٤٠ .

ثم قرر تعليقاً عليها « ونحن لا نستطيع أن ندعى هذه الدعوى ، ولا نستطيع أن نرفضها ، وإنما نقول إن هذا الكتاب قيم . » (٢) فهو لم يقطع برأى حاسم فى هذا الادعاء بل تخلص منه بلباقة وسرعة وانتهى إلى أن الكتاب ذو قيمة . أما الأستاذ الآخر وهو المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فقد ذكر ما يلى « ولئن قيل إن العلامة على مبارك استعان فى وضع الخطط بطائفة من المهندسين من تلاميذه ومرءوسيه فى وزارة الأشغال والمعارف ، فذلك لا ينقص من فضله ، ولا يقلل من عظم العمل الذى اضطلع به ، وحسبه أن إرادته وجهت مساعديه إلى معاونته فى البحث والتنقيب ، وروحه تتمشى فى جميع أبواب الكتاب ومباحثه . » (١) وهو قول فيه دفاع وتبرير على أسوأ الفروض وهو أن الإدعاء صحيح، ولكن لم يناقش سيادته هذا الإدعاء أساساً . وسنحاول أن نناقش مسرعين هذا الرأى بعيدين عن محاباة على مبارك أو التحامل عليه . إن وضع الخطط التوفيقية قد استغرق منه وقتاً امتد بضعة عشر عاماً ، كما أثبتنا من قبل ، ولو كان المؤلف قد استعان بطائفة من مرءوسيه لاستطاع بفضل معاونتهم وإسهامهم أن يفرغ منها فى زمن يقل بكثير عن هذه السنوات الطوال . ومن المقطوع به أن الكفاية والهمة والجلد على العمل ، كل هذه الصفات كانت من أبرز سجايا على مبارك وقد قرر وهو يترجم لنفسه أنه كان لا ينام من الليل إلا قليلا وذكر فى مقدمة الخطط أنه كان قد عرض على لفيف من ذوى المقدرة العلمية وضع كتاب فى موضوع الخطط فلم يجد منهم استجابة فقام بمفرده بوضع الخطط التوفيقية . وكانت الصورة التى علقت فى أذهان معاصريه أنه الوزير الفنى العالم الذى يعمل وينتج فى صمت وينأى بنفسه عن المهاترات أو الثرثرة السياسية ولم يلمع فى الحياة السياسية كما سطع فى الحقل العلمى وبرز فى ميادين الإصلاح والتعمير والإنشاء . وليس بكثير على عالم هذه صفاته أن يضع بمفرده الخطط التوفيقية . لقد رجع على مبارك إلى المحفوظات الرسمية فى وزارات الأشغال والأوقاف والمعارف وغيرها من جهات حكومية . وفارق كبير بين الاستعانة بأشخاص يؤلفون له وبين الرجوع إلى المصادر الأصلية ، وهو عبء ثقيل فادح لا يتولاه إلا كل باحث يتمتع بالأصالة والتعمق فى البحث والجلد عليه ، وهو أمر لا يستطيع أحد أن ينكره على العالم الباحث على مبارك . وفى رأينا أن هذا الادعاء مرده إلى الحقد والحسد . ومن المعروف أن النابهين فى كل زمان ومكان كانوا وسيظلون دائماً هدفاً لهجوم وحسد الكثيرين . وقد لقى على مبارك فى حياته الكثير من المتاعب بسبب ما كان يحيكه له حساده من دسائس . ففى حكم محمد سعيد أبعد عن مصر سنتين ونصف سنة (١٨٥٤–١٨٥٦) تحت ستار إشراكه فى حرب القرم . وفى حكم إسماعيل أقصى عن المناصب الحكومية فترة فى سنتى ٧٠–١٨٧١ واعتكف فى منزله بسبب وشاية الحاسدين وكان على رأسهم إذ ذاك اسماعيل باشا صديق . وجدير بالذكر أن المقريزى تعرض لمثل هذا الاتهام بعد أن وضع كتابه الخطط فقد اتهم بأنه سطا على مسودات من كتاب للأوحدى فى نفس الموضوع ، فأخذها وزاد عليها ، مع أن المقريزى لم يقصر فى ذكر المصادر والمراجع التى نقل عنها ، بل كان يسند كل حادث إلى صاحبه ، فلو كان قد اقتبس من الأوحدى لما كان يضيره أن يذكره . وتعرض شمس الدين السخاوى (٩٠٢) لموقف

(٢) دكتور محمد أحمد خلف الله : على مبارك وآثاره . لم تذكر سنة الطبع . الناشر : مكتبة الانجلو . ص ١٥٤ .

(١) الرافعى : مرجع سبق ذكره ص ٢٤٠ .

شبيه لهذين الموقفين . فبعد أن انتهى من وضع كتابه « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » تصدى معاصروه للتشنيع عليه ، ومنهم السيوطى ألف فى انتقاده كتاباً سماه « الكاوى فى تاريخ السخاوى » .

ونرجو أن يكون قريباً ذلك اليوم الذى تنهض فيه إحدى المؤسسات الثقافية بطبع هذه الموسوعة العربية طبعة حديثة مع وضع فهارس متنوعة لها وشرح بعض العبارات التى وردت بها واندثر الآن استعمالها .

نماذج من الخطط التوفيقية

تعمير ضاحية الرمل بمدينة الاسكندرية

« وفى أقرب وقت صار ما حدث من الأبنية جهة الرمل يشبه مدينة قاسمة ما بين ناحية أبى قير وثغر الإسكندرية بما حوته من الانتظام والرونق والبهجة فى منازلها وقصورها الجمة وشوارعها وحوانيتها المشتملة على نفائس التجارات بعد أن كانت هذه البقعة عبارة عن كثبان من الرمل وأرض غير منتفع بها ، وما كان يزرع منها إلا القليل ، وبعد أن كان الغيط الذى سعته ثمانية أفدنة أو تسعة أو عشرة لايزيد حكره عن ثلاثة قروش صار الآن أرضاً لا يباع منها إلا بالذراع والمتر من ريال إلى نصف بينتو ، وما ذاك إلا لكونها صارت من أعمر الأماكن لسكنى المعتبرين من التجار والأمراء بها ، وبها البساتين المشتملة على جميع أنواع الأشجار والأزهار والرياحين . وقد بلغ عدد سكانها الذين يقيمون بها فى وقت الصيف قريباً من ٧٠٠٠ نفس ، وفى وقت الشتاء على نحو النصف من ذلك . وأول من اشترى فى الرمل الخواجا سيزينيا (١) ، فإنه اشترى من ملك عائلة أبى شال ، وكان لهم أرض متسعة ، جانباً عظيماً بمبلغ ٦٠ كيسة ، والآن وقد اشترت منه الحكومة شريطاً من الأرض لوضع السكة الحديد عليه ودفعت فى قيمة المتر ٥ فرنكات ونصفاً فعلى ذلك تكون قيمة الفدان الواحد ٢٣١٠٠ فرنك . ومما زاد فى الرغبة فيها وأكد أمر السكنى بها إحداث السكة الحديد بينها وبين المدينة الأصلية ، فإنها سهلت على الناس الانتقال منها إليها وبالعكس ، ففى كل أوقات السنة لا ينقطع التردد إليها ومن يقيم بها من الأغراب يجد جميع ما تطلبه نفسه خصوصاً اللوكاندة التى أحدثت هناك ، فإن بها كل ما يلزم مع الراحة والأمن . وفى الرمل ناد تجتمع فيه الناس يومى السبت والأحد من كل أسبوع ويشنفون مسامعهم بسماع الألحان والأصوات الحسنة ، وبها أيضاً ثلاث كنائس واحدة للكاثوليكيين وواحدة للأروام وواحدة للأمريكيين . ومن المدارس ثلاثة لتربية الصبيان ، واحدة على ذمة الأروام وأخرى للفرنساوية وأخرى للتليانيين . وفى كل ساعة يقوم من اسكندرية قطر إلى الرمل ، وفى كل نصف ساعة يقوم قطر من الرمل إلى اسكندرية . وفى كل قطر عمال من طرف البوستة لنقل المكاتيب وأوراق الحوادث وغيرها . وأجرة الركاب بحسب الدرجات : فعلى من يركب فى عربات الدرجة الأولى خمسة قروش ، ومن يركب الدرجة الثانية أربعة قروش ومن يركب الدرجة الثالثة ثلاثة قروش . ومما أكد الرغبة فى سكنى جهة الرمل ما أحدثه الخديو من المبانى هناك بقصد إقامته وإقامة الفاميليه (١) فى فصل الصيف ، فإنه نشأ عن ذلك فتح شارع عظيم فى وسط التلول المقابلة لباب رشيد ، وأوله باب رشيد وينتهى إلى حدود الملاحة بأول أطيان قرية المندرة ويمر بسراى الرمل

(١) هو زيزنيا Zizinia أحد الرعايا اليونانيين ثم اكتسب الجنسية الفرنسية واشتغل قنصلا عاما لبلجيكا فى مصر وكان يطلق اسمه على إحدى محطات ترام الرمل ثم تغير اسم المحطة إلى قصر الصفا .

(٢) يقصد على مبارك بلفظة الفاميلية العائلة أى أسرة الخديو .

الخديوية وطوله من باب شرقى إلى السرايا ٤٠٠٠ متر فى عرض ١٢ متراً ومن السرايا إلى الملاحة ٤٠٠٠ متر فى عرض ٨ أمتار ، وقد غرس فى جانبيه الأشجار المظلة . » ج ٧ ص ٦٧ .

انشاء دار العلوم

« واستحدثت مدرسة دار العلوم بعد استصدار الأمر بها وجعلتها خاصة لطلبة بقدر الكفاية يؤخذون من الجامع الأزهر ممن تلقوا فيه بعض الكتب فى العربية والفقه بعد حفظ القرآن الشريف ليتعلموا بهذه المدرسة بعض الفنون المفقودة من الأزهر مثل الحساب والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط مع فنون الأزهر من عربية وتفسير وحديث و فقه على مذهب أبى حنيفة النعمان ، وجعل لهم مرتب شهرى يستعينون به على الكسوة وغيرها من النفقات ،ورتب لهم طعام فى النهار للغداء ، وجعل الصرف عليهم من طرف الأوقاف ، ورتب لهم من لزم من المعلمين من المشايخ العلماء وغيرهم ليقوموا بأمر تعليمهم وتدريبهم حتى يتمكنوا من هذه الفنون فينتفعوا وينفعوا ويجعل منهم معلمون فى المكاتب الأهلية (١) بالقاهرة وغيرها لتعليم العربية والخط ونحو ذلك . فلما أشيع هذا الأمر وأعلن ، حضر كثير من نجباء طلبة العلم بالأزهر يطلبون الانتظام فى هذا السلك ، فاختبر منهم بالامتحان جماعة على قدر المطلوب ،وساروا فى التحصيل فحصلوا ، وأثمر ذلك المسعى ،وخرج منهم معلمون فى القاهرة وغيرها ، وحصل النفع بهم ولهم . وأما المعلمون فى غير العربية كالهندسة والحساب واللغات ونحو ذلك فتقرر أن يكونوا من نجباء التلامذة المتقدمين الذين أتموا دروس المدارس العالية كالمهندسخانة والمحاسبة والإدارة » . ج ٩ ص ٥١ .

---

(١) المكاتب الأهلية اسم أطلق على المدارس الابتدائية الجديدة التى أنشئت فى عصر اسماعيل طبقا لما ورد فى لائحة رجب ١٢٨٤ وكان يصرف عليها من الموارد الأهلية التى رسمتها هذه اللائحة .

تأثير القوى البحرية على التاريخ لألفريد ميهان

بقلم
الدكتور حسين فوزي النجار

اصداء التاريخ :

فى عصر امتطى فيه الاستعمار متن الخضم مقتحما العباب فى بحار فسيحة إلى أراض شهدت مولد الحضارات الأولى ، وأخرى كانت تعيش فى حنايا الغيب بعيدة عن مجرى التاريخ حتى التقى بها فى موجة الكشوف الجغرافية الباهرة خلال القرن الخامس عشر فى مغرب الأرض وفى أقصى المشرق ، وفى قلب الآجام الأفريقية المظلمة وفى جزر الباسفيك المزدانة بخضرة الغابات الاستوائية المتشابكة ، غدت الجوارى الماخرات والقلاع السابحة عنوان القوة ومنبع الثراء للمغامرين والجوابين والباحثين عن الذهب وطلاب الثروة من التجار ، والآبدين فى السجون ممن قذفت بهم حكوماتهم إلى تلك البرارى الموحشة فى استراليا ونيوزيلندا وأصقاع الأمريكتين ، والفارين من الظلم والاضطهاد الدينى والسياسى إلى منطلق حر فى بلاد جديدة لاينالهم فيها ضيم أو ضر ، وللدول التى تنشد القوة وتتطلع إلى الاستعمار وتكوين امبراطوريات لها فيما وراء البحار تعود عليها بالغنم والرخاء ، وللكنيسة التى تبشر بالمسيحية فى شعوب ترى أنها لم تهتد إلى رسالة السماء .

وعلى موج الخضم انطلقت الجموع الأوربية على شتيت نزعاتها إلى عالم استوى فيه لديها ما كان موطنا لأعرق الحضارات ، وما زال فى فجر البداوة لم يلج محراب التاريخ بعد ، فلم يكن أيسر سبيلا من البحر على جهامته الى تلك البقاع النائية البعيدة ، فقد جنبها اقتحام البرارى والتجمع فى قوافل تخضع لبطش الأمير وسطوة السلطان وطمع الجباة ، ومكن لها أن تحمل على صفحته جيوشا تحميها وتؤمن لها المستعمرات الجديدة ، ما كان فى قدرتها أن تعبر اليها دولا تستطيع أن تتصدى لها وتمنعها من غايتها . أو سدودا تقف امامها مانعا دون غايتها :

ومضى الاستعمار الأوربى محتميا بالبحر إلى حيث مكن لنفسه فى بقاع عجزت عن أن تتصدى له وتمنعه .

وشهد البحر مصرع امبراطوريات استعمارية عجزت قواتها البحرية أمام قوى بحرية جديدة أشد

وأقوى فأفسحت الميدان لها ترث من مستعمراتها ما تشاء .

وأصبح على الدول الاستعمارية ، لتحمى مستعمراتها ، أن تمتلك أسطولا قويا وقوة بحرية عتيدة ، تستطيع أن تحمى خطوطها الملاحية . وتتصدى لكل مهاجم تسول له نفسه الهجوم على أراضيها فى الداخل أو عبر البحار . فلم يعد التوسع الامبراطورى قاريا تنبعج فيه الدولة من الداخل إلى الخارج فى حدودها المجاورة أو القريبة منها . فاذا امتطت البحر أو خاضت معركة بحرية ففى أماكن قريبة من قواعدها القارية أو من ثغورها ومراكز تموينها البحرية . ولم تكن القوى البحرية أكثر من قوات ثانوية لحماية السواحل أو لنقل الأمداد والمؤن لمسافات قصيرة إلى حيث يدور القتال الرئيسى فى البر . ولم تكن اكثر من سلاح تابع للجيش .

وقامت الامبراطوريات القديمة على اكتاف الفاتحين الغزاة ممن يقودون الجيوش البرية فيغيرون بها على الدول والاقاليم المجاورة فكان الامتداد المصرى فى عهد الدولة الفرعونية الحديثة ، امتدادا مع الأرض فى الشمال وفى الجنوب حيث لاتعوق البحار الفاصلة تقدم الجيوش ، أو تفصل مابينها وبين قواعدها الأصلية ، واجتاح الاسكندر المقدونى سهول آسيا فى زحف متصل يقود قواته البرية من «الفلانكس» المدرعين الاشداء ، ورماة السهام من المشاة الخفيفة ، والفرسان المدربين تدريبا عاليا للعمل ضد الأجناب ، فى مهارة جعلت منه أعظم القواد المحاربين فى العصور القديمة ، فلم تكسف شمس معاركه سوى معارك نابليون فى العصر الحديث ، ولم يلجأ الاسكندر للبحر الا فى بعض العمليات الثانوية ، فتوسع فى البر إلى أقصى ما اتسعت له حياته من فتوح . ثم كانت روما ودمشق مركزى امبراطوريتين أعقبت ثانيتهما الأولى، وكان امتدادهما أشبه بامتداد الدوائر المائية حول مركز سقوط حجر فى الماء . ولم يكن من قبيل المصادفة أن تكون قصبة الامبراطورية فى مركز متوسط تمتد حواليه أملاكها فى جميع الجهات . ولكن لأن التوسع كان بريا يمتد إلى حيث تستطيع الدولة أن تمد قواتها بالمؤن والعتاد وحيث تبقى القوات على اتصال بمراكز إعدادها وتجييشها . فلم يكن للأسطول فى نظر الرومان ما كان للجيش من أهمية . وما كانت واجباته تتعدى الحراسة والنقل وحفظ الأمن فى البحار القريبة الضيقة كالأدرياتيك والبحر التيرانى . فلما اتسعت رقعة الأمبراطورية اقتضى الأمر بناء أساطيل اقليمية فى الاسكندرية وشمال افريقية لحراسة سفن نقل القمح منهما إلى روما . كما تناثرت بعض القوات البحرية الصغيرة فى البحر الأسود وفى بحر المانش حين أصبحت بريطانيا ولاية رومانية ، وانتشرت قطع بحرية صغيرة فى الرين والدانوب ، كانت مهمتها ربط الامبراطورية بحلقة من المواصلات المكينة إلى جانب الطرق البرية الطويلة الممتدة فى جميع أنحاء الامبراطورية والتى أقامها الأباطرة لتربط بقاعها الفسيحة فكانت مفخرة من مفاخر الانشاء الرومانى وصانت وحدة الامبراطورية طوال قيامها . ولم يكن من مهام تلك القطع البحرية الاشتباك فى القتال وما كانت أكثر من وحدات للحراسة فلم يجد القوط عناء أمامها حين أخذوا يهاجمون بيثينيا وليديا فى القرن الثالث فانسابوا عبر المضايق وفى بحر ايجه ينشرون الخراب والدمار فى غرب آسيا الصغرى وفى جزر البحر الأيجى وأخذوا يهددون آثينا ذاتها .

أما العرب فلم يعنوا ببناء قوة بحرية إلا بعد أن امتدت امبراطوريتهم امتدادها الفسيح شرقاً وغرباً .

وحين دعتهم الظروف فى فترة من الزمن إلى مواجهة قوات بحرية ، بنوا أسطولا فى بحر الروم (البحر المتوسط) هزموا به البيزنطيين فى موقعة ذات الصوارى وفتحوا قبرص وجردوا بعد ذلك الحملات البحرية للاستيلاء على جزر البحر وغزوا شواطىء الدولة البيزنطية غزوات سريعة يبدو أنها لم تبغ الفتح والاستقرار ، ولم يجذب العرب إلى البحر غير التجارة ، فامتطوا عبابه تجاراً بارعين أكثر مما امتطوه قباطنة محاربين ، وان لم يحل هذا بينهم وبين انشاء « السفن والشوانى » — على رأى ابن خلدون — وشحنوا « الأساطيل بالرجال والسلاح وأمْطَوْها العساكر والمقاتلة من وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته مثل الشام وافريقية والغرب والأندلس » .

وكان اندفاعهم نحو البحر وليد الجرأة والشجاعة والمغامرة أكثر مما كان وليد الخبرة والدراية والتعلق بحياة البحر ، فحين اطلوا على شواطئه فى موجة فتوحهم الباهرة اندفعوا نحوه غير هيابين فكان العربى من سكان الشواطىء — كما يقال — « يركب مركباً كما يزكب جملا » ، حيث يمتد البحر من أمامه كما تمتد الصحراء من ورائه إلى أبعد ما يرتد إليه بصره ، أما البدوى ساكن الصحراء فظل البحر لديه عالما مجهولا ، فكان أن نهى « عمر بن الخطاب » المسلمين عن الإغارة فيه . وعزل « أبى العلاء الحضرمى » واليه على البحرين . لما غزا بلاد فارس بحرا ، وكان قد عبر إليها الخليج فى اثنى عشر ألف من المسلمين قبل أن يستأذن الخليفة ، وغزا وغنم ولكنه فقد سفنه فاقتحم طريقه فى أرض معادية إلى البصرة ، وكان أهل البحرين قد زينوا له ذلك ، وهم أهل بحر فلم يخذله إقدامه عن السير معهم ، ومن قبل أبحر عثمان الثقفى من عمان مغيراً على سواحل الهند دون أن يلتى نصباً .

وصدق حدس عمر حين أمر بتسيير حملة بحرية ضد الأحباش رداً على غاراتهم على السواحل العربية ، نزلت على « أدواس » ونهبتها ولكنها هزمت فى البر ، فلما طلب إليه معاوية — بعد ذلك — أن يأذن له بغزو قبرص ، وكتب إليه يقول : « يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص .. ». ولكن ساكن الحجاز كان غير ساكن الشام ، فكتب إلى واليه على مصر عمرو بن العاص : « أن صف لى البحر ثم اكتب إلى بخبره » فكتب يقول : « إنى رأيت خلقاً كثيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركن خرق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق » . وأرسل عمر إلى معاوية ينهاه عن ركوب البحر حتى لا يعرض الجنود لغدره .

وظفر معاوية من عثمان بما لم يظفر به من عمر ، وولج العرب هذا العالم الفسيح وغدا لهم ببحر الروم أسطول استطاع أن يواجه أسطول البيزنطيين حتى قيل إن مائتى سفينة للعرب غلبوا ألف سفينة للروم فى موقعة ذات الصوارى » .

ودخل العرب عالم الملاحة فأنزلوا إلى البحر السفن المثلثة الشراع وطوروا فى أساليب الملاحة ومعداتها ما كان عوناً لأوربا فى فنونها البحرية وفى نهضتها الحديثة ، فشقت طريقها فى البحر إلى كشوفها الجغرافية فى القرن الخامس عشر ، وانتهت منها إلى حركة الاستعمار الحديث وبناء الأمبراطوريات الاستعمارية الكبرى فيما وراء البحار .

ومنذ ذلك الحين احتل البحر مكانته العظمى فى التاريخ ، وكتبت على صفحته أروع مغامرات الاستعمار وسبقت الدول البحرية غيرها إلى هذا الميدان الفسيح وأحرزت قصب السبق فيه ، وكانت للبرتغال وأسبانيا ميزة المبادرة حتى اشتد بينهما الصراع فاحتكما إلى البابا فأصدر قراره عام ١٤٩٤ بتصور خط تقسيم من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى يمر بالأطلنطى إلى الغرب من جزر الآزور مسافة ٣٧٠ فرسخاً فكل ما يكشف إلى الشرق منه يكون للبرتغال ، وكل مايكشف غربه يكون لأسبانيا .

وفى أعقاب الدولتين . البرتغال وأسبانيا — نزلت دول بحرية جديدة إلى ميدان الكشوف الجغرافية تدفعها حمى الاستعمار والاستغلال والجشع إلى الثراء ، وأتيح لهولندا أن ترث البرتغال وأن تصبح أعظم قوة بحرية فى مطلع القرن السابع عشر ، وتبلغ امبراطوريتها أقصى امتداد بلغته . فلم يجد الانجليز حين بدأوا جولتهم الاستعمارية فى البحار متأخرين عمن سبقهم ، غير الهولنديين يسدون عليهم الطريق ، فجعلوا يتعقبونهم ويسطون على سفائنهم أينما كانت سواء فى البحار الموسمية أو غيرها من البحار ولكن اتحاد العرشين الانجليزى والهولندى عام ١٦٨٩ تحت تاج وليم أورنج قد أوقف هذا الصراع إلى حين .

وكان الانجليز قد شهدوا من قبل مصرع النفوذ البرتغالى فى البحار الموسمية وساهموا فى القضاء عليه عندما هزموا البرتغاليين فى « سورات » على مصب نهر « تبتى » عام ١٦١٢ ، فوضعوا أول دعامة لامبراطوريتهم فى البلاد الموسمية الغنية .

ونزل الفرنسيون هم الآخرون إلى الميدان فأسسوا « شركة الهند الشرقية الفرنسية » عام ١٦٦٤ . واصطدموا بالهولنديين والانجليز ، وشهدت بحار العالم صراعاً محموماً من أجل التجارة والرغبة فى الثراء واحتلال الأراضى الغنية .

وبينما كانت المعارك الحامية تدور فى القارة ، كانت البحار مسرحاً للقرصنة والسطو والنهب الاستعمارى . وعلى قدر ما خلدت المعارك الحربية فى التاريخ العسكرى وكتبت صفحة باهرة فى استراتيجية الحروب وتكتيكات المعارك ، لم يكن جناؤها يضاهى خلودها ، فقد كان الغنم كله فى البحار على ما اتسمت به معارك البحر من ضآلة وما شابها من طابع القرصنة ومغامرات القراصنة التى ألهمت أدب المغامرات أحداثها الشائقة أكثر مما ألهمت التاريخ وقائعها وتكتيكاتها البحرية .

وبينما كان مبدأ التوازن الدولى يحتذى ويطبق بصرامة فى القارة فتشتبك الدول الأوربية فى حروب طاحنة صبغت تاريخها الحديث بالدماء ، كانت تلك الدول تتوسع عبر البحار لا يحكمها غير التنافس والغلب ، فمن اكتشف منطقة أو رفع علم دولته على أرض غير مملوكة لدولة استعمارية أخرى ، أصبحت ملكاً للدولة صاحبة العلم ، وحين نظم مؤتمر برلين عام ١٨٨٤ استعمار أفريقية قرر ألا تعلن دولة حمايتها لمنطقة دون إعلان هذه الحماية إلى الدول الأخرى ، وألا تعلن ضم منطقة ما إلى أملاكها ما لم يكن مؤيداً بالاحتلال العسكرى .

وكانت بريطانيا أشد الدول حفاظاً على مبدأ التوازن الدولى فى القارة ، وما من سبب خاضت من أجله الحرب ، إلا وكان هذا المبدأ هو الحافز الأول لها على الحرب ، وظل هذا المبدأ قائماً حتى قضى عليه الامتداد الشيوعى فى شرق أوربا فى أعقاب الحرب الثانية ، وغدا التوازن قارياً أكثر منه اقليمياً . يقوم على المحالفات العسكرية والدعوة المذهبية لا تحكمه قاعدة ولا يقف أمامه حاجز غير رغبة الدولة ذاتها فى اتباع السياسة التى

ترتضيها والانحياز إلى الجانب الذى تراه فضلا عن امتداد المبدأ إلى كافة أنحاء العالم الأخرى ، فأصبح السلام الدولى رهناً بتوازن القوى بين الدول المتحالفة ، وبقيام دول جديدة حررت نفسها من التزام التحالف فقدت محور التوازن الحقيقى بين الطرفين المتصارعين . وتقف الجمهورية العربية المتحدة فى هذا الفريق داعية إلى السلام العام والرخاء الدولى وحرية شعوب العالم .

ومنذ القرن السابع عشر كان مبدأ التوازن الدولى هو السياج الذى يحكم السياسة الأوربية يطبق فى القارة فحسب دون أن يحكمه مبدأ أو قانون خارج القارة إلا قوة الدولة وقدرتها على التوسع وحماية أملاكها عبر البحار . وأصبح التفوق البحرى دعامة السيادة البحرية وسياج الأمن لأملاك الدولة البعيدة .

وعقد لواء السيادة البحرية لبريطانيا بعد تحطيم ـ الأرمادا ـ الأسبانية عام١٥٨٨ . فشادت امبراطوريتها آمنة مطمئنة إلى تفوقها البحرى الحاسم ، وان لم تكن معركة الأرمادا بسبب التنافس الاستعمارى بقدر ما كانت لأسباب تتعلق بالنزاع بين الأسرتين المالكتين فى أسبانيا وانجلترا .

وكانت هولندا قد اقتنصت حريتها من أسبانيا قبل تحطيم الأرمادا بقليل عن طريق البحر حين أعوزها النصر فى البر ، وعجز الثوار عن التغلب على القوات الأسبانية البرية المحتلة . فلجأوا إلى البحر ، واحتلوا ميناء « برل » الصغير فاتخذه المغامرون الهولنديون الذين عرفوا باسم « شحاذى البحار » قاعدة للغارة على القوات الأسبانية . ثم أطلقوا مياه البحر عليها حين حاصرت « قلعة ليدن » فتشتت شملها . وإنه لم ينقذ الهولنديين من إصرار الأسبان على قمع ثورتهم سوى اشتباك أسبانيا فى حروب خارجية صرفتها عن قمع ثورة الأحرار الهولنديين ، ولم تنل هولندا استقلالها الفعلى إلا فى معاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨ . ثم انطلقت فى جولتها الاستعمارية شرقاً وغرباً إلى أقصى ما تحملها المواخر من بقاع الأرض .

وجاءت انجلترا على آثارها ثم قفتها فرنسا وشهدت القرون الثلاثة التالية صراعاً استعمارياً حاداً بينهما ما لبثت أن خرجت منه هولندا لتبقى انجلترا وفرنسا فى ميدان الصراع الاستعمارى وان استطاعت انجلترا أن تزيح فرنسا عن كثير من مستعمراتها وترثها فيها إلا أن فرنسا لم تسلم بالهزيمة وبقيت فى الميدان تثير المتاعب فى وجه بريطانيا العظمى التى تحولت من مملكة إلى امبراطورية كما يقول « ميهان » .

وقد اختار « ميهان » لكتابه « تأثير القوى البحرية على التاريخ » تلك الفترة التى اشتد فيها الصراع بين الدول الثلاث وانتهت بسيادة بريطانيا البحرية وتكوين امبراطوريتها التى وصفت بأنها لا تغيب عنها الشمس ، وهى الفترة من عام ١٦٦٠ إلى عام ١٧٨٣ . فى عام ١٦٦٠ تولى شارل الثانى ، عرش انجلترا فمد يد العون إلى « شركة الهند الشرقية الانجليزية » بعد أن كانت الحكومة الانجليزية قد أهملتها . وفى عام ١٦٦٤ أسس الفرنسيون شركة الهند الشرقية الفرنسية . وكانت هولندا قد أنشأت شركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٦٠٢ بعد تأسيس الشركة الانجليزية بعامين ، إلا أن الشركة الهولندية مضت قدماً فى إقامة القواعد التجارية فى البحار الشرقية بتعضيد الحكومة الهولندية وما لبثت أن كونت شركة الهند الغربية الهولندية عام ١٦٣١ للاتجار مع العالم الجديد وأسسوا مستعمرة هولندية على مصب نهر الهدسن ، ودعوا عاصمتها امستردام الجديدة وقد أصبحت تحمل اسم « نيويورك » . بعد أن آلت إلى الانجليز . وفى الفترة مابين عام١٦٨٨ وعام١٨١٥ ، اشتبكت انجلترا وفرنسا فى سبعة حروب . كان التنافس

الاستعمارى أبرز دوافعها .. وفى تلك الفترة شهدت القارة تطاحن الجيوش ، كما شهدت بروز عدد من القواد العظام كتبوا أروع الصفحات فى تاريخ الحرب وتكتيكات المعارك ، لم تفد منها الدول التى خاضتها ما أفادت انجلترا التى اتجهت إلى البحار ، وإن شاركت فيها بنصيب يجعل لها قدماً فى اتفاقيات الصلح ، فقد رسم « بث » سياسة انجلترا على أساس الاستفادة من حروب القارة للانفراد بالمستعمرات ، واعتمد على الأسطول أكثر مما اعتمد على الجيوش البرية .

وفى عام ١٨٧٣ ، كانت فرنسا قد خرت ساجدة أمام بروسيا فى الحرب السبعينية وسلمت فى صلح فرانكفورت عام ١٨٧١ بكل مطالب ألمانيا وكان الملك « وليم » قد توج امبراطوراً على الريخ الألمانى فى بهو المرايا بقصر فرساى فى يناير عام ١٨٧١ قبل أن تنتهى الحرب وقبل صلح فرانكفورت ببضعة شهور . لتبدأ ألمانيا جولتها العنيفة فى ميدان السياسة الأوربية وتخط معالمها التى قلبت موازين السياسة الدولية رأساً على عقب وأثرت فى تاريخ أوربا خلال السنوات التالية حتى لنستطيع أن نقول إن أوربا بدأت حقبة جديدة من تاريخها لعلها قد انتهت بهزيمة ألمانيا عام ١٩٤٥ .

فإذا كان ميهان قد اختار القرنين السابع عشر والثامن عشر موضوعاً لدراسته عن تأثير القوى البحرية على التاريخ فى كتبه الثلاثة التى صدرت تباعاً من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٩٠٥ فلأن القوى البحرية هى التى كتبت تاريخ أوربا الحقيقى خلال تلك الفترة وهى التى حملت الاستعمار الأوربى على أمواج الخضم إلى بقاع ما كان يصل إليها إلا بالبواخر والسفن والقلاع العائمة ، وهى التى جعلت الامتداد الامبراطورى بحرياً وليس قارياً ، وكان الاستعمار هو المحور الذى تدور حواليه السياسة الأوربية ، ليكتب فى كل دورة من دوراته صفحة من صفحات التاريخ الأوربى الحديث .

فأصداء التاريخ وحدها هى التى حملت ميهان على تلك الدراسة التى لم يسبقه إليها باحث وهى التى حملته على تقرير الدور البارز الذى لعبته القوات البحرية فى التاريخ الحديث ، وإن لم تكن دراسته تاريخاً للمعارك البحرية بقدر ما كانت دراسة للأستراتيجية البحرية وقدرة الأساطيل على دعم سيادة الدولة وحمايتها .

الفرد ثاير ميهان :

كان تفكيره وليد الاستقراء العلمى الدقيق لما يمكن أن تقوم به الأساطيل الحربية والتجارية فى دعم سيادة الدولة وحمايتها وجلب الرخاء لها ، بل إن هذا التفكير العلمى الواقعى قد أدى به فى النهاية إلى النقيض من أفكاره ومبادئه الأولى ، فأصبح من دعاة الاستعمار وكان ينكره ويحمل عليه ، بل كان خصماً للامبريالية لا يبارى كما يقول عنه « بولستون » أحد مؤرخيه ، ولكن عدو الامبريالية غدا بعد هذه الدراسة وهو يرى أن الاستعمار أحد المقومات الثلاثة لبناء القوة البحرية أما الآخران فهما بناء السفن فى وقت السلم ، والتقدم الصناعى ونمو الانتاج فى الدولة ، ولا تملك الولايات المتحدة منها — كما يقول — غير الأخير . فأخذ يدعوها إلى استكمالهما ، وأشار عليها بالاستيلاء على جزر هاواى لتأمين الباسفيك . بل أصبح من دعاة سياسة العصا الغليظة التى آمن بها صديقه « تيودورروز فلت » .

وقد ولد ميهان عام ١٨٤٠ لأب من رجال الجيش هو « دنيس هارت ميهان » كان يعمل أستاذاً للهندسة العسكرية بكلية « وست بوينت » الحربية ، ويأمل أن ينشأ ولده على غراره ضابطاً بالجيش ، إلا أن ألفرد اتجه إلى البحر فالتحق بالكلية البحرية فى « أنابوليس » وتخرج منها ضابطاً فى الأسطول عام ١٨٥٩ . وعاش

حياة عادية لم يخض فيها معركة هامة إلا قليلا من المعارك الصغيرة فى الحرب الأهلية ، لعلها هى التى أمدته بخبرته عن « الخلجان والطرق المائية الداخلية » فكانت وحياً لكتاب صغير كلف بكتابته عام ١٨٨٣ عن المعارك البحرية فى الحرب الأهلية ، بعنوان « الخليج والمياه الداخلية » . «The Gulf and Inland waters»

وكان قد اكتسب خبرة بحرية واسعة من رحلاته فى المياه الأسيوية والأوربية وسواحل الأمريكتين . ومن دراساته الخاصة للشئون البحرية خلال زيارته لأوربا والشرق الأقصى وسواحل الأمريكتين .

وبدت ميوله نحو التاريخ البحرى ، ويقال إنه أتى خلال تلك الفترة من حياته على كل الكتب والدوريات التى صدرت فى عصره مما يتصل بالبحرية والتاريخ البحرى والحرب وفاز بالجائزة الثالثة فى مسابقة « المعهد البحرى للولايات المتحدة ، » ببحث عن « التعليم البحرى للضباط والجنود Naval Education for Officers and Men

كما أبدى اهتماماً جدياً بما يمكن أن يكون لانشاء قناة برزخية من أثر على مكانة الولايات المتحدة الدولية.

وواتته الفرصة التى كشفت عن هوايته ومواهبه حين وصلته دعوة « الأميرال ستيفن . بـلوس » مدير الكلية الحربية الجديدة فى « نيوبورت » برودى ايلاند ، عام ١٨٨٤ ، وهو على سفينة تجاه بيرو ، ليحاضر طلابها فى التاريخ البحرى والعمليات الحربية ، فكانت بداية حياة جديدة خلد بها وجعلت منه أعظم داعية للأساطيل وأبرع مبشر للقوى البحرية على مدى التاريخ حتى وقتنا هذا ، فإذا كان كلاورفتز قد وضع أسس الحرب الحديثة فإن ميهـــان هو المبدع الخلاق لاستراتيجية القوى البحرية .

وكانت محاضراته أساساً لبحوثه ودراساته التى صدرت فى كتب ثلاثة يكمل كل منها الآخر من حيث الموضوع ومن حيث الامتداد الزمنى للتاريخ . ولعله لم يبغ أن يضع نظرية للاستراتيجية البحرية ، ولكن آراءه وأفكاره ومناقشاته التى تضمنتها كتاباته التاريخية ، وإن جاءت متناثرة مع السرد التاريخى . تكون فى إطارها العام نظرية متكاملة . لفلسفة القوى البحرية ودورها فى التاريخ ولاستراتيجية البحار وتكتيكات الأساطيل وغدت عاملا مؤثراً فى سياسة الدول البحرية خلال الفترة التالية من التاريخ ، لاسيما فى ألمانيا واليابان فضلا عن الولايات المتحدة ذاتها فقد وجدت نفسها تسير فى نفس الخطوط التى رسمها لها ميهان . وإن لم تلق اهتماماً إلى آرائه حين ظهورها على عكس ما كان من الدول الأخرى التى حفيت بها ، وأبدت عناية بكتبه فترجمت إلى اللغات اليابانية والألمانية والإيطالية والروسية والفرنسية والأسبانية ، وإن لم يظهر لها حتى الآن ترجمة باللغة العربية ، ولعلها تلقى الآن من عناية السلاح البحرى للجمهورية العربية المتحدة ما يتيح لضباط البحرية دراستها والنظر فيها بما يتمشى مع نهضتنا البحرية الحاضرة .

وظهر كتابه الأول « تأثير القوى البحرية على التاريخ ١٦٦٠–١٧٨٣ » عام ١٨٩٠ وكان قد بدأ يلقى محاضراته على الطلبة فى سبتمبر عام ١٨٨٦ بعد فترة قضاها متفرغاً للاطلاع والتحضير منذ كلف بهذا العمل عام ١٨٨٤ .

ويبدو أنه قد عنى باختيار كلمات العنوان ، ففى خطابه للناشر الانجليزى يقول إنه اختار عبارة « القوى البحرية Sea Power » لتجذب أنظار القراء مما يساعد على رواج الكتاب ، مفضلا إياها على كلمة « Martime » المشتقة من اللاتينية ، لأنها – كما يرى – لا تحمل من الجاذبية ما تحمله العبارة المختارة ، فلفظ « قوة » كان من الألفاظ المتواترة على لسان العصر ، عصر المخترعات

العظيمة والقوى الجديدة التى أخذت تغير من حياة الإنسان .

ويحمل الكتاب فلسفته البحرية ونظرته فى استراتيجية البحار وتكتيك المعارك البحرية . إلا أن الصورة لا تكتمل من حيث الامتداد الزمنى للتاريخ ، والعرض العام للنظرية إلا بكتابيه الآخرين :

١ — أثر القوة البحرية على الثورة الفرنسية والامبراطورية : ١٧٩٣—١٨١٢ .

The Influence of Sea Power upon the French Revolution and Empire, 1793-1812.

ونشر فى بوسطن عام ١٨٩٢ .

٢ — القوة البحرية وحرب عام ١٨١٢ .

Sea Power in its Relation to the War of 1812.

ونشر هو الآخر فى بوسطن عام ١٩٠٥ .

فنى عام ١٨١٢ كانت كارثة نابليون فى روسيا ، وانحدار الشمس المحرقة التى زهت فى سماء أوربا وأحرقتها إلى المغيب ، ثم كانت حرب الأمم التى حملتها والتى غربت بها فى أجواء سانت هيلانة الاستوائية .

وبعدها افتقدت بريطانيا ركاب المجد الامبراطورى فى عالم لا تغيب عنه الشمس يدين لها بالقهر والسلطان الاستعمارى أو يدين لها بالولاء الثقافى والسياسى وغدت بحريتها أقوى بحرية تمخر عباب البحر تختال بالسيادة وتزدهى بالقوة والسلطان .

ولا تقتصر دراسات ميهان على هذه الكتب الثلاثة أو ما سبقها من الدراسات المحدودة التى قام بها من قبل ، بل كتب ترجمة قصيرة لحياة الأميرال فاراجوت نشرت عام ١٨٩٢ ، كما ترجم لحياة أمير البحر الانجليزى نلسون فى كتاب نشر عام ١٨٩٧ بعنوان « حياة نلسون The Life of Nelson » ، يعد من أحسن كتب التراجم إذ صور حياته وعبقريته فى كل لا ينفصل تتلازم فيه شخصية الرجل وذكاء الانسان .

ويتمتع ميهان بموهبة الكاتب وإحساسه وفراسة المؤرخ كما تبدوان فى كتاباته واستقرائه الصادق للتاريخ وتصويره للأحداث والبشر ، فترى الصورة أو الفكرة تتجسم فى ذهنه لتبرز فى كتاباته وقد اكتملت لها كل مقومات الحيوية والنماء .

ويبدو احساسه العميق بالأحداث فى كتابيه اللذين صور فيهما ذكريات حياته وهما :

١ — من الشراع إلى البخار : ذكريات بحار

From Sail to Steam : Recollections of Naval Life.

وصدر عام ١٩٠٧

٢ — الجناء القريب The Harvest Within.

وصدر عام ١٩٠٦ .

كما يبدو إحساسه بأحداث عصره فى كتابه « الحرب فى جنوب أفريقية The War in South Africa » ، وفى عدد من الموضوعات التى عرض لها بالبحث والمناقشة ، جمعتها عدة مجلدات صدرت على التوالى فيما بين عام ١٨٩٧ وعام ١٩٠٢ كان أولها بعنوان :

اهتمام أمريكا بالقوى البحرية فى الحاضر والمستقبل

The Interest of America in Sea Power, Present and Future

وصدر عام ١٨٩٧ مشتملا على ثمانية موضوعات بدأ فى كتابتها منذ سنة ١٨٩٠ حتى صدوره .

وبعد عامين أصدر المجلد الثانى بعنوان :

دروس من الحرب مع أسبانيا وموضوعات أخرى

Lessons of the War with Spain and Other articles.

وكان صدور المجلد الثالث عام ١٩٠٠ بعنوان :

مشكلات آسيا وتأثيرها على السياسات الدولية

The Problem of Asia and its Effect upon International Policies.

وفى عام ١٩٠١ أصدر كتاباً من جزءين بعنوان :

نماذج لضباط البحرية مستقاة من تاريخ البحرية البريطانية .

Types of Naval Officers Drawn from the History of the British Navy.

وكتاباً آخر صدر عام ١٩٠٢ بعنوان .

التفاتة إلى الماضى ونظرة إلى الأمام : دراسات فى العلاقات الدولية البحرية والسياسية

Retrospect and Prospect, Studies in International Relations, Naval and Political.

وتدور هذه البحوث جميعاً كما نرى حول موضوعات الساعة مما يتصل بالسياسة الدولية التى عاصرها واستراتيجية البحار التى رسم خطوطها .

وبقى يزود المكتبة الانجليزية بمقالاته وبحوثه ومؤلفاته حتى عام ١٩١٤ فصدر له عام ١٩٠٧ كتاب :

من صور الحرب المهملة Some Neglected Aspects of War

عرض فيه لبعض ما دار فى مؤتمر لاهاى الثانى للسلام من مسائل تتناول التسليح البحرى وكان مؤتمر لاهاى الثانى قد عقد عام ١٩٠٧ بعد ثمان سنوات من عقد مؤتمر لاهاى الأول للنظر فى خفض التسليح ومن بينها التسلح البحرى وحرب الألغام البحرية .

وفى العام التالى نشر بضع مقالات عن الإدارة البحرية « Naval Administration » كما أصدر عام ١٩١١ كتاباً عن الاستراتيجية البحرية بالمقارنة والقياس على العمليات العسكرية فى البر دعاه :

« Naval Strategy Compared and Contrasted with the Principles and Practice of Military Operations on Land »

كما نشر عام ١٩١٣ فى كتاب مستقل فصلا كان قد اشترك به فى كتاب « كلاوز » عن تاريخ البحرية الملكية ، يدور حول العمليات البحرية فى حرب الاستقلال الأمريكية بعنوان :

العمليات البحرية الكبرى فى حرب الاستقلال الأمريكية

« The Major Operations of the Navies in the War of American Independence ».

وكلها كما نرى تدور حول البحر والاستراتيجية البحرية ، وإن لم يهمل الجانب السياسى فى العلاقات الدولية ، فالصلة بين الاستراتيجية والسياسة جد وثيقة ، ولا تستوى دراسة الاستراجية مالم تقم على إلمام عميق بالسياسة والشئون الدولية . فكثيراً — إن لم يكن فى الأعم الأغلب — ما تنبنى الاتجاهات السياسية على استراتيجية الدولة واتجاهاتها العسكرية . فكتب فى هذا الصدد مؤلفاً صدر عام ١٩١٠ بعنوان « اهتمام أمريكا بالشئون الدولية —

The Interest of America in International Conditions. »

وكان آخر ما نشر له مجموعة من مقالاته ورسائله صدرت عام ١٩١٤ ، آخر سنى حياته وقد اشتبك العالم فى أول حرب عامة مدمرة ، وحققت المعارك البحرية نظرة ميهان إلى أثر القوى البحرية فى مصير الحرب . وإن لم يعش حتى يرى ذلك أو يشهد صدور القانون البحرى الأمريكى سنة ١٩١٦ بأن يكون أسطول الولايات المتحدة أقوى أسطول فى العالم .

أثر القوى البحرية على التاريخ

لعل شهرة هذا الكتاب تعود إلى آراء ميهان عن قوة الدولة البحرية ومالها من أثر على مصيرها السياسى والاستراتيجى ومكانتها الدولية مما يحدد فى الواقع مكانها من التاريخ ، وإن لم يبلغ الكتاب من دقة البحث التاريخى وسلامة العرض ما بلغه كتابه عن « أثر القوة البحرية على الثورة الفرنسية والامبراطورية ١٧٩٣ — ١٨١٢ » . وهو كتابه الثانى فى تلك السلسلة الممتدة من البحوث التى راح يؤكد فيها نظريته عن القوة البحرية ،

إلا أنه وقد عرض نظريته فى هذا الكتاب الأول ، فقد غدا أشهر مؤلفاته وأجدرها بالخلود ، ولا تعدو مؤلفاته الأخرى توكيد هذه النظرية والتدليل على سلامتها .

ولا يدعى ميهان لنفسه فضل الأصالة أو الابتكار ، فقد أشار إلى ماورد عنها فى كتابات «بيكون» و «رالى» منذ ثلاثة قرون ، كما ذكر أن «تيوسيديد» و «ثمو ستوبلكس» و «أجزركيس» قد تناولوها من قبل ، إلا أن ميهان قد سبق الجميع دون شك فى وضع نظرية محددة للاستراتيجية البحرية ، واتخذ من التاريخ معوانا له على توكيدها والتدليل على سلامتها . وفى هذا تكمن شهرته وذيوع صيته ، وبقاء كتابه فى الشوامخ من تراث الانسانية الفكرى ، فليس الرجل مؤرخا وإن اتخذ من التاريخ ميدانه الفسيح للبحث والاستقراء ، بل لعله فى هذا المضمار مؤرخ ردىء ، ولكنه جاء بنظرية راح يثبتها بوقائع التاريخ ، وبفكرة أخذ يدعو اليها فاستجابت اليها الدول على اختلافها ، ودفعت الولايات المتحدة إلى انتاجها فسارت ولما يمر ربع قرن على صدور هذا الكتاب ، فى الطريق الذى رسمه لتصبح أقوى دولة بحرية فى العالم .

ويبدأ ميهان كتابه بعرض مجمل لقيام الدول البحرية الكبرى وسقوطها ، ربط بينه وبين العوامل الأساسية التى يجب توفرها فى أمة تتطلع إلى السيادة البحرية ، وما أن استوفى هذه العوامل حتى بدأ تحليله للحروب البحرية فى أوربا فيما بين عام ١٦٦٠ وعام ١٧٨٣ ، وهى فترة تمتد قرابة قرن وربع القرن شهدت أعنف صراع بين الدول الاستعمارية على صفحة البحار كما أشرنا من قبل . ويتخذ من الحرب بين هولندا وانجلترا بداية لتلك الدراسة الشاملة ، وهى الحرب التى أعلنها لويس الرابع عشر على هولندا عام ١٦٧٢ ، واشترك فيها شارل الثانى إلى جانب قريبه ملك فرنسا عام ١٦٧٤ ، بمقتضى معاهدة دوفر السرية عام ١٦٧٠ التى ضمن فيها لويس وقوف شارل إلى جانبه ، ودارت الحرب سجالا بين الفريقين فى البر ، وفى البحر وأبدى كل منهما شجاعة بحرية عظيمة وفيها ظفرت انجلترا بمستعمرة «نيو امستردام» التى دعتها نيويورك .

ويتبع ميهان بنوع خاص الحروب البحرية التى خاضتها انجلترا وانتهت بها إلى سيادة البحار فيشير إلى الأخطاء الكبيرة التى وقعت فيها انجلترا وهددت مصالحها التجارية بالخطر أثناء حرب الوراثة الأسبانية. عندما شغلت بالمحافظة على مبدأ التوازن الدولى بالوقوف أمام أطماع لويس الرابع عشر عن مصالحها البحرية والتجارية فانضمت إلى المحالفة الكبرى ضد فرنسا حين أعلن لويس تنصيب حفيده «فيليب آنجو» ملكا على أسبانيا تنفيذا لوصية مليكها الراحل «شارل الثانى» عام ١٧٠٠ . ولم يكن قد أنجب وريثا للعرش ، على خلاف ما اتفق عليه مع «وليم الثالث» ملك انجلترا بتقسيم ممتلكات اسبانيا بعد موت شارل الثانى .

ودارت رحى الحرب فى بفاريا والأراضى المنخفضة وطال مداها بالرغم من الانتصارات الكبرى التى أحرزها الحلفاء ضد فرنسا فى «بلنهيم» و«رملليزن» و «أدينار» و «ملبلاكيه» ، وأخيرا انتهت بصلح «اترخت» عام ١٧١٣ ، وظفرت فيه انجلترا بنيو فوندلاند ، ونوفا سكوشيا ، وخليج هدسن ، من فرنسا كما استولت على منورقة وجبل طارق ، بينما اتجه حلفاؤها بمغانمهم إلى القارة ، وظهر لأول مرة اهتمام انجلترا بمصالحها الاستعمارية خارج القارة ، وخرجت من تلك الحرب وقد أصبحت سيدة البحار ، وبدأت المنافسة الاستعمارية العنيفة بينها وبين فرنسا وهى المنافسة التى امتدت حتى بداية القرن العشرين .

ويشير ميهان إلى انتصار انجلترا فى حرب السنين السبع عام ١٧٥٩ ويقول إن انتصار «ولف» على الفرنسيين فى كندا وسقوط «كويبك» العاصمة فى يد الانجليز ، ما كان ليتم لو لم يعاونه الأسطول باقتحام مصب نهر سانت لورنس ، فمنع الامدادات الفرنسية من نجدة «منتسكام» القائد الفرنسى فخسر المعركة رغم بسالته ومناعة تحصيناته ، وظفرت انجلترا فيها عندما عقد صلح باريس عام ١٧٦٣ بكندا والأقاليم الواقعة شرق المسيسبى ماعدا لويزيانا .

كما يؤكد أهمية القوى البحرية فى دراسته لحرب الاستقلال الأمريكية فيقول إن تفرق وحدات الأسطول الانجليزى قد حالت بينه وبين التفوق على أسطولى فرنسا واسبانيا المتحدين وكانت فرنسا قد اتخذت جانب الثوار علنا بعد أن كانت تساندهم سرا إثر انتصارهم فى معركة ساراتوجا عام ١٧٧٧ ، فأمدتهم بجيش بقيادة «رشمبو» و «لافييت» ، كما انضمت اليهم أسبانيا خوفا على فلوريدا ، وأعلنت دول أوربا الشمالية الحياد المسلح لتحول بين انجلترا وتفتيش السفن المحايدة ، فأصبح انتصار الثوار مؤكدا . لاسيما بعد أن تمكن الأسطول الفرنسى من ابعاد الأسطول الإنجليزى عن الساحل ومحاصرة يوركتون بحرا ، بينما كانت القوات الأمريكية الفرنسية المتحالفة تحيط بالقوات الانجليزية برا ، فاضطر «كورنواليس» القائد الانجليزى إلى التسليم فى اكتوبر سنة ١٧٨١ ، واعترفت انجلترا باستقلال الولايات المتحدة عام ١٧٨٢.

ويبرز ميهان حقيقة يكررها ويؤكدها فى كل دراساته وهى أن الحصار البحرى عامل حاسم فى الحرب بين دولة برية وأخرى بحرية . يودى فى النهاية بكل انتصار تحرزه القوات البرية مهما كان ساحقا .

ولم يبغ ميهان من كتابه هذا – كما ذكر للأميرال لوس – أن يكتب تاريخا للوقائع البحرية ، بل كان يرمى إلى نقد المعارك وتحليلها أكثر مما يرمى إلى تتبع الأحداث والوقائع ، ولكنه عن طريق الاستقراء التاريخى استطاع أن يرسم صورة دقيقة للعلاقة القوية بين السيادة البحرية والمركز السياسى للدولة ، فعن طريق السيادة البحرية قضت انجلترا على أطماع لويس الرابع عشر وطموح نابليون وانقذت – كما يدعى – الحضارة من أعدائها .

ويبدو أن حماسه للسيادة البحرية قد طغى على مثله العليا القديمة فأخذ ينظر إلى الاستعمار البريطانى نظرة الانجليزى نفسه إلى المجد الامبراطورى ، ولم يكن تمجيده لبريطانيا فى الواقع إلا تمجيدا للسيادة البحرية طغى فيه الحماس للنظرية على مثل الإنسان فبدا وكأنه من غلاة الداعين للاستعمار ، ولم تكن دعوته إلى القوة البحرية لتستقيم ما لم يكن لها هدف تحققه وخطة تقوم عليها مما ساقه إلى تبرير الاستعمار ، ولما كانت نظريته تقوم على الاستقراء التاريخى لقوة الدولة فقد وجد فى نمو البحرية البريطانية مصداقا لنظريته فكان حماسه لبريطانيا وليد الحماس للنظرية أكثر منه حماسا لشكل الاستعمار ووسائله فلم يناقش الشكل أو الوسيلة إلا من وجهة النظر الاستراتيجية والأسس التى تقوم عليها القوة البحرية التى تقوم عليها قوة الدولة الحقيقية .

والواقع أن نظرية ميهان ما هى إلا وليدة العصر الذى عاشه والأحداث التاريخية التى سبقته حين أصبح الامتداد الاستعمارى بحريا أكثر منه قاريا وقامت الامبراطوريات عبر البحار أكثر مما قامت مع الامتداد البرى للجيوش الغازية ، وحين أصبحت السفن وسيلة المواصلات الرئيسية للبلاد البعيدة ، وحلت

محل القوافل فى نقل التجارة ، وأصبح من الضرورى حماية السفن التجارية عن طريق التسليح الذاتى أو حراستها بالسفن الحربية التى تعد لهذا الغرض فحسب .

فعصر ميهان هو عصر التوسع البحرى ، والامبراطوريات الاستعمارية فيما وراء البحار ، وعصر القباطنة العظام من ربابنة الدولة ومن قراصنة البحار على السواء .

ومهما قيل إن نظريات ميهان وآراءه العديدة فى السياسة والاستراتيجية جاءت متناثرة على طول السرد التاريخى دون رابط – كما تقول مرجريت سيروت – فإنها فى الواقع تكون نظرية متكاملة نستطيع أن نجملها فى الأسس التالية :

١ – أبدع فلسفة جديدة للقوى البحرية تركت أعمق الصدى فى الهيئات البحرية وفى الدول المتطلعة إلى القوة .

٢ – وضع نظرية جديدة للاستراتيجية البحرية ، لم يسبقه إليها باحث . وإن كنا لاندعى أنه أبدع شيئا لم يكن معروفا . ولكنه وضع ماهو معروف فى إطاره العلمى .

٣ – غذى التكنيكات البحرية بآراء لها وزنها فى معارك البحار .

وقد وضع ميهان حدا فاصلا بين الاستراتيجية البحرية والتكنيك البحرى ، وهو الفاصل المعروف فى الحروب البرية . فالاستراتيجية تقوم على خواطر طبيعية لاتتغير كموقع الدولة من البحر وسياستها البحرية وقوة بحريتها واسطولها التجارى وقواعدها البحرية ، أما التكنيك البحرى فيعنى بالمعركة بعد بدايتها ، وعدته الأسلحة التى يصنعها الانسان وتطورها فيتغير تبعا لتطور السلاح البحرى . بينما تبقى الاستراتيجية البحرية ثابتة لاتتغير ... وكأنها تقوم على صخرة صماء» فى السلم وفى الحرب» .

وإن لم يأت ميهان بجديد فى تعريف الاستراتيجية والتكنيك . إلا أنه كان أول من فصل بينهما فى الحرب البحرية . فلم تكن النظرة إلى الأسطول من قبل إلا أنه جزء من البناء العسكرى للدولة الغرض منه حماية السفن التجارية والدفاع عن السواحل ضد أية عمليات للغزو ، وفى هذا يتميز ميهان على من سبقوه . فضلا عما نادى به وأكده من أن القوة البحرية تستطيع أن تزود الولايات المتحدة ، كما زودت بريطانيا بالدعامة الصلبة لقوتها ومكانتها الدولية .

والمحور الذى تقوم عليه دراسته للتاريخ البحرى ، هو إثبات ماللقوى البحرية من أثر فى تاريخ الأمة ، والفكرة التى تثب على الدوام فى كتاباته هى توكيد الدور الذى تقوم به القوة البحرية للدولة فى دعم مكانتها السياسية والدولية فى العالم ، وتحقيق الأمن الأستراتيجى والقوة والتقدم والرخاء العام للأمة .

وعلى ضوء هذه الحقيقة التى أكدها ، انتقل إلى بحث الأسس التى تقوم عليها القوة البحرية للدولة وأجملها فى ستة عوامل رئيسية هى :

المركز الجغرافى – هيئة الأرض – الامتداد الاقليمى – السكان – الطابع القومى – النظام السياسى للحكم .

وأخذ يناقش كلا منها مبينا أثرها على القوة البحرية ، مستقرئا التاريخ اثباتها .

١ – المركز الجغرافى : Geographical Position

والمركز الجغرافى هو وضع الدولة بالنسبة لجيرانها وموقعها من البحر ، فكلما فصل البحر بين الدولة وجيرانها كانت فى وضع أكثر أمنا ، ويمكن إدراك هذه الحقيقة من دراستنا للوضع الجغرافى لكل من

الدول الثلاث المتنافسة حينذاك وهى : بريطانيا ، وهولندا ، وفرنسا . فإحاطة البحر بالجزر البريطانية قد جعلها فى وضع أكثر أمنا من منافستيها . فقد أمنها البحر من أى غزو برى . وحررها من الحاجة إلى جيش كبير يثقل ميزانيتها ويعوق تقدمها الاقتصادى ورخاءها المادى ، وهى قريبة من القارة الأوربية إلى الحد الذى يمكنها من ضرب أعدائها . وهى فى الوقت نفسه بعيدة عنها إلى الحد الذى يجعلها تأمن من الغزو . حيث يستطيع الأسطول البريطانى من قاعدته الرئيسية فى الجزر البريطانية أن يوجه ضربات قاصمة للأعداء . وأن يقوم بحصار بحرى محكم للقارة . فضلا عما يقوم به من كفالة الأمن الاستراتيجى للدولة والدفاع عن البلاد . على نقيض فرنسا حيث يضطرها امتداد سواحلها على بحرين ، إلى تقسيم أسطولها بين البحر المتوسط والمحيط الاطلنطى ويحرمها ميزة الحشد الاستراتيجى لقوتها البحرية . كما يضطرها وضعها فى القارة وامتداد حدودها القارية امتدادا يحملها على تكوين جيش كبير للغزو أو الدفاع أمام جيران أقوياء . مما ينهك اقتصادها وأمدادها البشرية من المجندين . مثلها فى ذلك مثل هولندا حين استنفدت قواتها الحربية فى الدفاع عن استقلالها ضد الغزو البرى .

ولمركز بريطانيا الجغرافى ميزة فريدة فى السيطرة على طرق الملاحة الرئيسية إلى شمال أوربا وعندما استولت على جبل طارق والجزر الرئيسية الهامة فى البحر المتوسط أصبحت فى وضع يمكنها من السيطرة عليه «تلك السيطرة التى لعبت دورا بارزا فى تاريخ العالم من الناحيتين الحربية والتجارية ، أكثر مما كان لأية رقعة مائية أخرى » .

٢ ـ هيئة الأرض : Physical Conformation

ويقصد بها ما يمكن أن يكون لهيئة الطبيعية للأقليم من أثر على القوة البحرية ، وعلى جاذبية البحر للسكان ، فطبيعة الساحل تحكم الانطلاق إلى البحر ، والموانىء الجيدة تزودها بالاحتمالات الرائعة . وطبيعة التربة اما تجذب الناس إليها أو تقذفهم بعيدا عنها إلى البحر سعيا وراء الرزق ، وقد اندفع الهولنديون إلى البحر . ولكن اعتمادهم الكلى عليه كان مصدر ضعف لاقوة . وخصب التربة الفرنسية قد حبس الفرنسيين على الأرض ونأى بهم عن البحر . فلم تكن بهم حاجة إلى طلب الرزق عن طريقه مالم يكن السعى إليه ضروريا فيه . مثلهم فى هذا مثل الولايات المتحدة الذين تقعد بهم ثروتهم عن الانطلاق نحوه .

أما الجزر وأشباه الجزر من الأقاليم كبريطانيا وأسبانيا وايطاليا . فعليها حتى تكون قوية مؤثرة ، أن تمتلك بحرية على درجة كافية من القوة .

والبحر فى ذاته حد فاصل ، وقوة الدولة هى فى قدرتها على اجتياز هذا الحد الفاصل والانطلاق إلى ما ورائه .

٣ ـ الامتداد الاقليمى : Extent of Territory

ولا يعنى به سعة رقعة الدولة . أو امتداد مساحتها بالأميال المربعة . بل يعنى به الامتداد الساحلى للدولة . وملاءمة مرافئها للملاحة . والتناسب بين تعداد السكان وطول السواحل . ويضرب لذلك مثلا بولايات الجنوب التى يتمتع سكانها بروح حربية عالية . وزودتها الطبيعة بالفرص والخلجان والسواحل الممتدة . والموارد الغنية . ولكنها لم تكن تملك أسطولا حربيا أو تجاريا قويا ولم يكن أهلها ممن يحبون البحر . ولم يكن تعدادهم ليتناسب إطلاقا مع طول سواحلهم . فرجحت كفة الشمال وكان لهم النصر فى الحرب الأهلية الأمريكية .

فامتداد السواحل وكثرة الطرق المائية الداخلية

كالأنهار والبحيرات قد يكون عامل ضعف لاقوة ، مالم يتناسب هذا الامتداد مع عدد السكان وكثرة الموارد وتعلق الناس بالملاحة وحبهم للبحر .

٤ ــ السكان : Population

ولا يعتد ميهان فى هذا المضمار بالتعداد العام للسكان بقدر مايعتد بعدد من يعملون منهم بالبحر والصناعات البحرية ، أو على الأقل عدد من يستطيع العمل فى السفن الحربية والتجارية ، واستشهد على ذلك بكل من فرنسا وانجلترا ، ففرنسا بالرغم من أنها أكثر سكانا إلا أن عدد من يعمل منهم فى البحر أقل منه فى انجلترا ، فضلا عن اهتمام الانجليز بالبحر والتجارة ، وانصراف الفرنسيين باهتمامهم الأوفى إلى الزراعة .

وما من شك فى أن التجارة القومية زمن السلم تعد من أسباب القوة التى تساعد الدولة على البقاء والصمود فى حرب بحرية ، وكلما عظم الاحتياطى من العمال المهرة الذين يعملون زمن السلم ، كلما كانوا عنصرا من عناصر القوة زمن الحرب ، فلم تكن انجلترا مثلا دولة من التجار هواة البحر فحسب بل كانت تبنى السفن وتزود بها الأساطيل الحربية والتجارية على السواء . وإذا كان الوقت هو العامل المؤثر فى سير الحرب ، فان على الأمم التى تعوزها الروح الحربية وتكره التجبيش وما يتطلبه من نفقات باهظة . أن تبقى على الدرع الواقية للدفاع ليكون لديها الوقت الكافى عندما تبدأ الحرب لمواجهة الموقف الجديد وحشد القوى الفنية والبشرية الكافية لكسب النصر .

ويفرق ميهان بهذا بين القوات العاملة فعلا والقوات اللازمة ، فهما شيئان لايتماثلان ، وإن كان من الضرورى أن تظل النسبة بينهما متوازنة ، بمعنى أن تحتفظ كل دولة بنسبة معينة من القوات تكون من الكفاية بحيث تتيح لها فى الوقت المناسب وفى الساعة الحاسمة إعداد القوات اللازمة للمعركة مع كل مايلزمها من عتاد .

ويختم ميهان مناقشته بهذا العامل بقوله : « إن اتجاه الأمة الطبيعى للصناعات البحرية والعمل فى البحار لهو أهم ما ترتكز عليه القوة البحرية للدولة من مقومات التفوق على مر العصور ، فى الحاضر أو فى الماضى » وهو مايعوز الولايات المتحدة كما قال حينذاك .

٥ ــ الطابع القومى : National Character

ومن العوامل التى تحدد مدى القوة البحرية للأمة أو الدولة طبيعة المواطنين وميولهم العامة . فقد أثبتت أحداث التاريخ أن الأمم التجارية كانت على الدوام أمما بحرية عظيمة ، فالميل إلى الكسب والاتجار والقدرة على انتاج مايلزم للتجارة هما اللتان تكونان الطابع المميز للأمم البحرية ، فان توفرت هاتان الطبيعتان لأمة من الأمم حملتاها على متن الخضم طلبا للثراء وحبا فى التجارة لايعوقها خطر ولا تخيفها المهالك . فاذا ما اندفعت الأمة نحو الكسب والتجارة ونجحت فى إقامة حركة تجارية رابحة زمن السلم كانت تلك هى خطوتها الأولى لارتياد البحار وحافزها على بناء قوة بحرية قاهرة ، ولقد حملت التجارة البحرية الواسعة بريطانيا على بناء السفن وإقامة القواعد والصناعات البحرية التى جعلت منها أعظم قوة بحرية فى العالم الحديث .

ولقد جنى الانجليز والهولنديون ــ بالرغم مما قيل عنهم احتقارا ، أنهم من التجار وأرباب الحوانيت ــ من الأرباح التجارية مايفوق كل ما كسبه البرتغال والأسبان من مناجم الذهب والفضة ، وزاد على كل

ما ادخره الفرنسيون من أموال ، على مافيهم من بخل وتقتير حال بينهم وبين استثمارها فى التجارة الخارجية .

وتحتاج التجارة إلى الأسواق ، حاجتها إلى انتاج السلع التجارية ووسائل التجارة ، فكانت حركة الاستعمار مرتبطة إلى أبعد مدى بحركة التجارة . وكما كانت انجلترا أوسع الدول تجارة ، فقد غدت بالتالى أوسع الدول استعمارا ، وكما حققت لها قوتها البحرية سيادة البحار ، فقد حققت لها التجارة أوسع امبراطورية استعمارية .

وخص الانجليز بطبيعة استعمارية حققت لاستعمارهم النجاح وأفاءت عليهم كثيرا من الربح فقد أقاموا مستعمرات مزدهرة حققت نوعا من الرخاء رفع القوى الشرائية فيها فراجت التجارة الانجليزية رواجا لم تصل اليه دولة استعمارية اخرى .

ومن طبيعة الانجليزى أن يستقر فى الوطن النازح ويوائم بين مصالحه الشخصية ومصالح وطنه القديم والجديد على حد سواء ، فيقيم حيث يطيب له العيش لايعتريه قلق أو حنين للعودة مع بقائه على الولاء والود لوطنه الأم . وتلك طبيعة أعوزت غيره من المستعمرين فالمستعمر الاسبانى مثلا ما كان يعنيه من المستعمرات غير اجتناء الثروة واستغلال موارد المستعمرات دون أن يعنى بتنمية تلك الموارد وإصلاحها . لذلك كان الاستعمار الانجليزى أطول عمرا وأكثر ثباتا من غيره .

٦ ـ النظام السياسى للحكم :

Governmental Institutions

ويرى ميهان أن نوع الحكومة وطبيعة الحكام ومدى اهتمامهم بالبحر مما يؤثر تماما فى قوة الدولة البحرية واطراد نموها ، فاذا أبدت اهتماما بالبحر ودفعت الناس اليه ، استطاعت أن تنشىء القوة البحرية التى تريدها .

والحاكم الفرد ـ كما يعتقد رغم تفضيله للنظم الديمقراطية ـ أقوى وأقدر على انشاء القوة البحرية ، إذا ماتحققت له القدرة والكفاية ، مما تستطيعه أية حكومة ديمقراطية ، ولكن المشكلة هى فيمن يخلف هذا الحاكم القادر المستبد ، وهل يستطيع أن يواصل الجهد بنفس القدرة والكفاية فى بناء السفن الحربية والتجارية .

ويتخذ ميهان من دراسته للحكم الانجليزى مثلا واضحا لاهتمام الحكومة بالبحر والسياسة البحرية ويتبع الأدوار التى مرت بها لتحقيق السيادة البريطانية على البحار ، فيقول إن بريطانيا بدأت جولتها الاستعمارية أيام جيمس الأول فسلكت الطريق الذى يصل بها إلى المستعمرات وضمان السيادة البحرية وتنمية التجارة الانجليزية ، ويرد ذلك إلى قيام طبقة واحدة بالحكم هى طبقة النبلاء ، وإن كنا نرى أن نمو الطبقة البرجوازية فى انجلترا ونشاطها التجارى كان أبعد أثرا فى تنمية المصالح التجارية الانجليزية ، والاتجاه إلى البحر . والاهتمام بالقوة البحرية ، من أى جهد او نشاط بطبقة النبلاء . ولكنه عاد يقول إن الحكومة البريطانية قد اختطت سياسة بحرية محددة منذ البداية تقوم على سيادة البحر وتكوين امبراطورية فيما وراء البحار قامت على تنفيذها بعيدا عن تدخل الملك أو الأحزاب ، فقد جعلت منها هدفا قوميا يعلو على الملك وعلى الاحزاب معا . وإن اعتراه الشك فى استمرار تلك السياسة على يد حكومة ديمقراطية لاتحب أن تثقل الميزانية بالنفقات الباهظة لقوة بحرية كبيرة ، أو لاعداد قوة عسكرية دائمة . ويستشهد على ذلك بما حاولته فرنسا أيام « كولبير » عندما أرادت أن تكون دولة بحرية كبيرة ، ولكن خلفاء كولبير انصرفوا عنها ، ولم تحصل الحكومة الفرنسية من

التجارة أو المستعمرات ما يعوضها الانفاق على قوة بحرية كبيرة .

ويخلص من دراسته لسياسة الحكومات البحرية إلى أن الحكومة تحفظ سياسة بحرية للسلم وأخرى للحرب . فهى التى تسيطر على الأسطول زمن السلم وتقدر حاجته من العدة والعتاد وتزوده بالضباط والبحارة اللازمين ، وهى التى تبث فى رعاياها روح المغامرة وارتياد البحار وتشرف على الصناعات وقدرتها على امداد القوة البحرية بحاجتها . وهى التى تضع الخطوط الاستراتيجية لسياستها البحرية بما لها من تأثير على بناء القوة البحرية ، وهى التى تشجع أو تقتل الميل الغريزى فى الأفراد نحو البحر . وعند الحرب تعد الاسطول للمواجهة الحربية وتقوم بتحصين القواعد البحرية وتأمينها فى المناطق النائية ، كما تؤمن مسار السفن التجارية باعداد القوى البحرية المناسبة لحمولة الأسطول التجارى .

وتقرر الحكومة مدى تأثير القواعد البحرية على قوتها فى البحر ، فتمثل منها ماتراه كفيلا بتحقيق الأمن الاستراتيجى لأسطولها الحربى وسفائنها التجارية ولطرق المواصلات الرئيسية إلى مستعمراتها البعيدة ، فالبحار مسار محفوف بالمخاطر تزخر بالخصوم والأعداء ، وكلما ارتكز الأسطول إلى قواعد رئيسية حصينة تمده بالمؤن والازواد وتتيح له ملجأ أمينا للحشد والانقضاض ، كان أكثر أمنا وأقدر على مجابهة الأعداء وحماية التجارة وطرق الاقتراب الرئيسية إلى المستعمرات .

وليست هذه القواعد مستعمرات بالمعنى المفهوم بل هى مراكز حاكمة لها أهميتها الاستراتيجية فحسب ، فليس لها طابع تجارى ، وقد امتلكت انجلترا عددا منها أتاح لها فضلا عن قوة أسطولها سيطرة كاملة على البحار لم ينازعها فيه منازع بعد معركة الطرف الأغر وليس للولايات المتحدة من تلك القواعد مالبريطانيا فترى بواخرها « كطيور البر لاتستطيع ابتعادا عن الساحل » .

والمستعمرات سند أكيــد للقوة البحــرية « فبالمستعمرات – كما يقول – ينفسح امتداد الدولة إلى اراض بعيدة ، نجد فيها سوقا رائجا لتجارتها ، وعملا أوفر لسكانها ومأوى لأسطولها وموردا وفيرا لرخائها وثروتها » .

استراتيجية للبحر :

كانت أصداء التاريخ تدوى فى أذن ميهان فأوحت له بالفكرة الأساسية فى كتابه وهى تأثير القوة البحرية على كيان الدولة ومصيرها تأثيرا يحدد دورها فى التاريخ ، وعندما أخذ يقومها ويثبتها كانت أحداث التاريخ دائما أمامه تمده بالبرهان والدليل ، ليخرج منها بالحقيقة التى راح يبشر بها ويدعو إليها طيلة حياته وهى أهمية القوة البحرية فى بناء عظمة الدولة . وحملته الفكرة على وضع أسس محددة للسيادة البحرية ، كما حملته على استقراء مبادىء للاستراتيجية البحرية يمكن أن تقارن باستراتيجية الحرب أو تقف ندا لها . مادام قد أثبت أن الاسطول لم يعد جزءاً من بناء القوات البرية يسير فى ركابها ويعاون فى عملياتها الرئيسية ، وأنه بناء مستقل بذاته لايقل دوره ، إن لم يفق دور القوات البرية ، بل انه ليرى أن القوى البحرية فى كل صورها » هى الطريق الملكى المعبد للرخاء القومى ومكانة الدولة بين أقرانها » .

وجاءت أراء ميهان فى الاستراتيجية البحرية مبعثرة فى مؤلفاته الثلاثة وأخذت تتضح وتتحدد فى كتبه الأخيرة .

والواقع أننا لا نستطيع أن نعرض لكتاب «تأثير

القوى البحرية على التاريخ » وحده دون كتب ميهان الأخرى فانها جميعا تعالج موضوعا واحدا وكأنها كتاب واحد ، وإن ظفر كتابه الأول بالاهتمام فلأنه أجمل فكرته عن القوى البحرية وتبشيره بما لها من أثر حاسم على الأمم ثم كانت كتبه الأخرى تكرارا لما جاء فى كتابه الأول وإن اختلف الموضوع واختلفت الفترة الزمنية التى يتناولها .

ويبدو — وقد وضع فلسفة للسياسة البحرية . أنه قد شعر بحاجة هذه الفلسفة إلى الارتكاز على مبادىء استراتيجية تكون ندا لاستراتيجية الحروب البرية وقرينا لها فأخذ يجمع شتاتها ويحدد معالمها فى دراساته الأخيرة .

واتخذ نظرية «جومينى» (١٧٧٩–١٨٦٩) فى الحرب — وقد عاصره فى شيخوخته — أساسا لدراساته الاستراتيجية ، فقرأ مؤلفاته . وأبدى اهتماما بكتابيه « حملات الثورة والامبراطورية » و « موجز فن الحرب » . واعترف بفضله حين تعلم منه أن ينظر إلى أحداث التاريخ البحرى كصور « لمبادىء حية » ، وكيف يقوم بنقد تحليلى للمعارك والحملات الحربية ، كما عرف من دراسته أن « ليس ثمة حد فاصل بين الاعتبارات الدبلوماسية والعسكرية » .

وقد صاغ جومينى نظريته فى الحرب على أسس رئيسية هى :

الموقع — خطوط الاقتراب — المواصلات — الحشد.

وأراد ميهان أن يصوغ مثيلا لتلك المبادىء للاستراتيجية البحرية وتكنيك الأساطيل ووجد فيها ما يصلح للبحار صلاحيته على الأرض ، وإن احتاج بعضها إلى التحوير والتعديل . فوضع بذلك أسس الاستراتيجية البحرية التى تركت لمساتها البارزة على سياسة القوى البحرية الكبرى جميعا : وخطة كل منها.

وأحسن المواقع فى الهجوم أو الدفاع ما احتل المركز . فعلى البر كما فى البحر . تسيطر مثل هذه المواقع المركزية على الخطوط الداخلية والمباشرة للهجوم ، فالخطوط الداخلية ماهى الا امتداد للموقع المركزى . أو اتصال عدة مواقع مركزية بعضها ببعض . وفى قدرة من يسيطر عليها أن يحشد قواته على أية جبهة بأسرع مما يحشدها العدو وتكون له ميزة الاستخدام الجيد المؤثر . «فالسويس مثلا تقع على خط اقتراب داخلى إذا ماقورنت برأس الرجاء الصالح ، ومثلها فى ذلك مثل «بنما» إذا ما قيست «بمضيق ماجلان» . وقناة كييل« بالنسبة » لسكا جراك »

ويبرهن ميهان على أن القيمة الاستراتيجية للموقع لاتتوقف على اتصاله بخطوط الاقتراب الاستراتيجية فحسب ، وإنما على قوته الذاتية ، وعلى كفايته من الموارد المحلية أو القريبة . فموقع دوفر وموقع جبل طارق يتشابهان إلى حد بعيد فى قربهما من الطرق البحرية ، وفى أنهما موقعان مركزيان يتميزان باشرافهما على طرق مائية ضيقة يعبرها عديد من السفن ، وقد يتفوق موقع منهما فى تحصيناته ، ولكنه يبقى متخلفا مادام يعتمد على موارد نائية كجبل طارق .

ويعنى ميهان بالمواصلات خطوط التحرك بين القوات ومراكز الأمداد . فالمواصلات كما يقول : «هى أعظم العوامل أهمية فى الاستراتيجية عسكرية كانت أو سياسية » و « عظمة القوة البحرية تكمن فى السيطرة عليها » و « القدرة على تأمين المواصلات ، وبالتالى عرقلتها فى وجه العدو أقوى وأعظم مايؤثر على شموخ الأمة » وهو ماتمتاز به القوى البحرية ، وعليها لهذا وحده أن تتحرر من كل مايعوق قدرتها من حيث العدو أو الموقع » وكلما طالت طرق

المواصلات ، كلما مست الحاجة إلى القوة البحرية » .
و« يصبح الموقع المركزى أكثر نفعا كلما كان أقدر على تأمين طرق المواصلات . وهو ماكان لفرنسا فى حربها ضد اسبانيا والنمسا ، كما كان لانجلترا فى حربها مع فرنسا ، فقد تمكن الأسطول الانجليزى من حصار السواحل الفرنسية ، كما تمكن من تأمين المصالح البريطانية من البلطيق إلى مصر .

والحشد – كما يؤكد ميهان – من أبرز مبادىء الحرب البرية والبحرية على السواء ، وما قيمة الموقع المركزى إلا أنه يجعل عملية الحشد أكثر كفاية ويسرا ، فاذا واجه الأسطول قوتين فعليه أن يحتشد ليجهز على كل منهما منفردا ، وهو مبدأ يتقنه ميهان من دراسته للمعارك التاريخية ، « فما من معركة إلا وكان النصر أو كانت الهزيمة نتيجة لما جرى عليه الأخذ بمبادىء الحرب » .

ويرجع تفوق الاسطول البريطانى إلى سلامة استراتيجيته البحرية وتفوقها ، فقد اكتشفت الانجليز منذ أزمنة طويلة أن بعض العمليات البحرية كانت أكثر نجاحا من غيرها ، فى الحرب مع هولندا واجه اسطول شارل الثانى الهزيمة لأنه تجافى مبدأ الحشد وقسم أسطوله قسمين ، قسم لمواجهة الاسطول الفرنسى والآخر لمواجهة الأسطول الهولندى فى وقت واحد . وانتهت باحتلال الهولنديين لمدخل نهر التيمز ، ولم يكن قد مضى غير خمسة عشر عاما حين أغلق أسطول كرموبل القوى موانىء هولندا على تجارها . وفى الفترة مابين عام ١٦٨٩ وعام ١٦٩٨ ، سير الفرنسيون أساطيل عظيمة لاقتسام السيطرة على البحار مع الانجليز الذين تحملوا من جراء المحاولة خسائر جسيمة ، وفى خلال حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢–١٧١٢) انسحب الاسطول الفرنسى من المحيطات ، بينما ضاعف الفرنسيون من عدد الطرادات المغيرة على السفن التجارية . وبالرغم مما فقده الانجليز من التجارة والتجار والسفن التجارية ، فقد ازدهرت التجارة الانجليزية ، بينما اختفى التجار الفرنسيون من البحر . وبدا أن « حرب التعرض » ليست بديلا موفقا للعمليات البحرية .

وكانت العمليات البحرية ضد فرنسا فى حرب السنين السبع (١٧٥٦–١٧٦٣) ، دليلا على تطور الاستراتيجية البريطانية ، ففيها قام الاسطول البريطانى لأول مرة بحصار « برست » ليحول بين الأسطول الفرنسى والخروج إلى البحر مالم يشق طريقه بالقتال ، ففرض الجمود على السلاح الهجومى الوحيد لفرنسا وهو الأسطول ، وأصبحت عاجزة تماما عن استخدامه استخداما له قيمته العملية ، بينما أخذت السفن البريطانية فى شن غارات سريعة على الساحل الفرنسى لتبقى قوات فرنسا البرية مشتتة فى الدفاع الساحلى ، كما حشد الانجليز أسطولا فى البحر المتوسط قرب جبل طارق ليمنع أسطول طولون الفرنسى من التحرك لنجدة الاسطول الفرنسى على الجانب الآخر . وعندما خلا البحر لهم أرسلوا الحملات للاستيلاء على المستعمرات الفرنسية فى جزر الهند الغربية ، وانهارت التجارة الفرنسية بينما ازدهرت تجارة الانجليز .

وبانتهاء الحرب أدركت الحكومة الانجليزية أن السيطرة البحرية هى مفتاح الرخاء والنجاح وبذلك تحولت « مملكة بريطانيا – كما يقول ميهان – إلى الإمبراطورية البريطانية » .

ويقارن ميهان بين استراتيجية البحرية الإنجليزية واستراتيجية البحرية الفرنسية ، مناقشاً الخطأ والصواب فى كل منهما ، مما يتمشى ونظرته إلى استراتيجية البحر ، فيقول إن الاختلاف بينهما يعكس وجهات النظر

المتباينة للغرض الحقيقى من الحرب البحرية ، فإذا كان الغرض تأمين المواقع الساحلية ، كان الأسطول فى هذا سلاحاً معاوناً وفرعاً من فروع الجيش ، وكانت تلك هى وجهة النظر الفرنسية ، بالرغم مما قاله « بيحو دى مورو جى — Pigot de Moragues — أعظم رجال التكنيك فى فرنسا حينذاك ، وأول مدير للكلية البحرية الفرنسية — من أنه « لا يوجد فى البحر ميدان للمعركة يمكن الاحتفاظ به ، ولا مكان يجب الاستيلاء عليه » وإن كان التاريخ لا يدع شكاً فى أن حروب البحرية الفرنسية كانت حروب « مواقع » وأن عمليات الأسطول كانت جزءاً من عمليات الهجوم والدفاع عن المواقع .

فإذا كان الغرض من القوة البحرية أن تتفوق على بحرية العدو للسيطرة على البحر ، فإن سفنه وأساطيله تغدو وهى الغرض الأصيل للاقتحام فى كل الأحوال ، وكانت تلك هى وجهة النظر الانجليزية ، فكان على أسطولهم أن يحطم قوة العدو فى البحر ، ويقطع عليه المواصلات إلى ممتلكاته ، وينضب موارده من الثروة التى يجنيها عن طريق التجارة ، ويكون من اليسير عليه أن يغلق عليه موانيه .

ويفسر لنا وجهة النظر الفرنسية ما تكبدته فرنسا فى حروبها البرية بالقارة من نفقات . فرأت الا ترهقها نفقات القوة البحرية ، وفضلت الطرادات والغارة على السفن التجارية ، وهذا النوع من العمليات ، وهو ما يعرف « بحرب التعرض — Guerre de Course » فضلا عن قلة نفقاته يحقق الهجوم على التجارة البريطانية مورد القوة والثراء للإنجليز ، إلا أنهم أهملوا الأصل متشبثين بالفرع — كما يقول ميهان — وانصرفوا إلى الغارة على تجارة العدو دون القضاء على قوته البحرية .

وتاريخ النزاع الفرنسى الانجليزى حافل بالأمثلة التى تبرز أوجه التباين بين الاستراتيجية والتكنيك البحرى لكل منهما ، فقد كان الفرنسيون يتجنبون القتال ما أمكن ، ولا يخرجون إلى البحر ما لم تضطرهم الظروف ويفضلون أسر السفن الانجليزية بدلا من تدميرها ، فإذا اضطروا للقتال اختاروا جانب الريح لأن هذا يفرض على العدو « المخاطرة بالهجوم » ويمكنهم من « عرقلة اقترابه » ، بينما يفضل الانجليز اختيار الجانب المضاد للريح حتى يضمنوا دقة التوجيه عند الاقتراب بالتحكم فى الدقة دون تأثير للريح » وكانت « خطتهم تقوم على الاقتحام لتحطيم سفن العدو » .

واستطاع الفرنسيون خلال الحروب النابليونية أن يوقعوا بالسفن التجارية الانجليزية لسنوات طوال وبشكل لم يسبق له مثيل ، ولكنهم لم ينجحوا فى ارغامهم على التسليم والتفاهم ، وعلى العكس أخذت سيطرة الانجليز البحرية تطرد ، وأصبح دنو السفن من الموانى الفرنسية محفوفاً بالخطر فارتفعت نفقات المعيشة فى فرنسا ، وازدادت متاعب الحصار القارى ، بينما اتسعت التجارة الانجليزية ، ونمت قوتهم البحرية.

وحين أغفل الانجليز حصار الأسطول الفرنسى فى « برست » خلال حرب الاستقلال الأمريكية ، ووزعوا قوتهم لحماية المستعمرات ، لم يقتنص الفرنسيون وحلفاؤهم تلك الفرصة للسيطرة على المانش واتجهوا للسيطرة على المياه الأمريكية ، فكان تسليم « كورنوالبس » أمام الأمريكيين والفرنسيين فى « يوركتون » وكان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية .

وتقوم عقيدة ميهان الاستراتيجية على السيطرة البحرية التى تتحقق — كما يرى — بحشد القوى القادرة على طرد أساطيل العدو الحربية والتجارية من البحار ، » ولا يتأتى هذا — كما يقول — بالاستيلاء على السفن والقوافل البحرية قلت أو كثرت ، مهما كان خطرها على

موارد الثروة والتجارة ، وإنما يتأتى بامتلاك القوة البحرية الضاربة . التي تزيح أعلام العدو عن البحار ، فلا تخفق إلا فوق صوار آبقة أو شاردة ، والتي تسيطر على أعالي البحار ، فتجتازها التجارة غادية رائحة آمنة من سطوة العدو ، ولن تكون تلك القوة البحرية الضاربة إلا للأساطيل الكبيرة » .

« فإذا لم يكن الغرض الكبير للأسطول هو المطاردة أو الهروب ، وكانت السيطرة على البحار ، فإن الطابع المؤثر لمثل هذا الأسطول ، هو قوة العمل الهجومي ، وليس السرعة ، فما من فائدة في الوصول أولا مالم تكن من القوة التي تجابه بها العدو عند وصوله » وهذا المبدأ — كما يعتقد — أصدق في البحر منه على البر ، فالعجز في قوة النيران لا يمكن سده في البحر كما يمكن سده في البر باختيار المواقع الأرضية المناسبة ، وحيث يكون للسرعة جدواها ، وإن لم يكن على حساب قوة النيران ، لذلك أصبحت البوارج ذات المواقع الضخمة عماد الأسطول .

وإذا لم يكن للدولة أسطول قوى فإن أحسن ماتقوم به أن تحتفظ به داخل ميناء حصين لتلقى على العدو عبء حصاره حتى لا ينطلق إلى البحر ، وإن كان هذا لا ينقذه في النهاية من مصيره المحتوم أمام أسطول قوى .

ويخرج ميهان من مناقشته للسياسة البحرية للولايات المتحدة بمبادىء تكمل نظريته الاستراتيجية ، فتراه ينكر أن يعد الأسطول للدفاع فحسب ، وهو خطأ وقعت فيه الولايات المتحدة بسبب الخلط بين الدفاع من الوجهة السياسية والدفاع من الوجهة العسكرية ، فالدفاع من وجهة النظر السياسية يعني استخدام الأسطول عند الاشتباك في حرب ، ويعني من وجهة النظر العسكرية أن يقعد حتى يهاجمه العدو فيدافع عن نفسه ، تاركاً للعدو حرية اختيار الوقت وتحديد أسلوب القتال . وليس من مهمة الأسطول أن يقوم بمثل هذا « الدفاع السلبي » عن السواحل ، فهذا من واجب الجيش ، فإذا قام به الأسطول فلن يكون رجاله المدربون أكثر من حراس للطوابي » وهي من الكثرة بحيث تحول دون حشد القوات البحرية ، فإذا كانت القلاع والطوابي هي محور الدفاع الساحلي فإنها بالتالي تحقق للأسطول الأمن حين يلجأ إلى قواعده وموانيه ، وحتى إذا كان الأسطول لأغراض الدفاع فحسب ، فإن عليه أن يزيد من عدد بوارجه نسبياً ليحول بين العدو القادم من مناطق نائية وبين التفكير في الهجوم .

فالغرض الاستراتيجي في نظرية ميهان هو السيطرة على البحر ، والوسيلة هي التفوق في التسليح البحري ، والقاعدة هي العمل الهجومي .

القنبلة الحارقة :

قد نصف كتابه كما وصفه كاتب معاصر ، بأنه أقوى من أية مادة متفجرة ، وقد نتفق على نعته « بالقنبلة الحارقة » ، إذا ما أردنا أن نصور فقط ماكان لكتابه من تأثير بالغ في نمو القوى البحرية ، وفيما وصلت إليه قوة الأساطيل الحديثة ذات البوارج الضخمة ، والمدافع البعيدة المدى من عيار الست عشرة بوصة ، فلم يكن ميهان ممن تسوقهم نزعة الشر إلى التدمير ، ولم يكن من أصحاب المزاج السوداوي ممن ينتشون برؤية الدماء ، ولم يكن حتى من أرباب نظرية الاستعلاء الامبراطوري ، ولكنه رجل وصلت به دراساته إلى حقيقة آمن بها واعتنقها وبشر بها ودعا إليها وهي أن قوة الدولة في قوة بحريتها ، فإذا كانت نظريته في الاستراتيجية البحرية قد حملته على تأييد الاستعمار ، فإنه لم يكن في جوهره استعمارياً ، ولكنه عبر عن حقيقة عصره تعبيراً صادقاً .

وعاش ميهان ليرى دعوته تقرع أسماع الدول

كهزيم مدافع الأسطول القوية التى نادى بها ، وتركت آراؤه آثارها البالغة فى سياستها البحرية وفى التسليح البحرى ، كما كانت مثار النقاش عند الجيوبولتكيين ، ابتداء من « ماكيندر » إلى « ستراوزهوبى » و « هوسوفر » ، وفتحت ميدان الجدل قوياً فى مستقبل القوى البحرية بعد التوسع فى مد الخطوط الحديدية وبعد ظهور الطائرة كسلاح مقاتل ، وكوسيلة من وسائل النقل السريع ، وشهد ميهان التوسع القارى فى مد الخطوط الحديدية ، ولعله سمع عن مشروع خط حديد الشرق « برلين — بغداد — رأس الخليج » . ولكنه لم يعش ليرى المستقبل الذى خطه الطيران ، ومن الطبيعى ألا يتصور حاملات الطائرات الضخمة كجزء من تسليح الأسطول ، وإن أشار مراراً إلى أن الاستراتيجية تصمد كصخرة صماء لاتتغير بينما يتطور التسليح ويتغير .

ولقد كان ميهان قد وضع الأساس النظرى والعملى لقوة الولايات المتحدة البحرية ، فقد كانت دعوته من السعة والشمول حتى غدت نبراساً يهتدى لكل الدول التى تنشد التفوق البحرى ، بل كانت الشعاع الذى اهتدت به بريطانيا فى المحافظة على قوتها البحرية .

ويقال إن تأثيره فى سياسة الولايات المتحدة البحرية بدأ حتى قبل أن ينشر كتابه هذا ، ففى تقرير وزير البحرية الأمريكية لعام ١٨٨٩ ما يتضمن الكثير من آراء ميهان التى وردت فى محاضراته بكلية نيوبورث البحرية وكان قد بدأها قبل ذلك بثلاث سنوات ، وعند دراسة الاحتياجات البحرية للولايات المتحدة بعد ذلك مباشرة ، تقدمت اللجنة التى شكلت لذلك — وقد اعتمدت فى تقديرها على آراء ميهان — باقتراح بناء مائتى بارجة حديثة ،

ويمكن أن نقول إن السياسة البحرية التى اختطتها الولايات المتحدة منذ ذلك الوقت قد سارت فى الاتجاه الذى رسمه لها ميهان ، فتبنى صديقه « ثيودور روزفلت » فكرته عن شق قناة بحرية فى أمريكا الوسطى تربط الأطلنطى بالباسفيكى عندما تولى الرئاسة ، فإن شق هذه القناة — كما يقول ميهان — عمل استراتيجى جليل بشرط أن تسيطر الولايات المتحدة على كافة خطوط الاقتراب إليها .

وتحولت الولايات المتحدة عن استراتيجية الدفاع الساحلى إلى استراتيجية البحرية على المياه الخارجية للقارة الأمريكية فاستولت على الفيلبين وجزر هاواى وبعض المواقع فى أرخبيل ساموا وأصبح البحر الكاريبى فى قبضتها بعد هزيمة أسبانيا فى كوبا ، وسارت فى بناء أسطول قوى حتى غدت واحدة من أقوى دول العالم البحرية ، وأخذت تتطلع إلى سيادة البحر حين طالب الرئيس ويلسون الكونجرس عام ١٩١٥ بأن يكون الأسطول الأمريكى على قدم المساواة مع أقوى أسطول فى العالم ، ثم كان القانون البحرى لعام ١٩١٦ ، بعد أقل من عامين على وفاة ميهان ، فغدت به أقوى دولة بحرية فى العالم .

ولقى كتاب « ميهان » فى بريطانيا ما لم يلقه فى بلاده ذاتها ، فالانجليز أمة بحرية أقامت امبراطوريتها على متن الخضم ، وغدا أسطولها وله السيادة التامة على البحار ، إلا أن الكتاب صدر فى فترة تقدمت الحكومة البريطانية فيها ببرنامج للتوسع البحرى يقوم على قاعدة مساواة الأسطول البريطانى بقوة أقوى أسطولين لأقوى الدول مجتمعين معاً ، وجاء الكتاب مؤيداً لنظرية البحرية على نظرية الجيش فى الدفاع الاستراتيجى عن الجزر البريطانية ، إذ كان العسكريون من رجال الجيش يميلون إلى تحصين الشواطىء بالاستحكامات والقلاع ضد الغزو الخارجى . وما أسف الانجليز

لشيء قدر ما أسفوا لأن « أمريكيا هو الذى فتح أعين هذا الجيل من الانجليز على ما للقوة البحرية من أهمية وإن عادوا يقولون فى نوع من الكبرياء إنه يسرهم أن يعترفوا لميهان بالفضل بصفته الأجنبي الوحيد الذى يحق له « أن يقدم لهم النصيحة فى شئونهم الخاصة » . ووصف جلاد ستون كتابه « أثر القوة البحرية على الثورة الفرنسية والامبراطورية » بأنه « كتاب الجيل » ، وأشار « لورد سيد نهام » إلى مؤلفاته بقوله : « لقد أصبحت لنا — لأول مرة — فلسفة بحرية تستند إلى التاريخ » .

وبالرغم مما تركه الكتاب من تأثير فى نفوس الفرنسيين . حمل أساتذة الاستراتيجية الفرنسية على الاعتراف بنقده لاستراتيجيتهم البحرية ، فإنه لم يلق من تقديرهم ما لقيه من تقدير فى البلاد الأخرى ، ولعله قد أثار فى نفوسهم ذكرى هزائمهم الماضية فى البحر . وفى وصف « الأميرال راؤول كاستكس » الأستاذ بأكاديمية الحرب الفرنسية ، لأسلوب الكتاب بأنه « كريه » ما يصور شعور الفرنسيين حياله ، وإن لم يحل هذا الوصف بين « كاستكس » وبين تقدير الكتاب بقوله : إن هذا لا يقلل إطلاقاً من قيمة الكتاب وإبداعه الحق فى ميدان النظرية الاستراتيجية » .

إلا أن الكتاب كان بالنسبة للألمان دستوراً احتذوه ، وساروا على هديه ، وإن أخطاؤا فى التطبيق الكلى للنظرية ، وبلغ من تقديرهم له أن الامبراطور الشاب « غليوم الثانى » كتب عام ١٨٩٤ إلى صديق له يقول : « إننى لا أقرأ كتاب ميهان بل التهمه التهاماً .... وإنى لأحاول الآن أن أحفظه ظهراً لقلب ، فهو من أمهات الكتب العلمية ، تراه فى كل سفنى ، مرجعاً للقباطنة والضباط فى أسطولى يقتبسون منه ويهتدون بهديه » . وإن حالت موارد ألمانيا وطبيعة موقعها الجغرافى بينها وبين التفوق البحرى .

واحتفت به اليابان ، فكان الكتاب جزءاً من المهمات التى تصرف لضباط البحرية ، وبلغ بهم الاعجاب بميهان أنهم كانوا يستشيرونه فى كل ما يتصل بانشاء القوة البحرية من بناء السفن إلى العتاد وأنواع التسليح البحرى ، ثم عرضوا عليه أن يكون المستشار الرسمى للبحرية اليابانية وان اعتذر عن المنصب ، فقد ظلوا يهتدون بتعاليمه حتى أصبحت اليابان أعظم قوة بحرية فى الشرق الأقصى ومنافساً خطيراً للولايات المتحـدة وبريطانيا فى البحر » .

ومن المؤكد أن ميهان الذى انتابه القلق ، وهو على فراش الموت عام ١٩١٤ ، من شعوره بأنه كان سبباً فى نمو البحرية الألمانية ، كان سيغدو نادماً أكثر منه قلقاً لو قدر له أن يشهد كارثة الأسطول الأمريكى فى « بيرل هاربر » على يد اليابان .

جارجنتوا وبانتاجرويل لفرانسوا رابليه

بقلم
الدكتورة كوثر عبد السلام

منهج البحث : حياة فرانسوا رابليه – مؤلفاته – فرانسوارابليه الفنان – فرانسوا رابليه وعلم التربية الحديث – الآراء الدينية لفرانسوا رابليه مع مقتطفات مترجمة من مؤلفاته – لماذا تعتبر مؤلفاته من تراث الإنسانية .

حياة فرانسوا رابليه :

لم يتمكن الباحثون حتى يومنا هذا من تحديد السنة التى ولد فيها فرانسوا رابليه ، إلا أنهم يرجحون أنه ولد سنة ١٤٩٤ . وفرنسوا هو الابن الثالث لأنطوان رابليه . وقد ولد فى ضيعة أبيه فى الدفينيين بالقرب من مدينة شينوف . وتضم مؤلفات رابليه الكثير من الذكريات عن هذه الضيعة وهذه المنطقة .

ولقد كانت رغبة أبيه هى أن يكرسه لحياة الرهبنة . ولذا فقد بدأ فرانسوا دراسته الأولى فى دير سونى وأتمها فى دير « لابوميت » بالقرب من مدينة أنجيه . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره التحق بدير الكوردلييه فى فونتنيه – لو – كونت ، حيث رسم قسيساً .

وفى هذا الدير لم تلبث أن تكونت جماعة من عشاق البحث العلمى كان على رأسها فرانسوا رابليه الذى أحب دراسة اللغات القديمة والتعمق فيها لاسيما اليونانية . وكان لرابليه الكثير من الأصدقاء من الكبراء كانوا يتولون حمايته من حقد رؤسائه وبطشهم . وعلى رأس هؤلاء الأصدقاء الحماة جوفروا ديستيساك الذى كان يمده بما يحتاج إليه من كتب وأسفار فى أبحاثه ويحيطه بالرعاية حتى نهاية حياته .

ومنذ تلك الفترة المبكرة من الحياة العلمية لفرانسوا رابليه بدأ من حوله يدركون أنه أوسع الإخوان الفرنسسكان علماً ، ولذا فقد توجس منه رؤساؤه خيفة واستشعروا الخطر من ناحيته فبدأوا يشنون عليه حرباً شعواء منذ حوالى سنة ١٥٢٣ ، ولكنه كان يتغلب على كيدهم له بمعاونة أصدقائه الذين تعهدوا بحمايته . وبفضل جوفروا ديستيساك سمح البابا لفرانسوا رابليه بأن يلتحق بكنيسة سان نبرا وأن يصبح سكرتيراً لأسقفها . وكان رابليه فى هذه الفترة يوالى قراءاته المفضلة إلى نفسه ، و يقوم فى الوقت نفسه بأداء واجباته الدينية كتلاوة القداس والوعظ والإرشاد .

ولن يلبث رابليه أن يمر فى حياته بفترة مضطربة مالت فيها نفسه مع ميوله العلمية على حساب التزاماته

الدينية . فلقد بدأ يدرس الطب محققاً بذلك رغبة كان يكنها فى أعماقه من زمن طويل ، وحصل من جامعة مونبلييه على درجات علمية ثلاث فى الطب كانت آخرها هى الدكتوراه سنة ١٥٣٧ . وبدأ فعلا يمارس مهنة الطب فى مدينة ليون . وفى سنة ١٥٣٤ قام بأول رحلة له إلى روما لا كقسيس ولكن كطبيب . وكانت تلك مناسبة ثمينة بالنسبة له إذ أتيح له حضور جميع استقبالات البابا ، كما تمكن من التغلغل فى حياة تلك المدينة والاعتياد عليها ، وبعد عدة أشهر عاد إلى فرنسا . ويعتقد النقاد أنه ألف كتابه « جارجانتوا » بعد عودته من روما ، وربما كان ذلك فى شهر أكتوبر سنة ١٥٣٤ .

ولقد كان للحماس الذى ظهر فى كتابه هذا ضد جمود العصور الوسطى وما نشره فيه من نظريات تربوية وسياسية جديدة أثره فى أن ينظر إليه المجتمع بعين الريبة والشك . ولذا فقد آثر رابليه الاختفاء من الحياة العامة بعض الوقت . وفى سنة ١٥٣٥ سافر إلى روما للمرة الثانية وانتهز فرصة وجوده فيها فطلب من البابا أن يصفح عنه بسبب انفصاله عن البندكتان ، كما تمكن من الحصول منه على إذن بالالتحاق بدير سان مور الذى لم يلبث أن أصبح مدنيا خارجاً عن نطاق الكنيسة . وهكذا ألفى رابليه نفسه وقد تحرر من التزاماته كراهب ، واستمر يمارس مهنة الطب فى ثياب غير كهنوتية . ثم عاد إلى مونبلييه للحصول على الدكتوراه فى الطب سنة ١٥٣٧ كما أسلفنا . وبعد ذلك أخذ يقوم برحلات فى وسط وجنوب فرنسا القصد منها الاختفاء عن الأعين حتى لا يضطهد بسبب مؤلفاته . وفى سنة ١٥٤٠ تولى جيللوم دى بيلليه حمايته ، ثم تولاها بعد وفاة هذا الأخير شقيقه رنيه دى بيلليه . وفى سنة ١٥٤٣ استطاع رابليه أن يحصل من الملك على بعض الامتيازات « لاعادة نشر كتبه ومؤلفاته » ولم يلبث أن نشر كتابه الثالث .

وحينما مات فرانسوا الأول غادر الكاردينال دى بلليه البلاد ، لأنه كان من المقربين إلى هذا الملك ، وذهب للإقامة فى روما حيث تبعه صديقه الوفى رابليه ، إلا أنه كان يعود إلى فرنسا من حين لآخر . وفى سنة ١٥٥١ أصبح ، بفضل جان دى بلليه ، راعياً لأبروشية مودون . وكان رابليه يحصل على الغلة المادية لهذه الأبروشية دون أن يقيم فيها ، بل كان يقيم فى سان مور بجوار صديقه وحاميه الكاردينال دى بلليه . وانتهى من كتابة مؤلفه الرابع الذى نشر سنة ١٥٥٢ . ولكن البرلمان لم يلبث أن أمر بإيقافه . ومنذ ذلك العهد فقد الناس كل أثر لفرانسوا رابليه الذى ربما يكون قد توفى سنة ١٥٥٣ أو فى بداية سنة ١٥٥٤ ، وظهر مؤلفه الخامس بعد وفاته فيما بين عامى ١٥٦٢ و١٥٦٤ وما تزال نسبته لرابليه من الأمور المشكوك فيها .

مؤلفات فرانسوا رابليه :

وهكذا نرى أن فرانسوا رابليه قد خلف للإنسانية خمسة مؤلفات :

١ ـ بانتا جرويل :

وأول هذه المؤلفات الخمسة هو « بانتا جرويل » الذى نشر سنة ١٥٣٢ تحت اسم مستعار هو الكوفريباس نازييه . وقبل نشر هذا الكتاب كان قد ظهر فى مدينة ليون كتاب غفل من ذكر اسم مؤلفه يحكى قصة مغامرات العملاق جارجانتوا . وحظى هذا الكتاب بنجاح كبير فى الأوساط الشعبية . وأراد رابليه أن يستفيد من نجاح هذا الكتاب مجهول المؤلف ، وأن يمارس هذا النوع نفسه من كتب المغامرات فنشر مؤلفه الأول هذا « بانتاجرويل » . إلا أن الفرق كان شاسعاً بين هدف المؤلف الشعبى الذى لم يكن يقصد

إلا إلى تسلية الطبقات الشعبية من القراء وهدف رابليه الذى أراد أن يجمع بين تسلية القراء بما فى جعبته الواسعة من دعابات استقاها من قراءاته الكثيرة وبين إفادتهم بالكثير من التفاصيل عن الحياة الواقعية .

وفى هذا الكتاب يتخيل رابليه أسرة من العمالقة حجماً وعقلا يفكرون بطريقة مختلفة عن طريقة الناس فى العصور الوسطى . وبانتاجرويل هو ابن جارجانتوا . ويأخذ رابليه فى سرد مغامرات هـذا العملاق ليبدو فى ظاهر الأمر أنه يسلى قراءه كما فعل الكاتب الشعبى الذى سبقه ، إلا أن جو العمالقة هذا لم يكن فى الواقع إلا غطاء لما يريد التعبير عنه من أفكار جديدة مخالفة أو مناقضة لأفكار الكنيسة والجامعة فى ذلك الوقت . ولقد كان كبار الكتاب والمفكرين يتفننون دائماً فى خلق الوسائل التمويهية تلك ليتمكنوا من نشر آرائهم وهم فى مأمن من بطش أصحاب السلطة وأولى الأمر كما فعل لافونتين فيما بعد حين اتخذ من دنيا الحيوان فى أقصاصيه ستاراً يحتمى به ضد بطش أصحاب السلطة . ونلاحظ أن بعض فصول كتاب « بانتاجرويل » تبتعد بعداً تاماً عن جو الدعابات الشعبية وتنشر الأفكار الإنسانية السامية التى حارب بها رابليه جمود العصور الوسطى لا سيما الفصول التى ينتقد فيها « روتين » العلوم القضائية والتى يدافع فيها عن الانجيلية .

٢ ــ جار جانتوا :

نشر رابليه كتابه الثانى « جارجانتوا » سنة ١٥٣٤ . وكما ذكرنا فيما سبق فقد ظهر هذا الكتاب إثر عودته من رحلته الأولى إلى إيطاليا . وبما أن جارجانتوا هو أبو بانتاجرويل فقد أصبح هذا الكتاب هو الأول بالنسبة للمحمة العمالقة هذه ، بينما اعتبر بانتاجرويل هو الكتاب الثانى .

وخطة هذا الكتاب هى :

(ا) طفولة جارجانتوا ودراسـته ــ صولاته وجولاته فى الحرب ــ مكافأته للمنتصرين بإنشاء كاتدرائية تيليم .

(ب) إذا تركنا جانباً جو العمالقة المفتعل هذا نجد أن الكتاب يصف الحياة الواقعية فى المنطقة التى عاش فيها رابليه وما تقوم عليه من تقاليد وعادات بكل دقة وأمانة ولذا فتعتبر هذه الفصول مرجعاً تاريخياً لحياة الفرنسيين فى هذه الفترة . وهذا الكتاب خاص بالذكريات الشخصية لفرانسوا رابليه نفسه .

(ج) فى هذا الكتاب يذكر رابليه رأيه فى صراحة تامة حول بعض المشكلات العامة كمشكلة التعليم والحرب والفتوحات ، ويهاجم علماء اللاهوت فى السوربون ويهاجم كذلك الرهبان الذين يركنون إلى الكسل والترف ويسدد ضرباته إلى الخرافات الدينية والشعوذة . ومن أهم مميزات هذا الكتاب أن بعض فصوله تحمل دعوة صريحة من المؤلف نحو العودة إلى تعاليم الإنجيل الخالصة وحدها والبعد عن تفسيرات علماء اللاهوت وإضافاتهم الخاطئة .

٣ ــ الـكتاب الثالث :

ظهر هذا الكتاب سنة ١٥٤٦ . ومما يثير الانتباه أنه خلو من أى هجوم على الكنيسة أو الجامعة أو الحكومة ؟ ترى ما السبب فى ذلك ؟ هل تخلى رابليه عن حماسه وعن سياسته ؟ لقد كان ثمة عاملان حملا رابليه على العدول عن سياسته الهجومية السابقة ، أو على الأقل على التخفيف من حدتها . وأول هذين العاملين أن الملك كان قد أباح سنة ١٥٣٤ للسوربون حرية التصرف ضد كل من يهاجم المعتقدات والأفكار القائمة ، ولذا فقد غادر رابليه مدينة ليون فى فبراير سنة ١٥٣٥ من

باب الاحتياط . وثانى هذين العاملين أن رابليه كان راغباً فى التقرب إلى الملك وكسب وده .

وكان رابليه قد سئم موضوعات العمالقة جارجانتوا وبانتاجرويل فجعل بطل هذا الكتاب : بانورج . وخطة الكتاب الثالث هى نفسها خطة الكتابين السابقين فهو يدرس الموضوعات الاجتماعية والعلمية والسياسية فى قالب من قصص المغامرات . ومن أهم موضوعات هذا الكتاب موضوع الزواج . ويبحث بانورج موضوع الزواج فيقول لنفسه : « تزوج إذن » . ثم يعود فيبحث مضاره فيقول لنفسه : « لا تتزوج إذن أبداً . » ويأخذ فى تأمل النجوم وتفسير الأحلام واستشارة العرافات والمنجمين والأطباء فلا يدله أحد من هؤلاء إلى رأى حاسم فى هذا الموضوع أو يهديه إلى طريق يضمن له الوصول إلى السعادة . وتدور كل هذه المداولات والاستشارات فى جو كوميدى سوف يستلهم منه موليير فيما بعد بعض مواقف تمثيلياته الكوميدية . ويقطع بانتاجرويل ، الذى يقوم فى هذا الكتاب بدور بعيد عن دور العمالقة كما رأيناه فى الكتابين السابقين ، يقطع الموضوع بأن يندد بالزواج الذى يتم دون رأى الوالدين ، ويخضع خضوعاً تاماً فى هذا الموضوع لرأى والده .

ورغم الاحتياطات التى اتخذها رابليه فى هذا الكتاب للتخفيف من حدة هجومه على الكنيسة والجامعة فقد صودر الكتاب كسابقيه واضطر المؤلف إلى الاختفاء فى مدينة متز فى مارس سنة ١٥٤٦ .

٤ ــ الكتاب الرابع :

فى سنة ١٥٤٨ نشر رابليه أجزاء من الكتاب الرابع عبارة عن أحد عشر فصلا تتسم بالتروى والبعد عن كل هجوم ضد علماء اللاهوت . وفى سنة ١٥٥٠ حصل من الملك على حق إعادة طبع مؤلفاته وأخذ للأمر أهبته وبدأ العمل . إلا أنه فيما بين عامى ١٥٥١ و١٥٥٢ اشتد التنافس على السلطة بين البابا يوليوس الثالث و الملك هنرى الثانى . وأراد رابليه أن ينتهز هذه الفرصة ويهاجم البابوية مختفياً وراء وسائل التعمية المكشوفة التى كان يتفنن فى خلقها ، إلا أن تلميحاته كانت تتجه رأساً ضد أطماع البابوات الدنيوية . وقد حدث هذا لسوء الحظ فى وقت تم فيه الصلح بين البابا والملك . وهكذا أصدر البرلمان أمراً بمنع تداول هذا الكتاب كما منع من قبل الكتب الثلاثة السابقة .

٥ ــ الكتاب الخامس :

ظهر هذا الكتاب سنة ١٥٦٤ بعد موت رابليه بعدة سنوات وكما أسلفنا ما زال النقاد يشكون حتى الآن فى نسبة هذا الكتاب للمؤلف لأن أسلوبه وطريقته فى سرد الأحداث تختلف تماماً عن طريقة رابليه .

ومع ذلك فإن أسلوبه الساخر يبدو من حين لآخر فى بعض فقرات من الكتاب بحيث يصعب على الناقد أن يقطع برأى فاصل فيما إذا كان الكتاب للمؤلف نفسه أم لكاتب آخر يتفنن فى تقليده . وربما يكون من العسير بل من المستحيل إزالة الغموض المحيط بهذا الموضوع .

فرانسوا رابليه الفنان :

من أهم ماتتميز به مؤلفات فرانسوا رابليه نزعتان : هما النزعة الإنسانية ونزعة حب الطبيعة .

أما نزعته الإنسانية فتتجه إلى تقدير الإنسان ومنحه الثقة المطلقة . إن هذا الإنسان الذى جعلت منه الكنيسة فى العصور الوسطى آلة صماء لترديد التعاليم الدينية عن ظهر قلب دون وعى أو إدراك صحيح لروحها الحق ومقصدها السليم ، والذى لم توله هذه الكنيسة أى قسط من الثقة يستطيع أن يصل إلى مستوى رفيع من

الكفاية إذا أحسن تعليمه وتثقيفه ، ويتخذ رابليه من نفسه مثلا فى هذا المجال . فلقد كان كما رأيناه محباً للعلم مشغوفاً به لا يكل ولا يمل من التحصيل والقراءة . فالإنسان ينبغى أن يكون غوراً للعلم ، وهو يستطيع أن يصل إلى الحقيقة المعنوية بدراسة أفلاطون وإلى الحقيقة القانونية بدراسة القانون الرومانى ، وإلى الحقيقة الدينية بدراسة نصوص الإنجيل عن قرب ، وإلى الحقيقة العلمية بدراسة الطب والفلك والرياضيات والطبيعيات. فإذا ما بلغ الإنسان هذا المستوى العلمى الرفيع فقد أصبح إنساناً كاملا جديراً بالتقدير والثقة التامة .

أما حبه للطبيعة فقد كان كذلك نوعاً من الثورة ضد تعصب الكنيسة وجمودها فى العصور الوسطى . فلقد كانت تمارس سلطة قاهرة للإنسان جسماً وروحاً ولذا فقد نادى رابليه بتحرر الجسم والروح معاً ، وساعدته دراسته للطب وممارسته له على الإعجاب بجسم الإنسان ودقة نظامه واعتبر ذلك النظام الدقيق جزءاً من نظام الكون ودقته . ولذا فقد كرس رابليه جانباً كبيراً من مؤلفاته لدراسة الحياة البدنية للإنسان وغذائه ووظائفه الطبيعية ، ونادى بمنح الجسم الحرية التامة فى الحركة وتقويته بالرياضة البدنية والعناية بالقواعد الصحية . وجميع الآراء التى يعبر عنها فى هذا الصدد تعتبر من أحدث آراء علم الصحة الحديث .

أما من الناحية الروحية فقد نادى رابليه بمنح الإنسان الحرية التامة فى التصرف . فقد دلته تجربته الخاصة فى نفسه على أن الإنسان خير بطبيعته جدير بكل ثقة . والإنسان العادى إذا منح الحرية التامة أحسن استغلالها دون أى تفريط أو إفراط . إن الطبيعة التى أنجبت الجمال والتناسق لا يمكن أن تكون مصدر شر أو أذى ولذا فالإنسان خيّر وينبغى منحه الثقة التامة والحرية المطلقة . وربما كانت تلك الثقة المطلقة والحرية الخالصة من كل قيد التى يمنحها رابليه للإنسان موضع جدال بين النقاد ، إلا أن ذلك لا يمنع من إقرار فضل هذا الفيلسوف فى أنه أول من أطلق تلك الصيحة التى ردت للإنسان اعتباره وكرامته وحريته بعد أن سلبتها منه العصور الوسطى لمدة طويلة . وهو فى ذلك أشبه بنبى يطلق أول صيحة تدعو إلى طريق الحق فى زمن كان الناس فيه يعمهون فى ظلمات الضلالة والجهل .

الواقعية فى أدب فرانسوا رابليه :

وإذا بحثنا مؤلفات رابليه من الناحية الأدبية وجدنا أنه من أوائل الكتاب الفرنسيين الواقعيين الذين يصفون الواقع بطريقة مجسمة دقيقة حية تجعل القارىء يعيش فيه بكل حواسه لا بخياله فقط ، كما أنه يملك فن إحياء الحوار حتى ايكاد القارىء يراه ويسمعه ويشارك فيه . ولذا فإن كتبه النابضة بالحياة تشد القارىء إليها شداً .

ورابليه كاتب ساخر مازح يعرف كيف يمزج الجد بالهزل والدعابة . ولا بد للقارىء من جانب كبير من اللباقة وسعة الإدراك ليفهم أن الهزل يخفى تحته كثيراً من الحقائق العميقة أو أنه وسيلة للتعمية يقصد بها إخفاء هجوم موجة ضد الحكومة أو الكنيسة أو آراء العصور الوسطى عموماً التى كان يفرضها القصر والسوربون على الناس فرضاً . ولم يكن من العسير اكتشاف ما وراء هذه التعمية وهذا ما جر على المؤلف المتاعب طيلة حياته واضطره إلى أن يحيا حياة مضطربة لا استقرار فيها ، كما أن هذا المزاح والسخرية كثيراً ما كانا يرتفعان إلى درجة الفكاهة العالية . وكم من فصل من مؤلفاته يعتبر فناً من فنون الفكاهة لم يفت موليير أن ينهل منها كما قدمنا . وتعتبر مؤلفاته من هذه الناحية صورة من شخصيته فلقد كان رابليه فى حياته يمزج بين الجد والهزل ولذا فقد تناولت الأساطير شخصيته فأحاطتها بكثير من القصص التى ربما ذهب بعضها إلى

حد المبالغة . ومما يذكر عنه دون تأكيد أن آخر كلمة قالها : « اسدلوا الستار ، لقد انتهت المهزلة » . ثم أطلق ضحكة ساخرة كانت خاتمة حياته .

ومما ساعد رابليه على بلوغ هذا المستوى الأدبي هو سعة اطلاعه وأسلوبه الفني . فهو يملك من الكلمات مالا حصر له ويستطيع أن يجد من الأساليب مالم يصل إليه غيره ، كما أنه يملك القدرة على خلق كلمات وتعبيرات جديدة . وتعتبر جملته آية في التناسق والكمال الفني . إلا أن أسلوبه يختلط بكثير من الكلمات الشعبية التي ربما تهبط إلى مستوى السوقة أو إلى حد البذاءة . ولا ينبغي أن نقسو على ذلك الفنان بسبب ذلك فإن أحداً من قراء عصره لم يكن يدهش إذ يرى هذه الكنوز الأدبية والفلسفة تختلط بهذه التعبيرات والألفاظ النابية . ولم تكن تلك الحرية المفرطة في التعبير تؤذي شعور أحد . ولذا فيجدر بنا أن نؤولها على أنها عادة من عادات العصر . وقد تولت المطابع في عصرنا هذا نشر مؤلفات هذا الكاتب الكبير بعد أن نقحتها من هذه الألفاظ وتلك التعبيرات وإن كان معظم النقاد ما زالوا يفضلون نشر النصوص الأصلية على علاتها . ويرى لابروبير ، الكاتب الناقد الفرنسي الذي عاش في أواخر القرن السابع عشر وصاحب كتاب « الطبائع » ، يرى إزاء هذه المتناقضات أن رابليه شخصية من أغرب الشخصيات فهو في آن واحد عملاق قادر على أن يسحر السوقة والغوغاء كما يعتبر صحناً ممتازاً لأرفع الناس ذوقاً .

رابليه وعلم التربية الحديث :

إذا كانت مؤلفات رابليه قد عاشت حتى الآن وما زالت تقرأ بشغف فذلك لا لأنها تحوي قصصا مسلية عن حياة العمالقة جارجانتوا وابنه بانتا جرويل ومن حولهما ، وكيف عاشوا وماذا كانوا يأكلون وكيف وصلوا إلى تثقيف أنفسهم والمحافظة على صحة أبدانهم ، فحسب ، وإنما لأنها تعتبر أول مرجع لعلم التربية الحديث ، كما يعتبر رابليه من الرواد الأوائل لهذا العلم الذي يزداد كل يوم أهمية في عصرنا هذا . وهو أول من نادى ، في منهج تعليم العملاق جارجانتوا ثم ابنه بانتا جرويل ، بأن يتم هذا التعليم في جو من الحرية التامة دون أي إكراه أو ضغط ، كما كان أول من وضع برنامجا منظما دقيقا يسير عليه التلميذ دقيقة بدقيقة فيتم تثقيفه بطريقة كاملة دون أن يشعر هو بأي ملل ولا إجهاد ودون أن تضيع لحظة من وقته هباء . وينتهز رابليه هذه الفرصة فيسخر من منهج التعليم الذي تبعه هو وأبناء جيله والذي كان يطبق على التلاميذ بالقوة . فقد بدأ جارجانتوا تعليمه على أيدي علماء اللاهوت فتعلم الحروف الأبجدية عن ظهر قلب في خمس سنوات وثلاثة أشهر ، ثم حفظ بعض كتب متن اللغة والقواعد باللغة اللاتينية في ثلاثة عشر عاماً وستة أشهر وأسبوعين . ثم كتابا آخر في قواعد اللغة اللاتينية مع بعض الشروح والمتون في ثمانية عشر عاماً وأحد عشر شهراً ، واستوعبه تماماً لدرجة أنه كان يستطيع تلاوته عن ظهر قلب تلاوة معكوسة من الآخر إلى الأول . ثم حفظ التأريخ الشعبي في ستة عشر عاماً وشهرين وأخيراً حفظ طائفة من كتب البلاغة وكتبا أخرى على شاكلتها .

وهكذا يعطينا رابليه في ذلك القالب التهكمي الساخر فكرة واضحة عن منهج الدراسة الذي كان متبعا في عصره . وبعد ذلك يعد للتلميذ جارجانتوا منهجا آخر صحيحا سليما يجعل منه إنساناً صالحا . ولنقارن في النصين التاليين بين الطريقة التي كان يسير عليها جارجانتوا في دراسته على أيدي علماء

اللاهوت ثم الطريقة الصحيحة التى أعدها له مدرسه بونوقراط الذى يعبر عن آراء رابليه نفسه .

والنص الأول ، وتلك ترجمة له ، يعطينا فكرة عن الطريقة السقيمة العقيمة التى كان يسير عليها جارجانتوا والتى خلقت منه إنسانا مغروراً تافها : « لقد أمر بونوقراط فى أول الأمر أن يسير جارجانتوا على الطريقة التى اعتاد عليها ليرى كيف استطاع أساتذته القدامى أن يجعلوا منه إنسانا غبيا وتافها وجاهلا فى كل هذا الوقت الطويل . وعلى ذلك فقد نظم وقته بحيث يستيقظ ما بين الساعة الثامنة والتاسعة سواء أكان النهار قد طلع أم لا . هكذا أمر أساتذته القدامى مستندين فى ذلك إلى قول داود : « من العبث أن تستيقظ قبل طلوع النهار » (١)

ثم يأخذ يتلوى ويتثنى ويشد أطرافه فى فراشه حتى يساعد أعضاء جسمه على تأدية وظائفها . ثم يرتدى ملابسه حسب الفصل إلا أنه لا يجد غضاضة فى لبس رداء طويل عريض مبطن بفراء الثعالب . ثم يمشط شعره بمشط «ألمان» (٢) بأن يمسك به بأصابعه الأربعة وإبهامه لأن أساتذته قالوا له إن كل طريقة أخرى لتمشيط الشعر والاغتسال والنظافة هى مضيعة لوقته فى هذا العالم » .

« ثم يأخذ فى البصق والتقيء والسعال والصياح والعطس . وبعد ذلك يتناول إفطاره ليتغلب على الهواء الفاسد بالأطعمة الآتية : المقليات والمشويات وفخذ الخنزير ولحم الجدى المحمر والحساء الدسم

---

(١) آية للترتيل ١٢٧ استشهد بها رابليه استشهاداً حرفياً كمن يقول « لا تقربوا الصلاة » ولا يذكر بقية الآية . وتتمتها التى لم يذكرها رابليه هى : إذا كان الرب لا يبارك جهودك » .

(١) ألمان أستاذ من أساتذة السوربون الذين يعتنقون طريقة القسر والجمود .

الذى يتناوله الرهبان فى السادسة صباحاً . ولما قال له مدرسه بونوقراط إنه لم يكن ينبغى له أن يفعل كل ذلك قبل أن يؤدى بعض التمرينات لدى مغادرته الفراش أجاب جارجانتوا قائلا :

« ماذا ! ألم أقم بما يكفى من التمرينات ؟ لقد انثنيت ست أو سبع مرات فى الفراش قبل أن أنهض . ألا يكفى ذلك ؟ إن البابا الكسندر كان يفعل ذلك بناء على نصيحة طبيبه اليهودى ، وإنه عاش حتى الموت رغم أنف حساده . ولقد عودنى أساتذتى الأوائل على ذلك وقالوا لى إن الإفطار يقوى الذاكرة . لذا فقد كانوا يبدأون هم يومهم بالشراب . وإنى أجد صحتى طيبة جداً وشهيتى فى وجبة الغداء أقوى . ولقد قال لى الأستاذ توبال (وهو أول الليسانس من جامعة باريس) إن الفائدة ليست فى الجرى بسرعة ولكن فى البدء مبكراً ، ولذا فإن صحة الإنسانية لاتكون بالشراب كثيرا كثيرا كالكلاب وإنما بالشراب فى الصباح . ومن هنا كان هذا البيت من الشعر :

إن الصحو فى الصباح ليس هو السعادة — الشراب فى الصباح أفضل .

« وبعد أن يتناول إفطاره على أتم وجه يذهب إلى الكنيسة حيث يحضرون له فى سلة كبيرة كتاب تفسير الإنجيل وقد أحيط بلفائف كثيرة فثقل وزنه بسبب هذه اللفائف حتى أصبح أحد عشر قنطاراً وستة أرطال قل عن ذلك أو زاد . وهناك يستمع إلى نحو ستة وعشرين أو ثلاثين قداساً . وفى هذا الوقت يأتى إليه قارىء الصلوات وقد تعثر فى معطف ثقيل ويخفف عنه التعب بالشراب المضاف إليه النبيذ . وفى الوقت نفسه الذى يشرب فيه يترنم بكل هذه الصلوات وبدقة لاتسقط معها منه أية

قطرة على الأرض . وحين يهم بالخروج من الكنيسة يحضرون له على عربة يجرها ثور مسبحة القديس كلوديس التى كانت كل حبة فيها فى حجم رأس الإنسان فيتلو عليها التسابيح أكثر من ست عشرة مرة وهو يتنزه فى الأروقة والحدائق ، ثم يأخذ فى الاستذكار نحو نصف ساعة على الأكثر وعيناه مستقرتان فوق كتابه ولكن كما يقول الكاتب الساخر (١) روحه فى المطبخ .

« ثم يجلس إلى المائدة . ولما كان بطبيعته بطيئا فى إثارة شهيته فهو يبدأ وجبته بعدد مضروب فى اثنى عشر من أفخاذ الخنازير وألسنة الثيران المدخنة والبطارخ وغيرها قبل أن يبدأ فى تعاطى النبيذ . وفى هذا الوقت يأخذ أربعة من القائمين على خدمته بإلقاء الخردل (المستردة) فى فمه بالجاروف الواحد تلو الآخر ، ثم يشرب جرعة هائلة من النبيذ الأبيض . وبعد ذلك يأكل حسب الموسم اللحم كما تسمح له شهيته ، ثم يكف عن الأكل حينما تبدأ بطنه تؤلمه . أما الشراب فليس له نهاية ولا قاعدة لأنه يقول إن المرء يكف عن الشراب حينما يرتفع الفلين الذى يتكون منه نعل مداسه إلى نصف قدم» (قصة جارجانتوا الفصل الحادى والعشرين) .

بهذه المبالغات التى يخلقها رابليه فى دنيا العمالقة التى تسود كتابه «جارجانتوا» يقصد كما قلنا إلى مهاجمة منهج التربية الذى طبق عليه والذى كان مازال يطبق فى المدارس وفى الجامعة . ثم بعد ذلك يغير بيروقراط مربى جارجانتوا منهج التربية المعيب هذا ويرسم منهجا آخر صحيحا سليما كما تبينه لنا الصفحة التالية المترجمة عن الفصل الثالث عشر «لجارجانتوا» .

(١) يقصد به تيرانس فى ملهاة الخصى .

« وبعد ذلك وضع له خطة للدراسة تكفل له عدم ضياع دقيقة واحدة ، من اليوم . وهكذا كان يقضى كل وقته فى الدرس وطلب العلم : كان جارجانتوا يستيقظ فى الرابعة صباحا . وبينما كان القائمون على خدمته يدلكون له جسمه كان قارئه يتلو عليه بعض صفحات من الكتاب المقدس بصوت جهورى واضح ونطق صحيح سليم جدير بما يقرأ . وقد عهد بذلك إلى تابع شاب من مدينة باشيه (بالقرب من شيفرن حيث ولد رابليه) . ويدعى هذا التابع : أناخبوست (وتعنى باليونانية القارىء) . ومن أغراض هذا الدرس أن يتعلم تبجيل الله وعبادته والصلاة لله مرات عديدة إذ أن هذه القراءة كانت تبين جلاله وأحكامه السديدة الرائعة .

وبعد ذلك يرتدى ملابسه ويمشط شعره ويلبس غطاء رأسه ويتعطر . وفى خلال هذا الوقت تعاد عليه دروس اليوم السابق ، وكان هو نفسه يلقيها عن ظهر قلب ويطبقها على حياته العملية والإنسانية . وكان هذا الدرس يمتد أحيانا ساعتين أو ثلاث ساعات ، ولكن كان عادة يتوقف حينما يتم ارتداء ملابسه ، ثم يأخذ مدرسه فى القراءة له طوال ساعات ثلاث .

« وبعد ذلك يخرج إلى الهواء الطلق وهو يبدى دائما ما يعن له من ملاحظات حول دروسه ، ثم يبدأ فى لعب الكرة أو الكرة الثالوثية (التى يلعبها فريق مكون من ثلاثة لاعبين فى شكل مثلث) وهكذا يروض جسمه كما سبق له أن راض نفسه . وكانت الحرية المطلقة هى التى تسود اللعب فكانوا يكفون عنه حينما يطيب لهم ذلك ، وكان هذا التوقف يحدث حينما يتصببون عرقا أو يدركهم التعب . وحينما يفرغون من تجفيف أجسامهم وتدليكها بعناية يغيرون ملابسهم

ويبدأون نزهة لطيفة قبل أن يذهبوا لاستطلاع ما إذا كان الغداء قد أعد . وهناك فى انتظار الغداء يأخذون فى ترديد بعض مقتطفات من الدرس فى وضوح وفصاحة .

« وفى هذا الوقت تكون الشهية قد فتحت فيجلسون إلى المائدة طبقا لقواعد آداب الأكل . وفى بداية الوجبة تقرأ بعض القصص المسلية عن المغامرات القديمة يشرب خلالها جارجانتوا النبيذ الفاتح للشهية . وبعد ذلك إما أن يواصل القراءة أو يسمرون معاً فى مرح حسب مايتراءى لهم . ويكون الحديث فى الأشهر الأولى عن طبيعة المواد الغذائية التى تقدم لهم وخصائصها من خبز ونبيذ وماء ملح ولحم وسمك وفاكهة وخضروات وجذور وعن طريقة إعدادها . وكان هذا يؤدى فى وقت قصير إلى الإلمام بعلماء اليونان والرومان مثل بلين وأثينيه وديوسكوريد وجالينوس وأرسطو وغيرهم . وخلال هذا الحديث كثيرا ما يؤتى إليهم على المائدة بكتب العلماء السابقين هؤلاء للتأكد مما يتناقشون فيه . ولقد وعى جارجانتوا فى ذاكرته كل ما قيل فى هذا الشأن حتى إنه لم يكن ثمة طبيب يعرف نصف ما يعرف . وبعد ذلك يتحدثون فيما قرءوا من دروس الصباح ويختمون الوجبة ببعض مربى السفرجل وينظفون أسنانهم بالسواك ويغسلون أيديهم وأعينهم بالماء النقى ويحمدون الله بأن يوجهوا إليه بعض الترنيمات فى مدح عظمته وجلاله وقدسيته .

ثم يأتون بأوراق اللعب لا لمجرد اللهو بل لتعلم آلاف من اللعب ووسائل التسلية الجديدة المبنية كلها على الرياضيات . وبهذه الطريقة أحب جارجانتوا علم الأعداد حتى إنه فى كل يوم بعد الغداء والعشاء كان يقضى وقته فى هذه المتع حتى اعتاد أوراق اللعب والرياضيات . ولقد وصل علمه فى هذه العلوم سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية حداً جعل معه أكبر العلماء يعترفون بأنهم بالقياس إليه يعتبرون لايعرفون إلا الألمانية العويصة .

« ولقد أتقن جارجانتوا جميع فروع الرياضيات من هندسة وفلك وموسيقى . وذلك لأنه كان يقضى فترة الهضم فى اللعب على جميع الآلات الموسيقية والتدريب على الأشكال الهندسية ، بل أنه وصل إلى ممارسة القوانين الفلكية . »

نرى من هذا النص أن رابليه قد خط لتلميذه منهجا دراسيا منظماً . فهو يبدأ يومه فى ساعة مبكرة وبقراءة بعض صفحات من الكتاب المقدس بلهجة صحيحة رصينة تمكنه من التعمق فيه وملء نفسه بالإيمان بجلال الله وقدسيته . ثم يأخذ فى تكرار دروس الأمس فيؤدى التكرار إلى أن يحفظها عن ظهر قلب . وبعد ذلك يقضى مع مدرسه بعض ساعات فى القراءة والدرس . ولما يدركه التعب يخرج إلى الهواء الطلق لممارسة ماشاء من رياضة فينشط جسمه وذهنه إلا أنه يكف عن ذلك إذا شعر بالتعب أو بعدم الميل إلى الاستمرار فى اللعب . ثم يتناول طعامه ويستفيد من الوقت الذى يقضيه أثناء الطعام بأن يتناقش وأستاذه حول تركيب مايقدم إليه من ألوان الطعام وما تحويه من مواد غذائية وأثرها فى الصحة العامة ، ثم يقضى فترة الراحة بعد الغداء فى لعب الورق بطريقة جديدة تؤدى إلى توسيع مداركه الرياضية ، وبعد ذلك يستأنف دراسته . وهكذا لايضيع من وقته طوال اليوم دقيقة واحدة ، وفى الوقت نفسه لا يشعر هو بالتعب أو الملل أو الإجهاد .

وهذه الآراء التربوية كلها ، وإن كانت تبدو لنا اليوم عادية ومكررة ، إلا أنها كانت جديدة كل الجدة

فى عصر رابليه بل واعتبرت هجوماً جريئاً على الطريقة المدرسية الكنيسية والجامعية المتبعة فى عصره . وأهم هذه الأفكار فكرة الحرية المطلقة التى ينادى بأن تمنح للطالب . فهو يرى أن الطالب ينبغى أن يدرس فى جو من الحرية لا قسر فيه ولا إكراه وأنه لن يستغل هذه الحرية استغلالا سيئا أو يسىء التصرف فيها لأنه ، أى رابليه ، يوجه كلامه إلى المتزنين من الناس . أما الطالب الذى يسىء إدراك معنى هذه الحرية ويفرط فى استخدامها فهو إنسان غير متزن وغير عادى التكوين فهو يسقطه من حسابه ولا يقصده بأى حديث . وغنى عن الذكر أن الحرية هى القاعدة التى يعتمد عليها علم التربية الحديث ولذا فيعتبر الفرنسيون رابليه المرجع الأول لعلم التربية .

أما عن فكرة أن المرء ينبغى أن يكون غورا للعلم لايرتوى منه أبداً وأنه يتخذ من نفسه فى هذا السبيل مثالا يحتذى ، فيرى بعض النقاد أن رابليه يبالغ فى فكرته هذه وأن معاصره المفكر مونتينى كان أبعد منه نظرا حينما نادى بأن يكون هدف التربويين هو خلق رءوس حسنة الإعداد لا محشورة حشراً بالمعلومات ، ونجد أنه ليس ثمة تناقض على الإطلاق بين رابليه ومونتينى فى هذا الصدد إذ أن رابليه كما رأينا فى النص السابق لايرى الاعتماد المطلق على الذاكرة ولا ينادى بالحفظ عن ظهر قلب ولا يحشو الرأس بما هى راغبة عنه من معلوماته . فالدرس ينبغى أن يكون متعة للدارس وأن يفهمه ويهضمه هضماً تاماً . أما إذا وصلت الذاكرة إلى حفظه عن ظهر قلب من كثرة تكراره ومناقشته فلا ضير فى ذلك . والذاكرة مسجل حساس لاسيما فى الصغر وينبغى الاستفادة من طاقتها فى تلقين التلميذ مالاينبغى أن ينسى من معلومات دون إرهاق أو إجهاد .

وهذه أفكار صحيحة سليمة ينبغى أن تكون موضع اهتمام التربويين فى العصر الحديث الذين ربما مالوا بعض الشىء إلى إهمال شأن هذا المسجل الحساس وهو الذاكرة . ومن جهة أخرى فإن العلم ، لاسيما فى عصرنا هذا لاينى يتسع ويتشعب ، وينبغى للإنسان الراغب فى الثقافة الصحيحة الكاملة أن ينهل قدراً معقولا من هذا العلم الذى لانهاية له ولذا فإن رابليه لم يكن على ضلال حين رأى أن الإنسان يجب أن يكون غوراً لاينتهى من العلم . والرأس التى تعد طبقا لنظرية رابليه التربوية لايمكن وصفها بأنها محشورة حشراً بالمعلومات . ولذا فليس ثمة تناقض بينه وبين مونتينى فى هذا الشأن .

الآراء الدينية لفرانسوا رابليه :

من أهم آراء فرانسوا رابليه التى أثرت تأثيراً مباشراً فى أبناء جيله وفى الأجيال التى بعده هى آراؤه الدينية التى كانت تهدف إلى تحرير الدين من استعباد علماء اللاهوت وتخليصه من الخرافات والدجل والتفسيرات الخاطئة المتطرفة . ولذا فقد نادى أولا بوجوب اللجوء إلى النص الأصلى للكتاب المقدس قبل اللجوء إلى أية تفسيرات من قبل الكنيسة . ثم نادى بإعداد القساوسة والرهبان إعداداً سليما على أسس جديدة مخالفة تماماً للأسس التى كانت تطبق فى إعداد القساوسة والرهبان حتى ذلك العهد . وكما نادى رابليه بالحرية المطلقة فى التعليم عموماً فقد نادى بالحرية المطلقة بالنسبة لتعليم القساوسة والرهبان . وهذه الحرية مبنية على نفس فكرته فى إعداد المواطن الصالح ، وهى أن الإنسان الطبيعى سليم التفكير إذا منح الحرية كاملة غير منقوصة فإنه يستعملها فى غير ما إفراط أو تفريط . ومن بين مظاهر هذه الحرية عدم فصل الرهبان عن الراهبات فى الأديرة وخلق

حياة مشتركة طبيعية بين الجنسين فى داخلها . وكان من رأيه أن هذا الاختلاط سوف يأتى بأطيب الثمرات لأنه سوف يخلق بين الجنسين صداقات سليمة متينة وربما أدى إلى بعض الزيجات السعيدة بين الرهبان والراهبات . وكانت هذه من أفكاره الجريئة فهو يرى أن منع الزواج عن القساوسة والرهبان يضطرهم إلى الجنوح عن الطريق الطبيعى والصحيح فى الحياة . ولكى يجسد رابليه لقرائه هذه الأفكار الجريئة ويبين صحتها فى وضوح خلق فى الفصل السابع والخمسين من كتابه «جارجانتوا» ديرا أطلق عليه اسم دير «تيليم» . ومعنى كلمة تيليم باليونانية الإرادة الحرة . وهذا الدير يختلف تماماً عن غيره من الأديرة فهو غير محاط بأى سور خارجى كما أنه خلو تماماً من أية أجراس أو ساعات ولا تسير فيه الأمور إلا طبقا للذوق العام والتفاهم التام بين الأعضاء . وهو يستقبل النساء من سن العاشرة حتى الخامسة عشرة والرجال من سن الثانية عشرة حتى الثامنة عشرة . وهو لايستقبل إلا فتيانا أو فتيات حسنى الخلقة ومن عناصر طيبة وتعليم متين . وفى هذا الدير يحيا الرهبان حياة مترفة مرفهة خالية من كل قيود . وهذا الدير كما يصفه رابليه فى روايته آية من آيات الفن والجمال والترف . وغنى عن الذكر أن هذا الترف بعيد كل البعد عن الدين وكذلك الشرط الخاص بجمال الخلقة بالنسبة للرهبان ، ولكن رابليه كان فى ذلك مسحوراً بترف القصور الملكية وغيرها فى عصره .

والقاعدة العامة التى تسير عليها الحياة فى هذا الدير تختلف كما قلنا تماماً عن التعنت الذى كان يسود حياة الأديرة فى ذلك الحين . فعلى باب دير تيليم نجد لافتة تحظر الدخول على المنافقين ورجال القضاء والمرابين ، ولا يسمح بالدخول إلا «للفرسان النبلاء وسيدات الطبقة الراقية زهور الجمال وذوات الوجوه الملائكية ذوات المظهر التقى العاقل» وكذلك المسيحيين الإنجيليين . ثم تسترسل اللافتة قائلة : « ادخلوا حتى نؤسس هنا العقيدة العميقة التى تفحم بها أعداد الكلمة المقدسة » . ويفهم من هذه اللافتة إن تصدر المؤلف هو العودة بالمسيحية إلى نصوصها الأصلية وتخليص الطبيعة الإنسانية لدى الرهبان من أى كبت ، وهذان هما الهدفان الرئيسيان لعصر النهضة . ويرى رابليه أن ذلك ممكن التحقيق إن لم يكن بالنسبة للناس جميعا فعلى الأقل بالنسبة للصفوة المختارة من ذوى النفوس الجميلة التى تزداد جمالا وتألقا فى جو الحرية المطلقة هذا . ونسوق فيما يلى ترجمة لجزء مشهور من هذا الفصل :

« افعل ماشئت »

لقد كانت حياتهم كلها تستخدم لاطبقا للقوانين واللوائح والقواعد بل طبقا لإرادتهم وحريتهم الخالصة. فكانوا ينهضون من فراشهم كما يحلو لهم ، ويشربون ويأكلون ويعملون وينامون حينما تكون لديهم الرغبة فى ذلك . لم يكن أحد يوقظهم ولا أحد يضطرهم إلى الشرب أو الأكل أو إلى إتيان أى عمل . هكذا قرر جارجانتوا . وكانت القاعدة السائدة بينهم هى هذه الكلمة :

افعل ماشئت

ذلك لأن الأحرار من الناس حسنى المولد والثقافة حينما يعيشون فى صحبة الأخيار فإن لهم غريزة طبيعية وحاسة تدفعهم دائما إلى الأعمال الفاضلة وتبعدهم عن المنكر الذى كانوا يسمونه الشرف . وهؤلاء حينما نرهقهم بالإكراه والعبودية فإننا نبعدهم عن العواطف النبيلة التى تدفعهم نحوها الفضيلة الصريحة ذلك لأننا

نحب دائما أن نأتى ما يمنع عنا ونتوق دائماً إلى مايحرم علينا .

وبهذه الحرية يدخلون فى تنافس حميد فيحققون مايرغب أى فرد فيهم فى عمله . فإذا قال أحدهم أو إحداهن « لنشرب » شرب الجميع . وإذا قال أحدهم : « لنلعب » لعب الجميع . وإذا قال أحدهم : « لنخرج إلى الحقول » ذهبوا جميعا . وإذا تعلق الأمر بالقنص أو الصيد ذهبت السيدات وهن ممتطيات ظهور فرسات جميلات مطهمات ، وقد ارتدين الملابس الفاخرة والقفازات الجميلة وأمسكت كل منهن بطير صغير من طيور الصيد . أما الرجال فيحملون بقية الطيور .

ولقد حصلوا جميعا على ثقافة متينة نبيلة حتى إن لم يكن بينهم من لايقرأ ويكتب ويغنى ويلعب على الآلات الموسيقية ويتحدث خمس أو ست لغات ويكتبها نثراً وشعراً . ولم ير الناس من قبل فرساناً أكثر تقوى من هؤلاء ولا أكثر فنا فى معاملة النساء . أو مهارة فى كل مايؤتى على الأقدام أو على صهوة الخيل ولا أكثر قوة وحركة ومهارة فى استخدام السلاح من هؤلاء ، كما لم ير الناس من قبل سيدات أكثر أناقة ومهارة فى الفنون النسوية ولا أكثر أدباً وحرية من هؤلاء السيدات . ولهذا السبب فعندما كان يحين الوقت لأحد منهم لمغادرة الدير سواء بناء على طلب أهله أو لسبب آخر فإنه كان يصطحب معه من تكون من السيدات قد اختارته إعجابا بتقواه ويتزوجان . وكما عاشا حياة طيبة فى تيليم فى جو من التقوى والصداقة فإنهما كانا يواصلان تلك الحياة فى عش الزواج . وكانا يظلان متحابين حتى آخر أيامهما كما لو كانا فى أول يوم من أيام الزواج » .

وهكذا نرى أن فرانسوا رابليه قد نادى بالحرية التامة للرهبان والراهبات وإباحة الزواج بينهما وإعدادهما إعداداً سليماً وتعليمهما كل مايتعلمه الناس خارج الأديرة من علوم دنيوية فضلا عن العلوم الدينية .

لماذا تعتبر مؤلفات فرانسوا رابليه من التراث الانسانى ؟

يتبين من هذا البحث أهمية مؤلفات فرانسوا رابليه ، وقصة جارجانتوا وبانتا جرويل بصفة خاصة بالنسبة للتراث الانسانى . فهى تعتبر أصل علم التربية الحديث والداعية للكثير من الأفكار الإنسانية التحررية التى يدين بها المجتمع الإنسانى الحديث لمثل فرانسوا رابليه من كبار المفكرين ورواد التقدم البشرى .



سيرة الأميرة ذات الهمة

بقلم
الدكتورة نبيلة إبراهيم

لا يكاد يخلو تاريخ أمة من الأمم من عصر أطلق عليه الباحثون اسم «العصر البطولى» . ويتسم هذا العصر بخصائص محددة لخصها شادفيك فى كتابه «العصر البطولى» بعد استقصاء ودراسة شاملة للأدب البطولى فى العالم بأسره فيما يلى : (أولا : تقع الطائفة نصف المتحضرة من الشعب تحت تأثير الطائفة الأخرى المتحضرة . ثم ما تلبث الطائفة الأولى أن تشعر بكيانها وتطمح فى السيطرة على الطائفة الأخرى .

ثانيا : تبدأ الطائفة نصف المتحضرة فى تحقيق كيانها عن طريق الهجرة من موطنها الأصلى إلى مكان آخر .

ثالثا : تحرص هذه الطائفة من الشعب بعد ذلك على تخليد ماضيها والفخر بحاضرها عن طريق أدبها البطولى .

وإذا نحن حاولنا أن نطبق هذه الخصائص على تاريخ الأمة العربية . فإننا نلاحظ أنها عاشت العصر البطولى فى زمن من الأزمنة التى مرت بها . وربما بدأ هذا العصر مع العصر العباسى الأول أو قبل ذلك بقليل . فى هذا العصر بدأت العناصر الغريبة — الفرس أولا والترك بعد ذلك . تفرض نفسها شيئا فشيئا على العنصر العربى الأصيل . كما كان الحكام العباسيون يساعدونهم بدورهم فى تثبيت أقدامهم فى المجتمع العربى . أما العرب فقد أهمل أمرهم ، وظلوا يقبعون فى ديارهم فى البادية ويعيشون حياة تقترب كثيرا من حياة الجاهلية . على أن العرب لم يكونوا غافلين عن هذا التغيير الجوهرى فى حياة الأمة العربية ومدى خطورته عليها : ولم يكن فى وسعهم سوى أن يؤكدوا وجودهم فى زحمة هذه الحوادث . وذلك عن طريق مساهمتهم فيها طوعاً واختياراً . كما نزحت بعض القبائل العربية من موطنها فى الصحراء خوفا من انطماس تاريخها . واستوطنت مناطق أكثر تأثرا بحوادث العصر . وليس فى وسعنا أن نعدد هذه القبائل . وإنما يهمنا أن نشير إلى قبيلة بنى كلاب ، لأن السيرة تحكى عن تاريخها وكفاحها . فقد هاجرت قبيلة بنى كلاب من موطنها فى الصحراء . واستوطنت منطقة من أهم المناطق التى ساهمت فى كفاح الأمة الإسلامية وهى منطقة الثغور الشامية التى كانت تقع بين الدولة العربية والدولة البيزنطية . وقد اختارت

القبيلة هذه المنطقة بعينها لأنها كانت منطقة الصراع بين الأمة الإسلامية من ناحية والدولة البيزنطية من ناحية أخرى . وبعبارة أخرى كانت منطقة الصراع بين الدين الإسلامى والدين المسيحى ، وكان لابد لهذا الصراع من أن يحسم الموقف ، فإما النصر للدولة العربية والدين الإسلامى أو للدولة البيزنطية والدين المسيحى . وعلى ذلك فقد خرجت أسرة بنى كلاب من موطنها القديم مدفوعة بدافعين نفسيين : أولا : رغبتها فى تأكيد وجودها فى المجتمع الإسلامى الجديد . وثانيا : المساهمة فى صنع تاريخ الدولة الإسلامية فى وقت أوشك كيانها فيه على الانهيار . واستقرت أسرة بنى كلاب فى ملطية عاصمة الثغور . وهناك كونت جيشا يعمل مستقلا ومتطوعا فى سبيل نصرة الإسلام . هذا ما يذكره القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » . وربما كانت إشارة صبح الأعشى على إيجازها هى الخيط الأول الذى يرشدنا إلى ربط سيرة الأميرة ذات الهمة بالتاريخ . فهو يقول : «ومن بنى عامر ابن صعصعة بنو كلاب . وهم بنو كلاب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة .. وكان لهم فى الإسلام دولة باليمامة ، وكانت ديارهم حمى ضرية وهو حمى كليب ، وحمى الربذة فى جهات المدينة النبوية ، وفدك ، والعوالى . ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الشام فكان لهم فى الجزيرة الفراتية صيت وملكوا حلب ونواجعها وكثيرا من مدن الشام . وذكر فى مسالك الأبصار : أنهم ينتسبون إلى عبد الوهاب المذكور فى سيرة البطال » .

ثم يقول بعد ذلك : « ولهم غارات عظيمة على بلاد الروم وأبناء الروم وبناتهم لايزالون يباعون من سباياهم . » (١)

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٤٠ (ط . وزارة الثقافة والإرشاد) .

ومعنى هذا أن سيرة « الأميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب » قد نشأت تخليداً لتاريخ أسرة بنى كلاب . ولعل هذا يحدد لنا زمان نشأة السيرة ومكانها . فزمان نشأتها يتحدد بتاريخ كفاح هذه الأسرة . وتحدده السيرة بعصر عبد الملك بن مروان ، كما يتحدد مكان نشأتها بالمكان الذى استوطنت فيه الأسرة ساعية وراء الكفاح : أى أنها نشأت ببلاد الشام . ويؤكد لنا هذا أن أسلوب السيرة الذى يقرب من الفصحى كثيراً ما يختلط بلهجة الشام وعاميتها ، كما تقابلنا فى السيرة بعض الألفاظ والعبارات اليونانية مثل عبارة « كريا إليسون » وتعنى « اللهم رحمتك » ، ومثل عبارة « لورك لورك » أى الأمان ، الأمان . وقد عرف سكان الثغور هذه العبارات نتيجة اختلاطهم بالروم .

ويمكننا بعد ذلك أن نقدم موجزاً للسيرة حتى نتمكن من بحث حوادثها فى ضوء التاريخ ، ثم نفرغ من ذلك إلى البحث عن هدفها بوصفها عملا أدبياً وعن خصائصها بوصفها عملا شعبياً .

فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، ذاع صيت الحارث الكلابى بوصفه زعيماً لأسرة بنى كلاب ، كما ذاع صيت مروان بن الهيثم بوصفه زعيماً لأسرة بنى سليم . ولما مات الحارث فرح العرب بموته لأنه كثيراً ما كان يزعجها بغاراته . أما زوجته التى كانت على وشك ولادة طفلها ، فقد قررت أن تهرب خوفاً من انتقام أعداء زوجها منها أو من طفلها ، فخرجت تحت جنح الليل مصطحبة معها خادمها « سلام » الذى كانت تثق فى إخلاصه وأمانته ، ولكن ما إن خلا بهما الطريق حتى أراد بها الخادم سوءاً . فدافعت المرأة عن نفسها دفاعاً أدى بها إلى ولادة طفلها وإلى وفاتها فى الوقت نفسه . ولكنها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، طلبت من خادمها أن يرعى طفلها ، وأن يعلق على صدره تميمة

أعطتها له . ولما رأى الخادم الأم وهى مضرجة فى دمائها ، ترك الطفل بعد ن علق التميمة فى صدره ، وولى هارباً . فى هذا الوقت ، خرج الأمير دارم يطلب الفرجة لنفسه من هم يقلقه ، إذ كان له ولد توفى فى ذلك اليوم ، وقاده الطريق إلى المرأة المضرجة فى دمائها ، وبجانبها طفلها يصرخ ، فأشفق على الطفل ، وأخذه ليربيه عوضاً عن ابنه المتوفى ، كما أطلق عليه اسمه وهو جندبة . ولما شب جندبة عن الطوق ، ظهرت عليه أمارات البطولة التى ورثها عن أبيه . فخشى الأمير دارم منه وقرر أن يطلعه على حقيقة نسبه حتى يفارقه ، وكان دارم قد عرف ذلك من التميمة التى وجدها معلقة بصدر جندبة ، وسعد جندبة لسماع هذا الخبر ، وهب من فوره راحلا إلى قومه بنى كلاب ، ليقف بطلا محارباً بين صفوفهم ، وكانت مهمة جندبة تنحصر فى الدفاع عن قبيلته ضد القبائل المعادية لها وبخاصة قبيلة بنى سليم التى كانت تسعى إلى تصدر الزعامة بين القبائل العربية بدلا من قبيلة بنى كلاب ، ولكن الأيام لم تمهل جندبة فتوفى تاركاً أخاه عطافا ليقوم بدوره فى الزعامة . ولم يمض وقت طويل على وفاة جندبة ، حتى ولدت زوجته ولذا سمى الصحصاح . وفى الوقت نفسه ولدت لعطاف ابنة سماها ليلى . وتربى الصحصاح وليلى فى بيت واحد . فلما كبرا دب الحب فى قلبيهما وعزم الصحصاح على الزواج من ليلى ، ولكن عطافاً الذى كان يكن الكره للصحصاح وضع العقبات فى سبيل إتمام هذا الزواج ، فقد تحتم على الصحصاح أن يقدم مهراً بالغاً لم يكن يملك منه شيئاً ، ولم يضعف هذا من عزم الصحصاح الذى قرر أن يقوم بمغامرات بطولية حتى يحصل على المهر المطلوب . وفى أثناء مغامراته ، بلغه أن مروة بنت الخليفة تتعرض لخطر بالغ من جراء هجوم بعض الأعراب عليها ، فهم الصحصاح بإنقاذها واصطحبها إلى بيتها حتى لا تتعرض لخطر آخر . وهناك تقابل الصحصاح مع الخليفة الذى شكر له مروءته وشهامته . ثم استعد الصحصاح للرحيل إلى ليلى محملا بالهدايا من قبل الخليفة ، ولكنه لم يكد يفعل هذا حتى استوقفه الخليفة وطلب منه أن يصطحب مسلمة بن عبد الملك فى حربه ضد الروم ، ونفذ الصحصاح ما أمر به ، استطاع بمصاحبة مسلمة أن يقضى على جيش الروم عند ديار بكر . وسعد الخليفة بهذه الأنباء التى شجعته على أن يأمر مسلمة والصحصاح باستئناف السير إلى القسطنطينية والعمل على إسقاطها ، ولكن المدينة الحصينة لم تسقط ، بل صمدت فى إصرار . ولما طال زمن حصار المسلمين لها ، ابتنوا مدينة مواجهة لها ليستقروا فيها وسموها « المستجدة » . ولما بلغ الضيق بالروم أشده نتيجة هذا الحصار ، استقر رأيهم على استخدام الحيلة ؛ فقد اقترح أحد أبطالهم ، وكان داهية ، أن يوضع فى صندوق مقفل تحمله قافلة تتزى بزى الأعراب ، وتسير به حتى تصل إلى جيش المسلمين المحاصر للمدينة . وهناك تتدعى القافلة أنها عثرت على هذا الرجل المسكين تعذبه جموع الرهبان لأنه يعترف بدين محمد . فأسرعت فى اختطافه ووضعته فى هذا الصندوق المغلق حتى لا يكتشف أمره ، وتمت الحيلة على المسلمين . فلما ركنوا إلى هذا الرجل الداهية ، استطاع أن يقتل بمعونة رجاله حشداً من جيش المسلمين ومع هذا فقد ظل الجيش الإسلامى مستقراً فى مدينة المستجدة حتى وقع الملك ليون مع الخليفة اتفاقية الهدنة بوقف القتال .

ثم توفى الصحصاح تاركاً ولدين له . وقبل ولادتهما رأى فى منامه رؤية تنبئه أنه سيرزق بولدين ، وأن الابن الأكبر سوف يوقع الظلم بأخيه الأصغر . فلما

ولد له الولدان سمى ابنه الأكبر وفقاً للنبوءة ظالماً ، والأصغر مظلوماً . ثم تحققت النبوءة كاملة بعد موت الأب ؛ إذ وقع الابن الأصغر تحت وطأة ظلم أخيه . واستعان مظلوم بقبيلته لتحكم بينه وبين أخيه . فقررت القبيلة أن تكون الزعامة قسماً بين الولدين وبين أبنائهما من بعدهما إن كانوا ذكوراً . ثم ولد لظالم ولد سماه الحارث ، أما مظلوم فقد رزق بابنة سماها فاطمة . أما ظالم فقد شعر بالزهو وأخذ يستقصى خبر ولادة طفل أخيه . ثم وصلته الأنباء بأن أخاه ولد له ولد مات فى حينه ؛ فقد حرص مظلوم على إخفاء أمر ولادة ابنته فاطمة ، وبالغ فى هذا الإخفاء بأن سلمها إلى مرضعة لكى تعنى بها . وسرعان ما كبرت فاطمة وأخذت تظهر عليها أمارات البطولة النادرة إلى درجة أن أطلق عليها لقب « ذات الهمة ». ثم تتوالى الأحداث وتنكشف الحقيقة لذات الهمة وتعرف قصة حياتها فتمتلىء غيظاً من عمها ظالم وتكن له الانتقام .

هنا تدخل ذات الهمة فى مرحلة جديدة من حياتها . فقد شاء ابن عمها الحارث بن ظالم أن يتزوج بها ، إذ كان يحبها حقيقة . أما أبوه ظالم فقد رحب بهذا الزواج أيما ترحيب لعدة أسباب نسوقها على لسانه قال : « وقد عزمت على أن أزوجه بها لوجهين : الأول: لجمالها، والثانى: أنها إذا صارت له انكسرت حرمتها وقل نشاطها وذهبت قوتها . . . . . وبانكسارها نحن نبلغ من أبيها سائر الأغراض » . (١)

ولكن ذات الهمة وجدت ذلك فرصة سانحة لكى تنتقم من عمها ومن ابنه معاً . فأعلنت رفضها الزواج من ابن عمها . كما أشاعت أنها لن تتزوج من أى رجل آخر لأنها وهبت نفسها للدفاع عن الإسلام والأمة الإسلامية . ولم يأبه الحارث لإصرارها واستطاع بمعونة أفراد قبيلته أن يعقد قرانه على ذات الهمة ، ومع ذلك فقد عزمت ألا تدخل به . فاضطر الحارث إزاء هذا الإصرار أن يستخدم الحيلة ليدخل بها ؛ فقد استطاع عن طريق الحيلة أن يسقيها البنج ويفقدها وعيها ، وتمكن بذلك من الزواج بها . على أن ذلك لم يدفع ذات الهمة إلى الاستسلام ، بل إنها على العكس ازدادت كرهاً لابن عمها وعزمت على هجره على الرغم من أنها كانت قد حملت منه . فانتظرت حتى ولدت ابنها عبد الوهاب وقررت أن تنزوح به إلى منطقة الثغور حتى يشب فى ظل الجهاد . ولكن ابن عمها لم يتركها ترحل دون أن يسىء إليها ؛ فقد أشاع أن الولد الذى ولدته ذات الهمة لا ينتسب إليه ، واستند فى ذلك إلى أن الطفل لونه أسود مخالفاً فى ذلك لون أبيه ولون أمه . عندئذ أرجأت ذات الهمة سفرها حتى تدفع عن نفسها هذه التهمة ، وقد تكبدت فى سبيل ذلك أقسى المشقات ، إذ لعبت النوازع البشرية دوراً كبيراً مما زاد من تعقيد الأمر ؛ فمن راغب فى الزواج منها ويرحب بطلاقها من الحارث ، ولذلك فهو يتحمس لتبرئتها ، ومن دنىء النفس يسعد بالرشوة فيتحالف مع الحارث فى سبيل إدانتها . على أن ذات الهمة تركت شهادات البشر العاديين ولجأت إلى أهل الكهانة والعرافة الذين أعلنوا براءتها . وعند ذلك تأهبت ذات الهمة للدخول فى طور كفاح جديد يؤهلها للوصول إلى الشخصية الكاملة ، شخصية البطل المرموق الذى يود كل فرد من أفراد الشعب أن يصل إليه . وتبدأ ذات الهمة هذه المرحلة باستقرارها فى منطقة الثغور ، المنطقة التى يتجسد فيها الصراع بين العرب والبيزنطيين أو بعبارة أخرى بين الإسلام والمسيحية .

فى هذا الوقت انتقلت الخلافة من بنى أمية إلى بنى

(١) سيرة الأميرة ذات الهمة وابنها عبد الوهاب جـ ٦ ص ٣٣ (ط. عبد الحميد حنفى) .

العباس . ولماتولى المنصور الحكم ، سعى إليه بنو سليم يكيدون لبنى كلاب . ووجد كلامهم أذناً صاغية عند المنصور ، فأرسل إلى بنى كلاب كتاباً يأمرهم فيه بالخضوع لسلطانه . وغضب بنو كلاب من الرسالة وقال أحد شيوخهم للنجاب : « ياشيخ ما الذى كان بيننا وبين المنصور حتى إنه عزلنا عن الملك ، وإنما كان أبونا محباً لبنى أمية . وقد هلك الجميع وصاروا فى القبور ، فارجع إلى صاحبك وقل له عرب البر لا يدخلون تحت طاعتك ، ومن جاء إلينا كانت سيوفنا إليه أقرب من كلامه . » (١) ولكن ذات الهمة بمالها من لباقة وكياسة استطاعت أن تسوى الخلاف حتى لا تغضب الحاكم ، الأمر الذى قد يعوقها عن تحقيق هدفها . فقالت لعمها : « يا عماه لقد بالغت فى الخطأ ، لما أن كان الأمر لبنى أمية كنت فى حقهم مليح ، ولما أن رجع الأمر لأهله عدلت عن الصحيح . والصواب أن تنهض بقومك وتسير إليه (أى إلى الخليفة) وتعذر فيما جرى منك ، وتعرض نفسك عليه وعلى خدمته لأن لك فى ذلك الشرف . »(٢)

وبهذا مهدت ذات الهمة لعلاقة طيبة بين قبيلتها وخلفاء بنى العباس . كما أنها تمكنت من توحيد صفوف جيشها خاصة بعد أن قتل عمها ظالم وولده الحارث فى إحدى المعارك العربية الرومية . وعلى هذا الحال استقرت ذات الهمة متزعمة قبيلتها فى منطقة الثغور وفى ملطية على وجه التحديد واستعدت لأداء رسالتها الكبرى وهى القضاء على العدو الخارجى الذى طالما تهدد حدود الدولة الإسلامية وكان يطمح فى القضاء على الإسلام قضاء مبرماً .

وربما كان تحقيق هذا الأمر يسيراً على ذات الهمة

(١) السيرة ج ٦٠ ص ٥٤ .
(٢) السيرة صج ٥٥٦٠ .

وجيشها لو أن جيوش الأمة الإسلامية بأسرها : المتطوعة منها والتابعة للدولة ، كانت متحدة متكاتفة . ولكن الأمر لم يكن يخلو من نفاق ومن حرص على المصالح الشخصية . أما النفاق فقد تجسد فى عقبة السليمى أحد أفراد قبيلة بنى سليم . وتحكى السيرة أن أمه رأت رؤيا غريبة قبل ولادته ، فلجأت إلى الحكماء لكى يفسروا لها الرؤيا ، فقالوا لها : « يأتيك ولد شرانى يلقى الفتن بين الناس من النساء والرجال ، ويكون سفاك الدماء ، كثير الحيل والزنا مفسداً فى الدين عاصياً لرب العالمين . » (١)

وولد عقبة وأصبح ذات يوم قاضياً متفقهاً فى أمور الدين الإسلامى . ولم تكن هذه الوظيفة المبجلة فى الحقيقة سوى الدرع التى يتخفى وراءها عقبة ويحتمى بها ؛ فقد كان فى الداخل يتواطىء مع المغرضين الذين يرغبون فى الوصول إلى الحكم . وأما فى الخارج فكان جاسوسا يعمل لحساب الدولة البيزنطية . ويمكننا أن نتصور مدى خطورة مثل هذا الرجل على الدولة الإسلامية لولا عين بنى كلاب الساهرة على مصلحة الأمة العربية . فقد أخذت أسرة بنى كلاب على عاتقها أن تحارب عقبة : أى تحارب النفاق فى الوقت الذى كانت تحارب فيه العدو الخارجى المتربص بالدولة . كما أنها كانت تكشف عن أعماله التخريبية واطلع عليها الخلفاء أولا بأول . ومع ذلك فإن الخلفاء كثيراً ما كانوا يتشككون فى ادعاءات قبيلة بنى كلاب ويرون أنها كانت من قبيل الافتراء ، حيث أن القاضى كان يبدو تقياً ورعاً من ناحية ، ولأنهم كانوا يودون الاحتفاظ بصداقة أسرة بنى سليم التى ينتمى إليها عقبة من ناحية أخرى .

على أن هذا لم يضعف من عزيمة بنى كلاب فى

(١) السيرة ج ٧ ص ٨ .

محاربة عقبة . وقد كان فى وسعهم أن يقتلوه ويريحوا الأمة من شره ، إذ أنه كثيراً ما كان يقع فى أيديهم متلبساً بجرائمه ، ولكنهم لم يقدموا على فعل ذلك لأن عبد الوهاب رأى النبى فى رؤيا له وأخبره بأن عقبة سيتم قتله على يد أسرة بنى كلاب بعد أن يتم النصر للمسلمين ويفتحوا أبواب القسطنطينية . حينئذ يصلب عقبة على باب الذهب أكبر أبواب مدينة القسطنطينية ، ويقف المسلمون المنتصرون ليشهدوا مصرع النفاق . « فلما سمع الأمير عبد الوهاب ذلك ، أصبح وأعاد المنام على جميع الناس وأوصى كل من وقع به (أى بعقبة) لا يقتله حتى يصح المنام عن النبى (ص) لأنه قال عليه السلام: من رآنى فقد رآنى حقاً لأن الشيطان لا يتمثل بى » (١) .

هذه النبوءة وغيرها كانت أكبر دافع للمسلين على الكفاح فى صبر وعزيمة . فإذا كان الخلفاء قد اعتادوا على مناوءتهم طوراً ومصالحتهم طوراً آخر بسبب عقبة وأسرته ، فإن النبى الذى يطلع على الحقيقة كان مناصرهم على الدوام . وإذا كان جيش بنى كلاب قد انشق على نفسه بعد رفض ذات الهمة الزواج من ابن عمها إلى درجة أن انضم ظالم وابنه الحارث إلى الطائفة المرتدة المناصرة لأعداء البلاد ، فإن الله قد كفاهم شر ظالم وابنه بعد أن قتلا فى إحدى المعارك . فإذا أضفنا إلى ذلك انضمام البطل الجرىء المخلص محمد البطال إلى جيش بنى كلاب ، يمكننا أن نقول إن الظروف أصبحت مهيأة للجيش العربى لخوض معركة النصر .

وقصة انضمام البطال إلى صفوف المحاربين قصة غريبة بعض الشىء . فقد ولد كسولا وجباناً للغاية . كان « يفزع من الماء إذا سر ومن الثور إذا هر ، وكلما

(١) السيرة ج ٢٦ ص ٤٠ .

زقزق الفأر فى الدار يهرب فى ثياب أمه ... ومن جملة كسله أنه إذا كان نصفه فى الظل والنصف الآخر فى الشمس وهو نائم يكسل أن يزحف من الشمس إلى الظل . » (١) وذات يوم بينما كان جالساً بمفرده تحت ظل شجرة ، هوى سيف من السماء مندفعاً بقوة . إلى باطن الأرض . وأصيب البطال بفزع شديد حتى كاد يغمى عليه . فلما حاول أن يجتذب السيف ، وجده قد نفذ إلى بطن ثعبان مهول وقضى عليه . فما كان من البطال إلا أن قال : « الله أكبر بان الحق وظهر ، وأزال الله الخوف والحذر ... فلا مفر من الموت ، ولا مهرب من الفوت ... ثم إنه فى ذلك الوقت هاجت به السريرة الخفية التى أودعها فيه رب البرية وعصفت فى رأسه نخوه العرب ، ونزل من على تلك الرابية وجذب الحسام وحمل فى أوائل القوم . »(٢) ولم يشأ محمد البطال أن يحارب فى صفوف قبيلته بنى سليم ، وإنما حارب فى صفوف بنى كلاب ، إذ رآهم أكثر استبسالا فى سبيل الدفاع عن الدين الإسلامى .

على أن البطال لم يبرز فى القتال كما برزت ذات الهمة وابنها عبد الوهاب ، وإنما كان متفنناً فى أساليب الحيل . وقد عبر هو عن ذلك فقال : « أنا ما صناعتى الحرب والطعن والضرب ، وإنما صناعتى فى الحيل والخداع فى حصن أو قلعة . » (٣)

وقد ساعد البطال فى حيلة عاملان : معرفته بلغة الروم أى اللغة اليونانية ، ثم مقدرته على التنكر فى أشكال عدة . ولم يستطع الروم رغم حرصهم البالغ منه أن يكشفوا أمره ، فاضطروا إلى تعليق صورته فى الكنائس والأديرة حتى لاتتم خديعته على الناس . وقد

(١) السيرة ج ٧ ص ٧١ .
(٢) السيرة ج ٨ ص ٢ .
(٣) السيرة ج ٢٦ ص ٢١ .

وصفه أحد الروم بقوله : « هذا البلاء النازل ، هذا الموت العاجل ، هذا البلاء الكامل ، هذا مفتتت الأكباد الذى تذل من حيله ومكره الأسود ، هذا الثعبان الأغبر ، هذا الموت الأحمر الذى فى جميع الكنائس مصور . » (١)

وليس فى وسعنا أن نحدد حيل البطال ، وإنما يكفى أن نقول إنه يعد المحرك الأول لحوادث السيرة . فقد كانت مهمته التسلل داخل بلاد الروم والمكوث بها زمناً يتيح له فرصة التعرف على بعض من يعرف خطط القتال فيهتدى بذلك إلى معرفة نواياهم وينقلها بالتالى إلى جيش المسلمين . وقد تكون مهمته تضليل الروم حتى تتم خطة جيش بنى كلاب بنجاح . فإذا تعذر فتح بلد على المسلمين ، يسرع البطال ويتفنن فى صنع حيلة حتى تسقط البلد فى أيديهم . وقد حدث هذا عند حصار عمورية ؛ فقد وقف المسلمون أمام أسوارها المنيعة عاجزين عن دخولها . عندئذ وقف البطال يتلمس الحيلة السريعة . فرأى من بعيد أناساً يركبون الحمير ويحملون معهم أشياء ويتوجهون إلى أبواب المدينة . فلما وجدوها مغلقة تحدثوا فيما بينهم باللغة اليونانية عن كيفية حمل هذه الأشياء إلى الملك. وفهم البطال حديثهم واقترب منهم وتحدث معهم باللغة اليونانية ، الأمر الذى جعلهم يتأكدون من أنه رومى . فلما ركنوا إليه هم بقتلهم ولبس زيهم وامتطى حميرهم مع بعض رجاله . ثم أفصح للحارس عن رغبته وكان قد بلغ بهذا الأمر فسمح له بالدخول مع رجاله . وما كاد يدخل حتى أخذ يعمل على هدم جزء من السور تمكن المسلمون من التسلل منه . أما أعظم مهام البطال فهى تتبع تحركات عقبة . فإذا افتقده داخل البلاد الإسلامية ، أسرع فى الرحيل إلى بلاد الروم ليبحث عنه . وما يزال مقتفياً أثره حتى يقبض عليه متلبساً بجريمته ثم يأخذه إلى الخليفة ليشهد على خيانته .

وبهذا نستطيع أن نقول إن القوة اكتملت لجيش المسلمين . فالقيادة السليمة وقوة الشخصية تتمثلان فى شخصية ذات الهمة ، والبطولة النادرة تمثلت فى عبد الوهاب كما أن المقدرة على ابتداع الحيلة بلغت قمتها عند البطال . فإذا أضفنا إلى ذلك استبسال جميع أفراد الجيش وتفانيهم فى أداء واجبهم ، أدركنا أن عوامل النجاح قد تهيأت لجيش الشعب العربى .

ولم يكن يعنى انشغال المحاربين بالحروب العربية الرومية ، ابتعادهم عما يجرى داخل البلاد . ولم تكن أحوال الدولة الداخلية أقل اضطراباً من أحوالها الخارجية ، فكما كان العدو الخارجى يتهدد البلاد عند حدودها ، كان الانتهازيون يتهددونها من الداخل . بل إنهم كثيراً ما كانوا يتعاونون مع العدو الخارجى فى سبيل القضاء على السلطة العربية الحاكمة . وهنا يبدو لنا أن العبء كان ثقيلا على الجيش الإسلامى المرابط عند حدود الدولة . فلكى تستقيم الأمور للدولة الإسلامية لابد أن تتكاتف الأيدى للقضاء على عناصر الفساد فى الداخل ، والقوة المهددة للبلاد فى الخارج فى آن واحد . وهذا ما وضعه الجيش المحارب نصب عينيه ، فكانت خططه تسير وفقاً لهذا المرمى .

وربما كان تحقيق هذا الأمر يسيراً لو اتحدت الأمة الإسلامية حكومة وشعباً . ولكن هذا لم يكن يتحقق على الدوام فى عهود الخلفاء . وهنا تقدم لنا السيرة عرضاً تاريخياً مفصلا منذ بداية عهد عبد الملك ابن مروان ، حتى نهاية حكم المعتصم بالله ، فترسم لنا صورة واضحة لكل خليفة وموقفه من حوادث عصره معتمدة فى ذلك على الحوادث التاريخية من ناحية ، وموقف الشعب إزاء ذلك من ناحية أخرى .

---

(١) السيرة جـ ٢٨ ص ٥٤ .

ومن خلال هذا العرض يتبين لنا كيف أن بعض الخلفاء كان عاكفاً على ملذاته ، غافلا عن أحوال الدولة ، منصفاً للنفاق الذى يتجسد فى شخصية عقبة . ولكن هذا لم يكن ليترك اليأس يتسرب إلى جيش بنى كلاب ، وإنما كانوا يعتمدون فى مثل هذه الظروف على قوتهم واستقلال رأيهم . فإذا عارضهم الخليفة أجابوه بقولهم « ودعنا فى وجوه الكفرة لا لك ولا علينا ، فيخرج الأمر من يديك ويدينا » فإذا استشاط الخليفة غضباً وأمرهم بالرحيل من منطقة الثغور أسرعوا وتخفوا فى مكان قريب واستمروا فى نضالهم حتى تنكشف الحقيقة للخليفة فيعمل على إنصافهم .

ثم ينتهى العرض التاريخى للسيرة بخلافة المعتصم بالله . وهو أرشد الخلفاء العباسيين وأكثرهم نشاطاً ورجاحة عقل كما تصوره السيرة . وفى عهده اتحدت الدولة الإسلامية حكومة وشعباً فى سبيل المصلحة العامة . ففتحت عمورية وهدد الجيش القسطنطينية وتم له النصر بفتحها . وكان عقبة قد أسر منذ زمن وظل فى حراسة مشددة حتى يتم صلبه على باب الذهب . واجتمعت حشود المسلمين لتشهد مصرع النفاق على باب الظلم والضلالة . عندئذ توجه المعتصم إلى عقبة وقال له : « يا قاضى كيف ترى قول النبى (ص) للأمير عبد الوهاب حينما وعده بصلبك ؟ هل صح قوله فى الرؤيا أم لا ؟ وفى اللحظة التى تم فيها صلب عقبة هتف المسلمون فى صوت واحد : » وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً . » (١)

وبهذا حققت السيرة كل ما يصبو إليه الشعب العربى ؛ فقد صلب النفاق وقضى على العدو الخارجى المهدد لكيان الدولة فى آن واحد . وحق للحكام الأبطال أبناء الشعب أن يسهموا بعد ذلك فى حكم البلاد . ولما كانت ذات الهمة وابنها عبد الوهاب والبطال قد أدركهم الموت بعد أن أدوا واجبهم ، فقد حكم أولادهم من بعدهم البلاد التى تم فتحها على أيديهم .

السيرة والتاريخ :

تعد السيرة حكاية شعبية بطولية . وتختلف الحكاية الشعبية عن الحكاية الخرافية فى دوافعها وشكلها . وليس هنا مجال للتفرقة بين النوعين وإنما نكتفى بذكر أهم خصائص الحكاية الشعبية .

الحكاية الشعبية البطولية ترتكز على الواقع تماماً ، وهى فى الغالب تعتمد على الحوادث التاريخية . فقد يكون أبطالها تاريخيين ، وهى تلونهم وتشكلهم وفقاً لخيال الشعب . وبالمثل فإن الحوادث التى تحكيها السيرة ترتكز إلى حد كبير على الحوادث التاريخية ، ولكنها تحكيها من وجهة نظر الشعب أولا وتدخلها فى نسيج حكايتها ثانياً . أى أن السيرة لا تحكى التاريخ العلمى الموضوعى وإنما تحكى التاريخ الشعبى . ويمكننا أن ندرك الفرق بين التاريخ العلمى والتاريخ الشعبى من خلال مقارنتنا لحادثة واحدة هى حادثة البرامكة . فالطبرى يبحث نكبة البرامكة بحثاً موضوعياً ويقول إن الأسباب التى أدت إلى نكبتهم مختلف فيها . ثم يأتى بالآراء التى قيلت بصدد هذا دون تعليق وتحمس لرأى من الآراء لأن التاريخ العلمى لا يقبل القطع برأى فيها .

وأما ما تذكره السيرة بصدد هذه الحادثة فيختلف تماماً عما يرد فى كتب التاريخ . لأن السيرة تحرص كما ذكرنا على أن تربط الحادثة بنسيج حوادثها ، وأن تعرضها من وجهة نظر الشعب . وأما عن ربط هذه الحادثة بتسلسل الحوادث فى السيرة فيتضح فيما يلى .

---

(١) السيرة ج ٧٠ ص ٧٦ ، ٧٧ .

تقول السيرة : « وأما ما كان من الإمام الرشيد ، فإنه لما سار ووصل إلى ملطية ونزل عليها أمر بعمارتها . فجمعوا الصناع من سائر البقاع وشرعوا فى البناء . وبعد ذلك سار الخليفة إلى بغداد ودخل فيها وجلس على كرسى خلافته . وكان عقبة حاضراً فى ذلك المجلس. ونظر إلى جعفر بين يدى الرشيد ، وكل واحد يتكلم على قدر ما يشتهى ويريد ومن جملتهم الوزير جعفر ابن يحيى البرمكى ، وقد تكلم فى حق الأمير (يعنى الأمير عبد الوهاب ولد ذات الهمة) بما يليق بأخلاقه الكريمة . فصعب ذلك على الملعون عقبة ولم يستطع أن يسمع المدح فى حق الأمراء . فنهض من وقته من مجلس الخليفة وقصد إلى داره ، وقد صح عنده تعصب جعفر للأمراء لأنه رآه يشكر لهم الإحسان ويرد غيبتهم عند السلطان . فقال : وحق المسيح والحواريين لابد أن أعمل على هلاك البرامكة أجمعين . » (١) ثم اتفق مع الفضل بن الربيع على أن يكتب خطاباً بخط جعفر البرمكى ، ويدسه له فى عمامته عن طريق أقرب خادم له . وفى هذا الخطاب يسب جعفر الرشيد ويتهمه بأبشع التهم ، وقبل الخادم أن يفعل هذا فى مقابل مساعدة عقبة له على زواجه بمن يحبها . ثم ذهب عقبة إلى الرشيد وأخبره بأن جعفر البرمكى يحقد عليه ويعمل على إبعاده عن كرسى الخلافة . وليس على الرشيد سوى أن يطلع على الرسالة التى يخبئها جعفر فى عمامته حتى يتأكد من صدق قوله . . وفتش جعفر وعثر على الرسالة وأعقب ذلك إنزال الرشيد النكبة بالبرامكة.

ولم تكتف السيرة بربط حادثة البرامكة بجوهر السيرة ، وإنما أسهبت فى وصف نكبتهم وصدى هذه النكبة عند الشعب . ومن خلال هذا السرد الطويل نتبين كيف كان الشعب يحب البرامكة لكرمهم وحسن معاملتهم

(١) السيرة ج ١٢ ص ٢٥ .

إلى درجة أن صورت السيرة جعفر بوصفه ولياً . فقد هتف هاتف بجعفر قبل أن تحل به الكارثة وأنبأه بها . بل إن كرامات جعفر استمرت بعد وفاته . فقد اعتاد رجل أن يعيش على ما يغدقه عليه ، فلما مات جعفر جلس الرجل عند قبره يبكيه حتى غلبه النوم ، فرأى جعفر فى رؤياه وأمره أن يرحل إلى البصرة ، فيذهب إلى حانوت معين وصفه له ، ويقول لصاحب هذا الدكان « بأمارة الفول اعطنى ثلاثة آلاف دينار » (١) . وفوجىء الرجل عندما وجد صاحب الحانوت يقدم له ثلاثة آلاف دينار على الفور . وطلب منه أن يفسر له هذا الأمر الغريب . فأخبره صاحب الحانوت بأنه كان رجلا فقيراً يبيع الفول . وفى ذات يوم خرج ليبيع الفول فسقط المطر عليه وأغرق فوله . ورآه جعفر وعلم أنه فقير يسترزق من بيع هذا الفول . فغمره بعطفه وماله حتى اغتنى وفتح هذا الحانوت .

ولعلنا ندرك بعد ذلك الفرق الجوهرى بين التاريخ العلمى والتاريخ الشعبى . ومع هذا فالتاريخ الشعبى يعتمد أولا على حوادث التاريخ . وليس أدل على ذلك من أن السيرة اهتمت بذكر حادثة هجرة بنى كلاب إلى منطقة الثغور ليشتركوا فى الحروب العربية البيزنطية. ولولا إشارة القلقشندى لهذه الحادثة لحسبناها خيالا صرفاً .

وليس فى وسعنا أن نذكر الحوادث التاريخية العديدة التى ارتكزت عليها السيرة . فالمكان لا يتسع لذلك . ولكن حسبنا أن نشير إلى ما ذكره جريجوار فى مقدمة كتاب « العرب والروم » لفازلييف . قال إن الأستاذ كنار « اكتشف فى رواية الفارسية العربية المسماة بذات الهمة مادة وفيرة لا تزال زاخرة بالتاريخ تحللت شيئاً فشيئاً فى ثنايا الأساطير وانتهت إلى آثار

(١) السيرة ج ١٢ ص ٤٥ .

مثل السيد البطال بعد أن كان المستشرقون يعتقدون أنها آثار لا تحد بمكان أو تاريخ . » (١) .

وحسبنا أن يكون عبد الوهاب والسيد البطال شخصيتين تاريخيتين اشتركتا معاً فى الحروب العربية البيزنطية . وقد قتل عبد الوهاب فى تلك الحروب عام ١١٣ هـ ، كما قتل فيها البطال عام ١٢٢ هـ . وقد كانا صديقين فى القتال تماماً كما هو الحال فى السيرة . ففى عام ١١٣ هـ غزا عبد الوهاب مع البطال بلاد الروم . « فانهزم الناس عن البطال وانكشفوا فجعل عبد الوهاب يكر فرسه وهو يقول : ما رأيت فرساً أجبن منك وسفك الله دمى إن لم أسفك دمك . ثم ألقى بيضته على رأسه وصاح أنا عبد الوهاب بن بخت . أمن الجنة تفرون ؟ » (٢) .

السيرة بوصفها تراثا شعبيا وعملا أدبيا فنيا :

رأينا كيف أن السيرة تعد تراثا شعبيا . ومعنى هذا أن الشعب يعيش حوادث عصره ، ويعبر عن موقفه من هذه الحوادث . وإذا عبر الشعب عن حوادث عصره ، فمعناه أنه ينتقدها ويثور على الفاسد منها ، وهو لا يكتفى بذلك ، وإنما يصور من خلال نسج الحوادث بالحياة الكاملة التى يطمح إليها . وهذا أول تعبير فى السيرة عن الروح الجمعى . إنه التعبير المتفائل الذى يهدم الحياة التى مسختها القيم الفاسدة ليقيم مكانها حياة يسودها العدل والصدق . فقد رأينا أن السيرة فضلا عن ارتكازها على الشخصيات التاريخية البطولية مثل شخصية عبد الوهاب والسيد البطال ، خلقت شخصية أخرى تقابلها هى شخصية عقبة . وعقبة رمز أكثر من كونه شخصا ، هو رمز للحياة التى ينبغى أن تنتهى لأنها لاتحقق الخير . ولهذا فقد صلب عقبة لأن وجوده لايتفق مع الحياة الجديدة التى سعى إليها الشعب وحققها . وقد أصر أبطال السيرة على أن يقتل عقبة على باب الذهب بعد أن تفتح القسطنطينية ، أى بعد أن يقضى على العدو الخارجى ، وهذا معناه فى مفهومنا الحديث أن كيان الدولة الداخلى والخارجى لاينفصلان ، فموقف الدولة من أحدهما يعكس مباشرة موقفها من الآخر . ولعلنا نلمس هذا بوضوح فى عصرنا ، فالقوى الخارجية المناوئة إذا استطاعت أن تتسلل فى جسم دولة ، فإنما يعنى ضعف الكيان الداخلى لهذه الدولة . وبالمثل فإن فساد الدولة الداخلى يمكن كل قوة متربصة بها فى الخارج من التسلل داخلها . وهكذا يتبين لنا أن السيرة لم تكتف بسرد الحوادث ، وإنما تطورت بها لتحقيق هدف بعيد ، وهو هدف شعبى وفنى حقاً .

فإذا انتقلنا إلى ذكر العناصر الفولكلورية التى تحتوى عليها السيرة فإننا نجدها وافرة ، وهى تتمثل فى المعتقدات والتطورات التى يؤمن بها الشعب ويعبر عنها فى كل أشكال تعبيره . وأبرز هذه المعتقدات والتصورات تتمثل فى الحلم والسحر . والحلم وفقا للتصور الشعبى لا يعكس حقيقة الحياة اليومية ، وإنما هو حقيقة فى حد ذاته . بمعنى أن مايراه النائم فى رؤياه لابد أن يتحقق فى الواقع . وقد سبق أن أشرنا إلى الرؤيا التى رآها الرجل الذى كان ينعى حظه بعد نكبة البرامكة والتى تحققت بحذافيرها . ولولا إيمان الرجل بحقيقة الحلم لما سعى إلى تنفيذ ما أمر به فى حلمه . وبالمثل تحققت الرؤيا التى رأى عبد الوهاب النبى فيها ، وكذلك الرؤيا التى رأتها أم عقبة قبل ولادته .

والحلم ، فضلا عن أنه يكشف عن الحقيقة

---

(١) ڤازلييف : العرب والروم (ترجمة د. عبد الهادى شعيرة ، د. فؤاد حسنين (ص ٣) ط. دار الفكر العربى) .

(٢) تاريخ الطبرى حـ ٣ ص ١٥٥٩

المجهولة ، يؤدى وظيفة أخرى فى السرد . فهو يساعد على خلق الحركة الجديدة ؛ إذ سرعان مايتحرك الأبطال بعد أن يرى أحدهم رؤيا تكشف لهم عن مكان اختفاء عقبة أو عن المكان الذى أسر فيه عزيز لديهم .

والسحر قوة تكمن فى الأشياء . وفى وسع هذه القوة أن تساعد البطل فى تحقيق رغباته . وقد تكشف له عن حقيقة يجهلها . فقد دبر الروم مؤامرة لقتل مسلمة بن عبد الملك والصحصاح معاً ، وذلك بأن أرسلوا جاسوساً متنكراً فى هيئة زاهد ، استطاع عن طريق زهده أن يتقرب منهما . فلما تم له ذلك وضع السم لهما فى الطعام ثم اختفى . فلما مد مسلمة يده إلى الطعام ، «وأخذ لقمة وأراد أن يرسلها إلى فمه ، إذا بالخاتم الذى فى يده يقطر ماء أصفر قطرات متداولة مثل المطر . فصاح على الملك (أى الصحصاح) وقال له اصبر ياملك العرب لا تأكل شيئا من الطعام لأنه مسموم .... وكان فى يد الأمير مسلمة خاتم له فص من قرن الحية وكانت أحكمة الحكماء الأوائل ومكتوب عليه أسماء وطلاسم . وكان هذا الخاتم لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين . ولما أرسل الأمير مسلمة إلى هذا المكان خاف عليه من هذه الأحكام ، فسلمه إليه وعرفه عن منفعته . » (١)

والسحر يكمن فى الكلمة كما يكمن فى الأشياء . فإذا هتف المحاربون بقوله تعالى : «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون » ، انهزم المحاربون الأعداء على التو . وإذا هتفوا بقوله تعالى « لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » ، اكتسبوا قوة غير عادية وانتصروا ، بل إن حجاف وهو أحد المحاربين الأبطال أصيب فى رجله ولم يعد يستطيع الوقوف ، فأدار أبو محمد البطال وجهه إلى قبلة البيت الحرام وصلى ركعتين وبسط يديه بالدعاء ساعة زمنية .. ثم دنا من حجاف وقال له : قم بقدرة الله تعالى الذى رد عليك رجليك وخلصك مما كان قد تم عليك . فقام حجاف مثل الأسد الجسور وهلل فى قيامه وكبر وتشهد بعلو صوته . » (١) .

وربما كان الاعتقاد فى قوة الكلمة الدافع الأكبر وراء قول الأشعار البطولية قبل أن يخوض البطل المعركة مباشرة . فقد «كشف عبد العزيز العلوى رأسه وأخرج يده من جلباب درعه وهو ينشد هذه الأبيات :

ألا خـــبروها أننى اليوم باذل
لروحى فى هيجـــائها بالقواضب
وإنى أرد الخيـــل أيضا بصارمى
وأضرب أعناق الليوث السلاهب
ولو كان فيما بيننا ألف بلـــدة
لها ألف سور هان عندى مطالبى
وحق الذى حج الحجيج لبيتـــه
ينـــادونه لبيك من كل جانب
لاقتحمن الحـــرب حتى ترونها
يفيض نجيعاً مثل فيض السحائب

فإذا تجاوزنا المعتقدات والتصورات الشعبية إلى ذكر نموذج من التعبير عن اللاشعور الجمعى ، فإننا نجده يتمثل فى صورة البطل منذ أن يولد حتى يبلغ مرحلة النضج والكمال . وقد سبق أن قدمنا نموذجين لحياة البطل يتمثلان فى حياة جندبة وحياة ذات الهمة فقد ولد جندبة يتيم الأب ، ثم ماتت أمه بعد ولادته مباشرة وتربى لدى قوم غرباء . فلما كبر عرف حقيقة نسبه ، فانضم إلى قومه وأصبح البطل المرموق .

---

(١) السيرة جـ ٥ ص١

(٢) السيرة جـ ٥٧ ص٤٨

وبالمثل فقد تربت ذات الهمة لدى قوم غرباء أى أنها أبعدت عن أبيها وأمها . ثم عرفت فى النهاية حقيقة نسبها فانضمت إلى أهلها وقد اكتملت شخصيتها وأصبحت بطلة السيرة الأولى . ولا تنفرد السيرة بهذين النموذجين ، ولكنها تحتوى على نماذج بطولية أخرى تكاد تتفق حياتهما مع هذين النموذجين . فإذا عرفنا أن صورة البطل هذه ترد بالمثل فى الحكايات الخرافية والحكايات الشعبية فى جميع أنحاء العالم ، استطعنا أن ننتهى إلى أنها تعبير تلقائى عن اللاشعور الجمعى كما فسره علماء النفس . ومصدر هذا التعبير هو إحساس الفرد بالعقبات التى تستكن فى لاشعوره منذ طفولته حتى يصل إلى مرحلة التفرد والاكتمال . فالطفل الذى يولد من أبوين ، وما يلبث أن يشعر – حينما يكبر – بسيطرة الأب عليه الأمر الذى يدفعه إلى التقرب لأمه . حتى إذا ماشب عن الطوق ، اضطر – مدفوعا بطبيعة الحياة التى تتميز بالاكتمال والكمال ، إلى الانفصال عن أمه . وفى هذه السن يشعر الابن باحتقار لأبيه وأمه ويحل فى خياله محلهما من هما أرفع منزلة . حتى إذا اكتمل الابن نضجه ووصل إلى مرحلة الرجولة الكاملة ، ارتد إلى عالم الواقع ، فيتعرف على أهله محتفظا ببطولته ورجولته . هذا الإحساس اللاشعورى يخلفه الشعب مرة أخرى على صورة البطل . فالبطل إما أن يولد يتيم الأب ، أو يستنكر الأب ولادته إثر نبوءة تطلعه على خطورة طفله . وفى هذا إشارة لعلاقة الابن بالأب فى حياته الأولى . أما الأم فتحتفظ بالطفل بعض الوقت بعد ذلك ، إلى أن يبعد عنها الطفل كذلك ، وفى هذا إشارة إلى تحركه الطبيعى نحو الاستقلال . حتى إذا كبر الطفل تعرف على أهله . أى أنه – بعد أن تتم عملية الاستقلال والنضج ، لايشعر بخطورة فى الانضمام مرة أخرى إلى أهله ، لأنه قد أصبح بالفعل بطلا مرموقاً .

وبالإضافة إلى المعتقدات والتصورات الشعبية ، وصور التعبير التى تنبع من اللاشعور ، هناك الحكايات الشعبية التى يحفظها الشعب فى ذاكرته لاعتزازه بها . ومن ثم فهو يخلق لها مجالا فى السيرة لكى يحكيها عن عمد . ومن ذلك ما يحكيه الراوى عن الصحصاح من أنه تقابل فى قلب الصحراء مع ظبية راعه منظرها وهى تجرى مصطحبة أولادها . فجرى وراءها الصحصاح يبغى صيدها ، ولكنها أسرعت ودخلت كهفا مع صغارها . وفى تلك اللحظة برز أسد جسور وهم بأن يفتك بالصحصاح . وفى تلك اللحظة تجسدت أمامه امرأة رائعة الجمال لم يدر من أين أتت . فضربت الأسد ضربة قضت عليه . وتعجب الصحصاح من ذلك وسألها ما إذا كانت إنسية أم جنية . فأخبرته – بعد أن سخرت منه ومن قوته التى يعتز بها ، بأنها ابنة ملك الجان عقهق الذى سجد للنبى عليه السلام . وهى بعينها الظبية التى جرى وراءها ، ورغب فى اصطيادها .

ومن ذلك حكايات الكهانة والعرافة . وقد رأينا كيف أنها استغلت فى السيرة فى حادثة تبرئة ذات الهمة من التهمة التى وجهها لها ابن عمها الحارث .

كل هذه العناصر الفولكلورية تحتوى عليها السيرة . وهى تتعلق جلها بتراث الشعب القديم . فهل معنى هذا ان أهمية السيرة ترجع إلى احتوائها على هذا التراث ؟ وبعبارة أخرى : هل يعنى التراث الشعبى ، القديم المتوارث ، أم القديم المتطور ؟ إن التراث الشعبى يعنى أولا وأخيرا شتى أشكال التعبير عن حياة شعب من الشعوب . وتتحدد حياة هذا الشعب بأصله والمكان الذى يعيش فيه ومصيره .

ومعنى هذا أن أى تغيير يطرأ على حياة هذا الشعب لابد أن يترك أثره فى الشعب وبالتالى فى أشكال تعبيره .

أما بالنسبة للسيرة فقد تغيرت حياة الشعب العربى الممثل فى أسرة بنى كلاب تغيرا زمنيا ومكانيا واجتماعيا . وقد استطاعت السيرة أن تصور مرحلة الانتقال هذه أروع تصوير . فقد بدأت بعرض حوادثها فى قلب الصحراء ، حيث كانت تعيش أسرة بنى كلاب . وقد كانت تعيش هذه الأسرة فى أفق مكانى ضيق وحيز زمانى محدود . أما المكان فهو الصحراء بتقاليدها المتوارثة . وأما الزمان فهو عصر ماقبل الإسلام وإن أتى عليهم الإسلام . ولهذا فإن حياة هذه الأسرة لم تتجاوز الصراع بين القبائل وبين أفراد القبيلة الواحدة . ثم خرج الصحصاح يطلب مهراً لليلى من وراء المغامرات . وقادته هذه المغامرات إلى بلاط الخليفة الذى وثق فى شجاعته وطلب منه أن يرحل مع مسلمة بن عبد الملك لمحاربة الروم .

وتعد هذه الحادثة نقطة تحول فى حياة الأسرة ، إذ أعقبها خروج الأسرة كلها إلى منطقة الثغور . وهذا معناه اتساع أفقهم المكانى وكذلك أفقهم الزمانى نتيجة معايشتهم لحوادث عصرهم التى كانوا بعيدين عنها . وبالمثل فقد فتحت الحياة الجديدة أذهانهم لمفهومات سياسية واجتماعية جديدة . فالحاكم ليس الشخص الذى يتربع على عرش الملك ويعيش حياة البذخ والترف بينما تدير حكومته أمور البلاد كيفما شاءت ، وإنما هو ذلك الذى يعيش مع الشعب ويشعر الشعب بوجوده . فلما ظهر الخليفة هرون الرشيد أمام جيش الشعب مصطنعاً موقف الحاكم المترف الذى يأنف من شعب الصحراء وبخاصة عبد الوهاب الأسمر اللون ، اغتاظ أحد أفراد أسرة بنى كلاب ، وخاطبه بالصراحة التى تربى عليها ، وسأله عن السبب الذى دفعه لاحتقار أميرهم وبطلهم عبد الوهاب ، ألأنه أسود اللون ؟ وإذا كان الأمر كذلك فليبق هو خليفة للبيض ، وليصبح عبد الوهاب خليفتهم .

ثم إن الحاكم يتحتم عليه أن يترك فرصة للشعب ليسهم فى صنع حاضره ومستقبله . وقد أسهم شعب السيرة فى صنع حاضره ومستقبله ، فوضع يده على بؤرة النفاق وقضى عليه وعلى العدو الخارجى فى آن واحد .

إن سيرة الأميرة ذات الهمة تراث أدبى عربى يستحق كل تقدير . فقد جمعت فى ثناياها التراث القديم والتاريخ ومقومات الدولة السياسية والاجتماعية المثالية ، ثم مزجت كل هذا فى قالب قصصى متكامل ، يحقق هدفاً محدداً على الرغم من طولها البالغ .

د. نبيلة ابراهيم

صفات البطل :

« قال الراوى » فلما رأى الصحصاح مصارع الأشباح ، وهذه الحريم فى بكاء ونواح ، أخذته الحمية ، فصاح فى عبده نجاح وقال والله هؤلاء حجاج بيت الله الحرام ، وزوار قبر محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وهؤلاء اللئام قطعوا عليهم الطريق وعوقوهم تعويقا وأظنهم قتلوا كماتهم وأبادوا حماتهم . ولقد سلوت حب ليلى باصطناع المعروف وإغاثة الملهوف ، ولا بد أن ألقى روحى على هذه الكتيبة وأكشف إن شاء الله هذه المصيبة . فقال له عبده نجاح يامولاى لاتفعل ، واعلم أن ما قصد لأخذ هذه الأموال وحماها إلا رجال وأبطال وصناديد أقيال ، ولابد أنهم تسعون فارسا ما بين مدرع ولابس . ولا يخفى أن يكون واحد منهم مثلك ، والباقى لايصبروا على فعلك . وقد كان فى هذه القافلة ما ينوف عن ستمائة فارس أو دون ذلك

فتركوهم هؤلاء ما بين مأسور وهالك ومطروح تحت السنابك . والصواب يامولاى لاتعرض نفسك على هذه المهالك ولا تعارك ، فلما سمع الصحصاح من عبده ذلك الكلام نظر إليه وقال يا ابن اللئام ما يقعد عن نصرة الحريم إلا كل لئيم . ثم صاح من أم رأسه : يا أندال البادية والطائفة الباغية العادية ، أقسم بمن جعل البيت الحرام حمى للناس وأمنا من الباس ، وأوضح منهجه وأفرض حجه لئن لم تخلوا عن الحريم وما معهم من المال لأجعلن رقابكم بلا علاصم وأجسامكم بلا جماجم وجراحكمماينفعها مراهم وقد نصحتكم نصح الليث الحازم . ثم أنشد يقول :

ألا يارجال السوء كفوا عن الطعن
وكفوا عن الأموال والحمل والظعن
أحجــاج بيت الله تبغون مغنما
وذلك فعل الشين يقضى إلى المحن
دعــوهم وإلا والمظلل من منى
وحجــاج بيت الله فى سائر المدن
جعلتكم فى القــاع طعما لأســده
كذا الطير من نسر ويوم مع السن

التراث الاسطورى فى السيرة :

« قال الراوى » : وكان الصحصاح قد كل من السير وقد فرح قلبه بنظره إلى ذلك الدير ، وقال فى نفسه لعلى أجد عند بعض الرهبان فرجاً مما أنا فيه ويفرج عن قلبى ما أعانيه . (وقال الراوى) ياسادة يا كرام ، فبينما هو يحدث نفسه بالمسير إلى الدير ، وإذا هو بغزالة حسنة المنظر ، مليحة الزى وهى سائرة تتمخطر وعيناها تتوقدان كأنهما ياقوتتان وحولها جماعة من الغزلان وهم خلفها كأنهم غلمان وهى أمامهم كأنها ملك وسلطان . وعن يمينها وشمالها غزالتان كالأتراك كأنهما لها حجاب وهى تتحدث معهم . وكان الوقت عند غروب الشمس وقد اصفرت أرجا . فمد الصحصاح إليها أسنانه وأطلق نحوها عنانه فجرت الغزالة قدامه وقد لحقتها تلك الغزلان وهى تجد والصحصاح لها فى الطلب ...

... هذا وقد دخلت الغزالة إلى غار فى الجبل وتبعتها الغزلان وقد بقى الصحصاح حائرا ولهان وعليها ندمان . فأراد أن يدخل خلفها إلى ذلك المكان فخاف على الجواد يشرد منه فى ظلمة الليل ويبقى حاله بعده فى الويل . فرجع طالب الدير وإذا قد اعترضه أسد كأنه شيطان . وكان الأسد طويل القامة عريض الهامة أحمر أغبر ، قد جلله الوبر وهو يتمخطر على الحجر ... وهجم على الصحصاح فهجم عليه الصحصاح . وعندها صرخ الأسد على الصحصاح صرخة قوية أقلب منها البرية وقد هجم عليه ولطمه بيديه فأرماه تحته . فبينما هو والأسد فى ضراب وقراع ودفاع ، وقد صارت روح الصحصاح فى النزاع ، وإذا بجارية حسنة القوام مليحة الابتسام كأنها البدر التمام قد أقبلت وصرخت على الأسد فارتجع عن الصحصاح وخلاه . وراح فنظر الصحصاح إلى وجه تلك الجارية فوجدها مبدعة للناظرين ونزهة للمتأملين . فقدم إليها وقبل يديها وقال لها : أنت إنسية أم جنية فقالت له : ايش لك بى وإيش لك بهذه القضية ؟ لا إنسية ولا جنية أنا فاعلة خير ساكنة بجوار أهل هذا الدير ... أنا بنت عقهق الجنى ملك الجان . وإن بنت الجن ما يتغير حسنها ولا ينقص جمالها ، فالمليحة مليحة والقبيحة قبيحة ، وفينا من تتزيا بمهما أرادت من الصفة الوحشية وصفة الطير وغيره وفينا للشر وفينا للخير ولما آمن أبى نزلت على النبى صلى الله عليه

وسلم سورة قل أوحى . . إلى قوله إنه : استمع إلى نفر من الجن ..... »

النزاع بين افراد القبيلة الواحدة :

« قال الراوى » فلما أن كان بعد ذلك بأيام جلسوا بين المشايخ الكرام . فقال ظالم لمظلوم اعلم أن زوجتك وزوجتى حامل ، وأنت أمير وأنا أمير ، فاجعل الشرط بيننا ويشهدوا هؤلاء المشايخ علينا ، من جابت زوجتـه ولدا ذكـراً كان الملك له والإمارة من دون الآخر ويكون الأمر والنهى فى الحرب له .. فقالوا مشايخ بنى الوحيد : وترضى أنت بهذا الأمر ، فقال أى والله العظيم وإن جاءنا ذكران بقيت الإمارة على حالها مشتركة بين الاثنين . فشهد العرب بعد أن رضوا بذلك الحد ، لأنهم تربية البر وهزلهم جد ... (قال الراوى) وبعد حين أخذ المرأتين الطلق بإذن خالق الخلق ، فوضعت زوجة ظالم ذكراً كأنه فلقة قمر ، ففرح به واستبشر وقد سماه الحارث . وقال للداية اذهبى وكونى فى بيت أخى فإنى أخاف أن يكتموا مايرزقون عند الولادة من خوف الشهادة . فقالت له : دع عنك المنافقة والشين ، كيف يكون هذا وأنتما أخوان . فقال لها دعى عنك هذا الكلام واذهبى إلى بيت أخى بسلام ... فعندها ذهبت الداية إلى بيت مظلوم وكانت تحبه أكثر من ظالم لما فيه من الدين والخير وجودة التمكين . فلما أن دخلت قالت لمظلوم : اعلم أن أخاك قد بعثنى لأجل كذا وكذا . ثم إنها جلست ساعة وزوجة مظلوم تطلق ، فولدت جارية كأنها البدر قوية السواعد والأطراف هائلة الأكتاف . فوقعت على امها الخمدة والهموم والغموم ، وقد فزعت من زوجها مظلوم ...

التاريخ الشعبى :

« ... ولم يكن هناك يومئذ بلد ولا عمارة سوى دير فيه راهب فطلبه المنصور إلى بين يديه ، فلما أن حضر سأله عن اسمه فقال له « باغ » وهذه الأرض اسمها « راد » وقد قرأت فى كتب الحكماء واطلعت على الملاحم فرأيت فيها أنه لابد أن تعمر هنا مدينة مذكورة إلى آخر الزمان . « قال الراوى » فقال لة الخليفة : كيف تبنى المدينة ههنا وهذه الأرض ملآنة ماء . فقال له الراهب : لاتعرف قطع الماء إلا منى . فقال له : افعل ما تريد . فمضى إلى مكان يعرفه وسد الماء فانقطع . ونزل المنصور على الدجلة ثم أمر بعمارة المدينة ... وسماها بغداد باسم الراهب والأرض » .

الايمان بالمخجزات :

« قال الراوى » ونرجع لما كنا عليه من الكلام بإذن محيى العظام . ولما تقدم أبو محمد البطال إلى السهم الذى يتحرك فى التراب فجذبه بكلتا يديه فلم يقدر . فجذب السيف الذى معه وحفر حواليه إلى أن وصل إلى آخره ، وإذا بذلك السهم قد وقع فى ثعبان عظيم ارتمى وهو ملبط بالدم . وذلك الثعبان من حلاوة الروح قد انقلب ودمه قد انسكب . ولما رأى البطال ذلك تحير فى أمره وقال : الله أكبر بان الحق وظهر ، وزال والله الخوف والحذر ..

الايمان بحقيقة الحلم :

... وبالقضاء والقدر نزل الأمير تحت شجرة كبيرة ظليلة لها أغصان متفرعات عن بعضها البعض وكل غصن منها يظل الفارس والمائه . فنام الأمير عبد الوهاب تحتها وقد غرق فى نومه فسمع للشجرة أنينا كأنين الثكلى وهى تقول : أيها الأمير صدق

الله ورسوله . فإذا قمت من نومك قل لأصحابك يقطعونى وبهذا حكم الله تعالى فلا مرد لحكمه ولا دافع لقضائه . ثم إنك تقطع أغصانى واحملنى من مكانى . فعلى يكون صلب عقبة الملعون على باب الذهب بعد أن يقتل ثلاثمائة ألف على صلبه من سائر الأمم . فانتبه الأمير عبد الوهاب من نومه وهو فزعان مرعوب وسمع أنين الشجرة فى يقظته كما سمعها فى نومه .فلما سمع ذلك قال: الله أكبر الله أكبر . فقال الأمير أبو محمد البطال: ما الخبر فأعاد عليه القصة ففرح الأمير أبو محمد البطال بذلك والأميرة ذات الهمة وقالوا: والله هذا أحب إلينا من فتح القسطنطينية لأن ما يجرى على المسلمين شىء أشد مما يجرى عليهم من عقبة .



الفردوس المفقود لجون ملتون

بقلم

الدكتور نظمى لوقا

١ ـ حياته

منذ ثلاثة قرون ونصف لم تكن البيوت فى مدينة لندن العظيمة تحمل أرقاما ، بل كان الناس يميزون بعضها عن بعض بتمثال صغير أو شكل منحوت أو صورة زاهية الألوان ترمز الى مهنة قاطن البيت أو الحرفة التى يمارسها فيه . فقد كانت العادة المرعية حينئذ أن يتخذ الناس مساكنهم وحجرات معيشتهم البيتية الخاصة فى الطبقات العليا من المنازل ، فوق حوانيتهم ومتاجرهم ومكاتبهم التى تشل الطبقة الأرضية من المبنى . وكانت لندن محدودة الحجم حيث قلب المدينة الآن . اما ما يعرف اليوم بضواحى لندن السكنية فلم تكن فى ذلك الحين الا ريفا متراميا بالحقول والمراعى .

وفى بيت من بيوت لندن ، وفى شارع بريد (أى شارع الخبز) كان المارة يرون على الواجهة نسرا مبسوط الجناحين ، وهو شعار أسرة قاطنه الذى يحترف كتابة العقود الرسمية والوثائق القضائية . فهو وكيل أعمال قانونية يحرر للناس وصاياهم واتفاقاتهم .. وكان فى بعض الأحيان يخرج موكليه من ضائقاتهم المالية باقراضهم المال بفائدة معقولة .

وفى يوم قارس البرد صرصر الريح يتداول سماءه هزيم الرعد ووميض البرق . فى التاسع من شهر ديسمبر سنة ١٦٠٨ وجد جون ملتون ــ رب ذلك البيت ومحرر العقود ووكيل الأعمال القضائية ومفرج الكروب بالربا المعقول ــ ان من العسير عليه مواصلة عمله المعتاد ، وهو المكب الدءوب ، فقلبه كان يرقص طربا حتى ليكاد يكفه عن التحبير والتحرير لينطلق بالشدو الذى يسقط الهيبة ويزيل الوقار ! .. فمنذ ساعات قلائل ــ فى الساعة السادسة والربع من صباح ذلك اليوم على وجه الدقة ــ صار أبا لغلام صغير جميل . وقال جون ملتون لنفسه « ليكونن هذا الغلام جونا آخر .. سميا لى » . وهكذا أطلق على الوليد اسم جون ملتون عندما تم تعميده فى الكنيسة القريبة من الدار ، وهى كنيسة «أول هالوز» .

ومثلما منح كاتب الاشغال القضائية ابنه جون

اسمه منحه أيضا ــ أو منحته الطبيعــــة وأفانين الوراثة الغامضة ــ جانبا لا يستهان به من طبعه. فجون ملتون الكبير ــوالد الشاعرــ سمحلنفسه أن يخالف أباه فى بعض مسائل العقيــدة ، حتى لقد تعرض فى هذا السبيل لسخط ذلك الأب الى حد اعلان براءته منه حتى نهاية حياته ، من غير أن يلين أى منهما عن موقفه العنيد ، مما يدل على الصلابة واستقلال الرأى فى هـــــذه الأرومة. واستقلال الرأى ، والحفاظ الشديد على هــذا الاستقلال والاعتداد به سمات بارزة غاية البروز فى شاعرنا جون ملتون ، ولاشك فى انها موروثة عن ذلك الوالد .

وكان جون الأكبر ــوالد الشاعرــ قد أثرى وجمع مالا يعتد بقدره فى زمنه . وكان يتحرى فى سلوكه أوامر ضميره ونواهيه ، ويصــــدر عن وجدان مؤمن بما يصنع ، ويستمد من علمه ومعرفته وقودا صالحا لطاقته ،فجعل يكدح فى عمله بأمانة واجتهاد منذ بكرة الصباح الى ساعة متأخرة ، لا يأخذ فى عمل حتى يتمه على أكمل وجه . فلما أنعم الله عليه بولادةابنه وجد من حقه وسط نصب العمل الشاق أن يضع القلم من يده قليلا ويخــلد الى التفكير محملقا فى النار يطالع فيها صورا من صنع الأحلام ، عسى أن يرى فيها وليده وسميه وقد بلغ مبلغ الرجال!ولعله حرىأن يقتفىخطوات أبيه وكيل أشغال قضائية ومقرض نقــود بالربا المعقول ، وقورا مبجلا بين رجال الأعمال وأرباب الحرف والمهن . أو لعل موهبة أبيه المحدودة فى نظم الاهازيج والمقطعات الشعرية تنمو لديهفتصبح ملكة مزدهرة تؤتى أكلها من أطايب القــريض . ولكننا لا نخال تصورات أبيه وأحلامه فى ذلك اليوم بالغة ما بلغت من الجموح والاسراف يمكن أن نصل الى بعض ما كتب لهذا الوليد من مكانة رافعة فى عالم الشعر على اطلاقه ، وفى آداب العالم أجمع على اختلاف اللغات وتباين العصور .

ومهما يكن من شيء فقد قرر ذلك الوالد أن يقدم فى شأن ابنــه على أمرين : أولهما أن يتيح لابنه جون تعليما متينا وأن ينشئه على تعــاليم المتطهرين (البيوريتان) وهى العقيدة البروتستانتية الخاصة التى آثرها وكيل الاشــغال القضــائية بالانتماء اليها .

وفى السن المناسبة ــ وهى سن مبكرة ــارسل جون ملتون الى مدرســة القــديس بولس التى التى أنشأها الدكتور جون كوليت فى سنة ١٥٠٩ وصار يشرف عليها فى ذلك العهد الكسندر جيل وله شهرة واسعة بين ابناء جيله ، ذلك انه من احسن نظار المدارس ومن أكثرهم استخداما للعصا وسيلة للتهذيب والتعليم . وكان الفتى الصغير جونلايكاد ينتهى من تلقى علومه سحابة النهار فى تلكالمدرسة حتى يجد باتنظاره فى البيت مؤدبا خاصا يلقنــه مزيدا من الدروس والمعلومات .

ويخبرنا الشاعر العظيم فيما تركه من أقــوال وكتابات « انى كنت منذ سنواتى الأولى بفضل عناية ابى وهمته التى لا تعرف التوقف أو الابطــاء (جزاه الله عليها خير الجزاء !) دائم الاطلاع على اللغات وبعض العلوم التى تسمح بها سنى ، وذلك كله على يد أساتذة ومؤدبين عديدين سواء فىالبيت أو فى مقاعد الدرس فى المدارس » ثم يقول فى موضع آخر :

« لقد وجهنى أبى منذ حداثة صباى الباكرة الى دراسة الآداب الانسانية التى كنت استوعبها بلهفة عظيمة ، حتى لقد كنت منذ بلغت الثــانية عشرة لاأترك دروسى لآوى الىفراشى قبل انتصاف

الليل . وكان ذلك فى الواقع أول سبب من أسباب ايذاء حاسة البصر ، فبدأت تنتابنى فوق متاعب ضعف عينى الطبيعى آلام الصداع المتلاحقة ».

وفى سن الخامسة عشرة نظم ملتون ترنيمة استقى مادتها من المزمور ١٣٦ أصبح ترتيلها شائعا حتى اليوم فى كنائس المتطهرين خاصة والبروتستانت الانجليز بصفة عامة . وفى سن السادسة عشرة دخل جون ملتون كلية المسيح فى جامعة كمبريدج وهناك أطلق عليه زملاؤه من طلاب الجامعة لقب « سيدة كلية المسيح » لما اشتهر به من رقة البشرة وطول الشعر الضارب بلونه الى حمرة النحاس ، وهو ذلك اللون الذى يسميه العرب « اللون الأصحر» . وفى كلية المسيح ظل جون ملتون يعمل بدأب على مدى سبع سنين .

وبعد أن حصل الطالب النابغ على درجة البكالوريوس ودرجة الاستاذية (الماجستر) فى الآداب غادر جامعة كمبريدج ورحل الى قرية هورتون فى اقليم بكنجها مشاير ، وهى القرية التى كان والده قد اعتزل عمله وتقاعد فيها . وكان رأى جون ملتون قد استقر بعد تخرجه على أن يفرغ للشعر .

والواقع انه كان قبل مغادرته ، كمبريدج قد كتب قصيدته الجميلة التى عنوانها : « صبيحة يوم ميلاد المسيح » وقد كتب فى ذلك الحين الى صديق له ردا على رسالة قائلا : أراك تكثر من السؤال عما اشغل به نفسى ، وعما أفكر فيه ؟ وانى بعون الله تعالى مشغول الفكر بالخلود . واغفر لى هذه الكلمة ، فان هى الا همسة ألقى بها فى مسامعك . أجل أعلم انى أهيىء جناحى للتحليق !

واستهواه هدوء حياة الريف ، فجعل من نفسه وفكره مستقرا لجميع الصور الجميلة والأصوات العذبة والأنغام الشجية .. وانصرف الى كتابة القصائد والمسرحيات الشعرية ، وأشهرها «كوموس وهى تمثيلية من نوع مسرح الأقنعة ــ وهو نوع كان مرغوبا جدا فى تلك الأيام ــ كتبها لصديقه هنرى لاوس الذى كان يعتبر أبرز المؤلفين الموسيقيين والملحنين بانجلترا فى زمنه ، وقد تولى وضع الموسيقى لكلمات تلك القطعة الأدبية .

وقد بلغ من حب وكيل الأشغال القضائية المتقاعد بعد أن أثرى أنه منح ابنه البكر « مبلغا كافيا من المال فى سنة ١٦٣٨ (أى عندما بلغ الثلاثين من عمره) ليقوم بجولة سياحية فى أرجاء القارة الأوربية ، بالاضافة الى اجر ونفقات خادم فى سن الرجولة صحبه فى هذه الجولة الطويلة الباهظة التكاليف ليقوم بشئونه . وليس عجيبا على الاطلاق أن تصبو نفس شاعرنا الى الطواف بالأمم ولا سيما ايطاليا ذات الشمس الدافئة ، فهو قد عل ونهل من اللغات القديمة ولا سيما اللاتينية جرعات كبيرة على حد تعبيره ، وكان أدب دانتى وبترارك وغيرهما من فحول أدباء الطليان زاد مائدة حافلة أصاب منها كل جنى وشهى ومستطاب . وفى ايطاليا على الخصوص أطال المكث والتلبث مستأنيا متأملا . وعد مدائنها القديمة المعمورة بآيات الفن واعلام الفكر وكنوز الثقافة القديمة والحديثة حطت رواحله ولا سيما فى رحاب جنوه ولجهورن وبيزا وفلورنسا وروما والبندقية وميلانو . وفى « أرشترى » قرب فلورنسا حظى بالتحدث الى فلكيها المشهور « جاليليو » الذى كان يعيش هناك يومئذ رهين محبسين من عزلة الشيخوخة وآفة العمى مستكينا الى الهدوء بعد طول نضال مع اعداء حرية العقل وحرية التجربة العلمية .وياله من موقف من مقارنات القدر ، أن يقف جون ملتون الشاب الناضر الجمال والوسامة الجميل العينين خاشعا أسيفا على

شيخوخة العالم المصاب فى بصره وهو الفلكى الذى صحح للناس معطيات أبصارهم وقوم لهم خداعها فى أمر دوران الشمس حول الأرض كما كانوا يزعمون ... وهو لا يدرى أن الغد يدخر له مثل هذه الضربة فى ظهر الغيب بأخرة من عمره بعد نضال شبيه بذلك النضال فى حومة السياسة والفكر .

وفيما هو بمدينة نابولى وصلته الأنباء من وطنه انجلترا أن استبداد حكومة الملك شارل الأول يجر البلاد الى الثورة العلنية ، وهو يقول لنا بلسانه: « ان الانباء الأسيفة عن وشك نشوب الحرب الأهلية فى انجلترا دعتنى للعودة الى بلادى ،لأنى وجدت من الحقارة أن أطوف بآفاق الدنيا خارج الحدود ووراء البحار طلبا للمتعة الذهنية والثقافة فى حين يقاتل ابناء وطنى ويسفكون دمهم فى المعارك على أرض بلادى دفاعا عن الحرية والتماسا لأسبابها ! »

واننا لنجد فى هذه العبارة الموجزة وجها جديدا لجون ملتون الذى كان حتى ذلك الحين عاشق فن وادب ورجل خيال ، فاذا به يتكشف عن رجل عمل ونضال ، ولم يلبث أن شد رحاله عائدا الى انجلترا .. ولكن مامن شىء ينم على أنه فكر لحظة واحدة فى امتشاق حسامه فى صفوف كروموبل وجيش البرلمان ضد الملك والملكية ،فالقلم دائما كان سلاحه . وعندما سنحت له الفرصة انبرى بذلك السلاح العضب فى يده فكان أفعل من السنان عند احتدام الطعان .

وفى طريق عودته الى انجلترا نظم ملتون قصيدته فى تمجيد ذكرى صديقه « تشالز ديوداتى » الذى وافته المنية أثناء رحلة ملتون فى بلاد القارة الأوربية . وقد اقتفى شيلى أثر ملتون بنظم قصيدته المشهورة « ادونايس » فى رثاء جون كيتس ، كما اقتفى أثره لورد تنيسون فى قصيدته « الذكرى » تمجيدا لذكرى « آرثر هالام ».

* * *

وكان والد ملتون قد نقل مقره الى «ريدنج» وعاش الشاعر بعد عودته فترة من الزمن بالقرب من كنيسة « سانت برايد » وعن كثب من شارع « فليت » ــ الذى أضحى اليوم شارع الصحافة فى لندن ــ وقضى بعض وقته فى تعليم ابنى أخته التى ترملت . ومن هنا انتقل الى بيت فى «الدرزجيت ستريت» له حديقة وفيه عدد كبير من الحجرات ومتسع لكتبه الحبيبة اليه ويتوفر له جوار ساكن هادىء . والى هذا البيت أتى بزوجته الأولى « مارى باول » وهى بنية فى السابعة عشرة . ووالدها رتشارد باول من الملكيين المتعصبين !

ويدأ ملتون حربه بالكتيبات فى سنة ١٦٤١ ولم يختمها الا فى سنة ١٦٦٠ ، ولم يكن له من موضوع فيها جميعها الا الحرية على اختلاف أنواعها . فدافع عن الحرية الدينية ، وعن حرية التعليم ، وعن الحرية المدنية ، وعن الحرية المنزلية وعن حرية الصحافة والنشر عموما . وقد طبع جانب من هذه الكتيبات والنشرات غفلا من اسم مؤلفها. ولعل أشهر هذه الكتيبات الخمسة والعشرين «خطبة للمستر جون ملتون فى الدفاع عن حرية الطبع بدون ترخيص ، مقدمة الى برلمان انجلترا» . وهذا هو العنوان الفرعى للكتيب ، أما العنوان الأصلى فهو « أريوباجيتيكا » نسبة الى « أريوباجوس » المحكمة العليا التى كانت تعقد بأثينا قديما فى الهواء الطلق وكانت أحكامها نهائية لاتقبل النقض وسبب هذه النشرة أو الخطبة المطبوعة أن قرارا

صدر من البرلمان فى سنة ١٦٤٤ يحرم على أى شخص أن ينشر كتابا أو كتيبا أو نشرة أوصحيفة مالم يكن قد صدر له بنشرها ترخيص سابق . وفى دفاع ملتون الحار القوى عن حرية الطبع والنشر والفكر يقول بحق : « ما أكثر من يعيشون من البشر عالة وعبئا وكلا على الأرض . أما الكتاب الجيد فعصارة دماء الحياة التى تجرى فى فكرفذ وروح نابغ ، وقد حنطت هذه العصارة واختزنت ذخرا للناس ، ولكى تكون لهم بها حياة تتجاوز آفاق الحياة » . وقد صدر هـذا الكتيب بدون ترخيص ، ولم يسجل رسميا فى ديوان المطبوعات ولم يحمل اسم طابعـه أو ناشره ، بل اسم مؤلفه الذى تصدى لحمل المسئولية مفردا .. وقد نشر كتيبه عن حرية التربية والتعليم فى سـنة ١٦٤٤ أيضـا .

ولم يكن جون ملتون راضيا عن أعمالهالنثرية هذه كل الرضا ، بل كان يقول فى التعليق عـلى ذلك : « انى لا أستخدم بكتابتها سـوى يدى اليسرى ! » أما يده اليمنى فللشعر دون سـواه، ميدانه الأثير الذى لايعدل به شيئا . ولم تكن يمناه مشلولة ولا معطوبة مئوفة فى تلك الفترة النثرية من حياته ـحاشا. بل هىكالفرند الصقيل المذخور فى قرابه الى حين . وكانت يمناه التى تملك ناصية القريض تستجم الى يوم موعود تتألق فيه آياتها كالنجوم الدرارى .

وفى سنة ١٦٤٥ ــ وهى السنة التى منى فيها الملك شارل الأول بهزيسته الساحقة فى « نيزبى » صدر مجلد عنوانه : « اشعار من نظم مستر جون ملتون بالانجليزية واللاتينية تم نظمها فى أوقات شتى » . وطبعت فى هذه المجموعة أعمال شبابه الشـعرية ومنها « الليجرو » و « بنسيروزو »

وكانت الصفحة الأولى من المجلد عبارة عن صورة للمؤلف الشاعر وهو فى سن الحادية والعشرين .

وبعد ذلك بأربع سنين انضم جون ملتـون صراحة الى صفوف من اصدروا أمرهم بقطـع رأس الملك باصدار كتابه « ايكونوكلاستس » فى الرد على أنصار شارل الأول ، وكتابه « حقيقـة الأمر فى حقوق الملوك والحكام » . وقد بلغ من شدة الاقبال على طلب الكتاب الأول انه طبعخمس عشرة طبعة فى غضون اثنى عشر شهرا ، وامسى من أشهر الكتب فى العالم يومئذ .

وفى سنة ١٦٤٩ عين مؤلف هـذه الكتب والنشرات السياسيةالنزالية سكرتيرا لاتينيا لمجلس الشئون الخارجية ، وكانت اللغة اللاتينية هىاللغة الدولية الدبلوماسـية كالفرنسية والانجليزية فى أيامنا هذه . فكان هو الذى يتولى ترجمة الوثائق والمذكرات الدبلوماسية من الانجليزية الىاللاتينية ومن اللاتينية الى الانجليزية .

وكان ملتون فى هذه السنين قد تنقل فىمساكن شتى الى أن استقر فى شارع الدوق بوستمنستر، وهناك كتب رسالة سياسية عنوانها « دفـاع عن الشعب الانجليزى » فى سنة ١٦٥٠ ، وهو رد عنيف ساحق على كتيب من تأليف عالم فـرنسى مرموق اسمه « سلاما سيوس » دفاعا عن سياسة الملك شارل الأول بطلب من الأمير الذى أضحى فيما بعد ملكا على انجلترا باسم شارل الثـانى . وقد كتب ملتون دفاعه بتكليف رسمى من «مجلس الدولة» وهو مايقابل مجلس الرياسة أو مجـلس الوزراء . والحق أن لغة « الدفاع » كانت عنيفة حافلة بالمطاعن الشخصية والسباب ، بيد أن حقوق الشعوب عموما لم تظهر بأجلى من هذا البيـان وأقوى من هذه الحجة .

ولا مراء في أن انكبابه الشديد على أداءواجبه الرسمي والوطني في معـــركة الحـرية الدينية والسياسية والفكرية قد عجل بانتهاء ضعف بصره الى فقدان هذه الحاسة كل الفقدان . ونراهيسجل ذلك في دفاعه الثاني عن الشعب الانجليزي قائلا: « لقد خيرت بين نهوضي بواجب أسمى وبينفقدان حاسة البصر . ووجدتني عاجزا عن الاصاخة لنصح الطبيب ، وحتى ولو كان النصح موجها من لدن ايسكولابيوس « ابى الطب » متحدثا الى منقدس أقداسه ! فليس يسعنى الا أن أصدع بأمروجدانى الداخلى الذى تحدث الى بماتدعونى اليه السماء. فقررت أن استخدم القليل الذى بقى لى من بصرى فى تأدية أعظم خدمة فى مقدورى تأديتها لأمتى.

وفى منتصف سنة ١٦٥٢ ــ وقد بلغ شاعرنا الرابعة والأربعين من عمره ــ أصيب بالعمى التام، ومنذ ذلك التاريخ لم يعد فى مقدوره أن يعمــل الا بمعونة سواه . وقد ظل مع هذا يقوم بواجباته الرسمية . ومن حسن حظ دارسى ترجمة حيـاته أن هنالك خطابا بديعاكان قد ارسله الى صــديقه ليونارد فيلاراس الذى كان قد وعده بالتوجه الى «تيفينو» طبيب العيون الفرنسى الكبيربالاستفسار عن مدى امكان شفاء الشاعر من عاهته . وفىهذا الخطاب لانجد ملتون ثائرا ساخطا يلعن الأقدار التى رمته بهذه الآفة القاسية ، بل نلفيه مذعنا فى هدوء وفكاهة حسنة لذلك الظلام الأبدى فىإيمان وجلد :

« أيا كان أمر شعاع الأمل الذى قد يــكون مدخرا لى عند طبيبك الشهير ، فانى قد وطنتنفسى على أن حالتى لا شفاء منها وتأهبت للحياة عــلى هذا الأساس .. وقد وجدت الظلام الذى يكتنفنى أيسر على نفسى محملا ــ بكرم من الله وفضــل عميم ــ وأنا مــوزع الأوقات بين الاسـتجمام والدرس وأصوات التحيات المنبعثة من الأصدقاء من حولى . ولئن كان قد كتب أنه « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، بل بكل كلمة تخـــرج من فم الرب » فما الذى يمنعنى من الاطمئنان كذلك الى أن بصر الانسان ليس فى باصرتيه فقط ، بل فى هداية الله وعنايته ، وان فى هذين الكفــاية والغناء له عن عينيه ؟ الحق أقول انه مادام الرب ينظر لى ويتعهدنى كما يتعهدنى الآن بالهـداية والارشاد ، ويقودنى بيده العلية قدما على امتداد العمر ، فانى عن طيب خاطر ــ مادامت هــذه مشيئته ــ انزل عن مقلتى وامنحهمــا عطلتهما الكبرى .. »

وبصبر عظيم ظل ملتون يكدح وينصب رغم الآفة القاسية واضطراب حياته البيتية : فقد كـان زواجه الأول عاثر الجد ، ولم تفهمه بنت السابعة عشرة التى بنى بها وهو فوق الثلاثين ، ولكنه فى سنة ١٦٥٦ ــ أى بعد عماه بأربع سنين ــ تزوج امرأة يصفها بأنها قديسة ، وبعد خمسة عشر شهرا قصيرة من السعادة والهناء نزعتها الأقدار منــه وتركته وحيدا محزونا حقا . ومع أن له ثلاثبنات من زوجته الأولى كن يقدمن له العون ماستطعن الا أنهن عجزن عن فهم مزاج والدهن الخـاص ، ويبدو أنهن كن كوالدتهن عاميات الذوق والعقل، فكن له نعمة تخالطها النقمة والتنغيص .

وفى سنة ١٦٥٨ مات بطل ملتون القومى .. مات اوليفر كروموبل . وكان قد شرع فى هذه السنة عينها ينظم ملحمته الكبرى : « الفردوس المفقود » بيد أن ملتـــون ظل محتفظا بمنصب « السكرتير اللاتينى للشئون الخارجية » الى أن صار فىحكم المقرر نهائيا عودة الملكية .

وقد قبض على ذلك المناضل السياسى الخطير بقلمه ولسانه ، ولكن يبدو أن الحقد الملكى عليه لم يكن بعيد الجذور فسرعان ماصدر العفو عنه، وانتقل ملتون الى شارع « جوين » وهناك تزوج للمرة الثالثة . وتنقل بعدها فى بيتين ، ولما حل « الطاعون الكبير » فى سنة ١٦٦٥ واجتاح مدينة لندن هجرها بين من ولوا الادبار من المدينة المنكوبة ، وأقام فى كوخ بمقاطعة بكنجهام بقرية « تشالفونت سانت جايلز » (وقد اشترته الأمة تخليدا لآثاره فى سنة ١٨٨٧) وكانت تسمى فى ذلك الحين « جايلز تشالفونت » . وقد اختاره وأعده لاقامته صديق شاب أديب من جماعة المهتزين (الكويكر) اسمه « توماس الوود » . وفى ذلك الكوخ ، وفى حجرة صغيرة منخفضة السقف تغمرها أشعة الشمس التى لا يستطيع أن يراها أتم جون ملتون اللمسات الأخيرة فى « الفردوس المفقود » تلك التحفة الفذة التى تعتبر من أعظم آيات التصوير اللفظى ، نظمها بالشعر المرسل حول سقوط آدم وحواء وحرمانهما من نعمة الرب وما ترتب على ذلك من نتائج فقدانهما الجنة .

وكان الصديق توماس الوود يتردد على الشاعر لقرب مسكنيهما فى الريف ويطالع له فى أعمال هومر باللغة الاغريقية ، ويسجل التعليقات التى يتفوه بها ملتون . وذات يوم طلب اليه الشاعر أن يتصفح مخطوط « الفردوس المفقود » ليبدى الرأى فيه ، وعندما أعادها الشاب اليه وهومفتون بما قرأ قال له : « انك ياسيدى قلت الكثير عن الفردوس المفقود ، فماذا عساك قائلا عن الفردوس المستعاد ؟ » . ولم يرد الشاعر عليه بغير الصمت، وتجاهل سؤاله .

فلما كان الخريف التالى شرع فى صمت ينظم ملحمته الثانية « الفردوس المستعاد » وفيها يتحدث عن انتصار المسيح على الغواية .

ولم ينشر « الفردوس المفقود » الا فى سنه ١٦٦٧ ، ولم يدر عليه هذا المجلد من الشعر الثمين الفخم الا أقل القليل : لا أكثر من ستين جنيها !وفى سنة ١٦٧١ نشر « الفردوس المستعاد » و« شمشون الجبار » فى مجلد واحد ، وكان ملتون قد عاد الى الاقامة بلندن المعتمة الكثيرة الضباب بعد انتهاء الوباء وبعد حريقها الكبير فى سنة ١٦٦٦ ، وظل مقيما بها الى أن وافته منيته فى اليوم الثامن من شهر نوفمبر سنة ١٦٧٤ عن سبع وستين سنة تقريبا .

وقد ظل جون ملتون حتى نهاية حياته ينهض من فراشه فى الساعة الرابعة صباحا فى فصل الصيف ، وفى الساعة الخامسة صباحا فى وقت الشتاء .. ويأوى الى الفراش بانتظام فى الساعة التاسعة ، ويبدأ يومه بالاستماع الى فصل من الكتاب المقدس يتلى عليه ، ويختمه بتدخين غليونه منفردا بنفسه. وفيما بين هذين الوقتين يفكر ويصمم أعماله ويمليها ويراجعها وينقحها فى فترات متقطعة صدر النهار ، وفى المساء يسمر مع صديقه الوود أو « أندرو مارفل » الذى كان يعاونه فى عمله عندما كان «السكرتير اللاتينى للشئون الخارجية» وكثيرا ماكان يلتمس الترفيه والتسرية بالاصغاء لأنغام الأرغن أو الباص ، لأن استجابته للموسيقى كانت عظيمة جدا .

وكانت نظرته الى الحياة دقيقة مرهفة صارمة كالنغم الموسيقى المضبوط . كان شعاره أن « من يسيطر على نفسه ويتحكم فى انفعالاته وشهواته ومخاوفه أحظى من أى ملك على الأرض وأقوى

سلطانا » وقل بين البشر من كانت حياته صورة مطابقة لفلسفته ومبدئه كجون ملتون فى تعلقه بالجمال وشدته على نفسه وسيطرته على زمامها وتجلده الأدبى لطوارق الحدثان التى كأنما احنقها تحديه وجبرته فتعمدته بالامتحان العسير ، فكان لها الكفء الكريم والقرن الفحل الذى لا يجدع له أنف !

٢ – ادبه

ولئن كان جون ملتون الشاعر الوحيد الذى آمن بالتطهر (البيوريتانية) ايمانا حقيقيا وعمليا، فقد كان فى الوقت عينه ذا شخصية قوية جدا بحيث لايجوز أن نعتبره فى المقام الأول ممثلالتلك العقيدة ، وانما هو يمثل نفسه وطبيعته الخاصة الفذة قبل كل شىء . فجون ملتون أعظم من جيله كله بحيث لايمكن ادماجه فيه ولا فى أى وجهة محددة من أوجه نشاطه ، فهو شخصية فذة قائمة بذاتها لا تنضوى تحتأى شعار أوعنوان أومقولة فى عصره كله ، وتأثره ودينه لأسلافه جد قليل فى نهاية كل حساب ، حتى ازاء من أعلن صراحة اعترافه بفضلهم عليه ، وهم على الأخص سبنسر وجونسون وشيكسبر .. ثم ان له ميدانه الأوحد على اختلاف افانين أدبه ، ألا وهو ميدان المشكلة الخلقية كما تتراءى لعقله ووجدانه . وليس كذلك شكسبير بتعدد آفاقه الذى يكاد لايحيط به الحصر . وانه لمرهف الأذن للايقاع الموسيقى المنساب فى وقار وجلال ، وليس كذلك شعر جونسون بخشوتته النثرية وموسيقاه الوعرة ..

لقد كان ملتون يكتب لروح واحدة يعنيه أمرها وخلاصها ، تلك الروح روحه شخصيا .فكان أول شاعر ينشىء عملا فنيا روحيا يجمع بين كمال الفن القديم وحرارة الانفعال أو الوجدان الخلقى الصميم الحميم على نحو ما يتراءى فى الكتاب المقدس بعهديه الجديد والقديم . ففى قلبه الكبير نشب الصراع محتدما بين عبادة الطبيعة كما عاشها الوثنى وبين التدين الروحى كما عرفته المسيحية المتنطسة . ومن امتزاج هذين النغمين العميقين قدم لنا ملتون معزوفاته اللفظية الرائعة . وقد تتفاوت نسب هذا الامتزاج الثنائى على حسب سنوات عمر ملتون ومراحل حياته الفنية ، الا أن الامتزاج موجود دائما . وما من شاعر سواه فى الأدب الانجليزى كان عميق التدين الى هذا الحد الكبير وعظيم الحظ من روح الفنان فى آن واحد .

ولعل أهم أعمال شبابه قصيدته عن صبيحة ميلاد السيد المسيح ، وهى من أعذب الشعر وأغناه بالموسيقى ، ثم أوبراه على طريقة الأقنعة المسماة « كوموس » وموضوعها أخلاقى فى المقام الأول وكل مقومات العمل الدرامى فيها مجمدة أومكبوتة بحيث تظل الشخصيات عبارة عن فضائل مجردة وأصوات ناطقة بوجهات النظر وليس لها كيان من لحم ودم...وكل مافيها من الشعر لايخاطب الا الأذن والذهن ، ولايكاد يحرك المشاعر فيما عدا ذلك المشهد الذى تدخل فيه الفتاة الغابة وتنادى أخوتها فى أغنيتها الموجهة الى « الصدى العذب » ..ولكن القارىء لذلك الشعر المترف الذهنى لا يتمالك نفسه من الاعجاب الشديد بتلك الترنيمة المتعددة الأصوات والمتغنية بالفضيلة فى أرقى نظم موسيقى النبرات . فهو شعر للقراءة لا للاستماع فى ملاعب التمثيل لفقر المبنى الدرامى أولا وعدم اتصال الشعر بالقلب مباشرة ، وانما هو متنزه ومراض للعقل يرجع فيه النظر ويتملاه مستأنيا ومستمتعا بجمال الأسلوب الشفوف كالبلور ، تلك الشفافية

التى يدرك النظر المتأمل انها جاءت نتيجة مراجعات وتشذيب وتصفية متكررة لم تبق بعدها الا الخلاصة النقية من كل شائبة وكأنها موسيقى خالصة فى مقاطعها الرنانة ، سواء فى ذلك المواضع المرسلة والمقفاة .

ولم يكن قد انقضى على ظهور مسرحية « العاصفة » لوليم شكسبير أكثر من عشرين سنة عندما ظهرت فى الوجود أوبرا الأقنعة «كوموس» لجون ملتون ، ولكن الفارق المعنوى يبدو هائلا بالنسبة لهذه الفترة الوجيزة اذا نحن قارنا شخصية « أريل » الشيكسبيرية بشخصية « الروح الحارس » الملتونية ، فذلك الجنى الذى كان يتذمر تحت نير الانسان قد أخلى مكانه لملاك ذى رسالة خلقية يدرك غايته ولا يمكن أن يحيد به شىء دون تمامها . وكلا الروحين يغادر العالم بعد الفراغ من مهمته بيد أن الملاك الملتونى يصعد الى السماء وسط رؤى ميثولوجية ذات مغزى خلقى وعلى لسانه كلماته الأخيرة عن جمال العفة، فى حين ينطلق الروح الشكسبيرى لائذا بالفرار كأنه الفراشة الهائمة ...

وثمة عبرة أخرى نخرج بها من هذه المقارنة بين الشاعرين العملاقين فى هذين العملين وغيرهما من الأعمال أيضا . ففى حين يندمج شيكسبير فى مخلوقاته الفنية فلا نراه ، نجد ملتون فى حقيقة الأمر الكائن الوحيد الحى بمعنى الكلمة فى جميع أعماله الفنية . فبطلته فى كوموس هى ملتون بعينه ، وعلى لسانها ينطق ملتون بكل كلمة من كلمات القصيدة ويترجم عن تجاربه النفسية من خلال تجاربها ، ويعبر عن فتنة الحواس وغوايتها التى عرفها وامتحن بمقاومتها فى شبابه ..والمستوى الخلقى فى « كوموس » هو مستوى أخلاق ملتون بغير زيادة ولا نقصان . مستوى رفيع متعال متوحد .. والفضيلة فى هذا المستوى متباعدة عن بنى البشر متساوية فوقهم ــ فضيلة واثقة بذاتها معتدة بمراسها تتجاهل سواد الناس وجماهيرهم المتردية فى الخطايا . فلدى ملتون الشاعر مؤلف «كوموس» لا يكون الصفوة المختارة الا قلة قليلة ، كما كان الشأن عند أتباع « كلفين » فالملاك الحارس لايحرس ولايرأم بعنايته فى هذه المسرحية الشعرية الا أنقياء القلوب دون الاشرار وأنصاف الصالحين وما من شك أن معظم من شهدوا هذه المسرحية قد شعروا ــ ان هم أحسنوا الفهم ــ أنهم مستبعدون من زمرة الأخيار الأصفياء !.

وملتون فى هذه الفترة من شبابه ، حتى الثلاثين أو بعيدها قليلا ، كان لم يزل سليل عصر النهضة وسماته ظاهرة فى أعماله ، واضحة فى شغفه بالجمال وتحريه اياه فى خشوع الوثنى القديم ..

وقد اندمج بعد ذلك فى معترك السياسة بكثير من النثر ، ولم يكتب فى تلك المدة الا القليل من المقطعات الشعرية ، الى أن انتهت المرحلة النزالية السياسية بعودة الملكية وصار رهين محبسيه : محبس العزلة عن السلطان فى عهد مناوىء لمبادئه ومحبس العمى .

وفى هذه الهدأة المتفرغة للفن والثقافة كتب ملتون أعماله الثلاثة الكبرى . ثمرات فترة نضجه الرائع ، وهى الفردوس المفقود (وقد نشر سنة ١٦٦٧) والفردوس المستعاد وشمشون الجبار « وقد نشرا معا فى سنة ١٦٧١ » فاذا بملتون آخر ، له وجه جديد غير معهود من قبل يتبدى للناس ، ويتربع على القمة بين الخالدين !

كانت محنته الخاصة ــ فى زواجه ثم عماه ــ ومحنته العامة فى قضية بلاده وأمتـه والدفاع عن حريتهما ضد الطغيان والتعصب ، ومشـاركته فى عمليات التطهر والتنطس ونشر الدعوة اليهما .. كل ذلك جعل مزاجه العقلى يتجه الى الجـدل وينطوى دائما على افتـراض الصراع والتقابل الثنائى بين الشىء وضده ، وصار بطبعه النزالى المتجهم يتنكر للعذوبة التى سادت أشعاره فى صباه ، ويرى فى اطراد القافية زينة ينبوعنها طبعه ، وصار ينحو الى موسيقى أشد خشونة وأخفى اتساقا تعتمد كل الاعتماد على الايقاع ، ولذا لم يكتب فى سنوات نضجه شيئا غير الشعر المرسل ، وطرح وراء ظهره مع شبابه المطوى الناضر ألحان الغناء والأهازيج والمقطعات والريفيات والموضـوعات الخفيفة . وبذلك تخلص الشاعر الأعمى من سمات عصر النهضة التى رأيناها واضحة فى أسـلوب شبابه وترك موضوعات الفن الى موضوعات الدين وحدها فتغنى بالخلق وسقوط الملائكة وسقوط الانسان وغزو المسيح للجنة كى يرثها الصالحون من البشر ، وحدثنا عن تضحيات شمشون الذى مات طائعا مختارا عندما تحقق أن موته سيجرمعه موت أعداء بلاده وأمته .

ونخص بالحديث الفردوس المفقود ، وهو أهم أعمال ملتون وبيت القصيد من هذه الدراسة ..

الفردوس المفقود ثمرة تأمل طويل لهذا المتطهر (البيوريتانى) فى صفحات الكتـاب المقـدس وأسفاره مصورا بالشعر المرسل الفخم تلك الرؤى التى أثارتها لديه هذه التأملات ، غير تارك أيما شىء يتوسط بينه وبين الكتاب المقدس ، وبذلك سمح لنفسه وأتاح لها الحرية الكاملة فى تأويله ، ولكن فى اطار الايمان الكامل بما ورد فيه . فهو يتقبل التاريخ المروى فى التوراة تقبل التسليم بصحته وقداسته . بيد أنه يعيد روايته باعتباره ممثلا لثقافة عصره ومعرفة أحوال زمنه وبأسلوب درامى . وكان من نتيجة ذلك أنه قام بعملية « اسقاط » لذاته ومشاعره ومعلوماته وتطلعاته وثقافته على الشخصيات التى صورها وأبرزها فى ملحمته ، سواء فى ذلك المخلوقات الآدمية البدائية والكائنات فوق البشرية ، المساوى منها وغير المساوى .

وكانت النتيجة العجيبة قيام صراع متصل بين ايمانه وطبيعته مما أدى بالقصيدة الى الانحراف عن هدفها والى توزع التعاطف بين أشخاصها رغم ارادة الشاعر ونيته الأصلية .

والمغزى الاخلاقى الذى يستخلص من سفر التكوين فى التوراة وجوب الاذعان لمشيئة الخالق سبحانه ، وان عصيانه خطيئة . ولكن ملتون الذى نظم « الفردوس المفقود » ليؤكد هذا المغزى كان مستقل التفكير والسلوك . بل لقد مضى الى أكثر من ذلك فى تأييد موقف الاستقلال الفردى فنادى بالتمرد على سيطرة الكهنة ، بل وسيطرة الملك نفسه ، وأطرى بحرارة الحكم باعدام الملك ومجد قاتليه . ومعنى هذا انه دون ارادته كان بمكنون نفسه متعاطفا مع الشيطان فى ملحمته ، فالشيطان هو المتمرد الأعظم على السلطة العليا وعدو الرحمن المبين . وبتقوى تكاد تكون آلية تغنى ملتون من شفتيه بمحامد الطاعة والاذعان ولكنه بسويداء فؤاده تغنى بأمجاد الحرية وعظمة التمرد على القيد والاصرار على الاستقلال فى الرأى والعمل ! وبذلك كان حتما لامناص منه أن يضع ملتون ــ وهو لايدرى ــ أعظم وأعمق جوانب ذاته فى شخصية الشيطان بأنفته وكبريائه ووعورة مزاجه .

لقد رأى ملتون من واجبه ، وهـــو المؤمن الصادق ، أن ينظم ملحمته « الفردوس المفقــود» ليبرر طرق الرب أمام البشر ، ولكنه خرج فنيـا بنتيجة أخرى لأن هذه الغاية المنشودة لم تتجاوب مع نوازع قلبه ذات المسارب العميقة التى حفرتها تجربة حياته النضالية والنزالية ووجدت صـدى وهوى من طبيعة التفرد لديه . واننا لنراه فى هذه الملحمة الهائلة يحاول ذلك بالخطب البليغة والحجج الدقيقة بعضها مستقيم وبعضها الآخر منطـــو على مغالطات . ولا ترتفع هـــذه الجوانب من القصيدة الى المستوى الأعلى ، فالعنصر الشخصى الذاتى فيها قليل ، وقصاراها أنها جهـــد تلميذ أحسن الأخذ عن اللاهوتيين القدامى والمحدثين . بل لقد أثقل هذا الجانب قصيدته بالمجـــادلات الفقهية عن سابق علم الله وعن كنه حرية الارادة البشرية فى اطار علم الله السابق وسالف تقديره لأفعال الخلق . وهى مباحث ينوء بهـا أى عمـل فنى ولا مراء .

وأدعى للتناقض والاحساس بعدم الارتيـاح أن تأتى هذه المجادلات الدقيقة على لسان كائنين بدائيين مثل آدم وحواء يتـــوقع المرء أن تكون فعالهما ثمرة رغبات وأحاسيس مبـاشرة مهتديين بالغريزة الغفل وبواعثها الساذجة ، فكيف ومن أين لهما استخدام أنواع القياس بهذه البراعة الارسطية والمدرسية (السكولاستية) وهكذا صارت الملحمة مسرحا لآراء عصر ملتون ومعسكرات الفـكر فيه على تعدد مستويات الثقافة ووجهات النظـر ، مما خرج بالجو الاسطورى عن مبناه الحقيقى ــ على حد تعبير الناقد الفرنسى العظيم «تين» فى حملته على الفردوس المفقود معتمدا على هذه المفـارقة فى بيان أوجه السخف فيها بشىء كثير من المبالغة.

والحقيقة أن المخيلة الخلاقة ــ الشـكسبيرية مثلا ــ التى تخرج المرء من ذات نفسه واطار عصره ومكونات ثقافته ليبتدع أو يتصور كائنات أخرى غريبة عنه كل الغـرابة ، لم تكن من بين مواهب ملتون الذى كان شديد التركز فى ذاته ومشكلاته الا أنه كان قادرا على التصـور المترامى الآفاق ولكن قياسا على ذاته لامباينا لها فى الصميم .

وبهذه القدرة على التصور البعيد الآفـاق الشمولى النظرة تتميز صوره من الفردوس المفقود، وتتمايز عن صور دانتى مثلا .. وكثيرا ما وضع الدارسون جحيم كل منهما موضع المقـارنة . فاذا جحيم دانتى مكون من جزئيات كثيرة التفصيلات، أما جحيم ملتون فهائل بصورته الكلية التى تطلق الخيال ولاتقيده ، وبذلك كان أثره فى النفس أهول من جحيم دانتى مرارا كثيرة .. أما صـورة خلق العالم عند ملتون فلا تقل عن صورة جحيمه روعة وعظمة . فقد استطاع بمخيلته القوية أن يجعـل نصوص سفر التكوين تنبض بالحياة التى تـكاد ترى بالعيان وتلمسها اليدان .

أما وصف الجنة ــ جنة عدن ــ فقد قال بعض الناعين على ملتون انه أشبه بوصف حديقة انجليزية مترامية من حدائق قصور الريف . وهذه المفارقة بين براعة وصف جهنم وتخلفه عن ذلك المستوى فى وصف الجنة أن وصف الجحيم نتاج تخيل لا أصل له من معطيات الحس المألوفة فى الدنيا ومن هنـا جاء الابتكار الذى لاحدود له ولاقيود . أما وصف الجنة فله بالضرورة أصل محسوس فى الدنيـا ، والمثل الأعلى لكل بستان أو حديقة لابد أن يكون نابعا فى تخيله عن مألوف الشخص فى الواقع . ومع هذا كله فجنة ملتون من أبدع الأوصاف الشعرية الحية وقد عنى والحق يقال بتزيينها بكل مبتـكر

من بهارج الزينة وأعاجيبها الآخذة بالألباب ، مما يجعل جنته من أبدع أحلام البشر المحبين للطبيعة.

وقد نقل ملتون الى هذه الجنة مأساة الضمير والوجدان ، وصور الانسان فيها حائرا مترددا بين الخير والشر معرضا للغواية مشفيا على السقوط . وقد أمدته التوراة بعناصر هذه المأساة التى خبرها فى حياته . أليست الطبيعة قد نصبت له شراكها فى فتنة المرأة وأوشكت بذلك أن تدمر حياته تدميرا ؟ لقد تزوج وهو فى الخامسة والثلاثين فتاة ملكية العقيدة متعصبة أشد التعصب ، ثم هجرته هذه الزوجة بعد ذلك فانبرى فى غضب شديد يطالب بسن تشريع يبيح الطلاق . ولم تستطع المرتان اللتان تزوج فيهما بعد ذلك أن تمحوا بحلاوة التوفيق والهناء مرارة نفسه وسخطه الجامح . فظل على اعتقاده أن الخطر الأكبر على روح الرجل كامن فى المرأة ، وهو خطر هائل يستمد وباله وجسامته من شدة قابلية الرجل وحساسيته للحب . وبذلك أعاد النظر بما يقلب الرأى السائد فى تقديس المرأة وتنزيهها والتغنى بطهرها ورقتها وسمو مشاعرها . وكان هذا الرأى سائدا منذ العصور الوسطى ، وفى آداب الفرسان ، وبه تغنى الشعراء جميعا من قبله .. حتى لقد صوروا المرأة أنبل بطبيعتها من أن تطيق رغبات الرجل الجسدية ، فهى مخلوق ملائكى اثيرى لايناسبه الا الحب الافلاطونى تجفو عن الجسد وان لم يجف الجسد عنها ..!

وشتان هذا التصور السائد حينذاك وتصور ملتون ! فالمرأة عنده أقل من الرجل . مخلوق ناقص . مخلوق خطر مالم يحكم الرجل السيطرة عليها بحيث يسد منافذ شرها !

ومن وحى تجربته الأليمة وجد المداد الذى صور به قصة حواء أم البشرية مع آدم ! فحواء ملتون فاتنة نزقة كثيرة النزوات والميوعة والانحراف، عاجزة عن التفكير السديد ، وفريسة سهلة جدا للمغالطات وأحابيل الغفلة ! ومن واجب الرجل أمام كل حواء ألا يتطامن لها ، بل يشعرها بسلطانه عليها ويصر على هذه المكانة بلا هوادة ، ولم يكن بلاء آدم واثمه الوبيل الا ثمرة تراخيه وتدليله حواء .

ويتمرد ملتون على الاعتقاد السائد بتفضيل البكارة العذرية على الزواج ، فالحب الزوجى الذى يجعل من الرجل والمرأة جسدا واحدا وروحا واحدا هو المثل الأعلى للحب عنده وفى اطار هذا الحب الزوجى يرى الفضيلة الكبرى للرجل والمرأة معا وسعادتهما العظمى أيضا . وهو حب بعيد عن النقيضين على السواء : الفجور البهيمى والرهبانية أو الافلاطونية .

٣ — الفردوس المفقود

وقصة الفردوس المفقود هى قصة خلق آدم وحواء وسقوطهما كما ترويها التوراة فى سفر التكوين ، وخلاصتها توشك أن تكون تكريرا معادا بلا زيادة ولا نقصان .. ولذلك فالأوفق بالغرض من هذه الدراسة أن تتتبع مشاهد القصة فى شذرات مختارة من ملحمة ملتون تفى بالغاية من التعريف بالمضمون ومن ايراد النماذج بنصوصها الكاشفة لخصائص الأسلوب الفنى فى آن واحد :

* تبدأ الملحمة بدعوة يوجهها الشاعر الى عرائس الفن السماوية أن ترشده وتلهمه فى صدد :

« أول عصيان بدر من البشر وثمرة تلك الشجرة المحرمة التى جلب مذاقها القاتل لعنة الموت

على العالم ، وكل ما كان من ابتلائنا بفقدان جنة عدن ..

« ألا خبرينا ــ فالسماء فى علاها لاتخفى عن ناظريك شيئا ولا الجحيم فى مهاويها ــ ما الذى حدا بجدينا الأولين وقد كانا فى رحاب النعيم ترعاهما السماء بأحسن الرعاية والتكريم أن يهبطا فيسقطا من الحظوة الالهية بمخالفتهما تحذيره الأوحد لهما ؟ من كان أول من أغواهما ليقدماعلى ذلك التمرد المشئوم ؟

« انه الافعوان الجهنمى ، فهو الذى استثار لواعج عذره زناد الحسد والانتقام فخدع أم البشرية .. وخبرينا كيف دفعت به كبرياؤه الى ما استوجب طرده من السماء ومعه كل أجناده من الملائكة المتمردين ، فصاح به صوت العلى القادر الجبار : الى مهاوى الهلاك التى ليس لها قرار الى شواظ جهنم وسعيرها مكبلا بأغلال لافكاك منها ، جزاء وفاقا لما اجترأت عليه من تحدى ذى الجلال والانعام !

* ولكن الشيطان لاييأس ، ويجمع اجناده ويقوم فيهم ذات وقت خطيبا فى كبرياء لاتعترف بالهزيمة ، ويستنهض عزائمهم :

« ان الذى يتربع عاهلا فى السماء لم يزل حتى الآن مستقرا على عرشه مؤيدا بسمعته القديمة وبالاذعان وراسخ العادة .. ولكننا نعرف مدى بأسه ، وبأسنا أيضا معروف لنا .. ولم يزل أمامنا أن نحقق أفضل جانب من غاياتنا . وذلك الجانب الأفضل أن نعمل بخطة تامة الاحكام فنصل بالخديعة والختل الى مالم نصل اليه قدما بالعنف والبطش ! وبذلك يعرف فى خاتمة المطاف على كل حال أن من يقهر خصمه بالقوة الغاشمة فحسب لم يقهر منه فى الحقيقة الا نصفه !

« وفيما هو يتكلم أيد أقواله بملايين من السيوف خرجت من أفخاذ اجناده فأضاء لمعانها ما حولها من الجحيم ، وارتفع صياحهم وقعقعوا بأسلحتهم فى ضراوة على دروعهم الرنانة ، معلنين تحديهم لمملكة السماء»

* وعقد أولياء الشيطان مؤتمرهم الكبير ليتشاوروا فيما يصنعون للانتصار على الرحمن وتخريب مملكة السماء الى أن استقر رأيهم على مهاجمتها من أضعف نقطة فيها وهى الخليقةالجديدة الانسان .. والى الجنة يرقى ابليس متسللا ويستعرض فى فكره ووصفه جميع مخلوقاتهاالحية العجيبة الى أن يأتى ذكر الانسان ، ذكر آدموحواء فى نعيم الفردوس الأعلى :

« هاهما مخلوقان أنبل سائر المخلوقات هناك بكثير من حيث الهيئة:منتصبة قامتهما فى استطالة.. فيهمامجد فطرى،وعريهما مهيب فى جلالهوجماله... يبدوان سيدين على كل ماحولهما. أما هو فمجعول للتأمل والبأس.وأما هى فمجعولة للنعومة والرقة والرشاقة واللطف الجذاب ! هو مجعول لله فحسب ، وهى مجعولة لله من خلاله .. وهكذامرا بى يدا فى يد ، فاذا هما أحب وأحلى زوجين من المخلوقات جمعت بينهما رابطة الحب .. أما هو فآدم أقرب أبناء سلالته الى الله فهو صنيعة يده مباشرة . وأما هى فأجمل بنات أحشائها : حواء !

* ويتخذ الشيطان صورة أكثر من حيوان من حيوانات الجنة كى يتاح له الاقتراب منهما وسماع حديثهما ونجوى سرهما ، فيكتشف من أقوالآدم أن التحريم الأوحدالذى قطعه اللهعليهما

الاقتراب من شجرة المعرفة والأكل من ثمـراتها أما حواء فكان حديثها كله عن جمالها ، وكيف نظرت أول ما برزت للوجود الى صورتها فى صفحة غدير من غدران الجنة فرأت نفسها أجمل الخـلق .. أجمل من آدم نفسه ، الى أن اقترب منها آدم :

« وأمسكت يدك الحانية بيدى ، واستسلمت..! ومن ذلك الحين أدركت كيف يتفوق اللطف والحكمة الصادرة عن الرجل على جمال الشكل ، وعـرفت أن الحكمة وحدها هى المتفردة بالجمال الحق ..! »

* ويظهر الملك رفائيل ويجرى بينه وبين آدم حديث عن عصيان ابليس يعجب له آدم جدا . والملك يحذره من عصيان الله فيكون مصيره كمصـير ابليس ويطرد من الجنة وتحل لعنـة المـوت على الجنس البشرى كله . ويرى تعلقه الشديد بحـواء فيحذره من الافراط فى الشغف بها فيؤثر ذلك على حصافته وحزمه ويجر الويلات عليه وعليهـا وعلى سلالتهما جمعاء .

وينتهز ابليس فرصة انشـغال رفائيل بذلك الحديث ويتوارى فى مكمن حتى اذا كان اليوم التالى سمع حواء تطلب من آدم أن تعمل بعيدا عنه ، لأن قربها منه يشغله عن عمله ويشغلها بما يكون بينهما من نظرات وابتسامات ، وعلى مضض يتركها آدم تبتعد عنه الى خميلة كثيرة الشـجر تجمع من ثمارها ، وهنا لحق بها الشيطان فى ذلك الاطار الرائع من جمال الطبيعة ، فاتخذ صـورة الافعوان . وكان الافعوان فى الجنة لا يزحف على بطنه بل يسير قائما وله جمال فتان :

« كان له عنق متألق من الذهب الضـارب الى الاخضرار ، قائما منتصبا فى رشاقة حلقات جسده التى تسير فوق الأعشاب متهادية فى جمال يأخذ بالألباب .. »

* وخاطبها الافعوان بلسان آدمى . فاستولى على مسامعها بالثناء والتملق .. وتعجب حواء لامره وتعجب به . وتسأله يتفوه حيوان بلغـة البشر ، فأجابها ان ذلك تسنى له بعد أن آكل من ثمرات شجرة معينة ، وبعد آكلها أوحى اليه أن يتـوجه الى حواء بالعبادة لأنها ملكة المخلوقات طرا ! ولما طلبت منه أن يرشدها الى تلك الشجرة قـادها الى الشجرة المحرمة ، ففزعت . وضحك الشيطان ساخرا من مخاوفها قائلا :

« يامليكة الكون ! لاتصدقى تلك التهديدات الصارمة بالموت . لن تموتى ! فكيف تمـوتين ؟ أبالثمرة ؟ حاشا ! بل ستمنحك حياة بالمعرفة . أبيد من يتوعدك ؟ انظرى الى فقد لمست الثمرة المحرمة وتذوقتها وهأنذا حى وقد زادت حيـاتى عمقـا واتساعا بتطلعى الى أسمى مما قدر لى ! أفهل تغلق أمام الانسان أبواب فتحت للحيـوان ؟ ان الله لايمكن أن يعاقبك على ذلك العمل الذى ينـافى العدل . ومدى يدك ايتها الالهة البشرية وتذوقى منها ماشئت ! »

* وأخذت حواء تحدث نفسها بما سمعته من الأفعوان :

« قيل لنا اننا يوم نأكل من هذه الثمرة العجيبة سيقضى علينا بالموت ! أفهل مات الأفعوان ؟ لقد أكل منها وعاش ، واكتسب معرفة وصار يحـدثنى الكلام والتفكير والتمييز والنقاش ، وهو الذى كان قبل ذلك من العجماوات عقلا ولسانا . أفهل لنا وحدنا وجدت عقوبة الموت ؟ أم علينا وحـدنا حرمت هذه الثمرة المباحة للبهائم والأوابد ؟ ها هنا تنمو هذه الشجرة ، وفى ثمرتها شفاء كل داء وهى مليحة فى العين شهية تنادى الآكلين ، وتفىء على آكلها الحكمة وفصل الخطاب . فما يمنعنى

أن أمد يدى اذن وأطعم من مناعمها الروح والبدن معا ؟ .. ومدت يدها الرعناء فى ساعة الشؤم تلك الى الثمرة فاقتطفتها وأكلت منها ، ولاذ الافعوان الغادر بالفرار الى جوف أجمة لفاء ..»

* وذهبت نشوة العمل المندفع . وشرعت حواء تفكر فيما أقدمت عليه وتتساءل ماذا سيكون تأثير فعلتها على آدم :

« وكيف سأبدو لآدم ؟ أأخبره بما طرأ على من تغير ؟ ولكن ماذا لو أن الله رآنى ونزلت بى عقوبة الموت ؟ سأفنى وأصير الى العدم ويتزوج آدم حواء أخرى ويعيش هانئا ! وهذا لن يكون ما استطعت أن أحول دونه ! الرأى الحازم اذن أن أحتال على آدم حتى يشاركنى فعلتى ، ويأكل كما أكلت ، ليشاركنى مصيرى من بؤسى أو نعمى !»

وهكذا كان أول ماتعلمته حواء من المعرفة الحياة والمكر !

* وما ان عرف آدم منها ما صنعته حتى وقف شاحبا مذهولا ، وكان قد قطف لها عقدا من ورد الجنة فسقط من يده وذبل لساعته من شدة غضبه وحزنه ، وقال لها :

« يا أجمل مخلوق ! يا آخر صنائع الله وابدعها! يامن كمل فيها كل ماتصوره الفكر والنظر ! أيتها المقدسة الطيبة الحبيبة الرقيقة ! كيف أضعت نفسك وأضعتنى معك بدسيسة من عدو خادع مجهول هكذا على حين غرة ؟ نعم أضعتنى معك ، لأنه لاسبيل لى الا الموت معك ، فكيف لى أن أعيش بدونك ؟»

* وانصرف آدم بعد قليل الى الترفيه عنها بعد أن رآها دامعة العين :

« وعسى الله الا يؤاخذك بما صنعت ، فما أخاله يرضى أن يفنى أجمل مخلوقاته بهفوة واحدة فى لحظة طيش .. ثم انى اخترت طريقى بلا رجعة حيث تصيرين أصير . فان كنت ميتة فما أطيب نفسى بالموت معك ، والموت معك كالحياة ! فنحن واحد ولسنا بعد اثنين ! »

وبكت حواء سرورا بحبه وعانقته وأتته بثمرة الشجرة المشئومة وأطعمته منها . فانكشفت لهما مناعم الجسد المتوقدة . واستسلما لنداء الشهوة الأولى ولما أفاقا أدركا عريهما وأصابهما الخزى فخطفا من أوراق شجر الجنة ليسترا عورتيهما وأصابهما ندم شديد وأخذ ينحى على حواء باللائمة ويرق لهما الله فلا يقضى عليهما بالموت فورا . بل يكتفى بطردهما الى الأرض حيث يعمرانها . ويكون الموت أجلا مكتوبا وقدرا محتوما فى ميقات يعلم الله وحده متى يحين . ويكتب عليهما وعلى ذريتهما الدأب والعمل والألم ضريبة ذلك الأجل من الوجود الأرضى .

وبكت حواء لفراق الفردوس أحر البكاء ، ولكن لاراد لقضاء الله :

« وهبط بهما الملك الموكل بهما الى رحاب الأرض من جهة المشرق ثم اختفى .. ووقف جدانا الأولان ينظران بحسرة الى موضع فردوسهما المفقود وذرفا الدمع السخين . ثم لم يلبثا أن جففا عبراتهما ، وقد أبصرا الدنيا بأسرها بين يديهما ، يختاران منها ما يشاءان للاخلاد الى الراحة ، وقد وعدهما الله فى كامل رحمته ان يسدد خطاهما ويكلأهما بعنايته الصمدانية .. وهكذا شرعا يدا فى يد يضربان معا فى مناكبها ... »

بعثة جون مرى لاستكشاف المحيط الهندى

لسيمور سيويل وآخرين

بقلم

الدكتور أنور عبد العليم

اذا كان العالم قد اهتم فى السنوات القليلة الماضية بدراسة المحيط الهندى اهتماما بالغا فقد كانت مصر من أسبق الدول التى فطنت الى هذا الأمر وذلك منذ نيف وثلاثين سنة اذ قدمت الباخرة « مباحث » التى كانت تابعة لمصلحة السواحل والمصايد فى ذلك الوقت ببحارتها وضباطها وعليها بعثة مشتركة من علماء مصريين وانجليز لدراسة هذا المحيط • وتركت هذه البعثة أثرا خالدا فى تاريخ الكشف العلمى للمحيطات وقلما يخلو مرجع من المراجع العلمية عن المحيط الهندى من ذكر لبعثة السفينة المصرية « مباحث » •

١ – تاريخ الكشف العلمى للمحيط الهندى :

اننا اذا استعرضنا البعثات الشهيرة التى عملت فى المحيط الهندى قبل تنفيذ البرنامج الدولى الذى تقدم ذكره لوجدنا أن أغلبها قد عمل لفترات قصيرة نسبية أو مر مرورا عابرا بهذا المحيط فيما عدا بعثه «مباحث» التى قضت فى العمل فيه تسعة شهور متواصلة وفيما يلى بيان بهذه البعثات وفقا لترتيبها الزمنى :

١ – بعثة السفينة النمساوية الحربية نوفارا (١٨٥٧ – ١٨٥٩) وقد عملت خلال رحلتها حول العالم فى الجزء الجنوبى للمحيط الهندى بين جنوب أفريقيا وجزيرتى امستردام وسان بول على خط عرض ٤٠° درجة جنوب خط الاستواء وبين خطى طول ٢٠° – ٧٠° شرقا ثم اتجهت شمالا الى جزيرة سيلان فساحل الهند الشرقى بجوار « مدراس » ومن هناك يممت شطر أرخبيل الملايو وجنوب شرقى آسيا • ولهذه البعثة بالذات فضل السبق فى العمل فى المحيط الهندى وقد نشرت نتائجها فى ٧ مجلدات بمعرفة رئيسها القومندان « فون أربير » بين سنوات ١٨٦١ – ١٨٦٩ •

٢ ـ بعثة السفينة الانجليزية « تشالنجر » التى طافت حول العالم بين سنوات ١٨٧٢ـ١٨٧٦م وقد مرت بالجزء الجنوبى للمحيط الهندى مرتين احداهما فى عام ١٨٧٣ والثانية فى عام ١٨٧٤ .

٣ ـ بعثة السفينة الالمانية « جازيل » (١٨٧٤ ـ ١٨٧٦) وقد عملت هى الأخرى فى النصف الجنوبى للمحيط الهندى بين رأس الرجاء الصالح واستراليا مارة بجزر امستردام وسان بول ورينيون وموريس .

٤ ـ بعثة السفينة الألمانية « فالديفيا » المعروفة ببعثة اغوار المحيطات (١٨٩٨ ـ ١٨٩٩)

وقد عملت هذه البعثة فى المحيط الهندى مخترقة البحر الأحمر ومارة بسواحل الصومال وكينيا وتنجانيقا ، ومن دار السلام اتجهت شرقا حتى جزر سيشيل وشاجوس ثم اتجهت شمالا الى كولمبو فى جزيرة سرنديب (سيلان) ومنها الى جزيرة نيكوبار ثم سارت جنوبا فدرست المنطقة الواقعة غربى سومطرة ومنها سارت فى خط رأسى تقريبا الى جزر امستردام وسان بول بالقرب من خط ٤٠° جنوب خط الاستواء .

٥ ـ بعثة السفينة الألمانية « جاوس » (١٩٠٢ ـ ١٩٠٣) المعروفة أيضا ببعثة القطب الجنوبى .

Gauss Deutsche Südpolar Expedition

وقد عملت هذه البعثة بين خطى عرض ٢٥°ـ ٥٠° جنوبا بين خطى طول ٢٠° ـ ٨٠° شرقا فى جنوب المحيط الهندى فى طريقها الى البحار الجنوبية .

٦ ـ بعثة السفينة الانجليزية « سيلارك » (١٩٠٥) وتعرف أيضا ببعثة « بيرسى سيلدن »

Sea lark Percy sladen Trust Expedition

وقد درست المنطقة الوسطى من المحيط الهندى فى شبه دائرة محصورة بين جزر شاجوس وموريس وسيشيل ، وبخاصة فى أرخبيل شاجوس وقد نشر ستانلى جادنر نتائج هذه البعثة بين سنوات ١٩٠٧ ـ ١٩٣٦ :

٧ ـ بعثة السفينة الألمانية « بلانت » (١٩٠٦ ـ ١٩٠٧) .

وقد درست هذه البعثة قطاعا مارا بشرقى مدغشقر حتى جزيرة سيلان ثم يمست شطر سومطرة وأرخبيل الملايو . وقد نشرت نتائجها عام ١٩٠٩ فى خمسة مجلدات ظهرت ببرلين .

٨ ـ بعثة السفينة الدانمركية « رانا » (١٩٢٨ ـ ١٩٣٠) .

وقد دارت هذه السفينة حول العالم بتمويل من مؤسسة كارلسبرج الدانمركية خصص لبحوث علوم البحار .

Carlsberg Foundation Oceanographic Funds

وقد زارت البعثة المحيط الهندى خلال رحلتها المذكورة من الجنوب مارة بسواحل مدغشقر وأفريقيا الشرقية وبجزر بروفيدانس ـ سيرف وسيشيل والملاديف [1] حتى سيلان ومنها الى سومطرةوأرخبيل الملايو.وقد نشر الاستاذ يوهان شميدث رئيس البعثة نتائجها فى تسعة مجلدات بين أعوام ١٩٣٢ ـ ١٩٦١ فى كوبنهاجن .

٩ ـ بعثة السفينة الهولندية « ويليبرود سنيليوس » (١٩٢٩) .

---

(1) Providence, Curf, Seychelles & Maladives Island.

وقد درست هذه البعثة المنطقة الشرقية من جزر الهند الشرقية (اندونيسيا) كما أجرت عدة بحوث أثناء قدومها من البحر الأحمر مارة بخليج عدن وساحل الصومال الشمالي ومنه رأسا الى جزيرة سومطرة متخذة مسارها على خط الاستواء تقريبا . وقد نشر الاستاذ فان ريل رئيس البعثة نتائجها بين أعوام ١٩٣٦ ــ ١٩٥٩ بمطابع بريل بليدن فى ستة مجلدات .

١٠ ــ بعثة السفينة المصرية « مباحث » (١٩٣٣ ــ ١٩٣٤) . Mabahith Expedition

وهى البعثة موضوع هذا المقال وقد ركزت اهتمامها لبحث المنطقة الشمالية الشرقية للمحيط الهندى وقد نشرت أبحاثها فى عشرة مجلدات بين سنوات ١٩٣٥ ــ ١٩٦٠ بمعرفة المتحف البريطانى للتاريخ الطبيعى بلندن .

١١ ــ بعثة السفينة السويدية «الباتروس» (١٩٤٧ ــ ١٩٤٨) . Albatross Expedition

وتسمى أيضا ببعثة « الأغوار العميقة » وقد نظم علماء السويد هذه البعثة عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة لتكون أول بعثة للكشف الاقيانوسى فى الفترة التى أعقبت الحرب الأخيرة (ويلاحظ أن السويد لم تدخل هذه الحرب ولم يحتلها جنود الألمان كما فعلوا بالدانمرك والنرويج) وقد وجهت هذه البعثة اهتمامها للكشف عن تركيب قاع المحيطات واستخدام أجهزة جديدة لهذا الغرض لجمع عينات الرواسب من تحت قاع المحيط .وقد مرت هذه السفينة بخليج السويس فالبحر الأحمر وخليج عدن كما عملت بالمنطقة الوسطى للمحيط الهندى بين جزر سيشل وسيلان . ومن ثم اتجهت جنوبا الى خط عرض ١٠° جنوب خط الاستواء وعملت بالقطاع الشرقى لهذا المحيط حتى جزيرة جاوة ثم واصلت رحلتها فى المحيط الهادى بعد ذلك . وقد نشر الاستاذ هانز بترسون نتائج هذه البعثة بين ١٩٥١ ــ ١٩٦١ فى عشر مجلدات فى جوتنبرج :

١٢ ــ بعثة السفينة الدانمركية « جالاتيا » (١٩٥٠ ــ ١٩٥٢) .

وتعرف أيضا ببعثة الأغوار العميقة وقد دارت حول العالم مهتمة على وجه الخصوص بالبحث عن الحياة فى الأغوار السحيقة وفى المحيط الهندى قامت ببحث القطاع الجنوبى الشرقى بين مدغشقر وساحل أفريقيا ومن زنجبار وأخذت قطاعا مارا بجزر سيشيل حتى سيلان ثم فحصت المنطقة المحاذية لساحل الهند ومنها الى أرخبيل الملايو .

ونشر الاستاذ « بروون » مع الاستاذين جريف «وسبارك» نتائجها عام ١٩٥٦ فى كوبنهاجن

هذه هى أشهر البعثات العلمية التى قامت بالعمل فى المحيط الهندى قبل تنفيذ البرنامج الدولى الأخير لمسح هذا المحيط وجدير بالذكر أنه فى عام ١٩٥٧ ــ ١٩٥٨ قامت عدة سفن تابعة لدول مختلفة ببحث هذا المحيط أيضا ضمن برنامج ابحاث « السنة الجغرافية أو الجيوفيزيقية الدولية » ومن بينها بعثات سوفييتية ويابانية .كما قام الفرنسيون ببحوث عديدة حول جزيرة مدغشقر منذ أوائل هذا القرن . كل هذا بالاضافة الى المعلومات التى جمعها قباطنة السفن الحربية التى تنتمى لدول مختلفة أثناء مررها فى المحيط الهندى ولا يجب أن نغفل أيضا الآثار التى خلفتها بعثة المنطقة القطبية الجنوبية الفرنسية بقيادة الأميرال شاركو (١٩٠٣ ــ ١٩٠٥) فى الجزء

الجنوبى من المحيط الهندى ونشرت نتائجها فى تسعة عشر مجلدا .

واذا اعتبرنا البحر الأحمر وحده كجزء من المحيط الهندى نجد أنه قد حظى هو الآخر باهتمام علماء البحار وخصصت بعثات للعمل فيه نذكر من بينها بعثات « بولا » النمساوية فى عام ١٨٩٥ وبعثة « مباحث » (ديسمبر ١٩٣٤ – فبراير ١٩٣٥) المصرية وقد نشرت نتائجها جامعة القاهرة فى مجلد صدر فى عام ١٩٣٩ ثم بعثة كاليبسو الفرنسية (١٩٥١ – ١٩٥٢) بقيادة القومندان كوستو ونشرت نتائجها فى عام ١٩٥٥ والأعوام التى تلته .

ويتضح من العرض السابق أن بعثة السفينة مباحث تأتى فى المرتبة العاشرة من ناحية التسلسل الزمنى لبعثات الكشف العلمية فى المحيط الهندى ولكنها تتميز عما سبقتها من بعثات بأنها عملت فى منطقة تكاد لا تشاركها فيها غيرها من البعثات الأخرى وهى المنطقة الشمالية الشرقية لهذا المحيط بما فيها سواحل بحر العرب كما أنها كرست وقتا أكبر لبحث هذه المنطقة وفحصتها من النواحى الطبيعيةوالبيولوجية والجيولوجية والهيدروجرافية على حد سواء ، فلا عجب أن خرجت هذه البعثة بحصيلة من المعلومات العلمية الجديدة استأهلت نشرها فى عشرة مجلدات تضم بين جنباتها عشرات المقالات وآلاف الصفحات بأقلام المتخصصين فى هذه العلوم ، وان كان أغلبهم من العلماء الانجليز فان من بينهم أيضا علماء ينتمون لجنسيات مختلفة . وجدير بالذكر أن التقارير العلمية للبعثة المذكورة قد شملت بحثين كتبهما عالمان مصريان هما الدكتور عبد الفتاح محمد(١) والدكتور محمود رمضان (٢) من أساتذة جامعة الأسكندرية : والبحث الأول منهما يدور حول بعض الخواص الطبيعية لمياه المحيط الهندى وأما الثانى فعن بعض الحيوانات القشرية التى جمعتها البعثة كما أرسلت البعثة عينات من مياه البحر الى كلية العلوم بجامعة القاهرة قام بتحليلها فى ذلك الوقت الدكتور أحمد رياض تركى من أعضاء هيئة تدريس قسم الكيمياء (رئيس المجلس الأعلى للبحث العلمى فى الوقت الحاضر) .

٢ – تجهيز البعثة :

فى غضون عام ١٩٣٣ تم اتفاق بين الحكومة المصرية والحكومة الانجليزية على أن تجهز سفينة خفر السواحل المصرية « مباحث » لتقوم ببعثة للكشف العلمى فى المحيط الهندى سميت على اسم عالم الأحياء الاسكتلندى الشهير السير جون مرى Sir John Murray الذى رافق بعثة تشالنجر حول العالم بين سنوات ١٨٧٢ – ١٨٧٦ واشترك فى اصدار تقاريرها العلمية – وذلك بناء على مباحثات مبدئية تمت بين جامعتى القاهرة وكمبردج بهذا الشأن على أن يقدم الجانب المصرى السفينة بحارتها وملاحيها

---

(١) انظر

Charcot J. (1906-1921) Expedition Antarctique Française (1903-1905), Science Naturelles, documents scientifiques. Masson et Cie (Paris) (19 volumes).

(١) رئيس قسم علوم البحار السابق بجامعة الاسكندرية وعميد الكلية ثم وكيل هذه الجامعة .

(٢) أستاذ ورئيس قسم الحيوان بكلية العلوم بجامعة الاسكندرية ووكيل الكلية .

وعلى أن يشترك بعض الباحثين المصريين كأفراد علميين ضمن البعثة ويتولى الجانب الانجليزى تزويد السفينة بالأجهزة والمعدات اللازمة للعمل ويكون ربانها وكذلك رئيس مجموعة العلماء عليها من الانجليز . كما تم الاتفاق أيضا على أن تبقى الأجهزة والمعدات على السفينة ملكا للحكومة المصرية بعد أن تحقق البعثة غرضها وأن تودع نماذج من العينات العلمية لدى الطرف المصرى ومجموعة أخرى تحفظ فى المتحف البريطانى للتاريخ الطبيعى بلندن كما يتولى الطرف الانجليزى نشر التقارير العلمية للبعثة بمعرفة المتحف المذكور . وفيما يلى التشكيل الرسمى لهذه البعثة :ـ

الأفراد العلميون

رئيس البعثة : اللفتنانت كولونيل ر.ب سيمور سيوسل

مساعد رئيس البعثة وكيماوى أول : دكتور أ.ف طومسون

كيماويان : المستر كارى جيلسون
السيد/ عبد الفتاح محمد (من جامعة القاهرة)

بيولوجيان : دكتور حسين فوزى مدير المصايد ، مصلحة السواحل بالأسكندرية (١)
المستر ت.ت. ماكان

مساح وملاح : اللفتنانت كوماندورو . فاركسون

طاقم السفينة

قبطان : ك.ن ماكنزى

ملازم أول : أحمد بدر (المرحوم) ضابط أول أعالى البحار

ملازم أول : أحمد ثروت (حاليا لواء بحرى بالمعاش) ضابط ثان أعالى البحار

كبير المهندسين: و. جريجز

مهندس ثان : ملازم أول محمود مختار

مهندس ثالث : ملازم أول ادوارمرقس

عامل لاسلكى: لويد جونز

وبحارة السفينة وعمالها جميعهم من المصريين خلا ثلاثة استبدلوا فى الطريق

السفينة

أما السفينة « مباحث » فقد بنيت فى نيوكاسل بانجلترا عام ١٩٢٩ كسفينة لأعمال السواحل وابحاث المصايد وهى تنتمى للنوع المعروف بسفن (الجرالتى) كانت تعرف وقتئذ فى انجلترا باسى « ميرزى » وفيما يلى أبعادها وحمولتها :

الطول = ١٣٨ قدم العرض = ٢٣٫٦ قدم

حمولة الازاحة = ٦١٨ طن الغاطس = ١٢٫٦ قدم من المقدمة ، ١٤٫٦ من المؤخرة أثناء التحميل

الوقود = بالفحم السرعة = ١١ عقدة

سعة المخزن = ١٦٠ طن خزانات المياه = ٩٠ طن

مدى اللاسلكى = ٣٠٠ ميل قوارب مساعدة

---

(١) عميد كلية العلوم الأسبق بجامعة الاسكندرية ثم تولى مديرا لهذه الجامعة بالنيابة فوكيلا لوزارة الثقافة والارشاد ، وقد وكل اليه على السفينة مهمة طبيب البعثة أيضا .

وقد زودت السفينة بالأجهزة العلمية والأدوات الضرورية لبعثة من هـذا النوع فى ذلك الوقت وأهمها :

ونش بخارى لسلك الواير (الجر) بطاريتين سعة ٤٠٠٠ قامة ، ١٠٠٠ قامة [١]

ونش هيدروجرافى بخارى سـعة ٣٠٠٠ قامة (السلك) ، ١٠٠٠ قامة

ـ سلك هيدروجرافى مجدول قطر ٤ مليمتر أطوال مختلفة

ـ سلك واير اضافى لأعمال جر الشباك وقطره يزيد عن بوصة بأطوال (٣٥٠٠ ، ٢٥٠٠ ، ١٥٠٠ قامة) .

ـ جهاز سبر الأعماق وتسجيل تضاريس القاع (اكسوندر) من نوع « أكاديا » .

بالاضافة الى مجسات للأعماق ، كباشات ، قنينات قلابة لجمع عينات المياه من الأعماق المختلفة ترمومترات لقياس درجات الحرارة على الأعماق المختلفة ، مقياس للتيارات المائية من نوع «اكمان» أجهزة متيورولوجيه (للرصد الجوى) وقرص لقياس درجة شفافية الماء .. الخ

أما الأجهزة البيولوجية فتشـمل أنواعا من شباك الجر وشباك البلانكتون والجرافات وأوانى وزجـاجات حفظ العينات وأطنان من الفورمالين والكحول .

كل هذا بخلاف الأجهزة الملاحية وأجهزة المسح المغناطيسى وقد استعمل « المنتول » أو سـلفات المغنيسيوم فى تخـدير العينات قبـل حفظها فى الكحول أو الفورمالين أو فى سائل «بوان» المثبت حتى تبقى على حالتها الطبيعية قدر الامكان .

أما العينات التى كانت تحتوى على أشـواك كلسية تذوب فى الحوامض فقد كانت تحفظ فى الكحول وأما عينات البلانكتون ففى محلول مخفف من الفورمالين، وبالنسبة للاسماك فقد كانت تحقن أحيانا بالفورمالين ليتخلل أجسامها حتى لا يتطرق اليها الفساد تحت حرارة الجو الاستوائى . ولما لم يكن ضمن أعضاء البعثة رسام أو مصور فقد كانت ألوان الأحياء البحرية الحية تقارن فى ضـوء الشمس بمجموعة من الألوان القاسية المطبوعة وتدون أولا بأول . ولكى لا تتبخر سوائل حفظ العينات فقد كانت تطلع اغطيتها بالشمع السائل .

وقبيل ابحار السفينة أجريت بعض تعديلات فيها بورش مصلحة الموانى والمنائر بالاسكندرية لتلائم أغراض الرحلة ومن هذه التعديلات ضـم أحد قمرات السفينة للمعمل البيولوجى الكيماوى عليها لزيادة حجمه وتحويل قمرتين مفردتين الى قمرة مزدوجة للباحثين المصريين ، وتعديل مخزن الأسماك ليضم مخزنا للفحم سعته ٣٠ طنا مـع اضافة ثلاجه وحجرتين للتبريد .

وبذلك أصبحت السـفينة مهيأة للقيام بمهمة جديدة أثبتت فيها جدارة فائقة كما ضرب بحارتها وضباطها وعلماؤها أحسن المثل فى تحمل مشاق العمل فى البحار الاستوائية وتحت ظروف قاسية فى البحر لمدة شهور تسعة لم تكن تتخللها فى كثير من الأحوال سوى أيام قليلة أو بعض يوم للراحة وذلك حين ترسو السفينة على الموانى المختلفـة للتموين أو لعارض طارىء ، ولم تكن أجهزة تكييف الهواء معروفة فى ذلك الوقت على السفن .

---

(١) القامة = ١٫٨٢ مترا .

٣ ـ خط سير السفينة ورحلاتها :

فى تقريره العلمى الأول للرحلة وصف سيمور سيويل خط سيرها منوها بأهم الأعمال التى تمت خلال البعثة ومفصلا لمواقع المحطات العلمية التى جمعت منها العينـات وأعماقها وخواصـها الهيد روجرافية والطبيعية ونحن نجمل هذا الجزء فيما يلى :

أبحرت السفينة «مباحث» من ميناء الاسكندرية فى صباح اليوم الثالث من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٣ الى بورسعيد ثم اجتازت القناة من ميناء بور توفيق على مدخل خليج السويس وهنالك انتظرت بضعة أيام ريثما تصل بعض الأجهزة من الخارج . وفى الثامن من هذا الشهر غادرت البعثة الميناء متجهة الى الجنوب فى البحر الأحمر وبعد وقفة قصيرة على ميناء الغردقة زار العلماء فيها محطة الأحياء البحرية هناك واصلت السفينة رحلتها الأولى فى هذا البحر فى جو حار شديد القيظ ، وقد ألقت مراسيها فى ليالى متتابعة على جزيرة جبل زخير (يوم ٩/١٥) وحنيش الكبير (١٦ ، ٩/١٧) وبريم (٩/١٨) فى أقصى الجنوب . وقد جمعت البعثة بعض الأرصاد العينات من هذا البحر الا أن حظها لم يكن سعيدا فيه ، فقد فقدت أنبوبة لسبر الأعماق حين قيامها بعملية من عمليات الجرف على ٢٠٩٤ مترا فى المحطة الثالثة لها فقدت الجرافة وحبلا من السلك المتصـل بها طوله ٢٨٠٠ متر وكذلك عجلة عداد طول السلك .

ووصلت البعثة الى ميناء عدن يوم ٢٢سبتمبر سنة ١٩٣٣ وبذلك تنتهى الرحلة الأولى لها . وتبدأ الرحلة الثانية للبعثة فى خليج عدن نفسه حتى جزيرة سومطره المجاورة لساحل الصومال وفى تلك الرحلة أصاب سوء الطالع السفينة مرة أخرى فتوقفت الثـلاجة الكهربائية وفقدت البعثـة بسبب ذلك تموينها من اللحم الطازج ، وعندما حاول المهندس « جريجز » اصلاحها كاد يختنق بسبب غاز كلوريد الميثيل المستعمل فى التبريد ، فاضطرت البعثة الى العودة مرة أخرى الى ميناء عدن حيث مكث هذا المهنـدس فى المستشفى يومين ليستعيد نشـاطه وصحته .

وأبحرت السفينة مرة أخرى بعد ذلك فى الثالث من اكتوبر نحو الشرق فى خليج عدن وأتمت بحث عدة محطات فيه ثم خرجت منه الى بحر العرب وبعد أن انتهت من محطتها الهيدروجرافية رقم (٢٢) وكانت على عمق ٣٥٥٦ مترا أصيب « الونش » الهيدروجرافى بعطب فعادت السفينة أدراجها الى الساحل الافريقى وقضت ليلة ٧ اكتوبر راسـية فى الموقع المعروف باسم « غبة بنه » شمال رأس « على باش كيل » على هذا الساحل ، كما قضت ليلة ٩ اكتوبر بالقرب من صخرة الفيل على نفس الساحل .

وقد اشتغلت البعثة بهمة وعزم لمعرفة الخواص الطبيعية للمياه والقاع فى مدخل خليج عدن خلال الاسبوع التالى وأتمت جمع العينات والدراسـة من محطات (١٩ ــ ٣٧) كما أخذت عدة جرفات ناجحة فى الجانبين الشمالى والجنـوبى لمدخل الخليج المذكور ، ثم عادت مرة أخرى أدراجهـا الى ميناء عدن فوصلتها يوم ١٧ اكتـوبر سـنة ١٩٣٣ . ولقد تعثرت الجرافة خلال هذه الرحلة مرة أخرى على القاع عند المحطـة رقم ٢٥ فقطع الحبل وفقدت البعثة بذلك جرافة أخرى ، كمـا لاحظت البعثة المحطة رقم (٢٩) على عمق ٢٠٧٢ مترا بالقرب من الساحل الافريقى أن حبل الجرافة

قد لف حول نفسه مرات عديدة ولم تستخرج شيئا هذه المرة مما يدعو الى الاعتقاد بأن ثمة تيار عميق جارف فى تلك المنطقة .

وقد كان لدراسة خليج عدن ومدخله بالتفصيل من الناحية الهيدروجرافية أن وضح للبعثة نظام تبادل كتل المياه والتيارات السطحية والعميقة بين الخليج والمحيط ، كما وضح من تسجيلات جهاز سبر الاعماق (الاكوسوندر) وعورة قاع الخليج نفسه . فعلية مجموعة من الجبال ممتدة فى اتجاه من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ، بينما الجزء الجنوبى من الخليج نفسه تعتوره قناة عمقها نحو ٢٠٠٠ متر .

وقبل أن تبدأ البعثة رحلتها الثالثة قضت المدة من ١٧ — ٢١ اكتوبر مرة أخرى فى ميناء عدن للتموين والراحة واصلاح الأجهزة والاستعداد للرحلة القادمة ثم غادرت هذه الميناء متجهة فى محاذاة ساحل العرب الى ميناء كراتشى بالهند وقتئذ (وتتبع الباكستان الآن) وعرجت فى طريقها على جزر « خوريا موريا » حيث قضت يومين فى هذه المنطقة لتبحر شرقا لدراسة بعض الشعاب المرجانية ولتقضى ليلة ٣٠ اكتربر سنة ١٩٣٣ عند رأس مدركة وليلة أول نوفمبر عند رأس مركز ثم تترك البعثة الساحل العربى فى ٦ نوفمبر الى كراتشى فتصلها فى العاشر منه .

وخلال هذه الرحلة الثالثة تم فحص المحطات من رقم ٣٨ الى ٦١ بالاضافة الى البحوث التى أجريت بواسطة القارب الصغير على الشعاب المرجانية فى جزيرة الحلانية من مجموعة جزر خوريا موريا • ويلخص سيمور سيويل أهم نتائج عمل البعثة فى منطقة بحر العرب بقوله « ان المنطقة الجنوبية والجنوبية الشرقية من الساحل العربى تتميز بمنحدر قارى وعر شديد الانحدار تكتنفه صخور جرانيتية .. ولقد اكتشفت البعثة فى هذا البحر منطقة متوسطة من المياه تقع بين عمقى نحو ١٠٠ متر ، ١٣٠٠ متر تبدو خالية من الحياة تماما . (١) بينما توجد أنواع مختلفة من أحياء البحر بين السطح وعمق المائة متر وكذلك بين عمق نحو ١٣٠٠ متر والقاع .

« اما القاع نفسه فيكسوه طين ناعم اخضر اللون يشوبه غاز كبريتور الايدروجين (السام) وبخاصة بالقرب من رأس الحد . كما لم تعثر البعثة على طول الساحل العربى على شعاب مرجانية حقيقية ثم أن الشطوط التى فحصناها وكان البعض يعتقد أنها من الشعاب الحقيقية ليست فى الواقع كذلك ، وانما تتكون من الليثوثامنيوم (وهو طحلب متكلس يسهم فى بناء الشطوط المرجانية) »

وبعد ان اتمت البعثة اكتشاف هذا الجزء من بحر العرب يممت شطر كراتشى حيث تم اصلاح (الونش الهيدروجرافى) ثم غادرت البعثة فى هذا الميناء فى يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٩٣٣ وهدفها العمل فى خليج عمان مارة بساحل بلوخستان . وأمام هذا الساحل فقدت البعثة شبكة للجر على قاع عمقه ١٧٠٤ مترا ثم واصلت السير غربا بحذاء هذا الساحل الى الخليج واشتغلت عدة محطات على مدخله ثم القت مراسيها أمام مسقط « ودبة ديه » وقفلت راجعة الى رأس الحد لاجراء مزيد من البحوث على طمى القاع المشبع بغاز كبريتور

(١) يعتبر هنا الكشف فى حد ذاته على جانب كبير من الاهمية

الايدروجين وذلك قبل ان تتخذ سبيلها الى الساحل الهندى مرة أخرى لتزور ميناء بومباى فى هذه المرة . وقد قامت البعثة بمسح المنحدر القارى الهندى قبل أن تصل بومباى فى ٨ ديسمبر من نفس العام .

وفى تلك الرحلة الرابعة التى شملت المنطقة فيما بين كراتشى وبومباى مسحت البعثة المحطات ذات الأرقام من (٦٢ — ٩٠) وخرجت من فحص تلك المحطات بنتيجتين هامتين : تتلخص الأولى فى أن المنطقة المتوسطة «الجرداء» من البحر تمتد شرقا من الساحل العربى حتى خليج عمان وتقع بين أعماق حدها الأعلى يتراوح بين عمقى ٢٥٠ — ٦٠٠ متر تحت سطح البحر ، وحدها الأدنى خط عمق نحو ١٥٠٠ متر والحد الأعلى نفسه لتلك المنطقة يختلف عن جانبى خليج عمان فى السعة .

أما النتيجة الثانية فتتلخص فى أن تسجيلات جهاز « الاكوسوندر » قد أوضحت أن قاع تلك المنطقة من بحر العرب تكتنفه سلاسل جبال متعددة ، تمتد الأولى منها لناحية الغرب موازية لساحل بلوخستان ، وثمة سلسلة ثانية تمتد فى اتجاه الجنوب الغربى حتى رأس الحد ، ولكنها لا تصل بتلك الرأس بل تقف منها على مسافة نحو ١٣٧ ميلا فى البحر . وتتميز هذه السلسلة الثانية بوجود فجوة فيها تقع على الناحية الجنوبية الشرقية وعمقها نحو ٣٦٥٨ مترا وهى بذلك تزيد فى العمق بنحو ٢٧٤ مترا عن مستوى قاع الخليج .

وفى الجنوب الشرقى من تلك الفجوة نفسها تقع سلسلة ثالثة من الجبال المغمورة تحت سطح البحر تتحول الى هضبة متسعة كلما اقتربت من ساحل الهند .

وتبدأ الرحلة الخامسة للبعثة فى الثالث عشر من شهر ديسمبر عام ١٩٣٣ حيث مسحت السفينة المنطقة التى تقع فى مسارها بين بومباى بالهند وممباسا فى كينيا على الساحل الافريقى . وبذلك تكون البعثة قد اخترقت الجزء الشمالى الغربى للمحيط الهندى للمرة الثانية ولكن من الشرق الى الغرب فى هذه المرة . وبعد مسيرة يومين فى البحر من بومباى فقدت البعثة شبكة أخرى عند المحطة رقم ٩٢ على عمق ٣٧٢٢ مترا . كما فقدت فى مساء يوم ٢١ ديسمبر فى احدى العمليات الهيدروجرافية فى المياه العميقة ست قنينات قلابة من قنينات جمع عينات الماء المعروفة باسم قنينات « اكمان » Bemba بالاضافة الى أربعة عشر ترمومترا من ترمومترات الأعماق . وفى يوم «عيد الميلاد» نفسه قامت البعثة بعمل أرصاد هيدروجرافية على أكبر الأعماق التى وجدتها حتى ذلك الوقت وهو عمق ينوف على خمسة آلاف متر .

وتتلخص نتائج هذه الرحلة فى الأرصاد الهيدروجرافية القيمة التى جمعتها البعثة فيما بين بومباى وممباسا من ثلاث عشرة محطة على ضوء خط سيرها . وذلك قبل دخول السفينة الساحل الافريقى ليلة ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٣ ورسوها فى ميناء ممباسا فجر أول العام الجديد . وكان لابد أن تقضى السفينة بتلك الميناء بضعة أيام أخرى تجدد فيها ما نفذ من حمولتها من الفحم ومن الماء وترتق ما تفتق من شباكها وتشحم آلاتها ويلتمس بحارتها وعلماؤها خلالها بعض الراحة من ايام العمل المجهد بالبحر .

ثم استأنفت السفينة بعد ذلك سيرها يوم ٩ يناير سنة ١٩٣٤ فى رحلتها السادسة التى غطت

فيها المنطقة فيما بين ممباسا وزنجبار . ولم تكن هذه الرحلة سعيدة لكثيرين من سكان السفينة وفى ذلك يقول سيورسيويل رئيس البعثة « لم يكن الجو مواتيا بالمرة ، اذ هبت علينا ريح عاصفة من الشمال الشرقى وواجهنا بحرا مضطربا وعلى الرغم من سوء الأحوال الجوية فقدواصلنا العمل مولين اهتمامنا فى أغلب الوقت لفحص مياه القناة العميقة بين جزيرة زنجبار وجزر بمبا

ومن الجزيرة الأخيرة اتجهنا شمالا للعمل فى المنطقة المتاخمة للساحل الافريقى نفسه . ثم اننا اضطررنا للعودة الى زنجبار فى يوم ١٨ يناير سنة ١٩٣٤ لننزل الى البر كثيرين ممن اصيبوا بحمى الملاريا ومن بينهم المستر « ماكان » وقد انتابهم هذا المرض اثناء اقامتنا فى ممباسا . وفى صبيحة اليوم التالى اتجهنا نحو الشرق واخذنا عينات بشباك الجر على عمق ١٢٠٤ مترا ثم واصلنا السير شرقا وعلى الرغم من حدة الريح فقد نجحنا فى جمع عينات أخرى من عمق ٢٩٣١ مترا الا ان ازدياد الأحوال الجوية سوءا قد اضطرنا للعودة مرة أخرى الى زنجبار وذلك يوم ٢٤ ديسمبر حيث ارسلنا الى المستشفى كبير المهندسين جريجز والمستر كارى جيلسون للاستجمام » .

وفى تلك الرحلة السادسة فحصت البعثة المحطات من رقم ١٠٣ الى ١٢٦ ومنها وضح أن الفونة(١) غنية كما تبين من تسجيلات «الاكوسندر» أن ثمة دلائل على وجود سلسلتين جبليتين متوازيتين تبدآن بالقرب من نقطة « مالیندی » على الساحل الافريقى وتمتدان الى الجنوب بحذاء الجهة الشرقية لجزيرة بمبا .

وفى صباح يوم ٣٠ يناير استقبل سلطان زنجبار العلماء والضباط المصريين بصحبة رئيس البعثة والربان ماكنزى وحالما عادوا من هذه الزيارة أبحرت المركب فى طريقها الى جزر سيشيل .

وتبدأ السفرة السابقة للسفينة من زنجبار وتنتهى فى ميناء كولمبو فى جزيرة سرنديب . وعلى مسيرة يومين من زنجبار فحصت البعثة المحطة رقم ١٣٧ حتى عمق ٤٠٩١ مترا وفى تلك الأثناء كسر « الونش الهيدروجرافى » فتوقف العمل واتجهت السفينة رأسا الى جزر سيشيل وقبل أن تصلها فحصت البعثة محطتين أخريين فى الطريق مستعينة فى انزال آلاتها الهيدروجرافية بونش الجرافة ثم وصلت جزر سيشيل فى النهاية فى السادس من شهر فبراير سنة ١٩٣٤ حيث ألقت السفينة مراسيها فى ميناء فيكتوريا على جزيرة « ماهى » وحملت نحو خمسين طنا اضافيا من الفحم ثم غادرت هذه الجزيرة فى يوم ٨ فبراير الى كولمبو عن طريق قناة « كارديفا » فى مجموعة ارخبيل اللاديف حيث كان الجو مواتيا للسفر على الرغم من التيار العكسى الذى كان يعوق سير السفينة وتمكنت البعثة من الوصول الى كولمبو بعد ظهر يوم ٢٢ فبراير .

وفى تلك الرحلة مرت البعثة فوق سلسلة جبال كارلسبرج المغمورة واكتشفت فيها فرجة عمقها نحو ١٦٥٠ مترا تقع بين جبلين ، كما تمكنت من أخذ عينة بالشباك من هذا العمق أخرجت أنواعا

---

(١) « الفونة » هى مجموعة الحيوانات التى تعيش منطقة ما وتقابلها كلمة « الفلورة » بالنسبة للنباتات

شتى من حيوان القاع العميق وقطعا من الصخور.. وكانت البعثة حتى وقت رسوها على ميناء كولمبو قد تمكنت من فحص المحطات ١٢٧ — ١٣٥ .

وقضت السفينة فى ميناء كولمبو عقب تلك الرحلة قرابة شهر واحد ، وهى مدة أطول مما تمضيه عادة فى الموانى ، وذلك بالنظر لحاجة السفينة الى صيانة واصلاح ودهان ، وفى تلك الأثناء تمكن « فاركسون » من اجراء بعض المسح المغناطيسى فى أرخبيل الملايو من على ظهر قارب تابع لحكومة سيلان .

وتبدأ الرحلة الثامنة من وقت مغادرة السفينة كولمبو يوم ١٧ مارس سنة ١٩٣٤ وذلك للعمل فى المنطقة الواقعة جنوب شبه القارة الهندية فيما بين جزر الملاديف وارخبيل شاجوس ثم تتجه شمالا لفحص اللاجونات البركانية المحيطة بجزر الملاديف ومن بينها لاجونات : أدو ، ومالى ، وكولومادولو ، ومولاكو ، وهور سبورغ ، وفاديفولو .. وبعد أن استقبل سلطان « الملاديف » أعضاء البعثة تعود السفينة مرة أخرى الى ميناء كولمبو فتصله فى اليوم الثالث عشر من شهر ابريل سنة ١٩٣٤ .

وفى تلك السفرة أتمت البعثة فحص ٢٢ محطة من بينها عشر محطات أجرى فيها « فاركسون » أرصادا مساحية ومغناطيسية ، كما اكتشفت البعثة لاجونا مغمورا على عمق ٢٣٨ مترا يمثل قمة بركان قديم وذلك فى الطرف الغربى لقناة كارديفا ، كما تكهنت البعثة أيضا بوجود تيار مائى تحتى قوى يمر فوق سلسلة جبال الملاديف المغمورة .

وتبدأ الرحلة التاسعة للبعثة من وقت مغادرة السفينة لميناء كولمبو فى اليوم التاسع عشر من شهر ابريل عام ١٩٣٤ فى طريقها الى ميناء عدن مرة أخرى . وحالما وصلت السفينة الى خط عرض ٧° شمالا غيرت اتجاه سيرها الى الغرب عبر بحر العرب حيث أخذت البعثة ارصادا هيدروجرافية جديدة وجمعت عينات بالشباك والجرافات ومن بينها جرفة تمت على عمق ٤٧٩٣ مترا .. ومن عجب أن تلك الجرفة لم تخرج حيوانات هذه المرة بل معادن نفيسة تعرف باسم عقد المنجنيز وكانت مختلفة الاشكال والاحجام وقد بلغ وزن ما استخرج فى هذه الجرفة وحدها من تلك العقد نحو ١٢٥ كيلوجراما .

ثم عبرت البعثة سلسلة جبال « كارلسبرج » المغمورة مرة أخرى واثبتت أن ثمة جبلين متوازيين فيما بينهما منخفض عميق تترسب فيه عقد المنجنيز فوق رواسب طمى « الفورمنيفرا »[1] وحالما عبرت البعثة سلسلة كارلسبرج سارت بمحاذاة جانبها الجنوبى الغربى لمسافة ثم انحرفت لتعبر قناة سومطرة فتدخل خليج عدن مرة أخرى . وفى هذا الخليج أعادت البعثة تكرار أرصادها التى كانت قد جمعتها فى فصل الخريف السابق كما جمعت عينات من رواسب القاع وحيوانه ، وذلك قبل أن تدخل ميناء عدن نفسها يوم ٨ مايو سنة ١٩٣٤.

وفى يوم ١٤ مايو تغادر البعثة هذا الميناء للمرة الأخيرة لتبدأ رحلتها العاشرة والأخيرة أيضا

---

(١) المنخربات (الفورامنيفرا) حيوانات أولية مجهرية وحتو الخلية ذات غلاف متكلس (من مادة جيرية) تعيش فى البلاتكتون فى الطبقات السطحية لمياه المحيطات وعند موتها تتساقط اغلفتها المذكورة على قاع المحيط كرذاذ المطر ، وعلى مر العصور كونت نوعا مميزا من الرواسب الطينية على قيعان المحيطات يعرف باسم طمى الفورامنيفرا اوالمنخربات

فتبدأ بالاتجاه جنوبا لتكرر بعض الأرصاد الهيدروجرافية على خط طول ٤٥° شرقا . ثم تتجه غربا الى بوغاز باب المندب فتفحص مياهه وخواصها وتياراته مرة أخرى ، وتأخذ عينات من القاع بالكماشات فى جنوب البحر الاحمر حيث تنتهى الاعمال العلمية للبعثة فيه بالنظر لمرض الربان ، ثم تغذ السفينة سيرها فى هذا البحر بأقصى ما تستطيع من سرعة نحو الشمال فتصل ميناء السويس فى يوم ٢١ مايو سنة ١٩٣٤ قبيل منتصف الليل بقليل .

وفى هذه السفرة الأخيرة أتمت البعثة فحص المحطات من ١٩٧ الى ٢٠٩ كما دعمت عملها السابق على جانبى بوغاز المندب . ويتضح من البحوث والفحوص التى تمت خلال فصلين مختلفين من فصول السنة فى تلك المنطقة أن هناك تغيرات موسمية واضحة للتيارات البحرية واتجاهها .

وهكذا مرت السفينة فى قناة السويس للمرة الثانية قادمة من الجنوب خلال يومى ٢٢ ، ٢٣مايو فى طريقها الى ميناء الاسكندرية فوصلتها فى الخامس والعشرين من هذا الشهر من عام ١٩٣٤ حيث كان فى استقبالها جمع وافر من أسر البحارة ورجال البحرية والسواحل والموظفين الرسميين ، كما اقامت جامعة القاهرة فيما بعد لأعضاء البعثة استقبالا خاصا .. أما السفينة فقد عادت لقاعدتها فى ميناء الاسكندرية حيث ظلت فى مرساها سنين طويلة بعد ذلك ، وأذكر انني اصطحبت طلاب قسم علوم البحار بجامعة الاسكندرية على ظهرها فى رحلة تدريبية لجمع العينات خارج ميناء الاسكندرية بعد عودتها من المحيط الهندى بنحو عشرين عاما .. وكان ذلك فى أحد أيام عام ١٩٥٣ . وفى يقينى أن هذه الرحلة القصيرة الأخيرة ربما كانت آخر عهد للسفينة بجمع العينات من البحر . ولقد كان من رأينا وقتئذ أن تبقى هذه السفينة بالميناء الشرقى بالاسكندرية وتحول لبيت من بيوت الشباب يخصص جزء منه لمتحف بحرى صغير .

٤ – الآثار العلمية لبعثة مباحث :

ليس هناك من شك فى أن الانجازات العلمية التى حققتها بعثة « مباحث » فى الجزء الشمالى الغربى من المحيط قد خلدت اسم هذه البعثة ضمن قائمة البعثات العلمية العالمية التى أماطت اللثام عن كثير من أسرار البحار والمحيطات وساهمت فى تقدم معلوماتنا عنها .

فقد قامت « مباحث » بعشر رحلات رائدة فى هذا الجزء من المحيط كما وضحنا آنفا فحصت خلالها ٢٠٩ محطة عملية دونت أرصادها بدقة على الخرائط ويمكننا اجمال هذه الرحلات فيما يلى :

الرحلة	المنطقة	ارقام المحطات
الرحلة الأولى	من البحر الأحمر لعدن	١ – ١٨
الرحلة الثانية	من عدن لعدن	١٩ – ٣٧
الرحلة الثالثة	من عدن لكراتشى	٣٨ – ٦١
الرحلة الرابعة	من كراتشى الى بمباى	٦٢ – ٩٠
الرحلة الخامسة	من بمباى الى ممباسا	٩١–١٠٢
الرحلة السادسة	من ممباسا الى زنجبار	١٠٣–١٢٦
الرحلة السابعة	من زنجبار الى كولمبو	١٢٧–١٣٥
الرحلة الثامنة	من كولمبو الى كولمبو	١٣٦–١٦٥
الرحلة التاسعة	من كولمبو الى عدن	١٦٦–١٩٦
الرحلة العاشرة	من عدن الى البحر الأحمر	١٩٧–٢٠٩

ولقد غطت هذه الرحلات المناطق الآتية من المحيط الهندى وأثرت معلوماتنا العلمية عنها وهى : البحر الاحمر ـ خليج عدن ـ الساحل الجنوبى لشبه جزيرة العرب ـ خليج عمان ـ شمال بحر العرب ووسطه ـ منطقة جزر زنجبار ـ جنوب بحر العرب ـ منطقة جزر الملاديف فى جنوب غربى سرنديب . ولم تقتصر دراسات البعثة على فحص خواص المياه وتوزيع درجات الحرارة والملوحة بين السطح والقاع فحسب ، بل شملت أيضا دراسة التيارات المائية السطحية والعميقة ودراسة الحيوانات البحرية وتوزيعها بين السطح والقاع وعلى قاع المحيط نفسه ومن بينها أنواع جديدة للعلم تنتمى لشتى فصائل المملكة الحيوانية. كما كان للبعثة فضل الكشف عن منطقة من المياه المتوسطة فى بحر العرب تنعدم فيها الحياة تقريبا ويشوب قاعها غاز كبريتور الايدروجين السام .

أما الدراسات الجيولوجية للبعثة فقد تمخضت هى الأخرى عن اكتشاف سلاسل جبلية على قاع المحيط وعن كثير من التضاريس الأخرى التى تعتور قاع ذلك الجزء الشمالى الغربى منه سواء أكانت هضابا أو منخفضات ، كما حظيت دراسة اللاجونات البركانية فى منطقة جزر الملاديف بأهمية خاصة من البعثة التى درست أيضا المجال المغناطيسى للأرض فى تلك المنطقة .

وللبعثة الفضل فى تسجيل أغوار تنوف على الخمسة الآلاف متر فى هذا المحيط وفى تسجيل درجات عالية من الحرارة للمياه السطحية (مثل درجة ٣٢ر٣٣° مئوية عند محطة ١١ فى البحر الأحمر) .

ولقد ظهرت نتائج كل تلك الدراسات فى المجلدات العشرة التى ضمت التقارير العلمية للبعثة بأقلام عشرات العلماء وأشرف على اصدارها المتحف البريطانى للتاريخ الطبيعى بلندن بين سنوات ١٩٣٥ ـ ١٩٦٠ .

وليس هنا مجال استعرض تفاصيل تلك التقارير العلمية بطبيعة الحال ، ولكننا نود أن نشير بخاصة الى نتيجتين من النتائج الهامة التى وصلت اليها البعثة لما لها من شأن كبير ، وقد كنا قد أشرنا اليهما اشارة عابرة فيما تقدم من صفحات.

أما عن النتيجة الأولى فنتناول نظام تبادل التيارات المائية بين البحر الأحمر والمحيط الهندى عبر بوغاز باب المندب وقبل أن نفعل ذلك يجدر بنا أن نشير الى أن ثمة جبلا قائما يرتفع من قاع البحر عند مضيق باب المندب وينتهى على عمق نحو مائة متر تحت سطح الماء مكونا ما يعرف باسم « سد باب المندب » وعلى ذلك فلا تتبادل مياه المحيط ومياه البحر الأحمر الا عن طريق عمق ضيق يرتفع بنحو مائة متر فوق قمة هذا السد ، حتى مستوى سطح البحر ويعرف علميا باسم « عمق السد » أو العمق الحر للماء الذى يتم التبادل من خلاله . ونظام التبادل المذكور يختلف فى الصيف عنه فى الشتاء ويتبع الى حد كبير نظام الرياح السائدة فى كل موسم . ففى فصل الصيف تدفع الرياح الشمالية مياه البحر الاحمر السطحية العالية الملوحة عبر مضيق باب المندب الى خليج عدن وفى نفس الوقت تدخل مياه المحيط الهندى من فوق سد باب المندب الى أعماق البحر الأحمر محتفظة بخواصها فى هذا البحر .

وأما فى فصل الشتاء فان الآية تنعكس ، اذ يدخل تيار مائى سطحى قليل الملوحة من المحيط الهندى الى البحر الأحمر بينما يفيض ماء البحر الأحمر المرتفع الملوحة من الطبقات تحت السطحية للماء منحدرا من فوق سد باب المندب ليدخل المحيط الهندى وينتشر فيه على الأعماق . وعلى ذلك فلو اختبرنا خواص المياه العميقة على جانبى سد باب المندب فى أى وقت لوجدناها تختلف اختلافا كبيرا من حيث توزيع درجات الحرارة والملوحة والخواص الأخرى . فها هو البحر والمحيط يلتقيان على السطح بينما على جانبى السد فى الأعماق يحتفظ كل منهما بخواص مياهه [1] .

وشبيه بذلك ما نجده من نظام تبادل التيارات المائية بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى فوق سد جبل طارق المغمور ، وعمق الماء فوق السد المذكور يبلغ نحو ٣٢٠ مترا أى يزيد على عمقه فوق سد باب المندب المغمور ، وفى تلك الحالة الأخيرة يدخل تيار سطحى مستمر من المحيط الأطلسى الى البحر الأبيض المتوسط وهو تيار أقل ملوحة وحرارة من مياه البحر الأبيض المتوسط بينما تفيض مياه البحر المتوسط الى المحيط الأطلسى منحدرة من فوق سد جبل طارق وهى مياه ثقيلة مرتفعة الملوحة وتظل تحتفظ بخواصها وهى تسير على شكل تيار عميق فى المحيط الأطلسى لمسافة تزيد على الألف كيلومتر .

أما النتيجة الثانية الهامة لبعثة مباحث فهى اكتشافها لعقد المنجنيز على القاع .وقد كانت أول اشارة لوجود مثل هذه « المناجم » على قيعان المحيطات نتيجة لبعثة تشالنجر الشهيرة حول العالم بين سنوات ١٨٧٢ ــ ١٨٧٦ م . وها هى « مباحث » تكتشف كيمات كبيرة منها لأول مرة فى تلك المنطقة من المحيط الهندى . وتحتوى عقد المنجنيز المذكورة على عناصر المنجنيز والنيكل والكوبالت والنحاس والحديد وهى تترسب باستمرار وببطء من ماء البحر فتكون كتلا فى مثل حجم البرتقالة أو أصغر أو أكبر . ونظرا لما لهذه المناجم على قاع المحيط من آثار اقتصادية بعيدة المدى فقد فكر العلماء جديا فى استغلالها اقتصاديا وبخاصة على قاع المحيط الهادى وقد زاد الاهتمام بها كثيرا عقب بحوث البعثات الدولية فى برنامج السنة الجيوفيزيقية الدولية فى المحيطات(١٩٥٧ ــ١٩٥٨) . وتقدر كثافة توزيع ما يوجد من عقد المنجنيز على القاع فى بعض مناطق المحيط الهادى نتيجة لتلك البحوث بمازنته نحو ١٠ ــ ١٥ كيلوجراما فى المتر المربع الواحد من القاع وهى ثروة تزيد بآلاف المرات عما هو موجود فى مناجم الأرض كلها من هذه الخامات ثم انها مناجم لا ينضب معينها فهى فى نمو دائم .

وفضلا عن الآثار العلمية التى تركتها بعثة «مباحث» على النطاق الدولى فى سجل كشوف الاقيانوس فقد كان لهذه البعثة أيضا آثار محلية جليلة نذكر من بينها زيادة الوعى والاهتمام فى مصر بهذا الفرع الجديد من فروع المعرفة ألا وهو دراسة البحار والمحيطات ، وقد كان لذلك أثره فيما بعد فى انشاء قسم علوم البحار بجامعة الاسكندرية وعلى يد رجلين من رجال البعثة من

---

(١) قد يدعونا ذلك الى التأمل مرة أخرى فى تفسير الآية الكريمة (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) على ضوء هذا الكشف العلمى .

المصريين وهما الأستاذ الدكتــور حســين فوزى والأستاذ الدكتور عبد الفتاح محمد ، فضلا عن أن تلك الرحلة على ظهر « مباحث » قد أوحت للأول منهما بكتابة كثير من الأعمال الأدبية القيمة نذكر من بينها كتــابه بعنــوان « حديث الســـندباد القديم » .

* * *



الراماياना

بقلم : محمد إسماعيل الندوى

تمتاز الهند بحضارتها الأصيلة وآدابها وفنونها وفلسفتها كاليونان ومصر ، لأنها كانت منبع الحضارة ومهد الثقافة . وقد تفجرت من أرضها ينابيع العلوم والفنون والمعارف التى تتسم بالأصالة وطابعها الخاص . وقد ساهمت فى هذا المجال أمم كثيرة وطوائف عديدة نزحت الى الهند فى العصور السالفة واستوطنتها ومن أهمها بل وأكثرها قوة وأثرا وخلودا الأمة الآرية ، التى نزحت من أوربا الى آسيا واحتلت أولا بلاد الفينيقيين ثم ايران فى حدود عام ١٥٥٥ ق.م تقريبا . ومنها نزحت الى الهند بعد نصف قرن تقريبا . ولقد اختلف المؤرخون فى الموطن الأصلى لهؤلاء اذ يرى بعضهم أنهم كانوا من سكان « سيبيريا وتركستان » . وقال آخرون انهم كانوا يقطنون بلاد « بامر » (Pamer) وقال بعضهم : انهم كانوا يسكنون فى ألمانيا وبولندا ولكن أرجح الأقوال فى هذا الصدد أنهم يقطنون جنوب روسيا (١) .

ومنذ قدوم الآريين الى الهند تغير مجرى التاريخ والفكر فى الهند ، اذ أنهم استولوا على المناطق الشمالية بعد فتحها وطرد أهلها الى الجنوب كما جلبوا معهم حضارة أوربا القديمة ومنطقة الشرق الأوسط وتقاليدهما بعد أن عاشوا فيهما ردحا طويلا من الزمن . ولكن سرعان ما امتزجت حياتهم وتقاليدهم بأهالى الهند القدماء وظهرت حياة وثقافة جديدتان تتميزان بالخصائص الآرية والمزايا الهندية القديمة على السواء . وقد وضع «رج ڤيدا» (Reg-veda) أقدم كتاب دينى للآريين ، سجل فيه حياتهم وتقاليدهم وأفكارهم السهلة والساذجة تجاه الكون وخالقه . وهذه الظاهرة تدل على أن الآريين القدامى وجهوا عنايتهم منذ أول قدومهم الى تسجيل أفكارهم ونزعاتهم . ومن ثم توالى بعد « رج ڤيدا » صدور كتب كثيرة دينية . ولما كانوا فى بادىء الأمر قد خاضوا معارك كثيرة وافتتحوا بلادا عديدة فى شمال الهند ووسعوا رقعة بلادهم من الشرق الى الغرب . فقد ساعدت هذه الأحداث والوقائع على ظهور قصص وأساطير تصور حياتهم

(١) The History of the World by Rene Sedillot p. ٣

(١) The Anvil of civilization by Leonard Cottrell p. 112

وعقليتهم وتقاليدهم وبطولتهم وقيمهم المعنـــوية على أبدع صورة وأجمل مظهر .

ان « الرامايانا » (Ramayana) أول ملحمة أو اسطورة فى هذا الصدد تصور المرحلة الأولى من حياة الآريين فى القرن الثـانى عشر قبـــل الميـــلاد .

وقد عاشت بين فترتى القرن الثانى عشر والعاشر قبل الميلاد فى شمال الهند فى ولايتى«أتاربراديش» (U.P.) و « وبهار » (Bihar) أسرتان كبيرتان لملوك الآريين وهما « كوسالاس » (Kosalas) « وفيديحاس » (Videhas) وكانت مدينــــة « أوده » (Oudh) عاصـــــمة « دساراتا » (Dasa-ratha ملك « كوسالا » . أما مدينـــة بتنة Patliputra or Patna فقد كانت عاصمة ملك «ڤيديحاس» الذى زوج ابنته « سيتا » لبطــــل الأسطورة الابن الأكبر لدسارتا وهو راما (١) .

واذا كانت « الرامايانا » عبارة عن الأحـــداث التاريخية التى وقعت فى هذه الفترة من الزمان ، فانها لم تسجل فى نفس الوقت على الصــــورة الحالية . بل مرت بمراحل كثيرة ، لأننا اذا نظرنا الى القصص السنسكريتية القديمة وأساطيرها نجد أنها ظهرت منذ القرن العاشر قبل الميلاد . فقـــد تناولها الشعراء باعجاب وتقدير ونظموها بالشــعر السنسكريتى . وهذه الأشعار لم تسجل فى تلك الفترة بل ظلت تحفظها صدور الناس كما كان الحال فى كل أمة عاشت فىظل البداوة . وبهذا مــرت ملحمة « الرامايانا » التى ظهرت فى القرن العاشر قبل الميلاد تقريبا بمراحل عديدة ، وتناقلتها الألسن من جيل الى جيل ومن عصر الى عصر حتىاتخذت هذا اللون البديع الأنيق فى القرن الخـــامس أو الرابع قبل الميلاد (٢) .

لقد ألفت هذه الملحمـــة باللغة السنسكريتية الناضجة ولذلك يرى بعض الباحثين أنها ألفت فى القرن الخامس قبل الميلاد ، أى بعد مرور مايقرب من ألف سنة على حدوثها، لأنها تصور شطرا من الحياة الاجتماعية والسياسية لهذه الفترة . ويرى الأستاذ (F.W. Thomas) أنها ألفت فى القـرن الثانى قبل الميلاد تقريبا ، ا ذكانت السنسكريتيةفى ذلك الحين هى اللغة الأدبية والرسمية . وقدظهرت هذه اللغة بعد قدوم الآريين الى الهند . وهى فى الحقيقة فرع من لغات أوروبا القديمة التى نشأت منها اليونانية ثم الانجليزية والألمانية وما الى ذلك. ولذلك تسمى السنســكريتية « اللغة الهنـــدية الآرية » (Indo-European)

كانت السنســكريتية فى بادى الأمر لهجــة أوروبية تشبه اليونانية القديمة ، تكلم بها الآريون الذين نزحوا الى الهند ، وافتتحــوا ولاية بنجاب وقطنوها فى أول الفتح . وقد مرت هذه اللغــة مع الاختلاط باللغة الأصلية فى الهند بعدةتغيرات كما سجلتها عدة كتب دينية هندوكية مثــل «رج ڤيدا و يوبانيشاد » . ثم زادت رقعة الفتـــوحات واتسع سلطان الآريين الذى امتد الى عدة مناطق هندية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، واحتلوا أربع ولايات كبرى وهى « بنجاب وأتاربراديش وبهار ومدهيــا براديش » . وهــــذه الولايات الأربع لاتزالحتى اليوم معقلالعنصرالآرى ومهدالحضارة الآرية . وقد أخذت هذه اللغة فى التطور فىنحو ألف سنة . وفى خلال هذه المدة وضعت لها قواعد النحو والصرف والعروض ، وألفت بها الـــكتب العلمية والأدبية .

---

(١) The Ramayana of the Mahabharata by Romech C. Dutt p. 1

Hinduism by M. Sen p. 73 and the Legacy of India p. 63.

The Legacy of India p. 67.

وفى القرن الرابع قبل الميلاد اتسمت هذه اللغة بثلاث خصائص بارزة قسمتها الى ثلاثة فروع أو شعب : أولاها اللغة الكلاسيكية التى تكلم بهـا رجال الدين والكهنة . وقد توارثها هؤلاء كابرا عن كابر فاحتفظوا بقالبها وصياغتها فى حب وتقدير لاحد لهما ، فأصبحت هذه اللغة كبنيان مرصوص بعد تأليف «بانى» (Paini) ـ النحو الشهير ـ قواعد نحوية مربوطة لها ، وذلك فى القرن الرابع قبل الميلاد . وثانيها لغة الشعراء والأدباء . وبهـذه اللغة ألفت الأساطير الهنـدية الشهيرة مثـل « الرامايانا » و « المهابهارتا » . وثالثها لغة عـامة المتعلمين والمثقفين السهلة التى ألفت بها معظم أجزاء كتب «الڤيدا» كما ألفت بها أيضا كتب العـلوم والفنون مثل السياسة والقانون والأدب والفن (١).

وفيما يتعلق بالأبواب والفصول فى ملحمـة « الرامايانا » يقول الأسـتاذ « رومش دوت » (Romesh) ـ باحث هندوكى شهير فى الآداب السنسكريتية ـ انها فى الأصل تحتوى على ستة أبواب فقط وتنتهى بعودة الأبطال الى ديارهم بعد مغامراتهم الطويلة لسنين عديدة . ولكن البـاب السابع الذى ألف بعد قرون من حدوث وتسجيل هذه الملحمة هو فى الحقيقة معيار جديد للشـعر السنسكريتى اذ تلوح فيه ملامح لغة جديدة حديثة ظهرت فى القرون الأخيرة قبل الميلاد .

وخلاصة القول أن الملحمة تحتوى على ستة أبواب أصلية وذيل فى الآخر يكون الفصل السابع

ثم تنقسم الملحمة كلها والتى ألفت بالشـعر الى ٥٠٠ مقطع أو قصيدة تتضمن ٢٤٠٠٠ بيت .. وبدراسة الباب السابع يظهرلنا بكل وضوح أنه ألف قبل الميلاد اذ نجد فيه بلدانا وأحداثا ومشاهد لم تعرف فى عصر «راما» البطل واخوته بالمرة .

(١) The Legacy of India p. 40-41.

وعلى هذا الأساس يمكن لنا القول بأن الملحمة تصور احداث القرن العاشر قبل الميلاد ، ولكنها سجلت فى هذ القالب الشعرى فى القرن الخامس أوالرابع قبل الميلاد (٢) .

وهذه الملحمة ككثير من الكتب الهندوكيـة القديمة لايعرف مؤلفها على وجه التحديد .

وقد جاء فى « الرامايانا » نفسها أن الراهب « والميكى » الذى ساعد «راما» فى محنته فى الغابة والذى شاهد وعاصر جميع مشاهده البطـولية هو الذى نظمها بعد عودة «راما» من منفـاه الى «أيودهيا» . ففى هذه الآونة لجأت اليه « سيتا » زوجة راما وماتت فى ديره ، لأن راما نفـاها الى الغابة . ولذلك أتيحت للراهب فرصة تربية ابنى «راما» اللذين عاشا فى كنفه تربية رهبانية . وقد جال بخاطره فى هذه الفترة الميل الى نظم مشاهد «راما» ومواقفه البطولية كلها بالشعر . فبدأ فى نظمها وقد استغرق هذا العمل منه خمسة وعشرين يوما . كلما قرض «والميكى» مقطعا حفظه ابنـا راما فى نفس الوقت . وبهذا حفظا الملحمة كلهـا والتى تتكون من خمسمائة مقطع ، تتضمن ٢٤٠٠٠ بيت . وقد أقام راما احتفالا دعا فيه الراهب والميكى أيضا . فحضره «والميكى» مع ابنى راما اللـذين أنشدا فى هذه الحفلة ملحمة « الرامايانا » كلها . وقدأثارت هذه الملحمة دهشة راما واعجابه ، وكذلك أعرب الشعب عن اعجابه الشديد بها ، وتقـديره العظيم لها . فأقبل الناس على حفظها بشوق ورغبة منقطعى النظير . وبهذا احتفظت بها الصـدور وتناقلتها الألسن دهرا طويلا الى أن سجلت كتابة فى القرون الأخيرة قبل الميلاد (٣) .

(٢) The Wisdom of India by Lin Yutang p. 123.

(٣) The Wisdom of India by Lin Yutang p. 271.

هذه الظاهرة تلقى الضوء على التأليف والتدوين فى الهند فى القرون الخالية ، لأننا نفهم أنها كالبلدان المتحضرة الأخرى فى العالم لم تسجل انتاجها الأدبى والفكرى من أول وهلة ، بل تداولت ألسن الناس «الرامايانا» دهرا طويلا ، وحفظتها الصدور زمنا غير يسير ، حتى وجهت العناية أخيرا الى تسجيلها فى الكتب بعد أن قطعت الهند مرحلة طويلة فى ميدان العلم والفكر .

ولكن الرامايانا على الصورة الحديثة ليست جهود شاعر أو شاعرين بل ساهم فى أداء هذه المهمة عدد من الشعراء البارزين الذين عاشوا خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد كما هو الشأن لملحمة أخرى شهيرة ألفت بعد الرامايانا وهى « المهابهارتا » (Mahalharata) (٢)

ويجدر بنا الآن أن ننظر الى النواحى الأدبية والفنية فى هذه الملحمة . وما من شك فى أنها من أولى نماذج الأدب والقصص فى الأدب السنسكريتى بل الأدب الهندى قاطبة . وهى غنية بالاحداث والمشاهد والحكايات والصور ، وتعتبر نواة أولى للاساطير والقصص والمسرحيات السنسكريتية الشهيرة التى ظهرت فيما بعد مثل «نالا» (Nala) و « ساوترى » (Savitri) وشكنتلا . وهى صادقة فيما تحكى عن نفسها فى موضع من المواضع اذ أنه لم تظهر قصة على وجه هذه الأرض قبل هذه القصة ، وهى التى تغذى جميع القصص وتمنح القوة لجميع الشعراء وهى درة يتيمة للشعر والشعراء (١) .

ان «الرامايانا» تحمل المثل العليا والأهداف النبيلة والقيم الأخلاقية والأعمال البطولية التى تمثل جوانب انسانية رائعة فيها الدرس والعبرة لكل انسان يقرؤها كما يلوح فيها وفى كل موقف من مواقفها الصفاء والجمال والصدق والرقة والعاطفة والهدف الأساسى فيها هو المرأة والبيت فى حين أننا نجد ملحمة « المهابهارتا » تدور حول الرجل والحرب (٣) . وبما أنها أقدم تراث وصل الينا تتجلى لنا فيها معالم الهند القديمة كلها من حياة شعبها ومجتمعها وتقاليدها ومعتقداتها .

أما الناحية الفنية فيها فهى تعطى بوادر أولى وأسسا ثابتة للاساطير الهندية التى ظهرت فيما بعد، لأنها تصور الغابات الهندية الشهيرة الممتلئة بالوحوش والحافلة بالأخطار والتى غامر فيها أبطال هذه الملحمة أنفسهم وقضوا فيها سنين عديدة يهيمون على وجوههم ويخاطرون بأنفسهم ويتنقلون من غابة الى غابة ومن بلد الى بلد من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب حتى جزيرة «سيلان» الشهيرة التى منحت هذه القصة الشهية جوانب انسانية رائعة وبطولة عظيمة ومواقف بين النهرين الشهيرين « الجنجا والجمنا » مثل «أودهوقنو جواله آباد» ولكن لايكاد يبين لنا فى خلال هذه الملحمة أثر المدن الشهيرة الأخرى مثل « دلهى » و «أجين» اللتين لعبتا دورا كبيرا فى الأدب السنسكريتى القديم ولاسيما فى ملحمة « المهابهارتا » ومسرحية «شكنتلا» (٤) وهذه الظاهرة تدل على أن نطاق هذه الدولة لم يتسع الى هذه المناطق . ومع ذلك يتضح لنا من خلالها معالم الهند كلها مثل طبيعتها الفتانة وجمالها الباهر وأنهارها الجارية وغاباتها المظلمة ووديانها ورعودها وأمطارها وسحبها .

وهذه الملحمة أو الأسطورة تصور الحياة الروحية والقيم المعنوية لدى الهنود فى هذه

(١) أنظر ما جاء فى تقديم :
The Legacy of India p. 67.

(٢) The Ramayana of the Mahabharata

(٣) The Wisdom of India p. 122.

(٤) أنظر مقالنا عن « شكنتلا » فى مجلة « تراث الانسانية » الصادرة فى أغسطس سنة ١٩٦٥ .

الفترة من الزمان . فلقد قطع الآريون مراحل عديدة فى تطورهم التاريخى والفكرى اذ مرت حياتهم حينا بالمادية البحتة وحينا آخر بالروحانية المحضة. وبما أن «الرامايانا» تصور أولى مرحلة حياة الآريين فى الهند فنرى أن حياتهم تموج بالروحانية والقيم الأخلاقية والمبادىء السامية .

ومن الأهداف الرئيسية فيها أنها تحث الانسان على التضحية .وأداء الواجبات نحو الانسانية ويذم الأنانية والحرص على تحقيق الأغراض الشخصية (١) . والسبب فى ذلك أن الانسان فى كل مكان قطع المرحلة الأولى من الحياة فى الايمان بالله وقدرته وجبروته فى هذا الكون . ثم ظهر عليه الطغيان والتمرد أخيرا مما حدى به فى بعض الأحيان الى الكفر بالله والجرى وراء المادية والشهوانية . وقد وقعت الهند فى هذا اللون من الحياةفى العصور التى تلت «الرامايانا» كماتصورها ملحمة «المهابهارتا» . وهذا هو السبب فى أن «كرشن» الشخصية الأسطورية فى هذه الملحمة حمل لواء المعارضة ضد هذه الحياة (٢) .

وحينما ننظر الى القيم الروحية والمبادىء السامية فى «الرامايانا» نجد أن أحسن مايتصوره الانسان فى هذا المجال الطاعة والخضوع والوفاء والاخلاص والمحبة والتضحيات والعفو والتسامح والكرم وما الى ذلك . وأول ما نصادفه فى هذا الصدد أن الملك «دساراتا» يحب ابنه الأكبر راما حبا جما ، ولكنه يقع فى خديعة زوجته الصغيرة الجميلة فيقطع لها العهد على نفى «راما» من البلاد وتولية ابنها «بهارت» العرش . ونجد أنه وفاء لعهد والده مع زوجته يترك البلاد ويهيم على وجهه فى الغابات فيما يقرب من أربع عشرة سنة ، يعانى فيها الكثير من أنواع العذاب والتعب والارهاق. كل هذا حبا لوالده وطاعة وخضوعا لمشيئته .وأما «سيتا»زوجته فتطيع زوجها الى حد العبادةوتضرب الأمثلة الرائعة للزوجة المثالية بوفائها واخلاصها وتضحياتها له حتى فى أصعب اللحظات حينما يخطفها الملك « راون» ملك سيلان ويرغمها على الزواج منه .

وحينما يرافق راما أخوه «لشمن» الى الغابة تصور هذه المشاهد نماذج حية لحب الاخوةبعضهم لبعض ، واخلاصهم وتضحياتهم . وفى ثنايا هذه المصائب والآلام يضطر راما الى اعلان الحرب على راون ملك سيلان لانقاذ زوجته سيتا الوفية من قبضته الظالمة ، ولكن هذه الحرب هى الأخرى تعطى درسا أخلاقيا رائعا لأنه يتجنب فيها اراقة الدماء ونشر الدمار فى أول الأمر ، ويحاول بأقصى مافى وسعه من جهد لايجاد حل سلمى . وحينما تدور رحى الحرب بين الفئتين يحاول راما بأقصى مايستطيع أن لاتطغى عليه ثورة الانتقام أويسيطر عليه غضب أو قهر . فكان كل همه منحصرا فى انقاذ زوجته من الملك الطاغية الذى خطفها ووضعها تحت سيطرته ظلما وطغيانا . تبدو لنا هذه الحرب ومن خلال هذه القيم المعنوية الرائعة حربا مقدسة وليست حربا دامية تصورها ملحمة المهابهارتا .

قد ساد الجانب الروحى هذه الملحمة الى حد كبير لأنها تروى على لسان راهب يصف معاركها ويسرد أحداثها سردا دينيا مقدسا . ومن أجل هذه الصبغة الروحية والقيم المعنوية فيها يرى الباحث توماس (F.W. Thomas) أنها تمهد السبيل للبوذية التى نشأت بعد ظهور هذه الأسطورة فيما يقرب من ستة قرون لأنه طغى عليها كلها ذلك الجانب

(١) The critical survey of Indian philosophy by Dr. Chandradar p. 41

(٢) قد أوردنا التفصيل فى هذا العدد فى مقالتنا عن « جيتا » فى مجلة « تراث الانسانية » الصادرة فى أغسطس سنة ١٩٦٤ .

الروحى الذى يلمح فى الرامايانا بابدع مظـاهره وأدق معانيه (١) .

ومن مميزات الديانة الهندوكية الآرية بالنسبة الى الديانات السماوية السامية ــ مثل الاسـلام واليهودية والمسيحية ــ أنها لا تعتقد فى النبوة ولا يوجد فيها هذا التصور بتاتا ، بل تؤمن بنظرية الأوتار أو التجسد وهى ظهور الله سبحانه فى مظهر انسانى واتخاذ قالبه لهداية البشرية وارشادها الى فعل الخير فى هذا الكون . وقد نشأت هذه العقيدة لأول مرة فى التاريخ الهندوكى فى الرامايانا لأن « الفيدا » ــ أول كتاب فى الفكر الهندوكى ــ يؤمن بتعدد الآلهة التى تملك طاقات هائلة فى البر والبحر والشمس والنار والعواصف . وأما كتب « اليوبانيشاد » التى ظهرت فيما بعد فهى تعطى فكرة ناضجة عن الايمان بـ « براهمان» (Brahman) الذى لا مثيل له ولا نظير ولا شبيه اذ هو قوةهائلة تملك السموات والأرض وهذه العقيدة بدون شك تصور أقصى مرحـلة للفـكر الآرى حيث تزول جميع الآثار الوثنية ويتجلى التوحيد بأبدع مظاهره كالديانات السماوية السامية . ولكن «اليوبانيشاد» لا يمكن تحقق الاستفادة منه الا للمتعلمين والعلماء فقط ، ولذلك كانت الحاجة ماسـة الى عقيـدة تتوسط بين الوثنية وبين التوحيد ، تؤمن بها جماهير الشعب الهندوكى التى لم تبلغ مبلغا كبيرا فى مستواها الفكرى ، وهذه هى نظرية الأوتار التى ظهرت لأول مرة فى « الرامايانا » فى شخصية رامـا بطل الأسطورة . ثم تطورت تطورا كبيرا فى ملحمـة أخرى وهى المهابهارتا وذلك فى شخصية كرشـن بطل هذه الملحمة . وهذا هو السبب فى اعتقـاد جماهير الشعب الهندوكى من الطبقة المتوسـطة حتى الآن بأن هؤلاء الأبطال هم الآلهة الذين تقمصوا الانسان لهدايته فى هذا الكون فى حين يعتقـد الفلاسفة والعلماء من الهندوس أن هؤلاء شخصيات خالدة أسطورية فى التاريخ الهندوكى وليسوا من الآلهة أبدا (٢) .

بعد استعراضنا لجوانب عديدة من الرامايانا ينبغى لنا القاء نظرات خاطفة على الجوانب الأخرى مثل المجتمع الهندوكى والتقاليد والمراسيم فيـه وعلاقة الشعب بالملك وعلاقة الملك بالشعب وما الى ذلك .

ان هذه الملحمة تصور عصرها تصويرا دقيقا بحيث تتجلى أمامنا جميع مظاهرها من العقـائد والتقاليد والمراسيم والحياة السياسية والاجتماعية وتوحى الينا بأننـا نعاصر أبطـال هـذه الملحمة ونشاهدهم أمامنا كشخصيات فى نفس العصر والزمن والبيئة . وفى هذا العصر ــ كما تصور الرامايانا ــ كان الهنود متمسكين بالقيم الانسانية والمبادىء الروحية السامية والايمان بالأوتار . وكانوا بعيدين كل البعد عن المادية والأنانية والشهوة النفسية . ومن أهم ظواهر المجتمع فى هذا العصر أن تعـدد الزوجات كان شائعا . ومن أجل ذلك نرى الملك دساراتا قد تزوج بما يقرب من أربع زوجات .وهذه الظاهرة هى التى جلبت مشكلات وويلات عدة كنفى راما من بلده وموت دساراتا بسبب ذكريات ابنه الأكبر الذى اختار لنفسه الغربة والنفى من أجل أبيه .

يقول الدكتور «رادها كرشنان» ــ الفيلسوف الهندوكى الشهير ورئيس جمهورية الهند ــ : ان هذه الظاهرة فى الرامايانا سيئة للغاية لأنها تفتح المجال لتعدد الأزواج الذى لاخير فيه للانسـان أبدا . وقد امتلأت قصور دساراتا بالنساء والحريم ودعا الى الاكتفاء بزوجة واحدة (٣) .

(١) The Legacy of India p. 64

(٢) Hinduism p. 74

(٣) The Hindu view of life p. 86.

وحينما ننظر الى راما الذى تولى عرش أبيه بعد العودة من المنفى لا نجده مجرد ملك يملك الأرض ويأمر وينهى ، بل نجده بجانب ذلك محبا لشعبه عطوفا عليه ، كأنه أب ممتلىء قلبه بالحنان والشفقة والرحمة على بنيه . وكذلك أعرب الشعب عن شكره وتقديره واعجابه به الى حد بعيد حتى اتخذه بطلا أسطوريا والها من الآلهة .

وخلاف وصف الرامايانا لعصره يبدو لنا أنه عصر ذهبى عاش فيه شعبه ممتعا بما ساده من الطمأنينة والرفاهية والوئام . لأن هؤلاء الملوك سعوا وراء تحقيق رفاهية الشعب وتوفير أسباب الراحة له سواء أكان دساراتا أو راما ـ بطل الملحمة الذى اتخذه الشعب الها من الآلهة لشدة اعجابه به وتقديره له . كذلك يتجلى راما فى الملحمة كبطل وانسان يتصف بالأخلاق العالية ويحمل قوى معنوية عظيمة .

وبهذا تركت الرامايانا أثرا قويا فى نفوس الهندوس واحتلت مكانة الصدارة بين غيرها من الملاحم والأساطير . كما ساهمت مساهمة كبيرة فى رفع معنوية الشعب ومنحه قوة روحية دافقةوايقاظ شعور الحب والتضحية فى نفوس الهندوس لتقديس وطنهم ومعتقداتهم الدينية وشخصياتهم الأسطورية الخالدة الى حد العبودية .

ينبغى لنا الآن بعد تحليل الرامايانا تحليلادقيقا ووصفها وصفا صادقا أن نقارنها بما يشبهها من الملاحم والأساطير لدى الأمم المتقدمة فى العصور الساحقة . وقد حاول بعض الباحثين وعلى رأسهم (Romesh.C. Dutt) و (Lin Yutang) مقارنتها بملحمة يونانية شهيرة هى الأوديسه (Odyssey) ان الأوديسه هى احدى ملحمتى « هوميروس (١) » الخالدتين والأخرى هى « الالياذة » . وتتكون الأوديسة من أربعة وعشرين نشيدا . يروى لنا الشاعر فى الأناشيد الأولى (١ ـ ٤) محاولة « تليماخوس » البحث عن أبيه « أودوسيوس » الذى طال غيابه بعد سقوط «طروادة» . فلما وصل الابن الى بلاط « فيلاوس » عرف أن أباه قد وقع أسيرا فى كاليبسو. ثم يصف لنا الشاعر وصول بطل «الأودبسه» الى أهل « فاياكيا » حيث يرحب به الملك (٥ ـ ١٢) ثم يعود « أودسنيوس » ويعود ابنه الى «ايتاكا » ويتفقان على تدبير حيلة للانتقام من العشاق الذين ضايقوا « بنيلوبا » (Panelope) فى غيبة زوجها (١٣ ـ ٢١) فيقتلهم « أودسيوس » (٢٢) ثم يكشف عن شخصيته لزوجته ويسترد حكمه ويعيش آمنا فى وطنه (٢).

يقول الاستاذ (Lin Yutang) ان كلا من الرامايانا والأوديسة يتناول الغربة والنفى والتشريد ، لأن راما يهيم على وجهه فى الغابات تصاحبه زوجته المخلصة « سيتا » كما يخرج « تليماخوس » فى البحث عن أبيه الذى طال غيابه بعد سقوط طروادة . وثمة تشابه آخر بينهما وهو أن « سيتا » بطلة الأسطورة تقع فى اختبار شديد لوفائها واخلاصها لزوجها وتخرج بنجاح فى امتحانها ولا يمس شرفها وعفتها خلال هذه الملحمة بشىء . وكذلك فى « الأوديسه » تختبر « نيلوبا » زوجة الملك « أودوسيوس » بعد غيبة زوجها (٣) . وهى الأخرى تعود الى زوجها بعد أحداث طويلة . وهذه

(١) وهو أعظم شعراء اليونان الذى عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد فى آسيا الصغرى فى احدى المدن الآتية : « أثينا » و « أدنير » و « خيوس » و « كولوفون » . (أنظر : الموسوعة العربية الميسرة ص ١٩٢١) .

(٢) أنظر : « الموسوعة العربية الميسرة ص ٢٥٧ .

(٣) The Wisdom of India p. 122 — 123.

الملحمة اليونانية تحمل تلك القوى المعنوية . والأخلاق الانسانية التى تمتاز بها طبيعة الهند وتصورها ملحمة « الرامايانا » . ولذلك يقول الأستاذ (Romesh Dutt) : ان كلا من راما وسيتا يعطى أروع مثال للانسان الكامل الذى نبتغى وجوده فى حياتنا ، ويمثل المثل العليا التى نتلمسها ونريدها . وهما يحملان قيما انسانية رائعة اذ تتمثل فيهما البطولة والشجاعة والمصابرة والصمود أمام الصعوبات والمشكلات . وبهذا يضرب كل منهما مثلا رائعة للحياة الفضلى . وهذه الحياة الطيبة هى التى يتطلع اليها الهندوس وتطالب بها دياناتهم لتكون فى سلوكهم ومعاملاتهم، وتصور نفس هذه الحياة المثالية « الكوميديا الالهية » التى ألفها « دانتى » (Dante) فى

فى القرون الوسطى فى أروبا لاعطاء صورة أوربا الروحية . ان قيمنا الانسانية ربما لا تتلاءم مع القيم القديمة . قبل المسيح وبعده الى القرن الرابع عشر الميلادى الا أننا رغم ذلك نجد أنفسنا فى مسيس الحاجة اليها اذ لايمكن لنا التغافل عنها مهما تغيرت الظروف ، لأنها تمثل مبادىء سامية للانسان فى فترة من الفترات التاريخية القديمة(١)

ان هذه القيم الروحية فى «الرامايانا» لم تلعب دورها فى حياة الهندوس الى أمد بعيد بل سرعان ماطرأ عليها ــ كسنة هذا الكون ــ أنواع من التغيرات والتقلبات اذ ظهرت فلسفة جديدة تسمى بالسنسكريتية (Vasihnavism) وهى عبارة عن التقاء قدرة الله سبحانه مع الايمان بالله الذى وصل اليه الانسان . وقد نشأت هذه الفلسفة فى القرن الثانى قبل الميلاد وأذابت آثار الرامايانا والمهابهارتا الخالدة التى سيطرت على مجامع قلوب الناس ردحا طويلا من الزمن وذلك بفضل جهود كهنة هذه الفلسفة (٢) . وهذه الظاهرة هى التى جعلت الضعف والانحلال يدبان فى المبادىء التى نادت بها هذه الأساطير الخالدة .

ولكن الهندوس رغم كل التطورات التى طرأت على العقائد الهندوكية وفلسفتها على مرور الزمن يعربون عن تقديرهم وشكرهم للرامايانا واعجابهم بها الى حد كبير ، لأنها تتحلى بأغلى آيات القيم والمبادىء . وهذه الملاحم لاتزال تقرأ فى المعابد والأماكن المقدسة وفى البيوت ليلا ونهارا للموعظة والعبرة والدرس .

ومن أهم الظواهر فى الرامايانا والتى جذبت اليها نفوس الهندوس وتملكت وجدانهم وعواطفهم المثل العليا التى تضربها سيتا فى هذه الملحمة كامرأة هندوكية مثالية . ولذلك لاتزال تعلق النساء الهندوكيات آمالهن العريضة على سيتا ويستعدن ذكرياتها وبطولتها وتضحياتها وحبها المتفانى لزوجها واخلاصها له ووفاءها ليحاكينها فى حياتهن الخاصة ويتمثلن فى تقديس وعبادة .

قد استوحى عشرات من المفكرين الهندوس وزعمائهم الدينيين فى شتى مراحل التاريخ الهندوكى من الرامايانا ، ولا يزالون يستمدون منها أصولا ونماذج لحياتهم المعاصرة ويستلهمون منها الدروس والعبر والموعظة فى حياتهم الروحية وسلوكهم الشخصى . فقد دعت شخصية راما الأسطورية المثالية الانسان الكامل للهندوس وهو الزعيم الروحى «رامانوجا» (Ramanuja) أن يرفع راية التوحيد فى المنطقة الجنوبية فى القرن الثانى عشر الميلادى . وكذلك دعا «راماناندا» (Ramananda) ــ المفكر الهندوكى الشهير فى القرن الثالث عشر الميلادى ــ شعب شمال الهند

(١) The Ramayana of the Mahabrarata p. 159.

(٢) The Legacy of India p. 369 and A Critical Survey of Indian Philosophy p. 335.

الى التوحيد . أما الزعيم الروحي الكبير « كبير داس» (Kabirdas) الذي عاش في نفس القرن تقريبا فقد دعا الى الوحدة بين الهندوس والمسلمين قائلا : ان اله محمد « صلى الله عليه وسلم» هو نفس الاله الذي يتمثل في شخصية راما وعلى ابن أبي طالب (١) . وهذه كلها اشارات صوفية توحي الينا بأن الله قد تمثل في شخصية راما كما تعتقد بعض الطوائف من الشيعة في أن الله برز في شخصية على بن أبي طالب ، ولاتزال تلتمس من الرامايانا معظم الطوائف الهندوكية ــ ومن أبرزها «وشنو» (Vishnu) و « سيوا» (Siva) اللتان تشكلان أغلبية ساحقة في الهند ــ المعونة الروحية (٢) .

وبعد هذه الجولات الطويلة العريضة والنزهة المتعة في رياض هذه الملحمة الشهيرة يحسن بنا الآن أن نقف وقفة غير يسيرة أمام ترجمتها الى شتى اللغات ، وتعريفها للأمم الأخرى واعجاب الناس بها في عدد من أقطار هذه الدنيا، وزيادة العناية بها في الأوساط الأدبية العالمية .

ولعل أقدم ترجمة للرامايانا قد ظهرت مبكرة في لغة «تامل» أشهر لغات جنوب الهند في سنة ١١٠٠م . ثم توالت لها ترجمات كثيرة الى اللغات الهندية الرسمية والشعبية . أما الرسمية فقد ترجمها الشيخ عبد القادر البديواني الى اللغة الفارسية ــ وهي اللغة الرسمية الهندية في العصور الاسلامية كلها ــ وذلك في عصر الملك المغولي الشهير « جلال الدين أكبر » الذي ازدهرت فيه العلوم والفنون وشهد أعظم نشاط لحركة الترجمة في التاريخ الهندي أجمع . لقد بدأ الشيخ عبد القادر البدايوني ترجمته الى اللغة الفارسية في سنة ٩٩٥ هـ ــ ١٥٨٦م وأنهاها في سنة ٩٩٩ هـ ــ ١٥٩٠ م . كانت هذه الترجمة تتكون من عشرين جزءا ، وأهداها المترجم الى الملك جلال الدين أكبر فسر به الملك سرورا بالغا ، لأنه كان يوجه عناية كبرى الى الحضارة الهندوكية وفلسفتها بدون سابق مثال له في تاريخ الملوك المسلمين الهنود أجمع . وتوجد نسخ خطية كثيرة من هذا الكتاب في معظم مكتبات الهند حتى وقتنا هذا .(٤)

أما في العصور الأخيرة فقد ترجمها الى اللغة البنغالية ــ لغة الشاعر طاغور ــ الأستاذ (Kritibas) والى اللغة الهندية الأستاذ (Tulasi Das) والى لغة « مارهاتا ــ لغة ولاية بمباي ــ الأستاذ (Sridhar) أما ترجمة «تولاسيداس» الى اللغة الهندية فتعتبر ترجمة قيمة ودراسة علمية دقيقة. ومن أجل ذلك ترجمت دراسته الى اللغة الانجليزية واللغات الأخرى .

كان هذا المترجم معجبا جدا بالرامايانا ومبادئها حتى انه كان يفتخر حين يسمى ويلقب بالرجعي اذ لاحت عليه الآثار الرجعية بسبب اعجابه بالرامايانا بكل جوارحه ، ولايمانه القوي بما ورد فيها من التقاليد والمبادىء والتعاليم (٥) .

أما العناية بها في العصر الحديث في بلاد أوربا فقد وجدت في «ايطاليا» أول ما وجدت حيث ترجمها الى اللغة الايطالية الأستاذ (Gorresio) في ١٨٤٣ ــ ١٨٦٧ م على نفقة ورعاية « شارل البرت » ــ ملك ساردينا . ثم ترجمها الى الفرنسية الأستاذ (M. Hippolyte) وكذلك ترجمت الى اللغة الانجليزية في مدينة كلكتا بالهند أيام احتلال

---

(١) The Ramayana of the Mahabharata p. 162 — 163.

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) نفس المصدر ص ١٦٢ .

(٤) أنظر : مبرم تميورية (باللغة الأردية) للأستاذ السيد صباح الدين عبد الرحمن ص ٦٣ .

(٥) The Legacy of India p. 380.

الانجليز فى بداية القرن العشرين . وقد أعيد طبع هذه الترجمة فى مدينة «بمباى» بمقدمة قيمـــة للأستاذ (Ramanuju) ثم طبعت هذه النســخة بعناية من الأستاذ (Hemchandra Vidyaranta) فى مدينة كلكتا فى ١٨٨٥ م . ثم وجه الأســتاذ (Ralph Griffith) عنايته الى ترجمة الأجزاء الستة الأولى من الرامايانا الى الشعر الانجليزى ،والجزء السابع وهو الملحق الى النثر الانجليزى (١) . وبهذا وصلت ملحمة الرامايانا الى أوربا واحتلت مـكانة مرموقة فى آداب أوربا حتى أعجب بها أدباء أوربا ورحبوابها اعجابا وتقديرا وألموا بها شرحا وتفسيرا تلخيص « الرامايانا »

بعــد أن قمنا بدراسة علمية لملحمة «الرامايانا» وأبدينا مزاياها وخصائصها البارزة ، و استعرضنا مكانتها العلمية والأدبية لدى الأدباء والكتاب فى العالم ينبغى لنا الآن أن نلخصـــها لتكون لها فى أذهاننا صورة واضحة . وسنحاول هنا أن نلخص ما أورده الأســـتاذ (Romesh Dutt) فى كتابه (The Ramayana of the Mahabharato) لأنه أشهر باحث فى أساطير الهند وآدابها . فقــد بذل مجهودا كبيرا فى اعداد هذا الكتاب .

يقول فى خطته فى الكتاب : انه اختار منهذه الملحمة الكبيرة أهم الأحداث والوقائع والمشاهد التى لاغنى عنها ، والتى تعرض الكتاب عرضــا صحيحا دقيقا . من بين ٢٤٠٠٠ بيت من أصل الملحمة اختار ٢٠٠٠ بيت فقط رعاية للسهولة والسرعــة واقتصادا للوقت . ورتبها فى ٨٤ فصلا صـــغيرا فى أسلوب سهل أنيق وأردف كل فصل بملحوظات هامة دقيقة (٢) .

(١) The Ramayana of the Mahabhrata p. 161.

(٢) The Ramayana of the Mahabharate p. 161.

تبدأ الملحمة بوصف مدينة «أيودهيا»ــعاصمة دساراتا ــ ووصف جمالها وبهائها ورفاهية أهلهــا وايمان شعبها بالآلهة وأداء طقوسهم الدينية لهــا . كان الملك موضع الاعجاب والتقدير فى البــلاد اذ كان يجلس بين يديه ويركع أمامه القســاوسة والكهان . كان الملك نموذجا حيا للأخلاق العــالية والمبادىء السامية . وكان الشعب فى هذا العصر يمارس لزراعةباقتناء البقر والغنى والغلةوالذهب . كانت الأخوة والمحبة والمواساة والمساعدة من أهم مميزات هذا الشعب . أما الخداع والمكر والخيانة والسرعة والأخلاق الرذيلة فلم تعرف فى هـــذه البلاد مطلقا . وكذلك لم يشهد هذا العصر التفرقة ولا الفوارق الطبقية بل كانت جميع الطـــوائف والجماعات تؤدى واجباتها أداءا كاملا . وكانتهذه البلاد بعيدة كل البعد عن المعارك واستخـــدام السيوف والرماح ، بل كانت ترفع دائما شــعارات السلم والأمن والطمأنينة . ومع ذلك فقد كــانت تحرسها حراسة كاملةمن كل جانب الأفيال القوية التى كانت تجلب من غابات الهملايا . كانتأيودهيا عاصمة جميلة عامرة مزدنة بالعمارات الفخمـــة والهياكل العظيمة ومحفوفة بالبساتين والروضات.

وطبقا للتقاليد الهندوكية عند اختيار الــزوج الأميرات أعلن «جانانك» ــ ملك ڤيـــديحاس ــ مسابقة فى الرماية لاختيار أحسن رام كزوج لابنته «سيتا» . فيتدفق آلاف الأمراء من أطراف الهند وجوانبها على بلاط ملك ڤيديحاس التى تقع فى ولاية بهـــار . وكان من بينهم «راما» ابن الملك «دساراتا» . وقد عرض الملك «جانانك» علىهؤلاء الأمراء الوافدين أداء مهمة شاقة لاختبارهم ، وهى حمل وكسر أقدام وأثقل قوس يملكه من العصور الغابرة . وقد فشل فى تنفيذ هذه المهمـــة كل من حضر هذه المسابقة . وتقدم راما بدوره ، وما أن فتح وشد وتر القوس حتى تحطم القوس فى طرفة

عين وارتفع منه صوت هائل مدو بلغ عنان السماء ، وصم آذان الناس ، فأغمى على الحاضرين أجمعين ، وتردد صداه فى الجبال والوديان والغابات المحيطة بالمدينة حتى سمعه الناس فى البلدان المجاورة . ثم ساد الهدوء وأفاق الناس من غشيتهم . فقام الملك يعانق الأمير «راما» وأعرب عن رغبته المخلصة فى تزويجه من ابنته الجميلة الحبيبة لديه تقديرا لشجاعته وبطولته .

وقد وصل هذا النبأ الى الملك «دساراتا» فى «أيودهيا» ، وكان جالسا ساعتئذ على أريكته وبين يديه وزراؤه وقساوسته وندماؤه . فهنأه الجميع على بطولة راما وشهرته الفائقة فى البلاد النائية حتى طار الملك فرحة وسرورا ، وغادر بلاده لحضور حفل زواج راما الى «فيديحا» . فاستقباله الملك جاناك استقبالا منقطع النظير ، وأنزله منزلة السمع والبصر ، وأدى بمناسبة مقدمة جميع المراسيم الدينية . ثم أعد عدة ضخمة لحفلة الزفاف . فقد غطى السرادق بالأكاليل والباقات من الزهور والروائح والعطور وقرئت الأناشيد المقدسة من «الفيدا» . ثم جلس العريس والعروس بين يدى الكهنة يلتف حولهما آلاف مؤلفة من الناس ومن بينهم الملوك والأمراء والوزراء والندماء ، حتى تم الزواج بمهرجان عظيم . ثم عاد راما مع عروسه سيتا وأهله وذويه الى أيودهيا .

كان راما يعيش حياة طيبة مع زوجته ويؤدى جميع واجباته الدينية ، لأنه كان راسخ الايمان بالآلهة . اذ كان يعبدهم ويقدسهم حتى رضى عنه الرهبان والكهنة واحترموه احتراما بالغا .

ولما بلغ دساراتا من عمره مبلغا كبيرا وضعفت قواه عزم على تتويج ابنه الأكبر راما ليتولى عرشه . وعقد لهذا الأمر اجتماعا كبيرا حضره جميع أبناء الشعب وأطلعهم على قراره بتولية ابنه راما العرش . فوافق الجميع على هذا القرار ورضوا به اذ أنهم كانوا يحبون راما حبا جما ويقدسونه تقديسا بالغا . ثم أعدت العدة لتتويج راما فزينت البلاد وزخرفت القصور واحتشدت الجماهير . فقام راما المتدين التقى يصلى الى الهه « ناراين » الذى خلق جميع المخلوقات ، وقدم له الهدايا ووضعها ، على النار التى أوقدت لهذا الغرض . ثم أخذ مابقى من النار وأكله بركة وثوابا واعتكف الليلة كلها ساهرا على الحشائش الخضراء التى فرشت بها أرض المعبد يعبد « ناراين » ويطلب منه العون والتوفيق . وكذلك فعلت زوجته « سيتا » العفيفة الطاهرة اذ سهرت الليلة وظلت صائمة حتى طلعت الشمس وخرج الآلاف لحضور احتفال التتويج .

وفى غمرة هذه الفرحة والسرور ليوم التتويج . حدثت حادثة غريبة غيرت مجرى الحياة لكل من فى القصر ، وحطمت الآمال والأمانى ، وحولت الحياة الجميلة الى ويلات ونكبات ومآسى . وهذه المآسى هى التى خلقت أسطورة الرامايانا الخالدة التى تعتبر آية الأدب والفن بين الآداب العالمية . كانت لدساراتا الملك زوجة رابعة تسمى «كايكيا» ملكة « كايكياس » التى أنجبت له ولدا شجاعا سمى « بهارت » فكانت هذه الملكة تحب ابنها وتنفرد بحبه دون الآخرين من أولاد «دساراتا» . وتحسد راما وتحقد عليه . فلما رأت الزينة والزخارف والبهجة والسرور فى العاصمة كلها بمناسبة الاحتفال بتتويج راما راودت نفسها على أن تحطمها وتحولها الى حطام وخرائب لبناء مجد ابنها «بهارت» وتتويجه بخلف أباه دساراتا على العرش . لأنه لا أمل هناك فى اعتلاء ابنها بهارت العرش اذا تم تتويج راما ؛ لأنه كبير أبناء دساراتا ، والذى يستحق العرش ومن يخلفه ابنه أو «لشمن» أخوه من أبيه فهو الآخر أقرب

الناس الى راما وسـوف ينال منه مالا ينـــاله بهـارت .

وقبيل افتتاح الحفلة يبحث الملك عن زوجتـه الرابعة «كايكيا» فلم يجدها فى حـــرم القصر . فاندهش الملك وزادت حيرته واشتد خوفه لأنه كان يحبها حبا كبيرا ووهب لها قلبه ووجدانه وشعوره وعواطفه وذلك لجمالها الساحر وسنها الصغيرة . وبعد أن طال البحث عنها إذا هو يراها ملقاة على أرض غليظة تنفجر بكاء وتنهمر الدموع من عينيها. فدهش الملك لهذا المنظر الأليم وانحنى فوقهـــا وحملهـــا على ذراعيه ومسح الدموع من عينيهـا وسألها عن سر بكائها وألمها وأحضر لها جميـــع الأطباء والكهنة لمعالجتها . ولكنها مع ذلك تزداد بكاء وألما حتى صار الملك فى غاية الحيرة والخوف ومن شدة العطف عليها حلف على أن يحقق لهاجميع طلباتها مهما كانت شاقة وصعبة على أن تفتح فمهـا وتحكى حكايتها . وحينئذ ابتسمت الملكة وقالت : انك عاهدتنى أمام الآلهة على انجاز كل طلباتى . وطلبى منك الآن هو أن توقف تتويج راما وتنفيه الى الغابات لمدة أربع عشرة ســـنة وتولى ابنى «بهارت» على العرش . وقع هذا الكلام على قلب دساراتا كصاعقة وأظلمت الدنيا فى عينيه ، فلم يكد يبين له شىء ، وفقد وعيه وشعوره . ثم استعادهما بعد مدة ، وطلب منها أن تسحب هذا الطلب ولكنها أبت وأصرت على تحقيق ماوعدها به .

وقد انتهى موعد الاحتفال وارتفعت الشـمس ثم ساد الظلام . وفى الصباح الباكر لليوم الثـانى حضر «راما» الى أبيه وزوجته «كايكيا» ، ومس رجليهما أدبا واحتراما ثم سأل أباه عن الوجـــوم السائد على وجهه ، وسأل «كايكيا» عن سكوتها، فأجابت أن والدك قطع على نفسه وعدا يجبعليك الوفاء به ، وسأخبرك بهذا الأمر اذا وعدتنى عـلى انجازه خضوعا لوالدك وطاعة له كابن مخلص .. فتعهد لها راما بتحقيق ما وعدها أبوه به . فتقـول حينئذ : يجب عليك الآن أن تترك البلاد وتعيشفى الغابات لمدة أربع عشرة سنة وسيتولى أخوك بهارت الحكم بدلا منك .

يستعد راما للسفر وفاء لوعد أبيه . وهناتتجلى المواقف الانسانية الرائعة وهى أن راما بعد قراره واستعداده للخروج من البلاد وللعيش فىالغابات يذهب الى زوجته سيتا ويستأذنها وينصحها بالبقاء فى القصر مطيعة وخاضعة لكل من فيه من أبيـــه وأمه وأخيه بهارت الذى سيتولى العرش بعـــده وينصحها بخدمة هؤلاء وتوفير وسائل الراحة لهم . ولكنها تأبى الا أن تخرج معه وترافقه أينما ذهب وتشاركه السراء والضراء لأن أبواها علماها هـذا الأمر منذ صغر سنها ، وليست حياتها الا جـزءا من حياة زوجها ، وان سعادتها تكمن فى سـعادة زوجها وشقاءها فى شقائه .

ثم يذهب الى أخيـــه « لشمن » ابن ملكة «سوميتر» من والده ليستودعه فاذا هو الآخر مثل «سيتا» يلح الحاحا شديدا على مرافقته ومشاركته فى محنته والمحافظة على سيتا من الكرب والغـم والمغامرة بنفسه من أجلها بسيفه ورمحه . ومعذلك يحاول «راما» اقناعه بالبقاء لخدمة أبيه وأمه وأهله كلهم ، ولكن «لشمن» لايرضى بذلك ولا يرى له عيشا فى «أيودهيا» بعد مفارقة أخيه الأكبرفيصحبه هو الآخر فى مغامراته.

ثم يقف الجميع بين يدى ملكة « كوساليا » والدة راما التى تنفجر بكاء من حديثهم ، ثم تتقدم باكية الى «سيتا» وتقبل جبينها وتقول لها : انك تتركينى لترافقين زوجك فى محنته . انك سـعيدة بهذا القرار ، لأن الزوجة لها أن تضحى من أجـل زوجها بكل غال وثمين وتصاحبه فى كل حين وآن،

مهما واجهت من الصعوبات ، ومهما كانت التضحيات لكى توفر له وسائل الراحة وتزيل عنه الغم والكرب ثم تقترب من ابنها راما وتمس جبينه بيديها وتودعه وتدعو له لتوفقه الآلهة فى سفره ويسددوا له خطاه ويباركوه ، وينقذوه من الآلام والأخطار .

فلما حل موعد الرحيل جاءت العربة لتركب فيها «سيتا» و «راما» و «لشمن» بعد أن جهزوا جهازا كبيرا لهذا السفر بما يحتاجون من الأسلحة والأغذية والملابس وما الى ذلك . وحضر آلاف من أبناء الشعب الذين كانوا يكنون لراما احتراما بالغا وحبا فائقا ليودعوه . كان المنظر قبل مغادرة القصر مثيرا للغاية . فقد تعالت الصرخات من كل جانب وانحدرت الدموع من عيون الناس . وكان كل واحد يقف مكانه فى خشوع وبكاء . ثم حضرت الملكات باكيات صارخات وجاء الملك دساراتا وهو ينفجر بكاء . وما ان وقعت عيناه على راما حتى وقع مغشيا عليه . فأمر راما سائق العربة فى أن يسرع بالرحيل لأنه لايملك القدرة على رؤية هذا المشهد المثير المروع ، ولايقدرعلى مشاهدة والده ولا أمه ولاشعبه . وهم على ذلك الوضع فسارت العربة بسرعة تاركة وراءها حياة القصور والجنات والأنهار الى غابات لا راحة فيها ولا طمأنينة ولا سكون .. وبعد سفر مرهق طويل ولمدة ستة أيام وسط الغابات ألقت هذه القافلة عصا الترحال فى موضع من الغابة وتحت ظلال شجرة باحثة عن مسكن مريح لمدة يسيرة من الزمن تسترجع فيه أنفاسها وتستجمع قواها ثم تواصل رحلتها .

صور الشاعر هذه الرحلة الشاقة تصويرا صادقا بحيث تتمثل أمامنا جميع الصور للغابات والأشجار والطيور والوحوش وكأننا نشاهدها الآن ولا نجد ثمة فرقا بينها رغم مرور آلاف السنين على هذه الصور الممتعة ، لأن طبيعة البلاد الفتانة وجمالها الساحر لم تطرأ عليهما تغيير شامل . فقد وصلوا فى اليوم السادس الى جبل صغير يسمى « شتراكوتا » بين نهرى « الجنجا » و « الجمنا » بقرب مدينة «اله آباد» والتى اتخذها الهندوس فيما بعد مكانا مقدسا لهم . ويقال : ان هؤلاء قد التقوا هناك بشاعر شهير هو « المقدس والميكى» الذى ألف ملحمة « الرامايانا » كما أسبقنا القول (١) .

وهناك فى أيودهيا لم ينس « ودساراتا » «راما» لحظة واحدة بل ظل يبكى عليه ويتحرق شوقا لرؤياه ويذكره . وكلما مضت الأيام كانت ذكرى راما تزداد شدة وعنفا حتى مات دساراتا بهذه الذكريات الحزينة ومن جراء ذلك .

خلال هذه الأحداث كلها لم يعرف « بهارت » الذى أرادت له أمه تولية العرش بدلا من أخيه «راما» شيئا مما حدث ، لأنه كان فى مهمة عسكرية فى بلاد نائية . فلما عاد الى أيودهيا وجد فيها أحداثا وتطورات لم يتصورها . فقد توفى والده «دساراتا» ونفى أخوه الى الغابات . فدهش بما حدث ، ورفض الجلوس على العرش كما أرادت له أمه وخرج للبحث عن أخيه فى الغابات . وبعد أيام حافلة بالتعب والارهاق وسط الغابات لاح له عن كثب ديرلراهب من الرهبان شيد بالأوراق والأغصان على صورة كوخ صغير . فظن أن الراهب الذى فيه سوف يدله على أخويه وسيتا . وكان هذا الدير فى الحقيقة بيت سيتا الذى كان يحرسه «لشمن» بسيفه وقوسه حتى لا يصيبها مكروه، وكان أخوه راما يخرج ويجيء . فدخل بهارت الدير فوجده بيت راما فانكب على قدمى أخيه يقبلهما فى حب وحنان لاحد لهما ، وطلب منه العفو وألح عليه فى العودة الى البلاد وتولية العرش .فقام

(١) أنظر : The Wisdom of India p. 159.

راما يعانقه ويقبله ويسأله فى لهفة عن أحوال أبيه وأمه وأم لشمن وأم بهارت وشعب أيودهيا وكبار رجال السياسة والوزراء . فأخبره بهـــارت بأن دساراتا قد مات متأثرا بذكراه والبكاء عليه. وأما أمه « كايكيا » فهى أيضا تلوم نفسها على ما فعلت وتقضى أيامها فى بكاء وقلق وندم لأن أنانيتها هى التى قضت على حياة دساراتا وجلبت المأساةالكبرى للبلاد كلها . ثم أخبره أن الشعب هو الآخر يذكره ولا ينساه ، كما أن رجال الســـياسة يذكـــرونه باستمرار وينتظرون قدومه فنظر اليه . فاذا أمـــه الملكة « كوساليا » التى رافقته للبحث عن رامـــا قامت بين يديه . وتحركت عواطفها حينما رأته فى ملابس خشنة مصنوعة من الأوراق والأغصـــان كما رأت كذلك فى نفس هذا المنظر « لشمن » أخاه الوفى وسيتا زوجته المخلصة . ولكن راما أبى العودة الى أيودهيا قبل مضى أربع عشرة كما قطع والده على نفسه الوعد لزوجته « كايكيا » وذلك ايفـاء له ، لأنه تعهد بذلك أمام الآلهة ، وهـــو الآن فى السماء بين يديها . وحينئـــذ يقـــول «جابالى» الفيلسوف الهنـــدى آنذاك الذى كان يشك فى الآلهة وفى الآخرة : « كان عليه أن لايترك عرشه بسبب الايمان بالأوهام ، لأنه لايعرف على وجـــه اليقين أن والده يعيش الآن بين الآلهة فى الســـماء أم لا ؟ ولكن راما يعلن ايمانه بالآلهـــة وبالآخرة بحماس واندفاع منقطعى النظير ويصر على توفيـــة ماقطع والده على نفسه من التعاهد . ثم ينصـــح راما أخاه «بهارت» بنصائح غالية لرعاية أهـــله وشعبه وتوفير وســـائل الراحة والرفاهية للنـــاس وبذل كل الجهود فى سبيل سعادتهم وطمأنينتهم ،ثم يودع بهارت ومن معه كلا من « رامـــا ولشـــمن وسيتا » ليستكملوا مدتهم فى الغابات بين البـــكاء والدموع ، ويحمل بهارت معه ــ عند عـــودته ــ أحذية راما ليضعها على العرش ويحكم أيودهيـــا بالنيابة عنه .

لقد بدأت الآن مرحلة جديدة فى حيـــاة راما. لأنه قرر مغادرة المناطق الشـــمالية من الغـــابات حيث يتردد عليه أهله ، وشد الرحال الى الجنوب. فألقى عصا الترحال فى غابة مظلمة بقرب نهـــر « جود أوارى » الذى يقع الآن على نحو مائة ميل تقريبا من مدينة بمباى . وقد رحب بهم هنـــاك راهب كبير وهو « اجاستيا » وأعد لهم مســـكنا بقرب مسكنه . ويذكر أن هذا أول وفد للآريين فى جنوب الهند ، اذ أن هذه المنطقـــة كانت غاصـــة بالدراوديين ــ السكان الأصليين ــ ولم يتعـــرف هؤلاء حتى الآن على الديانة الآرية وتقـــاليدها . ولعل القدر قد شاء أن تكون محنة راما ورفقـــائه أول نافذة لتسرب الفـــكر الآرى الى جنـــوب الهنـــد .

وفى يوم ما من الأيام صادف راما فى هـــذه الغابة المخيفة امرأة جميلة رآها واقفة تنظر اليه فى دهشة وتعجب من جماله وشبابه . ثم تتيم فى حبـــه من النظرة الأولى،فتتقدم اليه ثم تسأله عن اسمه وبلده . فيحكى لها قصته . وهى بدورها تحـــكى له قصتها وتقول : انها تسمى « سرابا ــ نكها » وهى ملكة البلاد ، وأخوها «راون» ملك سيلان وهى انسانة غريبة تستطيع أن تتخذ عدة أشكال. ثم تعرب عن اعجابها الشديد به وحبها امتفـــانى له وتعرض عليه الزواج ليعيش معها حياة ســـعيدة فى وسط الغابات ثم تذم أمامه « سيتا » زوجتـــه المخلصة وتطعنها فى جمالها وكذلك تطعن لشـــمن وتقول : انه ولد صغير لايفهم ولايعقل . ولايتحمل راما هذه التهم ولا تلك الطعنات الموجهة فى زوجته وأخيه فيقول لها بكل هدوء وبكل صراحة : انـــه متزوج من سيتا ، وهى زوجة مخلصة الى أقصى حد

يمكن ، ولذلك لايمكن له الزواج منها . أما لشمن فهو أعزب وفى ريعان شبابه وأنه فى مسيس الحاجة الى الزواج والى اتخاذ رفيقة لحياته . وهو مستعد لأن يزوجها منه .فتعرب عن موافقتها على ذلك ولكن «لشمن» يحتقرها ويقول لها : انى خادم راما فهل ترضى بالزواج من خادم؟ فتثورغضبامن هذا الكلام متألمة وتهدد بالانتقام من الجميع بسبب هذه الاهانة التى وجهت اليها .

وذات يوم رأت «سيتا» غزالا جميل المنظر يتحلى بأنواع الحلى، ويتزين بأفخر أنواع الزينة مارا أمام بيتها . فنادت لشمن وأمرته باصطياد هذا الغزال والاتيان به اليها . ولكن لشمن منعها من اصطياد مثل هذا الحيوان،لأنه فيه خطرا عليها اذ لعله انسان اتخذ هذا الشكل لخداعها . فلم ترض سيتا بهذا العذر وطلبت من راما مطاردة الغزال واصطيادها . فأسرع راما وراء الغزال فاذا بسيتا تسمع صرخات راما . فتذهب الى لشمن وتلح عليه فى الذهاب لانقاذ راما ولكنه يرفض مغادرتها ،لأنه على يقين من أن راما لن يمسه أذى اذ هو بطل شجاع لايقدر أحد على ايذائه ، وأن راما قد أمره بحراستها والبقاء بجانبها ، وهذا الغزال وتلك الصرخات ماهى الا أشباح للأرواح الخبيثة التى تهوم على وجهها لتنشر الشقاء على الأبرياء فى الغابة وهنا تمتلىء «سيتا» غضبا على لشمن فتقول له : انك تعاملنى بالمكر والخداع وتراودك نفسك فى أن يموت راما وتتخذنى زوجة لك . وهذا مستحيل . انى زوجة مخلصة له ، وحينئذ ينفجر لشمن بكاء ويقول لها : انه لايزال يعتبرها الهة كما يعتبر أخاه الها كذلك ، ومن أعز أمانيه خدمتهما وتوفير وسائل الراحة لهما ، ولكنها تشك فى كلامه فيستعد للذهاب لنجدة راما اذا كان هو فعلا يستنجد به ، فيودعها ويتركها فى حفظ الآلهة ويخرج للبحث عن راما .

مد الليل ظلاله على الغابة .فانتهز «راون» ملك سيلان هذه الفرصة للانتقام من أجل أخته التى أهانها «لشمن» ، ورفض الزواج منها . فجاء اليها على صورة راهب . ولما رآها دهش لجمالها ووقع فى حبها من النظرة الأولى فمدحها وسألها عن اسمها ونسبها . فظنته سيتا راهبامقدسا لايكتم النوايا الخبيثة . فحكت له قصتها وغربتها فى هذه الغابة ثم سألته عن بلده ومدة اقامته فى هذه الغابةوعبادته كراهب مقدس . فقال لها : انه ليس براهب بل هو ملك سيلان وملك الغابات . ثم أعرب عن حبه الشديد لها وعرض عليها الزواج منه على أن تملك سيلان وتحكمها كما تشاء . فلما سمعت سيتا هذا الكلام أمطرته بوابل من الغضب واجابته معتزة بنفسها وناظرة اليه باحتقار ، انى زوجة مخلصة لراما البطل الشجاع ، والانسان المثالى ، والرجل المقدس كالآلهة : ثم حذرته من الاقتراب منها والمساس بها ولكنه أمسكها وحملها على عاتقه ثم أركبها عربته وفربهاالى بلاده، وكانت«سيتا»تصرخ وتولول طوال الطريق وتنادى على راما بين اللحظة والأخرى لانقاذها ولكن عبثا كانت تناديه وتصرخ عليه ، لأنها اخترقت مجال هذه الغابة واقتربت من جزيرة سيلان عابرة البحار المحيطة بها .

بذل كل من راما ولشمن المستحيل فى البحث عن « سيتا » فى الغابات والأشجار والأنهار حتى وصلاأخيرا الى جبال «ماليا»حيث لقيا «سوجريفا» ملك بلاد «ڤاناس» . وكان يصحبه قائده وساعده الأيمن « حانومان » (Hanuman) والذى استولى أخوه على عرشه وعلى زوجته ، وطرده من بلاده ليهيم على وجهه فى الغابات والجبال .

استقبل « سوجريڤا » كلا من راما ولشمن استقبالا حارا وتحركت عواطفه . حينما سمع قصة راما كلها من أول نفيه من أيودهيا الى خطف راون

لزوجته المخلصة . ثم اتفق كلاهما على مساعدة الآخر . لقد أصر «سوجريڤا» على مساعدة راما واعادة سيتا اليه كما أقسم راما على مساعدة سوجريفا واعادة عرشه وزوجته اليه .

وهنا صور الشاعر الحوادث التى وقعت بصور غريبة لانكاد نصدقها فى ضوء الحقائق التاريخية فقد عرض «حانومان» فى صورة قرد وكل من فى بلاده فى سيلان يزاولون السحر والشعوذة .وكذلك لانكاد نصدق عرضه للتقاليد والمراسم والآلهة فى منطقة الجنوب على نفس الصورة الآرية ، لأن هذه المنطقة ظلت بعيدة كل البعد عن أفكار الآريين ونزعاتهم وتقاليدهم ومن المؤسف أن الشاعر قد فشل فى عرضه شئون هذه المنطقة عرضا صحيحا دقيقا أمينا من ناحية الأفكار والتقاليد ولعله لحماسته فى نزعته الآرية حاول اسباغها بالصبغة الآرية المحضة والبعد عن الحقائق التاريخية .

وطبقا لهذا التعاهد بينهما ذهب « سوجريڤا » الى أخيه وحاربه وساعده راما فى هذه المهمة حتى كلل سعى سوجريفا بالنجاح وهزم أخاه واستعاد عرشه .

ثم يعد سوجريڤا العدة مع راما ولشمن لشن الحرب على «راون » لانقاذ سيتا من قبضته الظالمه . فيرسل عشرة آلاف من رجاله الأبطال الى هذه المهمة ليبحثوا أولا عن مكان راون فى الغابات والجبال والأوغال شرقا وغربا وشمالا وجنوبا حتى يطلعوا على مكامنه وأسراره للزحف اليه بعدئذ .

فيتوغل هؤلاء الأبطال فى الغابات والجبال والأدغال الى جزيرة سيلان حيث يرى «حانومان» — قائد الجيش — « سيتا » حزينة كئيبة باكية تحت حراسة شديدة . وهنا وقف « حانومان » وقص للناس قصة راما كلها بصوت عال مدو حتى استولت على الناس الدهشة والحيرة لهذه الجرأة ساعة الاستماع الى هذه القصة وحتى أن سيتا التى سمعتها دهشت هى الأخرى بها ولم تصدق أذناها كل ما سمعت من «حانومان» وظنت أنها تحلم أو تتخيل ولكن حانومان دنا منها وأعطاها علامة تؤكد لها أنها من زوجها راما ، وأن راما فى طريقه الى الزحف نحو سيلان لانقاذها . وحينئذ تطير سيتا فرحا وسرورا ويشرق وجهها نورا وضياء ، وتبتسم شفتاها كما تتفتح البراعم ويعود لهما لونهما الباهر فيعود اليها جمالها واشراقها ،ثم تقبل على حانومان وتسأله عن راما وصحته وعيشه بعد خطفها ، ثم عن لشمن وعن أيودهيا ، فيخبرها بما عنده من أخبار ويطمنها على أن جيشا جرارا فى طريقه الى محاربة «راون» فى عقر داره ، ثم يستأذنها فى العودة الى راما بعد أن يأخذ منها تذكارا يؤكد سلامتها وشوقها ولهفتها الى راما .

وقد علم «راون» كيف تمكن حانومان من التوغل فى البحار والأنهار والوصول الى سيلان ومقابلة سيتا فى السجن واحراق جزء كبير من سيلان فى هذه المغامرة . فاستدعى وزراءه ومستشاريه ليعقد مجلسا للتشاور معهم حول موضوع حانومان وأخباره ، وعن استعداد راما للزحف نحو سيلان، ومحاربة راون لانقاذ سيتا . فأشار عليه معظمهم بالصمود أمام راما ومحاربته وتوجيه الهزيمة الى جيشه ، الا أن بعض المخلصين له أشاروا عليه بتسليم سيتا الى راما ومسالمته ، ولكنه رفض رأيهم متمسكا برأى الأغلبية . وكان من بين هؤلاء المخلصين «ببهشان» « وأخوراون » نفسه وهو «كومباكارانا» فاضطر « ببهشان » بعد رفض رأيه الى مغادرة سيلان والانضمام الى صفوف راما وبهذا أطلع راما على أسرار بالغة الخطورة فيما يتعلق بالحرب مع روان .

وبعد أن تم الاستعداد زحف راما الى سيلان يصحبه جيش جرار لم يسبق له مثيل ، واشترك فى هذه المعارك أعظم القواد والأبطال ومن بينهم أخوه «لشمن» البطل . ولما وصلوا الى سيلان أعلنوا الحرب على راون لاستعادة سيتا . وقدواجه راون القوة بالقوة ودارت بين الفريقين معارك دامية سقط فيها أعظم القواد والأبطال لراون حين هجم كل منهما بجيشه بهجمات عنيفة موقعة على جيش الآخرين ، فقد هجم أخو راون ثلاث مرات على جيش راما وكذلك فعل « اندراجت » ابن راون .

سجلت هذه المعارك مشاهد رائعة لايزال يرددها أبناء الهند كملحمة مقدسة . وهذه المعارك وحدها قد ترجمت الى عدة لغات ومن بينها اللغة الانجليزية بسبب وصفها الرائع للمعارك والمشاهد العظيمة للحرب المقدسة . لقد هجم راون مرتين على لشمن وهزمه فى كل مرة ولكن لشمن لم يقع فى يده . أما راما فقد حارب كبطل من الأبطال وهزم فى كل مرة كل من قابله ولم يذق طعم الهزيمة مرة من المرات طوال المعارك .

كان ابن راون ساحرا كبيرا . وقد استعرض الألعاب السحرية فى هذه المعارك واختفى عن عيون راما وأخيه لشمن وهزمهما مرات عديدة ؛ ولكنه لم يستمر فى سحره مدة طويلة بل سرعان ما قتله لشمن. وكذلك قتل راون بسيف راما أخيرا ،وبقتله انتهت المعارك وانتصر راما .

وتصف هذه الملحمة أن الآلهة كلهم كانوا مع راما فى هذه الحرب يساعدونه ويشدون أزره ويشجعونه . ولذلك انتصر على راون الشرير . ثم أمر راما باحراق جثة راون . فوضعت أكوام من الخشب والصندل والزيت والروائح عليها ،وأشعلت النيران فيها حتى تحولت جثته الى رماد .

ثم استقبل راما « سيتا » ولكنه لم يقربها خوفا من الاشاعات التى أثيرت حول علاقتها براون وذلك بسبب اقامتها فى قصره وسيطرته عليها مدة غير يسيرة . وقد أدركت سيتا هذه الحقيقة ولذلك طلبت الى لشمن اعداد نار حامية لتلقى فيها نفسها حتى تثبت طهارتها وعفتها . فأعدت النار وألقت سيتا نفسها فيها ولكن « اله النار » حفظها من كل سوء وخرجت بريئة طاهرة من النار . فتوجه اليها راما وعانقها . ثم أمر باعداد جهاز السفر الى أيودهيا اذ انقضت الأربع عشرة سنة فى الغابات وحان بذلك الرحيل الى بلاده . وقبل مغادرته سيلان سلم سيلان التى فتحها الى « سوجريفا» الذى ساعده فى هذه المهمة لأنه وعده بذلك أثناء اقامتهما فى الغابة أيام المحنة .

وقد أعدت العدة للرحيل وخرجت القافلة الى أيودهيا مارة بالغابات والأنهار التى عاش فيها راما أيام محنته . ولما وصلت أنباء قدومه الى أيودهيا زينت البلاد بأجمل الزينات ، وأقيمت الحفلات لاستقبال العائدين من الأبطال . ولما دخل راما عاصمته تدفقت عليه الجماهير من كل جانب ترحب به وبمن معه ، وتهتف باسمه ، وتقدم له تحياتها وتهانيها . فقدمه بهارت الى العرش وأخذ أحذيته. ثم قدم عليه الناس يهنئونه ويباركون كفاحه ومن بينهم أمهاته وأخوته جميعا .

انتشرت الاشاعات مرة أخرى حول سيتا واقامتها فى سيلان تحت سيطرة راون.فأمرها راما بمغادرة القصر الى الغابة والاقامة فيها الى أن تعرض مرة أخرى مايثبت طهارتها وعفتها . فخرجت من قصرها الى الغابة ولجأت الى الراهب « والميكى » ومعها ولداها اللذان رباهما الراهب تربية رهبانية وفى هذه الغابة ماتت سيتا قبل أن يتم بينها وبين راما لقاء آخر .

حكم راما أيودهيامدة طويلة من الزمان.وعاش الشعب فى حكمه عيشة راضية طيبة تســـــودها الطمأنينة والرفاهية والأمن والسلام . ولم يمسهم سوء طوال أيامه فى الحـــــكم . وارتفعت قيمهم المعنوية بامتثالهم أمره لأنهم اعتقدوه انسانا مثاليا فحذوا حذوه ذراعا بذراع وشبرا بشبر فى الخير والشر ، ثم صيروه شخصية أســطورية والهـا من الآلهة .

واليكم مشهد من أصل « الرامايانا » كنموذج لأسلوب الرامايانا ومنهجه وعرضه . وهذا المشهد فى الحقيقة مشوق ومثير يصور حياة راما فى الغابة وحضور أخيه «بهارت» اليه ليحمله على العــودة الى البلاد . ومن الجـــدير بالذكر أن ملحمـــة «الرامايانا» تتكون من نوعين من المقاطع : المقطع الأول يسمى « شاباى » (Chaupai) بالسنسكريتية وهو يتكون من ثمانية أبيات حيث ينتهى الى ختام حديث أو فكرة ثم يليه « دوها » (Doha) وهو النوع الثانى ــ الذى يتكون من بيتين كتـــكملة لشـــاباى .

شاباى [1] ٢٤٠

قام بهارت بين يدى أخيه «راما» وأخيه الآخر ومع صديق له ، ثم وقف صامتا احتراما ، وقلبـــه خال من كل تفكير يشوبه من فرح أو حزن ، كأنه فى عبادة . ثم قال لأخيه : اغفرلى ياسيدى واعف عنى ثم وقـــع على قدميه كقطعة هـــامدة من الخشب .

وقدشعر «لشمن» ــ المسكين ــ بالذى يقصده بهارت وخيل اليه أنه فى عبادة الآن . ولا يمكنـــه أن يقترب منه أو يعانقه . فقد أصبح فى حيرةشديدة بين شيئين يشده كل منهما الى جانبه : الأول أنه ينبغى له أن يقدم خدماته ويؤدى واجبـــاته نحو أخيه راما . والثانى أنه يحب أخاه بهارت أيضا . وهذا الحب يشده هو الآخر اليه شـــــدا عنيفا . فأيهما يختار؟ لقد أصبح الآن كطفل يلعب بطيـــارة ويشدها الى جانبه لتقويم ميزانها . وأخيرا ركـــع بين يدى راما وقال له : هاهو ذا بهارت جاء اليـــك ليحيئك . فاستفاق راما من غيبوبته ، وحطم سكوته وقفز الى جانب بهارت راميا كل ماكان فى يـــده من قوس ورمح وجعبة وعباءة .

دوهـــا

هذا الرجل العطوف الرحيم قد وضع يده على قلبأخيه «بهارت» بعد أن فاض قلبه ولم يتمـــالك عواطفه فعانقه معانقة حارة . وهذا المشهد المثـــير قد حرك قلوب الناس جميعا .

شاباى ٢٤١

لايمكن لأحد من الشعراء مهما بلغ أمره أن يصف أو يعبر عن هذا الحب المتفـــانى ، ولا ذلك اللقاء الحار لأنهما فوق التصور وفوق الأســـباب وفوق التفكير وفوق مايدور بخلد انسان .

وأنا الشاعر لا أستطيع أن أعبر عن مـــدى حبهما بسبب عجزى كانسان ضعيف . ان الشاعر يبذل جهده ولكنه لايجد لمثل هذا الموقف تشبيها كاملا وكل مايستطيعه أن يأتى بهذه الكلمات أو تلك التعبيرات لوصف مايدور فى قلبه وصفا صادقا كما أن الراقصة تعرض رقصتها فى نطاق محدود لها لاتخرج عنه . والحقيقة أن حب هؤلاء الاخـــــوة كفيض لانهاية له وكبحر لاحدود له . ولا يـــكن كشف غوامضه حتى لأى كاهن أو ساحر .

ولأجل ذلك لايمتلك عقلى مايصور به ولالسانى مايعبر به تعبيرا صادقا ومثلى كمثل موسيقــــار يعجز عن ايجاد نغمات جميلة بوتر من الحشيش .

حينما التقى كل من راما وبهارت تســاقطت

[1] قد اخترنا هـذا الفصل من أصل الرامايانا من ترجمة الباحث الهندوكى الشهير « تولسيداس » ((Tulsidas)) من الجزء الثانى ص ٧٣٢ــ٧٣٥ .

الآلهة اضطرابا وارتعشت خشية ورهبة ، ولــكن سيدهم أيقظهم من ســكرتهم الحــائرة فقــاموا يسطرون الأزهار والورود على أولئــك الاخوة ويمجدونهم ويقرظونهم .

دوها

رحب راما بـ « شــاتروجانا » ــ شــقيق بهارات ــ ثم بالملاح كما رحب « لشمن » بدوره بأخيه بهارت مبديا له حبه وسروره .

شاباى ٢٤٢

ورحب « لشمن » بشاتروجانا بكلمات رقيقة صادقة مخلصة ، ثم رحب بالملاح بنفس الطريقة. ثم ســلم الاخوة القــادمون على كل راهب من الرهبان الموجودين . فدعا لهم الرهبان بالتوفيق والسداد . ثم غمــرهم السرور وعمتهم الفــرحة بدون حدود . وأخيرا اتجه « بهارت » مع أخيه الى سيتا وهما فى غاية من الشوق والحنان وركعا أمامها حتى مس جبينهما تراب قدميها وأعربا لهــا عن تقديرهما وشوقهما وطلب بهارت منها العفو . فرفعت ستيا جبينهما من التــراب وأجلســـتها بجوارها . فأعرب كل منهما عن تقديره وشــوقه مرة أخرى . فدعت لهما سيتا من أعماق قلبها أذ غمرتها المحبة والعطف نحوهما بغــير حدود حتى أصبحت لا تملك الكلمات التى تعبر بها عما يختلج فى نفسها نحوهما . فلما رأى بهارت محبة سيتا وشوقها له ذهب عنه الروع وعاد له شعوره ووعيه فاطمأن قلبه وهدأ باله واستراح ضميره .

ثم ساد المكان الهدوء والصمت الرهيب ،ولم ينطق أحد بكلمة بل ظل الجمع ساكتا صـــامتا لأن قلوبهم قد غمرتها الفــرحة والبهجة والسرور وأصبحوا كأنهم نسوا أنفسهم . وفى هذه اللحظة حطم الملاح سكوتهم اذ قــدم بين أيديهم طلبــه بخضوع وأدب موجها كلامه الى راما .

دوها

يا سيدى ! قد حضرت اليك الملــكة ــ أمك وقائد الجيش والوزير والخدم وجماهير شــعب المدينة . وأيضا جاءك الراهب الكبير « واشست» بعد أن عاشوا جميعا فى قلق واضــطراب وحزن على غيابك زمنا طويلا وهم يطلبون الآن عفــوك وكرمك .

فهــرس المجــلد الــرابع

من :

تراث الإنسانية

ويشمل :

١ ـ فهرست الكتب

٢ ـ فهرست المؤلفين

٣ ـ فهرست بأسماء الباحثين

الكتب

المؤلفون

الباحثون


جلجامش